فتوح الشام

تأليف

أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدى

أول ، وثانى

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

فتوح الشام

تأليف

أبى عبد الله محمـد بن عمر الواقدى

(المتوفى ببغداد سنة ٢٠٧ هـ)

الجزء الأول



مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م — رقم ٥٣٢

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

[قال الامام الواقدى] رحمه الله تعالى آمين : حدثنى أبو بكر محمد بن الحسن بن سفيان بن نوفل بن محمد بن ابراهيم التيمى ، ومحمد بن عبد الله الانصارى ، وأبوسعيد مولى هشام ومالك بن أبى الحسن واسمعيل مولى الزبير ومازن بن عوف من بنى النجار ، كلّ حدث عن فتوح الشام بما كان ، قالوا جميعا : انه لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف بعده أبو بكر الصديق رضى الله عنه قتل فى خلافته مسيلمة الكذاب الذى ادّعى النبوّة ، وقاتل بنى حنيفة ، وأهل الردّة وأطاعته العرب ، فعزم أن يبعث جيشه الى الشام وصرف وجهه لقتال الروم فجمع أصحاب رسول ﷺ فى المسجد وقام فيهم خطيبا فحمد الله عزّ وجل ، وقال : يأيها الناس رحمكم الله تعالى : اعلموا أن الله فضلكم بالاسلام وجعلكم من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وزادكم ايمانا ويقينا ونصركم نصرا مبينا ، وقال فيكم ـ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ـ واعلموا أن رسول الله ﷺ كان عوّل أن يصرف همته الى الشام فقبضه الله اليه واختار له مالديه ، ألا وانى عازم أن أوجه أبطال المسلمين الى الشام بأهليهم ومالهم فان رسول الله ﷺ أنبأنى بذلك قبل موته ، وقال «زويت لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها» ، فما قولكم فى ذلك ؟ . فقالوا ياخليفة رسول الله مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت ، فان الله تعالى فرض علينا طاعتك . فقال تعالى ـ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ـ ففرح أبو بكر رضى الله عنه . ونزل عن المنبر وكتب الكتب الى ملوك اليمن وأهل مكة وكانت الكتب فيها نسخة واحدة . وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليكم .

[أما بعد] فانى أحمد الله الذى لا إله الا هو ، وأصلى على نبيه محمد ﷺ ، وقد عزمت أن أوجهكم الى بلاد الشام لتأخذوها من أيدى الكفار والطغاة فمن عوّل منكم على الجهاد والصدام ، فليبادر الى طاعة الملك العلام ، ثم كتب ـ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ـ الآية ، ثم بعث الكتب اليهم وأقام ينتظر جوابهم وقدومهم ، وكان الذى بعثه بالكتب التى لليمن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فما مرت الأيام حتى قدم أنس

رضى الله عنه يبشره بقدوم أهل اليمن وقال : ياخليفة رسول الله وحقك على الله ماقرأت كتابك على أحـد الا و بادر الى طاعة الله ورسوله ، وأجاب دعوتك وقد تجهزوا فى العدد والعديد والزرد النضيد ، وقد أقبلت اليك ياخليفة رسول الله مبشرا بقدوم الرجال ، وأى رجال ، وقد أجابوك شعثا غبرا وهم أبطال اليمن وشجعانها ، وقد ساروا اليك بالذرارى والأموال والنساء والأطفال ، وكأنك بهم وقد أشرفوا عليك ووصلوا اليك فتأهب الى لقائهم . قال فسر أبو بكر رضى الله عنه بقوله سرورا عظيما ، وأقام يومه ذلك حتى اذا كان من الغد أقبلوا الى الصديق رضى الله عنه وقد لاحت غبرة القوم لاهل المدينة . قال فأخبروه فركب المسلمون من أهل المدينة وغيرهم وأظهروا زينتهم وعددهم ونشروا الاعـلام الاسلامية ورفعوا الألوية المحمدية فما كان الاقليل حتى أشرفت الـكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضا ، قوم فى أثر قوم وقبيلة فى أثر قبيلة ، فـكان أوّل قبيلة ظهرت من قبائل اليمن حمير وهم بالدروع الداودية والبيض العادية والسيوف الهنـدية وأمامهم ذوالـكلاع الحميرى رضى الله عنه . فلما قرب من الصديق رضى الله عنه أحبّ أن يعرّفه بمكانه وقومه وأشار بالسلام وجعل ينشد ويقول :

أتتـك حـمـير بالأهلين والولد ... أهل السوابق والعالون بالرتب
أسد غطارفة شوس عمالقـة ... يردوا الـكماة غدا فى الحرب بالقضب
الحرب عادتنا والضرب همتنا ... وذوالـكلاع دعا فى الأهل والنسب
دمشق لى دون كل الناس أجمعهم ... وسا كنيها سأهويهم الى العطب

قال فتبسم أبو بكر الصديق رضى الله عنـه من قوله ، ثم قال لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ياأبا الحسن أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اذا أقبلت حمير ومعها نساؤها تحمل أولادها فابشر بنصر الله على أهل الشرك أجمعين » . فقال الامام علىّ صـدقت وأنا سمعته من رسول الله ﷺ . قال أنس رضى الله عنه : وسارت حمير بكتائبها وأموالها وأقبلت من بعدها كتائب مذحج أهل الخيـل العتاق والرماح الدقاق ، وأمامهم سيدهم قيس بن هبيرة المرادى رضى الله عنه ، فلما وصل الى الصديق رضى الله عنه جعل يقول صلوا على طه الرسول :

أتتـك كتائب منا سراعا ... ذوو التيجان أعنى من مراد
فقـدمنا أمامك كى ترانا ... نبيد القوم بالسيف النجادى

قال فجزاه أبو بكر رضى الله عنه خيرا وتقدّم بكتائبه ومواليه ، وتقدّمت من بعده قبائل طىّ يقدمها حارث بن مسعد الطائى رضى الله عنه ، فلما وصل همّ أن يترجل فاقسم عليه أبو بكر رضى الله عنه بالله تعالى أن لاتفعل فدنا منه فصافحه وسلم عليه وأقبلت الأزد فى جموع كثيرة يقدمها جندب بن عمرو الدوسى رضى الله عنه ، ثم جاءت من بعدهم بنو عبس يقدمهم الأمير ميسرة بن مسروق العبسى رضى الله عنه ، وأقبلت من بعـدهم بنو كنانة يقدمهم غيثم بن أسلم الـكنانى وتتابعت قبائل اليمن يتلو بعضها بعضا ومعهم نساؤهم وأموالهم ، فلما نظر أبو بكر رضى الله عنه الى نصرتهم سر بذلك وشكر الله تعالى وأنزل القوم حول المدينة كلّ قبيلة متفرقة عن صاحبتها واستمروا فأضرّ بهم المقام من قلة الزاد وعلف الخيل وجدوبة الأرض فاجتمع أكابرهم عنـد الصديق رضى الله عنه ، وقالوا ياخليفة رسول الله انك أمرتنا بأمر فأسرعنا لله ولك رغبة فى الجهاد

وقد تكامل جيشنا وفرغنا من أهبتنا ، والمقام قد أضرّ بنا لأن بلدك ليست بلد جيش ، ولا حافر ولا عيش ، والعسكر نازل فان كنت قد بدلت فيما عزمت عليه فأمرنا بالرجوع الى بلدنا وأقبل الجميع وخاطبوه بذلك ، فلما فرغوا من كلامهم قال أبو بكر رضى الله عنه : ياأهل اليمن ، ومن حضر من غيرهم : أما والله ماأريد لكم الاضرار ، وانما أردنا تكاملكم ، قالوا انه لم يبق من ورائنا أحد فاعزم على بركة الله تعالى .

[قال المؤلف رحمه الله تعالى] لقد بلغنى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قام من ساعته يمشى على قدميه وحوله جماعة من الأصحاب منهم عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين ، وخرجوا الى ظاهر المدينة ووقع النداء فى الناس وكبروا بأجمعهم فرحا لخروجهم ، وأجابتهم الجبال لدوىّ أصواتهم ، وعلا أبو بكر على دابته حتى أشرف على الجيش فنظر اليهم قد ملئوا الارض فتهلل وجهه ، وقال : اللهم أنزل عليهم الصبر وأيدهم ولا تسلمهم الى عدوّهم ـ انك على كل شىء قدير ـ وكان أوّل من دعاه أبو بكر يزيد بن أبى سفيان وعقد له راية وأمّره على ألف فارس من سائر الناس ودعا بعده رجلا من بنى عامر بن لؤى يقال له ربيعة بن عامر ، وكان فارسا مشهورا فى الحجاز فعقد له راية وأمّره على ألف فارس ، ثم أقبل أبو بكر على يزيد بن أبى سفيان ، وقال له هذا ربيعة بن عامر من ذوى العلا والمفاخر قد علمت صولته وقد ضممته اليك وأمّرتك عليه فاجعله فى مقدمتك وشاوره فى أمرك ولا تخالفه . فقال يزيد حبا وكرامة وأسرعت الفرسان الى لبس السلاح واجتمع الجند وركب يزيد بن أبى سفيان ، وربيعة بن عامر وأقبلا بقومهما الى أبى بكر رضى الله عنه فأقبل يمشى مع القوم . فقال يزيد ياخليفة رسول الله : الناجى من غضب الله من رضيت عنه لا نكون على ظهور خيولنا ، وأنت تمشى فاما أن تركب واما أن ننزل . فقال ما أنا براكب وما أنتم بنازلين ، وسار الى أن وصل الى ثنية الوداع فوقف هناك فتقدم اليه يزيد فقال ياخليفة رسول الله أوصنا ، فقال اذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك فى مسيرك ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك وشاورهم فى الأمر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فانه لاأفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوّهم ، ـ واذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرّفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ـ واذا نصرتم على عدوّكم فلا تقتلوا ولدا ولا شيخا ولا امرأة ولا طفلا ولا تعقروا بهيمة الا بهيمة المأكول ولا تغدروا اذا عاهدتم ولا تنقضوا اذا صالحتم ، وستمرون على قوم فى الصوامع رهبانا يزعمون أنهم ترهبوا فى الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم وستجدون قوما آخرين من حزب الشيطان وعبدة الصلبان قد حلقوا أوساط رؤوسهم حتى كأنها مناحيض العظام فاعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا الى الاسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وقد استودعتكم الله ثم عانقه وصافحه وصافح ربيعة بن عامر ، وقال ياعامر أظهر شجاعتك على بنى الأصفر بلغكم الله آمالكم ، وغفر لنا ولكم . قال وسار القوم ورجع أبو بكر رضى الله عنه بمن معه الى المدينة قال جدّ القوم فى السير ، فقال ربيعة بن عامر ماهذا السير يايزيد ، وقد أمرك أبو بكر أن ترفق بالناس فى سيرك . فقال يزيد ياعامر ان أبا بكر رضى الله عنه سيعقد العقود ويرسل الجيوش فأردت أن أسبق الناس الى الشام فلعلنا أن نفتح فتحا قبل تلاحق الناس بنا فيجتمع بذلك

ثلاث خصال رضاء الله عزّ وجل ، ورضاء خليفتنا ، وغنيمة تأخذها . فقال ربيعة فسر الآن ولاحول ولاقوّة الابالله العلىّ العظيم . قال فأخذ القوم فى السيرعلى وادى القرى ليخرجوا على تبوك ثم على الجابية الى دمشق . قال واتصل الخبر للملك هرقل من قوم من عرب اليمن المتنصرة كانوا فى المدينة ، فلما صح عند الملك ذلك جمع بطارقته فى عسكره ، وقال لهم يابنى الأصفر : ان دولتكم قد عزمت على الانهزام ، ولقد كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتقيمون الصلاة وتؤتون الزكاة التى أمركم بها الآباء والاجداد والقسس والرهبان ، وتقيمون حدود الله التى أمركم بها فى الانجيل لاجرم أنكم ماقصدكم ملك من ملوك الوشاة ونازعكم على الشام الاوقهرتموه ولقد قصدكم كسرى بجنود فارس فانكسروا على أعقابهم ، والآن قد بدّلتم وغيرتم فظلمتم وجرتم ، وقد بعث اليكم ربكم قوما لم يكن فى الأمم أضعف منهم عندنا ، وقد رمتهم شدّة الجوع الينا وأتى بهم الى بلادنا و بعثهم صاحب نبيهم ليأخذوا ملكنا من أيدينا ويخرجونا من بلادنا ، ثم انه حدثهم بالذى سمعه من طرسيسه . فقالوا أيها الملك نردّهم عن مرادهم ونصل الى مدينتهم ونخرب كعبتهم . قال فلما سمع مقالتهم وتبين اغتياظهم جرد منهم ثمانية آلاف من أشجع فرسانهم وأمّر عليهم خمسة من بطارقتهم ، وهم البطاليق وأخوه جرجيس وصاحب شرطته ولوقا بن سمعان وصليب بن حنا صاحب غزة ، وكانت هذه الخمسة البطارقة يضرب بهم المثل فى الشجاعة والبراعة ، ثم تدرعوا وأظهروا زينتهم ، وصلت عليهم الأمة صلاة العصر . فقالوا : اللهم انصر من كان منا على الحق وبخروهم ببخور الكنائس ، ثم رشوا عليهم من ماء العمودية وودعوا الملك وساروا وأمامهم العرب المتنصرة يدلونهم على الطريق . قال حدثنى رفاعة عن ياسر بن الحصين . قال بلغنى أن أوّل من وصل الى تبوك كان يزيد بن أبى سفيان وربيعة بن عامر ومن معهما من المسلمين قبل وصول الروم بثلاثة أيام ، فلما كان فى اليوم الرابع والمسلمون قد هموا بالرحيل الى الشام اذ أقبل جيش الروم ، فلما رآه المسلمون أخذوا على أنفسهم وكمن ربيعة بأصحابه الألف وأقبل يزيد بأصحابه الألف ووعظهم وذكر الله تعالى . وقال لهم اعلموا أن الله وعدكم بالنصر وأيدكم بالملائكة ، وقال الله تعالى فى كتابه العزيز — كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين — وقد قال ﷺ « الجنة تحت ظلال السيوف » وأنتم أوّل جند دخل الشام وتوجه لقتال بنى الأصفر فكأنكم بجنود الشام ، واياكم ان تطمعوا العدوّ فيكم وانصروا الله ينصركم ، فبينما يزيد يعظ الناس واذا بطلائع الروم قدأقبلت وجيوشها قد ظهرت فلما رأوا قلة العرب طمعوا فيهم وظنوا أنه ليس وراءهم أحد فبربر بعضهم على بعض بالرومية وقالوا دونكم ومن يريد أخذ بلادكم واستنصروا بالصليب فانه ينصركم ، ثم حملوا وتلقاهم أصحاب رسول الله ﷺ بهمم عالية وقلوب غير دانية ودار القتال بينهم وتكاثرت الروم عليهم وظنوا أنهم فى قبضتهم اذ خرج عليهم ربيعة بن عامر رضى الله عنه بالكمين ، وقد أعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، وحملوا على الروم حملة صادقة ، فلما عاينت الروم من خرج عليهم انكسروا ، وألقى الله الرعب فى قلوبهم فتقهقروا الى ورائهم ونظر ربيعة بن عامر الى البطاليق وهو يحرض قومه على القتال فعلم أنه طاغية الروم فحمل عليه وطعنه طعنة صادقة فوقعت فى خاصرته وطلعت من الناحية الأخرى ، فلما نظر الروم الى ذلك ولوا الأدبار وركنوا

الى الفرار ونزل النصر على طائفة محمد المختار **حدثنا** سعد بن أوس عن السرية التى أنفذها أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه مع يزيد بن أبى سفيان وربيعة بن عامر ، قال قد اجتمعا بعساكر الروم فى أرض تبوك مع البطاليق وهزمهم الله تعالى على أيدينا ، وكان جملة من قتل منهم ألفا ومائتين ، ومن قتل من المسلمين مائة وعشرين رجلا . قال وان القوم لما انهزموا قال لهم جرجيس وهو أخو المقتول ياويلكم بأىّ وجه ترجعون الى الملك ، وقد عملوا فينا عملا ذريعا ، وملئوا الأرض من قتلانا ولا أرجع حتى آخذ بثأر أخى أوالحق به . قال واجتمع القوم وسمعوا منه ذلك ورجع بعضهم الى بعض وعادوا الى القتال ، فلما استقرّوا فى خيامهم بعثوا رجلا من العرب المتنصرة اسمه القدّاح ، وقالوا له امض الى بنى عمك وقل لهم يبعثوا الينا رجلا من كبارهم وعقلائهم حتى ننظر مايريدون منا . قال فركب القدّاح جواده وأقبل نحو جيش المسلمين ، فلما رأوه مقبلا اليهم استقبله رجال من الأوس وقالوا له ماذا تريد ؟ قال لهم ان البطارقة يريدون رجالا من عقلائكم ليخاطبوهم فيما يريد الله به صلاح شأن الجمعين . قال فأخبروا يزيد وربيعة بما قال المتنصر . فقال ربيعة بن عامر أنا أسير الى القوم . فقال يزيد ياربيعة أنا أخاف عليك من القوم لأنك قد قتلت كبيرهم بالأمس . فقال ربيعة — قل لن يصيبنا الاما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون — وانى أوصيك والمسلمين أن تكون همتكم عندى فاذا رأيتم القوم غدروا بى فاحملوا عليهم ثم ركب جواده وسارحتى أتى جيش الروم وقرب من سرادق أميرهم . فقال القداح : عظم جيش الملك وانزل عن جوادك . فقال ربيعة رضى الله عنه ما كنت بالذى أنتقل من العز الى الذل ولست أسلم جوادى لغيرى وما أنا بنازل الاعلى باب السرادق والارجعت من حيث جئت لأننا مابعثنا اليكم ، بل أنتم بعثتم الينا قال فأعلم القداح الروم بما تكلم به ربيعة بن عامر . فقال بعضهم لبعض صدق العربى فى قوله دعوه ينزل حيث أراد قال فنزل ربيعة على باب السرادق وجثا على ركبته وأمسك عنان جواده بيده وسلاحه . فقال له جرجيس ياأخا العرب لم تكن أمة أضعف منكم عندنا وما كنا نحدث أنفسنا انكم تغزوننا وما الذى تريدون منا ؟ فقال ربيعة نريد منكم أن تدخلوا فى ديننا ، وأن تقولوا بقولنا ، وان أبيتم تعطونا الجزية عن يد وأنتم صاغرون والا فالسيف بيننا وبينكم . فقال جرجيس فما منعكم أن تقصدوا الفرس وتدعون الصداقة بيننا وبينكم ؟ . فقال ربيعة بدأنا بكم لأنكم أقرب الينا من الفرس ، وان الله تعالى أمرنا فى كتابه بذلك قال الله تعالى — ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة — قال جرجيس : فهل لك أن تعقد الصلح بيننا وبينكم وأن نعطى كل رجل منكم دينارا من ذهب وعشرة أوسق من الطعام وتكتبوا بيننا وبينكم كتاب الصلح لاتغزون الينا ولا نغزوا اليكم . قال ربيعة لاسبيل الى ذلك وما بيننا وبينكم الا السيف أو أداء الجزية أو الاسلام . قال جرجيس : أماماذكرت من دخولنافى دينكم فلا سبيل الى ذلك ولونهلك عن آخرنا لأننا لانرى لديننا بدلا . وأما اعطاء الجزية فان القتل عندنا أيسر من ذلك ، وما أنتم بأشهى منا الى القتال والحرب والنزال لأن فينا البطارقة وأولاد الملوك رجال الحرب وأرباب الطعن والضرب . قال جرجيس لأصحابه علىّ بأنفس صقالبة حتى يناظروا هذا البدوى فى كلامه . قال وكان الملك هرقل قد بعث معهم قسيسا عظيما عارفا بدينهم مجادلا عن شرعهم . قال فأتى الحاجب به ، فلما استقر به

الجلوس قال له جرجيس يا أبانا استخبر من هذا الرجل عن شريعتهم ، وعن دينهم . فقال القسيس يا أخى العرب انا نجد فى علمنا أن الله تعالى يبعث من الحجاز نبيا عربيا هاشميا قرشيا علامته أن الله تعالى يسري به الى السماء أكان ذلك أم لا ، قال نعم أسرى به ، وقد ذكره ربنا فى كتابه العزيز بقوله تعالى ــ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ــ قال القسيس انا نجد فى كتابنا أن ربنا يفرض على هذا النبي وأمته شهرا يصومونه يقال له شهر رمضان . قال ربيعة نعم ، وقد قرأنا فى القرآن العظيم ــ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان ــ فقال القسيس إنا وجدنا فى كتابنا أن من أحسن حسنة تكتب بعشرة . قال ربيعة نعم قال الله تعالى ــ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لايظلمون ــ قال القسيس انا نجد فى كتابنا أن الله يأمر أمته بالصلاة عليه . قال ربيعة نعم : وقد قال الله فى كتابه العزيز ــ ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ــ قال فعجب القسيس من كلامه وقال للبطارقة أن الحق مع هؤلاء القوم . فقال بعض الحجاب ان هذا هو الذى قتل أخاك . فلما سمع ذلك ازورّت عيناه وغضب غضبا شديدا وهمّ ان يثب على ربيعة ففهم ربيعة ذلك منه فوثب من مكانه أسرع من البرق وضرب بيده الى قائم سيفه وعاجل جرجيس بضربة جندله صريعا قتيلا ووثب على فرسه فركبها فأسرعت البطارقة إليه وهو راكب فحمل فيهم ونظر يزيد بن أبي سفيان الى ذلك . فقال للمسلمين ان أعداء الله قد غدروا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدونكم واياهم ، فحمل المسلمون على المشركين واختلط الجيش بالجيش وصبرت الرّوم لقتال العرب فبيناهم فى القتال اذ أشرفت جيوش المسلمين مع شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نظر المسلمون الى اخوانهم فى القتال حملوا على القوم حملة صادقة وحكمت سيوفهم فى قمم الروم .

[قال الواقدى] لقد بلغنى أن الثمانية آلاف المذكورة من الروم لم ينج منهم أحد لأن العرب التقطوهم بسبق الخيل و بعد الشام من تبوك ، ثم ان المسلمين أخذوا أموالهم وخيامهم ، ثم سلموا على شرحبيل ومن معه وجمعوا المال والغنائم . فقالوا نبعث الجميع الى أبي بكر الصديق رضى الله عنه فرضوا بذلك و بعثوا الجميع الا العدّة والسلاح ، و بعثوا مع الغنائم والأموال شدّاد بن أوس رضى الله عنه فى خمسمائة فارس ، ولما أن وصل بالمال الى المدينة المنوّرة وعاين المسلمون أموال المشركين رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ، والصلاة على البشير النذير محمد ﷺ ، وسمع الصديق بقدوم شدّاد بن أوس رضى الله عنه ومن معه من المسلمين ففرح بذلك فرحا شديدا ، ثم أقبلوا الى الصدّيق وأعلموه بالفتح بعد أن سلموا عليه فسجد لله عزّ وجل ، ثم كتب كتابا الى أهل مكة يستدعيهم بالجهاد مضمونه : بسم الله الرحمن الرحيم من أبي بكر الى أهل مكة وسائر المؤمنين فانى أحمد الله الذى لااله الا هو ، وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

[أما بعد] فانى قد استنفرت المسلمين الى الجهاد وفتح بلاد الشام ، وقد كتبت اليكم والى المسلمين أن تسرعوا الى ما أمركم به ربكم تبارك الله وتعالى : اذ يقول الله عزّ وجل ــ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ــ وهذه

الآية فيكم وأنتم أحق بها وأهلها ، وأول من صدق وقام بحكمها من ينصر دين الله فالله ناصره «ومن بخل استغنى الله عنه والله غني حميد» فسارعوا الى جنة عالية قطوفها دانية أعدها الله للمهاجرين والأنصار ، فمن اتبع سبيلهم كتب من الأولياء الأخيار ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قال وختم الكتاب ودفعه الى عبد الله بن حذافة ، فأخذه وسار حتى وصل مكة وصرخ في أهلها ، فاجتمعوا اليه فدفع اليهم الكتاب فقرءوه على أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما سمعوه قام سهل ابن عمرو والحرث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل ، وقالوا : أجبنا داعي الله وصدقنا قول نبيه محمد ﷺ ، فأما عكرمة فانه قال الى متى نبسط لأنفسنا وقد سبقنا القوم الى المواطن ، وقد فاز من فاز بالصدق ، وان كنا تأخرنا عن السبق فاللحاق السباق فلعلنا نكتب في الحال ، ثم خرج عكرمة ابن أبي جهل في بني مخزوم وخرج الحرث بن هشام معهم وتلاحق أهل مكة خمسمائة رجل ، وكتب أبو بكر للطائف فخرجوا في أربعمائة رجل .

[قال الواقدي] خرج بهم سعيد بن خالد بن سعيد بن العاص وكان غلاما نجيبا ، وذلك أن سعيد بن خالد أتى الى الصديق رضي الله عنه . فقال : ياخليفة رسول الله ﷺ انك أردت أن تعقد لأبي خالد راية ويكون قائدا من قواد جيشك ، فتكلم فيه المتكلمون فعزلته حين رجع من بعثك ، وقد حبس نفسه في سبيل الله عز وجل ولم أزل مجيبا دعوتك في بعثك ، فهل لك أن تقدمني على هذا الجيش ، فوالله لايراني الله وانيا أبدا ولا عاجزا عن الحرب ، قال وكان سعيد بن خالد غلاما نجيبا أنجب من أبيه وأفرس ، فعقد له أبو بكر راية ودفعها اليه وأمره على ألفين من العرب . قال فلما سمع عمر بن الخطاب كلام سعيد بن خالد وأنه خير من أن يكون أميرا كره له ذلك وأقبل على الصديق رضي الله عنه . وقال : ياخليفة رسول الله عقدت هذه الراية لسعيد بن خالد على من هو خير منه ، ولقد سمعته يقول عند ماعقدتها على رغم الأعادي والله لتعلم أنه مايريد بالقول غيري ، والله ماتكلمت في أبيه .

[قال الواقدي] فثقل ذلك على أبي بكر وكره أن لا يعقد له ، وكره أيضا أن يخالف عمر لمحبته له ونصحه ومنزلته عند النبي ﷺ ووثب قائما ، ودخل على عائشة رضي الله عنها وأخبرها بخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما كان من كلامه . فقالت عائشة : قد علمت أن عمر ينصر الدين ويريد النصر لرب العالمين ، ومافي قلب عمر بغض للمسلمين . قال فقبل قول عائشة رضي الله عنها ، ثم دعا بأزد الدوسي وقال له : امض الى سعيد بن خالد وقل له رد علينا رايتك . قال فردها ، وقال والله لأقتلن تحت راية أبي بكر حيث كان ، فاني قد حبست نفسي في سبيل الله .

[قال الواقدي] ولقد بلغني أن الصديق حال تفكره فيمن يقدم طليعة الجيش . قال فتقدم اليه سهل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وهشام بن الحرث ، وقالوا اشهدوا أننا قد حبسنا أنفسنا في سبيل الله فلا نرجع عن القتال أبدا . فقال أبو بكر : اللهم بلغهم أفضل مايؤملون . ثم ان أبا بكر دعا عمرو بن العاص . فسلم اليه الراية وقال قد وليتك على هذا الجيش : يعني أهل مكة والطائف وهوازن و بني كلاب فانصرف الى أرض فلسطين ، وكاتب أبا عبيدة وأنجده اذا أرادك ولا تقطع أمرا الا بمشورته : امض بارك الله فيك وفيهم . قال فأقبل عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقال له : ياأبا حفص أنت تعلم شدتي على العدو وصبري على الحرب ، فلو كلمت

الخليفة أن يجعلني أميرا على أبي عبيدة ، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله ﷺ واني أرجو أن يفتح الله على يدىّ البلاد ويهلك الأعداء . قال عمر رضى الله عنه ما كنت بالذى أكذبك وما كنت بالذى أكلمه فى ذلك ، فانه ليس على أبي عبيدة أمير ، ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة منك ، وأقدم سابقة منك والنبي ﷺ قال فيه « أبو عبيدة أمين الأمة » قال عمرو ماينقص من منزلته اذا كنت واليا عليه . قال عمر بن الخطاب : ويلك ياعمرو انك ما تطلب بقولك هذا الا الرياسة والشرف فاتق الله ولاتطلب الا شرف الآخرة ووجه الله تعالى ، فقال عمرو بن العاص : ان الأمر كما ذكرت ، ثم أمر الناس بالمسير تحت رايته فساروا ، وتقدم أهل مكة وتبعهم بنو كلاب وطيء وهوازن وثقيف وتخلف المهاجرون والأنصار ليسيروا مع أبي عبيدة بن الجراح ، وتقدم عمرو بن العاص وسار . قال أبو الدرداء : كنت مع عمرو بن العاص فى جيشه ، فسمعت أبا بكر يقول وهو يوصيه : اتق الله فى سرك وعلانيتك واستحيه فى خلواتك فانه يراك فى عملك ، وقد رأيت تقدمتى لك على من هو أقدم منك سابقة وأقدم حرمة فكن من عمال الآخرة ، وأرد بعملك وجه الله وكن والدا لمن معك وارفق بهم فى السير فان فيهم أهل ضعف ، والله ناصر دينه ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، واذا سرت بجيشك فلا تسر فى الطريق التى سار فيها يزيد وربيعة وشرحبيل ، بل اسلك طريق إيليا حتى تنتهى الى أرض فلسطين ، وابعث عيونك يأتوك بأخبار أبي عبيدة ، فان كان ظافرا بعدوه فكن أنت لقتال من فى فلسطين ، وان كان يريد عسكرا فانفذ اليه جيشا فى أثر جيش ، وقدم سهل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل والحرث بن هشام وسعيد ابن خالد ، وإياك أن تكون وانيا عما ندبتك اليه ، وإياك والوهن أن تقول جعلنى ابن أبي قحافة فى نحر العدو ولا قوة لى به ، وقد رأيت ياعمرو ونحن فى مواطن كثيرة ونحن نلاقى ما نلاقى من جموع المشركين ونحن فى قلة من عدونا ثم رأيت يوم حنين مانصر الله عليهم . واعلم ياعمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر ، فأكرمهم واعرف حقهم ولا تتطاول عليهم بسلطانك ولا تداخلك نجدة الشيطان فتقول : انما ولانى أبو بكر لأنى خيرهم ، واياك وخدائع النفس وكن كأحدهم ، وشاورهم فيما تريد من أمرك ، والصلاة ثم الصلاة ، أذن بها اذا دخل وقتها ولا تصلّ صلاة الا بأذان يسمعه أهل العسكر ، ثم ابرز وصلّ بمن رغب فى الصلاة معك فذلك أفضل له ، ومن صلاها وحده أجزأته صلاته واحذر من عدوك وأمر أصحابك بالحرس ولتكن أنت بعد ذلك مطلعا عليهم وأطل الجلوس بالليل على أصحابك وأقم بينهم واجلس معهم ولا تكشف أستار الناس ، واتق الله اذا لاقيت العدو ، واذا وعظت أصحابك فأوجز وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك فالامام ينفرد الى الله تعالى فيما يعلمه ومايفعله فى رعيته وانى قد وليتك على من قد مررت من العرب فاجعل كل قبيلة على حيتها ، وكن عليهم كالوالد الشفيق الرفيق وتعاهد عسكرك فى سيرك وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك ، وخلف على الناس من ترضاه ، واذا رأيت عدوك فاصبر ولاتتأخر فيكون ذلك منك نفرا ، وألزم أصحابك قراءة القرآن وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها فان ذلك يورث العداوة بينهم ، وأعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقى بمن مضى من سلفك وكن من الأئمة الممدوحين فى القرآن اذ يقول الله تعالى ــ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ــ قال فكان أبو بكر رضى الله

عنه يوصى عمرو بن العاص وأبوعبيدة حاضر ، ثم قال سيروا على بركة الله تعالى وقاتلوا أعداء الله وأوصيكم بتقوى الله فان الله ناصر من ينصره . قال فسلم المسلمون عليه وودّعوا وساروا فى تسعة آلاف مع من ذكرنا يريدون أخذ فلسطين ، فلما كان بعدهم بيوم واحد عقد العقود والرايات الى أبى عبيدة بن الجراح وأمره بأن يقصد بمن معه أرض الجابية ، وقال ياأمين الأمة قد سمعت ماوصيت به عمرو بن العاص وودّعه المسلمون ، فلما عاد أبو بكر والمسلمون دعا بخالد بن الوليد وعقد له راية ، وكانت له راية النبى صلى الله عليه وسلم وأمّره على لخم وجذام وضم له جيش الزحف وكانوا شجعانا مامنهم الامن شهد الوقائع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له ياأبا سليمان : قد وليتك على هذا الجيش فاقصد به أرض العراق وفارس وأرجو الله أن ينصركم ثم انه ودّعه وسار خالد بمن معه يطلب العراق .

[قال] حدّثنى ربيعة بن قيس . قال كنت فى الجيش الذى وجهه أبو بكر الصديق مع عمرو بن العاص الى فلسطين وإيليا . وكان صاحب رايته سعيد بن خالد . قال وبعث أبو بكر مع كل جيش أميرا وهو يدعو لهم بالنصر وأخذه القلق على المسلمين حتى عرف ذلك فى وجهه . فقال له عثمان بن عفان رضى الله عنه ماهذا الغمّ الذى نزل بك ؟ فقال اغتممت على جيوش المسلمين وأرجو الله أن ينصرهم على عدوّهم . فقال عثمان والله ماخرج جيش سررت به الا هذا الجيش الذى سار الى الشام ، وهذا الذى أوصى الله نبيه به ، وليس فى قوله خلف وانا سنظهر على الروم وفارس ولكن ماندرى متى يكون أفى هذا البعث أوغيره ولكن أحسن الظن بالله . قال وبات الصديق فرأى فى منامه كأن عمرو بن العاص فى وجهه طرمة هو وأصحابه ، ثم قصد عمرو أرضا خضرة سهلة وفرجة فحمل على فرسه ، ثم أتبعه أصحابه ، فاذاهم فى أرض واسعة فنزلوا واستراحوا قال وانتبه أبو بكر من منامه فرحا بما رأى . فقال عثمان يدل على فتح الا أنه يوشك أن يلقى عمرو فى قتال المشركين مشقة عظيمة ثم يخلص منها .

[قال الواقدى] كانت الساقطة تنزل المدينة فى الجاهلية والاسلام يقدمون بالبرّ والشعير والزيت والتين والقماش ، وما يكون فى الشام ، فقدم بعض الساقطة الى المدينة ، وأبو بكر ينفذ الجيوش وسمعوا كلام أبى بكر لعمرو بن العاص ، وهو يقول عليك بفلسطين وايليا . قال فساروا بالخبر الى الملك هرقل . فلما سمع ذلك جمع أرباب دولته وبطارقته وأعلمهم بالحديث الذى جرى وقال يابنى الأصفر هذا الذى كنت حذرتكم منه قديما وان أصحاب هذا النبىّ لا بدّ أن تملك ماتحت سريرى هذا وقد قرب الوعد ، وان خليفة محمد قد أنفذ لكم الجيوش وكأنكم بهم وقد أتوكم وقصدوا نحوكم فحذروا أنفسكم وقاتلوا عن دينكم ، وعن حريمكم فان تهاونتم ملكت العرب بلادكم وأموالكم . قال فبكى القوم . فقال لهم دعوا عنكم البكاء ، ثم قال له وزيره أيها الملك قد اشتهينا أن تدعو بعض من قدم بهذا الخبر عليك فأمر هرقل بعض حجابه أن يأتى برجل من المتنصرة ممن قدم عليه بالأخبار فأتى برجل منهم ، فقال له الملك كم عهدك ؟ قال منذ خمسة وعشرين يوما . قال فمن المتولى عليهم ؟ قال له رجل يقال له أبو بكر الصديق وجه جيوشه الى بلدك ، قال هل رأيت أبا بكر . قال نعم وانه أخذ منى شملة بأربعة دراهم وجعلها على كتفه وهو كواحد منهم ، وهو يمشى فى ثوبين ويطوف بالأسواق ويدور على الناس يأخذ الحق من القوى للضعيف . قال

هرقل صفه لى . قال هو رجل آدم اللون خفيف العارضين . فقال هرقل : وحق دينى هو صاحب أحمد الذى كنا نجد فى كتبنا أنه يقوم بالأمر من بعده ، ونجد فى كتبنا أيضا أن بعد هذا الرجل رجلا آخر طويلا كالأسد الوثاب يكون على يديه الدمدمة والجلاء . قال فشهق المتنصر من قول هرقل . وقال ان هذا الذى وصفته لى رأيته معه لايفارقه . قال هرقل : هذا الأمر والله قد صح وقد دعوت الروم الى الرشد والصلاح ، فأبوا أن يطيعونى ، وان ملكى سوف ينهدم ، ثم عقد صليبا من الجوهر ، وأعطاه قائد جيوشه روبيس . وقال له قد وليتك على الجيوش فسيروا لمنع العرب من فلسطين فانها بلد خصب كثيرة الخير وهى عزنا وجاهنا وتاجنا ، فتسلم روبيس الصليب وسار من يومه الى أجنادين واتبعه جيش الروم .

[قال الواقدى] : لقد بلغنى أن عمرو بن العاص توجه الى ايليا ، حتى وصل الى أرض فلسطين هو ومن معه قال . فلما نزل المسلمون بفلسطين جمع عمرو المسلمين المهاجرين والأنصار وشاورهم فى أمرهم فبينما هم فى المشورة إذ أقبل عليهم عدىّ بن عامر ، وكان من خيار المسلمين ، وكان كثيرا مايتوجه الى بلاد الشام ، وداس أرضهم وعرف مساكنها ومسالكها . فلما أشرف على المؤمنين داروا به وأوقفوه بين يدى عمرو بن العاص . فقال عمرو بن العاص ما الذى وراءك ياابن عامر ؟ قال ورائى المتنصرة وجنودهم مثل النمل . فقال له عمرو : ياهذا لقد ملأت قلوب المسلمين رعبا وإنا نستعين بالله عليهم . فقال له فكم حزرت القوم ؟ . فقال : أيها الأمير انى قد علوت على شرف من الجبال عال ، فرأيت من الصلبان والرماح والأعلام ماقد ملأ الأجم ، وهو أعظم جبل بأرض فلسطين وهم زيادة عن مائة ألف فارس ، وهذا ماعندى من الخبر قال فلما سمع عمرو ذلك قال : لاحول ولاقوة إلا بالله العلىّ العظيم ، ثم أقبل على من حضر من كبار المسلمين . وقال أيها الناس أنا واياكم فى هذا الأمر بالسواء فاستعينوا بالله على الأعداء ، وقاتلوا عن دينكم وشرعكم فمن قتل كان شهيدا ، ومن عاش كان سعيدا ، فماذا أنتم قائلون ؟ قال فتكلم كل رجل بما حضر عنده من الرأى . فقالت طائفة منهم : أيها الأمير ارجع بنا الى البرّية حتى نكون فى بطن البيداء فانهم لايقدرون على فراق القرى والحصون . فاذا جاءهم الخبر أننا توسطنا البرية يتفرق جمعهم وبعد ذلك نعطف عليهم وهم على غفلة فنهزمهم ان شاء الله تعالى . فقال سهل بن عمرو : ان هذه مشورة رجل عاجز . فقال رجل من المهاجرين : لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نهزم الجمع الكثير بالجمع القليل ، وقد وعدكم الله النصر وما وعد الصابرين الاخيرا وقد قال الله تعالى ــ ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ــ قال سهل ابن عمرو : أما أنا فلا رجعت عن قتال الكفرة ولا رددت سيفى عنهم ، فمن شاء فلينهض ، ومن شاء فليرجع ، ومن نكص على عقبيه فأنا وراءه بالمرصاد ، قال فلما سمع المسلمون أنه وافقه على ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قالوا أحسنت ياأبا الفاروق ، قال : ثم ان عمرو بن العاص عقد راية وأعطاها عبد الله بن عمر بن الخطاب وضمّ اليه ألف فارس فيهم رجال من الطائف ومن ثقيف وأمرهم بالمسير فسار عبد الله ، وجعل يجدّ السير بقية يومه الى الصباح ، واذا بغبرة القوم قد لاحت . فقال عبد الله بن عمر : هذه غبرة عسكر وأظنها طليعة القوم ، ثم وقف ووقف أمامه أصحابه . فقال قوم من البادية اتركنا نرى ماهذه الغبرة . فقال لاتتفرقوا من بعضكم حتى

نرى ماهى فوقف الناس ، واذا بالغبرة قد قربت وانكشفت عن عشرة آلاف من الروم وقد بعث معهم روبيس بطريقا من أصحابه ، وكانوا قد ساروا يكشفون خبر المسلمين . فلما نظرهم عبدالله ابن عمر قال لأصحابه لاتمهلوهم لأنهم لابدّ لهم منكم ، والله ينصركم عليهم : واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، قال فأعلن القوم بقول لاإله إلا الله محمد رسول الله . فلما جهروا بها أجابهم الشجر والمدر والدواب والحجر ، وكان أوّل من حمل عكرمة بن أبى جهل وتبعه سهل بن عمرو والضحاك أيضا بالحملة وصاح فى رجاله وحمل المهاجرون ، والأنصار معهم والتقى الجمعان ، وعمل السيف فى الفريقين . قال عبد الله بن عمر : وبينما أنا فى الوقعة إذ نظرت من القوم بطريقا عظيم الخلقة وهو كالحائر البليد ، وهو يركض يمينا وشمالا ، فقلت ان يكن لهذا الجيش عين ، فهذا عين الجيش وصاحب الطلائع ، وهو مرعوب من الحرب . فلما حملت عليه ومددت قناتى اليه ، نفر فرسه من الرمح فقربت منه وأوهمته انى أريد الانهزام ، ثم عطفت عليه وطعنته ، فوالله لقد خيل لى أنى ضربت بسيفى حجرا ، وسمعت طنين السيف حتى حسبت ان سيفى انفصل ، واذاهو صريع ثم عطفت عليه وأخذت لامته . فلما رأى المشركون صاحبهم مجندلا داخلهم الفزع والهلع وصدمهم المسلمون فى الضرب والقتال ، فلله درّ الضحاك والحرث بن هشام ، لقد قاتلا قتالا شديدا ماعليه من مزيد ، فما كان غير قليل حتى انهزم الكفار من بين أيديهم هاربين . قال فرجع المسلمون واجتمع بعضهم على بعض وجمعوا الغنائم والأموال . وقال بعضهم لبعض مافعل الله بعبد الله بن عمر ، قال قائل منهم : الله خبير بحسن زهده وعبادته . وقال آخرون : قد أصبنا بابن عمر فما كان يساوى هذا الفتح شعرة من رأسه ، قال عبد الله بن عمر : وأنا مع ذلك أسمع كلامهم خلف الراية . فأعلنت بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، وهززت الراية . فلما نظر المسلمون الراية سارعوا الىّ وقالوا : أين كنت فقلت اشتغلت بقتال صاحبهم . فقالوا أفلح والله وجهك فهذا والله فتح قد رزقنا الله إياه ببركتك . قال عبد الله : وبوجوهكم ، ثم حازوا الأموال والغنائم والخيل وسبعمائة أسير وقتل من المسلمين سبعة نفر فواروهم وصلى عليهم ابن عمر وانعطف الجيش الى عمرو بن العاص وحدثوه بما جرى ففرح وحمد الله تعالى ، ثم دعا بالأسرى واستنطق منهم بالعربية فما كان فيهم غير ثلاثة نفر من أنباط الشام فسألهم عن خبرهم وخبر أصحابهم فقالوا يامعشر العرب : ان هذا روبيس قد أقبل فى مائة ألف فارس ، وقد أمره الملك ان لايدع أحدا من العرب يصل ايليا . وانه بعث بهذا البطريق طليعة ، وقد قتل وكأنكم به . فقال عمرو انّ الله يقتله كما قتل صاحبكم ، ثم عرض عليهم الاسلام ، فما أحد منهم أسلم . فقال عمرو للمسلمين كأنكم بصاحبهم ، وقد أتى يأخذ ثأرهم وهؤلاء تركهم علينا بلاء ، ثم أمر بضرب أعناقهم وصاح بالمسلمين استعدوا فانى أظن ان القوم سائرون ، فان أتوا الينا فهم فى شدّة وقوّة وسنلقى منهم تعبا فى القتال وان سرنا اليهم نرجو من الله النصر والظفر بهم كما ظفرنا بغيرهم وماعوّدنا الله الا خيرا . قال أبو الدرداء وبتنا مكاننا . فلما جاء الله بالصباح رحلنا فما بعدنا غير قليل حتى أشرفت علينا عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف فارس . فلما أشرف الجيش على الجيش أقبل عمرو ورتب أصحابه وجعل فى الميمنة الضحاك وفى الميسرة سعيدا ، وأقام على الساقة أبا الدرداء وثبت عمرو فى القلب ومعه أهل مكة ، وأمر الناس يقرءون القرآن . وقال لهم اصبروا على قضاء الله

وارغبوا فى ثواب الله وجنته ، ثم انه جعل يصفهم و يعبيهم تعبية الحرب ونظر رو بيس بطريق الروم الى عسكر المسلمين ، وقد صفهم عمرو بن العاص لايخرج سنان عن سنان ولا عنان عن عنان ولاركاب عن ركاب ، وهم كأنهم بنيان مرصوص ، وهم يقرءون القرآن . والنور يلمع من نواصى خيولهم فشم منهم رائحة النصر وتبين من نفسه الجزع ، وعلم أن كل من معه كذلك فوقف ينظر ما يكون من المسلمين وانكسرت حميته . قال وكان أول من برز من جيش المسلمين سعيد ابن خالد رضى الله عنه ، وهو أخو عمرو بن العاص من أمه . فلما برز نادى برفيع صوته ابرزوا ياأهل الشرك ، ثم حمل على الميمنة فألجأها الى الميسرة ، وحمل على الميسرة فألجأها الى الميمنة وقتل رجالا وجندل أبطالا ، ثم اقتحم فيهم فشوّشهم و زعزع جيشهم . قال فاجتمعوا عليه فقتلوه رحمة الله عليه . قال فحزن المسلمون على قتله حزنا عظيما وأكثرهم عمرو بن العاص . وقال واسعيداه ، لقد اشترى نفسه من الله عزوجل . ثم قال يافتيان من يحمل معى هذه الحملة حتى ننظر ما يكون من أمرها وأنظر حال سعيد . قال فأسرع بالاجابة ذو الكلاع الحميرى وعكرمة بن أبى جهل والضحاك والحرث بن هشام ، ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم أجمعين . قال عبد الله وكنا سبعين رجلا ، وحملنا حتى دنونا من القوم وهم لا يفكرون من حملتنا لأنهم جبال من حديد .

[قال الواقدى] رحمة الله عليه : فلما رأى المسلمون ثبات الروم صاح بعضنا لبعض ابعجوا دوابهم فما هلا كهم غير ذلك قال فبعجنا دوابهم بالاسنة فتنكسوا فبعد انتكاسهم تفرّق بعضهم عن بعض وحملوا علينا وحملنا عليهم وكنا فيهم كالشامة البيضاء فى جلد البعير الأسود وكان شعارنا يوم فلسطين : لاإله الاالله محمد رسول الله يارب انصر أمة محمد ﷺ قال أبو الدرداء : فلقد شغلنى الحرب عن مناشدة الأشعار ، ولقد كان أحدنا لايدرى أهو يضرب أخاه أوعدوّه من كثرة القتام قال فثبت المسلمون مع قلتهم وفوّضوا أمرهم الى الله عزّ وجل وما كان أحد من المسلمين يضرب الا وظهره ناطق بالدعاء يقول : اللهم انصرنا على من يتخذ معك شريكا . قال عبد الله بن عمر بن الخطاب فلم يزل الحرب بيننا الى وقت الزوال وهبت الرياح والناس فى القتام اذ نظرت الى السماء وقد انفرج فيها فرج وخرجت منها خيول شهب تحمل رايات خضرا أسنتها تلمع ومناد ينادى بالنصر أبشروا ياأمة محمد ﷺ فقد أتاكم الله بالنصر . قال فما كان غير قليل اذ نظرت الى الروم منهزمين ، والمسلمون فى أعقابهم لأن خيل العرب أسبق من خيل الروم . قال ابن عمر : فقتلنا فى هذه الواقعة قريبا من خمسة عشر ألف فارس وأكثر ولم نزل فى آثارهم الى الليل وعمرو بن العاص قد فرح بالنصر وقلبه متعلق بالمسلمين لاسراعهم وراء العدوّ ، وقال عمرو بن غياث : فنظرت الى عمرو بن العاص والراية فى يده ، وقد أوفى القناة على عاتقه وهو يحركها بيده ويقول من يرد الناس علىّ ردّ الله عليه ضالته اذ نظرت العرب قد عطفت راجعة كعطفة الأم على ولدها فاستقبلهم عمرو ، وهو يقول هنيئا لهذه الوجوه التى تعبت فى رضا الله تعالى : أما كان لكم كفاية فى أن خوّلكم الله حتى اتبعتم العدوّ فقالوا ما أردنا الغنيمة ، بل القتال والجهاد ، قال ولما رجع المسلمون لم يكن لهم همة الا افتقاد بعضهم بعضا ففقد من المسلمين مائة وثلاثون رجلا ختم الله لهم بالسعادة منهم سيف بن عبادة ونوفل بن دارم والأهب بن شداد والباقى من اليمن ووادى المدينة . قال

فاغتم عمرو لفقدهم ، ثم راجع نفسه وقال قد نزل بهم خير ، وأنت ياعمرو تأتى ذلك ثم ندب الناس الى الصلاة كما أمره أبو بكر الصديق رضى الله عنه فصلى مافاته كل صلاة بأذان واقامة ، قال ابن عمر : ماصلى خلفه الاقليل ، بل صلى الناس فى رحالهم من تعبهم ولم يجمعوا من الغنائم الا القليل وبات الناس ، فلما أصبح عمرو أذن وصلى بهم وأمر الناس بجمع الغنائم وأن يخرجوا اخوانهم المؤمنين من الروم فجعلوا يلتقطونهم : قال فأخرجوا مائة وثلاثين رجلا ووجدوا سعيد بن خالد ، فلما نظر عمرو الى مانزل به بكى ، وقال رحمك الله فلقد نصحت لدين الله وأديت النصيحة ثم جعله فى جملة المسلمين وصلى عليهم وأمر بدفنهم ، وذلك قبل أن يخمس شيئا من الغنائم ثم بعد ذلك جمعها اليه وكتب الى أبى عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص الى أمين الأمة ، أما بعد فانى أحمد الله الذى لا إله الا هو وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وانى قد وصلت الى أرض فلسطين ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له روبيس فى مائة ألف فارس فمنّ الله بالنصر وقتل من الروم خمسة عشر ألف فارس وفتح الله على يدىّ فلسطين بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلا فان احتجت الىّ سرت اليك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . ودفع الكتاب الى أبى عامر الدوسى وأمره أن يسير الى أبى عبيدة . قال فأسرع أبو عامر بالكتاب فوجد أباعبيدة وهو نازل بأرض الشام وجاهر بالدخول اليها غير أنه أمره كما أمره أبو بكر . قال فلما وصل أبو عامر قال له أبوعبيدة ماوراءك ؟ قال خير هذا كتاب من عمرو بن العاص يخبرك بما فتح الله على يديه ، ثم سلم اليه الكتاب ، فلما قرأه خرّ ساجدا فرحا بنصر الله ثم قال والله قتل من المسلمين رجال أخيار منهم سعيد بن خالد . قال أبو عامر فكان خالد والده جالسا ، فلما سمع بأن ولده قد قتل قال وا ابناه وجعل يبكيه حتى بكى المسلمون لبكائه ، ثم ان خالدا أسرع الى فرسه فركبها وعزم الى أرض فلسطين لينظر الى قبر ولده . فقال أبوعبيدة كيف تسير وتدعنا . فقال انما أنظر قبر ولدى وأرجو الله أن يلحقنى به ، قال وكتب أبوعبيدة كتابا لعمرو بن العاص يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم إنما أنت مأمور فان كان أبو بكر أمرك أن تكون معنا فسر الينا ، وان كان أمرك بالثبات فى موضعك فاثبت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . وطوى الكتاب وسلمه الى خالد بن سعيد وسار مع أبى عامر الى أن أتيا الى جيش عمرو بن العاص فدفع له الكتاب وهو يبكى فوثب عمرو وصافح خالدا ورفع منزلته وعزاه فى ولده سعيد وعزاه المسلمون . فقال خالد : ياأيها الناس هل أروى سعيد رمحه وسيفه فى الكفار قالوا نعم . فلقد قاتل وماقصر ، ولقد جاهد فى الدين ونصر . فقال أرونى قبره ، قال فأروه اياه فأقام على القبر وقال ياولدى رزقنى الله الصبر عليك وألحقنى بك و إنا لله و إنا اليه راجعون ، والله ان مكننى الله لآخذن بثارك ياولدي عند الله احتسبتك ، ثم قال لعمرو بن العاص انى أريد أن أسرى بسرية فى طلب القوم فلعل أن أجد فيهم فرصة أوغنيمة وأكون قد أخذت بثار ولدى ، فقال عمرو : ان الحرب أمامك ياابن الأم . فاذا رأيت الروم فلاتبق عليهم . فقال خالد : والله لأسيرنّ اليهم ، ثم أخذ أهبته للسير وعزم أن يسير وحده فركب معه ثلثمائة فارس من فتيان حمير فساروا يومهم ذلك أجمع وأرادوا النزول فى الأودية ليعلفوا دوابهم ويسيروا ليلتهم اذ نظر خالد بن سعيد الى أشباح على ذروة جبل هناك عال منيع . فقال لأصحابه انى أرى أشباحا على ذروة هذا الجبل ونحن فى هذا

الوادى ، ثم قال كونوا فى أماكنكم ثم نزل عن فرسه وتقلد سيفه والتحف بازاره وقال اعلموا أن القوم ماعلموا بنا ولونظروا الينا ماثبتوا فى أماكنهم فمن منكم يبذل نفسه ويصنع كما أصنع ؟ قالوا كلنا لك قال فطافوا فى الجبل حتى أشرفوا على القوم وهم فى أماكنهم فعند ذلك قال خذوهم بارك الله فيكم فأسرع اليهم المسلمون فقتلوا منهم ثلاثين وأسروا أربعة فسألهم خالد بن سعيد فاذاهم من أنباط الشام عن حالهم فقالوا نحن من أهل هذا البقيع والجامعة وكفار القرية وقد عظم علينا دخول العرب الى بلادنا وقد فزعنا منهم فزعا عظيما ، وقدهرب أكثرنا الى الحصون والقلاع ، وقد اعتصمنا نحن بهذا الجبل ، لأنه ليس فى الرستاق أحصن منه فعاونا عليه وأنتم كبستمونا . قال خالد فما بلغكم عن جيش الروم ؟ قالوا بأجنادين وهذا البطريق أقبل الينا ليأخذ الميرة والعلوفة ، وقد جمعوا له الدواب والبغال والحمير تحمل الميرة وهم مع ذلك خائفون أن تلحقهم خيل العرب ، وهذ اخبر قومنا ولاشك أنهم رحلوا من يومهم ، قال فلما سمع خالد بن سعيد مقالتهم ، قال غنيمة للمسلمين ورب الكعبة ، ثم قال : اللهم انصرنا عليهم ثم سأل على أىّ طريق سار القوم قالوا على هذه الطريق التى أنتم عليها لأنها أوسع الطرق كلها ، وأما الميرة فانها مجموعة من حول البلاد ، فلما سمع خالد كلامهم قال لهم أسلموا فقالوا له مانعرف الادين الصليب ، ونحن فلاحون قال فهمّ خالد بقتلهم . فقال رجل من أصحابه دعهم يدلونا على الطريق الى مسيرة القوم فأجابوهم الى ذلك وساروا وهم يدلونهم الى تلّ عظيم . قال فتوافق القوم وهم يحملون دوابهم حول التل ومعهم ستمائة لا يس من القوم ، فلما نظر خالد الى ذلك . قال لأصحابه اعلموا ان الله تعالى قد وعدكم بالنصر على عدوّكم وفرض عليكم الجهاد وهذا جيش العدو أمامكم فارغبوا فى ثواب الله تعالى واسمعوا ماقال الله عزّ وجل : ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، وها أنا أحمل فاحملوا ولا يخرج أحد عن صاحبه ثم ان خالدا حمل وحمل أصحابه قال فلما رأونا استقبلونا وانهزم من كان مع الدواب من الفلاحين وصبرت الخيل لقتالنا ساعة من النهار قال فبينما ذوالكلاع الحيرى يشجع أصحابه ويقول ياأهل حمير أبواب الجنة قد فتحت والحور العين قد تزخرفت واذا بصاحب القوم قد لقيه خالد فعرفه بلامته وحسن زيه . قال فاستقبله وصرخ فيه فأرعبه ثم قال يالثار ولدى سعيد وطعنه طعنة صادقة فجندله صريعا كأنه برج من حديد ومابقى أحد الاقتل من الروم . قال فلما رأى الروم ذلك ولوا الأدبار وركنوا الى الفرار وقتل منهم ثلثمائة وعشرون فارسا وولى الباقون منهزمين وتركوا الأثقال والبغال والميرة وأخذ المسلمون الجميع بعون الله تعالى . قال وأطلق سبيل الفلاحين وعاد خالد ومن معه بالغنائم والميرة الى عمرو بن العاص ففرح بسلامتهم وشكر فعلهم وكتب كتابا الى أبى بكر الصدّيق ، وذكر له ماجرى مع الروم و بعث الكتاب مع أبى عامر الدوسى رضى الله عنه وأخذه وقدم به المدينة وأعطاه أبا بكر الصديق رضى الله عنه . فلما قرأه على المسلمين فرحوا وضجوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، ثم ان أبا بكر استخبر عن أبى عبيدة . فقال له عامر انه قد أشرف على أوائل الشام ولم يجسر على الدخول اليها وإنه سمع أن جيوش الملك قد اجتمعت من حول أجنادين وهم أمم لا تحصى وقد خاف على المسلمين أن يتوسط بهم عدوّهم فلما سمع أبو بكر ذلك علم أن أبا عبيدة لين العريكة ولا يصلح لقتال الروم وعوّل أن يكتب الى خالد بن الوليد ليوليه على جيوش المسلمين

وقتال الروم قال واستشار المسلمين فى ذلك فقالوا الرأى ماتراه ، وكتب كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عتيق بن أبى قحافة الى خالد بن الوليد سلام عليك : أما بعد فانى أحمد الله الذى لا إله الا هو ، وأصلى على نبيه محمد ﷺ وانى قد وليتك على جيوش المسلمين وأمرتك بقتال الروم وأن تسارع الى مرضاة الله عزّ وجل وقتال أعداء الله ، وكن ممن يجاهد فى الله حق جهاده ثم كتب ـ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ـ الآية وقد جعلتك الأمير على أبى عبيدة ومن معه وبعث الكتاب مع نجم بن مقدم الكنانى فركب على مطيته وتوجه الى العراق فرأى خالدا رضى الله عنه قد أشرف على فتح القادسية فدفع اليه الكتاب فلما قرأه قال : السمع والطاعة لله وللخليفة رسول الله ﷺ ثم ارتحل ليلا وأخذ طريقه عن اليمين وكتب كتابا الى أبى عبيدة يخبره بعزله و بسيره الى الشام ، وقد ولانى أبو بكر على جيوش المسلمين فلاتبرح من مكانك حتى أقدم عليك والسلام و بعث الكتاب مع عامر بن الطفيل رضى الله عنه ، وكان أحد أبطال المسلمين فأخذه وتوجه يطلب الشام .

وأما خالد فلما وصل الى أرض السماوة قال أيها الناس ان هذه الأرض لاتدخلونها الا بالماء الكثير لأنها قليلة الماء ونحن فى جيش عظيم والماء معكم قليل فكيف يكون الأمر ؟ فقال له رافع بن عميرة الطائى رضى الله عنه أيها الأمير انى أشير عليك بما تصنع ، فقال يارافع أرشدك الله بما نصنع ووفقك الله مولانا جلّ وعلا للخير ، قال فاخذ رافع ثلاثين جملا وعطشها سبعة أيام ثم أوردها الماء فلما رويت حزم أفواهها ، ثم ركبوا المطايا وجنبوا الخيول وساروا فكانوا كلما نزلوا منزلا أخذوا عشرة من الابل يشقون بطونها ويأخذون مايجدون من الماء فى بطونها فيجعلونه فى حياض الأدم ، فاذا بردسقوه للخيل وأكلوا اللحم ولم يزالوا كذلك حتى تمت الابل وفرغ الماء وقطعوا مرحلتين بلا ماء وأشرف خالد ومن معه على الهلاك . فقال خالد لرافع ابن عميرة يارافع قد أشرفنا على الهلاك والتلف أتعرف لنا ماء ننزل عليه .

[قال الواقدى] وكان رافع رمدت عيناه . فقال أيها الأمير أتانى رمد كما ترى ، ولكن اذا أشرفتم على أرض سهلة فاعلمونى . قال فلما أشرفوا عليها أعلموا رافعا بذلك . قال فرفع طرف عمامته عن عينيه ، وسار على راحلته يضرب يمينا وشمالا والناس من ورائه الى أن أقبل على شجرة من الاراك فكبر وكبر المسلمون ، ثم قال احفروا هنا . قال فحفرت العرب واذا الماء قد طلع كالبحر ، فنزل الناس عليه وشكروا الله تعالى وأثنوا عليه وعلى رافع خيرا ، ثم وردوا الماء وسقوا خيلهم وإبلهم ، ثم جدّوا فى طلب من انقطع من المسلمين ومعهم القرب بالماء . قال فسقوهم فارتجعت قوّتهم . ثم لحقوا بالجيش وأراحوا أنفسهم ، ثم فى ثانى يوم جدّوا فى المسير الى أن بقى بينهم و بين أركة مرحلة واحدة ، فبيناهم كذلك اذ أشرفوا على حلة عامرة وأغنام وابل قد سدت الفضاء والمستوى ، فأسرع المسلمون الى الحلة واذا براع يشرب الخمر والى جانبه رجل من العرب مشدود . قال فتبينه المسلمون واذا هو عامر بن الطفيل الذى أرسله خالد . قال فأقبل خالد ابن الوليد مسرعا حتى وقف عليه ، فلما رآه تبسم وقال : يا ابن الطفيل كيف كان سبب أسرك ؟ قال عامر أيها الأمير انى أشرفت على هؤلاء القوم فى هذه الحلة وقد أصابنى الحر والعطش فملت الى هذا الراعى ليسقينى من اللبن فوجدته يشرب خمرا . فقلت له ياعدوّ الله أتشرب الخمر وهى

محرّمه . فقال لى يامولاى انها ليست بخمر وانما هى ماء زلال ، فانزل كى تراه واستنشق مافى الجفنة فان كان خمرا فافعل مابدالك ، فلما سمعت كلامه أنخت المطية ونزلت عن كورها وجلست على ركبتى فى الجفنة واذا أنا بالعبد قد طلبنى بعصا كانت الى جانبه وضربنى على رأسى فشجنى شجة موضحة ، فانقلبت على جانبى فأسرع العبد الىّ وشدّنى كتافا وأوثقنى رباطا وقال لى أظنك من أصحاب محمد بن عبدالله ولست أدعك من بين يدىّ أو يقدم سيدى من عند الملك . فقلت له ومن سيدك من العرب ؟ فقال القداح بن واثلة وانى عند هذا العبد كلما شرب الخمر أحضرنى كما ترى وألقى علىّ فضلة من كأسه . قال فلما سمع خالد بن الوليد كلام عامر بن الطفيل اشتد به الغضب ومال على العبد وضربه ضربة هائلة فتجندل صريعا ونهب المسلمون المال والأغنام والابل وقلعوا الحلة بما فيها وأطلق عامرا وقال له أين رسالتى ياعامر ؟ فقال يامولاى هى فى طرف عمامتى لم يعلم بها العبد . فقال خالد انطلق بها ياعامر على بركة الله تعالى . قال فوكب عامر وسار يطلب الشام وارتحل خالد من موضعه ذلك فنزل بأركة وهى رأس الأمانة لمن يخرج من العراق ، وكانت الروم تمسك بها القوافل وكان عليها بطريق من قبل الملك فأغار خالد عليها وأخذ ما كان فيها وتحصن أهلها بحصنها وكان يسكن فيها حكيم من حكماء الروم وقدطالع الكتب القديمة والملاحم ، فلما رأى المسلمين وجيشهم انتقع لونه وقال اقترب الوقت وحق دينى . فقال أهل أركة وكيف ذلك ؟ قال ان عندى ملحمة فيها ذكر هؤلاء القوم ، وان أول راية تشرف من خيلهم هى الراية المنصورة وقد دنا هلاك الروم ، فانظروا ان كانت رايتهم سوداء وأميرهم عريض اللحية طويل ضخم بعيد مابين المنكبين واسع الهيكل فى وجهه أثر جدرى فهو صاحب جيشهم فى الشام وعلى يديه يكون الفتح . قال فنظر القوم واذا الراية على رأس خالد وهى كما قال حكيمهم . قال واجتمعوا على بطريقهم وقالوا له أنت تعلم أن الحكيم سمعان لاينطق الا بالحق والحكمة وقد قال كذا وكذا . والذى وصفه لنا رأيناه عيانا ونرى من الرأى أن نعقد بيننا و بين العرب صلحا ونأمن على حريمنا وأنفسنا . فلما سمع ذلك بطريقهم قال أخرونى الى غد لأرى من الرأى . قال فانصرفوا من عنده وبات البطريق يحدث نفسه ويدبرأمره وكان عارفا عاقلا خبيرا بالأمور ، وقال ان أنا خالفتهم خفت أن يسلمونى للعرب ، وقد تحقق أن روبيس سار بجيش عظيم فهزمهم العرب ولم يزل يراود نفسه الى أن أصبح الصباح فدعا قومه . وقال على ماذا عوّلتم ؟ قالوا عوّلنا على أننا نقيم الصلح بيننا و بين العرب . فقال البطريق : أنا واحد منكم مهما فعلتم لا أخالفكم . قال فخرج مشايخ أركة الى خالد وكلموه فى الصلح ، فأجابهم الى الصلح وألان الكلام لهم وتلقاهم بالرحب والسعة ليسمع بذلك أهل السخنة ويبلغ الخبر لأهل قدمة ، وكان الوالى عليهم بطريق اسمه كوكب ، بجمع رعيته وقال لهم بلغنى عن هؤلاء العرب أنهم فتحوا أركة والسخنة وأن قومنا يتحدثون بعدلهم وحسن سيرتهم وأنهم لايطلبون الفساد وهذا حصن مانع لاسبيل لأحد علينا ، ولكن نخاف على نخلنا وزرعنا ، ومايضرنا أن نصالح العرب ، فان كان قومناهم الغالبين فسخنا صلحهم ، وان كان العرب ظافرين كنا آمنين . قال ففرح قومه بذلك وهيئوا العلوفة والضيافة حتى خرج خالد رضى الله عنه من أركة ونزل عليهم فخرجوا اليه بالخدمة وصالحهم على ثلثمائة أوقية من الذهب وكتب لهم كتابا بالصلح ، ثم ارتحل عنها الى حوران و بلغ عامر بن الطفيل كتاب خالد الى أبى عبيدة ،

فلما قرأه تبسم وقال : السمع والطاعة لله تعالى وللخليفة رسول الله ﷺ ، ثم أعلم المسلمين بعزله وولاية خالد بن الوليد ، وكان أبو عبيدة وجه شرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ الى بصرى فى أربعة آلاف فارس . قال فسار على فنائها ، وكان على بصرى بطريق عظيم الشان والقدر عند الملك وعند الروم اسمه روماس ، وكان قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية ، وكان يجتمع اليه الروم من أقصى بلادها ينظرون الى عظيم خلقته ويسمعون ألفاظ حكمته ، وكانت آهلة بالخلق عامرة بالناس ، وكان فيها ألف فارس ، وكان العرب يقصدونها ببضائعهم وتجارتهم من أقصى اليمن وبلاد الحجاز ، فاذا كان فى أيام الموسم ينصب لبطريقهم كرسى ليجلس عليه ويجتمع الناس اليه ، ويستفيدون من علمه وحكمته ، فبينما هم قد اجتمعوا إليه وقعت الضجة بقدوم شرحبيل بن حسنة وعسكره فبادر إلى جواده فركبه وصاح فى قومه فأجابوه وقال لاتتحدثوا حتى نسمع كلام القوم وما عندهم ، ثم سار حتى قرب من شرحبيل بن حسنة وجيشه ، ونادى يامعشر المسلمين أنا روماس وإنى أريد صاحبكم . قال فخرج اليه شرحبيل ، فلما قرب منه قال البطريق من أنتم ؟ . قال شرحبيل من أصحاب محمد ﷺ النبى الأمى القرشى الهاشمى المنعوت فى التوراة والانجيل فقال روماس : مافعل الله به ؟ فقال شرحبيل : قبضه الله اليه ؟ فقال البطريق فمن ولى الأمر بعده قال عتيق بن أبى قحافة بن بكر بن تيم بن مرة . فقال روماس : وحق دينى لقد أعلم بأنكم على الحق ولا بد لكم أن تملكوا الشام والعراق وأنا أشفق عليكم اذ انتم فى جمع يسير ونحن فى جمع كثير ، ولكن ارجعوا الى بلادكم فانا لانتعرض لكم . واعلم ياأخا العرب أن أبا بكر هو صاحبى ورفيقى ولو كان حاضرا ماقاتلنى . فقال شرحبيل : لو كان ولده أو ابن عمه لما عفا عنه الا أن يكون من أهل ملته ، وليس له من الأمر شىء لانه مكلف ، وقد أمره الله أن يجاهدكم ولسنا نبرح عنكم الا باحدى ثلاث : إما أن تدخلوا فى ديننا أو تؤدوا الجزية ، أو السيف . فقال روماس : وحق ماأعتقده من دينى : لو كان الأمر الىّ ما أقاتلكم لأنى أعلم انكم على الحق ، وهؤلاء طواغية الروم وقوم مجتمعون ، وانى أريد أن أرجع اليهم وأنظر ماعندهم . فقال شرحبيل : ارجع اليهم فلا بدّ لكم مما ذكرت . قال فعاد روماس الى قومه وجمعهم ، وقال يا أهل دين النصرانية وبنى ماء المعمودية : ان الذى كنتم تعتقدونه فى كتبكم من الخروج من بلادكم ودياركم ونهب أموالكم قد قرب ، وهذا وقته وزمانه ولستم بأعظم جيشا من روبيس سار الى شرذمة من العرب بأرض فلسطين . فقتل وقتل من معه وانهزم الباقون ، ولقد بلغنى أن رجلا منهم خرج من أرض السماوة صوب العراق اسمه خالد بن الوليد وقد فتح أركة والسخنة وتدمر وحوران ، وهو عن قريب يحضر اليكم ، والصواب أن تؤدوا الجزية عن يد الى هؤلاء العرب وينصرفون عنكم . قال : فلما سمع قومه ذلك غضبوا وشوشوا وهموا بقتله . فقال روماس : ياقوم انما أردت أن أختبركم ، وأرى حمية دينكم والآن دونكم والقوم وأنا فى أوّلكم . قال فرجعت الروم الى عددها وعديدها وتظاهروا بالدروع البيض وقادوا الجنائب وتهيئوا للحملة . فلما رأى شرحبيل بن حسنة ذلك وعظ أصحابه . وقال اعلموا رحمكم الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الجنة تحت ظلال السيوف وأحبّ ماقرب الى الله قطرة دم فى سبيل الله أودمعة جرت فى جوف الليل من خشية الله . قال الله تعالى — ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن

الا وأنتم مسلمون — ثم حمل وحمل المسلمون على جيش بصرى . قال عبدالله بن عدىّ : واجتمع علينا العدوّ وطمعوا فينا ، وحملوا علينا فى اثنى عشر ألف فارس من الروم ، ونحن فيهم كالشامة البيضاء فى جلد البعير الأسود وصبرنالهم صبر الكرام ، ولم يزل القتال بيننا و بينهم الى أن توسطت الشمس فى قبة الفلك ، وقد طمع العدوّ فينا ، فرأيت شرحبيل بن حسنة قد رفع يده الى السماء وهو يقول : ياحىّ ياقيوم يابديع السموات والأرض ياذا الجلال والاكرام ، اللهم انصرنا على القوم الكافرين . قال فوالله ماستتمّ شرحبيل كلامه ودعاءه حتى جاء النصر من عند الله العزيز الحكيم ، وذلك أن القوم داروا بنا فرأينا غبرة قد أشرفت علينا من صوب حوران . فلماقربت لنا رأينا تحتها سوابق الخيل ، فلاحت لنا الأعلام الاسلامية والرايات المحمدية ، وقد سبق الينا فارسان : أحدهما ينادى و يزعق : ياشرحبيل ياابن حسنة أبشر بالنصر لدين الله ، أنا الفارس الصنديد والبطل المجيد ، أنا خالد بن الوليد ، والآخر يزعق و يقول : أنا عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق ، وأشرفت العساكر من كل جانب . قال وأشرفت راية العقاب يحملها رافع بن عميرة الطائى . قال : حدّثنا سالم بن عدىّ عن ورقاء بن حسان العامرى عن ميسرة بن مسروق العبسى . قال والله : لقد خمدت أصوات الروم عند زعقة خالد رضى الله عنه ، وأقبل المسلمون يسلم بعضهم على بعض ، وأقبل شرحبيل بن حسنة الى خالد بن الوليد ، وسلم عليه . فقال خالد ياشرحبيل : أما علمت أن هذه مينا الشام والعراق ، وفيها عساكر الروم و بطارقتهم . فكيف غررت بنفسك و بمن معك من المسلمين ؟ . قال كله بأمر أبى عبيدة . فقال خالد : أما أبوعبيدة فانه رجل خالص النية ، وليس عنده غائلة الحرب ولا يعلم بمواقعها ، ثم أمر الناس بالراحة فنزلوا وارتاحوا من أتعابهم . فلما كان فى اليوم الثانى : زحفت جيوش بصرى على المسلمين فقال خالد ان الروم زحفوا لعلمهم بتعبنا وتعب خيولنا فاركبوا بارك الله فيكم ، واحملوا على بركة الله تعالى . قال فركب المسلمون ، وأخذوا أهبتهم للحرب فجعل فى الميمنة رافع بن عميرالطائى ، وجعل فى الميسرة ضرار بن الازور . وكان غلامافاتكا فى الحرب ، وجعل على الدرك عبدالرحمن بن أبى بكر الصدّيق ، ثم قسم جيش الزحف فجعل على شطره المسيب بن نجيبة الفزارى ، وعلى الشطر الآخر مذعور بن غانم الأشعرى ، وأمرهم أن يزفوا الخيل اذا حملت . قال و بقى خالد فى الوسط وهو يعظ الناس ويوصيهم ، وقد عزموا على الحملة ، واذا بصفوف الروم قد انشقت وخرج من وسطها فارس عظيم الخلقة كثير الزينة يلمع ماعليه من الذهب الأحمر والياقوت . فلما توسط الجمعين نادى بلسان عربى كأنه بدوى يامعشر العرب لايبرز لى الاأميركم ، فأنا صاحب بصرى . قال فخرج اليه خالد رضى الله عنه كالأسد الضرغام وقرب منه . فقال له البطريق أنت أميرالقوم ؟ قال كذلك يزعمون أنى أميرهم مادمت على طاعة الله ورسوله ، فان عصيته فلا إمارة لى عليهم . قال البطريق انى رجل عاقل من عقلاء الروم وملوكهم وان الحق لايخفى على ذى بصيرة ، واعلم أنى قرأت الكتب السابقة ، والأخبار الماضية ، فوجدت أن الله تعالى يبعث نبيا قرشيا واسمه محمد بن عبد الله . قال خالد والله نبينا . قال: أنزل عليه الكتاب ؟ قال نعم القرآن . قال روماس البطريق أحرّم عليكم فيه الخمر . قال خالد نعم من شربها حددناه ، ومن زنى جلدناه ، وان كان محصنا رجمناه . قال أفرضت عليكم الصلوات ؟ قال نعم خمس صلوات فى اليوم والليلة . قال أفرض عليكم الجهاد

قال خالد : ولولا ذلك ماجئنا كم نبغى قتالكم . قال روماس والله انى لأعلم أنكم على الحق وانى أحبكم وقد حذرت قومى منكم وانى خائف منكم ، فأبوا . فقال خالد : فقل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله يكون لك مالنا وعليك ماعلينا . فقال انى أسلمت وأخاف أن يعجل هؤلاء بقتلى وسبى حريمى ، ولكن أنا أسير الى قومى وأرغبهم فلعل الله أن يهديهم . فقال خالد : وان رجعت الى قومك بغير قتال يكون بينى و بينك خفت عليك ، ولكن احمل علىّ حتى لايتهموك و بعد ذلك اطلب قومك فحمل بعضهم على بعض ، وأرى خالد الفريقين أبوابا من الحرب حتى أبهر روماس . فقال لخالد شدد علىّ الحملة حتى يرى الديرجان فانى خائف عليك من بطريق بعث به الملك يقال له الديرجان . فقال خالد ينصرنا الله عليه ، ثم شدد على روماس الحملة حتى انه انهزم من بين يديه الى ، قومه : فلما وصل الى قومه قالوا ما الذى رأيت من العرب ؟ . قال ان العرب أجلاد مالكم بقتالهم طاقة ولا بدّ لهم أن يملكوا الشام ، وما تحت سريرى هذا فادخلوا تحت طاعتهم وكونوا مثل أركة والسخنة قال . فلما سمعوا كلامه زجروه وأرادوا قتله ، وقالوا له ادخل المدينة والزم قصرك ودعنا لقتال العرب ، فانصرف روماس ، وقال : لعلّ الله ينصر خالدا . ثم ان أهل بصرى ولوا عليهم الديرجان ، وقالوا اذا فرغنا من المسلمين سرنا معك الى الملك ، ونسأله أن ينزع روماس و يوليك علينا . قال الديرجان : وما الذى تريدون ؟ قالوا نحمل ونطلب قتال العرب . قال فخرج الديرجان وطلب خالدا . فقال عبد الرحمن لخالد ياأمير أنا أخرج اليه . فقال دونك ياابن الصدّيق ، فخرج عبد الرحمن وحمل على الديرجان ، فما لبثوا غير ساعة ، وقد أحسّ الديرجان من نفسه بالتقصير فولى منهزما وراح الى قومه . فلما رأوا ذلك منه نزل الرعب فى قلوبهم وعلم خالد ماعند القوم من الفزع فحمل وحمل عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق ، وحمل المسلمون . فلما نظر أهل بصرى الى حملة المسلمين حملوا وتلاقى الفريقان ، وضجت الرهبان بكلمة كفرهم . فقال شرحبيل بن حسنة : اللهم ان هؤلاء الأنجاس يتهللون بكلمة كفرهم ويدعون معك إلها آخر لا إله إلا أنت ، ونحن نبتهل اليك بلا إله إلا أنت ، وأن محمدا عبدك ورسولك ، الا ما نصرت هذا الدين على أعدائك المشركين ، ثم حملوا حملة واحدة ، فلم يكن للروم ثبات مع العرب ، فولى المشركون الأدبار ، وركنوا الى الفرار . فلما حطوا داخل المدينة أغلقوا الأبواب وتحصنوا بالأسوار ، ورفعوا الصلبان ، وعوّلوا أن يكتبوا للملك ليمدّهم بالخيل والرجال . قال عبد الله بن رافع : فلما تحصنوا رجعنا عنهم وافتقدنا أصحابنا فوجدنا قد قتل منا مائة وثلاثون فارسا ، وقتل من الأعيان بدريان . قال وغنم المسلمون الأموال ، وصلى خالد على الشهداء ، وأمر بدفنهم . فلما كان الليل تولى الحرس عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق ومعمر بن راشد ومائة من جيش الزحف . فبيناهم يدورون حول العسكر ، واذا بروماس صاحب بصرى قد أقبل عليهم . وقال لهم ، أين خالد بن الوليد فأخذوه وأتوا به الى خالد . فلما رآه رحب به . فقال أيها الأمير بعد أن فارقتك طردنى قومى ، وقالوا : الزم قصرك والا قتلناك فلزمت قصرى ، وهو ملاصق للسور ، ولما وقع لهم ماوقع وانهزموا تحصنوا . فلما جنّ الليل أمرت غلمانى بحفر السور وفتحوا فيه بابا فأتيتك فأرسل معى من تعتمد عليه من أصحابك تستلمون المدينة . فلما سمع خالد هذا الكلام أمر عبد الرحمن بن أبى بكر أن يأخذ مائة من المسلمين و يسيروا مع روماس . قال ضرار بن الأزور وكنت ممن دخل

المدينة . فلما صرنا فى قصر روماس فتح لنا خزانة السلاح ، فلبسنا من سلاحهم وقسمنا أربعة أقسام ، كل جانب خمسة وعشرون رجلا . وقال لنا عبدالرحمن اذا سمعتم التكبير فكبروا . فلما سرنا حيث أمرنا أخذنا أنفسنا بالحملة على القوم .

[قال الواقدى] بلغنى ممن أثق به من الرواة أن عبد الرحمن لما فارق أصحابه لبس سلاحه وسار هو وروماس يطلبون الدرج الذى عليه الديرجان ، وسار معهم ضرار ورافع وشرحبيل بن حسنة . فلما قرب عبد الرحمن من الدرج الذى فيه الديرجان . قال الديرجان : من أنتم ؟ فقال أنا روماس . فقال لاأهلا ولامرحبا بك ، ومن الذى معك . قال معى صديق لك ومشتاق الى رؤياك قال : ويحك ، ومن هو ياروماس ؟ قال هذا ابن أبى بكر الصدّيق . فلما سمع الديرجان ذلك همّ أن يقتله فلم تطاوعه نفسه فحمل عليه عبد الرحمن ، وهز سيفه فى وجهه وضربه على عاتقه فتجندل صريعا يخور فى دمه ، وعجل الله بروحه الى النار . قال وكبر عبد الرحمن فأجابه روماس وسمع أصحابه التكبير فكبروا من جوانب بصرى . قال وأجابتهم الأحجار والأشجار . قال وكبر المسلمون من جوانب بصرى ووضعوا السيف فى الروم ، وسمع خالد التكبير فصرخوا ، واذا بغلمان روماس وأولاده قد فتحوا لهم الأبواب فعبر خالد ومن معه من المسلمين . فلما [illegible]

إما أن يسلم روماس والايتركنى أعيش بين المسلمين . قال فضحك خالد من قولها ، وقال : سبحان الله الذى وفقهما جيعا . ثم قال للترجمان قل لها ان روماس أسلم قبلها ففرحت بذلك . ثم ان خالدا أحضر أهل بصرى وقررهم على أداء الجزية وولى عليهم من اتفق رأيه عليه . ثم كتب الى أبى عبيدة كتابا يبشره بالفتح ، ويقول له : ياصاحب رسول الله قد ارتحلنا الى دمشق فألحقنا اليها . ثم كتب كتابا آخر الى أبى بكر الصديق يخبره برحيله ، ويقول له : يوم كتبت اليك هذا الكتاب ارتحلت الى دمشق فادع لنا بالنصر والسلام عليك ومن معك ورحمة الله وبركاته . ثم بعث الكتابين كلاهما ، ثم ارتحل خالد الى نحو دمشق حتى أشرف على موضع يقال له الثنية فوقف هناك وركز راية العقاب فسميت بذلك ثنية العقاب . ثم ارتحل منها الى الدير المعروف الآن بدير خالد ، وكان أهل السواد قد التجئوا الى دمشق ، وقد اجتمعت خلائق وأمم لاتحصى من الرجال . وأما أصحاب الخيل فكانوا اثنى عشر ألفا ، وقد زينوا أسوارهم بالطوارق والبيارق والصلبان ، وأقام خالد على الدير ينتظر قدوم المسلمين .

[قال الواقدى] : واتصلت الأخبار الى الملك هرقل ومافتح خالد من الشام ، وكيف قدم على دمشق فغضب وجمع البطارقة وقال : يابنى الأصفر ، قد قلت لكم وحذرتكم فأبيتم وهؤلاء العرب قد فتحوا أركة وتدمر والسخنة و بصرى ، وقد توجهوا الى الربوة ففتحوها فواكرباه لأن دمشق جنة الشام وقد سارت اليها الجيوش وهم أضعاف العرب ، ثم قال أيكم يتوجه الى قتال العرب ويكفينى أمرهم ، فان هزمهم أعطيته مافتحوه ملكا . فقال بطريق من البطارقة اسمه كلوس بن حنا ، وكان من فرسانهم ، وقد عرفت شجاعته فى عساكر الروم والفرس أيها الملك أنا أكفيك وأردهم على أعقابهم منهزمين . قال فلما سمع الملك قوله سلم اليه صليبا من الذهب وقدمه على خمسة آلاف فارس ، وقال له قدم صليبك أمامك فانه ينصرك . قال فأخذه كلوس وسار من يومه من انطاكية الى أن وصل حمص فوجدها مزينة بالسلاح ، فلما بلغ أهلها قدومه خرجوا الى لقائه ، وقد خرجت القسس والرهبان واستقبلوه ودعوا له بالنصر وأقام بحمص يوما وليلة ، ثم ارتحل الى مدينة بعلبك فخرج اليه النساء لاطمات الخدود وقلن : أيها السيد إن العرب فتحوا أركة وحوران و بصرى ، فقال لهن كيف قدرت العرب على حوران و بصرى ؟ . فقلن أيها السيد ان الذين ذكرتهم لم يبرحوا من أماكنهم ، وان هذا الرجل قد أقبل من العراق ، وهو الذى فتح أركة . فقال وما اسمه ؟ قلن خالد بن الوليد . قال فى كم يكون من العساكر ؟ قلن فى ألف وخمسمائة فارس . فقال وحق المسيح لأجعلن رأسه على رأس سنانى . ثم رحل فلم ينزل الا بدمشق ، وكان واليها بطريقا من قبل الملك هرقل اسمه عزازير ، فلما قدم كلوس اجتمع عليه عزازير وأصحابه وقرءوا عليهم منشور الملك ، ثم قال لهم أتريدون أنى أقاتل عدوكم وأصده عن بلادكم ؟ قالوا نعم فقال أخرجوا عزازير عنكم حتى أكون وحدى فى هذا الامر . فقالوا أيها السيد وكيف ينبغى أن يخرج صاحبنا من بلدنا ، وهذا العدو قاصد الينا . قال فغضب عزازير فى وجه كلوس من كلامه ، وقد اتفق رأيهم على أن كل واحد يقاتل العرب يوما فثبتت عداوة عزازير فى قلب كلوس .

[قال الواقدى] ولقد بلغنى أنهم كانو يخرجون كل يوم من باب الجابية مقدار فرسخ

ينظرون قدوم أبى عبيدة بن الجراح فلم يشعروا حتى قدم اليهم خالد بن الوليد من نحو الثنية ، قال حدثنا يسار بن محمد . قال أخبرنا رفاعة بن مسلم . قال : كنت فى جيش خالد بن الوليد لما نزل على الدير المعروف به ، واذا بجيش الروم قد زحف علينا وهو كالجراد المنتشر ، فلما نظر خالد ذلك تدرّع بدرع مسلمة ، ثم صرخ فى وجه المسلمين . وقال : هـذا يوم مابعده يوم ، وهذا العدوّ قد زحف بخيله فدونـكم والجهاد فانصروا الله ينصركم وكونوا ممن باع نفسـه لله عز وجل وكأنـكم باخوانـكم المسلمين قدموا عليكم مع أبى عبيدة بن الجراح ، ثم بعـد ذلك استقبل الجيش وصرخ بملء رأسـه فأرعب المشركين من صرخته وحمل شرحبيل بن حسنة وعبد الرحمن بن أبى بكر وضرار بن الأزور ، ومذ حمل ضرار لم يولّ عنهم بل قتل من الميمنة خمسـة فرسان ومن الميسرة كذلك . ثم حمل ثانى مرة فقتل منهم سـتة فرسان ، ولولا سهام القوم لما ردّ عن قتالهم فشـكره خالد بن الوليد وقال لعبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه : احمل بارك الله فيك . قال فحمل عبد الرحمن وفعل كما فعل ضرار بن الازور وقاتل قتالا شديدا . ثم حمل من بعـده خالد بن الوليد ورفع رمحه وأرى العسكر من أمور الحرب حتى جزع الروم من شجاعته . فلما نظر اليه البطريق كاوس علم أنه أمير الجيش وعلم أنه يقصده فتأخر كاوس الى ورائه من مخافته . فلما نظر خالد الى قهقرة كاوس الى ورائه حمل عليه ليرده فوقعت عليه البطارقة ورموه بالسهام فلم يلتفت اليهم خالد ، ولم يعبأ بهم ولم يرجع حتى قتل عشرين . ثم انثنى بجواده بين الصفين وجال بجواده بين الفريقين وطلب البراز فلم يجبه أحد ، وقالوا : أخرجوا غيره منكم . فقال: ويلـكم هاأنا رجل واحد من العرب وكلنا فى الحرب سواء فما منهم من فهم كلامه ، فأقبل عزازير على كاوس ، وقال : أليس الملك قد قدّمك على جيشه و بعثك الى قتال العرب فدونك حام عن بلدك ورعيتك . فقال كاوس : أنت أحق منى بذلك لأنك أقدم منى ، وقد عزمت أنك لاتخرج إلا باذن الملك هرقل فما بالك لاتخرج الى قتال أمير العرب . فقال لهما العساكر تقارعا فمن وقعت عليـه القرعة فلينزل الى قتال أمير العرب . فقال كاوس لابل نحمل جميعا فهو أهيب لنا ، قال وخاف كاوس أن يبلغ الملك ذلك فيطرده من عنده أو يقتله . قال فتقارعا فوقعت القرعة على كاوس . فقال عزازير : اخرج و بين شجاعتك ، فقال كاوس لأصحابه : أريد أن تـكون هممكم عندى ، فان رأيتم منى تقصيرا فاحملوا وخلصونى . فقال أصحابه : هذا كلام عاجز لايفلح أبدا ، فقال ياقوم ان الرجل بدوىّ ولغته غير لغتى فخرج معه رجل اسـمه جرجيس ، وقال له أنا أترجم لك فسار معـه . فقال كاوس : اعلم ياجرجيس ان هذا رجل ذو شجاعة فان رأيته غلبنى فاحمل أنت عليـه حتى نقضى يومنا معه ، ويخرج له غدا عزازير فيقتله ونستريح منه وأتخذك أنا صديقى ، فقال له ماأنا أهل حرب ، وانما أخوفه بالـكلام . قال فسكت وسارا حتى قربا من خالد فنظر اليهما . قال فهمّ أن يخرج اليهما رافع بن عميرة فصاح فيه خالد ، وقال مكانك لاتبرح فانى كفء لهما ، فلما دنوا من خالد . قال كاوس لصاحبه : قل له من أنت وماتريد وخوّفه من سطواتنا فقرب جرجيس من خالد ، وقال له ياأخا العرب : أنا أضرب لك مثلا ان مثلـكم ومثلنا كمثل رجل له غنم فسلمها إلى راع وكان الراعى قليل الجراءة على الوحوش فأقبل عليـه سبع عظيم فجعل يلتقط منه كل ليلة رأسا الى ان انقضت الأغنام والسـبع ضار عليها ولم يجد له مانعا عنها . فلما نظر صاحب الغنم ماحلّ بغنمه علم أنه لم يؤت الامن

الراعى فانتدب لغنمه غلاما نجيبا فسلمه الغنم فكان كل ليلة يكثر الطوفان حول الغنم . فبينما الغلام كذلك اذ أقبل عليه السبع على عادته الأصلية واخترق الغنم فهجم الغلام على السبع وبيده منجل فضربه فقتله ، ولم يقرب الغنم وحش بعدها وكذلك أنتم تتهاون بأمركم لأنه ما كان أضعف منكم لأنكم جياع مساكين ضعفاء وتعوّدتم أكل الذرة والشعير ومص النوى . فلما خرجتم الى بلادنا وأكلتم طعامنا وفعلتم مافعلتم ، وقد بعث لكم الملك رجالا لاتقاس بالرجال ولاتكترث بالأبطال ولاسيما هذا الرجل الذى بجانبى فاحذر منه أن ينزل بك ماأنزل الغلام بالأسد ، وقد سألنى أن أخرج اليك وأتلطف بك فى الكلام فأخبرنى ماالذى تريد قبل أن يهجم عليك هذا الفارس ؟ فلما سمع خالد منه ذلك ، قال ياعدو الله والله لاتحسبكم عندنا فى الحرب الا كقابض الطير بشبكة ، وقد قبضها يمينا وشمالا فلم يخرج الامانفلت منها . وأما ماذكرت من بلادنا وأنها بلاد قحط وجوع فالأمر كذلك إلاأن الله تعالى أبدلنا ماهو خير منه ، فأبدلنا بدل الذرة الحنطة والفواكه والسمن والعسل . وهذا كله قد رضيه لنا ربنا ووعدنابه على لسان نبيه وأماقولك : ماالذى تريدونه منا ؟ فنريد منكم احدى ثلاث خصال إما أن تدخلوا فى ديننا أوتؤدوا الجزية ، أوالقتال . وأماقولك : انهذا الرجل الذليل الذىهو عندكم مسكين فهو عندنا أقل القليل وان يكن هو ركن الملك فأنا ركن الاسلام . أنا الفارس الصنديد ، أنا خالد بن الوليد . أنا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[قال الواقدى] رحمه الله تعالى : فلما سمع جرجيس كلام خالد تأخر الى ورائه وقد تغير لونه ، فقال له كلوس : ياويلك رأيتك فى بدايتك تهيم كالسبع فمالك قد تأخرت ؟ فقال وحق المسيح ماأعلم أنه الفارس الجحجاح وبطلهم الصفاح ، هذا صاحب القوم الذى ملأ الشام شرا . فقال كلوس ياجرجيس اسأله أن يؤخر الحرب بيننا الى غد فالتفت الى خالد ، وقال له ياسيد قومك هذا صاحبى يريد أن يرجع الى قومه ليشاورهم . فقال خالد : ويحك أتريد أن تخدعنى بالكلام وأقبل برمحه فى وجه جرجيس . فلما نظر جرجيس ذلك انعقد لسانه وولى هاربا . فلما رأى خالد ذلك طلب كلوس وحمل عليه وتطاعنا واحترز البطريق من طعنات خالد ، فلما نظر خالد احتراز البطريق حط يده فى أطواقه وجذبه فقلعه من سرجه . فلما نظر المسلمون فعل خالد كبروا بأجمعهم وتسابق الفرسان الى خالد ، فلما قربوا منه رمى لهم البطريق ، وقال أوثقوه كتافا فصار يبربر بلسانه فأتى له المسلمون بروماس صاحب بصرى ، وقالوا له اسمع ماذا يقول ؟ . فقال لهم يقول لكم لاتقتلونى فانى أجبت صاحبكم فى المال والجزية . فقال خالد استوثقوا منه ثم نزل عن جواده وركب جوادا أهداه له صاحب تدمر وعزم أن يهجم على الروم . فقال ضرار بن الأزور أيها الأمير دعنى أناأحمل على القوم حتى تستريح أنت . فقال ياضرار : الراحة فى الجنة غدا ، ثم عوّل خالد على الحملة فصاح به البطريق كلوس ، وقال وحق دينك ونبيك إلاما رجعت الىّ حتى أخاطبك فرجع خالد اليه ، وقال لروماس اسأله مايريد . فقال أعلمه أنى صاحب الملك ، وقد بعثنى اليكم فى خمسة آلاف فارس لأردّكم عن بلده وأهله ورعيته ، وقد تحججت أنا وعزازير متولى دمشق وقدم الىّ معه كذا وكذا ، وأنا أسألك بحق دينك اذا خرج اليك فاقتله ، وان لم يخرج اليك فاستدعه واقتله فانه رأس القوم . فان قتلته فقد ملكت دمشق . فقال خالد لروماس قل له إنالانبق

عليك ولاعليه ولاعلى من أشرك بالله تعالى . ثم انه بعد ذلك الكلام حمل ، وهو ينشد ويقول :

لك الحمد مولانا على كل نعمة ... وشكرا لما أوليت من سابغ النعم
مننت علينا بعد كفر وظلمة ... وأنقذتنا من حندس الظلم والظلم
وأكرمتنا بالهاشمي محمـــد ... وكشفت عنا مانلاقى من الغمم
فتمم إله العرش ماقد ترومـه ... وعجل لأهل الشرك بالبؤس والنقم
وألقهـم ربى سريعا ببغيهم ... بحق نبي سيد العرب والعجم

[قال الواقدى] لقد بلغنى ممن أثق به أنه لما ولى جرجيس هاربا من بين يدى خالد الى أصحابه رأوه يرتعد من الفزع . فقالوا له ماوراءك ؟ فقال ياقوم ورائى الموت الذى لايقاتل ، والليث الذى لاينازل ، وهو أمير القوم ، وقد آلى على نفسه أن يطلبنا أينما كنا ، وماخلصت روحى الابالجهد فصالحوا الرجل قبل أن يحمل عليكم بأصحابه فلايبقى منكم أحدا ، فقالوا له ما يكفيك انك انهزمت ، وقدهموا بقتله ، فبينماهم كذلك اذ أقبل أصحاب كاوس على عزازير وهم خمسة آلاف وصاحوابه وقالو اله ماأنت عنـد الملك أعز من صاحبنا ، وقدكان بيننا وبينك شرط فاخرج أنت الى خالد واقتله أو أسره وخلص لنا صاحبنا والا وحق المسيح والمذبح والذبيح شننا عليك الحرب فقال عزازير ، وقد رجع به مكره ودهاؤه : ياويلكم أتظنون أنى جزعت من الخروج الى هـذا البدوى من أوّل مرة ، ولكنى ماتأخرت عن الخروج اليـه وتقاعدت عن قتاله حتى يتبين عجز صاحبكم وسوف ينظر الفريقان أينا أفرس وأشجع وأثبت فى مقام القتال اذا نحن تشابكنا بالنصال ؟ ثم انه فى الحال ترجل عن جواده ولبس لامتـه وركب جوادا يصلح للجولان ، وخرج الى قتال سيدنا خالد بن الوليد ، الفارس الصنديد رضى الله عنه ، فلما قرب منه . قال ياأخا العرب ادن منى حتى أسألك وكان الملعون يعرف العربية ، فلما سمع خالد ذلك . قال ياعدوّ الله ادن أنت على أمّ رأسك ، ثم همّ أن يحمل عليه . فقال على رسلك ياأخا العرب أنا أدنو منك فعلم خالد أن الخوف داخله فأمسك عنه حتى قرب منه . فقال ياأخا العرب ماحملك أن تحمل أنت بنفسك ؟ . أما تخشى الهلاك فلوقتلت بقيت أصحابك بلامقدم . فقال خالد ياعدوّ الله قد رأيت مافعل الرجلان من أصحابى لوتركتهم لهزموا أصحابك بعون الله تعالى ، وانمامعى رجال ، وأىّ رجال يرون الموت مغنما والحياة مغرما ، ثم قال له خالد من أنت ؟ فقال أوما سمعت باسمى أنا فارس الشام أنا قاتل الروم والفرس أنا كاسر عساكر الترك . فقال خالد مااسمك ؟ فقال أنا الذى تسميت باسم ملك الموت اسمى عزرائيل .

[قال الواقدى] فضحك خالد من كلامه ، وقال ياعدوّ الله تخوّفنى ان الذى تسميت باسمه هو طالبك ومشتاق اليك ليرديك الى الهاوية . فقال له البطريق مافعلت بأسيرك كاوس ؟ . فقال هو موثق بالقيود والأغلال . فقال له عزازير ومامنعك من قتله ، وهو داهية من دواهى الروم ؟ . فقال خالد منعنى من ذلك أنى أريد قتلكما جميعا ، فقال عزازير : هل لك أن تأخذ ألف مثقال من الذهب وعشرة أثواب من الديباج وخمسة رؤوس من الخيل وتقتله وتأتينى برأسه . فقال له خالد هذه ديته فما الذى تعطينى أنت عن نفسك . قال فغضب عدوّ الله من ذلك ، وقال ماالذى تأخذ منى ؟ . قال الجزية وأنت صاغر ذليل ؟ فقال عزازير كلما زدنا فى كرامتكم زدتم فى اهانتنا

فخذ الآن لنفسك الحذر فانى قاتلك ولاأبالى ، فلما سمع خالد كلام عزازير حمل عليه حملة عظيمة كأنه شعلة نار فاستقبله البطريق ، وقد أخذ حذره وكان عزازير ممن يعرف بالشجاعة فى بلاد الشام فلما نظر خالد الى عدوّ الله أظهر شجاعته و براعته تبسم . فقال عزازير : وحق المسيح لو أردت الوصول اليك لقدرت على ذلك ولكننى أبقيت عليك لأنى أريد أن أستأسرك ليعلم الناس أنك أسيرى ، و بعد ذلك أطلق سبيلك على شرط أنك ترحل من بلادنا وتسلم لنا ماأخذت من بلاد الشام ، فلما سمع خالد كلام عزازير قال له : ياعدوّ الله قد داخلك الطمع فينا ، وهذه العصابة قد ملكوا تدمر وحوران و بصرى وهم ممن باعوا أنفسهم بالجنة ، واختاروا دار البقاء على دار الفناء ، وستعلم أينا من يهلك صاحبه ويذل جانبه ، ثم ان خالدا أرى البطريق أبواب الحرب . قال فندم عزازير على ما كان منه من الكلام ، وقال ياأخا العرب أما تعرف الملاعبة . فقال خالد ملاعبتى الضرب فى طاعة الرب ، ثم ان الملعون هاجم خالدا ولوّح اليه بسيفه وضربه به فلم يقطع شيئا فذهل عدوّ الله من جولان خالد وثباته ، وعلم أنه لايقدر عليه ولاعلى ملاقاته فولى هاربا ، وكان جواده أسبق من جواد خالد . قال عامر بن الطفيل رضى الله عنه : وكنت يوم حرب دمشق فى القلب وشاهدنا ماجرى بين خالد وعزازير لما ولى هاربا وقصر جواد خالد عن طلبه فوقع فى قلبه الطمع ، وقال كأن البدوى خاف منى ومالى الا أن أقف حتى يلحقنى وآخذه أسيرا ولعل المسيح ينصرنى عليه ، فلما وقع ذلك فى نفسه وقف حتى لحق به خالد ، وقد جلل فرسه العرق ، فلما قرب منه صاح عزازير ، وقال : ياعربى لاتظن أنى هارب خوفا منك ، وانما أبقيت عليك خوفا على شبابك فارحم نفسك ، وان أردت الموت أسوقه اليك أنا قابض الأرواح أنا ملك الموت ، فعند ذلك ترجل عن جواده وسحب السيف وسار اليه كأنه الأسد الضارى ، فلما نظر عزازير الى ذلك والى ترجل خالد زاد طمعه فيه وحام حوله وهمّ اليه يريد أن يعلو رأسه بالسيف فزاغ خالد عنها وصاح فيه وضرب قوائم فرسه بضربة عظيمة فقطعها فسقط عدوّ الله على الأرض ثم ولى هاربا يريد أصحابه فسبقه خالد . وقال ياعدوّ الله ان الذى تسميت باسمه قد غضب عليك واشتاق اليك وهاهو قد أقبل عليك يقبض روحك ليؤديك الى جهنم ، ثم هجم عليه وهمّ أن يجلد به الأرض ونظرت الروم الى صاحبها ، وهو فى يد خالد فهموا أن يحملوا على خالد ويخلصوه من يده اذ قد أقبلت جيوش المسلمين ، وأبطال الموحدين مع الأمير أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه كان قد سار من بصرى فوجدوه ، وقد أخذ عزازير فى تلك الساعة ، فلما نظرت عساكر دمشق الى جيوش المسلمين قد أقبلت داخلهم الجزع والفزع فوقفوا عن الحملة . قال حدثنى عمر بن قيس عن شعيب عن عبد الله عن هلال القشعمى قال لما قدم الأمير أبوعبيدة سأل عن خالد فقالوا انه فى ميدان الحرب ، وقد أسر بطريق الروم فدنا أبوعبيدة اليه وهمّ أن يترجل فأقسم عليه خالد أن لايفعل وأقبل عليه وصافحه ، وكان أبوعبيدة يحب خالدا لمحبة رسول الله ﷺ . فقال أبوعبيدة لخالد ياأبا سليمان : لقد فرحت بكتاب أبى بكر الصدّيق حين قدمك علىّ وأمرك علىّ وماحقدت فى قلبى عليك لأنى أعلم مواقفك فى الحرب . فقال خالد : والله لافعلت أمرا الابمشورتك ووالله لولا أمر الامام طاعة لما فعلت ذلك أبدا لأنك أقدم منى فى دين الاسلام وأنا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت قال فيك : أبوعبيدة أمين هذه الأمة فشكره

أبو عبيدة وقدّم لخالد جواده فركبه ، وقال خالد لأبى عبيدة اعلم أيها الأمير أن القوم قد خذلوا ووقع الرعب فى قلوبهم ، وأهينوا بأخذ كاوس وعزازير . قال وسار مع أبى عبيدة يحدّثه بما صار من البطريقين ، وكيف نصره الله عليهما الى أن أتيا الدير فنزلا هناك ، وأقبل المسلمون يسلم بعضهم على بعض . فلما كان الغد ركب الناس وتزينت المواكب وزحف أهل دمشق للقتال وقد أمّروا عليهم صهر الملك هرقل ، ولما أقبلوا قال خالد لأبى عبيدة ان القوم قد انخذلوا ووقع الرعب فى قلوبهم فاحمل بناعلى القوم . قال أبو عبيدة : افعل قال فحمل خالد وحمل أبو عبيدة وحمل المسلمون على عساكر الروم حملة عظيمة وكبروا بأجمعهم فارتجت الأرض من تكبيرهم ووقع القتل فى الروم ، وجاهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جهادا عظيما ، وذهلت منهم الكفار . قال عامر بن الطفيل : لقد كان الواحد منا يهزم من الروم العشرة والمائة . قال فما لبثوا معنا ساعة واحدة حتى ولوا الأدبار ، وركنوا الى الفرار ، وأقبلنا نقتل فيهم من الدير الى الباب الشرقى . فلما نظر أهل دمشق الى انهزام جيشهم أغلقوا الأبواب فى وجه من بقى منهم . قال قيس ابن هبيرة رضى الله عنه : فنهم من قتلناه ، ومنهم من أسرناه ، فلما رجع خالد عنهم قال لأبى عبيدة ان من الرأى أن أنزل أنا على الباب الشرقى وتنزل أنت على باب الجابية . فقال أبو عبيدة : هذا هو الرأى السديد .

[قال حدّثنا] سهل بن عبد الله عن أويس بن الخطاب أن الذى قدم مع الأمير أبى عبيدة من المسلمين من أهل الحجاز واليمن وحضرموت وساحل عمان والطائف وما حول مكة كان سبعة وثلاثين ألف فارس من الشجعان ، وكان مع عمرو بن العاص تسعة آلاف فارس ، والذين قدم بهم خالد بن الوليد رضى الله عنه من العراق ألف فارس وخمسمائة فارس فكان جملة ذلك سبعة وأربعين ألفا وخمسمائة غير ماجهز عمر بن الخطاب فى خلافته ، وسنذكر ذلك اذا وصلنا اليه ان شاء الله تعالى ، هذا وان خالدا نزل بنصف المسلمين على الباب الشرقى ونزل أبو عبيدة بالنصف الثانى على باب الجابية . فلما نظر أهل دمشق الى ذلك نزل الرعب فى قلوبهم ، ثم ان خالدا أحضر البطريقين بين يديه وهما كاوس وعزازير فعرض عليهما الاسلام فأبيا فأمر ضرار بن الأزور أن يضرب عنقيهما ففعل . قال : فلما نظر أهل دمشق مافعلوا بالبطريقين كتبوا الى الملك كتابا يخبرونه بما جرى على كاوس وعزازير ، وقد نزلت العرب على الباب الشرقى و باب الجابية ، وقد نزلوا بشبانهم وأولادهم وقد قطعوا أرض البلقاء وأرض السواد ووصفوا له ماملك العرب من البلاد فأدركنا والا سلمنا اليهم البلد ، ثم سلموا الكتاب الى رجل منهم وأعطوه أوفى أجرة وأدلوه بالحبل من أعلى الأسوار فى ظلمة الاعتكار .

[قال الواقدى] وان الرجل وصل الى الملك هرقل ، وهو بأرض أنطاكية فاستأذن عليه فأمر له بالدخول . فلما دخل سلم الكتاب اليه . فلما قرأه الملك رماه من يده وبكى ، ثم انه جمع البطارقة . وقال لهم : يابنى الأصفر لقد حذرتكم من هؤلاء العرب ، وأخبرتكم أنهم سوف يملكون ماتحت سريرى هذا فاتخذتم كلامى هزؤا وأردتم قتلى وهؤلاء العرب خرجوا من بلاد الجدب والقحط وأكل الذرة والشعير الى بلاد خصبة كثيرة الأشجار والثمار والفواكه فاستحسنوا مانظروه من بلادنا وخصبنا وليس يزجرهم شىء لما هم فيه من العزم والقوة وشدة الحرب ولولا

أنه عار عليّ لتركت الشام ورحلت الى القسطنطينية العظمى ، ولـكن ها أنا أخرج اليهم وأقاتلهم عن أهلى ودينى . فقالوا أيها الملك مابلغ من شأن العرب أن تخرج اليهـم بنفسك وقعودك أهيب قال الملك هرقل نبعث اليهم ، قالوا عليك أيها الملك بوردان صاحب حمص لأنه ليس فينا مثله فى القوة ومـلاقاة الرجال ، ولقد بين لنا شجاعتـه فى عساكر الفرس لما قصدونا . قال فأمر الملك باحضاره ، فلما حضر وردان قال له الملك انما قدمتك لأنك سيفى القاطع وسندى المانع فاخرج من وقتك وساعتك ولا تتأخر ، فقد قدّمتك على اثنى عشر ألفا ، فاذا وصلت الى بعلبك فانفذ الى من بأجنادين بأن يتفرقوا فى أرض البلقاء وجبال السواد فيكونوا هناك ولا تتركوا أحـدا من العرب يلحق بأصحابه ، يعنى عمرو بن العاص رضى الله عنه . فقال وردان : السمع والطاعة لك أيها الملك وسوف يبلغك الخبر أنى لاأعود الا برأس خالد بن الوليد ومن معه أهزمهم جميعا وبعد ذلك أدخـل الحجاز ولا أخرج حتى أهدم الـكعبة ومكة والمدينـة . قال فلما سمع الملك هرقل قوله قال وحق الانجيـل لئن أنت فعلت ذلك ووفيت بقولك لأعطينك مافتحوه حرثا وخراجا وكتبت كتاب العهد أنك الملك من بعدى ، ثم سوّره وتوجه وأعطاه صليبا من الذهب وفى جوانبه أربع يواقيت لاقيمة لها ، وقال اذا لاقيت العرب فقدمه أمامك فهو ينصرك ، قال فلما تسلم وردان الصليب من وقتـه دخل الـكنيسة وانغمر فى ماء المعمودية وبخروه ببخور الـكنائس وصـلى عليـه الرهبان وخرج من وقته فضرب خيامه خارج المدينة . قال وأخـذت الروم على أنفسهم بالرحيل ، فلما تـكاملوا ركب الملك هرقل وسار لوداعهم وصحبته أرباب دولته فوصل معهم الى جسر الحديد بها فودعه الملك وسار الى أن وصل الى حماة فنزل بها وأنفذ من وقته كتابا الى من بأجنادين من جيوش الروم يأمرهم ليتفرقوا فى سائر الطرقات ليمنعوا عمرو بن العاص ومن معه أن يصلوا الى خالد ، فلما سار الرسول بالـكتاب جمع وردان اليه البطارقة وقال لهم : انى أريد أن أسير على حين غفلة على طريق مارس حتى أكبس على القوم ولا ينجو منهم أحد ، فلما كان الليل رحل على طريق وادى الحياة .

[قال حدّثنى شداد بن أوس] قال : لما دخل خالد بن الوليـد رضى الله عنـه بعد قتل البطريقين أمر المسلمين أن يزحفوا الى دمشـق . قال فزحف منا الرجال من العرب وبأيديهـم الحجف يتلقون بها الحجارة والسـهام ، فلما نظر أهـل دمشق الينا ، ونحن قد زحفنا اليهم رمونا بالسهام والحجارة من أعلى الأسوار ، وضيقنا عليهـم فى الحصار ، وأيقن القوم بالدمار . قال شداد ابن أوس فأقمنا على حصارهم عشرين يوما ، فلما كان بعـد ذلك جاءنا ناوى بن مرّة وأخبرنا عن جموع الروم بأجنادين وكثرة عددهم فركب خالد نحو باب الجابية إلى أبى عبيدة يخبره بذلك ويستشـيره وقال ياأمين الأمة انى رأيت أن نرحـل من دمشق إلى أجنادين ، ونلقى من هناك من الروم ، فاذا نصرنا الله عليهم عدنا الى قتال هؤلاء القوم . قال أبو عبيدة ليس هذا برأى قال خالد ولم ذلك ؟ . قال أبو عبيدة اذا رحلنا يخرج أهـل المدينة فيملـكون مواضعنا ، فلما سمع خالد ذلك من أبى عبيدة . قال ياأمين الأمة انى أعرف رجلا لايخاف الموت خبيرا بلقاء الرجال قد مات أبوه وجدّه فى القتال . قال ومن هـذا الرجل ياأبا سليمان ؟ . قال هو ضرار بن الأزور بن طارق . قال أبو عبيدة : والله لقد صـدقت ووصفت رجلا باذلا معروفا فافعل . قال فرجع خالد الى

بابه واستدعى بضرار بن الأزور فجاء اليه وسلم عليه . فقال : يا ابن الأزور انى أريد أن أقدمك على خمسة آلاف قد باعوا أنفسهم لله عزوجلّ واختاروا دار البقاء والآخرة على الأولى ، وتسيروا الى لقاء العدوّ هؤلاء القوم الذين وردوا علينا ، فان رأيت لك فيهم طمعا فقاتلهم ، وان رأيت أنك لاتقدر عليهم فابعث إلينا رسولك . فقال ضرار بن الأزور وافرحتاه ، والله يا ابن الوليد مادخل قلبي مسرة أعظم من هذه فاتركني أسير وحدى . قال خالد لعمرى انك ضرار ، ولكن لاتلق نفسك الى الهلاك وسر بما ندب معك من المسلمين . قال فقام ضرار رضى الله عنه مسرعا فقال خالد ارفق بنفسك حتى يجتمع عليك الجيش . فقال : والله لاوقفت ومن علم الله فيه خيرا أدركنى ثم ركب ضرار وأسرع الى أن وصل الى بيت لهيا ، وهو الموضع الذى كان يصنع فيه الأصنام فوقف هناك حتى لحق به أصحابه . فلما تكاملوا نظر ضرار ، واذا بجيش الروم ينحدر كأنه الجراد المنتشر وهم غائصون فى الدروع وقد أشرقت الشمس على لأماتهم وطوارقهم . فلما نظر اليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لضرار : أما والله ان هذا الجيش عرمرم والصواب أننا نرجع . فقال ضرار ، والله لازلت أضرب بسيفى فى سبيل الله واتبع سبيل من أناب الى الله ولا يرانى الله مهزوما ، ولا أولى الدبر لأن الله تعالى يقول — فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرّفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله — وتكلم رافع بن عميرة الطائى وقال ياقوم وما الخيفة من هؤلاء العلوج ؟ أما نصركم الله فى مواطن كثيرة والنصر مقرون مع الصبر ولم تزل طائفتنا تلق الجموع الكثيرة والجموع اليسيرة فاتبعوا سبيل المؤمنين وتضرعوا الى رب العالمين وقولوا كما قال قوم طالوت عند لقائهم جالوت — ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين — . فلما سمع ضرار كلامهم وأنهم اشتروا الآخرة على الأولى كمن بهم عند بيت لهيا وأخفى أمره وجلس عارى الجسد بسراويله على فرسله عربى بغير سلاح و بيده قناة كاملة الطول وهو يوصى القوم .

[قال الواقدى] هكذا حدثنى تميم بن أوس عن جده عمرو بن دارم . قال كنت يوم بيت لهيا ممن صحب ضرار بن الأزور رضى الله عنه وهو بهذه الصفة رغبة منه فى الشهادة . فلما قارب العدوّ كان أوّل من برز وكبر ضرار بن الأزور قبل فأجابه المسلمون بتكبيرة واحدة رعبت منها قلوب المشركين وفاجئوهم بالحملة ونظروا الى ضرار بن الأزور وهو فى أوّل القوم وهو فى حالته التى وصفناها فهالهم أمره ، وكان وردان فى المقدمة والاعلام والصلبان مشتبكة على رأسه . قال فما طلب ضرار غيره لأنه علم أنه صاحبهم فحمل عليه غير مكترث به وطعن فارسا كان فى يده العلم فتجندل من على فرسه قتيلا ، ثم انه طعن آخر فى الميمنة فارداه وحمل يريد القلب ، وكان قد عاين وردان والصليب على رأسه يحمله فارس من الروم والجواهر تلمع من أربع جوانبه فعارضه ضرار وطعن حامله طعنة عظيمة فخرج السنان يلمع من خاصرته . قال فسقط الصليب منكسا الى الأرض . فلما نظر وردان الى الصليب أيقن بالهلاك ، وهمّ أن يترجل لأخذه أو يميل فى ركابه ليأخذه فما وجد لذلك سبيلا لما قد أحدق به وترجل عليه قوم من المسلمين ليأخذوه وقد اشتغل كل عن نفسه ونظر ضرار الى من ترجل لأخذ الصليب . فقال معاشر المسلمين ان الصليب لى دونكم وأنا صاحبه فلا تطمعوا فانى اليه راجع اذافرغت من كلاب الروم . قال فسمع ذلك وردان

وكان يعرف العربية فعطف من القلب يريد الهرب . فقالت البطارقة الى أين أيها السيد أتفرّ من الشيطان فما رأينا أدنى من منظره ولاأهول من مخبره ، ونظر اليه ضرار وقد عطف راجعا فعلم أنه قد عزم على الهرب فصاح بقومه ثم اقتحم فى أثره ومدّ رمحه وهمز جواده فتصارخت به الروم وعطفت عليه المواكب من كل جانب فأنشد يقول :

الموت حق أين لى منه المفر   وجـنة الفردوس خير المستقر
هذا قتالى فاشهدوا يامن حضر   وكل هـذا فى رضا رب البشر

ثم اخترق القوم وحمل عليهم وحمل المسـلمون فى أثره فاحـدقوا بهم من كل مكان ، ونظروا إلى ضرار وقد قصده وردان صاحب حمص عند ماعلم أنه اخترق القوم فمدّ اليه رمحه وقد أحدقت به بطارقته وضرار يمانع عن نفسه يمينا وشمالا فما طعن أحـدا إلا أباده الى أن قتل من القوم خلقا كثيرا ، وهو يصرخ بقومه : ويقول — ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص — قال وأكبت عليه جيوش الروم من كل جانب ومكان واشتعل الحرب بينهم ووصل همدان بن وردان الى ضرار بن الأزور ورماه بسهم . فأصاب عضده الأيمن فوصل السهم اليـه فأوهنه وأحس ضرار بالألم فحمل على همدان وصمم عليـه برمحه وطعنه . فأصاب بالطعنة فؤاده فوصل السنان الى ظهره فجذب الرمح منـه فلم يخرج ، واذا به قد اشتبك فى عظم ظهره فخرج الرمح من غير سنان فطمعوا فيه وحملوا عليه وأخذوه أسيرا ، فنظر أصحاب رسول الله ﷺ الى ضرار وهو أسـير فعظم الأمر عليهم وقاتلوا قتالا شـديدا ليخلصوه فما وجدوا الى ذلك سبيلا وأرادوا الهرب . فقال رافع بن عميرة الطائى ياأهل القرآن الى أين تريدون ؟ أما علمتم أن من لوى ظهره لعدوّه فقد باء بغضب من الله ، وان الجنة لها أبواب لاتفتح الا للمجاهدين ، الصبر الصبر ، الجنة الجنة ، ياأهل الكتاب كرّوا على الكفار عباد الصلبان ، وهاأنا معكم فى أوائلكم ، فان كان صاحبكم أسر أوقتل فان الله حىّ لايموت ، وهو يراكم بعينه التى لاتنام ، فرجعوا وحملوا معه ، قال ووصل الخبر الى خالد أن ضرار قد أسر بيد الروم ، وأنه قتل من الروم خلقا كثيرافعظم ذلك على خالد ، وقال فى كم العدوّ ؟ قالوا فى اثنى عشر ألف فارس . فقال والله ماظننت الاأنهم فى عدد يسير ، ولقد غررت بقومى ، ثم سأل عن مقدمهم من يكون ؟ فقيل وردان صاحب حمص ، وقد قتل ضرار ولده همدان ، فقال : لاحول ولاقوّة الا بالله العلىّ العظيم ، ثم أرسل الى أبى عبيدة يستشيره فبعث اليـه أبو عبيدة يقول له : اترك على الباب الشرقى من تثق به وسر اليهم فانك تطحنهم باذن الله تعالى . فلما وصل الجواب الى خالد قال والله ماأنا ممن يبخل بنفسه فى سبيل الله ثم أوقف بالمكان ميسرة بن مسروق العبسى رضى الله عنه ومعه ألف فارس ، وقال له احذر أن تنفذ من مكانك . فقال ميسرة حبا وكرامة وعطف خالد بالناس ، وقال لهم أطلقوا الأعنة وقوّموا الأسنة فاذا أشرفتم على العدوّ فاحملوا حملة واحدة ليخلص فيها ضرار ان شاء الله تعالى ان كانوا أبقوا عليه ، والله ان كانوا عجلوا عليه لنأخذن بثأره ان شاء تعالى وأرجو أن لايفجعنا به ، ثم تقدم أمام القوم وجعل يقول :

اليوم يوم فاز فيه من صـدق   لاأرهب الموت إذا الموت طرق
لأرويّن الرمح من ذوى الحدق   لأهتكنّ البيض هتـكا والدرق

عسى أرى غدامقام من صدق في جنـة الخلد وألقى من سبق

فبينما خالد يترنم بهـذه الأبيات ، اذ نظر الى فارس على فرس طويل و بيده رمح طويل وهو لايبين منه الا الحدق والفروسية تلوح من شمائله وعليه ثياب سود وقد تظاهر بها من فوق لامته وقد حزّم وسطه بعمامة خضراء وسحبها على صدره ومن ورائه وقد سبق أمام الناس كأنه نار ، فلما نظره خالد قال ليت شعرى من هـذا الفارس وايم الله إنه لفارس شجاع ، ثم اتبعه خالد والناس ، وكان هـذا الفارس أسبق الناس الى المشركين . قال وكان رافع بن عميرة الطائى رضى الله عنـه فى قتال المشركين وقد صبر لهم هو ومن معه اذ نظر خالدا وقد أنجده هو ومن معه من المسلمين ، ونظر الى الفارس الذى وصفناه وقد حمل على عساكر الروم كأنه النار المحرقة فزعزع كتائبهم وحطم مواكبهم ، ثم غاب فى وسطهم فما كانت الاجولة الجائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء من الروم ، وقد قتل رجالا وجندل أبطالا وقد عرض نفسه للهلاك ، ثم اخترق القوم غير مكترث بهم ولاخائف وعطف على كراديس الروم فى الناس وكثر قلقهم عليه ، فأما رافع بن عميرة ومن معه فما ظنوا الا أنه خالد وقالوا ماهذه الحملات الا لخالد فهم على ذلك اذ أشرف عليهم رضى الله عنه وهو فى كبكبة من الخيل : فقال رافع بن عميرة من الفارس الذى تقدم أمامك فلقد بذل نفسه ومهجته . فقال خالد والله انى أشد إنكارا منكم له ولقد أعجبنى ما ظهر منه ومن شمائله . فقال رافع أيها الأمير انه منغمس فى عسكر الروم يطعن يمينا وشمالا . فقال خالد معاشر المسلمين احملوا بأجمكم وساعدوا المحامى عن دين الله . قال فأطلقوا الأعنة وقوّموا الأسنة والتصق بعضهم ببعض وخالد أمامهم اذ نظر الى الفارس وقد خرج من القلب كأنه شعلة نار والخيل فى أثره ، وكلما لحقت به الروم لوى عليهم وجندل ، فعند ذلك حمل خالد ومن معـه ووصل الفارس المذكور الى جيش المسلمين . قال فتأملوه فرأوه قـد تخضب بالدماء فصاح خالد والمسلمون لله درّك من فارس بذل مهجته فى سبيل الله وأظهر شجاعته على الأعداء ! كشف لنا عن لثامك . قال فمال عنهم ولم يخاطبهم وانغمس فى الروم فتصايحت به الروم من كل جانب وكذلك المسلمون ، وقال أيها الرجل الكريم : أميرك يخاطبك وأنت تعرض عنه ! كشف عن اسمك وحسبك لتزداد تعظيما فلم يردّ عليهم جوابا ، فلما بعد عن خالد سار اليه بنفسه وقال له ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبى بفعلك من أنت ؟ قال فلما لج عليه خالد خاطبه الفارس من تحت لثامه بلسان التأنيث ، وقال : انى يا أمير لم أعرض عنك الا حياء منك لأنك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور و بنات الستور ، وانما حملنى على ذلك أنى محرقة الكبد زائدة الكمد . فقال لها من أنت ؟ قالت أنا خولة بنت الأزور المأسور بيد المشركين أخى وهو ضرار وانى كنت مع بنات العرب وقد أتانى الساعى بأن ضرارا أسير فركبت وفعلت مافعلت . قال خالد نحمل بأجمعنا ونرجو من الله أن نصل الى أخيك فنفكه . قال عامر بن الطفيل : كنت عن يمين خالد بن الوليد حين حملوا وحملت خولة أمامه وحمل المسلمون وعظم على الروم مانزل بهم من خولة بنت الأزور وقالوا ان كان القوم كلهم مثل هذا الفارس فمالنا بهم من طاقة ولما حمل خالد ومن معه اذا بالروم قد اضطربت جيوشهم ونظر وردان اليهم . فقال لهم اثبتوا للقوم فاذا رأوا ثباتكم ولوا عنكم ويخرج أهل دمشق يعينونكم على قتالهم . قال فثبت المسلمون لقتال الروم وحمل خالد بالناس حملة منكرة وفرق القوم يمينا وشمالا وقصد خالد مكان صاحبهم وردان عند

اشتباك الأعلام والصلبان واذا حوله أصحاب الحديد والزرد النضيد وهم محدقون به ، فحمل خالد عليهم حملة منكرة واشتبك المسلمون بقتال الروم وكل فرقة مشغولة بقتال صاحبها . وأما خولة بنت الأزور فانها جعلت تجول يمينا وشمالا وهى لا تطلب الا أخاها وهى لاترى له أثرا ولا وقفت له على خبر الى وقت الظهر وافترق القوم بعضهم عن بعض وقد أظهر الله المسلمين على الكافرين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة . قال وتراجعت كل فرقة الى مكانها وقد كادت أفئدة الروم مما ظهر لهم من المسلمين وقد هموا بالهزيمة وما يمسكهم الا الخوف من صاحبهم وردان ، فلما رجع القوم الى مكانهم أقبلت خولة بنت الأزور على المسلمين وجعلت تسألهم رجلا رجلا عن أخيها فلم تر من المسلمين من يخبرها أنه نظره أو رآه أسيرا أو قتيلا ، فلما أيست منه بكت بكاءا شديدا وجعلت تقول يا ابن أمى ليت شعرى فى أىّ البيداء طرحوك أم بأىّ سنان طعنوك أم بالحسام قتلوك ، يا أخى أختك لك الفداء لو أنى أراك أنقذتك من أيدى الأعداء ، ليت شعرى أترى أنى أراك بعدها أبدا ، فقد تركت يا ابن أمى فى قلب أختك جمرة لايخمد لهيبها ولا يطفأ ، ليت شعرى لحقت بأبيك المقتول بين يدى النبي ﷺ فعليك منى السلام الى يوم اللقاء . قال فبكى الناس من قولها وبكى خالد وهمّ أن يعاود بالحملة اذ نظر الى كردوس من الروم قد خرج من ميمنة العقبان فتأهب الناس لحربهم وتقدم خالد وحوله أبطال المسلمين . فلما قربوا من القوم رموا رماحهم من أيديهم والسيوف وترجلوا ونادوا بالأمان . فقال خالد اقبلوا أمانهم واتئونى بهم فأتوا اليه . فقال خالد من أنتم ؟ فقالوا نحن من جند هذا الرجل وردان ومقامنا بحمص وقد تحقق عندنا أنه مايطيقكم ولا يستطيع حربكم فأعطونا الأمان واجعلونا من جملة من صالحتم من سائر المدن حتى نؤدى لكم المال الذى أردتم فى كل سنة ، فكل من فى حمص يرضى بقولنا . فقال خالد اذاوصلت الى بلادكم يكون الصلح ان شاء الله تعالى ان كان لكم فيه أرب ، ولكن نحن ههنا لا نصالحكم ولكن كونوا معنا الى أن يقضى الله ماهو قاض ، ثم ان خالدا قال لهم هل عندكم علم من صاحبنا الذى قتل ابن صاحبكم ؟ . قالوا لعله عارى الجسد الذى قتل منا مقتلة عظيمة وفجع صاحبنا فى ولده . قال خالد عنه سألتكم ؟ . قالوا بعثه وردان عندنا أسيرا على بغل ووكل به مائة فارس وأنفذه الى حمص ليرسله الى الملك ويخبره بما فعل . قال ففرح خالد بقولهم ، ثم دعا برافع بن عميرة الطائى وقال : يارافع ما أعلم أحدا أخبر منك بالمسالك وأنت الذى قطعت بنا المفازة من أرض السماوة وأعطشت الابل وأوردتها الماء وأوردتنا أركة وماوطئها جيش قبلنا لمفازتها ، وأنت أوحد أهل الأرض فى الحيل والتدبير فخذ معك من أحببت واتبع أثر القوم فلعلك أن تلحق بهم وتخلص صاحبنا من أيديهم ، فلئن فعلت ذلك لتكونن الفرحة الكبرى . فقال رافع بن عميرة حبا وكرامة ، ثم انه فى الحال انتخب مائة فارس شدادا من المسلمين وعزم على المسير فأتت البشارة الى خولة بمسير رافع بن عميرة ومن معه فى طلب أخيها ضرر فتهلل وجهها فرحا وأسرعت الى لبس سلاحها وركبت جوادها وأتت الى خالد بن الوليد ، ثم قالت له أيها الأمير سألتك بالطاهر المطهر محمد سيد البشر الا ماسرحتنى مع من سرحت فلعلى أن أكون مشاهدة لهم . فقال خالد لرافع أنت تعلم شجاعتها فخذها معك . فقال له رافع السمع والطاعة وارتحل رافع ومن معه ، وسارت خولة فى أثر القوم ولم تختلط بهم ، وسار الى أن قرب من سليمة . قال فنظر رافع فلم يجد للقوم أثرا ؟ فقال لأصحابه أبشروا فان القوم لم يصلوا الى

ههنا ، ثم انه كمن بهم فى وادى الحياة ، فبينماهم كامنون اذا بغبرة قد لاحت . فقال رافع لأصحابه أيقظوا خواطركم وانتبهوا ، فأيقظ القوم هممهم وبقوا فى انتظار العدوّ واذا بهم قد أتواوهم محدقون بضرار ، فلما رأى رافع ذلك كبر وكبر المسلمون معــه وحملوا عليهم فلم يكن غير ساعة حتى خلص الله ضرارا وقتلوهم جميعا وأخــذوا سلبهم . قال واذا بعساكر الروم قــد أقبلت منهزمة وأولهم لا يلتفت الى آخرهم ، فعــلم رافع أن القوم انهزموا فأقبل يلتقطهم بمن معه . قال وكان خالد لما أرسل رافع بن عميرة فى طلب ضرار ليخلصه ومعه المــائة فارس صــدم وردان صدمة من يحب الشهادة و يبتغى دار السعادة وصــدم المسلمون الروم ، فما لبثوا ان ولوا الأدبار وركنوا الى الفرار وكان أولهم وردان واتبعهم المسلمون وأخذوا أسلابهم وأموالهم ولم يزالوا فى طلبهم الى وادى الحياة ، فاجتمع المسلمون برافع بن عميرة الطائى وضرار بن الأزور وسلموا عليهم وفرحوا بضرار رضى الله عنــه وهنوه بالسلامة . قال وأثنى خالد على رافع خيرا ورجعوا الى دمشق وفرح المسلمون بالنصر واتصل الخبر الى الملك هرقل وان وردان قد انهزم وقتل ولده همدان . قال فأيقن بزوال ملــكه من الشام فــكتب الى وردان كتابا يقول فيــه : أما بعد فانى قد بلغنى أن جياع الأكباد عراة الأجساد قد هزموك وقتلوا ولدك رحمه المسيح ورحمك ، ولولا أنى أعلم أنك فارس الحرب ومجيد الطعن والضرب وليس النصر آتيك لحل عليك سخطى والآن مضى مامضى ، وقــد بعثت الى أجنادين تسعين ألفا ، وقد أمرتك عليهم فسر نحوهم وانجد أهل دمشق وأنفذ بعضهم ليمنعوا من فى فلسطين من العرب وحل بينهم و بين أصحابهم وانصر دينك وصاحبك . قال وانفذ اليه الــكتاب مع خيل البريد ، فلما ورد عليه الــكتاب وقرأه سرّى عنه بعض ما كان يجده وأخذ الأهبة الى أجنادين فسار فوجد الروم قــد تجمعوا وأظهروا العدد والزرد وخرجوا الى لقائه وسلموا عليــه وتقدموا بين يديه وعزوه فى ولده ، فلما استقر قراره قرأ عليهم منشور الملك فأجابوا بالسمع والطاعة وأخذوا على أنفسهم .

[قال حدثنى] روح بن طريف قال : كنت مع خالد بن الوليد على باب شرقىّ حين رجعنا من هزيمة وردان واذ قد ورد علينا عباد بن ســعد الحضرمى ، وكان قد بعثه شرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ من بصرى يعلم خالدا بمسير الروم اليه من أجنادين فى تسعين ألف فارس نفذ أهبتك للقائهم . قال فلما ســمع خالد ذلك ركب الى أبى عبيدة وقال له : ياأمين الأمة هذا عباد بن ســعد الحضرمى قد بعث به شرحبيل بن حســنة يخبرأن طاغية الروم هرقل قد ولى وردان على من تجمع باجنادين من الروم وهم تسعون ألفا فما ترى من الرأى ياصاحب رسول الله . فقال أبو عبيدة : اعلم ياأبا سليمان أن أصحاب رسول الله ﷺ متفرقون مثل شرحبيل بن حسنة بأرض بصرى ، ومعاذ بن جبل بحوران ، ويزيد بن أبى سفيان بالبلقاء ، والنعمان بن المغيرة بأرض تدمر وأركة ، وعمرو بن العاص بأرض فلسطين ، والصواب ان تــكتب اليهم ليقصدونا حتى نقصد العدوّ ومن الله نطلب المعونة والنصر . قال فــكتب خالد الى عمرو بن العاص كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعــد فان إخوانــكم المســلمين قد عوّلوا على المسير الى اجنادين فان هناك تســعين ألفا من الروم يريدون المسير الينا — يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الــكافرون — فاذا وصــل اليك كتابى هــذا فاقدم علينا بمن معك الى أجنادين

تجدنا هناك ان شاء الله تعالى والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته ، وكتب نسخة الكتاب الى جميع الأمراء الذين ذكرناهم ثم أمر الناس بالرحيل فرفعت القباب والهوادج على ظهور الجمال وساقوا الغنائم والأموال . فقال خالد لأبى عبيدة قد رأيت رأيا أن أكون على الساقة مع الغنائم والأموال والبنين والولدان وكن أنت على المقدمة مع خاصة أصحاب رسول الله ﷺ . فقال أبو عبيدة بل أكون أنا على الساقة وأنت على المقدمة مع الجيش . فان وصل إليك جيش الروم مع وردان يجدوك على أهبة فتمنعهم من الوصول الى الحريم والأولاد فلا يصلون إلينا إلا وأنت قتلت فيهم والا كنت أنا ومن معى غنيمة لهم اذا كنت أنافى المقدمة . فقال خالد لست أخالفك فيما ذكرت . ثم ان خالدا قال أيها الناس انكم سائرون إلى جيش عظيم فأيقظوا هممكم ، وإن الله وعدكم النصر وقرأ عليهم قوله تعالى — كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين — ثم ان خالدا أخذ الجيش وسار فى المقدّمة وبقى أبو عبيدة فى ألف من المسلمين ، ونظر الى ذلك أهل دمشق فعطفوا عليهم وأقبلوا بسيوفهم وهم يظنون أنهم منهزمون لأجل ما بلغهم من الجيش العظيم الذى هو باجنادين . فقال لهم عقلاؤهم ان كانوا سائرين على طريق بعلبك فأنهم يريدون فتحها وفتح حمص ، وإن كانوا على طريق مرج راهط فالقوم لاشك هاربون الى الحجاز ويتركون ما أخذوا من البلاد . قال وكان بدمشق بطريق يقال له بولص وكان عظيما عند النصرانية ، وكان اذا قدم على الملك يعظمه ، وكان الملعون فارسا وذلك انهم كان عندهم شجرة فرماها بسهم فغاص السهم فى الشجرة من قوّة ساعده . ثم ان من عجبه كتب عليها ان كل من يدّعى الشجاعة فليرم بسهمه الى جانب سهمى ، وكان قد شاع ذكره بذلك ولم يحضر قتال المسلمين منذ دخلوا دمشق ، فلما اجتمعوا عليه قال لهم بولص ما الذى حلّ بكم ؟ فأعلموه بما جرى عليهم من المسلمين وقالوا له : ان كنت تريد حياة الأبد عند الملك وعند المسيح وعند أهل دين النصرانية فدونك والمسلمين فاخرج اليهم واخطف كل من تخلف منهم ، وان رأيت لنا فيهم مطمعا قاتلناهم . فقال بولص انما كان سبب تخلفى عن نصرتكم لأنكم قليلو الهمة لقتال عدوّكم فتخلفت عنكم والآن لاحاجة لى فى قتال العرب . فقالوا وحق المسيح والانجيل الصحيح لئن سرت فى مقدمتنا لنثبتن معك وما منا من يولى عنك وقد حكمناك فيمن ينهزم أن تضرب عنقه ولا يعارضك فى ذلك أحد . قال فلما استوثق منهم دخل الى منزله ولبس لامته . فقالت له زوجته : الى أين عزمت ؟ . قال أخرج فى أثر العرب فقد ولانى أهل دمشق عليهم . فقالت لاتفعل والزم بيتك ولا تطلب ما ليس لك به حاجة فانى رأيت لك فى المنام رؤيا . فقال لها وما الذى رأيتى ؟ . قالت رأيتك كأنك قابض قوسك وأنت ترمى طيورا وقد سقط بعضها على بعض ، ثم عادت صاعدة فبينما أنا متعجبة اذ أقبلت نحوك سحابة من الجوّ فانقضت عليك من الهواء وعلى من معك فجعلت تضرب هاماتهم ثم وليتم هاربين ، ورأيتها لا تضرب أحدا الا صرعته ثم انى انتبهت وأنا مذعورة باكية العين عليك . فقال لها ومع ذلك رأيتينى فيمن صرع قالت نعم وقد صرعك فارس عظيم . قال فلطم وجهها وقال لا بشرك المسيح بخير لقد دخل رعب العرب فى قلبك حتى صرت تحلمين بهم فى النوم فلا بدّ أن أجعل لك أميرهم خادما وأجعل أصحابه رعاة الغنم والخنازير . فقالت له زوجته افعل ما تريد فقد نصحتك . قال فلم يلتفت الى كلامها وخرج من عندها وركب وسار معه

من كان فى دمشق من الروم ، ففرضهم فاذاهم ستة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل من أهل النجدة والحية وسار يطلب القوم ، وكان خالد فى المقدمة وأبو عبيدة يمشى مع الأموال والأغنام والجمال إذ نظر رجل من أصحابه ، وهو يتأمل الغبرة من ورائهم ، فسأله أبو عبيدة عن ذلك فقال أظنها غبرة القوم . فقال أبو عبيدة ان أهل الشام قد طمعوا فينا ، وهذا العدوّ قاصد الينا . قال فما استتم كلامه حتى بدت الخيل كأنها السيل و بولص فى أوائلهم . فلما نظر الى أبى عبيدة قصده ومعه الفرسان وأخوه بطرس قصد الحريم والمال فاقتطعوا منها قطعة . فلما احتوى عليها رجع بها بطرس نحو دمشق . فلما بعد بها جلس هناك لينظر ما يكون من أمر أخيه . وأما أبو عبيدة فانه لما نظر الى مافاجأه من الروم . قال والله لقد كان الصواب مع خالد لما قال دعنى فى الساقة فلم أدعه وانه قد وصل اليه بولص وقصده والأعلام والصلبان على رأسه مشتبكة والنساء يولولن والصبيان يصيحون والألف من المسلمين قد اشتغلوا بالقتال وقد قصد عدوّ الله بولص أبا عبيدة واشتد بينهم الحرب ووقع القتال من أصحابه والروم وارتفعت الغبرة عليهم وهم فى كرّ وفرّ على أرض سحورا . قال وقد بلى أبو عبيدة بالقتال وصبر صبر الكرام . قال سهيل بن صباح ، وكان تحتى جواد محجل من خيل اليمن شهدت عليه اليمامة فقوّمت السنان وأطلقت العنان فخرج كأنه الريح العاصف ، فما كان غير بعيد حتى لحقت بخالد بن الوليد والمسلمين فأقبلت اليهم صارخا وقلت : أيها الأمير أدرك الأموال والحريم . فقال خالد ماوراءك ياابن الصباح ؟ . فقلت أيها الأمير الحق أبا عبيدة والحريم فان نفير دمشق قد لحق بهم ، وقد اقتطعوا قطعة من النسوان والولدان وقد بلى أبو عبيدة بما لاطاقة لنا به . قال فلما سمع خالد ذلك الكلام من سهيل بن صباح قال إنا لله و إنا اليه راجعون ، قد قلت لأبى عبيدة دعنى أكون على الساقة ، فما طاوعنى ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ثم أمر رافع بن عميرة على ألف من الخيل . وقال له كن فى المقدّمة وأمر عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق على ألفين . وقال له أدرك العدوّ وسار خالد فى أثره ببقية الجيش . قال فبينما أبو عبيدة فى القتال مع بولص لعنه الله إذ تلاحقت به جيوش المسلمين وحملوا على أعداء الله وداروا بهم من كل مكان ، فعندذلك تنكست الصلبان ، وأيقن الروم بالهوان ، وتقدّم الأمير ضرار بن الأزور كأنه شعلة نار وقصد نحو بولص . فلما رآه عدوّ الله تبلبل خاطره ووقعت الرعدة فى فرائصه . وقال لأبى عبيدة : ياعربى وحق دينك الا ماقلت لهذا الشيطان يبعد عنى وكان بولص قد سمع به ورآه من سور دمشق وما صنع بعسكر كاوس وعزازير وسمع بفعاله فى بيت لهيا ، فلما رآه مقبلا إليه عرفه . فقال لأبى عبيدة قل لهذا الشيطان لايقربنى فسمعه ضرار رضى الله عنه . فقال له أنا شيطان ان قصرت عن طلبك ، ثم انه فاجأه وطعنه ، فلما رأى بولص ان الطعنة واصلة إليه رمى نفسه عن جواده وطلب الهرب نحو أصحابه فسار ضرار فى طلبه . وقال له أين تروح من الشيطان وهو فى طلبك ؟ ولحقه وهمّ ان يعلوه بسيفه . فقال بولص : يابدوى أبق علىّ ففى بقائى بقاء أولادكم وأموالكم . قال فلما سمع ضرار قوله أمسك عن قتله وأخذه أسيرا ، هذا والمسلمون قد قتلوا من الروم مقتلة عظيمة .

[قال حدّثنى] أسلم بن مالك اليربوعى عن أبى رفاعة بن قيس . قال كنت يوم وقعة سحورا مع المسلمين وكنت فى خيل عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . قال فدرنا

بالروم من كل جانب و بذلنا أسيافنا فى القوم ، وكانوا ستة كتائب فى كل كتيبة ألف فارس قال رفاعة بن قيس : فوالله لقد حملنا يوم فتح دمشق وانه مارجع منهم فوق المائة ووجه خبر لضرار أن خولة مع النسوان المأسورات فعظم ذلك عليه وأقبل على خالد وأعلمه بذلك ، فقال له خالد لاتجزع ، فقد أسرنا منهم خلقا كثيرا ، وقد أسرت أنت بولص صاحبهم وسوف نخلص من أسر من حريمنا ولا بدّلنا من دمشق فى طلبهم ، ثم أمر خالد أن يسيروا بالناس على مهل حتى ننظر ما يكون من أمر حريمنا . ثم إنه سار فى ألف فارس جريدة و بعث العسكر كله الى أبى عبيدة مخافة أن يلحقهم وردان بجيوشه فسار القوم وتوجه خالد بمن معه فى طلب المأسورات ، وقد قدّم أمامه رافع بن عميرة الطائى وميسرة بن مسروق العبسى وضرار بن الأزور .

[قال حدثنى] سعيد بن عمر عن سنان بن عامر اليربوعى ، قال سمعت حبيب بن مصعب يقول : لما اقتطعوا من ذكرنا من نساء العرب سار بهم بطرس أخو بولص الى أن نزل بهم الى النهر الذى ذكرناه ، ثم قال بطرس أنا أبرح من ههنا حتى أنظر ما يكون من أمر أخى ، ثم انه عرض عليه النساء المأسورات فلم يعجبه منهن الاخولة بنت الأزور أخت ضرار . قال بطرس هذه لى وأنا لها لايعارضنى فيها أحد ، فقال له أصحابه هى لك وأنت لها . قال وكل من سبق الى واحدة يقول هى لى حتى قسموا الغنيمة على ذلك ، ووقفوا ينتظرون ما يكون من أمر بولص وأصحابه ، وكان فى النساء عجائز من حمير وتبع من نسل العمالقة والتبابعة وكنّ قد اعتدن ركوب الخيل وخوضات الليل والهجوم على القبائل . قال فاجتمعت النساء بعضهن على بعض . فقالت لهن خولة بنت الأزور : يابنات حمير بقية تبع أترضين بأنفسكن علوج الروم ، ويكون أولادكن عبيدا لأهل الشرك ، فأين شجاعتكن وبراعتكن التى تتحدث بها عنكن فى أحياء العرب ومحاضر الحضر ولاأراكن الابمعزل عن ذلك ، وانى أرى القتل عليكن أهون من هذه المصائب ومانزل بكم من خدمة الروم الكلاب ، فقالت عفرة بنت غفار الحميرية صدقت ، ووالله يابنت الأزور نحن فى الشجاعة كما ذكرت ، وفى البراعة كما وصفت ، لنا المشاهد العظام والمواقف الجسام ، ووالله لقد اعتدنا ركوب الخيل وهجوم الليل غير أن السيف يحسن فعله فى مثل هذا الوقت ، وانما دهمنا العدوّ على حين غفلة ، وما نحن الا كالغنم ، فقالت خولة يابنات التبابعة والعمالقة خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ونحمل بها على هؤلاء اللئام فلعل الله ينصرنا عليهم أونستريح من معرّة العرب ، فقالت عفرة بنت غفار والله مادعوت الاماهو أحب الينا مما ذكرت ، ثم تناولت كل واحدة عمودا من أعمدة الخيام وصحن صيحة واحدة وألقت خولة على عاتقها عمود الخيمة وسعت من ورائها عفرة وأمّ أبان بنت عتبة وسلمة بنت زراع ولبنى بنت حازم ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت النعمان ، ومثل هؤلاء رضى الله عنهن . فقالت لهن خولة : لاينفك بعضكن عن بعض ، وكنّ كالحلقة الدائرة ولاتتفرقن فتملكن فيقع بكنّ التشتيت واحطمن رماح القوم واكسرن سيوفهن . قال فهجمت خولة أمامهن ، فأول ماضربت رجلا من القوم على هامته بالعمود فتجندل صريعا والتفت الروم ينظرون ماالخبر ، فاذاهم بالنسوة ، وقد أقبلن والعمد بأيديهن فصاح بطريق ياويلكنّ ماهذا ، فقالت عفرة هذه فعالنا فلنضرب القوم بهذه الأعمدة ولابد من قطع أعماركم وانصرام آجالكم ياأهل الكفر . قال فجاء بطرس ، وقال تفرقوا عن

النسوة ولاتبذلوا فيهن السيوف ولاأحد منكم يقتل واحدة منهن وخذوهن أسارى ومن وقع منكم بصاحبتى فلاينلها بمكروه ، فتفرّق القوم عليهن وأحدقوابهن من كل جانب وراموا الوصول اليهن فلم يجدوا الى ذلك سبيلا ولم تزل النساء لايدنو اليهن أحد من الروم الا ضربن قوائم فرسه فاذا تنكس عن جواده بادرت النساء بالأعمدة فيقتلنه ويأخذن سلاحه .

[قال الواقدى] ولقد بلغنى أن النسوة قتلن ثلاثين فارسا من الروم ، فلما نظر بطرس الى ذلك غضب غضبا شديدا وترجل وترجلت أصحابه نحو النساء والنساء يحرض بعضهن بعضا ويقلن متن كراما ولاتمتن لئاما ، وأظهر بطرس بأسه وتلهفه عندما نظر الى فعلهن ، ونظر الى خولة بنت الأزور ، وهى تجول كالأسد وتقول :

نحن بنات تبع وحمير ... وضربنا فى القوم ليس ينكر
لأننا فى الحرب نار تسعر ... اليوم تسقون العذاب الأكبر

قال فلما سمع بطرس ذلك من قولها ، ورأى حسنها وجمالها ، قال لها ياعربية أقصرى عن فعالك فانى مكرمك بكل مايسرك أما ترضين أن أكون أنا مولاك وأنا الذى تهابنى أهل النصرانية ولى ضياع ورساتيق وأموال ومواش ومنزلة عند الملك هرقل ، وجميع ماأنا فيه مردود اليك ، أماترضين أن تكونى سيدة أهل دمشق فلاتقتلى نفسك ، فقالت له ياملعون ويا ابن ألف ملعون والله لئن ظفرت بك لأقطعن رأسك والله ماأرضى بك أن ترعى لى الابل فكيف أرضاك أن تكون لى كفؤا . قال فلما سمع كلامها حرض أصحابه على القتال ، وقال أترون عارا أكبر من هذا فى بلاد الشام ان النسوة غلبنكم فاتقوا غضب الملك وغضب المسيح ابن مريم ، قال فافترق القوم وحملوا حملة عظيمة وصبر النساء لهم صبر الكرام ، فبينماهم على ذلك اذ أقبل عليهم خالد بن الوليد رضى الله عنه ومن معه من المسلمين ، ونظروا الى الغبار وبريق السيوف ، فقال لأصحابه من يأتينى بخبر القوم . فقال رافع بن عميرة الطائى أنا آتيك به . قال ثم أطلق جواده حتى أشرف على النسوة وهن يقاتلن قتال الموت . قال فرجع وأخبر خالدا بما رأى ، فقال خالد لاأعجب من ذلك انهن من بنات العمالقة ونسل التبابعة ، ومابينهن و بين تبع الاقرن واحد ، وتبع بن بكر بن حسان الذى ذكر رسول الله ﷺ قبل ظهوره ، وشهدله بالرسالة قبل أن يبعث ، وقال :

شهدت بأحمد أنه رسول ... من الله بارئ كل النسم
وأمته سميت فى الزبور ... بأمة أحمد خير الأمم
فلو مدّ عمرى الى عصره ... لكنت وزيرا له وابن عم

[قال الواقدى] قال خالد لاتعجب يارافع واعلم أن هؤلاء النسوة لهن الحروب المذكورات والمواقف المشهورات ، وان يكن فعلهن ماذكرت ، فلقد سدن على نساء العرب الى آخر الأبد وأزلن عنهن العار فتهللت وجوه الناس فرحا ووثب ضرار بن الأزور عندما سمع كلام رافع . فقال خالد مهلا ياضرار ولا تعجل ، فانه من تأنى نال ماتمنى ، فقال ضرار أيها الأمير لاصبرلى عن نصرة بنت أبى وأمى . فقال خالد قد قرب الفرج ان شاء الله تعالى ، ثم ان خالدا وثب ووثب أصحابه ، وقال معاشر الناس اذا وصلتم الى القوم فتفرقوا عليهم وأحدقوا بهم فعسى ان يخلص حريمنا ، فقالوا حبا وكرامة . ثم تقدم خالد . قال فبينما القوم فى قتال شديد مع النسوة اذ أشرفت

عليهم المواكب والكتائب والأعلام والرايات ، فصاحت خولة يابنات التبابعة ، قد جاءكم الفرج ورب الكعبة . ونظر بطرس الى الكتائب المحمدية ، وقد أشرفت نخفق فؤاده وارتعدت فرائصه وأقبل القوم ينظر بعضهم بعضا . قال فصاح بطرس يامعاشر النسوة ان الشفقة والرحمة قد دخلت فى قلبى ، لأن لنا أخوات و بنات وأمهات ، وقد وهبتكن للصليب . فاذا قدم رجالكن فأخبرنهم بذلك . ثم عطف يريد العرب اذ نظر الى فارسين ، قد خرجا من قلب العسكر أحدهما قد تكمى فى سلاحه والآخر عارى الجسد ، وقد أطلقا عنانهما كأنهما أسدان ، وكانا خالدا وضرارا ، فلما رأت خولة أخاها قالت له الى أين ؟ ياابن أمى أقبل فصاح بها بطرس انطلقى الى أخيك ، فقد وهبتك له . ثم ولى يطلب الهرب . فقالت له خولة ، وهى تهزأ به ليس هذا من شيم الكرام تظهر لنا المحبة والقرب . ثم تظهر الساعة الجفاء والتباعد وخطت نحوه . فقال قد زال عنى ما كنت أجد من محبتك . فقالت له خولة لابدلى منك على كل حال . ثم أسرعت اليه ، وقد قصده ضرار . فقال له بطرس خذ أختك عنى فهى مباركة عليك ، وهى هدية منى اليك . فقال له الأمير ضرار قد قبلت هديتك وشكرتها وانى لاأجد مكافأة لك على ذلك إلا سنان رمحى نخذ هذه منى اليك . ثم حمل عليه ضرار ، وهو يقول — واذا حييتم بتحية فحيو بأحسن منها أوردوها — ثم همهم اليه بالطعنة ووصلت اليه خولة فضربت قوائم فرسه فكبابه الجواد ووقع عدو الله الى الأرض فأدركه ضرار قبل سقوطه وطعنه فى خاصرته فأطلع السنان من الجانب الآخر فتجندل صريعا الى الأرض فصاح به خالد لله درك ياضرار هذه طعنة لايخيب طاعنها . ثم حملوا فى أعراض القوم وجميع المسلمين معهم فما كانت الاجولة جائل حتى قتل من الروم ثلاثة آلاف رجل . قال حامد بن عامر اليربوعى : لقد عددت لضرار بن الأزور فى ذلك اليوم ثلاثين قتيلا وقتلت خولة خمسة وعفراء بنت غفار الحميرية أربعة . قال وانهزم بقية القوم ، ولم يزالوا فى أدبارهم والمسلمون على أثرهم الى أن وصلوا الى دمشق فلم يخرج اليهم أحد بل زاد فزعهم واشتد الأمر عليهم ورجع المسلمون وجمعوا الغنائم والخيل والسلاح والأموال ، ثم قال خالد : الحقوا بأبى عبيدة لئلا يكون وردان وجيوشه قد لحقوا به ، فسار ضرار والقوم ، وقد جعل ضرار رأس البطريق على سنان رمحه ، ولم يزل القوم سائرين الى أن لحقوا بأبى عبيدة فى مرج الصفر ، وقد تخلف أبو عبيدة حتى أشرف المسلمون عليه فكبر وكبر خالد بن الوليد رضى الله عنه ومعه المسلمون . فلما اجتمع الناس سلم بعضهم على بعض ورأوا المأسورات وقد خلصن ، وأخبر خالد أبا عبيدة بمافعلت خولة وعفرة وغيرهن من الصحابة فاستبشر بنصر الله وعلموا أن الشام لهم . ثم دعا خالد ببولص ، فقال له أسلم والافعلت بك كما فعلت بأخيك . فقال له وماالذى صنعت بأخى . قال قتلته ، وهذه رأسه ورماها ضرار قدامه . فلما رأى رأس أخيه بكى ، وقال له لابقاء لى بعده حيا فألحقونى به . قال فقام اليه المسيب بن يحيى الفزارى رضى الله عنه فضرب عنقه بأمر خالد ثم رحل القوم .

[قال الواقدى] حدثنا سعيد بن مالك . قال لما بعث خالد الكتب الى شرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ والى يزيد بن أبى سفيان والى عمرو بن العاص قرأ كل واحد من الأمراء كتابه . قال فساروا بأجمعهم الى أجنادين لعون اخوانهم وجاءوا بعددهم وعديدهم . قال

سفينة مولى رسول الله ﷺ كنت فى خيل معاذ بن جبل ، فلما أشرفنا بأجمعنا على أجنادين كنا كلنا على سيارة واحدة فى يوم واحد ، وذلك فى شهر صفر سنة ٢٠ من الهجرة وتبادر المسلمون يسلم بعضهم على بعض ، قال ورأينا جيوش الروم فى عدد لايحصى . فلما أشرفنا عليهم أظهروا لنا زينتهم وعددهم واصطفوا مواكب وكتائب ومدوا صفوفهم ، فكانوا ستين صفا فى كل صف ألف فارس ، قال الضحاك بن عروة والله لقد دخلنا العراق ورأينا جنود كسرى فما رأينا أكثر من جنود الروم ولا أكثر من عددهم وسلاحهم . قال فنزلنا بازائهم . قال فلما كان من الغد بادرت الروم نحونا . قال الضحاك . فلما رأيناهم ، وقد ركبوا أخذنا على أنفسنا وتأهبنا ، وان خالدا ركب ، وجعل يتخلل الصفوف : ويقول اعلموا أنكم لستم ترون للروم جيشا مثل هذا اليوم ، فان هزمهم الله على أيديكم فما يقوم لهم بعدها قائمة أبدا فاصدقوا فى الجهاد وعليكم بنصر دينكم وإياكم أن تولوا الأدبار فيعقبكم ذلك دخول النار وأقرنوا المواكب ومكنوا المضارب ولاتحملوا حتى آمركم بالحملة وأيقظوا هممكم .

[قال الواقدى] ولقد بلغنى عمن أثق به أن وردان لما رأى أن أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم قد اجتمعوا وعوّلوا على حربهم جمع اليه الملوك والبطارقة وقال لهم : يابنى الاصفر اعلموا أن الملك يعوّل عليكم ، واذا انكسرتم لاتقوم لكم بعدها قائمة أبدا وتملك العرب بلادكم وتسبي حريمكم فعليكم بالصبر ولتكن حملتكم واحدة ولاتتفرقوا واعلموا أن كل ثلاثة منا بواحد منهم واستعينوا بالصليب ينصركم ، فهذا ما كان من هؤلاء . وأما خالد رضى الله عنه فانه مشى على أصحابه وقال : معاشر المسلمين من فيكم يحذر لنا القوم وينذرهم ؟ فقال ضرار بن الأزور أنا أيها الأمير . فقال خالد أنت لها والله ولكن ياضرار اذا أشرفت على القوم فاياك أن تحمل نفسك مالاتطيق ، وان تغرر بنفسك وتحمل على القوم فما أمرك الله بذلك ، فقد قال الله تعالى — ولاتلقوا بأيديكم الى التهلكة — قال فأطلق ضرار عنان جواده حتى أشرف على جيش الروم فرأى أثاثهم وخيامهم وشعاع البيض والطوارق والرايات كأجنحة الطيور ، قال وكان وردان ينظر الى نحو جيش المسلمين اذ نظر الى ضرار ، وهومشرف على القوم ، فقال للبطارقة إنى أرى فارسا قد أقبل واست أشك أنه طليعة للقوم فأيكم يأتينى به فانتدب من القوم ثلاثين فارسا وطلبوا ضرار ، فلما نظر اليهم ضرار ولى من بين أيديهم فتبعوه وظنوا أنه قد انهزم منهم ، وانما أراد بذلك أن يبعدهم عن أصحابهم ، فلما بعدوا علم أنه تمكن منهم فلوى رأس جواده اليهم وصوّب السنان عليهم ، فأول ماطعن فارسا من القوم أرداه وثنى على الآخر فأعدمه الحياة وصال فيهم صولة الاسد على الغنم ودخل رعبه فى قلوبهم فولوا منهزمين فتبعهم ، وهو يصرع منهم فارسا بعد فارس الى أن صرع منهم تسعة عشر فارسا ، فلما رأوا ذلك وقرب هو من جيوش الروم لوى راجعا الى خالد ومعه أسلابهم وخيولهم وأعلمه بما كان ، فقال له خالد ألم أقل لك لاتغرر بنفسك ولاتحمل عليهم ، فقال ان القوم طلبونى فخفت أن يرانى الله منهزما فجاهدت باخلاص ولاجرم أن الله ينصرنا عليهم والله لولاخوفى من ملامك لأحملن على الجميع . واعلم أن القوم غنيمة لنا . قال فرتب خالد عسكره ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين فجعل فى القلب معاذ بن جبل وفى الميمنة عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وفى الميسرة سعيد بن عامر وفى الجناح الايسر

شرحبيل بن حسنة ، وفى الساقة يزيد بن أبى سفيان فى أربعة آلاف فارس حول الحريم والبنات والأولاد ، ثم التفت الى النسوة وهن عفراء بنت غفار الحميرية وأم أبان ابنة عتبة وكانت عروسا قد تزوّج بها فى هذا اليوم أبان بن سعيد بن العاص والخضاب فى يدها والعطر فى رأسها ، وخولة بنت الأزور ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت زارع وغيرهن من النسوة ممن عرفن بالشجاعة والبراعة . فقال لهن خالد : يابنات العمالقة وبقية التبابعة قد فعلتنّ فعلا أرضيتنّ به الله تعالى والمسلمين ، وقد بقى لكنّ الذكر الجميل ، وهذه أبواب الجنة قد فتحت لكنّ ، وأبواب النار قد أغلقت عنكنّ وفتحت لأعدائكنّ ، واعلمن أنى واثق بكنّ . فان حملت طائفة من الروم عليكنّ فقاتلن عن أنفسكنّ ، وإن رأيتنّ أحدا من المسلمين قد ولى هاربا فدونكنّ وإياه بالأعمدة وارمين بولده وقلن له الى أين تولى عن أهلك ومالك وولدك وحريمك فانكنّ ترضين بذلك الله تعالى . فقالت عفراء بنت غفار : أيها الأمير والله لايفرحنا الا أن نموت أمامك فلنضربنّ وجوه الروم ولنقاتلنّ الى أن لاتبقى لنا عين تطرف ، والله مانبالى اذا رمينا الروم كله قال فجزاهنّ خيرا . ثم عاد الى الصفوف فجعل يطوف بينهم بفرسه ، ويحرّض الناس على القتال ، وهو ينادى برفيع صوته يامعاشر المسلمين : انصروا الله ينصركم ، وقاتلوا فى سبيل الله واحتسبوا نفوسكم فى سبيل الله ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة ، ولتكن السهام اذا خرجت من أكباد القسى كأنها من قوس واحدة . فاذا تلاصقت السهام رشقا كالجراد لم يخل أن يكون منها سهم صائب ، ــ واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ــ ، واعلموا أنكم لم تلقوا بعد هذا عدوّا مثله ، وان هذه الفئة جملتهم وأبطالهم وملوكهم فجرّدوا السيوف وأوتروا القسى وفوّقوا السهام . ثم ان خالدا أقبل ووقف فى القلب مع عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر وقيس بن هبيرة ورافع بن عميرة وذى الكلاع الحميرى وربيعة بن عامر ونظائرهم . قال فلما نظر وردان الى جيش المسلمين قد زحف : زحفوا وكانوا ملء تلك الأرض فى الطول والعرض من كثرتهم فترامى الجمعان وتلاقى الفريقان ، وقد أظهر أعداء الله الصلبان والأعلام ، ورفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير . فلما قرب القوم بعضهم من بعض خرج من علوج الروم شيخ كبير وعليه قلنسوة سوداء . فلما قرب من المسلمين نادى بلسان عربى : أيكم المقدم فليخاطبنى وليخرج الىّ وعليه أمان . قال فخرج اليه خالد بن الوليد . فقال له القسّ : أنت أمير القوم ؟ . فقال خالد : كذلك يزعمون مادمت على طاعة الله وسنة رسوله ، وان أنا غيرت أو بدّلت فلا إمارة لى عليهم ولا طاعة . قال القس : بهذا نصرتم علينا ، ثم قال : اعلم انك توسطت بلادا ماجسر ملك من الملوك أن يتعرض لها ولايدخلها ، وان الفرس دخلوها ورجعوا خائبين ، وان التبابعة أتوها وأفنوا أنفسهم عليها وما بلغوا ماأرادوا ، ولكنكم أنتم نصرتم علينا وان النصر لايدوم لكم وصاحبى وردان قد أشفق عليكم وقد بعثنى اليكم وقال : انه يعطى كل واحد منكم دينارا وثوبا وعمامة ولك أنت مائة دينار ومائة ثوب ومائة عمامة وارحل عنا بجيشكم فان جيشنا على عدد الذرّ ولاتظنّ ان هؤلاء مثل من لقيت من جموعنا ، فان الملك ماأنفذ فى هذا الجيش الا عظماء البطارقة والأساقفة . قال خالد : والله مانرجع الابإحدى ثلاث خصال : إما أن تدخلوا فى ديننا ، أو تؤدّوا الجزية ، أو القتال . وأما ماذكرت من أنكم عدد الذرّ فان الله تعالى قد وعدنا النصر

على لسان محمد ﷺ وأنزل ذلك فى كتابه العزيز . وأما ماذكرت من أن صاحبكم يعطى كل واحد منا دينارا وعمامة وثوبا فعن قريب إن شاء الله نرى ثيابكم وبلادكم وعمائمكم كل ذلك فى ملكنا وبأيدينا . فقال الراهب انى راجع الى صاحبى أخبره بجوابك ، ثم لوى راجعا وأخبر وردان بما كان من جواب خالد . فقال وردان : أيظن اننا مثل من لقيه من قبل وانما هؤلاء لحقهم الطمع اذ تقاصرنا عن قتالهم والملك قد أرسل اليهم أكابر البطارقة وما بيننا وبينهم الا جولة الجائل ثم نتركهم صرعى ، ثم رتب أصحابه وزحف وقدم أمامه الرّجالة صفا أمام القوم والخيالة وبأيديهم المزاريق والقسيّ . قال فصاح معاذ بن جبل : معاشر الناس ان الجنة قد زخرفت لكم والنار قد فتحت لأعدائكم والملائكة عليكم قد أقبلت والحور العين قد تزينت للقائكم فأبشروا بالجنة السرمدية ، ثم قرأ — ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة — بارك الله فيكم الحملة . فقال خالد : مهلا يامعاذ حتى أوصى الناس ، ومشى فى الصفوف ورتبها وقال : اعلموا أن هؤلاء أضعافكم فطاولوهم الى وقت العصر ، فانها ساعة نرزق فيها النصر ، وإياكم أن تولوا الأدبار فيراكم الله منهزمين ، ازحفوا على بركة الله تعالى . فلما تقارب الجمعان رمت الأروام سهامهم رمية واحدة . قال فقتلوا رجالا وجرحوا أناسا ، وخالد قد منع الناس من الحملة . فقال ضرار بن الأزور : ومالنا والوقوف والحق سبحانه وتعالى قد تجلى علينا ، والله مايظن أعداء الله الا أننا قد فشلنا عنهم وجزعنا ، فأمرنا بالحملة حتى نحمل معك . قال فأنت لها ياضرار ، فخرج ضرار بن الأزور ، وقال والله مامن شيء أشهى إلى قلبي من ذلك . ثم حمل ضرار وقد تدرّع بدرع كان لبطرس أخى بولص ، وألقى الزرد على وجهه وركب جواده ، وكان عليه يومئذ جبتان من جلود الفيلة كان قد أخذهما أيضا من بطرس ، وقد أخفى نفسه عن الروم بلباسه ذلك ، وقد أطلق عنانه وقوّم سنانه وحمل فى صفوف الروم فرشقوه بالسهام فلم يصل اليه منهم أذى ، وهو يخترق صفوفهم ، فما كان قدر ساعة حتى قتل من الروم عشرين فارسا ومثلها رجالة . قال عنان بن عوف النجبى : كنت ممن يعدّ قتلى ضرار بن الأزور ، وكنت كلما قتل فارسا من الروم أعدّه ، فكان جملة من قتل ضرار فى حملته هذه فرسانا ورجالا ثلاثين فارسا .

[قال عمر بن سالم] هكذا حدّثنى نوفل بن زياد . ثم انه رمى البيضة عن رأسه والزرد عن وجهه ونادى بأعلى صوته : أنا الموت الأصفر ، أنا ضرار بن الأزور ، أنا صاحبكم ، أنا قاتل همدان ابن وردان ، أنا البلاء المسلط عليكم وعلى من أشرك بالرحمن . قال فلما سمعت الروم كلامه عرفوه وتقهقروا الى ورائهم . قال فطمع فيهم وحمل على أثرهم ، فعند ذلك انطبقت عليه الروم . فقال وردان من هذا البدوى ، فقالوا أيها الملك هذا الذى بقى طول عمره عارى الجسد ، ومرة برمح ومرة بنبل . فلما سمع ذلك وبذكر ضرار بن الأزور تنفس الصعداء وقال هذا قاتل ولدى ، ولقد اشتهيت من يأخذ منه بثارى وله منى مايريد . قال فبرز اليه بطريق ، وكان صاحب طبرية ، وقال لوردان أنا آخذ لك بالثار ، ثم لوى عنانه وحمل على ضرار فجالا أكثر من ساعة ، ثم طعنه ضرار طعنة صادقة خرق بها كبد عدوّ الله فتجندل صريعا ، فقال وردان لهم ماأتى به ولو أتى به عيانا ماصدّقته ، فان هذا لاتطيق الانس أن تقاتله ، وأنا ماأرى لهذا غيرى ، ثم ترجل وغير لامته وألقى عليه درعا ، وجعل على رأسه التاج وركب جوادا من الخيول العربية وهم أن يخرج

الى ضرار بن الأزور، فتقدم اليه بطريق اسمه اصطفان، وهو صاحب عمان . قال وباس ركاب وردان وقال أيها السيد ان أخذ بثارك من هذا الذميم أوأسرته لك أتزوّجني ابنتك، فقال له وردان هي لك وأشهد عليه من حضر من ملوك الشام . فلما سمع أصطفان بذلك خرج كأنه شعلة نار وحمل على ضرار وقال له ويلك قد نزل بك مالاقدرة لك به . قال فلم يدر ضرار مايقول غير انه أخذ حذره منه، وقد أخرج أصطفان صليبا من الذهب، وجعله فى عنقه فى سلسلة من الفضة وجعل يقبله ويرفعه على رأسه فعلم ضرار انه يستنصر به عليه، فقال ضرار رضى الله عنه ان كنت تستنصر علىّ به فأنا أستنصر بالقريب المجيب الذى هو ممن دعاه قريب . ثم حمل عليه وأرى الناس أبوابا من الحرب حتى ضج الناس من قتالهما، فصاح خالد ياابن الأزور ماهذا التكاسل والتغافل والجنة قد فتحت لك والنار قد فتحت لاعدائك، واياك والكسل فان الله عز وجل يعينك قال فأيقظ ضرار نفسه وانقضّ من سرجه وحمل على خصمه وتصايحت الروم بصاحبها تشجعه وكلاهما فى ضرب عظيم، وقد حميت الشمس وتعب الجوادن . فأشار البطريق الى ضرار أن ترجل حتى نتقاتل، فهم ضرار أن يترجل شفقة على الجواد، واذا بصفوف الروم قد خرجت ورجل يقود جنيبا أمامهم، وكان ذلك غلام البطريق، فلما نظر اليه ضرار وصاح فى جواده، وقال له اجلد معى ساعة والاشكوتك الى رسول الله ﷺ . قال فمحم الجواد وشمر أجنحته جريا واستقبل ضرار غلام البطريق بطعنة فقتله وأخذ الجنيب فركبه وأطلق جواده نحو عساكر المسلمين فتناولوه وعاد ضرار نحو البطريق . فلما رآه أقبل اليه بعد ماقتل غلامه وركب جواده أيقن عدوّالله بالهلاك وعلم أنه ان ولى قتله بلامحالة، وان وقف أهلكه . فلما نظر ضرار الى عدوّالله علم ماعنده فهجم عليه اذ نظر الى الروم وقد خرج منهم كردوس، وذلك أن وردان لما نظر الى صاحبه وقد أشرف على الموت علم انه ان لم يدركه هلك، فقال لقومه ياقوم ان هذا الشيطان قد أكل من كبدى قطعة، واذا لم أقتله قتلت نفسى ولابد لى من الخروج اليه . قال فخرج فى عشرة من البطارقة وهم مدرّعون، وفى أرجلهم أخفاف من الحديد وسواعد من الحديد، وبأيديهم أعمدة من الحديد ووردان قد لبس لامته وعلى رأسه تاج عظيم فخرجوا ووردان أمامهم كأنه شعلة نار ونظر أصطفان الى من خرج فصاح بضرار فلم يلتفت الى من خرج اليه الاأنه تأهب . فبيناهم كذلك اذ نظر خالد الى القوم وخروجهم ونظر الى التاج، وهو يلمع على رأس صاحبهم . فقال ان التاج لايكون الا على رأس الملك ولاشك انه صاحب القوم قد خرج الى صاحبنا فما الذى يقعدنا عن نصرته ؟ . ثم قال لأصحابه لايخرج الاعشرة حتى نساوى القوم، فخرج خالد فى عشرة أصحابه وأطلقوا الاعنة وقوّموا الاسنة، قال ووصل الروم الى ضرار فاستقبلهم بقلب أقوى من الحجر الجلمود، قال فناداه خالد أبشر ياضرار . فقد اسعدك الجبار ولاتجزع من الكفار، فقال ضرار رضى الله عنه ماقرب النصر من الله، وجاء خالد ومن معه والتقت الرجال بالرجال وانفرد كل واحد بصاحبه وطلب خالد وردان ولم يبرح ضرار عن خصمه اصطفان، وقد كل ساعده وارتعدت فرائصه عند مانظر الى خالد ومن معه، فنظر يمينا وشمالا ليطلب الهرب فعلم ضرار منه ذلك فهجم عليه بسنانه، فلما أيقن بالموت التى نفسه الى الارض وولى هاربا فبادر اليه

ضرار وألقى نفسه عن جواده وطلب عدو الله حتى لحقه وتقابضا على وجه الارض ، وكان عدوّ الله كالصخر الجلمود ، وكان ضرار نحيف الجسم غير أن الله تعالى أعطاه قوة الايمان . فلما طال بهم العراك ضرب بيده الى مراق بطنه وقلعه من الارض بحيله وجلدبه الارض فصاح عدو الله وجعل يستنجد بوردان وقال بالرومية : أيها السيد أنجدنى مما أنا فيه فقد هلكت فصاح وردان ياويلك ومن ينقذنى أنا من هؤلاء السباع الكاسرة ، فسمع خالد ذلك فطمع فيه وحمل وردان وهمّ ضرار بخصمه ونظر اليهما الفريقان ، وأقبل صاحب رسول الله ﷺ ضرار فلم يمهل على خصمه دون ان برك على صدره وذبحه مثل البعير ، وكل واحد مشتغل عن نصرة صاحبه . قال فاخذ ضرار رأس عدو الله وهو ملطخ بالدماء وركب جواده وحملت الروم على المسلمين ونادى سعيد بن زيد : يامعشر الناس اذكروا الوقوف بين يدى الله الملك الجبار فاياكم ان تولوا الأدبار فتستوجبوا دخول النار ، ياأهل الايمان ياحملة القرآن اصبروا . قال فزاد الناس بقوله نشاطا وتزاحم الفريقان . قال وجاء وقت العصر فافترقوا وقد قتل من الروم ثلاثة آلاف وعشرة من ملوكهم ، ومنهم رومان صاحب الأميرة ، ودمر صاحب نوى ،وكوكب صاحب أرض البلقاء ، ولاوى بن حنا صاحب غزة . قال ثم افترق القوم ورجع وردان الى مكانه وقدامتلأ قلبه رعبا مما ظهر له من المسلمين من شدة صبرهم وقتالهم . فجمع البطارقة وقال لهم : ياأهل دين النصرانية ماتقولون فى هؤلاء العرب فانى أراهم غالبين علينا وقد رأيت أسيافهم قاطعة وخيلهم صابرة وسواعدكم بليدة ، وان القوم أطوع منكم لربكم وماخذلتم الا بالظلم والجور والغدر ، وما مرادى منكم الا أن تتوبوا الى ربكم ، فان فعلتم ذلك رجوت لكم النصر من عدوكم ، وان لم تفعلوا ذلك فائذنوا بحرب من المسيح وبهلاك أنفسكم ، فان الله عاقبكم أشد عقوبة اذ سلط عليكم أقواما لانفكر بهم ولا نعدهم ، لأن أكثرهم جياع وعبيد وعراة ومساكين أخرجهم الينا قحط الحجاز وجوعه وشدة الضرر والبلاء ، والآن قد أكلوا من خبز بلادنا وفواكه أرضنا وأكلوا العسل والتين والعنب ، وأعظم ذلك سبى نسائكم وأموالكم .

[قال الواقدى] فلما سمع القوم ذلك بكوا وقالوا نقتل عن آخرنا ولا يصل الينا هؤلاء القوم وإنا نرى أن نقاتلهم بالرماح . قال فلما سمع وردان ذلك منهم صاح بالبطارقة وقال لهم ما عندكم من الرأى ؟ . فقال رجل منهم ياوردان اعلم انك قد بليت بقوم لاتقوم لقتالهم ، وقد رأيت الواحد منهم يحمل على عسكرنا ولايبالى من أحد ولا يرجع حتى يقتل منهم ، وقد قال لهم نبيهم ان من قتل منكم صار الى الجنة . ومن قتل من الروم صار الى النار ، والموت والحياة عندهم سواء وما أرى لكم من القوم مطمعا الا أن تتحيل على صاحبهم فتقتله فان قتلتموه ينهزم القوم وانك لاتصل اليه الابحيلة توقعه فيها . فقال وردان وأى حيلة ندخل بها على القوم والحيل والخداع والمكر منهم ؟ . فقال له البطريق : أنا أقول لك شيئا ان صنعته وصلت به الى أمير العرب من حيث لا يصل إليك شىء ولا أذى ، وذلك أنك تنتخب عشرة من الفرسان من ذوى الشدة والبأس ويكمنون فى مكمن من جهة العسكر قبل خروجك إليه و بعد ذلك تخرج إليه وتشاغله بالحديث ثم اهجم عليه وأخرج قومك يبادرون اليك من المكمن ويقطعونه إربا إربا وتستريح منه و بعد ذلك تتفرق أصحابه ولا يجتمع منهم أحد . قال فلما سمع وردان ذلك من البطريق فرح فرحا

عظيما . وقال : ماهذا الرأى سديد فنعم ماأشرت به وقد أصبت فيماذكرت غير أن هذا الأمر يعمل فى جنح الليل ولا يأتى الصباح الا وقد فرغنا مما نريد ، ثم ان وردان دعا برجل من العرب المتنصرة اسمه داود وكان فى سكنه . وقال له ياداود أنا أعلم انك فصيح اللسان وانى أريد أن تخرج الى هؤلاء العرب وتسألهم ان يقطعوا الحرب بيننا و بينهم ، وقل لهم لايخرجون لنا بكرة النهار حتى أخرج بنفسى اليهم منفردا عن قومى ولعلنا نصطلح مع العرب . فقال داود ويحك وتخالف أمر الملك هرقل فيما أمرك به من الحرب وتصطلح أنت والعرب فان الملك ينسبك الى الجزع والفزع وما كنت بالذى أخاطب العرب فى ذلك أبدا فيبلغ الملك أنى كنت السبب فى ذلك فيقتلنى . فقال له وردان ياويلك انما دبرت حيلة على أمير العرب حتى أصل اليه بها فأقتله وتتفرق هؤلاء العرب عنا ثم انه حدثه بما عزم عليه من المكر بخالد بن الوليد . فقال لوردان ان الباغى مخذول فى كل فعل فالق الجمع بالجمع واترك ماعزمت عليه ، فقال وردان وقد غضب ويلك أنت تعاندنى فيما أمرتك به دع عنك المحاججة . فقال حبا وكرامة ، ثم انه مضى وقال فى نفسه ان وردان قد عزم أن يلحق بولده ، ثم أقبل حتى انه وقف قريبا من المسلمين ونادى برفيع صوته ، وقال يامعاشر العرب حسبكم من القتل وسفك الدماء فان الله تعالى يسألكم عن سفكها ، وأريد أن يخرج الىّ أمير العرب حتى أخاطبه بما أرسلت به . قال فما استتم كلامه حتى خرج اليه خالد رضى الله عنه وهو كأنه شعلة نار . فلما نظر اليه داود النصرانى قال له : ياعربى على رسلك فما خرجت أحارب ولا أنا من رجال الحرب وما أنا إلا رسول . فلما سمع خالد مقالته قرب منه . وقال اذكر مسألتك واستعمل الصدق تنج فمن صدق نجا ومن كذب هلك ، فقال صدقت ياعربى : ان أميرنا وردان كاره سفك الدماء ، وقد رأى شدتكم ولايريد حربكم ، وقد نظر الى من قتل من جماعته فكره أن يحاربكم ، وقد رأى ان يدفع لكم مالا ويحقن به دماء الناس لكن بشرط ان يكون بينك و بينه كتاب وتشهد عليك كبراء قومك انك لاتتعرض له ولا لأحد من أصحابه ولا لحصن من حصونه ، فان فعلت ذلك وثق بقولك وهو يسألك أن تقطع الحرب بقية يومك ، فاذا أصبحت فاخرج بنفسك ولا يكن معك أحد ويخرج هو أيضا منفردا فننظر ماتتفقان عليه عسى ان تحقنا دماء الناس بيننا و بينكم .

قال فلما سمع خالد مانطق به داود قال له : ان كان ماأخبر به صاحبكم يريد به حيلة أومكيدة فنحن والله جرثومة الخداع ومامثلنا يأتى بحيلة ولابخديعة ، فان كان ذلك ضميره واعتقاده فما هو الاقرب أجله وانقطاع عمره وهلاك جموعكم والانفصال بيننا و بينكم ، وان كان ذلك حقا من قوله فلست أصالحه الا اذا أدّى الجزية عن جماعته . وأما المال فلست براغب فيه الاعلى ماذكرته لكم وعن قريب نأخذ أموالكم ونملك بلادكم . فقال داود وقد عظم عليه كلام خالد ما يكون الأمر الا كما ذكرت فاذا توافقتم كان الانفصال بيننا ، وها أنا راجع فأذكر له ماذكرت ثم لوى راجعا وقد امتلأ قلبه رعبا من خالد وفزع منه فزعا شديدا ، ثم قال فى نفسه صدق والله أمير العرب وأنا اعلم والله ان وردان أوّل مقتول ونحن من بعده ومالى الآن أصدق أمير العرب وآخذلى ولأهلى منه أمانا ، ثم رجع الى خالد وقال له : ياأمير انى قد أضمرت على سرّ وأريد أن أبديه لك لأنى أعلم ان البلاد لكم ، ان وردان قد نوى على شىء . فقال خالد وما هو ؟ . فقال خذ لنفسك الحذر وكن مستيقظا فانه قد أضمر لك كيدا ، ثم أخبره بالقصة من أوّلها الى آخرها ، ثم قال لخالد أريد منك

الأمان لى ولأهلى . فقال خالد الأمان لك ولأهلك ولاولادك ان أنت لم تخبر القوم ولم تغدر قال داود لو أردت أن أغدر لما حدثتك . فقال خالد وأين كمين القوم ؟ . قال عند كثيب عن يمين عسكرهم ، ثم انه خلاه ورجع وأعلم وردان ففرح وقال الآن أرجو أن يظفرنى الصليب بهم ، ثم انه دعا بعشرة من الأبطال ، وقال لهم امضو ارجالة وأكمنوا وأمرهم أن يفعلوا مادبروه . وأماخالد فانه رجع فلقيه أمين الأمة أبو عبيدة فرآه ضاحكا . فقال ياأبا سليمان أضحك الله سنك ما الخبر ؟ فحدثه بما جرى . فقال أبو عبيدة على ماذا عزمت . قال عزمت أن أخرج الى القوم وحدى . فقال ياأبا سليمان لعمرك انك لكفء ولكن ماأمرك الله أن تلقى بنفسك الى التهلكة والله تعالى يقول — وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم — وقد أعد لك عشرة ، وهو حادى عشر وما آمن عليك من اللعين ولكن اندب له رجالة كما ندب لك رجالة ويكمنون قريبا من القوم ، فاذا صرخ اللعين بقومه فاصرخ أنت بقومك ونكون نحن متأهبين على خيولنا ، فاذا فرغت من عدو الله حملنا جميعا ورجوا من الله النصر ، ثم قال : والمسلمون هم رافع بن عميرة الطائى ، ومعاذ بن جبل ، وضرار بن الأزور ، وسعيد بن زيد ، وقيس بن هبيرة ، وميسرة بن مسروق العبسى ، وعدى بن حاتم حتى استتم العشرة وأخبرهم خالد بما قد عزم عليه الروم من الحيلة والمكيدة التى قد دبرها وردان . وقال اخرجوا رجالة بحيث لايدرى بكم أحد حتى انكم تأتون الكثيب الذى عن يمين العسكر فاكمنوا هناك ، فاذا صرخت بكم فبادروا وانفردوا للقوم كل واحد لواحد واتركونى لعدو الله فاننى ان شاء الله تعالى كفء له فقال ضرار : أيها الأمير أخاف يكثر عليك الجمع الكثير فلا نأمن أن يصلوا بشرهم اليك ، وقد كنت أدبر لك حيلة اننا نسير من وقتنا هذا الى مكمن القوم فاذا وجدناهم رقودا قتلناهم وفرغنا منهم قبل الصباح ونكمن نحن فى مواضعهم فاذا خلوت أنت بعدو الله خرجنا عليكم بغير مقالة . فقال خالد افعل ياأبا الأزور ماذكرت ان وجدت الى ذلك سبيلا وخذ معك هؤلاء الذين ندبتهم وأنت الأمير عليهم ، وأرجو ان الله يبلغك ماتطلبه ، فان فعلت ذلك فهى الفرحة الكاملة . فقال ضرار أرجو من الله الوصول اليهم وخرج هو وأصحابه فى جنح الليل رجالة وبأيديهم أسلحتهم وودعوا الناس ، وكان وقت خروجهم قد مضى ثلث الليل ، ثم سار ضرار حتى وصل الكثيب فأوقف أصحابه وقال على رسلكم حتى أستخبر لكم خبر القوم . فلما أشرف عليهم من بعيد سمع غطيطهم وهم نيام سكرى غرقوا فى النوم لما نالهم من التعب والنصب وقد أمنوا من أحد ينظرهم . فقال ضرار فى نفسه ان أنا دنوت من القوم لأقتلهم خشيت أن يوقظ بعضهم بعضا . قال فرجع الى أصحابه وقال لهم أبشروا فقد أتاكم الله بما تريدون ، وأذهب عنكم ماتحذرون ، جردوا سيوفكم وسيروا الى القوم فاقتلوهم كيف شئتم ، ثم تقدم ضرار أمامهم وهم فى أثره الى أن وصل بهم اليهم فوجدوهم نياما كل واحد منهم سلاحه عند رأسه فانفرد كل واحد منهم بواحد ، فلم يلبثوا الاوقد فرغوا منهم عن آخرهم وأخذ كل واحد سلاح غريمه وأخذوا كل مامعهم من الزاد وغيره ، فقال لهم ضرارا أبشروا فان هذا أول النصر ان شاء الله تعالى ، وأقاموا بقية ليلتهم يصلون ويدعون الله أن ينصرهم على عدوهم ولم يزل كل واحد منهم فى مصلاه الى أن أضاء الفجر فصلوا صلاة الفجر . فلما فرغوا من الصلاة لبس كل واحد ثياب غريمه ولباسه وغيبوا القتلى مخافة أن يرسل اليهم وردان

[قال الواقدى] فلما أصبح الصباح صلى خالد بالناس ورتب أصحابه لأهبة الحرب ، فبينماهم كذلك إذ خرج من القلب فارس وقال : يامعاشر العرب أريد أميركم ليخرج الى صاحبنا وردان لننظر مايتفقان عليه من أمر الجيشين وحقن الدماء بينهما . قال فخرج اليه خالد بن الوليد . فقال له الفارس ان وردان يريد أن تنتظره حتى تتكلم معه . فقال خالد السمع والطاعة ارجع وأخبره ، فعند ذلك خرج وردان وقدتزين بقلادة جوهر وعلى رأسه تاج . فقال خالد عند مارآه هذه غنيمة للمسلمين ان شاء الله تعالى .قال فلما نظر عدوّ الله الى خالد ترجل عن جواده وكذلك خالد وجلس كلاهما ، وقد جعل عدوّ الله سيفه على فخذه . فقال له خالد قل ماتشاء ، واستعمل الصدق والزم طريق الحق ، واعلم انك جالس بين يدى رجل لايعرف الحيل . فقال ماتريد ؟ فقال وردان ياخالد اذكر لى ماالذى تريدون وقرب الأمر بينى و بينكم ، فان كنت تطلب منا شيئا فلانبخل به عليك صدقة منا عليكم لأننا ليس عندنا أمة أضعف منكم ، وقد علمنا انكم كنتم فى بلاد قحط وجوع تموتون جوعا فاقنع منا بالقليل وارحل عنا . فلما سمع منه خالد هذا الكلام . قال له يا كلب النصرانية ان الله عز وجل أغنانا عن صدقاتكم وأموالكم وجعل أموالكم نتقاسمها بيننا وأحل لنا نساءكم وأولادكم إلا أن تقولوا لاإله إلا الله محمد رسول الله ، وان أبيتم فالحرب بيننا و بينكم ، أو الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، والله ينصر من يشاء منا ومنكم ،ومالكم عندنا الاالسيف ان أبيتم الاسلام ، وبالله أقسم ان الحرب أشهى لنا من الصلح . وأما قولك ياعدوّ الله لم تكن أمة أضعف منا عندكم فأنتم عندنا بمنزلة الكلاب ، وان الواحد منا يلقى ألفا منكم بعون الله تعالى وما هذا خطاب من يطلب الصلح ، فان كنت ترجو أن تصل الىّ بانفرادى عن قومى وقومك فدونك وما تريد ؟ . قال فلما سمع وردان مقالات خالد وثب من مكانه من غير أن يجرد سيفه وتشا بكا وتقابضا وتعانقا . قال فصاح عدوّ الله عند ماوثق من خالد وقال لأصحابه : بادروا الآن الصليب قد مكننى من أمير العرب ، فما استتم كلامه حتى بادر اليه الصحابة كأنهم عقبان ومقدمهم ضرار بن الأزور وقد رموا النشاب عنهم وجردوا سيوفهم وضرار عارى الجسد بسراويله قابض على سيفه وهو يزأر كالأسد وأصحابه من ورائه فالتفت عدوّ الله ونظر الى القوم وهم يتسابقون اليه وهو يظن أنهم قومه حتى انهم وصلوا اليه ونظر فى أوائلهم ضرار بن الأزور . فقال لخالد سألتك بحق معبودك أن تقتلنى أنت بيدك ولا تدع هذا الشيطان يقتلنى . فقال خالد هو قاتلك لامحالة فهزّ ضرار سيفه وقال ياعدوّ الله أين خديعتك من خديعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال خالد اصبر ياضرار حتى آمرك بقتله ، ثم وصل اليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهزوا سيوفهم فى وجهه ومرادهم أن يقتلوه ونظر عدوّ الله الى مادهمه فوقع الى الأرض وهو يشير بأصبعه الأمان الأمان . فقال خالد ياعدوّ الله لانعطى الأمان الا لأهل الأمان وأنت أظهرت لنا المكر والخديعة — والله خير الماكرين — فلما سمع ضرار كلام خالد لم يمهله دون أن ضربه على عاتقه فخرج السيف يلمع من علائقه ، ثم أخذ التاج من على رأسه . وقال من سبق الى شىء كان أولى به وقد أدركته سيوف المجاهدين فقطعوه إربا إربا وتبادروا الى سيفه فأخذوه ، ثم ان خالدا قال لأصحابه انى أريد أن تحملوا على الروم لأنهم مشتاقون الى أصحابهم . قال فأخذوا رأس عدوّ الله وردان وتوجهوا نحو عسكر الروم . فلما وصل خالد الصفوف نادى ياأعداء الله هذا رأس صاحبكم

وردان أنا خالد بن الوليد أنا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم انه رمى الرأس وحمل عليهم وحمل المسلمون وحمل أبو عبيدة وقال احملوا ياأهل القرآن وحفاظ الدين وحماة المسلمين . فلما رأى الروم رأس وردان ولوا الأدبار وركنوا الى الفرار ، ولم يزل السيف يعمل فيهم من وقت الصباح الى الغروب . قال عامر بن الطفيل الدوسى : كنت مع أبى عبيدة ونحن نتبع المنهزمين الى طريق غزة إذ أشرف علينا خيل فظننا انها نجدة من عند الملك هرقل فأخذنا على أنفسنا وإذا بالغبرة قد قربت منا ، فاذا هى عسكر قد أرسلها أبو بكر الصديق ، وما رأوا أحدا من المنهزمين الا قتلوه ونهبوا جميع ما معه .

[قال الواقدى] وكان الروم بأجنادين تسعين ألفا فقتل منهم فى ذلك اليوم خمسون ألفا وتفرق من بقى منهم ، فنهم من انهزم الى دمشق ، ومنهم من انهزم الى قيسارية وغنم المسلمون غنيمة لم يغنم مثلها وأخذوا منهم صلبان الذهب والفضة ، فجمع خالد ذلك كله مع تاج وردان الى وقت القسمة وقال خالد لست أقسم عليكم شيئا الا بعد فتح دمشق ان شاء الله تعالى ، وكانت الوقعة بأجنادين ليلة ست خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية ، وذلك قبل وفاة أبى بكر بثلاث وعشرين ليلة ، ثم ان خالدا رضى الله عنه كتب كتابا الى أبى بكر يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد المخزومى الى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سلام عليك . أما بعد فانى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأزيد حمدا وشكرا على المسلمين ودمارا على المتكبرين المشركين وانصداع بيعتهم ، وانا لقينا جموعهم بأجنادين وقد رفعوا صلبانهم وتقاسموا بدينهم أن لايفروا ولا ينهزموا فخرجنا اليهم واستعنا بالله عزوجل متوكلين على الله خالقنا فرزقنا الله الصبر والنصر ، وكتب الله على أعدائنا القهر فقاتلناهم فى كل واد وسبسب، وجملة من أحصيناهم ممن قتل من المشركين خمسون ألفا وقتل من المسلمين فى اليوم الأول والثانى أربعمائة وخمسون رجلا ختم الله لهم بالشهادة منهم عشرون رجلا من الأنصار ومن أهل مكة ثلاثون رجلا ومن حمير عشرون والباقى من أخلاط الناس ، ويوم كتبت لك الكتاب كان يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الآخرة ، ونحن راجعون الى دمشق ان شاء الله تعالى فادع لنا بالنصر والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته ، وطوى الكتاب وسلمه الى عبد الرحمن بن حميد وأمره بالمسير الى المدينة المنوّرة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام ، وسار خالد بالمسلمين طالب دمشق .

[قال الواقدى] رحمة الله عليه : ولقد بلغنى ان أبا بكر الصديق كان يخرج كل يوم بعد صلاة الفجر إذ أقبل عبد الرحمن بن حميد . فلما رآه تسابقت اليه أصحابه وقالوا له من أين أقبلت ؟ قال من الشام وان الله قد نصر المسلمين فسجد أبو بكر الصديق لله شكرا ، وأقبل عبد الرحمن ابن حميد الى أبى بكر وقال : ياخليفة رسول الله ارفع رأسك فقد أقرّ الله عينك بالمسلمين فرفع أبو بكر رأسه وقرأ الكتاب سرّا ، فلما فهم مافيه قرأه على المسلمين جهرا ، فتزاحم الناس يسمعون قراءة الكتاب ، فشاع الخبر فى المدينة فهرعت الناس من كل مكان ، فقرأه أبو بكر ثانى مرة وتسامع الناس من أهل مكة والحجاز واليمن بما فتح الله على أيدى المسلمين وما ملكوا من أموال الروم فتسابقوا بالخروج الى الشام ورغبوا فى الثواب والأجر ، وأقبل الى المدينة من أهل

مكة وأكابرهم بالخيل والرماح وفى أوائلهم أبو سفيان والغيداق بن وائل ، وأقبلوا يستأذنون أبا بكر فى الخروج الى الشام فكره عمر بن الخطاب خروجهم الى الشام وقال لأبى بكر : لاتأذن للقوم فان فى قلوبهم حقائد وضغائن ، والحمد لله الذى كانت كلمته هى العليا وكلمتهم هى السفلى وهم على كفرهم وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم و يأبى الله إلا أن يتم نوره ،ونحن مع ذلك نقول: ليس مع الله غالب . فلما أن أعزّ الله ديننا ونصر شريعتنا أسلموا خوفا من السيف . فلما سمعوا أن جند الله قد نصروا على الروم أتونا لنبعث بهم الى الأعداء ليقاسموا السابقين الأوّلين، والصواب أن لاتقربهم . فقال أبو بكر لاأخالف لك قولا ولا أعصى لك أمرا . قال و بلغ أهل مكة ماتكلم به عمر بن الخطاب فأقبلوا بجمعهم الى أبى بكر الصديق فى المسجد فوجدوا حوله جماعة من المسلمين وهم يتذاكرون مافتح الله على المسلمين وعمر بن الخطاب عن يساره وعلى بن أبى طالب عن يمينه والناس حوله ، فأقبلت قريش الى أبى بكر فسلموا عليه وجلسوا بين يديه وتشاوروا فيمن يكون أولهم كلاما ، فكان أوّل من تكلم أبوسفيان بن حرب فأقبل على عمر بن الخطاب وقال: ياعمر كنت لنا مبغضا فى الجاهلية ، فلما هدانا الله تعالى الى الاسلام هدمنا ما كان لك فى قلوبنا لأن الايمان يهدم الشرك وأنت بعد اليوم تبغضنا فما هذه العداوة ياابن الخطاب قديما وحديثا ؟ أما آن لك ان تغسل مابقلبك من الحقد والتنافر ، وانا لنعلم أنك أفضل مناوأسبق فى الايمان والجهاد ، ونحن عارفون بمرتبتكم غير منكرين . قال فسكت عمر رضى الله عنه واستحى من هذا الكلام . فقال أبوسفيان انى أشهدكم أنى قد حبست نفسى فى سبيل الله وكذلك تكلم سادات مكة . فقال أبو بكر اللهم بلغهم أفضل مايؤملون ، وأجزهم بأحسن مايعملون وارزقهم النصر على عدوّهم ولاتمكن عدوّهم فيهم ـ انك على كل شىء قدير ـ .

[قال الواقدى] فما تمت أيام قلائل حتى جاء جمع من اليمن وعليهم عمرو بن معديكرب الزبيدى رضى الله عنه يريد الشام فما لبثوا حتى أقبل مالك بن الأشتر النخعى رضى الله عنه فنزل عند الامام علىّ رضى الله عنه بأهله ، وكان مالك يحب سيدنا عليا ، وقد شهد معه الوقائع وخاض المعامع فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عزم على الخروج مع الناس الى الشام .

[قال الواقدى] واجتمع بالمدينة نحو من تسعة آلاف ، فلما تم أمرهم كتب أبو بكر كتابا الى خالد بن الوليد يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبى بكر خليفة رسول الله الى خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين . أما بعد فانى أحمد الله الذى لاإله إلاهو ، وأصلى على نبيه محمد ﷺ ، وأوصيكم وآمركم بتقوى الله فى السر والعلانية ، وقد فرحت بما أفاء الله على المسلمين من النصر وهلاك الكافرين وأخبرك أن تنزل الى دمشق الى أن يأذن الله بفتحها على يدك فاذا تم لك ذلك فسر الى حمص وانطاكية والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله و بركاته ، وقد تقدم اليك أبطال اليمن وأبطال مكة و يكفيك بن معد يكرب الزبيدى ومالك بن الاشتر وانزل على المدينة العظمى انطاكية ، فان بها الملك هرقل فان صالحك فصالحه وان حاربك فحاربه ولاتدخل الدروب ، وأقول قولى هذا وان الآجل قد قرب . ثم كتب ـ كل نفس ذائقة الموت ـ ثم ختم الكتاب وطواه ودفعه الى عبدالرحمن ، وقال له أنت كنت الرسول من الشام وأنت ترد الجواب فأخذه عبد الرحمن وسار على مطيته يطوى المنازل والمناهل الى أن وصل الى دمشق .

[قال حدثني] نافع بن عميرة قال لما بعث خالد بن الوليد الكتاب الى أبى بكر الصديق ارتحل يريد دمشق ، وكان أهلها قد سمعوا بقتل بطريقهم وأبطالهم وانهزام جيوشهم ومن أرسلهم الملك بأجنادين فخافوا وتحصنوا بدمشق وأعدوا آلة الحصار ورفعوا السيوف والطوارق وعلوا على الأسوار ونشروا الأعلام والصلبان ، فلما أخذوا على أنفسهم أشرف عليهم الأمير خالد بن الوليد والجيش قد زاد عمرو بن العاص فى تسعة آلاف ويزيد بن أبى سفيان فى ألفين وشرحبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة فى ألفين ، وأقبل السواد من ورائهم معاذ بن جبل فى ألفين ، فلما رأى أهل دمشق عسكر المسلمين مثل البحر الزاخر أيقنوا بالهلاك ، وأقبل خالد فى جيش الزحف فنزل على الدير المعروف به ، وبينه وبين المدينة أقل من ميل ، فلما نزل هناك دعا بالأمراء فأحضرهم ، فقال لأبى عبيدة أنت تعلم ماظهرلنا من غدر هؤلاء القوم عند انصرافنا عنهم وخروجهم فى أثرنا فامض بمن معك من أصحابك وانزل بهم على باب الجابية ولاتسمح للقوم بالأمان فيأخذوك بمكرهم ولتكن متباعدا عن الباب وابعث اليهم فوجا بعد فوج ، واجعل قتال الناس دولا ولا يضق صدرك من كثرة المقام ولاتبرح من مكانك واحذر من القوم الكافرين . فقال أبو عبيدة حبا وكرامة . ثم انه خرج حتى انه نزل بباب الجابية ونصب له بيتا من الشعر بالبعد من الباب .

[قال الواقدى] حدثنى مسلمة بن عوف عن سالم بن عبد الله عن حجاج الأنصارى . قال قلت لجدى رفاعة بن عاصم ، وكان ممن قاتل بدمشق ، وكان فى خيل أبى عبيدة فقلت ياجداه مامنع أباعبيدة أن ينصب له قبة من بعض قبب الروم مما أخذه من أجنادين ومن بصرى ، فقد كان عندهم ألوف من ذلك ، فقال يابنى منعهم من ذلك التواضع ولم يتنافسوا فى زينة الدنيا وملكها حتى ينظر الروم أنهم لايقاتلون طلبا للملك ، وانما يقاتلون رجاء ثواب الله تعالى وطلب الآخرة ونصرة للدين ولقد كنا ننزل فننصب خيامنا وخيام الروم بالبعد . قال فلما نزل أبو عبيده على باب الجابية أمر أصحابه بالقتال . ثم ان خالدا استدعى بيزيد بن أبى سفيان ، وقال له : يايزيد خذ صاحبك وانزل على الباب الصغير واحفظ قومك ، وان خرج اليك أحد لا يكون لك به طاقة فابعث الى حتى أنجدك ان شاء الله تعالى . ثم استدعى بشرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ وقال له انزل على باب توما . ثم توجه بقومه واستدعى بعمرو بن العاص وأمره أن يسير الى باب الفراديس . ثم استدعى بعده بقيس بن هبيرة ، وقال له اذهب بقومك الى باب الفرج . ثم نزل خالد على الباب الشرقى ودعا بضرار بن الأزور رضى الله عنه وضم اليه ألفى فارس ، وقال له تطوف حول المدينة بعسكرك ، وان دهمك أمر أولاحت لك عيون القوم فأرسل الينا . قال ثم سار ضرار واتبعه قومه وبقى خالد على الباب الشرقى . ثم قدم عبد الرحمن بن حميد من المدينة بكتاب أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعدل الى ناحية خالد بن الوليد على الباب الشرقى وقد تقدم للقتال طائفة من أصحابه مع رافع بن عميرة . فلما رفع اليه الكتاب فرح بعد أن قرأه على المسلمين واستبشر بقدوم عمرو بن معديكرب الزبيدى وأبى سفيان بن حرب . قال وشاع الخبر عند جميع الناس وبعث خالد كتاب أبى بكر الى كل باب فقرئ على الناس وبات الناس متأهبين للحرب يتحارسون الى الصباح وضرار يطوف حولهم ولايقف فى مكان واحد

مخافة أن يكبس بهم العدو .

[قال الواقدى] ولقد بلغنى أن أهـل دمشق اجتمعوا الى كبارهم من البلد وتشاوروا فيما بينهم . فقال بعضهم مالنا الا الصلح ونعطى العرب جميع ماطلبوه منا ، وقال آخرون مانحن بأ كثر من جموع اجنادين . فقال لهم بطريق من الروم اطلبوا لنا صهر الملك توما نتشاور فى هذا الأمر لنسمع مايقول ونطلب منه ان يكشف عنا مانحن فيـه فاما ان يصالحهم ، واما ان يحامى عنا . قال فمضى القوم الى توما وعليه رجال موكلون بالسلاح ، فقالوا لهم ماالذى تريدون ؟ فقالوا نريد صهر الملك توما نشاوره فى هذا الأمر . قال فأذنوا لهم فدخلوا عليه وقبلوا الأرض بين يديه . فقال لهم ماالذى تريدون ؟ فقالوا أيها السيد انظر مانزل ببلادنا ، وقد جاءنا مالاطاقة لنا به . فأما ان نصالح العرب على ماطلبوا . واما ان نرسل الى الملك فينجدنا أو يمانع عنا فقد أشرفنا على الهـلاك ، فلما سمع ذلك منهم تبسم ضاحكا وقال : ياويلـكم أطمعتم العرب فيـكم وحق رأس الملك ماأرى القوم أهلا للقتال ولاهم خاطرون لى على بال فلوفتح لهم الباب ماجسروا أن يدخلوا . فقالوا أيها السيد ان أ كبرهم وأصغرهم يقاتل العشرة والمـائة وصاحبهم داهيـة لاتطاق . فان كان ولابدّ فاخرج بنا لقتالهم . فقال لهـم توما انـكم أ كثر منهم ومدينتنا حصينة ولـكم مثل هـذا العدد والسلاح ، وأما القوم فهم حفاة عراة ، فقالوا له أيها السيد ان معهم من عددنا وأسلحتنا كثيرا مما أخذوه من واقعة فلسطين ومما أخذوه من بصرى ومن يوم لقائهم بكلوس وعزازير ومما أخذوه من أجنادين ، وأيضا أن نبيهم قال لهم ان من قتل منا صار الى الجنة فلأجل ذلك يبقون عراة الأجساد ليصلوا الى ماقال لهم نبيهم . قال فضحك من قولهم ، وقال لهم لأجل ذلك أطمعتم العرب فينا ولو صدقتم فى الحرب والصدام لقتلتموهم لأنـكم أضعافهم مرارا ، فقالوا أيها السـيد اكفنا مؤنتهم كيف شئت ، واعلم انك ان لم تمنعهم عنا فتحنا لهم الأبواب وصالحناهم . فلما سـمع توما كلامهم فـكر طويلا وخشى أن تفعل القوم ذلك . فقال أنا أصرف عنـكم هؤلاء العرب وأقتل أميرهم وأريد منـكم أن تقاتلوا معى . قالوا نحن معك و بين يديك نقاتل حتى نهلك عن آخرنا . فقال لهم باكروا القوم بالقتال فانصرفوا عنـه وهم له شاكرون ولأمره منتظرون ، وباتوا بقية ليلتهم على الحصن وأصحاب رسول الله ﷺ فى مواضعهم ولهم ضجة بالتهليل والتـكبير والصلاة على البشير النذير ، وخالد بن الوليد عند الدير ومعه النساء والعيال والأموال والغنائم التى غنموها من أعدائهم ، ورافع بن عميرة على الباب الشرقى فى عسكر الزحف وغيرهـم ولم يزل الناس فى الحرس الى أن برق الصباح وصلى كل أمير بمن معه من قومه وصلى أبو عبيدة بمن معه . ثم أمر أصحابه بالزحف ، وقال لهم لاتخلوا عن القتال واركبوا الخيل .

[حدثنى] رفاعة بن قيس ، قال سألت والدى قيسا ، وكان ممن حضر فتوح دمشق الشام فقلت له أ كنتم تقاتلون فى دمشق خيالة أو رجالة يوم حصار المسلمين ، فقال ما كان أحد منا فارسا الا زهاء من ألفى فارس مع ضرار بن الأزور ، وهو يطوف بهم حول العسكر وحول المدينة وكلما أتى بابا من الأبواب وقف عنده وحرض أهله على القتال ، وهو يقول صبرا صبرا لأعداء الله . قال وأقبل توما صهر الملك هرقل من بابه الذى يدعى باسمه ، وكان عنـدهم عابدا راهبا ولم يكن فى بلاد الشرك أعبد منه ولاأزهد فى دينهم ، وكان معظما عنـد الروم فخرج ذلك اليوم من قصره

والصليب الأعظم على رأسه وعلا به فوق البرج وأوقف البطارقة حوله والانجيل تحمله ذوو المعرفة قال ونصبوه بالقرب من الصليب ورفع القوم أصواتهم ، وتقدم توما ووضع يده على أسطر من الانجيل . وقال اللهمّ ان كنا على الحق فانصرنا ولاتسلمنا لأعدائنا واخذل الظالم منافانك به عليم اللهمّ انانتقرب اليك بالصليب ومن صلب على دينه ، وأظهر الآيات الربانية والأفعال اللاهوتية انصرنا على هؤلاء الظالمين . قال وأمّن الناس على دعائه . قال رفاعة بن قيس هكذا حدثني شرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ والذى فسرلنا هذا الكلام ورماس صاحب بصرى ، وكان فى جيش شرحبيل بن حسنة يقاتل على باب توما ، وكلما قال الروم شيئا بلغتهم فسره لنا . قال ونهض شرحبيل وقصد الباب بحملته ، وقد عظم عليه قول توما اللعين ، وقال له يالعين لقدكذبت إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب أحياه متى شاء ورفعه متى شاء . ثم ان روماس ناوشه بالقتال ، فقاتل الملعون توما قتالا شديدا وهشم الناس بالحجارة ورمى النشاب رميا متداركا فجرح رجالا ، وكان ممن جرح أبان بن سعيد بن العاص أصابته نشابة ، وكانت مسمومة فأحس بلهيب السم فى بدنه فتأخر وحمله اخوانه الى أن أتوا به الى العسكر فأرادوا حل العمامة . فقال لاتحلوها فان حللتم جرحى تبعتها روحى أما والله لقد رزقنى الله ما كنت أتمناه . قال فلم يسمعوا قوله وحلوا عمامته . فلما حلوها شخص الى السماء وصار يشير باصبعيه أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون ، فما استتمها حتى توفى الى رحمة الله تعالى ، وكانت زوجته بنت عمه ، وكان قد تزوجها باجنادين ، وكانت قريبة العهد من العرس ولم يكن الخضاب ذهب من يدها ، ولا العطر من رأسها ، وكانت من المترجلات البازلات من أهل بيت الشجاعة والبراعة ، فلما سمعت بموت بعلها أتته تتعثر فى أذيالها الى أن وقعت عليه ، فلما نظرته صبرت واحتسبت ، ولم يسمع منها غير قولها هنئت بما أعطيت ومضيت الى جوار ربك الذى جمع بيننا ثم فرق ، ولأجهدن حتى ألحق بك فانى المشوقة اليك ، حرام علىّ أن يمسنى بعدك أحد وانى قد حبست نفسى فى سبيل الله عسى أن ألحق بك وأرجو أن يكون ذلك عاجلا ، ثم حفر له ودفن مكانه فقبره معروف ، وصلى عليه خالد بن الوليد . فلما غيب فى التراب لم تقف على قبره دون أن أتت الى سلاحه ولحقت الجيش من غير أن تعلم خالدا بذلك ، وقالت على أىّ باب قتل بعلى ؟ فقيل لها على باب توما والذى قتله هو صهر الملك ، قال فسارت الى أصحاب شرحبيل بن حسنة فاختلطت بهم ، وقاتلت مع الناس قتالا لم ير مثله ، وكانت أرمى الناس بالنبل ، وكان قد جعل لها قوس وكنانة . قال شرحبيل بن حسنة رأيت يوم حصار دمشق رجلا على باب توما يحمل الصليب وهو أمام توما ، وهو يشير اليه اللهمّ انصر هذا الصليب ومن لاذ به ، اللهمّ أظهر له نصرته وأعل درجته . قال شرحبيل بن حسنة وأنا دائما أنظر اليه إذ رمته زوجة أبان بنبلة فلم تخطئ رميتها ، واذا بالصليب قد سقط من يده وهوى الينا وكأنى أنظر لمعان الجوهر من جوانبه فما فينا الا من بادر اليه ليأخذه وقد استتر بالدرق وتزاحم بعضنا على بعض كل منا يسبق اليه ليأخذه ونظر عدوّ الله توما الى ذلك من تنكس الصليب الأعظم وإهوائه الى المسلمين ، فعند ذلك كفر وعظم عليه الأمر ، وقال يبلغ الملك أن الصليب الأعظم أخذ منى وملكته العرب ، لا كان ذلك أبدا ثم انه حزم وسطه وأخذ سيفه ، وقال من شاء منكم

فليتبعنى ومن شاء فليقعد فلا بدّلى من القوم عسى أن أشفى صدرى ، ثم انحدر مسرعا وأمر بفتح الباب ، وكان هو أول مبادر . فلما نظرت الروم الى ذلك لم يكن فيهم الامن انحدر فى أثره لما يعلمون من شجاعته وخرجوا كالجراد المنتشر . هذا والمسلمون محيطون بالصليب ، فلما خرج الروم ووقع صياحهم حذر الناس بعضهم بعضا ، فلما نظر المسلمون الى الروم سلموا الصليب الى شرحبيل بن حسنة وانفردوا لأعدائهم وحملوا فى أعراضهم وأخذهم النشاب والحجارة من كل مكان من أعلى الباب ، فصاح شرحبيل بن حسنة معاشر المسلمين تقهقروا الى ورائكم لتأمنوا النشاب من أعداء الله العالين على الباب ، قال فتقهقر الناس الى ورائهم الى أن أمنوا من ضرب النشاب فاتبعهم عدوّ الله توما ، وهو يضرب يمينا وشمالا وحوله أبطال المشركين من قومه ، وهو يهدر كالجمل . فلما نظر شرحبيل بن حسنة ذلك صرخ بقومه ، وقال معاشر الناس كونوا آيسين من آجالكم طالبين جنة ربكم وأرضوا خالقكم بفعلكم . فانه لايرضى منكم بالفرار ولاأن تولوا الأدبار فاحملوا عليهم واقربوا اليهم بارك الله فيكم ، قال فحمل الناس حملة منكرة واختلط الناس بعضهم ببعض وعملت بينهم السيوف وتراموا بالنبل ، وتسامع أهل دمشق أن توما خرج الى العرب من بابه وان صليبه الأعظم سقط اليهم من كف حامله فجعلوا يهرعون الى أن تزايد أمرهم وجعل عدوّ الله ينظر يمينا وشمالا و ينظر الصليب فخانت منه التفاتة فنظر فرآه مع شرحبيل بن حسنة ، فلما نظر اليه لم يكن له صبر دون أن حمل وصاح هات الصليب لاأمّ لك ، فقد لحقتك بوائقه . قال ونظر شرحبيل بن حسنة الى عدوّ الله ، وهو مقبل فرمى الصليب من يده وصادمه .
فلما رأى عدوّ الله الصليب مرميا على الأرض صرخ بأصحابه صرخة هائلة ونظرت زوجة أبان ابن سعيد الى حملة عدوّ الله على شرحبيل . فقالت من هذا ؟ قيل هو صهر الملك ، وهو قاتل بعلك أبان بن سعيد ، فلما سمعت ذلك منهم حملت حملة منكرة الى أن قاربته ورمته بنبلة ، وكان الروم أرهبوها فلم تلتفت اليهم دون أن حققت نبلتها على صاحبها ، وقالت بسم الله وبركة رسول الله ﷺ ثم أطلقتها ، وكان عدوّ الله واصلا الى شرحبيل اذ جاءته النبلة فأصابت عينه اليمنى فسكنت النبلة فيها فتقهقر الى ورائه صارخا وهمت بأن ترميه بأخرى فتبادرت اليها الرجال واستتروا بالطوارق وتبادر اليها قوم من المسلمين يحامون عنها ، فلما أمنت من شر الأعداء أخذت ترمى بالنبل . ثم انهارمت علجا من الروم فأصابت صدره فسقط هاويا الى الأرض ، وكان عدوّ الله أوّل من تقهقر ذلك اليوم هاربا من شدّة حرارة النبلة وصرخ صرخة عظيمة الى أن دخل الباب ونظر شرحبيل الى ذلك فصرخ بأصحابه ياويلكم دونكم وكلاب الروم احملوا على الكلاب عسى أن تدركوا عدوّ الله . قال فحمل الناس على الروم الى أن أوصلوهم الى الباب فحماهم قومهم من أعلى الباب بالحجارة والنشاب . قال فتراجع الناس الى مواضعهم ، وقد قتلوا من الروم مقتلة عظيمة وأخذوا أسلابهم وأموالهم وصليبهم ، ودخل عدوّ الله توما الى المدينة وأغلقوا الأبواب وجاء الحكماء يعالجون فى قلع النبلة من عينه فلم تطلع فجذبوها فلم تنجذب ، وهو يضج بالصراخ فلما طال على القوم ذلك ولم يجدوا حيلة فى اخراجها نشروها و بقى النصل فى عينه ولم تزل فى مكانها وسألوه المسير الى منزله فأبى وجلس داخل الباب الى أن سكن مابه وخف عنه الألم ، فقالوا له عدالى منزلك بقية ليلتك ، فقد نكبنا فى يومنا هذا نكبتين نكبة الصليب ونكبة

عينك كل هذا مما وصل الينا من النبال ، وقد علمنا أن القوم لايصطلى لهم بنار ، وقد سألناك أن نصالح القوم على ماطلبوه منا ، قال فغضب توما من قولهم ، وقال ياويلكم يؤخذ الصليب الأعظم وأصاب بعينى وأغفل عن هذا ويبلغ الملك عنى ذلك فينسبنى للوهن والعجز ولابدّ من طلبهم على كل حال وآخذ صليبى وآخذ فى عينى ألف عين منهم وسأوقع حيلة أصل بها الى كبيرهم وآخذ جميع ماغنموه وبعد ذلك أسير الى صاحبهم الذى هو فى الحجاز وأقطع آثاره وأخرب دياره وأهدم مساكنه ، وأجعل بلده مسكنا للوحوش . ثم ان الملعون سار الى أعلى السور ، وهو معصوب العين وصار يحرض الناس لكى يزيل عن قلوبهم الرعب وأقبل يقول لهم : لاتفزعوا ولاتجزعوا مما ظهر لكم من العرب ولابدّ للصليب أن يرميهم وأنا الضامن لكم . قال فثبت القوم من قوله وحاربوا حربا شديدا وبعث شرحبيل بن حسنة الى خالد بن الوليد يخبره بما صنع مع القوم . فقال الرسول : ان عدوّ الله توما قد ظهر لنا منه مالم يكن فى الحساب ونطلب منك رجالا لأن الحرب عندنا أكثر من كل باب ، فلما سمع خالد ذلك الخبر حمد الله ، وقال كيف أخذتم الصليب من الروم ؟ فقال الرسول كان يحمل صليب الروم رجل وهو أمام توما صهر الملك فرمته زوجة أبان بنبلة فوقع الصليب الينا وخرج عدوّ الله فرمته زوجة أبان بنبلة فاشتبكت فى عين توما اليمنى ، فقال خالد ان توما عند الملك معظم وهو الذى يمنعهم عن الصلح ونرجو من الله أن يكفينا شرّه . ثم قال للرسول عد الى شرحبيل وقل له كن حافظا ماأمرتك به فكل فرقة مشغولة عنك ولم تؤت من قبلهم وأنا بالقرب منك ، وهذا ضرار بن الأزور يطوف حول المدينة وكل وقت عندك . قال فرجع الرسول فأخبره بذلك فصبر وقاتل بقية يومه ووصل الخبر الى أبى عبيدة بما نزل بشرحبيل بن حسنة من توما وبما غنم من صليبه فسرّ بذلك ، قال ولما أصبح الصباح بعث توما الى أكابر دمشق وأبطالهم . فلما حضروا بين يديه قال لهم ياأهل دين النصرانية انه قد طاف عليكم قوم لاأمان لهم ولاعهد لهم وقد أتوا يسكنون بلادكم فكيف صبركم على ذلك وعلى هتك الحريم وسبى الأولاد وتكون نساؤكم جوارى لهم وأولادكم عبيدا لهم وماوقع الصليب الاغضبا عليكم بما أضمرتم لهذا الدين من مصالحة المسلمين وإذلالكم للصليب وأنا قد خرجت ولولا أنى أصبت بعينى لما عدت حتى أفرغ منهم ولابدّ من أخذ ثارى وأن أقلع ألف عين من العرب ثم لابدّ أن أصل الى الصليب وأطالبهم به عن قريب . فلما سمعوا كلامه قالوا له : هانحن بين يديك وقد رضينا بما رضيت لنفسك ، فان أمرتنا بالخروج خرجنا معك وان أمرتنا بالقتال قاتلنا ، فقال توما : اعلموا أن من خاض الحروب لم يخف من شئ وانى قد عزمت على أن أهجم هذه الليلة وأكبسهم فى أماكنهم فان الليل مهيب وأنتم أخبر بالبلد من غيركم فلم يبق الليلة فيكم أحد حتى يتأهب للحرب ويخرج من الباب وأرجو أن لاأعود حتى تنقضى الأشغال فاذا فرغت من القوم أخذت أميرهم أسيرا وأحمله الى الملك يأمر فيه بأمره ، فقالوا حبا وكرامة فعند ذلك فرق القوم على الباب الشرقى فرقة وعلى باب الجابية فرقة وعلى كل باب جماعة ، وقال لهم لاتجزعوا ، فان أمير القوم متباعد عنكم وليس هناك الا الأراذل والموالى فاطحنوهم طحن الحصيد . قال ودعا بفرقة أخرى الى باب الفراديس الى عمرو بن العاص وخرج توما من بابه وأخذ معه أبطال القوم ولم يترك بطلا يعرف بالشجاعة الاأخذه معه ورتب على الباب ناقوسا ، وقال لهم

اذا سمعتم الناقوس فهى العلامة التى بيننا فافتحوا الأبواب واخرجوا مسرعين الى أعدائكم ولا تجدوا رجالا نياما الاوتضعون السيف فيهم . فان فعلتم ذلك فرقتم جمعهم فى هذه الليلة وانكسروا كسرة لايجبرون بعدها أبدا ، قال ففرح القوم بذلك وخرجوا الى حيث أمرهم وقعدت كل فرقة على بابها وأقاموا ينتظرون صوت الناقوس ليبادروا الى المسلمين ، قال ودعا توما برجل من النصارى ، وقال له خذ ناقوسا واعل به على الباب فاذا رأيتنا قد فتحنا الباب فاضرب الناقوس ضربة خفيفة يسمعها قومنا ، وقد سار توما بقطعة من جيشه عليهم الدروع و بأيديهم السيوف وتوما فى أوائلهم و بيده صفيحة هندية وألقى على رأسه بيضة كسروية كان هرقل قد أهداها له ، وكانت لاتعمل فيها السيوف القواطع حتى وصل الى الباب ، ثم وقف حتى تكامل القوم ، فلما نظر اليهم قال ياقوم اذا فتحنا لكم الباب فأسرعوا الى عدوّكم وجدّوا فى سعيكم الى أن تصلوا الى القوم ، فاذا وصلتم اليهم فاحلوا ومكنوا السيوف فيهم ومن صاح منهم بالأمان فلا تبقوا عليه الا أن يكون أمير القوم ومن أبصر منكم الصليب فليأخذه فقالوا حبا وكرامة . ثم أمر رجلا من أصحابه أن يسير الى الذى بيده الناقوس و يأمره أن يضرب به ضربة خفيفة ثم فتح الباب وتبادر الرجال الى أصحاب رسول الله ﷺ وهم فى غفلة عما دبر القوم لهم الا أنهم فى يقظة ، فلما سمعوا الصوت أيقظ بعضهم بعضا وتواثبت الرجال من أماكنهم كالأسد الضارية فلم يصل اليهم العدوّ الاوهم على حذر وحاوا عليهم وهم فى غير ترتيب فتقاتل القوم فى جنح الظلام وعمل السيف وسمع خالد بن الوليد فقام ذاهل العقل مما سمع من الزعقات فصاح واغوثاه واسلاماه كيد قومى ورب الكعبة اللهمّ انظر لهم بعينك التى لاتنام وانصرهم ياأرحم الراحمين . وسار خالد ومن معه وهم أر بعمائة فارس من أصحابه ، وهو بغير درع قد لبس ثوب كتان من عمل الشام مكشوف الرأس . ثم جدّ فى السير والار بعمائة فارس معه كأنهم الليوث العوابس الى أن وصلوا الى الباب الشرقى واذا بالفرقة التى هناك قد هاجت أصحاب رافع بن عميرة الطائى . قال : وأصوات المسلمين عالية بالتهليل والتكبير ، والقوم من أعلى الاسوار قد أشرفوا وتصايحوا عندما استيقظ لهم المسلمون فحمل خالد بن الوليد على الروم ونادى برفيع صوته أبشروا يامعشر المسلمين أتاكم الغوث من رب العالمين ، أنا الفارس الصنديد ، أنا خالد بن الوليد وجال فى أوساط الناس بمن معه فجندل أبطالا وقتل رجالا ، وهو مع ذلك مشتغل القلب على أبى عبيدة والمسلمين الذين على الأبواب وهو يسمع أصواتهم وزعقاتهم ، قال وتصايح الروم والنصارى واليهود .

[قال سنان بن عوف] قلت لابن عمى قيس هل كانت اليهود تقاتلكم ؟ قال نعم يقاتلوننا من أعلى الأسوار و يرمون بالسهام وخشى خالد على شرحبيل بن حسنة مما وصل اليه من عدوّ الله توما لأنه ملازم الباب . قال ولقى شرحبيل بن حسنة من عدوّ الله توما أمرا عظيما لم يلق أحد مثله وذلك أنه هجم عليه توما فى تلك الليلة ، وكان أول من وصل الى المسلمين عدوّ الله توما قال فصبروا له صبر الكرام وقاتل عدوّ الله قتالا شديدا وهو ينادى أين أميركم الذميم الذى أصابنى أناركن الملك الرحيم ، أنا ناصر الصليب . قال فلما سمع شرحبيل صوته قصد جهته ، وقد جرح رجالا من المسلمين ، وقال ها أنا صاحبك وغريمك ، أنا مبيد جمعكم وآخذ صليبكم ، أنا كاتب وحى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعطف عليه توما عطفة الأسد ورأى من شرحبيل بن حسنة أمرا

هائلا ولم يزالوا كذلك الى أن زال من الليل شطره وكل قرن مع قرنه وكانت زوجة أبان مع شرحبيل وكانت فى تلك الليلة أحسن الناس صبرا وزمت بنبالها ، وكانت لاتقع نبلة من نبالها الافى رجل من المشركين الى أن قتلت من الروم مقتلة عظيمة بالنبال والروم يتحايدون عنها الى أن لاح رجل من الروم فرمته بنبلة فبقيت النبلة معلقة فى نحره . قال فصرخ بالروم فهاجوها وأخذوها أسيرة ومات عدوّالله الذى رمته قال ولقى شرحبيل من الروم مالا يلقاه أحد وانه ضرب توما ضربة هائلة فتلقاها الملعون بدرقته فانكسر سيف شرحبيل فطمع عدو الله فيه وحمل عليه وظن أنه يأخذه أسيرا واذا بفارسين قد أشرفا من ورائهما مع كبكبة من الفرسان فهجموا على الروم ونظروا واذا بزوجة أبان قد خلصت وهجمت على الروم وهتفت فلحقها فارسان فبرز لهما عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وأبان بن عثمان بن عفان رضى الله عنه فقتلا الرجلين ورجع عدوّالله توما هاربا الى المدينة .

[قال حدّثنى] تميم بن عدى ، وكان ممن شهد الفتوحات . قال كنت فى خيمة أبى عبيدة وذلك أن أبا عبيدة كان يصلى فيها اذ سمع الصياح . فقال لاحول ولا قوّة الا بالله العلىّ العظيم ثم لبس سلاحه ورتب قومه ودنا من القوم فنظر اليهم وهم فى المعمعة والحرب وعدل عنهم ميسرة وميمنة الى أن جاوزهم وعطف نحو الباب وكبر وكبر المسلمون ، فلما سمع المشركون تكبيرهم ظنوا أن المسلمين قد دهموهم من ورائهم فى جمع كثير فولوا راجعين فتلقاهم أبوعبيدة وقومه وأخذوا عليهم المجاز وبذل أبوعبيدة السيف فيهم .

[قال الواقدى] ولقد بلغنى أنه ماسلم من الروم تلك الليلة أحد من الذين هم غرماء أبى عبيدة ولقد قتلوا عن آخرهم فبينما هم فى القتال اذ أشرف عليهم ضرار بن الأزور ، وهو ملطخ بالدماء . فقال له خالد ماوراءك ياضرار ؟ فقال أبشر أيها الأمير ماجئتك حتى قتلت فى ليلتى هذه مائة وخمسين رجلا وقتل قومى مالايعدّ ولايحصى ، وقد كفيتكم مؤنة من خرج من الباب الصغير الى يزيد بن أبى سفيان ، ثم عطفت الى سائر الأبواب فقتلت خلقا كثيرا قال فسرّ بذلك خالد بن الوليد ، ثم ساروا جميعا حتى أتوا شرحبيل بن حسنة وشكروا فعله وكانت ليلة مقمرة ولم يلق مثلها الناس فقتلوا فى تلك الليلة ألوفا من الروم قال فاجتمع كبار أهل دمشق الى توما وقالوا له أيها السيد انا قد نصحناك فلم تسمع لقولنا وقد قتل منا أكثر الناس وهذا أمير لايطاق ، يعنى خالد بن الوليد فصالح فهو أصلح لك ولنا وان لم تصالح صالحنا وأنت وشأنك . فقال ياقوم أمهلونى حتى أكتب الى الملك واعلمه بما نزل بنا ، فكتب من وقته وساعته كتابا يقول فيه : الى الملك الرحيم من صهرك توما ، أما بعد فان العرب محدقون بنا كاحداق البياض بسواد العين ، وقد قتلوا أهل أجنادين ورجعوا الينا وقد قتلوا منا مقتلة عظيمة ، وقد خرجت اليهم وأصيبت عينى ، وقد عزمت على الصلح ودفع الجزية للعرب فاما أن تسير بنفسك ، وإما أن ترسل لنا عسكرا تنجدنا بهم ، واما أن تأمرنا بالصلح مع القوم ، فقد تزايد الأمر علينا ثم طوى الكتاب وختمه وبعث به قبل الصباح فلما أصبح الصباح باكرهم المسلمون بالقتال وبعث خالد لكل أمير أن يزحف من مكانه فركب أبوعبيدة ووقع القتال واشتدّ الأمر على أهل دمشق فبعثوا لخالد أن أمهلنا فأبى خالد الا القتال ولم يزل كذلك الى أن ضاق بهم الحصار وهم ينتظرون أمر الملك واجتمع أهل البلد وقالوا لبعضهم

مالنا صبر على مانحن فيه من الأمر وان هؤلاء ان قاتلناهم نصروا علينا وان تركناهم أضرّ بنا الحصار فاطلبوا من القوم صلحا على ماطلبوه منكم فقال لهم شيخ كبير من الروم وقد قرأ الكتب السالفة ياقوم والله انى أعلم انه لوأتى الملك فى جيشه جميعا لما منعوا عنكم هؤلاء لما قرأت فى الكتاب أن صاحبهم محمدا خاتم المرسلين سيظهر دينه على كل دين فأطيعوا القوم وأعطوهم ماطلبوا منكم فهو أوفق لكم ، فلما سمع القوم مقالات الشيخ ركنوا اليه لما يعلمون من علمه ومعرفته بالأخبار والملاحم . فقالوا كيف الرأى عندك ؟ فنحن نعلم ان هذا الأمير الذى على باب شرقى رجل سفاك للدماء . فقال لهم : ان أردتم تقارب الأمر فامضوا الى الذى على باب الجابية ، وليتكلم رجل يعرف بالعربية ، ويقول بصوت رفيع : يامعاشر العرب الأمان حتى ننزل اليكم ونتكلم مع صاحبكم . قال أبو هريرة رضى الله عنه : وكان أبو عبيدة قد أنفذ رجالا من المسلمين مكثوا بالقرب من الباب مخافة الكبسة مثل الليلة التى خلت ، وكانت النوبة تلك الليلة لبنى دوس والأمير عليها عامر بن الطفيل الدوسى . قال فبينما نحن جلوس فى مواضعنا من الباب اذسمعنا أصوات القوم وهم ينادون قال أبوهريرة ، فلما سمعت بادرت الى أبى عبيدة قال و بشرته بذلك فاستبشر وقال امض وكلم القوم وقل لهم لكم الأمان قال فأتيت القوم و بشرتهم بالأمان فقالوا من أنت . فقلت أنا أبوهريرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوأن عبيدا لنا أعطوكم الأمان والذمام ونحن فى الجاهلية لما غدرنا فكيف وقد هدانا الله الى دين الاسلام . قال فنزل القوم وفتحوا الباب واذاهم مائة رجل من كبرائهم وعلمائهم ، فلما قربوا من عسكر أبى عبيدة تبادر اليهم المسلمون وأزالوا عنهم الصلبان الى أن وصلوا خيمة أبى عبيدة فرحب بهم وأجلسهم وقال ان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قال « اذا أتاكم عزيز قوم فأكرموه » وتكلموا فى أمر الصلح وقالوا انا نريد منكم أن تتركوا كنائسنا ولاتنقضوا علينا منها كنيسة وهى الجامع الآن بدمشق ، فقال لهم أبوعبيدة جميع الكنائس لايؤمر بهدمها قال وكان فى دمشق كنائس واحدة تسمى كنيسة مريم وكنيسة حنا وكنيسة سوق الليل وكنيسة أنذار ، وهى عند دار عبدالرحمن ذرة فكتب لهم أبوعبيدة كتاب الصلح والأمان ولم يسم فيه اسمه ولا أثبت شهودا وذلك ، لأنه لم يكن أمير المؤمنين ، فلما كتب لهم الكتاب تسلموه منه وقالوا له قم معنا الى البلد . قال فقام أبوعبيدة وركب معه أبو هريرة ومعاذ بن جبل ونعيم بن عمرو وعبد الله بن عمرو الدوسى وذو الكلاع الحيرى وحسان بن النعمان وجرير بن نوفل الحيرى وسيف بن سلمة ومعمر بن خليفة وربيعة بن مالك والمغيرة بن شعبة وأبولبابة بن المنذر وعوف بن ساعدة ، وعامر بن قيس ، وعبادة بن عتبة ، و بشر بن عامر ، وعبد الله بن قرط الأسدى وجملتهم خمسة وثلاثون صحابيا من أعيان الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، وخمسة وستون من أخلاط الناس فلما ركبوا وتقدموا نحو الباب . قال أبوعبيدة أريد منكم رهائن حتى ندخل معكم فأتوه برهائن ، وقيل ان أباعبيدة رأى فى منامه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : تفتح المدينة ان شاء الله تعالى فى هذه الليلة ، فقلت يارسول الله أراك على عجل قال لأحضر جنازة أبى بكر الصديق . قال فاستيقظت من المنام .

[قال الواقدى] وقد بلغنى أن أبا عبيدة لما دخل دمشق بأصحابه سارت القسس والرهبان بين يديه على مسرح الشعر وقد رفعوا الانجيل والمباخر بالند والعود ، ودخل أبو عبيدة من باب الجابية ولم يعلم خالد بن الوليد بذلك لأنه شدّ عليهم بالقتال . قال وكان هناك قسيس من قسس الروم اسمه يونس بن مرقص وكانت داره ملاصقة للسور مما يلى باب شرقى الذى عنده خالد وكان عنده ملاحم دانيال عليه السلام وكان فيها : ان الله تعالى يفتح البلاد على يد الصحابة و يعلو دينهم على كل دين ، فلما كانت تلك الليلة نقب يونس من داره وحفر موضعا وخرج على حين غفلة من أهله وأولاده وقصد خالدا وحدثه أنه خرج من داره وحفر موضعا والآن أريد أمانا لى ولأهلى ولأولادى قال فأخذ خالد عهده على ذلك وأنفذ معه مائة رجل من المسلمين أكثرهم من حمير ، وقال لهم اذا وصلتم المدينة فارفعوا أصواتكم بأجمعكم واقصدوا الباب واكسروا الأقفال وأزيلوا السلاسل حتى تدخلوا ان شاء الله تعالى . قال ففعل القوم ما أمرهم به خالد رضى الله عنه وساروا ومضى أمامهم يونس بن مرقص حتى دخل بهم من حيث خرج . فلما حطوا فى داره تدرّعوا واحترسوا ثم خرجوا وقصدوا الباب وأعلنوا بالتكبير . قال فلما سمع المشركون التكبير ذهلوا وعلموا أن أصحاب رسول الله ﷺ حطوا معهم فى المدينة ، وأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قصدوا الباب وكسروا الأقفال وقطعوا السلاسل ، ودخل خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين ووضعوا السيف فى الروم وهم مختلفون بين يديه الى أن وصل الى كنيسة مريم وخالد بن الوليد يأسر و يقتل .

[قال الواقدى] والتقى الجمعان عند الكنيسة جيش خالد وجيش أبى عبيدة وأصحابه سائرون والرهبان سائرون بين أيديهم وما أحد من أصحاب أبى عبيدة جرّد سيفه ، فلما نظر خالد اليهم ورأى أن لاأحد منهم جرد سيفه بهت وجعل ينظر اليهم متعجبا . قال فنظر اليه أبو عبيدة وعرف فى وجهه الانكار . فقال أبا سليمان قد فتح الله على يدى المدينة صلحا وكفى الله المؤمنين القتال .

[قال الواقدى] ماخاطب أبو عبيدة خالدا يوم الفتح بدمشق الا بالامارة : فقال أيها الأمير قد تمّ الصلح . فقال خالد وما الصلح ؟ لاأصلح الله بالهم وأنى لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف ، وقد خضبت سيوف المسلمين من دمائهم وأخذت الأولاد عبيدا وقد نهبت الأموال . فقال أبو عبيدة أيها الأمير : اعلم أنى مادخلتها الا بالصلح . فقال له خالد بن الوليد انك لم تزل مغفلا وأنا مادخلتها الا بالسيف عنوة وما بقى لهم حماية فكيف صالحتهم . قال أبو عبيدة : اتق الله أيها الأمير ، والله لقد صالحت القوم ونفذ السهم بما هوفيه وكتب لهم الكتاب وهومع القوم . فقال خالد وكيف صالحتهم من غير أمرى وأنا صاحب رايتك والأمير عليك ولا أرفع السيف عنهم حتى أفنيهم عن آخرهم . فقال أبو عبيدة والله ماظننت أن تخالفنى اذا عقدت عقدا ورأيت رأيا فالله الله فى أمرى ، فوالله لقد حقنت دماء القوم عن آخرهم وأعطيتهم الأمان من الله جلّ جلاله وأمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رضى من معى من المسلمين ، والغدر ليس من شيمنا . قال وارتفع الصياح بينهما وقد شخص الناس اليهما وخالد مع ذلك لايرجع عن مراده ، ونظر أبو عبيدة الى ذلك فرأى أصحاب رسول الله ﷺ مع خالد وهم جيش البوادى من العرب مشتبكون على قتال الروم ونهب أموالهم . قال فنادى أبو عبيدة واثكلاه خفرت والله ونقض عهدى وجعل يحرك جواده و يشير

الى العرب مرة يمينا ومرة شمالا وينادى معاشر المسلمين أقسمت عليكم برسول الله صلى الله عليه وسلم أن لاتمدوا أيديكم نحو الطريق الذى جئت منه حتى نرى ما تتفق أنا وخالد عليه ، فلما دعاهم بذلك سكتوا عن القتل والنهب واجتمع اليهما فرسان المسلمين والأمراء وأصحاب الرايات مثل معاذ ابن جبل رضى الله عنه ويزيد بن ابى سفيان رضى الله عنه وعمرو بن العاص رضى الله عنه وشرحبيل بن حسنة رضى الله عنه وربيعة بن عامر رضى الله عنه وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم أجمعين ونظرائهم ، والتقوا عند الكنائس واجتمع هناك فرسان للمشورة والمناظرة . فقالت طائفة من المسلمين منهم معاذ بن جبل و يزيد بن أبى سفيان الرأى أن تمضى الى ما أمضاه أبوعبيدة بن الجراح وتكفوا عن القتال للقوم . فان مدن الشام لم تفتح أبدا ، وهرقل فى انطاكية كما تعلمون ، وان علم أهل المدن أنكم صالحتم وغدرتم لم تفتح لكم مدينة صلحا ولأن تجعلوا هؤلاء الروم فى صلحكم خير من قتلهم ، ثم قالوا لخالد أمسك عليك مافتحت بالسيف ويمينك أبوعبيدة بجانبه واكتبا الى الخليفة وتحاكما اليه ، فكل ماأمربه فعلناه ، فقال لهم خالد بن الوليد قدأجبت الى ذلك وقبلت مشورتكم ، فأما أهل دمشق فقد أمنتهم الا هذين اللعينين توماوهربيس وكان هربيس هو المؤمر على نصف البلد ولاه توما حين رجع الأمر اليه . فقال أبو عبيدة ان هذين أوّل من دخل فى صلحى فلا تخفر ذمتى رحمك الله تعالى . فقال خالد ، والله لولا ذمامك لقتلتهما جميعا ، ولكن يخرجان من المدينة فلعنهما الله حيث سارا . قال أبو عبيدة وعلى هذا صالحتهما . قال ونظر توما وهربيس الى خالد وهو يتنازع مع أبى عبيدة خافا الهلاك فأقبلا على أبى عبيدة ومعهما من يترجم عنهما وقالا له مايقول هذا يعنى خالدا . قال الترجمان لأبى عبيدة ماتقول أنت وصاحبك فيه من المشاورة : ان صاحبك هذا يريد غدرنا فنحن وأهل المدينة دخلنا فى عهدكم ونقض العهد ماهو من شيمكم ، وانى أسألكم أن تدعونى أن أخرج أنا وأصحابى وأسلك أىّ طريق أردت . فقال أنت فى ذمتنا فاسلك أىّ طريق شئت ، فاذا صرت فى أرض تملكونها فقد خرجت من ذمتنا أنت ومن معك . فقال توما وهربيس نحن فى ذمتكم وجواركم ثلاثة أيام أىّ طريق سلكنا ، فاذا كان بعد ثلاثة أيام فلا ذمة لنا عندكم ، فان لقينا منكم بعد ثلاثة أيام وظفر بنا فنحن لهم عبيد ان شاء أسرنا وان شاء قتلنا . فقال خالد قد أجبناك الى ذلك ، لكن لاتحملوا معكم من هذا البلد الا الزاد الذى تتقوّتون به . قال أبو عبيدة لخالد : هذا كلام داع لنقض العهد والصلح انما وقع بيننا أنهم يخرجون برجالهم وأموالهم . فقال خالد سمحت لهم بذلك الا الحلقة يعنى السلاح فانى لاأطلق لهم شيئا من ذلك . فقال توما لابدّ لنا من السلاح نمنع به عن أنفسنا فى طريقنا ان طرقنا طارق حتى نصل الى بلدنا ، والا فنحن بين أيديكم فاحكموا فينا بما أردتم . فقال أبوعبيدة اطلق لكل واحد قطعة من السلاح ان أخذ سيفا فلا يأخذ رمحا ، وان أخذ رمحا فلا يأخذ سيفا ، وان أخذ قوسا فلا يأخذ سكينا . فقال توما لما سمع منهم ذلك الكلام قد رضينا بذلك وما يريد كل واحد منا الا قطعة من السلاح لاغير ، ثم قال توما لأبى عبيدة انى خائف من هذا الرجل أعنى خالد بن الوليد فليكتب لى بذلك . قال أبوعبيدة ثكلتك أمك إنا معاشر العرب لا نغدر ولا نكذب وان الأمير أبا سليمان قوله قول وعهده عهد ولايقول الا الصدق قال فانطلق توما وهربيس يجمعان قومهما ويأمرانهم بالخروج . قال وكان الملك له خزانة ديباج

فى دمشق فيها زهاء من ثلثمائة حمل ديباج وحلل مذهبة فعزم على إخراجها وأمر توما فضربت له خيمة من القز ظاهر دمشق وأقبلت الروم تخرج الأمتعة والأموال والأحمال حتى أخرجوا شيئا عظيما ، فنظر خالد بن الوليد الى كثرة أحمالهم . فقال ماأعظم رحالهم ، ثم قرأ قوله تعالى ــ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ــ الآية ، ثم نظر خالد الى القوم كأنهم حمر مستنفرة ولم يلتفت أحد الى أخيه من شدة عجلتهم ، فلما نظر خالد الى ذلك رفع يديه الى السماء . وقال : اللهم اجعله لنا وملكنا إياه واجعل هذه الأمتعة قوتا للسلمين آمين انك سميع الدعاء ، ثم أقبل على أصحابه وقال لهم انى رأيت أنا رأيا فهل أنتم تتبعونى عليه ؟ فقالوا نتبعك ولا نخالف لك أمرا ، فقال خالد قوموا بخيولكم حق القيام وأحسنوا اليها ما استطعتم وأنجزوا سلاحكم فانى أسير بكم بعد ثلاثة أيام فى طلب هؤلاء القوم وأرجو من الله أن يغنمنا هـذه الغنيمة والأموال التى رأيتموها . وان نفسى تحدثنى أن القوم ما تركوا فى دمشق متاعا ولا ثوبا حسنا الاوقد أخـذوه معهم . فقالوا افعل ماتريد فما نخالف لك أمرا ، ثم أخـذوا فى إصلاح شأنهم ، وتوما وهربيس قد جمعوا مال الرساتيق وجميع المـال ، فلما جمعوه جاءوا به الى أبى عبيدة . فقال لهم وفيتم بما عليكم فسيروا حيث شئتم فلكم الأمان منا ثلاثة أيام . قال يزيد ابن ظريف فلما سلموا المـال لأبى عبيدة ارتحلوا سائرين كأنهم سواد مظلم ، وكان قد خرج مع القوم خلق كثير من أهـل دمشق بأولادهم وكرهوا أن يكونوا فى جوار المسلمين . قال واشتغل خالد عن اتباعهم بخلاف ماوقع بينهم و بين أهل دمشق فى حنطة وشعير وجـدوا فى المدينة منه شيئا كثيرا . فقال أبو عبيدة هو للقوم دخل فى صلحهم فـكادت الفتنة أن تثور بين أصحاب خالد و بين أصحاب أبى عبيدة ، واتفق رأيهم أن يكتبوا كتابا الى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى ذلك وليس عندهم خبر أنه مات يوم دخولهم دمشق .

[قال عطية بن عامر] كنت واقفا على باب دمشق فى اليوم الذى سارت فيـه الروم مع توما وهربيس ومعهم ابنـة الملك هرقل . قال فنظرت الى ضرار بن الأزور وهو ينظر الى القوم شزرا و يتحسر على مافاته منهم ، فقلت له ياابن الأزور مالى أراك كالمتحسر أما عند الله أكثر من ذلك فقال والله ماأعنى مالا وانما أنا متأسف على بقائهم وانفلاتهم منا ، ولقد أساء أبو عبيدة فيما فعـل بالمسلمين . فقلت يا ابن الأزور ما أراد أمين الأمة الاخيرا للمسلمين أن يحقن دماءهم وأرواحهم من تعب القتال فان حرمة رجل واحد خير مما طلعت عليه الشمس ، وان الله سبحانه وتعالى أسكن الرحمـة فى قلوب المؤمنين وان الرب يقول فى بعض الـكتب المنزلة ان الرب لايرحم من لايرحم . وقال تعالى : والصلح خير . فقال ضرار لعمرى انك لصادق ، ولـكن اشهدوا علىّ أنى لاأرحم من يجعل له زوجة وولدا .

[قال حدثنى] عمر بن عيسى عن عبد الواحد بن عبد الله البصرى عن واثلة بن الأسقع . قال كنت مع خالد بن الوليد فى جيش دمشق ، وكان قد جعلنى مع ضرار بن الأزور فى الخيل التى تجول من باب شرقى الى باب توما الى باب السـلامة الى باب الجابية الى باب الصغير الى باب فيان اذسمعنا صرير الباب وذلك قبل فتوح الشام واذا به قد خرج منه فارس فتركناه حتى قرب منا فأخذناه قبضا بالـكف وقلنا ان تـكلمت قتلناك فسكت واذا قـد خرج فارس آخر قام على الباب

وجعل ينادي بالذى قد أخذناه ، فقلنا له كله حتى يأتى . قال فرطن له بالرومية ان الطير فى الشبكة فعلم أنه قد أسر فرجع وأغلق الباب . قال فأردنا قتله ، فقال بعضنا لاتقتلوه حتى نمضى به الى خالد الأمير . قال فأتينا به خالدا ، فلما نظر اليه قال له من أنت ؟ قال له أنا من الروم وانى تزوجت بجارية من قومى قبل نزولكم عليهم وكنت أحبها ، فلما طال علينا حصاركم سألت أهلها أن يزفوها علىّ فأبوا ذلك ، وقالوا ان بنا شغلا عن زفافك وكنت أحب أن ألقاها ولنا فى المدينة ملاعب نلعب فيها فوعدتها أن تخرج الى الملاعب فخرجت وتحدثنا فسألتنى أن أخرج بها الى خارج المدينة ففتحنا الباب وخرجت أنظر أخباركم فأخذنى أصحابك فنادتنى . فقلت ان الطير وقع فى الشبكة أحذرها منكم مخافة عليها ولو كان غيرها لهان علىّ ذلك . فقال خالد ماتقول فى الاسلام ؟ فقال أشهد أن لاإله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فكان يقاتل معنا قتالا شديدا ، فلما دخلنا المدينة صلحا أقبل يطلب زوجته . فقيل له انها لبست ثياب الرهبانية فأقبل اليها وهى لا تعرفه . فقال لها ماحملك على الرهبانية ؟ . قالت حملنى على ذلك انى غررت بزوجى حتى أخذته العرب وترهبت حزنا عليه . قال أنا زوجك وقد دخلت فى دين العرب . قال فلما سمعت ذلك قالت وما تريد ؟ قال أن تكونى فى الذمة . فقالت وحق المسيح لا كان ذلك أبدا ومالى الى ذلك سبيل ، وخرجت مع البطريق توما ، فلما نظر الى امتناعها أقبل الى خالد بن الوليد فشكا له حاله . فقال له خالد ان أبا عبيدة فتح المدينة صلحا ولا سبيل لك اليها علم ان خالدا يسير وراء القوم . فقال أسير معه لعلى أقع بها وأقام خالد بدمشق الى اليوم الرابع ، ثم أقبل اليه يونس الدمشقى زوج الجارية وقال أيها الأمير قد عزمت على المسير فى طلب هذين اللعينين توما وهربيس وأخذ مامعهما قال بلى . فقال له وما الذى أقعدك عن ذلك . قال بعد القوم و بيننا و بينهم أربعة أيام بلياليها وهم يسيرون سير الخوف وما يمكن اللحوق بهم . فقال يونس ان كان تخلفك لبعد المسافة بيننا و بينهم فأنا أعرف الديار وأسلك طريقا فنلحقهم ان شاء الله تعالى ، ولكن البسوا زىّ لخم وجذام وهم العرب المتنصرة وخذوا الزاد وسيروا . قال فسار خالد وأخذ عساكر الزحف وهم أربعة آلاف فارس فأمرهم أن يسيروا و يخففوا حمل الزاد ففعلوا ذلك ، وخالد ومن معه قد ساروا و يونس الدليل أمامهم وهو يتبع آثار القوم وقد أوصى خالد أبا عبيدة على المدينة والمسلمين . قال زيد بن طريف وكان يونس دليلنا . قال فرأى آثار القوم وانهم اذا سقط منهم حمل جمل تركوه ، وسار خالد ومن معه كلما دخلوا بلدا من بلاد الروم يظنون أنهم من العرب المتنصرة من لخم وجذام حتى أشرف بهم الدليل على ساحل البحر ونوى أن يطلب الأثر واذا بالقوم قد عدوا عن إنطاكية ولم يدخلوها خيفة الملك . قال فوقع للدليل عند ذلك حيرة فى أمره فعدل الى قرية هناك ، وسأل بعضا من الناس فأخبروه أن الخبر قد اتصل الى الملك بأن توما وهربيس قد سلما دمشق للعرب فنقم عليهما ولم يدعهما يأتيان اليه ، وذلك أنه جمع الجيوش وأرسلها الى اليرموك نخاف أن يتحدثوا بشجاعة العرب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتضعف قلوبهم فبعث الى توما ومن معه أن يسيروا الى القسطنطينية ، فلما علم يونس أن القوم عدلوا وأخذوا فى طلب التحيز فكر فى ذلك وغاب عن المسلمين فوقف خالد وصلى بالناس واذا بيونس قد أقبل وقال : أيها الأمير انى والله قدغررت بكم و بلغت الغاية فى الطلب . قال خالد وكيف الأمر ؟ قال أيها الأمير تبعتنى فى آثارهم فى هذا المكان

رجاء أن ألحقهم ، وان الملك منعهم من الدخول الى إنطاكية لئلا يرعبوا عسكره وأمرهم أن يطلبوا القسطنطينية ، وقد قطع بينكم و بينهم هذا الجبل العظيم وأنتم فى جبل هرقل وهو يجمع عسكره و يسير الى حربكم وانى خائف عليكم ان تركتم هذا الجبل خلف ظهوركم هلكتم و بعد هذا فالأمر اليك وكل ما أمرتنى به فعلت . قال ضرار بن الأزور فرأيت خالدا وقد انتقع لونه كالخضاب وكان ذلك منه جزعا وما عهدت به ذلك . فقلت ياأمير على ماذا عوّلت ؟ فقال ياضرار والله مافزعت من الموت ولا من القتل ، وانما خفت أن يؤتى المسلمون من قبلى وانى رأيت قبل فتح دمشق مناما أفزعنى وأنا منتظر تأويله وأرجوا أن يجعل الله لنا خيرا وينصرنا على عدوّنا . فقال ضرار خيرا رأيت وخيرا يكون ان شاء الله تعالى فما الذى رأيت . قال رأيت المسلمين فى برّية قفرة ونحن سائرون فبينما نحن كذلك واذا بقطيع من حمر الوحش كثيرة عظيمة أجسامها مهزولة أخفافها وهى لا تكدم برماحنا ونحن نضربها بأسيافنا وهى لاتكترث فما نزل بها من الأذى ولا تهلع مما ينزل فلم نزل مثل ذلك حتى اجتهدنا واجتهدت خيولنا ، وكأنى أقبلت على أصحابى وفرقتهم عليها من أربعة جوانب البرّية وحملت عليهم فجفلت من أيدينا الى مضايق وتلال وأودية خصبة فلم نأخذ منها الا اليسير ، فبينما نحن نطبخ ونشوى من أطايب لحومها واذا هى قد رجعت تطلب الحرب منا ، فلما نظرت اليها وقد طرحت المضايق والآجام صحت بالمسلمين اركبوا فى طلبها بارك الله فيكم فاستوى المسلمون على خيولهم وركبت معهم وطلبناها حتى وقعت بها وتصيدت منها بعيرا عظيما فقتلته فجعل المسلمون يقتلون و يتصيدون فما بقى منها الا اليسير فبينما أنا فرح وأنا أريد الرجوع بالمسلمين الى وطنهم إذ عثرت فرسى فطارت عمامتى من على رأسى فهويت لآخذها فانتبهت من منامى وأنا فزع مرعوب ، فهل فيكم أحد يفسره ؟ فانى أقول الرؤيا مانحن فيه . قال فصعب ذلك على القوم وجعل خالد يراود نفسه على الرجوع . فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه : أما تفسير الوحوش فهؤلاء الأعاجم الذين نحن فى طلبهم ، وأما سقوطك عن فرسك فانه أمر تنحط عليه من رفعة الى خفضة ، وأما سقوط العمامة عن رأسك فالعمائم تيجان العرب وهى معرّة تلحقك . فقال خالد : أسأل الله العظيم ان كان ذلك تأويل مارأيته أن يجعله من أمر الدنيا ولا يجعله من أمر الآخرة و بالله أستعين وعليه أتوكل فى كل الأمور . قال ثم سار خالد والدليل أمامهم حتى قطعوا الجبل ، فلما كانت الليلة التى أردنا أن نصبح فيها القوم أتى مطر كأفواه القرب وكان من توفيق الله عز وجل أنه حبس القوم عن المسير . قال وبح بن طريف رضى الله عنه ، ولقد رأيتنا ونحن نسير والمطر ينزل علينا كأفواه القرب طول ليلتنا ، فلما أصبح الصباح وطلعت الشمس قال يونس : أيها الأمير قف حتى أنظر القوم لأنهم لاشك بالقرب منا وقد سمعت صياحهم . فقال له خالد بن الوليد أحقا سمعت صياحهم يايونس قال نعم أيها الأمير وأريد منك أن تأذن لى بالمسير اليهم وآتيك بخبرهم . قال فعند ذلك التفت خالد بن الوليد الى رجل اسمه المفرط بن جعدة . قال له يامفرط سر مع يونس وكن له مؤنسا واحذر أن يأخذ خبركما القوم فقال المفرط السمع والطاعة لله ولك أيها الأمير ، ثم انطلقا الى أن صعدا على جبل يقال له الأبرش والروم تسميه جبل باردة . قال المفرط فلما علونا عليه وجدنا مرجا واسعا كثير الجنبات كثير النبات وفيه خضرة عظيمة ، وان القوم قد أصابهم المطر حتى بلّ رحالهم وقد حميت عليهم الشمس

نخافوا اتلافها فاخرجوها وأخرجوا الديباج ونشروها فى طول المرج ، وقد نام أكثرهم من شدة السير والتعب والمطر الذى أصابهم . قال المفرط بن جعدة ، فلما رأيت ذلك فرحت فرحا شديدا ورجعت الى خالد بن الوليد وتركت صاحبى يونس ، فلما رآنى خالد وحدى أسرع الىّ وظن أن صاحبى كيد . فقال ماوراءك ياابن جعدة أخبرنى وعجل بالخبر ؟ فقلت الخير والغنيمة ياأمير وان القوم خلف هذا الجبل وقد أصابهم المطر وقد وجدوا الراحة بطلوع الشمس وقد نشروا أمتعتهم . فقال بشرك الله بالخير ، ثم ظهرلى من وجهه الخير والفرح والسرور ، فبينما نحن كذلك و إذا بيونس قد أقبل . فقال له خالد خيرا ، فقال له أبشر أيها الأمير فان القوم أمنوا على أنفسهم ، ولكن أوص أصحابك ان كل من وقع بزوجتى فليحفظها فما أريد من الغنيمة سواها . فقال له خالد هى لك ان شاء الله تعالى ، ثم ان خالدا قسم أصحابه أربع فرق فأمّر ضرار بن الأزور على ألف فارس وعلى الألف الثانى رافع بن عميرة الطائى ، وعلى الألف الثالث عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق و بقى هو فى الفرقة الرابعة . وقال سيروا على بركة الله تعالى و إياكم أن تخرجوا اليهم دفعة واحدة : بل يخرج كل أمير منكم بينه و بين صاحبه قدر ساعة ، ثم افترق القوم وحمل ضرار بن الأزور والروم مطمئنون وحمل من بعده رافع بن عميرة الطائى ، ثم عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، ثم خالد بن الوليد سار فى آخر القوم حتى وصلوا المرج . قال عبيد بن سعيد والله لقد كدنا أن نفتتن من حسن منظره فزعق فينا خالد بن الوليد . وقال عليكم بأعداء الله ولا تشتغلوا بالغنائم ولا بالنظر الى المرج فانها لكم ان شاء الله تعالى ، ثم عطف خالد بن الوليد رضى الله عنه على الروم وقد نظرت الروم الى الخيل وقد خرجت عليهم وخالد أمامهم ، فعلموا أنها خيول المسلمين فبادروا الى السلاح وركبوا الخيل وقال بعضهم لبعض انها خيل قليلة ساقها المسيح اليكم وجعلها غنيمة لكم فبادروا اليها . قال فتبادر الروم وهم يظنون أن ليس وراء خالد أحد ، واذا بضرار بن الأزور قد خرج عليهم فى ألف فارس وطلع رافع بن عميرة الطائى بعده وطلع عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق بعدهم وطلبت كل كتيبة فرقة من الروم وتفرقوا من حولهم وطلبوا مافى أيديهم وقد رفعوا أصواتهم يقولون : لااله الا الله محمد رسول الله وانصبت خيل المسلمين على الروم كأنها السيل المنحدر ونادى اللعين هربيس برجاله قاتلوا عن نعمكم فما لهؤلاء القوم حيلة ولا يخلصون من هذا المكان أبدا ، فانقسمت الروم طائفة معه وطائفة مع اللعين توما فكان من طلب خالدا توما وقد أحدق به خمسمائة فارس وقد رفع بين عينيه صليبا من الجوهر مقمعا بالذهب الأحمر فعدل خالد وحمل عليه وقال : ياعدوّ الله أظننتم أنكم تفلتون منا والله تعالى يطوى لنا البلاد وكان توما أعور عورته امرأة أبان قال فحمل عليه وطعنه فى عينه الأخرى ففقأها وأرداه عن جواده وحمل أصحابه على رجال توما وقد وقع الصليب ، ولله درّ عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فانه لما نظر الى توما وقد سقط عن جواده نزل وجلس على صدره واحتز رأسه ورفعها على السنان ونادى قد قتل والله توما اللعين فاطلبوا هربيس .

[قال الواقدى] ففرح المسلمون بذلك . قال رافع بن عميرة الطائى كنت فى الميمنة مع خالد بن الوليد اذ نظر الىّ فارس زيه زى الروم ، وقد نزل عن جواده ، وهو يقاتل علجة من نساء الروم وهى تظهر عليه مرة فدنوت أنظرها . فاذاهو يونس الدليل وهو يقاتل زوجته و يصارعها

صراع الأسد . قال رافع فدنوت ان أتقدم اليهما فاعينه فقصد الى عشرة من النساء يرمين قوسى بالحجارة فخرج حجر كبير من امرأة حسناء عليها ثياب الديباج . قال فوقع الحجر فى جبهة جوادى فانكب على رأسه ، وكان جوادا شهدت عليه اليمامة فسقط الجواد ميتا . قال فأسرعت فى طلبها فهربت من بين يدى كأنها ظبية القناص وهربت النساء من ورائها فلحقتهن وقصدت قتلهن وزعقت عليهن وكنت أريد قتلهن ومالى قصد الا الجارية التى قتلت حصانى فدنوت منها وعلوت بالسيف على رأسها فجعلت تقول الغوث الغوث فرجعت عن قتلها وأقبلت اليها ، واذا عليها ثياب الديباج وعلى رأسها شبكة من اللؤلؤ فأخذتها أسيرة من النساء وأوثقتها كتافا ، ورجعت على أثرى فركبت جوادا من خيل الروم . ثم قلت والله لأمضين وأنظر ما كان من أمر يونس فوجدته ، وهو جالس وزوجته بجانبه وقد تلطخت بدمائها وهو يبكى عليها ، فلما رأيتها قلت لها اسلمى ، فقالت لاوحق المسيح لا اجتمعت أنا وأنتم أبدا . ثم أخرجت سكينا كانت معها فقتلت بها نفسها . فقلت ان الله عز وجل أبدلك ماهى أعظم منها وعليها ثياب الديباج وشبكة من اللؤلؤ وهى كأنها القمر فخذها لك بدلا عن زوجتك ، فقال أين هى ؟ فقلت هاهى معى . قال فلما نظر اليها والى ماعليها من الحلى والزينة وتبين حسنها وجمالها راطنها بالرومية وسألها عن أمرها فرطنت عليه ، وهى تبكى فالتفت الى ، وقال لى أتدرى من هذه ؟ قلت لافقال هذه ابنة الملك هرقل زوجة توما وما مثلى يصلح لها ولابد هرقل من طلبها و يفديها بماله . قال وافتقد المسلمون خالدا فلم يجدوا له أثرا فقلقوا عليه قلقا عظيما وخالد رضى الله عنه غائص فى المعركة وقصد اللعين هربيس بعد قتل توما ، فبينما هو يحمل يمينا وشمالا اذ نظر علجا من علوج الروم عظيم الخلقة أحمر اللون فظن خالد أنه اللعين فأطلق جواده نحوه وطلبه طلبا شديدا ليقتله ، فلما نظر اليه العلج والى حملته فر هاربا من بين يديه فوكزه خالد بالرمح ، واذا هو واقع على الأرض على أم رأسه وانقض عليه خالد كالاسد ، وهو يقول ويلك ياهربيس أظننت أنك تفوتنى وذلك العلج يعرف بالعربية . فقال ياعربى ماأنا هربيس فابق على ولاتقتلنى . فقال خالد مالك من يدى خلاص الا اذا كنت تدلنى على هربيس . فاذا دللتنى عليه أطلقتك . فقال له العلج أنذادللتك عليه تطلقنى ، فقال خالد نعم لك ذلك . فقال العلج ياأخا العرب قم من على صدرى حتى أدلك عليه فقام خالد من على صدره فوثب العلج ونظر يمينا وشمالا . ثم قال لخالد أترى هذا الجبل وهذه الخيل الصاعدة اقصدها فان هربيس فيها . قال فوكل خالد بالعلج واحدا ، وهو ابن جابر ثم أطلق خالدا عنانه حتى لحق بهم وصرخ عليهم ، وقال ياويلكم أنى لكم بنى خلاص ؟ فلما سمع هربيس ذلك ظنه من بعض العرب فزعق فيه ورجع ورجعت البطارقة بالسلاح . فقال لهم خالد ياويلكم ظننتم أن الله لايمكننا منكم أنا الفارس الصنديد أناخالد بن الوليد . ثم طعن فارسا فرماه وآخر فأرداه . فلماسمع هربيس كلام خالد ، قال لاصحابه ياويلكم هذا الذى قلب الشام على أصحابه ، هذا صاحب بصرى وحوران ودمشق وأجنادين دونكم واياه قال فطمع القوم فيه لانفراده عن أصحابه ، وكان المسلمون فى قتال الروم ونهب الأموال وكل منهم مشتغل بنفسه . قال فترجلت البطارقة حول خالد لأنهم فى جبل كثير الوعر وأحاطوا بخالد بن الوليد فعندها ترجل عن جواده وأخذ سيفه وحجفته وصبر لقتالهم . قال حدثنى شداد بن أوس وكان ممن حضر وقعة

مرج الديباج ، وقال خالد قد صحت الرؤيا . فلما ترجل أقبل يقاتل بنفسه وأقبل اليه هربيس ، وهو مشتغل بالقتال وأتاه من ورائه وضرب خالدا بالسيف فوقع السيف على البيضة فقدّها ، وقدّ عمامته وانقض السيف من يد هربيس وخاف خالد أن يلتفت الى ورائه فتهجم عليه الروم وخاف أن يفلت هربيس من بين يديه فعند ذلك صاح بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير كأنه مستبشر بشيء أغاثه أو أدركه وذلك خديعة منه وحيلة يريدبها أن يتمكن من الاعلاج . فبينما هو كذلك اذ سمع من المسلمين زعقات ، وقد أخذت الروم من ورائهم وهم يصيحون بالتهليل والتكبير وقائل يقول : لا إله إلاالله محمد رسول الله أتاك النصر من رب العالمين أنا عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق . فلما سمع خالد صوته لم يلتفت الى عبد الرحمن ولاالى من معه دون أن فرق الاعلاج ذات اليمين وذات الشمال ، ولما أن سمع اللعين هربيس أصوات المسلمين أراد الهرب فلحقه سيدنا خالد وضربه ضربة فأرداه قتيلا وعجل الله بروحه الى النار واستطال أصحاب رسول الله ﷺ على أصحاب هربيس ونزلوا فيهم بالسيف حتى أبادوهم عن آخرهم ، وكان أكثرهم قتلا من يد ضرار بن الأزور . فلما انكشف الكرب عن خالد ونظر الى مافعل ضرار . قال أفلح والله وجهك ياابن الأزور فما زلت مباركا فى كل أفعالك أنجح الله أعمالك وأصلح ربى حالك . ثم سلم على عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعلى المسلمين ، وقال من أين علمتم مكانى هذا ، فقال عبد الرحمن ياأمير بينما نحن فى قتال الروم ، وقد نصرنا الله عليهم والمسلمون قد اشتغلوا بالغنائم اذا سمعنا هاتفا من الهواء يقول اشتغلتم بالغنائم وخالد قد أحاطت به الروم . فلما سمعنا ذلك لم ندر أىّ مكان أنت فيه ، وفقدنا شخصك فدلنا عليك علج كان بيد رجل من أصحابك ، وقال ان صاحبكم أنا الذى دللته على هربيس وإنه معه فى هذا الجبل فسرنا اليك ، فقال خالد لقد دلنا على عدوّنا ودل علينا المسلمين ، وقد وجب له الحق علينا ورجع خالد وأصحابه الى المسلمين ، فلما رأوه بادروا وسلموا عليه فرد عليهم السلام . ثم ان خالدا رضى الله عنه دعا بذلك العلج الذى دله على هربيس ، وقال له انك وفيت لنا ونريد أن نوفى لك بما وعدناك لأنك نصحت لنا فهل لك أن تكون من أصحاب دين الصلاة والصيام وملة محمد عليه الصلاة والسلام فتكون من أهل الجنة ، فقال ماأريد بدينى بدلا فأطلق خالد سبيله . قال نوفل بن عمرو فرأيته قد استوى على ظهر جواده يطلب بلاد الروم وحده . ثم ان خالدا رضى الله عنه أمر بجمع الغنائم والاسارى فجمع ذلك اليه ، فلما رأى كثرته حمد الله تعالى وشكره وأثنى عليه ودعا بدليله يونس النجيب . ثم قال له مافعلت بزوجتك فحدثه بحديثه معها ، وما كان من أمرها فعجب من ذلك ، فقال رافع بن عميرة أيها الأمير انى أسرت ابنة الملك هرقل ، وقد سلمتها اليه بدلا من زوجته ، فقال خالد وأين ابنة الملك هرقل فمثلت بين يديه فنظر الى حسنها وجمالها ومامنحها الله به من الجمال فصرف وجهه عنها ، وقال سبحانك اللهم وبحمدك تخلق ماتشاء وتختار . ثم قرأ قوله تعالى — وربك يخلق مايشاء ويختار — ثم قال ليونس أتريدها بدلا من زوجتك . قال نعم ولكنى أعلم أن الملك هرقل لابدله أن يفديها بالأموال أو يخلصها بالقتال . فقال خالد خذها لك الآن فان لم يطلبها فهى لك ، وان طلبها فالله يعوضك خيرا منها . فقال يونس أيها الأمير انك فى مكان ضيق وموضع صعب فاعزم على الخروج قبل أن يلحقك

نفير القوم . فقال خالد : الله لنا ومعنا وعطف راجعا يجدّ فى مسيره والغنائم أمامه والمسلمون فى أثره فرحين بالغنيمة والسلامة والنصر .

[قال روح بن عطية] فقطعنا الطريق كلها وماعرض لنا من الروم أحد ونحن نخوض فى وسط ديار القوم خوضا ، فلما وصلنا مرج الصفير عند قنطرة أم حكيم نظرنا الى غبرة من ورائنا . فلما عاينها أنكرنا ذلك فأسرع رجال من المسلمين الى خالد يخبرونه بالغبرة . قال أيكم يأتينى يخبرها فبادر بالاجابة رجل من غفار يقال له صعصعة بن يزيد الغفارى . قال أنا أيها الأمير . ثم نزل عن جواده ، وكان بجريته يسبق الفرس الجواد لقوة عزمه فورد الغبرة واختبرها ورجع على عقبه ، وهو ينادى أيها الأمير أدركتنا الصلبان من ورائنا وهم مصفدون فى الحديد لم يبن منهم غير حماليق الحدق ، فدعا خالد بيونس الدليل عند ماقاربته الخيل وقال يايونس اقصد نحو الخيل وانظر مايريدون . فقال السمع والطاعة . ثم دنا من الخيل وقاربهم ، ثم رجع الى خالد ، وقال له ألم أقل لك أيها الأمير ان هرقل لايغفل عن طلب ابنته وقد أنفذ هذه الخيل يريدون أن يأخذوا الغنيمة من أيدى المسلمين ، فلما لحقوك ههنا قريبا من دمشق بعثوا رسولا يسألك فى الجارية إما بيعها و إما هدية ، فبينما خالد يتحدث اذ أقبل اليه شيخ عليه لبس المسوح فأقبل حتى دنا من المسلمين فأوقفوه أمام خالد ، وقال له قل ماتشاء . فقال الشيخ أنا رسول الملك هرقل وانه يقول لك بلغنى مافعلت برجالى وقتلت توما زوج ابنتى وهتكت حرمتى ، وقد ظفرت وسلمت فلاتفرط بمن معك ، والآن إما أن تبيع ابنتى أوتهديها الىّ فالكرم شيمتكم وطبعكم ولايرحم من لايرحم وانى أرجو أن يقع بيننا الصلح ، فلما سمع خالد ذلك . قال للشيخ قل لصاحبك والله لارجعت عنه وعن أهل ملته حتى أملك سريره وماتحت قدميه كما فى علمك ، وأما ابقاؤك علينا فلو وجدت الى ذلك من سبيل ماقصرت ، وأما ابنتك فهى لك هدية منا ثم ان خالدا أطلق ابنة الملك هرقل وسلمها للشيخ ولم يأخذ فى فدائها شيئا ، فلما بلغ ذلك الرسول الى الملك هرقل قال لعظماء الروم هذا الذى أشرت عليكم فلم تقبلوه وأردتم قتلى وسيكون الأمر أعظم ، ولكن ليس هذا منكم بل هو من رب السماء .

[قال الواقدى] فبكت الروم بكاء شديدا وسار خالد حتى أتى دمشق ، وكان المسلمون وأبو عبيدة قد أيسوا من خالد ومن معه فهم فى أعظم القلق والاياس اذ قدم عليهم خالد رضى الله عنه والمسلمون نخرجوا الى لقائه وهنئوه بالسلامة وسلم المسلمون بعضهم على بعض ووجد خالد فى دمشق عمرو بن معد يكرب الزبيدى ومالك بن الأشتر النخعى ومن كان معهما وأقبل خالد الى جانب أبى عبيدة ، وهو يحدثه بمالاقى فى غزوته وأبو عبيدة يتعجب من شجاعته وجسارته ، فلما استقرّ بخالد مكانه أخرج الخمس من الغنائم وفرق الباقى على المسلمين ، ثم ان خالدا أعطى من ماله ليونس ، وقال خذ هذا المال فتزوج به أواشتر به جارية لك من بنات الروم . قال يونس والله لاأتزوج فى هذه الدار الدنيا زوجة أبدا وما أريد الا أن أتزوج فى الآخرة بعيناء من الحور العين . قال رافع بن عميرة الطائى فشهد معنا القتال الى يوم اليرموك فما كنت أراه فى حرب الا يجاهد جهادا عظيما ، وقد أبلى فى الروم بلاء حسنا فأتاه سهم فى لبته فخرّ ميتا رحمه الله تعالى . قال رافع فحزنت عليه وأكثرت من الترحم عليه فرأيته فى النوم وعليه حلل تلمع وفى رجليه نعلان من

ذهب وهو يجول فى روضة خضراء ، فقلت له مافعل الله بك ؟ قال غفر لى وأعطانى بدلا من زوجتى سبعين حوراء لو بدت واحدة منهن فى الدنيا لكفت ضوء وجهها نور الشمس والقمر جزاكم الله خيرا فقصصت الرؤيا على خالد ، فقال ليس والله سوى الشهادة طوبى لمن رزقها .

[قال الواقدى] ولقد بلغنى أن خالدا رضى الله عنه لما رجع من غزوته ومسيره غانما ظن أن الخليفة أبا بكر الصديق رضى الله عنه حى لم يقبض فهم أن يكتب له كتابا بالفتح والبشارة وما غنم من الروم ، وأبو عبيدة لايخبره بذلك ولايعلمه أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فدعا خالد بدواة و بياض وكتب : بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من عامله على الشام خالد بن الوليد . أما بعد سلام عليك فانى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ ثم إنا لم نزل فى مكابدة العدو على حرب دمشق حتى أنزل الله علينا نصره وقهر عدوه وفتحت دمشق عنوة بالسيف من باب شرقى ، وكان أبو عبيدة على باب الجابية فخدعته الروم فصالحوه على الباب الآخر ومنعنى أن أسبى وأقتل ولقيناه على كنيسة يقال لها كنيسة مريم وأمامه القسس والرهبان ومعهم كتاب الصلح ، وان صهر الملك توما وآخر يقال له هربيس خرجا من المدينة بمال عظيم وأحمال جسيمة فسرت خلفهما فى عساكر الزحف وانتزعت الغنيمة من أيديهما وقتلت الملعونين وأسرت ابنة الملك هرقل ، ثم أهديتها اليه ورجعت سالما ، وأنا منتظر أمرك والسلام عليك ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وطوى الكتاب وختمه بخاتمه ، ودعا برجل من العرب يقال له عبد الله بن قرط فدفع اليه الكتاب وسار الى مدينة رسول الله ﷺ فوردها والخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقرأ عنوان الكتاب ، واذا هو : من خالد الى خليفة رسول الله ﷺ فقال عمر أماعرف المسلمون وفاة أبى بكر رضى الله عنه ، فقال لا ياأمير المؤمنين ، فقال قد وجهت بذلك كتابا الى أبى عبيدة وأمرته على المسلمين وعزلت خالدا وماأظن أن أبا عبيدة يريد الخلافة لنفسه ، فسكت وقرأ الكتاب . قال أصحاب السير فى حديثهم ممن تقدم ذكرهم واسنادهم فى أول الكتاب ممن روى فتوح الشام ونقلوها عن الثقات منهم محمد بن اسحق وسيف بن عمرو وأبو عبد الله محمد بن عمر الواقدى رضى الله تعالى عنهم كل حدث بما رواه وسمعه ثقة عن ثقة . قالوا جميعا فى أخبارهم : انه لما قبض أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وولى الأمر بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه وله من العمر اثنتان وخمسون سنة بايعه الناس فى مسجد رسول الله ﷺ بيعة تامة ولم يتخلف عن مبايعته أحد لاصغير ولا كبير وانقطع فى امارته الشقاق والنفاق وانحسم الباطل وقام الحق وقوى السلطان فى امارته وضعف كيد الشيطان وظهر أمر الله وهم كارهون، ومن أمره أنه كان يجلس مع الفقير و يتلطف بالناس والمسلمين و يرحم الصغير و يوقر الكبير و يعطف على اليتيم و ينصف المظلوم من الظالم حتى يرد الحق الى أهله ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وكان فى إمارته يدور فى أسواق المدينة وعليه مرقعة و بيده درته وكانت درته أهيب من سيف الملوك وسيوفكم هذه ، وكان قوته فى كل يوم خبز الشعير وأدمه الملح الجريش ، وربما أكل خبزه بغير ملح تزهدا واحتياطا وترفقا على المسلمين ورأفة ورحمة لايريد بذلك إلا الثواب من الله سبحانه وتعالى ولا يشغله شاغل عن أداء الفريضة . وماأوجب الله عليه من حقوقه وسنة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام

قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد تولى والله عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الخلافة فجد فى التشمر وترك عن نفسه التكبر ، ولقد كان أحرقه خبز الشعير والملح وأراد أكل الزيت واليابس من التمر ، وربما أخذ شيئا من السمن ، ويقول أكلت الزيت وخبز الشعير والملح والجوع أهون غدا من نار جهنم ، من حل بها لم يمت ولم يجد فيها راحة أبدا ، قرارها بعيد وعذابها شديد وشرابها الصديد لايؤذن لهم فيعتذرون ، جند الجنود فى امارته و بعث العساكر وفتح الفتوحات ومصر الأمصار ، وكان يخاف عذاب النار ، رضى الله تعالى عنه .

[قال الواقدى] رحمه الله تعالى : ولقد بلغنى أن هرقل لما بلغه أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قدولى الأمر من بعد أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه جمع الملوك والبطارقة وأرباب دولته وقام فيهم خطيبا على منبر قد نصب له فى كنيسة القسيسين ، وقال يابنى الأصفر : هذا الذى كنت أحذركم منه فلم تسمعوا منى ، وقد اشتد الأمر عليكم بولاية هذا الرجل الأسمر وقد دنا مابعد لولاية صاحب الفتوح المشبه بنوح ، والله ثم والله لابد أن يملك ماتحت سريرى هذا الحذر ثم الحذر قبل وقوع الأمر ونزول الضرر ، وهدم القصور وقتل القسس وتبطيل الناقوس ، هذا صاحب الحرب والجالب على الروم والفرس الكرب ، هذا الزاهد فى دنياه ، وهذا الغليظ على من اتبع فى غير ملته هواه ، وانى أرجو لكم النصر ان أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وتركتم الظلم واتبعتم المسيح فى أداء المفروضات ولزوم الطاعات وترك الزنا وأنواع الخطايا ، وان أبيتم الاالفساد والفسوق والعصيان والركون الى شهوات الدنيا يسلط الله عليكم عدوكم ويبلوكم بما لاطاقة لكم به ، ولقد أعلم أن دين هؤلاء سيظهر على كل دين لاتزال أهله بخير مالم يغيروا و يبدلوا ، فاما ان ترجعوا اليه ، و إما أن تصالحوا القوم على أداء الجزية ، فلما سمع القوم ذلك نفروا و بادروا اليه وهموا بقتله فسكن غضبهم بلين كلامه ولاطفهم . وقال لهم انما أردت أن أرى حيتكم لدينكم وهل تمكن خوف العرب فى قلوبكم أم لا ؟ ثم استدعى برجل من المتنصرة يقال له طليعة بن ماران وضمن له مالا ، وقال له انطلق من وقتك هذا الى يثرب وانظر كيف تقتل عمر بن الخطاب ، فقال له طليعة نعم أيها الملك . ثم تجهز وسار حتى ورد مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكمن حولها ، واذا بعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه خرج يشرف على أموال اليتامى و يفتقد حدائقهم فصعد المتنصر الى شجرة ملتفة الأغصان فاستتر بأوراقها ، واذا بعمر رضى الله عنه قد أقبل الى أن قرب من الشجرة التى عليها المتنصر ونام على ظهره وتوسد بحجر ، فلما نام هم المتنصر أن ينزل اليه ليقتله ، واذا بسبع أقبل من البرية فطاف حوله وأقبل يلحس قدميه ، واذا بهاتف يقول ياعمر عدلت فأمنت ، فلما استيقظ عمر رضى الله عنه ذهب السبع ونزل المتنصر وترامى على عمر رضى الله تعالى عنه فقبل يديه ، وقال بأبى أنت وأمى أفدى من الكائنات من السباع تحرسه والملائكة تصفه والجن تعرفه ، ثم أعلمه بما كان منه وأسلم على يديه .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ثم ان عمر رضى الله تعالى عنه كتب كتابا لأبى عبيدة ابن الجراح يقول فيه : قد وليتك على الشام وجعلتك أميرا على المسلمين وعزلت خالد بن الوليد والسلام . ثم سلم الكتاب الى عبد الله بن قرط وأقام قلقا على مايرد عليه من أمور المسلمين

وصرف همته الى الشام .

[قال الواقدى] حدثنى رافع بن عميرة الطائى . قال حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، وقد قرأت عليه بجامع الكوفة . قال حدثنى عبد الله بن سالم الثقفى عن أشياخه الثقات . قال لما كانت الليلة التى مات فيها أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه رأى عبد الرحمن بن عوف الزهرى رضى الله تعالى عنه رؤيا يقصها على عمر رضى الله تعالى عنه ، وكانت تلك الليلة بعينها . قال رأيت دمشق والمسلمون حولها وكأنى أسمع تكبيرهم فى أذنى وعند تكبيرهم وزحفهم رأيت حصنا قد ساخ فى الأرض حتى لم أر منه شيئا ورأيت خالدا ، وقد دخلها بالسيف وكأن نارا أمامه وكأنه وقع على النار فانطفأت ، فقال الامام على كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنهم أجمعين : أبشر فقد فتح الشام هذه الليلة أوقال يومك هذا ان شاء الله تعالى ، فبعد أيام قدم عقبة ابن عامر الجهنى صاحب رسول الله ﷺ ومعه كتاب الفتح ، فلما رآه قال ياابن عامر كم عهدك ؟ قال قلت يوم الجمعة . قال مامعك من الخبر ؟ فقلت خير و بشارة وانى سأذكرها بين يدى الصديق رضى الله تعالى عنه . فقال قبض والله حميدا وصار الى رب كريم ، وقلدها عمر الضعيف فى جسمه فان عدل فيها نجا وان ترك أوخلط هلك . قال عقبة بن عامر فبكيت وترحمت على أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، وأخرجت الكتاب فدفعته اليه ، فلما قرأه نظر فيه وكتم الأمر الى وقت صلاة الجمعة . فلما خطب وصلى رقى المنبر واجتمع المسلمون اليه وقرأ عليهم كتاب الفتح فضج المسلمون بالتهليل والتكبير وفرحوا ، ثم نزل عن المنبر وكتب الى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه بتوليته وعزل خالد ، ثم سلمنى الكتاب وأمرنى بالرجوع ، قال فرجعت الى دمشق فوجدت خالدا قد سار خلف توما وهربيس فدفعت الكتاب الى أبى عبيدة فقرأه سرا ولم يخبر أحدا بموت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، ثم كتم أمره وكتم عزل خالد وتوليته على المسلمين حتى ورد خالد من السرية فكتب الكتاب بفتح دمشق ونصرهم على عدوهم و بما ملكوا من مرج الديباج واطلاق بنت الملك هرقل وسلم الكتاب الى عبد الله بن قرط ، فلما ورد به الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وقرأ عنوان الكتاب من خالد بن الوليد الى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنكر الأمر ورجعت حمرته الى البياض ، وقال ياابن قرط أما علم الناس بموت أبى بكر رضى الله عنه وتوليتى أبا عبيدة بن الجراح ؟ قال عبد الله بن قرط . قلت لا ، فغضب وجمع الناس اليه وقام على المنبر . ثم قال يامعاشر الناس انى أمرت أبا عبيدة الرجل الأمين ، وقد رأيته لذلك أهلا ، وقد عزلت خالدا عن إمارته ، فقال رجل من بنى مخزوم : أتعزل رجلا قد أشهر الله بيده سيفا قاطعا ونصر به دينه ، وان الله لايعذرك فى ذلك ولا المسلمين ان أنت أغمدت سيفا وعزلت أميرا أمره الله لقد قطعت الرحم ، ثم سكت الرجل ، فنظر عمر رضى الله تعالى عنه الى الرجل المخزومى فرآه غلاما حدث السن . فقال شاب حدث السن غضب لابن عمه ثم نزل عن المنبر وأخذ الكتاب وجعله تحت رأسه وجعل يؤامر نفسه فى عزل خالد ، فلما كان من الغد صلى صلاة الفجر وقام فرقى المنبر خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم فصلى عليه وترحم على أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، ثم قال : أيها الناس انى حملت أمانة عظيمة وانى راع وكل راع مسئول عن رعيته ، وقد جئت لاصلاحكم والنظر فى

معايشكم ومايقربكم الى ربكم أنتم ومن حضر فى هذا البلد فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من صبر على أذاها وشرها كنت له شفيعا يوم القيامة » وبلادكم بلاد لازرع فيها ولاضرع ولا ماء أوقر به الابل لامن مسيرة شهر وقد وعدنا الله مغانم كثيرة وإنى أريدها للخاصة والعامة لأؤدى الأمانة والتوقير للمسلمين ولست أنى كرهت ولاية خالد على المسلمين الا لأن خالدا فيه تبذير المال يعطى الشاعر اذامدحه ويعطى للمجد والفارس بين يديه فوق مايستحقه من حقه ولايبقى لفقراء المسلمين ولا لضعفائهم شيئا ، وانى أريد عزله وولاية أبى عبيدة مكانه والله يعلم أنى ماوليته الا أمينا فلا يقول قائلكم : عزل الرجل الشديد وولى الأمين اللين للمسلمين فان الله معه يسدده ويعينه ، ثم نزل عن المنبر وأخذ جلد أدم منشور وكتب الى أبى عبيدة كتابا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى أبى عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فانى أحمد الله الذى لاإله الاهو ، وأصلى على نبيه محمد ﷺ وبعد فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحي فان الله لايستحي من الحق ، وانى أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ماسواه والذى استخرجك من الكفر الى الايمان ، ومن الضلال الى الهدى ، وقد استعملتك على جند ماهنالك مع خالد فاقبض جنده واعزله عن امارته ولا تنفذ المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ولاتنفذ سرية الى جمع كثير ولاتقل انى أرجولكم النصر فان النصر انما يكون مع اليقين والثقة بالله ، واياك والتغرير بالقاء المسلمين الى الهلكة ، وغض عن الدنيا عينيك واله عنها قلبك ، وإياك أن تهلك كما هلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم وخبرت سرائرهم وإنما بينك وبين الآخرة ستر الخمار وقد تقدم فيها سلفك وأنت كأنك منتظر سفرا ورحيلا من دار قد مضت نضرتها وذهبت زهرتها فأحزم الناس فيها الراحل منها الى غيرها ويكون زاده التقوى وراع المسلمين مااستطعت ، وأما الحنطة والشعير الذى وجدت بدمشق وكثرت فى ذلك مشاجرتكم فهو للمسلمين ، وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس والسهام ، وأما اختصامك أنت وخالد فى الصلح أوالقتال فأنت الولى وصاحب الأمر وإن صلحك جرى على الحقيقة أنها للروم فسلم اليهم ذلك والسلام ورحمة الله وبركاته عليك وعلى جميع المسلمين ، وأما هديتك ابنة الملك هرقل فهديتها الى أبيها بعد أسرها تفريط ، وقد كان يأخذ فى فديتها مالا كثيرا يرجع به على الضعفاء من المسلمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وطوى الكتاب وختمه بخاتمه ، ثم دعا بعامر بن أبى وقاص أخى سعد ودفع الكتاب اليه ، وقال له انطلق الى دمشق وسلم كتابى هذا الى أبى عبيدة وأمره أن يجمع الناس اليه واقرأه أنت على الناس ياعامر وأخبره بموت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ثم دعا عمر رضى الله تعالى عنه بشداد بن أوس فصافحه ، وقال له امض أنت وعامر الى الشام فاذا قرأ أبوعبيدة الكتاب فأمر الناس يبايعونك لتكون بيعتك بيعتى .

[قال الواقدى] فانطلقا يجدان فى السير الى أن وصلا الى دمشق والناس مقيمون بها ينتظرون مايأتيهم من خبر أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ومايأمرهم به فأشرف صاحبا عمر رضى الله تعالى عنه على المسلمين ، وقد طالت أعناقهم اليهما وفرحوا بقدومهما فأقبلا حتى نزلا فى خيمة خالد رضى الله عنه وقال له عامر بن أبى وقاص تركته يعنى عمر بخير ومعى كتاب وانه أمرنى أن أقرأه على الناس بالاجتماع فاستنكر خالد ذلك واستراب الأمر وجمع المسلمين

اليه فقام عامر بن أبي وقاص فقرأ الكتاب فلما انتهى الى وفاة أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ارتفع للناس ضجة عظيمة بالبكاء والنحيب وبكى خالد رضى الله تعالى عنه ، وقال ان كان أبو بكر قد قبض وقد استخلف عمر فالسمع والطاعة لعمر وما أمر به وقرأ عامر الكتاب الى آخره ، فلما سمع الناس بما فيه من أمر المبايعة لشداد بن أوس بايعوه ، وكانت المبايعة بدمشق لثلاث خلت من شهر شعبان سنة ثلاث عشرة من الهجرة .

[قال الواقدى] رحمه الله تعالى : قد بلغنى أنه كان على العدوّ بعد عزله أشد فظاعة وأصعب جهادا لاسيما فى حصن أبى القدس

ذكر حديث وقعة أبى القدس

[قال الواقدى] رحمه الله تعالى : سالت من حدث بهذا الحديث عن حصن أبى القدس . قال ما بين عرقا وطرابلس مرج يقال له مرج السلسلة وكان بازائه دير فيه صوامع وفيه صومعة راهب عالم بدين النصرانية وقد قرأ الكتب السالفة وأخبار الأمم الماضية المتقدمة وكانت تقصده الروم وتقتبس من علمه وله من العمر ماينوف عن مائة سنة ، وكان فى كل سنة يقوم عند ديره عيد آخر صيام الروم وهو عيد الشعانين فتجتمع الروم والنصارى وغيرهم من جميع النواحى والسواحل ومن قبط مصر ويحدقون به فيطلع عليهم من ذروة له فيعلمهم ويوصيهم بوصايا الانجيل ، وكان يقوم فى ذلك العيد سوق عظيم من السنة الى السنة ، وكان يحمل له الأمتعة والذهب والفضة ويبيعون ويشترون ثلاثة أيام ، وما كان المسلمون يعلمون بذلك ولايعرفونه حتى دلهم عليه رجل نصرانى من المعاهدين وقد اصطفاه وأمنه وأهله ، فلما ولى أبو عبيدة أمر المسلمين أراد ذلك المعاهد أن يتقرّب الى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه فعسى أن يكون فتح الدير والسوق على يديه فأقبل اليه وأبو عبيدة قد أطال الفكر فيما يصنع وأىّ بلد من بلاد الروم يقصد ، فمرة يقول أسير الى بيت المقدس بالجيش فانها أشرف بلدهم وكرسى مملكة الروم بها قيام دينهم ، ووقتا يقول أسير الى انطاكية وأقصد هرقل وأفرغ منه ، وبينما هو يفكر فى أمره وقد جمع المسلمين اذ أقبل ذلك المعاهد وكان من نصارى الشام . فقال أيها الأمير انك قد أحسنت الىّ وأمنتنى ووهبتنى أهلى ومالى وولدى وقد أتيتك ببشارة وغنيمة تغنمها المسلمون ساقها الله اليهم ، فان أظفرهم الله بها استغنوا غنى لافقر بعده . فقال أبو عبيدة أخبرنا ماهذه الغنيمة وأين تكون ؟ فما علمتك الا ناصحا . فقال أيها الأمير انها بازائك على دير الساحل وهو حصن يعرف بابى القدس وبازائه دير فيه راهب تعظمه النصرانية ويتبركون بدعائه ويقتبسون من علمه وله فى كل سنة عيد يجتمعون اليه من كل النواحى والقرى والأمصار والضياع والأديرة ويقوم عنده سوق عظيم يظهرون فيه فاخر ثيابهم من الديباج والذهب والفضة يقيمون عنده ثلاثة أيام أوسبعة وقد قرب وقت قيام السوق فتأخذون جميع مافيه وتقتلون الرجال وتسبون النساء والذرارى ، وهذه غنيمة يفرح بها المسلمون ويوهن بها عدوّكم .

[قال الواقدى] فلما سمع أبو عبيدة ماقاله المعاهد فرح رجاء أن يكون ماقاله المعاهد غنيمة للمسلمين . فقال للمعاهد كم بيننا وبين هذا الدير ؟ قال عشرة فراسخ للجدّ السائر . قال أبو عبيدة

وكم بقى الى قيام السوق قال أيام قلائل قال أبو عبيدة فهل يكون لهم حامية يلى أمرهم ويصدّ عنهم قال المعاهد لسنا نعرف ماذكرت فى بلاد الملك لأنه لا يصيب بعضنا بعضا لهيبة هرقل فى قلوبهم ، فلما سمع أبو عبيدة قال هل بالقرب منه شىء من مدائن الشام ؟ قال نعم بالقرب من السوق مدينة تسمى طرابلس وهى مينا الشام اليها تقدم المراكب من كل مكان وفيها بطريق عظيم كثير التجبر وقد أقطعه الملك اياها من تجبره وهو يحضر السوق وما كنت أعهد أن لهذا السوق حامية من الروم الا أن يكون الآن لخوفهم منكم ولو سار الى الدير والسوق أدنى المسلمين لرجوت لهم الفتح ان شاء الله تعالى . فقال أبو عبيدة : أيها الناس أيكم يهب نفسه لله تعالى و ينطلق مع جيش أبعثه فتحا للمسلمين فسكت الناس ولم يتكلم أحد ، فنادى أبو عبيدة ثانية وانما يريد خالدا بقوله واستحى أن يواجهه فى ذلك لأجل عزله ، فقام من وسط الناس غلام شاب نبت شعر عارضيه واخضرّ شاربه وكان ذلك الشاب عبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنه ، وكانت أمه أسماء بنت عميس الخثعمية وكان أبوه جعفر رضى الله تعالى عنه قد مات فى غزوة تبوك وخلف ولده عبد الله صغيرا فتزوّجها أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، فلما كبر وترعرع كان يقول لأمه يا أماه : مافعل أبى ؟ فتقول ياولدى قتله الروم وكان يقول لئن عشت لآخذنّ بثاره ، فلما مات أبو بكر وتولى عمر رضى الله تعالى عنهما جاء عبد الله الى الشام فى بعث بعثه عمر مع عبد الله بن أنيس الجهنى وكان فيه مشابهة من رسول الله ﷺ فى خلقه وخلقه وهو أحد الأصحاب الأسخياء ، فلما قال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه : أيها الناس من ينطلق الى هذا الدير وثب عبد الله بن جعفر الطيار رضى الله تعالى عنهما . فقال أنا أول من يسير مع هذا البعث ياأمين الأمة ففرح أبو عبيدة وجعل يندب له رجالا من المسلمين وفرسان الموحدين وقال له : أنت الأمير عليهم يا ابن عمّ رسول الله ﷺ وعقد له راية سوداء وسلمها اليه ، وكان على الخيل خمسمائة فارس منهم رجال من أهل بدر ، وكان من جملة من سيره مع عبدالله أبو ذر الغفارى وعبد الله بن أبى أوفى وعامر بن ربيعة وعبد الله بن أنيس وعبد الله بن ثعلبة وعقبة بن عبد الله السلمى ووائلة بن الأسقع وسهل بن سعد وعبد الله بن بشر والسائب بن يزيد ومثل هؤلاء السادات رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

[قال الواقدى] ولما أن اجتمعت الخمسمائة فارس تحت راية عبد الله بن جعفر وما منهم الامن شهد الوقائع وخاض المعامع لايولون الأدبار ولا يركنون الى الفرار عولوا على المسير . وقال أبو عبيدة لعبد الله بن جعفر : يا ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتقدم على القوم الا فى أوّل قيام السوق ، ثم انه ودّعهم وساروا .

[قال الواقدى] وكان فى هذه السرية مع عبد الله بن جعفر واثلة بن الأسقع وكان خروجهم من أرض الشام وهى دمشق الى دير أبى القدس فى ليلة النصف من شعبان وكان القمر زائد النور . قال وأنا الى جانب عبدالله بن جعفر . فقال لى يا ابن الأسقع ما أحسن قمر هذه الليلة وأنوره فقلت يا ابن عم رسول الله ﷺ هذه ليلة النصف من شعبان وهى ليلة مباركة عظيمة ، وفى هذه تكتب الأرزاق والآجال وتغفر فيها الذنوب والسيئات وكنت أردت أن أقومها . فقلت ان سيرنا فى سبيل الله خير من قيامها والله جزيل العطاء . فقال صدقت ثم اننا سرنا ليلتنا ، فبينما نحن سائرون اذ أشرفنا على صومعة راهب وعليه برنس أسود ، فجعل يتأملنا وينظر فى وجوهنا ... نا

واحدا بعد واحد ، ثم جعل يطيل النظر فى وجه عبد الله ، ثم قال أهذا الفتى ابن نبيكم ؟ فقلنا لا قال ان نور النبوة يلوح بين عينيه فهل يلحق به . فقلنا هو ابن عمه . فقال الراهب هو من الورقة والورقة من الشجرة . فقال عبدالله : أيها الراهب وهل تعرف رسول الله ﷺ ؟ . فقال وكيف لا أعرفه واسمه وصفته فى التوراة والانجيل والزبور ، وانه صاحب الجمل الأحمر والسيف المشهر . فقال عبد الله فلم لا تؤمن به وتصدقه ؟ فرفع يده الى السماء وقال حتى يشاء صاحب هذه الخضراء فأعجبنا كلامه وسرنا والدليل بين أيدينا اذ أتى بنا الى واد كثير الشجر والماء أمرنا أن نكمن فيه ، ثم قال لعبد الله بن جعفر انى ذاهب أجس لكم الخبر . فقال له عبد الله : أسرع فى مسيرك وعد الينا بالخبر . قال فانطلق مسرعا وأقام عبد الله بن جعفر يحرس المسلمين بنفسه الى الصباح . قال فلما أصبحنا صلينا صلاة الصبح وجلسنا ننتظر رجوع الرسول فلم يأت وأبطأ خبره علينا فقلق المسلمون عليه لاحتباسه وخافوا من المكيدة ووسوس لهم الشيطان وساءت بالدليل الظنون فما من المسلمين الا من ظن بالمعاهد شرا الا أبا ذر الغفارى رضى الله تعالى عنه فانه قال : ظنوا بصاحبكم خيرا ولا تخافوا منه كيدا ولا مكرا ان له شأنا تعلمونه . قال فسكت الناس بعد ذلك واذا بصاحبهم قد أقبل . قال واثلة بن الأسقع فلما رأيناه فرحنا به وظننا أنه يأمر بالنهوض الى العدو فاقبل حتى وقف وسط المسلمين . وقال : ياأصحاب محمد وحق المسيح ابن مريم انى لا أكذبكم فيما أحدثكم به وانى رجوت لكم الغنيمة وقد حال بينكم و بينها ماء . فقال له عبد الله رضى الله تعالى عنه : وكيف حيل بيننا و بينها ؟ قال حال بينكم و بينها بحر عجاج ، وذلك انى أشرفت على السوق وقد قام فيه البيع والشراء ، فاجتمع فيه أهل دين النصرانية وقد دار أكثرهم بالدير دير أبى القدس واجتمع اليه القسس والرهبان والملوك والبطارقة ، فلما نظرت الى ذلك لم أرجع حتى اختبرت ما السبب الذى تجمعت له الخلق زيادة على كل سنة ، وذلك أنى مضيت واختلطت بالقوم واذا بصاحب طرابلس قد زوج ابنته ملكا من ملوك الروم ، وقد أتوا بالجارية الى الدير ليأخذوا لها من راهبهم قربانا وقد دار بها فرسان الروم المتنصرة فى عددهم وعديدهم ، كل ذلك خوفا منكم لأنهم يعلمون أنكم بأرض الشام : يامعاشر المسلمين وما أرى لكم صوابا أن تصلوا الى القوم لأنهم خلق كثير وجم غفير وجمع غزير . فقال عبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنه فى كم يكون القوم وكم حزرتهم ؟ فقال أما السوق ففيه أكثر من عشرين ألفا من عوام الروم والأرمن والنصارى والقبط واليهود من مصر والشام وأهل السواد والبطارقة والمتنصرة ، وأما المستعدون للحرب فخمسة آلاف فارس فما لكم بالقوم طاقة ، وان وقع طائح فى بلادهم انضاف اليهم أمثالهم فان بلادهم متصلة بهم ، وأما أنتم فعددكم يسير ، والعرب منكم بعيد .

[قال الواقدى] فصعب ذلك على عبد الله بن جعفر وعلى المسلمين وسقط فى أيديهم وهموا بالرجوع . فقال عبد الله بن جعفر : معاشر المسلمين ، ما الذى تقولون فى هذا الأمر ؟ فقالوا نرى أن لانلق بأيدينا الى التهلكة كما أمر ربنا فى كتابه العزيز ، ونرجع الى الأمير أبى عبيدة رضى الله عنه والله لايضيع أجرنا . قال فلما سمع عبد الله قولهم قال أما أنا فأخاف ان فعلت ذلك أن يكتبنى الله من الفارين وما أرجع وأبدى عذرا عند الله تعالى ، فمن ساعدنى فقد وقع أجره على الله ، ومن رجع فلا عتب عليه ، فلما سمعوا ذلك من عبد الله بن جعفر أميرهم وبذل مهجته

استحيوا منه وأجابوه بأجمعهم وقالوا افعل ما تريد فما ينفع حذر من قدر ففرح باجابتهم ، ثم عمد الى درعه فأفرغه عليه ووضع على رأسه بيضة وشد وسطه بمنطقة وتقلد بسيف أبيه واستوى على متن جواده وأخذ الراية بيده وأمر الناس بأخذ الأهبة فلبسوا دروعهم واشتملوا بسلاحهم وركبوا خيولهم وقالوا للدليل سر بنا نحو القوم فستعاين من أصحاب رسول الله ﷺ عجبا . قال واثلة بن الأسقع فرأيت الدليل قد اصفرّ وجهه وتغير لونه وقالوا سيروا أنتم برأيكم وما علىّ من أمركم وخرج . قال أبو ذر الغفارى فرأيت عبد الله بن جعفر يتلطف به حتى سار بين يديه يدله على القوم ساعة ، ثم وقف وقال أمسكوا عليكم فانكم قد قربتم من القوم فكونوا فى مواضعكم كامنين الى وقت السحر ثم أغيروا على القوم . قال واثلة بن الأسقع فبتنا ليلتنا حيث أمرنا ونحن نطلب النصر من الله تعالى على الأعداء ، فلما أصبح النهار صلى بهم عبد الله بن جعفر صلاة الصبح ، فلما فرغوا من صلاتهم قال ما ترون فى الغارة ؟ فقال عامر بن عميرة بن ربيعة أدلكم على أمر تصنعونه قالوا قل . قال اتركوا القوم فى بيعهم وشرائهم واظهار أمتعتهم ، ثم اكبسوا عليهم على حين غفلة وغرة من أمرهم فصوّب الناس رأيه وصبروا الى وقت قيام السوق ، ثم أظهروا السيوف من أغمادها وأوتروا القسى وشرّعوا لاماتهم ، وعبد الله بن جعفر أمامهم والراية بيده ، فلما طلعت الشمس عمد عبد الله الى المسلمين فجعلهم خمسة كراديس كل كردوس مائة فارس وجعل على كل مائة نقيبا وقال تأخذ كل مائة منكم قطرا من أقطار سوقهم ولا تشتغلوا بنهب ولاغارة ، ولكن ضعوا السيوف فى المفارق والعواتق ، وتقدم عبد الله بن جعفر بالراية وطلع على القوم فنظر الى الروم متفرقين فى الأرض كالنمل لكثرتهم وقد أحدق منهم بدير الراهب خلق كثير ، والراهب قد أخرج رأسه من الدير وهو يعظ الناس ويوصيهم ويعلمهم معالم ملتهم وهم اليه شخوص بأبصارهم وابنة البطريق عنده فى الدير والبطارقة وابناؤهم عليهم الديباج المثقل بالذهب ، ومن فوقهم دروع وجواشن تلمع وبيض وهم ينظرون صيحة بين أيديهم أوطارقا يطرقهم من خلفهم ، ونظر عبد الله الى الدير والى ما أحدق به ، والى الراهب وما حول صومعته فهاله ذلك من أمرهم وصاح فيهم قبل الحملة . وقال ياأصحاب رسول الله ﷺ احملوا بارك الله فيكم ، فان كانت غنيمة وسرور فالفتح والسلامة ويكون الاجتماع تحت صومعة الراهب ، وان كان غير ذلك فهو وعدنا الجنة ونلتقى عند حوض رسول الله ﷺ مع الصحابة . قال وطلب عبد الله الجمّ العظيم فغاص فيهم وجعل يضرب بسيفه ويطعن برمحه ويحمل المسلمون من ورائه ، وسمع الروم أصوات المسلمين مرتفعة بالتهليل والتكبير فتيقنوا أن جيوش المسلمين قد أدركتهم وكانوا لذلك منتظرين وعلى يقظة من أمرهم ، فأما السوقة فانهم تبادروا الى أسلحتهم والمنع عن أنفسهم وأموالهم وأخرجوا السيوف من الأغمدة وانعطفوا على قتال المسلمين عطفة الأسد الضارى ، وطلبوا صاحب الراية ولم يكن مع المسلمين راية غيرها فأحدقوا بالراية من كل جانب ومكان وقامت الحرب على ساق وثار الغبار وانعقد وأحدق الروم بالمسلمين ، فما كان المسلمون فيهم الا كشامة بيضاء فى جلد بعير أسود ، وما كان أصحاب رسول الله ﷺ يعرف بعضهم بعضا الا بالتهليل والتكبير ، وكل أحد مشتغل بنفسه عن غيره ، وقال أبو سبرة ابراهيم بن عبد العزيز بن أبى قيس ، وكان من السابقين المتقدمين بايمانهم فى الاسلام وصاحب الهجرتين جميعا قال : شهدت قتال الحبشة مع جعفر بن أبى طالب

رضى الله تعالى عنه وشهدت المشاهد مع رسول الله ﷺ فى بدر وفى أحد وفى حنين ، وقلت انى لا أشهد مثلها ، فلما قبض رسول الله ﷺ حزنت عليه ولم أستطع أن أقيم بالمدينة بعد فقده فقدمت مكة فأقمت بها فعوتبت فى منامى من التخلف عن الجهاد ، فخرجت الى الشام وشهدت أجنادين والشام وسرية خالد خلف توما وهربيس وشهدت سرية عبد الله بن جعفر وكنت معه على دير أبى القدس فانستنى وقعتها ماشهدت قبلها من الوقائع بين يدى رسول الله ﷺ ، وذلك أنى نظرت الى الروم حين حملنا عليهم فى كثرتهم وعددهم وقلنا مالم غيرهم وليس لهم كمين فخرج لهم كمين عظيم . قال فرأينا أجسادهم هائلة وعليهم الدروع وما يبين منهم الا حماليق الحدق لهم طقطقة وزمجرة عند مايحملون حتى نظرت الى المسلمين قد غابوا فى أوساطهم ولا أسمع منهم الا الأصوات تارة يجهرون بها وتارة أقول هلكوا ، ثم أنظر الى الراية بيد عبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنه مرفوعة فأفرح بذلك ، وعبد الله يقاتل بالراية ويكر على المشركين ولا ينثنى ويجاهد على صغر سنه ولم تزل الحرب بيننا : كلما طال مكثها اشتد ضرامها وعلاقتامها والتهب نارها وصار عبد الله فى وسط القوم وهم حوله كالحلقة الدائرة والروم يحدقون به فجعل كلما حمل يمينا حملت يمينا وان حمل شمالا حملت شمالا ولم نزل فى الحرب والقتال حتى كلت منا السواعد وخدرت منا المناكب . قال وعظم الأمر علينا وهالنا الصبر وتثلم سيف عبد الله فى يده وكادت تقع فرسه من تحته فالتجأ بأصحابه فى موضع ، فاجتمع أصحابه اليه فنظر المسلمون الى رايته فقصدوها ، وما منهم الامكلوم من المشركين فضاق لذلك ذرعه وما نزل به فى نفسه مثل ما نزل بالمسلمين فألجأ الى الله تعالى أمره وفوّض الى صاحب السماء شأنه ورفع يده الى السماء وقال فى دعائه يامن خلق خلقه وأبلى بعضهم ببعض وجعل ذلك محنة لهم أسألك بجاه محمد النبى ﷺ الا ماجعلت لنا من أمرنا فرجا ومخرجا ، ثم عاد الى القتال وأصحاب رسول الله ﷺ يقاتلون معه تحت رايته ، فلله درّ أبى ذر الغفارى رضى الله تعالى عنه فانه نصر ابن عم رسول الله ﷺ وجاهد بين يديه . قال عمرو بن ساعدة فلقد رأيته مع كبر سنه يضرب بسيفه ضربا شديدا فى الروم وينتمى الى قومه ويذكر عند حملاته اسمه ويقول أنا أبو ذر ، والمسلمون يفعلون كفعله الى أن بلغت القلوب الحناجر وظنوا أن فى ذلك الموضع قبورهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى عبد الله بن أنيس الجهنى . قال كنت أحب جعفرا وأحب من أولاده عبد الله ، فلما قبض أبو بكر رضى الله تعالى عنه وكان قائما مقام أبيه نظرت الى أمه أسماء بنت عميس حزينة فكرهت أن أنظر اليها فى ذلك الحزن ، وأيضا ان أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان يحب عبد الله حبا شديدا ، فاستأذن عبد الله بن جعفر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى المسير الى الشام . وقال لى : يا ابن أنيس الجهنى أشتهى أن ألحق بالشام ومعنا عشرون فارسا أكون مجاهدا أفتصحبنى ؟ فقلت نعم فودع عمه عليا رضى الله تعالى عنهما وودع عمر رضى الله تعالى عنه وسار يريد الشام ومعنا عشرون فارسا حتى أتينا تبوك . فقال : يا ابن أنيس أتدرى موضع قبر أبى ؟ فقلت نعم ، فقال أشتهى أن أرى الموضع . قال فما زلنا حتى أتينا الموضع فأريته موضع مصرع أبيه وموضع الوقعة وقبر أبيه جعفر رحمه الله تعالى وعليه حجارة ، فلما نظر اليه نزل ونزلنا معه وبكى وترحم فأقمنا عنده الى صبيحة اليوم الثانى ، فلما رحلنا رأيت

عبد الله يبكى ووجهه مثل الزعفران فسألته عن ذلك . فقال رأيت أبى البارحة فى النوم وعليه حلتان خضراوتان وتاج وله جناحان و بيده سيف مسلول أخضر فسلمه الىّ وقال يابنىّ قاتل به أعداءك فما وصلت الى ماترى الا بالجهاد ، وكأنى أقاتل بالسيف حتى تثلم . قال عبد الله بن أنيس وسرنا حتى أتينا عسكر أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه بدمشق ، فبعثه أمير تلك السرية الى دير أبى القدس . قال عبد الله بن أنيس فلما رأيت الوقعة بينه و بين الروم ، قلت يوشك أن يذهب عبد الله فسرت كالبرق ورجعت الى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه ، فلما رآنى قال أبشارة يابن أنيس أم لا ؟ فقلت أنفذ المسلمين الى نصرة عبد الله بن جعفر ومن معه ، ثم حدثته بالقصة فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه — إنا لله و إنا اليه راجعون — أيصاب عبد الله بن جعفر ومن معه تحت رايتك يا أبا عبيدة وهى أول امارتك .

[قال الواقدى] ثم التفت الى خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه . فقال له يا أبا سليمان سألتك بالله : ألحق عبد الله بن جعفر فأنت المعدّ لها . فقال خالد أنالها ان شاء الله تعالى وما كنت أنتظر الا أن تأمرنى . فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه : استحييت منك يا أبا سليمان ، فقال والله لو أمّر علىّ طفل صغير لأطيعن له ، فكيف أخالفك وأنت أقدم منى إيمانا وأسبق اسلاما سبقت باسلامك مع السابقين وسارعت بايمانك مع المسارعين وسماك رسول الله بالأمين ، فكيف ألحقك أو أنال درجتك ، والآن أشهدك أنى قد جعلت نفسى حبسا فى سبيل الله تعالى ولا أخالفك أبدا ، ولاوليت إمارة بعدها أبدا .

[قال الواقدى] فاستحسن المسلمون قوله ، فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه ياأبا سليمان ألحق اخوانك رحمك الله . قال فوثب خالد رضى الله عنه كأنه الأسد وسار الى رحله فأفرغ عليه درع مسيلمة الكذاب الذى سلبه منه يوم اليمامة وألقى بيضة على رأسه وأردفها قلنسوة وتقلد بحسامه وانصبّ فى سرجه كأنه السيل ونادى بجيش الزحف هلموا الى جزب السيوف فأجابوه مسرعين كأنهم العقبان و بادروا الى طاعة الرحمن وأخذ خالد الراية بيده وهزها على ركابه ودار به عسكر الزحف من كل جانب وودع المسلمون بعضهم بعضا وساروا وسار خالد وعبد الله بن أنيس يدلهم على الطريق . قال رافع بن عميرة الطائى : كنت يومئذ من أصحاب خالد ابن الوليد رضى الله تعالى عنه ولم يزل مجدّا فى السير والله عزّ وجل يطوى لنا البعيد ، فلما كان عند غروب الشمس أشرفنا على القوم والروم كالجراد المنتشر قد غرق المسلمون فى كثرتهم . فقال خالد يابن أنيس فى أىّ جانب أطلب ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له انه واعد أصحابه أن يلتقوا عند دير الراهب أو موعدهم الجنة .

[قال الواقدى] فنظر خالد نحو الدير الراية الاسلامية ، وهى بيد عبدالله بن جعفر ، ومامن المسلمين الامن أصيب بجرح ، وقد أيسوا من الحياة الفانية وطمعوا فى الحياة السرمدية ، والروم تناوشهم بالحرب وتكاثر الطعن والضرب وعبد الله بن جعفر يقول لأصحابه دونكم والمشركين واصبروا لقتال المارقين واعلموا أنه قد تجلى عليكم أرحم الراحمين ، ثم قرأ الآية قوله تعالى — كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين — فلما نظر خالد رضى الله تعالى عنه الى صبرهم وتجلدهم على قتال أعدائهم لم يطق الصبر دون أن حمل عليهم وهزّ رايته ، وقال لأصحابه

دونكم القوم القباح فأرووا من دمائهم السلاح ، وأبشروا بالنجاح ياأهل حى على الفلاح .

[قال الواقدى] رحمه الله تعالى : فبينما أصحاب عبد الله بن جعفر فى أشد ما يكونون فيه اذ خرجت عليهم خيل المسلمين وكتائب الموحدين كأنهم الطيور وعليها الرجال كأنهم العقبان الكاسرة والليوث الضارية وهم غائصون فى الحديد ، وقد ارتفع لهم الضجيج ، وبخيلهم الحجيج فلما نظر عبد الله وأصحابه الى ذلك ظنوا أنها نجدة الأعداء فأيقنوا بالهلاك والفناء وجعلوا ينظرون الى الخيل التى رأوها واذاهى قاصدة اليهم ففزعوا وجزعوا وظنوا أن كمينا من الروم قد خرج لقتالهم فعظم عليهم الأمر ، وقل منهم الصبر وأخذهم البهر وقد لحق بالمشركين الدمار وأتاهم حرب مثل النار ، والسيوف تلمع ، والرؤوس من الرجال تقطع ، والأرض قد امتلأت قتلى وهم فى أيدى المشركين كالأسرى والقوم فى أشد القتال والسيف يعمل فى الرجال اذ نادى فيهم مناد وهتف بهم هاتف خذل الآمن ونصر الخائف ياحملة القرآن جاءكم النصر من الرحمن ونصرتم على عبدة الصلبان ، وقد بلغت القلوب الحناجر ، وعملت المرهفات البواتر ، واذا بفارس على المقدمة كأنه الأسد الزائر أوالليث الهادر وبيده تشرق بالأنوار كاشراق القمر فنادى الفارس بأعلى صوته أبشروا يامعاشر حملة القرآن بالنصر المشيد أنا خالد بن الوليد ، فلما نظر المسلمون الراية وسمعوا صوت خالد رضى الله تعالى عنه كأنهم كانوا فى لجة وأخرجهم فأجابوه بالتهليل والتكبير ، وكانت أصواتهم كالرعد القاصف والرياح العواصف ، ثم حمل خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه بجيش الزحف الذى لايفارقه ووضع السيف فى الروم . قال عامر بن سراقة فاشبهت حملته الاحملة الأسد فى الغنم ففرقهم يمينا وشمالا . قال فثبت المسلمون ، وكل علج من الروم شديد هو يمانع عن نفسه وخالد يطلب أن يصل الى عبد الله بن جعفر ، ولما نظر المسلمون الى الخيل المقبلة عليهم ولم يعلموا ماهى حتى سمعوا صوت خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ، فقال : ياأيها الناس دونكم الأعداء ، فقد جاءكم النصر من رب السماء ، ثم حمل وحملت المسلمون معه . قال واثلة بن الأسقع لقد كنا أيسنا من أنفسنا وأيقنا بالهلاك حتى أتتنا المعونة والنصر من الله عز وجل ، فحملنا بحملة اخواننا . قال فما اختلط الظلام حتى نظرت الى خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه والراية بيده ، وهو يسوق المشركين بين يديه سوق الغنم ، الى المراعى والمسلمون يقتلون ويأسرون فلله در أبى ذر الغفارى وضرار بن الأزور والمسيب بن نجية الفزارى لقد قرنوا المواكب وهزوا المضارب وقتلوا الروم من كل جانب والتقى ضرار بعبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنهما فنظر اليه والدم على أكمام درعه كأكباد الابل فقال : شكر الله تعالى لك ياابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم والله انك لقد أخذت بثار أبيك وشفيت غليلك ، فقال عبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنهما : من الرجل المخاطب لى ؟ وكان الظلام قد اعتكر وضرار ملثم لايبين منه الا الحدق فلم يعرفه عبد الله . فقال أنا ضرار بن الأزور صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال مرحبا بطلعتك وبأخ مناعدل لنا وقام لنصرتنا . قال عبد الله بن أنيس فبينماهم على ذلك اذ أقبل خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه وجيش الزحف . فقال شكر لك الله وأحسن جزاءك ، ثم قال عبد الله ياضرار اعلم أن حامية الروم والبطارقة عند الدير لأجل ابنة صاحب طرابلس ومامعها من الأموال ، وقد أحاط بها كل فارس من الروم ، فهل لك ياابن الأزور أن تحمل معى ؟ فقال وأين هم ؟ فقال أما تنظر اليهم فمد عينه ،

واذا بحامية الروم و بطريق طرابلس وقد أحدقوا بالدير يمنعون عن الجارية والنيران مشتعلة والصلبان تلمع كضوء النار وكأنهم سدّ من حديد . فقال أرشدك الله للخيرات فنعم المرشد أنت احمل حتى أحمل معك بحملتك قال :فحمل عبد الله بن جعفر من جهته وحمل ضرار بن الأزور من جهته واتبعتهما الرجال وزعقوا فى الروم وحماة المشركين وهم يمانعون عن أنفسهم وكان أشدهم منعة بطريقهم فبرز أمام القوم وهو يهدر كالبعير ويزأر زئير الأسد يصيح بكلمة الكفر ويحمل حملات الشجعان فقصده ضرّار بن الأزور وباطشه فى الضرب والتقت الأقران ونظر ضرار الى العلج وعظم خلقته وتمكنه فى سرجه وشدّة ضربه وحسن احترازه فأخذ ضرار منه حذره ، واحترز منه البطريق وطلبه أشد الطلب وكل واحد منهما طامع فى صاحبه ، فانفرد ضرار بن الأزور مع صاحب القوم وكل قرن مع قرنه ، وليس مع ضرار أحد من المسلمين فانبسط ضرار بين أيديهم ليمكر بهم وطلبه البطريق وأصحابه وقصدوه بحملتهم ، فلما نظر ضرار الى ذلك قصد موضعا يصلح لمجال الخيل فاعترضه واحد فى ظلمة الليل فكبا به الجواد فسقط الى الأرض هاويا ثم ثار من سقطته يروم أخذ الفرس فلم يجد الى ذلك سبيلا فوقف مكانه وسيفه وحجفته بيده وجعل يجاهدهم بسيفه وصبر لهم صبر الكرام ولم يأخذه فى الله لومة لائم فخفق عليه بطريق الروم وأقبل يضرب بعموده ، فلما لازمه ورمى العمود عليه زاغ ضرار عن الضربة ، ثم وثب اليه وثبة الأسد وضربه ضربة أزعجت فرس البطريق من تحته وقام على رجليه وشبك بيديه وضربه الثانية فوقعت ضربة ضرار فى عين جواده فانتكس الجواد الى الأرض ووقع العلج على ظهره ولم يقدر أن يقوم لأنه منزرد فى سرجه ، فعاجله ضرار قبل وصول غلمانه اليه وضربه على حبل عاتقه فنبا سيفه ولم يعمل شيئا فناهضه العلج ، وقد أيقن بالهلاك وقبض عليه ، وكان كالجبل العظيم فرماه ضرار تحته وملك صدره واستوى على نحره ، وكان مع ضرار سكين من صنعة اليمن لا تفارقه فاستلها من غمدها وضرب صدر عدوّ الله الى سرته فسقط عدوّ الله قتيلا وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار . ثم وثب ضرار وملك جواد عدوّ الله واستوى فى سرجه ، وكان على الجواد كثيرا من الذهب والفضة والفصوص التى تساوى ثمنا كثيرا ، فلما صار على ظهر الجواد حمل وكبر على المشركين ففرقهم يمينا وشمالا ، وكان ضرار لما انبسط أمام القوم ملك عبد الله بن جعفر الدير ومن فيه هو ومن معه من المسلمين وأحدقوا به ولم يأخذوا منه شيئا حتى رجع خالد رضى الله تعالى عنه من اتباع الروم ، وذلك أن خالدا اتبعهم الى نهر عظيم كان بينهم و بين طرابلس الشام ، والروم يعرفون مخاوضه فوقف خالد ورجع الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدهم قد ملكوا الدير وقتلوا العلج وانتشرت الناس فى جمع الغنائم وما كان فى السوق من المتاع والفراش والقماش والثياب والطعام وغيره قال واثلة بن الاسقع : فجعلنا نجمعه ونأكل من الخيرات وأخرجوا ما كان فى الدير من آنية الذهب والفضة والستور والمراتب وأخرجوا ابنة البطريق ومعها أربعون جارية لهن حلىّ وحلل ، والمال على البراذين والبغال والحمير فانقلب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغنيمة والأموال الجسيمة .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فنسبت تلك السرية لثلاث : عبد الله بن جعفر صاحبها ، وعبد الله بن أنيس مدركها ، وخالد بن الوليد منجدها ولقى خالد فيها مشقة وجراحا مؤلمة ، فلما

سار وأقبل خالد الى الدير فصاح بصاحبه ياراهب فلم يكلمه فهتف به مرة أخرى وهدده فاطلع عليه وقال ماتشاء وحق المسيح ليطالبنك صاحب هذه الخضراء بدماء من قتلت . فقال خالد كيف يطالبنا وقد أمرنا أن نقاتلكم ونجاهدكم ووعدنا على ذلك الثواب ، ووالله لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن نتعرض لكم لاتركتك فى صومعتك ، بل كنت قتلتك أشر قتلة فسكت الراهب عنه ولم يجبه وانقلب خالد والمسلمون بالغنائم الى دمشق وأبوعبيدة رضى الله عنه فيها فشكر لهم وسلم على خالد وعلى عبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنهم ورجع الى مكانه نخمس الغنيمة وقسمها على الناس فدفع لضرار بن الأزور فرس البطريق وسرجه وماعليه من حلى الذهب والفضة والجواهر والفصوص فأتى به ضرار الى أخته السيدة خولة رضى الله تعالى عنها قال فرأيتها تنزع فصوص الجوهر فتفرقها على نساء المسلمين وان الفص منها ليساوى الثمن الكثير قال وعرض السبى على أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه وفى الجملة ابنة البطريق ، فقال عبد الله ابن جعفر أريدها . قال أبوعبيدة : حتى استأذن أمير المؤمنين فى ذلك فكتب اليه يعلمه بها وبمسئلة عبد الله بن جعفر فكتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه هى له ، فأخذهاعبد الله وأقامت زمانا عنده وعلمها الطبخ ، وكانت من قبل تعرف طبخ الفرس والروم وأقامت عنده الى أيام يزيدفأخبر بها فاستهداها منه فأهداها له ، وكانت عنده ، وقال عامر بن ربيعة : أصابنى من غنيمة سوق الدير أثواب ديباج حرير فيها صور الروم ، وكان فى كل ثوب منها صورة حسنة وهى صورة مريم وعيسى عليهما السلام فحملت الثياب الى اليمن فبيعت بثمن كثير وكتب الى عمى وأنا مع أبى عبيدة : ياابن أخى ابعث لى من هذه الثياب وأكثر منها فانها تنفق .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما رجع جيش المسلمين غانما كتب أبوعبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنه الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كتابا يخبره بما فتح الله على يديه وماغنم المسلمون من دير أبى القدس ويمدح خالدا ويشكره ويثنى عليه ويخبره بما قال فيه وماتكلم به وسأله فى كتابه أن يكتب الى خالد يستشيره فى المسير الى هرقل أوالى بيت المقدس وكتب اليه أيضا ان بعض المسلمين يشربون الخمر ، قال عاصم بن ذؤيب العامرى ، وكان ممن شهد قتال الروم بالشام وفتح دمشق العرب الوافدون من اليمن فأخذوا فى الشرب واستطابوا ذلك فأنكر ذلك الأمير أبو عبيدة . فقال رجل من العرب أظنه سراقة بن عامر يامعاشر المسلمين خلوا شرب الخمور فانها تزيل العقول وتكسب الاثم ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن شارب الخمر حتى لعن حاملها والمحمولة اليه .

[وحدثنى] أسامة بن زيد الليثى عن الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف الغفارى قال : كنت مع أبى عبيدة بالشام فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يخبره بفتح الشام وفى الكتاب : ان المسلمين يشربون الخمر واستقلوا الحد فقدمت المدينة فوجدت عمر رضى الله تعالى عنه فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وعنده نفر من الصحابة وهم عثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف يتحدثون فدفعت الكتاب اليه ، فلما قرأه جعل يفكر فى ذلك ثم قال إن رسول صلى الله عليه وسلم جلد فى شربها ، ثم سأل عمر عليا رضى الله تعالى عنهما فى ذلك وقال ماترى فى هذا . فقال على رضى الله تعالى عنه ان السكران اذا سكر هذى ، واذاهذى

افترى فكتب اليه عمر إن من شرب الخمر فعليه ثمانون جلدة ولعمرى مايصلح لهم الا الشدة والفقر ، ولقد كان حقهم أن يراقبوا ربهم عزّ وجل ويعبدوه ويؤمنوا به ويشكروه فمن عاد فأقم عليه الحدّ .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما ورد كتاب عمر رضى الله تعالى عنه على أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه وقرأه نادى فى المسلمين من كان فى نفسه حدّ فليعط ذلك من نفسه وليتب الى الله عزّ وجل ففعل ذلك كثير من الناس ممن كان شرب الخمر وأعطى الحدّ من نفسه ، ثم قال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه انى عزمت على المسير الى انطاكية وقصد كلب الروم لعلّ الله تعالى يفتح فتحا على أيدينا . فقال المسلمون : سر حيث شئت فنحن تبع لك نقاتل أعداءك فسرّ بقولهم وقال تأهبوا للرحيل فانى سائر بكم الى حلب فاذا فتحناها توجهنا منها ان شاء الله تعالى الى انطاكية ، فأسرع المسلمون فى اصلاح شأنهم وأخذوا أهبتهم ، فلما فرغ أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه من جميع شغله أمر خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه أن يأخذ راية العقاب التى عقدها له أبو بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنه وأمره أن يسير أمام الجيش بعسكر الزحف فسار خالد على المقدّمة ومعه ضرار بن الأزور ورافع بن عميرة الطائى والمسيب بن نجيبة الفزارى والناس يتبع بعضهم بعضا وترك على دمشق صفوان بن عامر السلمى وترك عنده خمسمائة رجل وسار أبو عبيدة بالمسلمين ومعه ناس من اليمن ومضر .

ذكر فتح حمص

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وسار أبو عبيدة على طريق البقاع واللبوة ، فلما وصل الى هناك بعث خالد بن الوليد رضى الله عنه الى حمص وقال : ياأبا سليمان انهض على بركة الله تعالى وعونه ، ونازل القوم وشنّ الغارة على أرض العواصم وقنسرين وأنا أسير الى بعلبك فلعل الله أن يسهل علينا فتحها ، ثم ودعه وسار خالد رضى الله تعالى عنه بمن معه الى حمص ، وتوجه أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه الى بعلبك اذ ورد بطريق جوسية ومعه الهدايا والتحف وصالح المسلمين سنة كاملة وقال : ان فتحتم بعلبك فأنا بين أيديكم ولانخالف لكم قولا فصالحهم أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه على أربعة آلاف درهم وخمسين ثوبا من الديباج ، فلما ابرم الصلح سار أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه ، يطلب بعلبك فما بعد من اللبوة الا وقد أشرف عليه راكب نجيب فاذا هو أسامة بن زيد الطائى ، فقال ياأسامة من أين أقبلت ؟ فأناخ نجيبه وسلم على أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه وعلى المسلمين وقال أتيت من المدينة وسلم اليه كتابا من عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ففضه أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه ، واذا فيه : لاإله الاالله محمد رسول الله ، بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى أمين الأمة : سلام عليك فانى أحمد الله الذى لا إله الاهو وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أما بعد فلا مردّ لقضاء الله وقدره ، ومن كتب فى اللوح المحفوظ كافرا فلا ايمان له ، وذلك أن جبلة بن الأيهم الغسانى كان قدم علينا ببنى عمه وسراة قومه ، فأنزلتهم وأحسنت اليهم وأسلموا على يدى وفرحت بذلك اذ شدّ الله عضد الاسلام والمسلمين بهم ، ولم أعلم ما يكون فى الغيب وانا سرنا الى مكة

حرسها الله تعالى وعظمها نطلب الحج ، فطاف جبلة بالبيت أسبوعا فوطئ رجل من فزارة ازاره فسقط ازاره عن كتفه فالتفت الى الفزارى ، وقال ياويلك كشفتنى فى حرم الله تعالى ، فقال والله ماتعمدتك فلطم جبلة بن الأيهم الفزارى لطمة هشم بها أنفه وكسر ثناياه الأربع فأقبل الفزارى الىّ مستدعيا على جبلة ، فأمرت باحضاره وقلت له ماحملك على أن لطمت أخاك فى الاسلام وكسرت ثناياه الأربع وهشمت أنفه ؟ فقال جبلة انه وطئ ازارى برجله فحله ، ووالله لولا حرمة هذا البيت لقتلته ، فقلت له قد أقررت على نفسك فاما أن يعفو عنك وإما أن آخذ له منك القصاص ، فقال أيقتصّ منى وأنا ملك وهو من السوقة ؟ قلت قد شملك واياه الاسلام فما تفضله الا بالعافية ، فقال أتتركنى الى غد أو تقتص منى ؟ فقلت للفزارى أتتركه الى غد ؟ قال نعم . فلما كان الليل ركب فى بنى عمه وتوجه الى الشام الى كلب الطاغية ، وأرجو أن الله تعالى يظفرك به فانزل على حمص ولاتنفذ عنها فان صالحك أهلها فصالحهم ، وان أبوا فقاتلهم وابعث عيونك الى انطاكية وكن على حذر من المتنصرة والسلام عليك ورحمة الله وعلى جميع المسلمين .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب فى سره جهر به مرة أخرى ثم لوى يطلب حمص ، وكان خالد رضى الله تعالى عنه سبقه اليها بثلث الجيش فنزل عليها يوم الجمعة من شوّال سنة أربع عشرة من الهجرة النبوية ، وكان عليها واليا بطريق من قبل هرقل اسمه لقيطا وكان قد مات قبل نزول خالد والمسلمين رضى الله تعالى عنهم أجمعين فاجتمع المشركون فى كنيستهم العظمى ، وقال كبيرهم اعلموا أن صاحب الملك قد مات وليس عند الملك خبر من هؤلاء العرب وقد نزلوا علينا وماظننا ذلك ، ولقد حسبنا أنهم لاينزلون علينا حتى يفتحوا جوسية و بعلبك وان أنتم قاتلتموهم وكاتبتم الملك أن يسير اليكم واليا وجيشا ، فان العرب لاتمكن أحدا من جنود الملك أن يسير اليكم ولا يصل لكم ، وليس عندكم طعام يقوم بكم للحصار ، فقالوا أيها السيد فما الذى ترى ؟ قال تصالحون القوم على ماأرادوا وتقولون نحن لكم و بين أيديكم ان فتحتم حلب وقنسرين وهزمتم جيش الملك ، فاذا توجه القوم عنا بعثنا الى الملك أن يمدّنا بجيش عرمرم و يولى من أراد علينا و يستوثق لنا من الطعام والعدد ، و بعد ذلك نقاتلهم فاستصوب القوم رأيه وقالوا دبرنا بحسن رأيك وتدبيرك فبعث البطريق الى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه جاثليقا كان عندهم معظما ليعقد الصلح بينهم و بين المسلمين فخرج الجاثليق ووصل الى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه وتكلم فى الصلح معه بماتحدّث به البطريق من أمر سير المسلمين الى حلب وقنسرين والعواصم وانطاكية فأجابهم أبوعبيدة رضى الله تعالى عنه الى ذلك وصالح القوم وهم أهل حمص على عشرة آلاف دينار ومائتى ثوب من الديباج وعقد الصلح مع القوم سنة كاملة أوّلها ذوالقعدة وآخرها شوّال سنة أربع عشرة من الهجرة . قال وانبرم الصلح وخرجت السوقة من حمص الى الى عسكر المسلمين فباعوا واشتروا ورأى أهل حمص سماحة العرب من بيعهم وشرائهم وربحوا منهم ربحا وافيا .

ذكر حديث سرية خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ان أباعبيدة دعا بخالد وضم اليه أربعة آلاف فارس من لخم وجذام وطى ونبهان وكهلان وستس وخولان وقال ياأبا سليمان شنّ الغارة بهذه الكتيبة واقصد بها المعرة واقرب من معرة حلب وشنّ بها الغارة على بلدة العواصم وارجع على أثرك ونفذ عيونك وانظر ان كان للقوم نجدة أوناصر من قومهم أم لا ؟ فأجابه خالد الى ذلك وأخذ الراية وتقدّم أمام الكتيبة وجعل ينشد و يقول :

أخذتها والملك العظيم ... وانى بحملها زعيم
لأننى كبش بنى مخزوم ... وصاحب لأحمد الكريم
أسير مثل الأسد الغشوم ... يارب فارزقنى قتال الروم

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وسار خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه الى شيزر ونزل على النهر المقلوب ودعا بمصعب بن محارب اليشكرى وضم اليه خمسمائة فارس وأمره أن يشن الغارة على العواصم وقنسرين وسار خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه الى كفر طاب والمراه والى دير سمعان وجعلت خيل المسلمين تغير يمينا وشمالا على القرى والرساتيق و يأخذون الغنائم والأسارى فرجعوا الى خالد بن الوليد بالأسارى فسار بهم الى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه ، فلما نظر الى خالد ومامعه من الغنائم والأموال فرح فرحا شديدا واذا خلف خالد سواد عظيم قد ارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير . فقال أبوعبيدة رضى الله تعالى عنه ماهؤلاء ياأبا سليمان ؟ فقال خالد ياأمير المؤمنين هذا مصعب بن محارب اليشكرى وقد عقدت له راية على خمسمائة فارس من قومه ، ومن أهل اليمن وانه أغار بهم على العواصم وقنسرين وقدأتى بالغنائم والسبى والأموال فالتفت الأمير أبوعبيدة فنظر الى سرح عظيم من البقر والغنم وبراذين عليها رجال ونساء وصبيان ولهم دوىّ عظيم و بكاء شديد فقصدهم أبوعبيدة رضى الله تعالى عنه واذا برجال مقرونين فى الحبال وهم يبكون على عيالهم ونهب أموالهم ، وخراب ديارهم . فقال أبوعبيدة رضى الله تعالى عنه لترجمانه : قل لهم مابالكم تبكون ولم لاتدخلون فى دين الاسلام وتطلبون الأمان والذمام لتأمنوا على أنفسكم وأموالكم ؟ . فقال لهم الترجمان ذلك . فقالوا : أيها الأمير نحن كنا بالبعد منكم وكانت أخباركم تأتينا وماظننا أنكم تبلغون الينا فما شعرنا حتى أشرف علينا أصحابكم فنهبوا أموالنا وأولادنا وساقونا فى الحبال كما ترى ..

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكانت الأعلاج زهاء من أربعمائة علج . فقال لهم الأمير ان مننا عليكم وأطلقنا كم من أسركم ورددنا عليكم أموالكم وأهاليكم فهل تكونون فى طاعتنا وتؤدّون الجزية الينا والخراج ؟ فقالوا : أوف لنا بذلك ونحن نفعل جميع ماشرطته علينا ، فعند ذلك أقبل أبوعبيدة رضى الله عنه الى المسلمين ، وقال لهم : قد رأيت من الرأى أن أؤمن هؤلاء من القتل وأردّ عليهم أموالهم وعيالهم فيكونوا عبيدا لنا و يعمروا الأرض والبلاد ونأخذ خراجهم وجزيتهم فما أنتم قائلون فما كنت بالذى أقطع أمرا الابمشورتكم ؟ فقالوا : الرأى رأيك فى ذلك أيها الأمير إن رأيت صلاحا للمسلمين .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ففرض على كل واحد أربعة دنانير وبذلك كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فعند ذلك ردّ عليهم أموالهم وأولادهـم وأقرّهم على بلادهم وكتب أسماءهم وأمرهم بالرجوع الى أوطانهم ، فلما استقرّوا فى خيامهم أخبروا من كان بالقرب منهم بحسن سيرة العرب وما عاملوهم به من الجميل وقالوا : لقد ظننا أنهم يقتلوننا ويستعبدون أولادنا والآن قد رحمونا وأقرونا فى بلادنا على أداء الجزية والخراج .

[قال الواقدى] فسمعت الروم ذلك فأقبلوا الى أبى عبيدة رضى الله عنه فى طلب الأمان وأداء الجزية والخراج .

ذكر فتح قنسرين

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وبلغ الخبر الى أهل قنسرين أن الأمير أبا عبيدة يعطى الأمان من قصده فأحبوا أن يأخذوا الأمان من أبى عبيدة رضى الله عنه وأجمعوا رأيهم على ذلك وأن ينفذوا رسولا من غير علم بطريقهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان على قنسرين والعواصم بطريق من بطارقة الملك من أهل الشدة والبأس ، وكان أهل قنسرين يخافون منه ، وكان اسمه لوقا ، وصاحب حلب عسكره مثل عسكره وسطوته مثل سطوته ، وكان الملك هرقل قد دعا بهما اليه ، فقالا له أيها الملك ما كنا نترك ملكنا من غير أن نقاتل قتالا شديدا فشكرهما الملك هرقل على ذلك ووعدهما أن أن يبعث اليهما جيشا عرمرما ، وكانا منتظرين ذلك من وعد الملك لهما ، وكان مع كل واحد منهما عشرة آلاف فارس الا أنهما لا يجتمعان فى موضع واحد . قال فلما سمع صاحب قنسرين ماقد عزم عليه أهل قنسرين من الصلح مع أبى عبيدة غضب غضبا شديدا وعزم أن يكربهم فجمع أهل قنسرين اليه وقال لهم : يابنى الأصفر ماتريدون أن أصنع مع هؤلاء العرب وكأنكم بهم وقد أقبلوا الينا يفتحون بلادنا كما فتحوا أكثر بلاد الشام ؟ . فقالوا أيها السيد قد بلغنا أنهم أصحاب وفاء وذمة وقد فتحوا أكثر البلاد بالصلح والعدل ومن قاتلهم قاتلوه واستعبدوا أهله وأولاده ، ومن دخل تحت طاعتهم أقروه فى بلده وكان آمنا من سطوتهم ، والرأى عندنا أن نصالح القوم ونكون آمنين على أنفسهم وأموالنا . فقال لهم البطريق : لقد أشرتم بالصواب والأمر الذى لا يعاب ، لأن هؤلاء العرب قوم منصورون على من قاتلهم ، وهاأنا أعقد لكم الصلح معهم سنة كاملة الى أن توافينا جيوش الملك هرقل ونعطف عليهم وهم آمنون فنبيدهم عن آخرهم ، فقالوا افعلوا مافيه الصلاح .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] واتفق أهل قنسرين والبطريق على صلح المسلمين وفى قلوبهم الغدر . قال وان لوقا البطريق دعا برجل من أصحابه اسمه اصطخر ، وكان قسيسا عالما بدين النصرانية فصيح اللسان قوىّ الجنان يعرف العربية والرومية ، وقد عرف الدينين اليهودية والنصرانية . فقال لوقا : ياأبانا سر الى العرب وقل لهم يصالحونا سنة كاملة حتى نبعد القوم بالحيلة والخداع . ثم كتب الكتاب الى الأمير أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه . فقال بعد كلمة كفره : أما بعد يامعاشر العرب ان بلدنا منيع كثير العدد والرجال فماتأتونا من قبله ولوأقمتم علينا مائة

سنة ماقدرتم علينا ، وان الملك هرقل قد استنجد عليكم من حدّ الخليج الى رومية الكبرى ونحن قد بعثنا اليكم نصالحكم سنة كاملة حتى نرى لمن تكون البلاد ، ونحن نريد منكم أن تجعلوا بيننا و بينكم علامة من حدّ أرض قنسرين والعواصم حتى إذا همت العرب بالغارة بدت العلامة تريكم حد أرضنا ، ونحن نصالحكم خفية من الملك هرقل لئلا يعلم فيقتلنا والسلام . ثم خلع على اصطخر خلعة سنية وأعطاه بغلة من مراكبه وعشرة غلمان ، وسار حتى وصل الى حمص فرأى الأمير أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه يصلى بالمسلمين صلاة العصر فوقف اصطخر ينظر مايفعلون و يعجب من ذلك ، فلما فرغوا من صلاتهم ونظروا الى القسيس وثبوا اليه ، وقالوا له من أنت ؟ ومن أين أقبلت . فقال : أنا رسول ومعى كتاب ، فأتوه بين يدى أبى عبيدة فهمّ القسيس بالسجود له فمنعه أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه من ذلك ، وقال له نحن عبيد الله عز وجل فمنا شقى ومنا سعيد — فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض — فلما سمع اصطخر ذلك بهت و بقى لايرد جوابا ، وهو متعجب مماتكلم به الأمير أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه ، فناداه خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ، وقال له ماشأنك أيها الرجل ورسول من أنت ؟ فقال اصطخر : أأنت أمير القوم . فقال خالد لا بل هذا أميرنا وأشار الى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه . فقال اصطخر أنا رسول صاحب قنسرين والعواصم ، ثم أخرج الكتاب ودفعه الى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه فأخذه وقرأه على المسلمين ، فلما سمع خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه مافى الكتاب من صفة مدينتهم وكثرة عددهم ورجالهم وزادهم وتهديدهم بجيوش الملك هرقل حرك رأسه وقال لأبى عبيدة : وحق من أيدنا بالنصر وجعلنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم الطاهر ان هذا الكتاب من عند رجل لايريد الصلح بل يريد حربنا ، ثم قال لاصطخر تريدون أن تخدعونا حتى اذا جاءت جنود صاحبكم ورأيتم القوم وقد جاءتكم نقضتم صلحنا وكنتم أوّل من يقاتلنا ، و إن رأيتم الغلبة لناهربتم الى طاغيتكم هرقل ، فان أردتم ذلك فنواعدكم الحرب مواعدة من غير أن يكون صلحا سنة كاملة ، فان لحق بكم جيش هذه السنة من الملك هرقل ، فلابد من قتاله فمن أقام فى المدينة ولم يقاتل مع الجيش فهو على صلحنا لانتعرض له . قال اصطخر : قد أجبناكم الى ذلك فاكتبوا لنا كتابا بذلك . فقال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه : أيها الأمير اكتب لهم كتابا بمواعدة الحرب سنة كاملة أولها مستهل شهر ذى القعدة سنة أربع عشرة من الهجرة النبوية . قال فكتب له أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه بذلك ، فلما فرغ من الكتاب . قال له اصطخر أيها الأمير حدّ بلادنا معروف و بازائنا صاحب حلب و بلاده بحدّ بلادنا ونريد أن تجعل لنا علامة فيما بيننا و بينكم حتى اذا طلب أصحابكم الغارة لايتجاوزون ذلك .

[قال الواقدى] فرضى أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه بذلك ، وقال أنا أبعث من يحدد لكم ذلك ، قال اصطخر أيها الأمير ماتريد معنا أحدا من أصحابك نحن نصنع عمودا وننصبه ويكون عليه صورة الملك هرقل ، فاذا رآه أصحابك لايجاوزونه . فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه أفعل ذلك ، ثم دفع اليه الكتاب ونادى فى عساكر المسلمين وأصحاب الغارات من نظر الى عمود فلايتعداه ولايتجاوزه بل يشن الغارة على أرض حلب وحدها ولايتجاوز العمود فليبلغ

الشاهد الغائب .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ورجع اصطخر الى بطريق قنسرين وأعلمه بماجرى له مع خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ودفع له الكتاب ، ففرح بذلك وقصد الى عمود عظيم وصنع عليه صورة الملك هرقل كأنه جالس على كرسى مملكته .

[قال الواقدى] وكانت خيل المسلمين تضرب غارتها الى أقصى بلاد حلب والعمق وانطاكية ويحيدون عن حد قنسرين والعواصم ولايقربون العمود . قال عمرو بن عبد الله الغبرى عن سالم بن قيس عن أبيه سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه قال : كان صلح المسلمين لأهل قنسرين والعواصم على أربعة آلاف دينار ملكية ومائة أوقية من الفضة وألف ثوب من متاع حلب وألف وسق من طعام .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا عامر . قال كنانى بعض الغازات اذ نظرنا الى العمود وعليه صورة الملك هرقل جئنا عنده وجعلنا نجول حوله بخيولنا ونعلمها الكر والفر ، وكان بيد أبى جندلة قناة تامة فقرب به الجواد من الصورة ، وهو غير متعمد ذلك ففقأعين الصورة ، وكان عندها قوم من الروم وهم غلمان صاحب قنسرين يحفظون العمود فرجعوا الى البطريق وأعلموه بذلك فغضب غضبا شديدا ودفع صليبا من الذهب الى بعض أصحابه وضم اليه ألف فارس من أعلاج الروم وعليهم الديباج الرومى وعليهم المناطق المجوفة وأمر اصطخر أن يسير معهم . وقال له ارجع الى أمير العرب وقل له غدرتم بنا ولم توفوا بذمامكم ، ومن غدر جندل ، فأخذ اصطخر الصليب وسار مع ألف فارس من الروم حتى أشرف على أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه ، فلما نظر المسلمون الى الصليب ، وهو مرفوع أسرعوا اليه ونكسوه فاستقبل أبو عبيدة القوم وقال من أنتم ؟ قال اصطخر أنا رسول صاحب قنسرين اليك ، وهو يقول لك غدرتم ونقضتم العهد الذى بيننا و بينكم ، فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه : وحق رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعلمت بذلك وسوف أسأل عنه ، ثم نادى يامعاشر الناس من فقأعين التمثال فليخبرنا بذلك ، فقالوا أيها الأمير : أبو جندلة وسهل بن عمرو صنعا ذلك من غير أن يتعمداه . فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه لاصطخر ان صاحبنا فعل ذلك من غير أن يتعمد فماالذى يرضيك منا ؟ فقالت الأعلاج لانرضى حتى نفقأعين ملككم يريدون بذلك أن يتطرقوا الى رقاب المسلمين . فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه هاأنا فاصنعوابى مثل ماصنع بصورتكم . قالوا لانرضى بذلك الا بعين ملككم الأكبر الذى يلى أمر العرب كلها . فقال ان عين ملكنا تمنع من ذلك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وغضب المسلمون حين ذكر الأعلاج عين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وهموا بقتل الأعلاج ، فنهاهم أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه عن ذلك . فقال المسلمون : أيها الأمير نحن دون امامنا فنفديه بأنفسنا ونفقأ عيوننا دون عينه . فقال اصطخر عند ما نظر الى المسلمين وقد هموا بقتله وقتل من معه من الأعلاج : لا نفقأ عين عمر ولاعيونكم ، ولكن نصور صورة أميركم على عمود ونصنع به مثل ما صنعتم بصورة ملكنا . فقالت المسلمون: ان صاحبنا فعل ذلك من غير تعمد وأنتم تريدون العمد . فقال أبو عبيدة رضى

الله عنـه مهلا ياقوم ، فاذا رضى القوم بصورتى فقد أجبتهم الى ذلك ولا يتحدث القوم عنا اننا عاهدنا وغدرنا فان هؤلاء القوم لاعهد لهم ولا عقل ، ثم أجابهم الى ذلك .

[قال الواقدى] فصوّروا صورة أبى عبيدة رضى الله تعالى عنـه على عمود وجعلوا له عينين من زجاج وأقبل فارس منهم حنقا ففقأ عين الصورة ، ثم رجع اصطخر الى صاحب قنسرين وأخبره بذلك . فقال لقومه بهـذا نالهم مايريدون . قال وأقام أبو عبيدة على حمص يغـير يمينا وشمالا ينتظر خروج السنة لينظر مابعد ذلك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وأبطأ خبر أبى عبيدة على عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما ولم يرد عليه شىء من الكتب والفتح ، فأنـكر عمر ذلك وظن به الظنون وحسب أنه قد داخله خبر وقد ركن الى القعود عن الجهاد ، فكتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنـه كتابا يقول فيـه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى أمين الأمة أبى عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك ، فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ وآمرك بتقوى الله عز وجـل سرا وعلانية ، وأحـذركم عن معصية الله عز وجل ، وأحذركم وأنهاكم أن تكونوا ممن قال الله فى حقهم ـ قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانـكم وأزواجكم وعشيرتـكم ـ الآية ، وصلى الله على خاتم النبيين وامام المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .
فلما وصل الكتاب الى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنـه قرأه على المسلمين ، فعلموا أن أمير المؤمنين عمر يحرضهم على القتال ، وندم أبو عبيدة رضى الله عنه على صلح قنسرين ولم يبق أحد من المسلمين الا بكى من كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنـه . وقالوا أيها الأمير مايقعدك عن الجهاد فدع أهل شيزر وقنسرين واطلب بنا حلب وانطاكية ، فلعل الله أن يفتحهما على أيدينا وقد انقضى أجل الصلح ومابقى الا القليل ، وما البقاء الا للملك الجليل ، فعزم أبو عبيدة رضى الله تعالى عنـه على المسير الى حلب وعقد راية لسهل بن عمرو ، وعقد راية أخرى لمصعب بن محارب اليشكرى ، وأمر عياض بن غانم أن يسير على مقدمتهم واتبعه خالد بن الوليد وسار أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه الى أن نزل على الرشين وصالح أهلها وسار الى حماة فخرج أهلها اليه ومعهم الانجيل وقد رفعه الرهبان على أكفهم والقسس أمام القوم يطلبون منه الصلح والذمام ، فلما رآهم أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه وقف ، وقال لهم : ما الذى تريدون . ؟ فقالوا أيها الأمير نريد أن نكون فى صلحكم وذمامكم فأنتم أحب الينا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فصالحهم أبو عبيدة وكتب لهم كتاب الصلح والذمام وخلف رجالا من المؤمنين وسار حتى نزل الى شيزر فاستقبلوه فصالحهم وقال لهم : أسمعتم للطاغية هرقل خبرا ؟ فقالوا ماسمعنا له خبرا غير أنه اتصل بنا الخبر أن بطريق قنسرين قد كتب الى الملك هرقل يستنجد عليكم ، وقد بعث بجبلة بن الأيهم الغسانى من بنى غسان والعرب المتنصرة ومعه بطريق عمورية فى عشرة آلاف فارس وقد نزلوا على جسر الحديد فكن منهم على حـذر أيها الأمير .
فقال أبو عبيدة رضى الله عنه : حسبنا الله ونعم الوكيل .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وأقام الأمير أبو عبيدة على شيزر و بقى مرة يقول : أسير الى حلب ومرة يقول أسير الى انطاكية فجمع أمراء المسلمين اليه . وقال : أيها الناس قد بلغنى

أن بطريق قنسرين قد نقض العهد وأرسل للملك هرقل والخبر كذا وكذا فما أنتم قائلون ؟ فقالوا أيها الأمير دع أهل قنسرين والعواصم وسر بنا الى حلب وانطاكية . فقال خذوا أهبتكم رحمكم الله .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان بقى من الصلح والعهد الذى بينهم وبين أهل قنسرين شهر أوأقل من ذلك ، فأقام أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه ينتظر انفصال العهد . قال وكانت عبيد العرب يأتون بجرائيم الشجر من الزيتون والرمان وغير ذلك من الأشجار التى تطعم الثمار فعظم ذلك على الأمير أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه فدعا العبيد اليه وقال ماهذا الفساد ؟ فقالوا أيها الأمير ان الأحطاب متباعدة منا وهذه الأشجار قريبة . فقال الأمير أبو عبيدة عزيمة منى على كل حر وعبد قطع شجرة لها طعم وثمر لأجازينه ولأنكلن به ، فلما سمع العبيد ذلك النكال جعلوا يأتون بالأحطاب من أقصى الديار . قال سعيد بن عامر وكان معى عبد نجيب وكان اسمه مهجعا وقد شهد معى الوقائع والحروب وكان جرىء القلب فى القتال وكان اذا خرج فى غارة أو فى طلب حطب يتوغل ويبعد فخرج هو وجماعة من العبيد ممن شهد الوقائع فى طلب الحطب ، فأبطأ خبره على سيده سعيد بن عامر ، فركب جواده وخرج فى طلبه وجعل يقفو أثره واذا قد لاح له شخص وقد سال دمه على وجهه وصبغ سائر جسده وما كاد يمشى خطوة واحدة الا ويهوى على وجهه . قال سعيد بن عامر فنزلت اليه وقلت له ماوراءك من الأخبار ؟ فقال هلكة ودمار يامولاى فقلت عليك يا ابن الأسود حدثنى بخبرك . قال سعيد فلم يكد يقف حتى سقط على وجهه ، فنضحت على وجهه ماء فسكن مابه . فقال : يامولاى انج بنفسك والا أدركك القوم يصنعون بك مثل ماصنعوا بى . فقلت ما القوم الذين صنعوا بك ما أرى ؟ فقال خرجت يامولاى أنا وجماعة من الموالى لنحتطب حطبا ، فتباعدنا كثيرا فى البر واذا نحن بكتيبة من الخيل زهاء عن ألف فارس كلهم عرب وفى أعناقهم صلبان الذهب والفضة وهم معتقلون بالذهب والفضة والرماح ، فلما نظروا الينا أسرعوا نحونا وداروا بنا وعزموا على قتلنا . فقلت لأصحابى دونكم واياهم ؟ فقالوا ويحك ومن يقاتل وليس لنا طاقة بقتال هذه الكتيبة والخيل وما لنا الا أن نلقى بأيدينا الى الأسر فهو أهون من القتال . فقلت لا والله ماسلمت نفسى اليهم دون أن أقاتل قتالا شديدا ، فلما رأوا منى الجد فعلوا مثل فعلى فقاتلنا القوم وقاتلونا فقتلوا منا عشرة وأسروا عشرة ، وأما أنا فأثخنت بالجراح حتى سقطت على وجهى فرجعوا عنى وبقيت كما ترى . قال سعيد بن عامر الانصارى فهمنى والله ما نزل بالعبيد فأردفته ورائى ورجعت على أثرى واذا بالخيل قد طلعت من ورائى كأنها الريح الهبوب أو الماء اذا اندفق من ضيق الأنبوب ، واذا بخيل غسان أحدقت بالرماح الطوال وهم يقولون نحن بنو غسان من حزب الصليب والرهبان . قال سعيد بن عامر فناديتهم أنا من أصحاب محمد المختار ﷺ . فأسرع بعضهم الى وهم أن يعلونى بالسيف فناديته : يا ويلك أتقتل رجلا من قومك . فقال من أى الناس أنت ؟ قلت أنا من الخزرج الكرام ، فرد السيف وقال أنت طلبة سيدنا جبلة بن الأيهم وحق المسيح ، فقلت ومن أين يعرفنى جبلة حتى يطلبنى ؟ فقال انه يطلب رجلا من أهل اليمن من أنصار محمد بن عبد الله ، ثم قال سر بنا طائعا والا سرت كرها . قال سعيد بن عامر فسرت والجيش معى حتى أشرفنا على جيش عرمرم وعنده أعلام وصلبان قد

رفعت فلم أزل مع القوم حتى أتوا بى الى مضرب جبلة بن الأيهم واذابه جالس على كرسى من ذهب أحمر وعليه ثياب الديباج الرومى وعلى رأسه شبكة من اللؤلؤ وفى عنقه صليب من الياقوت . فلما وقفت بين يديه رفع رأسه الىّ وقال : من أىّ العرب أنت ؟ قلت أنا من اليمن ، قال أكرمت من أيها . فقلت أنا من ولد حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عبدالله بن الأزور بن عوف بن مالك بن كهلان بن سبأ . فقال جبلة من أىّ الملأ أنت نسبا ؟ فقلت أنا من ولد الخزرج بن حارثة من أنصار محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام . فقال جبلة وأنا من قومك من بنى غسان ؟ فقلت أنا من القبيلة التى نسبت اليها ، فقال أنا جبلة بن الأيهم الذى رجعت عن الاسلام لما رضى صاحبكم عمر بن الخطاب أن يكون مثلى لهذا الدين ناصرا حتى يأخذ منى القود لعبد حقير وأنا ملك اليمن وسيد غسان . فقلت ياجبلة : ان حق الله أوجب من حقك ودينا لا يقوم الا بالحق والنصفة ، وان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لايخاف ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، فقال لى ما اسمك ؟ فقلت سعيد بن عامر الانصارى ، فقال أوطئ ياسعيد . قال فجلست فقال ألك عهد بحسان بن ثابت الانصارى . فقلت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قال فيه المصطفى: أنت حسان ولسانك حسام . فقال لى كم لك منذ فارقته ؟ فقلت عهدى به قريب وقد دعانى الى دعوة صنعها وأمر مولاته أن تنشد بها شعرا فيك فأنشدت :

لله درّ عصابة نادمتهم ... يوما بجلق فى الزمان الأوّل
يغشون حتى ما تهرّ كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أنسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأوّل
الملحقين فقيرهم بغنيهم ... المشفقين على اليتيم الأرمل
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

ثم خرجنا الى الشام وهذا آخر عهدى به . قال جبلة بن الأيهم أو حفظ لى هذه المكرمة ؟ قلت نعم ، قال فأمر لى بثوب من الكتان الرومى وفيه شىء من الورق . وقال : أنا أمرت لك بالكتان كى تلبسه ولا تحرمه ، ثم قال لى بحق ذمة العرب ما كنت تصنع فى المكان الذى أسرت فيه ؟ فقلت ان الصدق أو فى ما استعمله الرجل ، أنا من أصحاب الأمير أبى عبيدة بن الجراح وقد قصدنا نريد حلب وانطاكية . فقال جبلة : اعلم أن الملك قد بعثنى أنا وهذا البطريق صاحب عمورية حتى ننصر صاحب قنسرين ، فانه قد كادكم بصلحه لكم وأنا منتظر أن يلاقينا بهذا المكان ولكن ارجع الى صاحبك أبى عبيدة وحذره من أسيافنا وقل له يرجع من حيث قدم ولا يتعرض لبلاد هرقل وسوف ينزع من أيديكم ماقد ملكتموه من الشام . قال سعيد بن عامر : فركبت وأردفت غلامى ورائى وسرت حتى أتيت عسكر المسلمين ، فأسرع الناس الىّ وقالوا أين كنت يا ابن عامر فأتيت خيمة الأمير أبى عبيدة رضى الله عنه وحدثته بقصتى مع جبلة بن الأيهم فقال لى لقد خلصك الله بذكرك لحسان بن ثابت الأنصارى ، ثم جمع أصحاب رسول الله ﷺ للمشورة ، ثم قال أيها الناس ما ترون من قصة هذا البطريق وقد وفينا له وكادنا ؟ فقال خالد بن الوليد رضى الله عنه : ان البغى مصرعة وان كادنا كان الله من ورائه بالمرصاد وسوف نكيده أعظم مكيدة وأنا أسير الى لقائه بعشرة رجال من أصحاب رسول الله ﷺ . فقال أبو عبيدة أنت

لها يا أبا سليمان ولكل كريهة فخذ من أحببت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه أين عياض بن غانم الأشعري ، أين عمرو بن سعيد، أين مصعب بن محارب اليشكري ، أين أبو جندلة بن سعيد المخزومي ، أين سهل بن عمرو العامري ، أين رافع بن عميرة الطائي ، أين المسيب بن نجية الفزاري ، أين سعيد بن عامر الانصاري ، أين عمرو بن معديكرب الزبيدي ، أين عاصم بن عمر القيسي ، أين عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ؟ فأجابوه بالتلبية .

[قال الواقدي رحمه الله تعالى] وكان ضرار بن الأزور رضي الله عنه رمد العينين لم يحضر هذه الوقعة ، فقال لهم خالد بن الوليد هلموا فوجدوه قد تدرّع بدرع مسيلمة الكذاب الذي استلبه منه يوم اليمامة واشتمل بلامة حربه وركب جواده ، وقال لعبده همام سر معي حتى ترى مني عجبا فسار معه وسار خالد بن الوليد رضي الله عنه والعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ وأبو عبيدة رضي الله عنه يدعو لهم بالنصر . فأقبل خالد على سعيد بن عامر الأنصاري وقال : ياسعيد أما أخبرك جبلة بن الأيهم من أين يأتي البطريق صاحب قنسرين اليه ؟ فقال نعم يا أبا سليمان أخبرني فقال له خذبنا في الطريق الى جبلة بن الأيهم حتى نكمن له فيه ، فاذا أتى البطريق صاحب قنسرين كبدناه كما كادنا ودمّرناه ومن معه ، فسار سعيد أمام القوم يدلهم ويجدّ السير طالب عسكر جبلة بن الأيهم ، وكان مسيرهم ليلا فلما وصلوا الى قرب النيران وسمعوا أصوات القوم عدل بهم سعيد بن عامر الى صوب طريق البطريق وكمن بمن معه من الرجال الى وقت الصباح فلم يأت أحد فصلى خالد بأصحابه صلاة الفجر وهم في المكمن فبينماهم في المكمن اذأشرف عليهم جيش جبلة بن الأيهم والعرب المتنصرة وصاحب عمورية وهم طالبون أرض العواصم وقنسرين .
فقال المسلمون لخالد يا أبا سليمان : أماترى هذا الجيش الذي قد أشرف علينا في عدد الشوك والشجر ؟ فقال خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه فما يكون من كثرتهم اذا كان النصر لنا والله معنا فاختلطوا بهم أنتم وكونوا في جملتهم كأنكم من جيشهم الى أن نلتقي بالبطريق صاحب قنسرين ويفعل الله تعالى مايشاء ويختار ، فعند ذلك اختلطوا بهم وصاروا في جملتهم وهم لا يفترقون.
قال رافع بن عميرة الطائي ، فلما أشرفنا على حدّ صلحنا ولاح لنا بلد العواصم وقنسرين اذا ببطريقها قد استقبلنا وقد رفع أمامه الصليب وأخرج بين يديه القسوس والرهبان وهم يقرءون الانجيل وقد ارتفعت أصواتهم بكلمة الكفر ودنا بعضهم من بعض ، وخرج البطريق أمام الصحابة ليأتي الى جبلة بن الأيهم يسلم عليه فاستقبله خالد بن الوليد رضي الله عنه مواجها له وحوله أصحاب رسول الله ﷺ فلما قرب البطريق منهم . قال سلمكم المسيح وأبقاكم الصليب . فقال خالد ويابلك مانحن من عباد الصليب ، بل نحن من أصحاب رسول الله ﷺ محمد الحبيب وكشف خالد بن الوليد رضي الله عنه وجهه ونادى لا إله الا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله ياعدوّ الله أنا خالد بن الوليد أنا المخزومي صاحب رسول الله ﷺ وضرب بيده البطريق وقبض عليه وانتزعه من سرجه وبرز أصحاب رسول الله ﷺ وسلوا السيوف على أصحابه وارتفعت الضجة والجلبة وأعلن العدوّ بكلمة الكفر ، وضج المسلمون بكلمة التوحيد وسمع جبلة وصاحب عمورية أصوات المسلمين ، وقد ارتفعت بالتهليل والتكبير فانزعجوا لذلك ونظروا الى السيوف

وقد جردت والرماح وقد شرعت فبرزوا نحو أصحاب رسول الله ﷺ وأحاطوا بهم من كل جانب ومكان ، فلما نظر خالد الى مادهمه ونزل بأصحابه الذين معـه والبطريق صاحب قنسرين لايفارقه وقد ملك قياده وهو خائف أن ينفلت من يديه أوتجرى عليـه حادثة قبل أن يقتله همّ خالد أن يقتله ووقع السيف ليعلوه به فتبسم البطريق من فعاله وعجب خالد من ضحكه ، وقال ويلك مم ضحكك ؟ فقال البطريق لأنك مقتول أنت ومن معك وتريد قتلي ، وان أنت أبقيت علىّ فهو أصوب فتركه خالد ولم يقتلـه ثم صاح خالد بأصحابه أصحاب رسول الله ﷺ كونوا حولى واحموا عنى واصبروا على مانزل بكم ولا يكثر عليكم من أحدق بكم فان أشدّ ماتخافون منه القتل والموت منية خالد فى سبيل الله وانى والله أهديت نفسى للقتل مرارا لعلى أرزق الشهادة ، واعلموا رحمكم الله أن حجتنا واضحة ومفوّضة الى الله عزّ وجـلّ وكأنى بكم ، وقد وصلتم الى ربكم وسكنتم دارا لايموت ساكنها ، ثم قرأ ــ لايمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ــ .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فاجتمع أصحاب رسول الله ﷺ الى خالد رضى الله عنه وداروا من حوله وسار عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن يمينه ورافع بن عميرة عن يساره وعبـده همام من ورائه وأصحابه محدقون به وسلم خالد البطريق صاحب قنسرين الى عبده همام وقال أوثقه الى جانبك ولا تبرح من مكانك وأبشر بالنصر من الله عزّ وجل .

[قال الواقدى] وأقبلت اليهم العرب المتنصرة يقدمهم جبلة بن الأيهم فى عنقه صليب من الذهب الأحمر وفيه طوق من الجوهر وعليه ثياب الديباج المزركش ومن فوقه درع مذهب الزرد وعلى رأسه بيضة من الذهب وعلى أعلاها صليب من الجوهر ، وفى يده رمح طويل وسنانه يضىء كالقنديل وصاحب عمورية كالبرج المشيد ومن حوله الأعلاج المدججة وقد أحدق بهم الجيش من كل جانب . فلما نظر صاحب عمورية الى خالد بن الوليد رضى الله عنه وقد ملك صاحب قنسرين وهو فى يده أسير خاف أن يعجل عليه خالد ، فأقبل الى جبلة وقال له وحق المسيح ماهؤلاء العرب الا شياطين ألا ترى الى هـذا العربى ومن معه وهم عشرة رجال وقد أحدق بهم هـذا الجيش العظيم ومايفكرون فيه وقد ملكوا صاحبنا وهو معهم أسـير ولايتخلص من أيديهم وإنى خائف عليه أن يقتلوه وهو عزيز عند الملك هرقل فاخرج الى هذا العربى ، وقل له يخلى صاحبنا ويوصله الينا حتى نجود لهـم بأنفسهم ، فاذا أطلقوا صاحبنا حملنا عليهم وقتلناهم عن آخرهم . قال رافع ابن عميرة الطائى فبينما نحن وقوف حول خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه وجيش الروم والعرب المتنصرة محدقون بنا ونحن لانفكر فى كثرتهم لأنا واثقون بالله عـزّ وجل واذا بجبلة بن الأيهم وهو ينادى برفيع صوته ، ويقول : من أنتم من أصحاب محمـد المعروفين ؟ . من أنتم من العرب التابعين ؟ أخبرونا من قبل أن ينزل بكم الدمار ، فكان المكلم له خالد وبادره بالخطاب وقال له : بل نحن من أصحاب محمد المختار المعروفين بأهل القبلة والاسلام والاكرام والانعام . وأما سؤالك عن أنسابنا فنحن الآن من قبائل شتى وقد جعل الله كلمتنا واحدة ونحن مجتمعون عليها ، وهى قول لاإله الاالله محمد رسول الله زاده الله تعالى شرفا . فلما سمع جبلة كلام خالد بن الوليد غضب غضبا شديدا إذ لم يفكر فيه ولا فيمن معه . فقال جبـلة : يافتى أأنت أمـير هؤلاء العرب ؟ . فقال خالد لست أميرهم بل أخوهم فى الاسلام ، وهم اخوانى المؤمنون . فقال جبـلة : من أنت من أصحاب

محمد بن عبد الله ﷺ ؟ فقال خالد أنا المعروف بكبش بنى مخزوم ، أنا خالد بن الوليد صاحب رسول الله ﷺ ، وهـذا الرجل الذى عن يمينى هو عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنهما ، وهذا الذى عن شمالى من أهل اليمن من كرام طيّ ، وهو رافع بن عميرة الطائى صهرى وفؤادى ، وذلك أنى أخذت من كل قبيلة شـجاعها المعروف ، و بطلها الموصوف ، فلا تزدر بقلتنا ، ولا تفرح بكثرتـكم ، فما أنتم فى القتال الا كطيور وقع عليها صائدها وهى كامنـة فى أوكارها فألقى القانص الشبكة عليها فما انفلت منها الا النجيب .

[قال الراوى] فزاد غضب جبلة من كلام خالد رضى الله تعالى عنـه ، وقال له ستعلم أن كلامك عليك ميشوم اذا دارت بك الأسنة وبقيت أنت ومن معك طعاما للوحوش فى هذه الفلاة تمزقـكم بكرة وعشيا ، فقال له خالد ذلك لا يكثر علينا وهو سهل لدينا . فأنت من العرب التى قد نسبت لعبادة الصليب ، فقال أنا سيد بنى غسان ومن ملوك همدان ، أنا ملك غسان وتاجها ، أنا جبلة بن الأيهم ، فقال خالد أنت المرتدّ عن دين الاسلام ومن اختار الضلالة على الهدى ، وسلك سبيل الغىّ وضل وغوى ، فقال جبلة لست كـذلك أنا الذى اخترت العز على الذل والهوان ، فقال خالد فانك على ذل نفسك حريص ، وانما الـكرامة غدا فى دار البقاء والبعد عن دار الشقاء ، فقال جبلة ياأخابنى مخزوم لاتفرط علينا فى المقال فانما بقائى عليك وعلى أصحابك بسبب هـذا الأسير الذى فى يدك لأنى أخاف ان حلت عليكم قتلته قبل قتالك وهو معظم عنـد الملك هرقل وقريب عنده فى النسب فأطلقه من يدك حتى أجود عليكم بأنفسكم ، فقال خالد : أما أسيرى فلا أطلقه من يدى حتى أقتله ولاأبالى بما صنع بى بعده ، وأما قولك تحمل علىّ وعلى من معى بهـذه الجموع فما أنصفت فى المقال ، فاذا أردت النصفة فى القتال فجمعكم عظيم وعـددكم كثير ، ونحن عشرة رجال وقد أحدقت بنا أعنة خيولـكم وأسنة رماحـكم وطيال سيوفـكم فابرزوا فارسا لفارس وهذا أميركم ، فان قتلتمونا فقد خلصتم أسيركم ، وان أظفرنا الله بكم وماالنصر الا من عند الله فما يعظم عليكم هلاك أسيركم اذا هلـكت أنفسكم قبله

[قال الواقدى] فعند ذلك نـكس جبلة رأسه وأقبـل يحدّث صاحب عمورية بجواب خالد ابن الوليد رضى الله تعالى عنه فغضب صاحب عمورية غضبا شديدا وانتضى سيفه فلما نظر خالد ابن الوليد الى البطريق وقد جرد سيفه علم أنه يريد القتال ، فلما همّ صاحب عمورية بالحملة أمسكه جبلة ومنعه عن الحملة وأوقفـه تحت صليبه وأقبل جبلة على خالد بن الوليد ، وقال ياأخابنى مخزوم ان الحرب كما ذكرت تحتمل النصـفة وهؤلاء بنو الأصفر أعلاج الروم غنم مايعرفون النصفة فى البراز وقد حدثتهم بحديثك معى وقد رضوا منك بالمبارزة فمن أراد منـكم المبارزة فليبرز . قال رافع بن عميرة الطائى : فعزم خالد بن الوليـد أن يبرز فمنعه عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنهما ، وقال ياأبا سليمان وحق القبر الذى ضم أعضاء رسول الله ﷺ وحق شيبة أبى بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنـه لايبرز لهؤلاء القوم غيرى وأبذل المجهود فيهم فلعلىّ ألحق بأبى بكر الصدّيق فتركه خالد ، وقال اخرج شـكر الله مقالك وعرف لك فعالك . قال فخرج عبد الرحمن ابن أبى بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنهما ، وهو على فرس كان لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وكان دفعـه له من قسمة غنيمة وقعة أجنادين وكان الجواد من خيل بنى لخم وجذام من

العرب المتنصرة وكان كالطود العظيم وعبد الرحمن غارقا فى الحديد والزرد النضيد و بيده قناة تامة الطول فجال عبد الرحمن بجواده بين عساكر الروم والعرب المتنصرة ودعاهم الى القتال والبراز والنزال وقال دونكم والقتال فأنا ابن الصدّيق ثم جعل يقول :

أنا ابن عبد الله ذى المعالى   والشرف الفاضل ذى الكمال
أبى المجيد الصادق المقال   أدين هذا الدين بالفعال

ثم طلب البراز . قال رافع بن عميرة : فخرج اليه خمسة فوارس من شجعان الروم فما كان يجول عبد الرحمن على الفارس الاجولة واحدة فيصرعه قتيلا فلما قتل الخمسة فوارس توقفوا عنه فهمّ بالحملة على عسكر الروم فخرج اليه جبلة بن الأيهم وقد اشتدّ به الغضب ، فلما قرب من عبد الرحمن قال له ياغلام قد تعدّيت علينا فى فعالك و بغيت علينا فى قتالك ، فقال عبد الرحمن : وكيف ذلك وما البغى من شيمتنا ، قال جبلة لأنك قد ملأت الأرض من قتلانا وماخرجت اليك أقاتلك لأنك لست لى كفؤا فى القتال ، وانما خرجت اليك لأن رجلا من أصحابك قد خرج يعينك ، وليس هذا من شيم الأشراف والانصاف . قال فلما سمع عبد الرحمن كلام جبلة تبسم ، وقال ياابن الأيهم تريد أن تخدعنى وأنا تربية الامام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وقد شهدت معه الوقائع والقتال . فقال جبلة لست مخادعا وماقلت الاحقا . فقال عبد الرحمن : فأخرج بازاء من خرج معى فارسا من قومك ان كنت صادقا فى مقالتك واحمل علىّ فانى كفء كريم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما نظر جبلة بن الأيهم الى عبد الرحمن وأنه لايؤتى من قبل الخداع والحيل . قال هل لك ياغلام أن تلقى بيدك الينا وأغمسك فى ماء المعمودية غمسة تخرج منها نقيا من الذنوب كما خرجت من بطن أمك وتكون من حزب الصليب والانجيل وتأكل القربان وتأخذ الجائزة العظيمة من الملك هرقل وأزوّجك ابنتى وأقاسمك نعمتى وأتفضل عليك باكرامى وانعامى ، وأنا الذى مدحنى شاعر نبيكم حيث يقول :

ان ابن جفنة من بقية معشر   لم تغذهم آباؤهم باللوم
يعطى الجزيل ولا يراه بأنه   الا كبعض عطية المذموم
لم ينثنى بالشام اذ هو بارح   يوما ولامتنصرا بالروم
ان جئته يوما تقر بمنزل   تسقى براحته من الخرطوم

فأسرع الى ماعرضته عليك لتنجو من المهالك وتكون فى النعم والعيش السليم . فقال عبد الرحمن : لا إله الاالله وحده لاشريك له ياويلك ياابن اللئام أتدعونى من الهدى الى الضلال ومن الايمان الى الكفر والجهالة ، وأنا ممن وقر الايمان فى قلبه وعرف رشده من غيه وصدّق نبىّ الله وأبغض من كفر بالله ، فدونك والقتال ودع عنك الخديعة والمحال وتقدّم الى ماعزمت عليه حتى أضربك ضربة أعجل بها حمامك وأرغم بها أنفك وتستريح العرب من أن تنسب اليك لأنك كافر بالرحمن وعابد للصلبان . قال فغضب جبلة من كلام عبد الرحمن وحمل عليه وهمّ به ورفع رمحه يريد أن يطعنه فزاغ عبد الرحمن من الطعنة وحمل على جبلة حملة عظيمة وتطاعنا بالرماح حتى كلّ عبد الرحمن من حمل قناته فرماها من يده وانتضى سيفه وتعاركا فى الحرب فهجم عبد الرحمن على جبلة وضرب رمحه فبراه فرمى جبلة باقى الرمح من يده وانتضى سيفه من

غمده وكان من سيوف كندة من بقايا كأنه صاعقة بارقة ماضرب به شيئا الا براه وحمل على عبد الرحمن رضى الله تعالى عنه حملة عظيمة . قال رافع بن عميرة الطائى : فعجبنا والله من عبد الرحمن وصبره على قتال جبلة ومنازلته على صغر سنه وقلة أعوانه ، ثم التقيا بضربتين واصلتين فسبقه عبد الرحمن بالضربة فأخذها جبلة فى حجفته فقطع الدرق ونزل السيف الى البيضة فانثنى سيف عبد الرحمن عنها لأنها ذات سقاية عظيمة فجرجه جرحا واضحا أسال دمه وضربه جبلة ضربة واصلة فقطع ما كان عليه من الزرد والدروع والثياب ووصلت الضربة الى منكبه فجرحته ، فلما أحس عبد الرحمن رضى الله تعالى عنه بالضربة قد وصلت اليه ثبت نفسه وأرى قرينه كأن الضربة لم تصل وحرك جواده وأطلق عنان فرسه حتى لحق بخالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه وأصحابه ، فلما وصل اليهم قال له خالد قدوصل اليك عدوّالله بضربته ؟ فقال نعم ، وأظهر له ضربته وماالحقه فأخذوه عن فرسه وسدوا جراحه . فقال خالد ياابن الصديق ان كان جبلة قد وصل اليك بضربتهفوحق بيعة أبيك لأجمعنهم فى أسيرهم كما جمعونى بك ثم صاح خالد بعبده همام وقال قدّم هذا العلج فقدمه بين يديه فضربه بسيفه فأطاح رأسه عن جسده ، فلما نظرت الروم الى صاحبهم وقد قتله خالد جمعهم ذلك وغضب جبلة ، وقال أبيتم الا الغدر وقتلتم صاحبنا ثم صاح فى الروم والعرب المتنصرة وهموا بالحملة ونظر خالد اليهم وقد حملوا على المسلمين . فقال لعبده همام قف أنت عند عبد الرحمن فامنع عنه من أراده بسوء ، ثم قال لأصحابه أصحاب رسول الله ﷺ لايخرج أحد منكم عن صاحبه وكونوا حولى فما أسرع الفرج والنصر من الله عزّ وجل ، فوقف أصحاب رسول الله ﷺ حول خالد بن الوليد رضى الله عنهم كما أمرهم وما قصدهم الا من أيس من نفسه وحملت الروم والعرب المتنصرة بأجمعهم وثبت لهم المسلمون الأخيار وعظم بينهم القتال ودارت بهم الأهوال . قال ربيعة بن عامر : واللهلقد كان خالدبن الوليد كلما كثرت الخيل حولنا وازدحمت علينا يتقيها بنفسه ويفرقها بسيفه ولم نزل كذلك حتى أخذنا العطش والظمأ . قالرافع بن عميرة الطائى : فلما رأيت ذلك قلت لخالد بن الوليد ياأبا سليمان لقد نزل بنا القضاء . فقال والله لقد صدقت ياأبا عميرة لأنى نسيت القلنسوة المباركة ولم أصحبها معى .

[قال الواقدى] وقد عظم عليهم الأمر وعزّ منهم الصبر وأخذهم الانبهار ورأوا من المشركين الدمار والأرض قد ملئت من قتلى المشركين وهم بين الروم كأنهم أسرى واذ قد نادى بهم مناد وهتف بهم هاتف وهو يقول : خذل الآمن ونصر الخائف أبشروا ياحملة القرآن جاءكم الفرج من الرحمن ونصرتم علىعبدة الأوثان ، هذا وقد بلغت القلوب الحناجر وعملتالسيوف البواتر ودارت عليهم الحوافر .

[قال الواقدى] حدثنا يسرة عن اسحق بن عبد الله قال كنت مع أبى عبيدة رضى الله عنه فبينما نحن فى شيزرة وأبوعبيدة فى مضربه واذا به قد خرج فى بعض الليل من مضربه وهو ينادى النفير النفير يامعشر المسلمين لقد أحيط بفرسان الموحدين قال فأسرعنا اليه من كل جانب ومكان وقلنا له مانزل بك أيها الأمير ؟ فقال الساعة كنت نائما اذطرقنى رسول الله ﷺ وجرنى وقاللى معنفا : ياابن الجراح أتنام عن نصرة القوم الكرام ، فقم والحق بخالد بن الوليد رضى الله عنه فقد أحاط به القوم اللئام وانك تلحق به ان شاء الله تعالى رب العالمين .

[قال الواقدى] رحمه الله تعالى : فلما سمع المسلمون قول أبى عبيدة رضى الله عنه تبادروا الى لبس السلاح والزرد وركبوا خيولهم وساروا يريدون خالدا ومن معه قال فبينما الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه على المقدمة فى أوائل الخيل اذ نظر الى فارس يسرع به جواده وهو أمام الخيل ويكرّ فى سيره كرا فأمر أبو عبيدة رضى الله عنه رجالا من المسلمين أن الحقوا به فلم يقدروا على ذلك لسرعة جواده قال فلما كاّت الخيل عن ادراكه نظر أبو عبيدة اليه وظن أنه من الملائكة قد أرسله الله أمامهم غير أنه نادى به الأمير أبو عبيدة على رسلك أيها الفارس الجدّ والبطل المكد أرفق بنفسك يرحمك الله ، فوقف الفارس حين سمع النداء ، فلما قرب أبو عبيدة من الفارس اذاهى أم تميم زوجة خالد بن الوليد رضى الله عنها . فقال لها أبو عبيدة ماجلت على المسير أمامنا فقالت أيها الأمير انى سمعتك وأنت تصيح وتضج بالنداء وتقول ان خالدا أحاطت به الأعداء فقلت ان خالدا مايخذل أبدا ومعه ذؤابة المصطفى ﷺ اذحانت منى التفاتة الى القلنسوة المباركة وقد نسيها فأخذتها وأسرعت اليه كما ترى . فقال أبو عبيدة لله دّرك يا أم تميم سيرى على بركة الله وعونه قالت أم تميم كنت فى جماعة نسوة من مذحج وغيرهم من نساء العرب والخيل تطير بنا طيرا حتى أشرفنا على الغبرة والقتال ونظرنا الأسنة والصوارم تلوح فى القتال كأنها الكواكب وما للمسلمين حس يسمع قالت فأذكرنا ذلك وقلنا ان القوم قد وقع بهم عدوّهم فعند ذلك كبر الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه وحمل وحملت المسلمون ، قال رافع بن عميرة : فبينما نحن قد أيسنا من أنفسنا اذ سمعنا التهليل والتكبير فلم تكن الاساعة حتى أحاط جيش المسلمين بعسكر الكافرين ووضعوا السيوف من كل جانب وعلت الأصوات وارتفعت الزعقات قال مصعب بن محارب اليشكرى فرأيت عبدة الصلبان وهم هاربون ورأيت خالد بن الوليد رضى الله عنه وهو ثابت فى سرجه متشوّف الى الأصوات من أين هى ، واذا بفارس قد خرج من الغبار وهو يسوق فرسان الروم بين يديه ويهربون منه حتى أزاح من حولنا الكتائب والرجال فأسرع خالد بن الوليد اليه ، وقال من أنت أيها الفارس الهمام والبطل الضرغام ؟ فقالت أنا زوجتك أم تميم ياأبا سليمان ، وقد أتيتك بالقلنسوة المباركة التى تنصر بها على أعدائك نفذها اليك فوالله مانسيتها الا لهذا الأمر المقدر ، ثم سلمتها اليه فلمع من ذؤابة رسول الله صلى الله عليه وسلم نور كالبرق الخاطف .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وعيش عاش فيه رسول الله ﷺ ماوضع خالد القلنسوة على رأسه وحمل على الروم الاقلب أوائلهم على أواخرهم وحملت المسلمون حملة عظيمة ، فما كان غير بعيد حتى ولت الروم الأدبار وركنوا الى الفرار ولم يكن فى القوم الاقتيل وجريح وأسير ، وكان جبلة أوّل من انهزم والعرب المتنصرة أثره ، فلما رجع المسلمون من اتباعهم اجتمعوا حول راية الأمير أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه وأتباعه وسلموا على الأمير أبى عبيدة رضى الله عنه وعن المسلمين وشكروا الله على سلامتهم ، ونظر أبو عبيدة رضى الله عنه الى خالد بن الوليد وأصحابه وهم كأنهم قطعة أرجوان فصافحه وهنأه بالسلامة ، وقال لله درّك ياأبا سليمان قد أشفيت الغليل وأرضيت الملك الجليل . ثم قال الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه : يامعاشر الناس قد رأيت أن نسير من وقتنا هذا ونغير على قنسرين والعواصم ونقتل الرجال وننهب الأموال ، فقال

المسلمون نعم مارأيت ياأمين الأمة .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فانتخب أبو عبيدة رضى الله عنه فرسانا فجعلهم فى المقدمة مع عياض بن غانم الأشعرى وساروا حتى أشرفوا على قنسرين والعواصم . فقال لأصحاب رسول الى ﷺ شنوا الغارات فشنوا الغارات عليهم وسبوا الذرارى وقتلوا الرجال ، فلما نظر أهل قنسرين الى ذلك غلقوا أبواب مدينتهم وأذعنوا بالصلح وأداء الجزية ، فأجابهم أبو عبيدة رضى الله عنه الى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح وفرض على كل رأس منهم أربعة دنانير ، وبذلك أمره عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

[قال الواقداى رحمه الله تعالى] لما فتح أبو عبيدة رضى الله عنه قنسرين والعواصم . قال لأصحاب رسول الله ﷺ أشيروا علىّ برأيكم رحمكم الله ، فان الله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله الآية ، فهل أسير الى حلب وقلاعها وانطاكية وملوكها وعساكرها أونرجع الى ورائنا ؟ فقالوا أيها الأمير كيف نرجع الى حلب وانطاكية ، وهذه أيام انقضاء الصلح الذى بيننا و بين أهل شيزروأرمين وحمص وجوسية ولاشك أنهم قد أخذوا الحصار وقوّوا بلادهم بالأطعمة والرجال ونخاف أن يتغلبوا علينا ، فما أخذناه من البلاد و يغيروا علينا لاسيما بعلبك وحصنها ، فانهم أولوشدة وعديد ، ونرى من الرأى أنا نرجع اليهم ونقاتلهم فلعل الله عزوجل أن يفتح على أيدينا . قال فاستصوب ورجع على طريقه فوجدوا البلاد كما قالوا ، قد تحصنت بالعدد والرجال والطعام ولم يكن لأبى عبيدة قصد الاحمص فوجدها قد تحصنت بالعدد والعديد ، وقد بعث اليها الملك هرقل بطريقا من أهل بيته ، وكان من أهل الشدة والبأس ومعه جيش عرمرم ، وكان اسم البطريق هر بيس ، فلما نظر أبو عبيدة الى ذلك ترك على حمص خالد بن الوليد رضى الله عنه ، وسار هو الى بعلبك ، فلما قرب منها ، واذا بقافلة عظيمة فيها جمع من الناس ومعهم البغال والدواب وعليها من أنواع التجارات ، وقد أقبلت من الساحل يريدون بعلبك ، فلما نظر أبو عبيدة رضى الله عنه الى سوادها قال لمن حوله من الفرسان ماهذا الاجمع كثير أمامنا . فقالوا لاعلم لنا بذلك . فقال علىّ بخبرهم فسارت الخيل اليهم وأخذت أخبارهم ورجع بعضهم بخبرها والقافلة من قوافل الروم محملة متاعا . قال شداد بن عدى : وكانت أحمال القافلة أغلبها سكر ، وكانت لأهل بعلبك ، فلما سمع أبو عبيدة ذلك قال ان بعلبك لنا حرب وليس بيننا و بينهم عهد فخذوا ماقد ساقه الله اليكم ، فانها غنيمة من عند الله .

[قال الواقدى] فاحتوينا على القافلة ، وكان فيها أربعمائة حمل من السكرو الفستق والتين وغير ذلك وأخذنا أهلها أسارى ، فقال أبو عبيدة رضى الله عنه كفوا عن القتل واطلبوا منهم الفداء فابتعناهم أنفسهم بالذهب والفضة والثياب والدواب وصنعنا من السكر العصيدة والفالوذج بالسمن والزيت ودعس المسلمون دعسا و بتنا حيث حوتنا القافلة ، فلما أصبح الصباح أمرنا أبوعبيدة رضى الله عنه بالمسير الى بعلبك والنزول عليها ، وكان قد هرب قوم من القافلة وأخبروا أهل بعلبك بالقافلة .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان على بعلبك بطريق عظيم يقال له هر بيس وكان شديد

البأس شجاع القلب ، فلما أتاه الخبر بقدوم عساكر المسلمين جمع رجاله وأهل الحرب وأمرهم بلبس السلاح والعدد وخرج بعسكره وجعل يسير ، وهو يعلم أن الأمير أبا عبيدة رضى الله عنه سائر اليهم بجيوش المسلمين ، فلما انتصف النهار وتراءى الجمعان ، وكان هربيس معه سبعة آلاف فارس سوى من اتبعه من سواد بلده ، ونظر طوالع جيش أبى عبيدة رضى الله عنه ، ونظر المسلمون الى ذلك نادوا النفير النفير فعندها تبادرت الفرسان وتقدمت الشجعان وشرعوا رماحهم وجردوا سيوفهم وصف هربيس رجاله وعباهم تعبية الحرب ، فقال له بعض بطارقته ماالذى تريد أن تصنع مع العرب ، فقال أقاتلهم لئلا يطمعوا فينا فينزلوا على مدينتنا ، فقال له الرأى عندى أن لاتقاتل العرب وارجع سالما أنت ورجالك . فان أهل دمشق الشام ماقدروا عليهم ولاردّهم عساكر أجنادين ولاجيوش فلسطين ، وقد بلغك مافيه كفاية مما جرى لهم بالأمس مع صاحب قنسرين وصاحب عمورية والعرب المتنصرة ، وكيف ردّهم هؤلاء العرب على أعقابهم منهزمين والصواب أنك تفوز بنفسك وبمن معك وارجع ، فقال هربيس لست أفعل ذلك ولاأنهزم أمام العرب ، وقد بلغنى أن عسكرهم الكبير على حمص مع الأمير أبى عبيدة الذى كان فيها خالد بن الوليد وهذه غنيمة ساقها المسيح الينا ، فقال ذلك البطريق الناصح : أماأنا فلست أتبع رأيك ولاأقاتل العرب . ثم لوى عنان فرسه راجعا الى بعلبك واتبعه خلق كثير من القوم ، وأماهربيس فانه صفّ رجاله وزحف يريد القتال ، فلما نظر أبو عبيدة رضى الله عنه ذلك وأنهم قد عولوا على الحرب صف رجاله وعساكره ، وقال أيها الناس اعلموا رحمكم الله تعالى أن الله قد وعدكم وأيدكم بالنصر حتى هزم أكثر هؤلاء القوم وهذه المدينة التى أنتم قاصدون اليها وسط ماافتحتموه من البلاد وأهلها قد أكثروا من الزاد والعدد والقوة فاياكم والجبن وانتصروا واغزوا أعداء الدين وانصروا الله ينصركم واعلموا أن الله معكم . ثم حمل الأمير أبو عبيدة وحمل المسلمون قال عامر بن ربيعة : وعيش عاش فيه رسول الله ﷺ سيد المرسلين ما كان بيننا وبينهم الاجولة الجائل حتى ولوا الأدبار وطلبوا الأسوار ودخل هربيس المدينة مع أصحابه وفيه سبع جراحات فتلقاه الذى أشار عليه لاتقاتل العرب ، وقال له وأين غنائم العرب التى غنمتموها ؟ فقال هربيس قبحك المسيح أتهزأ بى ، وقد قتلت العرب رجالى ، وقد جرحت هذه الجراحات ، فقال له البطريق : ألم أقل لك أنك مهلك نفسك ورجالك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ثم ان الأمير أباعبيدة سار حتى نزل على بعلبك فنظر الى مدينة هائلة وحصن حصين والقوم قد أغلقوا الأبواب ، وقد أحرزوا أموالهم ومواشيهم فى جوفها واطلع المسلمون على الأموال كأنها الجراد المنتشر . قال فلما نظر الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه الى البلد وتحصينه وامتناعه وكثرة رجاله وشدة برده وذلك أنه بلد لايزايله البرد فى الشتاء والصيف . فقال الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه لخواص أصحاب رسول الله ﷺ ماالرأى فى ذلك ؟ فاجتمع رأيهم على شورى واحدة ، وهوأن يحاصروا القوم ويضيقوا عليهم ، فقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : أصلح الله الأمير انى أعلم أن الروم أزدحم بعضهم ببعض من كثرتهم وأظن أن المدينة لاتسعهم ، وان طاولناهم رجونا من الله النصر وأن يفتحها الله على أيدينا ، فقال الأمير يا ابن جبل من أين علمت أن القوم يتضايقون فى مدينتهم ، فقال ياأمير المؤمنين انى كنت

أول من أسرع بجواده قبل وأشرفت على هذه المدينة والقلعة البيضاء ورجوت أن نلحق سوابق الخيل فرأيت القوم يدخلون المدينـة من جميع الأبواب مثـل السيل المنحدر والمدينة مشحونة بأهل السواد والقرى والمواشي ودوابهم فيها ، وقد ضاقت بهم وهـذه أصوات القوم فى المدينـة كأنهم النحل من كثرتهم ، فقال أبو عبيدة صدقت يامعاذ ونصحت وايم الله ماعرفتك الامبارك الرأى سديد المشورة .

[قال الواقدى] وبات المسلمون تلك الليلة يحرس بعضهم بعضا الى الصباح . ثم كتب أبو عبيدة رضى الله عنـه الى أهل بعلبك كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من أمير جيوش المسـلمين بالشام وخليفة أمير المؤمنين فيهم أبو عبيدة بن الجراح الى أهـل بعلبك من المخالفين والمعاندين . أما بعد فان الله سبحانه وتعالى وله الحمد أظهر الدين وأعز أولياءه المؤمنين على جنود الـكافرين وفتح عليهم البلاد وأذل أهل الفساد ، وان كتابنا هـذا معذرة بيننا و بينـكم وتقدمة الى كبيركم وصغيركم لأنا قوم لانرى فى ديننا البغى وما كنا بالذين نقاتلـكم حتى نعلم ماعندكم . وان دخلتم فيما دخل فيـه المدن من قبلـكم من الصلح والأمان صالحناكم ، وان أردتم الذمام ذممنا كم وان أبيتم الاالقتال استعنا عليـكم بالله وحاربنا كم فأسرعوا بالجواب والسـلام على من اتبع الهدى . ثم كتب — إنا قد أوحى الينا أن العـذاب على من كذب وتولى — وطوى الـكتاب وسلمه الى رجل من المعاهدين وأمره أن يسير به الى أهل بعلبك ويأتيه بالجواب فاخذ المعاهد الـكتاب وأتى به الى السور وخاطبهم بلغتهم ، وقال انى رسول اليـكم من هؤلاء العرب فدلوا حبلا فربطه فى وسطه ، وأخـذه القوم اليهم وأتوا به الى بطريقهم هربيس فناوله الـكتاب فجمع هربيس أهل الحرب والبطارقة وقرأ عليهم كتاب أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه ، وقال أشيروا علىّ برأيكم ، فقال له بطريق من بطارقته ، وهو صاحب مشورة الرأى : عندى أن لانقاتل العرب لأنا ليس لنا طاقة بقتالهم ومتى صالحناهم كنا فى أمن وخصب ودعة كما قد صار أهـل أركه وتدمر وحوارن وبصرى ودمشق ، وان نحن قاتلناهم وأخذونا فى الحرب قتلوا رجالنا واستعبدونا وسبوا حريمنا والصلح خير من الحرب ، فقال هربيس : لارحمك المسيح فمارأيت أجبن منك ولاأقل جلدا ياويلك كيف تأمرنا أن نسلم مدينتنا الى أوباش العرب ، لاسيما وقد عرفت حربهم وقتالهم واختبرت نزالهم وانى فى هذه النوبة لو حملت فى ميسرتهم كنت هزمتهم ، فقال له البطريق نعم كانت الميسرة والقلب يخافون منك . ثم تخاصما وتشاتما وافترق أهل بعلبك فرقتين فرقة يطلبون الصلح وفرقة يطلبون القتال ورمى هربيس الـكتاب الى المعاهد بعد أن مزقه وأمر غلمـانه أن يدلوه الى ظاهر المدينة ففعلوا ذلك وصل المعاهد الى عسكر المسلمين وأتى أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه وحدثه بما كان من القوم ، وقال أيها الأمير ان أكثر القوم عولوا على القتال ، فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه للمسلمين شدوا عليهم ، واعلموا أن هذه المدينة فى وسط أعمالـكم وبلادكم . فان بقيت كانت وبالاعلى من صالحتم ولاتقدرون على سفر ولاعلى غيره ، قال فلبس أصحاب رسول الله ﷺ السلاح والعدد ورجعوا الى الأسوار وعطف أهل بعلبك عليهم وتراموا بالسهام والأحجار ، وان هربيس قد نصب كرسيه وسريره على برج من أبراج القلعة من ناحية النملة ، وقد عصب جراحته ولبس سلاحه ولامته ولبس على رأسه صليبا من الجواهر وحوله البطارقة والدير جانية بالدروع

المذهبة والعدد الكاملة وفى أعناقهم صلبان الذهب والجوهر و بأيديهم القسى والسهام . قال عامر بن وهب اليشكرى شهدت حرب بعلبك ، وقد زحفت المسلمون الى سورها . قال ونشاب الروم كالجراد المنتشر ، وكان أناس من العرب بلا سلاح فأصابهم سهام القوم . قال ورأيت القوم يتساقطون علينا من السور تساقط الطير على الحب فذهبت الى رجل سقط لأضرب عنقه فصاح الغوث الغوث وكنا قد عرفنا من الحرب أن من قال : الغوث يعنى الأمان ، فقلت له ياويلك لك الأمان فما الذى ألقاك الينا من سوركم؟ فجعل يكلمنى بالرومية ، وأنا لاأدرى مايقول . قال عامر ابن وهب اليشكرى فسحبته الى خيمة أبى عبيدة ، وقلت له أيها الأمير : اطلب من يعرف لغة هذا العلج فانى رأيتهم يرمى بعضهم بعضا ، فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه لمن حضر من المترجمة أخبرنا بخبر هذا العلج وماقضيته ، ولم يرمى بعضهم بعضا ؟ فقال له الترجمان ياويلك قد أعطيناك الأمان فاصدقنا فى الكلام وقل لنا لم يرمى بعضكم بعضا ؟ قال ان بعضنا لايرمى بعضا ولكنا من أهل السوارى والقرى ، فلما سمعنا بمسيركم ورجوعكم عن أهل قنسرين التجأنا الى هذه المدينة من جميع الرساتيق لنتحصن فيها لما نعلم من كثرة مابها من الجيش فضيق بعضنا على بعض وسددنا طرقات المدينة ومضى بعضنا الى السور ، فاذا ليس لنا موضع نأوى اليه ولامسكن نسكن فيه فجعلنا الأبراج والأسوار مسكنا لنا . فلما زحفتم الى القتال برز اليكم أهل الحرب والنزال من هذه المدينة فجعلوا يدوسوننا بأرجلهم ، واذا اشتد الحرب عليهم والقتال يدفع الرجل منهم الرجل منا فيلقيه اليكم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما سمع الأمير أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه ذلك فرح فرحا شديدا وقال أرجو من الله أن يجعلهم غنيمة لنا . قال وأخذت الحرب مأخذها وطحنت رحاها وعلا الضجيج وحمى الروم أسوارهم فلم يقدر أحد من المسلمين أن يصل اليها من كثرة السهام والحجارة . قال غياث بن عدى الطائى : حاربنا أهل بعلبك فى أول يوم فأصيب من المسلمين اثنا عشر رجلا ، وأصيب من الروم على السور خلق كثير من أهل الحرب وغيرهم ، وانصرف المسلمون الى رحالهم ومالهم همة الى الطعام ولا الشراب ولا يريد أحد منا الا الاصطلاء بالنار من شدة البرد . قال فبينما نحن ليلتنا نوقد النار ونتناوب فى الحرس الى الصباح ، فلما صلينا الفجر نادى مناد من قبل أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه يقول : عزيمة منى على كل رجل من المسلمين لايبرز الى حرب هؤلاء القوم حتى ينفذ الى رحله و يصلح له طعاما حارا يأكله ليكون بذلك شديدا على لقاء العدو . قال فابتدرنا لاصلاح أمورنا ، فلما نظر أهل بعلبك الى تأخرنا عن حربهم وقتالهم طمعوا فينا وظنوا أن ذلك فشل منا وعجز ، فصاح هربيس فى الروم وقال اخرجوا لهم بارك المسيح فيكم . قال غياث بن عدى : فلم يشعر المسلمون الا والأبواب قد فتحت والخيل والرجال قد طلعت الينا كالجراد المنتشر . قال وكان بعضنا قد مد يده الى الطعام و بعضنا ينضج له القرص واذا بمناد ينادى ياخيل الله اركبى وللجهاد تأهبى ، فدونكم والقوم قبل أن يدهموكم . قال حمدان بن أسيد الحضرمى وكان لى قرص خبزته وقدمت شيئا من الزيت لأجعله اداما للقرص واذا بالمنادى ينادى النفير النفير ، قال فوالله ماراعنى ذلك حتى أخذت قطعة وغمستها فى الزيت وهويت بها الى فمى ، سمعت النفير فقمت مسرعا وركبت جوادى عريانا من دهشتى لسرعة الاجابة وضربت بيدى

على عمود من أعمدة الخيام وحملت على القوم ، فوالله ما شعرت بما صنعت ولا عقلت على نفسى حتى صرت فى الروم فجعلت أحطمهم حطما وأهبرهم بالسيف هبرا . قال فنظرت الى خيل الروم متفرقة والأمير أبو عبيدة قد نصب رايته والناس يهرعون اليها ، وان أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه ينادى برفيع صوته اليوم يوم له مابعده . قال ونظر أبو عبيدة الى شدة ضرب الروم وصبرهم على قتال المسلمين ، فحمل عليهم بالخيل العربية وأحاط بالروم من كل جانب ومكان وكان فى جملة خيله عمرو بن معديكرب الزبيدى وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما وربيعة ابن عامر ومالك بن الأشتر وضرار بن الأزور رضى الله تعالى عنهم وذوالكلاع الحميرى فلله درّهم فلقد قاتلوا قتالا شديدا وأبلوا بلاء حسنا ، فلما نظرت الروم الى فعلهم رجعوا الى أعقابهم طالبين الأسوار وغلقوا الأبواب ، ورجع المسلمون الى عسكرهم وأضرموا نيرانهم ودفنوا من استشهد منهم وأقبلت رؤساء المسلمين الى الأمير أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه وقالوا : أيها الأمير ما الذى قد عزمت عليه وما عندك من الرأى يرحمك الله ؟ فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه : اعلموا أن من الرأى أن نتأخر عن المدينة مقدار شوط فرسخ ليكون ذلك مجالا لخيلكم ومنعة لحريمكم والنصر من عند الله تعالى ، ثم دعا أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه بسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعقد له راية وأمّره على خمسمائة فارس وثلثمائة راجل وأمرهم أن يهبطوا الى الوادى وأن يقاتلوا القوم على الأبواب وأن يشغلوهم عن المسلمين ، ثم دعا ضرار بن الأزور وعقد له راية وأمّره على خمسمائة فارس ومائة راجل وسرحه الى باب الشام ، وقال : يا ابن الأزور أظهر شجاعتك على بنى الأصفر فقاتل من هناك من الروم ، فقال حبا وكرامة . قال ومضت كل فرقة الى جهة من الجهات ، فلما أصبح الصباح فتحت الروم الأبواب وخرجوا فى خلق كثير الى أن تكاملوا حول بطريقهم هربيس . فقال لهم البطريق : اعلموا يامعاشر النصرانية أن أهل هذا الدين من قبلكم قد فشلوا عن قتال هؤلاء العرب وعجزوا عن قتالهم ونزالهم . فقالوا أيها السيد طب نفسا وقرّ عينا فانا كنا نخاف من العرب قبل أن نختبرهم ونعلم قتالهم ، وقد علمنا أنهم اذا لاقوا حربنا لم يكونوا أصبر منا على الحرب ، لأن أحدهم يلقى الحرب وعليه ثوب خلق خام أو فروة خلقة ، ونحن علينا الدروع والزرد وقد وهبنا أنفسنا للمسيح .

[قال الواقدى] فلما نظر أبو عبيدة رضى الله عنه الى كثرتهم نادى برفيع صوته : يامعاشر المسلمين لاتفشلوا فتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين . قال وان الروم داخلهم الخوف لما كانوا قد نالوه من غرّة المسلمين بالأمس فحملوا حملة عظيمة . قال سهل بن صباح العبسى شهدت قتال أهل بعلبك ، وقد خرج الينا أهلها فى اليوم الثانى وهم أطمع مما كانوا فى اليوم الأول وقد حملوا علينا حملة عظيمة شديدة منكرة وكنت فى ذاك اليوم أصابنى جرح فى عضدى الأيمن وما أطيق أن أحرك يدى ولا أحمل سيفا فترجلت عن جوادى وجريت بين أصحابى وقلت فى نفسى اذا قصدنى أحد من هؤلاء الأعلاج لم يكن لى غنى أدفع عن نفسى فطلعت الى ذروة الجبل فعلوته وأشرفت على العسكرين وجعلت أنظر الى حربهم وقتالهم وقد طمعت الروم فى العرب والمسلمون ينادون بالنصر ، وأبو عبيدة يدعولهم بالنصر والتحمت القبائل وافتخرت العشائر قال سهل بن صباح : وأنا على الجبل من وراء حجر أنظر الى ضرب السيوف على البيض والجحف

والشرر يطير من شعاعها وقد التقى الفريقان واختلط الجمعان فقلت فى نفسى ويحى وما عسى أن ينفع المسلمين مقام سعيد بن زيد وضرار بن الأزور على الأبواب والأمير أبوعبيدة فى مثل هذا الحرب وانهم والله على وجل أن ينكشفوا من عظم شدتهم وحربهم وهول مايلقونه قال فأسرعت الى جرائم الشجر فجعلت أكسرها وأعبى الحطب بعضه على بعض وعمدت الى زناد كان معى فأوقدت النار وأضرمتها فيه وعبيت عليه حطبا أخضر ويابسا حتى علا منه دخان عظيم وكانت علامتنا اذا أردنا أن يجتمع بعضنا الى بعض بأرض الشام فى الليل وقود النار واثارة الدخان قال فما هو الا أن علا الدخا وتصاعد الى الأفق حتى نظر اليه سعيد بن زيد وأصحابه وضرار بن الأزور وأصحابه فنادى بعضهم بعضا الحقوا الأمير أباعبيدة رحمكم الله فان هذا الدخان ماهو الامن شىء عظيم ، والصواب أن نكون بخيلنا فى موضع واحد فأسرعوا بخيلهم وساروا حتى أشرفوا على المسلمين وهم فى شدّة الحرب وأعظم الكرب وقد بلغت القلوب الحناجر وعملت السيوف البواتر واذا بمناد هتف بهم : ياحملة القرآن جاءكم النصر من الرحمن ونصرتم على عبدة الصلبان ، واذا قد أشرف عليهم سعيد بن زيد وضرار بن الأزور فى أوائل خيلهم وقد شرعا سنانهما وحملا فى الروم وقد أيقن الروم أنهم الغالبون اذظهرت عليهم رايات المسلمين وكتائب الموحدين فالتفتوا ينظرون ما الخبر ، واذا بالمسلمين من ورائهم وقد حالوا بينهم وبين مدينتهم فنادوا بالويل والخراب وظنوا أنه قد أتى للمسلمين نجدة ومدد وقد غرر بهم البطريق ، فلما نظر البطريق الى تبلدهم زعق فيهم وقال ياويلكم لاترجعوا الى المدينة فقد حيل بينكم وبينها وهذه مكيدة من مكايد العرب ، فلما سمعت الروم ذلك أحاطوا ببطريقهم كالحلقة المستديرة يحمى بعضهم بعضا فعدل بهم البطريق نحو الجبل ذات الشمال ، وكان سعيد بن زيد وضرار بن الأزور قد أقبلا بجيشهما عن يمين الحصن وشماله فحملوا عليهم واتبعوا آثارهم حتى طلعوا الى الجبل والتجأت الروم الى ضيعة فى الجبل حصينة خالية من أهلها فاستند الروم اليها وتحصنوا فيها وتبعهم سعيد بن زيد فى الخمسمائة فارس الذين كانوا معه وذلك أن الامير أبا عبيدة رضى الله عنه لما نظر الى هزيمة الروم نادى فى المسلمين معاشر الناس لايتبعهم أحد ولايفترق جمعكم لأنى أخشى أن تكون هزيمة القوم مكيدة لكم حتى اذا تفرّق جمعكم زحفوا عليكم ، قال وان سعيد بن زيد لم يكن يسمع النداء ، ولوسمع النداء ماتبع القوم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] لما تحصنت الروم فى الضيعة قال سعيد بن زيد : هذه طائفة قد أراد الله هلاكها فدوروا بهم وحاصروا فى كل مكان ولاتدعوا أحدا يطلع رأسه الى أن تلحق بكم المسلمون ويأتى اليكم أمر من الأمير أبى عبيدة ثم أقبل الى رجل من عظماء المسلمين وقال له اخلفنى فى قومى حتى أنظر رأى الأمير أبى عبيدة ومن معه ثم أخذ معه زهاء من عشرين فارسا من أصحابه وسار حتى لحق بجيش المسلمين فلما نظر اليه الأمير أبوعبيدة ومن معه قال ياسعيد أين رجالك وماصنعت بهم ؟ قال أبشر أيها الأمير فان المسلمين فى خير وسلامة وقد حاصروا أعداء الله فى ضيعة فى هذا الجبل ثم أخبره بالقصة من أوّلها الى آخرها . فقال أبوعبيدة : الحمد لله الذى هزمهم عن أوطانهم وجعلهم أشتاتا ، ثم أقبل أبوعبيدة على سعيد بن زيد وعلى ضرار بن الأزور وقال لهما ماهذه المخالفة رحمكم الله ألم آمركم بالاقامة على أبواب المدينة والمشاغلة للقوم فما

الذى ردّكم الى وقد أرعبتم قلبي وقلب من كان معى وظننت أن أهل المدينة كادوكم وهو الذى منعنا أن نتبع المنهزمين . فقال سعيد بن زيد أيها الأمير والله ماعصيت لك أمرا ولاخالفتك فى قول وانى قد وقفت حيث أمرتنى اذ رأينا دخانا قد علا قتامه ولاح لنا بيانه فقلنا والله ماهذه الا داهية من دواهى الروم أونفير قد استدعانا به المسلمون فأسرعنا نحوك فعندها نادى الامير أبو عبيدة فى المسلمين معاشر الناس : أيكم أوقد نارا أودخن دخانا فى هذا الجبل فليجب الأمير أبا عبيدة ؟ قال سهل بن صباح فلما سمعت النداء أجبت المنادى وأتيت الأمير أباعبيدة . فقال ماالذى جرّأك على ذلك فقصصت عليه قصتى . فقال أبو عبيدة لقدوفقك الله تعالى الى الجنة فاياك بعدها أن تحدث حدثا من غير إذن أميرك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فبينما الأمير كذلك يحدث سهل بن صباح واذا برجل من المسلمين منحدر من الجبل وهو ينادى النفير النفير ياأمة البشير النذير أدركوا اخوانكم المسلمين فقد أحاط بهم الروم وهم فى أشد مايكون من القتال وانه قددنا البطريق من المسلمين ونادى بأصحابه ورجاله وقال ياعباد المسيح اليكم هذه الشرذمة اليسيرة والعصابة الحقيرة التى قد أحاطت بكم فاقتلوهم وادخلوا المدينة فانكم ان قتلتم القوم كسرتم بذلك حدّةالعرب وانصرفوا عنكم. قال مصعب بن عدى : وكنت فى بعلبك من أصحاب سعيد بن زيد ، وقد جعلنا محاصرين البطريق والروم فى الضيعة ونحن دون الخمسمائة رجل فما شعرنا الا والبطريق والروم قدتبادروا الينا من كل مكان فنادى بعضنا بعضا واجتمعنا قال والله لقد كبوا علينا الخيل وأحاطوا بنا بعد ماكنا أحطنابهم وكان شعارنا فى ذلك اليوم الصبر الصبر قال فبينما نحن كذلك فى أشد الحرب وأعظم الكرب اذ سمعنا صوتا عاليا قد ملأ الجبل ومناديا ينادى و يقول : أما من رجل يهب نفسه فى الله و يستنفر المسلمين فانهم بالقرب منا ولا يعلمون مانزل بنا . قال مصعب بن عدى : فلما سمعت الصوت همزت جوادى بكعبى ، وكان جواد عتيقا يسبق الريح الهبوب أوالماء اذ انسكب من ضيق الأنبوب وكأنه الطود العظيم ، والله لقد خرج من تحتى كأنه البرق ولم تلحق منه الروم الا الغبار بعد ماقتلت منهم رجلين ، ولقد نظرت الى فرسى ، وهو يثب الصخرة و يسلك الوعرة حتى أشرفت على عساكر المسلمين فناديت النفير النفير ياأمة البشير النذير ، فلما سمع أبو عبيدة ذلك صاح بالرماة . فأجابه خمسمائة رام من أصحاب القسىّ العربية فضمهم الى سعيد بن زيد ، وقال له أسرع يرحمك الله والحق بأصحابك قبل أن يأتى العدوّ اليهم . ثم نادى بضرار بن الأزور وأصحابه ، وقال له أدرك أخاك سعيد بن زيد . قال فسار المسلمون مثل الجراد المنتشر حتى علوا على قلة الجبل وأشرفوا على الروم وهم محدقون بأصحاب رسول الله ﷺ ، وقال أبو زيد بن ورقة بن عامر الزبيدى وكنت ممن شهد القتال على الضيعة مع أصحاب سعيد بن زيد ، وقد أحاطت بنا الروم ، وقد صبرنا لهم صبر الكرام ، وقد صرع منا سبعون رجلا مابين جريح وقتيل ، ونحن فى أشد مايكون من القتال والجراح ، وقد طمعت الروم فينا حتى سمعنا التهليل والتكبير ولحقنا النفير ، فلما أشرفت علينا راية المسلمين رجعت الروم على أعقابهم مدبرين الى الضيعة راجعين ولحقنا من تأخر منهم وكثر فيهم القتل والجراح لكثرتهم وتحصن القوم فى الضيعة فأحطنا بهم من كل جانب وماتركنا منهم أحدا يخرج رأسه من كثرة النبل وورد الخبر الى الأمير أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه بمن

استشهد من المسلمين ومن قتل من الكافرين ، وأن القوم قد لزمهم الحصار ، وأن لازاد عندهم ولاماء ، فقال أبو عبيدة الحمد لله . ثم قال للمسلمين معاشر الناس ارجعوا الى أموالكم واضربوا خيامكم حول المدينة ، فان الله عز وجل كاد عدوّكم ، وهو منجز لنا ماوعدنا من نصره . قال فعندها رجع المسلمون الى أموالهم ومواضعهم التى كانوا فيها أول مرة وضربوا خيامهم وأنفذوا طوالعهم وأرسلوا الى المرعى خيولهم و إبلهم وسرحوا الى الحطب عبيدهم وأضرموا النيران فى عسكرهم وذهب منهم الخوف وأتاهم الأمان ، وان أهل بعلبك افترقوا على السور وجعلوا يضربون على وجوههم و يصيحون بلغتهم ، فقال الأمير أبو عبيدة لبعض التراجمة : مايقول هؤلاء ؟ فقال له الترجمان : أيها الأمير انهم يقولون ياويلهم وياعظم ماأصابهم وياخراب ديارهم ويافناء رجالهم حتى ظفرت العرب ببلادهم .

[قال الواقدى] فلما دنا المساء أرسل الأمير أبو عبيدة الى سعيد بن زيد يقول له : ياابن زيد الحذر الحذر على من معك من المسلمين واجتهد رحمك الله أن لايفوتك من الروم أحد ولاتفسح لهم قدما واحدا فيخرج منهم واحد فيتبع أوّلهم آخرهم ، فتكون كمن حصل فى يده شىء فأضاعه ، فلما وصل الرسول الى سعيد بن زيد بهذه الرسالة ، أمر المسلمين أن يحيطوا بالضيعة من كل جانب ، وأن لايخرجوا الى الحطب الا مائة بالسلاح ففعلوا ذلك وأضرموا نيرانهم وباتوا طول ليلتهم يهللون ويكبرون وبالضيعة يطوفون ، فلما نظر البطريق هربيس الى ذلك أقبل على أصحابه ورجاله وقال لهم : ياويلكم لقد أيسنا من التدبير وأخطأنا الرأى ومالنا مدد ولا نجدة ولانصير ولواجتهدنا لما اجتهدت العرب على أن يحبسونا فى هذه الضيعة ، والآن قد حبسنا أنفسنا فى حبس ليس فيه طعام ولاشراب ، وان دام علينا هذا يوما ثانيا أو ثالثا ضعف قوينا ومات ضعيفنا و بطلت حيلتنا وسلمنا أنفسنا كارهين فنقتل عن آخرنا ، فقالت البطارقة فما الذى ترى أيها السيد ؟ فقال قد رأيت من الرأى أن أخدع العرب وأحتال عليهم وأسألهم الصلح لنا ولأهل مدينتنا كما قد طلبوا وأضمن أن أفتح لهم المدينة ، ونكون فى ذمامهم فاذا دخلنا المدينة حار بناهم على سورنا ولعلنا نرسل الى صاحب عين الجوز والى صاحب جوسية فلعلهما يقدمان الى نصرتنا فيكونان لقتال العرب من خارج المدينة ونحن من أعلى الأسوار ، ويكفينا المسيح هذه النوبة ، فقالت البطارقة : اعلم أيها السيد أن صاحب جوسية لايجيبك الى نجدة أبدا لأنه مشتغل بنفسه وربما يكون محاصرا مثل حصارنا هذا ، فلقد بلغنا قبل نزول هؤلاء العرب علينا أنهم صالحوهم وليس لهم من القدرة والقوّة أن يقاتلوا العرب ، وأما أصحاب عين الجوز فانهم فى تجارتهم متفرقون فى أقصى الشام وماأظن الا أنهم فى صلح العرب ، فانظر لنفسك ورعيتك مافيه الصلاح ، فلما سمع البطريق هربيس قولهم أجابهم الى ذلك ، فلما أصبح الصباح طلع البطريق على جدار الضيعة ونادى برفيع صوته : يامعاشر العرب أما فيكم رجل يعرف كلامى أنا هربيس البطريق ، فلما سمعه بعض التراجمة أقبل على سعيد بن زيد وقال له : يامولاى ان هذا العلج هو هربيس صاحب القوم وهو يستدعى كلامك ، فقال له سعيد بن زيد ادن منه وانظر ماذا يريد ومايقول ؟ قال فدنا الترجمان منه ، فقال له ماالذى تريد ؟ قال أريد أن يؤمننى أميركم هذا فى ذمامه وذمام أصحابه ويدنو منى حتى أخاطبه بما يعود صلاحه على الفريقين ، فقال

الترجمان ذلك لسعيد بن زيد ، فقال سعيد بن زيد : لا كرامة له حتى أدنو منه وأمشي اليه حتى يخاطبني فان كان له حاجة فليأت الى خاضعا ذليلا صاغرا حتى أسمع كلامه وأعلم مراده . قال فأعلم الترجمان هربيس بكلام سعيد بن زيد ، فقال هربيس فكيف أنزل اليه وأنا محارب له فأنا أخاف أن يقتلني ، فقال له الترجمان أنا آخذ لك منه الذمام فان العرب لا تخون اذا أمنت ، فقال البطريق نعم قد تناهت الينا أخبارهم ولكني أريد أن أستوثق لنفسي ولأصحابي وأهل بلدي لأنهم قوم قد لحقهم الحقد علينا وقد أصبنا منهم دما كثيرا و إني أريد أن أرسل له شخصا يأخذ لي منه أمانا ، فقال الترجمان أنا أعرفه ذلك ، ثم أقبل الترجمان على سعيد بن زيد وقال له : ان البطريق هربيس يريد أن يوجه اليك رجلا من أصحابه يأخذ له منك أمانا ، فقال سعيد بن زيد دعه يوجه من يريد وأعلمه أن رسوله منا في أمان حتى يرجع اليه ، قال فأعلمه الترجمان بذلك فأقبل البطريق على رجل من عظماء أصحابه ، وقال له ترى ماقد نزل بنا وكيف قد ملك العرب علينا الطريق وان بلاد الشام قد أذن المسيح بخرابها وقد نصرت العرب علينا وانا في شدة شديدة وان لم نأخذ من القوم الأمان و إلا هلكنا وهلكت خيلنا ، و بعد ذلك يتحكمون في أولادنا وحريمنا ويقتسمون أموالنا وذرارينا وليس لنا نجدة لان كل بلدة مشتغل بنفسه عن نصرتنا فانزل الى هؤلاء العرب وخذ لنا منهم أمانا واستوثق لنا منهم ، حتى أنزل أنا اليهم فلعلنا نجري بينهم صلحا ولعلي أمكر بهم حتى نرجع الى المدينة ، ولعلي أرغب صاحبهم في شيء من المال فلعله يرغب وينصرف عنا الى أن نرى ما يكون بينهم و بين الملك هرقل .

[قال الواقدي رحمه الله تعالى] فنزل الرجل ووقف أمام الأمير سعيد بن زيد وهمّ الرجل أن يسجد له فمنعه من ذلك وتبادرت اليه المسلمون فأمسكوه ففزع الرجل وقال لم تمنعوني أن أعظم صاحبكم ؟ فقال الترجمان ذلك لسعيد بن زيد ، فقال إنما أنا وهو عبدان لله تعالى ولا يجوز السجود والتعظيم الا لله الملك المعبود القديم ، فقال الرجل بهذا نصرتم علينا وعلى غيرنا من الأمم فقال سعيد بن زيد فما الذي جاء بك ؟ قال جئت لآخذ منك أمانا لبطريقنا أن لا تنقض لنا عهدا فقال سعيد بن زيد ليس من أخلاق الأمراء ، ومن يقود الجيوش أن يغدر بعد الأمان ، ولسنا بحمد الله ممن ينقض عهدا ، وقد أعطيت صاحبك أمانا ولمن معه ممن ألقى السلاح وخرج يطلب الأمان مستسلما ، فقال الرجل نريد منك الأمان ومن أميرك وممن معك ، فقال سعيد لكم ذلك ، فعند ذلك رجع الرجل الى البطريق وأعلمه بجواب سعيد . وقال له اخرج وإياكم والغدر فانه يهلك صاحبه ، وان هؤلاء العرب لا يخونون أمانهم وعهدهم .

[قال الواقدي رحمه الله تعالى] ولقد بلغني أن البطريق هربيس خلع ما كان عليه من الثياب والديباج وألقى السلاح ولبس ثياب الصوف وخرج حافيا حاسرا ذليلا ومعه رجال من قومه حتى وقف بين يدي سعيد بن زيد نخر سعيد لله ساجدا وقال الحمد لله الذي أزال عنا الجبابرة وملكنا بطارقتهم وملوكهم ثم أقبل عليه وقال له : ادن مني فدنا الى أن جلس الى جانبه وقال له : أهذا لباسك دائما أم غيرته ، فقال لا وحق المسيح والقربان مالبست الصوف أبدا غير الحرير والديباج ومالبست هذا الا في وقتي هذا فاني ماأريد حربكم ولا قتالكم ثم قال لسعيد هل لك أن تصالحني على أصحابي هؤلاء وعلى أهل المدينة ومن فيها ؟ فقال سعيد أما أصحابك هؤلاء فاني أوفيهم على شرط

أن من دخل فى ديننا فله مالنا ، ومن اختار الاقامة على دينه وألقى السلاح كان آمنا من القتل وعليه العهد أنه لايحمل علينا سلاحا ولا يكون لنا حربا أبدا ، وأما المدينة فالأمير أبوعبيدة عليها وقد فتحها ان شاء الله تعالى ، ثم قال ان أحببت أن تسير معى الى أبى عبيدة حتى يسمع كلامك وتصالح عن قومك فسر وأنت فى ذمامى فان اتفق بينكما الأمر ، والاردتك الى موضعك هذا ومن أراد الرجوع معك من رجالك الى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين . فقال البطريق أنا أفعل ذلك فعندها دعا سعيد بن زيد سعد بن أبى وقاص بن عوف العدوى ، وقال ياابن أبى وقاص كن بشيرا للأمير أبى عبيدة بما سمعت وأسرع بالجواب . قال فأسرع ابن أبى وقاص بن عوف وركب جواده وكان حصانا شديد العدو وجعل يسير سيرا حثيثا حتى أشرف على الأمير أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه ، ووقف بين يديه وسلم عليه ، وقال أصلح الله تعالى شأن الأمير أبشرك بأن البطريق هربيس قد أخذ الأمان من سعيد بن زيد وهو يريد أن يقبل به عليك يسألك الصلح والأمان له ولأهل مدينته ، فلما سمع الأمير ذلك سجد لله شكرا ورفع رأسه ، وقال أيها الناس تقدموا الآن الى قتال أهل المدينة وأظهروا أسلحتكم عليها وكبروا تكبيرة واحدة لكى ترعبوا بها القوم ، قال ففعل المسلمون ذلك فارتجت المدينة وفزع أهل بعلبك وتداعوا للقتال وأحاط المسلمون بالمدينة من كل جانب ، وكان أوّل من سبق الى المدينة وأعطاهم خبر البطريق المرقال ابن عتبة وقال حصنوا أنفسكم وأولادكم وأموالكم بالصلح فان أبيتم ذلك فقد وعدنا الله تبارك وتعالى على لسان نبينا محمد ﷺ أن يفتح لنا بلادكم وأمصاركم وغيرها وان الله تعالى منجز أمره . فلما سمع أهل بعلبك ذلك فزعوا فزعا شديدا واغبرت وجوههم ورعبت قلوبهم وكانت من الحرب أيديهم ، وقالوا : أهلكنا البطريق وأهلك نفسه ولوكنا صالحنا العرب من قبل أن يوجدنا هذا الحصار لكان خيرا لنا . قال وشدد المسلمون عليهم القتال .

[قال الواقدى] فلما علم أبوعبيدة أن نيران الحرب قد أضرمت على المدينة أرسل الى سعيد بن زيد يقول له أسرع بالبطريق الينا وله الأمان الذى أمنت أنت ، فنحن لاننقض لك عهدا ، فلما ورد رسول أبى عبيدة على سعيد بن زيد استخلف على الضيعة رجلا من أصحابه وسار سعيد مع البطريق حتى وردا على الأمير أبى عبيدة رضى الله عنه ، فلما وقف البطريق بين يديه ونظر الى زيه وزى من معه وشهد قتالهم وعظم ماتلقى المدينة من حربهم وقتالهم حرك البطريق رأسه وعض على أنامله . فقال أبوعبيدة رضى الله عنه لترجمانه مالهذا يحرك رأسه ويعض أنامله كأنه يتأسف على شىء فاته ؟ قال فأعلمه الترجمان بذلك فأقبل على الترجمان ، وقال له وحق المسيح ومامسح وحق البيعة والمذبح لقد ظننت أنكم أكثر عددا من الحصى وأكثر مددا ، ولقد كان يخيل لنا عند حربكم وشدّة مانلقى منكم أنكم على عدد الحصى والرمل من كثرتكم ، واقد كنا نرى خيلا شهبا وعليها رجال وبأيديهم رايات صفر وعليهم ثياب خضر فلما صرت بينكم لم أر من ذلك شيئا وما أراكم الافى قلة عدد وماأدرى مافعل جمعكم أبعثتموه الى عين الجوز أوالى جوسية أومكان آخر ؟ فأخبر الأمير الترجمان بذلك . فقال أبوعبيدة للترجمان قل له ياويلك نحن معاشر المسلمين يكثرنا الله تعالى فى أعين المشركين ويمدنا بالملائكة كما فعل بنا يوم بدر ، وبذلك فتح الله تعالى بلادكم وحصونكم علينا وأذلّ ملوككم ، فلما سمع البطريق كلام أبى عبيدة

رضى الله عنه على لسان الترجمان قال : لقد وطئتم الشام الذى عجزت عنه ملوك الفرس والترك والجرامقة وما ظننا أن يكون ذلك أبدا ، وأما مدينتنا فهى حصينة لاتعبأ بالحصار لأنها مدينة ليس بالشام مثلها ، بناها سليمان بن داود عليهما السلام لنفسه وعملها دارمقامه وخزانة لملكه ولولا ماسبق من تفريطنا وخروجنا عنها اليكم وانحرافنا عنها ماصالحناكم أبدا ولا هالنا حربكم ولو أقمتم علينا مائة سنة ، والآن فقد كان ذلك فهل لكم أن تصالحونا حتى نصالحكم فتعدل فينا فهو أقرب رشدا لنا ولكم ، فوحق المسيح والانجيل الصحيح لئن فتحنا لكم هذه المدينة لايصعب عليكم فى الشام حصن ولامدينة ، قال فلما أخبر الترجمان الأمير أبا عبيدة رضى الله عنه بما قاله ، قال أبو عبيدة للترجمان ، قل له ان شاء الله تعالى ملكنا أرضكم ودياركم وأذل لنا ملوككم ، فلابد أن تؤدوا الجزية ، وقد ظننت لنفسك أمانا كاذبا حتى أراك الله الذل والصغار بعد العز والاقتدار ولا بد لنا أن نملك مدينتكم ان شاء الله تعالى ونقتل الرجال ونأسر الأبطال ، فمن أراد حربنا وقتالنا فلايدخل فى صلحنا أبدا ، ولاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . فقال البطريق لما سمع ذلك على لسان الترجمان : لقد تيقنت أن المسيح قد غضب على أهل هذه المدينة إذ بعث بكم اليها وملككم عليها ، وقد اجتهدت فى حربكم ومكرت بكم وما نفع مكرى واجتهادى لأنكم قوم مسلطون ، وانما طلبت منكم السلم وألقيت يدى فى أيديكم بعد جهد منى ، لاشفقة منى على نفسى ولا بقاء منى على ملكى ولكن أردت صلاح البلاد لأن الله تعالى لايحب الفساد ، والآن فهل لكم أن تصالحوا على المدينة ومافيها وعلى أصحابى هؤلاء ؟ فقال له الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه فما الذى تبذل لنا فى صلحك ؟ قال له البطريق : أيها الأمير انظر ما الذى تريد ؟ فقال الأمير أبو عبيدة : لو أن الله فتح على المسلمين من الصلح على هذه المدينة بملئها ذهبا وفضة ما كان أحب الى من سفك دم رجل واحد ، لكن الله تعالى أعطى الشهداء فى الآخرة أكثر من ذلك . فقال البطريق أنا أصالحكم على ألف أوقية من الفضة البيضاء وألف ثوب من الديباج .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فتبسم الأمير أبو عبيدة من كلامه وأقبل على المسلمين وقال لهم أما تسمعون ما يقول هذا البطريق ؟ قالوا نعم ، قال فما رأيكم فيما شرط على نفسه . فقالوا يزيد عليه وشرطه برضينا ، فأقبل الأمير على البطريق وقال له : أنا أصالحكم على ألفى أوقية من الذهب الأحمر وألفى أوقية من الفضة البيضاء وألفى ثوب من الديباج وخمسة آلاف سيف من مدينتكم وسلاح أصحابك الذين هم فى الضيعة محاصرون ، ولنا عليكم خراج أرضكم فى العام الآتى وأداء الجزية فى كل عام وأنتم بعد ذلك لا تحملون علينا سلاحا ولا تكاتبون ملكا ولا تحدثون حدثا ولا كنيسة وترون النصح للمسلمين ، فلما سمع البطريق ذلك من شرط الأمير أبى عبيدة رضى الله عنه . قال لك ذلك كله علينا الا أنى أريد أن أشرط عليك وعلى أصحابك شرطا . فقال له الأمير أبو عبيدة وما شرطك ؟ فقال لايدخل الينا من أصحابك أحد وتنزل صاحبك الذى تستخلفه علينا خارج المدينة بأصحابه ويكون له الخراج والجزية وتدعنى أنا من داخل المدينة من قبل الاصلاح بين الناس والنظر فى أحوالهم ، ونحن نخرج الى من تخلفه علينا من أصحابك سوقا يكون فيه من جميع مافى مدينتنا ، ولا يدخلون الينا مخافة أن يغلظوا بكلامهم على كبرائنا ويفسد الأمر بيننا وبينكم ويكون سببا للغدر ونقض العهد . قال أبو عبيدة : فاذا صالحناكم

نجاهد عدوّكم لأنكم تصيرون فى ذمتنا ويكون الرجل الذى نخلفه عليكم مثل الواسطة والسفير بيننا وبينكم . قال البطريق هو يبس يكون خارج المدينة ويفعل مايشاء أن يفعله من المحاماة . فقال أبو عبيدة : لكم ذلك ومالنا فى الدخول الى مدينتكم من حاجة . فقال البطريق : تمّ الصلح على ذلك ، ثم سار البطريق الى المدينة وأبو عبيدة معه ، فلما وصل الى الباب حسر البطريق عن رأسه ورطن عليهم بلغه الروم فعرفوه عند ذلك ، فقالوا له وأين أصحابك ورجالك فقصّ عليهم قصته وأخبرهم بخبره وخبر أصحابه وأعلمهم بالصلح ، فبكى القوم وقالوا تلفت النفوس وذهبت الأموال . فقال لهم البطريق : ياقوم وحق المسيح ماصالحتهم ولى وجه غير الصلح ، فقالوا له اذهب أنت وصالح عن نفسك . وأما نحن فلن نصالح العرب أبدا ولن ندع أحدا منهم يملكنا ولا يدخل بلادنا ومدينتنا وهى أحصن مدينة فى الشام ، وكان الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه قد أعلم المسلمين بمصالحة البطريق وأمرهم أن يكفوا عن القتال والحرب . فلما سمع الترجمان كلام أهل بعلبك لبطريقهم أخبر الأمير أبا عبيدة رضى الله عنه بذلك ، فأقبل البطريق فقال له أبو عبيدة : هات ماعندك والاتردّ الحرب كما كان . فقال البطريق : دعنى والقوم ، فوحق الانجيل الصحيح وعيسى المسيح لولم يقبلوا منى لأدخلنك بالكثرة اليهم فتضع السيف فيهم وتقتل رجالهم وتسبى نساءهم وتنهب أموالهم لانى خبير بعورات بلدهم وبطرقاتها . قال أبو عبيدة رضى الله عنه ماشاء الله كان . قال وكان الروم على سورهم يسمعون كلام البطريق لأبى عبيدة رضى الله عنه فدخل الرعب فى قلوبهم ، فعند ذلك أقبل البطريق على الروم وقال لهم ماتقولون فى صلح العرب ؟ فانى أسير فى أيديهم ورجالهم وبنو عمكم فى قبضتهم ، فان لم تصالحوا العرب والايقاتلونا جميعا ويرجعوا اليكم من بعدنا . فقالوا أيها السيد : انا لانطيق هذا المال . فقالوا ياويلكم علىّ وحدى ربع ماطلبوا فطابت قلوبهم بذلك وقالوا انا لانفتح الباب الا لك وحدك ولايدخل معك أحد من العرب حتى نصلح مدينتنا ونرفع رحالنا ونخفى حريمنا . فقال البطريق : ويحكم فانى قد صالحت القوم على أن لايدخل مدينتكم أحد منهم ، وان الرجل الذى يخلفونه عليكم يكون هو وأصحابه خارج المدينة وتخرجون اليه سوقا يتسوّقون منه . قال ففرحت الروم بذلك وفتحوا له الباب فدخل اليهم ، وبعث الأمير أبو عبيدة الى سعيد بن زيد أن يخلى عن الرجال الذين هم فى الضيعة محاصرون فخلى سعيد بن زيد سبيلهم وجاء بهم عند الأمير أبى عبيدة وأخذ سلاحهم وتركهم عنده رهائن على المال الذى عندهم لانه خاف ان تركهم أن يرجعوا الى المدينة ويغدروا بالمسلمين ، فتركهم عنده فى عسكره ، هذا والبطريق فى المدينة يجبى المال بعد اثنى عشر يوما وهم مع ذلك يحملون الى عسكر المسلمين الزاد والميرة والعلوفة حتى كملت الأموال والثياب والسلاح وحملها البطريق الى حضرة أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه وقال له تسلم الأموال على ماوافقتك عليه وخلّ عن الرجال ، وانظر الى من تخلفه علينا من أصحابك فأحضره لنا حتى نشرط عليه بحضرتك أن لايجور علينا ولايطالبنا بما لا نطيق ولايدخل مدينتنا . قال فدعا أبو عبيدة برجل من سادات قريش اسمه رافع ابن عبد الله السهمى وقال له : يارافع بن عبدالله استعملتك على هذه المدينة وضم اليك خمسمائة فارس من بنى عمك وعشيرتك وأربعمائة فارس من أخلاط المسلمين ، وانى آمرك بما أمرك الله به فاتق الله حق تقاته ولا تكن الا من الولاة العادلين ، وإياك والظلم والجور فتحشر مع الظالمين .

واعلم أن الله تعالى سائلك عنهم ومطالبك بما تصنع بغير الحق . واعلم أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله تبارك وتعالى أوحى الى موسى بن عمران عليه السلام : أن ياموسى لاتظلم عبادى أخرب بيتك من نفسك » فأقم الأرصاد فى أطراف البلاد فانك بين أعدائك ، و بعد هذا ماعرفتك الا استيقاظا ، وأحذرك من السواحل وشن الغارة عليهم ، ولتكن غارتك فى المائة والمائتين ، ولاتمكن أحدا من المدينة يختلط بأصحابك فى غارة حتى يطمع عدوكم فيه ، وأحسن معاملة من ساعدك وأصلح بينهم وأمرهم بالعدل ، وكن بينهم كأحدهم ، وأمر أصحابك ومن معك أن يكفوا أيديهم عن الفساد والظلم للرعية ، والله تعالى خليفتى عليك ، والسلام عليك .

ذكر حديث نزول المسلمين على حمص

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه ونفعنا به آمين] ثم هم أبو عبيدة رضى الله عنه بالرحيل الى حمص ، واذ قد ورد عليه صاحب عين الجوز يطلب منه الصلح فصالحه على نصف ماصالحه عليه أهل بعلبك وولى عليهم سالم بن ذؤيب السلمى وأوصاه بمثل ما أوصى به رافع بن عبد الله ورحل الأمير أبوعبيدة رضى الله عنه يطلب حمص ، فلما وصل الى بين الرأس والكفيلة لاقاه صاحب الجوسية ومعه هدية كثيرة فقبلها منه وجدد معه صلحا ، وسار الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه حتى نزل على حمص .

[قال الواقدى] حدثنا حبان بن تميم الثقفى . قال : كنت فيمن أقام مع رافع بن عبد الله السهمى فى جملة أصحابه ، وذلك أننا نصبنا بيوت الشعر على العمد وأقمنا خارج المدينة لايدخل اليها أحد منا ، ونحن مع ذلك نشن الغارة على سواحل الروم ونكبس على العرب التى لم تكن فى صلحنا ، وكنا اذا خرجنا فى سرية نبيع الغنائم فى بعلبك ، ففرح أهلها ببيعنا وشرائنا ووجدونا قوما ليس فينا كذب ولا خيانة ولا نريد ظلم أحد وطابت قلوبهم وربحوا فى تلك المدة اليسيرة مالا عظيما ، فلما نظر البطريق هربيس الى مار بح أهل بعلبك منا فى تجارتهم ورخص مايشترونه منا جمعهم اليه فى كنيسة المدينة وهى الجامع اليوم وكان ذلك بميعاد وعدهم فيه الاجتماع ، فلما اجتمعوا عنده أقبل عليهم وقال للتجار والباعة والسوقة : لقد علمتم أنى قد اجتهدت فى أموركم وأحرصت على سلامة نفوسكم وأهاليكم وأولادكم وأنتم تعلمون ماذهب منى من المال ، وأنا اليوم واحد منكم وقد سلبت مالى وسلاحى وقتل أكثر غلمانى ورجالى و بنوعمى وأنتم قوم قد أصبتم مع هؤلاء العرب خيرا كثيرا فى هذه التجارات وقد أديت وحدى ربع المال ، فقالوا صدقت أيها البطريق وقد عرفنا كل ماوصفت فما الذى تريد الآن ؟ فقال ياقوم انما كنت قبل هذا اليوم بطريقكم وأنا اليوم واحد منكم وأريد أن تردوا على بعض مابذلت من المال للعرب . فقالوا أيها البطريق وأنى لك بذلك ؟ فقال البطريق : ياقوم ألست أكلفكم أن تخرجوا من أموالكم ولا مما حوته منازلكم شيئا ، وانما أريد أن تجعلوا فى هذه البيوع والأشرية العشر مما تأخذون وتعطون . قال فاضطرب القوم اضطرابا شديدا لذلك وعظم عليهم وأقبل بعضهم على بعض وقالوا ياقوم هذا رجل منا وصاحب ملكنا وقد اجتهد فى أمورنا وحامى بماله ونفسه عنا وما عسى يصيب منا فى مالنا . قال فأجابوه الى ذلك وجعلوا له عليهم العشر فنصب عليهم من قبله عشارا يأخذ منهم

أعشارهم ويجمعها ويحملها اليه فأقام على ذلك أربعين يوما ، فلما نظر هربيس الى كثرة ماقد اجتمع له من المال العشر قال : أنا أعلم أن هذه المدينة فى كسب عظيم وتجارة رابحة ما رأى أهل بعلبك مثل هذا أبدا ، ثم جمعهم فى الكنيسة مرة ثانية وقال لهم ياقوم قد علمتم مابذلت من المال على صلحكم وهذا الذى تعطونى إياه من العشر ليس يجزينى ، فان أردتم أن تردوا علىّ مالى وتجملونى كأحدكم فاجعلوا لى الربع فى أموالكم حتى يرجع الىّ مالى سريعا والا فنى أخلف من هذا العشر مالى وسلاحى وغلمانى .

[قال الواقدى] فأبى القوم وضجوا عليه وأشهروا عددهم ووقفوا فى الطريق بغلمانه فقطعوهم إربا إربا وارتفع ضجيجهم ، فجزع المسلمون لذلك وهم لايعلمون بالقصة فاجتمعوا الى أميرهم رافع بن عبد الله السهمى وقالوا أيها الأمير : أما تسمع أصوات هؤلاء القوم فى مدينتهم . فقال ياقوم قد سمعت كما سمعتم فما عسى أن أصنع بهم ولا يحل لنا الدخول اليهم ، وبهذا جرى الشرط بيننا وبينهم ، ونحن أحق بمن أوفى بعهدالله تعالى ، فان هم خرجوا الينا وأعلمونا بأمرهم صالحنا بينهم ونظرنا فى أمورهم .

[قال الواقدى] فما استتم الأمير رافع بن عبد الله كلامه حتى خرج أهل بعلبك يهرعون اليه ، فلما وقفوا بين يديه قالوا : إنابالله وبك أيها الأمير ، ثم أعلموه بقصتهم ومافعل البطريق بهم أول مرة وما فعل بهم ثانى مرة . قال رافع بن عبد الله انا لاتمكنه من ذلك ، فقالوا يا أيها الأمير إنا قد قتلناه وجميع غلمانه فصعب ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ . فقال لهم رافع فما الذى تريدون ؟ فقالوا نريد أن تدخلوا الى المدينة فانا قد أطلقنا لكم الدخول اليها . فقال رافع بن عبد الله أنا لا أقدر أن أدخل المدينة الا باذن الأمير أبى عبيدة لأنه ما أذن لى بذلك ، ثم كتب رافع بن عبدالله الى الأمير أبى عبيدة يعلمه بالقصة وبحديث البطريق وبحديثهم الذى قالوه ، فكتب له بالدخول الى المدينة كماقد أذنوا له فدخل رافع وأصحابه .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا موسى بن عامر قال حدثنا يونس بن عبد الله قال حدثنا سالم بن عدىّ عن جده عبدالرحمن بن مسلم الربيعى ، وكان ممن حضر فتوح الشام أوّله وآخره . قال : لما فتح الله بعلبك على يد المسلمين وترك أبو عبيدة رافع بن عبد الله وتوجه الى حمص للحوق بخالد بن الوليد ، فلما قرب من حمص موضع يقال له الزراعة وجه على مقدمة جيشه ميسرة بن مسروق العبسى وعقد له راية سوداء معلمة بالبياض ، وضم اليه خمسة آلاف فارس من المسلمين ، فلما سار ميسرة حتى وصل الى حمص خرج خالد بن الوليد رضى الله عنه الى لقائه وسلم عليه وعلى من معه من المسلمين ، ثم بعث أبو عبيدة بعده ضرار بن الأزور فى خمسة آلاف فارس وبعث بعده عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وقدم أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه ببقية الجيش ، فلما أشرف أبو عبيدة على حمص قال : اللهم عجل علينا فتحها واخذل من فيها من المشركين واستقبلهم المسلمون بأجمعهم وسلموا عليه وعلى من معه ، ونزل أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه على النهر المقلوب ، فلما استقرّ به القرار كتب الى أهل حمص وبطريقها الجديد وهو هربيس كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبى عبيدة عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه على الشام وقائد جيوشه : أما بعد فان الله تعالى قد فتح علينا بلادكم

ولايغرنكم عظم مدينتكم وتشييد بنيانكم وكثرة رجالكم ، فما مدينتكم عندنا اذا أتاكم الحرب الا كالبرمة قد نصبناها فى وسط عسكرنا وألقينا اللحم فيها وجميع العساكر يتوقع الأكل منها وقد داروا بها ينتظرون نضجها وأكل مافيها ، ونحن ندعوكم الى دين ارتضاه لنا ربنا عز وجل ، فان أجبتم الى ذلك ارتحلنا عنكم وخلفنا عندكم رجالامنا يعلمونكم أمر دينكم ومافرض الله تعالى عليكم ، وان أبيتم الاسلام قررناكم على أداء الجزية ، وان أبيتم الاسلام والجزية فهلموا الى الحرب والقتال حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ، ثم طوى الكتاب وسلمه الى رجل من المعاهدين ، وكان ذلك الرجل يحفظ بالعربية والرومية وقال له انطلق الى حمص وائتنا بالجواب ، فأخذ المعاهد الكتاب وسار حتى وصل الى السور فهمّ أهل حمص أن يرموه بالسهام والحجارة . فقال لهم بالرومية : ياقوم أمسكوا عليكم فأنا رجل معاهد وقد جئتكم بكتاب من هؤلاء العرب .

[قال الواقدى] فدلوا له حبلا فربط وسطه به وشالوه اليهم وأتوا به الى بطريقهم ، فلما وقف بين يديه خضع له وناوله الكتاب . فقال له البطريق أرجعت عن دينك الى دين هؤلاء العرب ؟ قال لا ، ولكن فى ذمتهم وعهدتهم أنا وأولادى وأهلى ومالى وما رأينا من القوم الاخيرا والصواب عندى أن لا تقاتلوهم ، فان القوم أولو بأس شديد لا يخافون ولا يرهبون الموت قد تمسكوا بدينهم والموت عندهم أفضل من الحياة ، وقد أقسم القوم بدينهم لايبرحون عن مدينتكم حتى تسلموها اليهم أو يفتحها الله على أيديهم ، وحق دينى انكم أحب الىّ من العرب وأريد النصر لكم دون القوم ، ولكنى خائف عليكم من بأسهم وسطوتهم فسلموا تسلموا ولا تخالفوا تندموا .

[قال الواقدى] فلما سمع البطريق هربيس كلامه غضب غضبا شديدا ، وقال وحق المسيح والانجيل الصحيح لولا أنك رسول لأمرت بقطع لسانك على جراءتك علينا ، فلما قرأ الكتاب وعلم مافيه أمر كاتبه أن يكتب الى الأمير أبى عبيدة بجواب كتابه فكتب كلمة الكفر . ثم قال يامعاشر العرب انه وصل الينا كتابكم وعلمنا مافيه من التهديد والوعد والوعيد ولسنا كمن لاقيتم من أهل الشام ولم يزل الملك هرقل يستنصر بنا على من عاداه وعلى من قصد اليه من العساكر والآن فلابدّ لنا من الحرب والقتال ، فان سورنا شديد وأبوابنا حديد وحربنا عتيد والسلام . وطوى الكتاب وسلمه الى المعاهد وأمر غلمانه أن يدلوه بالحبال من السور وسار حتى وصل الى الأمير أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه وسلمه الكتاب ففضه ، وقرأه فلما سمع المسلمون مافيه عوّلوا على الحرب والقتال وقسم الأمير أبو عبيدة عسكر المسلمين أربع فرق فبعث فرقة مع المسيب بن نجية الفزارى فنزل بهم على باب الجبل ممايلى باب الصغير ، وبعث فرقة أخرى مع المرقال بن هشام بن عقبة بن أبى وقاص فنزل بهم على باب الرستق ، وبعث فرقة أخرى مع يزيد بن أبى سفيان فنزل بهم على باب الشام ونزل الأمير أبو عبيدة وخالد بن الوليد رضى الله تعالى عنهما على باب الصغير وزحف المسلمون اليهم من كل مكان وقاتلوهم بقية يومهم هذا وسهام الروم تصل اليهم فيتلقونها بالجحف ونبال العرب تصل اليهم والى من بأعلى السور فأثرت لأجل ذلك ضررا فانفضوا عند المساء ، فلما كان الغد جمع خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه كل عبد كان فى عسكر المسلمين وأمرهم أن يتقلدوا بالسيوف ويتنكبوا بالجحف ويزحفوا الى سور حمص ويضربوا السور بأسيافهم ويتلقوا السهام بجحفهم . فقال الأمير أبو عبيدة : وماعسى أن

يغنى عنا هذا ياأبا سليمان ، فقال خالد رضى الله عنه على رسلك أيها الأمير ولاتخالفنى فيما صنعت فانى عزمت أن أقاتلهم بالعبيد ونعلمهم أن ليس لهم عندنا من القدر شئ فـانقاتلهم بأنفسنا الاأن يخرجوا الينا ، فقال أبو عبيدة رضى الله عنه افعل ماشئت فالله تعالى يوفقك ، فعند ذلك أمرهم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه بالزحف على الأسوار وكانوا أربعة آلاف عبد ، وأمر خالد ألفا من العرب أن تترجل معهم ففعلوا ذلك وزحفوا على السور ، وقد استتروا بالجحف والعرب من ورائهم فرموا بالنبل وضربوا بسيوفهم فنها ماتثلم ، ومنها ماانـكسر .

[قال الواقدى] وأشرف عليهم هربيس صاحب حمص ، وقد دارت بطارقته وأصحاب الرتب جعلوا يتأملون الى أفعالهم ، فقال هربيس يامعاشر البطارقة وحق المسيح ماظننت أن العرب بهذه الصفة واذاهم كلهم سودان . فقال له بعض من لحقه بأجنادين وسائر المواطن لاأيها السيد بل هؤلاء عبيدهم وهذه من بعض مكايد العرب فى الحرب وقد قدم هؤلاء السودان والعبيد الى حربنا وقتالهم معنا ، وأن ليس لنا عندهم من القدر أن يلقونا بأنفسهم أونخرج اليهم ، فقال هربيس وحق المسيح ان هؤلاء أشد من العرب بأسا وأقوى مراسا واعلموا أنه مالزق قوم بسور مدينتنا ولادنوا منها الاوقدهان عليهم أمرها واقترب على أيديهم فتحها .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ولقد بلغنى أن العبيد قاتلوا يومهم قتالا شديدا وهجموا على الأبواب مرارا ولم يزالوا بقية يومهم حتى أقبل الليـل ورجعت الموالى الى عسكر المسلمين وبعث هربيس من ليلته رسولا الى الأمير أبى عبيدة رضى الله عنه فأقبل الرسول والظلام معتكر فأحس جيوش المسلمين به فهموا به ، فقال أنا رسول من البطريق هربيس صاحب حمص وأريد الجواب عن هـذا الـكتاب فسلم اليهم كتاب هربيس فأخذه أبو عبيدة رضى الله تعالى عنـه وقرأه ، فاذا فيه : يامعاشر العرب أنا ظننا ان عنـدكم عقلا تدبرون به الحرب وتستعينون به على الأمور ، واذا أنتم بخلاف ذلك لأنـكم فى أول حربكم لنا تفرقتم على الأبواب ، فقلنا هـذا أشد مايكون من الحصار وأعظم مايقدرون عليـه من الاضرار ، فلمـا كان الغد تأخرتم عن حربنا وبعثتم هؤلاء المساكين الى حربنا يقطعون أسيافهم ويكسرون سلاحهم فياليت شعرى هل تصبر سيوفهم على فساد سورنا ، وقد بان لنا عجز رأيكم وتدبيركم فى القتال وملاقاة الرجال والآن فأنا أشير عليـكم بأمر فيه الصلاح لنا ولـكم ، وهو أن تسيروا الى الملك هرقل وتفتحوا مابين أيديكم كما فتحتم ماوراءكم واياكم واللجاج والبغى فانهما قاتلان لمن اتبعهما وراجعان على من بدأ بهما أونحن نخرج اليـكم صبيحة هذه الليلة والله ينصر من يشاء منا ومنـكم من على الحق . قال فلما قرأ الأمير أبوعبيدة كتاب هربيس صاحب حمص استشار المسلمين فيما يصنع ، وكان قد حضر عنده رجل كبير من أكابر خثعم وسيد من ساداتهم اسـمه عطاء بن عمرو الخثعمى ، وكان كبير السن قديم الهجرة سديد الرأى قد قاد الرجال وولى أمر الجيش وحزم العساكر ، فلمـا سـمع كتاب هربيس وثب قائمـا على قدميه ، وقال للإمير أبى عبيدة رضى الله عنـه : أقسمت عليك أيها الأمير برسول الله ﷺ الاماسمعت مقالى ، فان فيه صلاحا للمسلمين فالله وفقنى لمقالة وأيد المسلمين بها ، قال أبوعبيدة رضى الله تعالى عنه : قل ياأبا عمرو فأنت عندنا ناصح للمسلمين . قال فدنا من الأمير أبى عبيدة وسارره ، وقال له أصلح الله الأمير اعلم أن خبرك عند هؤلاء منذ نزلت

على هؤلاء الشام وهذا البطريق أشد منعة وأعظم جولة ممن كان قبله ، وقد علم بفتوح بعلبك وأنك لابدّ أن تنزل على حصارها ، وقد استدعى بالطعام والعلوفة وآلة الحصار ، وقد شحنها بالرجال وما ترك فى رساتيقها وقراها طعاما الاوقد خزنوه ، عندهم ما يكفيهم أعواما ، وان نحن حاصرناهم يطول الأمر كما طال أمرنا على دمشق ، والرأى عندى أن تخدعهم بخديعة وتحتال عليهم بحيلة . فان تمت لنا عليهم الحيلة فتحنا المدينة عن قريب ان شاء الله تعالى . قال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه: وما الحيلة عندك يا ابن عمرو ؟ فقال الرأى عندى أن نكتب الى هؤلاء القوم أن يجبرونا بالزاد والعلوفة ونضمن لهم أن نرتحل عنهم الى أن يفتح الله تعالى عليك غير مدينتهم ونرجع اليهم ، وقد قلّ زادهم وانتشروا فى سوادهم وتفرقوا فى أمصارهم وتجاراتهم ونشنّ عليهم غارة فنملك ماظهر منهم ويهون عليك أمر من بقى فى حمص مع قلة الزاد والعلوفة ، فقال أبو عبيدة أصبت الرأى يا ابن عمرو انى سوف أفعل ماذكرته ونرجو من الله التوفيق والعون . ثم دعا أبو عبيدة رضى الله عنه بدواة و بياض وكتب جواب الكتاب يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فانى رأيت فى قولك صلاحا لنا ولكم ولسنا نريد البغى على أحد من عباد الله عز وجل . وقد علمت أن عسكرنا كثير وخيلنا وابلنا كثير ، فان أردتم أن نرتحل عنكم فابعثوا لنا ميرة خمسة أيام وأنتم تعلمون أن الطريق الذى أمامنا بعيد وما نلقى بعدكم الا كل حصن منيع وأبواب حديد فاذا أمرتمونا رحلنا عنكم الى بعض مدائن الشام ، فاذا فتح الله علينا بعض مدائن الشام رجعنا عنكم كما زعمتم ، فان فعلتم ذلك كان صلاحا لكم . وطوى الكتاب وسلمه الى الرسول وسار الى حمص ، فلما قرأ هربيس الكتاب فرح بذلك وجمع الرؤساء والرهابين ، وقال لهم اعلموا أن العرب قد بعثوا يطلبون منكم الزاد والميرة حتى يرحلوا عنكم فان العرب مثلهم كمثل السبع اذا وجد فريسته لم يرجع الى غيرها ، وهم قد لحقهم الجوع فى مدينتكم ، واذا أشبعناهم انصرفوا عنا . فقالوا أيها الأمير : نخاف من العرب أن يأخذوا الزاد والعلوفة ولا يرحلوا عنا . فقال : انا نأخذ لكم عليهم العهود والمواثيق انكم اذا أمرتموهم يرحلون عنكم . فقالوا : افعل مابدالك ، واستوثق لنا ولك . قال فبعث هربيس وأحضر القسوس والرهبان وأمرهم أن يخرجوا الى الأمير أبى عبيدة رضى الله عنه ويأخذوا عليهم العهود والمواثيق اذا أمرناهم يرحلون عنا ، قال فخرجوا وقد فتح لهم باب الرستن فساروا حتى وصلوا الى الأمير أبى عبيدة وأخذوا عليهم ميثاقا وعهدا أن يرحلوا عنهم اذا هم ماروهم ولا يرجع عليهم حتى يفتح الله على يديه مدينة من مدائن الشام شرقا أو غربا سهلا كان أو جبلا ، فقال الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه : قد رضيت بذلك وتمّ الصلح على ذلك ، وأخرج لهم أهل حمص مما كانوا قد أدخروه من الزاد والعلوفة شيئا عظيما له ولعسكره ما يكفيهم مدة خمسة أيام ، فأقبل أبو عبيدة عليهم ، وقال يا أهل حمص قبلنا ما احتملوه لنا من الزاد والعلوفة ، فاذا رأيتم الآن أن تبيعوا من الزاد والعلوفة ، فقالوا نحن نفعل ذلك ، فعندها نادى الأمير أبو عبيدة بشراء الزاد والعلوفة ولتكثروا من ذلك ، فان قدّامكم طريقا واسعا قليل الزاد والعلوفة ، فقالوا أيها الأمير بماذا نشترى الزاد ، وعلى أىّ شئ نحمله ؟ فقال أبو عبيدة من كان معه شئ من الذى غنمتموه من الروم فليشتر به الزاد والعلوفة . قال حسان بن عدى الغطفانى خفف الله عن أبى عبيدة الحساب

كما خفف عنا ما كنا نحمله من البسط والطنافس مما كان قد اثقلنا وأثقل دوابنا فأخذنا به الزاد والعلوفة من القوم وكانت العرب تسمح لهم فى البيع والشراء ويشترى منهم أهل حمص مايساوى عشرين دينارا بدينارين ورغب أهل حمص فى شراء الرخيص ولم يزل أهل حمص كذلك ثلاثة أيام وأهل حمص فرحون برحيل العرب عنهم . قال وكان للروم فى عسكرالعرب جواسيس وعيون يأخذون لهم الأخبار، فلما نظرت الجواسيس الى أهل حمص ، وقد فتحوا مدينتهم وهم يميرون العرب ظنوا أنهم دخلوا فى طاعتهم فسارت الجواسيس الى انطاكية طالبين وجعلوا كلما اجتازوا ببلد من البلاد أوحصن من الحصون يقولون ان أهل حمص قد دخلوا فى طاعة العرب وفتحوا مدينتهم صلحا فكان يعظم ذلك على الروم ويزيدهم خوفا ورعبا ، وكان ذلك توفيقا من الله عز وجل للسلمين ، وكانت الجواسيس أربعين رجلا فدخل ثلاثة رجال منهم الى شيزر فأشاعوا ذلك وأشيع فيها ذلك .

ذكر فتح الرستن

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وسار الأمير أبو عبيدة بالعسكر حتى نزل على الرستن فرآها حصنا منيعا وماؤها غزير وهى مشحونة بالرجال والعدد العديد فبعث اليهم رسولا يأمرهم أن يكونوا فى ذمته فأبوا ذلك ، وقالوا لا نفعل حتى نرى ما يكون من أمركم مع الملك هرقل ، وبعد ذلك يكون ماشاء الله تعالى ، فقال الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه فانا متوجهون الى قتال الملك هرقل ومعنا رجال وأمتعة قد أثقلتنا واشتهينا أن نودعها عندكم الى وقت رجوعنا ، قال فأتى أهل الرستن الى بطريقهم ، وكان اسمه نقيطاس وشاوروه فى ذلك ، فقال ياقوم مازالت الملوك والعساكر يودع بعضهم بعضا ومايضرنا ذلك ، ثم بعث الى الأمير أبى عبيدة يقول له مهما كان لك من حاجة فنحن نقضيها ونريد منكم المراعاة لأهل سوادنا حتى نرى ما يكون من أمركم مع الملك هرقل ، فقال الأمير أبو عبيدة : ونحن نفعل ان شاء الله تعالى .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] عن ثابت بن قيس بن علقمة . قال كنت ممن حضر عند أبى عبيدة رضى الله عنه ، فعند ذلك دعا بأهل الرأى والمشورة من أصحاب رسول الله ﷺ وقال لهم ان هذا حصن شديد منيع ليس لنا الى فتحه سبيل الا بالحيلة والخديعة وأريد أن أجعل منكم عشرين رجلا فى عشرين صندوقا وتكون الأقفال عندهم من باطنها ، فاذا صاروا فى المدينة فثوروا على اسم الله تعالى فانكم تنصرون على من فيها من المشركين ، فقال خالد بن الوليد . فاذا عزمت على ذلك فلتكن الأقفال ظاهرة ويكون أسفل الصناديق أنثى فى ذكر من غير شئ يمسكها فاذا حل أصحابنا فى حصن من هؤلاء القوم يخرجون جملة واحدة ويكبرون . فان النصر مقرون بالتكبير ، فأجابه أبو عبيدة الى ذلك وأخذ صناديق الطعام المنتخبة عند الروم ففض أسافلها وجعلها ذكرا فى أنثى فأول من دخل فى الصناديق ضرار بن الأزور والمسيب ابن نجية وذوالكلاع الحميرى وعمرو بن معديكرب الزبيدى والمرقال وهاشم بن نجعة وقيس بن هبيرة وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ومالك بن الأشتر وعوف بن سالم وصابر بن كاكل ومازن ابن عامر والأصيد بن سلمة وربيعة بن عامر وعكرمة بن أبى جهل وعتبة بن العاص ودارم بن

فياض العبسى وسلمة بن حبيب والفارع بن حرملة ونوفل بن جرعل وجندب بن سيف وعبد الله ابن جعفر الطيار وجعله أميرا عليهم وسلموا الصناديق الى الروم ، فلما حطت الصناديق فى الرستن ألقاها نقيطاس فى قصر امارته ، وارتحل الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه وسار حتى نزل فى قرية يقال لها السودية ، فلما أظلم الليل بعث خالد بن الوليد رضى الله عنه بجيش الزحف الى الرستن ينظر ما يكون من أصحابه ومافعلت الصحابة رضى الله عنهم فسار خالد بن الوليد برجاله حتى وصل القنطرة واذا بالصياح قدعلا والتهليل والتكبير من داخل مدينة الرستن .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] كان من أمر الصحابة أنه لما تركهم نقيطاس فى دار امارته ركب الى البيعة مع بطارقته وأهل مدينته ليصلوا صلاة الشكر ، لأجل رحيل المسلمين عنهم وارتفعت أصواتهم بقراءة الانجيل وسمع أصواتهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نخرجوا من الصناديق وشدوا على أنفسهم ، وشهروا سلاحهم وقبضوا على امرأة نقيطاس وحريمه وقالوا نريد مفاتيح الأبواب فسلمتها اليهم ، فلما حصلت المفاتيح فى أيديهم رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير وكبس القوم على أبواب مدينتهم فلم يجسروا عليهم لأنهم بدون عدة وسلاح وبعث عبد الله بن جعفر الطيار ربيعة بن عامر والأصيد بن سلمة وعكرمة ابن أبى جهل وعتبة بن العاص والفارع بن حرملة وسلم اليهم المفاتيح ، وقال افتحوا الأبواب وارفعوا أصواتكم بالتهليل والتكبير ، فان اخوانكم المسلمين من حول المدينة كاملون فتبادر الخمسة الى الباب القبلى وهو باب حمص وفتحوه ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ودخلوا المدينة واذاهم بعسكر الزحف ، وعلى المقدمة خالد بن الوليد رضى الله عنه فأجابوهم بالتهليل والتكبير ودخلوا المدينة وسمع أهل الرستن أصوات أصحاب رسول الله ﷺ فعلموا أنهم فى قبضتهم وان مدينتهم قد أخذت من أيديهم فاستسلموا جميعا وخرجوا اليهم وقالوا لهم انا لا نقاتلكم ونحن الآن أسرى لكم فاعدلوا فينا فأنتم أحب الينا من قومنا . قال فعرض خالد بن الوليد رضى الله عنه الاسلام عليهم فأسلم منهم كثير وبقى الاكثر يؤدون الجزية ، وأما أميرهم نقيطاس فانه قال لا أريد بدينى بدلا . فقال له خالد بن الوليد رضى الله عنه الآن فاخرج بأهلك عنا وحدث قومك بعدلنا فأخرجوه من الرستن فتوجه بأهله وأمواله الى حمص ، وأعلم أهلها بفتح الرستن فصعب ذلك على أهل حمص وعلموا أن العرب تصبحهم أوتمسيهم بالغارة وبعث عبدالله بن جعفر الطيار الى أبى عبيدة يخبره بالفتح والنصر فسجد لله شكرا وبعث اليهم ألف رجل من اليمن ووصاهم بحفظ الرستن وأمر عليهم هلال بن مرة اليشكرى ، فلما استقروا بالرستن رحل خالد بن الوليد رضى الله عنه وعبد الله بن جعفر وأهلهم وعسا كرهم وتوجهوا الى حماة وكان أهل حماة فى صلح المسلمين كما ذكرنا وكذلك أهل شيزر الا أن بطريق أهل شيزر مات وبعث اليهم الملك هرقل بطريقا عاتيا جبارا اسمه نكس ففسخ الصلح وأذاق أهل شيزر ضرا وشرا وكان يصادرهم ويأخذ أموالهم ويحتجب عنهم لاهيا فى أكله وشربه ، فلما بلغ الخبر الأمير أباعبيدة بعث خيلا جريدة الى شيزر فغارت الخيل على بلدهم ووقعت الضجة بشيزر وسمع البطريق نكس الضجة فنزل اليهم من قلعته وأظهر لهم بعض حجابه وجلس فى بيعتهم المعظمة عندهم وجمع الرؤساء منهم وقال لهم يا أهل شيزر أنتم تعلمون أن الملك هرقل قد استخلفنى عليكم أحفظ مدينتكم

وأمنع عن حريمكم وأموالكم ثم فتح خزانة السلاح وفرّق عليهم العدد وأمرهم بالحرب والقتال فبينما القوم كذلك اذ أشرف عليهم خالد بن الوليد فى أصحابه ومعه جيش الزحف فنزلوا بأزائهم وأشرف بعده يزيد بن أبى سفيان بأصحابه فنزل عليهم وأشرف بعده الأمير أبوعبيدة فى عساكره جميعهم ، فلما نظر أهل شيزر تلاحق العساكر بهم هالهم ذلك وعظم عليهم وحارت أبصارهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما نظر أبوعبيدة رضى الله عنه كتب الى أهل شيزر كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ياأهل شيزر فان حصنكم ليس بأمنع من حصن بعلبك ولا من الرستن ولا رجالكم أشجع فاذا قرأتم كتابى هذا فادخلوا فى طاعتى ولاتخالفونى فيكون وبالا عليكم وقد بلغكم عدلنا وحسن سيرتنا فكونوا مثل سائر من صالحنا ودخل فى طاعتنا من سائر بلاد الشام والسلام . وطوى الكتاب وسلمه الى رجل من المعاهدين وبعثه اليهم فلما وصل الكتاب اليهم أعطوه بطريقهم نكس فقرئ عليه ، فلما فهم مافيه قال ماتقولون ياأهل شيزر فيما ذكرت العرب ؟ فقالوا صدقت العرب أيها البطريق الكبير فان حصننا ليس بأمنع من الرستن ولا بعلبك ولادمشق ولا بصرى وأنت أعلم شدّة أهل حمص وحدة شجاعتهم ، وقد صالحوا العرب وكذلك أهل فلسطين ومدنها والأردن وحصنها ، فكيف تمنع عنهم شيزر وهى حصن لطيف فان عصيت هؤلاء العرب فانك معوّل على هلاكنا وخراب مدينتنا .

[قال الواقدى] وكثر فيهم الخطاب وعلا الكلام وأقبل البطريق نكس يسبّ أهل شيزر وأمر غلمانه بضربهم ، فلما نظر أهل شيزر ذلك غضبوا وأظهروا سلاحهم عليه وعلى غلمانه ووقع القتال بين الفريقين فعرف المسلمون ذلك وقالوا اللهم أهلكهم ببأسهم ولم يزل أهل شيزر فى القتال حتى نصروا على البطريق وعلى غلمانه وقتلوهم عن آخرهم ، ثم أخرجوا الى الأمير أبى عبيدة رضى الله عنه رجالا الى لقائه بغير سلاح ، فلما وقفوا بين يدى الأمير أبى عبيدة سلموا عليه وقالوا أيها الأمير انا قتلنا بطريقنا فى محبتكم ، قال يا أهل شيزر بيض الله وجوهكم وأدرّ رزقكم فقد كفيتمونا الحرب والقتال ، ثم قال للمسلمين ألا ترون الى حسن طاعة هؤلاء الروم وفعالهم ببطريقهم فى محبتكم والدخول فى طاعتكم ، وقد رأيت من الرأى أن أحسن الى القوم وأنعم عليهم . فقال المسلمون نعم مارأيت حتى يصل ماتصنع الى غيرهم ويفتح الله علينا البلاد ان شاء الله تعالى .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فأقبل على أهل شيزر ، وقال أبشروا فانى لست أكره أحدا منكم فمن أحبّ منكم الدخول فى ديننا فله مالنا وعليه ماعلينا والخراج موضوع عنكم سنتين ومن أقام على دينه فعليه الجزية وقد وضعنا عنه الخراج سنة كاملة ، ففرح الروم بذلك ، وقالوا أيها الأمير سمعنا وأطعنا وهذا قصر بطريقنا فأنت أحق بما فيه وهو هدية منا اليك فدونك واياه وما فيه من الرجال ، والآنية والأموال ، فأخرج أبو عبيدة رضى الله عنه منها الخمس وقسم الباقى على المسلمين بالسوية ، ونادى أبوعبيدة رضى الله عنه يامعاشر المسلمين قد فتح الله على أيديكم هذه المدينة أيسر فتح وأهونه ، وقد خرج أهل حمص من ذمتكم ووفيتم لهم ماعاهدوكم عليه فارجعوا بنا عليهم رحمكم الله تعالى .

[قال الواقدي رحمه الله تعالى] فركب المسلمون ظهور خيولهم وهموا بالمسير واذقد لاح لهم غبرة مرتفعة من وراء النهر المقلوب وهي منقلبة من طريق انطاكية وقد أخذت عرضا فأسرعت خيل المسلمين اليها ، فاذا معها قسيس كبير من قسوس الروم ومعه مائة برذون موسوقة بالأحمال ومن حولها مائة علج من علوج الروم يحفظونها .

[قال الواقدي رحمه الله تعالى] ولم يكن للقسيس خبر بنزول المسلمين على شيزر فصاح بهم خالد بن الوليد رضي الله عنه وكبر المسلمون معه وأحدقوا بهم من كل جانب وأخذوا العلوج أسرى وأخذوا البراذين ، وأقبل خالد على القسيس ، وقال له ياويلك من أين أقبلت بهذه الاحمال . قال فرطن القسيس بالرومية فلم يدر خالد مايقول هذا القسيس الميشوم ، فبدا اليه رجل من أهل شيزر وقال ياأيها الأمير انه يذكر أنه من القسوس المعظمة عند الملك هرقل ، وقد بعثه وبعث معه الى هربيس هذه الأحمال فيها ديباج أحمر منسوج بقضبان الذهب وعشرة أحمال مملوءة دنانير وباقي الأحمال مملوءة من الثياب والدنانير فأخذوها وأخرجوا منها مالاعظيما وغنم المسلمون غنيمة عظيمة لم يغنموا مثلها ، وساق خالد بن الوليد الأحمال الى الامير أبي عبيدة رضي الله عنه فوجده على النهر المقلوب ممايلي شيزر وتحته عباءة قطوانية وعلى رأسه مثلها تظله من حر الشمس فأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه بالقسيس فأوقفه بين يديه . فقال أبو عبيدة رضي الله عنه ماهذا ياأبا سليمان . فقال خالد رضي الله عنه انهم قوم من انطاكية ومعهم هدية لهربيس صاحب حمص من كلب الروم هرقل .

[قال الواقدي رحمه الله تعالى] وعرض عليه الغنيمة ففرح الأمير أبو عبيدة بها فرحا شديدا وقال ياأبا سليمان لقد كان فتح شيزر علينا مباركا ، ثم دعا بترجمان كان معه لايفارقه ، وقال اسأل هؤلاء عن كلب الروم الطاغية هرقل هل هو في جمع كثير أم لا ؟ فكلم الترجمان القسيس ساعة فقال القسيس قل للأمير ان الملك هرقل قد بلغه أنكم فتحتم دمشق وبعلبك وجوسية وأنكم لم تنزلوا على حمص فبعث معي هذه الهدية الى هربيس البطريق وكتب اليه يأمره بقتالكم ويعده بالنجدة وقدوم العساكر اليه لأن الملك هرقل قد استنجد عليكم كل من يعبد الصليب ويقرأ الانجيل فأجابته الروسية والصقالبة والأفرنج والأرمن والدوقس والمغليط والكرج واليونان والعلف والغزنة وأهل رومية وكل من يحمل صليبا والعساكر قد وصلت الى الملك هرقل من كل جانب ومكان قال فحدث الترجمان الأمير أبا عبيدة رضي الله عنه بكل ماأعلمه القسيس به فعظم ذلك على الأمير أبي عبيدة وعرض على القسيس الاسلام ، فقال القسيس للترجمان قل للامير أبي عبيدة إني البارحة رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وقد أسلمت على يديه ففرح الأمير أبو عبيدة بذلك وعرض على الأعلاج الاسلام فأبوا ذلك فضربت رقابهم ، ورحل أبو عبيدة رضي الله عنه متوجها الى حمص ، وقد سير الخيل جريدة في مقدمته فما يشعر أهل حمص الا والخيل قد أغارت عليهم فرجع القوم الى المدينة وقد غلقوا الأبواب ، وقالوا غدرت العرب وحق المسيح . قال ونزل المسلمون حول حمص وداروا بها من كل جانب ومكان ، وقد نفذ الزاد من المدينة وأكثر أهلها قد خرجوا الى تجارتهم وفي طلب الميرة ، وقد تفرقوا في البلاد فلما نزل الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه على حمص ، دعا بالعبيد والموالي وأمرهم أن يتفرقوا على الطرقات

والمحارس وقال لهم كل من وجدتموه قد رجع الى حمص بزاد أو تجارة فائتونى به ، ففعل العبيد ذلك ، وصعب على هربيس صاحب حمص وكتب الى الأمير أبى عبيدة كتابا يقول فيه : أما بعد يامعاشر العرب فانا لم نخبر غشكم بالغدر ولا بنقض العهد ، ألستم صالحتمونا على الميرة فبرنا كم ، فطلبتم منا البيع فابتعنا كم فلم نقضتم ماعاهدناكم عليه ؟ فكتب الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه يقول : أريد أن ترسل الى القسوس والرهبان الذين أرسلتهم الىّ حتى أوقفهم على ما عاهدتهم عليه ليعلموك أننا لم نغدر ولا مثلنا من يفعل ذلك ان شاء الله تعالى ، فلما قرأ هربيس الكتاب أحضر القسوس والرهبان وبعث بهم الى الأمير أبى عبيدة ، فخرجوا اليه وفتح لهم باب حمص وساروا الى أن وصلوا للأمير أبى عبيدة ، فسلموا عليه وجلسوا بين يديه ، فقال لهم أبو عبيدة رضى الله عنه ألم تعلموا أنى عاهدتكم وحلفت لكم أنى منصرف عنكم حتى أفتح مدينة من مدائن الشام سهلا كان أو جبلا ، ثم يكون الرأى لى ان شئت رجعت اليكم أو سرت الى غيركم فقالوا بلى وحق المسيح ، فقال لهم ان الله تعالى قدفتح علينا شيزر والرستن فى أهون وقت ، وقدغنمنا الله مال بطريقهم نكس وغيره مما لم نؤمله فى هذه المدة اليسيرة والآن فلاعهد لكم عندنا ولا صلح الا أن تصالحونا على فتح المدينة وتكونوا فى ذمتنا وأماننا ، فقال القسوس والرهبان لقد صدقت أيها الأمير ليس عليكم لوم وقد وفيتم بذمتكم ، وقد بلغنا فتحكم شيزر والرستن والخطأ كان منا اذ لم نستوثق لأنفسنا والآن الأمر بيد بطريقنا ونحن نرجع اليه ونعلمه بذلك ، ثم رجعوا الى مدينتهم ودعا الأمير أبوعبيدة رضى الله عنه بالرجال والأبطال وأهل الحرب ، وقال خذوا أهبتكم فان القوم بلا زاد ولامدد يأتى اليهم من عند طاغيتهم ولانجدة فاستعينوا بالله وتوكلوا على الله قال فلبس المسلمون السلاح والعدد ورجعوا الى الأبواب والأسوار واجتمع أهل حمص ببطريقهم هربيس وقالوا ماعندك من الرأى فى أمر هؤلاء العرب . فقال الأمر عندى أن نقاتلهم ولانريهم منا ضعفا قالوا فان الزاد قد نفد من مدينتنا ، وقد أخذه القوم منا وما سمعنا بمثل هذه الحيلة ، فقال هربيس مالكم تعجزون عن حرب عدوّكم وماقتل منكم قتيل ولاجرح منكم جريح ولم تصبكم شدّة ولاجوع ، وانما أصابوا منكم على غرّة ولودخلوا المدينة لما قدروا عليكم وأقلّ الرجال على السور يكفيكم اياهم وعندى من الزاد فى قصرى مايعم كثيركم المدّة الطويلة وما أحسب أن الملك هرقل يغفل وسيبلغه خبركم ويوجه العساكر .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان عند البطريق هربيس فى قصره جبّ عظيم مملوء طعاما ففتحه وفرّق الطعام على أهل حمص فسكنت بذلك نفوسهم وجعل البطريق يفرّق على كبيرهم وصغيرهم بقية يومهم ذلك ، وقد انحصر أهل حمص جميعهم فنفد ذلك اليوم نصف مافى الجبّ وقال لهم اقنعوا بما أعطيتكم ثلاثة أيام وابرزوا الى حرب عدوّكم ، ثم أخذوا أهبة الحرب وعرض عسكره وانتخب منهم خمسة آلاف فارس من أولاد الزراوزة والعمالقة لايساويهم غيرهم فيهم ألف مديجة ملكية وفتح خزانة جسده جرجيس وفرّق عليهم الدروع والجواشن والبيض والمغافر والقسى والنشاب والحراب وأقبل يحرّضهم على القتال ويوعدهم بالمدد والنجدة من الملك هرقل ثم دعا بالقسوس والرهبان وقال لهم خذوا أهبتكم وادعوا المسيح أن ينصرنا على العرب فان دعاءكم لايحجب ولا يردّ قال فدخلوا كنيستهم المعظمة عندهم وهى كنيسة جرجيس

وهى الجامع اليوم ونشروا المزامير وضجوا بالتهمير وأقبلوا يبتهلون بكلمة الكفر وباتوا بقية ليلتهم على مثل ذلك ، فلما كان الصباح دخل هربيس الى البيعة وتقرّب وصلوا عليه صلاة الموتى فدخل قصره وقدّم له خنوص مشوى فأكله حتى أتى على آخره وقدّم بين يديه باطية الذهب والفضة فشرب حتى انقلبت عيناه فى أم رأسه ثم لبس ديباجا محشوا بالفرو والزرد الصغار المضعف العدد ولبس فوقها درعا من الذهب الأحمر وعلق فى عنقه صليبا من الياقوت وتقلد بسيف من صنعة الهند وقدم له مهر كالطود العظيم فاستوى على ظهره ، وخرج من قصره طالبا باب الرستن فأحاطت به بطارقته من الروم من كل جانب ومكان ، وفتحت أبواب حمص وخرجت الروم فى عددهم وعديدهم وراياتهم وصلبانهم وبين يدى هربيس خمسة آلاف فارس من علوج الروم وهم بالعدد العديد ، والزرد النضيد ، فصفهم هربيس أمام المدينة كأنهم سدّ من حديد ، أوقطع الجلمود ، وقد وطنوا نفوسهم على الموت دون أموالهم وذراريهم فتبادر المسلمون اليهم مثل الجراد المنتشر ، وحملوا عليهم حملة عظيمة والعلوج كأنهم حجارة ثابتة ماولوا عن مواضعهم ولا فكروا فيما نزل بهم ، فعندها صاح البطريق هربيس على رجاله وزجرهم فتبادرت الروم وصاح بعضهم ببعض وركب المسلمون وحملوا عليهم ورشقوا الرجال بالسهام واشتبكت الحرب واختلط الفريقان واقتتلوا قتالا شديدا ماعليه من مزيد ، الاأن المسلمين رجعوا القهقرى ، وقد فشا فيهم القتل والجراح ، فلما نظر الأمير أبوعبيدة الى ذلك من هزيمة المسلمين عظم عليه وكبر لديه وصاح فيهم بصوته يابنى القرآن الرجعة الرجعة بارك الله فيكم فهذا يوم من أيام الله تعالى فاحملوا معى بارك الله فيكم فتراجع الناس وحملوا على أهل حمص حملة عظيمة وشدّوا عليهم الحملة ، وحمل خالد بن الوليد رضى الله عنه فى جمع كثير من بنى مخزوم وجعلوا يضربون فيهم بسيوفهم ويطعنون برماحهم حتى طحنوهم طحن الحصيد ووضع المسلمون فيهم السيف ، وحمل ابن مسروق العبسى فى طائفة من قومه من بنى عبس ، وقد رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير وصدموا الروم صدمة عظيمة فتراجعت الروم الى الأسوار وقد فشافيهم القتل ، فضربت الروم بلغاتها وتراجعت على المسلمين وأحاطوا بهم من كل جانب ومكان ورشقت العلوج بالنشاب وطعنوا فى المسلمين بالحراب ، وقد استتروا بالدرق والطوارق . قال فلما نظر خالدبن الوليد الى ذلك برز باللواء وكان هو صاحب اللواء يوم حمص وصاح خالد بأصحابه وقال شدوا عليهم بالحملة بارك الله فيكم فانها والله غنيمة الدنيا والآخرة . قال فبينما خالد بن الوليد يحرض أصحابه على القتال اذحمل عليه بطريق من عظماء الروم وعليه لامة مانعة وهو يهدر كالأسد فحمل خالد بن الوليد عليه وضربه على رأسه فوقع سيفه على البيضة فطار السيف من يد خالد بن الوليد وبقيت قبضته فى يده فطمع العلج فيه وحمل عليه ولاصقه حتى حك ركابه بركاب خالد وتعانقا جميعا بالسواعد والمناكب فضم خالد العلج الى صدره واحتضنه بيده وشدّ عليه بقوّته فطحن أضلاعه وأدخل بعضها فى بعض فأرداه قتيلا ، وأخذ خالد سيف العلج وهزه فى يده حتى طار منه الشرر ووضع رأسه فى قربوس سرجه وحمل وصاح فى بنى مخزوم فحملوا حملة عظيمة وهاجوا فى أوساطهم وخالد بن الوليد رضى الله عنه يفرّقهم يمينا وشمالا وهو ينادى برفيع صوته : أنا الفارس الصنديد ، أنا خالد بن الوليد صاحب رسول الله ﷺ ، ولم يزالوا فى القتال الشديد الذى ماعليه من مزيد حتى توسطت الشمس فى كبد السماء وحمى الدرع على

خالد بن الوليد رضى الله عنه فخرج من المعركة و بنو مخزوم يتقاطرون من خلفه والدم يسيل ملء درعهم وسواعدهم كأنها شقائق الأرجوان ، وخالد بن الوليد رضى الله عنه فى أوائلهم وهو يقول :

ويل لجمع الروم من يوم شغب   إنى رأيت الحرب فيه تلتهب

وكم لقوا منا مواقع النصب   وكم تركت الروم فى حال العطب

قال فناداه الأمير أبو عبيدة : لله درك يا أبا سليمان لله درك لقد جاهدت فى الله حق جهاده ، فلما نظر المرقال بن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص الى غفلة الروم صاح فى بنى زهرة وحملوا فى ميمنة الروم وحمل ميسرة بن مسروق العبسى فى قومه وحمل عكرمة بن أبى جهل وحوله جمع كثير من بنى مخزوم ، وحمل المسلمون بأجمعهم وقد اطلعوا على الشهادة وأيقنوا بالعناية .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلم يكن يوم حمص أشد حربا ولا أقوى جلدا من بنى مخزوم غير أن عكرمة بن أبى جهل كان أشدهم بأسا وإقداما وهو يقصد الأسنة بنفسه فقيل له اتق الله وارفق بنفسك ، فقال ياقوم أنا كنت أقاتل عن الأصنام ، فكيف اليوم وأنا أقاتل فى طاعة الملك العلام وإنى أرى الحور متشوقات الى ولو بدت واحدة منهن لأهل الدنيا لأغنتهم عن الشمس والقمر ولقد صدقنا رسول الله ﷺ فيما وعدنا ، ثم سل سيفه وغاص فى الروم ولم يزدد الا إقداما وقد عجبت الروم من حسن صبره وقتاله . فبينما هو كذلك اذ حمل عليه البطريق هربيس صاحب حمص و بيده حربة عظيمة تضيء وتلتهب وهزها فى كفه وضربه بها فوقعت فى قلبه ومرقت من ظهره فانجدل صريعا وعجل الله تعالى بروحه الى الجنة ، فلما نظر خالد بن الوليد الى ابن عمه وقد وقع صريعا أقبل حتى وقف عليه و بكى ، وقال ياليت عمر بن الخطاب نظر الى ابن عمى صريعا حتى يعلم أنا اذا لاقينا العدو ركبنا الأسنة ركوبا . قال ولم يزالوا فى الأهوال الشديدة حتى هجم الليل عليهم وتراجعت الروم الى مدينتهم وغلقوا الأبواب وطلعوا على الأسوار ورجعت المسلمون الى رحالهم وخيامهم وباتوا ليلتهم يتحارسون ، فلما أصبح الصباح قال الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه : معاشر المسلمين مابالكم قد صدكم هؤلاء القوم ؟ وبعد الطمع فيهم مابالكم هزمتم وجزعتم منهم والله ألبسكم عافية مجللة وسلامة سابغة وأظفركم على بطارقة الروم وفتح لكم الحصون والقلاع ، فما هذا التقصير والله تعالى مطلع عليكم ؟ فقال خالد بن الوليد رضى الله عنه : هؤلاء فرسان الروم أشد الرجال ليس فيهم سوقة ولا جبان ، وقد تعلم أنهم يكونون أشد فى الحرب لأنهم يمنعون عن الذرارى والنسوان . فقال أبو عبيده رضى الله عنه : فالرأى عندك يا أبا سليمان يرحمك الله ؟ . فقال خالد بن الوليد رضى الله عنه : أيها الأمير قد رأيت من الرأى أننا ننكشف للقوم غدا وندع لهم سوائمنا وابلنا فاذا تباعدنا عن مدينتهم وتبعتنا خيلهم وتباعدوا عن مدينتهم وصاروا معنا عطفنا عليهم ومزقناهم بالأسنة ونقطع ظهورهم لبعدهم عن مدينتهم . فقال أبو عبيدة : نعم الرأى مارأيت يا أبا سليمان ولقد أشرت وأحسنت . قال وتواعد المسلمون على أن ينكشفوا بين أيدى الروم وأن يتركوا لهم سوائمهم ، فلما أصبح الصباح فتحت أبواب حمص وخرجت الروم من جميع الأبواب وزحفوا يريدون القتال ، فسألهم العرب كفوا القتال وأروهم التقصير والخوف وأطمعوهم فى أنفسهم وجعلوا ينحرفون عن قتالهم حتى تضاحى النهار وانبسطت الشمس وطاب

الحرب وطمعت الروم فى المسلمين لما بان لهم من تقصيرهم فشدّ الروم بالحملة عليهم ، فانهزمت العرب من بين أيديهم وتركوا سوائمها .

قال نوفل بن عامر حدثنا عرفجة بن ماجد التميمى عن سراقة النخعى وكان ممن حضر يوم حمص . قال لما انهزمت العرب أمام الروم وتبعنا هربيس البطريق فى خمسة آلاف فارس على خمسة آلاف أشهب وكانوا أشدّ الروم . قال سراقة بن عامر وانهزمنا أمام القوم كأننا نطلب الزراعة وجوسية ، وأدركتنا البطارقة وبعضهم مال الى السواد طمعا فى الزاد والطعام .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان بحمص قسيس كبير السن عظيم القدر عند الروم قد حنكته التجارب وعرف أبواب الحيل والخداع ، وكان عالما من علماء الروم وقد قرأ التوراة والانجيل والزبور والمزامير وصحف شيث وابراهيم ، وأدرك بعض حوارىّ عيسى ابن مريم عليه السلام ، فلما أشرف ذلك القسيس ونظر الى العرب وقد ملك الروم سوادهم جعل يصيح ويقول وهو ينادى : وحق المسيح إن هذه خديعة ومكر ومكيدة من مكايد العرب ، وان العرب لاتسلم اولادها وابلها ولو قتلوا عن آخرهم . قال وجعل القسيس يصيح وأهل حمص قد وقعوا فى النهب وليس يغنيهم سوى الزاد والطعام ، والبطريق هربيس قد ألح فى طلب المسلمين فى خمسة آلاف فارس ، فلما أبعدوا عن المدينة صاح الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه برفيع صوته اعطفوا على الروم كالسباع الضارية والعقبان الكاسرة فردوا عليهم كردوسا واحدا حتى أحاطوا بالبطريق وأصحابه من كل جانب وداروا بهم مثل الحلقة المستديرة وأحدقوا بهم كاحداق البياض بسواد العين ، وبقيت الروم فى أوساطهم كالشامة السوداء فى الثور الأبيض فعند ذلك نصبت العلوج نشابها على العرب ، والمسلمون يكرون عليهم مثل الأسود الضارية ويحومون عليهم كما تحوم النسور ويضربونهم بالسيوف ويصرعونهم يمينا وشمالا حتى انكسر أكثرهم .

[قال عطية بن فهر الزبيدى] فلما نظرت الروم الى فعلنا بهم تكالبت علينا ، فلما حميت الحرب ابتدر خالد بن الوليد رضى الله عنه من وسط العسكر وهو على جواد أشقر وعليه جوشن مذهب كان لصاحب بعلبك أهداه له يوم فتح بعلبك ، وكان خالد بن الوليد رضى الله عنه قد عمم نفسه بعمامة حمراء وكانت تلك العمامة عمامته فى الحرب وجعل يهدر كالأسد الحردان وقد انتضى سيفه من غمده وهزه حتى طار منه الشرر ونادى برفيع صوته : رحم الله رجلا جود سيفه وقوى عزمه وقاتل أعداءه فعندها انتضب المسلمون سيوفهم وصدموا الروم صدمة عظيمة ونادى الأمير أبو عبيدة يابنى العرب قاتلوا عن حريمكم ودينكم وأموالكم فان الله مطلع عليكم وناصركم على عدوّكم . قال وكان معاذ بن جبل قد انفرد فى خمسمائة فارس الى السواد والأموال وانقض على الروم فما شعرت الروم والعلوج ممن انغمس فى الغارة وحمل الزاد والرحال والأمتعة الا والطعن قد أخذهم بأسنة الرماح من كل جانب كأنها ألسنة النار المضرمة ونادى مناد يافتيان العرب اطلبوا الباب لئلا ينجو أحد من الروم برحالنا وأولادنا ، فجعل المسلمون يطلبون الأبواب وكانت علوج الروم قد غرقت فى رحال المسلمين ، فلما نظروا الى معاذ وقد حمل عليهم فى رجاله عادت وقدرمت الرحال وطلبت الهرب فانفلت منهم من انفلت وقتل من قتل . قال صهيب بن سيف الفزارى : فوالله ما انفلت من الخمسة آلاف الذين كانوا مع هربيس صاحب حمص الاماينوف عن مائة

فارس . قال واتبعنا القوم الى الأبواب فكان أعظم المصيبة قتلنا إياهم على الأبواب ، لان أكثر الرجال من العواصم وغيرهم كانوا فى المدينة . قال سعيد بن زيد : شهدت يوم حمص وكنت ممن أولع بعدد القتلى فعددت خمسة آلاف وستة غير أسير وجريح فدنوت من الأمير أبى عبيدة رضى الله عنه وقلت البشارة أيها الأمير فانى عددت خمسة آلاف وستة غير أسير وجريح . فقال الأمير أبو عبيدة بشرت بخير ياسعيد يا ابن زيد فهل ترى قتل بطريقهم هربيس . فقال سعيد بن زيد : أيها الأمير اذا كان قتل بطريقهم هربيس فما قتله غيرى . فقال الأمير أبو عبيدة وكيف علمت انه قتيلك ياسعيد . فقال سعيد بن زيد : أيها الأمير انى رأيت فارسا عظيم الخلقة طويلا ضخما أحمر اللون و بيده سيف وعليه لامة حربه صفتهما كذا وكذا وهو فى وسط الروم كأنه البعير الهائج فحملت عليه وقلت فى حملتى : اللهم انى أقدّم قدرتك على قدرتى وغلبتك على غلبتى : اللهم اجعل قتله على يدى وارزقنى أجره . فقال له أبو عبيدة أما أخذت سلبه ياسعيد . قال لا ، ولكن علامتى فيه نبلة من كنانتى أثبتها فى قلبه فخرّ يهوى عن جواده ونفرت عنه أصحابه فلحقته فضربته بسيفى ضربة فصرمت حقوته ونبلتى فى قلبه . قال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه أدركوه رحمكم الله وسلموا سلبه الى سعيد ففعلوا ذلك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما أخذت الحرب أوزارها أخذ المسلمون الأسلاب والدروع والشهابى ومثلوا الجميع أمام الأمير أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه فأخرج منها الخمس لبيت مال المسلمين وقسم الباقى على المجاهدين . قال ووقع الصياح والبكاء فى حمص على من قتل منهم من فرسان الكفار ورجالهم . قال واجتمع مشايخ حمص ورؤساؤهم الى بيعتهم وتحدثوا مع القسوس والرهبان على أن يسلموا حمص الى المسلمين ، وخرج علماء دينهم ورؤساؤهم الى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه وصالحوه على تسليم المدينة اليه وأن يكونوا تحت ذمامه وأمانه ، فصالحهم أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه ، وقال لست أدخل مدينتكم حتى نرى ما يكون بيننا و بين الملك هرقل وأراد أهل حمص أن يكرموا المسلمين بالاقامة والعلوفة فنهاهم الأمير أبو عبيدة عن ذلك ولم يدخل أحد من المسلمين الى حمص الا بعد وقعة اليرموك كل ذلك ليتقرب المسلمون الى الروم بالعدل وحسن الصحبة .

[قال جرير بن عوف] حدثنا حميد الطويل . قال حدثنى سنان بن راشد اليربوعى . قال حدثنا سلمة بن جريج قال حدثنا النجار وكان ممن يعرف فتوح الشام ، قال لما صالحنا أهل حمص بعد قتل هربيس خرج أهل حمص ودفنوا قتلاهم فافتقدنا القتلى الذين استشهدوا من أصحاب رسول الله ﷺ فوجدنا من استشهد من المسلمين مائتين وخمسة وثلاثين فارسا كلهم من حمير وهمدان إلا ثلاثين رجلا من أهل مكة : وهم عكرمة بن أبى جهل وصابر بن جرىء والريس بن عقيل وصفوان بن عامر والمنهال بن عامر السلمى ابن عم العباس رضى الله عنه ، وجمح بن قادم ، وجابر بن خويلد الربعى ، فهؤلاء من المسلمين الذين استشهدوا يوم حمص والباقون من اليمن وهمدان ومن أخلاط الناس .

ذكر وقعة اليرموك

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] واتصلت الأخبار الى الملك هرقل أن المسلمين ، قد فتحوا حمص والرستن وشيزر ، وقد أخذوا الهدية التى بعثها الى هر بيس البطريق فبلغ ذلك منه دون النفس وأقام ينتظر الجيوش والعساكر من أقصى بلاد الروم لأنه قد كان كاتب كل من يحمل الصليب فمضى عليه الأيام قلائل حتى صار أول جيوشه عنده بانطاكية وآخرها فى رومية الكبرى وانه بعث جيشا الى قيسارية ساحل الشام يكون حفظه على عكاه وطبرية و بعث بجيش آخر الى بيت المقدس وأقام ينتظر قوم ماهان الأرمنى ملك الأرمن ، وقد جمع من الأرمن مالايجمعه أحد من أهالى الملك هرقل ، و بعد أيام قدم على الملك هرقل للقائه فى أرباب دولته ، فلما قرب منه ترجل ماهان وجنوده وكفروا بين يديه ورفعوا أصواتهم بالبكاء والنحيب بما وصل اليهم من فتح المسلمين بلادهم فنهاهم عن ذلك ، وقال ياأهل دين النصرانية و بنى ماء المعمودية قد حذرتكم وخوفتكم من هؤلاء العرب ولم تقبلوا منى فوحق المسيح والانجيل الصحيح والقربان ومذبحنا المعمدان لابدّ لهؤلاء العرب أن يملكوا ماتحت سريرى هذا والآن البكاء لايصلح الا للنساء ، وقد اجتمع لكم من العساكر مالم يقدر عليه ملك من ملوك الدنيا ، وقد بذلت مالى ورجالى كل ذلك لأذبّ عنكم وعن دينكم وعن حريمكم فتوبوا للمسيح من ذنوبكم وانووا للرعية خيرا ولاتظلموا وعليكم بالصبر فى القتال ولايخاصم بعضكم بعضا واياكم والعجب والحسد فانهما مانزلا بقوم الا ونزل عليهم الخذلان وانى أريد أن أسألكم وأريد منكم الجواب عما أسألكم عنه ، فقالت العظماء من الروم والملوك : اسأل أيها الملك عما شئت . قال انكم اليوم أكثر عددا وأغزر مددا من العرب وأكثر جمعا وأكثر خياما وأعظم قوة فمن أين لكم هذا الخذلان وكانت الفرس والترك والجرامقة تهاب سطوتكم وتفزع من حربكم وشدتكم ، وقد قصدوا اليكم مرارا ورجعوا منكسرين والآن قد علا عليكم العرب وهم أضعف الخلق عراة الأجساد جياع الاكباد ولاعدد ولاسلاح ، وقد غلبوكم على بصرى وحوران وأجنادين ودمشق و بعلبك وحمص قال فسكت الملوك عن جوابه ، فعندها قام قسيس كبير عالم بدين النصرانية ، وقال أيها الملك أما تعلم لم نصرت العرب علينا ؟ قال لا وحق المسيح ، فقال القسيس أيها الملك لأن قومنا بدلوا دينهم وغيروا ملتهم وجحدوا باجابة المسيح عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه وظلموا بعضهم وليس فيهم من يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر وليس فيهم عدل ولا احسان ولايفعلون الطاعات وضيعوا أوقات الصلوات وأكلوا الربا وارتكبوا الزنا وفشت فيهم المعاصى والفواحش ، وهؤلاء العرب طائعون لربهم متبعون دينهم رهبان بالليل صوّام بالنهار ولايفترون عن ذكر ربهم ولا عن الصلاة على نبيهم وليس فيهم ظلم ولاعدوان ولايتكبر بعضهم على بعض شعارهم الصدق ودثارهم العبادة ، وان حملوا علينا لايرجعون ، وان حملنا عليهم فلايولون ، وقد علموا أن الدنيا دار الفناء ، وأن الآخرة هى دار البقاء .

[قال الواقدى] فلما سمع القوم والملك هرقل ماقاله القسيس ، قالوا : وحق المسيح لقد صدقت ، بهذا نصرت العرب علينا لامحالة ، واذا كان فعل قومنا ماذكرت فلاحاجة لى فى نصرتهم

وانى قد عوّلت أن أصرف هــذه الجيوش والعساكر الى بلادها وآخذ أهلى ومالى وأنزل من أرض سورية وأرحل الى أسبوك ، يعنى القسطنطينية فأكون هناك آمنا من العرب ، قال فلما سـمع القوم ذلك من الملك صفوا بين يديه ، وقالوا أيها الملك لاتفعل ولاتخذل دين المسيح فيطالبك بذلك يوم القيامة وتعيرك الملوك بذلك ويستضعفون رأيك وأيضا تشمت بنا أعداؤنا اذا أنت خرجت من جنة الشام وسكن بعدنا فيها العرب ، وقد اجتمع لنا مثل هــذا الجيش الذى مااجتمع لملك من ملوك الدنيا ، ونحن نلقى العرب ونصبر على قتالهم ولعــل المسيح أن ينصرنا عليهم فاعزم وقدّم من شئت واتركنا ننهض الى قتال العرب . قال ففرح الملك هرقل بقولهم ونشاطهم وعوّل على أن يبعث الجيش مع خمسة ملوك من الروم ، فأول ماعقد لواء من الديباج المنسوج بالذهب الأحمر وعلى رأسه صليب من الجوهر وسلمه الى قناطير ملك الروسية وضم اليه مائة ألف فارس من الصقالبة وغيرهم وخلع عليه وتوجه ومنطقه وسوّره ، ثم عقد لواء آخر من الديباج الأبيض فيه شمس من الذهب الأحمر وعلى رأســه صليب من الزبرجد الأخضر وسلمه الى جرجير وهو ملك عمورية وماورية وخلع عليه وسوّره ومنطقه وضم اليه مائة ألف فارس من الروم والفرادنة ومن سائر الأجناس الرومية ، ثم عقد لواء ثالثا من الدسترى الملوّن عليه صليب من الذهب الأحمر وسلمه الى الديرجان صاحب القسطنطينية وضم اليه مائة ألف فارس من المغليط والأفرنج والقلن وخلع عليه ومنطقه وسوّره . ثم عقد لواء رابعا مرصعا بالدرّ والجوهر عليه قبضة من الذهب وعليه صليب من الياقوت الأحمر وســلمه الى ماهان ملك الأرمن وكان يحبه محبة عظيمة لأنه كان من أهل الشجاعة والتدبير ، وقد قاتل عساكر الفرس والترك وهزمهم مرارا فلما عقدله لواء خلع عليه الثياب التى كانت عليــه وتوجه وسوّره ومنطقه وقلده بالقلائد التى لايتقلد بها إلا الملوك الأكابر ، وقال له ياماهان :قد وليتك على هذا الجيش كله ولاأمرعلى مرأيك ولاحكم على حكمك . ثم قال لقناطير وجرجير والديرجان وقورين وهم ملوك الجيش : اعلموا أن صلبانكم تحت صليب ماهان وأمركم اليه فلا تصنعوا أمرا الابمشورته ورأيه واطلبوا العرب حيث كانوا ولاتفشلوا ، وقاتلوا عن دينكم القديم وشرعكم المستقيم وافترقوا على أربع طرق فانكم ان أخذتم على طريق واحــدة لم تسعكم وتهلكوا الأرض ومن عليها . ثم خلع على جبلة بن الأيهم الغسانى وضم اليه العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام ، وقال لهم : كونوا فى المقــدمة ، فان هلاك كل شئ بجنسه والحديد لايقطعه الاالحديد ، ثم أمر القسوس أن يغمسوهم فى ماء المعمودية ويقرءوا عليهم و يصلوا عليهم صلاة الموتى .

[قال **حدثنا**] نوفل بن عدى عن سراقة عن خالد . قال أخبرنا قاسم مولى هشام بن عمرو ابن عتبة ، وكان ممن حضر فتوح الشام كله ، قال : فكانت جملة من بعث الملك هرقل الى اليرموك من العساكر ستمائة ألف فارس من سائر طوائف أهل الكفر ممن يعتقد الصليب .

[قال **وحدثنا**] جرير بن عبدالله عن يونس بن عبد الأعلى أن جملة من بعث الملك هرقل سوى جيش انطاكية الى اليرموك سبعمائة ألف فارس . قال راشد بن سعيد الحيرى كنت أحضر اليرموك من أوّله الى آخره ، فلما أشرفت علينا عساكر الروم باليرموك نحونا صعدت على محل من الأرض مرتفع وأقبلت الروم بالرايات والصلبان فعددت عشرين راية . فلما استقرت الروم

باليرموك بعث الأمير أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه روماس صاحب بصرى ليحزر عدد القوم . قال فتنكر روماس وغاب عنا يوما وليلة ، ثم عاد الينا . فلما رأيناه اجتمعنا عنده وسأل أبو عبيدة روماس عن ذلك . فقال أيها الأمير سمعت القوم يذكرون أن عددهم ألف ألف فلاأدرى أهم يتحدثون بذلك ليسمع جواسيسنا ويحدثوا بذلك أم لا ؟ فقال أبو عبيدة ياروماس كم عهدك بهم وكم يكون تحت كل راية من عساكر الروم ؟ فقال أيها الأمير : أماماعهدت فى عساكر الروم فتحت كل راية خمسون ألف فارس ، فلما سمع أبو عبيدة ذلك . قال الله أكبر أبشروا بالنصر على الأعداء ، ثم قرأ الآية ــ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ــ

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ثم ان الملك هرقل لما قلد أمر جيوشه ماهان ملك الأرمن وأمره بالنهوض الى قتال المسلمين ركب الملك هرقل وركب الروم وضربوا بوق الرحيل وخرج الملك هرقل ليتبع عساكره على باب فارس وسار معهم يوصيهم ، وقال لقناطير وجرجير والديرجان وقورين : ليأخذ كل رجل منكم طريقا وأمر كل واحد منكم نافذ على جيشه . فاذا لقيتم العرب فالأمر فيكم لماهان ، ولايدعلى يده ، واعلموا أنه ليس بينكم و بين هؤلاء الاهذه الوقعة ، فان غلبوكم فلايقنعوا ببلادكم بل يطلبونكم حيث سلكتم ولا يقنعون بالمال دون النفس ويتخذون حريمكم وأولادكم عبيدا فاصبروا على القتال وانصروا دينكم وشرعكم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ثم وجه قناطير بجيشه على طريق جبلة واللاذقية ، و بعث جرجير على طريق الجادة العظمى وهى أرض العراق وسومين ، و بعث قورين على طريق حلب وحماة ، و بعث الديرجان على أرض العواصم وسار ماهان فى أثر القوم بجيوشه والرجال أمامه ينحتون له الارض و يزيلون من طريقهم الحجارة ، وكانوا لايمرون على بلد ولامدينة الا أضروا بأهلها و يطالبونهم بالعلوفة والاقامات ولا قدرة لهم بذلك فيدعون عليهم و يقولون لاردكم الله سالمين . قال وجبلة بن الأيهم فى مقدمة ماهان ومعه العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى من أثق به أن الطاغية هرقل لما بعث جيوشه الى قتال المسلمين ، وكان للأميرأبى عبيدة فى جيوش الروم عيون وجواسيس من المعاهدين يتعرفون له الاخبار ، فلما وصل جيش الروم الى شيزر فارقتهم عيون أبى عبيدة وساروا طالبين عسكر المسلمين فلم يجدوهم على حمص فسألوهم عنهم فأخبروهم أنهم رحلوا لأن الأمير أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه لمافتح حمص ترك عندهم من يأخذ الخراج والذى تركه عندهم رجال من أهل حمص من كبرائهم ورؤسائهم وجعل الجواسيس يسيرون حتى وصلوا الى الجابية وحضروا بين يدى الأمير أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه وأخبروه بمارأوه من عظم الجيوش والعساكر ، فلما سمع أبو عبيدة ذلك عظم عليه وكبر لديه ، وقال: لاحول ولاقوة إلابالله العلى العظيم ، و بات قلقالم تغمض له عين خوفا على المسلمين ، فلما طلع الفجر أذن فصلى بالمسلمين ، فلما فرغ من صلاته أقسم على المسلمين أن لايبرحوا حتى يسمعوا مايقول ، ثم قام فيهم خطيبا وحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر النبى ﷺ ، وترحم على أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ودعا للمسلمين بالنصر ، وقال : يامعاشر المسلمين اعلموا رحمكم الله أن الله ابتلاكم ببلاء حسن لينظر كيف تعملون وذلك عندماصدقكم الوعد وأيدكم بالنصر فى مواطن كثيرة ، واعلموا أن عيونى أخبرونى أن عدو الله

هرقل استنجد علينا من كبار بلاد الشرك ، وقد سيرهم اليكم وأثقلهم بالزاد والسلاح — يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون — واعلموا أنهم قد ساروا اليكم فى طرق مختلفة ووعدهم طاغيتهم أن يجتمعوا بازائكم على قتالكم ، واعلموا أن الله معكم وليس بكثير من يخذله الله تعالى وليس بقليل من يكون الله تعالى معه فماعندكم من الرأى رحمكم الله تعالى ؟ ثم قال لبعض عيونه قم وأخبر المسلمين بماراًيت فقام الرجل وأخبر الناس بمارأى من الجيوش الثقيلة وعددها وعديدها ، فعظم ذلك على المسلمين وداخل قلوب رجال منهم الهيبة والجزع ، وجعل بعضهم ينظر الى بعض ولم يردّ أحد منهم جوابا ، فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه ماهذا السكوت عن جوابى رحمكم الله فاشيروا على أبديكم . فان الله عز وجل يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم — وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل عن الله — .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فتكلم رجل من أهل السبق وقال أيها الأمير : أنت رجل لك رفعة ومكان وقد نزلت فيك آية من القرآن ، وأنت الذى جعلك رسول الله ﷺ أمين هذه الأمة . فقال عليه السلام : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه عامر بن الجراح أشر أنت علينا بما يكون فيه الصلاح للمسلمين . فقال الأمين أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه : انما أنا رجل منكم تقولون وأقول وتشيرون وأشير والله الموفق فى ذلك . فقام اليه رجل من أهل اليمن ، وقال : أيها الأمير الذى نشير به عليك أن تسير من مكانك وتنزل فى فرجة من وادى القرى ، فتكون المسلمون قريبا من المدينة والنجدة تصل الينا من الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه واذا طلب القوم أثرنا وأقبلوا الينا كنا عليهم ظاهرين .

فقال الأمير أبو عبيدة رضى الله عنه : اجلسوا رحمكم الله فقد أشرتم بماعندكم من الرأى وانى ان برحت من موضعى هذا كره لى عمر بن الخطاب ذلك وأخذ يعنفنى ويقول تركت مدائن فتحها الله على يديك ونزحت عنها ، وكان ذلك هزيمة منك ، ثم قال أشيروا علىّ برأيكم رحمكم الله تعالى ، فقام اليه قيس بن هبيرة المرادى وقال ياأمير المؤمنين لاردنا الله الى أهلنا سالمين ان خرجنا من الشام ، وكيف ندع هذه الأنهار المتفجرة والزروع والأعناب والذهب والفضة والديباج ونرجع الى قحط الحجاز وجد به وأكل خبز الشعير ولباس الصوف ونحن فى مثل هذا العيش الرغد ، فان قتلنا فالجنة وعدنا ونكون فى نعيم لايشبه نعيم الدنيا . فقال أبو عبدة رضى الله تعالى عنه صدق والله قيس بن هبيرة وبالحق نطق ، ثم قال يامعاشر المسلمين أترجعون الى بلاد الحجاز والمدينة وتدعون لهؤلاء الأعلاج قصورا وحصونا وبساتين وأنهارا وطعاما وشرابا وذهبا وفضة مالكم مع مالكم عندالله عزّ وجل فى دار البقاء من حسن الطعام ولقد صدق قيس بن هبيرة فى قوله لنا ولسنا ببارحين من منزلنا هذا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال فوثب قيس بن هبيرة وقال صدق الله قولك أيها الأمير وأعانك على ولايتك ولا تبرح من مكانك وتوكل على الله وقاتل أعداء الله ، فان فاتنا فتح عاجل فما يفوتنا ثواب آجل . فقال أبو عبيدة رضى الله عنه شكر الله فضلك وغفر لنا ولك والرأى رأيك وتتابع قول المسلمين بحسن رأيهم الا خالد بن الوليد رضى الله عنه فانه ساكت لايقول شيئا . فقال أبو عبيدة رضى الله عنه ياأبا سليمان أنت الرجل الجرىء والفارس الشهم ومعك رأى وعزم فما تقول فيما قال قيس بن هبيرة . فقال خالد رضى الله

تعالى عنه نعم ما أشار به قيس الا ان الرأى عنـدى غير رأيه ولـكن لا أخالف المسلمين ، فقال ان كان عندك رأى فيه صلاح فائت به وكلنا لرأيك تبع ، فقال خالد بن الوليد رضى الله عنه اعلم أيها الامير أنك ان أقمت فى مكانك هذا فانك تعين على نفسك ، لان هـذه الجابية قريبة من قيسارية وفيها قسطنطين ابن الملك هرقل فى أربعين ألف فارس وأهل الأردن قـد اجتمعوا اليه خوفا منـكم ، والذى أشير به عليكم أن ترحلوا من منزلـكم هذا وتجعلوا أذرعات خلف ظهوركم حتى ينزلوا اليرموك ، ويكون المدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قريبا منـكم متلاحقا بكم وأنتم على فتح لقتال عدوّكم وهى أرض واسعة لمجال الخيل . قال فلما نطق خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنـه بهذا الـكلام . قال المسلمون نعم ما أشار به خالد ، وقال أبو سفيان بن حرب أيها الأمير : افعل برأى خالد بن الوليد رضى الله عنـه وابعثه الى مايلى الرمادة فيكون بين عساكرنا وعساكر الروم المقيمة بالأردن لئلا ندهى منهم عنـد رحيلنا فانه سيكون لرحيلنا ورحيل عسكرنا بين هـذه الأشجار ضجة عظيمة وجلبة هائلة فيداخل عدوّكم فيـكم الطمع فان أقبلوا يريدون غارة ومكيدة لقيهم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه بمن معه . فقال خالد بن الوليد والله يا ابن حرب لقد نطقت عن ضميرى وهكذا الرأى عندى ، فعند ذلك أمر أبو عبيدة الناس بالرحيل من الجابية فرحلوا ودعا أبو عبيدة بجيش خالد بن الوليد الذى أقبل به من أرض العراق وهو جيش الزحف وهو يومئذ أربعة آلاف فارس وأمر خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنـه أن يسير بهم ويكون على طلائع المسلمين وحرسهم من وراء ظهورهم . قال ووقعت الضجة للمسلمين عنـد رحيلهم حتى سمع ضجيجهم من مسيرة فرسخين وطلبوا اليرموك وسمع الروم المجتمعة بالأردن ضجة المسلمين عنـد رحيلهم فظنوا أنهم هاربون الى الحجاز لما بلغهم من جيش هرقل فطمعوا فيهم وهموا بالغارة على أطرافهم فلقيهم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه فصاح فى رجاله وقال دونـكم والقوم فهـذه علامة النصر ، قال فانتضى المسلمون السيوف ومدوا الرماح وحمل خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه وحمل ضرار بن الأزور رضى الله تعالى عنه والمرقال وطلحة بن نوفل العامرى وزاهد بن الأسد وعامر بن الطفيل وابن أكال الدم وغير هؤلاء من الفرسان المعـدودين للبراز فلم يكن للروم طاقة بهم فولوا منهزمين والمسلمون يقتلون ويأسرون حتى وصلوا الى الأردن فغرق منهم خلق كثير ، ورجع خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنـه ، وأما الأمير أبو عبيدة فانه نزل باليرموك وجعل أذرعات من خلفه وكان هناك تلّ عظيم فعمد أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه الى نساء المسلمين وأولادهم فأصعدهم على ذلك التلّ وأقام الحراس والطلائع على سائر الطرقات ، فلمـا وصل خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنـه بالأسارى والغنائم فرح أبو عبيدة رضى الله تعالى عنـه فرحا شديدا ، وقال : أبشروا رحمكم الله تعالى هذه علامة النصر والظفر وأقام المسلمون باليرموك وهـم مستعدون لقتال عدوّهم كأنهم ينتظرون وعدا وعـدوا به وبلغ الخبر الى قسطنطين ابن الملك هرقل بأن المسلمين قد نزلوا باليرموك ، وأن ملوك الروم سائرون لقتالهم فبعث رسولا الى الملوك يستضعف رأيهم فى إبطاء أمرهم ويحثهم على قتال المسلمين ، فلما ورد رسوله الى ماهان دعا بالملوك والبطارقة وقرأ عليهم كتاب قسطنطين ابن الملك هرقل وأمرهم بالمسير ، فسارت جيوش الروم يتلو بعضها بعضا لايمرون ببلد من مدائن الشام التى

فتحها المسلمون الا و يعنفون أهلها و يقولون لهم : ياو يلكم تركتم أهل دينكم وملتكم وملتم الى العرب . فيقولون لهم أنتم أحق بالملامة منا لانكم هر بتم منهم وتركتمونا للبلاء فصالحنا عن عن أنفسنا فيعرفون الحق فيسكتون ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا الى اليرموك فنزلوا بدير يقال له دير الجبل وهو بالقرب من الرمادة والجولان وجعلوا بينهم و بين عسكر المسلمين ثلاثة فراسخ طولا وعرضا ، فلما تكاملت الجيوش باليرموك أشرفت سوابق الخيل على أصحاب رسول الله ﷺ وكان جبلة بن الأيهم فى المقدمة فى ستين ألف فارس من العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام وهم على مقدمة ماهان ، فلما نظر أصحاب رسول الله ﷺ الى كثرة جيوش الروم قالوا :لاحول ولا قوّة الا بالله العلى العظيم . قال عطية بن عامر ، فو الله ماشبهت عساكر اليرموك الا كالجراد المنتشر اذا سدّ بكثرته الوادى . قال ونظرت الى المسلمين قد ظهر منهم القلق وهم لايفترون عن قول لاحول ولا قوّة الا بالله العلى العظيم ، وأبو عبيدة رضى الله تعالى عنه يقول — ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين — قال وأخذ المسلمون أهبتهم ودعا الأمير أبو عبيدة بجواسيسه من المعاهدين وأمرهم أن يدخلوا عساكر الروم يجسون له خبر القوم وعددهم وعديدهم وسلاحهم ، وقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه : أنا أرجو من الله تعالى أن يجعلهم غنيمة لنا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما نزل ماهان بعساكره باذاء المسلمين على نهر اليرموك أقام أياما لم يقاتل ولايدنيهم حربا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان تأخير ماهان لأمر ، وذلك أن رسولا ورد عليه من الملك هرقل يقول له لاتنجز الحرب بينك و بين المسلمين حتى نبعث اليهم رسولا ونعدهم منا كل سنة بمال كثير وهدايا لصاحبهم عمر بن الخطاب ولكل أمير منهم ، ويكون لهم من الجابية الى الحجاز ، فلما وصل الرسول الى ماهان قال هيهات هيهات ان كانوا يجيبون الى ذلك أبدا . فقال له جرجير وهو من بعض ملوك الجيش وما عليك فى هذا الذى ذكره الملك هرقل من المشقة . فقال ماهان : اخرج أنت اليهم وادع منهم رجلا عاقلا وخاطبه بالذى سمعت واجتهد فى ذلك . قال فلبس جرجير ثياب الديباج وتعصب بعصابة من الجوهر وركب شهباء عالية بسرج من الذهب الأحمر المرصع بالدر والجوهر وخرج معه ألف فارس من المدبجة ،وسار حتى أشرف على عساكر المسلمين ، فأوقف جرجير أصحابه وقرب من المسلمين ووقف بازائهم وقال يامعاشر العرب أنارسول من الملك ماهان فليخرج الىّ أميركم والمقدم عليكم حتى نعرض عليه مقالنا ولعلنا نصطلح ولا نسفك دم بعضنا . قال فسمعه المسلمون فأعلموا الأمير أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه بذلك فخرج بنفسه اليه وعليه ثوب من كرابيس العراق وعلى رأسه عمامة سوداء وهو متقلد بسيفه وسار الى أن وصل الى جرجير ورفس فرسه حين التقت عنق فرسيهما والناس ينظرون اليهما . فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه ياأخا الكفر قل ماأنت قائل واسأل عما تريد . فقال جرجير يامعاشر العرب ! لا يغرنكم أن تقولوا هزمنا عساكر الروم فى مواطن كثيرة وفتحنا بلادهم وعلونا أكثر أرضهم فانظروا الآن ماقد أتاكم من العساكر فان معنا من سائر الأجناس المختلفة وقد تحالف الروم أن لا يفروا ولاينهزموا وأن يموتوا عن آخرهم ، وليس لكم على ما ترون من طاقة

فانصرفوا الى بلادكم وقد نلتم مانلتم من بلاد الملك هرقل ، وقد عوّل الملك أن يتعود الاحسان اليكم وهو يهب لكم ما أخذتم من بلادهم منذ ثلاث سنين وقد أخذتم السلاح والذهب والفضة وقد كنتم حين قدمتم الشام منكم على رجليه ومنكم عريان فأجيبوا الى ما دعوتكم اليه والا كنتم من الهالكين . فقال الأمير أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه : أما ماذكرت من عساكر الروم وانهم لا يفرون ولا ينهزمون ، فلو رأت الروم شفار سيوفنا هربت ناكصة على أعقابها ، وأما تهويلك لنا بكثرة عددكم فقد رأيت قلتنا وضعف أجسامنا ، وكيف لقينا جموعكم وكثرتها وعظم عددها وسلاحها وأحب الأشياء الينا يوم مشاجرتكم بالحرب والقتال حتى يعرف من الذى يثبت للحرب ، فلما سمع جرجير كلام الأمير أبو عبيدة التفت الى رجل من أصحابه يقال له بهيل . فقال يابهيل : الملك هرقل كأنه أعرف بهؤلاء العرب منا ، ثم لوى رأس جواده ورجع الى ماهان وأخبره بما قال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه . فقال له ماهان دعوتهم الى الموعد ؟ فقال لا وحق المسيح انى لم أفاتحه فى شيء من ذلك لكن ابعث لهم بعض العرب المتنصرة ، فان العرب يميل بعضهم الى بعض . قال فعندها دعا ماهان بجبلة بن الأيهم الغسانى . وقال ياجبلة : اخرج الى هؤلاء وخوّفهم من كثرتنا وتواتر عددنا وألق فى قلوبهم الرعب وأحط بهم مكرك . قال فخرج جبلة بن الأيهم وسار حتى قرب من عساكر المسلمين ونادى برفيع صوته : يامعاشر العرب ليخرج الىّ رجل من ولد عمرو بن عامر لأخاطبه بما أرسلت به ، فلما سمع الأمير أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه كلام جبلة بن الأيهم . قال قد بعث اليكم القوم بأبناء جنسكم يريدون الخديعة بصلة الرحم والقرابة فابعثوا اليه رجلا من الأنصار من ولد عمرو بن عامر ، فأسرع اليه بالخروج عبادة بن الصامت الخزرجى رضى الله تعالى عنه وقال لأبى عبيدة : أيها الأمير أنا أخرج اليه وانظر ماذا يقول فأجيبه عنه ، ثم خرج عبادة نحوه بجواده الى أن وقف أمام جبلة بن الأيهم فنظر جبلة الى رجل أسمر طويل شديد السمرة كأنه من رجال شنوءة فهابه ودخل الرعب فى قلبه من عظم خلقته ، وكان عبادة بن الصامت من الخطاط رضى الله تعالى عنه . فقال له جبلة يافتى من أىّ الناس أنت ؟ فقال عبادة أنا من ولد عمرو بن عامر ، فقال جبلة حييت فمن أنت ؟ فقال عبادة بن الصامت صاحب رسول الله ﷺ فاسأل عما تريد . فقال جبلة يا ابن العم انما خرجت اليكم لأنى أعلم أن أكثركم من الرحم والقرابة فخرجت اليكم ناصحا ومشيرا ، واعلم أن هؤلاء القوم الذين قد نزلوا بازائكم معهم جنود لاقبل لكم بها وخلفهم عساكر وحصون وقلاع وأموال ولا تقولوا كسرنا وهزمنا عساكر الروم ، واعلم أن الحرب دول وسجال ، وان هزمكم هؤلاء القوم لايكون لكم ملجأ غير الموت ، وهؤلاء القوم ان انهزموا يرجعون الى بلادهم وعساكرهم والخزائن والحصون ، وما قد نلتم نيلا نخذوه وامضوا الى بلادكم سالمين .

[قال عبادة بن الصامت] رضى الله تعالى عنه: ياجبلة أماعلمت مالقينا من جموعكم المتقدمة باجنادين وغيرها وكيف نصرنا الله عليكم وهرب طاغيتكم ونحن نعلم أنه من بقى من جموعكم قد تيسر علينا أمره ونحن لانخاف ممن يقدم علينا من جموعكم وقد ولغنا فى الدماء فلم نجد أحلى من دماء الروم ، وأنا ياجبلة أدعوك الى دين الاسلام وأن تدخل مع قومك فى ديننا وتكون على شرفك فى الدنيا والآخرة ولاتكون تابع علج من علوج الروم تفديه بنفسك من المهالك وأنت

رجل من سادات العرب وملوكهم ، وان ديننا ظهر أوّله وآخره يظهر كما ظهر أوّله فاتبع سبيل من أناب الى الحق وصدق به ، فقل : لا إله الا الله محمد رسول الله : اللهم صلّ عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فغضب جبلة بن الأيهم من كلام عبادة بن الصامت ، وقال لست مفارقا دينى . فقال عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه فان أبيت الاما أنت عليه من الكفر فاياك أن تلقانى فى الموعد الأوّل فان لنا وقعة عظيمة ، فان أخذتك شفار سيوفنا فلا تخلص من شفارها ودعنا وعساكر الروم فهم أهون علينا فان أبيت الا ما أنت عليه حلّ بك مثل ماحل بهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فغضب جبلة بن الأيهم وقال لماذا تخوّفنى من سيوفكم : أما نحن عرب مثلكم رجل لرجل . فقال عبادة بن الصامت قد علمنا أنك انما خرجت الينا مخادعا ومعينا ولسنا كأنتم ياويلكم نحن على قلتنا نوحد ربنا ونتبع سنة نبينا محمد وان وراءنا عسكرا يملأ الأقطار ويسد القفار . فقال جبلة لست أعرف وراءكم جيشا غير هذا الجيش ولا من ينصركم غيرهم . فقال عبادة بن الصامت كذبت والله يا ابن الأيهم فى قولك وان وراءنا رجالا أنجادا وأبطالا شدادا يرون الموت مغنما والحياة مغرما كل واحد بنفسه يلقى جيشا حافلا ياويلك أنسيت عليا وسطوته وعمر وشدته وعثمان وبراعته والعباس وطلعته والزبير مع مايجتمع اليهم من فرسان المسلمين من مكة والطائف واليمن وغير ذلك . قال فلما سمع جبلة ذلك من كلام عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه . قال يا ابن العم أنا ماخرجت الا أريد النصيحة لكم فان أبيتم ذلك فاسأل قومك يجيبونا الى الصلح . فقال عبادة بن الصامت لاصلح بيننا الابأداء الجزية أوالاسلام أوالسيف وهو حكم بيننا وبينكم ، والله لولا أن الغدر يقبح بنا لعلوتك بسيفى هذا ، فلما سمع جبلة كلام عبادة وانه قد حاف عليه فى الكلام لم يرد عليه جوابا غير أنه ثنى رأس جواده وأتى الى ماهان فزعا مرعوبا وقد امتلأ قلبه رعبا من كلام عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه ، فلما وقف بين يدى ماهان تبين فى وجهه الجزع والفزع . فقال لجبلة ماوراءك ؟ فقال أيها الملك انى خوّفت وأرعبت ومنيت فكان ذلك كله عندهم بالسواء وقالوا مابيننا الاالحرب والقتال . فقال له ماهان فما هذا الفزع الذى أراه فى وجهك وهم عرب مثلكم وأنتم عرب مثلهم وقد بلغنى أنهم ثلاثون ألف فارس ، وأنتم ستون ألف فارس أمايقاتل الرجلان منكم الرجل الواحد منهم ، دونك ياجبلة فسر أنت وابناء عمك من العرب المتنصرة الى قتالهم وأنا وراءكم ، فان ظفرتم بهم كان الملك مشتركا بيننا وبينكم وتكونون أقرب الناس الينا ويسلم اليكم مافتحه العرب من بلاد الشام .

[قال الواقدى] وجعل ماهان يرغب جبلة فى العطاء ويلينه ويحرضه على القتال فى المسلمين حتى أجابه الى ذلك ، وأخبر قومه وبنى عمه من بنى غسان ولخم وجذام وغيرهم من العرب المتنصرة وأمرهم بأخذ الأهبة للحرب والقتال ففعل القوم ذلك وركبوا فى سابغ الحديد والزرد النضيد وهم ستون ألف فارس مايخالطهم من غير العرب أحد يقدمهم جبلة بن الأيهم وعليه درع من الذهب الأحمر متقلد بسيف من عمل التبابعة وعلى رأسه الراية التى عقدها له الملك هرقل ، فسار جبلة نحو الصحابة فى ستين ألف فارس حتى أشرف على عساكر المسلمين

وأبوعبيدة رضى الله تعالى عنه يتحدث مع عبادة بن الصامت بما جرى بينه وبين جبلة بن الأيهم اذ أشرفت عليهم العرب المتنصرة ، فلما رآهم المسلمون صاح بعضهم على بعض يامعاشر المسلمين قد أقبلت عليكم العرب المتنصرة لقتالكم فما أنتم قائلون ؟ قالوا نقاتلهم ونرجو من الله تعالى الظهور عليهم والمعونة وعلى غيرهم وهموا بالحملة فصاح عليهم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه وقال اصبروا رحمكم الله ولاتعجلوا حتى أكيدهم بمكيدة يهلكون بها وقال لأبى عبيدة رضى الله تعالى عنه أيها الاميران القوم قد استعانوا علينا بالعرب المتنصرة وهم أضعاف عددنا وان نحن قاتلناهم بجمعنا كله كان ذلك وهنا منا وضعفا وأريد أن أبعث لهم رسولا من بنى عمهم يكلمهم فى شأن ردهم عنا فان فعلوا كان ذلك كسرا لهم وللمشركين ووهنا عظيما ، وان أبوا الا الحرب والقتال خرج منا نفر يسير يردّونهم على أعقابهم بعزة الله عزّ وجل ، قال فتعجب أبوعبيدة رضى الله تعالى عنه وقال ياأبا سليمان افعل ماتريد ، فعند ذلك دعا خالد بن الوليد بقيس بن سعد وعبادة بن الصامت الخزرجى وجابر بن عبد الله وأبى أيوب بن خالد بن يزيد رضوان الله عليهم أجمعين ، فلما وقفوا بين يديه . قال لهم ياأنصار الله تعالى ورسوله هؤلاء العرب المتنصرة يريدون قتالكم وهم غسان ولخم وجذام وهم بنو عمكم فى النسب فاخرجوا اليهم وخاطبوهم واجتهدوا فى ردّهم عن حربكم وقتالكم فان فعلوا ذلك والا أخذهم السيف منا ومنكم وكنا لقتالهم كفؤا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فخرج أصحاب رسول الله ﷺ الى العرب المتنصرة فوجدوا جبلة بن الأيهم قد نزل بأزاء المسلمين يريد حربهم وقتالهم ، فلما قربوا من بنى غسان نادى جابر ابن عبد الله وقال يامعاشر العرب من لخم وغسان وجذام اننا بنو عمكم ونريد الدنوّ اليكم . قال فأذن لهم جبلة بالدنو اليه فدخلوا عليه . فاذا هو فى مضرب من الديباج ، وقد فرش بالحرير الأصفر وهو جالس وحوله ملوكه وملوك جفنة فحيوه بتحية ملوك العرب فرفع جبلة أقدارهم وأدنى منازلهم وقال يابنى العم أنتم من الرحم ومن القرابة وانى خرجت اليكم من جهة هذا الجيش الذى يرهقكم فخرج الىّ رجل منكم فأفرط على فى المقال فما الذى أتى بكم الى ، فكان أوّل من كلمه جابر بن عبد الله ، وقال ياابن العم لاتؤاخذنا فيما تكلم به صاحبنا فان ديننا لايقوم الابالحق والنصيحة وان النصيحة لك منا واجبة لأنك ذوقرابة ورحم ، وقد أتينا اليك ندعوك الى دين الاسلام وتكون من أهل ملتنا ويكون لك مالنا وعليك ماعلينا فان ديننا شريف ونبينا ظريف فقال : وماأحب ذلك ولاغيره انى ضنين بدينى وأنتم يامعاشر الأوس والخزرج رضيتم لأنفسكم أمرا ونحن رضينا لأنفسنا أمرا لكم دينكم ولنا ديننا . فقال له الأنصارى ان كنت لاتحب أن تفارق دينك الذى أنت عليه فاعتزل عن قتالنا لتنظر لمن تكون العاقبة والغلبة فان كانت لنا وأردت الدخول فى ديننا قبلناك وكنت منا وأخانا ، وان أقمت على دينك قنعنا منك بالجزية وأقررناك على بلدك وعلى مواطن كثيرة لآبائك وأجدادك . فقال جبلة أخشى ان تركت حربكم وقتالكم وكانت الدائرة للقوم لا آمن أن يتقووا على بلدى ، لأن الروم لاترضى منى الا أن أكون مقاتلا لكم وقد رأسونى على جميع العرب وأنا لو دخلت دينكم كنت دنيئا ولا أتبع ، فقال الأنصارى فان أبيت ماعرضناه عليك فان ظفرنا بك قتلناك فاعتزل عنا وعن سيوفنا فانها تفلق الهام وتبرى العظام فتكون الوقعة بغيرك أحب الينا من الوقعة بك وبمن معك قال وكانت الأنصار يريدون

بهذا الكلام تخويفه وترغيبه كى ينصرف عنهم وجبلة يأبى ذلك . فقال وحق المسيح والصليب لابدّ أن أقاتل عن الروم ولوكان بجميع الأهل والقرابة . فقال له قيس بن سعد ياجبلة أبيت الا أن يحتوى الشيطان على قلبك فيهوى بك فى النار فتكون من الهالكين ، وانما أتينا لندعوك الى دين الاسلام لأن رحمك متصلة برحمنا فان أبيت فستعاين منا حربا شديدا يشيب فيه الطفل الصغير ، ثم وثب قيس بن سعد وقال لقومه انهضوا على بركة الله تعالى وعونه وحسن طاعته فبعدا له وسحقا فقام جبلة فاستعدّ للقتال بعدّته قال فركب الأنصار خيولهم ورجعوا الى الأمير أبى عبيدة وخالد بن الوليد رضى الله تعالى عنهما وأعلموهما بمقالة جبلة وانه مايريد الا القتال . فقال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه أبعده الله تعالى ، فوعيش عاش فيه رسول الله ﷺ سيد المرسلين لينظرن منا جبلة ماينظر ، ثم قال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه : اعلموا معاشر المسلمين أن القوم فى ستين ألف فارس من العرب المتنصرة وهم حزب الشيطان ونحن ثلاثون ألف فارس من حزب الرحمن ونريد أن نلقى هذا الجمع الكبير فان قاتلنا جبلة بجمعنا كله كان ذلك وهنا منا ، ولكن ينتدب منا أبطال ورجال الى قتال هؤلاء العرب المتنصرة ، فقال أبوسفيان صخر بن حرب لله درّك ياأبا سليمان ، فلقد أصبت الرأى فاصنع ماتريد وخذ من الجيش ما أحببت . فقال انى قد رأيت من الرأى أن ننتدب من جيشنا ثلاثين فارسا فيلاقى كل واحد ألفى فارس من العرب المتنصرة .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلم يبق أحد من المسلمين الا عجب من مقالة خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه وظنوا أنه يمزح بمقالته ، وكان أوّل من خاطبه فى ذلك أبوسفيان صخر بن حرب ، وقال ياابن الوليد هذا كلام منك جدّ أوهزل . فقال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لاوعيش عاش فيه رسول الله ﷺ ماقلت الاجدّا . فقال أبوسفيان فتكون مخالفا لأمر الله تعالى ظالما لنفسك وما أظن أن لك فى هذه المقالة مساعدا ولوقاتل الرجل منا مائتين كان ذلك أسهل من قولك يقاتل الرجل منا ألفين وان الله عزّ وجل رحيم بعباده فرض علينا أن الرجل منا يقاتل الرجلين والمائة المائتين والألف الألفين وانك تقول ثلاثون رجلا منا تلقى الستين ألف فارس فما يجيبك أحد الى ذلك وان أجابك رجل لما قلته فانه ظالم لنفسه معين على قتله . فقال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه : ياأبا سفيان كنت شجاعا فى الجاهلية فلاتكن جبانا فى الاسلام وانظر لمن أنتخب من رجال المسلمين ، وأبطال الموحدين فانك اذارأيتهم علمت أنهم رجال قد وهبوا أنفسهم لله عزّ وجل ومايريدون بقتالهم غير الله تعالى ، ومن علم الله عزّ وجل ذلك من ضميره كان حقا على الله أن ينصره ولو سلك مقطعات النيران . فقال أبوسفيان ياأبا سليمان الأمر كما ذكرت وما أردت بقولى الاشفقة على المسلمين فاذا قد صح عزمك على ذلك فاجعل القوم ستين رجلا ليقاتل الرجل منهم ألف فارس من العرب المتنصرة . فقال الأمير أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه نعم ماأشار به أبوسفيان ياأبا سليمان . فقال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه والله يأيها الامير ماأردت بفعلى هذا الا مكيدة لعدوّنا لأنهم اذا رجعوا الى أصحابهم منهزمين بقوّة الله عزّوجل ويقولون لهم من لقيكم فيقولون لقينا ثلاثون رجلا يداخلهم الرعب منا ويعلم ماهان أن جيشنا كفء له . فقال أبوعبيدة رضى الله تعالى عنه ان الأمر كما ذكرت الا أنه اذا كان ستون رجلا منا يكونون عصبة ومعينا بعضهم بعضا . فقال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه

أنا أنتدب من المسلمين رجالا أعرف صبرهم وقرارهم وإقدامهم فى الحرب وأعرض عليهم هذه المقالة فان أحبوا لقاء الله ورغبوا فى ثواب الله عزّوجل فانهم يستجيبون الى ذلك وان أحبوا الحياة الدنيا والبقاء فيها ولم يكن فيهم من تطيب نفسه للموت فما بخالد الا أن يبذل مهجته لله عزّ وجل والله الموفق لما يحبه ويرضاه .

[قال أبوعبد الله] حدثنا عمرو بن سالم عن جده برعى بن عدى قال كنت بين يدى خالد ابن الوليد رضى الله تعالى عنه فدعا بستين رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فأوّل مادعا خالد ابن الوليد . قال أين عمرو التميمى أين شرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ أين خالد ابن سعيد بن العاص ، أين يزيد بن أبى سفيان الأموى ، أين صفوان بن أمية الجمحى ، أين سهل ابن عمرو العامرى ، أين ضرار بن الأزور الكندى ، أين رافع بن عميرة الطائى ، أين زيد الخيل أبيض الركابين ، أين حذيفة بن اليمان ، أين قيس بن سعد ، أين كعب بن مالك الأنصارى ، أين سويد بن عمرو الغنوى ، أين عبادة بن الصامت ، أين جابر بن عبد الله ، أين أبو أيوب الأنصارى ، أين عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، أين عبد الله ابن عمر بن الخطاب العدوى ، أين رافع بن سهل ، أين يزيد بن عامر ، أين عبيد بن أوس ، أين مالك بن نصر ، أين نصر بن الحرث ، أين عبد الله بن ظفر أين أبو لبابة بن المنذر ، أين عوف أين عابس بن قيس ، أين عبادة بن عبد الله الأنصارى ، أين رافع بن عجرة ، أين عبيد بن عبد الله ، أين معقب بن قيس ، أين هلال ، أين الصابرون يوم أحد ، وقد ذكرهم الله تعالى فى كتابه — فان تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين — ، أين أسيد الساعدى ، أين كلال بن الحرث المازنى ، أين حمزة بن عمر الأسلمى ، أين يزيد بن عامر .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وقد سمى خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه الرجال الذين دعاهم لقتال جبلة بن الأيهم ، الا أنى اختصرت فى ذكرهم وقدمت ذكر الأنصار رضى الله تعالى عنهم لأن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه انتخب أكثر الرجال من الأنصار . فلما كثر النداء فيهم قالت الأنصار ان خالدا اليوم يقدّم ذكر الأنصار ويؤخر المهاجرين من ولد المغيرة بن قصىّ ، ويوشك أنه يختبرهم أو يقدمهم للمهالك ، ويشفق على ولد المغيرة .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] فلما سمع خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ذلك من قولهم ، أقبل يخطو بجواده حتى توسط جمع الأنصار ، وقال لهم والله ياأولاد عامر مادعوتكم الا لما ارتضيته منكم وحسن يقينى بكم وبايمانكم فأنتم ممن رسخ الايمان فى قلبه ، فقالوا إنك صادق فى قولك ياأبا سليمان ، ثم صافحه القوم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما انتخب خالد بن الوليد من فرسان المسلمين ستين رجلا كل واحد منهم يلقى جيشا بنفسه . قال لهم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ياأنصار الله ماتقولون فى الحلة معى على هذا الجيش الذى قد أتى يريد حربكم وقتالكم ، فان كان لكم صبر وأيدكم الله بنصره مع صبركم وهزمتم هؤلاء العرب المتنصرة ، فاعلموا أنكم لجيش الروم غالبون ، فاذا هزمتم هؤلاء العرب وقع الرعب فى قلوبهم فينقلبون خاسرين . فقالوا ياأبا سليمان افعل بنا ماتريد والق ماتشاء فوالله لنقاتلن أعداءنا قتال من ينصر دين الله ونتوكل على الله تعالى وقوّته ونبذل

فى طلب الآخرة مهجنا . فجزاهم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه خيرا ، وكذلك الأمير أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه ، وقال لهم تأهبوا رحمكم الله وخذوا أسلحتكم وعدتكم وليكن قتالكم بالسيف ولا يأخذ أحد منكم رمحا فان الرمح خوّان ربما زاغ عن الطعن ولا تأخذوا السهام فانها منايا منها المخطئ ومنها المصيب ، والسيف والحجف عليهما تدور دوائر الحرب واركبوا خيولكم السبق النواجى ولا يركب الرجل منكم الا جواده الذى يصبر به ، وتواعدوا أن الملتقى عند قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم . قال فتقدموا على أهاليهم وودعوهم . فأما ضرار بن الأزور فانه عمد الى خيمته ليستعد بما يريد ، و يسلم على أخته خولة رضى الله تعالى عنها بنت الأزور فلما لبس لامة حربه قالت له أخته خولة : ياأخى مالى أراك تودعنى وداع من أيقن بالفراق أخبرنى ماذا عزمت عليه ؟ فأخبرها ضرار بما قد عزم عليه و إنه يريد أن يلقى العدوّ مع خالد بن الوليد رضى الله عنه فبكت خولة وقالت ياأخى افعل ماتريد أن تفعل والق عدوك وأنت موقن بالله تبارك وتعالى ، فانه لكم ناصر وإن عدوك لايقرّب اليك أجلا بعيدا ولا يبعد عنك أجلا قريبا فان حدث عليك حدث أولحقك من عدوك نائبة فوالله العظيم شأنه لاهدأت خولة على الأرض أوتأخذ بثأرك فبكى ضرار بن الأزور لبكائها وأعدّ آلة الحرب وكذلك الستون من أصحاب رسول الله ﷺ ولم يناموا طول ليلتهم ، حتى ودّعوا أولادهم وأهاليهم وباتوا فى بكاء وتضرع وهم يسألون الله تعالى النصر على الأعداء الى أن أصبح الصباح فصلى بهم الأمير أبوعبيدة رضى الله عنه صلاة الفجر ، فلما فرغ من صلاته كان أول من أسرع الى الخروج خالد بن الوليد رضى الله عنه وحرض أصحابه على الخروج وهو ينشد و يقول :

هبوا جميع اخوتى أرواحا نحو العدو نبتغى الكفاحا
نرجو بذاك الفوز والنجاحا اذا بذلنا دونه أرواحا
ويرزق الله لنا صلاحا فى نصرنا الغدوّ والرواحا

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وأنشد بيتا آخر لم أدر ماهو وخرج أمام المسلمين وأصحابه يقدمون اليه واحدا بعد واحد حتى اجتمع اليه الستون رجلا الذين انتخبهم وكان آخر من أقبل عليه الزبير بن العوّام رضى الله عنه ومعه زوجته أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها وهى سائرة الى جانب أخيها عبدالرحمن بن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه وهى تدعولهم بالسلامة والنصر وتقول لأخيها ياأخى لاتفارق ابن عمة رسول الله ﷺ ووقت الحملة اصنع كما يصنع ولا تأخذكم فى الله لومة لائم . قال وودع المسلمون الستين أصحابهم ، وساروا بأجمعهم وخالد بن الوليد رضى الله عنه فى أوساطهم كأنه أسد قد احتوشته الأسود ولم يزالوا حتى وقفوا بازاء العرب المتنصرة

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ونظرت العرب المتنصرة الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقبلوا نحوهم وهم نفر يسير فظنوا أنهم رسل يطلبون الصلح والمواعدة فصاح جبلة بالعرب المتنصرة وحرضهم ليرهب المسلمين ونادى ياآل غسان أسرعوا الى نصرة الصليب وقاتلوا من كفر به فبادروا بالاجابة وأخذوا الأهبة للحرب ورفعوا الصليب واصطفوا للقتال وقد طلعت الشمس على لامة الحرب فلمع شعاعها على الحديد والزرد والبيض كأنها شعل نار ووقفوا يبصرون مايصنع أصحاب رسول الله ﷺ الى أن قاربوا صلبان العرب المتنصرة ونادى خالد بن الوليد

رضى الله عنه ياعبدة الصلبان و ياأعداء الرحمن هلموا الى الحرب والطعان ، فلما سمع جبلة كلام خالد رضى الله عنه علم أنهم ماخرجوا رسلا ، وانما خرجوا للقتال فخرج جبلة من بين أصحابه وقد اشتمل بلامة حربه وهو يقول :

انا الذين عبدوا الصليب ومن به ... نسطو على من عابنا بفعالنا
ولقد علونا بالمسيح وأمه ... والحرب تعلم أنها ميراثنا
انا خرجنا والصليب أمامنا ... حتى تبددكم سيوف رجالنا

ثم قال جبلة من الصائح بنا والمستنهض لنا فى قتالنا ؟ فقال خالد بن الوليد رضى الله عنه أنا فاخرج الى حومة الحرب . فقال جبلة نحن قد رتبنا أمورنا لحربكم وقتالكم وأنتم تتربصون عن قتالنا فوحق المسيح لا أجبناكم الى الصلح أبدا فارجعوا الى قومكم وأخبروهم اننا مانريد الا القتال قال فأظهر خالد التعجب من قوله وقال له ياجبلة أتظن أننا خرجنا رسلا اليك ؟ . فقال جبلة أجل . فقال خالد بن الوليد رضى الله عنه لاتظن ذلك أبدا فوالله ماخرجنا الا لحربكم وقتالكم فان قلتم اننا شرذمة قليلة فان الله ينصرنا عليكم . فقال جبلة يافتى قد غررت بنفسك و بقومك اذ خرجت الى قتالنا ونحن سادات غسان ولخم وجذام . فقال خالد بن الوليد رضى الله عنه لاتظن ذلك واننا قليلون فقتالكم رجل منا لألف منكم وتخلف منا رجال أشهى اليهم الحرب من العطشان الى الماء البارد ، فقال جبلة ياأخا بنى مخزوم لقد كنت أفضلك فى عقلك وأرومك بك مرام الأبطال حتى سمعت منك هذا الكلام انك أنت والستين رجلا ترومون قتالنا ونحن سادات غسان وأبطال الزمان هاأنا أحمل بهذه الستين ألف فارس فلا يبقى منكم أحد ، ثم صاح جبلة بقومه يا آل غسان الحملة ، فلما سمعوا كلام سيدهم حملت الستون ألف فارس فى وجه خالد بن الوليد والستين رجلا فثبت لهم أصحاب رسول الله ﷺ واشتبك الحرب بينهم فما كنت تسمع الا زئير الرجال وزمجرة الأبطال ووقع السيف على البيض الصقال حتى ماظن أحد من المسلمين ولا من المشركين أن خالدا ومن معه ينجو منهم أحد فبكى المسلمون وأخذهم القلق على اخوانهم وجعل بعضهم يقول لقد غرر خالد بن الوليد بأصحاب رسول الله ﷺ وأهلكهم والروم تقول ان جبلة أهلك هؤلاء القوم فهلاك العرب حاصل بأيدينا لامحالة ولم يزل القوم فى الحرب والقتال حتى قامت الشمس فى كبد السماء قال عبادة بن الصامت فلله درّ خالد بن الوليد رضى الله عنه والزبير بن العوّام وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم والفضل بن العباس وضرار بن الازور وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضوان الله عليهم أجمعين ، لقد رأيت هؤلاء الستة قد قرنوا منا كبهم فى الحرب وقام بعضهم بجنب بعض وهم لايفترقون وزادت الحرب اشتعالا وخرقت الأسنة صدور الليوث حتى بلغت الى خزائن القلوب لانقطاع الآجال ولم يزالوا فى القتال الشديد الذى ماعليه من مزيد . قال عبادة بن الصامت فحملت معهم وكنت فى جملتهم ، وقلت يصيبنى مايصيبهم ونادى خالد بن الوليد وقال ياأصحاب رسول الله ﷺ ههنا المحشر وقد أعطى خالد القلب مناه ، فلما حمى بينهم القتال حمل خالد بن الوليد وهاشم والمرقال وتكاثرت عليهم الرجال فلله درّ الزبير ابن العوّام والفضل بن العباس وهم ينادون أفرجوا يامعاشر الكلاب وتباعدوا عن الأصحاب نحن الفرسان هذا الزبير بن العوّام ، وأنا الفضل بن العباس أنا ابن عمّ رسول الله ﷺ قال

عبادة بن الصامت رضى الله عنه فوحق رسول الله ﷺ لقد أحصيت للفضل بن العباس عشرين حملة يحملها عن خالد بن الوليد حتى أزال عنه الرجال والأبطال وحملوا على المشركين حملة عظيمة ولم يزالوا فى القتال يومهم الى أن جنحت الشمس الى الغروب ، والمسلمون قد جهدهم القلق على اخوانهم . أما الأمير أبوعبيدة رضى الله عنه فانه صاح بالمسلمين وقال يا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هلك خالد بن الوليد ومن معه لامحالة وذهبت فرسان المسلمين فاحملوا بارك الله فيكم لننظر ما كان من أمر اخواننا فكل أجاب الى قوله واشارته الا أبا سفيان صخر بن حرب رضى الله عنه فانه قال للأمير أبى عبيدة رضى الله عنه لاتفعل أيها الأمير فانه لابدّ للقوم أن يتخلصوا ونرى ما يكون من أمرهم قال فلم يلتفت أبو عبيدة رضى الله عنه الى كلامه وهم أن يحمل وقد أخذه القلق فبينما هو كذلك واذا جيش العرب المتنصرة منهزمون وأصوات الصحابة رضى الله عنهم قد ارتفعت بالتهليل والتكبير كل ينادى أشهد أن لاإله الا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، والعرب المتنصرة منهزمة على أعقابهم كأنما صاح بهم صائح من السماء فبدد شملهم وأقبل خالد بن الوليد من وسط المعمعة يلتهب بما لحقه من التعب ، وكذا أصحابه الذين كانوا معه قال وان خالد بن الوليد افتقد أصحابه الستين رجلا فلم يجد منهم الاعشرين فجعل يلطم على وجهه وهويقول أهلكت المسلمين يا ابن الوليد فما عذرك غدا عند الرحمن وعند الأمير عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؟ فبينما هومتحير فى ذلك اذ أقبل عليه الأمير أبوعبيدة رضى الله عنه وفرسان المسلمين وأبطال الموحدين فنظر أبوعبيدة رضى الله عنه الى خالد بن الوليد ومايصنع بنفسه ، وقد اشتغل عن متابعة المشركين . فقال أبو عبيدة يا أبا سليمان الحمد لله على نصر المسلمين ودمار المشركين . فقال خالد بن الوليد : اعلم أيها الأمير ان الله قد هزم الجيش ، ولكن أعقبتك الفرحة ترحة . فقال أبوعبيدة رضى الله تعالى عنه ، وكيف ذلك ؟ فقال خالد أيها الأمير فقدت أربعين رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله ﷺ وفيهم الفضل بن العباس وجعل خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه يسمى فرسان المسلمين واحدا بعد واحد حتى سمى أربعين رجلا فاسترجع أبوعبيدة رضى الله تعالى عنه ، وقال لاحول ولاقوة الا بالله العلىّ العظيم وقال لخالد لابدّ لحبك يهلك المسلمون . فقال سلامة بن الاحوص السلمى أيها الأمير دونك والمعركة فاطلب فيها أصحاب رسول الله ﷺ فان رأيتموهم والافالقوم أسرى أوقد تبعوا المشركين فأمر أبوعبيدة فأتوا بهوادى النيران ، وكان الظلام قد اعتكر فافتقدوا المعركة بين القتلى فاذا قتل من العرب المتنصرة خمسة آلاف فارس وسيدان من ساداتهم وهما رفاعة بن مطعم الغسانى والآخر شداد بن الأوس ووجدوا من قتل من المسلمين عشرة رجال منهم اثنان من الانصار أحدهما عامر الأوسى والآخر سلمة الخزرجى . فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه يوشك أن بعض الصحابة قد تبع المشركين فقال أبوعبيدة رضى الله تعالى عنه اللهم ائتنا بالفرج القريب ولاتفجعنا بابن عمة نبيك الزبير بن العوّام ولابابن عمه الفضل ابن العباس ثم قال أبوعبيدة معاشر المسلمين من يقفولنا أثر القوم ويتعرف خبر الصحابة وأجره على الله عزّوجل ؟ فكان أوّل من أجابه خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه . فقال له الأمير أبوعبيدة

لاتفعل ياأبا سليمان لأنك تعبت من شدة الحرب . فقال خالد والله لايمضى فى طلبهم غيرى ثم غير جواده بفرس من خيول المسلمين وهو فرس حازم بن جبير بن عدى من بنى النجار فركبه خالد ابن الوليد رضى الله تعالى عنه وطلب آثار القوم وتبعه جماعة من المسلمين فما سار خالد بعيدا حتى سمع خالد التهليل والتكبير فأجابهم بمثله فأقبل القوم وفى أوائلهم الزبير بن العوّام والفضل ابن العباس وهاشم والمرقال ، فلما نظر خالد إليهم فرح فرحا شديدا ورحب بهم وسلم عليهم وقال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه للفضل بن العباس ياابن عم رسول الله ﷺ ما كان أمركم ؟ فقال ياأبا سليمان هزم الله المشركين وردهم على أدبارهم خائبين فتبعنا آثارهم وان رجالا منا أسروا فرجونا خلاصهم فلم نرهم ولاشك أنهم قتلوا . فقال خالد رضى الله تعالى عنه ان القوم فى الاسر لامحالة فقال له الزبير بن العوّام من أين علمت ذلك ياأبا سليمان ؟ فقال خالد رضى الله تعالى عنه انا لم نجد فى المعركة غير عشرة رجال ونحن عشرون وأنتم خمسة وعشرون وقد أسر خمسة رجال لامحالة وكانت الأسرى رافع بن عميرة وربيعة بن عامر وضرار بن الأزور وعاصم بن عمرو ويزيد بن أبى سفيان فعظم ذلك على المسلمين ورجعوا الى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه ، فلما نظر الى الفضل بن العباس والى الزبير بن العوام والمرقال بن هاشم وقد رجعوا سالمين فرحين بما نصرهم الله على الكافرين سجد على قربوس سرجه شكرا لله تعالى . فقال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه معاشر المسلمين ، لقد بذلت مهجتى أن أقتل فى سبيل الله تعالى فلم أرزق الشهادة فمن قتل من المسلمين كان أجله قد حضر ومن أسر كان خلاصه على يدي انشاء الله تعالى قال وباتت الفرسان فى فرح وسرور وبات الروم فى نوح عظيم حين كسرت حامية عسكرهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى من أثق به ان الأمير أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه لما نظر الى عساكر الروم معوّلة على قتاله كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أبى عبيدة عامر بن الجراح عامله ، سلام عليك فانى أحمد الله الذى لااله الاهو وأصلى على نبيه محمد ﷺ . واعلم يا أمير المؤمنين أن كلب الروم هرقل قد استفزّ علينا كل من يحمل الصليب ، وقد سار القوم الينا كالجراد المنتشر وقد نزلنا باليرموك بالقرب من أرض الرماة والجولان والعدوّ فى ثمانمائة ألف مقاتل غير التبع وفى مقدمتهم ستون ألفا من العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام ، فأوّل من لقينا جبلة بن الأيهم فى ستين ألف فارس وأخرجنا اليه ستين رجلا ، فهزم الله تعالى المشركين على أيديهم — وما النصر الامن عند الله العزيز الحكيم — وقتل من أصحابنا عشرة رجال، وهم راعلة وجعفر بن المسيب ونوفل بن ورقة وقيس بن عامر وسلمة بن سلامة الخزرجى ، وأسر منهم خمسة رجال ، وهم رافع بن عميرة وربيعة بن عامر وضرار بن الأزور وعاصم بن عمرو ويزيد بن أبى سفيان ونحن على نية الحرب والقتال فلا تغفل عن المسلمين وأمدّنا برجال من الموحدين ، ونحن نسأل الله تعالى ان ينصرنا وينصر الاسلام وأهله والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته . وطوى الكتاب وسلمه الى عبد الله بن قرط الأزدى وأمره أن يتوجه الى مدينة يثرب . قال عبد الله بن قرط فركبت من اليرموك يوم الجمعة فى الساعة العاشرة بعد العصر ، وقد مضى من شهر ذى الحجة اثنا عشر يوما والقمر زائد النور فوصلت يوم الجمعة فى الساعة الخامسة والمسجد

عماوه بالناس فأنخت ناقتى على باب جبريل عليـه السلام وأتيت الروضة وسلمت على رسول الله صلى الله عليـه وسلم وعلى أبى بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنـه وصليت فيها ركعتين ونشرت الـكتاب الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه . قال فضجت المسلمون عند رؤيته وتطاولت الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وقبلت يديه وسلمت عليه ، فلما فتح عمر الـكتاب انتقع لونه وتزعزع كونه ، وقال : إنا لله وإنا اليـه راجعون . فقال عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب والعباس وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وغيرهم من الصحابة ياأمير المؤمنـين أطلعنا على مافى هذا الـكتاب من أمر اخواننا المسلمين ، فقام عمر رضى الله تعالى عنه ورقى المنبر خطيبا وقرأ الـكتاب على الناس ، فلما سمعوا مافيـه ضجوا بالبكاء شوقا الى اخوانهم وشفقة عليهم وكان أكثر الناس بكاء عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه ، وقال ياأمير المؤمنين ابعث بنا اليهم ولوقدمت أنت الى الشام لشدّت بك ظهور المسلمين فوالله ماأملك الا نفسى ومالى وما أبخل بهما على المسلمين . قال فلما سمع عمر بن الخطاب كلام عبـد الرحمن بن عوف ونظر الى اشـفاق المسلمين وجزعهم على اخوانهم أقبل على عبد الله . وقال ياابن قرط من المقدّم على عساكر الروم فقلت خمسة بطارقة أحدهم ابن أخت الملك هرقل وهو قورين والديرجان وقناطير وجرجير وصلبانهم تحت صليب ماهان الأرمنى وهو الملك على الجميع وجبلة بن الأيهم الغسانى مقدّم على ستين ألف فارس من العرب المتنصرة فاسترجع عمر وقال : لاحول ولاقوّة الا بالله العلىّ العظيم ، ثم قرأ عمر يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولوكره الـكافرون ، ثم قال ماتشيرون به علىّ رحمكم الله تعـالى . فقال له علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنـه أبشروا رحمكم الله تعـالى فان هذه الوقعة يكون فيها آية من آيات الله تعالى يختبر بها عباده المؤمنـين لينظر أفعالهم وصبرهم فمن صبر واحتسب كان عند الله من الصابرين واعلموا أن هذه الوقعة هى التى ذكرها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم التى يبقى ذكرها الى الأبد هذه الدائرة المهلـكة ، فقال العباس على من هى ياابن أخى فقال ياعماه على من كفر بالله واتخذ معه ولدا فثقوا بنصر الله عزّ وجل ، ثم قال لعمر ياأمير المؤمنين اكتب الى عاملك أبى عبيدة كتابا وأعلمه فيه ان نصر الله خير له من غوثنا ونجدتنا فيوشك أنه فى أمر عظيم فقام عمر ورقى المنبر وخطب خطبة وجلت منها القـلوب وذرفت منها العيون وذكر فضل الجهاد ثم نزل وصلى بالمسلمين ، فلما فرغ من صلاته كتب الى أبى عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنـين الى أمين الأمة أبى عبيدة بن الجرّاح ومن معـه من المهاجرين والأنصار سلام عليـكم فانى أحمد الله الذى لاإله الاهو وأصلى على نبيه محمد ﷺ أما بعد فان نصر الله خير لـكم من معونتنا ، واعلموا أنه ليس بالجمع الـكثير يهزم الجمع القليل وانما يهزم بما أنزل الله من النصر وإن الله عز وجل يقول — ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولوكثرت وأن الله مع المؤمنين — وربما ينصر الله العصابة القليل عددها على العصابة الـكثيرة وما النصر الا من عنـد الله ، وقد قال تعالى — فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر — الآية ، ياطوبى للشهداء وياطوبى لمن يتـكل على الله . فالق العدو بمن معك من المسلمين ولا تيأس بمن صرع من المسلمين ، فقد رأيت من صرع بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وماعجزوا عن عدوّهم فى مواطن كثيرة حتى قتلوا فى سبيل الله ، ولم يهابوا لقاء الموت فى جنب الله تعالى بل

جاهدوا فى سبيل الله حق جهاده ـ وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ـ ، فاذا وردعليك كتابى هذا فاقرأه على المسلمين وأمرهم أن يقاتلوا العدو فى سبيل الله عز وجل واقرأ عليهم ـ ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ـ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، ثم طوى الكتاب وسلمه الى عبد الله بن قرط ، وقال له : ياابن قرط اذا أشرفت على المسلمين وقد استوت الصفوف فسر بين صفوف الموحدين وقف على أصحاب الرايات منهم وخبرهم أنك رسولى اليهم وقل لهم ان عمر بن الخطاب يسلم عليكم ويقول لكم : ياأهل الايمان أصدقوهم الحرب عند اللقاء وشدوا عليهم شد الليوث واضربوا هاماتهم بالسيوف وليكونوا عليكم أهون من الذباب فانكم المنصورون عليهم ان شاء الله تعالى ، ثم اقرأ عليهم ـ ألا ان حزب الله هم الغالبون ـ . قال عبد الله بن قرط قلت له ياأمير المؤمنين ادع الله تعالى لى بالسلامة والسرعة فى السير ؟ فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : اللهم اجه وسلمه واطو له البعيد انك على كل شىء قدير . قال عبد الله بن قرط وخرجت من المسجد من باب الحبشة ، فقلت فى نفسى لقد أخطأت فى الرأى اذ لم أسلم على قبر رسول الله ﷺ فما أدرى أراه بعد اليوم أم لا ، قال عبد الله فقصدت حجرة رسول الله ﷺ وعائشة رضى الله عنها جالسة عند قبره ، وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه والعباس جالسان عند القبر والحسين فى حجر على والحسن فى حجر العباس رضى الله عنهم وهم يتلون سورة الأنعام وعلى رضى الله عنه يتلو سورة هود ، فسلمت على رسول الله ﷺ فقال على رضى الله عنه ياابن قرط عولت على المسير الى الشام فقلت نعم ياابن عم رسول الله ﷺ وماأظن أن أصل اليهم الا والجيش قد التقى والحرب دائرة واذا أشرفت عليهم لايرون معى مددا ولانجدة خشيت عليهم أن يهنوا ويجزعوا وكنت أحب أن أصل اليهم قبل التقائهم بعدوهم حتى أعظهم وأصبرهم . فقال على رضى الله عنه فما منعك أن تسأل عمر بن الخطاب أن يدعولك ، أماعامت ياابن قرط أن دعاءه لايرد ولايحجب وان رسول الله ﷺ قال فيه « لو كان نبىّ ثان بعدى لكان عمر بن الخطاب » أليس هو الذى يوافق حكمه حكم الكتاب حتى قال المصطفى ﷺ « لونزل من السماء الى الأرض عذاب مانجا منه الا عمر بن الخطاب » ، أما علمت ان الله تعالى أنزل فيه آيات بينات ، أما هو الزاهد التقى ، أما هو العابد ، أما هو المشبه بنوح النبى فان كان هو قد دعا لك فقد قرن دعاؤه بالاجابة. فقال عبد الله بن قرط ماذكرت شيئا إلاوأنا عارف به من فضل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولكنى أردت الزيادة من دعائك ودعاء العباس عم رسول الله ﷺ ولا سيما عند قبر الرسول المعظم المكرم . قال فرفع العباس رضى الله عنه يديه وعلى رضى الله عنه كذلك وقالا : اللهم انا نتوسل بهذا النبى المصطفى والرسول المجتبى الذى توسل به آدم فأجبت دعوته ، وغفرت خطيئته الا سهلت على عبد الله طريقه وطويت له البعيد وأيدت أصحاب نبيك بالنصر انك سميع الدعاء ، ثم قال سر ياعبد الله بن قرط فالله تعالى أكرم من أن يرد دعاء عمر وعباس وعلى والحسن والحسين وأزواج رسول الله ﷺ وقد توسلوا اليه بأكرم الخلق عليه . قال عبد الله بن قرط فخرجت من الحجرة وأنا فرح مستبشر واستويت على كور المطية وركبت الفلاة وأنا فرح بدعاء على والعباس

وعمر رضى الله عنهم أجمعين . قال عبد الله خرجت من المدينة بعد العصر من يومى ذلك الذى دخلت فيه المدينة وأنا أرقب الطريق ، فلما اختلط الظلام وأسبل الليل سجفه أرخيت زمام المطية فحسبت أنها تطير بى ولم أزل سائرا ثلاثة أيام . فلما كانت صلاة العصر من اليوم الثالث أشرفت على اليرموك وسمعت ضجيج أذان المسلمين . قال عبد الله فقصدت خيمة الأمير أبى عبيدة رضى الله عنه وأنخت ناقتى وسلمت عليه وكان لى منذ فارقته عشرة أيام فأخبرته بدعاء عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب والعباس والحسن والحسين رضى الله عنهم . فقال أبوعبيدة صدقت يابن قرط وانهم لكرام على الله عز وجل و إن دعاءهم لا يرد ، ثم قرأ الكتاب على المسلمين فطابت قلوبهم بذلك ، وقالوا أيها الأمير مامنا الا من يطلب الشهادة فالله تعالى يبلغنا إياها

[قال الواقدى] حدّثنى عمرو بن العلاء ، قال حدّثنا ماجد عن الثقات ، قال لما سار عبدالله ابن قرط من المدينة يوم الجمعة ، فلما كان يوم السبت وقد صلينا الصبح خلف عمر بن الخطاب ونحن نقرأ من القرآن ماتيسر ، اذ سمعنا ضجة عظيمة وجلبة هائلة ففزعت قلوبنا فخرجنا مبادرين واذا نحن بقوم من اليمن من صدوان وأرض سبأ وحضرموت واجتمعوا للجهاد ، وهم ستة آلاف يقدمهم جابر بن خول الربعى ، فترجلت ساداتهم وسلموا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأمرهم بالنزول ، فلما أقبل الظلام جاء ألف فارس من مكة والطائف ووادى نخلة وثقيف يقدمهم سعيد بن عامر وسلموا على عمر ونزلوا بأزاء أهل اليمن ، فلما كان يوم الأحد حمل عمر ضعيفهم وزودهم وعقد راية حمراء على قناة تامة وسلمها الى سعيد بن عامر . قال سعيد بن عامر فهممت بالمسير ، فقال عمر على رسلك يابن عامر حتى أوصيك . ثم أقبل عمر بن الخطاب يمشى راجلا ومعه عثمان بن عفان والعباس وعلى بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف ، فلما قربوا من الجيش وقف عمر والناس حوله ، وقال لسعيد بن عامر : ياسعيد إنى وليتك على هذا الجيش ولست بخير رجل منهم الا أن تتقى الله فاذا سرت فارفق بهم ماستطعت ، ولا تشتم أعراضهم ولا تحتقر صغيرهم ولا تؤثر قويهم ولا تتبع سواك ولا تسلك بهم المفاوز واقطع بهم السهل ولا ترقد بهم على جادة الطريق والله تعالى خليفتى عليك وعلى من معك من المسلمين ، فقال له على بن أبى طالب كرم الله وجهه : اسمع وصية إمامك أمير المؤمنين الذى ختم الله تعالى به الأربعين وسميت به الأمة مؤمنين وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ «ان تطيعوه تهتدوا وترشدوا» فسر ياسعيد واذا وصلت الى أبى عبيدة والتقى بكم الجيش الذى لاتلقون مثله ، وصعب عليكم أمره فاكتبوا الى أمير المؤمنين عمر حتى يوجهنى اليكم حتى أقلب أرض الشام على من فيها من المشركين ان شاء الله تعالى . قال فسار سعيد بن عامر وهو يقول :

نسير بجيش من رجال أعزة ... على كل عجعاج من الخيل يصبر
الى شبل جراح وصحب نبينا ... لتنصره والله للدين ينصر
على كل كفار لعين معاند ... تراه على الصلبان بالله يكفر

قال وسار بجد السير . قال سعيد بن عامر وكنت عارفا ببلاد الشام وطرقه وكنت أسير اليه فى السنة مرة أومرتين عسفا من غير جادة طريق أسير على الكواكب ، فلما سرت من المدينة وأنا بين يدى المسلمين سلكت بهم على طريق بصرى فضللت عن الطريق وعدلت عن الجادة

وأنا محترز من العدوّ وخائف على المسلمين فجعلت أحيد عن العمارات وأسلك الفلاة توفيقا من الله واكراما ولطفا بعباده المؤمنين ، فلما ضللت أشكل عليّ الطريق كأني ماسلكته يوما قط فوقفت حائرا حتى تلاحق بي المسلمون فلم أعلمهم بأمري ولأني ضللت عن الطريق ، وأنا أقول: لاحول ولاقوة إلابالله العلي العظيم ، فسرت يومين وليلتين وأنا أتيه بالناس والمسلمون يسألونني عن ذلك ، وأنا أقول لهم اني على طريق ، فلما كان في اليوم العاشر من مسيرنا من المدينة لاح لي جبل عظيم فنظرت اليه وحققته فلم أعرفه ، فقلت غررت والله بالمسلمين ، وأنا أقول في نفسي أترى هذا جبل بعلبك وقد سهل علينا الطريق ، وكان الجبل قد لاح لنا من بعيد من أول النهار وماأدركناه الاوالليل قد أقبل ، فلما صرنا بقربه اعترضنا واد عظيم فيه شجرة عظيمة كبيرة قال فلما تأملت الشجرة عرفتها ، وقلت لأصحابي أبشروا فقد وصلنا الى بلاد الشام وفتح المسلمين ودخلنا الوادي واذا به وعر ليس فيه جادة ولاطريق فلحق المسلمين من هوله تعب عظيم . قال سعيد بن عامر وكان أكثر المسلمين رجالة ، وانما كان يحمل بعضهم بعضا ويتعقبون على ظهور الخيل والابل ، فلما نظرت المسلمون الى وحشة ذلك الوادي ووعورة مسلكه قالوا ياسعيد انانظن أنك قد أخطأت الطريق وسلكت بنا غيرطريقنا فأرحنا في هذا الوادي قليلا فقد أضرّبنا المسير قال فأجبتهم الى ذلك ، وكان في الوادي عين ماء غزيرة فنزل المسلمون عليها فشربوا وسقوا خيلهم وابلهم ورعت الخيل والجمال ورق الشجر ونام أكثر الناس وبعضهم يصلي على محمد . قال سعيد بن عامر وكنت جلست في آخر الناس أحرسهم ، وأنا أتلو القرآن العظيم ، وأدعو الله لنا بالسلامة اذ غلبتني عيني فنمت فرأيت في منامي كأني في جنة خضراء كثيرة الأشجار والثمار وكأني آكل من ثمرها وأشرب من أنهارها وأجني من ثمرها وأناول أصحابي وهم يأكلون ، وأنا فرح مسرور . فبينما أنا كذلك اذ خرج من بين تلك الشجر أسد عظيم فزأر في وجهي وهمّ أن يفترسني ، وأنا من ذلك فزع مرعوب اذ خرج على الأسد أسدان عظيمان فصرعاه في موضعه فسمعت له خوارا عظيما فانتبهت من نومي وحلاوة ذلك الثمر في فمي والأسود تمثل بين يدي . قال سعيد بن عامر ففسرتها أنها غنيمة يأخذها المسلمون ويمنعنا منها مانع ونظفر به . فقلت في نفسي الجنة هي الشهادة . قال سعيد بن عامر ولم أزل جالسا أتلو القرآن ، وأنا قلق اذ سمعت هاتفا يهتف بي عن يمين الوادي ، وهو يقول :

ياعصبة الهادي الى الرشاد لاتفزعوا من وعر هذا الوادي
مافيه من جنّ ولا معادي ستعلمون معشر العباد
لطف الذي يرفق بالأولاد ويطرح الرحمة في الأكباد
سيصنع الله بكم رشاد وتغنموا المال مع الأولاد

قال سعيد بن عامر ، فلما سمعت شعر الهاتف وما يشير به من الغنيمة سجدت لله تعالى شكرا واستيقظ المسلمون لصوت الهاتف . قال سعيد بن عامر وكنت قد حفظت من الهاتف بيتا وحفظ سماح ثلاثة أبيات ، وأنشدني اياها وفرح المسلمون بماسمعوا من الهاتف وطابت قلوبهم بالغنيمة وأقام المسلمون في الوادي حتى أصبح الصباح وصلى بهم سعيد بن عامر صلاة الفجر ، فلما طلعت الشمس خرج المسلمون من الوادي وحققت تلك الأرض والجبل ، واذا به

جبل الرقيم ، فلما رأيتــه عرفته فرفعت صوتى بالتــكبير ، وقلت الله أكبر وكبرت المسلمون لتــكبيرى ، وقالوا ما الذى رأيت ياابن عامر ؟ فقلت وصلنا الى بلاد الشام ، وهذا جبل الرقيم . قال سعيد وأكثر من معى طغاعو العرب . قالوا ياسعيد وما الرقيم ؟ أماتعرفه فحدثتهم بحديث الرقيم ، قال سعيد فعجبوا من ذلك . ثم أقبلت بهم الى الغار فصلوا فيه ، ثم سرنا حتى أشرفنا على بلاد عمان . قال سـعيد بن عامر فعدلت الى قرية هناك يقال لها الجنان فنظرت الى دهاقين القرية وهم خارجون منها ومعهم الأهل والأولاد ، فلما رآهم المسلمون حملوا عليهم من غير اذن لهم وأخذوا بعضهم أسارى فرجع القوم الى القرية ، وكان فيها حصن منيع فتحصنوا فيها منا ، قال سعيد بن عامر فقربت من الحصن وصحت بهم ، وقلت ياويلـكم مابالـكم كنتم خارجين من قريتـكم فرجعتم فأشرف على واحد منهم ، وقال لى يامعاشر العرب اعلموا أننا كنا خارجين من المدينة ففزعنا منـكم وذلك أن صاحب عمان بعث الينا وأمرنا بالمسير الى عمـان لنـكون من تحت كنفه فى عمان ، والآن يامعاشر العرب هل لـكم أن نـكون فى ذمامكم وأمانـكم . قال سعيد نعم فوقع الصلح بيننا على عشرة آلاف دينار وكتبت لهم كتاب الصلح ، فلما هممت بالسير . قالوا يامعاشر العرب قد صالحنا كم ونحن خائفون من قومنا واعلموا ان نقيطاس صاحب عمـان لابد أن نلقى منه شدة عظيمة فلو ظفرتم به لـكان خيرا لنا ولـكم ، فقلت فـكيف نظفر به . فقالوا ان الملك ماهان مقـدم العساكر قد بعث الينا حتى نسير الى الساحل الى قيسارية لنـكون مع قسطنطين ابن الملك هرقل يدا واحدة وبعث بذلك اليــه ، وان أنتم ظفرتم بصاحب عمـان ملـكتم غنيمة جسيمة ، فقال سعيد بن عامر رضى الله تعـالى عنه وفى كم يكون جيش عمان ، فقالوا فى خمسة آلاف فارس ، ولـكن قد وقع خوفـكم فى قلوبهم فلن يفلحوا اذا أبدا ، فقال سـعيد بن عامر يامعاشر المسلمين ماتقولون فى لقاء هذا البطريق صاحب عمان وأخذ غنيمته ، فقالوا افعل ماتريد فان قتله الله على أيدينا كان ذلك صلاحا للمسلمين ووهنا على المشركين . فقال سـعيد بن عامر لاهل القرية على أى طريق يأتى القوم ، فقالوا على هـذا الطريق . قال فدلونا على طريق عمورية فسرنا الى واد عظيم وكمنافيه يوما وليلة فلم يأتنا أحد ، فلما أصبح الصـباح قال سـعيد يامعاشر المسلمين أن الذى وجهنا اليه عمر بن الخطاب من نجدة أبى عبيدة والمسلمين أفضل من مقامنا هنا فاخرجوا رحمكم الله . فانا اذا أشرفنا على المسلمين فى سـبعة آلاف فارس كان ذلك وهنا على المشركين وذلة للـكافرين ، فقال المسلمون ياابن عامر ان قلوبنا توقن بالغنيمة فلاتحرمنا ذلك قال فبينما هم فى المحاورة اذ أشرف عليهم جماعة من القسوس والرهبان وعليهم ثياب الشعر وفى أيديهم الصلبان ، وقد حلقوا أوساط رؤوسهم فابتدر المسلمون إليهم وأخذوهم وأوقفوهم بين يدى سعيد بن عامر ، فقال لهم من أنتم وكان فيهم قس كبير فـكلم سعيدا ، وقال نحن رهبان هذه الاديرة والصوامع ونريد أن نصل الى قسطنطين ولد الملك هرقل حتى ندعو للعساكر بالنصر قال سعيد فادعواو مادعاء الـكافرين إلافى ضلال فـاوراءكم من الأخبار ، قالوا وراءنا صاحب عمان فى خمسة آلاف فارس من فرسان النصرانية وعباد الصليب ، فقال سعيد اللهم اجعلهم غنيمة لنا . ثم قال سعيد للقسيس الذى خاطبه اسـمع أيها الشيخ ان نبينا أمرنا أن لاتتعرض لراهب حبس نفسه فى صومعـة ولولا أنـكم تنذرون العدو لخلينا سبيلـكم ، ثم أمر المسـلمين أن يوثقوهم

كتافا فأوثقوهم بزنانيرهم التى فى أوساطهم ، فبينما نحن كذلك اذ أشرف علينا جيش عمان والرجالة أمامهم يعزلون لهم الحجر من الدروب ، فلما أشرفوا على المسلمين حمل عليهم المسلمون من غير أهبة ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ووضعوا فيهم السيف فقتلوا الرجالة عن آخرهم فأخبر صاحب عمان بذلك ، فلما نظر الى صنع المسلمين أمر أصحابه بالحملة فحملوا عليهم حملة عظيمة واقتتلوا قتالا شديدا ، قال سعيد بن عامر ونظرت الى المسلمين وهم يقتلون الروم قتلا ذريعا و يضجون بالتهليل والتكبير ، فلما نظرالبطريق صاحب عمان ماصنع المسلمون بأصحابه ولى منهزما طالب عمان وتبعه قومه وتبعهم المسلمون و بعضهم مال الى الغنيمة والبطريق نقيطاس صاحب عمان فى الهرب ، وكان قد سبق فوقف حتى تلاحق به المنهزمون من قومه ، قال فبيناهم كذلك اذ أشرف عليهم خيل من ورائهم تسرع بركابها ، وقد أطلقوا الأعنة وقوموا الأسنة وهم زهاء من ألف فارس يقدمهم فارسان كأنهما أسدان أحدهما الزبير بن العوام والآخر الفضل بن العباس فحملوا على الروم فقتلوهم قتلا ذريعا وحمل الزبير بن العوام على نقيطاس بطريق عمان وهو واقف تحت الصليب فطعنه الزبير فقلبه عن جواده وعجل الله بروحه الى النار وأقبل الفضل بن العباس يجندل الفرسان و ينكس الأبطال ، قال وأشرف سعيد بن عامر على الموضع فرأى الحرب قائمة فظن أنه وقع بينهم الخلف ، فلما قربوا منهم سمعوا التهليل والتكبير ، فقالوا هذه دعوة الحق لمن قالها فاقتحم سعيد ابن عامر المعركة فسمع الفضل بن العباس ، وهو ينتمي باسمه ، ويقول أنا ابن عم رسول الله ﷺ قال سعيد بن عامر فوالله ماانفلت من القوم أحد ، فقلت له لله درك ياابن العباس ومن معك من أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال معي الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله ﷺ . قال سعيد بن عامر فوالله ماانفلت من القوم أحد الابين أسير وقتيل وغنم المسلمون غنيمة عظيمة وسلم بعضهم على بعض وأقبل الزبير على سعيد بن عامر ، وقال ياابن عامر ماالذى حبسك عن المسير جهتنا ، وقد جاءنا سالم بن نوفل العدوى وأخبرنا بمسيرك الينا ، وقد ساءت بك ظنوننا فأرسلنا أبو عبيدة لنغير على عمان والحمد لله على سلامة المسلمين ودمار المشركين ، ثم أمر الزبير برؤوس القتلى فسلخت وحملتها العرب على أسنة الرماح فكانت الرؤس أربعة آلاف رأس والاسرى ألف أسير . قال وأطلق سعيد بن عامر الرهبان وسار المسلمون حتى أشرفوا على أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه ، ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير وأجابهم جيش المسلمين بمثل ذلك فانزعجت قلوب الروم لذلك ونظروا الى ثمانية آلاف فارس والرؤوس معهم على الأسنة فبهتوا لذلك وحدث سعيد بن عامر أبا عبيدة بالنصر وغنيمتهم من الروم فسجد شكرا لله عز وجل وأمر بالألف أسير فضربت أعناقهم والروم ينظرون اليهم . قال قطبة بن سويد وأخبرت الروم انه لم ينج أحد من جيش عمان .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] لما أسر الخمسة من أصحاب رسول الله ﷺ اغتم لفقدهم أصحاب رسول الله ﷺ وكان أكثرهم غما أبو عبيدة بن الجراح وأقبل على البكاء والتضرع يدعو لمن أسر بالخلاص ، وأما الخمسة فانهم مثلوا بين يدى ماهان لعنه الله تعالى وغضب عليه ، فلما نظر اليهم استحقر شأنهم ، وقال لجبلة بن الأيهم من هؤلاء ؟ قال أيها الملك هؤلاء قوم من جيش المسلمين ، وقد كانوا ستين رجلا فقتلت أكثرهم وأسرت هؤلاء ومابقى فى عسكرهم

من تخاف غائلته الارجل واحد وهو الذى يثبتهم ويرمى بهم كل المرامى ، وهو الذى فتح أركة وتدمر وحوران و بصرى ودمشق ، وهو الذى كسر عساكر أجنادين وتبع توما وهربيس وقتلهم فى مرج الديباج وأسرابنة الملك هرقل وهو خالد بن الوليد . قال فلما سمع ماهان ذلك قال لابدلى أن أحتال على هذا الرجل حتى أحصله عندى وأقتله مع هؤلاء الخمسة الأسرى ، ثم دعا ماهان برجل من الروم اسمه جرجة وكان حكيما فاضلا عند الروم فصيحا بلسان العرب . فقال ياجرجة أريد أن تمضى الى هؤلاء العرب وتقول لهم يبعثوا لنا رسولا وليكن هذا الرسول الرجل المسمى بخالد قال فركب جرجة وسار نحو عساكر المسلمين فالتقى بخالد بن الوليد . فقال له ماالذى تريد ؟ فقال ان الملك ماهان قد بعثنى اليكم حتى تبعثوا رجلا منكم فلعل الله أن يحقن دماءنا ودماءكم فقال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه أنا أكون الرسول اليه وأوقف رسول الروم بين يديه ويدى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنهما وأخبره أنه يريد المسير الى ماهان . فقال أبوعبيدة امض ياأبا سليمان سلمك الله تعالى فلعل الله تعالى أن يهديهم أو يدعونا للصلح وأداء الجزية ، فتحقن الدماء على يدك فحقن دم رجل واحد أحب الى الله تعالى من أهل الشرك جميعا . فقال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه : أنا أطلب من الله تعالى العون ، ثم وثب خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه الى خيمته ولبس خفين حجازيين وتعمم بعمامة سوداء وشد وسطه بمنطقة من الأديم وتقلد سيفه الذى استلبه من مسيلمة الكذاب يوم اليمامة وأمر عبده عمان أن يأخذ قبته الحمراء وكانت من الأديم الطائفى وفيها شمعات من الذهب الأحمر وحليتها من الفضة البيضاء وكان خالد قد اشتراها من امرأة ميسرة بن مسروق العبسى بثلثمائة دينار فحملها على بغل وركب خالد جواده ، فلما هم بالمسير قال له أبوعبيدة ياأبا سليمان خذ معك رجالا من المسلمين يكونون لك عونا . فقال خالد أيها الأمير أحب ذلك ولكن لا إكراه فى الدين ، وليس لى عليهم طاعة فأمر من شئت ، فلما سمع المسلمون كلام خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه . قال معاذ بن جبل ياأبا سليمان انك من أهل الفضل ولوأمرتنا بأمر امتثلناه لأنك سائر فى طاعة الله تعالى ورسوله .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فاستركب معه مائة فارس من المهاجرين والأنصار منهم المرقال بن عتبة بن أبى وقاص وشرحبيل بن حسنة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوى وميسرة بن مسروق العبسى وقيس بن هبيرة المرادى وسهل بن عمرو العامرى وجرير بن عبد الله البجلى والقعقاع بن عمرو التميمى وجابر بن عبد الله الأنصارى وعبادة بن الصامت الخزرجى والأسود بن سويد المازنى وذو الكلاع الحيرى والمقداد بن الاسود الكندى وعمرو بن معديكرب الزبيدى رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، ولم يزل خالد ينتخب مثل هؤلاء السادات رضى الله عنهم حتى كمل منهم مائة فارس كل فارس منهم يرد جيشا وحده فأخذوا زينتهم واشتملوا بلباس الحرب وتوشحوا بالأبراد وتعمموا بالعمائم وتمنطقوا بالخناجر وتقلدوا بالسيوف وركبوا الخيل العتاق ، وسار خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه وعن يمينه معاذ بن جبل وعن شماله المقداد بن الأسود الكندى والمائة فارس محدقون به . قال معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه وسرنا ونحن نعلن بالتهليل والتكبير . قال نصر بن سالم المازنى فنظرت الى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه حين سار خالد بمن معه يقرأ آية من القرآن ودموعه جارية على خده . فقلت أيها الأمير مايبكيك ؟ فقال يابن

سالم هؤلاء والله أنصار الدين فان أصيب رجل منهم فى إمارة أبى عبيدة فما يكون عذرى عند رب العالمين وعند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما أشرف خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ومن معه على عساكر الروم نظر المسلمون الى عساكر الروم وهم خمسة فراسخ فى العرض ، وعن نوفل بن دحية أن خالد بن الوليد لما ترجل عن جواده وترجل المائة جعلوا يتبخترون فى مسيرهم ويجرون حمائل سيوفهم ويخترقون صفوف الحجاب والبطارقة ولا يهابون أحدا الى أن وصلوا الى النمارق والفراش الديباج ولاح لهم ماهان وهو جالس على سريره ، فلما نظر أصحاب رسول الله ﷺ الى ماظهر من زينته وملكه عظموا الله تعالى وكبروه وطرحت لهم الكراسى فلم يجلسوا عليها ، بل رفع كل واحد منهم ماتحته وجلسوا على الأرض ، فلما نظر ماهان الى فعلهم تبسم وقال يامعاشر العرب لم تأبون كرامتنا ولم أزلتم ماتحتكم من الكراسى وجلستم على الأرض ولم تستعملوا الأدب معنا ودستم على فراشنا ؟ . قال فقال خالد بن الوليد ان الأدب مع الله تعالى أفضل من الأدب معكم وبساط الله أطهر من فرشكم لأن نبينا محمدا ﷺ قال جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ثم قرأ قوله تعالى — منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى — .

[قال حدثنى] عاصم بن رواح الزبيدى قال حدثنا ورقة بن عبد الله الشيبانى قال حدثنا طرفة بن شيبة الخولانى عن عمه جرير وكان محالفا لخالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه قال لم يكن بين خالد وماهان ترجمان يبلغ عنهما ، بل كانا يتحدثان كلاهما . فقال خالد ياماهان انى أكره أن أبدأك بالكلام فتكلم أنت بما تريد فانى لست أبالى بما تتكلم ولكل كلام جواب فان شئت فتكلم وان شئت بدأتك ، قال ماهان : أنا أبدؤكم الحمد لله الذى جعل سيدنا الروح المسيح كلمته وملكنا أفضل الملوك وأمتنا خير الأمم ، قال فعظم ذلك على خالد بن الوليد وقطع خالد كلامه فقال الترجمان لاتقطع كلام الملك ياأخا العرب واستعمل حسن الأدب فأبى خالد أن يسكت ، بل قال خالد : الحمد لله الذى جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم وجميع الأنبياء وجعل أميرنا الذى وليناه أمورنا كبعضنا لوزعم أنه يملك علينا لعزلناه فلسنا نرى أن له فضلا علينا الا أن يكون أتقى لله عز وجل منا وقد جعل الله أمتنا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقر بالذنب وتستغفر منه وتعبد الله تعالى وحده لاشريك له ، قال فاصفر وجه ماهان وسكت قليلا ، ثم قال : الحمد لله الذى أبلانا وأحسن البلاء الينا وعافانا من الفقر ونصرنا على الأمم وأعزنا ومنعنا من الضيم ولسنا فيما خولنا الله فيه من نعيم الدنيا بطرين ولا باغين على الناس وقد كان يامعاشر العرب طائفة منكم يغشوننا ويلتمسون نائلنا ورفدنا وجوائزنا ونحن نحسن اليهم ونكرمهم ونكرم ضعيفهم ونعظم قدرهم ونتفضل عليهم ونفى لهم بالوعد وكنا نظن أن العرب كلها تعرف لنا ذلك من جميع القبائل وتشكرنا عليه لما أسدينا من عطايانا الجليلة لهم ، فما شعرنا حتى جئتمونا بالخيل والرجل وظننا انكم تطلبون منا طلب اخوانكم فاذا أنتم على خلاف رأى أولئك جئتم تقتلون الرجال وتسبون النساء وتغنمون الأموال وتهدمون الاطلال وتطلبون أن تخرجونا من أرضنا وتغلبونا على بلادنا ، وقد طلب منا ذلك من كان قبلكم ممن هو أكثر منكم عددا وأكثر أموالا وسلاحا وظهرا فرددناهم خائفين وجلين خائبين بين قتيل وجريح وطريد وطريح فأول مافعلنا ذلك بملك فارس فرده الله على

عقبيه بالخيبة والذل وكذلك فعلنا بملك الترك وملك الجرامقة وغيرهم وأنتم لم يكن فى أمة من الأمم أصغر منكم مكانا ولا أحقر شانا لأنكم أهل الشعر والوبر والبؤس والشقاء وانكم مع ذلك تظلمون فى بلادكم و بلادنا وحوالينا أمة كثيرة العدد وشوكتنا شديدة وعصبتنا عظيمة ، وإنما أقبلتم علينا لأنكم خرجتم من جدوبة الأرض وقحط المطر فانجليتم الى بلادنا وأفسدتم كل الفساد وركبتم مراكب ليست كمراكبكم ولبستم ثيابا ليست كثيابكم وتمتعتم ببنات الروم البيض الأوانس فجعلتموهن خدما لكم وأكلتم طعاما ليس كطعامكم وملئت أيديكم من الذهب والفضة والمتاع الفاخر ، ولقد لقينا كم الآن ومعكم أموالنا وماغنمتموه من قومنا وأهل ديننا وقد تركناه لكم لانطالبكم به ولا ننازعكم فيه ولانعتب عليكم فيما تقدم من فعالكم والآن فاخرجوا من بلادنا فان أبيتم الانصراف عنا عزمنا عليكم عزمة فنترككم كأمس الدابر ، وان جنحتم للصلح نأمر لكل واحد من عسكركم بمائة دينار وثوب ولأميركم أبى عبيدة بألف دينار ولخليفتكم عمر بن الخطاب بعشرة آلاف دينار وعلى أنكم تحلفون لنا أن لاتعودوا الى حربنا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وماهان يرغب تارة ويرهب أخرى وخالد مطرق لايتكلم حتى فرغ ماهان من كلامه . فقال خالد : ان الملك قد تكلم فأحسن وسمعنا كلامه وتتكلم ويسمع كلامنا ، ثم قال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه : الحمد لله الذى لا إله الا هو ، فلما سمع ماهان ذلك مد يده الى السماء وقال نعم ماقلت ياعربى . فقال أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المرتضى ونبيه المجتبى ﷺ . فقال ماهان ماأدرى أمحمد رسول الله أم لا ولعله كما تقول وتزعم وتذكر . فقال خالد رضى الله تعالى عنه : حسب الرجل دينه ، ثم قال أفضل الساعات وخيرها الساعات التى يطلع فيها الله رب العالمين فالتفت ماهان الى قومه ، وقال بلسانه انه رجل عاقل يتكلم بالحكمة . فقال خالد ماالذى قلت لقومك فأخبره بمقالته . فقال خالد ان كنت أوتيت العقل فالله تعالى المحمود على ذلك ، وقد سمعنا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم يقول « لما خلق الله تعالى العقل وصوّره وقدره قال أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فادبر . فقال الله تعالى وعزّتى وجلالى ماخلقت خلقا أحب الى منك بك تنال طاعتى وتدخل جنتى» . فقال ماهان: اذا كنت بهذا العقل والفهم فلم جئت بهؤلاء معك ، قال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه جئت بهم لأشاورهم . قال ماهان وأنت مع جودة عقلك وحسن رأيك و بصيرتك تحتاج الى مشهورة غيرك قال خالد : نعم بهذا أمر الله عز وجل نبينا محمدا ﷺ . فقال الله تعالى فى كتابه العزيز ـ وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ـ وقال ﷺ « ماضاع امرؤ عرف قدره ، ولاضاع مسلم استشار » فأنا وان كنت ذا رأى وعقل كما تزعم وكما بلغك ، فانى لاأستغنى عن رأى ذى رأى ومشورة أصحابى . قال ماهان : وهل فى عسكركم من له رأى مثل رأيك وحزم مثل حزمك . قال نعم : ان فى عسكرنا أكثر من ألف فارس لايستغنى عن رأيهم ولا عن مشورتهم فقال له ماهان : ما كنا نظن ذلك فيكم ، وانما كان يبلغنا عنكم أنكم طماعون جهال لاعقول لكم يغير بعضكم على بعض وينهب بعضكم أموال بعض . فقال له خالد رضى الله تعالى عنه : ذلك كان شأن أكثرنا حتى بعث الله عز وجل فينا نبينا محمدا ﷺ فهدانا لرشدنا وعرفنا سبيلنا ، وفهمنا الخير من الشر ، والهدى من الضلال . فقال ماهان : ياخالد انك قد أعجبتنى بما

أراه من رأيك و بصيرتك ، وقد أحببت أن أؤاخيك فتكون أخى وخليلى . فقال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه : وافرحاه ان تم الله مقالتك ، فتكون اذا سعيدا ولا نفترق . فقال ماهان وكيف ذلك ؟. قال خالد تقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله الذى بشر به عيسى ابن مريم : فاذا فعلت ذلك كنت أخى وكنت أخاك وتكون خليلى وأكون خليلك ولا نفترق الا لأمر يحدث . فقال ماهان : أما مادعوتنى اليه من الترك لدينى والدخول فى دينكم فمالى الى ذلك من سبيل . فقال خالد بن الوليد : وكذلك أيضا لاسبيل الى مؤاخاتى لك وأنت مقيم على دينك دين الضلال . قال ماهان : أريد أن ألقى الحشمة بينى و بينك وأكلمك كلام الأخ لأخيه : فأجبنى عن كلامى الذى دعوتك اليه حتى أسمع ماتقول . قال خالد : اما بعد فانك تعلم أن الذى ذكرته مما فيه قومك من الغنى والعز ومنع الحريم والظهور على الأعداء والتمكن فى البلاد ، فنحن عارفون به ، وكل ماذكرته من انعامكم على جيرانكم من العرب فقد عرفناه ، ولكن انما فعلتم ذلك ابقاء لنعمتكم ونظرا منكم لأنفسكم وذراريكم وزيادة لكم فى مالكم وعزا لكم فتستكثرون جوعكم وتلقون الشوكة على من أرادكم ، وأما ماذكرته من فقرنا ورعينا الابل والشاة فما منا من لم يرع وأكثرنا رعاة ، ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرع ، وأما قولك بأننا أهل فقر وفاقة و بؤس وشقاء ، فنحن لاننكر ذلك ، وانما ذلك من أجل أنا معاشر العرب أنزلنا الله تعالى منزلا ليس فيه أنهار ولا أشجار ولا زروع الاقليل وكنا أهل جاهلية جهلاء لايملك الرجل منا الا فرسه وسيفه وأباعره وشياهه ويأكل قوينا ضعيفنا ، ولا يأمن بعضنا بعضا إلا فى الأربع الأشهر الحرم نعبد من دون الله الأصنام والأوثان التى لاتسمع ولا تبصر ولاتنفع ونحن عليها مكبون ولها حاملون ، فبينما نحن كذلك على شفا حفرة من النار من مات منا مات مشركا وصار الى النار ومن بقى منا كان كافرا بربه قاطعا لرحمه حتى بعث الله لنا نبيا نعرف حسبه ونسبه هاديا مهديا رسولا نبيا ، و إماما تقيا أظهر الاسلام بدعوته ودحض المشركين بكلمته جاءنا بقرآن مبين وصراط مستقيم ختم الله تعالى به النبيين ، وأمرنا بعبادة رب العالمين نعبده ولا نشرك به شيئا ولا نتخذ من دونه وليا ، ولا نجعل لربنا صاحبة ولا ولدا لاشريك له ولاضد ولا ند له ولا نسجد للشمس ولا للقمر ولا للنور ولا للنار ولا للصليب ولا للقربان ، ولا نسجد إلا لله وحده لاشريك له ونقر بنبوّة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أنزل الله عليه كلامه الذى هدانا به مولانا فاستجبنا له وأطعنا أمره ، فكان مما أمرنا به أن نجاهد من لايدين بديننا ولايقول بقولنا ممن كفر بالله واتخذ معه شريكا جل ربنا وتعالى عن ذلك لاتأخذه سنة ولا نوم فمن اتبعنا كان أخانا وصار له مالنا وعليه ماعلينا ومن أبى الاسلام كانت عليه الجزية يؤديها الينا عن يد وهو صاغر فاذا أداها حقن بها ماله ودمه وولده ومن أبى الاسلام وأن يؤدى الجزية فالسيف حكم بيننا و بينه حتى يقضى الله جل جلاله بحكمه ، وهو خير الحاكمين ، ونحن ندعوكم الى هذه الخصال الثلاث ليس غيرها إما أن تقولوا : نشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله أو الجزية فى كل عام على كل محتلم من الرجال وليس على من لم يبلغ الحلم جزية ولا على امرأة ولا على راهب منقطع فى صومعته ، قال ماهان فهل بعد قول : لا إله إلا الله غير هذا ، فقال خالد نعم أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتحجوا البيت الحرام وتجاهدوا من كفر بالله تعالى وتأمروا

بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتوالوا فى الله تعالى وتعادوا فى الله ، فان أبيتم ذلك فالحرب بيننا وبينكم حتى يورث الله أرضه من يشاء والعاقبة للمتقين . قال ماهان فافعل ماتشاء فاننا لانرجع عن ديننا ولا نؤدى الجزية ، وأماماذ كرت من أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فلقد صدقت فانها لم تكن لنا ولالكم بل كانت لقوم غيرنا وغيركم فقاتلناهم عليها حتى ملكناها منهم والحرب بيننا وبينكم فابرزوا على اسم الله تعالى ، فقال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ماأنتم بأشهى منا الى الحرب وكأنى بجيوشكم ، وقد انهزمت والنصر يقدمنا وتساق أنت والحبل فى عنقك ذليلا حقيرا وتقدم بين يدى عمر بن الخطاب فيضرب عنقك . قال فلما سمع ماهان كلام خالد بن الوليد غضب غضبا شديدا . قال فلما نظرت البطارقة والحجاب والهرقلية والقياصرة الى غضب ماهان هموا بقتل خالد الا أنهم صبروا ينظرون أمره ، فقال ماهان لخالد وقد استشاط غضبا : وحق المسيح لاحضرن أصحابك الخمسة الأسارى وأضربن أعناقهم وأنت تنظر اليهم ، فقال له خالد اسمع ماأقول لك ياماهان أنت أقل وأذل وأحقر من ذلك واعلم ان هؤلاء الذين فى يدك هم مناونحن منهم ، فوحق صاحب الدعوة المستجابة وحق بيعة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وخلافة عمر بن الخطاب لئن قتلتهم لاقتلنك بسيفى هذا ويقتل كل رجل منا من قومك بعددهم وزيادة . ثم وثب خالد رضى الله تعالى عنه من موضعه وانتضى سيفه من غمده وفعل أصحاب رسول ﷺ كفعله ، وهو يقول : لاإله إلاالله محمد رسول الله وجردوا سيوفهم وهاجوا كالجمال أوكالسباع الضوارى واستقتلوا وأيقنوا بالشهادة فى ذلك المكان .

[قال الشيخ أبو عبد الله محمد الواقدى] مؤلف هذا الكتاب والله الذى لاإله إلاهو عالم الغيب والشهادة مااعتمدت فى أخبار هذه الفتوح الا الصدق ومانقلت أحاديثها إلاعن ثقات وعن قاعدة الحق لأثبت فضائل أصحاب رسول الله ﷺ وجهادهم حتى أرغم بذلك أهل الرفض الخارجين عن السنة والفرض اذ لولاهم بمشيئة الله لم تكن البلاد للمسلمين وماانتشر علم هذا الدين ، فلله درهم لقد جاهدوا فى الله وحق جهاده ونصروا دينه وثبتوا للقاء الأعداء وبذلوا جهدهم ونصروا الدين حتى زحزحوا الكفرعن سريره وتقهقر ، لاجرم وقد قال فيهم الملك المقتدر ـ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ـ .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى مسلم بن عبد الحميد عن جده رافع بن مازن . قال كنت مع خالد يوم سرنا الى ماهان وكنا فى سرادقه ، فلما جذبنا السيوف وهممنا بالقوم ومافى أعيننا من جيوش الروم شئ ، وقد أيقنا بالحشر من ذلك الموضع .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما رأى ماهان الحقيقة منا ومن خالد وتبين الموت فى شفار سيوفنا نادى ماهان مهلا ياخالد لاتكن بهذه العجلة تهلك وأنا أعلم أنك ماقلت ذلك القول إلاأنك رسول والرسول يحمل ولايقتل ، وأنا انما تكلمت بماتكلمت لأختبركم وانظر ماعندكم والآن فما أواخذك فارجع الى عسكرك واعزم على القتال حتى يعطى الله تعالى النصر لمن يشاء ، فلما سمع ذلك أغمد سيفه ، وقال ياماهان ماتصنع فى هؤلاء الأسرى ؟ فقال ماهان : أطلقهم كرامة لك وأخلى سبيلهم فيكونون عونا لك ولن تعجزونا فى الحرب غدا ففرح خالد بذلك وأمر ماهان بتخلية أصحاب رسول الله ﷺ . قال فأطلقوا من وثاقهم وهم خالد بالمسير ، فقال ماهان ياخالد

إنى كنت أحب أن يصلح الأمر بينى و بينكم وانى أسألك حاجة ، فقال خالد سل ماتريده ، فقال ان قبتك هذه الحمراء قد أعجبتنى وانى أريد أن تهبهالى وانظر فى عسكرى ماأعجبك من شئ فأهبه لك . فقال خالد : والله لقد فرحتنى اذ طلبت ماأملكه وهى موهوبة لك ، وأماماعرضت علىّ من عسكرك فلاحاجة لى فيه ، فقال ماهان لله درك أنت تكرمت وأجملت . فقال خالد رضى الله عنه وأنت أيضا قد تكرمت علينا بماصنعت من اطلاق أصحابى من الأسر ثم انثنى خارجا من عند ماهان وأصحابه من حوله ، وقدم له جواده فركبه وركب أصحابه أصحاب رسول الله ﷺ وأمر ماهان أصحابه وحجابه أن يسيروا معهم حتى يبلغوهم . قال ففعل القوم ذلك ووصل خالد وأصحابه الى الأمير أبى عبيدة رضى الله عنهم أجمعين وسلموا عليه وفرح المسلمون بخلاص أصحاب رسول الله ﷺ وحدث خالد أبا عبيدة بكل ماجرى لهم . ثم قال خالد وحق المنبر والروضة ما كان ماهان ليطلق لنا أصحابنا الافزعا من سيوفنا ، فقال أبو عبيدة حين سمع ماجرى لخالد ولماهان من الخطاب والجدال هذا رجل حكيم الاأن الشيطان غلب على عقله فعلام افترقتم ؟ قال على أننا نلتقى معهم ويعطى الله النصر لمن يشاء ، فلما سمع أبو عبيدة رضى الله عنه ذلك جمع عظماء المسلمين وقام فيهم خطيبا فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر النبى ﷺ وأخبرهم ان العدوّ يصبحهم بالقتال فى غداة غد وأمرهم بالأهبة ، وأقبل فرسان المسلمين يحرض بعضهم بعضا وأقبل خالد على أصحابه وهم عسكر الزحف ، وقال لهم اعلموا أن هؤلاء الكفرة الذين نصركم الله عليهم فى المواطن الكثيرة قد حشدوا لكم جموع بلادهم ، وانى دخلت الى عسكرهم ونظرت اليهم فكأنهم النمل ولكنهم أصحاب عدة بلا قلوب ولالهم من ينصرهم عليكم وهذه الوقعة بيننا و بينهم ، وقد أيقنا أن القتال فى غداة غد وأنتم أهل البأس والشدة فماعندكم رحمكم الله تعالى ، قال فتكلم أصحاب خالد وقالوا أيها الأمير القتال بغيتنا والقتل فى سبيل الله تعالى مسرتنا ولانزال نصبر لهم على الحرب والطعن والضرب حتى يحكم الله بيننا ، وهو خيرالحاكمين ففرح خالد بقولهم ، وقال لهم وفقكم الله تعالى وأرشدكم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلم يبق أحد منهم تلك الليلة الاوقد أخذ عدته وأهبته واستعد بآلة الحرب والقتال و باتوا فرحين بالجهاد والثواب وخائفين من العقاب ، فلما أصبح القوم ولاح الفجر أذن المؤذنون فى عسكر المسلمين حتى ارتفعت لهم جلبة عظيمة بالتوحيد وأسبغوا الوضوء لصلاتهم خلف أبى عبيدة ، فلما صلوا ركبوا خيولهم الى قتال عدوّهم وعبوا صفوفهم للقتال وكانوا ثلاثة صفوف متلاصقة أول الصف لايرى آخره ، وأقبل خالد بن الوليد على أبى عبيدة رضى الله عنه ، وقال أيها الأمير من تجعل فى الميسرة . قال كنانة بن مبارك الكنانى أوقال عمرو بن معديكرب الزبيدى والله أعلم أيهما كان فولاه الميسرة وأمره ان يكون مكانه فى الميسرة ففعل وضم الى كنانة قيسا . قال فسار لما أمره أبو عبيدة رضى الله عنه .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى فضالة بن عامر . قال حدثنى موسى بن عوف عن جدّه يوسف بن معن . قال كان هذا الغلام كنانة عارفا بالحرب صاحب شجاعة وغارة ، وقد ذكر أنه كان من شجاعته وشدّة فراسته أنه كان يخرج من حى قومه بنى كنانة وحده ويسير حتى يأتى أحياء العرب المعادين له ، فاذا أشرف عليهم صرخ بهم وانتمى باسمه فتثور الرجال على أعناق

الخيل ، فلا يزال يقاتلهم ويقاتلونه ، فان ظفر بهم كان مراده وان رأى منهم غلبة وعظم عليه أمرهم نزل عن جواده وسعى بين أيديهم فلا يلحقون منه الا الغبار .

[قال الراوى رحمه الله تعالى] لما ولاه أبو عبيدة وقف حيث أمره ، والتفت أبو عبيدة إلى خالد ، وقال ياأبا سليمان قد وليتك على الخيل والرجل فول أمر الرجالة من شئت ، فقال خالد ابن الوليد رضى الله عنه سأولى أمرهم رجالا لايؤتى المسلمون من قبلهم . ثم نادى بهاشم بن عتبة ابن أبى وقاص ، وقال له قد ولاك الأمير على الرجالة ، فقال أبو عبيدة رضى الله عنه انزل ياهاشم وكن معهم رحمك الله وأنا أوافقك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ورتب أبو عبيدة صفوف المسلمين وعباهم . قال خالد بن الوليد رضى الله عنه ابعث الآن إلى أصحاب الرايات وقل لهم يسمعوا منى ، فدعا أبو عبيدة رضى الله عنه بالضحاك بن قيس ، وقال له يابن قيس أسرع إلى أصحاب الرايات ، وقل لهم إن الأمير أبا عبيدة يأمركم أن تسمعوا لخالد وتطيعوا أمره ففعل الضحاك ذلك ، وجعل يدور على أصحاب الرايات حتى انتهى إلى معاذ بن جبل وقال له مثل ذلك . قال معاذ بن جبل : سمعا وطاعة ، ثم أقبل معاذ على الناس ، وقال . أما إنكم قد أمرتم بطاعة رجل ميمون الغرة مبارك الطلعة ، فان أمركم بأمر فلا تخالفوه فيما يأمركم به ، فما يريد غير صلاح المسلمين والأجر من رب العالمين . قال فقلت لمعاذ بن جبل إنك لتقول فى خالد قولا عظيما ، فقال ماأقول الا ماقد عرفته فلله دره ، وقال الضحاك : فرجعت الى خالد وأخبرته بما تكلم به معاذ بن جبل وبماأثنى به عليه فأثنى عليه ، وقال هو أخى فى الله تعالى ، ولقد سبقت له ولأصحابه سوابق لايفعلها خالد بن الوليد فمن يناله . قال الضحاك : فرجعت الى معاذ بن جبل وأخبرته بما قال خالد وبما أثنى به عليه وماذكره من أمره وبما أورده من علىّ شأنه ، فقال معاذ والله إنى أحبه فى الله تعالى ، وأرجو من الله أن يكون قد أثابه بحسن نيته ونصيحته للمسلمين .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما وصى الضحاك بن قيس أصحاب الرايات بقول أبى عبيدة بالطاعة لخالد بن الوليد رضى الله عنه جعل خالد يسير بين الصفوف ويقف على كل راية ، ويقول : ياأهل الاسلام ان الصبر قد عزم ان شاء الله تعالى على صحبتكم ، والفشل والجبن سببان من أسباب الخذلان ، فمن صبر كان حقا على الله نصره على عدوّه لأن الله معه ، ومن صبر على حدّ السيوف فانه اذا قدم على الله تعالى أكرم منزلته وشكر له فعله وسعيه والله يحب الشاكرين . قال وما زال خالد رضى الله عنه يقول هذا الكلام لأهل كل راية حتى مرّ بجماعة الناس . ثم ان خالدا جمع اليه خيل المسلمين من أهل الشدّة والصبر ومن شهد معه الزحف ، فقسمهم أربعة أرباع فجعل على أحدهم قيس بن هبيرة المرادى ، وقال له أنت فارس العرب فكن على هذه الخيل واصنع كما أصنع ، وجعل على الربع الآخر ميسرة بن مسروق العبسى وأوصاه بمثل ذلك ، ودعا عامر بن الطفيل على الربع الثالث وأوصاه بمثل ذلك ووقف خالد مع عسكر الزحف .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلم تطلع الشمس الا وقد فرغوا من تعبية صفوفهم للحرب . وأما ماهان الأرمنى فانه أمر الروم بالزينة والأهبة للحرب ففعلوا ذلك ، الا أن المسلمين كانوا أسرع فى التعبية . قال وزحف عسكر الروم الى أصحاب رسول الله ﷺ ونظر الروم الى تعبيتهم فكان

عسكر المسلمين صفوفهم كالبنيان المرصوص ، وكأن الطير تظلهم والصفوف متلاصقه والرماح مشرعة مشتبكة . قال فلما رأى الروم ذلك داخلهم الفزع والجزع وألقى الله الرعب فى قلوبهم ، ثم ان ماهان عبى عسكره فجعل العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام فى مقدمة الصفوف ، وجعل عليهم جبلة وقدّم أمامهم صليبا من الفضة وزنه خمسة أرطال وهو مطلى بالذهب ، وفى أربعة أركانه أربع جواهر تضىء كأنها الكواكب .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدّثنى سنان بن أوس الربعى . قال حدّثنى عدىّ بن الحرث الهمدانى ، وكان ممن حضر الفتوح من أولها إلى آخرها . قال وكانت الصفوف التى صفها ماهان ثلاثين صفا كل صفّ منها مثل عسكر المسلمين كله ، وقد أظهر ماهان بين الصفوف القسوس والرهبان وهم يتلون الانجيل ويترنمون وأكثر من الرايات والأعلام والصلبان ، فلما تكاملت صفوفهم وإذا ببطريق عظيم الخلقة قد برز وعليه درع مذهب ولامة حرب مليحة وفى عنقه صليب من الذهب مرصع بالجوهر وتحته فرس أشهب ، وكان البطريق من عظماء الروم ممن يقف عند سرير الملك ، فلما برز جعل يرطن بكلام الروم بصوت كالرعد فعلم المسلمون أنه يطلب البراز فتوقف المسلمون عن الخروج اليه فصاح خالد ، وقال ياأصحاب رسول الله هذا العلج الأغلف يدعوكم لقتاله وأنتم تتأخرون ، فان لم تخرجوا اليه والا خرج خالد وهم بالخروج وإذا بفارس قد خرج من المسلمين على برزون أشهب عظيم الخلقة يشبه برزون المشرك وعلى المسلم لامة حسنة وعدة سابغة وقصد نحو البطريق فلم يكن فى رجال خالد من يعرف الفارس الذى خرج ، فقال خالد لهمام : مولاى أخرج إلى هذا الفارس وانظر من هو من المسلمين ومن أى العرب هو ومن قومه ؟ فمضى همام يهتف به وقد همّ أن يقرب من البطريق فصاح به من أنت ياذا الرجل ؟ من المسلمين رحمك الله ، فقال أنا روماس صاحب بصرى فلما أخبر خالد به . قال اللهم بارك فيه وزد فى نيته ، فلما صار بازاء العلج كلمه بلسانه ، فقال الرومى وقد عرفه ياروماس كيف تركت دينك وصبأت إلى هؤلاء القوم ، فقال روماس هذا الدين الذى دخلت فيه دين جليل شريف ، فمن تبعه كان سعيدا ومن خالفه فقد ضلّ . ثم حمل روماس على العلج وحمل العلج على روماس وتقاتلا ساعة حتى عجب الجمعان منهما ، فوجد العلج من روماس غفلة فضربه ضربة أسال دمه . قال فأحس روماس بالضربة وقد وصلت اليه فانثنى راجعا نحو المسلمين فأتبعه العلج طالبا له لايقصر عن طلبه ، وكاد أن يدركه فصاح به فرسان المسلمين من الميسرة والميمنة فقوى قلب روماس وداخل العلج الجزع والخوف من صياحهم والهلع وقصر عن طلبه ، ودخل روماس عسكر المسلمين والدم على وجهه فائر فأخذه جماعة من المسلمين فشدّوا جراحه وشكروه على فعله ووعدوه بالغفران من الله تعالى وهنئوه بالسلامة . قال ولما رجع روماس منهزما أعجب العلج بنفسه وأظهر عناده وأغلظ فى كلامه وطلب البراز فهمّ أن يخرج اليه ميسرة بن مسروق العبسى ، فقال له خالد ياميسرة ان وقوفك فى مكانك أحب الىّ من خروجك الى هذا العلج وأنت شيخ كبير وهذا علج عظيم الخلق ، والشاب شجاع ولاأحب أن تخرج اليه ، فانه لا يكاد الشيخ الكبير يقاوم الشاب الحدث ، ولاسيما إن شعرة من مسلم أحب الى الله تعالى من جميع أهل الشرك فرجع ميسرة الى مكانه وهمّ أن يخرج اليه عامر بن الطفيل ، وقال أيها الأمير إنك قد عظمت قدر هذا الرومى الذميم وأدخلت فى قلوب المسلمين منه

الرعب فقال خالد ان الفرسان تعرف أكفاءها فى الحرب ومايخفى علىّ ماهو فيه من الشجاعة والشدّة وأنت لاتقاومه لأنه مابرز بين أصحابه و بين شجاعته الا وهو فارس فى قومه فقف فى مكانك فوقف عامر بن الطفيل فى مكانه ولم يخالف ، قال والعلج يدعو الى البراز والحرب فأقبل الى خالد الحرث بن عبد الله الازدى ، فلما وقف بين يديه قال أيها الأمير أخرج اليه قال خالد لعمرى ان لك جسارة وقوّة وشدّة وماعلمتك الاشهما ، فان شئت أن تخرج فاخرج على اسم الله واعزم فأخذ الازدى أهبته وهمّ أن يخرج . فقال خالد رضى الله تعالى عنه على رسلك ياعبد الله حتى أسألك فقال اسأل قال خالد هل بارزت أحدا قبله قال لاقال فارجع ياابن أخى ولاتخرج فانك غير مجرب الحروب وهذا فارس قد جرب الحرب وجربته وعرف مصادرها ، وما أحب أن يخرج اليه الارجل مثله بصير بالحروب وجعل خالد يقول ذلك وينظر الى قيس بن هبيرة فقال ياأبا سليمان انى أظنك تعرّض بى واياى تعنى أنا أبرز اليه قال خالد أبرز على اسم الله تعالى فانك كفء والله تعالى يعينك عليه وخرج قيس بن هبيرة وأجرى جواده حتى لين عريكته وكسر حدته ثم سرحه نحو البطريق وهو يقول بسم الله وعلى بركة رسول الله ﷺ وقرب من البطريق فلما نظر العلج الى فعاله علم أنه فارس شديد من فرسان المسلمين فعدل نحوه وقصد اليه وتحاملا قال فبادره قيس بن هبيرة وضربه على هامته فتلقاها العلج فى حجفته فقدّ سيف ابن هبيرة الحجفة ووصل الى البيضة فاشتبك فيها وهمّ أن يخرج سيفه فامتنع عليه وضرب العلج قيس بن هبيرة على حبل عاتقه فثبت للضربة والتقيا بعد الضربتين فطرح العلج نفسه عليه يريد أسره وهو جبار من الجبابرة ، وكان قيس بعد رجوعه من قتال أهل الردة قد عوّد نفسه الصيام والقيام وهو نحيف الجسم ، فلما نظر قيس الى العلج وقد ظهر عليه انجذب من يده و بعد عنه وجعل ينظر اليه شزرا ويضمر له مكرا الا أن سيفه قد خرج من يده فثنى عنان فرسه يريد عسكر المسلمين ليأخذ سيفا ويعود الى القتال وقد أيس من نفسه ، فلما عطف راجعا صاح العلج فى أثره وسعى فى طلبه فقصر قيس بن هبيرة فى سيره وقال فى نفسه أنت مادك الشهادة وتهرب من هذا العلج فرجع الى العلج فصاح به خالد ياقيس سألتك بالله ورسوله الارجعت وتركت حدتها علىّ فقال قيس ياخالد لقد أقسمت علىّ بعظيمين ولكن ان رجعت اليك أتزيد فى أجلى ؟ قال لاقال فلم أختار الفرار وأكون من أصحاب النار ، بل أصبر وأفوز بالغفران من الله تعالى ثم انه عطف على قرنه وليس فى يده سيف بل استل خنجرا كان معه على وسطه ، قال ونظر خالد الى قيس بن هبيرة وليس فى يده سيف . فقال من يأخذ هذا السيف ويدفعه الى قيس ابتغاء ثواب الله تعالى قال عبدالرحمن بن أبى بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنه أنا ياأباسليمان . فقال خالد أنت والله لها ياابن الصدّيق ، ثم أخذ عبدالرحمن سيفه ولحق قيس بن هبيرة يريد أن يناوله السيف ، فلما نظرت الروم الى عبدالرحمن وقد لحق بقيس ظنوا أنه يريد أن يعاون قيسا على صاحبهم فخرج عليه بطريق آخر وأقبل الى صاحبه ووقف بازائه ، قال فدفع عبدالرحمن السيف الى ابن هبيرة ووقف معه وجعل البطريق الآخر يتكلم بكلام لايفهمه عبد الرحمن . فقال عبد الرحمن ياويلك ماالذى تقول فما نعرف كلامك فخرج اليه ترجمان وقال له يامعشر العرب ألستم ذكرتم أنكم أصحاب نصفة وحق قال عبد الرحمن بلى قال الترجمان فما رأينا من نصفتكم شيئا يخرج فارسان الى فارس . قال عبد الرحمن انما خرجت لأعطى

صاحبي هذا السيف وأرجع ولوخرج الينا منكم مائة لواحد ما كبر علينا ولاعظم لدينا وها أنتم ثلاثة وأنا واحد وأنا لكم كفء ، قال فأخبر الترجمان صاحبه بذلك فجعل ينظر اليه شزرا ، فقال عبد الرحمن ياقيس قد تعبت فقف وتفرج علىّ وانظر ما يكون منى ومنهم ثم حمل عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق رضي الله عنهما على الذى كان يخاطبه فطعنه فى نحره فأخرج السنان يلمع من ظهره فوقع مجندلا ونظر العلجان الى صاحبهما مجندلا فحملا على عبد الرحمن وقصداه فأراد قيس بن هبيرة أن يعاونه عليهما . فقال له عبد الرحمن سألتك برسول الله ﷺ وبحق أبى بكر الا تركت عبد الرحمن يصطلى بهما فان قتلت فأنت شريكى فى الثواب وأقرئ عائشة منى السلام وقل لها أخوك قد لحق بيعلك وأبيك ، فتأخر قيس عنه وقد عجب من فعاله فحمل عبد الرحمن على أحد العلجين وهو الأوّل فطعنه برمحه فاشتبك السنان فى درعه فرمى عبد الرحمن الرمح من يده وانتضى سيفه وقام فى الركاب وضرب العلج بسيفه ضربة طرحه بها نصفين ونظر العلج الثالث الى عبد الرحمن وجراءته فبقى حائرا متعجبا من حاله ونظر قيس الى البطريق وهو متحير باهت فبانت له فيه غفلة . فقال مايوقفك ياقيس وحمل على البطريق وضربه ضربة هشم بها هامته فسقط الى الأرض صريعا ، فلما نظرت الروم الى أصحابهم قال بعضهم لبعض ماهؤلاء العرب الاشياطين .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وأخبر ماهان بفعالهم . فقال لقومه ان الملك كان أخبر بهؤلاء القوم وحق المسيح لقد أعلم أن لكم أمرا فان لم تحملوا عليهم بكثرتكم والافما تقوم لكم قائمة ، قل فأتاه بطريق من البطارقة وسارر ماهان فى أذنه طويلا ثم انزاح عنه ، وقد اصفرّ وجه ماهان وسكت كأنه أخرس فاستخبروا ماهان عما حدثه البطريق فلم يخبرهم قال فحدّث من رأى ذلك أنه سأل جبلة بن الأيهم . فقال لما أخبر ماهان بخبر الثلاثة وفيهم البطريق الأوّل قال ماهان انهم منصورون عليكم . فقال له البطريق فى أذنه أيها الملك الحق ماقلت اعلم أنى رأيت البارحة فى منامى كأن رجالا نزلوا من السماء الى الأرض وهم على دواب بلق وشهب وعليهم كامل السلاح وأحدقوا بهؤلاء العرب ونحن قيام بازائهم لايخرج أحد من عسكرنا الاقتلوه حتى أتوا على آكثرنا وأظن أنهم هؤلاء الذين نراهم فى اليقظة لأن واحدا منهم قتل ثلاثة منا وماهم الامنصورون علينا من السماء قال فكسر بهذا قلب ماهان فلم يردّ جوابا فاجتمع القوم يسألونه عما قاله البطريق فلم يخبرهم ، فلما أكثروا عليه السؤال تكلم فيهم كالخطيب ، وقال ياأهل هذا الدين انكم ان لم تقاتلوا كنتم من الخاسرين وغضب عليكم المسيح وان الله عزّ وجل لم يزل لدينكم ناصرا ومظهرا وان لله الحجة عليكم اذ بعث فيكم رسولا وأنزل عليه كتابا ولم يتبع رسولكم الدنيا وأمركم أن لاتتبعوها وفى كتابه لاتظلموا فانه لايحب الظلم ولا الظالمين ، فلما اتبعتم الدنيا وظلمتم وخالفتم نصر أعداؤكم عليكم فما عذركم عند خالقكم وقد تركتم أمر نبيكم وما أنزل عليكم فى كتاب ربكم ، وهؤلاء العرب بازائكم يريدون قتل فرسانكم وسبى ذراريكم ونسائكم وأنتم على المعاصى والذنوب ولا تخافون من علام الغيوب فان نزع الله سلطانكم من أيديكم وأظهر عدوّكم عليكم فذلك بحق منه وعدل لأنكم لاتأمرون بالمعروف ولاتنهون عن المنكر .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان ماهان لما سمع كلام البطريق الذى رآه فى المنام

أمره ان يكتمه ، وأما قيس بن هبيرة وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق فأخذا سلاحهم وأسلابهم ورجعا إلى المسلمين فدفعا السلب الى أبى عبيدة فقال هو لكما ، ومن قتل فارسا فله سلبه فكذا عهد الينا عمر بن الخطاب فأخذا السلب ووقف قيس فى موضعه الذى أقامه خالد فيه ورجع عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق الى ميدان الحرب فجال بين الصفين ، وكان قد ركب أشهب البطريق الذى قتله فرآه لاينبعث تحته كما عهد من خيل العرب فرجع وغيره من تحته بفرس غيره وحمل على ميمنة الروم فشوش صفوفهم وقتل منهم فارسين ورجع فحمل على القلب ثم انثنى على الميسرة فرشق بالسهام فرجع حتى وقف فى صدر الجيش وجعل يفزع الروم باسمه ويدعو الى البراز فخرج اليه علج من علوج الروم فما جال غير ساعة حتى قتله فخرج اليه آخر فقتله . فقال خالد : اللهم ارعه بعينك واحفظه فان عبد الرحمن قد اصطلى اليوم الحرب بنفسه ، ثم ان خالدا صاح به ياعبد الرحمن بحق شيبة أبيك و بيعته الارجعت الى مكانك فرجع حين أقسم عليه قال حزام بن غنم قلت لرجل ممن شهد اليرموك أكانت النساء معكم مشاهدات القتال ؟ قال نعم احداهن أسماء بنت أبى بكر زوجة الزبير بن العوام وخولة بنت الأزور ونسيبة بنت كعب وأم أبان زوجة عكرمة بن أبى جهل وعزة بنت عاص بن عاصم الضمرى مع زوجها مسلمة بن عوف الضمرى ورملة بنت طليحة الزبيرى ورعلة وأمامة وزينب وهند ويعمر ولبنى وأمثالهن رضى الله تعالى عنهن فلقد كن يقاتلن قتالا يرضين به الله ورسوله .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى عبد الملك بن عبد الحميد وكان قد شهد وقعة اليرموك وقال أولها شرر نار وآخرها ضرام الحرب ، وان كل يوم يأتى من القتال أصعب من اليوم الآخر ، قال عمرو بن جرير فشهدنا فى اليوم الأول حربا يسيرا وذلك أن ماهان أمر عشرة من الصفوف أن تحمل على المسلمين بعد أن قتل عبد الرحمن من قتل وحمل المسلمون عليهم فالتقت الرجال بالرجال فنظر أبو عبيدة وكان واقفا الى ماهان ولم يحمل على المسلمين فعلم أن الأمر يصعب فقال : لاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم وجعلوا يتلون قوله تعالى — الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل — ، قال ولم يزل الحرب بين الفريقين من قيام الشمس فى قبة السماء الى أن همت بالغروب ولم ينفصل الجمعان حتى فرق الليل بينهم ، فحينئذ افترق الجمعان وهم مايعرفون الا بالشعار وخرج كل قوم من العرب يهتفون بشعارهم وينادون بأنسابهم ورجعت كل فئة الى مكانها واستقبل المسلمين نساؤهم فصارت تجعل المرأة مرطها تمسح به عن وجه زوجها وتقول له أبشر بالجنة ياولى الله وبات المسلمون فى خير وسرور وأوقدوا النيران وذلك أن القتل فى أول يوم لم يتبين فى الفريقين ، بل قتل من الروم يسير ومن المسلمين عشرة رجال من حضر موت أحدهما يقال له مازن والثانى يقال له صارم وثلاثة من عسفان رافع ومجلى وعلى وواحد من الأنصار وهو عبد الله بن الأخرم وثلاثة من بجيلة وواحد من مراد وهو سويد ابن أخى قيس بن هبيرة فحزن عليه قيس لما فقده فعلم أنه فى القتلى فخرج قيس وخرج معه رجال من قومه حتى أتوا موضع المعركة وفتشوا عليه فلم يروه فلما هم بالرجوع نظر الى نار قد أقبلت من جهة الروم يطلبون مكان الوقعة وهم يطلبون بطريقا كان معظما عندهم . فقال قيس لجماعته أخمدوا ناركم فوالله لآخذن بثارا بن أخى من هؤلاء القوم قال فأخمدوا نارهم ورقدوا

بين القتلى وتأهبوا للقتال واذا بالروم قد أتوا وهم نحو مائة وهم فى زينـة عظيمة وآلة وعدّة وكان مع قيس سبعة من قومه فقالوا له ان القوم مائة ونحن سبعة وقدمنا من التعب . فقال قيس ارجعوا أنتم وانى والله أطلب الموت لاأريد غـيره وأجاهـد فى الله حق جهاده فعجبوا من قوله ووقفوا معه وقفة الكرام وأقبلت الأعلاج يريدون المعركة ويدورون بين القتلى وقدوقفوا بالعلج وهو الذى برز أوّلا وقتـله ابن أبى بكر الصدّيق ، فلما احتملوه وولوا يريدون عسكرهم صاح فيهم قيس من ورائهم وتابعـه أصحابه بالصياح فذهلوا ورموا البطريق ووضع المسلمون السيف فيهم وجعلوا يقتلونهم قتلا ذريعا وكان قيس اذا ضرب فيهم يقول هـذا عن ابن أخى قال فقتل منهم ستة عشر رجلا وقتل أصحابه أكثر القوم وانفلت الباقون ، فلما فرغ قيس من القوم عاد يطلب ابن أخيه نحو عسكر الروم فسمع أنينا فأقبل نحوه ، فاذا هو ابن أخيه سويد بن بهرام المرادى ، فلما عرفه بكى ، فقال ماأبكاك ياابن أخى ؟ فقال ياعمـاه انى تبعت القوم فرجع الىّ واحـد منهم وطعننى فى صدرى وإنى لأعالج منها أمرا عظيما ، وهؤلاء الحور العين فى حذائى ينتظرون خروج روحى ، قال فبكى قيس وقال ياابن أخى لكل أجل كتاب ولعلّ أن يكون فى أجلك طول فقال هيهات والله ياعم أفتقـدر أن تحملنى الى عسكر المسلمين فأموت هناك قال أجل ، قال ثم احتملته على ظهرى وأقبلت به الى عسكر المسلمين وقصدت به الى رحله . وسجيته وسمع أبوعبيدة بمجىء قيس فأتى اليه ورأى الغلام يجود بنفسه فجلس عند رأسه وبكى وبكت المسلمون فقال له أبو عبيدة كيف تجدك ياابن أخى فقال بخيروالله وغفران وجزى الله محمدا عنا خيرا ولقد صدقنا فى قوله وهذه الحور تنادى وتشخص فمات قال فما برحنا حتى واريناه بالتراب قال وأخبره قيس بمن قتل فى تلك الليلة من المشركين ففرح فرحا شـديدا وعلم أن ذلك علامة النصر قال وبات الناس فى ليلتهم يقرءون القرآن ويصلون ويسألون المعونة والنصر . قال وأما ماهان فانه لما رجع إلى عسكره اجتمع اليه البطارقة والرهبان والقسوس فقدّموا له طعاما ومدوا له سماطا فلم يأكل منـه شيئا مما وقع فى نفسه من الرؤيا التى رآها البطريق وكان ماهان يود لوترك الأمر وصالح على أداء الجزية ولـكنه كان مغلوبا على أمره وأقبلت الملوك والقسوس والبطارقة والرهبان على ماهان وقالوا مابال الملك امتنع من الطعام ؟ فان كان ذلك من غمه على من مات وعلى ماجرى عليه من الحرب فان الحرب سجال فيوم لك ويوم عليك ، واعلم أيها الملك أن القوم بنا ظافرون وما تملـكهم الا أن نحمل عليهم فلا يبقى منهم أحد، قال ماهان ما أظنـكم غير منصورين الامن تغير أديانـكم والجور فى سلطانـكم فبهذا نصرت العرب عليـكم ، فقام اليه رجل وقال أيها الملك عشت الدهر وأنا رجل من أهل دينـكم وكان لى مائة رأس من الغـنم وكان فيها ولدى يرعاها فضرب عظيم من عظماء أصحابك الفسطاط الى جانبها ثم انه عدا عليها فأخذ منها حاجته وأخـذ بقيتها أصحابه فجاءته زوجتى تشـكو اليه انتهاب غنمى ، فلما رآها أمر بها فأدخلت اليه فطال مكثها عنده فلما رأى ولدها ذلك دنا من الفسطاط فاذا هو يجامع أمه فصاح الغلام فأمر البطريق بقتـل الغلام فقتل فأتيت أريد خلاص ولدى وزوجتى فأمربى فضربت بالسيف فتلقيت الضربة بيدى فقطعها ، ثم انه أخرج يده فاذا هى مقطوعة ، قال فغضب ماهان عند ذلك غضبا شديدا وقال للمعاهد أتعرف هذا البطريق الذى فعل بك ذلك قال نعم هو هذا وأومأ بيده الى بطريق من البطارقة فنظر اليه ماهان مغضبا قال

فغضب البطريق وغضب البطارقة لغضبه ومالوا على المعاهد فضربوه بأسيافهم حتى قطعوه وماهان ينظر اليهم فزاد غضبه وقال خذلتم وهلكتم وحق المسيح ياويلكم ترجون النصر وأنتم تفعلون هذه الفعال أما تخافون القصاص غدا وإن الله ينتقم منكم وينزع منكم صالح ماأعطاكم ويعطيه غيركم ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فوالله أنتم الآن عندى كالكلاب وسوف ترون عاقبة هذا كله والى أىّ مصير مصيركم يكون ؛قال ثم انه قام وتركهم ، فلما انصرف القوم ولم يبق عنده الا بطريق واحد قال له أيها الملك والله ان القوم لكما تقول وما أظن الا أننا مغلوبون ، واعلم أنى رأيت فى منامى كأن رجالا نزلوا من السماء على خيل شهب فأحدقوا بهؤلاء العرب وعليهم كامل السلاح ونحن وقوف بازائهم فنظرت اليهم ولايخرج منا أحد الاقتلوه حتى أتوا على أكثرنا وذكر له كما قال ذاك الأوّل فأقبل ماهان يفكر طول ليلته فيما يصنع فى أمر المسلمين ، فلما أصبح الصباح عبى المسلمون صفوفهم ونظروا الى عسكر الروم واذا فيه ارتعاد وانزعاج فعلموا أن لهم أمرا .

[قال أبوعبيدة] دعوهم ولاتبقوا عليهم فان الباغى مخذول ، قال واجتمعت البطارقة والملوك الأربعة الاماهان ، وهم قناطر وجرجير والديرجان وقورين وهم أصحاب الجيش يستأذنونه فى الحرب فقال ماهان وكيف لى أن أقاتل بقوم يظلمون إن كنتم أحرارا فقاتلوا عن سلطانكم وامنعوا عن حريمكم ، فقالوا الآن أحببنا الحرب فوحق المسيح لانفارقهم حتى ننفيهم من الشام الى بلادهم أويقتلونا أونقتلهم فثق بقولنا وانهض بنا إليهم ، فاذا عزمت على القتال فدع كل واحد منا يقاتل يوما حتى تعرف منا من هو أفرس وأشد ويضجر المسلمون من المطاولة ونجمع عيالنا وأطفالنا وأموالنا ، فان كانت على العرب رددنا كل شىء الى مكانه ،وان كانت للعرب علينا ألحقوا ببلادهم وقومهم ويكون الأمر بيننا وبينهم فى يوم واحد أو يومين ، فقال له ماهان لعنه الله هذا هو الرأى أمهلوا الى أن أكتب الى الملك بمثل ذلك ثم انه كتب الى هرقل : أما بعد فأسأل الله لك أيها الملك ولجيشك النصر ولأهل سلطانك العزّ والنصر وانك بعثتنى فيما لايحصى من العدد وانى قدمت على هؤلاء العرب فنزلت بساحتهم وأطمعتهم فلم يطمعوا وسألتهم الصلح فلم يقبلوا وجعلت لهم جعلا على أن ينصرفوا فلم يفعلوا وقد فزع جند الملك منهم فزعا شديدا وانى خشيت أن يكون الفشل قد عمهم والرعب قد دخل فى قلوبهم وذلك لكثرة الظلم فيهم وقد جمعت ذوى الرأى من أصحابى وذوى النصيحة للملك وقد أجمع رأينا على النهوض اليهم جميعا فى يوم واحد ولانزايلهم حتى يحكم الله بيننا فان أظهر الله عدوّنا علينا فارض بقضاء الله ، واعلم أن الدنيا زائلة عنك فلا تأسف على مافات منها ولاتغتبط منها بشىء فى يدك والحق بمعاقلك وبدار ملكك بالقسطنطينية وأحسن الى رعيتك يحسن الله اليك وارحم ترحم وتواضع لله يرفعك الله فانه لايحب المتكبرين ولقد عملت حيلة فى احضار أميرهم خالد ومنيته ورغبته فما أجاب ورأيته على الحق مقيما فأردت أن أفتك به وأمكر نخفت عاقبة المكر والغدر ومانصر هؤلاء الابالعدل واتباع الحق بينهم والسلام ، ثم طوى الكتاب وبعث به مع أصحابه من العلوج .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وبقى ماهان سبعة أيام أخر بعد الوقعة الأولى لم يقاتل المسلمين ولم يقاتلوه ، وبعث أبوعبيدة برجل من عيونه ينظر ماالذى أخر الروم عن القتال فغاب

الرجل يوما وليلة ثم عاد وأخبر أباعبيدة أن ماهان قد كاتب الملك وهو منتظر الجواب فقال خالد ابن الوليد ماتأخر ماهان عن قتالنا الا وقد وقع الفزع فى قلبه فازحف بنا اليهم . فقال أبوعبيدة رضى الله تعالى عنه : لاتعجل فان العجلة من الشيطان .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان أبوعبيدة رجلا لين العريكة يحب الرفق ، فلما كان فى اليوم الثامن نظر ماهان الى تلهف أصحابه على الحرب والقتال فعزم أن يلقى بهم المسلمين وقد فرح بنشاطهم فدعا برجل من المتنصرة من لخم وقال له اذهب فادخل هؤلاء العرب وتجسس لى أخبارهم وانظر ماعندهم ، قال فمضى اللخمى حتى دخل عسكر أصحاب رسول الله ﷺ فأقام فيهم يوما وليلة يطوف فى عسكرهم وليس أحد من المسلمين ينكره وهم آمنون وليس لهم همة الا اصلاح شأنهم والصلاة والقرآن والتسبيح ، وليس فيهم عدوان ولاظلم ولا أحد يتعدى على أحد ، وقصد الموضع الذى فيه أبوعبيدة رضى الله عنه فنظر اليه كأنه أضعف ضعيف فى العرب ساعة يجلس على الأرض وساعة ينام عليها ، فاذا كان وقت الصلاة قام وأسبغ الوضوء وأذن المؤذنون وصلى بالناس ونظر المتنصر الى المسلمين وهم يصنعون كصنعه . فقال المتنصر ان هذه طاعة حسنة ويوشك أنهم ينصرون ، قال فرجع الى ماهان وحدثه بما رأى من القوم وماعاينه ، وقال أيها الملك انى جئتك من قوم يصومون النهار ويقومون الليل ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وهبان فى الليل ليوث بالنهار ولوسرق واحد منهم ولوكان كبيرهم قطعوه ، ولو زنا رجموه لايغلب هواهم على الحق ، بل الحق عندهم غالب ، وأميرهم كأضعف من فيهم الا أنه مطاع عندهم ، ان قام قاموا وان قعد قعدوا ، مناهم القتال ، وشهوتهم النزال ومرادهم أن يموتوا شهداء فى قتالكم وما تأخروا عن قتالكم الا ليكون البغى منكم اذا بدأتموهم . فقال ماهان هؤلاء القوم منصورون غير أنى قد وجدت حيلة أعملها عليهم . فقال المتنصر ما الحيلة أيها الملك ؟ فقال ماهان ألست زعمت أنهم لايبدءون بالقتال حتى نقاتلهم فنكون نحن الباغين . قال نعم . قال فانا لانطلب الحرب بل نطوّل بيننا وبينهم ونهدهم على حين غفلة دون عدة منهم ولاأخذ حذرهم فعسى أن نظفر بهم . قال ثم ان ماهان جمع الملوك وجعل يعقد لهم الرايات والصلبان حتى عقد ستين ومائة صليب تحت كل صليب عشرة آلاف ، وكان أول صليب عقد لقناطر وكان نظيره فى الرتبة وأمره أن يكون فى الميمنة . ثم عقد صليبا للديرجان وضم اليه الأرمن والنجد والنوبة والروسية والصقالبة . ثم عقد لابن أخت الملك صليبا على الافرنج والهرقلية والقياصرة والبرقل والدوقس ، وعقد لجبلة بن الأيهم عقدا وضم اليه المتنصرة من لخم وجذام وغسان وضبة وأمره أن يكون على المقدمة ، وقال أنتم عرب وأعداؤنا عرب والحديد لايقطعه الا الحديد ، ثم فرق الأعلام فى أجناد عسكره . فما انفجر الفجر وبان الصباح وأضاء بنوره ولاح حتى فرغ من تعبية جيوشه وترتيب طلائعه وأمر بمضرب له فضرب على كثيب عال على جانب اليرموك يشرف منه على العسكرين ، وأوقف عن يمينه ألف فارس عتاة حماة الروم شاكين السلاح وعن يساره كذلك وهم الملكية وأصحاب السرير وأمرهم باليقظة . وقال : أى كرب يكون على العرب أعظم من هذه فانكم على تعبية وهم على غير أهبة ، فاذا طلعت الشمس ورأيتم المسلمين على غير تعبية ، فاحملوا عليهم من كل جانب ومكان ، فما هم فى عسكرنا الا كالشامة البيضاء فى جلد

الثور الأسود . هكذا سمعت اياد بن غالب الحيرى يذكر وكان من المعمرين . قال حدثنى جواد ابن أسيد السكاسكى عن أبيه أسد بن علقمة ، فلما انشق الفجر أذن المؤذن وتقدم أبو عبيدة وصلى بالناس وهو لا يعلم بمكيدة ماهان فقرأ فى أول ركعة ـ والفجر وليال عشر ـ حتى قرأ ـ ان ربك لبالمرصاد ـ اذ هتف بهم هاتف وهم فى الصلاة وهو يقول : ظفرتم بالقوم ورب العزة ومايغنى عنهم كيدهم شيئا وماأجرى الله هذه الآية على لسان أميركم الا بشارة لكم . فلما سمع المسلمون كلام الهاتف عجبوا مما سمعوا ، ثم قرأ فى الركعة الثانية ـ والشمس وضحاها ، الى قوله : فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ولايخاف عقباها ـ واذا بالهاتف يقول : تمّ الفأل وصح الزجر وهذه علامة النصر . فلما فرغ أبو عبيدة من صلاته . قال يامعاشر المسلمين : هل سمعتم الهاتف ؟ قالوا نعم سمعنا قائلا يقول كذا وكذا ، فقال أبو عبيدة والله هذا هاتف النصر و بلوغ الأمل فابشروا بنصر الله ومعونته فوالله لينصرنكم الله وليرسلنّ عليهم سوط عذاب كما أنزل على القرون الأول ، ثم قال أبو عبيدة : معاشر القوم إنى رأيت الليلة فى منامى رؤيا تدل على النصر على الأعداء والمعونة من الملأ الأعلى ، فقالوا أصلح الله شأن الأمير فما الذى رأيت ؟ قال رأيت كأنى واقف بازاء أعدائنا من الروم اذ حف بنا رجال وعليهم ثياب بيض لم أر كهيئتها حسنا ، لبياضها اشراق ونور يغشى الأبصار وعلى رؤسهم عمائم خضر وبأيديهم رايات صفر وهم على خيول شهب ، فلما اجتمعوا حولى قالوا تقدموا على عدوّكم ولاتهابوهم فانكم غالبون ، فان الله ناصركم ، ثم دعوا برجال منكم وسقوهم بكاس كان معهم فيه شراب ، وكأنى أنظر عسكرنا وقد دخل فى عسكر الروم فلما رأونا ولوا بين أيدينا منهزمين ، فقال رجل من المسلمين أصلحك الله أيها الأمير وأنا رأيت الليلة رؤيا ، فقال أبو عبيدة خيرا تكون ان شاء الله تعالى ماالذى رأيت يرحمك الله ؟ فقال رأيت كأنا خرجنا نحو عدوّنا فصاففناهم للحرب ، وقد انقضت عليهم من السماء طيور بيض لها أجنحة خضر ومخاليب كمخاليب النسور ، فجعلت تنقضّ عليهم كانقضاض العقبان ، فاذا جاءت للرجل ضربته ضربة فيقع قطعا . قال ففرح المسلمون بتلك الرؤيا ، وقال بعضهم لبعض أبشروا فقد أمنكم الله وأيدكم بالنصر وأمدكم بملائكته تقاتل معكم كما فعل بكم يوم بدر . قال فسر أبو عبيدة بذلك ، وقال هذه رؤيا حسنة ، وهى حق وتأويلها النصر وإنى أرجو من الله تعالى النصر وعاقبة المتقين ، فقال رجل من المسلمين : أيها الأمير ماوقوفنا عن هؤلاء الكلاب الاعلاج وماانتظارك للحرب وعدوّ الله يريد كيدنا بمطاولته وما تأخر عنا الا لبلية يريد أن يوقعنا بها . قال أبو عبيدة ان الأمر أقرب مما تظنون . قال سعيد بن رفاعة الحيرى فبينما نحن كذلك اذ سمعنا الأصوات قد علت والزعقات قد ارتفعت من كل جانب يهتفون بالقتال وإن الروم قد زحفت الينا فظن أبو عبيدة أن المسلمين قد كبسوا فى وجه السحر فقام ليرى وكان على حرس المسلمين تلك الليلة سعيد بن زيد وعمرو بن نفيل العدوى رضى الله تعالى عنهما ، اذأقبل سعيد وهو ينادى : النفير النفير حتى وقف أمام أبى عبيدة ومعه رجل من المتنصرة ، فقال : أيها الأمير ماهان كاد المسلمين بتخلفه عن الحرب ، وها هو قد عبى عساكره وصف جيوشه وزحف علينا زحف من يريد الكبسة بنا ، ونحن على غير أهبة ولاعدّة ، وهذا الرجل قد أقبل الينا راغبا فى الاسلام محذرا لنا من بأسه ويزعم أن ماهان قد قدّم الينا حماة البطارقة ، وقد اتفق رأيهم على أن يقاتلنا

كل ملك من ملوكهم بمن معه وهـذا أصعب القتال . ونظر المسلمون الى رايات الروم تقرب منهم والصلبان تدنو . فقال أبو عبيدة : لاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم . ثم قال أين أبو سليمان خالد بن الوليد ؟ فأجابه بالتلبية ، فقال له أنت لى ياأبا سليمان فابرز فى أبطال المسلمين وصد عن الحريم الى أن تأخذ الرجال صفوفها وتستعد بآلات حربها ، فقال حبا وكرامة فنادى خالد أين الزبير بن العوام ، أين عبدالرحمن بن أبى بكر ، أين الفضل بن العباس ، أين يزيد بن أبى سفيان ، أين ربيعة بن عامر ، أين ميسرة بن مسروق العبسى ، أين ميسرة بن قيس ، أين عبد الله بن أنيس الجهنى ، أين صخر بن حرب الأموى ، أين عمارة الدوسى ، أين عبد الله بن سلام ، أين غانم الغنوى أين المقداد بن الأسود الكندى أين أبو ذر الغفارى أين عمرو بن معديكرب الزبيدى أين عمار بن ياسر العبسى أين ضرار بن الأزور أين عامر بن الطفيل أين أبان بن عثمان بن عفان ، وجعل خالد يدعوهم رجلا بعد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ وكل رجل منهم يلتقى جيشا فاجتمعوا الى خالد بأجمعهم واشتغلوا بالحرب واشتغل أبو عبيدة بترتيب الصفوف وتعبية العساكر فأقبل أبو سفيان الى أبى عبيدة ، وقال له أيها الأمير مر نساءنا أن يعلون على هذا التل . قال نعم الرأى مارأيت فأمرهن بذلك ففعلن وعلون على التل وحصن أنفسهن وأولادهن ومعهن الأطفال والأولاد ، فقال لهن أبو عبيدة خذن بأيديكن أعمدة البيوت والخيام واجعلن الحجارة بين أيديكن وحرضن المؤمنين على القتال ، فان كان الأمر لنا والظفر فكن على ماأنتن عليه وان رأيتن أحدا من المسلمين منهزما فاضربن وجهه بأعمدتكن واحصبنه بحجارتكن وارفعن اليه أولادكن وقلن له قاتل عن أهلك وولدك وعن دين الاسلام ، فقال النساء أيها الأمير أبشر بما يسرك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] فلما حصن أبوعبيدة النساء على التل أقبل يعبى جيشه وقد ابتدر الناس القتال بعد ماعباهم ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين وقدم أصحاب الرايات وكانت راية المهاجرين صفراء وفيها أبيض وأخضر وأسود وسائر القبائل أيضا راياتهم مختلفة، وجعل المهاجرين والأنصار فى القلب وأظهر المسلمون العدة والسلاح وجعل عسكره ثلاثة صفوف فصف فيه النبلة من أهل اليمن ، وصف فيه أصحاب الخيل والعدة وقسم الخيالة ثلاثة فرق فجعلها فى الثلاثة صفوف ، واستعمل عليهم ثلاثة من المسلمين ، أحدهم غياث بن حرملة العامرى : والثانى مسلمة بن سيف اليربوعى ، والثالث القعقاع بن عمرو التميمى ووقف المسلمون تحت راياتهم ووقف أبوعبيدة تحت رايته التى عقدها له أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يوم مسيره الى الشام ، وهى راية رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفراء التى سار بها يوم خيبر ، قال ومع خالد راية العقاب وكانت سوداء وجعل على الرجالة شرحبيل بن حسنة وعلى الجناح الأيمن يزيد بن أبى سفيان وعلى الأيسر قيس بن هبيرة ، فلما ترتبت الصفوف سار أبوعبيدة بين الصفوف وجعل يحرض المؤمنين على القتال ويقول — ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم — والزموا الصبر فان الصبر منجاة من الكرب ومرضاة للرب ، ومقمعة للعدو فلاتزايلوا صفوفكم ولا تنقضوا نيتكم ولا تخطوا خطوة الا وأنتم تذكرون الله ولا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم وشرعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت الامن ذكر الله ولا تحدثوا حدثا حتى آمركم ، ثم رجع الى مقامه من القلب فوقف فيه ثم خرج من بعده معاذ بن جبل فطاف على الناس

محرضا لهم يقول : ياأهل الدين وياأنصار الهدى والحق اعلموا رحمكم الله تعالى أن رحمة الله لاتنال الا بالعمل والنية ولاتدرك بالمعصية والتمنى بغير عمل مرضى ، ولا تدخل الجنة الا بالأعمال الصالحة مع رحمة الله ، ولايؤتى الله الرحمة والمغفرة الواسعة الا الصابرين والصادقين ، ألم تسمعوا قوله جل من قائل — وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون — واستحيوا من الله أن يراكم فى فرار من عدوّكم وأنتم فى قبضته ليس لكم ملجأ من دونه ولم يزل معاذ يقول ذلك الى أن رجع الى مقامه ، ثم خرج سهل بن عمرو فمشى بين الصفوف وهو شاكى السلاح وراكب فرسه متقلد سيفه وهو يقول مثله ، ثم رجع وخرج من بعده أبوسفيان فطاف بين الصفوف وهو شاكى السلاح راكب فرسه متقلد سيفه معتقل رمحه وهو يقول : معاشر العرب الكرام السادة العظام قد أصبحتم فى ديار الاعلاج منقطعين عن الأهل والأوطان ، ووالله لاينجيكم منهم الا الطعن الصائب فى أعينهم والضرب المتدارك فى هاماتهم ، وبذلك تبلغون أربكم وتنالون الفوز من ربكم . واعلموا أن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجى به من الغم فاصدقوا القتال فان النصر ينزل مع الصبر فان صبرتم ملكتم بلادهم وأمصارهم واستعبدتم أبناءهم ونساءهم ، وان وليتم فليس بين أيديكم الامفاوز لاتنقطع الابالزاد الكثير والماء الغزير ولا ترجعوا الى دور ولاالى قصور فامنعوا بسيوفكم وجاهدوا فى الله حق جهاده ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، قال ثم خرج من بين الصفوف وأقبل على النساء وهنّ على التل وفيهن المهاجرات وبنات الأنصار وغيرهنّ من نساء المسلمين ومعهن أولادهن . فقال لهنّ ان رسول الله ﷺ قال « إن النساء ناقصات عقل ودين » فكن ممن احتفظن على أديانهن وقدمن فى ذلك النية وحرضن أزواجهن على القتال ، ومن رجع منهم منهزما فاحصبن وجهه بالحجارة واضربن جواده بالعمد وأظهرن أولادكن لأزواجكن حتى يرجعوا . قال فوقف النساء وهن مستعدات متنمرات مرتجزات بأشعارهن ورجع أبوسفيان الى موضعه وهو يقول : معاشر المسلمين قد حضر ماترون ، وهذا رسول الله ﷺ والجنة أمامكم والشيطان والنار وراءكم وأقبل حتى وقف مكانه ولم تغن مكيدة ماهان شيئا ورجعت الروم الى ورائها حين نظروا خالدا زحف اليهم فى خمسمائة فارس ، فخافوا لذلك ورجعوا حتى اصطفت الصفوف وعبى المسلمون كتائبهم . فقال ماهان مايوقفكم عن قتالهم فازحفوا اليهم ، فزحف الروم الى المسلمين فنظر خالد الى جيش عظيم عرمرم . قال وكان ماهان قد أنفذ ثلاثين ألفا من عظمائهم فحفروا لهم فى الميمنة حفائر ونزلوا فيها وشدوا أرجلهم بالسلاسل واقترن كل عشرة فى سلسلة التماسا لحفظ عسكرهم وحلفوا بعيسى بن مريم والصليب والقسيسين والرهبان والكنائس الأربع أن لا يفروا حتى يقتلوا عن آخرهم ، فلما نظر خالد الى ماصنعوا قال لمن حوله من جيش الزحف هذا يوشك أن يكون يوما عظيما ، ثم قال اللهم أيد المسلمين بالنصر ، ثم أقبل على أبى عبيدة وقال أيها الأمير ان القوم قد اقترنوا فى السلاسل وزحفوا الينا بالقواضب ويوشك أن يكون على الناس يوما عظيما . فقال لهم ان العدوّ عدده كثير وما ينجيكم الا الصبر ، ثم قال لخالد فماالذى ترى من الرأى ياأباسليمان .

[قال الواقدى] وكان ماهان قدّم من الروم من عرفت شجاعته وعلمت براعته واشتهر بالثبات فى بلادهم وهم مائة ألف . فلما نظر خالد اليهم شهد لهم بالفروسية وإنهم من أهل الشدة وقال لأبى عبيدة : ان الرأى عندى أن توقف فى مكاننا الذى أنت فيه سعيد بن زيد وتقف أنت من وراء الناس فى مائتين وفى ثلثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ . فاذا علم الناس انك من ورائهم استحيوا من الله ثم منك أن يفروا . قال فقبل أبو عبيدة مشورته ودعا سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة فأوقفه أبو عبيدة مكانه ، ثم انتخب أبو عبيدة مائتى فارس من اليمن وفيهم رجال من المهاجرين والأنصار ووقف بهم من وراء الجيش بحذاء سعيد بن زيد ،

[قال حدثنى] ورقة بن مهلهل التنوخى وكان صاحب راية أبى عبيدة يوم اليرموك . قال وكان أوّل من فتح باب الحرب يوم اليرموك فى جيش السلاسل غلام من الأزد حدثا كيسا . فقال لأبى عبيدة أيها الأمير انى أردت أن أشفى قلبى وأجاهد عدوّى وعدوّ الاسلام وأبذل نفسى فى سبيل الله تعالى لعلى أرزق الشهادة ، فهل تأذن لى فى ذلك وان كان لك حاجة الى رسول الله ﷺ فاخبرنى بها . قال فبكى أبو عبيدة وقال اقرئ رسول الله صلى الله عليه وسلم منى السلام وأخبره انا وجدنا ماوعدنا ربنا حقا . قال ثم دفع الغلام الأزدى جواده وحمل يريد الحرب فخرج اليه علج من الروم قام من الرجال على فرس أشهب ، فلما رآه الغلام قصد نحوه وقد احتسب نفسه فى سبيل الله تعالى فلما قرب منه قال :

لابدّ من طعن وضرب صائب ... بكل لدن وحسام قاضب
عسى أنال الفوز بالمواهب ... فى جنة الفردوس والمراتب

قال وبعد شعره حمل كل منهما على صاحبه وابتدأ الغلام الأزدى الرومى بطعنة فجدله صريعا وأخذ عدته وجواده وسلم ذلك لرجل من قومه وعاد الى البراز فخرج اليه آخر فقتله وثالث ورابع فقتلهم فخرج اليه خامس فقتل الأزدى فغضبت الأزد عند ذلك ودنت من صفوف المشركين فعندها أقبلت الروم وزحفت كالجراد المنتشر حتى دنا طرفهم من ميمنة المسلمين . فقال أبو عبيدة ان أعداء الله قد زحفوا عليكم فنكلوهم واعلموا أن الله معكم وثبتوا نفوسكم بالصبر والصدق واللقاء والنصر من الله ، ثم رمق الى السماء بطرفه وقال : اللهم إياك نعبد وإياك نستعين ولك نوحد ولا نشرك بك شيئا وان هؤلاء أعداءك يكفرون بك وبآياتك ويتخذون لك ولدا : اللهم زلزل أقدامهم وأرجف قلوبهم وأنزل علينا السكينة وألزمنا كلمة التقوى وآمنا عذابك يامن لاتخلف الميعاد : اللهم انصرنا عليهم يامن قال فى كتابه العزيز — واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير — قال فبينما هو يدعو بهذه الدعوات إذ حملت الروم على ميمنة المسلمين وكان فيها الأزد ومذحج وحضرموت وخولان فحملت عليهم الروم حملة منكرة فصبروا لهم صبر الكرام وقاتلوا قتالا شديدا وثبتوا ثباتا حسنا وحملت عليهم كتيبة ثانية فصبروا صبرا جميلا وحملت عليهم كتيبة ثالثة فأزالوا المسلمين عن الميمنة ، فابتدر منهم عمرو بن معد يكرب الزبيدى وهو المقدّم على زبيد والأمير عليهم وهم يعظمونه لما سبق من شجاعته فى الجاهلية وكان يوم اليرموك قد مر له من العمر مائة وعشرون سنة الا أن همته الشجاعة ، فلما نظر الى قومه وقد انكشفوا صاح فى

قومه : يا آل زبيد يا آل زبيد تفرون من الأعداء وتفزعون من شرب كاس الردى أترضون لأنفسكم بالعار والمذلة فما هذا الانزعاج من كلاب الاعلاج : أما علمتم أن الله مطلع عليكم وعلى المجاهدين والصابرين ، فاذا نظر اليهم وقد لزموا الصبر فى مرضاته وثبتوا لقضائه أمدهم بنصره وأيدهم بصبره فأين تهربون من الجنة أرضيتم بالعار ودخول النار وغضب الجبار . قال فلما سمعت زبيد كلام سيدهم عمرو بن معد يكرب رجعوا اليه وعطفوا عليه عطفة الابل على أولادها فاجتمعوا حوله وهم زهاء من خمسمائة فارس وراجل وشدوا على القوم شدة واحدة وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان وحملوا حملة صعبة فأزالوا الروم عن أماكنهم وحملت دوس مع أبى هريرة وهز رايته وهو يحرض قومه على القتال ويقول : أيها الناس سارعوا الى معانقة الحور العين فى جوار رب العالمين ، ومامن موطن أحب الى الله من هذا الموطن : ألاوان الصابرين قد فضلهم الله على غيرهم الذين لم يشهدوا مشهدهم ، فلما سمعت دوس كلامه طافوا به وحملوا على الروم حملة منكرة ودارت بينهم الحرب كما تدور الرحى وتكاثرت جوع الروم على ميمنة المسلمين ، فعادت الخيل تنكص باذنابها راجعة على أعقابها منكشفة كانكشاف الغنم بين أيدى الأسد ونظرت النساء خيل المسلمين راجعة على أعقابها فنادت النساء يابنات العرب دونكن والرجال ردوهم من الهزيمة حتى يعودوا الى الحرب . قالت سعيدة بنت عاصم الخولانى كنت فى جملة النساء يومئذ على التل ، فلما انكشفت ميمنة المسلمين صاحت بنا عفيرة بنت غفار وكانت من المترجلات البازلات ونادت : يانساء العرب دونكن والرجال واحملن أولادكن على أيديكن واستقبلنهم بالتحريض فأقبلت النسوة يرجمن وجوه الخيل بالحجارة ، وجعلت ابنة العاص بن منبه تنادى قبح الله وجه رجل يفر عن حليلته ، وجعل النساء يقلن لأزواجهن لستم لنا ببعولة ان لم تمنعوا عنا هؤلاء الاعلاج . قال العباس بن سهل الساعدى كانت خولة بنت الأزور وخولة بنت ثعلبة الانصارية وكعوب ابنة مالك بن عاصم وسلمى ابنة هاشم ونعم ابنة فياض وهند ابنة عتبة بن ربيعة ولبنى ابنة جرير الحيرية متحزمات وهن أمام النساء والمزاهر معهن ، وخولة تقول هذه الأبيات :

ياهاربا عن نسوة ثقات　　لها جمال ولها ثبات　　تسلموهن الى الهنات
تملك نواصينا مع البنات　　أعلاج سوق فسق عتاة　　ينلن منا أعظم الشتات

قال ورجعت الفرسان تحرض الفرسان على القتال ، فرجع المنهزمون رجعة عظيمة عند ماسمعوا تحريض النساء وخرجت هند ابنة عتبة وبيدها مزهر ومن خلفها نساء من المهاجرين وهى تقول الشعر الذى قالته يوم أحد وهو هذا :

نحن بنات طارق　　نمشى على النمارق　　مشى القطا الموافق　　قيدى مع المرافق
ومن أبى نفارق　　أن تغلبوا نعانق　　أو تدبروا نفارق　　فراق غير وامق
هل من كريم عاشق　　يحمى عن العواتق

قال ثم استقبلت خيل ميمنة المسلمين فرأتهم منهزمين فصاحت بهم الى أين تنهزمون والى أين تفرون من الله ومن جنته وهو مطلع عليكم ونظرت الى زوجها أبى سفيان منهزما فضربت وجه حصانه بعمودها ، وقالت له الى أين يا ابن صخر ارجع الى القتال وابذل مهجتك حتى

تمحص ماسلف من تحريضك على رسول الله ﷺ . قال الزبير بن العوّام ، فلما سمعت كلام هند لابى سفيان ذكرت يوم أحد ونحن بين يدى رسول الله ﷺ . قال فعطف أبو سفيان عند ماسمع كلام هند وعطف المسلمون معه ونظرت الى النساء ، وقد جاءن معهم وقد رأيتهن يسابقن الرجال و بأيديهن العمد بين أرجل الخيل ولقد رأيت منهن امرأة ، وقد أقبلت الى علج عظيم ، وهو على فرسه فتعلقت به ومازالت به حتى نكسته عن جواده وقتلته ، وهى تقول هذا بيان نصر الله المسلمين ، قال الزبير بن العوام وحمل المسلمون حملة منكرة لايريدون غير رضا الله ورسوله ، وقاتلت الأزد مع أبى هريرة وفشافيهم القتل وأصيب منهم خلق كثير لأنهم تلقوا الصدمة الأولى بأنفسهم واستشهد منهم مالم يستشهد من غيرهم . قال سعيد بن زيد كان القتال فى الميمنة شديدا وكان المسلمون ينهزمون تارة ويعودون مرة وساعة نصبر وساعة نتأخر . قال ونظر خالد بن الوليد الى الميمنة ، وقد وصلت الى القلب فصاح بمن معه من الخيل ومال عليهم فمالوا وكانوا زهاء من ستة آلاف فكبر وحمل على الروم فنكى بهم نكاية عظيمة حتى كشف أعداء الله عن الميمنة والقلب الى أن ردت الى مواضعها ووقف خالد أمامهم يطارد من كان قريبا للمسلمين ، قال فانكسر الروم أمام خالد ونظر خالد الى فرسانه فرآهم متبددين فنادى ياأهل الاسلام والايمان وياحملة القرآن وياأصحاب محمد ﷺ قد تبينت فى الروم الكسرة العظيمة ولم يبق عند القوم من الجلد والقتال الامارأيتم وقد كسر الله حدتهم فردوا عليهم الكسرة وشدوا عليهم الكرّة رحمكم الله ، فوالذى نفس خالد بيده انى لارجو أن يمنحكم الله أكتافهم فنادى المسلمون من كل جانب احمل حتى نحمل معك . قال فانتضى خالد سيفه وحمل وحملت أصحابه معه . قال عبد الرحمن بن الحميدى الجمحى كنت ممن حمل مع خالد فوالله لقد انكشفت الروم بين أيدينا وولت كما تولى الغنم بين يدى الأسد وتبعهم المسلمون وكانت الحملة على ميمنة الروم فانكشفوا انكشافا قبيحا ، وأما المسلسلة فمابرحوا من مواضعهم وكانوا يرمون بالسهام وهم حماة القوم . قال عبد الرحمن وكان خالد أمامنا فى حملته ونحن من ورائه ، وكان شعارنا يامحمد يامنصور أمتك أمتك فلم يزل خالد فى حملته ونحن من ورائه حتى وصل الى الديرجان وكان قائما فى موضعه الذى أقامه فيه ماهان معه صليب من الجوهر ومعه أصحابه ينتظرون حملته فيحملون معه ، فلما وصلت خيل خالد الى موضعه . قال له البطارقة أيها الملك أما آن لك أن تحمل نحمل معك أوتولى فقد خالطتنا خيل العرب . فقال لاصحابه اعلموا أن يوم السوء لاأحبه ولا أحب أن أراه ولاأحضره ، وقد أحضرنى الملك الى هذا الموقف وأنا كارهه ولكن لفوا وجهى ورأسى فى هذا الثوب حتى لاأرى الحرب قال فلفوا وجهه ورأسه فى ثوب ديباج والناس يقتتلون حتى انهزمت الروم بين أيدى المسلمين ووصلوا الى الديرجان وهو ملفوف الرأس فحمل عليه ضرار بن الأزور فقتله .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان أحسن صنع الله تعالى بالمسلمين أن جرجير وقناطر اختلفا وتنازعا وكان جرجير فى الميمنة مع الأرمن وقناطر فى الميسرة تحته ، فقال جرجير لقناطر احمل على العرب فماهذا وقت الوقوف ، فقال قناطر تأمرنى أن أحمل وكيف لاتحمل أنت . فقال جرجير لقناطر وكيف لا آمرك ، وأنا أمير عليك فقال قناطر كذبت أنت أمير وأنا أمير عليك فوقك وأنت مأمور لى بالطاعة فاختلفا وغضب جرجير من قول قناطر فحمل على المسلمين حملة

شديدة وكانت حملته على كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وغسان وهم يومئذ فيما بين الميسرة والقلب فكشف الروم المسلمين حتى زالت عن مصافهم ولم يبق منهم الا أصحاب الرايات فقاتلوا من يليهم قتالا شديدا وركب الروم أكتاف المسلمين المنهزمين الى أن دخلوا معهم الى معسكرهم فاستقبلهم النساء بالعمد يضربن وجوه الخيل ويرمين وجوهها بالحجارة وينادين بهم الى أين تنهزمون ياأهل الاسلام عن الامهات والأخوات والبنين والبنات أتريدون أن تسلمونا للاعلاج ؟ . قال منهال الدوسى فلقد كانت النساء أشدّ علينا غلاظة من الروم فرجع المسلمون عن الهزيمة ونادى بعضهم بعضا — وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر — وعطفوا على الروم عطفة عظيمة . قال وكان قتامة بن أيشم الكنانى أمام المسلمين يضرب فى عراض المشركين تارة بالسيف وتارة بالرمح حتى كسر ثلاثة رماح ، وهو يقول :

سأحمل فى الروم الكلاب النوابح وأضربهم ضربا بحدّ الصفائح
وأرضى رسول الله خير مؤمل نبى الهدى الدين أشرف ناصح

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ثم حمل حتى كسر سيفين وجعل كلما كسر رمحا أوسيفا يقول من يعيرنى سيفا أورمحا فى سبيل الله وأجره على الله ، ثم نادى يامعاشر قيس خذوا نصيبكم من الأجر والصبر ، فان الصبر فى الدنيا عز ومكرمة وفى الآخرة رحمة وفضيلة — فاصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون — . قال فاجابه قومه ونشطوا للقتال . قال قتامة بن أيشم الكنانى فرأيت مثل حملة قناطر وقومه ولقد اختلطوا بنا واختلطنابهم . قال ورجع خالد من دهمته ومعه ألفان من أصحابه ، وقد وضعوا السيوف فى الروم وقتلوهم قتلا ذريعا والقتل لايبين فيهم لكثرتهم ، وأقبل خالد على الناس من كرّته فرأى الناس يقولون جزى الله قتامة بن الايشم خيرا عن الاسلام فشكره وجزاه خيرا . قال وأقبلت ذرعة ابنة الحرث منحدرة عن التل وهى تقول مافعل خالد حتى وقفت بين يديه ، وقالت ياابن الوليد أنت من العرب الكرام ، وانما الرجال بامرائها ، فان ثبتوا ثبتت الرجال معهم وان انهزموا انهزمت الرجال معهم ، فقال لها خالد ما كنت من المنهزمين وما كنا الانقاتل فى الأعلاج . فقالت قبح الله وجه عبد نظر الى أميره ثابتا وهو منهزم عنه .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ونظر ماهان لعنه الله الى الميمنة من عسكره وقد عركت عراك الاديم فبعث اليهم يحرّضهم على القتال . فعندها خرج علج من الروم وعليه درع سابغ والسلاح كأنه قطعة جبل وهو على شهباء عظيمة الخلقة فبرز بين الصفين وجال على شهبائه وسأل القتال فخرج اليه غلام من الأزد فجال معه جولة حتى قتله العلج ثم دعا بالبرازفهم أن يخرج اليه معاذ بن جبل ، فقال أبو عبيدة يامعاذ سألتك بحق رسول الله ﷺ الا مائبتّ مكانك ولزمت رايتك ولزومك الراية أحب الى من برازك الى هذا العلج فوقف معاذ بالراية ونادى يامعاشر المسلمين من أراد فرسا يقاتل عليه فى سبيل الله فهذافرسى وسلاحى فجاءه ولده عبد الرحمن فقال أنا ياأبت وكان غلاما لم يحتلم . قال فلبس السلاح وركب الجواد ، وقال ياأبت أنا خارج الى هذا العلج ، فان صبرت فالمنة لله علىّ وان قتلت فالسلام عليك وان كان لك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة فأوصنى بها . فقال له معاذ يابنى أقرئه منى السلام وقل له جزاك الله عن

أمتك خيرا ، ثم قال يابنى أخرج وفقك الله لما يحب ويرضى ، فخرج عبدالرحمن بن معاذ الى العلج كأنه شعلة نار وحمل على العلج وضربه بالسيف فمال عنه العلج ومال اليه وضربه على رأسه فقطع العمامة وشجه شجة فاضحة أسالت دمه ، فلما رأى العلج ذلك الدم ظن انه قتل فتأخر الى ورائه لينظر كيف يسقط عن جواده ، فلما نظر عبد الرحمن الى العلج وقد تأخر عنه انثنى راجعا الى المسلمين ، فقال له معاذ مابك يابنى . قال قتلنى العلج قال له ماالذى تريد من الدنيا يابنى ثم انه شد جرحه . قال فعندها صال العلج وحمل فردته الازد . قال أبو عبيدة فمن له منكم فخرج اليه عامر بن الطفيل الدوسى وكان من أصحاب الرايات ممن شهد اليمامة مع خالد بن الوليد وكان قد رأى يوم اليمامة فى منامه فى قتال مسيلمة الكذاب كأن امرأة لقيته ففتحت له فرجها فدخل فيه ونظر اليه ابنه فأسرع ليدخل مكانه ، ثم استيقظ وقص ذلك على المسلمين فلم يدر أحد ماتاويله ، فقال ابن الطفيل أما أنا فأعرف تأويلها قالوا وماتاويلها ياابن الطفيل قال تأويله انى أقتل لأن المرأة التى أدخلتنى فرجها هى الأرض وابنى سيصيبه جراح ويوشك أن يلتق بى . قال فقاتل يوم اليمامة وأبلى بلاء حسنا وسلم ولم يلحقه أذى ، فلما كان يوم اليرموك شهد فيه الحرب وخرج الى قتال العلج وهو كأنه شعلة حريق أوصاعقة وطعن البطريق ، وكانت قناته قد شهدت معه المشاهد فاندقت بين يديه وانتضى سيفه وهزه وضرب به العلج على عاتقه فخالط أمعاءه فتنكس العلج صريعا عن جواده وأسرع عامر بن الطفيل فرمى به الى المسلمين وسلمه الى ولده وانثنى راجعا نحو الروم وحمل على الميمنة وعلى الميسرة وعلى القلب . ثم قصد المتنصرة فقتل منهم فارسا ودعا للبراز وخرج اليه جبلة بن الأيهم وعليه درع من الديباج المثقل بالذهب وتحتها درع من دروع التبابعة وعليه بيضة تلمع كشعاع الشمس وتحته فرس من نسل خيول عاد ، فلما خرج جبلة الى عامر بن الطفيل قال له من أى الناس أنت قال أنا من دوس . قال جبلة انك من القرابة فابق على نفسك وارجع الى قومك ودع عنك الطمع ، فقال له عامر قد أخبرتك من أناومن قبيلتى فأنت من أى العرب . قال أنا من غسان وأنا سيدها جميعها أنا جبلة بن الأيهم الغسانى ، وانما خرجت اليك حين نظرت اليك ، وقد قتلت هذا البطريق الشديد وهو نظير ماهان وجرجير فى الشجاعة فعلمت انك كفؤ فخرجت لاقتلك وأحظى عند ماهان وهرقل بقتلك ، فقال عامر بن الطفيل أما ماذكرت من شدة القوم وعظم خلقهم فالله أشد منعة ، وهو مهلك الجبابرة ، وأماقولك انك تحظى بقتلى عند مخلوق مثلك فانى أريد أن أحظى بجهادى عند رب العالمين بقتلك وحمل عامر على جبلة بن الأيهم والتقيا بضربتين فخرجت ضربة عامر بن الطفيل غير ممكنة وخرجت ضربة جبلة ممكنة فقطعت من قرنه الى كتفه فسقط عامر قتيلا فجال جبلة على مصرعه ووقف يعجب بنفسه وبما صنع وطلب البراز فخرج اليه ولد المقتول ، وهو جندب بن عامر بن الطفيل وكانت معه راية أبيه فأقبل إلى أبى عبيدة ، وقال أيها الأمير ان أبى قد قتل وأريد أن آخذ بثاره أوأقتل فادفع رايتك لمن شئت من دوس فأخذ أبو عبيدة الراية ودفعها لرجل من دوس فحملها وخرج جندب الى قتال جبلة بن الأيهم ، وهو ينشد ويقول :

سأبذل مهجتى أبدا لانى ... أريد العفو من رب كريم
وأضرب فى العدا جهدى بسيفى ... وأقتل كل جبار لئيم

فان الخلد فى الجنات حــق   تباح لـكل مقـدام سليم

قال ودنا من جبلة ، وقال له اثبت ياقاتل أبى لاقتلك به ، فقال جبلة ومن أنت من المقتول ؟ قال ولده . قال جبلة ماالذى حملكم على قتل نفوسكم وأولادكم وقتل النفوس محرم ؟ . قال جندب ان قتل النفس فى سبيل الله محمود عنـد الله وننال به الدرجة العالية ، فقال له جبلة انى لاأريد قتالك ، فقال جندب وكيف أرجع وأنا المفجوع بأبى والله لارجعت أوآخذ بثأر أبى أوألحق به ثم حمل على جبلة وجعلا يقتتلان وقد شخصت نحوهما الأبصار ، ونظر جبلة الى الغلام ومأبدى من شجاعته فعلم انه شديد الباس صعب المراس فأخذ منه حذره وغسان ترمق صاحبها فرأت الغلام جنـدبا وقد ظهر على صاحبهم وقارنه فى الحرب ، فصاح بعضهم على بعض وقالوا ان هذا الغلام الذى برز الى سـيدكم غلام نجيب وان تركـتموه ظهر عليـه فانجدوه ولاتدعوه فتأهب غسان للحملة ليستنقذوه ونظر المسلمون الى جندب وماقد ظهر منه ومن شجاعته وشدته ففرحوا بذلك ونظر الأمير أبو عبيدة الى ذلك ومافعل . فبـكى وقال هكذا يكون من يبذل مهجته فى سبيل الله اللهم تقبل له فعله .

[قال جابر بن عبد الله] شهدت قتال اليرموك فما رأيت غلاما كان أنجب من جندب بن عامر بن الطفيل حين قاتله جبلة و بعـد ذلك حمل على جبلة وضربه ضربة أوهنه بهاوضربه جبلة فقتله وعجل الله بروحه الى الجنة وتحقق منام أبيه عامر بن الطفيل ، وجال جبلة على مصرعه وطلب البراز فصاح به قومه ارجع الينا فقد قضيت مايجب عليك فرجع وهو معجب بنفسه حتى وقف تحت صليبه . قال و بعث اليه ماهان يشـكره وأصيب المسلمون بعامر بن الطفيل وولده جندب . قال فعندها صاحت دوس الجنة الجنة خذوا بثار سيدكم عامر وساعدتها الأزد وكانوا احلافهم وحملوا على غسان ولخم وجذام وتناشدوا الأشعار فصاح أبو عبيدة بالمسلمين ، وقال أيها الناس سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة الآية ومعانقة الحور العين فى جنات النعيم فما من موطن أحب الى الله من هذا الموطن ألاوان الصابرين فضلهم الله على غيرهم ممن لم يشهد مشهدهم ، هذا ولما سمعت الأزد ذلك حملت مع دوس وكان شعارهم يومئذ الجنة الجنة .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى موسى بن محمد عن عطاء بن مراد ، قال سألت رجالا عدة ما كان شـعار المسلمين يوم اليرموك فأخبرت ان شعار أبى عبيدة أمت أمت وشعار عبس ياعبس وشعار اليمن من أخلاط الناس ياأنصار الله وشعار خالد ومن معه ياحزب الله وشعار حمير الفتح الفتح وشـعار دارم والسكاسك الصبر الصبر وشعار بنى مراد يانصر الله أنزل ، فهذه كانت شـعار المسلمين يوم اليرموك . قال فلما حملت دوس تبعها الأزد وقصدت العرب المتنصرة وطلبت صليبهم وفرقتهم تفريقا صعبا حتى وصلوا الى الصليب فطلب رجل منهم حامل العـلم الذى لغسان فارداه عن فرسه ووقع الصليب من يده منـكوسا وقتل من الازد ودوس رجال إلاأنهم كانوا مثل الشامة البيضاء فى جلد البعير الأسود . ثم كرت غسان تريد أخذ صليبهم فاقتتلوا عنده قتالا شديدا حتى قتلوا خلقا كـثيرا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى هشام بن عمارة عن أبى الجريرى عن نافع عن جبير بن الحويرث عن عبد الله بن عدىّ . قال شهدت اليرموك فـكان المسلمون خمسة وعشرين

ألفا ، فغضب الحويرث وقال كذب من حدثك بهذا الحديث . فان المسلمين كانوا يوم اليرموك أحدا وأربعين ألفا وقد أديت اليك ماسمعته ممن أثق به من الرواة .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وهذا أثبت الأقاويل لأن المسلمين كانوا يوم أجنادين اثنين وثلاثين ألفا وجاءت الأمداد بعد ذلك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى ابن أبى نمرة عن عبد الحميد بن سهل عن جده قال : لما جالت الأزد يوم اليرموك ودوس ودوّخت المشركين دوخة عظيمة وحمل المشركون حملة هائلة انكشف المسلمون وكان صاحب لوائهم عياض بن غنم الأشعرى فولى منهزما واللواء بيده فصاح به الناس انما ثبات القوم وأهل الحرب بألويتهم فابتدر لاخذه عمرو بن العاص وخالد بن الوليد كلاهما يتسابق اليه فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى انهزمت الروم وفتح الله على أيدى المسلمين ، وكان اليوم الثالث من اليرموك يوما شديدا انهزمت فيه فرسان المسلمين ثلاث مرات كل مرة تردهم النساء بالحجارة والعمد ويلوحون بالأطفال اليهم فيرجعون الى القتال ولم يزل القتال قائما الى أن أقبل الليل بسواده ورجعت الروم الى مواضعها والقتل فيهم كثير وفى المسلمين قليل إلاأن الجراح فيهم فاشية من النشاب ، فلما دخل الليل بسواده رجعت كل فرقة الى أماكنها وباتوا تحت السلاح ، قال وأما المسلمون فما كانت همتهم الا الصلاة وبعد ذلك شدوا الجراح ، وصلى أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه وقال : أيها الناس اذا عظم البلاء فانتظروا الفرج فانه يأتى من عند الله فاضرموا نيرانكم وتحارسوا وأظهروا التهليل والتكبير ، وقام أبو عبيدة يمشى فى الناس هو وخالد بن الوليد يتفقدان الجرحى ويقولان : أيها الناس ان عدوّكم يألم كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وباتا طول ليلهم كله وهما طائفان على المسلمين الى أن أصبح الصباح ، قال وانحازت الروم الى جانب اليرموك مع ماهان الأرمنى فجمع بطارقته ووبخهم وزجرهم . وقال لهم قد علمت أن هذا يكون منكم ، وقد رأيت فشلكم وخوفكم وجزعكم من هؤلاء العرب الضعاف قال فاعتذروا اليه وقالوا غدا نبارزهم فان فينا فرسانا وشجعانا لم يقاتلوا أصلا وغدا نصدقهم الحرب فتكون لنا العاقبة . قال فسكت عن توبيخهم وأمرهم أن يتأهبوا لذلك وبات الفريقان يتحارسون ، وقد رعبت الروم من كثرة القتل فيهم ، وأما المسلمون فانهم أقوى قلوبا لشدة دينهم ويقينهم ، قال فلما أصبح الصباح صلى بهم أبو عبيدة صلاة الخوف واذا بالصلبان قد بدت وبرايات القوم قد طلعت فى عدد الشوك والشجر كأنهم لم يلاقوا قتالا قط فوقفوا فى مصافهم ونصب ماهان سريره على الكثيب الذى كان عليه بالأمس وهو يشرف منه على العساكر فامرهم أن يعبوا مصافهم ، فلما نظر أمير المؤمنين الى سرعة الروم صاح كل أمير برجاله وحرضهم على القتال فانقلبوا من الصلاة الى خيولهم ولبسوا السلاح وركبوا خيولهم ورجع كل أمير الى مكانه وهو يعظ أصحابه ويوصيهم ويعدهم من الله بالنصر ، وسار أبو عبيدة بين الصفوف وهو يصف لهم فضل الجهاد وماأعد الله للمجاهدين الصابرين وخلف على الذرارى والنساء والأموال والاولاد عمرو بن سعيد ابن عبد الله الأنصارى وجعل من الرماة خمسمائة فى الميمنة وخمسمائة فى الميسرة وخمسمائة فى القلب وطاف أبو عبيدة عليهم ، وقال لهم معاشر الرماة الزموا مراكزكم فان رأيتم القوم زحفوا الينا فارشقوهم بالنبال واذكروهم عند رميكم ولاتتركوها مفرقة ولتخرج سهامكم كأنها من كبد

قوس واحدة ، فان هم زحفوا اليكم فاثبتوا مكانكم حتى يأتيكم أمرى ففعلوا ماأمرهم به الأمير ، وتقدم أبو سفيان الى ولده يزيد والراية فى يده وحوله أصحابه وقد عزم على الحملة والجهاد . فقال يابنى ان أحسنت أحسن الله اليك عليك بتقوى الله والصبر فاتق الله حق تقاته وانصر دين الله وشرع نبيه ﷺ ، و إياك والجزع فما قضاه ر بنا قد أمضاه فاصبر مع أصحابك صبر أولى العزم ، و إياك ثم إياك أن يراك الله منهزما فتبوء بغضب من الله . قال يزيد : سأصبر جهدى وطاقتى والله أسأله أن يكون معينا لى وناصرا ، ثم صاح يزيد برجاله وهزّ الراية وندبهم الى القتال وحمل على من يليه من الروم فقاتلوا قتالا عظيما ولم يزالوا حتى أنكوا العدوّ نكاية عظيمة وأبلوا بلاء حسنا ، وكان قتالهم من جانب القلب ولم يزالوا كذلك حتى برز اليهم بطريق من البطارقة و بيده رمح عظيم وعليه صليب من الذهب وحوله زهاء من عشرة آلاف فارس من الروم فحملوا على الميمنة وكان فيهم عمرو بن العاص ومن معه فرجعوا على أعقابهم منهزمين حتى دخلت الروم فى أوائل عسكر المسلمين مما يلى عمرا ومن معه وهم يتراجعون على الرجال فيكرون تارة ويرجعون تارة حتى تكاثرت عليهم الروم فكشفوهم حتى ألصقوهم بالتل الذى عليه النساء وأحاطوا بالتل فصاحت امرأة أين أنصار الدين أين حماة المسلمين ، وكان الزبير ابن العوّام جالسا عند زوجته أسماء بنت أبى بكر الصدّيق يداوى عينه وكان أرمد ، فلما سمع صوت المرأة وهى تنادى أين أنصار الدين ؟ قال يا أسماء ما هذه المرأة تصيح أين أنصار الدين . فقالت له عفرة ابنة عثمان : يا ابن عمة رسول الله ﷺ انهزمت ميمنة المسلمين حتى ألجأهم الروم الينا وأحاط بنا الاعلاج ، وهذه نساء الانصار مستصرخة بانصار الدين . فقال الزبير والله انى أنا من أنصارالدين ولايرانى الله جالسا فى مثل هذا الوقت . قال ثم طرح الخرقة عن عينه واستوى جالسا على متن جواده فأخذ قناته وتسمى باسمه وقال فى حملته : أنا الزبير بن العوّام ، أنا ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل يطعن فيهم طعنا متداركا حتى ردهم على أعقابهم وخيلهم تنكص باذنابها . قال ليث بن جابر : فلله در الزبير بن العوّام لقد رد الروم بنفسه وحده اذ حمل عليهم وما كان معه من العرب أحد حتى ردهم الى عسكرهم وتراجعت خيل عمرو ورجاله وهو ينادى الرجعة الرجعة الحزم الحزم يا أهل الاسلام الصبر الصبر فتراجعوا بعد إدبارهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وحمل جرجير الأرمنى فى ثلاثين ألفا من الأرمن على شرحبيل ابن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ فانكشف أصحاب شرحبيل بن حسنة ولم يثبت غيره لقتال الروم فى عصبة من قومه دون الخمسمائة فجعل شرحبيل يحمل على الأرمن وهو يقول : ياأهل الاسلام لافرار من الموت الصبر الصبر . قال فتراجع أصحابه اليه وحملوا على الأرمن فردوهم على أعقابهم وجعلوا يضربون فيهم حتى أصابوا من الأرمن مالم يصبه الأرمن منهم ، فرجع شرحبيل الى مكانه ودار به أصحابه فجعل يعنفهم بالقتال و يقول لهم ما الذى أصابكم حتى انهزمتم أمام هؤلاء الكفرة وأنتم الحماة البررة وأهل القرآن وعباد الرحمن أما سمعتم قوله عز وجل ــ ومن يولهم يومئذ دبره الامتحرفا لقتال أومتحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم و بئس المصير ــ وقال الله تعالى ــ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ــ وأنتم تهربون . فقالوا ياصاحب رسول الله ﷺ زلة من الشيطان مثل يوم أحد وحنين وها نحن معك فاحمل

حتى نحمل معك فجزاهم خيرا ووقف مكانه وكان موقفه مما يلى سعيد بن زيد وقد لزموا مواقفهم لم يتحركوا التماسا للحفيظة ، ونظر قيس بن هبيرة الى خيل شرحبيل وقد تراجعت فحمل بمن معه ونادى هو وأصحابه بشعارهم وكان شعارهم يانصر الله انزل يامنصور أمت أمت وكان هذا شعارهم يوم بدر وأحد ، وحمل خالد بن الوليد بمن معه ذات اليمين ، وحمل قيس من ذات الشمال فقاتلوهم قتالا شديدا ولله در الزبير بن العوّام وهاشم بن المرقال وخالد بن الوليد : لقد حملوا حملة عظيمة حتى قربوا من سرادقات ماهان وتواقعت الروم على سرادقات ماهان وخيامه ، فلما نظر ماهان الى ذلك نزل عن سريره هاربا وصاح بالروم وعنفهم فتراجعوا يطلبون القتال وصاح أبو عبيدة بسعيد بن زيد فحمل بمن معه وهو ينادى : لا إله إلا الله يامنصور أمت أمت فأقبلوا يقتلون فى الروم قتلا ذريعا ، فبينما المسلمون فى حملتهم إذ سمعوا قائلا يقول : يانصر الله انزل يانصر الله اقرب أيها الناس الثبات الثبات . قال عامر بن أسلم فتأملنا الصارخ فاذا هو أبو سفيان وتحت رايته ابنه يزيد . قال وشدت الأمراء بأجمعهم على من يليهم وقاتلوا قتالا شديدا ولم يكن فى الروم أثبت من أصحاب السلاسل فانهم ثبتوا فى أماكنهم يمنعون من أتاهم ، وأما الرماة وهم مائة ألف رام فكانوا اذا رشقوا سهامهم نحو العرب يسترون الشمس ، فلولا النصر والمعونة من الله لكان المسلمون هلكوا وانفصل المسلمون فرحين مستبشرين والمشركون قدهلك أكثرهم وبرز علج من أعلاج الروم كأنه نخلة باسقة وعليه درع مذهب وعلى رأسه بيضة مذهبة وعليها صليب من ذهب مرصع بالجوهر وهو راكب على شهباء وعليه زرد من حديد و بيده رمح طويل وأشهر نفسه وسأل البراز ، فنظر المسلمون الى عظم خلقته وهول جثته فجعلوا ينظرون اليه . فقال أبو عبيدة لايهولنكم ماترون من خلقته فكم رأيتم من هو عظيم خلقة ولا قلب له فمن له منكم يخرج اليه واستعينوا بالله عليه ؟ . قال فخرج اليه عبد من عبيد العرب و بيده سيفه وحجفته وهو راجل ، فلما أراد أن يدنو من العلج صاح به مولاه ذوالكلاع الحميرى ، فلما رجع خرج اليه ذوالكلاع وجال عليه وكان ذوالكلاع من أهل الشدة والبأس فتواقفا وكل منهما رامح فتطاعنا طعنا شديدا أشد من الجمر ، ثم انهما تجاذبا سيوفهما والتقيا فضرب ذوالكلاع العلج ضربة وضرب العلج ضربة ، وكان سيف العلج قاطعا وساعده قويا فقطع سيفه درقة ذى الكلاع وسيفه ودرعه وما تحته من الثياب ووصلت الضربة الى عضده الأيسر فجرحته جرحا بليغا وثقلت يده ، فلما نظر ذوالكلاع الى مالحقه من العلج عطف بجواده يريد المسلمين ونظر العلج الى ذى الكلاع قد انعطف راجعا فصاح بجواده ليلحقه وكان فرس ذى الكلاع سابقا فلم يلحقه حتى لحق بالمسلمين فأتى قومه والدم يفور من جرحه ، فاجتمع فرسان قومه فقال لهم يافرسان حمير إياكم أن تتكلوا فى قتالكم على السلاح ومنعته ولكن اتكلوا فى قتالكم على الله عزّ وجل . قالوا وكيف ذلك أيها السيد ؟ قال لأنى رددت عبدى عن القتال شفقة عليه إذ ليس معه لامة حرب وقلت انى أفرس منه وأجود عدة ولامة فصنع بى هذا الاغلف ماترون والله مالحقنى قبلها فى حرب مثلها قط فشدوا جرحه ووقف مكانه ، ثم انه صاح بقومه يارجال حمير ان كان سيدكم قد رجع كلالا فما منكم من يأخذ بثاره فانتدب فارس من فرسان حمير وعليه صبائغ اليمن من الابراد والحبر كأنه جمرة نار وحمل نحو العلج مصمصما وجال جولة عظيمة وطعنه طعنة أثبتها فى صدره فأرداه قتيلا وعجل الله

بروحه الى النار ، فهم الحيرى أن ينزل عن جواده ويأخذ سلبه فحمل عليه كردوس من الروم ليكشفوه عنه فردهم الحيرى صاغرين ، ثم رجع اليه وأخذ سلبه وأقبل به على أبى عبيدة فأعطاه إياه فدفع السلب الى قومه ورجع الى مقامه فى القتال فخرج اليه آخر فقتله وآخر فقتله فخرج اليه علج رابع فقتل الحيرى ونزل ليأخذ سلب الحيرى فرماه رجل من رماة الانصار بنبلة فوضعها فى لبته فجندله صريعا وعجل الله بروحه الى النار ، قال فانقلبت الروم على وجوهها وهابوا جميع المسلمين ، وكان ذلك البطريق الذى قتل بالنبلة من عظمائهم ويقال انه كان صاحب نابلس فصاح بهم ماهان وسكنهم عن اضطرابهم وخرج الى القتال ملك اللان واسمه مريوس وعليه لامة الملوك وعليه ديباجة وفى وسطه منطقة مرصعة بالجوهر فجال بين الصفين وشهر نفسه وقال أنا ملك اللان فلا يبرز لى الا أميركم ، فخرج اليه شرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ وبيده لواؤه وعليه درع من حديد وهو ممنطق بمنطقة من الأدم وهو على جواده . فقال أبو عبيدة من هذا الذى خرج قالوا له شرحبيل بن حسنة فبعث اليه أبو عبيدة يقول له ادفع الراية لمن شئت واخرج من غير راية ، فلما سمع ذلك سلم الراية لرجل من قومه وقال له قف بها موضعى ، فان قدّر علىّ فسلم الراية الى الأمير أبى عبيدة يدفعها لمن يريد ، وان رجعت أخذتها فأخذها الرجل وخرج شرحبيل كاتب وحى رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ملك اللان وهو يقول :

سأحمل فى الشام بنى الأعادى   بكل مثقف لدن حداد
فيا بؤسا لقيصر يوم نأتى   وجمع الروم شرّد فى البلاد

قال فسمع البطريق شعر شرحبيل فلم يفهمه وكان يفهم قليلا بالعربية . فقال له ياعربى ما الذى تقول . قال أقول كلاما تقوله العرب عند الحرب تشجع به نفوسها وتثق بوعد الله الذى وعد به نبينا . فقال ملك اللان وما الذى وعدكم به نبيكم ؟ . فقال شرحبيل وعدنا الله أن يفتح لنا الأرض فى الطول والعرض ونملك الشام ونكون من الظافرين بنصر الله لنا . قال ملك اللان ان الله لاينصر من يبغى وأنتم تبغون علينا وتطلبون ماليس لكم بحق . فقال شرحبيل نحن قوم أمرنا الله أن نفعل ذلك والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، وانى أراك تعرف كلام العرب فلو تركت ما أنت عليه من عبادة الصليب ودخلت فى دين الاسلام كنت من أهل الجنة وسعدت . فقال ملك اللان ما أترك دين المسيح أبدا فان دينه حق ؟ فقال شرحبيل لاتقل انه إله معبود ولاتقل صلب وقتل ، فان الله سبحانه وتعالى أحياه فى الأرض ماشاء ثم رفعه الى السماء ثم قال ملك اللان لن أرجع عن قولى ، ثم استخرج صليبا من عنقه فرفعه ووضعه على عينه وأقبل يستنصر به فغضب شرحبيل من فعاله . فقال له ياويلك تبالك ولمن معك ولمن يقول بقولك ، ثم حمل عليه وأخذا فى القتال وجالا جولانا عظيما فرمقتهما الأبصار وجعل المسلمون يدعون لشرحبيل بالنصر والمعونة ، ونظر شرحبيل الى شدة الكافر ففرّ بين يديه كأنه مهزم فتبعه عدوّ الله ، فلما علم شرحبيل انه قد قاربه ثنى عنان جواده فطعنه بقناته يريد أن يجعلها فى نحره فزاغ المشرك عن الطعنة ونجا منها سالما ، ثم قال معاشر العرب أنتم لا تدعون الخديعة والمكر . فقال شرحبيل ويلك أما علمت أن الحرب خدعة والمكر رأسها . فقال العلج فما الذى نفعك من حيلتك ؟ . قال فتضاربا حتى انقطع السيفان فى أيديهما فاعتنقا معانقة شديدة وكان

المشرك أعظم جثة وأشد منعة ، وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام فضغط عليه المشرك ضغطة أوجعه بها وهم أن يقتله فى سرجه والفريقان ينظران اليهما . قال ضرار بن الأزور فداخلنى والله الغيظ . فقلت فى نفسى ويحك ياضرار يقتل هذا العلج كاتب وحى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تنظر اليه فما يمنعك من نصرته .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فخرج ضرار نحوهما يسعى على قدميه كالظبية الحصاء حتى قرب منهما ولا يعلمان به جميعا وكان فى يده خنجر فضرب به العلج من ورائه فأطلع الخنجر من قلبه فسقط العلج قتيلا وخلص شرحبيل من الضغطة . قال فلما سقط العلج عن ظهر جواده نزل اليه شرحبيل وسلب ما كان عليه من لامة حربه ، وركب ضرار جواده وانثنى راجعا هو وشرحبيل نحو المسلمين فهنأ المسلمون شرحبيل وشكروا ضرارا على فعله . قال ثم ان شرحبيل أخذ سلب العلج فنازعه ضرار فيه . فقال السلب لى وأنا قتلته ، وقال شرحبيل أنا آخذ السلب فأتيا أبا عبيدة فخاف أبو عبيدة أن يحكم بينهما فلا يرضون بحكمه ، فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول : يا أمير المؤمنين ان رجلا خرج الى البراز وقاتل علجا من الأعلاج وبلغ معه الجهد الى جهد جهيد ، فخرج آخر من المسلمين فأعان الرجل وقتل العلج : قال ولم يسم أبو عبيدة الرجلين فلمن السلب منهما ؟ ، فجاء الجواب من عمر بن الخطاب ان السلب للقاتل فأخذ السلب أبوعبيدة من شرحبيل وأعطاه ضرارا . فقال — ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء — .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] ولما قتل ضرار ملك اللان غضبت الروم ، فخرج فارس شجاع وطلب البراز فخرج اليه الزبير بن العوام رضى الله عنه فقتله وأخذ سلبه وخرج اليه ثان وثالث ورابع فقتلهم وأخذ أسلابهم . فقال خالد لأبى عبيدة : ان الزبير قد تجرد للروم وبذل نفسه لله ولرسوله وأخاف عليه من التعب فصاح عليه أبو عبيدة وأقسم عليه فرجع الزبير الى مقامه . قال وخرج من الروم بطريق فخرج اليه خالد بن الوليد وكان ملك الروسية فقتله خالد وكان زوج بنت ملك اللان فقوم سلبه وتاجه ومنطقته وصليبه ودرعه بخمسة عشر ألفا . قال فأخبر ماهان بذلك فغضب وقال سيد ان منا قد قتلا فى يوم واحد وانى أظن أن المسيح لاينصرنا ثم أمر الرماة أن يرموا عن يد واحدة فرموا سهامهم وأطلقوا نحو المسلمين دفعة واحدة مائة ألف سهم ، فكان النشاب يقع فى عساكر المسلمين كسقوط البرد من السماء فكثرت الجراح فى الناس واعور من المسلمين سبعمائة عين فسمى ذلك اليوم يوم التعوير ، وكان ممن أصيب بعينه المغيرة ابن شعبة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل التميمى وأبو سفيان صخر بن حرب وراشد بن سعيد وكان الرجل بعد ذلك يلقى الرجل . فيقول له ما الذى أصاب عينك ؟ فيقول الآخر لاتقل مصيبة بل هى محنة من الله . قال وعظم وقع السهام فى عسكر المسلمين حتى ما كنت تسمع الامن يصيح واعيناه وابصراه واحدقتاه وعظم اضطراب المسلمين من ذلك . قال فجذبت العرب أعنة خيولها راجعة . قال ونظر ماهان اللعين الى اضطراب جيش المسلمين فحرض الرماة والروم وصاح برجاله وزحفت المسلسلة نحو المسلمين فهالهم ذلك وحمل جرجير وقناطر وقورين ، وقال ماهان اثبتوا على الحملة وارموا العرب بالنشاب فزادت الرماة فى رميها وزحفت المسلسلة بحديدها والبوارق تلمع من أكف الرجال كمقابيس النيران والحرب قائمة على ساق ، وأخذ المسلمون على أنفسهم اشفاقا

مما نزل بهم ووصل اليهم من قلع الاحداق ، قال عبادة بن عامر فنظرت الى جيش الشرك وهو نحونا سائر وفرسان المسلمين متأخرة وخيولهم نا كصة . فقلت لاحول ولاقوة الابالله العلى العظيم : اللهم أنزل علينا نصرك الذى نصرتنا به فى المواطن كلها ، ثم صحت فى رجال جير تهر بون من الجنة إلى النار ماهذا الفرار أما تخافون العار ؟ : أما أنتم بين يدى الجبار : أما هو عالم الأسرار فررتم من الكفار . قال فما أجابنى والله أحد كأنهم صم لايسمعون ؟ قال فقلت كان قبيلتك خرست عن الجواب فجعلت أهتف بقبائل العرب فكل قد شغل بنفسه عن اجابتى فجعلت أ كثر من قول لاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم ، فما كان غير بعيد حتى نزل النصر من الله . وذلك أن المسلمين قد انقلبوا راجعين نحو تل النساء ولم يثبت غير أصحاب الرايات . قال عبد الله بن قرط الأسدى شهدت القتال كله فلم أر قتالا أشد من يوم التعوير ورجعت الخيل على أذنابها وقاتلت الأمراء بأنفسها والرايات بأيديهم حتى كان أبو عبيدة و يزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص والمسيب بن نجية الفزارى وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق والفضل بن العباس يقاتلون قتالا شديدا . قال عبد الله بن قرط : فقلت فى نفسى وكم مقدار مايقاتلون هؤلاء وهم نفر يسير حتى ساعدتنا النساء اللاتى شهدن مع رسول الله ﷺ المشاهد يداوين الجرحى و يسقين الماء و يبرزن الى القتال ولم أر امرأة من نساء قريش قاتلت بين يدى رسول الله ﷺ ولا فى اليمامة مع خالد مثل ماقاتلت نساء قريش يوم اليرموك حين دهمهن القتال وخالط الروم المسلمين فضربن بالسيوف ضربا وجيعا ، وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان قد انضم النساء المهاجرات لغيرهن وقامت الحرب على ساق وتنادى النساء بأنسابهن وأمهاتهن وألقابهن ، وجعلن يقاتلن قتال الموت و يضربن وجوه الخيل بالعمد ويلوّحن بالأطفال ، وجعل النساء بعضهن يقاتل المشركين و بعضهن يقاتل المسلمين حتى رجعوا الى قتال المشركين و بعضهن يسقى الماء و بعضهن يشد الجراح . قال فبينماهن يقاتلن وقد هجمت الرجال اذ انهزمت نساء لخم وجذام وخولان ، فخرجت خولة بنت الأزور وأم حكيم ابنة حكيم بنت الحرث وسلمى بنت لؤى ، وجعلن يضربن فى وجوههن ورؤسهن بالعمد و يقلن اخرجن من بيننا فانكن توهنّ جمعنا . قال فرجعت نساء لخم وجذام يقاتلن قتال الموت ، وقاتلت أم حكيم بنت الحرث أمام الخيل بالسيف ومانسمع يومئذ صوت واحدة من النساء غير صوت واعظة تعظ ، وأما أم حكيم فانها جعلت تنادى يامعاشر العرب احصدوا الغلف بالسيوف ، وأما أسماء بنت أبى بكر فانها قرنت عنانها بعنان زوجها الزبير ابن العوام فما كان يضرب ضربا الاضربت مثله . قال فتراجع المسلمون الى القتال حين رأوا النساء يقاتلن قتال الموت و يقول الرجل لمن يليه ان لم نقاتل نحن هؤلاء والا فنحن أحق بالخدور من النساء ، فلله در نساء قريش يوم اليرموك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى عبد الرحمن بن الفضل عن يزيد بن أبى سفيان عن مكحول قال كانت وقعة اليرموك فى رجب سنة خمس عشرة من الهجرة ، قال أبو عامر وحملت خولة بنت الأزور على علج من الاعلاج كان قد حمل علينا فاستقبلته وجعلت تشالشه بالسيف فضربها العلج بسيفه على قصتها فأسال دمها وسقطت الى الأرض فصاحت عفيرة بنت عفان حين نظرتها صريعة ونادت فجع والله ضرار فى أخته فأخذت رأسها على ركبتها والدم قدصبغ

شعرها كالشقائق فقالت لها كيف تجدك قالت أنا بخير ان شاء الله تعالى ولكنى هالكة لامحالة فهل لك علم بأخى ضرار . فقالت عفيرة يابنة الأزور مارأيته ؟ فقالت خولة : اللهم اجعلنى فداء لأخى ولاتفجع به الاسلام قالت عفيرة فجهدت أن تقوم معى فلم تقم فحملناها الى أن أتينا بها موضعها ، فلما كان الليل رأيتها وهى تدور تسقى الرجال وكان ليس بها ألم قط ونظر اليها أخوها والضربة فى رأسها . فقال لها مابك ؟ فقالت ضربنى علج قتلته عفيرة . فقال لها ياأختاه ابشرى بالجنة فقد أخذت لك بثأر الضربة مرارا وقتلت منهم أعدادا قال ولم يزل الحرب من أول النهار وكلما قرب الليل يزيد و يشتعل ضرامها وأبوعبيدة يقاتل برايته والأمراء يفعلون كفعله الى أن فصل بينهما الظلام ، وقد قتل من الروم يوم التعوير أربعون ألفا أو يزيدون ، ونقل عن خالد أنه انقطع فى يده ذلك اليوم تسعة أسياف ولقد أخبرنا عن خالد بن الوليد ممن حضر قتال اليرموك وشاهده قال كان يعد قتال خالد بمائة رجل من شجعان الرجال ، قال حازم بن معن وبرز من المشركين فى قلب الوقعة أصحاب الديباج والحرير والتجافيف على الخيول الشهب والبلق كأنها من الجبال الراسيات ، فلما برزوا غاصوا فى القلب وكروا كرة واحدة ورفعوا فى وسطهم صليبا من الجوهر وحملت ميمنتهم على ميسرتنا وميسرتهم على ميمنتنا ، وقد شردوا الى النساء والنساء يضربن وجوههم فجعلن يصحن بهم الله الله لاتفجعوا الاسلام بهزيمتكم واتقوا ربكم . قال كان بين يدى أبى عبيدة رجل من محرزاسمه نجم بن مفرح وكان من خطباء العصر وأفصح العرب لسانا وأجرئها جنانا وكان رفيع الصوت حسنه جدا فخطب فقصده العرب والفصحاء يسمعون ماينطق به من نظمه ونثره .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى عبد الملك بن محمد عن أبيه عن حسان بن كعب عن عبد الواحد عن عوف عن موسى بن عمران اليشكرى قال رأيت نصر بن مازن وهو بجامع النيل يحدث عن وقعة اليرموك . قال مارد الناس عن الهزيمة بعد قضاء الله الى نصرة الاسلام الاغلام رجل من بنى محارب يقال له نجم بن مفرح وكان لايتكلم الابالسجع يؤلفه بحسن نظمه ولقد حفظنا منه يوم اليرموك مانحن نذكره عنه ، ولقد بلغنى أن البلغاء الفصحاء المتأخرين مثل الأصمعى وأبى عبيدة اللغوى ينسجان على منواله فى حسن كلامه فكان من جملة ماوعظ به المسلمين يوم اليرموك وقت هزيمتهم : أيها الناس هذا يوم له مابعده وقد عاينتم قربه من بعده ولن تنالوا الجنة الا بالصبر على المكاره وتالله لاينالها من هو للجهاد كاره و ينشد :

ولله فى عرض السموات جنة ولكنها محفوفة بالمكاره

وأعلى الدرجات درجة الشهادة فأرضوا عالم الغيب والشهادة وهذا الجهاد قد قام على ساقه وكسد النفاق فى أسواقه وأخفى نفاقه فى نفاقه وأنتم أصحاب نبى العصر فأيستم من الثبات والنصر بشروا روح المصطفى بثباتكم وقوموا العزم بصفاء نياتكم واياكم أن تولوا الأدبار فتستوجبوا عذاب النار وغضب الجبار ، فوالذى قدر الاقدار ، وأدار الفلك الدوار ، وكل شىء عنده بمقدار لقد تزينت لكم الحور العين بأيديهن أباريق وكأس من معين ، فمن طلب دار البقا هان عليه مايلقى ، فحققوا حملتكم تنالوا بغيتكم واطعنوا الصدور تنالوا الحور وشرعوا الاسنة تنالوا الجنة واغتنموا الصبر يكتب لكم الأجر ، بشروا المؤمنين بحسن عملكم واياكم أن تضلوا عن سبيلكم

لاتوافقوا الكفار فى جهنم واعدلوا عن طريق قولهم ووافقوا من سلف من أسلافكم فى فعلهم واسمعوا مانزل فى القرآن من أجلهم ــ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ــ سيروا فقد سبق المفردون ، واجتهدوا فقد فاز المجتهدون ــ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن الا وأنتم مسلمون ــ قال وحمل خالد بن الوليد بعصابة حمراء وهو يفزع الروم باسمه ويقول : أنا خالد ابن الوليد فبرز اليه بطريق يقال له النسطور وعليه الديباج فأقبل يدعو خالدا ويهمهم وخالد فى القتال لايشعر به ولايدرى مايقول فعند ماسمعه يرطن عطف عليه فاقتتلا قتالا شديدا فبينماهما فى أشدّ القتال اذ كبا بخالد الجواد فوقع الفرس على يديه وهوى خالد على أم رأسه . فقال الناس لاحول ولا قوّة الا بالله العلىّ العظيم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وخالد يقول : حى حى فعلا البطريق على ظهر خالد فى عثرته وقد سقطت قلنسوته من رأسه فصاح قلنسوتى رحمكم الله فأخذها رجل من قومه من بنى مخزوم وناوله إياها فأخذها خالد ولبسها فقيل له فيما بعد : ياأبا سليمان أنت فى مثل هذا الحال من القتال وأنت تقول قلنسوتى . فقال خالد ان رسول الله ﷺ لما حلق رأسه فى حجة الوداع أخذت من شعره شعرات . فقال لى ماتصنع بهؤلاء ياخالد ؟ فقلت أتبرك بها يارسول الله وأستعين بها على القتال قتال أعدائى فقال لى النبى ﷺ لاتزال منصورا مادامت معك فجعلتها فى مقدّمة قلنسوتى فلم ألق جمعا قط الا انهزموا ببركة رسول الله ﷺ ، قال ثم شدّها بعصابة حمراء وحمل على النسطور وضربه على عاتقه أخرج السيف من علائقه وانكسر من بقى من ملوكهم وكرهوا البراز بعد ذلك فكان يدعوهم الى البراز فلايخرج اليه أحد ولم يزل يضرب فيهم بسيفه حتى كل. فاشفق عليه الحرث بن هشام المخزومى فقال لأبى عبيدة أيها الأمير لقد قضى خالد مايجب عليه وأدى السيف حقه فلو أمرته أن يرجع نفسه قال فمشى أبوعبيدة اليه وجعل يعزم عليه أن لايتقدّم ويسأله أن يرجع نفسه . فقال خالد أيها الأمير : أما والله لأطلبن الشهادة بكل وجه فان أخطأتنى فالله يعلم نيتى وحمل فلم يرجع عن حملته حتى جلاها ، وذلك ان كل المسلمين استعفوه فى حملته وأقبلوا على القتال من بعد هزيمتهم والنساء أمام الرجال ولم يزل الحرب بين الفريقين حتى انقلبت الروم على أعقابها وقد قتل منهم ألوف عديدة ، وأما أصحاب السلاسل فانحطم أكثرهم ووطئتهم الخيل بحوافرها ولم يزل القتال بينهم حتى مالت الشمس بغروبها وانفصل الجمعان وقد جرت الدماء بينهم وفرشت الأرض بالقتلى والجراح فاشية فى الجمعين لكن فى الروم أكثر ورجع كل قوم الى اصلاح شأنهم ومداومة جرحاهم ، وأما النساء فأصلحن الطعام وشددن الجروح وداوين السقام ، ولم يقل أبوعبيدة لأحد من المسلمين من يكون الليلة على حرس المسلمين لما عندهم من التعب بل انه تولى الحرس بنفسه ومعه جماعة من المسلمين ، قال فبينما هو يدور اذ رأى فارسين قد لقياه وهما يدوران بدورانه فكلما قال لا إله الا الله قالا محمد رسول الله فقرب أبوعبيدة منهما فاذا هما الزبير بن العوّام وزوجته أسماء بنت أبى بكر الصدّيق فسلم عليهما وقال ياابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الذى أخرجكما ؟ . قال الزبير نحرس المسلمين ، وذلك

ان أسماء قالت لى يا ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المسلمين مشتغلون بأنفسهم فى هذه الليلة عن الحرس بما لحقهم من التعب فى الجهاد طول يومهم فهل لك ان تساعدنى على حرس المسلمين ؟ فأجبتها الى ذلك فشكرهما أبو عبيدة وعزم عليهما أن يرجعا فلم يفعلا ولم يزالا كذلك الى الصباح .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى أبو عبيدة عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن ابن جبيران أبا الجعيد كان رئيسا من رؤساء أهل حمص ، فلما اجتمعت الروم على المسلمين فى اليرموك دخلوا على حمص ونزلوا فى بلدة تسمى الزراعة ، وكان أبو الجعيد هذا قد جعلها مسكنه لطيب هوائها ومائها وانتقل من حمص اليها فنزل عسكر الروم على الزراعة عنده وكان فيها عرس لأبى الجعيد وزوجته تزف عليه فى تلك الليلة . قال فتكلف أبو الجعيد بضيافة الروم وأكرمهم وأطعمهم وسقاهم الخمر ، فلما فرغوا من أمورهم قال هات امرأتك الينا فأبى ذلك وسبهم فأبوا الا أخذ العروس ، فلما شنع عليهم بذلك عمدوا الى العروس واخذوها كرها منه وعبثوا بها بقية ليلتهم فبكى أبو الجعيد من حزنه ودعا عليهم فقتلوا أولاده ، وكان له ولد من زوجة غيرها قال فأقبلت أم الفتى فأخذت رأس ولدها فى خمارها وأقبلت به الى مقدم ذلك الجيش ورمت الرأس اليه وشكت حالها ، وقالت له نظر ماصنع أصحابك بولدى نفذ بحقى فلم يعبأ بكلامها . فقالت له أم الفتى والله لتنصرن العرب عليكم ورجعت وهى تدعو عليه فما كان الايسير حتى هلكوا فى أيدى المسلمين ، قال فلما كان يوم اليرموك بعد ماقتل النسطور أتى أبو الجعيد الى عساكر المسلمين ، وقال لخالد اعلم أن هذا الجيش النازل بازائكم جيش عظيم ولوسلموا أنفسهم اليكم للقتل لما فرغتم من قتلهم الا فى المدة الطويلة فان كدتهم لكم فى هذه الليلة بمكيدة تظفرون بها عليهم ماذا تعطونى قالوا نعطيك كذا وكذا ولا تؤدى جزية أنت وولدك وأهل بيتك ونكتب لك بذلك عهدا الى آخر عقبك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما استوثق منهم لنفسه مضى الى الروم وهم لا يعلمون وأتى الى واد عظيم مملوء ماء فأنزل الروم الى جانبه ، وقال لهم ان هذا المنزل به العرب وأنا سأكيد لكم العرب بمكيدة يهلكون بها . قال وجعل الناقوصة فيما بين الروم والعرب ولم يعلم أحد من الروم ماعمقها . قال فلما كان يوم العوير وعلم أبو الجعيد ان النصر للعرب وأن العرب هم المنصورون ، جاء أبو الجعيد الى أبى عبيدة فوجده يطوف تلك الليلة هو وجماعة من المسلمين المهاجرين . فقال لهم ماقعودكم ؟ قالوا وما نصنع ؟ قال اذا كان ليلة غد فأكثروا من النيران . ثم رجع الى الروم لينصب عليهم حيلة . فلما كانت الليلة الثانية أوقد المسلمون أكثر من عشرة آلاف نار ، فلما اشتعلت النيران أقبل اليهم أبو الجعيد ، فقالوا قد أشعلنا النيران كما أردت فما بعد ذلك ؟ قال أريد منكم خمسمائة رجل من أبطالكم حتى أشير عليهم بما يصنعون .

[قال الواقدى] فاختار من المسلمين خمسمائة رجل من جملتهم ضرار بن الأزور وعياض ورافع وعبد الله بن ياسر وعبد الله بن أوس وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وغانم بن عبد الله ومثل هؤلاء السادات ، فلما اجتمعوا سار بهم أبو الجعيد على غير المخاضة وقصد بهم عسكر الروم ، فلما كادوا يخالطونهم أخذ أبو الجعيد منهم رجالا ودلهم على المخاضة ولم يكن يعلم بها

أحد سواه ممن سكن اليرموك وقال لهم ناوشوهم الحرب ، ثم انهزموا ودعونى وإياهم . ففعلوا ذلك وصاحوا فيهم وحملوا ثم انهزموا قدامهم نحو الخاضة ، فعند ذلك صاح أبو الجعيد برفيع صوته يامعاشر الروم دونكم ومن انهزم فهؤلاء المسلمون ، قد أوقدوا نيرانهم وعوّلوا على الحرب . قال فأقبلت الروم على حال عجلة يظنون أن ذلك حق ، فبعضهم ركب جواده عريانا وبعضهم راجل وساروا فى طلب المنهزمين وأبو الجعيد يعدو بين أيديهم الى أن أوقفهم على الناقوصة وقال لهم : هذه الخاضة دونكم وإياهم فأقبلوا يتساقطون فى الماء كتساقط الجراد حتى هلك فى الماء مالا يعد ولايحصى عددا ولايدركه جنان فسمتها العرب الناقوصة لنقص الروم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] هذا ماجرى للروم ، ولا يعلم الأول بما جرى للآخر حتى أصبحوا ، فنظروا المسلمين فى أما كنهم فعلموا أنهم قد دهموا فى الليل وقل عددهم وتبدد شملهم فقال بعضهم لبعض من كان الصائح فى ليلتنا . قال الرجل الذى عبثتم بزوجته وقتلتم ولده وقد أخذ بثأره منكم . قال فلما أصبح ماهان وعلم الحقيقة وعلم مانزل بأصحابه علم أنه هالك لامحالة وأن العرب ظافرون عليه ، فبعث الى قورين ، فقال ماترى أن أصنع وقد ظهرت العرب علينا وان حملوا علينا حملة لم ينفلت منا أحد ، فهل لك أن تسألهم أن يأخروا القتال حتى نفعل الحيلة فى خلاص أنفسنا ؟ قال قورين أفعل ذلك . قال فدعا ماهان برجل من لخم وبعثه الى المسلمين يقول لهم : اعلموا أن الحرب سجال والدنيا زوال وقد مكرتم بنا فلا تبغوا فالبغى له مصرع وأخروا الحرب عنا يومنا هذا ، فاذا كان غد يكون الانفصال بيننا وبينكم . قال فأقبل اللخمى الى أبى عبيدة وبلغه الرسالة فهم أبو عبيدة أن يجيبهم الى ذلك فمنعه خالد من ذلك وقال له لاتفعل أيها الأمير فما عند القوم خير بعد ذلك . فقال أبو عبيدة ارجع الى صاحبك وقل له لا نؤخر عنك القتال وإنا على عجل من أمرنا فرجع الرسول الى ماهان فأعلمه بجواب أبى عبيدة فعظم عليه وكبر لديه وكفر وتجبر وقال : لقد كنت أتربص بنفسى عن العرب أرجو بذلك الصلح فوحق الصليب لايبرز لهم غيرى ثم صرخ بالروم وأصحاب سرير الملك ، ومن كان يتكل عليه فى الشدائد وأمرهم أن يأخذوا الأهبة فاستعدّوا وخرج ماهان فى مقدّمة الجيش والصليب أمامه واذا بالمسلمين أخذوا مصافهم للقتال ، وذلك أن أبا عبيدة صلى بالمسلمين صلاة الفجر وأمرهم بالسرعة للقتال وأخذوا مواضعهم للحرب ففعلوا وقد أيقنوا أنهم منصورون على عدوّهم ، وصف أبوعبيدة أصحاب الرايات ووقف هو وخالد فى الخيل المعروفة بخيل الزحف وطلعت الشمس وخرج جرجير هو وبعض ملوك الروم ودعا بالبراز وقال لايبرز لى الا أمير العرب فسمعه أبوعبيدة فسلم الراية الى خالد ، وقال أنت للرّاية ياأبا سليمان فان عدت من قتاله فالراية لى وان هو قتلنى فامسك رايتك حتى يرى عمر رأيه . فقال خالد أنا لقتاله دونك فقال أبوعبيدة لاهو طلبنى ولابدلى من الخروج اليه وأنت شريكى فى الاجر ، فخرج أبوعبيدة وماأحد من المسلمين الاوهو كاره لذلك فأقبلوا يسألونه فلج فى الخروج فتركوه ورأيه ، فلما قرب أبو عبيدة من جرجير وعاينه قال له أنت أمير هذا الجيش . فقال أبوعبيدة أنا ذلك وقد أجبتك الى ماطلبت من أمر البراز فدونك وعرض الميدان ، فأما هزمتكم أوقتلتك وأقتل ماهان بعدك . فقال جرجير أمة الصليب تغلبكم وحمل جرجير على أبى عبيدة وحمل أبوعبيدة على جرجير وطال بينهما القتال وبقى خالد ينظر الى أبى عبيدة ويدعوله

بالسلامة والنصر وجميع المسلمين يدعون له . قال وفرّ جرجير أمام أبي عبيدة وأخذ فى عرض الجيش وطلب فى فراره جيش المشركين فى الميمنة وتبعه أبوعبيدة على أثره فعندها عطف عليه جرجير وخرج كأنه البرق والتقيا بضربتين فكان أبوعبيدة أسبق فوقعت الضربة على عاتق جرجير فخرجت من علائقه فكبر عند ذلك أبوعبيدة وكبر المسلمون ووقف أبو عبيدة على مصرع جرجير وجعل يتعجب من عظم جثته ولم يأخذ من سلبه شيئا فنادى به خالد لله درّك أيها الأمير ارجع الى رايتك فقد قضيت مايجب عليك فلم يرجع أبوعبيدة فأقسم عليه المسلمون أن يرجع فرجع وأخذ الراية من يد خالد ونظر ماهان الى جرجير فعظم ذلك عليه وكبر لديه لأنه كان ركنا من أركانهم فهم بالهزيمة ، ثم قال فى نفسه ماذا يكون عذرى عند هرقل ولابد أن أبرز الى الحرب ، فان قتلت فقد استرحت من العار وان سلمت كان لى عند الملك عذر أحسن من أن أولى الأدبار ، ثم انه أعلم رجاله أنه يريد المبارزة بنفسه وأخذ عدته ولبس زينته وخرج كأنه جبل ذهب يلمع ثم جمع اليه البطارقة والقسوس والرهبان ، وقال لهم ان الملك هرقل كان أعلم منكم بهذا الأمر وانه أراد الصلح فخالفتموه فها أنا أبرز اليهم بنفسى فتقدم اليه بطريق من بطارقة السرير وكان فيه نسك ودين وكان يعظم الكنائس والرهبان ويتبع مافرض عليه فى الانجيل وكان يقرب من جرجير فى النسب ، فلما علم بقتله عظم عليه وقال وحق الصليب لأبرزن الى المسلمين وآخذ بالثأر ، فاما أن الحق به وإما ان أقتل قاتله ثم قال لماهان قد تعين علىّ الجهاد وأنا أؤدّى فرض المسيح ولا بدّ لى من المبارزة ، قال فتركه ماهان فخرج وكان اسمه جرجيس وكان عليه درع وعلى الدرع ثوب حديد متقلد بسيفه ومعه قنطارية وعوذته القسوس وبخروه ببخور الكنائس وأقبل اليه راهب عمورية وأعطاه صليبا كان فى عنقه وقال هذا الصليب من أيام المسيح يتوارثه الرهبان ويتمسحون به فهو ينصرك فأخذه جرجيس ونادى البراز بكلام عربىّ فصيح حتى ظنّ الناس انه عربى من المتنصرة فخرج اليه ضرار بن الأزور كأنه شعلة نار ، فلما قاربه ونظر اليه والى عظم جثته ندم على خروجه بالعدّة التى أثقلته . فقال فى نفسه وماعسى يغنى هذا اللباس اذا حضر الأجل ثم رجع موليا فظنّ الناس انه ولى فزعا فقال قائل منهم ان ضرارا قد انهزم من العلج وماضبط عنه قط انه انهزم وهو لا يكلم أحدا حتى صار الى خيمته ونزع ثيابه وبقى بالسراويل وأخذ قوسه وتقلد بسيفه وجحفته وعاد الى الميدان كأنه الظبية الخصاء فوجد مالكا النخعى قد سبقه الى البطريق وكان مالك من الخطاط اذاركب الجواد تسحب رجلاه على الأرض فنظر ضرار فاذا بمالك ينادى العلج تقدم ياعدوّ الله ياعابد الصليب الى الرجل النجيب ناصر محمد الحبيب فلم يجبه العلج لما داخله من الخوف منه قال فجال عليه وهمّ أن يطعنه فلم يجد للطعنة مكانا لما عليه من الحديد فقصد جواده وطعنه فى خاصرته فأطلع السنان يلمع من الجانب الآخر فنفر الجواد من حرارة الطعنة وهمّ مالك أن يخرج الرمح فلم يقدر لأنه قد اشتبك فى ضلوع الجواد وهو على ظهره لم يقدر أن يتحرك ، لأنه مزرّر فى ظهر الجواد بزنانير الى سرجه فنظر المسلمون الى ضرار وقد أسرع اليه مثل الظبية حتى وصل اليه وضربه بسيفه على هامته فشطرها نصفين وأخذ سلبه فأتاه مالك وقال ماهذا ياضرار تشاركنى فى صيدى فقال ماأنا بشريكك ، وانما أنا صاحب السلب وهولى . فقال مالك أنا قتلت جواده ؟ فقال ضرار

رب ساع لقاعد آكل غير حامل فتبسم مالك ، وقال خذ صيدك هناك الله به قال ضرار انما أنا مازح فى كلامى خذه اليك فوالله ما آخذ منه شيئا وهو لك وأنت أحق به منى ثم انتزع سلب العلج وحمله على عاتقه وما كاد أن يمشى به وهو يتصبب عرقا قال زهير بن عابد ولقد رأيته وهو يسير به وهو راجل ومالك فارس حتى طرحه فى رحل مالك . فقال أبو عبيدة بأبى وأمى والله قوم وهبوا أنفسهم لله وما يريدون الدنيا قال فلما قتل البطريق قص جناح ماهان فصاح بقومه وجمعهم اليه وقال لهم اسمعوا يا أصحاب الملك وبلغوه عنى انى ما تركت جهدى فى نصرة هذا الدين وحاميت عن الملك وقاتلت عن نعمته وما أقدر ان أغالب رب السماء ، لأنه قد نصر العرب علينا وملكهم بلدنا والآن مالى وجه أرجع به الى الملك حتى أخرج الى الحرب وأبرز الى مقام الطعن والضرب وعزمت أن أسلم الصليب الى أحدكم وأبرز الى قتال المسلمين ، فان قتلت فقد استرحت من العار ومن توبيخ الملك لى ، وإن رزقت النصر وأثرت فى المسلمين أثرا ورجعت سالما علم الملك أنى لم أقصر عن نصرته فقالوا أيها الملك لاتخرج الى الحرب حتى نخرج نحن الى القتال قبلك فاذا قتلنا فافعل بعدنا ماشئت فقال حلف ماهان بالكنائس الأربع لايبرز أحد قبله ، قال فلما حلف أمسكوا عنه وعن مراجعته ثم انه دعا بابن له فدفع اليه الصليب وقال قف مكانى وقدّم لماهان عدّة فأفرغت عليه .

[قال الواقدى] وبلغنا ان عدته التى خرج بها الى الحرب تقوّمت بستين ألف دينار لان جيعها كان مرصعا بالجوهر ، فلما عزم على الخروج تقدّم له راهب من الرهبان ، فقال أيها الملك ما أرى لك الى البراز سبيلا ولا أحبه لك ، قال ولم ذلك ؟ قال لأنى رأيت لك رؤيا فارجع ودع غيرك يبرز . فقال ماهان لست أفعل والقتل أحب الىّ من العار ، قال فبخروه وودعوه وخرج ماهان الى القتال وهو كأنه جبل ذهب يبرق وأقبل حتى وقف بين الصفين ودعا الى البراز وخوّف باسمه فكان أوّل من عرفه خالد بن الوليد فقال هذا ماهان هذا صاحب القوم قد خرج ، ووالله ماعندهم شىء من الخير قال وماهان يرعب باسمه فخرج اليه غلام من الأوس وقال والله أنا مشتاق الى الجنة وحمل ماهان وبيده عمود من ذهب كان تحت فخذه فضرب به الغلام فقتله وعجل الله بروحه الى الجنة . قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه فنظرت الى الغلام عند ماسقط وهو يشير باصبعه نحو السماء ولم يهله مالحقه فعلمت أن ذلك لفرحه بما عاين من الحور العين قال فجال ماهان على مصرعه وقوى قلبه ودعا الى البراز فسارع المسلمون اليه فكل يقول : اللهم اجعل قتله على يدى ، وكان أوّل من برز مالك النخعى الاشتر رضى الله عنه وساواه فى الميدان فابتدر مالك ماهان بالكلام وقال له أيها العلج الاغلف لاتغتر بمن قتلته ، وانما اشتاق صاحبنا الى لقاء ربه ومامنا الامن هو مشتاق الى الجنة ، فان أردت مجاورتنا فى جنات النعيم فانطق بكلمة الشهادة أوأداء الجزية والا فأنت هالك لامحالة . فقال له ماهان أنت صاحبى خالد بن الوليد قال لا أنا مالك النخعى صاحب رسول الله ﷺ فقال ماهان لابدّ لى من الحرب ثم حمل على مالك وكان من أهل الشجاعة فاجتهدا فى القتال فأخرج ماهان عموده وضرب به مالكا على البيضة التى على رأسه فغاصت فى جبهة مالك فشترت عينيه فمن ذلك اليوم سمى بالاشتر قال فلما رأى مالك مانزل به من ضربة ماهان عزم على الرجوع ثم فكر فيما عزم عليه فدبر نفسه ، وعلم أن الله ناصره قال والدم فائر

من جبهته وعدوّ الله يظن انه قتل مالكا وهو ينظره متى يقع عن ظهر فرسه واذا بمالك قد حمل وأخذته أصوات المسلمين يامالك استعن بالله يعينك على قرينك قال مالك فاستعنت بالله عليه وصليت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وضربته ضربة عظيمة فقطع سيفي فيه قطعا غير موهن فعلمت أن الأجل حصين ، فلما أحس ماهان بالضربة ولى ودخل فى عسكره .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ولما ولى ماهان بين يدى مالك الأشتر منهزما صاح خالد بالمسلمين ياأهل النصر والباس احملوا على القوم ماداموا فى دهشتهم ثم حمل خالد ومن معه من جيشه وحمل كل الامراء بمن معهم وتبعهم المسلمون بالتهليل والتكبير فصبرت لهم الروم بعض الصبر ، حتى اذا غابت الشمس وأظلم الافق انكشف الروم منهزمين بين أيديهم وتبعهم المسلمون يأسرون ويقتلون كيف شاءوا فقتلوا منهم زهاء من مائة ألف وأسروا مثلها وغرق فى الناقوصة منهم مثلها وأمم لاتحصى وتفرّق منهم فى الجبال والاودية وخيول المسلمين من ورائهم يقتلون ويأسرون ويأتون من الجبال بالاسارى ولم يزل المسلمون يقتلون ويأسرون الى ان راق الليل . فقال أبوعبيدة أتركهم الى الصباح فتراجعت المسلمون وقدامتلأت أيديهم من الغنائم والسرادقات وآنية الذهب والفضة والزلازل والنمارق والطنافس .

[قال الواقدى] ووكل أبوعبيدة رجالا من المسلمين بجمع الغنائم وبات المسلمون فرحين بنصر الله حتى أصبحوا ،فاذا ليس للروم خبر ووقع أكثرهم فى الناقوصة فى الليل .

[قال عاصم بن ياسر] حدثنى نوفل بن عدى عن جابر بن نصر عن حامد بن مجيد . قال أراد أبوعبيدة أن يحصى عدد المشركين فلم يقدر أن يحصى ذلك فأمر بقطع القصب من الوادى وجعل على كل قتيل قصبة ، ثم عدوا القصب فاذا القتلى مائة ألف وخمسمائة آلاف والأسارى أربعون ألفا غير من غرق فى الناقوصة وقتل من المسلمين أربعة آلاف ووجد أبو عبيدة رؤوسا فى اليرموك فلم يعلم أهم من العرب أم من الروم . قال ثم انه صلى على قتلى المسلمين وسار فى طلبهم الى الجبال والاودية واذا هم براع قد استقبلهم فسألوه هل مر بك أحد من الروم . قال نعم مر بى بطريق ومعه زهاء من أربعين ألفا .

[قال الواقدى] وكان ذلك ماهان لعنه الله تعالى فاتبعهم خالد بن الوليد وجعل يقفو أثرهم ومعه عسكر الزحف فأدركهم على دمشق ، ولما أشرف عليهم كبر وكبر المسلمون وحملوا ووضعوا فيهم السيف فقتل مقتلة عظيمة ، وكان ماهان قد ترجل عن جواده ، وقيل انه ترجل ينكر نفسه ويسلم من القتل فأتاه رجل من المسلمين حامى عن نفسه فقتله الرجل ، وكان قاتله النعمان ابن جهلة الأزدى وعاصم بن خوال اليربوعى وقد اختلفوا فى أيهما قتل ماهان .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وخرج أهل دمشق الى لقاء خالد وقالوا له نحن على عهدنا الذى كان بيننا وبينكم . قال خالد أنتم على عهدكم ومضى فى طلب الروم يقتلهم حيث وجدهم حتى انتهى الى ثنية العقاب وأقام تحتها يوما ، ثم مضى الى حمص ونزل بها وبلغ ذلك أباعبيدة فسار حتى لحق به فيمن معه قال والامراء فى طلب الروم من كل جهة من الشام ثم اجتمعوا وعادوا الى دمشق وجمع أبوعبيدة الغنائم وأخرج منها الخمس وكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كتاب البشارة والفتح : بسم الله الرحمن الرحيم وصلوات الله على نبيه المصطفى ورسوله

المجتبى صلى الله عليه وسلم ، من أبي عبيدة عامر بن الجراح : أما بعد فأنا أحمد الله الذي لا اله الا هو وأشكره على ما أولانا من النعم وخصنا به من كرمه ببركات نبي الرحمة وشفيع الأمة صلى الله عليه وسلم ، واعلم ياأمير المؤمنين أنى نزلت اليرموك ونزل ماهان مقدم جيوش الروم بالقرب منا ولم ير المسلمون أكثر جمعا منه فأقصى الله تلك الجموع ونصرنا عليهم بمنه وكرمه وفضله فقتلنا منهم زهاء من مائة ألف وخمسة آلاف وأسرنا منهم أربعين ألفا واستشهد من المسلمين أربعة آلاف ختم الله لهم بالشهادة ووجدت في المعركة رؤوسا مقطوعة لم أعرفها فصليت عليها ودفنتها وقتل ماهان على دمشق قتله عاصم بن خوال ، وقد كان قبل وقعة الانفصال نصب عليهم رجل منهم يقال له أبو الجعيد من أهل حمص حيلة فالقاهم في موضع يقال له الناقوصة فغرق منهم مالا يحصى عددهم الا الله تعالى ، وأما من قتل من المشركين في الأودية والجبال من المنهزمين وغيرهم وأخذت عدتهم فتسعون ألفا وقد ملكنا أموالهم وخيولهم وحصونهم وبلادهم وكتبنا اليك هذا الكتاب بعد الفتح ونزلنا في دمشق والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى جميع المسلمين ، وطوى الكتاب وختمه ودعا بحذيفة بن اليمان ودفع الكتاب اليه وضم اليه عشرة من المهاجرين والأنصار وقال لهم سيروا بكتاب الفتح والبشرى الى أمير المؤمنين وبشروه بذلك وأجركم على الله ، فأخذ حذيفة الكتاب وسار هو والعشرة من وقتهم وساعتهم يجدون السير ليلا ونهارا حتى قربوا من المدينة .

[قال الواقدي رحمه الله تعالى] قال عبد الله بن عوف المالكي عن أبيه قال : لما هزم الله الروم في اليرموك وكان من أمرهم ما كان رأى عمر بن الخطاب ليلة هزيمة الروم رسول الله ﷺ جالسا في الروضة ومعه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، وكان عمر يسلم عليهما ويقول : يارسول الله ان قلبي مشغول على المسلمين ومايصنع الله بهم ، وقد بلغني أن الروم في ألف ألف وستين ألفا . فقال ياعمر أبشر فقد فتح الله على المسلمين وقد انهزم عدوهم وقتل كذا وكذا ، ثم تلا رسول الله ﷺ ـ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ـ الآية . قال فلما كان من الغد صلى عمر بالناس صلاة الفجر وأعلم الناس بما رأى في منامه . قال فاستبشر المسلمون وفرحوا وعلموا أن الشيطان لايتمثل بالنبي صلى الله عليه وسلم وأرخوا تلك الليلة فكانت كما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم فسجد عمر لله شكرا ووصله الكتاب فقرأه عمر على الناس فارتفعت أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير . ثم قال ياحذيفة فهل قسم أبو عبيدة الغنائم ؟ فقال ياأمير المؤمنين هو منتظر كتابك وأمرك . فدعا عمر بدواة وقرطاس وكتب الى أبي عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب الى عامله بالشام سلام عليك . أما بعد فاني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ وقد فرحت بما فتح الله على المسلمين من نصرتهم وانهزام عدوهم ، فاذا وصل اليك كتابي هذا فاقسم الغنيمة بين المسلمين وفضل أهل السبق واعط كل ذي حق حقه واحفظ المسلمين واكلأهم واشكرهم على صبرهم وفعالهم ، وأقم بموضعك حتى يأتيك أمري ، والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته ، وطوى الكتاب وسلمه لحذيفة ابن اليمان فأخذه حذيفة وسار حتى ورد على أبي عبيدة فوجده على دمشق ، فسلم عليه وعلى

المسلمين وناوله الكتاب ، فلما قرأه على المسلمين قسم الغنائم فأصاب الفارس أربعة وعشرون ألف مثقال من الذهب الأحمر والراجل ثمانية آلاف وكذلك من الفضة وأعطى الفرس الهجين سهما والفرس العتيق سهمين وألحق القادمين على الخيل بالعراب ، فلما فعل أبو عبيدة ذلك . قال أصحاب الحر ألحقنا بالعراب . فقال أبو عبيدة إنى قسمت عليكم بما قسم النبي ﷺ الغنيمة بين أصحابه فلم يقبلوا قوله فكتب الى عمر بذلك يعلمه باختلاف الناس فى الخيل والهجين والعراب فكتب اليه عمر يقول : أما بعد فقد عملت بسنة رسول الله ﷺ ولم تتعد حكمه ، فأعط الفرس العربى سهمين والهجين سهما ، واعلم أن رسول الله ﷺ عرّب العربى وهجن الهجين يوم خيبر فجعل للهجين سهما وللعربى سهمين ، فلما ورد الكتاب على أبى عبيدة وقرأه على المسلمين . قال ماأراد أبو عبيدة أن يحقر رجلا منكم ، ولكن تبعت سنة رسول الله ﷺ

[قال الوقدى رحمه الله تعالى] فلما قسم أبو عبيدة الغنائم على المسلمين . قال له خالد بن الوليد : ان رجلا من المسلمين تشفع بى اليك أن تلحق فرسه الهجين بفرسه العتيق العربى وتعطيه سهمين فأبى أبو عبيدة ، وقال والله ان سف التراب أحب الىّ من ذلك . وروى عثمان أن ابن الزبير . قال شهدت جدى الزبير بن العوام يوم اليرموك ومعه فرسان يتعقب عليهما للقتال يركب هذا يوما وهذا يوما ، فلما كان وقت قسم الغنائم أعطاه أبو عبيدة ثلاثة أسهم له سهم ولفرسه سهمان . فقال الزبير أما تصنع بى كما صنع بى رسول الله ﷺ يوم خيبر كان معى فرسان فأسهمنى رسول الله ﷺ يوم خيبر خمسة أسهم لفرسىّ أربعة وأعطانى سهما ، وقال المقداد ابن عمرو كنت أنا وأنت يوم بدر ومعنا فرسان لاغيرهما فاعطى رسول الله ﷺ سهمين سهمين للفرسين ، قال أبو عبيدة انك لصادق يامقداد أنا أتبع فعل رسول الله ﷺ وأعطى الزبير وأقبل جابر بن عبدالله الأنصارى فشهد عند أبى عبيدة أن رسول الله ﷺ أعطى الزبير يوم خيبر خمسة أسهم ، فلما فعل ذلك أتى رجال من رجال العرب لكل واحد منهم أربعة أفراس وخمسة أفراس فقالوا ألحقنا بالزبير قال فاستأذن عمر فى ذلك . فقال صدق الزبير إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاه يوم خيبر خمسة أسهم فلانعط غيره مثله ، وروى عروة عن أبى الزبير . قال لقى الزبير غلاما كان قد وقع بيده يوم غنيمة عمان فهرب منه ، فلما كان يوم اليرموك قبل قسم الغنائم عرفه فقبض عليه وأخذ بيده فقال له الموكل على حفظ الغنيمة لست أدعك فبينما هما فى المحاورة اذأقبل أبو عبيدة ، فقال مابالكما ؟ فقال الزبير أيها الأمير هذا غلامى وصل الىّ من غنيمة عمان وهرب منى وقد رأيته الآن فلابدلى منه فقال أبو عبيدة صدق ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم هوله وأناسلمته له من غنيمة عمان فسلمه اليه فأخذه الزبير ، قال زيد المرادى هربت منا جارية الى العدوّ وظفرنا بها يوم اليرموك فى قسم الغنائم فكلمنا أبا عبيدة فيها فكتب الى عمر فردّ اليه الجواب ، ان كانت جارية حربية ففيها السهام والافلاسبيل اليها وان كانت لم تجر فيها السهام فردّوها فكأن القوم لايرضون بهذا من أبى عبيدة . فقال أبو عبيدة والله الذى لاإله الاهو هذا كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يحكم بما أمرتكم فقبل قوله ودفع الجارية الى القسم

[قال الواقدى] حدثنى لؤى بن عبد ربه عن سالم مولى حذيفة بن اليمان عن القاسم بن سلمة عن عدى بن عاصم عمن حدثه عن فتوح الشام . قال لما هزم الله الروم باليرموك على يد

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ الخبر الى هرقل بهزيمة جيشه وقد قتل ماهان وجرجير وغيرهما ، قال علمت أن الامر يصل الى هنا ثم أقام ينتظر مايجرى من المسلمين .

ذكر فتح مدينة بيت المقدس

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وأما ما كان من المسلمين فانهم أقاموا على دمشق شهرا . فجمع أبو عبيدة أمراء المسلمين وقال لهم أشيروا علىّ بما أصنع وأين أتوجه ؟ فاتفق رأى المسلمين إما الى قيسارية وإما الى بيت المقدس . فقال فما الذى ترون منهما ؟ . فقالوا أنت الرجل الأمين وماتسير الى موضع الاونحن معك . فقال معاذ بن جبل اكتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فحيث أمرك فسر واستعن بالله . فقال أصبت الرأى يامعاذ فكتب الى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب يعلمه انه قد عزم على قيسارية أو الى بيت المقدس وانه منتظر مايأمره به والسلام ، وأرسل الكتاب مع عرفجة بن ناصح النخعى وأمره بالمسير فسار حتى وصل المدينة فأرسل الكتاب لعمر رضى الله تعالى عنه فقرأه على المسلمين واستشارهم فى الأمر . فقال على رضى الله تعالى عنه : ياأمير المؤمنين مر صاحبك أن يسير الى بيت المقدس فيحدقوا بها ويقاتلوا أهلها فهو خير الرأى وأكبره ، واذا فتحت بيت المقدس فاصرف جيشه الى قيسارية فانها تفتح بعدها ان شاء الله تعالى كذا أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال صدقت ياأبا الحسن فكتب اليه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عمر بن الخطاب الى عامله بالشام أبى عبيدة . أما بعد فانى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه ، وقد ورد علىّ كتابك وفيه تستشيرنى فى أى ناحية تتوجه اليها ، وقد أشار ابن عم رسول الله ﷺ بالسير الى بيت المقدس فان الله سبحانه وتعالى يفتحها على يديك والسلام عليك ، ثم طوى الكتاب ودفعه الى عرفجة وأمره أن يعجل بالمسير فسار حتى قدم على أبى عبيدة فوجده على الجابية ، فدفع الكتاب اليه فقرأه على المسلمين ففرحوا بمسيرهم الى بيت المقدس ، فعندها دعا أبو عبيدة بخالد بن الوليد وعقد له راية وضم اليه خمسة آلاف فارس من خيل الزحف وسرحه الى بيت المقدس ، ثم دعا بيزيد بن أبى سفيان وعقد له راية على خمسة آلاف وأمره أن يلحق بخالد الى بيت المقدس ، وقال له ياابن أبى سفيان ماعلمتك الا ناصحا ، فاذا أشرفت على بلد إيلياء فارفعوا أصواتكم بالتهليل والتكبير واسألوا الله بجاه نبيه ومن سكنها من الأنبياء والصالحين أن يسهل فتحها على أيدى المسلمين ، فأخذ يزيد الراية وسار يريد بيت المقدس فسار ثم دعا شرحبيل بن حسنة كاتب وحى النبىّ ﷺ وعقد له راية وضم اليه خمسة آلاف فارس من أهل اليمن وقال له سر بمن معك حتى تقدم بيت المقدس وانزل بعسكرك عليها ولا تختلط بعسكر من تقدم قبلك ، ثم دعا بالمرقال بن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص وضم اليه خمسة آلاف فارس مع جمع من المسلمين وسرحه على أثر شرحبيل ابن حسنة وقال له انزل على حصنها وأنت منعزل عن أصحابك ، ثم عقد راية خامسة فسلمها للمسيب ابن نجية الفزارى وأمره أن يلحق بأصحابه وضم اليه خمسة آلاف فارس من النخع وغيرهم من القبائل ، وعقد راية سادسة وسلمها الى قيس بن هبيرة المرادى وضم اليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءه ، ثم عقد راية سابعة وسلمها الى عروة بن مهلهل بن زيد الخيل وضم اليه خمسة آلاف

فارس وسيره وراءهم ، فكان جملة من سرحه أبو عبيدة الى بيت المقدس خمسة وثلاثين ألفا وسارت السبعة أمراء فى سبعة أيام فى كل يوم أمير ، وذلك كله يرهب به أعداء الله فبقى كل يوم ينزل عليهم أمير بجيشه ، فكان أول من طلع عليهم بالراية خالد بن الوليد ، فلما أشرف عليهم كبر وكبر أصحابه ، فلما سمع أهل بيت المقدس ضجيج أصواتهم انزعجوا وتزعزعت قلوبهم وصعدوا على أسوار بلادهم ، فلما نظروا الى قلة المسلمين استحقروهم وظنوا أن ذلك جميع المسلمين فنزل خالد ومن معه مما يلى باب أريحاء ، وأقبل فى اليوم الثانى يزيد بن أبى سفيان ، وفى اليوم الثالث شرحبيل بن حسنة ، وأقبل فى اليوم الرابع المرقال ، وأقبل فى اليوم الخامس المسيب بن نجية ، وأقبل فى اليوم السادس قيس بن هبيرة فنزل ، وأقبل فى اليوم السابع عروة بن مهلهل بن زيد الخيل فنزل مما يلى طريق الرملة . قال عبدالله بن عامر بن ربيعة الغطفانى مانزل أحد من المسلمين على بيت المقدس إلا وكبر وصلى ماقدره الله عليه ودعا بالنصر والظفر على الأعداء ، ويقال إن خالدا كان هو وأبو عبيدة . قال فلما مضى العسكر قام أبو عبيدة وخالد وبقية المسلمين والذرارى والسواد والغنم وما أفاء الله على المسلمين من المواشى والأموال فلم يبرحوا من مكانهم . قال وأقام العسكر على بيت المقدس ثلاثة أيام لايبارزهم حرب ولا ينظرون رسولا يأتى اليهم ولا يكلمهم أحد من أهلها الا أنهم قد حصنوا أسوارهم بالمجانيق والطوارق والسيوف والدرق والجواشن والزرد الفاخرة ، قال المسيب بن نجية الفزارى مانزلنا ببلد من بلاد الشام فرأينا أكثر زينة ولا أحسن عدة من بيت المقدس ، وما نزلنا بقوم الا وتضعضعوا لنا وداخلهم الهلع وأخذتهم الهيبة الا أهل بيت المقدس نزلنا بازائهم ثلاثة أيام فلم يكلمنا منهم أحد ولا ينطقون غير أن حارسهم شديد وعدتهم كاملة ، فلما كان فى اليوم الرابع قال رجل من البادية لشرحبيل بن حسنة : أيها الأمير كأن هؤلاء القوم صم فلا يسمعون أو بكم فلا ينطقون أو عمى فلا يبصرون ازحفوا بنا اليهم ، فلما كان فى اليوم الخامس وقد صلى المسلمون صلاة الفجر كان أول من ركب من المسلمين من الأمراء لسؤال أهل بيت المقدس يزيد بن أبى سفيان فشهر سلاحه وجعل يدنو من سورهم وقد أخذ معه ترجمانا يبلغه عنهم مايقولون فوقف بازاء سورهم بحيث يسمعون خطابه وهم صامتون . فقال لترجمانه قل لهم أمير العرب يقول لكم ماذا تقولون فى اجابة الدعوة الى الاسلام والحق وكلمة الاخلاص وهى كلمة لا إله إلاالله محمد رسول الله حتى يغفر لكم ربنا ماسلف من ذنوبكم وتحقنون بها دماءكم ، وان أبيتم ولم تجيبونا فصالحوا عن بلدكم كما صالح غيركم ممن هو أعظم منكم عدة وأشد منكم ، وان أبيتم هاتين الحالتين حل بكم البوار وكان مصيركم الى النار . قال فتقدم الترجمان اليهم وقال لهم من المخاطب عنكم فكلمه قس من القساوسة عليه مدارع الشعر وقال أنا المخاطب عنهم ماذا تريد ؟ . فقال الترجمان : انّ هذا الأمير يقول كذا وكذا ويدعوكم الى إحدى هذه الخصال الثلاث : إما الدخول فى الاسلام ، أو اداء الجزية ، وإما السيف . قال فبلغ القس من وراءه ماقال الترجمان . قال فضجوا بكلمة كفرهم وقالوا لانرجع عن دين العز والقبول وإن قتلنا أهون علينا من ذلك فبلغ الترجمان ذلك ليزيد . قال فمشى الى الأمراء وأخبرهم بجواب القوم . قال لهم ما انتظاركم بهم . فقالوا ان الأمير أبا عبيدة ما أمرنا بالقتال ولا بحرب القوم بل بالنزول عليهم ولكن نكتب الى أمين الأمة فان أمرنا بالزحف زحفنا ، فكتب يزيد بن أبى سفيان الى أبى

عبيدة يعلمه بما كان من جواب القوم فما الذى تأمر ؟ فكتب اليهم أبو عبيدة يأمر بالزحف وانه واصل فى أثر الكتاب ، فلما وقف المسلمون على كتاب أبى عبيدة فرحوا واستبشروا وباتوا ينتظرون الصباح .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ولقد بلغنى ان المسلمين باتوا تلك الليلة كأنهم ينتظرون قادما يقدم عليهم من شدة فرحهم بقتال أهل بيت المقدس ، وكل أمير يريد أن يفتح على يديه فيتمتع بالصلاة فيه والنظر الى آثار الأنبياء ، قال فلما أضاء الفجر أذن وصلت الناس صلاة الفجر قال فقرأ يزيد لأصحابه ــ ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا ــ الآية فيقال ان الأمراء أجرى الله على ألسنتهم فى تلك الصلاة أن قرءوا هذه الآية كأنهم على ميعاد واحد ، فلما فرغوا من الصلاة نادوا النفير النفير ياخيل الله اركبى . قال فأول من برز للقتال حمير ورجال اليمن وبرز المسلمون للحرب كأنهم أسود ضارية ، ونظر اليهم أهل بيت المقدس وقد انشرحوا لقتالهم فنشطهم ورشقوا المسلمين بالنشاب فكانت كالجراد ، فجعل المسلمون يتلقونها بدرقهم فلم تزل الحرب بينهم من الغد الى الغروب يقاتلون قتالا شديدا ولم يظهروا فزعا ولا رعبا ولم يطمعوهم فى بلدهم ، فلما غربت الشمس رجع الناس وصلى المسلمون ما فرض الله عليهم وأخذوا فى إصلاح شأنهم وعشائهم ، فلما فرغوا من ذلك أوقدوا النيران واستكثروا منها ، لان الحطب عندهم كثير فبقى قوم يصلون ، وقوم يقرءون ، وقوم يتضرعون ، وقوم نائمون مما لحقهم من التعب والقتال ، فلما كان الغد بادر المسلمون اليهم وذكروا الله كثيرا وأثنوا عليه وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقدمت رماة النبل وأقبلوا يرمون ويذكرون الله وهم يضجون الى الله بالدعاء .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ولم يزل المسلمون على القتال عدة أيام وأهل بيت المقدس يظهرون الفرح وانه ليس على قلوبهم من هم ولا جزع ، فلما كان اليوم الحادى عشر أشرفت عليهم راية أبى عبيدة يحملها غلامه سالم ومن ورائها فرسان المسلمين وأبطال الموحدين وقد أحدقوا بأبى عبيدة وخالد عن يمينه وعبدالرحمن بن أبى بكر عن يساره وجاءت النسوان والأموال وضج الناس ضجة واحدة بالتهليل والتكبير فأجابتهم القبائل ووقع الرعب فى قلوب أهل بيت المقدس فانقلب كبارهم وعظماؤهم وبطارقتهم الى البيعة العظمى عندهم وهى القمامة ، فلما وقفوا بين يدى جاثليقهم وكانوا يعظمونه ويبجلونه ، فلما سمعوا تلك الضجة دخلوا عليه ووقفوا بين يديه وخضعوا له وقالوا يا أبانا قد قدم أمير القوم الينا ومعه بقية المسلمين وهذه الضجة بسببه ، فلما سمع بتركهم وجاثليقهم تغير لونه وتغير وجهه وقال هى هى . قالوا ماذلك أيها البترك والأب الكبير . قال وحق الانجيل ان كان قدم أميرهم فقد دنا هلاككم والسلام . قالوا وكيف ذلك ؟ قال لانا نجد فى العلم الذى ورثناه عن المتقدمين ان الذى يفتح الأرض فى الطول والعرض هو الرجل الأسمر الأحور المسمى بعمر صاحب نبيهم محمد ، فان كان قد قدم فلاسبيل لقتاله ولاطاقة لكم بنزاله ولابد لى أن أشرف عليه وأنظر اليه والى صورته ، فان كان اياه عمدت الى مصالحته وأجبته الى مايريد ، وان كان غيره فلا نسلم اليه قط لان مدينتنا لاتفتح الا على يد من ذكرته لكم والسلام ، ثم انه وثب قائما والقسوس والرهبان والشمامسة من حوله وقد رفعوا الصلبان على رأسه وفتحوا الانجيل

بين يديه ودارت البطارقة من حوله وصعد على الصور من الجهـة التى فيها أبو عبيدة فنظر الى المسلمين وهم يسلمون عليه و يعظمونه ، ثم يرجعون الى القتال كأنهم الأسـد الضارية فناداهم رجل ممن كان يمشى بين يدى البترك . فقال : يامعاشر المسلمين كفوا عن القتال حتى نستخبركم ونسألـكم . قال فأمسك الناس عن القتال فناداهم رجل من الروم بلسان عربى فصيح : اعلموا أن صفة الرجل الذى يفتح بلدنا هذا وجميع الأرض عندنا ، فان كان هو أميركم فلا نقاتلـكم بل نسلم اليكم وان لم يكن إياه فلا نسلم اليكم أبدا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلمـا سمع المسلمون ذلك أقبـل نفر منهم الى أبى عبيدة وحدثه بمـا سمعوه . قال فخرج أبو عبيدة اليهم الى أن حاذاهم ، فنظر البترك اليه وقال ليس هو هذا الرجل فابشروا وقاتلوا عن بلدكم ودينـكم وحريمكم ، فلما سمعوا قوله رفعوا أصواتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم وأقبلوا يقاتلون القتال الشديد وعاد البترك الى القمامة ولم يخاطب أبا عبيدة بكلمة واحدة ، بل أمر قومه بالحرب والقتال وعاد أبو عبيدة الى أصحابه . فقال خالد ما كان منك أيها الأمير ؟ فقال لاعـلم لى غير انى خرجت اليهم كما رأيت وأشرف علىّ شيطان من شياطينهم الذى يضلهم ، فما هو غير ان نظر لى وتأملنى حتى ضجوا ضجة واحدة وولى عنى ولم يكلمنى . فقال خالد يوشك أن يكون لهم فى ذلك تأويل ورأى فنقف عليه ونعـلم نبأه ، ثم قال شدوا عليهم الحرب والقتال فشد عليهم المسلمون .

[قال الواقدى رحمه الله تعـالى] وكان نزول المسلمين على بيت المقدس فى أيام الشتاء والبرد وظنت الروم أن المسلمين لايقـدرون عليهم فى ذلك الوقت . قال وزحف المسلمون اليهم و برزت النبالة من أهـل اليمن ، وصمم أصحاب القسىّ ورشقوهم بالنبل وكانوا غير محترزين من النبل لقلة اكتراثهم به حتى رأوا النبل ينـكسهم على رؤسهم من وراء ظهورهم وهم لا يشعرون . قال مهلهل لله در عرب اليمن فلقد رأيتهم يرمون بالنبل الروم فيتهافتون من سورهم كالغنم ، فلما رأوا ماصنع بهم النبل احترزوا منـه وستروا السور بالجحف والجلود وبمـا يرد النبل . قال ونظرت الروم الى ضرار بن الأزور وقد أقبل نحو الباب الأعظم وعليه بطريق كبير وعلى رأسه صليب من الجوهر وحوله غلمان وعليهم الطوارق و بأيديهم القسى الموترة والعمد وهويحرّض القوم على القتال . قال عوف بن مهلهل فنظرت الى ضرار وقـد قصد نحوه وهو يختفى و يستتر الى أن قرب من البرج الذى عليه البطريق ثم أطلق اليه نبلة ، قال عوف فنظرت الى النبلة مع علو هذا الجدار وقد خرجت من قوس ضرار والبرج عال رفيع . فقلت وما تـكون هذه النبلة مع علو هذا الجدار وما الذى تصنع فى هذا العلج وعليه هـذه اللامة اللامعة فأقسم بالله لقد وقعت هذه النبلة فى فيه فتردى الى أسفل برجه فسمعت للقوم ضجة عظيمة وجولة هائلة فعلمت أنه قتل ، قال ولم يزل أبو عبيدة ينازل بيت المقـدس أربعة أشهر كاملة ، ومامن يوم الا ويقاتلهم قتالا شـديدا والمسلمون صابرون على البرد والثلج والمطر ، فلما نظر أهل بيت المقدس الى شدة الحصار وما نزل بهم من المسلمين قصـدوا القمامة ووقفوا بين يدى بتركهم وسجدوا بين يديه وعظموه وقالوا له يا أبانا قد دار علينا حصار هؤلاء العرب ورجونا أن يأتينا مدد من قبل الملك ، ولاشك أنه اشتغل عنا بنفسه من أجل هزيمة جيشه وانهم أشهى منا للقتال وانهم من يوم نزلوا علينا لم نخاطبهم بكلمة واحدة ولم نجبهم

احتقارا منا لهم ، والآن قد عظم علينا الأمر وانا نريد منك أن تشرف على هؤلاء العرب وتنظر ما الذى يريدون منا ، فان كان أمرهم قريبا أجبنا الى مايريدون ويطلبون ، وان كان صعبا فتحنا الأبواب وخرجنا اليهم فاما أن نقتل عن آخرنا واما أن نهزمهم عنا فأجابهم البترك الى ذلك واشتمل بلباسه وصعد معهم على السور وحمل الصليب بين يديه واجتمع القسوس والرهبان حوله وبأيديهم الأناجيل مفتحة والمباخر حتى أشرف على المكان الذى فيه أبو عبيدة فنادى منهم رجل بلسان فصيح العربية : يامعاشر العرب ان عمدة دين النصرانية وصاحب شريعتها قد أقبل يخاطبكم فليدن منا أميركم فاخبروا أبا عبيدة بمقالهم . فقال والله انى لأجيبه حيث دعانى ، ثم قام أبو عبيدة وجماعة من الأمراء والصحابة ومعه ترجمان ، فلما وقف بازائه قال لهم الترجمان ما الذى تريدون منا فى هذه البلدة المقدسة ؟ ومن قصدها يوشك أن الله يغضب عليه ويهلكه فأخبره الترجمان بذلك . فقال قل لهم نعم انها بلدة شريفة ومنها أسرى بنبينا الى السماء ودنا من ربه — كقاب قوسين أوأدنى — وانها معدن الأنبياء وقبورهم فيها ونحن أحق منكم بها ولا نزال عليها أو يملكنا الله إياها كماملكنا غيرها . قال البترك فما الذى تريدون منا ؟ قال أبو عبيدة خصلة من ثلاث : أولها أن تقولوا لا إله الا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، فان أجبتم الى هذه الكلمة كان لكم مالنا وعليكم ماعلينا . قال البترك انها كلمة عظيمة ونحن قائلوها الا أن نبيكم محمدا مانقول انه رسول . قال أبو عبيدة كذبت ياعدوّ الله انك لم توحد قط وقد أخبرنا الله فى كتابه انكم تقولون المسيح ابن الله : لا إله إلا الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوّا كبيرا . قال البترك هذه خصلة لانجيبكم اليها فما الخصلة الثانية . فقال أبو عبيدة تصالحونا عن بلدكم أوتؤدون الجزية الينا عن يد وأنتم صاغرون كما أداها غيركم من أهل الشام . قال البترك هذه الخصلة أعظم علينا من الأولى وما كنا بالذى يدخل تحت الذل والصغار أبدا . فقال أبو عبيدة مانزال نقاتلكم حتى يظفرنا الله بكم ، ونستعبد أولادكم ونساءكم ونقتل منكم من خالف كلمة التوحيد وعكف على كلمة الكفر . فقال البترك : فانا لانسلم مدينتنا أو نهلك عن آخرنا ، وكيف نسلمها وقد استعددنا بآلة الحرب والحصار ، وفيها العدّة الحسنة والرجال الشداد ، ولسنا كمن لاقيتم من أهل المدن الذين أذعنوا لكم بالجزية فانهم قوم غضب عليهم المسيح فأدخلهم تحت طاعتكم ونحن فى بلد من اذا سأل المسيح ودعاه أجاب دعوته ، فقال أبو عبيدة كذبت والله ياعدوّالله — ماالمسيح بن مريم الارسول قدخلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام — فقال أنا أقسم بالمسيح أنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة مافتحتموها أبدا وانما تفتح لرجل صفته ونعته فى كتبنا ولسنا نجد صفته ونعته معك أبدا ، فقال أبو عبيدة وماصفة من يفتح مدينتكم ؟ . قال البترك لانخبركم بصفته لكن نجد فى كتبنا وما قرأناه من علمنا أنه يفتح هذه البلدة صاحب محمد اسمه عمر يعرف بالفاروق وهو رجل شديد لاتأخذه فى الله لومة لائم ولسنا نرى صفته فيكم ، قال فلما سمع أبو عبيدة ذلك من كلام البترك تبسم ضاحكا ، وقال فتحنا البلد ورب الكعبة . ثم أقبل عليه ، وقال له اذا رأيت الرجل تعرفه ؟ .قال نعم وكيف لاأعرفه وصفته عندى وعدد سنينه وأيامه . قال أبو عبيدة : هو والله خليفتنا وصاحب نبينا . فقال البترك : ان كان الأمر كما ذكرت ، فقد علمت صدقَ قولنا فاحقن الدماء ,وابعث الى صاحبك يأت فاذا رأيناه

وتبيناه وعرفنا صفته ونعته فتحنا له البلد من غير هم ولا نكد وأعطينا الجزية . فقال أبو عبيدة : فانى أبعث اليه بأن يقدم علينا أفتحبونا القتال أم نكف عنكم ؟ . فقال البترك : معاشر العرب ألا تدعون بغيكم أخبركم باننا قد صدقناكم فى الكلام طلبا لحقن الدماء وأنتم تأبون الا القتال . قال أبو عبيدة نعم ، لأن ذلك أشهى الينا من الحياة نرجو به العفو والغفران من ربنا . قال فأمر أبو عبيدة بالكف عنهم وانصرف البترك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فجمع أبو عبيدة الأمراء والمسلمين اليه وأخبرهم بما قال البترك فرفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير ، وقالوا افعل أيها الأمير وا كتب الى أمير المؤمنين بذلك فلعله يسير الينا و يفتح هذا البلد علينا ، فقال شرحبيل بن حسنة اصبر حتى نقول لهم ان الخليفة معنا ويتقدم خالد اليهم . فاذا نظروا اليه فتحوا الباب وكفينا التعب وكان خالد أشبه الناس بعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فلما أصبح الصباح . قال له الترجمان قد جاء الخليفة وكان قد قال أبو عبيدة لخالد فركبوا جميعا ، وقالوا قد جاء الرجل الذى تطلبونه فعرفوا البترك فأقبل الى أن وقف على السور ، وقال له قل له يتقدم بحيث نراه عيانا فتقدم خالد فتبينه ، وقال وحق المسيح كأنه هو ولكن باقى العلامات ماهى فيه فبحق دينك من أنت ، فقال أنا من بعض أصحابه ، فقال البترك : يافتيان العرب كم يكون هذا الخداع فيكم وحق المسيح لئن لم نر الرجل الموصوف مانفتح لكم ولايرجع أحد منا يكلمكم ولوأقمتم علينا عشرين سنة ثم ولى ولم يتكلم ، فقال المسلمون عند ذلك اكتبوا الى أمير المؤمنين وعرفوه بذلك فعسى أن يأتى ويتشرف بهذه البقعة فكتب أبو عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم الى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله أبى عبيدة عامر بن الجراح . أما بعد السلام عليك فانى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ واعلم ياأمير المؤمنين انا منازلون لأهل مدينة ايلياء نقاتلهم أربعة أشهر كل يوم نقاتلهم و يقاتلوننا ولقد لقى المسلمون مشقة عظيمة من الثلج والبرد والأمطار إلا أنهم صابرون على ذلك و يرجون الله ربهم ، فلما كان اليوم الذى كتبت اليك الكتاب فيه أشرف علينا بتركهم الذى يعظمونه ، وقال انهم يجدون فى كتبهم انه لايفتح بلدهم الا صاحب نبينا واسمه عمر وانه يعرف صفته ونعته وهو عندهم فى كتبهم وقد سألنا حقن الدماء فسر الينا بنفسك وانجدنا لعل الله أن يفتح هذه البلدة علينا على يديك . ثم انه طوى الكتاب وختمه ، وقال يامعاشر المسلمين من ينطلق بكتابى هذا وأجره على الله فأسرع بالاجابة ميسرة بن مسروق العبسي ، وقال أنا أكون الرسول وأرجع مع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ان شاء الله تعالى . قال أبو عبيدة خذ الكتاب بارك الله فيك فأخذه ميسرة واستوى على ناقة له كوماء ولم يزل سائرا إلى أن دخل المدينة فدخلها ليلا ، وقال والله لا زلت عند أحد من الناس فأناخ ناقته على باب المسجد وعقلها ودخل المسجد وسلم على قبر رسول الله ﷺ وعلى قبر أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، ثم أتى مكانا فى المسجد فنام وكان له ليال عدة لم ينم فأخذته عيناه فما استيقظ إلا على أذان عمر وكان عمر يغلس فى الأذان ، فلما أذن دخل المسجد وهو يقول الصلاة رحمكم الله . قال ميسرة فقمت وتوضأت وصليت خلف عمر صلاة الفجر ، فلما انحرف عن محرابه قمت اليه وسلمت عليه ، فلما نظر الى صافحنى واستبشر ، وقال

ميسرة ورب الكعبة . ثم قال ماوراءك ياابن مسروق . قلت الخير والسلامة ياأمير المؤمنين ثم ناوله الكتاب فقرأه على المسلمين فاستبشروا به ، فقال ماترون رحمكم الله فيما كتب به أبو عبيدة ؟ فكان أول من تكلم عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، فقال ياأمير المؤمنين ان الله قد أذل الروم وأخرجهم من الشام ونصر المسلمين عليهم وقد حاصر أصحابنا مدينة ايلياء وضيقوا عليهم وهم فى كل يوم يزدادون ذلا وضعفا ورعبا فان أنت أقمت ولم تسر اليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستحقر فلايلبثون الااليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطون الجزية ، فلما سمع عمر ذلك من مقال عثمان جزاه خيرا ، وقال هل عند أحد منكم رأى غير هذا ؟ . فقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه نعم عندى غير هذا الرأى ، وأنا أبديه لك رحمك الله ، فقال عمر وماهو ياأبا الحسن ؟ . قال ان القوم قد سألوك وفى سؤالهم ذلك فتح للمسلمين ، وقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام وانى أرى أنك إن سرت اليهم فتح الله هذه المدينة على يديك وكان فى مسيرك الأجر العظيم فى كل ظمأ ومخمصة وفى قطع كل واد وصعود جبل حتى تقدم اليهم . فاذا أنت قدمت عليهم كان لك وللمسلمين الامن والعافية والصلاح والفتح ولست آمن أن ييأسوا منك ومن الصلح ويمسكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم فيدخل على المسلمين من ذلك الهم والبلاء لاسيما بيت المقدس عندهم وهو معظم واليه يحجون فلا يتخلفون عنه ، والصواب أن تسير اليهم ان شاء الله تعالى . قال ففرح عمر بن الخطاب بمشورة على رضى الله تعالى عنه وقال : لقد أحسن عثمان النظر فى المكيدة للعدوّ وأحسن علىّ المشورة للمسلمين فجزاهما الله خيرا ولست آخذ الا بمشورة على فما عرفناه الامحمود المشورة ميمون الغرة ، ثم ان عمر رضى الله تعالى عنه أمر الناس بأخذ الأهبة للسير معه والاستعداد فأسرع المسلمون الى ذلك واستعدوا وتأهبوا وأمر عمر أن يكونوا خارج المدينة ، ففعلوا ذلك وأتى عمر المسجد فصلى فيه أربع ركعات ثم قام الى قبر رسول الله ﷺ فسلم عليه وعلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه واستخلف على المدينة على بن أبى طالب وخرج من المدينة وأهلها يشيعونه ويودّعونه .

[قال الواقدى رضى الله تعالى عنه] وخرج عمر من المدينه وهو على بعير له أحمر وعليه غرارتان فى إحداهما سويق وفى الأخرى تمر وبين يديه قربة مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد وخرج ومعه جماعة من الصحابة قد شهدوا اليرموك وعادوا الى المدينة منهم الزبير وعبادة بن الصامت وسار عمر نحو بيت المقدس فكان اذا نزل منزلا لايبرح منه حتى يصلى الصبح فاذا انفتل من الصلاة أقبل على المسلمين وقال : الحمد لله الذى أعزنا بالاسلام وأكرمنا بالايمان وخصنا بنبيه عليه الصلاة والسلام وهدانا من الضلالة وجمعنا بعد الشتات على كلمة التقوى وألف بين قلوبنا ونصرنا على عدوّنا ومكن لنا فى بلاده وجعلنا اخوانا متحابين فاحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة السابغة والمنن الظاهرة . فان الله يزيد المستزيدين الراغبين فيما لديه ويتم نعمته على الشاكرين . ثم يأخذ الجفنة فيملؤها سويقا ويصف التمر حولها ويقرب للمسلمين ويقول كلوا هنيئا مريئا فيأكل ويأكل المسلمون معه ، ثم يرحل فلم يزل كذلك فى مسيره . قال عمرو بن مالك العبسى كنت مع عمر بن الخطاب حين سار الى الشام فمر على ماء لجذام وعليه طائفة منهم نزول والماء يدعى ذات المنار فنزل بالمسلمين عليه ، فبينما هو كذلك وأصحاب رسول الله ﷺ حوله

اذ أقبل اليه قوم من جذام ، فقالوا ياأمير المؤمنين ان عنـدنا رجلا له امرأتان وهما أختان لأب وأم . قال فغضب عمر وقال علىّ به فأتى بالرجل اليه ، فقال له عمر ماهاتان المرأتان ؟ . قال الرجل زوجتاى قال فهل بينهما قرابة ؟ . قال نعم همـا أختان قال عمر فـادينك ألست مسلما ؟ قال بلى قال عمر وماعلمت أن هـذا حرام عليك والله يقول فى كتابه ـ وأن تجمعوا بين الاختين الاماقد سلف ـ فقال الرجل ماعلمت وماهما علىّ حرام فغضب عمر وقال كذبت والله انه لحرام عليك ولتخلين سبيل إحداهمـا والاضربت عنقك . قال الرجـل أفتحكم علىّ قال إى والله الذى لاإله إلاهو ، فقال الرجل ان هذا دين ماأصبنا فيه خيرا ولقد كنت غنيا عن أن أدخل فيه ، قال عمر ادن منى فدنا منه فخفق رأسه بالدرة خفقتين ، وقال له أتتشاءم بالاسـلام ياعدوّ الله وعدوّ نفسه ، وهو الدين الذى ارتضاه الله لملائكته ورسله وخيرته من خلقه خـلّ ياويلك سبيل إحـداهمـا والاجلدتك جلدة المفترى ، فقال الرجل كيف أصنع بهما وانى أحبهما ، ولـكن أقرع بينهما فمن خرجت القرعة عليها كنت لهـا وهى لى ، وان كنت لهماجميعا محبا فأمر عمر فاقترع فوقعت القرعة على إحداهمـا فأمسكها وأطلق سبيل الثانية ، ثم أقبل عليه عمر ، وقال له اسـمع ياذا الرجل وع ماأقول لك انه من دخل فى ديننا ثم رجع عنه قتلناه فاياك أن تفارق الاسـلام واياك يبلغنى أنك قد أصبت أخت امرأتك التى فارقتها فانك ان فعلت ذلك رجمتك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وسار عمر حتى مرعلى حى من بنى مرة . فاذا بقوم منهم قد أقاموا فى الشمس يعذبون فقال لهم عمر . مابال هؤلاء يعذبون ؟ فقيل عليهم خراج فهم يعذبون قال فـمايقولون . قال يقولون مانجد مانؤدى ، فقال عمر دعوهم ولاتـكلفوهم مالايطيقون فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول «لاتعذبوا الناس فى الدنيا يعذبكم الله يوم القيامة» فخلى سبيلهم . ثم سار حتى اذا كان بواد القرى أخبروه أن شيخا على الماء وله صديق يوده ، فقال له صديقه هل لك أن تجعل لى فى زوجتك نصيبا وأكفيك رعى إبلك والقيام عليها ولى فيها يوم وليلة ولك فيها يوم وليلة ؟ قال له الشيخ : قد فعلت ذلك ورضى . فلمـا أخبر عمر بذلك أمر بهما فأحضرا ، فقال ويلكما مادينكما ؟ قالا الاسلام . قال عمر فما الذى بلغنى عنكما ؟ قالا وماهو ؟ فأخبرهما عمر بمـا سمعه من العرب ، فقال الشيخ قد كان ذلك ياأمـير المؤمنين . فقال عمر : أماعلمتما أن ذلك حرام فى دين الاسـلام ؟ قالا لاوالله ماعلمنا ذلك . فقال عمر للشيخ ومادعاك أن صنعت هـذا القبيح ؟ قال أنا شيخ كبير ولم يكن لى أحد أثق به ولا أتـكل عليه فقلت ياهـذا أتـكفينى الرعى والسقى وتعيننى على دوابى وأنا أجعل لك نصيبا فى امرأتى والآن علمت أنه حرام فلا أفعله فقال لى عمر خذ بيد امرأتك فلاسبيل لى عليها ، ثم قال للشاب اياك أن تقرب منها فانه ان بلغـنى ذلك ضربت عنقك ثم ارتحل عمر يريد بيت المقدس حتى دنا من أوّل الشام وأشرف عليه . قال أسلم ابن برقان مولى عمر ، فلمـا أشرفنا على الشام وأشرف عليه المسلمون نظرنا الى طائفة من خيل المسلمين . فقال عمر للزبير أسرع وانظر ماهذه الخيل فأسرع الزبير اليها ، فلما قرب منها واذاهى خيل من اليمن قد بعث بهم أبوعبيدة يأخذون له خبر عمر رضى الله تعالى عنه ، قال الزبير فسلموا علىّ وقالوا يافتى من أين أقبلت ؟ فقلت من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا كيف خلفت أهلها ؟ قلت بخير ، قالوا فما فعل عمر هل قدم علينا أم لا ؟ قال الزبير من أنتم قالوا نحن من عرب

اليمن قد وجهنا أبوعبيدة لنأخذله خبر عمر ، قال فرجع الزبير الى عمر وحدثه قال أصبت ياأبا عبدالله فأقبل علينا تبع آخر فسلموا علينا وسألونا عن عمر . فقال لهم هاأنا عمر فما تريدون ؟ قالوا ياأمير المؤمنين قد ذرفت العيون وطالت الأعناق بطول قدومك فلعل الله أن يفتح بيت المقدس على يدك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ثم رجعوا على أعقابهم حتى أشرفوا على عسكر المسلمين وأبى عبيدة ونادوا بأصواتهم أبشروا يامسلمون بقدوم عمر قال فارتج الناس وهموا أن يركبوا لاستقباله بأجمعهم . فقال لهم أبوعبيدة عزيمة على كل رجل أن لايخرج من مركزه ثم سار أبوعبيدة فى أناس من المهاجرين والأنصار حتى أشرف بمن معه على عمر قال ونظر عمر الى أبى عبيدة وهو لابس سلاحه متنكب قوسه وهو راكب على قلوصه مغطى بعباءة قطوانية وخطام قلوصه من شعر ، فلما نظر أبوعبيدة الى عمر رضى الله عنهما أناخ قلوصه وأناخ عمر بعيره وترجل كلاهما ومد أبوعبيدة يده فصافح عمر وتعانقا جميعا وسلم بعضهما على بعض وأقبل المسلمون يسلمون على عمر ثم ركبا جميعا وجعلا يسيران أمام الناس وهما يتحادثان ولم يزالا كذلك حتى نزلا ببيت المقدس ، فلما نزل صلى عمر رضى الله تعالى عنه بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطبهم خطبة حسنة فقال فى خطبته : الحمد لله الحميد المجيد ، القوى الشديد ، الفعال لما يريد ، ثم قال ان الله تعالى قد أكرمنا بالاسلام وهدانا بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأزاح عنا الضلالة وجمعنا بعد الفرقة وألف بين قلوبنا من بعد البغضاء فاحمدوه على هذه النعمة تستوجبوا منه المزيد فقد قال الله تعالى ــ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد ، ثم قرأ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ــ قال فلما تلا عمر ذلك قام قس من النصارى كان حاضرا بين يديه . فقال ان الله لا يضل أحدا ، فلما كررها قال عمر انظروا ان عاد الى قوله فاضربوا عنقه فعرف القس ماقال عمر فأمسك ومضى عمر فى خطبته . فقال : أما بعد فانى أوصيكم بتقوى الله عزّوجل الذى يبقى ويفنى كل شىء سواه ، الذى بطاعته ينفع أولياءه ، وبمعصيته يفنى أعداءه ، أيها الناس أدّوا زكاة أموالكم طيبة بها قلوبكم وأنفسكم لاتريدون بها جزاء من مخلوق ولاشكورا افهموا ماتوعظون به فان الكيس من أحرز دينه ، وان السعيد من اتعظ بغيره ألا ان شر الأمور مبتدعاتها وعليكم بالسنة سنة نبيكم ﷺ فالزموها فان الاقتصاد فى السنة خير من الاجتهاد فى البدعة والزموا القرآن فان فيه الشفاء والثواب ، أيها الناس انه قام فينا رسول ﷺ كقيامى فيكم وقال الزموا أصحابى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يظهر الكذب حتى يشهد من لم يستشهد ويحلف من لم يحلف فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، وتعوّذوا من الشيطان ولا يخلونّ أحد منكم بامرأة فانهنّ من حبائل الشيطان ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن ، والصلاة الصلاة ، فلما فرغ من خطبته جلس فجعل أبوعبيدة يحدّثه بمالقى من الروم وعمر باهت ، فتارة يبكى وتارة يهدأ فلم يزل كذلك الى أن حضرت صلاة الظهر . فقال الناس ياأمير المؤمنين اسأل بلالا أن يؤذن لنا ، وكان بلال مقيما ببلد ، فلما بلغه أن الناس قد نزلوا على بيت المقدس أتى اليهم وشاهد قتالهم وجعل يقاتل معهم ، فلما بلغه أن عمر قد وصل سار مع أبى عبيدة حتى سلم على عمر فعظم قدره ، فلما حضرت صلاة الظهر وسأل المسلمون عمر أن يسأل بلالا . فقال له يابلال

ان أصحاب رسول الله ﷺ يسألون أن تؤذن لهم وتذكرهم أوقات نبيهم ﷺ فقال بلال نعم فلما قال الله أكبر خشعت جلودهم واقشعرت أبدانهم ، قال فلما قال : أشهد أن لا إله الا الله أشهد أن محمدا رسول الله بكى الناس بكاء شديدا حتى كادت قلوبهم أن تتصدّع عند ذكر الله ورسوله ، فلما فرغ بلال من أذانه وجلس قال بلال ياأمير المؤمنين ان أمراء المسلمين وأجناد الشام يأكلون لحوم الطيور والخبز النقى ومالا يلحق ضعفاء الناس ومالا تناله أيديهم وأن الكل يفنى ومآله الى التراب ومصيرنا اليه . فقال له يزيد بن أبى سفيان ان سعر بلادنا هذه رخيص وانا لنصيب ماقاله بلال ههنا مثل ما كنا نقوت به أنفسنا مدّة من الزمان فى الحجاز . فقال عمر ان الامر كما ذكرت فكلوا هنيئا مريئا ولست أبرح من مكانى حتى تجمعوا الحىّ من فى المنازل وأن تكتبوا الى فقراء المسلمين ممن فى المدن والقرى فأفرض لكل أهل بيت مايجزيهم من البر والشعير والعسل والزيت ومايحتاجون اليه ولابدّ لهم منه ثم قال عمر : هذا لكم من أمرائكم غير مايأتيكم منى من بيت مال المسلمين ، فان قطعت عنكم أمراؤكم فأمرونى حتى أعزلهم عنكم ثم أمرهم بالرحيل ، فلما همّ بالركوب على بعيره وعليه مرقعة من صوف وفيها أربع عشرة رقعة بعضها من أدم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] بلغنى ممن أثق به أنها كانت مرقعة من صوف . فقال له المسلمون ياأمير المؤمنين لو ركبت بدل بعيرك جوادا ولبست ثيابا بيضا . قال ففعل قال الزبير أحسب أنها كانت من ثياب مصر تساوى خمسة عشر درهما وطرح على عاتقه منديلا من كتان ليس جديدا ولا بالخلق دفعه اليه أبوعبيدة وقدّم اليه برذون أشهب من براذين الروم ، فلما صار عمر على ظهره جعل البرذون يهملج به ، فلما نظر عمر الى البرذون وفعاله نزل عنه مسرعا وقال أقيلوا عثرتى أقال الله عثرتكم يوم القيامة ، فقد كاد أميركم أن يهلك بمادخل قلبى من العجب والكبر وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من الكبر » ولقد كاد أن يهلكنى ثوبكم الأبيض وبرذونكم المهملج ، ثم ان عمر رضى الله تعالى عنه نزع ما كان عليه ثم عاد الى لبس مرقعته .

[قال الواقدى] كنا يوما نقرأ فتوح الشام وفتوح بيت القدس عند قبر أبى حنيفة ، وكان الفتوح يقرأ على عبادة بن عوف الدينورى وكان من أهل الفضل ، وكان يسجع كلامه . فلما وصل الى ماذكرناه من لبس عمر لمرقعته . قال قد سمح خاطرى بما أنا قائله

[قال الواقدى] قلت قل ولاتخف الصدق فتهوى فى النار ، وان الصدق أمانة والكذب خيانة . قال لما لبس عمر مرقعته وجعل يتميز فى شمائل فقره ، والكائنات تتعجب من زهده وصبره عندما تزينت له الدنيا بملابسها وترآءت له فى حلل أمنيتها بواسطة حدثان مشيئتها ، وقد جعلت أشباح شهواتها على قة رأس مرآتها واقبلت رافلة فى حلة مراودته ، مطلقة عند الطمع فى طلب زوال مجاهدته ، معرضة بملابس جمالها على سوق معارضته فى سناء قبلة مرآة تبهرجها فى عين مشاهدته ، واقفة على قدم الاستدراج الى ترك خدمته ، جاعلة ودادها ذريعة الى وصلته ، وعمر قد أمسك عرا طاعته بيد عصمته ، فلما نصبت له حبائل بلاها ، ولم تره وقع فى أشراك هواها ، أسمعت فى معناها ، قد شغفها حبا انا لنراها ، وقالت ياعمر قد وليت أرضى فلابد من

القيام بفرضي ، فالولاية لاتقوم الا بالملابس الهنية والمآكل الشهية ، والظلم فى الرعية ، فقال عمر : اذهبي فلست من رجالك ولامن يقع فى حبالك ولافى أوحالك . أماعلمت أنى قد تجردت لمعاندتك ولا حاجة لى فى مشاهدتك ، وها أنا على قدم تجردت لاقامة دعوة سيد الأمم ، حتى أفتح بلاد الروم والعجم ، ثم أظهر فى وجهها صارم اجتهاده من معنى قوله — وجاهدوا فى الله حق جهاده — .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] فاستحسنت هذا الكلام وألحقت ماقاله فى هذا الموضع بقول رسول الله ﷺ « ان من البيان لسحرا » قال وان عمر سار يريد العقبة ليصعد منها الى بيت المقدس فلقيه قوم من المسلمين وعليهم ثياب الديباج مما أخذوه من اليرموك فأمر عمر أن يحثوا التراب فى وجوههم ، وان تمزق عليهم ، ولم يزل على ذلك حتى أشرف على بيت المقدس ، فلما نظر اليها قال الله أكبر : اللهم افتح لنا فتحا يسيرا ، واجعل لنا من لدنك سلطانا نصيرا ، ثم سار واستقبلته العشائر والقبائل وأصحاب العقود وسار عمر حتى نزل بالموضع الذى كان فيه أبو عبيدة وضربت له خيمة من شعر وجلس فيها هناك على التراب . ثم قام يصلى أربع ركعات .

[قال الواقدى] وعلت للمسلمين ضجة عظيمة وصياح مزعج بالتهليل والتكبير ، فسمع أهل بيت المقدس الضجة والجلبة ، فقال لهم البترك ياويلكم ماشأن العرب قد ارتفعت لهم جلبة من غير شئ فاشرفوا عليهم وانظروا ماشأنهم .

[قال الواقدى] فاشرف عليهم رجل ممن يعرف العربية ، فقال : يامعاشر العرب أخبرونا ماقصتكم ؟ قالوا ان أمير المؤمنين عمر قد قدم علينا من مدينة نبينا ، وهذه الضجة من فرح المسلمين به . قال فرجع وأعلم البترك فأطرق الى الأرض ولم يتكلم ، فلما كان الغد وصلى عمر بالناس صلاة الفجر . قال لأبى عبيدة ياعامر تقدّم الى القوم واعلمهم أنى قد أتيت . قال فخرج أبو عبيدة وصاح بهم وقال ياأهل هذه البلدة ان صاحبنا أمير المؤمنين قد ورد فما تصنعون فيما قلتم . قال فأعلموا البترك فخرج من كنيسته وعليه المسوح وترجل الرهبان والقسوس والاساقفة معه ، وقد حمل بين يديه صليب لايخرجونه الافى عيدهم وسار معه البطاليق الوالى عليهم وهو يقول : للبترك ياأبانا ان كنت تعرفه معرفة حقيقية والا فلا تفتح له ودعنا وهؤلاء العرب فاما ان نبيدهم ، واما أن يبيدونا ، قال البترك أنا أفعل ذلك ، ثم صعدا على الصور ووقف البطاليق الى جانبه والصليب أمامهم وأشرف على أبى عبيدة وقال ماتشاء أيها الشيخ الباهى ، قال أبو عبيدة : هذا أمير المؤمنين عمر وليس عليه أمير قد أتى فاخرجوا اليه واعقدوا معه الأمان والذمة وأداء الجزية . فقال البترك ياذا الرجل ان كان صاحبك الذى ليس عليه أمير قد أتى فدعه يدن منا فانا نعرفه بنعته وصفته وأفردوه من بينكم وليقف بازائنا حتى نراه ، فان كان صاحبنا الذى نعته فى الانجيل نزلنا اليه وعقدنا معه الأمان وأقررنا له بالجزية ، وإن كان غير الذى نجد نعته فى الانجيل وصفته فمالكم عندنا غير القتال ، قال فرجع أبو عبيدة الى عمر وأخبره بما قاله البترك فهمّ عمر بالقيام . فقال له أصحابه يا أمير المؤمنين تخرج اليهم منفردا ، وليس عليك آلة حرب غير هذه المرقعة وانا نخشى عليك منهم غدرا أومكرا فينالون منك . فقال عمر — قل لن يصيبنا الاما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون — ثم أمر ببعيره فقدّم اليه فاستوى فى ركوبه عليه وعليه مرقعة ليس عليه غيرها وعلى رأسه قطعة عباءة قطوانية وقد عصب بها رأسه وليس معه غير أبى عبيدة

رضى الله تعالى عنهما وهو سائر بين يديه حتى قرب من السور ووقف بازاء السور والبترك والبطاليق عليه ، فتكلم أبو عبيدة وقال ياهؤلاء هذا أمير المؤمنين قد أتى فسح البترك عينه ونظر اليه وزعق بأعلى صوته هذا والله الذى نجد صفته ونعته فى كتبنا ومن يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة، ثم انه قال لأهل بيت المقدس ياويحكم انزلوا اليه واعقدوا معه الأمان والذمة ، هذا والله صاحب محمد بن عبدالله .

[قال الواقدى] فلما سمعت الروم كلام البترك نزلوا مسرعين وكانوا قد ضاقت أنفسهم من الحصار ففتحوا الباب وخرجوا الى عمر بن الخطاب يسألونه العهد والميثاق والذمة ويقرون له بالجزية ، فلما نظر اليهم عمر على تلك الحالة تواضع لله وخرّ ساجدا على قتب بعيره ثم نزل اليهم وقال ارجعوا الى بلادكم ولكم الذمة والعهد اذ سألتمونا وأقررتم بالجزية . قال فرجع القوم الى بلدهم ولم يغلقوا الأبواب ورجع عمر الى عسكره فبات فيه ليلة ، فلما كان الغد قام فدخل اليها وكان دخوله يوم الاثنين وأقام بها الى يوم الجمعة وخط بها محرابا من جهة الشرق وهو موضع مسجده فتقدم وصلى هو وأصحابه صلاة الجمعة فهمت الروم بغدرهم وكان أبو الجعيد الذى احتال على الروم باليرموك بيبت المقدس هو وأهله وماله فقالوا ماترى فى غدر هؤلاء العرب اذاهم اشتغلوا بصلاتهم وليس معهم آلة حرب ولامايحترزون به من الضرب والقتل ؟ . فقال لهم أبو الجعيد ياقوم لاتفعلوا ولاتغدروا بهم فان فعلتم ذلك أخبرتهم بما تريدون أن تفعلوا بهم فقالوا وما الذى نصنع ؟ فقال أبو الجعيد أظهروا للعرب مالكم من الزينة ومتاع الدنيا فان متاع الدنيا ومافيها لايصبر صاحبهما عنهما ، فان طلبوهما بغدر فشأنكم وماتريدون ، قال فأقبل القوم على ما كانوا يقدرون عليه من المال والمتاع الحسن فأظهروه وصفوه فى طريق المسلمين وشوارعهم ، فجعل المسلمون ينظرون الى ذلك فى دخولهم وخروجهم وهم يعجبون منهم ولم يمل أحد منهم اليه ولم يلمسه وهم يقولون الحمد لله الذى أورثنا ديار قوم لهم مثل هذا ، ولو سارت الدنيا عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء ، قال عوف بن سالم فوالله مامن المسلمين من جعل يده على شىء من متاعهم ولالمسه . فقال لهم أبو الجعيد هؤلاء القوم الذين وصفهم الله فى التوراة والانجيل وانهم لايزالون على الحق ولايقربهم أحد ماداموا على ماهم عليه .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وأقام عمر فى بيت المقدس عشرة أيام . قال شهر بن حوشب سمعت كعب الأحبار يقول : إن عمر بن الخطاب لما صالح أهل بيت المقدس ودخلها أقام فيها عشرة أيام فأقبلت اليه وكنت فى قرية من فلسطين ، وتقدمت اليه لأسلم عليه وأسلم على يديه ، وذلك أن أبى كان أعلم الناس بما أنزل الله على موسى بن عمران وإنه كان لى محبا وعلىّ مشفقا ولم يكتم علىّ شيئا الا أعلمنى إياه مما كان يعلم الناس ، فلما حضرته الوفاة ، دعانى اليه وقال لى يابنى إنك تعلم أنى مادخرت عنك شيئا مما كنت أعلمه لأنى خشيت أن يخرج بعض هؤلاء الكاذبين وتتبعهم وقد جعلت هاتين الورقتين فى هذه الكرة التى ترى فلاتتعرض لهما ولاتنظر فيهما الى أن تسمع بخبر نبى يبعث فى آخر الزمان اسمه محمد ، فان يرد الله بك خيرا فأنت تتبعه ، ثم مات بعد وصيته إياى . قال كعب فدفنته ، فما كان شىء أحبّ الىّ بعد انقضاء العزاء من النظر فى الورقتين وقراءة مافيهما ففتحتهما ، فاذا فيهما لاإله الا الله محمد رسول الله خاتم

النبيين لانبي بعده ، مولده بمكة ، ودارهجرته طيبة ، ليس بفظ ولا غليظ ولاصخاب ، أمته الحامدون الذين يحمدون الله على كل حال ألسنتهم رطبة بالتهليل والتكبير وهم منصورون على كل من عاداهم من أعدائهم أجمعين يغسلون وجوههم و يسترون أوساطهم أناجيلهم فى صدورهم تراحمهم بينهم تراحم الأنبياء بين الأمم ، وهم أوّل من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم . قال كعب الأحبار فلما قرأت ذلك قلت فى نفسى وهل علمنى أبى شيئا أعظم من هذا ثم مكثت بعد وفاة والدى ماشاء الله الى أن بلغنى ان النبى صلى الله عليه وسلم الموصوف قد ظهر بمكة وهو يظهر مرة بعد أخرى . فقلت هو والله لامحالة ولم أزل أبحث عن أمره حتى قيل انه خرج ونزل بيثرب فجعلت أترقب أمره حتى غزا غزوات ونصر على أعدائه ، فتجهزت أريد المسير اليه فبلغنى انه قد قبض ﷺ وانقطع الوحى . فقلت فى نفسى لعله ليس الذى كنت أنتظره حتى رأيت فى منامى كأن أبواب السماء قد فتحت والملائكة تنزل زمرة بعد زمرة وقائل يقول قد قبض رسول الله ﷺ وانقطع الوحى عن أهل الأرض فرجعت الى دار قومى وجاءنا الخبر انه قدم أمته خليفة اسمه أبو بكر فقلت أقدم عليه فلم ألبث حتى جاءتنا جنوده الى الشام ثم جاءتنا وفاته ، ثم قيل انه استخلف عليهم رجل أسمر اسمه عمر . فقلت لاأدخل هذا الدين حتى أحققه ولم أزل متوقفا حتى قدم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ببيت المقدس وصالح أهلها ونظرت اليه وفائهم بعهدهم وماصنع الله بأعدائهم ، وقلت إنهم أمة النبى الأمى فحدثت نفسى بالدخول فى هذا الدين ، فوالله انى كنت ذات ليلة على سطحى واذا أنا برجل من المسلمين يقول ـ ياأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا ـ قال كعب فلما سمعت هذه الآية خفت والله أن لاأصبح حتى يحول وجهى فما كان شئ أحب الىّ من الصباح أن يرد ، فلما أصبحت غدوت من منزلى وسألت عن عمر فقيل لى انه ببيت المقدس فقصدت اليه واذا به قد صلى بأصحابه صلاة الفجر عند الصخرة فأقبلت اليه وسلمت عليه فرد علىّ السلام ، وقال لى من أنت فقلت له أنا كعب الأحبار وانى جئت أريد الاسلام والدخول فيه فانى وجدت صفة محمد ﷺ وأمته فى الكتب المنزلة ، وان الله عز وجل أوحى الى موسى عليه السلام انى ماخلقت خلقا أكرم علىّ من أمة محمد ﷺ ولولاه ماخلقت جنة ولانارا ولاسماء ولاأرضا ، وأمته خير الأمم ودينه خير الأديان ، بعثته آخر الزمان ، أمته مرحومة ، وهو نبى الرحمة ، وهو النبى الأمى التهامى القرشى الرحيم بالمؤمنين ، الشديد على الكافرين ، سريرته مثل علانيته ، وقوله لايخالف فعله ، القريب والبعيد عنده سواء ، أصحابه متراحمون متواصلون ، فقال عمر أحقا ماتقول يا كعب ؟ . قال أى والله والله يسمع ماأقول و يعلم ماتخفى الصدور ، فقال عمر : الحمد لله الذى أعزنا وأكرمنا وشرّفنا ورحمنا برحمته التى وسعت كل شئ وهدانا بمحمد ﷺ فهل لك يا كعب فى الدخول فى ديننا ؟ ، فقال كعب ياأمير المؤمنين فى كتابكم الذى أنزل اليكم فى أمر دينكم ذكر ابراهيم . فقال عمر نعم وقرأ ـ ووصى بها ابراهيم بنيه و يعقوب يابنىّ ان الله اصطفى لكم الدين فلاتموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى ، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون ـ . ثم قرأ ـ ما كان ابراهيم يهوديا

ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما — ثم قرأ — أفغير دين الله يبغون وله أسلم — الآية . ثم قرأ — ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه — الآية ، ثم قرأ — قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما — الآية ، ثم قرأ — وماجعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل — الآية . قال كعب فلما سمعت هذه الآيات . قلت ياأمير المؤمنين أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، ففرح عمر باسلام كعب الأحبار . ثم قال هل لك أن تسير معى الى المدينة فتزور قبر النبى ﷺ وتتمتع بزيارته ؟ . فقلت نعم ياأمير المؤمنين أنا أفعل ذلك . قال وارتحل عمر بعد ان كتب لأهل بيت المقدس كتابا : أى عهدا وأقرهم فى بلدهم على الجزية وسار بمن معه من العساكر الى الجابية فأقام بها ودوّن الدواوين وأخذ الخمس الذى لله مما أفاء الله على المسلمين ، ثم قسم الشام قسمين فأعطى أباعبيدة من حوران الى حلب ومايليها وأمره بالمسير الى حلب وان يقاتلوا أهلها الى أن يفتحها الله على يديه وأعطى أرض فلسطين وأرض القدس والساحل ليزيد بن أبى سفيان ، وجعل أبا عبيدة واليا عليه وأمر يزيد أن يحارب أهل قيسارية الى أن يفتحها الله على يديه ، وكان قد أعطى أكثر الأجناد لأبى عبيدة مع ، خالد وسير عمرو بن العاص الى مصر واستعمل على قضاء حمص عمرو بن سعيد الأنصارى ثم سار عمر رضى الله عنه يريد مدينة الرسول ﷺ وأخذ كعب الأحبار معه وكان أهل المدينة يظنون أن عمر يقيم بالشام لمايرون من كثرة خيرها وطيب فواكهها ورخص أسعارها ولمايخبرون عنها أنها بلاد الأنبياء وهى الأرض المقدسة وفيها المحشر فبقى الناس يتطاولون نحوه ويخرجون فى كل يوم ينظرونه حتى قدم عمر رضى الله عنه فارتجت المدينة يوم قدومه واستبشر أصحاب رسول الله ﷺ برؤيته وسلموا عليه ورحبوا به وهنئوه بمافتح الله على يديه ، فأوّل مابدأ بالمسجد سلم على قبر رسول الله ﷺ وعلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم صلى ركعتين وعاد بكعب الأحبار . وقال حدث المسلمين بمارأيت فى الورقتين فازداد الناس ايمانا .

[قال أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدى] **حدثنا** أحمد بن الحسين بن العباس المعروف بأبى سفيان النحوى . قال حدثنا أبو جعفر بن أحمد بن عبيد الناسخ . قال حدثنى عبد الله بن أسلم الزهرى وعبد الله بن يحيى الزرقى عمن حدثه ممن تقدم ذكرهم وأسماؤهم أول الكتاب وحديث القوم قريب بعضه من بعض والله يعيذنا من الزيادة والنقصان ، لأن الصدق أمانة والكذب خيانة والله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة مااعتمدت فى خبر هذه الفتوح الا على الصدق وماحدثت حديثه الا على قاعدة الحق لأثبت فضل أصحاب رسول الله ﷺ وجهادهم حتى أرغم بذلك أهل الرفض الخارجين على أهل السنة ، اذ لولاهم بمشيئة الله تعالى لم تكن البلاد للمسلمين وما انتشر علم هذا الدين فلله درهم لقد جاهدوا فى الله حق جهاده لاجرم ، وقد قال فيهم الملك المقتدر — فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر — .

[قال الواقدى] وذلك انه لما بعث عمر بن الخطاب أبا عبيدة وجعله أمير الشام وأمره بالمسير الى حلب وانطاكية والمفرق وما يليهم من الحصون بعث عمرو بن العاص الى مصر ويزيد بن أبى سفيان الى ساحل الشام فنازلوا قيسارية وهى آهلة بالخلق كثيرة الجند وكان عليها قسطنطين الى أن نزل يزيد وقسطنطين هذا ابن الملك هرقل وكان معه ثمانون ألفا من الروم والعرب المتنصرة

والروسية ، فلما نظر قسطنطين الى نزول يزيد بن أبي سفيان عليه بعث الى أبيه يستنجده فبعث اليه هرقل بصاحب مرعش وعشرين ألفا من أبطال الروسية وأنفذ له المراكب بالزاد والعلوفة ، فلما نظر يزيد الى ذلك وأن لاقدرة له على ذلك كتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يزيد بن أبي سفيان العامل على بعض الشام الى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه انى نازلت أهل قيسارية وهى مدينة آهلة بالخلق كثيرة الجند وليس اليها سبيل وان قسطنطين قد استنجد بأبيه وقد أنجده بصاحب مرعش وعشرين ألفا والمراكب ترد عليه كل يوم بالعلوفة والزاد وأريد النجدة والسلام . و بعث الكتاب مع عمرو بن سالم بن حميد النخعي فلما ورد المدينة وسلم الكتاب الى عمر بن الخطاب . قال عمر من أين هذا الكتاب قال من عاملك يزيد بن أبي سفيان فقرأه ، فلما أتى على آخره تفكر فى أمر يزيد وماوقع له حتى دخل عليه على ابن أبي طالب كرّم الله وجهه فأراه كتاب يزيد من قيسارية الشام يطلب منه نجدة . فقال علىّ لاتغتمّ على المسلمين فان الله يفتحها على يديك رغما فأنجد يزيد وأنفذ اليه الكتاب .

ذكر فتح مدينة حلب وقلاعها

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] كان مع أبي عبيدة عشرون ألفا ومع يزيد وعمرو بن العاص عشرة آلاف .

[قال الواقدى] فلما وصل كتاب عمر الى أبي عبيدة أنفذ الى يزيد ثلاثة آلاف فارس مع حرب بن عدى و بقى أبو عبيدة فى سبعة عشر ألفا وأكثرهم من اليمن ، وكان أبو عبيدة قد صالح أهل قنسرين والعواصم على خمسة عشر ألف مثقال من الذهب ومثلها من فضة وألف ثوب من أصناف الديباج وخمسمائة وسق من التين والزيت ، فلما تمّ الصلح وجاءوا بما ضمنوه من مدينتهم كتب لهم كتابا وشرط فيه الشروط ودخل أبوعبيدة وخالد فى رجال من المؤمنين وسادات المسلمين فخطوا بها مسجدا ، فبلغ ذلك أهل حلب من الصلح لقنسرين ومسير العرب فاضطربوا اضطرابا شديدا وكان عليهم رئيسان أخوان لأب وأمّ وكانا يسكنان فى القلعة ولم تكن القلعة محيطة بالمدينة بل كانت المدينة منفردة بذاتها وكان البطريقان يقال لأحدهما يوقنا والآخر يوحنا وكان أبوهما ملك البلد وأعماله وضياعه ورساتيقه الى حدود الضروب والى حدود الفرات وقد ملك حلب سنين لاينازعه فيها منازع ، وكان هرقل طاغية الروم يهابه ويوقره ولا يحاربه كل ذلك لبقاء ملكهم واجتماع كلمتهم لانه كان قد انتزع من رومية الى أقصى البلاد لئلا يجيش عليه أحد جيشا ولاينازعه فى ملكه لكثرة شرّه وتدبيره وشدة بنى عمه ، فلما نزل بالعواصم استخلص لنفسه قلعة حلب و بناها وحصنها ومكن فى البلاد ، فلما هلك آل الأمر بعده لولده يوقنا وكان الكبير وكان شجاعا بطلا جامعا للأموال مقداما للحروب لايصطلى له بنار ولا يدفع شره وكان أخوه يوحنا دينا قد نزع يده من الرياسة وترهب وكان أعلم الناس فى أهل زمانه وانه لما بلغهم الخبر أن أبا عبيدة قد قصد اليهم .قال لأخيه يوقنا على ماذا عوّلت ؟ قال على قتال العرب ولأدعهم يقربون من أرضنا و بلادنا حتى يرى العرب أنى لست كمن لقوا من بطارقة الشام ولامن غيرها وكان يوحنا قد درس الانجيل وقرأ المزامير ، وليس له همة الا عمارة الكنائس والأديرة وتشييد

المواضع وكثرة الشمامسة والقسوس والرهبان والقيام بأمورهم ، فلما بلغ هـذين الأخوين فتح العواصم عنوة وقنسرين صلحا وان العرب نازلون عليها وان خيلهم تضرب الى الفرات والعواصم والبقاع فأقبل يوحنا على أخيه الأكبر يوقنا . وقال : يا أخى أريد أن أختلى بك الليلة وأشاورك وأطلعك على سرّى ورأيى وأشرف على سرك ورأيك . قال نعم ، فلما اجتمعا فى الليل فى دار كانت لأبيهما فى القلعة وجلسا للمشورة أقبل يوقنا على أخيه يوحنا وقال يا أخى ألا ترى مانزل بنا من العرب الجياع الأكباد العراة الأجساد وما حل بأهل الشام منهم من القتل والنهب وأخذ الأموال وأنهم لاينزلون مدينة من مدن الشام الا فتحوها وملكوا أهلها فما ترى أن نصنع فى أمر هؤلاء فكأنى بهم وقد أشرفوا علينا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فقال يوحنا يا أخى اذ قد استشرتنى فى أمرك فانى أنصحك ولا أغشك اذا قبلت النصيحة وان كنت أصغر منك سنا فانى أعلم منك بصيرة ، فوحق المسيح والقربان لئن قبلت مشورتى ليعلون أمرك ويسلم لك مالك ونفسك . فقال يوقنا يا أخى ماعلمتك الا ناصحا فما عندك من الرأى ؟ . فقال الرأى عندى أن ترسل رسولا الى العرب وتبذل لهم ماشاءوا وتسالمهم الصلح وتتفق معهم على معلوم يدفع لهم فى كل عام مادامت الغلبة لهم ، فلما سمع يوقنا ذلك من كلام أخيه يوحنا أقبل عليه وقد استوثق منه الغضب وقال قبحك المسيح ما أعجز رأيك ماولدتك أمك الا راهبا أوقسيسا ولم أقلدك لاملكا ولامحاربا ولا مقاتلا ، والرهبان ليس لهم قلوب لأكلهم العدس والزيت والبقل ولايأكلون اللحم ولايعرفون النعيم وليس لهم بالقتال بصيرة ولابملاقاة الرجال خبرة ، وأما أنا فلك ابن ملك وليس بينى و بينهم الا الحرب ولا ترى الملوك العجز ويلك كيف نسلم ملكنا العرب ونعطيهم القياد من أنفسنا من غير حرب ولا قتال . قال فلما سمع يوحنا ذلك من أخيه تبسم من كلامه وتعجب كل العجب وقال له يا أخى ، وحق المسيح ان أجلك قد اقترب لأنك صاحب بغى تحب سفك الدماء وقتل النفس وما أظن جموعك أكثر من جموع الملك هرقل التى جمعها باليرموك مع ماهان ويوم أجنادين ، وهؤلاء القوم قد أيدهم الله علينا فاتق الله ولاتسع فى قتل نفسك . فلما سمع يوقنا كلام أخيه داخله الغضب وقال له قد أكثرت وأطلت فى مدحك العرب وانى لست كمن لاقوه من هذه الجموع التى ذكرتها ولا أقاس بهم ومع ذلك اعلم أن كل من ذكرت من أهل المدن وغيرها أسلم بلده عنوة أوصلحا قبل أن يقاتل بلا عذر فى القتال و يبذل المجهود عن نفسه ، وانما جمعت الأموال من قبل الى الآن لأدفع بها الأذى عن نفسى وانى مجمع على قتال العرب ومحاربتهم ، فان أظفرنى الصليب بهم وأعاننى المسيح عليهم طلبت العرب الى أن أدخل خلفهم الحجاز وأسود على سائر الملوك وأرجع الى الشام ملكا فلايقدر هرقل أن ينازعنى ، وان هزمتنى العرب طلعت الى قلعتى هذه ولزمتها فانى قد عبيت فيها من الزاد والأطعمة مايكفينى طول دهرى وأكون فيها عزيزا الى أن أموت ولا ألقى يدى الى العرب ولا أبذل أموالى من غير طلب فلا تعارضنى فى شىء من أمر العرب ولا تدعنى الى الصلح والا بطشت بك قبلهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] واحتوى الشيطان على قلب يوقنا وقد سوّلت له نفسه العمل ، فلما سمع يوحنا من أخيه يوقنا هذا المقال قال له كلامك علىّ حرام أبدا حتى ترجع اليه

رأيي وتعود الى قولي ثم قام عنه مغضبا ، فلما كان من الغد جمع يوقنا اليه جميع من التجأ اليه من العسكر من الأرمن والمتنصرة وغيرهم وعرضهم على نفسه ، فمن أراد سلاحا أعطاه وفرق فيهم الأموال وجعل يهوّن العرب عليهم ويقول اعماهم قليل ونحن أكثر منهم ، لأن جموعهم قد تفرقت منها جماعة على قيسارية ومنهم من توجه الى مصر .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وعزم على قتال أبي عبيدة قبل أن يصل اليه والى بلده ، ثم عمد الى بطريق من بطارقته يقال له كراكس وضم اليه ألف فارس ووكله بحفظ بلده وسار يوقنا بمن معه يريد أن يلقى جيش أبي عبيدة والمسلمين هو وقومه فى اثنى عشر ألف مدرع غير من كان معه بغير درع ونشرت أمامه الأعلام والصلبان وكان فيها صليب من الذهب والجوهر ومن حوله ألف غلام عليهم ثياب الديباج المنسوج بالذهب . قال ابن ثعلبة الكندى فأقام أبو عبيدة على مدينة قنسرين بعد أن فتحها بالصلح وبعد أن أتاه يزيد بكتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره أن يبعث الى يزيد بن أبي سفيان طائفة من جيشه فبعث له بثلاثة آلاف فارس لابسين السلاح الكامل وعوّل أبو عبيدة على المسير الى حلب فدعا برجل من بنى ضمرة وكان بطلا مجربا بشدة البأس وكان اذا ثبت على وجه الأرض للقتال لايهاب الجحافل قلت أو كثرت فضم اليه ألف فارس وسيره على مقدمته وقال يا كعب لاتقاتل جيشا لاتطيقه واختبر أمر هذا العلج واعرف خبره وأنا راحل من ورائك فسار كعب بن ضمرة يريد حلب وكان يوقنا قدّم أمامه عيونا يأتونه بالأخبار فأتته جواسيسه يخبرونه أن خيول العرب قد أتت تريد بلده وقتاله . فقال لهم فى كم أتت العرب ؟ قالوا فى ألف فارس وهم على ستة أميال من بلدك نزول . قال فكمن يوقنا كمينا ثم سار اليهم بجيوشه وبطارقته ، فلما أشرف عليهم وهم نزول على نهر يسقون خيلهم ويتوضئون فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم يوقنا بجيوشه وبطارقته والصليب أمامه ، فنادى المسلمون بعضهم بعضا واستووا على متون خيولهم ، وورد كعب بن ضمرة على فرسه وسبق فى أوّل الخيل وأشرف على جيش يوقنا فحزره أنه فى خمسة آلاف فارس وكان يوقنا قد قسم عسكره شطرين النصف معه والنصف مع الكمين ، فلما نظر كعب الى يوقنا وجيشه انقلب الى أصحابه وقال يا أنصار دين الله انى نظرت عسكر عدوّكم وحزرته فهو فى خمسة آلاف وهم لكم مغنم ويقاتل الواحد منكم خمسة . قالوا بلى والله ، وأقبل أصحابه يشجع بعضهم بعضا فقربت الفئة من الفئة وصاح يوقنا بأصحابه ورجاله وغلمانه وعبيده وبطارقته وأمرهم بالحملة على المسلمين فحملوا بأجمعهم حملة صعبة وحمل عليهم المسلمون والتقى الجمعان واشتبك الحرب وقاتل الجمعان قتال الموت وقد أيقن المسلمون بالظفر والغنيمة فطلع عليهم الكمين من ورائهم وأكبوا عليهم جميعا . قال مسعود بن عون العجمى : شهدت الخيل التى بعثها أبو عبيدة طلائع مع كعب بن ضمرة وكنت فيها يوم التقى الجمعان وقد خرج علينا الكمين ونحن فى القتال ، ونحن لا نظن أن لهم كمينا يطلع من ورائنا واذا بأصوات حوافر الخيل أكبت علينا وأيقنا بالهلكة بعد ما كنا موقنين بالغلبة وصرنا فى وسط عسكر الكفار فلم يكن لنا بدّ من القتال فافترقت المسلمون ثلاث فرق فرقة منهم منهزمة وفرقة قصدت قتال الكمين وفرقة مع كعب بن ضمرة قصدت قتال يوقنا ومن معه . قال مسعود بن عون فلله درّ كندة يومئذ لقد قاتلوا قتالا شديدا وأبلوا بلاء حسنا ووهبوا أنفسهم لله تعالى حتى قتل منهم

ذلك اليوم مائة رجل فى مقام واحد وعمل أهل الكمين عملا عظيما وكعب بن ضمرة قلق على المسلمين فجاهد عنهم وهو يجول بالراية وينادى يامحمد يامحمد يانصر الله انزل معاشر المسلمين اثبتوا انما هى ساعة ويأتى النصر وأنتم الأعلون ، فاجتمع المسلمون عليه والجراح فيهم فاشية وقتل من المسلمين مائة وسبعون رجلا من الأعيان : منهم عباد بن عاصم النخعى وزفر بن أم راضى وحازم ابن شهاب المقرى وسهل بن أشيم ورفاعة بن محصن وغانم بن برد ، وسهيل بن مفلج وكان ممن شهد يوم السلاسل وتبوك بين يدى رسول الله ﷺ وشهد قتال اليمامة مع خالد بن الوليد . قال مسعود بن عون : والله لقد تأسفنا على قتله ووجدنا فيه أربعين ضربة كلها فى مقدمه رضى الله عنه ولم نجد واحدة فى ظهره وكان الأعيان أربعين رجلا ، لان الرجل منا ماقتل حتى قتل عددا من المشركين ، فلما نظروا الى ثبات المسلمين مع قلتهم وماهالهم ممن قتل منهم همّ المشركون أن ينهزموا فثبتهم يوقنا وقال ويلكم ما العرب الا مثل الذئاب ان صدمت ولت وان تركت طمعت ، ولما نظر كعب بن ضمرة الى من قتل تحت رايته اغتمّ لذلك غما شديدا فنزل عن فرسه ولبس درعا من فوق درعه وشد وسطه بمنطقة ومسح وجه فرسه ومنخره وقبله بين عينيه وكان قد شهد معه المواطن وجاهد معه بين يدى رسول الله ﷺ وكان قد سماه الهطال . فقال ياهطال هذا يومك المحمود عاقبته فاثبت للقتال فى طاعة الله ، ولما استوى على متنه وقف أمام المسلمين وجعل ينظر الى القتلى وهو متفكر فى أمره والراية بيده وهو ينتظر من أبى عبيدة جيشا يقبل عليه أوطليعة تنجده فلم ير لذلك أثرا ، وذلك أن أبا عبيدة ماقطعه من المسير اليه الا قدوم أهل حلب عليه ، وذلك أنه لما سار يوقنا الى حرب المسلمين اجتمع مشايخ أهل حلب والروسية بعضهم الى بعض وقالوا ياقوم تعلمون أن هؤلاء العرب قد أطاعهم أهل دين النصرانية والصليب ودخلوا فى دينهم ومنهم من رجع الى دينهم ومنهم من قاتلهم . فأما الذى قاتلهم خسر فهل لكم أن تسيروا الى أمير المؤمنين ونسأله الصلح ونصالح عن مدينتنا وندفع اليه ما أحبّ من أموالنا ، فان ظفر المسلمون بالبطريق يوقنا نكن نحن آمنين غير وجلين منهم ونقرّ عينا من بأسهم ، وان صالح يوقنا القوم نكن نحن قد سبقناه الى الصلح ، وان غلب ورجع سالما لم نبلغه ولم نعلمه ، واستوى رأيهم على ذلك فخرج منهم ثلاثون رجلا من رؤسائهم وسلكوا طريقا غير طريق يوقنا حتى أشرفوا على عسكر المسلمين فنادوا الغوث الغوث وكان العرب قد علمت أن الغوث بالرومية هو الأمان ، وقال لهم الأمير فمن سمعتموه يقولها فلا تعجلوا عليه بالقتل لئلا يطالبكم الله يوم القيامة وعمر برىء منه فكان العرب يعرفونها ، فلما سمع المسلمون منهم ذلك أسرعوا اليهم وأوقفوهم بين يدى أبى عبيدة . فقال خالد : يوشك أن هؤلاء يطلبون الصلح والأمان لأنفسهم وهم أهل حلب . قال أبو عبيدة أرجو ذلك ان شاء الله تعالى ، وان صالحونى صالحتهم وهو لايعلم ما أصابه من الحرب الشديد والقتل العتيد وكان قدومهم عليه ليلا والنيران تضرم بين يديه وكان فى العسكر رجال قيام فى صلاتهم يتلون القرآن فجعل بعضهم يقول لبعض بهذه الفعال ينصرون علينا ، فلما سمع الترجمان مقالهم أخبر أبا عبيدة بما قد تناجوا بينهم . فقال أبو عبيدة انا قوم قد سبقت لنا العناية من ربنا وانا رجال لا نريد من الله ورسوله بدلا ولن نجزع من قتال الأعداء فأخبرهم الترجمان بذلك ، ثم قال لهم من أنتم ؟ قالوا نحن سكان حلب من تجارها وسوقتها ورؤسائها وقد جئنا نطلب

منكم الصلح . فقال أبو عبيدة فكيف نصالحكم وقد بلغنا أن بطريقكم قد صمم على قتالنا وقد حصن قلعته وجعل فيها مايقوته سنين واتخذ الجند وأكثر من ذلك ومالكم عندنا صلح . فقالوا أيها الأمير ان صاحبنا قد خرج من عندنا يريد حربكم وقتالكم . قال أبو عبيدة : ومتى خرج ؟ قالوا خرج سحر ونحن من بعده وسلكنا طريقا غير طريقه وانا نرجو أنه هالك لامحالة لانه ركب البغي ولم يرض بالصلح وقد أطاع هواه فقد وقع فى شرك الردى ، فلما سمع أبو عبيدة بخروج البطريق خاف على طليعته منه . فقال : لاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم هلك والله كعب ومن معه إنا لله وإنا اليه راجعون ، ثم أطرق الى الأرض فقالوا لبعض مشايخ أهل حلب كلم لنا الأمير فى الصلح قال فكلمه . فقال أبو عبيدة بضجر لاصلح لكم عندنا ، قال فخاف الشيوخ على أنفسهم وقالوا انا قد اجتمع عندنا من القرى والرساتيق خلق كثير ، فان صالحتمونا عمرنا لكم الأرض وكنا لكم عونا على عمارتها وعشنا فى ظلكم أيام عدلكم ، وان أنتم أبيتم ذلك فر الناس عنكم وطلبوا أقصى البلاد وشاع الخبر عنكم أنكم لا تصالحون فلا يبقى حولكم أحد . قال فأعلمه الترجمان بما قالوا فجعل ينظر اليهم واذا قد برز من القوم وصاح رجل أحمر الوجه وكان من حكماء الروم فصيحا بلسان عربى . فقال أيها الأمير اسمع ما ألقيه اليك من العلم الذى أنزل الله فى الصحف على الأنبياء . قال أبو عبيدة قل لنسمع فان كان حقا علمناه ، وان كان غير حق لانسمعه ولا نعمل به وكان اسمه دحداح . فقال أيها الأمير ان الله سبحانه وتعالى أنزل على أنبيائه يقول : أنا الرب الرحيم خلقت الرحمة وأسكنتها فى قلوب المؤمنين وانى لأرحم من لايرحم من أحسن أحسنت اليه ومن تجاوز تجاوزت عنه ومن عفا عفوت عنه ومن طلبنى وجدنى ومن أغاث ملهوفا أمنته يوم القيامة و بسطت له فى رزقه و باركت له فى عمره وأكثرت له أهله ونصرته على عدوه ومن شكر المحسن على احسانه فقد شكرنى وانا قد أتيناك ملهوفين خائفين فأقل عثراتنا وآمن روعاتنا وأحسن الينا . قال فبكى أبو عبيدة من قوله وقرأ — ان الله يحب المحسنين — ثم قال اللهم صل على محمد وعلى جميع الأنبياء ، فبهذا والله أرسل نبينا أرسله الله الى جميع الخلق والحمد لله على هدايته لنا ، ثم أقبل على المسلمين وهم حوله وفيهم الرؤساء من المهاجرين والأنصار وقال لهم : الحمد لله على هدايته ، ثم قال ان هؤلاء أهل متجر وسوقة وضياع وهم مستضعفون وقد رأينا أن نحسن اليهم ونصالحهم ونطيب قلوبهم ومتى كانت المدينة فى أيدينا والسوقة معنا فانهم يميرونا بالعلوفة ويعلموننا بما يعزم عليه عدونا ويكونون عونا لنا عليه . فقال رجل من المسلمين أصلح الله الأمير ان مدينة القوم بالقرب من القلعة ولانأمن أن القوم يدلون على عوراتنا ويخبرون بأحوالنا وما أتى القوم الا ليخدعونا ألا ترى الى بطريقهم وقد خرج يبغى قتالنا وحربنا فكيف يطلب هؤلاء الصلح منا ؟ ولاشك أنهم مكروا بكعب بن ضمرة ومن معه من المسلمين . فقال أبو عبيدة أحسن ظنك بالله وثق بالله فان الله ينصرنا ولا يسلط علينا عدونا ، فرحم الله من قال خيرا أوصمت واذا أشرط عليهم النصيحة فى صلحهم للمسلمين ، ثم أقبل على القوم وقال انى أريد أن تبذلوا فى صلحكم مابذله أهل قنسرين . فقالوا أيها الأمير ان قنسرين أقدم من مدينتنا وأكثر جمعا ومدينتنا خالية من السكان لجور صاحبنا لأنه قد أخذ أموالنا وغلاتنا وأصعد الكل الى قلعته ومابقى عندنا الا الضعفاء ومن لا مال له وانا نسألك الترفق بنا والعدل فينا والاحسان الينا . فقال

أبو عبيدة فما الذى تريدون أن تبذلوا فى صلحكم ؟ قالوا نعطى نصف ما أعطى أهل قنسرين فقال أبو عبيدة قد قبلت منكم ذلك على أننا اذا نزلنا بصاحبكم أعنتمونا بالميرة والعلوفة وتبيعون وتشترون فى عسكرنا ولا تكتموا عنا خبرا تكونون تعلمونه من أعدائنا ولا تتركوا جاسوسا يتجسس علينا وان رجع اليكم بطريقكم منهزما تمنعوه أن يصل الى القلعة . فقالوا أيها الأمير أما قولك هذا أن نمنع البطريق أن لا يصعد الى القلعة فما نجد الى ذلك من سبيل ولا نقول لك مالا نفعله ، مالنا به طاقة ولا بمن معه من أعوانه وجنوده . قال أبو عبيدة فلا تمنعوه من الصعود الى القلعة وعليكم عهد الله وميثاقه والايمان المؤكدة الغليظة أن لا تقولوا هذا القول وأن توفوا لنا كل شرط تم عليكم ، ثم حلفهم بالأيمان التى يعرفونها فحلف القوم عن آخرهم وصالحوا عن رجالهم ودوابهم وأبنائهم ونسائهم وعبيدهم وسائر أهاليهم وانتهوا على ذلك . فقال أبو عبيدة انكم قد حلفتم وقد قبلنا قولكم وأيمانكم فان أصبنا أحدا قد أخلف أو علم من البطريق علما ولم يعلمنا به فقد وجب عليه القتل ، وأخذ ماله وولده حلال لنا لا يطلبنا الله بذمته ، ومتى نقضتم ماشرطنا عليكم فلا عهد لكم عندنا ولاذمة لكم علينا ولنا عليكم الجزية فى العام المقبل . قال سعيد بن عامر التنوخى فرضى أهل حلب بما شرطه عليهم أبو عبيدة وأخذوا عهدهم وكتب أسماءهم وعزم القوم على الانصراف الى ديارهم ، وقال لهم أبو عبيدة على رسلكم حتى أبعث معكم من يسير معكم الى مأمنكم فقد وجب علينا حفظكم الى أن تعودوا سالمين الى بلدكم . فقال له الدحداح أيها الأمير : اننا نرجع من الطريق الذى جئنا منه وما نريد أحدا يسير معنا ، فتركهم أبو عبيدة وبات بقية ليلته قلقا على كعب بن ضمرة ومن معه .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ورجع القوم من ليلتهم الى حلب وانفجر الصبح ولم يصلوا ، فلما أشرفوا على حلب نظر اليهم بعض أعلاج البطريق وهم راجعون فأقبل اليهم وسألهم من أين أقبلتم ؟ وما صنعتم فظنوا أنه من أهل حلب فأخبروه بصلحهم مع أبى عبيدة فتركهم ومضى وان القوم استقبلهم أهل حلب فسألوهم فأخبروهم بالصلح ففرحوا بذلك وأقبل العلج حتى أشرف على عسكر يوقنا وهو نازل على أصحاب رسول الله ﷺ وقد أحاط بهم وهو يظن أنه قد ملكهم وهو يتوقع الصباح اذ أتى عليه العلج . فقال له أيها البطريق انك غافل عما نزل بك ودهمك . قال له وما ذاك ياويلك ؟ قال له ان أهل بلدك قد صالحوا العرب وكأنك بهم وقد ملكوا القلعة وأخذوا الأموال والنسوان ، فلما سمع يوقنا ما أخبر به العلج خشى على قلعته أن يملكوها فى غيبته فانعكس عليه ما كان يؤمل أن يفوز به من الظفر بأصحاب رسول الله ﷺ . وكان قد قتل من المسلمين نيف عن المائتين ، وكعب قد أجهد نفسه فى الحرب وأيقنوا أنهم هالكون لا محالة . قال كعب بن ضمرة : وكنت ذلك اليوم صاحب القوم وأنا أثبتهم فى الحرب ، والى الحرب أنهضهم بهمتى وأدفع عنهم بمهجتى فاذا أجحفنى القتال وركبنى الحرب التجأت الى أصحابى وأنا مع ذلك أتوقع فرجا من الله تعالى وأترقب راية أبى عبيدة أن تطلع فبعد علينا ذلك ولم تزل الحرب بيننا يوما وليلة الى الصباح من اليوم الثانى ، فأقسم بالله ان كان أحدنا ليصلى ولا حصل له زاد يأكله ولاماء يشربه وأنا بين اليأس والرجاء أترقب طريق قنسرين أن تطلع منه علينا راية الاسلام فما أرى لها أثرا ، فرأيت عند الصباح جيش العدو وقد اضطرب من جوانبه وقد علت

لهم ضجة عظيمة من جميع جوانبه فقلت ماهذا الامدد لحقهم من البلد أومن الملك فالتجأت الى كلمة الشدائد ، وهى لاحول ولا قوة الابالله العلىّ العظيم . قال كعب بن ضمرة ، فوعيش رسول الله ﷺ ماقلت الكلمة حتى رأيت جيش العدوّ وقد انكشف عنا على عقبه فقلت الحمد لله حمد الشاكرين وانى أظن أن صائحا صاح بهم من السماء فبددهم أو ملائكة نزلت عليهم كيوم بدر فلم أرلهم أثرا . قال كعب : فهممت أن أتبعهم فصاح المسلمون الى أين يا كعب أما كفاك مانحن فيه انزل بنا الى الارض وارض بما نحن فيه من التعب والنصب ونؤدى فرضنا ونريح خيولنا فما ردّ الله هؤلاء القوم الا بمشيئته وقدرته . قال فنزل كعب وشربوا الماء وأسبغوا الوضوء وصلوا مافاتهم وأكلوا زادهم واستقبلوا الراحة .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وابطأ خبر كعب على أبى عبيدة ، فلما صلى الصبح انفتل من صلاته وأقبل على المسلمين وخاطب من بينهم خالدا ، وقال ياأباسليمان إن أخاك أباعبيدة مارقد الليلة غما ، و إنه كان يجب علينا الشكر بما فتح الله علينا ، و إن نفسى تحدثنى بأن الذين مع كعب ابن ضمرة قد قتلوا لما أخبرنى هؤلاء الذين يسألون الصلح أن صاحبهم يوقنا قد سار إليهم ولم أر أثرا وأظن أنه صادف أصحابنا وقتلهم وأفناهم عن آخرهم ، فقال خالد : والله إنى مانمت مثلك من الغم عليهم فما الذى عزمت أن تصنع ؟ قال الرحيل ، ثم أمر الناس بالرحيل وارتحلوا ، وساروا يريدون حلب ، وعلى المقدمة خالد بن الوليد ، وعلى الساقة أبو عبيدة ، فما كان غير بعيد حتى أشرف على المسلمين خالد بن الوليد وهم نيام ، وقد أقاموا لهم من الديدبان من يحرسهم ، فلما أشرف عليهم خالد والراية فى يده رفعها فوق رأسه ، فلما رآها الديدبان صاح النفير ياأنصار الدين فثاروا عن مضاجعهم كأنهم أسد ثائرة واستووا فى متون خيولهم واستقبلوا صاحب الراية فعرفوه فصاح بعضهم ببعض : هذه والله راية الاسلام والمسلمين ، فنزل خالد وسلم عليهم واتصلت بهم الساقة وأقبل أبوعبيدة فلما نظر كعب بن ضمرة حمد الله وأثنى عليه ونظر الى موضع القتلى مطروحين وما كان من المسلمين ورأوهم ، فلما نظروا الى ذلك عاد فرحهم ترحا واسترجعوا وقالوا : لاحول ولاقوة الابالله العلىّ العظيم إنالله وإنا إليه راجعون ، وسأل كعبا كيف قتل أصحابك هؤلاء ومن قتلهم ؟ فأخبره كعب بقتال يوقنا وأنه أشرف هو وقومه ، ومن كان معه على الهلاك حتى لم يبق فيهم حركة ونمنا ليلتنا هذه ، فلما أصبحنا واذا هم قد صاحوا وانقلبوا راجعين عنا من غير قتال ، فقال أبوعبيدة فسبحان مسبب الأسباب ليت أباعبيدة قتل أمامهم ولم يقتلوا تحت رايته ، ثم أمر بدفن المسلمين بعد ماجمعهم زمرا زمرا وصلى عليهم ودفنوهم بأسلابهم ودمائهم ، ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله يوم القيامة ودماؤهم على أجسادهم : اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، والنور يتلألأ عليهم ويدخلون الجنة » فلماواروهم فى حفرهم قال لخالد : ان كان عدوّ الله يوقنا رجع الى القوم ، وعلم بصلحهم لنا فيلقون منه تعبا عظيما فألحق بهم فقد وجب علينا أن نذبّ عنهم لأنهم تحت ذمتنا وارتحل أبوعبيدة يريد حلب فلما وصل اليها رأى البطريق وجنوده قد أحدقوا بأهل البلد وهم يريدون قتلهم ويقال لهم ياويلكم صالحتم العرب عن أنفسكم وصرتم عوناهم علينا ، قالوا قد فعلنا ذلك وانهم قوم منصورون فقال ياويلكم ان المسيح لايرضى بفعلكم فوحق المسيح لأقتلنكم عن آخركم أوتخرجون معى

الى قتالهم وتنقضون ماينكم و بينهم من العهد والميثاق فأخبرونى بمن بدأ بهذا الأمر حتى أبدأ به قال فلم يطيعوه على ذلك . فقال لعبيده ادخلوا عليهم وائتونى بهم لأقتلهم ، فقد أخبرنى فلان أنه لقيهم وعرّفنى بهم فهجم العبيد عليهم وجعلوا يقتلونهم على فرشهم وأبواب منازلهم فسمع أخوه يوحنا الضجة فى البلد وهم فى القلعة فنظر الى أخيه وهو يقتل فى الناس وقد قتل من أهل البلد ثلثمائة ، فصاح بهم و بأخيه على رسلك لاتفعل فان المسيح يغضب عليك وقد نهانا أن نقتل عدوّنا فكيف بمن هو على ديننا ؟ . فقال يوقنا لأخيه انهم صالحوا العرب عن البلد وصاروا لهم عونا علينا . فقال يوحنا : وحق المسيح لاأبقت عليك العرب أبدا وان لهم من يقتصّ منك . قال ومن يقتص منى ؟ قال المسيح يقتلك كما قتلتهم بغير ذنب ، فقال يوقنا أنت حملتهم على ذلك وأنت أوّل من أبطش به ، ثم عمد الى أخيه وقبض عليه وجرد سيفه ليعلوه به ، فلما نظر يوحنا الى أخيه وقد جرد سيفه وعلم أنه هالك رفع رأسه الى السماء وقال : اللهم اشهد على أنى مسلم وانى مخالف لدين هؤلاء القوم ، وأنا أشهد أن لاإله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، ثم قال لأخيه اصنع ما أنت صانع فان كنت قاتلى فانى صائر الى جنات النعيم ، فورد على يوقنا من اسلام أخيه مورد عظيم ومن أهل بلده ومن فزعه من المسلمين فحمله الغيظ على أن يرمى برأس أخيه عن جسده والتفت الى أهل البلد فوجدهم يستغيثون فلايغاثون و يسألونه فلايجيبهم ولا يكف عنهم فكثر منهم الضجيج وعلت الجلبة ، وقد أخذوا عليهم البلد من سائر جوانبها ، وقد أيس أهل حلب من نفوسهم ، واذا بالفرج وقد أتى ، والمعونة وقد أدركتهم وأشرفت عليهم رايات المسلمين وأبطال الموحدين وهم ينادون بكلمة التوحيد ويقدمهم خالدبن الوليد ، فلما نظر خالد الى أهل حلب ولهم ضجيج بالصياح والبكاء قال لأبى عبيدة أيها الأمير هلك والله أهل صلحك وذمامك كما ذكرت فصاح بجواده وحمل الراية وزعق فى القوم وقال أفرجوا معاشر الاعلاج عن أهل صلحنا ثم أجاد فيهم الطعن وحمل المسلمون معه ، و بذلوا السيف فى الأعلاج ، فلما نظر يوقنا الى ذلك انهزم الى القلعة ومعه بطارقته . قال محصن بن عترة [٢] فرج الله عن أهل البلد بقتل الاعلاج يوم حلب فى البلد فمن لجأ الى القلعة سلم ومن طلب الهرب قتلناه قال محصن فكان جملة من قتل يوقنا من أهل صلحنا ، ثلثمائة وقتلنا نحن من أصحابه ثلاثة آلاف أويزيدون فكانت وقعة عجيبة ففرح المسلمون بها ، فلما قتل من قتل وفرج الله عن أهل حلب مايجدون أخبروا أباعبيدة كيف قتل يوقنا أخاه يوحنا و بالقصة جميعها ؟ .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما سمع يوقنا سيوف المسلمين صعد القلعة هو ومن معه من جنده واستعدّ للحصار ونصب المجانيق ونشر السلاح على الأسوار وكثر آلة الحصار ، وأما أهل حلب فانهم أخرجوا لعساكر المسلمين أر بعين أسيرا من البطارقة . فقال لهم أبوعبيدة لأى سبب أسرتم هؤلاء قالوا لأنهم من أصحاب يوقنا هر بوا الينا فلم نر أن نخفيهم منك لأنهم ليسوا منا ولامعنا فى الصلح قال فعرض عليهم الاسلام فأسلم منهم سبعة ، وأما الباقون فأبوا فضرب رقابهم وقال لهم لقد نصحتم فى صلحكم وسترون منا مايسركم وصار لكم مالنا وعليكم ماعلينا ، وهذا بطريقكم قد تحصن فى هذه القلعة فهل تعرفون لها عورة تدلونا عليها حتى نقاتلهم منها فان فتحها الله علينا جعلناها لكم غنيمة مع ماغنمتم من قومكم حتى نكافئكم بفعلكم الجميل

فقالوا أيها الأمير : والله مانعرف لها عورة وان يوقنا قد شحن طرقاتها وقطع مسالكها ، ووعر فجاجها ، وهذا مانعلمه ولولا أنه قتل يوحنا لكان أخذها سهلا لكم . فقال أبو عبيدة وماجرى له ؟ فأخبروه بخبره وحديثه مع أخيه وانه أسلم بعد مارفع يديه الى السماء وما ندرى ماقال غير أننا سمعنا طرف كلامه وهو يقول : اللهمّ انى أشهد أن لاإله الا أنت وأن عيسى عبدك ورسولك ومحمدا عبدك ورسولك ختمت به الأنبياء وجعلته سيد المرسلين ولا دين أعلى من دينه فاصنع ماأنت صانع ، فلما أسلم قتله . قال فلما سمع أبوعبيدة ذلك قال فى أىّ موضع قتله ؟ ثم وثب وأخذ خالدا معه وجماعة من المسلمين وأتوا الى موضع قتله وهو رأس سوق الساعة فوجده ملقى على ظهره وهو كأنه البدر ليلة تمامه مشيرا بأصبعه الى السماء وقد مات وأصبعه قائمة فأخذه أبو عبيدة وكفنه وصلى عليه ودفنه فى مقام ابراهيم ، فلما واروه أتى الى أبى عبيدة رجل من المسلمين ، فقال أصلح الله الأمير انظر الى هؤلاء القوم فان كانوا من حزبنا نصحوا ودلونا على عورات قومهم . فقال لاوالله مايفعلون ذلك أبدا فعندها أقبل أبو عبيدة على المسلمين ، وقال أشيروا علىّ رحمكم الله ، فقال له ذلك الرجل وكان اسمه يونس بن عمرو الغسانى وكان رجلا بصيرا بالشام وجباله ومدنه وجميع أرضه وعارفا بطريق الشام أصلح الله الأمير انظر الى ماأعرفه من البلد وما عندى من الرأى . قال أبو عبيدة : تكلم ياابن عمرو فأنت عندنا ناصح للمسلمين . فقال ان الله قد فتح على يدك الشام سهله وجبله وحزنه ووعره وقتل طاغية الكفر وحاميته ، وأما بقايا عساكرهم فهى من وراء الدروب وهى جبال وعرة ومضايق والقوم قد رعبت قلوبهم مما أباد الله منهم ، وليس لهم قلوب يقاتلون بها المسلمين فحاصر هذه القلعة وبث الخيل وشن الغارات فى بقايا البلاد وشاطئ الفرات فما لهم زاد يقوم بهم فتبسم خالد من كلام الغسانى ، وقال هذا والله هو الرأى وأنا أشير عليكم بمشورة أخرى : أن نزحف نحو القلعة فلعلّ الله أن يفتحها فى وقتنا هذا فانى أخشى ان طال بنا المقام أن تعطف علينا جيوش الروم من جهة أخرى فيحولوا بينها و بيننا . قال أبو عبيدة : ياأبا سليمان لقد أشرت فأحسنت وقلت فصدقت ، ثم أمر أبوعبيدة بالزحف الى القلعة فترجلت الفرسان عن خيولهم وتجرّدت من ثيابهم واختلط العبيد والسادات وافتخرت القبائل وانبثت العشائر وتجاوبوا بالأشعار وتداعوا بالأنساب . قال مسرق بن مالك فوالله مارأيت فى قتال حصون الشام يوما كان أعظم من ذلك اليوم لأننا كنا نشبه دوران الحرب كدوران الرحى تهشم مادارت عليه وقد برزنا اليهم فى أوّل حربهم وتبادرت أبطال اليمن وسادات ربيعة ومضر يتلو بعضهم بعضا وجعلوا يطلبون القلعة من حيث لاطريق عليها . فاذادنوا منها أخذتهم الحجارة من كل جانب ورموهم بالمجانيق والغرازات ، وكنت أنا وأصحابى أقرب الناس الى الأرض ففزعنا راجعين على أعقابنا يدفع بعضنا بعضا لانظن أن ينجو منا أحد فوقعت الخذلة فى المسلمين وقد شدخت منا الحجارة خلقا كثيرا ، فقتلت بعضنا و بعضنا رمته فكان من جملة من قتل يوم حصار قلعة حلب بالحجارة عاص بن الأصلع الربعى ، ومالك بن خزعل الربعى وحسان بن حنظلة ومروان بن عبد الله وسليمان بن فارغ العامرى وعطاف بن سالم الكلاعى وسراقة بن مسلم بن عوف العدوى ورجال من أهل اليمن من آل عامر ومن بنى كلاب وغيرهم وسبعة من بنى عبد الله . قال مرزوق بن مالك فلقد كنا نرى بعد ذلك بسنين خلقا كثيرة عرجا من يوم

حصار قلعة حلب فعندها نصب أبو عبيدة رايته خارج المدينــة وجعل ينادى بالمسلمين فاجتمعوا اليه . فقال أيها الناس انــكم قاتلتم اليوم على غرة فادفنوا الشــهداء وشدّوا كل من أصابه جرح فانتدب المسلمون الى ذلك وفرح الروم بهزيمة المسلمين وما قد نزل بهم . فقال لهم يوقنا ان العرب لاتدنوا من القلعة بعد هذا اليوم أبدا ، وان حاصرونا فلأ كيدنهم ولأهبطن الى عسكرهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ولقد حدثنى عبد الله بن سليمان الدينورى وكان ممن نقل أخبار الشام وفتوحه عن ثقات المسلمين . قال حــدثنى عمرو أن يوقنا انتخب ألفــين من خيار بطارقته وأبطاله ، وقال لهم : انزلوا مسرعين وليحذر بعضكم بعضا وميلوا على طرف عسكر المسلمين اذا خمدت نيرانهم واغتنموا غرتهم وأمّر عليهم وزيره ، فنزلوا ليــلا من القلعة وجعلوا يدورون حول العسكر الى أن أتوا الى مكان ، وقد خمدت نيرانهم ، وكان القوم بادية من أهــل اليمن مثل مراد و بنى كلاب وعبيدهم . قال عبد الله بن صفوان البكى : كنا تلك الليلة غادين من عــدوّنا آمنين لــكثرتنا وقد غفل حرسنا ، فلم نشعر الا وجاعة الروم قد هجموا علينا وهم ينادون بلغتهم وقد أعلنوا التبهرج بزيفتهم فلا نعلم مايقولون ووضعوا السيف فينا فـكان النجيب منا من استوى على جواده وطلب النجاة وهو لايعلم من أين هى ولا كيف يتخلص ، وقد وقعت الجندلة فى أبطال المسلمين وعساكرهم والقوم ينادون النفير النفير دهينا ورب الـكعبة ، وهم يسرعون الى خيمة أبى عبيدة و ينادون أيها الأمير كبسنا يوقنا ، فعندها ركب الأمــير فى بعض الرجال وجعل يدور حول العسكر فنظر صاحب الروم الى العرب وقــد لحقته ، فصاح بأصحابه : من كان أخــذ شيئا فليتركه ويطلب نجاة نفسه . قال عبد الله بن صفوان : أخذوا من رجالنا نحو خمسين رجلا من أخلاط الناس وأكثرهم من ربيعة ومضر ومضوا يجمع بعضهم بعضا و يطلبون القلعة ، فلما نظر خالد الى ذلك حمل فى أصحابه واقتطع من الروم زهاء من مائة رجل ووضع فيهم السيف فقتلهم عن آخرهم فلما وصل أصحاب يوقنا الى القلعة فتح لهم وأدخلهم ، فلما أضاء الفجر وطلعت الشمس دعا يوقنا بالمسلمين الخمسين رجلا وهم موثقون بالحبال ، فقربهم الى موضــع ينظرهم المسلمون ويسمعون أصواتهم وهم يقولون : لاإله الا الله محمد رسول الله حتى قتلوا عن آخرهم ، فلما نظر أبو عبيدة الى ذلك أمر مناديا ينادى فى عسكره عزيمة من الله ورسوله ومن الأمير أبى عبيدة : على كل رجل لا يكل حرسه الى غيره ، ولــكن كل رجل منكم حارس نفسه ، ولا يتكلم بعضكم مع بعض . قال فأخذ القوم حــذرهم وأعدّوا حرسهم ، وأقبل يوقنا يدبر أمره فى مكيدة أخرى ليكيد بها المسلمين اذ علم أنهم محاصرون ومع ذلك جواسيسه تأتيه بالأخبار فى الليل والنهار وكان أعظم جواسيسه من متنصرة العرب لأنهم كانوا يحسنون لسان الرومية . قال فبينما يوقنا ذات يوم جالس فى قلعته والبطارقة من حوله وقد أضرّبهم الحصار وأشد ماكان عليهم من أهل المدينة لأنهم لاينظرون الى رجل من أصحابه يعرفونه الاأخذوه وسلموه للمسلمين ، واذا بجاسوس قد أقبل وهو من عيونه ، فقال له : أيها السيد ان أردت أن تـكيد العرب فهذا وقتك ، فقال له يوقنا وكيف ذلك ؟ وماالذى عندك من الخبر؟ قال ان العلافة منهم قد خرجوا الى وادى بطنان وقــد صالحوا أهله وعلوفة العرب وميرتهم منه ، وقد رأيت منهم جمالا و بغالا ومعهم طائفة منهم وعليهم القمصان الخلقة و بأيديهم الرماح المشبعة وهم يقصدون القرى فى طلب الميرة وهم قليلون وليس هم

فى كثرة . فلما سمع يوقنا ذلك من جاسوسه ، اختار ألفا من أصحابه وقال : لهم أصلحوا شأنكم فوحق المسيح لأضيقن على العرب مسالكهم ولأقطعن عليهم طرقاتهم . فلما أقبل الليل فتح لهم الباب ، وسار الجاسوس أمامهم حتى استقاموا على الجادة وجعلوا يسيرون تحت جنح الليل فبينما هم كذلك ، اذهم براع ومعه سرح من البقر يريد بها بلده ، وقد خرج بها من بلد آخر وهو يسير بها سيرا عنيفا ، فلما نظروا اليه أسرعوا نحوه وقالوا أحسست بأحد من العرب قد عبر عليك قال نعم والشمس عند الغروب قد اصفرت وهم نحو مائة رجل على خيول وهم مسرعون ومعهم جمال و بغال وهم يريدون الميرة من هذا الوادى من الذين هم فى صلحهم ولسنا نخاف منهم ، فقال له المقدم عليهم الآن قد ألقيت علينا من صلح أهل هذا الوادى مالم يكن عندنا منه خبر فبحق المسيح أخبرنا بأى طريق ذهبت العرب . فقال من ههنا وأومأ بيده الى الشرق فسار البطريق بمن معه ولم يعرفوا أن صاحب البقر منهم حتى اذا قرب الصبح أشرفوا على خيل المسلمين وكان الأمير عليها يقال له مناوش ، فلما نظر مناوش الى خيل الروم قد أقبلت أقبل على أصحابه وقال يابنى العرب هذا بطريق من بطارقة الروم قد أقبل الينا فدونكم اياه والجهاد والصبر على الشدة تنالوا الجنة ثم حمل وحمل معه أصحابه فحملت عليهم الروم فثبت لهم المسلمون واقتتلوا قتالا شديدا وقتل مناوش بن الضحاك والغطريف بن ثابت ومنيع بن ثابت ومنيع بن عاصم وكهلان بن مرة فقتل من المسلمين ثلاثون رجلا كلهم من طيىء وانهزم الباقون وملكت الروم ما كان مع المسلمين من الابل والبغال وعاد المسلمون منهزمين فعند ذلك أقبل البطريق على أصحابه ، وقال ارموا الأحمال عن هذه الدواب واعقروها وسوقوا بقية الدواب بما عليها فانها للميرة واطلبوا الجبل واختفوا عن أعين العرب والا ففى هذه الساعة تطلع علينا خيول العرب كالرياح تهزمكم فأكمنوا حتى اذا جاء الليل طلبنا القلعة واعتصمنا بها ففعلوا ذلك وقتلوا الجمال وساقوا الدواب والتجؤا فى الجبل الى قرية فأقاموا بقية يومهم يرقبون الليل ليرجعوا الى القلعة وأقاموا لهم ديدبانا . قال عوف صباح الطائى كنت فى الخيل لما قتل عمى مناوش ، ونحن فى قلة وقد دهمتنا الخيل ، فلما نظرنا الى كثرة الروم وشدة بأسهم مع قلتنا أخذنا على أنفسنا وأتينا المسلمين فبادر الينا أبوعبيدة ، وقال لنا ماوراءكم قلنا الحرب والطعان ، قتل منا مناوش وقتل معه خلق كثير من فرساننا وأخذ ما كان معنا من الزاد والدواب . فقال أبوعبيدة وما الذى دهاكم وقد حاصر الله الروم ومايجسر أحد أن يخرج منهم قالوا لاعلم لنا غير أنا رأينا بطريقا عظيما قد أشرف علينا وهو فى عدة حصنة وخيول كثيرة مستعدين للقتال لانعلم عددهم ولا من أين أتى مددهم فهجموا علينا ونحن سائرون فأصيب أميرنا وقتل رجالنا وأخذوا ما كان معنا من الدواب والزاد فلما سمع أبوعبيدة ذلك دعا بخالد بن الوليد اليه وقال ياأبا سليمان أنت لها والمعد لمثلها وأنا واثق بالله ثم بك مع أنى أستخير الله فى جميع أمورى ، سر على بركة الله تعالى وخذ معك من المسلمين من أردت لعلك أن تقفو القوم وتعاين موضع أثر الوقعة وتتبع آثارهم عسى الله أن يوقعنا بهم واطلبهم أينما كانوا وحيث ساروا لعلك تأخذ بثار المسلمين ، واعلم أننا صالحنا أهل الوادى واننا لاننقض عهدنا ولانحول عن قولنا الا أن يكون القوم قد مكروا بنا فنجد الى قتالهم سبيلا فاتق الله فيهم ، سر يرحمك الله . قال فأسرع خالد الى خيمته ولبس سلاحه واستوى على متن جواده وهم بالمسير وحده . فقال له

أبوعبيدة الى أين ياأباسليمان ؟ قال له أسارع الى ماأمرتنى به . فقال له خذ من أردت معك من المسلمين ، فقال خالد أنا أمضى وحدى وما أريد أحـدا فقال له أبوعبيدة كيف تمضى وحدك وعدوّك فى عدد كثير؟ قال خالد لوكانوا فى ألف أو ألفـين ألقاهم بمعونة الله تعالى . فقال له أبوعبيدة انك كذلك ولـكن خذ معك رجالا قال فأخذ ضرارا وأمثاله وسار حتى أتى الى موضع الوقعة فرأى القتلى مطروحين ورأى حولهم أهل الوادى وهم يبكون خوفا من المسلمين على أنفسهم وذراريهم وان العرب تطالبهم بهم ، فلما طلع عليهم خالد ومن معه كأنهم شعلة نار تصارخ القوم فى وجهه وألقوا أنفسهم بين يديه ، فقال لهم خالد من هؤلاء القوم الذين قتلوا أصحابنا ؟ قالوا انا نحن بريئون من دماء أصحابكم ونحن فى صلحكم فاستحلفهم خالد أنهم لا يعلمون من قتلهم فحلفوا له فقال لهم من الذى أوقع بأصحابى ؟ فقالوا بطريق بعثه يوقنا من القلعة ومعه ألف فارس من أشد قومه وان لهم فى عسكركم عيونا يخبرونه بما أنتم فيه كل ساعة ، فقال لهم وفى أىّ طريق قصدوا . قالوا فى هذا الطريق ، فقال خالد أوماحلفتم ان ماعندكم علم بهم ، قالوا هذا الذى يخبرك من أهل حلب قد أتى يشترى طعاما ولولا أنك أقبلت فى هذه الساعة ما كنا عرفنا من قتلهم ، فقال له خالد أعلى هذا الطريق أخذوا . فقال له الرجـل نعم ورأيتهم يطلبون الجبل ، فقال خالد لأصحابه ان القوم علموا أنهم لا بدّ لهـم من خيل تطالبهم وتتبعهم وقد عدلوا عن طريقنا حتى اذا هجم عليهم الليل رجعوا الى قلعتهم فعوّلوا على المسير فى طلبهم . ثم انهم أرخوا الأعنة وخالد يقدمهم وقد أخذ معه رجالا من المعاهدين يقفون بهم أثر الطريق والقوم ، فلما حصلوا على الطريق . قال خالد لواحد من المعاهدين ألهم طريق الى قلعتهم غير هذا ؟ قال نعم ولـكن كن ههنا فانك تفوز بهم ان شاء الله تعالى. فنزل خالد ومن معـه فى الوادى ، وهم يرقبون الطريق فـمضى من الليل الا قليل اذ سمع وقع حوافر الخيل والبطريق أمامهم والخيل من ورائه وهو يزجرهم ويحثهم على المسير ، فلما توسطوهم صاح خالد صيحة شديدة ووثب خالد كأنه الأسد وخرج عليهم هو وأصحابه فما كان قصد خالد غير البطريق وظن أنه يوقنا فضربه ضربة رماه نصفين وقد وضعوا السيف فيهم وجعلوا يطلبونهم وهم فى الهروب فلم ينج منهم الأمن أطال الله أجله وحازوا جميع مامعهم وأتوا برأس البطريق الى أبى عبيدة على رأس رمح فوجدوه متلهفا على قدومهم ، فلما أشرف خالد بمن معه من الأسارى والأسلاب والدواب هللوا وكبروا . فأجابهم العسكر بالتهليل والتـكبير . قال وأتى خالد ومن معه بالرأس والأسلاب والأسارى ، فـكانوا أزيد من ثلثمائه أسير ورؤوس القتلى سبعمائة فعرضوا عليهم الاسلام فأبوا ، وقالوا نحن نعطيك الفداء . فقال خالد نضرب رقابهم قبال القلعة لنوهن بذلك عدوّ الله قال فضربت رقابهم قبال القلعة . فقال خالد انا كنا نظن أنا محاصرون القوم واذا نحن بخلاف ذلك وهم يرقبون غفلتنا وينتظرون غرتنا ، وقد قتلوا رجالنا والدواب والصواب أن نجعل عليهم حرسا فى كل طريق يمكننا ولا نمكنهم أن يخرجوا من قلعتهم ونضيق عليهم مااستطعنا . قال أبوعبيدة جزاك الله خيرا ياأبا سليمان ماأبصرك بالأمور ، فلما كان من الغد وصلى أبوعبيدة بالناس صلاة الفجر دعا بعبد الرحمن بن أبى بكر و بضرار بن الأزور وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وقيس بن هبيرة وميسرة بن مسروق ففرقهم حول القلعة ومعهم من اختاروا وأمرهم أن يمسكوا الطريق والمسالك على يوقنا حتى لو طار طائر منها أواليها اقتنصوه وأقام القوم على ذلك مدة ، فلما طال عليهم ذلك ضجر أبو عبيدة لطول

مقامه فأمر الناس بالرحيل عنهم وعزم أن يتباعد عنهم : أى عن القلعة لعل أن يجد منهم غفلة فينتهزها . قال فبعد عن المدينة فنزل بقرية بقرب منها يقال لها النيرب وهو يريد حيلة يصل بها الى يوقنا . قال ويوقنا لاينزل من القلعة ولايفتح بابها ، ففكر أبو عبيدة غاية الفكرة ، وقال خالد ياأبا سليمان ان جواسيس عدوّ الله تكشف أخبارنا وتوصلها اليه وتخوّفه فانى أقسم عليك ياأبا سليمان الا ماجلت فى عسكرنا جولة واختبرت أمر الناس فلعلك تقع بأحد من جواسيسه . قال فركب خالد وأمر الناس أن يدوروا فى عسكرهم وأن يقبضوا على كل من أنكروه . قال فبينما خالد فى طوافه اذ نظر الى رجل من العرب المتنصرة وبين يديه عباءة يقلبها فجعل خالد يرقبه فاستراب الرجل منه فناداه ، وقال من أىّ الناس أنت ياأخا العرب ؟ قال أنا رجل من اليمن . قال من أيها ؟ قال فأراد أن يقول وينتمى الى غير قبيلته فجرى الحق على لسانه ، فقال أنا من غسان ، فلما سمع خالد كلامه قبض عليه ، وقال له ياعدوّ الله أنت عين علينا لعدوّنا . قال ماأنا متنصر وأنا مسلم فأتى به الى أبى عبيدة ، وقال أيها الأمير قد رابنى أمر هذا لأننى مارأيته قط الا يومى هذا وقد ذكر أنه من غسان ولاشك أنه من عباد الصليب . فقال أبوعبيدة اختبره ياأباسليمان قال وكيف أختبره ؟ قال اختبره بالقرآن والصلاة ، فان أجابك والا فهو كافر . فقال له خالد فصلّ ركعتين واجهر بالقراءة فيهما فلم يدر مايقول . فقال له خالد أنت ياعدوّالله عين علينا . ثم استخبره عن شأنه فأخبره وأقرّ أنه عين عليهم ، فقال له خالد أنت وحدك ؟ قال لاولكنا ثلاثة أنا أحدهم والاثنان قد ذهبا الى القلعة ليخبرا يوقنا بخبركم ، وأنا قد تخلفت لأنظر مايكون من أمركم ، فقال أبو عبيدة أخبرنى أيما أحب اليك : القتل أو الاسلام فليس بعدهما شىء ، فقال الغسانى أنا أشهد أن لا إله إلاالله وأشهد أن محمدا رسول الله ، ثم رجع أبو عبيدة الى حلب ومازالت القلعة محاصرة أربعة أشهر ، وقيل خمسة أشهر ، وأبطأ خبر أبى عبيدة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب الى أبى عبيدة يقول . بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر الى عامله أبى عبيدة سلام عليك ، فانى أحمد الله الذى لاإله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ ، واعلم ياأبا عبيدة أن بانقطاع كتابك وابطاء خبرك يكثر قلقى ويضنى جسدى على اخوانى المسلمين ومالى ليل ولانهار الاوقلبى عندكم ومعكم . فاذا لم يأته منك خبر ولارسول فان عقلى طائر وفكرى حائر ، وكأنك لاتكتب الىّ الا بالفتح أو الغنيمة ، واعلم ياأبا عبيدة أننى وان غائبا عنكم فان همتى عندكم وانى داع لكم ، وقلقى عليكم كقلق الوالدة الشفوقة على ولدها ، فاذا قرأت كتابى هذا فكن للاسلام والمسلمين عضدا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعث الكتاب الى أبى عبيدة . فلما ورد عليه وقرأه عليهم . قال معاشر المسلمين : اذا كان أمير المؤمنين داعيا لكم وراضيا عنكم فى فعالكم فان الله ينصركم على عدوّكم . ثم كتب جواب الكتاب يقول : بسم الله الرحمن الرحيم : الى أبى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، من عامله بالشام أبى عبيدة : سلام عليك ، وانى أحمد الله تعالى وأصلى على نبيه ، وبعد ياأمير المؤمنين فان الله تعالى له الحمد قد فتح على أيدينا قنسرين ، وقد شننا الغارة على العواصم وقد فتح الله علينا مدينة حلب صلحا ، وقد عصت علينا قلعتها وبها خلق كثير مع بطريقها يوقنا ، وقد كادنا مرارا وذكر له ماجرى له مع أخيه يوحنا وأنه قتل منا رجالا ورزقهم الله الشهادة على يديه . ثم انه

ذكر له من قتل والله تعالى من ورائه بالمرصاد ، وقد أردنا الحيلة عليه فلم نقدر وأردت الرحيل عنه وعن محاصرته الى البلاد التى بين حلب وانطاكية ، وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ، وبعث الكتاب مع عبدالله بن قرط وجعدة بن جبير فسارا الى أن أخذا فى طريق هيشت العتيقة وجدّا فى السير حتى قطعا أرض الجفار الى صكاصكة وهى حصن العرب قريبة من تيما ، فلما وصلا اليها عارضهما فارس وعليه درع سابغ وعلى رأسه بيضة تلمع ، وهو معتقل برمح كأنه قد برز الى عدوّه أوقاصد الى قتال . فلما نظر اليهما قصدهما . فقال عبد الله بن قرط لجعدة ابن جبير : ياويلك أماترى هذا الفارس ، وقد عارضنا فى مثل هذا المكان على مثل هذه الحالة فقال له جعدة : وماعسى أن نتخوّف من فرسان العرب ورجالها ، وليس فى هذا الموضع من رفع عمودا أوضرب وتدا الاوأصبح معنا ودخل تحت طاعتنا وفى شريعتنا ، فلما قرب الفارس منا سلم علينا ، وقال من آين أقبلتما وإلى أين قاصدان ؟ فقالا له نحن رسولان من الأمير أبى عبيدة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فمن أنت أيها الرجل ؟ قال أنا هلال بن بدر الطائى . فقالا له مالنا نرى عليك آلة الحرب . قال انى خرجت فى طوائف من قومى وجماعة من أصحابى نريد الشام للجهاد ، لكتاب ورد علينا من عمر بن الخطاب . فلما رأيتكما فى بطن الوادى قصدتكما لأنظر ماقصتكما ، ولى أصحاب من ورائى مقبلون . ثم سلم عليهما وولى فركضا مطيتهما وسارا واذا بالخيل قد أشرفت ، والابل قد أقبلت تتبع هلال بن بدر ارسالا يتبع بعضها بعضا الى أن لحقوه فأخبرهم بقصة صاحبى رسول الله ﷺ ففرحوا بذلك وساروا يريدون الشام ، وأما عبدالله بن قرط وجعدة بن جبير فانهما وصلا المدينة ودخلا المسجد وسلما على عمر بن الخطاب وعلى المسلمين ودفعا له الكتاب ، فلما قرأه استبشر ورفع كفيه الى السماء ، وقال اللهم اكف الناس شركل ذى شر . ثم أمر مناديا فنادى فى الناس الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس قرأ عليهم كتاب أبى عبيدة ، فلما قرأه قدم عليه ركب من حضرموت وأقاصى اليمن من همدان ومدان وسبا ومارب يسألونه أن ينفذهم الى الشام ، فقال لهم عمر فى كم أنتم بارك الله فيكم ؟ قالوا نحن زهاء من أربعمائة فارس وثلثمائة مطية مردفين ومعنا أناس يمشون على أقدامهم لاركاب لهم ، فان كان عند أمير المؤمنين مايحملهم عليه حتى نصل الى عدوّنا ، فقال لهم عمروكم يبلغ الرجال الذين معكم ، قالوا أربعين ومائة رجل ، فقال لهم عرب أوموال ، قالوا عرب وموال أذن لهم ساداتهم فى الجهاد والمسير الى الأعداء ، فعندها دعا عمر بعبد الله ابنه رضى الله تعالى عنهما ، وقال امض الى مال الصدقات فأت القوم بسبعين راحلة ليعتقبوا عليها ويحملوا زادهم وميرتهم على ظهورها فأسرع عبد الله بن عمر وأتى بسبعين بعيرا وسلمها اليهم ، وقال لهم جدّوا رحمكم الله الى اخوانكم المسلمين وأسرعوا الى حرب عدوكم ، ثم كتب الى أبى عبيدة . أمابعد فقد ورد علىّ كتابك مع رسلك فسرنى ماسمعت من الفتح والنصر على أعدائكم ومن قتل من الشهداء ، وأماماذكرته من انصرافك الى البلاد التى بين حلب وانطاكية وتترك القلعة ومن فيها فهذا رأى غير صواب تترك رجلا قد دنوت من دياره وملكت مدينته ، ثم ترحل فيبلغ الى جميع النواحى أنك لم تقدر عليه ولم تصل اليه فيضعف ذكرك ويعلو ذكره ويطمع من يطمع ويجترئ عليك أجناد الروم خاصتهم وعامتهم وترجع اليه الجواسيس وتكاتب ملوكها فى أمرك فاياك أن

تبرح عن مجاهدته حتى يقتله الله أو يسلم اليك ان شاء الله تعالى أو يحكم الله ، وهو خير الحاكمين وبث الخيل فى السهل والوعر والضيق والسعة وأكناف الجبال والأودية وشن الغارات فى حدود المفازات ، ومن صالحكم منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه والله خليفتى عليك وعلى المسلمين ، وقد أنفذت كتابى اليك ومعه عصبة من حضرموت وغيرهم وأهل مشايخ اليمن ممن وهب نفسه لله تعالى ورغب فى الجهاد فى سبيل الله وهم عرب وموال فرسان ورجال والمدد يأتيك متواترا إن شاء الله تعالى والسلام . وختم الكتاب وسلمه لعبد الله بن قرط وجعدة ، وجعل القوم يجدّون فى سيرهم ومع ذلك يسألون عبد الله بن قرط وصاحبه عن بلاد الشام وفتح البلاد ، وقتل الروم الى أن سألوهما عن مستقر العسكر ، فقال لهم عبد الله : ان جميع المسلمين وأميرهم محاصرون بقلعة حلب وفيها عظيم من عظماء الروم ومعه أعلاج من أصحابه ، وقد تحصنوا فى رأس قلعته ، فقالوا له ياابن قرط ماهؤلاء لايدخلون فى جملة من صالح من أصحابهم ، فقال لهم يامعاشر العرب انا لم نر بعد وقعة اليرموك رجالا أشجع من هذا فلقد قتل رجالا وجندل أبطالا وأنه ليغير على أطراف العسكر فى وقت صلاتهم فيقتل رجالهم وينهب أموالهم ويرجع الى قلعته وربما أنه يستتر فى سواد الليل فى طلب العلافة فيقع بهم فيأسرهم ويأخذ دوابهم وجميع زادهم وميرتهم ، ثم يعود الى قلعته ونحن لا نعلم به ، وان المسلمين له محاصرون ومنه خائفون حذرون . قال وكان فيمن سمع كلامه وفهمه مولى من موالى بنى طريف من ملوك كندة يقال له دامس ويكنى بأبى الأهوال مشهور باسمه وكنيته وكان أسود كثير السواد بصباصا كأنه النخلة السحوق اذا ركب الفرس العالى من الخيل تخط رجلاه بالأرض ، وان ركب البعير العالى تقارب ركبتاه رجلى البعير وكان فارسا شجاعا قويا قد شاع ذكره ونما أمره وعلا قدره فى بلاد كندة وأودية حضرموت وجبال مهرة وأرض الشحر وقد أخاف البادية ونهب أموال الحاضرة ، وكان مع ذلك لاتدركه الخيل العتاة ، وكان إذا أدركته العرب فى باديتها تعجبت من صولته وشجاعته وبراعته ، فلما سمع دامس أبو الهول بذكر يوقنا وما فعل بالمسلمين كاد أن يتمزق غيظا وحنقا ، وقال لعبد الله ابن قرط أبشر ياأخا العرب فوالله لأجتهدن فى أن يخذله الله على يدى ، فلما سمع عبد الله كلامه جعل ينظر اليه شزرا ، وقال ياابن السوداء لقد حدثتك نفسك آمالا لاتبلغها وأشياء لاتدركها ياويلك ألم تعلم أن فرسان المسلمين وأبطال الموحدين بأجمعهم له محاصرون ولأصحابه محاربون ومع ذلك لايقدر أحد له على شر وقد كاد ملوكا وقهرها . فلما سمع دامس كلام عبد الله بن قرط غضب ، وقال والله ياعبد الله لولا مايلزمنى لك من أخوة الاسلام لبدأت بك قبله فاحذر أن تزدرى بالرجال وان أحببت أن تعرفنى فسل عنى من حضر من أهلى وماقد تقدم من فعلى الذى من ذكره تطيش العقول وتضيق الصدور كم من عساكر قتلتها وجموع فرقتها ومحافل بددتها وغارات شننتها ولا يضام لى جار ولايلحقنى عار وبحمد الله أنا فارس كرار غير فرار . ثم تركه مغضبا وسار أمام الناس وان قوما من العرب قالوا لعبد الله بن قرط ياأخا العرب ارفق بنفسك فانك وايم الله تخاطب رجلا يقرب اليه البعيد ويهون عليه الصعب الشديد وانه لجليد فريد لاتهوله الرجال ولاتفزعه الأبطال ان كان فى حرب كان فى أوّلها لايدركه من طلب ولايفوته من هرب ، فقال عبدالله لقد كثر وصفكم وأطنبتم فى ذكركم وأرجو أن يجعل الله فيه خيرا وفرجا للمسلمين ، قال ثم

أخذ القوم فى جد السير حتى قدموا حلب الى أبى عبيدة ، وهو منازل أهل قلعة حلب ومحاصرها وقد أحاط المسلمون بالقلعة من كل جانب ، فلما أشرف القوم عليهم أخذوا فى زينتهم وجردوا سيوفهم وأشهروا سلاحهم ونشروا راياتهم وكبروا بأجمعهم وصلوا على نبيهم . فأجابهم أهل العسكر بالتكبير من كل جانب واستقبلهم أبو عبيدة وسلم عليهم وسلموا عليه ونزل كل قوم عند بنى عمهم وعشيرتهم ، ويوقنا مازال فى كل ليلة ينشط اليهم برجاله و يناوشهم وذلك أنه كان لايقاتلهم الا قليلا ولا يظهر من القلعة نهارا أبدا وكان أكثر خروجه فى وقت خروج الناس ، فلما بات المسلمون القادمون فى تلك الليلة ونظرت طيء وسنبس ونبهان وكندة وحضرموت الى شدة الحرس وعظم حرسهم وحذرهم أقبل دامس أبو الهول على أهله الذين نزل عليهم من طريف وكندة ، فقال لهم دامس والله ماأنتم محاصرون لامحالة . فقالوا له وكيف ذلك . قال لأن العدوّ فى رأس قلعة وأنتم قدام العدوّ من الأرض اقربكم ولا عسكر بازائكم تخافونه فما هذا الخوف ؟ . قالوا ياأبا الهول ان صاحب هذه القلعة علج ميشوم يرتقب غفلتنا و يغير على أطرافنا و يأتينا من مأمننا فبينما دامس يخاطب القوم واذا بالضجة قد وقعت فى طرف عسكر المسلمين ولها جلبة عظيمة فوقف دامس منتضيا حسامه متنكبا حجفته وطلب الناحية التى سمع منها الصوت حتى بلغ اليها واذا بيوقنا فى خمسمائة رجل أبطال أنجاد وليوث شداد وقد وجد غرة من القوم ، فلما نظر دامس الى الروم وقع فى وسطهم ، وجعل يقول :

أنا أبو الهول واسمى دامس أكرّ فى جمعهم مداعس

ليث هزبر بطل ممارس مدمس كل عدوّ ناكس

قال وجعل يضرب فى أعراضهم بسيفه ومعه طائفة من بنى طريف من شجعانهم وفرسانهم ، فلما نظر يوقنا مانزل به تقهقر إلى ورائه ، وقد قتل من رجاله مائتان ودامس يكرّ عليهم و يتبعهم إلى رأس درب القلعة وكندة من ورائه فناداهم أبوعبيدة : عزيمة منى عليكم أن لايتبعهم منكم أحد فى ظلمة هذا الليل ، فقال الناس ياأبا الهول ان الأمير يعزم علينا وعليك بالرجوع فارجع رحمك الله فرجع دامس إلى رحله ، وتراجع القوم إلى رحالهم ، وقد أبليت كندة بلاء حسنا والناس قد خرجوا فلما أصبح الناس اجتمعوا للصلاة مع أبى عبيدة ، فلما قضيت الصلاة تفرقوا ولم يبق الا نفر يسير من أمراء المسلمين فجعلوا يذكرون ليلتهم . فقال خالد أصلح الله الأمير لقد رأيت كندة وقد أبليت بلاء حسنا ، وقد تقدمت رجالها وثبتت أبطالها ، وما زالت تضرب حتى أزالت عنا حامية الكفر والعدوّ ، فقال أبوعبيدة : صدقت والله ياأباسليمان ، والله لقد أسعدت الناس كندة بثباتها والله لقد سمعتهم يقولون : أحسن دامس وأجاد أبو الهول ، فقام إلى أبى عبيدة رجل من رؤساء كندة يقال له سراقة بن مرداس بن يكرب ، فقال أصلح الله الأمير دامس هو أبو الهول ، وهو مولى طريف قدم مع هذا الوفد الذى ورد بالأمس ، وهو رجل يفجر ويهول على الأبطال و يفضح الشجعان ويذلّ الأقران ، لايهوله جمع ولا يصعب عليه غارة ، فقال أبو عبيدة لخالد أما تسمع كلام سراقة فى عبدهم دامس ، فقال خالد يوشك أن يكون صادقا فى قوله ، ولقد سمعت بذكره وحديثه وشجاعته وبراعته ، ولقد أخبرنى رجل يقال له النعمان بن عشيرة المهرى أن دامسا هذا أغار وحده وهمّ على ساحل البحر فى سبعين رجلا من أهل مهرة ، وكان دامس هذا يطلبهم

لأجل ثأر كان له عند القوم ، وكانوا يخافون منه ومن شرّه و بأسه ، فكانوا مع ذلك يفتدون بأموالهم ودوابهم و يهر بون إلى أطراف الجبال وسواحل البحر حذرا منه ، وكان مع ذلك يسأل عن أخبارهم ويطلع على آثارهم ، فلما أصبح عند نزولهم على ساحل البحر استصرخ قومه للغزو فتشاغلوا ولم ينفر منهم أحد معه ، وكان خبيرا بالبلاد سهلها ووعرها برها وبحرها ، فلما أيس من قومه دخل الى خبايته واحتمل رزمة على عاتقه فأتاه أناس من قومه وقالوا له : الى أين تريد وماهـذا الذى معك ؟ ، فقال ياقوم أنا أريد الغارة على بنى الشعر وآخذ بالثأر وأكشف العار ، فقال له مشايخ الحى ّ مارأينا أعجب من أمرك وأنت تعلم أن بنى الشعر سبعون ، فمن يريد أن يغير عليهم وحده و يأخذ منهم بالثأر ؟ وماسمعنا بهذا أبدا ، و إنا نرى أن تقصد جواد ، وكانت جواد هذه أمة لبنى حياس من الحضارمة ، وكانت بقرية من قرى حضرموت يقال لها أسفل ، وكان دامس هذا يهواها وكل مايأخذه من الأموال والخيل والابل يدفعه اليها ولا يعظم عليه كثرته ، وكان لايرضى لها بالقليل ولايشبع لها بالكثير فظن القوم أنه مضى اليها وقصد نحوها بجملته التى معه من رزمتـه ، فقال لهم وايم الله إنى بطل فما تظنون ؟ وسوف تعلمون أن ماأفعله الحق ّ واليقين .

قال فرجع قومه وتركوه وسار الى أن أتى الى مرعى قومه فأخـذ راحلته من إبلهم ورحلها وأخذ سيفه وحجفته ، وجعل الرزمة تحته وسار بقية يومه وليلته ، حتى إذ كان آخر الليل عطف بالراحلة إلى بعض الأودية فأبركها وحل ّ رحلها وعقلها ودوّرها ترعى معقولة ، ثم كمن بين حجرين ، وكان قريبا من القوم ويخاف أن يدوروا به ، فلما مضى عليه نهاره وأقبل ليله أتى الى راحلته وأبركها ورحلها واستوى فى كورها ، وسار حتى أشرف على نار القوم فعدل بناقته حتى أشرف على الحى ، وكان فى ذلك الشرف شجر من الطلح فأبرك ناقته وزم ّ شدقها لئلا ترغو فيسمع القوم رغاءها .

ثم عمد إلى رزمته فحلها واستخرج منها الثياب وأتى إلى تلك الشجرة ، فجعل على كل ّ عود منها مثل عمامة الرجـل ، و يأتى بالعود ينصبه و يسنده بالحجارة ويطرح عليه الازار ، ولم يزل حتى أقام أر بعين عودا على هذه الصفة ، وجعل عليه حلة حمراء أرجوانية وهبط من ذلك الشرف الذى عليه الثياب وقصد الحى ودار حول بيوتهم وتفكر فى أمره ، وكيف يحتال وقـد مضى أكثر الليل .

ثم صبر إلى أن طلع الفجر وسار نحو الساحـل ، فلما قرب منهم صاح فيهم وقال : دنا أجلكم أنا أبو الهول ولقد أصبحتم بالويل وأخذتم من البر ّ والبحر ، وجعل ينادى يالثار طريف يا آل طريف يا آل كندة ، فلما وقع صوته فى أسماعهم ذهلت رجالهم وتصارخت نساؤهم وفزع القوم بين يديه من البيوت هاربين و إلى الساحـل نحو الجبل طالبين وهو من خلفهم ، فلما رأوه وحـده شجع بعضهم بعضا ورجعوا اليه يقاتلونه وطمعوا فيه لما رأوه وحده ولم يروا أحدا من ورائه وأخذوا فى طلبه ، فجعل يكر ّ عليهم ويرجع عنهم ويقتل رجلا بعد رجل ، فلما نظروا إلى شدّة بأسه وعظم مراسه وهول صولته وشدّة حملته أرادوا أن يسبقوه إلى الشرف ليأتوا اليه من ورائه ، فلما علم أنهم قد قاربوا الأعواد التى عملها وعليها الثياب خاف أن ينظروا اليها و يعلموا مافعله من المكر ، فسبقهم إلى الشرف وسار أمامهم وأقبل على الأعواد مخاطبا لها كأنه يخاطب الرجال وهو يقول : ياأهل كندة ياأهل طريف إياكم والقوم ، قد أتتكم الرجال فلاتحملوا عليهم وأنا أفديكم بنفسى ، فان رأيتم على ّ الحيف فاحملوا على القوم ، فمدّ القوم أبصارهم اليـه فوجدوا عنـده الثياب على

الأعواد فى انشقاق الفجر فلم يشكوا أنهم رجال فانقلبوا راجعين نحو البحر ، وجعل دامس ينادى ألا ياقوم أقسمت عليكم أن لاتبرحوا من أماكنكم وأنا أكفيكم مؤنة القوم وحدى فرجعت بنو مهرة ناكصين على أعقابهم . هذا قد أردف زوجته ، وهذا أولاده وهذا أمته وهذا أخذ ماقدر عليه من أثاثه ورجع أبو الهول إلى الحى ، فلم يصادف فيه الا العبيد والصبيان والمشايخ والعجائز فأمر العبيد أن يوقروا الجمال فحملوها وكتفهم وساق الجميع قدامه وعاد وأخذ الثياب من على الأعواد ولحقهم وأتى بهم ديار قومه فعجبوا منه ومن فعاله ، فلما سمع أبوعبيدة ذلك من خالد أقبل على سراقة وقال له : ادع لى عبدكم حتى أنظر اليه وأسمع كلامه فأتى به سراقة ، فقال له أبوعبيدة أنت دامس . قال نعم أصلح الله الأمير ، فقال له بلغنى عنك عجائب وأنت وايم الله أهلها ، لأنك جزل من الرجال واعلم أنك وقومك تقاتلون فى بلاد سهلة لاتأتون الجبال ولا القلاع ، ولقد اقتحمت البارحة أثر القوم اقتحاما منكرا فارفق بنفسك واحذر من هذا البطريق يوقنا ، فقال له دامس أصلح الله الأمير لقد غزوت مهرة وأخذت أموالها ، وان جبالها منيعة شامخة رفيعة ذات وعر وحجر ، وما هذه بأمنع من تلك الجبال ، فقال أبو عبيدة أنا أراك نجيبا فهل حدثتك نفسك من أمر هذه القلعة بشىء ؟ ، فقال دامس أصلح الله الأمير إنى لما قدمت عليك فى هذا الوقت كنت رأيت فى نومى رؤيا ، فقال أبو عبيدة وما الذى رأيت ؟ أراك الله الخير . قال رأيت كأنى سائر فى وطأة من الأرض وانى مجد أطلب قومى ، فبينما أنا فى مسيرى إذ أشرفت عليهم وهم حائرون لايتقدمون ولايتأخرون فناديتهم : ياقوم ماشأنكم وأى شىء عرض لكم فى طريقكم ؟ فقال لى القوم ماترى هذا الجبل كيف قد عرض لنا فى آخر هذا الطريق وليس لنا فيه مسلك ولامطلع ، فقلت على رسلكم ألاترون هذه الفجوة فى هذا الجبل ؟ فقالوا هيهات ليس لنا فيه منفذ ولامطلع ، فقلت ولم ذلك . قالوا لأن فيه ثعبانا عظيما لايمر به أحد الاوأهلكه ، وقدقتل رجالا وجندل أبطالا ، فقلت ياقوم ألا تهجمون عليه بأجمعكم ؟ . قالوا لا نقدر على ذلك لأن النار تخرج من أنفاسه وليس لنا عليه من سبيل ، فقلت لهم فالتمسوا لكم طريقا من وراء ظهره . فقالوا لانقدر على ذلك من عظم جثته فتركتهم والتمست لى طريقا فلم أجد الا طريقا صعبا حرجا فاقتحمته فما سلكته الا بعد المشقة وأتيت الى الثعبان من ورائه فقتلته ، ثم أشرفت على قومى فاتبعونى ، فما وصلوا الا بعد جهد جهيد وهم آمنون من عدوهم ، ثم استيقظت فرحا مسرورا ، فقال أبو عبيدة خيرا رأيت وخيرا يكون يادامس . أما رؤياك هذه فانها للمسلمين بشارة ، ولعدونا خسارة ، ثم قال له اجلس مكانك ، وأمر أبو عبيدة أن ينادى المسلمين فحضر رؤساء المسلمين وأعيانهم ، فلما حضروا قال أبو عبيدة : الله أكبر فتح الله ونصر ، وحبانا بالظفر ، وخذل من كفر ، ثم قال : يامعاشر المسلمين اسمعوا رؤيا أخيكم دامس فانها عبرة لمن اعتبر وموعظة لمن افتكر . قال فأقبلوا يسمعون له ، فعندها قام أبوعبيدة على قدميه وقال : الحمد لله وصلى الله على رسوله وسلم ، ثم قال معاشر الناس ان الله سبحانه وتعالى له الحمد قد وعدنا فى كتابه على لسان نبيه محمد ﷺ الغلبة على أعدائنا والظفر بمرادنا ، وما كان الله ليخلف وعده ، وإنى نذرت ان فتح الله هذه القلعة على يدى أصنع من البر ما استطعت ، والآن قد هجس فى نفسى ووقع فى قلبى أنا ظافرون بهذه القلعة ومن فيها ان شاء الله تعالى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، لأنه قد دلنى على ذلك رؤيا هذا الغلام .

ثم قبض بكفه على زند أبى الهول وقال له : رحمك الله حدّث اخوانك بما رأيت فى منامك فقام دامس قائما وقال : اعلموا أنى رأيت فى منامى كذا وكذا وجعل يقصّ على الناس رؤياه من أوّلها إلى آخرها ، فلما فرغ منها أقبل المسلمون على أبى عبيدة وقالوا له أيها الأمير قد سمعنا قوله وحفظنا شرحه ، فما تأويل رؤياه ؟ . قال أبو عبيدة : اعلمو رحمكم الله ، أما الجبل الذى رآه عاليا شامخا شديد الامتناع بين الشعاب والقلاع فذلك دين الاسلام بلا شك وسنة محمد ﷺ ، وأما الثعبان الذى رآه وقد منع الناس وقد هجم عليه بسيفه فأمر حسن هو أن يفرج الله على يديه على المسلمين ففرح الناس بتأويل أبى عبيدة . وقالوا أيها الأمير فالذى تأمرنا به ، فقال آمركم بتقوى الله سرا وجهرا . ثم المكيدة على الأعداء طوعا وصبرا فارجعوا إلى رحالكم حفظكم الله وأصلحوا شأنكم وآلة حربكم وما تحتاجون اليه فانى أقدمكم غداة غد إلى أعاديكم إلى أن يحدث لى رأى غير هذا ، فانى لست أدع الاجتهاد فى الرأى والمشاورة لمن أثق به و برأيه من المسلمين ، فقالوا بأجمعهم وفق الله رأيك أيها الأمير وظفرك بأعدائك انه سميع عليم ، فعال لما يريد ومضوا إلى رحالهم ، فجعل هذا يحدّ سيفه ، وهذا يصلح آلة حربه وفرسه ، وهذا يتفقد درعه ، وهذا قوسه ونشابه ، وما زالوا كذلك بقية يومهم ، فلما أصبحوا دعا أبو عبيدة بدامس ، فقال له أيها الولد المبارك . ماذا ترى فى أمر هذه القلعة وما عندك من الحيلة ، فقال دامس : اعلم أيها الأمير إنها قلعة منيعة شامخة حصينة تعجز الوافد وتمنع القاصد فى أهلها محاصرة ولا تضيق صدورهم من قتال ، غير أنى أفكر فى حيلة أحتالها أو بلية أعملها وأرجو من الله أن يتم ذلك عليهم ، فيكون فيه تبديدهم ، ونملك بمشيئة الله ديارهم ، ونقلع آثارهم ، فقال أبو عبيدة: يادامس وماهى ؟ فقال أصلح الله الأمير أنت تعلم مافى إذاعة الأسرار من الشرّ والاضرار ، ومن كتم سره كانت الخيرة فيما لديه ، و يقال ان دامسا هذا أوّل من تكلم بهذه الكلمة فصارت مثلا ، فقال أبو عبيدة : فما الذى تشير اليه ، وما الذى تعتمد عليه ؟ قال تزحف بعسكرك وجلة من معك من أصحابك حتى تنزلوا بازاء القلعة ليظهر لهم منك الحرص والهيبة ، واعلم ان فى ذلك من الحيل ماأرجو من الله أن يتمها ان شاءالله تعالى ، ولاحول ولاقوة الا بالله العلىّ العظيم ، فأمر أبو عبيدة عسكره بالرحيل فارتحلوا ونزلوا تحت القلعة وهللوا وكبروا وأظهروا اسلاحهم وأرهبوا أعداء الله تعالى . قال فأشرف عليهم الروم ونظروا الى جمعهم فهابوهم وألقى الله الرعب فى قلوبهم حتى انهم اضطربوا فى قلعتهم وماجوا وجعل كبراؤهم يستشيرون فيما بينهم . فقال قوم نقاتلهم ، وقال قوم بل نقعد فى قلعتنا فانهم لايقدرون علينا ، ثم اجتمع رأيهم على القتال من فوق القلعة وقعدوا على الأبراج والبنيان وجعلوا يرمون المسلمين بالحجارة والسهام وقد أقاموا على ذلك ليلا ونهارا ودامس مع ذلك يعمل حيلة يصل بها اليهم بسوء . قال فلما كان بعد السبعة والأربعين يوما أقبل دامس على أبى عبيدة وقال له أيها الأمير قد عجزت وأنا أعمل حيلا فما صدر من يدى فى حقهم شىء وقد افتكرت فى شىء وأرجو من الله أن يكون به الظفر والظهور على أعداء الله . فقال أبو عبيدة وما الذى دبرت ؟ قال تضيف الىّ من صناديد الرجال ثلاثين رجلا وتأمرهم بالطاعة وترك المخالفة والاعتراض علىّ فيما آمرهم به وأفعله وأراه . فقال أبو عبيدة سأفعل ذلك ، ثم ضم اليه ثلاثين رجلا من الشجعان حتى اذا اجتمعوا قال لهم أبو عبيدة معاشر المسلمين انى قد أمّرت دامسا

عليكم وأمرتكم بالطاعة والقبول لأمره واعلموا رحمكم الله انى ماأمرته عليكم لكونه أجل منكم حسبا ونسبا ولا أعظم موكبا ولا أشد بأسا ولا أكثر مراسا فلا يقل أحدكم انى قد أمرت عليكم عبدا احتقارا بكم ، وبالله أحلف مجتهدا لولا مايلزمنى من تدبير هذا العسكر لكنت أول من ينطلق معه فى جمعكم وأنا أرجو من الله أن يفتح على يديكم ، فأقبلوا عليه بجمعهم ، وقالوا أصلح الله الأمير مانشك فى إعظامك لنا ومعرفتك بسابقتنا ، ولقد كان كلامك الأول أثر فى نفوسنا ، وها نحن لك و بين يديك ولو أمرت علينا علجا أغلف لم نخرج لك من أمر ولا رأى اذ علمنا أنك لاتريد الا نصحا للدين وحياطة ، فالسمع والطاعة لله ثم لك ثم لمن وليته علينا من قبلك كائنا من الناس أجمعين . قال ففرح أبو عبيدة بماقالوه ووثق بكلامهم وجزاهم خيرا ، وقال لهم : اعلموا رحمكم الله تعالى أن نفسى تحدثنى أن الله تعالى يفتح هذه القلعة على يد هذا العبد المقبل لانه دقيق الحيلة حسن البصيرة فسيروا معه وثقوا بالله وتوكلوا عليه وقد تعلمون أن رسول الله ﷺ قد ولى قوادا على سادات العرب من المسلمين والاشراف من عشيرته ، ثم أقبل على دامس . فقال له يادامس ما الذى تحب بعد هذا ؟ قال ترحل أنت بجيشك من وقتك هذا فتكون منا على مسيرة فرسخ فتنزل بالعسكر وتأمرهم بقلة الحركة وان يختفوا مااستطاعوا ويكون لك رجال تثق بشدتهم ونصحهم للمسلمين يتجسسون عن أخبارنا وآثارنا من غير أن يعلم بهم وبنا أحد ويكونون بغير سلاح سوى الخناجر ، فاذا عاينوا منا الظهور على أعدائنا والظفر بهم لحقوك و بشروك بذلك فتلحق بنا ان شاء الله تعالى وليكونوا متفرقين فى موضع واحد ، فان ذلك أسلم لهم وأبلغ لما يريدون من أمورهم والله المستعان فى جميع الأمور والأحوال ، فعلم أبو عبيدة انه نصيح من الرجال صاحب رأى و بصيرة ، ثم ان دامسا أقبل على رفاقه الذين ولى عليهم وقال لهم يافتيان العرب انهضوا بنا بارك الله فيكم حتى نكمن فى بعض هذا الوادى مادام الناس عازمين على الرحيل لئلا تشرف الروم فينظروا الى رحيلنا فلا يتفق لنا ان نطلب لنا مكمنا اذا أشرفوا من أعلى حصنهم وليكن مع كل رجل منكم سيفه وحجفته وخنجره لاغير ، ففعلوا ذلك ، فلما تكاملوا لبس دامس لامة حربه وجعل خنجره تحت أثوابه وأخذ جماعته وخرج بهم حتى اذا فارق العسكر جعلوا يخفون آثارهم وأشخاصهم وهو سائر بهم حتى أتى بهم كهفا فى الجبل فأمرهم بالدخول اليه وجلس على بابه . قال وأما أبو عبيدة فانه أمر الناس بالرحيل بعد مارتب الرجال كما وصاه أبو الهول فارتحل العسكر وأشرف عليهم أهل القلعة فرأوهم يرحلون ففرحوا بذلك وسروا سرورا عظيما وصاروا يصيحون على المسلمين من أعلى القلعة وقالوا لبطريقهم أيها السيد افتح لنا الباب حتى نخرج وراء العرب فلعل أن نقتل منهم أحدا أونأسره فنهاهم عن ذلك قال وداموا بقية يومهم الى العشاء . فقال دامس لأصحابه من فيكم ينهض الى تحت القلعة و يأتينا بخبر منها أو يقدر على رجل يأسره فيأتينا به فنأخذ منه خبرا فلم يجبه أحد ، فقال أنا أعلم أن مافى هذه الجماعة الا من هو ضنين بنفسه كاره للموت وأنا لكم الفداء فانظروا كيف تكمنون ، ثم تركهم دامس ومضى فغاب عنهم ساعة واذا به قد أتى ومعه علج وقال لهم يافتيان العرب دونكم هذا فاسألوه فسألوه فلم يفقهوا قوله . فقال على رسلكم فغاب غير بعيد وأتى بثلاثة أخر فلم يكن فيهم من يفهم بلغة العرب . فقال دامس لعن الله هؤلاء ما أفظع لغتهم وأكثر طمطمتهم ثم أوثقهم

كتافا وغاب الى أن مضى من الليل نصفه ولم يأت فقلق عليه أصحابه قلقا شديدا واغتموا عليه وقال بعضهم لبعض أنا أقول ان دامسا قد فطن به فقتل أو أسر وماجوا فى ذكره وهموا أن يرجعوا الى العسكر فبيناهم فى ذلك إذ دخل عليهم دامس وهو يقود رجلا من الروم فتواثبوا اليه وقبلوه بين عينيه وسألوه عن إبطائه وقالوا له يادامس لقد حدثتنا نفوسنا بالعظائم وصعب علينا إبطاؤك عنا . فقال اعلموا رحمكم الله تعالى : أنى لما فارقتكم سرت الى قريب من سور القلعة وكمنت لهم وهم يمرون علىّ وهم يرطنون بلغتهم وأنا لاأتعرض للقوم كل ذلك ، وأنا أطلب من يتعرض للعربية و يتكلم بها فلم أر أحدا حتى أيست وهممت بالرجوع خائبا إذ سمعت هدّة شديدة قد وقعت من أعلى السور فأسرعت اليها لأنظر اليها ماهى فاذا أنا بهذا الرجل وقد ألقى نفسه من القلعة الى أسفل السور فبادرت اليه وأخذته وأتيت به اليكم فانظروا ماهو ؟ فدنوا اليه وخاطبوه فلم يكلمهم الابلغته واذا به قد انفتحت جبهته . فقال لهم دامس اعلموا أن له شأنا وأىّ شأن ،وانى أظنه هاربا من القوم وليس فيكم من يفهم مايقول ولكن على رسلكم فأنا آتيكم بمن يتكلم بلسانه وبالعربية ، ثم أسرع دامس من عندهم فلم يكن الا قليل واذا به قد عاد ومعه رجل قد نزلت عمامته فى رقبته وهو يقوده حتى مثله عندنا . فقالوا له من المدينة أنت أم من القلعة ؟ . فقال له دامس ممن أنت تكون أمن الروم أم من العرب المتنصرة ؟ . قال ولكنى مع العرب المتنصرة ؟ فقالوا ياهذا هل لك أن تطلعنا على عورات القلعة أوعورة من عوراتها ، ونحن نطلق سبيلك ولا يتعرض اليك أحد بسوء . فقال ياهؤلاء لست أعرف لهذه القلعة عورة ولاطريقا ولوعرفت لماوسعنى فى دينى ولا رأيت أن أدلكم عليها وحق المسيح . قال فاغتاظ منه دامس وقال له اسأل هؤلاء الأسارى هل فيهم أحد من أهل الربض فان بيننا و بينهم صلحا . قال فسألهم فلم يجد فيهم أحدا من أهل الربض بل كلهم من أهل القلعة وأنا أعرفهم . فقال له دامس فاسأل هذا الرجل لم طرح نفسه من السور ومادعاه الى ذلك ؟ فسأله فقال له انه يقول ان الملك يوقنا غضب على أهل الربض لأجل صلحهم لكم و بعث يتهددهم ، فلما انصرفت العرب نزل يوقنا فجمع رؤوسهم وأصعدهم الى القلعة وأنا فى جملتهم وطلب منا من الأموال مالاطاقة لنا به ولا نقدر عليه ، فلما رأيت ماقد نزل بنا هربت وألقيت نفسى من القلعة أطلب الفرج وأنجو من العقوبة فلم أشعر الا وأنت قد قبضت علىّ وأنا من أهل الربض ، فان كنتم من العرب فأنا فى ذمتكم وأمانكم فلا تنكثوا ولا تغدروا وان كنتم من غيرهم ، فاطلبوا منى ما أردتم من الفداء فانى قد هربت من العقوبة . فقال له دامس قل له نحن من العرب ولا بأس عليك ولا خوف ولاينالك منا سوء وأراد دامس أن يرى الربضى مايفعل بأعدائه ، فأخرج الروم والمتنصرة وضرب رقابهم ولم يدع غير الربضى ، ثم أطلقه واستمروا الى الليل وعمد دامس الى مزوده فاستخرج منه جلد ماعز وألقاه على ظهره وأخرج كعكا يابسا وقال لأصحابه : بسم الله استعينوا بالله وتوكلوا عليه وأخفوا نفوسكم وقدموا الحزم فى أموركم فانى معوّل على فتح هذه القلعة أن شاء الله تعالى . فقالوا سر على بركة الله تعالى فقاموا مسرعين ، وتقدم دامس و بعث رجلين من أصحابه يعلمان أبا عبيدة بشأنهم و يقولان له ابعث الخيل عند طلوع الفجر . قال فانطلق الرجلان وصعد دامس ومن معه تحت الظلام ودامس على المقدمة يمشى على أربعة والجلد على ظهره وكلما أحسّ بشئ قرض فى الكعك

كأنه كلب يقرض عظما وهم من ورائه يقفون أثره وهم يستترون بين الأحجار فلا زالوا كذلك حتى لاصقوا السور وسمعوا أصوات الحرس وزعقات الرجال من أعلى القلعة والحرس شديد فلم يزل دامس دائرا بهم حول السور الى أن أتى الى مكان لم يجد به حسا واذا بحرسه قد ناموا وراء المكان ولم يروا فى السور أقرب منه . فقال دامس لأصحابه أنتم ترون هذه القلعة وعلوها وتحصينها وليس فيها حيلة لشدة الحرس و يقظة القوم فما الذى ترون من الرأى أن نصنع بها وكيف الحيلة فى الصعود اليها الى أن نحصل فى وسطها ؟ . فقالوا يادامس ان الأمير أمرك علينا وأنت أدرى منا وأجرأجنانا ونحن لك بين يديك فمهما رأيت فيه الصلاح للمسلمين فلا نتأخر عنه ووالله ان قتل نفوسنا وذهاب أرواحنا أسهل علينا من الرجوع بغيرفائدة فنك الأمر ومنا السمع والطاعة فليس منا من يتأخر عنك ولا نموت الا تحت ظلال السيوف وفى طاعة الله ونصرة دين الاسلام . فقال دامس شكر الله فضلكم ورزقكم النصرعلى أعدائكم ، فان كانت هذه نيتكم فالتصقوا بنا الى هذا المكان . قال وكانوا ثمانية وعشرين رجلا واثنان كانوا أرسلوهم الى الأمير يعلمانه بأن يأتى اليهم فى الصبح . فقال لهم دامس أفيكم من يقدر على الصعود على هذه القلعة فقلنا له ياأبا الهول وكيف لنا أن نرقى اليها وعلى أى شىء نصل الى أعلاها بغيرسلم فقال على رسلكم ، ثم انه اختار منا سبعة رجال كالأسد الضوارى لوكلفوا حمل ذلك البرج على منا كبهم لما عظم ذلك عليهم ، ثم جلس على قرافيصه وقال لأحد السبعة اجلس على منكبى وارم بحيلك الى الجدار واجلس كما أنا جالس ففعل الرجل ما أمر به وأمر آخر أن يفعل و يصعد على منكبى الآخر وأن يرمى بقوته على الجدار قال ففعل ، ثم انه لم يزل يصعد واحد بعد واحد الى أن صعد الثامن بقوته على الجدار وهم متمسكون به ، فعند ذلك أمر الأعلى أن يقوم قائما وأن يطرح حيله على الجدار فقام الأول وقام الثانى ثم قام الثالث ثم قام الرابع والخامس والسادس وكل واحد منهم قد طرح نفسه على الجدار ، ثم قام دامس آخرهم فاذا الأعلى قد وصل الى شرافة السور وتعلق بها فاستوى على السور ونظر الى حارس ذلك المكان فوجده نائما وهو ثمل من الخمر فأخذ بيده ورجله ورماه ، فلما وصل الى الأرض قطعوه وأخفوا جسده ووجد من أصحابه اثنين سكارى وهم رقود فذبحهم بخنجره ورمى بهم ، ثم أرخى عمامته لصاحبه ونشله اليه فاذاهو معه على السور وكان دامس قد أعطاه حبلا فبقوا ينشلون به بعضهم الى أن تكاملوا على السور وأصعدوا من بقى معهم على الأرض ، وكان آخر من صعد أبو الهول . فقال لهم مكانكم حتى أقفو الخبر وا كشف لكم الأثر ، ثم انه أتى الى دار البطريق وهو فى وسط القلعة واذا عنده سادات البطارقة وأ كابرهم وهم جلوس و بين أيديهم بواطى الخمر ، و يوقنا جالس فى وسطهم على بساط من الديباج منسوج من الذهب وعليه بدلة من اللؤلؤ ومعصب بعصابة من الجوهر والقوم يشربون والمسك والبخور يفوح عندهم فعاد دامس الى أصحابه وقال : اعلموا ان القوم خلق كثير وان هجمنا عليهم فلانأمن الغلبة من كثرتهم ولكن ندعهم فيما هم فيه ، فاذا كان وقت السحر هجمنا على يوقنا ومن معه من الملوك نقتلهم بسيوفنا فاذا ظفرنا بهم وذلهم الله لنا وعلى أيدينا فهو الذى نريد ، وان كان غير ذلك فيكون الصباح قد قرب ، ولاشك أن الرجلين من أصحابنا قد أعلما خالد بن الوليد فيأتينا . فقالوا مانخالف لك أمرا ونحن قد صرنا فى قلعة هؤلاء الأعداء وليس ينجينا الاصدق جهادنا والعزم والشدة من قوتنا .

فقال لهم مكانكم فلعل أن يفتح الباب . قال وكان للقلعة بابان و بينهما دهليز والبوّابون داخلهما والرجال تنام عندهم بالنوبة ، فلما وصل دامس الى الباب وجده مغلقا واذا بالقوم رقود من السكر فعاجلهم بالذبح ، ثم فتح البابين وتركهما مردودين ورجع الى أصحابه وقد قرب الفجر فقال لهم ابشروا فانى قد فتحت البابين وقتلت من كان وراءهما فدونكم والباب فاسبقوهم اليه وخذوه عليهم فقد بقى القوم حصيدا بأسياف المسلمين ان شاء الله تعالى . قال وأرسل من يستعجل خالدا ويبشره بذلك ، ثم أرسل خمسة من أصحابه يمسكون الباب وأخذ الباقين ومشى نحو دار يوقنا فصاحوا عليه ووقع الصياح فى القلعة فرجعوا بأجمعهم الى الباب وأخذ كل واحد منهم مكانا يحميه فعندها جاءت الأبطال وصاحت الروم ويلاه كيف تمت علينا هذه الحيلة وصرخ يوقنا بأصحابه فأتوا من كل جانب ، فعندها كبر المسلمون ونادوا بلسان واحد الله أكبر فخيل للروم أن القلعة ملآنة منهم . قال ابن أوس وقاتلت الروم قتالا شديدا ، وأما المسلمون فكانوا كالأسد الضارية فما رأيت أقوى بأسا ولا أشد مراسا من دامس أبى الهول فى ذلك اليوم فلقد عددنا فى بدنه بعد ما انفصلنا ثلاثة وسبعين جرحا كلها فى مقدم بدنه . قال فبينما نحن فى أشد القتال ونحن يحمى بعضنا بعضا وقد بقى منا ثلاثة وعشرون وقتل منا أربعة وهم أوس بن عامر الحزمى من بنى حزم وأبو حامد بن سراقة الحيرى والفارع بن مسيب التميمى وفزارة بن مراد العوفى .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] لقد حدثنى نوفل بن سالم عن جده غويلم بن حازم وكان ممن صحب دامسا فى قلعة حلب قال : لما قتل من قتل منا وقد قتل أيضاملاعب بن مقدام بن عروة الحضرمى وكان ممن حضر مع رسول الله ﷺ الحديبية وتبوك ومرارة بن ربيعة العامرى وهلال بن أمية وهو ابن أخى كعب الذى تخلف عن رسول الله ﷺ فى تبوك وأنزل الله فيه ما أنزل ، قال وبقينا عشرين رجلا وتكاثرت الروم علينا فى أزيد من خمسة آلاف وهم سد من حديد ، قال ونحن قد أيسنا من الحياة اذدخل علينا خالد بن الوليد ومعه جيش الزحف فوجدونا ونحن فى أشد ما يكون من القتال ، فلما دخلوا علينا صاح فيهم خالد فجفلت الروم عنا . قال أوس فلما رأيناهم كذلك وانفرج عنا ما كنا فيه اشتدت قلوبنا فعندها كبرت المسلمون ودخل ضرار وأمثاله يضربون رقابهم ، فلما رأى الروم ذلك وعلموا أنهم لاطاقة لهم بما وقع بهم ألقوا السلاح ونادوا الغوث الغوث وكفوا أنفسهم عن القتال فكفت المسلمون أيديهم عنهم فبينماهم كذلك اذأقبل أبوعبيدة ومعه عساكر الاسلام فأخبروه أن الروم يطلبون الأمان وأن المسلمين قد رفعوا عنهم القتل الى أن تأتى وترى فيهم رأيك ، فقال أبوعبيدة قدوفقوا وسددوا فأمر باحضار رجالهم ونسائهم فعرض عليهم الاسلام فكان أوّل من أسلم بطريقهم يوقنا وجماعة من ساداتهم . قال فردّ عليهم أموالهم وأهاليهم واستبقى منهم الفلاحين وعفا عنهم من القتل والأسر وأخذ عليهم العهود أن لا يكونوا الا مثل أهل الصلح والجزية وأخرجهم من القلعة . قال ثم أخرج المسلمون من الذهب والاوانى مالايقع عليه عدد فأخرج منه الخمس وقسم الباقى على المسلمين وأخذ الناس فى حديث دامس وحيله وعجائبه وعالجوا جراحته حتى برأت قال وأعطاه أبوعبيدة سهمين ثم ان أبا عبيدة طلب أمراء المسلمين وأكابرهم وشاورهم فى أمره وقال ان الله وله الحمد قد فتح هذه القلعة على أيدى المسلمين وما بقى لنا موضع نخافه ، فهل نقصد انطاكية ، وهى دار الملك

وكرسى عزهم وفيها بقية ملوكهم مع هرقل فما ترون من الرأى ؟ . قال فعندها قام البطريق يوقنا وتكلم بلسان عربى فصيح وقال : أيها الأمير ان الله تبارك وتعالى قد أيدكم وأظفركم بعدوّكم ونصركم وماذاك الا أن دينكم هو الدين القويم والصراط المستقيم ونبيكم هو المشهور فى الانجيل وهو لامحالة الذى بشر به المسيح ولاشك فيه ولامراء وهوالفاروق الذى يفرق بين الحق والباطل وهو النبى الكريم اليتيم الذى يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه فهل كان ذلك أم لا أيها الأمير؟ فقال أبوعبيدة نعم هو نبينا ﷺ وانى يايوقنا قد حرت فى أمرك وأنت بالأمس تقاتلنا ومرادك أن تكسر عسكرنا وتقطع الطريق على علوفتنا واليوم تقول مثل هذا القول ، وقد بلغنى انك لاتفهم بالعربية شيئا فمن أين لك حفظها . فقال لاإله الا الله محمد رسول الله وانك تعجب أيها الأمير من هذا الأمر قال نعم قال له اعلم أيها الأمير أنى كنت البارحة مفكرا فى أمركم وقد وصلتم الى قلعتنا ونصرتم علينا وانه لم يكن عندنا أمة أضعف منكم وتوسوست فى ذلك ، فلما نمت رأيت شخصا أبهى من القمر وأطيب رائحة من المسك الأذفر ومعه جماعة فسألت عنه فقيل لى هذا محمد رسول الله فكأنى أقول ان كان نبيا حقا فليسأل ربه أن يعلمنى العربية وكان يشير الىّ وهو يقول يايوقنا أنا محمد الذى بشر بى المسيح وأنا لانبى بعدى وان أردت فقل لاإله الا الله وانى محمد رسول الله فأخذت يده فقبلتها وأسلمت على يديه واستيقظت وفىّ من تلك الليلة كالمسك الأذفر وأنا أتكلم بالعربية ، ثم انى قمت الى منزل أخى يوحنا وفتحت خزانة كتب فوجدت فى بعض الكتب صفة محمد ﷺ ومايكون من أمره ووجدت كل الصفات صحيحة وان أبغض الخلق اليه اليهود أكان ذلك أيها الأمير أم لا ؟ فقال أبوعبيدة نعم كانت اليهود تطلبنا أشد الطلب حتى نصرنا الله عليهم وأخذنا حصونهم وقتلنا أبطالهم . قال يوقنا وجدت هذا فى سيرته وجملة أخباره وأن الله تعالى كان يوصيه بأصحابه وبالمسلمين وبالأيتام والمساكين أكان ذلك أم لا ؟ قال أبوعبيدة نعم ،أماوصيته من الله على أصحابه . فقد قال الله تعالى ــ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ــ ، وقال فى حق اليتيم والمسكين ــ فأما اليتيم فلاتقهر وأما السائل فلا تنهر ــ . فقال يوقنا كيف قال ووجدك ضالا فهدى فما معنى وصفه بالضلال وهو عند الله كريم . فقال له معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه وجدناك ضالا فى تيه محبتنا فهديناك الى مشاهدتنا وأيضا سهل لك الوصول الى سبل المكاشفة ووفقك للوقوف فى مقام المشاهدة ووجدك ضالا فى بحار الطلب على مركب العطب فهداك الى سواحل الحق وقرّبك الى ظل حقائق الصدق لتكون بقلبك مائلا عن الأغيار أرتهيم فى قيعان الاختيار متمنيا ساعات الوصول والتلاق وليس لك مناخير ولامعك منا أثر أخنالك لوائح الرضا وكشفنا لك عن واضح القضا ، أما علمت يايوقنا انه لاشىء عند المؤمن أوفى من العلم ولا أربح من الحلم ولاحسب أوضح من الدين ولاقرين أزين من العقل ولارفيق أشر من الجهل ولا شىء أعز من التقوى ولاشىء أوفى من ترك الهوى ولاعمل أفضل من الفكر ولاحسنة أعلى من الصبر ولا سيئة أخزى من الكبر ولا دواء ألين من الرفق ولا داء أوجع من الخرق ولا رسول أعدل من الحق ولادليل أنصح من الصدق ولافقر أذل من الطمع ولا غنى أشقى من الجمع ولاحياة أحسن من الصحة ولامعيشة أهنا من العفة ولاعبادة أفضل من الخشوع ولازهد خير من القنوع ولاحارس أحفظ من الصمت ولاغائب أقرب من الموت ، فلما سمع يوقنا

هذا الكلام من معاذ تهلل وجهه ، وقال هكذا قرأته فى كتب أخى يوحنا وهو مذكور فى الانجيل والتوراة ثم خرّ ساجدا وقبل الأرض شكرا ، وقال : الحمدلله الذى هدانى الى هذا الدين ووالله لقد رسخ هذا الدين فى قلبي وعلمت أنه الحق وسأقاتل فى الله كما كنت أقاتل فى طاعة الشيطان ووالله لأنصرنّ هذا الدين حتى الحق بأخى يوحنا ، ثم انه بكى بكاء شديدا على مافرّط فى أمر أخيه . فقال له أبو عبيدة قال الله فى حق اخوة يوسف ـ لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ـ ، وقال له ان خاك فى عليين مع الحور العين ، وأما أنت فساعة أسلمت خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك فبكى لذلك وقال أشهد علىّ المسلمين أنى كلما جاهدت وقتلت من المشركين فثوابه فى صحيفة أخى يوحنا ولابد أن أقاتل فى سبيل الله وأمحو ماسلف من الفعال . فقال أبوعبيدة : ياعبد الله دلنا أين نسير ؟ فقال يوقنا اعلم أيها الأمير ان حصن عزاز حصن منيع وهو قوىّ بالرجال والعدد والزاد وفيه ابن عم لى اسمه دراس بن جوفناس وهو ذوشدّة وباس وقوّة ومراس جلد فى الحرب قوى عند الطعن والضرب وان أنتم تركتموه ومضيتم الى نحو انطاكية أغار على حلب وقنسرين وأذاقهم شرا . فقال أبوعبيدة ياعبد الله قد أنطق الله لسانك بالحق والصواب فما عندك من الحيلة ؟ . فقال يوقنا عندى من الرأى أن أركب جوادى وتضم الىّ مائة فارس من المسلمين ولتكن على زى الروم ولباسهم وأتقدّم بهم ، ثم يتقدّم أمير من العرب ومعه ألف فارس على خفاف الخيل وأنا فى المقدّمة بالمائة فارس على مقدار فرسخ كأننا هاربون منكم وأوائل الخيل الألف فى طلبنا فاذا أشرفنا على عزاز نلق الصوت ، فاذا نظر الينا صاحبها دراس لابدّ أن ينزل الينا ويلقانا ، فاذا سألنى أخبرته أنى أسلمت زورا ثم هربت فخرجت العرب فى طلبي فاذا سمع منى ذلك يصعد بنا الى حصنه وليكن مقدّم الألف بالقرب منا فى قرية هناك فاذا كان نصف الليل سرنا فى وسط الحصن ونضع السيف فى أعدائنا فاذا كان عند صلاة الفجر يأتينا أمير العرب بالألف الذى معه ، فلما سمع أبوعبيدة ذلك استنار وجهه واستشار خالدا ومعاذا فى ذلك فقالا ياأمين الأمة رأى سديد ان لم يغدر هذا الرجل ويرجع الى دينه . فقال أبوعبيدة ـ ان ربك لبالمرصاد ـ . فقال يوقنا انا والله رجعت عن دينى الى دينكم بعد ما كنت أعظم من تلك الصور والصلبان ومابقى فى قلبي سوى محبة الرحمن ومحمد سيد ولد عدنان والجهاد عن أفضل الأديان والله على ما أقول وكيل ، وحق الذى لاإله الاهو ، وحق محمد عبده ورسوله ﷺ الذى رأيته وعاينته فى المنام ان كنتم تظنون فىّ غير ذلك فلاتتركونى أفعل شيئا مما ذكرته لكم . فقال أبوعبيدة ياعبد الله ان أنت نصحت للمسلمين ولم تغدر بهم كان الله لك معينا فى كل ماتحاوله فاتبع الصدق تنج به فان ديننا مبنى على الصدق واتبع سنن إخوانك المؤمنين ، واعلم أن المؤمن الصادق قوته ماوجد ولباسه ماستر ومسكنه ماوجد فلايحزنك ماتركت من ملكك وحكمك وامارتك فان الذى تركته فان ، والذى تطلبه باق لأن نعمة الدنيا فانية والآخرة خير وأبقى ، واعلم أنك فى يومك هذا عار من الشرك ، واعلم أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر والمؤمن يتيقن أن القبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكره ، والقرآن حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره ، والجوع ادامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه والتقوى زاده ، والصمت غنيمته ، والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة

حرفته ، والجنة داره ، واعلم يايوقنا أن المسيح قال : عجبت لمن ليله غافل وليس بمغفول عنه ومؤمل دنيا والموت يطلبه وبان قصرا والقبر مسكنه ، وقد قال نبينا ﷺ من أعطى أربعا أعطى أربعا وتفسير ذلك فى كتاب الله تعالى : من أعطى الذكر ذكره الله عز وجل لأن الله تعالى يقول — اذكرونى أذكركم — ومن أعطى الدعاء أعطى الاجابة لأن الله تعالى يقول — ادعونى أستجب لكم — ومن أعطى الشكر أعطى الزيادة لأن الله تعالى يقول — لئن شكرتم لأزيدنكم — ومن أعطى الاستغفار أعطى المغفرة لأن الله تعالى يقول — استغفروا ربكم انه كان غفارا — .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى عامر بن قبيصة اليشكرى . قال حدثنى يونس ابن عبد الاعلى قراءة عليه قال شهر بن حوشب عن جده عامر بن زيد قال كنت ممن شهد فتوح الشام وكنت فى فتوح قنسرين وحلب مع أبى عبيدة وكنت كثيرا ماأصحب الروم الذين دخلوا فى ديننا فلم أرمنهم أشد اجتهادا ولا أخلص اعتقادا ولا أعظم نية ولا أحسن فى الجهاد حية ولا أبلغ فى قتال الروم من يوقنا ولقد نصح والله للمسلمين وجاهد فى الكافرين وأرضى رب العالمين ، ولقد فعل فى الروم مالم يقدر أحد عليه من أبناء جنسه من بعد ماقاسى المسلمون منه على قلعة حلب وماتركهم ينامون ولايقرون ليلا ولانهارا وماقتل من المسلمين رضى الله تعالى عنهم أجمعين :

ذكر فتح عزاز

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] لما وعظ أبوعبيدة يوقنا وفرغ من وعظه ضم اليه مائة فارس وألبسهم زى الروم قال وكان كل عشرة من قبيلة قال وهم من طىء وفهر وخزاعة وسنبس ونمير والحضارمة وحمير وباهلة وتميم ومراد وجعل على كل عشرة نقيبا ، فأما نقيب طىء فخزعل بن عاصم وعلى فهرفهر بن مزاحم وعلى خزاعة سالم بن عدى وعلى سنبس مسروق ابن سنان وعلى نمير أسد بن حازم وعلى الحضارمة ماجد بن عميرة وعلى حمير ملكهم ذوالكلاع الحيرى وعلى باهلة سيف بن قادح وعلى تميم سعد بن حسن وعلى مراد مالك بن فياض ، فلما كملوا قال لهم أبوعبيدة اعلموا رحمكم الله أنى مرسلكم مع هذا الرجل الذى وهب نفسه لله ورسوله وكل طائفة منكم عليها نقيب وقد وليته عليكم فاسمعوا له وأطيعوا مادام فى مرضاة الله عز وجل قال فلبسوا وركبوا وساروا معه ، فلما بعدوا بفرسخ أرسل وراءهم ألف فارس وأمر عليهم مالكا الأشتر النخعى وقال له سر فى أثر القوم وانظر مايكون من أمر هذا العبد الصالح . فاذا قربت منهذا الحصن فاكمن الى وقت السحر ثم تظاهر لاخوانك ، سروفقك الله وأرشدك ،فسار مالك يقدم قومه فساروا بقية يومهم ، فلما جن عليهم الليل كمنوا فى قرية بالقرب من الحصن وهى خالية من السكان . وأما ماكان من يوقنا فانه أخذ على غير طريق وسار طالبا عزاز .

[قال الواقدى] حدثنى سليمان بن عبد الله اليشكرى حدثنى الشديد بن مازن عن جده خزعل بن عاصم قال كنت فى خيل يوقنا لما وجهنا أبوعبيدة معه . قال لما شارفنا عزاز قال لنا

يوقنا اعلموا يافتيان العرب انا قد شارفنا هـذا العدو فاياكم أن يتـكلم أحد منـكم فان لغتـكم لاتخفى على الروم وأنا المترجم عنـكم وكونوا على يقظة من أمركم . فاذا رأيتمونى وقد بطشت بصاحب الحصن فثوروا على اسم الله تعالى ، ثم ساروا وليس عنده خبر من تواتر القدر .

[قال الواقدى] حدّثنى سليمان بن عبد الله اليشكرى . قال حدّثنى عبد الرحمن المازنى وكان ممن يكتب فتوح الشام . قال حدّثنى الأكوع بن عباد المازنى . قال كنت مع مالك الأشتر من جملة الألف حين سرنا فى أثر يوقنا صاحب حلب حتى اذا كنا فى تلك القرية ، ونحن ننتظر الصباح واذا نحن بجيش من ورائنا من غربى القرية فسار مالك الأشتر وقصد الحصن فغاب عنا غير بعيد وعاد ومعه رجل من العرب المتنصرة وقد أقبل به ، فلما صار بيننا قال يافتيان اسمعوا مايقول هذا الرجل فقلنا وما الذى يقوله ؟ قال اسألوه فانه يخبركم فسألناه وقلنا من أىّ الناس أنت قال من غسان من بنى عم جبلة بن الأيهم . فقال له مالك ما اسمك ؟ قال اسمى طارق بن شيبان . فقال له ياطارق بحق ذمة العرب لاتـكتمنا أمرا تعرفه من أعدائنا قال والله لا أكتم أمرا أعرفه ولـكن خذوا على أنفسكم قبل قدوم عدوّكم قال مالك ، وكيف ذلك قال لأنا البارحة ورد علينا جاسوس من عندكم وهو منا اسمه عصمة بن عرفجة ، وكان يسمع ماتناجيتم به من الحيلة التى أرادها يوقنا على صاحب عزاز ، فلما سمع الجاسوس منـكم ذلك كتب رقعة وربطها تحت جناح طير كان معه وأطلقه الى صاحب عزاز ، فلما قرأها أرسلنى الى صاحب الراوندات لوقا بن شاس يستنجده عليكم فمضيت اليه بالرسالة وهو قادم فى خمسمائة فارس وكأنـكم بهم وقد هجموا فخذوا حذركم .

[قال الواقدى] وأما ما كان من أمر يوقنا فانه سار حتى وصل الى الحصن فوجد صاحبه قد تجهز بنفسه ومعه أصحابه وهو خارج الحصن وكان اللعين يركب فى ثلاثة آلاف فارس من الروم وألف من العرب المتنصرة غير من التجأ اليه من السواد ، فلما قدم عليه يوقنا لم يوهمه فى شىء من أمره بل استقبله وترجل اليـه وأقبل كأنه يقبل ركابه وكان فى يده سكين أمضى من القضاء فقطع بها حزام فرس يوقنا وجذبه اليه واذا به قد وقع على أم رأسه فأطبق الأربعة آلاف على أصحاب رسول الله ﷺ ولم يمهلوهم حتى أخـذوهم قبضا بالـكف وشدوهم كتافا وبصق دراس فى وجه يوقنا ، وقال لقد غضب عليك المسيح والصليب اذفارقت دينك ودخلت فى دين أعدائك وحق المسيح لابد لى أن أبعثك الى الملك الرحيم هرقل يصلبك على باب انطاكية بعد ما أضرب رقاب هؤلاء العرب ثم انه أصعدهم إلى الحصن .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ومن خيرة الله للمسلمين أن الجاسوس لم يكتب لصاحب عزاز فى مكاتبته بسير مالك الأشـتر . قال وان مالـكا الاشتر لما سمع كلام المتنصر أيقظ أصحابه وربط المتنصر عنده وأقاموا ينتظرون صاحب الراوندات ، فلما راق الليـل سمعوا وقع حوافر الخيل فلم يكلمهم مالك حتى توسطوا الـكمين وأطبقوا عليهم ، فـكل اثنين ربطوا واحـدا من الروم وأخذوهم بالـكف ولم ينفلت منهم أحد ولبسوا ثيابهم ورفعوا راياتهم وصليبهم كما كانت ، ثم ان مالـكا قال للمتنصر هل لك أن ترجع الى دين الله عزّ وجل ودين نبيه محمد ﷺ فيمحو عنك ما سلف من الـكفر بالايمان وتبقى لنا من جـملة الاخوان ؟ . فقال ان قلبى ولبى عندكم فلاجزى الله من ألجأنا الى الدخول فى هـذا الدين خيرا وأنا والله من الطائفة التى هى أوّل من أسلم على يد عمر

ابن الخطاب وقد سمعنا من محمد ﷺ أنه قال من بدل دينه فاقتلوه . فقال له مالك لقد صدقت فى قولك ولكن انسخ هـذا الحديث بقول لاإله الا الله ، فقد قال الله تعالى — الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدّل الله سيآتهم حسنات — الآية ، وقبل رسول الله ﷺ توبة وحشى قاتل عمه حمزة فأنزل الله فيه الآيات ، فلما سمع الغسانى ذلك فرح وقال أنا أشهد أن لاإله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله والآن والله يامالك قد طاب قلبى وانجبر كسرى أخـذ الله بيدك وأنقذك الله يوم القيامة . قال ففرح مالك باسلامه ، وقال له وفقك الله وثبت ايمانك ، ثم قال له ياعبدالله انى أريد أن تمحو ماسلف منك بما تفعله . فقال وماتريد أيها الأمير ؟ . قال تمضى الى صاحب عزاز وتبشره بقدوم صاحب الراوندات الى نصرته . فقال أفعل ذلك ان شاء الله تعالى وان كنت فى شك من أمرى فأرسل معى من تثق به حتى يسمع ماأقول فان الليل قد انتصف والحرس شديد وباب الحصن مقفول وأنا أخاطبهم من شفير الخندق ، قال فأرسل معه مالك ابن عم له يقال له راشد بن مقبس ووصاه أن يكون مستيقظا فسارا جميعا الى أن وصلا الى الحصن فوجدا الحرس شديدا والروم تضرب بوقاتها والصوت عال فى وسط الحصن . فقال طارق لابن عم مالك ماهـذا وحق أبى الاقتال وضرب وحرب فأنصتا فاذا هو كما قال طارق .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان السبب فى ذلك أن ابن صاحب عزاز شاب شجاع يقال له لاوان كان أبوه دراس فى وقت يرسله الى يوقنا بالهدايا والتحف لما بينهم من القرابة وكان يقيم عنده أشهرا فى أعز مكان وانه حضر عنده فى بعض المرات فى عيد الصليب فى البيعة التى هى اليوم الجامع ، وكان يدخل فى كل وقت فرأى يوما ابنـة يوقنا وهى بين جواريها وخدمها وحشمها فوقع بقلبـه حبها فكتم أمرها وعاد الى عزاز وشكا حاله الى أمه وما كان لأبيـه ولد غيره وهى تجد له محبة عظيمة فقالت له أنا أخاطب أباك فى ذلك وألزمه أن يرسل ليخطبها من أبيها ويزوّجك بها ونبذل له من المال ماأراده وطلبه واشتغل قلب الشاب بحب الجارية ، وفى أثناء ذلك جاءت العرب الى بلادهم واشتغلت خواطرهم ، فلما وقع يوقنا فى يد أبيه وكان من أمره ما كان وقبض عليه وعلى المائة من المسلمين وحبسهم جميعا فى دار ولده لاوان ووصاه بحفظهم فقال لاوان فى نفسه وحق دينى ان ابن عمنا يوقنا أعلم من أبى بالأديان ولولا انه رأى الحق مع هؤلاء العرب ماتبعهم بعد ماقاتلهم أشد القتال وأيضا ان جيوش الملك ماساوتهم وان الله قد نصرهم على ضعفهم وانا قلبى متعلق بابنته وانى أرى من الرأى السديد أن أحل هؤلاء القوم من الوثاق وأرجع الى دينهم بعد أن أثق من ابن عمى أن يزوّجنى ابنته فانه على الحق وأنال ماأطلب بعـدها وأتزوّج ابنته ، فلما حدثته نفسه بذلك أقبـل الى يوقنا وجلس بين يديه وقال له ياعم انى عولت على ان أحل وثاقك أنت وأصحابك ، وقد اخترتك على أهلى وأبى وملكى وأنت تعلم ان فراق الاهل صعب واخترت الايمان على الكفر وقد علمت ان دين هؤلاء صحيح ، ولكن لى عليك شرط أن تزوّجنى ابنتك ومهرها عتقك أنت وهؤلاء الناس الذين معك . فقال يوقنا يابنىّ مالك الى زواجها من سبيل اذا كنت تدخل فيه لأجل غرض الدنيا وليكن دخولك فيه خالصا من قلبك حتى ان الله يأجرك على ماتفعله وأنا ان شاء الله تعالى أبلغك ماترومه وتنال عز الدنيا والآخرة فقال لاوان أنا أشهد أن لاإله الاالله وأشهد أن محمد رسول الله ، ثم حل وثاق يوقنا وأعطاه سلاحه

وحل المائة وأعطاهم سلاحهم ، وقال لهم كونوا على أهبة وأنا أمضى الى أبى وهو ممل بالخمر فأقتله وثوروا على بركة الله تعالى فى رضا الله فعندها قال يوقنا للمائة أشهدوا على أنى زوّجته ابنتى وجعلت صداقها عتقنا فقبل منه ومضى الى دار أبيه فوجد أباه مقطوع الرأس واخوته عنده، فقال لهم من فعل هذا بأبى ؟ قالوا نحن قال ولم ذلك ؟ . قالوا أردنا بذلك وجه الله وقد سمعناك وماتحدّثت به مع يوقنا وأصحابه نخفنا عليك أن لايتم لك هذا الأمر ويتكاثر الجمع على القوم ويبلغ أبانا خبرك فيقتلك فبطشنابه قبلك ، قال ففرح لاوان بذلك ورجع الى يوقنا وأصحابه وأعلمهم بماجرى فخرجوا من دار لاوان وتوسطوا الحصن ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير والسراج المنير ووضعوا السيف فى الروم، قال ووقع الصائح فى الحصن كما وصفنا وتبادرت الروم لقتال المسلمين ، وفى تلك الساعة قدم طارق ورفيقه قال فسمعنا الأصوات قال فرجعنا الى مالك وأعلمناه بما سمعناه . فقال مالك لأصحابه اركضوا لأصحابكم فركضوا خيولهم وخلف منهم مائة يحفظون الأسرى ، فلما قربوا من الحصن وكان يوقنا قد قال للاوان إن نجدة من المسلمين تأتينا فأتى لاوان فرأى المسلمين قد أتوافقتح لهم باب الحصن من باب السر وأدخلهم ، فلما حصل مالك الأشتر فى حصن عزاز نادى هو ومن معه الله أكبر فتح الله ونصر وخذل من كفر ، فلما رأى أهل الحصن ذلك رموا سلاحهم ونادوا الغوث الغوث فرفعوا عنهم السلاح وأخذوهم أسارى وشكروا ليوقنا ومن معه ، قال فحدّث يوقنا مالكا الاشتر بحديث الغلام لاوان فقال مالك اذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدّثنى قيس عن عقبة عن صفوان عن عمرو بن عبد الرحمن عن جبير عن أبيه . قال سألت أبا لبابة بن المنذر وكان ممن حضر فتوح الشام كيف كانت فتوح عزاز وقتل دراس فان نفسى تنكر هذا وأريد صحته ؟ . فقال لما وضعت الحرب أوزارها وجمع مالك الأشتر الأسارى والمال والثياب والذهب والفضة والآنية ، وأمر باخراج ذلك من الحصن ووكل به قيس بن سعد ، وكان ممن حضر وأصابه سهم فعوّره ، وكذلك أبو لبابة بن المنذر وكلاهما حضر بدرا مع رسول الله ﷺ فلم يبق أحد فى عزاز . ثم قام مالك فمشى فى الحصن وتفقد دراسا فوجده مقتولا ، فقال من قتل هذا اللعين ؟ ، فقال لاوان قتله أخى لوقا وهو أكبر منى سنا فأمر مالك باحضاره ، وقال لم قتلته وهوأبوك ؟ وما سمعنا ولدا قتل أباه من الروم سواك . فقال حملنى على ذلك محبة دينكم ، لأن فى بيعة هذا الحصن قسا من المعمرين ، وكنا نقرأ عليه الانجيل ويعلمنا بعلم الروم ، وانى كنت فى بعض الأيام فى البيعة أنا وهو وليس عندنا أحد وكان اسمه أبا المنذر ، فقلت له ياأبا المنذر ألا ترى الى بلاد الشام كيف استولت عليها العرب وملكوا أكثرها وهزموا جيوش الملك ؟ وما كنا نظن ان العرب تقدر على ذلك لأنه ليس فى الأمم أضعف منهم وان الله تعالى نصرهم على ضعفهم ، فهل قرأت ذلك فى كتب الروم أوملاحمهم أو ملاحم اليونانيين ؟ فقال يابنى نعم إنى قرأت ذلك ، ولقد أخبرنا الملك هرقل بذلك قبل وقوع هذا الأمر وجمع اليه الملوك والأساقفة والبطارقة وغيرهم ، وأخبرهم ان العرب لابد أن يملكوا ماتحت سريرى هذا ، ولقد بلغنا عن نبى القوم أنه قال « زويت لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها » فقلت له ياأبانا فماتقول فى نبى القوم ؟ قال له يابنى ان فى كتبنا

أن الله تعالى يبعث نبينا بالحجاز وقد بشر به عيسى المسيح بن مريم ، ولا ندرى أهو هذا أم لا ؟ فعلمت انه كتم عنى امره مخافة ان اذيع سره فكتمت ماقال لى البارحة ، فلما رايت يوقنا وأصحابه أسرى قلت هذا يوقنا قد قتل اخاه يوحنا وعاند العرب وقاتلهم ، ثم انه رجع إلى دينهم ، وما ذاك الا انه قد علم الحق معهم ، فقلت انا لنفسى قم أنت واقتل أباك وخلص يوقنا واصحابه وارجع الى دين هؤلاء فهو الدين الحق لاشك فيه ، فلما نام ابى بعد ماشرب الخمر وسكر قتلته وسرت الى خلاص يوقنا ومن معه فوجدت اخى لاوان قد سبقنى الى ذلك ، فقال له مالك ياغلام لم فعلت ذلك؟ قال محبة فى دينكم وانا اشهد ان لااله الا الله وان محمدا رسول الله ، فقال له مالك قبلك الله ووفقك . ثم خرج مالك من الحصن وولاه سعيدبن عمرو الغنوى وترك معه المائة الذين كانوا مع يوقنا وقدموا اليه صاحب الراوندات ومن معه فعرض عليهم الاسلام فابوا فضرب رقابهم .

[قال الواقدى] حدثنى عبدالملك بن محمد عن ابيه عن حسان بن كعب عن عبد الواحد عن عبد الله بن قرط الأزدى ان فتح عزاز كان هكذا ، والذى ذكر ان بنات دراس وزوجته قتلته لم يصح والله اعلم ، ثم ان مالكا الأشتر اراد ان يرحل فعرض عليه سبي عزاز فكان الف رجل من الشباب ومائتين وخمسة وار بعين رجلا من الشيوخ والرهبان وألفى امرأة من النساء والبنات ومائة وثمانين عجوزا ونظر الى شيخ من الرهبان مليح الشيبة واضح الهيبة ، فقال ان صدقت الفراسة فهذا القس الذى اخبرنى به لوقا واخوه لاوان فدعا بهما وقال : هذا هو القس الذى اخبرنى به لوقا ، فقال نعم فقال له ياشيخ اذا كنت من علماء اهل الكتاب فكيف تكتم الحق عن مستحقيه فقال : والله ما كتمت الحق عن مستحقيه ، ولكن خفت من الروم أن يقتلونى ، لأن الحق ثقيل وقد قتلوا الأبناء والاخوة وذلك لأجل الحق فكيف أنا . فقال له مالك أفتدخل فى ديننا ؟ فقال لست أدخل فيه الا اذا سألتكم عن مسائل وجدتها فى الانجيل . فقال له مالك هات ماعندك ، فلما أراد القس أن يتكلم وقع الصياح فى الحصن فارتاع الناس ووثب مالك لينظر ماخبر الناس ؟ وظن أن الروم قد غدرت بهم و إذا بأناس من المسلمين الذين بالحصن يقولون أيها الأمير خذوا حذركم فانا نرى غبرة على طريق منبج و بزاعة ولا ندرى ماهى فركب مالك ومن معه ووقفوا ينتظرون ماذاك واذا قد لاح من تحتها خيول الاسلام وهم يسوقون السبايا والأموال والرجال وهم مشدودون فى الحبال ووراءهم ألف فارس من المسلمين وأميرهم الفضل بن العباس رضى الله تعالى عنه ، وكان قد أرسله أبو عبيدة حتى غازى منبج والباب و بزاعة فوقع التكبير فى الفريقين وسلم بعضهم على بعض وسأل الفضل مالكا عن قصته فحدثه أن الله قد فتح عزاز وأذل من فيها ، وحدثه بما كان من حديث يوقنا ، وانى مامنعنى من الرحيل الا هذا القس وسؤاله ، فقال له الفضل أيها القس قل ماأنت قائل ، فقال القس أخبرنى عن أى شيء خلقه الله تعالى قبل خلق السموات والأرض ؟ فقال الفضل : أوّل ماخلق اللوح والقلم و يقال العرش والكرسى و يقال الوقت والزمان ، و يقال العدد والحساب ، و يقال أوّل ماخلق الله جوهرة فنظر اليها فصارت ماء ، ثم خلق العرش ياقوته وكان عرشه على الماء ، و إنه نظر الى الماء فاضطرب وارتعد وصعد منه دخان فخلق الله منه السماء ، ثم خلق الأرض ، وقيل خلق أوّلا العقل لأنه أراد أن ينتفع به الخلق ، وقيل أول ماخلق الله نورا وظلمة ، ثم دعاهما الى الاقرار فانكرت الظلمة وأقر النور ، فخلق منه

الجنة لرضاه عنه ، وخلق النار من الظلمة لسخطه عليها ، وخلق أرواح السعداء من النور وأرواح الأشقياء من الظلمة ، فلاجل ذلك كل منهم يرجع الى مستقره ،ويقال أوّل ماخلق الله نقطة فنظر اليها بالهيبة فتضعضعت وسالت ألفا فجعلها مبدأ كتابه العزيز فسبحان من ألف كتابه من نقطة ، وخلق خلقه من نقطة ، ثم يميتهم بقبضة ويحييهم بنفخة . فلما سمع القس ذلك من كلام الفضل ابن العباس . قال : أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، هذا هو العلم الذى استأثر به أنبياء الله تعالى . فلما نظر أهل عزاز الى قسهم وقد أسلم أسلموا عن آخرهم الا قليلا منهم والله أعلم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدّثنى عامر بن يحيى عن أسد بن مسلم عن دارم بن عياش عن جده . قال لما أسلم أهل عزاز باسلام قسهم الذى كان معتقدهم عوّل الفضل ومالك على المسير إلى حلب ، فقال يوقنا أنا والله مالى وجه أقابل به المسلمين ، لأنى كنت قلت قولا ودبرت أمرا فلم يتم لى وإنى سائر إلى أنطاكية فلعلّ الله أن يظفرنى بالاعداء وينصرنى عليهم ، فقال له الفضل ان الله تعالى . قال لنبيه ﷺ ليس لك من الأمر شىء فلا تحمل قلبك هما ، فقال ودين الاسلام لاأرجع الا بأمر يبيض الله به وجهى عند اخوانى المسلمين ، فنظر وقد صحبه مائتان من بنى عمه ممن قد رسخ فى قلوبهم الايمان ولهم عيال وأولاد فى حلب فاخذهم يوقنا وسار يريد انطاكية ، فلما قرب من أرضها أخذ منهم أربعة وأمر الباقى أن يتعوّقوا خلفه أربعة أيام ، ثم يأتوا كأنهم هاربون من العرب ليتم مادبره فى خاطره وسار هو والأربعة على طريق حارم والباقى على طريق أرتاح ، وقال لهم الميعاد بيننا أنطاكية ففعلوا ذلك وساروا وسار هو الى أن أشرف على دير سمعان المشرف على البحر ، فوجد هناك خيلا ورجالا يحفظون الطرقات ، فلما رأوا يوقنا والأربعة معه بادروا اليهم واستخبروهم عن حالهم ، فقال لهم يوقنا انا صاحب حلب وقد هربت من العرب فوكل بهم صاحب الدرك جماعة وأمرهم ان يسيروا بهم الى الملك فأخذتهم الخيل وأتوا بهم اليه فوجدوه فى كنيسة الفتيان يصلى ، فوقفوا حتى فرغ من صلاته فاوقفوا يوقنا بين يديه ، وقالوا ايها الملك ان بطرس صاحب الحرس الذى عند دير سمعان ، قد وجه بهذا ومن معه اليك ويزعم انه صاحب حلب ، فلما سمع هرقل ذلك . قال له يايوقنا ماالذى اتى بك وقد بلغنى انك دخلت فى دين العرب ؟ ، فقال ايها الملك لقد بلغك الحق ، وذلك انى ماالسلمت الا لمكيدة القوم حتى اتخلص من شرهم ومن كراهة منظرهم ونتن رائحتهم ، وإنى قلت لهم اسلم اليكم حصن عزاز وأقتل صاحبها واخذت منهم مائة سيد من ساداتهم وسرت بهم ، وأمرت ان ينفذ ورائى الف حتى اذا صاروا داخل الحصن اقبض عليهم وارسلهم اليك فجعل دراس علىّ ولم يفهم ماأضمرته ووثق بكلام جاسوسه ولم يثق بكلامى ، فقبض علينا فأتت العرب ووضعت السيف فى اهلها ، وذلك أن لوقا قتل أباه رجل من العرب وانا من جملتهم ، فلما اشتغلوا بالقتال والنهب هربت انا وهؤلاء الأربعة وجئنا اليك ، ولولا محبتى فى دينى ما كنت قتلت أخى يوحنا وصبرت على قتال العرب وحصارهم سنة كاملة .

[قال الواقدى] فاعانته البطارقة والملوك الذين كانوا حاضرين ، وقالوا صدق يوقنا أيها الملك ، وسيظهر لك فعله وعمله وجهاده ، فانبشّ وجه الملك لذلك وخلع عليه من لباسه الذى هو عليه

وسوّره ومنطقه وتوّجه ، وقال له : ان كانت حلب أخذت منك فانى وليتك على انطاكية وأعطاه وظيفة دمستقها وسكندرها يعنى واليها .

[قال الواقدى] فسمع يوقنا له ودعا له . فبينما هو كذلك إذ أتى اليه الموكل بجسر الحديد وأخبر الملك أنه قد قدم عليهم مائتا بطريق من فرسان حلب ، وهم يزعمون أنهم من بيت واحد من الرومية من بنى عم يوقنا ، وانهم قد هربوا من العرب ، فلما سمع ذلك قال ليوقنا : أيها الدمستق والسكندر قم واركب واشرف على هؤلاء القوم ، فان كانوا من بنى عمك فأهل بهم وضمهم اليك ليكونوا عسكرك ، وان كانوا غير ذلك فات بهم لأرى فيهم ماأرى ، واياك أن يكونوا من قبل العرب ممن رجع إلى دينهم من أهل سيجر وحماة والرستن وجوسية و بعلبك ودمشق وحوران ، فقال نعم أيها الملك فركب وركبت معه الفرسان من الملكية والسريرية ، وأتوا إلى جسر الحديد وأمر أصحاب الدرك أن يأتوا بالمائتين ، فلما رآهم يوقنا رحب بهم ونظروا اليه وهو فى ذلك الزى والحشمة وخلعة الملك عليه ، فترجلوا وقبلوا ركابه ، فقال لهم كيف خلصتم من أيدى العرب ؟ ، فقالوا أيها السيد اننا خرجنا مع أمير من امرائهم وأغرنا على منبج و بزاعة ، فلما رجعنا نريد حلب أخذنا على عزاز فوجدناهم قد ملكوها ، فلما كان الليل تركناهم وأتينا .

[قال الواقدى] وهذا كله وحجاب الملك يسمعون ، فلما حضروا أخبروا الملك بذلك ودخل يوقنا بهم على الملك فخلع عليهم وأنزلهم وأمرهم أن يكونوا فى خدمة يوقنا وأعطاه دارا بازاء قصره ، فقال يوقنا أيها الملك أنت تعلم أن هذه الدار لايدوم نعيمها ، وان السيد المسيح شبهها بالجيفة ، وطلابها بالكلاب يتجاذبونها . كما روى عن المسيح أنه رأى طائرا حسنا مزينا بكل زينة، فنزع جلده فرآه أقبح ما يكون منظرا ، فقال له من أنت ؟ . قال أنا الدنيا ظاهرى مليح و باطنى قبيح ، وإنما ضربت لك هذا المثل أيها الملك لتعلم أنه ماخلا جسد من حسد ، و إذا أقبلت الدنيا على أحد كثرت حساده ، وأنا أخاف من الحساد أن يتكلموا فىّ عند الملك و يرمونى بالبهتان و بما لاأفعله ، فان كان الملك ينفر منى فليول هذه الوظائف غيرى وأنا ماأبرح على ركابك . ثم انه بكى ، فقال له الملك أيها الدمستق ماوليتك هذا الأمر الا وقلبى وخاطرى واثق بك ، ومن تكلم فيك بشىء سلمته اليك تفعل به ماتريد ، فشكره يوقنا وأراد الخروج إلى وظيفته التى ولاه اياها ، واذا بخيل البريد قد أقبلت من مرعش وهم رسل ابنته زيتونة ، وانها خائفة من العرب ، وهى تريد القدوم عليك حتى ترى مايئول من الأمر ، وانها تسألك أن ترسل لها جيشا يوصلها اليك ، فلما سمع الملك ذلك . قال ليس لهذا الأمر الا الدمستق يوقنا ، فقبل الأرض وقال السمع والطاعة لأمرك فضم اليه ألف فارس ومائتين من أصحابه من المدبجة والقياصرة .

[قال الواقدى] فسار بالألفين والمائتى فارس وقد رفع الصليب فوق رأسه وجنبت الجنائب وعليها الرخوة المذهبة ، وسار يجد السير الى أن وصل الى مرعش وأخذ زيتونة بنت هرقل ، وهى الصغرى ، وكان الملك قد ولاها على تلك البلاد وزوّجها بنوسطير بن حارس ، وكانوا يسمونه سيف النصرانية لشجاعته ، وكان قد قتل على اليرموك من جراحات أصابته .

[قال الواقدى رحمه الله ورضى عنه] فلما أخذ يوقنا ابنة الملك وعاد يطلب بها انطاكية أخذ على الجادة العظمى لعله يلقى أحدا من جواسيس المسلمين أو يرى معاهدا فيرسله ليعلم

أبا عبيدة انه قد تمكن من الملك ومن البلد ، فلما وصل مرج الديباج ، وكان ليلا واذا بخيله التى على مقدّمته قد أتته وهم مذعورون ، فقال لهم مابالكم ، فقالوا له أيها السيد الدمستق ان هناك عسكرا نازلا فقر بنا منهم فاذاهم عرب وهم نيام ولاشك أنهم مسلمون ، فقال لهم خذوا أهبتكم وأيقظوا خواطركم وانصحوا لدينكم وجاهدوا عدوّكم وقاتلوا عن ابنة الملك ولا تسلموها الى أعدائها وكونوا خير جند قاتل عن نعمة صاحبه ، واذاتمكن الحرب بيننا و بينهم فاعتمدوا على الأسر واياكم والقتل واعلموا أن العرب وأميرهم لابد لهم أن يقصدوا الملك ومن معه ، فان أسروا منا أحدا يكن عندنا الفداء ، فقد وجدت فى كتاب حرقناس الحكيم : إن من نظر فى عواقب زمانه توشح بوشاح أمانه ، ومن أهمل أمره خاف حذره ، ومن أكثر الغدر حلّ به الأمر ، سيروا على بركة الله .

[قال الواقدى] فشرّعوا الأعنة وقوّموا الأسنة وقصدواذلك العسكر ، فلما أحسوابهم بادروا اليهم واستقبلوهم وهم ينادون بعيسى بن مريم والصليب المفخم من أنتم ؟ . فقال لهم يوقنا ومن أنتم ؟ فقالوا نحن أصحاب جبلة بن الأيهم ، فلما سمع يوقنا ذلك ترجل عن دابته وسلم عليه وسلمت العرب المتنصرة على الروم ، فقال جبلة من أين جئتم ؟ فقال له من مرعش ومعى ابنة الملك وأنتم من أين جئتم ، فقال جبلة من العمق وقد أتينا بميرة أهلها ، فلما رجعت ووصلت الى مرج دابق لقيت كتيبة من فرسان المسلمين وهم زيادة عن مائتى فارس وهم لايسون زينا ، فلما وصلنا اليهم ابتدرونا بعزم شديد وحرب عتيد واذا مقدمهم لايصطلى له بنار فلقد أباد منا رجالا وجندل منا أبطالا ونحن فى ألفى فارس وهم مائتان وكان فينا كالنار المحرقة فمازلنا نقاتلهم حتى أسرناهم بعد ماقتل الفارس منهم الفارس والاثنين والثلاثة منا و بقى أميرهم الى آخر الناس فقصدنا جواده بالسهام حتى قتلناه ووقع فهجمنا عليه وأخذناه أسيرا . فاذا هو من أصحاب محمد وهو ضرار بن الأزور ونحن قاصدون بهم الى الملك هرقل ليرى فيهم رأيه فاظهر لهم يوقنا الفرح ، وقال وحق دينى لقد فزت بالفخر بأسرك هؤلاء وهذا الغلام ، فلقد بلغنى عنه مافعل بأبطال الشام وفرسان الروم ، ثم سار القوم جميعا يطلبون أنطاكية .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى الشريد بن عاصم عن شروان بن مجزّل عن قادم ابن بشر عن زائدة بن معمر . قال حدثنا بشار عن عوف عن صالح بن عبد الله عن جده مسروق ، قال المؤلف : وحدثنى هذا الحديث عباد بن عاصم عن عمران بن حصين . قال لمافتح المسلمون حصن عزاز وترك مالك الأشتر عليها سعيد بن عمرو الغنوى والتقى بالفضل بن العباس ورجعا بالغنائم الى حلب استبشر أبو عبيدة بسلامة الناس و بفتوح عزاز فسأل مالكا عن يوقنا خدثه فما بينه و بينه سرا وأنه قصد أنطاكية ليدخل على كلب الروم بحيلة ولم يكن له وجه يعود اليك به ، فقال أبو عبيدة الله ينصره و يظفره و يغفرله ، فلقد ظهر لنامنه مالم يكن لنا فى حساب ، ثم انه كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبى عبيدة عامر بن الجراح الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سلام عليك . فانى أحمد الله الذى لاإله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ أمابعد . فان الله سبحانه له المنة علينا التى يستوجب بها الحمد من جميع المسلمين اذ فتح علينا مستصعب قلاع الكفر وحصونه وأذل لنا ملوكهم وأورثنا

أرضهم وديارهم وان سبحانه قد فتح علينا قلعة حلب وأردفها بحصن عزاز وان البطريق يوقنا صاحب حلب قد أسلم وحسن اسلامه وقد صار عونا للمسلمين على الكافرين من بعد ماقاسينا منه ماالله عالم به فالله يجازيه فلقد نصر الله به الدين ونصح للمسلمين وأباد المشركين ، وقد دخل أنطاكية يدبر حيلة على كلب الروم ، وقد ألقى بنفسه الى الهلاك فى طاعة الله ورسوله ، ولقد كتبت هذا الكتاب ونحن معوّلون على المسير الى أنطاكية نقصد طاغية الروم فما بقى حصن سواه لاعدائنا قريبا منا ونحن طامعون فى أخذه وأخذ سريره وكنوزه كما وعدنا رسول الله ﷺ فزودنا بالدعاء منك فانه سلاح المؤمنين ودمار الكافرين ، والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته . ثم انه أخرج الخمس وسلمه الى رباح بن غانم اليشكرى وضم اليه مائتى فارس من المسلمين فيهم قتادة وسلمة بن الأكوع وعبد الله بن بشار وجابر بن عبد الله ومثل هؤلاء رضى الله تعالى عنهم فأخذوا الخمس وساروا . ثم ان أبا عبيدة دعا بضرار بن الأزور وضم اليه مائتى فارس وأمره ان يشن الغارة فركب ضرار وكان معهم سفينة مولى رسول الله ﷺ ولم يزل ضرار سائرا هو ومن معه ومعهم رجال من المعاهدين يدلونهم على الطرق حتى وصلوا الى مرج دابق ، وكان وقت السحر ، فقال لهم المعاهد ارفقوا على خيولكم فنزلوا وأراحوها بقية يومهم وليلتهم حتى اذا كان وقت السحر فما شعروا الاوجبلة كبسهم ، فلما وقع الصياح ركب ضرار وركب معه نحو مائة فارس وأما المائة الأخرى فقد دهمتهم خيول المتنصرة فلم يتمكنوا من الركوب فقاتلوا رجالا فنفرت خيولهم ووصل اليهم عدوّهم حتى انه قتل كل واحد خصمه وتكاثرت عليهم الخيل فأسروا المائة وأما ضرار فانه صاح بالمائة الثانية ، وقال يافتيان العرب ان أعداءكم قد هاجوكم على حين غفلة منكم وهم عرب مثلكم وهذه أفضل الساعات عند الله فقووا عزمكم ولاتفشلوا فانتم تعلمون أن النبى ﷺ . قال «الجنة تحت ظلال السيوف» وقد قال الله تعالى ـ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ـ . قال ميسرة بن عامر ، وكان من جملة من حضر معنا فى مرج دابق ربيعة بن معمر بن أبى عوف وهو ابن عم ربن ربيعة الشاعر وكان ربيعة من فصحاء العرب لايتكلم الابالسجع كلامه ينظم بحسن مقاله وكنا نصغى اليه اذا سجع ونحفظ منه ، فلما سمع ضرارا وهو يحرضنا . قال : يافتيان العرب لن تنالوا الجنة الابالصبر على المكاره ، ووالله لن يدخلها من هو للجهاد كاره :

وللهِ فى عرض السموات جنة ولكنها محفوفة بالمكاره

وأعلى الدرجات درجة الشهادة ، فارضوا عالم الغيب والشهادة فهذا الجهاد قد قام على ساقه وكسد النفاق فى أسواقه واختنى بنفاقه فى انفاقه أماأنتم أصحاب نبى العصر ؟ ولم يئستم من الثبات والنصر ؟ بشروا روح المصطفى بثباتكم وقووا العزم بصفاء نياتكم ، وإياكم أن تولوا الأدبار فتستوجبوا غضب الجبار ، واعلموا ان النصر والثبات جندان منصوران فمن طلب دار البقا هان عليه الملتقى فصححوا طلبتكم تنالوا رحمة ربكم ، وحققوا حملتكم تنالوا بغيتكم واطعنوا النحور تنالوا الحور وتسكنوا القصور وقوّموا الأسنة تنالوا الجنة واعتمدوا على الصبر تنالوا النصر واياكم أن توافقوا الكفار فى حالهم واعدلوا عن طريق قولهم . قال العالم بحالهم وفعلهم ـ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ـ . قال سمرة

ابن غانم والله لقد دهشت أنفسنا بقوله وحملنا على المتنصرة وضرار ينشد .

ألا فاحملوا نحو اللئام الكواذب ... لترووا سيوفا من دماء الكتائب
وردوا عن الدين المعظم فى الورى ... وارضوا إله العرش رب المواهب
فمن كان منكم يبتغى عتق ربه ... من النار فى يوم الجزا والمآرب
فيحمل هذا اليوم حملة ضيغم ... ويرضى رسولا فى الورى غير كاذب

[قال الواقدى] ثم حمل ضرار ونحن من ورائه وبذلنا نفوسنا وروينا سيوفنا ورماحنا من المتنصرة وجرى الحرب بما لا يوصف وضرار فيهم كانه النار فى الحطب اليابس وجبلة بن الأيهم يتعجب من حملاته وضرباته فأمر قومه أن يقصدوا جواده بسهامهم ، ففعلوا ذلك فانصرع الجواد ووقع ضرار فتكاثروا عليه وأخذوه أسيرا وأخذوا بقية أصحابه وساروا يريدون أنطاكية فالتقوا بيوقنا وابنة الملك كما ذكرنا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ولقد حدثنى معمر بن رواحة عن القاسم عن خزامة بن عمرو وعن أبى المنذر أن سفينة مولى رسول الله ﷺ كان فى حرب ضرار بن الأزور أسيرا ، فلما كان الليل انطلق هاربا يلتمس الوصول الى أبى عبيدة ، فاذا هو بأسد عارضه . فقال سفينة يا أبا الحرث أنا مولى رسول الله ﷺ وكان من أمرى كيت وكيت فقرب منه وهو يبصبص بذنبه حتى وقف الى جانبه وأشار اليه برأسه أن سر فسرت وهو الى جانبى حتى أتى بى الى بلد من صلحنا فتركنى ومضى .

[قال الواقدى] فلما وصل سفينة الجيش حدث الناس بأسر ضرار ومن معه فصعب ذلك على المسلمين وبكى أبو عبيدة وخالد بن الوليد على أسرهم ، وقالا لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم و بلغ ذلك أخته خولة . فقالت — إنا لله و إنا اليه راجعون — يا بن أمى ليت شعرى فى السلاسل أوثقوك ، أم بالحديد قيدوك ، أم فى البيداء طرحوك ، أم بدمائك خضبوك ، وأنشدت تقول :

ألا مخبر بعد الفراق يخبرنا ... فمن ذا الذى ياقوم أشغلكم عنا
فلو كنت أدرى أنه آخر اللقا ... لكنا وقفنا للوداع وودّعنا
ألا ياغراب البين هل أنت مخبرى ... فهل بقدوم الغائبين تبشرنا
لقد كانت الأيام تزهو لقربهم ... وكنا بهم نزهو وكانوا كما كنا
ألا قاتل النوى ما أمرّه ... وأقبحه ماذا يريد النوى منا
ذكرت ليالى الجمع كنا سوية ... ففرقنا ريب الزمان وشتتنا
لئن رجعوا يوما الى دار عزهم ... لثمنا خفافا للمطايا وقبلنا
ولم أنس إذ قالوا ضرار مقيد ... تركناه فى دار العدوّ ويممنا
فما هذه الأيام الا معارة ... ومانحن الا مثل لفظ بلا معنى
أرى القلب لا يختار فى الناس غيرهم ... اذا ما ذكرهم ذاكر قلبى المضنى
سلام على الأحباب فى كل ساعة ... وان بعدوا عنا وان منعوا منا

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ولقد بلغنى عن واصل بن عوف انه قال اجتمعت النساء من العربيات ممن كان لهم أسير مع ضرار عند خولة ومن جملتهم مزروعة بنت عملوق الحيرية

وكانت من فصحاء زمانها ، وكان ولدها صابر بن أوس فيمن أسر مع ضرار فجعلت تندب ولدها وتقول :

أيا ولدى قد زاد قلبي تلهبا ... وقد أحرقت منى الخدود المدامع
وقد أضرمت نار المصيبة شعلة ... وقد حميت منى الحشا والأضالع
وأسأل عنك الركب كى يخبرونى ... بحالك كيما تستكن المدامع
فلم يكن فيهم مخبر عنك صادقا ... ولا منهم من قال انك راجع
فياولدى مذ غبت كدرت عيشتى ... فقلبي مصدوع وطرفى دامع
وفكرى مقسوم وعقلى موله ... ودمعى مسفوح ودارى بلاقع
فان تك حيا صمت لله حجة ... وان تكن الأخرى فما العبد صانع

فقالت لهن سليمى بنت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وكانت من الزاهدات العابدات أبهذا أمركن الله ؟ انما أمركن بالصبر ووعدكن على ذلك الأجر ، أما سمعتن ماقال الله سبحانه وتعالى — الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون — فاصبرن تؤجرن فسكتن عن البكاء .

[قال الواقدى] ولما ورد الخمس على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكتاب أبى عبيدة مع رباح بن غانم اليشكرى وقع الصائح فى المدينة بقدومه ، فاجتمع الناس الى المسجد ليسمعوا ما تجدد من أمر المسلمين ، فلما دخل رباح المسجد بدأ بالسلام على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى قبر أبى بكر وصلى ركعتين وأتى الى عمر وقبل يده وعرض عليه الكتاب فقرأه على المسلمين فضجوا بالتهليل والتكبير وصلوا على البشير النذير ، وأخذ الخمس وكتب الى أبى عبيدة يأمره بالمسير الى أنطاكية ولا يصده عن ذلك شئ وورد الجواب مع رباح اليشكرى .

[قال الواقدى] أخبرنى مازن بن عبد ربه عن مالك بن أسيد عن جده مروان بن الجرير ان الجواب لما ورد على أبى عبيدة سار من يومه يطلب أنطاكية . قال وأما ما كان من أمر يوقنا رحمه الله تعالى وجبلة بن الأيهم لعنه الله فانهم ساروا الى أنطاكية وسبق البشير الى الملك هرقل بقدوم ابنته مع يوقنا وقدوم يوقنا ومعه المائتا أسير من المسلمين فأمر بتزيين البلد والبيع فأظهرت الروم زينتها ودفعت الصدقات الى الفقراء وأخرج موكب الروم الى لقائهم مع ابن أخيه فى زينة عظيمة ودخل القوم وهم فى زيهم وحشمهم وكان يوما مشهودا وقد ترجلت الملكية والسريرية بين يدى ابنة الملك وخرج كل من بانطاكية وقدموا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامها وهم مشدودون والروم تشتمهم وتبصق عليهم وقد دارت بهم الرجال والبطارقة ودخلت ابنة الملك الى قصر أبيها .

[قال الواقدى] ودخل جبلة بن الأيهم ويوقنا على الملك فخلع عليهما وعلى كبار أصحابهما ، ثم انهم أحضروا الصحابة وأوقفوهم بين يديه وهم فى الحبال ، فلما وقفوا صاحت بهم الحجاب اسجدوا الى الأرض تعظيما للملك فلم يلتفتوا الى قولهم ولا اعتنوا به . فقال لهم الحاجب الكبير مامنعكم أن تعظموا الملك بالسجود بين يديه . فقال لهم ضرار لايحل لنا أن نسجد لمخلوق وقد نهانا نبينا صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى سهل بن برقان رضى الله تعالى عنه عن السائب بن حازم عن الحكم بن مازن . قال لما وقف ضرار والصحابة بين يدى هرقل خاطبهم من غير ترجمان وأراد الملك أن يسمع بطارقته وحجابه بما كان يحدثهم به حين بعث النبي ﷺ ، وذلك أنه جمعهم إليه لما بلغه أن النبي ﷺ قد ظهر وقال هذا هو النبي المبعوث الذى بشر به عيسى بن مريم وهو صاحب الوقت ولابد لدينه أن يظهر حتى يملأ المشرق والمغرب ، ثم ان هرقل دعاهم لأداء الجزية فأرادوا قتله فأراد ذلك اليوم أن يبين لهم حقيقة قوله وانه أراد بذلك الاصلاح لهم ولحالهم . فقال لضرار ومن معه من يخاطبنى منكم عما أسأله من العلم ؟ فأشاروا الى قيس بن عاصم الأنصارى رضى الله تعالى عنه وكان شيخا معمرا وكان شاهد جميع أحوال رسول الله ﷺ ومعجزاته وغزواته ، فلما أشاروا اليه قال للملك قل ما أنت قائل أيها الملك . قال هرقل كيف نزل على نبيكم الوحى أول مبتدإ أمره . فقال قيس ابن عاصم «سأل هذا السؤال لنبينا ﷺ رجل من مكة يقال له الحرث بن هشام . فقال لرسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى أحيانا مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فينفصم عنى وقد وعيت عنه ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول . قال قيس : ولقد كان ينزل عليه فى اليوم الشديد البرد فينفصم عنه وان جبينه ليرفضّ عرقا ، فأوّل مابدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لايرى رؤيا الاجاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه : أىّ يتعبد الليالى ذوات العدد ، فلم يزل كذلك حتى جاءه الملك وقال له اقرأ . فقال لست بقارئ . قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى وقال لى اقرأ فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى وقال لى اقرأ فقلت لست بقارئ فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال — اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم — فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف بها فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها . فقال زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فأخبر خديجة وقال لها لقد خشيت على نفسى . فقالت له خديجة : كلا لايخزيك الله أبدا انك تصل الرحم وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر والحق ، وذكر الحديث بطوله . قال رسول الله ﷺ بينما أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا أنا بالملك الذى جاءنى بحراء وهو جالس على كرسى بين السماء والأرض فخشيت منه رعبا فرجعت الى خديجة فقلت دثرونى دثرونى فأنزل الله تعالى — يا أيها المدثر قم فأنذر — الآية ، ثم حمى الوحى وتتابع ، ولقد كنت معه يوما فى المسجد إذ دخل رجل ومعه بعير له فأناخه بالباب وعقله ودخل وقال السلام عليكم فرددنا عليه السلام . فقال أيكم محمد ؟ فقلنا هذا الأبيض الوجه . فقال له الرجل يا ابن عبد المطلب قد أتيت أسألك مشددا عليك فلا تجد علىّ فى نفسك . فقال له سل عما بدالك . فقال بربك ورب من قبلك آلله أرسلك الى الناس كلهم كافة ؟ . قال اللهم نعم . قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة ؟ . قال اللهم نعم . قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟ . فقال اللهم نعم . فقال أنشدك بالله آلله أمرك ان تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ . فقال اللهم نعم . فقال الرجل آمنت بما جئت

به وأنا رسول من ورائى من قومى : أنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر . فقال هرقل بحق دينك ما الذى رأيت من معجزاته . قال كنت معه فى سفر فأقبل اليه أعرابى فدنا منه . فقال له النبيّ ﷺ أتشهد أن لا إله الا الله وأنى محمد رسول الله . قال الأعرابى ومن يشهد بما تقول فقال النبى صلى الله عليه وسلم هذه الشجرة ، ثم ان النبى ﷺ دعا الشجرة وهى بشاطئ الوادى فأقبلت اليه وهى تخط الأرض حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاث مرات . فقالت أنت محمد رسول الله ، ثم أمرها فرجعت الى منبتها . فقال هرقل انا نجد فى كتابنا ان الرجل من أمته اذا عمل السيئة كتبت عليه واحدة وان عمل الحسنة كتبت له عشرا . قال قيس بن عاصم هذا فى كتابنا . قال الله تعالى ـ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها ـ فقال هرقل : أعلم ان النبيّ ﷺ الذى بشر به عيسى المسيح هو الشاهد على الناس يوم القيامة . فقال قيس هو نبينا ، قال الله تعالى فى كتابه العزيز ـ يا أيها النبيّ انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا ـ الآية : أماشهادته فى العقبى فهو قول ربنا فى كلامه القديم ـ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ـ . فقال هرقل : ان الذى وصفته لك هو الذى يأمر العباد أن يمضوا اليه فى حياته و يصلوا عليه فى حياته و بعد وفاته . فقال قيس هو نبينا صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى فى كتابه العزيز ـ ان الله وملائكته يصلون على النبيّ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ـ قال هرقل ان الذى وصفه المسيح يعرج به الى السماء و يخاطبه العلىّ الأعلى . فقال قيس هو والله نبينا صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى فى حقه ـ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ـ » .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان فى ذلك الوقت بترك الروم وهو رأس دينهم جالسا يستمع هذا الكلام فالتفت هذا البترك الى الملك وقال له أيها الملك ان الذى ذكره عيسى لم يبعث بعده ولا قبله بل هى تأويل كاذبة . فقال ضرار بن الأزور كذبت فى وجهك وكذبت هذه اللحية الملعونة المخزية يا كلب الروم أنت من أمثالك من يكذب عيسى عليه السلام و ينكر بعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، أما تعلم أن عيسى قرأه فى الانجيل وموسى قرأه فى التوراة وقرأه داود فى الزبور ، وان نبينا المبعوث بخير الأديان المشهود له بالنبوّة والرسالة فى كتاب الله العزيز وجميع الكتب المنزلة على الأنبياء من قبله ، وهو نبينا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب المكى ، ولكن حجاب الكفر منعكم عن معرفته ، فلما أن سمع هرقل من ضرار هذا الكلام قال له لقد أسأت الأدب فى المجلس إذ خرجت بعمدة دين النصرانية فمن أنت . فقال له قيس بن عاصم: هذا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ضرار بن الأزور ولا تتكلم فى حقه بكلام قبيح . فقال الملك هذا الذى بلغنى عنه انه يقاتل مرة راجلا ومرة فارسا ومرة عاريا ومرة لابسا . قال نعم فعندها سكت ولم يتكلم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] ولقد بلغنى ان البترك لما سمع خرق ضرار به أبدى الغضب بعد الابتسام ولحقه غيظ شديد ماعليه من مزيد وقام من حضرة الملك قال وغضب البطارقة والحجاب لغضب البترك ، فلما رأى الملك غضبهم خاف على نفسه منهم . فقال قطعوه بسيوفكم وامحوا أثره . قال فنزلوا عليه بالسيوف وضربوه ضربات شديدة وكانت عدة تلك

الضربات مائة وأربع عشرة ضربة الا أنها غير قاتلة لما يريده الله من لطفه الخفى فى حياته ونجاته ، فلما رأى البترك هذه الفعال سكن غضبه وقال اقطعوا لسانه ، فلما ان رأى يوقنا ذلك الأمر وتحقق هذا الكلام منهم . قال فى نفسه والله لا أترك هذا اللعين يتمكن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقدم الى الملك وقبل الأرض ودعا بدوام الملك والنعم ، وقال أيها الملك ان هذا ليس بصواب وان من الرأى السديد عندى أن تترك هذا الغلام حتى يصح فاذا عاد الى صحته أخرجناه الى باب المدينة وصلبناه تشفى صدور الروم لانه قد أثر فيهم كلامه الذى تكلمه وقد قتل من آبائهم وأبنائهم واخوانهم ، وأيضا يبلغ الخبر الى المسلمين باهانته وضربه فيوهنوا بذلك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] انما أراد يوقنا بذلك أن يخلص ضرارا منه ، وقال فى نفسه اذا بات تلك الليلة انكسرت حدة الغيظ من الملك فيطلقه . فقال الملك ليوقنا خذه واحفظه الى غد فأخذه يوقنا الى داره وافتقد جراحاته فاذا بها كلها سليمة ماقطع له عصب ولا عرق وذلك من لطف الله الخفى ، ولما أن رأى يوقنا جراحاته خاطها وداواها وأطعمه وأسقاه ففتح عينيه فرأى يوقنا وولده ولم يكن عنده علم بأن يوقنا قد أتى الى هذا المحل ليحتال على الملك ، فلما ان رآهما قال لهما ان كنتما كافرين فقد سخركما الله لى حتى داويتمانى ، وان كنتما مؤمنين فرحبا بكما وهنيئا لكما ، ولعل الله ببركتكما يجمع شملى بعجوز فى الحجاز قد أعماها البكاء والعويل ليلا ونهارا من أجلى وأجل أختى خولة وهى فى العسكر ، ولقد كانت تحسب هذا الحساب لاننى بقية من مضى لها من الأحباب ولقد خفى عليها خبرى وأمرى ، فان قدرتما أن تبلغاها سلامى وتعلماها مقامى وكيف كان للكافرين كلامى فهى ترسل وتعلم أمى وتكاتبها بأمرى ، فلما استراح فى الليل قال بالله عليكما اكتبا عنى ما أقول لكما ، فكتب عنه ابن يوقنا وهو يملى له ويكتب حرفا بحرف :

ألا أيها الشخصان بالله بلغا	سلامى الى أهلى بمكة والحجر
تلقيتما ماعشتما ألف نعمة	بعز وإقبال يدوم مع النصر
ولا ضاع عند الله ما تصنعانه	فقد خف عنى ماوجدت من الضر
بصنعكما لى نلت خيرا وراحة	كذلك فعل الخير بين الورى يجرى
ومالى وايم الله موقى وانما	تركت عجوزا فى المهامه والقفر
ضعيفة حال مالها من جلادة	على نائبات الحادثات التى تجرى
تعودها حب القفار مقيمة	على الشيح والقيصوم والنبت والزهر
وكنت لها ركنا تعد رحاله	وأكرمها جهدى وان مسنى فقرى
وأطعمها من صيد كفى أرانبا	من الوحش واليربوع والظبى والصقر
من الضب والغزلان والبهت بعده	مع البقر الوحش المقيمات فى البر
وأحمى حماها أن تضام ولم أزل	لها ناصرا فى موقف الخير والشر
وانى أردت الله لا شىء غيره	وجاهدت فى جيش اللاعين بالسمر
وأرضيت خير الخلق أعنى محمدا	لعلى أنال الفوز فى موقف الحشر
فمن خاف يوم الحشر أرضى إلهه	وقاتل عباد الصليب بنى الكفر

كذا جلت يوم الحرب فى كل كافر — وجندلته بالطعن فى الكرّ والفرّ
تقول وقد حان الفراق لحينه — ألا يا أخى مالى على البين من صبر
ألا يا أخى هذا الفراق فمن لنا — بحسن رجوع قادم منك بالبشر
اذا سافر الانسان عن أرض أهله — فاما رجوع أو هلاك مدى الدهر
ألا بلغاها عن أخيها تحيـــة — وقولا غريب مات فى قبضة الكفر
جريح طريح بالسيوف مشرح — على نصرة الاسلام والطاهر الطهر
ألا ياحمامات الأراك تحملى — رسالة صب لايفيق من السكر
حمائم نجد بلغى قول شائق — الى عسكر الاسلام والسادة الغر
وقولى ضرار فى القيود مكبل — بعيد عن الأوطان فى بلد وعر
حمائم نجد اسمعى قول مفرد — غريب كئيب وهو فى ذلة الأسر
وان سألت عنى الأحبة خبرى — بأن دموعى كالسحاب وكالقطر
حمائم نجد خبرى الأخت اننى — قتلت بحد المرهفات من البتر
حمائم نجد عددى عند موطنى — وقولى ضرار قد يحن الى الوكر
وقولى لهم انى أسير مقيد — له علة بين الجوانح والصدر
له من عداد العمر عشر وسبعة — وواحدة عند الحساب بلا نكر
وفى خده خال محته مدامع — على فقد أوطان وكسر بلا جبر
مضى سائرا يبغى الجهاد تطوعا — فوافاه أبناء اللئام على غدر
ألا فادفنانى بارك الله فيكما — ألاوا كتبا هذا الغريب على قبرى
ألا ياحمامات الحطيم وزمزم — ألا خبرا أمى ودلا على أمرى
عسى تسمح الأيام منا بزورة — لقلب غريب لا يرام من الفكر

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] لما كتب ابن يوقنا هذه الأبيات كتب أبوه يوقنا الى أبى عبيدة يعلمه بما يريد أن يدبره وسلمه الى رجل يثق به و بعثه الى المسلمين .

قال المؤلف حدثنى جابر بن عمران الدوسى ونحن فى أرض يقال لها البلاط إذ جاء معن بن أوس من آل مخزوم ، ولقد تركه أبوعبيدة فى المقدمة فجاء برجل من الروم فقال لأبى عبيدة خذ هذا اليك فهو يزعم انه رسول فاستخبره أبو عبيدة فى السر . فقال أنا رسول اليك بكتاب . فقال ممن قال من يوقنا ومن أسيركم بانطاكية يقال له ضرار بن الأزور فأخذ أبوعبيدة الكتاب وقرأه على من يعزّ عليه فبكوا من أبيات ضرار و بلغ الخبر أخته فأتت الى أبى عبيدة وقالت ياأمين الأمّة أسمعنى أبيات أخى فقرأ البعض عليها ولم يتمها فاسترجعت وقالت — انا لله و إنا اليه راجعون — ولاحول ولاقوّة الابالله العلىّ العظيم ، فوالله لآخذنّ بثأره ان شاء الله تعالى وحفظ الناس أبيات ضرار وتداولوها بينهم فكان أشد الناس عليه حزنا خالد بن الوليد .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] حدثنا عبد الملك بن محمد عن أبيه حسان ابن كعب عن عبد الواحد بن عون عن موسى بن عمران اليشكرى عن عامر بن يحيى عن أسد بن مسلم عن دارم بن عياش ان أهل حازم فتحوا قلاعا كثيرة وحصونا منها الراوندات

وماسواها من قورص و باسوطا ،ولم يزل أبوعبيدة سائرا بالمسلمين الى أن نزل على جسر الحديد وبلغ الخبر هرقل فتمكن الخوف من قلبه وأمر بطارقته بالتأهب للقتال ونصب سرادقاته مما يلي جسر الحديد وضربت الملوك خيامها وفتح الملك هرقل خزائن السلاح وفرّقها على رجاله وأبطاله وخلع على يوقنا وقال له أيها الدمستق قد وليتك على جيشي هذا كله فكن أنت مدبره وسلم اليه صليبا كان فى بيعة القيسان لايخرجونه الا فى الأيام العظام عندهم وقال له أيها الدمستق قدم هذا الصليب بين يديك واعتمد على نصرته فهو ينصرك فأخذه وسلمه الى ولده وأمره ان يحمله بين يديه فعندها ركب الملك هرقل الى كنيسة القيسان ومعه الملوك والحجاب حتى يصلي صلاة النصر ، فلما وصلوا وصلى الملك جلس وأمر باحضار المائتين من أصحاب رسول الله ﷺ ليقربهم قربانا فقبل يوقنا يده وقال له ياعظيم الروم ماولاك الله على البلاد والعباد الاوقد علم أن عقلك يسع ذلك وقد قال ديسقور الحكيم : ان العقل مرق جليل وصاحبه نبيل ، لأنه عز الانسان ومصباح الأنام ، واعلم أيها الملك ان العرب قد قصدتنا بعددها وعديدها وقد نزلوا على جسر الحديد ولابد لنا من القتال والمصاف معهم ولاندرى على من تكون الدائرة ، فان قتلت هؤلاء الاسرى ووقع أحد منا بأيديهم فانهم لا يبقون عليه ، والصواب تركهم الى أن نرى مايئول من أمرنا ، فان أسروا من أصحابنا أحدا أو من أعياننا نفاديه ، فقال أرباب الدولة صدق الدمستق فى قوله قال البترك أيها الملك أحضرهم الى هذه الكنيسة فانها أحسن كنائس بلدنا وأمر النساء والبنات يتزين ويحضرن هنا فاذاهم نظروا الى نسائنا وحسنهنّ وجمالهنّ وطيب رائحتهنّ مالت أنفسهم اليهنّ فيرجعون الى ديننا فيكون ذلك وهنا على المسلمين . قال فأمر بذلك ، فلما حضروا رفعت القسوس أصواتهم بقراءة الانجيل فرفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير وقالوا كذب الجاحدون وضلوا ضلالا بعيدا ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، وكان فى الاسرى رجل من اليمن من فضلائهم وعلمائهم ممن علم علم الحميريين وقرأ الكتب السالفة وكان اسمه رفاعة بن زهير يقول الشعر وينظم الكلام وانه لما نظر الكنيسة ملآنة بأهل الكفر ورآهم يعظمون الصلبان و يسجدون للصور قال الله أكبر الله أكبر لا إله الا الله كذب العادلون عن الله أصحاب الشيطان ولا إله إلا الله الواحد الرحمن الذى ليس له أب محسوب ، وانه فرد صمد لاالى شيء منسوب ، ليس له ضد ولاند ولا حد أوجد الموجودات ، وصوّر المخلوقات ، وخلق الكائنات ، ودبر الأرض والسموات ، أوّل لا افتتاح لوجوده ، وآخر لاعدم لشهوده لايموت ولايفني ، ولايزول ولايبلى ، لاشريك له ولاوزير له ولا صاحب له ، ولا مشيرله ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . قال فاضطربت الكنيسة لقوله ومالت القسوس بعكاكيزها اليه فأشارت الحجاب اليهم ان لا يكلموه ويتركوه فتفرقوا عنه . فقال له الملك هرقل مااسمك يا أخا العرب . قال أيها الملك وما تريد من اسمي ولست من جنسكم فتستخبرونى ؟ ، فقال البترك صدق أيها الملك ليس هو من جنسنا ولاله علم ولاخبرة فعلام تسأله إنما هو بدوى يعلم بسكنى القفار وصحبة الأشرار والحكمة من بلادنا ظهرت ، وفى حكمائنا اشتهرت ، لأنها نبعت من اليونانيين ووعاها جدودنا السريانيون من أين للعرب حكمة يتوارثونها وعلوم يتدارسونها والفضائل كلها من علمائنا والعدل فى ملوكنا الاسكندر و بطليموس ومورينق ويوسطنيوس وأرمويل وانطاميس وأرجاس وجرجس واسطوس واسطانيس وسارغورس

النوصيدى ، وهو الذى بنى انطاكية وسفليوس واريسا ، وكان نبيامالكا وبلينوس وهو الذى بنى الرها ومنبج واسطبس وكان كاهنا وهو الذى أخبر ملك زمانه انه قد ولد مولود يخاطب الرب ويكون له شأن ونبأ عظيم يهلك على يديه أفلاطون وهو فرعون ، ومنا فسطين الحكيم ومنا فجر العلوم ، ومنا منتهو وهوالذى بنى رومية الكبرى و ياسمة ، ومنا سطاليوس وهو الذى وضع الكتاب الأوّل الذى فيه حوزة الأرض بجبالها وبحارها و بنائها وصوانها ووصف أمة كل اقليم بألوانها وخواصها ووصف مافى كل اقليم من معدن ذهب أوفضة أو جوهر وأحصى عيون الأرض جميعها بأسمائها وجبالها وأوديتها وشعابها وغدرانها وعجائبها ، ومنا ايردروس القلنسب الرومى وهو الذى يقول لاحشرنى الله مع الذين يقال لهم فى الميعاد أدبروا مع ابليس وجنوده الى النار ، ألم تطهر نفسك أيها المسكين الناظر فى كتابى القارى الآبى من ادناس الدنيا وشهواتها المظلمة للنفوس المعوقة للحس الروحانى النورانى أن ترقى الى عالم عليين فانظر فى الحكمة فانها سلم العالم الروحانى فمن عدمها فقد عدم القرب الى بارئه ومصوّره ومنشئه .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] انما تكلم البترك بهذا الكلام بين يدى الملك هرقل وهو يظن أنه يطعن فى العرب ليسمع جبلة بن الأيهم حكمته ، وكان جبلة وولده حاضرين وكان بين البترك و بينه عداوة سببها أن البترك كان بنى له ديرا عظيما وجعل له عيدا فى السنة تقصده الروم من كل مكان بالنذور والأموال والستور والشموع ، وكانّ ذلك كله برسم البترك قال فاعطى الملك لجبلة تلك الأرض التى فيها الدير فتغلب جبلة على الدير و بنى حوله مدينة وسماها باسمه وهى جبلة هذه .

حدثنا سليمان بن عامر عن منصور الجونى . قال حجاج بن جريج أخبرنى يحيى بن عمارة ابن أبى الحسن . قال لما سمع رفاعة بن زهير كلام البترك تبسم من قوله وقال : أيها البترك لقد مدحت أقواما ليس لهم الى الفضل سبيل ، ولا فيهم فاضل ولا نبيل ، ولا من وحد الملك الجليل ، الذى ليس له مثيل ولا عديل ، وما الفضل الا لولد اسمعيل بن ابراهيم الخليل ، الذى لهم البيت الحرام وزمزم والمقام والمشعر الحرام ، ومنهم التبابعة والأقيال والحماة والاشبال الذين ملكوا الأرض فى الطول والعرض ، ومنهم الملك الصعب الاسكندر الذى ملك قرنى الأرض ودخل الظلمات ودخل فى طاعته أهل الأرض ، و بلغ مطلع الشمس ومغربها وأذل ملوكها وجعل له منهم جندا وأعوانا وسماه الله ذا القرنين ، ومنهم سبأ بن يعرب بن قحطان وشداد بن عاد وشديد بن عاد وعمرو ذوالأذقان وهو ابن سكسك والهدهد بن عاد ولقمان بن عاد وشعبان بن ا كسير بن تنوخ وعباد بن رقيم ، وهاديل بن عتبان وكان يتكلم بالحكمة ومناجاة موسى [٧] بن جلهمة بن سياسة بن عجلان بن ياقد بن رخ وثمود بن كنعان ، ومنا سبأ بن يشجب ، وهو أوّل متوّج منا ثم ولى بعده حمير ثم منا تبع وهو متوّج ومنا وائل بن حمير متوّج ومنا عاد بن حمير متوّج ومنا نبىّ الله حنظلة ابن صفوان من أهل الرسّ ، ومنا نفيل بن عبد المدان بن خشدم بن عبد ياليل بن جوهم بن قحطان بن هود عليه السلام عاش خمسمائة سنة ، وهو الذى بنى المصانع واستخرج الكنوز وقاد الجيوش وورثه الله علم نبيه حنظلة بن صفوان ، وقد ختم الله شرفنا ورفع قدرنا اذ جعل محمدا صلى الله عليه وسلم منا فنحن السادة وأنتم العبيد .

حدثنا سفيان عن عبد ربه . قال أخبرنا رحيم ، قال حدثنا الوليد بن زيادة عن حزام ابن حكيم قال : بلغنى أن هذا الرجل يعنى رفاعة بن زهير بن زياد بن عبيد بن سرية الجرهمى ، كان عالما بأنساب العرب وأخبارهم وملوكهم وكان طالع كتب هود وصالح وحنظلة عليهم السلام ، فلما تكلم بحضرة الملك هرقل بهذا الكلام أراد البترك ان يعجزه بسؤال يلقيه عليه ، فقال ياذا الهمم العلية والقرائح الذكية بم تصل القلوب الى نسيم العقل الروحانى وترقى الى ملكوت اللاهوت والطيور الخفيــة الغائبة عن الأبصار المحيطــة بالأقطار وترق فى رياضات الألباب المصــفاة من الأدناس والأفكار النورانية بصفو اكدار الأخلاق المحيطة بالأفكار من الهياكل الجسمانية ؟ فعند الصفو من مفارقة الكدر تعيش الأرواح عيشة الأبد الذى لا يصل اليه انحلال ولا اضمحلال ، فحينئذ يختلط العنصر بالعنصر ، ويطفو الصفو بالصفو ، ويرسب الكدر الى الكدر ؟ فقال رفاعة بن زهير ماأصبت أيها البترك فى مقالتك ، قال ولم ؟ قال رفاعة كيف تدلّ القلوب الى عــلام الغيوب ، وقد حجب عنها صواب المصيب ، أم كيف يتخلص الصفو من الكدر بغير تهذيب من الكفر وكيف تحلى الأفكار من غوامض الأسرار وهى فى حجب الاغترار اذا تناهت الأهوال الى مفازاتها وقربت الهمم من مواضعها وعادت الفكر الى عناصرها وعادت متحركات الفكر الى مساكنها وغاليات الأذهان الى أماكنها فانحازت الأشكال عن الأشكال بلطف تأثير الهوى فيها وانسكبت مشرفة على هياكلها من أقطار عناصرها . قال أيها البترك هذا كلام العرب الذى زعمت أن الحكمة ليست من أخلاقهم ولا تباع فى أسواقهم ولقد كان ملك من ملوك اليمن اسمه سيف بن ذى يزن الذى بشر بنبينا محمد ﷺ يتكلم بغوامض العلوم الحكمية ووشح بوشاح شكر النعمة ، ومن جملة ماقال فصيح من فصحائنا اسمه قيس بن ساعدة هذه الأبيات :

ألا إننا من معشر سبقت لهم ... أياد من الحسنى فعوفوا من الجهل
ولم ينظروا يوما الى ذات محرم ... ولا عرفوا الا التقيسة فى الفعل
وفينا من التوحيد والفعل شاهد ... عرفناه والتوحيد يعرف بالعقل
نعاين مافوق السماء جميعها ... معاينة الأشخاص بالجوهر المجلى
ونعلم ما كنا ومن أين بدؤنا ... ومانحن بالتصوير فى عالم الشكل
وانا وان كنا على مركز الثرى ... فأرواحنا فى عالم النور تستجلى
وما صعدت كى تستريح وانما ... حقيقه مثول وجلت عن المثل

[قال الواقدى رحمه الله ورضى عنه] قال أبو سعيد حدثنا شيبة بن أبى عبد الله بن عيسى عن لقية بن هند عن عبد الله بن ربيعة ، قال قلت لرفاعة بن زهير لما خلص من قبضة الروم ياعم كيف كان البترك يفهم ماتقول وتفهم مايقول ، فقال يابنى مارأيت أفصح من اللعين بلسان العربية ، ولقد سألت عن ذلك من عبد الله يوقنا ؟ . فقال أماعلمت أن ملوك الروم والبطارقة لا يستقيم ملكهم إلا أن يتعلموا لسان العربية . قال ولما حدث رفاعة المسلمين بمناظرة البترك كتبها كثير من الناس .

[قال الواقدى رحمه الله] وكان لرفاعة بن زهير الجرهمى ولد جاهل . قال وكان أسر معه . قال وكان قلبه يميل الى الكفر وكان رفاعة يدعو عليه ، فلما حضر الأسارى فى كنيسة

القيسان واشتغل رفاعة مع البترك بالمناظرة أقبل ولده عامر يحدق بنظره الى البيعة وزينتها وصورها وصلبانها ويتأمل نساء الروم وزينتهن فبادر الى تقبيل الصلبان والاشراك بالرحمن ، فلما رآه أبوه رفاعة بكى ، وقال ياويلك ياويلك أكفرت بعد الايمان ، ياويلك طردت عن باب الرحمن ، ياويلك كفرت بالملك الديان ، ياطريد القدرة يامن بعد عن الحضرة فياولدى مابكائى على فراقك ، وإنما اذا سلكت أنا فى طريق وأنت فى طريق اذا مضيت أنت الى دار الابالسة وحشرت مع الرهبان والشمامسة وتكون فى طبقة النار السادسة ، وأنا أمضى مع محمد الى دار فيها الأرواح مستأنسة يابنى لاتطلب حياة الدنيا ، يابنى لاتختر شهوتها على الآخرة واخجلتى من فعالك اذا وقفت بين يد العزيز الجبار . يابنى لقد فضحت شيبة أبيك اذ كفرت بعالم السر والنجوى ، يابنى لقد خاب أملى فيك والرجاء . يابنى كيف طاب قلبك ان تتبرأ من محمد المصطفى . يابنى ممن تطلب الشفاعة غداً . يابنى غرتك الحياة فصرت تكفر بالعليم . يابنى صرت الى الشقاء من بعد كونك فى النعيم . يابنى أما تخشى العذاب فى الجحيم . أما تستحى من أحمد يوم القيامة . أماتعلم أن أباك قد غدا من أجل كفرك فى هموم . أين المفر إذا دعاك الله فى اليوم العظيم ، ويقول ياعبدى كفرت بواحد فرد . يابنى أنت فى عيش ذميم . أماأبوك فانه يبقى بعز مقيم ، أسألك ياولدى بماقد كان فى الزمن القديم من حنوى وتعطفى حال الرضاعة والفطام إلارجعت الى الذى غطاك بالستر العميم . قال فقيل له ان ولدك قد أغلق الباب عليه وأرخى الحجاب ، فأمر به البترك فحل من الوثاق ، وأمر به الى جرن ماء المعمودية فغمسوه فيه ، ودارت به القسوس والشمامسة وبخروه ووقعت عليه الخلع من البطارقة والملوك ، ووهب له البترك مركبا وجارية ومنزلا وضمه الى عسكر جبلة بن الأيهم . ثم قال البترك ياهؤلاء مامنعكم أن تدخلوا فى ديننا كما فعل صاحبكم . قالوا منعنا من ذلك صحة ديننا وثبات يقيننا ، وما نحن من الذين يبدلون إيمانهم بالكفر ولو قتلنا ، فقال لهم البترك طردكم المسيح عن بابه وأبعدكم عن جنابه ، فقال له رفاعة الله يعلم أينا المطرود ومن هو عن رحمة ربه مبعود ، فقال هرقل يامعاشر العرب قد وصل الينا ان خليفتكم وأميركم يلبس مرقعة وقد وصل اليه من أموالنا وذخائرنا ما يكل عنه الوصف فمامنعه ان يتزيا بزى الملوك ؟ فقال رفاعة يمنعه من ذلك طلب الآخرة والفزع من جبار الجبابرة ، فقال هرقل ماصفة دارأمارته ؟ فقال رفاعة مبنية بالطين خالية من الحجاب آنسة بالفقراء والمساكين . قال فما بساطه ؟. قال العدل والتمكين . قال فما سريره . قال العقل واليقين ، قال فمابدلة ملكه ؟ . قال الزهد والدين . قال فما خزائنه ؟ . قال الثقة برب العالمين . قال فمن جنده ؟ . قال أبطال الموحدين . أماعلمت أيها الملك أن جماعته قالوا له ياعمر قد ملكت كنوز القياصرة وذلت البطارقة والاكاسرة فهلا لبست ثيابا فاخرة . قال أنتم تريدون زينة الحياة الظاهرة ، وأنا أريد رب الدنيا والآخرة ، فلما أبدى هذا القول وأضمر أشار اليه منادى القدرة وبشر — الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر — ، قال ثم إن الملك هرقل أمربهم الى السجن الذى هو فى كنيسة القيسان وخرج الى عسكره ليشرف على الخيام فرأى السرادقات قد ضربت لأن البطارقة ضربت سرادقاتها عند خيامه ونونيا الملوك قد نصبت بازاء كل نونية كنيسة من الخشب المدهون بسائر الأصانيع والنواقيس على أبوابها وكان زى الروم ذلك وهذه البيع إلخشب

كانوا يتنافسون فيها وفى صنعتها وتكون معهم فى أسفارهم وعساكرهم وطاف هرقل على عسكره جيعه وأراد الدخول الى انطاكية واذا بفوارس تركض اليه ، فقالت لهم الحجاب وأصحاب السرير ماوراءكم ؟ قالوا ملك جسر الحديد منا وقد حصلت العرب منا على داخل الجسر . قال فأيقن الملك بزوال ملكه ، وقال وكيف ملكت العرب الجسر والبرجين وفيها ثلثمائة من البطارقة الشداد ، قالوا أيها الملك إن المقدم الذى على الأبراج هوالذى سلمهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ومن حسن لطف الله بالمسلمين ان صاحب الملك كان فى كل يوم يمضى الى الجسر ويوصى من فى البرجين باليقظة والحرس الشديد وانه مضى فى بعض الأيام على عادته فوجدهم يشربون الخمر وليس عندهم حفظ ولا حرس فأخذهم وضرب كبراءهم وهمّ بقتل مقدمهم . ثم انه أمسك عنه خوف الملك فعمل الحقد فى قلوبهم فجاءهم يوقنا فى بعض الأيام يتجسس ليدبر فيه حيلة فرآهم حنقين من صاحب الملك فسألهم فانكروا منه ، فقال لهم أطلعونى على خبركم ، فقالوا له أتعطينا منك أمانا فأعطاهم ، فقالوا نحن نسلم هذا الجسر للعرب . فلما صح عنده ذلك ، قال لهم مامرادكم . قالوا نأخذ أمانا من المسلمين ، فقال يوقنا أنا أكتب لكم كتابا الى أميرهم بأن يعطيكم أمانا ، وان دخلتم فى دينهم فهو خير لكم ، فقالوا له وكيف أنت دخلت فى دينهم . ثم رجعت ، فقال حاش لله وانما أتيت أدبرهم على تسليم انطاكية لهم ، فلما صح عندهم ذلك . قالوا ونحن نسلم اليهم الجسر ، فلما وافقهم على ذلك كتموا أمرهم ، فلما قدم المسلمون مضى اليهم صاحب الجسر من غير أن يعلم به أحد وأخذ له ولمن معه أمانا وناوله كتاب يوقنا ففرح المسلمون بذلك بأن يأخذوا جسر الحديد من غير قتال فأعطوا المقدم أمانا ، فلما وصل عسكر المسلمين الى الباب الذى على الجسر فتح لهم فدخلوا ، فلما سمع هرقل بذلك أمر الناس ان يتأهبوا للحرب . قال ففعلوا ذلك .

[قال الواقدى رحمه الله] حدثنا ياسر بن عبد الرحمن عن منازل بن نزاف الصيدلانى وكان أعرف الناس بفتوح الشام . قال بلغنى انه لما صار المسلمون بأرض انطاكية . قال أبو عبيدة لخالد ياأبا سليمان قد صرنا بأرض أنطاكية بلد كلب الروم والساعة يأتينا عسكره فما ترى من الرأى . قال خالد إن الله قال — وأعدوا لهم مااستطعتم من قوّة — الآية فأمر أصحابك ان يتأهبوا ويظهروا زينة الاسلام وقوة الايمان وسيركل أمير بجيشه ولتكن الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضا . قال ففعل أبو عبيدة ذلك ، وأوّل من سير سعيد بن زيد أحد العشرة ومعه ثلاثة آلاف فارس فيهم المهاجرون والأنصار وجعله على مقدمة الجيش ، وسير وراءه رافع بن عميرة الطائى ومعه ألف فارس ، وسير وراءه ميسرة بن مسروق العبسى فى ثلاثة آلاف فارس ، وسار وراءه خالد فى جيش الزحف ، وسار وراءهم أبو عبيدة فى بقية العسكر ، وكان معه عمرو بن معد يكرب الزبيدى وذو الكلاع الحميرى وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن عمر وأبان بن عثمان ابن عفان والفضل بن العباس وأبو سفيان صخر بن حرب وراشد بن ضمرة وسعيد بن رافع وزيد ابن عمرو ومثل هؤلاء السادات وسار وراءهم النساء اللاتى كن الاسرى وفيهم خولة بنت الأزور وعفيرة ابنة عفان ومزروعة ابنة عملوق وأم ابان بنت عتبة وليس فيهم أشد حزنا من خولة بنت الأزور .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ومما بلغنى أنها قالت فى أسر أخيها من المراثى المبكيات :

أبعد أخى يلذ الغمض عينى ... فكيف ينام مقروح الجفون
سأبكى ماحييت على شقيق ... أعز علىّ من عينى اليمين
فلو أنى لحقت به قتيلا ... لهان علىّ اذ هو غير هون
وكنت إلى السلوّ أرى طريقا ... وأعلق منه بالحبل المتين
وانا معشر من مات منا ... فليس يموت موت المستكين
وانى أن يقال مضى ضرار ... لباكية بمنسجم هتون
وقالوا كم بكاؤك قلت مهلا ... أماأبكى وقد قطعوا وتينى

قال فسار أبو عبيدة فى مواكبه كما ذكرنا ، فبينما الروم فى خيامها وعسكرها إذ وقع فيهم الصائح بقدوم العرب ، فركزوا خيولهم وصفوا صفوفهم ، فأوّل من أشرف عليهم برايته سعيد بن زيد و بعده المسيب بن نجبة الفزارى ، و بعده ميسرة بن مسروق العبسى ، و بعده أتى خالد بن الوليد ، و بعدهم أبو عبيدة فى مواكبه ، فنزل كل أمير بقومه ، فلما نظر هرقل اليهم وانهم قد نزلوا بفنائه و بنائه ترك على حفظ جيشه صاحبه الأكبر نسطاروس بن روميل ، وكان من شجعان الروم ، ودخل إلى كنيسة القيسان وجمع الملوك والبطارقة والسريرية والحجاب ، وقام هرقل فيهم خطيبا . وقال : ياأهل دين النصرانية و يابنى ماء المعمودية قد قرب ماحذرتكم منه من زوال ملككم وذهاب عزكم من أرض سورية ، وقد كنت حذرتكم من زوال ملككم ومن هذا المقام فلم تقبلوا منى واردتم قتلى ، وهؤلاء القوم قد دخلوا بدار ملككم ورياح عزكم فقاتلوا عن حريمكم وأموالكم وأنفسكم ، واياكم والفشل لايلحقكم فى الجهاد فقد جاهدت عنكم جهدى واتلفت أموالى وخزائنى ورجالى عن دينكم وملككم ، فلم تصادفنى مساعدة ولاأدركت من القوم فائدة ، فان أنتم فشلتم وتقاعستم ولم تجردوا لهؤلاء العرب سيوف العزم ، والا كان العار عليكم والذلة تصل اليكم ، أين أبناؤكم ومن سلف من آبائكم ؟ ماتوا كراما غير لئام وسكنت ديارهم العرب اللئام ، وكنائسهم صيروها جوامع ، وأخربوا البيع والصوامع ، وأذلوا ملوككم واستعبدوا أبناءكم ونساءكم وملكوا قلاعكم واستولوا على حصونكم ومدائنكم ، وقد مضى مامضى فاستأنفوا الأمر وقاتلوا ، فكم هلك من الأمم قبلكم على ممالكهم وعلى الغيرة على حريمهم ، ولقد كانت حكمتى أنتجت لكم أن تنسجوا على منوال المصالحة بينكم و بين هؤلاء العرب فأبيتم ذلك ، لأن ظلمة جهلكم قد أطفأت نور الحكمة . أماعلمتم انه قد وجد لوح من الحجر على قبر طيماون تلميذ اقيانوس وفيه مكتوب : الحكمة سلم العالم الأعلى ، من عدمها فقد عدم القرب الى بارئه ، الحكمة حياة القلوب ، و بغية الأذهان ، ونزهة النفوس ، ونور العقول ، من لم يكن حكيما لم يزل سقيما ، من تدبر نظر ، ومن نظر عرف ، ومن عرف عمل ، ومن عمل انفتح ذهنه وعقله ، ومن انفتح عقله صفت نفسه ، فقام اليه جبلة بن الأيهم ، وقال ياعظيم الروم انما قتال هؤلاء العرب بقتل خليفتهم عمر بالمدينة ، فلو أنت أرسلت اليه رجلا من آل غسان يقتله فيكون سبب فشلهم وانتزاع الشام من أيديهم ، فقال هرقل هذا شىء لايصح أمله ولاينقضى أجله ، لأن الآجال مقدّرة ، والأنفاس مقرّرة ، ولكن هو شىء تطيب النفس عند سماعه فافعل ماأردت . قال فأرسل

جبلة من قومه رجلا يقال له واثق بن مسافر الغسانى ، وكان جريئا مقداما فى الحروب فقال له انطلق الى يثرب فلعلك تقتل عمر ، فان انت فعلت ذلك فانا اعطيك ماأردته من الأموال . قال : فانطلق واثق بن مسافر حتى دخل المدينة ليلا ، فلما كان الغد صلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالناس صلاة الصبح ودعا وخرج الى ظاهر المدينة يتنسم اخبار المجاهدين بالشام . قال فسبقه المتنصر وجلس له بأعلى شجرة من حديقة بن الدحداح الأنصارى واستتر بأغصانها ، ثم ان عمر قام عن ظاهر المدينة حين حميت الرمضاء وعاد وهو وحده فقرب من الحديقة ودخلها ونام فى ظلها ، فلما نام همّ المتنصر بالنزول من الشجرة وجرد خنجره واذا هو بأسد أقبل وهو بقدر البقرة الكبيرة وطاف حول عمر وجلس عند قدميه يلحسهما واقام حتى استيقظ ، فعندها نزل المتنصر وقبل يد عمر ، وقال له ياعمر قد عدلت فأمنت بأبى والله من الكائنات تحفظه والسباع تحرسه والملائكة تصفه والجن تعرفه ، ثم حدّثه بأمره وأسلم على يديه .

[قال الواقدى رحمه الله] وكانت هذه الفعلة قبل نزول المسلمين على أنطاكية .

حدثنا أبو محمد قال أخبرنى أبى عن حسان عن السدى عن يحيى الواقدى عن شهر بن عباس اليبروتى ان عمر حدثه عن نزول أبى عبيدة بالمسلمين على انطاكية . قال وعظ هرقل قومه بكنيسة القيسان واستحلفهم انهم لاينهزمون أو يموتوا عن دم واحد فحلفوا وخرجوا مع الملك الى عسكره ، وقد رفعت الصلبان وقرأت القسوس والرهبان وارتفع الضجيج من أهل الكفر والطغيان واصطفوا للقتال ، وكان المسلمون قد رتبوا صفوفهم وأوقعوا كل أمير فى مكانه ونشرت الرايات والاعلام وأشار أبوعبيدة الى ربيعة بن معمر الشاعر ، وكان لسنا فصيحا لايتكلم إلابالكلام المنظوم . فقال له : ياربيعة فوّق سهام لفظك ووعظك الى المجاهدين وحرض المسلمين على قتال المشركين قال فتقدم ربيعة أمام الصفوف وكان جهورىّ الصوت يسمعه القريب والبعيد . فقال: أيها الناس الى متى هذه المهلة فتأهبوا للحملة ، فهذه طيور الارواح قد عوّلت على فراق أقفاص الاشباح وقد ارتاحت الى باريها وأجابت صوت مناديها وهاهى تخاطبنا بلسان اشارتها عن نطق عبارتها ماهذا الوقوف على بذل أنفسكم وقد اشتراها مؤيدكم ؟ أفركنتم الى حب الحياة الفانية والأنفس الدانية ، وهذه أوقاتكم بالنصر مؤيدة وهمتكم عن طلب زينة الدنيا متحيدة والمواعظ الصادقة بكلام الحق مقيدة : أينما تكونوا يدرككم الموت ولوكنتم فى بروج مشيدة ، وهذه طوالع سعودنا بالاقبال طالعة وشجرة آمالنا بالتأييد يانعة ، فلله درهم فلقد ظهرت زهرة نجوم المحبة فى أفلاك راياتهم وتبلج فجر العشق فى سماء سماتهم وأشرقت شموس المعرفة فى مشارق عشقهم ، فلما هموا بالحملة بأجمعهم واصطفوا وقدموا هم النفوس فى رضا الملك القدوس واستبقوا وزاحم بعضهم بعضا ولم يرفقوا نودوا من صفاء أسرارهم — من المؤمنين رجال صدقوا — .

[قال الواقدى] رحمه الله **حدثنى** زيد بن اسمعيل الصائغ عن جعفر بن عون عن عياش ابن أبان عن جابر بن أوس . قال كنت حاضرا فى مصافّ أبى عبيدة على انطاكية حين وعظنا بسجعه ربيعة بن معمر ، فكان أوّل من خرج من الروم للبراز شجاع الروم نسطاروس بن رو بيل وهو كأنه برج من حديد ، فلما توسط الميدان طلب البراز فخرج اليه دامس أبوالهول مولى بنى طريف فاتح قلعة حلب ، وهو يومئذ فارس غطريف فحملا على بعضهما ، فلما اشتعلت نار الحرب

بينهما عثر جواد دامس فسقط من على ظهره فانقض عليه نسطاروس وأخذه أسيرا وقاده ذليلا ورجع الى الميدان ، فخرج عليه الضحاك بن حسان الطائى وكان يشبه خالدا فى حملاته وخفته ، فلما برز . قال قائل من الروم ممن شاهد قتال خالد فى المواطن وعرفه هذا فارس الشام والمسلمين الذى فتح بلادنا فصار كل من فى انطاكية ينظر اليه وهم يظنون أنه خالد فازدحمت خيل المشركين من كثرة النظر اليه فقطعت حبال السرادقات التى لنسطاروس وغيروا سريره فخاف الغلمان على أنفسهم وسرادقاته على ذلك واذا رآها على تلك الحالة قتلهم ولم يجدوا أحدا يعينهم على رفع السرادق لأن كل من فى العسكر مشغول بالفرجة على نسطاروس مع خصمه فاتفق اثنان من الفراشين وكانوا ثلاثة على حل دامس أبى الهول ، وقالوا له نحن نحلك من وثاقك وتعييننا على شيل عمود هذا السرادق ونعيدك الى الوثاق . فاذا جاء البطريق نشفع فيك فانه يخلى سبيلك . فقال نعم فحلوه من وثاقه ، فعندها قبض على الاثنين كل واحد بيد وضرب واحدا بواحد فصرعهما فماتا فهجم على الثالث فقتله وفتح صندوقا من الصناديق فوجد فيه ثياب نسطاروس فلبسها وركب من الطوالة جوادا من خيارها وأخذ بيده قنطارية وسيفا ولثم وجهه وقصد عسكر المتنصرة ووقف الى جانب حازم بن عبد يغوث وهو ابن عم جبلة ، وكان قدمه على عسكر المتنصرة وجبلة وولده وبنو عمه فى موكب الملك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ولم يزل القتال بين نسطاروس والضحاك بن حسان الى أن كلّ الجوادان ولم يقدر أحد منهما على صاحبه فافترقا وعاد نسطاروس الى سرادقاته ليستريح فوجد السرادق على الأرض والفراشين قتلى ولم ير دامسا فعلم أن المصيبة من قبله فمضى الى الملك وأعلمه بذلك ، فقال وحق المسيح ماهؤلاء العرب الا شياطين . قال وهرج العسكر بصنع أبى الهول ، فقال الملك هو الآن فى عسكرنا ومارأيناه خرج وماهو الا مختف فى عسكر المتنصرة لأنه من جنسهم ، فلما رأى دامس هرج عسكر الروم ، وأن ذلك بسببه انتضى سيفه على حين غفلة وضرب به حازم بن عبد يغوث فرمى رأسه عن بدنه فبهتت المتنصرة من فعله وأمسك الله عنه أيديهم ودهشوا لذلك وأطلق جواده وطلب عسكر المسلمين ، فلما رأوه صاحوا بالتهليل والتكبير فأتى الى أبى عبيدة وأخبره بما وقع له مع القوم . فقال لاشلت يداك . قال و بلغ الخبر جبلة من قتل ابن عمه حازم فغضب وأتى الى هرقل وصقع له ، وقال ياعظيم الروم أنا لاأقدر على الصبر ولابدّ لنا من الحلة على هؤلاء الذين قد تعدوا طورهم وجهلوا قدرهم ، فاراد الملك ان يأمرهم بالحلة ، واذا قد أقبلت عليه خيل تركض ، فقال لهم ماوراءكم ؟ . قالوا أيها الملك انه قد قدم الى نصرتك قلنطانوس بن سطانيوس بن أرمونيا صاحب المدائن وررمية الكبرى و باسم جده سميت ، وكان قد وضع فيها هيكلا عظيما يسمى أباسرفيا وكان به صورة من نحاس مطلية بالذهب الأحمر ولذلك الهيكل سبعة أبواب من الذهب على كل باب هيكل مدوّر على رأسه شخص آدمى و بيده عدة ألواح من الذهب وفى كل عام يعلق منها لوح على الهيكل تلقاء الشمس ثم ينظر كاهن ذلك الهيكل فى ذلك اللوح فيعلم مايجرى فى الأقليم المختص بذلك اللوح ، وكان كل لوح مختصا باقليم من الأقاليم السبعة وكذلك لكل هيكل من تلك السبعة هيا كل ، فيعلم أهل رومية الكبرى مايجرى فى العالم بما وضعه حكماؤهم الاقدمون وفى وسط

تلك السبعة هيا كل قبة مثمنة على ثمانية عمد من نحاس أصفر مطلية بالذهب محوط به سور مرقط ببياض وفيه بابها الأعظم وعلى رأسها صورة من حجر لا يعلم ماهو؟ بل الحجر أسود . فاذا كان استواء الزيتون فى مشارق الأرض ومغاربها يسمعون من تلك الصور صوتا هائلا تكاد القلوب تتفطر منه ، فاذا كان الغد تأتى من آفاق الأرض زرازيرها وكل زرزور حامل ثلاث زيتونات واحدة فى منقاره واثنتان فى رجليه فيلقونها على رأس تلك الصورة فلاتزال كذلك حتى يمتلئ ذلك المكان لعظيم . قال فيعصرون منه زيتهم وماياً كاون من العام الى العام وكان فى داخل الهيكل الأعظم بيت مقفل لم يفتح منذ بنيت رومية ولما أراد فلنطانوس الملك النهوض الى نصرة هرقل احتاج الى مال يصرفه على عسكره فأتى الى ذلك البيت المقفل وهمّ بفتحه ، فقال له عظماؤه وعطماوس ، وهو القيم على أمر الهيا كل كلها : أيها الملك ان هذا البيت منذ أقفل تاريخه سبعمائة سنة وذلك من قبل ظهور المسيح بمائة سنة وسبعين ، وماأحد من أجدادك تعرّض اليه ولا أحد ممن ولى أمر هذه الكنيسة إلا ويوصى على هذا البيت أن لا يفتح فلاتزل حكمة أسسها من كان قبلك من الحكماء والملوك ، وقد بنى هذه المدينة وأسس هذا الهيكل وهذا البيت ، وهو بيت جدك رسيوى بن قطاوس وبقى فى ملكه على ما بلغنا ثلثمائة وسبعين سنة ووصى كوصية أبيه وتولى عليه أحد أجدادك حتى وصل اليك هذا الملك ولك فيه مائة سنة فلاتزل حكمة أجدادك الذين أسسوها وطلاسم وضعوها . قال فأخذه اللجاج فى فتحه ، فلما فتحه لم يجد فيه شيئا إلا أنه رأى فى البيت صورة القدس ومدن الشام وصفة ملوكهم وعددهم وفى آخرهم صورة ليطن وهو هرقل كأنه ينظر فى اللوح مكتوب باليونانية : ياطالب العلم عليك بكثرة القراءة فانه كلما تكرر مرور النكت على مسامع من يتعلمها كان ذلك أشد لثبوته وأحكم لتصريفه ، اذ العلوم كلها إنما تستخرج بالعقل والقياس ، وإنما يكون بكثرة الرياضة ، والعلم مطية التدبير ، والتدبير موضع العلم ، والعلم موضع العقل ، هذا هو المتمم لأشكال العلوم ، وقد رأينا فى الحكم والأسرار الخفية أن صاحب الغمامة اذا خيمت على صفحة الأرض وحلت الضلالة خرج مصباح الهداية من أرض تهامة فيذهب بظلام الجهل المظلم للحس ويدعو الناس بدينه الى توحيد الصانع وهو صاحب الجمل الأورق فيذهب بالأديان والملك ، يضيق لدعوته السهل والجبل ، فاذا غلب نوره على كل كثيف انتقل الى العلم الروحانى وولى بعده رجل نحيف الصورة قلبه منوّر بنور الصدق يشيد ملته ويصدق شريعته وويل للشام مما يحل بها من الرجل الأحور الذاهب بملك قيصر وهو الرجل الكثيف صولته الربعة صورته العدل صفته والحق منقبته جبته مرقعة وسيفه درته ، فى أيامه تذهب الدول وتتحول وتضمحل وتزول ، وأوانه اذا فتح هذا البيت المصور بالحكمة المحفوظ بحفظ النعمة فطوبى لمن رسخت الحكمة فى قلبه ، وأشرقت مصابيحها فى لبه واتبع الحق وعرفه ، وجانب الباطل وخالفه . قال فلما قرأ فلنطانوس مافى اللوح أخذه العجب ، وقال لعطماوس قيم الهيا كل : أيها الأب الشفيق ماتقول فى هذه الحكمة ؟ قال أيها الملك وماعسى أن أقول فى حكمة وضعتها العظماء وعلمت بها الحكماء وإنما العلوم غامضة يصل اليها الحبر الجوهرى بنور العقل ، وانما أرى أن دولة هرقل وهى عز دولتها وانهدت أركان ملكه من أرض سوريا وانتقل ملك الروم الى أرض اسطور يعنى قسطنطينية وبذلك أخبر مهرابيس الحكيم فى كتابه العزيز الذى وضعه وسماه اسلاوس

يعنى جواهر الحكمة ، ومن جلتــه : اذا ظهر نور اليتيمة المصفاة من الأدناس من جبال ثاران تصفت الأذهان بنور حكمته وانصرفت الظلمة المتكاثفة فى سماء الجهــل بقوّة عزيمته ، ودعا الناس الى لطيف دعوته وقادهم بأزمة لطاقتــه فيعلو على الأفلاك ، فويل لأرض ايليا من صولة صاحبه المتوشح بوشاح الهيبة المتوج بتاج العقل ، صاحب فتوح الأرض ومذل ملوكها العــدل فسطاطه والمرقعة لباسه ، وفى زمانه ينـكسر الصليب وتخرج الهيا كل وتندرج المذابح ويذوب ماء المعمودية فلا نجاة من صولته الاباتباع شريعته وصاحبه . قال فلما سمع ذلك فلنطانوس من القيم على الهيا كل كتم الأمر فى نفسه وقال لابدلى من النظر الى العرب والمسير اليهم والى نصرة الملك هرقل وقد وصل الى كتاب البترك ونديني الى نصرة دين المسيح فان تأخرت حرمنى ، ثم انه اختار من جيشه فى رومية ثلاثين ألفا وهم الـكرجية وولى فى موضــعه ولده استفليوس وهو مثلث النعمة واستخرج من بيت الحـكمة رايات الاسكندر اليونانى ، وكانت منسوجة بالذهب واللؤلؤ التى نشرها يوم فتحت الواحات من أرض بالبوس ، وكانت لاتنشر الافى يوم واحــد فى السنة ببيعة اياصوفيا وهو يوم عيد الصليب والشعانين . قال فلما رفعت على رأس فلنطانوس سار حتى ورد أنطاكية ونزل على باب هاوس ومعناه باب فارس ، قال وركب الملك هرقل فى موكبه الى لقـائه وضربت سرادقاته بازاء سرادقات هرقل وفرحت الروم وتفاءلت بالنصر وضربت النواقيس ووقعت ضجة عظيمة فى جيوشهم وارتفعت أصواتهم وجاءت عيون المسلمين فأخبروهم بقدوم صاحب رومية فرفع أبوعبيدة كفه الى السماء ، وقال : اللهم ان أعــداءك يستنصرون علينا بكثرة عــددهم وتزايد مددهم فشتت كلمتهم ودمر جيوشهم وزلزل أقدامهم وعسر أيامهم واجعل كلمتنا العليا وكلمتهم السفلى وانصرنا كنصر نبيك فى يوم الأحزاب : اللهم ردّ كيدهم فى نحرهم وانصرنا عليهم قال : وأمّنت المسلمون على دعائه .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا ابراهيم بن العلاء عن أبى يوسف الـكندى عن أبى جعــفر الدارمى عن الربيع بن أنس عن جعفر بن ميسرة قال : قال لى عمى لما قدم صاحب رومية بجنوده خاف المسلمون ولـكن ثبتهم الله وبعث أبوعبيدة معاذ بن جبل ومعه ثلاثة آلاف وقال له ياصاحب رسول الله ان الروم قد تجمعت من سواحل البحر لنصرة دينها فانهض وشنّ الغارات على بلاد السواحل واحتفظ أن تؤتى المسلمون من قبلك قال ففعل ذلك معاذ وسار الى جبلة واللاذقية فاحتوش أموالها ، وأخذ غنائمها ووجد على باب جبلة عنان بن جرهم الغسانى ابن عم جبلة بن الأيهم ومعه ألف دابة محملة برّا وشعيرا لعسكر الـكفر ، وقد جمعها من طرابلس وعكا وصور وصــيدا وقيسارية وقد بعث بها قسطنطين بن هرقل الى أبيه ، فلما وصلت مدينة جبلة سلمها العرب المتنصرة لابن عم جبلة وعادوا فوقع بها معاذ رضى الله تعالى عنــه فأخذها ورجع قافلا الى عسكر المسلمين ، فلما رأوها رفعوا أصواتهم بالتهليل والتـكبير فسأل هرقل عن ذلك فأخبروه بما وقع فغضب على أخذ الميرة التى تتقوت بها عسكر أعدائه . فقال لبطارقته مابقى بيننا وبين هؤلاء الا المصاف ويعطى الله النصر لمن يشاء ، ثم انه أمر عساكره بالأهبة للقتال ثم انه ركب والى جانبه فلنطانوس صاحب رومية وصاحب مرعش وصاحب قلعــة اسكباديس وهى قلعــة الروم وصاحب طرطوس وصاحب مصيصة وصاحب قونيــة وصاحب ماصر وصاحب

اقصرا وصاحب قيسارية الروم الأقصى وصاحب قوماط وصاحب انطرانه وصاحب طبرزند وجبلة ابن الأيهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وأقبل يوقنا يرتب الصفوف فى الحرب ، فلما وقف كل ملك بجيشه وكل بطريق بأصحابه أراد فلنطانوس ملك رومية أن يتقرب الى هرقل بمبارزة العرب فصفع له على قربوس سرجه وقال : أيها الملك ماتركت ملكى وأتيت الى خدمتك من مائتى فرسخ الا حتى أرضى المسيح وأخدمه بين يديك وإن كل عسكرك قد قاتلوا وجاهدوا وأريد أن أبرز فى هذا اليوم الى هؤلاء المحمديين وأشفى فؤادك وفؤادى منهم فأراد الملك أن يطيب قلبه . فقال له الزم مكانك ولا تخرق بحرمتك وحشمتك حشمة الملوك فأنت أقدم منى فى المملكة فدع غيرك يكون لهذا الأمر فما بلغ من شأن العرب ان تخرج أنت اليهم بنفسك . فقال فلنطانوس أيها الملك وأى حشمة بقيت لنا مع هؤلاء وقد أهملوا عزنا واذلوا أعز ديننا والجهاد مفروض على كبيرنا وصغيرنا ، أما علمت أيها الملك انه من نظر الى الدنيا بعين المحبة جذبته الشهوات الى الغلو فى محبتها والتعلق بزخارفها ، فاذا فعل ذلك ركب غيم كثافة الجهل على صفحة صدره فمنعه ذلك عن طلب معاده ، ومن سارع الى طاعة خالقه بترك شهواته ارتقى الى دار دائرة القدس فى محل الانس ، ولما علم القديم الأزلى بركون أنفسكم المحجوبة بحجاب الغفلة الى طلب مايفنى سلط عليكم أضعف أمة قد أخرجتكم من دياركم وأبعدتكم عن أوطانكم وماذاك إلا لخلودكم إلى الأهواء الجاذبة إلى مهاويكم وإلى إدراك درك المهالك لأنكم حكمتم بغير الحق واجترأتم على الرعية بطلبكم منهم ماليس لكم بحق والجور فى أخذ أموالهم وفساد أحوالهم وكثرة الزنا واتباع الخنا فلأجل ذلك لم تنصروا ، ودارت دائرة السوء عليكم . قال ثم تكلم صاحب الملك هرقل الكبير واسمه سروند وصاح عليه وقال له أيها السيد لاتحمل على قلب الملك من كلامك مالا يطيق فى مثل هذه الساعة ، فقد وعظه من هو أكبر منك فلم يسمع قوله . قال فغضب فلنطانوس من صياح الحاجب عليه وكتم أمره الى الليل ، فلما مضى من الليل ربعه طلب حجابه وخواصه ، وقال لهم أرضيتم أن يزعق على حاجب هرقل ويوبخنى بين الملوك وأنتم تعلمون أن بيتى أعظم من بيته ونسبه أدنى من نسبى وملكى أقدم من ملكه ؟ ، ولقد قال قسيس حكيم بلاد الذكر المشهور بحكمته وهو الذى وضع المنار الأعظم فى يوم كبير كان بين بلاد الجرامقة وبلاد الانجار وهى مسيرة اثنى عشر يوما ولايصل الى أرضها الا بعد عناء كبير فاحتفر لها بئرا ووضع فى وسطها عمودا على رأس حجر يدور من صنعة حكمتها يسمع له من حدة النداء من حوله ويرشح له بقدر مايملأ ذلك الجرن العظيم ، فانه قال :لاتسع بقدمك الى من يراك دونه فتصغر عنده واجعل عز نفسك فى مقابلة كبرياء عجبه ، فان عزة النفوس تقابل جاه الملوك ولا تصنع صنيعك لغير مستحقه لانها تجلب عليك السوء من قبل ذلك ، فان ذلك الاحسان لايزكو إلا عند ذوى الأصول فانه يندسج عند السفهاء والأراذل لاتصنع اليهم النصيحة ، فانك أنت تطلب منفعته وهو يريد هوى نفسه بأذيتك وقد جئنا من مائة فرسخ وأكثر الى خدمة رجل يرى أننا قد قصدنا داره وتاج عزه وأننا نحن من جملة خدمه وان نور العقل المجوهر للحس يمنعنى من اتباع الجهل المظلم للحواس ، وان نفسى تأبى ذلك ، والعز محل جليل ومقام نبيل ، والذل وبيل وصاحبه قليل ، وقد عولت أن أسير الى هؤلاء

العرب وأختبر ملتهم فانها هى الملة الواضحة بالحق المؤيدة بالصدق ، ومن كان عليها أمن فى معاده من الهول الأكبر فما أنتم قائلون ؟ . قالوا أيها الملك وكيف تطيب نفسك بترك دينك وملكك وعزك وتتبع هؤلاء وهم لافضل لهم ولاعندهم حكمة . فقال فلنطانوس : أما الحكمة البالغة فعندهم مقرها وفى نفوسهم موطنها ، لأن نور توحيدهم صفى أذهانهم ونوّر ايمانهم ببركة صاحبهم المسمى فى علوم الغيوب ، لان مغناطيس حكمته الربانية جذب جوهر عقولهم إلى متابعته والاقتداء بشريعته ، ومن أراد أن يلقى عالم عليين فلا يقعد على صحفة أرض الجهل : أماعلمتم أن النور أنور من الظلمة والموت نهار الحياة . قال فلما سمعوا قوله قالوا أيها الملك نحن ماتمنعك من عز دائم يخرجنا من الذل ومهابة الغلبة ، فاذا كنت تطلب بنا طريقا يؤدّى الى البقاء ويذهب بالشقاء فالحق اتباع الحق ونفى الباطل فنحن لك وبين يديك . قال نخذوا على أنفسكم فاذا كانت ليلة غد ركبنا كأنا نطوف حول البيت نحرسه ونطلب جيش العرب . قال ففعلوا ذلك وأخذ فلنطانوس فى أمره . قال ابن وهب وابن صالح عن أبي موسى الأشعرى . قال : لما عزم أن يسير الى جيش المسلمين أتى اليه يوقنا برسالة الملك هرقل ، فلما أدّى الرسالة وهمّ بالقيام قال له فلنطانوس من أنت من الحجاب ؟ قال أنا يوقنا صاحب حلب . قال وكيف تركت بلدك ؟ قال استولت عليها العرب وحدثه بحديثه . فقال فلنطانوس : وما الذى ظهر لك من هؤلاء العرب . قال أيها الملك انى دخلت فى دينهم واطلعت على أمرهم وكشف سرهم فرأيت القوم لايستمعون الى الباطل ولايحيدون عن الحق ولا ينامون الليل من كثرة اجتهادهم ولا يتكلمون بغير ذكر ربهم ينصفون المظلوم من الظالم ويواسى غنيهم فقيرهم ، الأمراء منهم فى زىّ المساكين ، والعزيز والذليل عندهم سواء . فقال له فلنطانوس فاذا وقفت على سرهم ورأيت فضلهم فما منعك أن تقيم عندهم وبينهم ؟ فقال يوقنا منعنى من ذلك صحة دينى وصحبة قومى لأنى لم أر فراقهم . قال فلنطانوس : ان النفوس الزكية الباقية اذا رأت الحق جذبها جاذب اليقين الى حضرة طلب الاخلاص من المعيشة الذميمة الى أن ترقى الى أعلى عليين . قال فخرج يوقنا وقد رسخ كلام فلنطانوس فى قلبه ، فقال والله ماتكلم بشىء الاوهو منقوش على صفحة صدرى وكلامه يشهد بقبول عقله لصحة دين الاسلام ، وأقام يوقنا على قلق من ذلك حتى أقبل الليل فأتى الى فلنطانوس فرآه وهو على نية الركوب الى ماذكرناه ، فلما وقف بين يديه صقع له . فقال له فلنطانوس بأىّ حجاب حجب الله الظالمين عن اتباع سبيل المتقين فالحق واضح لمن طلبه والباطل خفىّ عمن اتبعه . فقال يوقنا أيها الملك مامعنى هذا الكلام الذى أشرت اليه ؟ فقال لوأنك رأيت بعين البصيرة لما رجعت عن ملتهم ولا أردت بدلا غيرهم وانما أنت طلبت نعيا يئول الى الزوال ويفضى بصاحبه الى النكال . قال فسكت يوقنا وخرج من عنده وجعل يتجسس عليه ومضى ووقف على الطريق الذى يمضى الى المسلمين فركب فلنطانوس وخرج من سرادقه فوجد بنى عمه قد أخذوا أهبتهم وهم أربعة آلاف فارس وقدموا عزمهم وساروا يدا واحدة يطلبون جيش الموحدين وقد تركوا عزهم وفارقوا دينهم ، فلما قربوا من جيش المسلمين ظهر لهم يوقنا وبنو عمه المائتان . فقال يوقنا لفلنطانوس : أيها الملك عوّلت على أن تكبس المسلمين فقال لا والقديم الأزلى وانما أنا قاصد إليهم وداخل فى دينهم وملتهم وأكون من جملتهم ، فن نظر الى الدنيا بعين الفناء عمل للآخرة فما الذى يمنعك يايوقنا مما نحن عوّلنا

عليه ؟ . فقال يوقنا أيها الملك لقد جذبك جاذب الحق عن طريق الضلال ثم انه حدثه بحديثه وانه عازم على أن يغدر بالروم فقبله فلنطانوس وفرح بمقالته وقال له كيف تقدر على ذلك وما أرى معك الا نفرا يسيرا . فقال أيها الملك ان فى داخل بيتى مائتين من المسلمين من أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من فى مقام عشرين ألفا من الروم ، ولقد رأيت أن تعود أنت وقومك ولا تستعجل ونبعث رجلا الى أمير المسلمين يخبره بما نحن معوّلون عليه فاذا كان غدا تقف أنت وجيشك حول الملك هرقل وأدخل أنا البلد وأطلق المائتى أسير وأعطيهم سلاحا ويحمل جيش العرب وتحمل أنت وعسكرك على مركب هرقل وتقصده أنت بنفسك فتقبض عليه وتكون قد جاهدت وأسير أنا ومن معى فى داخل البلد فنملكها إن شاء الله تعالى ، وان أردت أن ترجع الى دار ملكك ويكون أمرك مكتوما علينا فحوّل أمر جيشك لمن تثق به من بنى عمك . قال فلنطانوس مافعلت هذا ولى نية فى ملكى ولافى ملك الدنيا ، بل اذاقضى هذا الأمر ونصر الاسلام قصدت مكة فأحج وأزور قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أرجع الى بيت المقدس فأقيم فيه الى أن أموت ، فمن يذهب الى أمير العرب برسالتى ويخبرهم بما قد عوّلنا عليه ؟ فقال له يوقنا : اعلم ان لهم عندنا عيونا وجواسيس ممن هو تحت ذمتهم وأنا أعلمهم بما قد وقع ، قال فبينماهم فى الكلام تحت ستر الليل واذا بشيخ قصد اليهما فتأمله يوقنا فاذا هو عمرو بن أمية الضمرى ساعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم على يوقنا وعلى من معه ، وقال ليوقنا ان الأمير أبا عبيدة يقول لك جزاك الله خيرا عن الاسلام وانه رأى فى المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما كان من أمر صاحب رومية وما تحدثتما به وماوقع له مع قومه وماعزمتم عليه و بشره بأن الله قد غفر له ماتقدّم من ذنبه وما تأخر وقد تفتح أنطاكية ويزول عز الروم عنها وينتزع ملك صاحبها .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فتهلل وجه فلنطانوس فرحا وازداد إيمانا وقال: الحمد لله الذى هدانا للاسلام والايمان .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وذلك أن أبا عبيدة رضى الله عنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم وهو يقول يا أبا عبيدة أبشر برضوان الله ورحمته وغدا تفتح أنطاكية صلحا وان صاحب رومية المدائن الكبرى قد جرى من أمره كيت وكيت هو ويوقنا صاحب حلب وهما بالقرب منك فأنفذ اليهما بنجاز الأمر . قال فاستيقظ أبو عبيدة وقصّ رؤياه على خالد وأنفذ عمرو بن أمية كما ذكرنا . قال فلما سمع فلنطانوس ذلك اقشعرّ جلده وارتعدت فرائصه وقال : أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأشهد أن هذا الدين هو الحق اليقين ، ثم انهم عادوا وطافوا بجيش الملك كأنما يحرسون ، فبينما يوقنا قد ذهب بأصحابه من عند صاحب رومية وقد قوى عزمهم على ماذكرنا من أمر كبسهم الملك واذا بالحاجب قد لقيه والمشاعل بين يديه وقد خرج من أنطاكية ومعه ضرار بن الأزور ورفاعة بن زهير والمائتا أسير وقد عوّل على قتلهم وان يرمى غدا برؤوسهم الى المسلمين ، فلما سمع يوقنا ذلك ضاقت الدنيا عليه وقال له أيها الحاجب الكبير أنت تعلم ان المصافّ غدا واقع بيننا و بينهم فان أنتم قتلتم هؤلاء ورميت برؤوسهم الى المسلمين فانهم لايقعون بأحد منا فيبقون عليه فاتق الله ولا تعجل بذلك ودعهم عندى وراجع الملك فى أمرهم الى أن نرى مايئول أمرهم اليه . قال فتركهم الحاجب عند يوقنا ومضى الى الملك وأخبره بما قال

يوقنا . فقال له دعهم عند الدمستق فرجع عليه وقال له الملك يقول لك احتفظ عليهم فأمرهم لك فأخذهم يوقنا وسار بهم الى خيمته وصعب عليه اخراجهم من انطاكية لانه كان قد عوّل على أن يملك بهم البلد ، فلما حلوا فى خيمته حلهم من الوثاق وسلم اليهم العدد وأخبرهم بما قد عزم عليه هو وصاحب رومية من القبض على الملك هرقل . فقال ضرار والله لأرضين الرب غدا بجهادنا وكانت قد ختمت جراحاته لانه كان فى الأسر ثمانية أشهر وفرقهم مع بنى عمه .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا أبو محمد عن سعيد بن أبى مريم عن يحيى بن أيوب عن عبد الله بن مسعود أن الذى أمر باخراج الأسرى لم يكن هرقل وانما كان مملوكه الخاصّ واسمه تاليس بن رينوس وكان قد ألبسه تاجه ومنطقته وكان أشبه الخلق به وقال له كن غدا مكانى فانى أريد أن أكيد العرب وأكمن خلفهم وماذاك الا أنه رأى فى نومه كأن شخصا قد نزل من السماء وقلبه عن سريره وكأن تاجه قد طار من على رأسه ، وكأن شخصا يقول له قد قرب مابعد وقد زال ملكك من سورية وقد ذهبت دولة الشقاق والنفاق وجاءت دولة الوفاق ، وكأن ذلك الشخص قد نفخ فى عسكره فأوقد نارا فاستيقظ مرعوبا وفسر منامه على نفسه بزوال ملكه ، وكان قبل نزول العرب قد عبى خزائنه وجمع مايخاف عليه من التحف ووضعها فى المراكب من حيث لايعلم بذلك أحد من دولته وعبى الزاد والماء ، ثم انه أرسل أهل بيته فى تلك الليلة بعد مارأى فى المنام ولم يدع من حريمه وأولاده وعياله أحدا وبعده أمر مملوكه تاليس بن رينوس بما أمره أن يفعله . قال فلما ركب تاليس فما كان من أمره الا أن قال للحاجب أخرج الأسارى واضرب رقابهم فأخرجهم وأخذهم يوقنا كما وصفنا . قال حدثنا ياسر عن سليمان بن عبد الواحد عن صفوان بن بشر عن عروة بن مذعور عن محمد بن على عن عدى عن شعبة عن قتادة عن أبى الصديق الناجى عن ابن سعد . قال ماخرج هرقل من انطاكية الا وهو مسلم وذلك أنه كتب الى عمر بن الخطاب فى السرّ من قومه ان بى صداعا لايسكن فانفذ الىّ بدواء أتداوى به فأرسل اليه قلنسوة فكان اذا وضعها على رأسه سكن صداعه واذا رفعها عاد اليه فتعجب من ذلك وأمر بفتحها فاذا فيها مكتوب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال هرقل ما أكرم هذا الاسم وأعزه حيث شفانى الله به وكانوا قد توارثوا هذه القلنسوة الى أن وصلت الى صاحب عمورية ، فلما كان يوم المعتصم ونزل عليها عرض للمعتصم صداع فأرسل اليه صاحب عمورية بالقلنسوة ، فلما وضعها على رأسه سكن مابه فأمر المعتصم بفتحها فاذا فيها الرقعة ومكتوب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] . وأما ما كان من أمر تاليس ، فلما أصبح ركب ورتب عساكر الروم عن آخرها ودارت المواكب حول تاليس بن رينوس ، وكان كل من رآه يظن أنه هرقل ولايشك فيه ودار بموا كبه عسكر فلنطانوس صاحب رومية وركب يوقنا ومن معه وهم متنكرون تحت السلاح ، فكان أوّل من حمل خالد بن الوليد بجيش الزحف . قال وتبعه سعيد بن زيد وتبعه قيس بن هبيرة وتبعه ميسرة وبعده عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق وذو الكلاع الحميرى وأمثالهم وأطبق الناس بعضهم على بعض ، فلما اشتبكت الحرب هجم يوقنا ومن معه وحمل ضرار فلله درّه لقد أعطى السيف حقه وأخذ بثأره من الروم وكلما قتل واحدا صاح وااثاراه أسر ضرار بن الأزور ، وكان قد قصد عسكر المتنصرة هو وأصحابه ورفاعة بن زهير يشجعهم

و يوبخهم ويقول خذوا بثاركم ممن أسركم واحملوا ، و إياكم أن تفشلوا واعلموا أن الجنة قد فتحت أبوابها وزينت حورها وقصورها وأشرف بنيانها ومرح ولدانها وتجلى ديانها ، ثم صاح يافتيان العرب أيكم يرغب فى زواج الحور فان بذل النفوس هى المهور ومن يريد عرسا فى الجنان و يقوم فى خدمته الولدان ، من يرغب فيما قال الملك الديان ــ متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ــ أين من شهد بدرا وحنين مع سيد الكونين ، أين من يزيل عن قلبه حجاب الغفلة والرين ؟ وافقوا قوما صارت هممهم الى دار الأزل فأناخوا بباب من لم يزل محبوبهم ، فأراد الحق أن يوقفهم على منازلهم ليزيدوا فى حسن أفعالهم فكشف عن سرائرهم فرأوا دارا بناؤها النور قواعدها من الرحمة حيطانها من الذهب ملاطها المسك ماؤها من الحيوان حصباؤها الدر والجوهر ترابها الكافور والعنبر سورها المجيد اللطيف ستورها الكريم أشجارها لااله الا الله أغصانها محمد رسول الله ثمارها سبحان الله والحمد لله عرضها السموات والأرض سقفها عرش الرحمن ، فلما كشف لهم عن هذه الأسرار اشتاقوا الى سكنى الدار ، قيل لهم لن تصلوا اليها الا ببذل النفوس فى رضا الملك القدوس ، ثم خلع عليهم خلع الاحسان وتوجهم بتيجان الرضوان ونشر على رؤسهم رايات الغفران مرسوم على طرازها بقلم السر المكنون ــ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ــ لقد بذلوا النفوس فى رضا القدوس .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فبينما ضرار يحمل فى الأعداء و يذيقهم شراب الردى واذا هو بفارس يطحطح الكتائب و يفرق المواكب و يصيح واثارات ضرار بن الأزور فتأمله فاذا هو أخته خولة فناداها دارك يابنت الأزور أنا والله أخوك فأقبلت لتسلم عليه . فقال لها اليك عنى ماهذا وقت سلام ، وان قتال الكفر أفضل من كلامك يابنت الأزور فاجعلى عنانك مع عنانى وسنانك مع سنانى وجاهدى فى سبيل الله ، فان قتل أحدنا فالملتقى فى الحشر عند حوض سيد البشر ، فبيناهم فى ذلك إذ نظر الى جيوش الروم وقد تقهقرت وفرسانهم قد انهزمت وكان السبب فى ذلك أن صاحب رومية رحمه الله لما رأى الحرب قد أضرمت نيرانها وعلا دخانها حمل بأصحابه وقصد تاليس بن رينوس فقبض عليه وهو يظن أنه هرقل فصاح الصائح ان الملك هرقل قد قبض عليه فلنطانوس ملك رومية وغدر به فولت الروم الأدبار وقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها الا بأجنادين واليرموك ، وقتل من العرب المتنصرة زهاء من اثنى عشر ألفا وطلب جبلة ولده فلم يرلهم خبرا فقيل انهم وأكابر قومهم ركبوا مع الملك هرقل فى المراكب ، وكان جملة من هرب من سادات المتنصرة مع جبلة وابنه خمسمائة من جملتهم ابن عمه قرطة وعروة بن وائق ومرهف بن وائق وهمام بن سالم وشيبان بن مرة . قال فسكنوا جزائر البحر فمن نسلهم هذه الافرنج . قال وأخذ المسلمون ما كان من السرادقات والخيام والديباج والمتاع والخزائن وأسروا ثلاثين ألفا وقتلوا من الروم سبعين ألفا وولت العرب المتنصرة منهزمين ، فمنهم من أخذ نحو الدروب ومنهم من طلب قيسارية الى قسطنطين بن هرقل ، فلما وضعت الحرب أوزارها وخمدت نارها جمعوا الأموال والأثقال والأسرى بين يدى أبى عبيدة ، فلما نظر الى ذلك سجد لله شكرا وسلم المسلمون بعضهم على بعض ، وجاء ضرار وأصحابه و يوقنا وفلنطانوس وأصحابه وسلموا على المسلمين وفرحوا بهم ، فلما وصل فلنطانوس قام اليه المسلمون وقال كبار الصحابة سمعنا نبينا صلى الله عليه وسلم يقول

اذا أتا كم كريم قوم فأكرموه . قال فنظر فلنطانوس الى تواضعهم وحسن سيرتهم وكثرة عبادتهم فقال هؤلاء والله القوم الذين بشر بهم عيسى عليه السلام ، قال فأسلم بنو عمه عن آخرهم وجاهدوا فى الكفار الى أن فتحوا جميع الأمصار و بعدها مضى فلنطانوس الى مكة فحج وزار قبر النبي صلى الله عليه وسلم المختار ، وسلم على عمر رضى الله عنه ، فلما رآه وثب اليه قائما وصافحه هو وجميع المسلمين وعاد الى بيت المقدس فجلس يعبد الله فيه حتى أتاه اليقين .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ونظر أبو عبيدة الى جيش انطاكية وقد تحصنوا فيها وهم لايحصون . فقال اللهم اجعل لنا الى فتحها من سبيل وافتح لنا فتحا مبينا . قال وكان على انطاكية بطريق اسمه صليب بن مرقس ، وكان جاهلا فى رأيه فعزم على القتال من داخل السور فاجتمع أكابر البلد الى البترك فى الليل وقالوا له اخرج الى هؤلاء العرب وصالح بيننا و بينهم على ماتقدر عليه . قال فخرج البترك الى أبى عبيدة وحدثه فى الصلح فأجابه الى ذلك ، فكان جملة ماصالح عليه أهل أنطاكية ثلثمائة ألف مثقال من الذهب ، فلما تقرر الصلح قال له أبو عبيدة احلف لنا انكم لاتغدرون بنا فان مدينتكم مانعة كثيرة الجبال والوعر . فقال خالد ومن يحلفه ؟ فقال أبو عبيدة يوقنا . قال فوضع يوقنا يده على رأس البترك فوق يده وقال قل والله والله والله أربعين مرة ، والا قطعت زنارى وكسرت صليبى واعتنق الشمامسة والديرانيون وخلعت دين النصرانية وذبحت الجمل فى جرن ماء المعمودية ونجستها ببول مولود من أولاد اليهود وقتلت كل الشهود ، والا خرقت شدائد مريم وعصبت رأسى ، و إلا ذبحت القسوس وصبغت بدمائهم ثوب عروس ، والا جعلت مريم زانية به ، والاجعلت فى المذبح حيضة يهودية ، والا أطفأت قناديل بيعة جرجيس وجعلت عزيرا فى مقام كالوس ، والاتزوّجت يهودية طامثة لاتاتى أبدا والا غسلت أثوابى صبيحة يوم الجمعة وهدمت الكنائس والبيع وأحللت الأعياد والجمع ، والاعبدت اللاهوت وجحدت الناسوت ، والا أكلت لحم الجمل يوم الشعانين ، والا صمت رمضان عاطشا وكنت للحم الرهبان ناهشا ، والاصليت فى ثياب اليهود وقلت أن عيسى دباغ الجلود اننا لانغدر بكم ولا كنا الامعكم .

[قال الواقدى رحمه الله] فعندها قام أبو عبيدة ودخل انطاكية وكان دخوله لخمسة أيام مضين من شعبان سنة سبع عشرة من الهجرة فدخله و بين يديه اللواء الذى عقده له أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه وعن يمينه خالد بن الوليد وعن يساره ميسرة بن مسروق ودخلها والقراء بين يديه يقرءون سورة الفتح ، فلم يزل سائرا حتى وصل الى باب الجنان فنزل هناك وخط هناك مسجدا وأمر ببنائه و به يعرف الى يومنا هذا . قال ميسرة بن مسروق فنظرنا الى بلد رطب طيب الهواء كثير الماء والخيرات ، فاستطابه المسلمون ووددنا لوأقمنا فيه شهرا لنستريح ، فما تركنا أبو عبيدة فيه غير ثلاثة أيام ، ثم إنه كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : سلام عليك و إنى أحمد الله اليك الذى لاإله إلا هو ، وأصلى على نبيه محمد ﷺ وأشكره على مافتح علينا ورزقنا من الغنيمة والنصر وأعلمك ياأمير المؤمنين أن الله عزّ وجلّ قد فتح على المسلمين كرسى النصرانية ، مدينة انطاكية وكسر الله عسكرها ، ونصرنا الله عليهم وهرب هرقل فى البحر و إنى لم أقم بها لطيب هوائها و إنى خشيت على المسلمين أن يغلب حب الدنيا على قلوبهم فيقطعهم عن طاعة ربهم و إنى معوّل على المسير الى حلب و إنى منتظر أمرك ، فان

أمرتني أن أسير إلى داخل الدروب فعلت ، وان أمرتني بالمقام أقمت ، واعلم ياأمير المؤمنين أن العرب قد نظرت إلى بنات الروم فدعتهم أنفسهم إلى التزوّج فمنعتهم من ذلك ، وانى أخشى عليهم الفتنة الامن عصمه الله ، فعجل إلىّ بأمرك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين . وطوى الكتاب وختمه ، وقال : معاشر المسلمين من يسير بكتابى هذا إلى أمير المؤمنين ؟ فأسرع بالاجابة زيد بن وهب مولى عمير بن سعيد مولى عمرو بن عوف ، فقال أنا أيها الأمير أوصله ان شاء الله تعالى ، فقال أبو عبيدة يازيد أنت لست مالك نفسك ، وإنما أنت مملوك ، فان أردت المسير فسل مولاك أن يأذن لك فى ذلك ، فأسرع زيد إلى مولاه عمير فانكب على يديه يقبلهما فمنعه من ذلك ، وذلك أن عميرا كان رجلا زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة . مايملك من الدنيا سوى سيفه ورمحه وفرسه وبعيره ومزادته وقصعته ومصحفه ، وكان الذى يصيبه من الغنائم لايدخر منه ولا يأخذ الا مايقوته ، وكان يفرق الباقى على قرابته وقومه ، فان فاض شىء يرسله إلى عمر رضى الله عنه يفرّقه على فقراء المسلمين المهاجرين والأنصار . قال فلما أراد زيد أن يقبل يد سيده منعه ، وقال له مالذى تريد ؟ . فقال يامولاى تأذن لى أن أكون رسولا للمسلمين بشيرا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فقال عمير بن سعيد تريد أن تكون بشيرا للمسلمين وأمنعك من ذلك . انى إذا لآثم ، امض فأنت حرّ لوجه الله تعالى ، وأرجو بعتقك أن يجيرنى الله من النار . قال ففرح زيد بذلك وعاد إلى أبى عبيدة فأخبره أنّ ببركة كتابه صار حرّا فسرّ أبو عبيدة وسار زيد على نجيب من نجب اليمن دفعه اليه وكان سابقا . قال فجعل زيد يطلب أقرب الطرق حتى قدم المدينة ودخلها ، واذا بها ضجة عظيمة ولأهلها ضجيج وهم يهرعون نحو البقيع وقباء ، فقلت لنفسى ان لهم أمرا فتبعتهم لأرى ماشأنهم وأنا أحسب أنهم يريدون حربا فرأيت رجلا فعرفته فسلمت عليه فعرفنى ، وقال أنت زيد ؟ قلت نعم . قال الله أكبر ماوراءك يازيد ؟ . قلت البشارة والغنيمة والفتح . قلت مافعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؟ . قال إنه خارج يريد الحج ومعه أزواج النبى ﷺ يحج بهن والناس يشيعونه . قال زيد بن وهب : فأنخت بعيرى وعقلته وأسرعت مهرولا حتى وقفت بين يدى عمر رضى الله عنه وهو يمشى راجلا ووراءه مولاه يقود بعيرا وقد رحله بعباءة قطوانية وزاده وجفنته عليه ، والهوادج بين يديه سائرة ، وعن يمينه على بن أبى طالب ، وعن يساره العباس ابن عبد المطلب ، ومن ورائه المهاجرون والأنصار وهو يوصيهم بالمدينة . قال زيد بن وهب : فلما وقفت بين يديه ناديت : السلام عليك ياأمير المؤمنين أنا زيد بن وهب مولى عمير بن سعيد أتيتك بشيرا . قال عمر بشرك الله بخير فما بشارتك ؟ قلت هذا كتاب من عاملك أبى عبيدة يخبرك أن الله قد فتح على يديه أنطاكية . قال فلما سمع عمر بذكر أنطاكية وان الله فتحها خرّ لله ساجدا يمرغ خدّيه على التراب ، ثم إنه رفع رأسه من سجوده وقد تترب وجهه وشيبته من التراب ، وهو يقول : اللهم لك الحمد والشكر على نعمك السابغة ، ثم قال هات الكتاب رحمك الله فناولته اياه ، فلما قرأه بكى ، فقال له علىّ كرّم الله وجهه مم بكاؤك ؟ . قال مما صنع أبو عبيده بالمسلمين وبما استعقب رأيه فى الموحدين ، ثم قال ان النفس لأمارة بالسوء ودفع الكتاب الى علىّ فقرأه على المسلمين الى آخره . قال زيد بن وهب : ثم رأيت عمر قد هدأ من بكائه ، وقد زاد فرحه وأقبل علىّ ، وقال يازيد إذا عدت فأمعن النظر فى إتيانها وأعنا بها واحمد الله كثيرا ، فقلت ياأمير

المؤمنين ليس هـذا أوانه . قال ثم جلس عمر على الأرض ودعا بدواة وقرطاس وكتب إلى أبى عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر إلى عامله بالشام أبى عبيدة عامر ابن الجراح ، سلام عليك وانى أحمد الله الذى لا اله إلا هو وأصلى على نبيه وأشكره على ماوهب من النصر للمسلمين ، وجعل العاقبة للمتقين ، ولم يزل بنا لطيفا معينا . وأما قولك لم نقم بانطاكية لطيبها ، فان الله عز وجل لم يحرّم الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، فقال ـ ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ـ ، وقال ـ ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقنا كم واشكروا لله ـ الآية فكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون فى مطعمهم ويريحون أبدانهم من نصب القتال مع من كفر بالله ، وأما قولك انك منتظر أمرى فلذى آمرك به أن تدخل وراء العدوّ وتفتح الدروب فانك الشاهد وأنا الغائب ، وقد يرى الشاهد مالا يراه الغائب وأنت بحضرة عدوّك وعيو نك تأتيك بالأخبار ، فان رأيت أن دخولك إلى الدروب بالمسلمين صواب فابعث اليهم بالسراية وادخل معهم إلى بلادهم وضيق عليهم المسالك ، ومن طلب منك الصلح فصالحهم ووفّ لهم بما تقدر ، وأما قولك ان العرب أبصرت نساء الروم فرغبت فى التزوّج ، فمن أحبّ ذلك فدعه ان لم يكن له أهل بالحجاز ، ومن أراد أن يشترى الاماء فدعه فان ذلك أصون لفروجهم وأعف لنفوسهم ، وما تحتاج أن أوصيك فى أمر فلنطانوس صاحب رومية أوسع عليه فى النفقة وعلى من معه فانه قد فارق أهله وملكه وأمره ونهيه والسلام عليك وعلى جميع المسلمين . وطوى الكتاب ودفعه لزيد بن وهب ، وقال له انطلق رحمك الله وأشرك عمر فى ثوابك ، فأخذ زيد الكتاب وهمّ أن يسير فأمره أن يقف ، وقال له على رسلك حتى يزوّدك عمر من قوته ، ثم ان عمر أناخ راحلته وأخرج له تمرا وأعطاه صاع تمر وصاع سويق وقال يازيد اعذر عمر فهذا ماأمكنه ، ثم ان عمر قبل رأس زيد بن وهب فبكى زيد ، وقال ياأمير المؤمنين أو بلغ من قدرى أن تقبل رأسى وأنت أمير المؤمنين وصاحب سيد المرسلين ، وقد ختم الله بك الأربعين فبكى عمر ، وقال أرجو أن يغفر الله لعمر بشهادتك . قال زيد بن وهب : فاستويت على كور ناقتى وهممت بالمسير فسمعته يقول : اللهم احمله عليها بالسلامة واطوله البعيد وسهل له القريب إنك على كل شىء قدير . قال زيد بن وهب : ففرحت بدعوة عمر رضى الله تعالى عنه وعلمت أن الله لايردّ دعوته إذ كان لربه طائعا ولنبيه تابعا ، فجعلت أسير والأرض تطوى لى تحت أخفاف مطيتى فكنت والله فى اليوم الثالث عند أبى عبيدة ، وقد رحل عن انطاكية وقد نزلت على حازم . قال زيد : فلما وصلت الى عساكر المسلمين سمعت ضجة وجلبة وقد ارتفعت الأصوات فسألت رجلا من أهل اليمن ماسبب ذلك ؟ . قال فرحا بما فتح الله على المسلمين . وهذا خالد قد أتى وكان قد ضرب على شاطئ الفرات وأغار بخيله، وقد صالحه أهل منبج وبزاعة وبالس وأتى برجالهم وأموالهم وافتتحها صلحا ، وقد فتح منبج وبزاعة وبالس وقلعة نجم فى العشر الأوسط من المحرّم سنة ثمانى عشرة من الهجرة وصالحهم بعد ردّ أموالهم على مائة ألف وخمسين ألف دينار وأخذها بعد ان نزل صاحبهم جرفناس وسار بأمواله وأثقاله وعبيده وخيوله إلى بلاد الروم وولى على منبج عباد ابن رافع التميمى ، وعلى الجسر نجم بن مفرح ، وولى على بزاعة أوس بن خالد الرابعى وعلى بالس بادر بن عوف الحيرى وبنى له بها قلعة إلى جانب بالس من الشرق وسماها باسمه وعاد خالد بالأموال

والأثقال يوم قدوم زيد بن وهب . قال فأتيت أبا عبيدة وهو جالس وخالد إلى جانبه ، وقد قدّم مال الصلح فأنخت ناقتي وسلمت عليهم ودفعت الكتاب إلى أبي عبيدة ففضه وقرأه على المسلمين ، فلما سمعت المسلمون مافيه . قال أبو عبيدة : معاشر المسلمين ان أمير المؤمنين قد جعل أمر الدخول إلى الدروب إليّ ، وقال أنت الشاهد وأنا الغائب وأنا لاأفعل شيئا الا برأيكم فما تشيرون عليّ أن أفعل رحمكم الله ؟ فلم يجبه أحد ، وأعاد القول ثانيا فلم يجبه أحد ، والله أعلم .

تم الجزء الاول

ويليه : الجزء الثاني : أوّله ذكر غزوة مرج القبائل داخل الدروب

فهرس

الجزء الأول من فتوح الشام ، للعلامة الواقدى

صحيفة

[تمت]

فتوح الشام

تاليف

أبى عبد الله محمد بن عمر الواقدى

(المتوفى ببغداد سنة ٢٠٧ هـ)

الجزء الثانى



مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م — رقم ٥٣٢

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر غزوة مرج القبائل داخل الدروب

فقال : معاشر المسلمين هذا الشام قد ملكتموه وملككم الله اياه وأخرج عدوكم منه بالذل والهوان ، وأورثكم أرضهم وديارهم : كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز ، فاتشيرون به علىّ ؟ أندخل فى هذه الدورب وراء أعدائنا فلم يجبه أحد فأعاد الكلام . ثم قال ماهذا السكوت أفشل بكم بعد الشجاعة ، أم كسل بعد النشاط ، أم قد انتقيتم من الحسنات ولم يبق عليكم من الذنوب ، وان الحسنات لكم كثيرة ، ولم يبق عليكم خطيئة فالرغبة الى الله أن يعينكم على الجهاد ، فهو خير لكم من الدنيا ومافيها . قال فكان أوّل من تكلم ميسرة بن مسروق العبسى ، فقال أيها الأمير انا لم نسكت لجزع لحقنا ولالفزع رهقنا ، وانما بعضنا ينتظر بعضا اجلالا وأدبا ، واعلم أيها الأمير أنه مالنا تجارة ولاعمل غير الجهاد فى أعداء الله وطلب ماعند الله ، وهانحن لك وبين يديك ومنك الأمر ومنا الطاعة لله ولرسوله ولك ، وأما أنا فلا أملك الا نفسى فوجهنى حيث شئت تجدنى طائعا ، فقال أبو عبيدة : معاشر المسلمين من له رأى وحضرته مشورة فليلقها ويظهر ماعنده ، فقال خالد أيها الأمير ان اقامتنا عن طلب القوم وهن وعجز منا فى ديننا وطلبهم هو الغنيمة ، والنصر من عند الله ، والذى أشير به أيها الأمير أن تبعث الجيوش فى كل درب من هذه الدروب . فان ذلك يوهن العدوّ وتقر به أعين المسلمين . قال فجزاه أبو عبيدة خيرا ، وقال ياأبا سليمان انى قد رأيت ان أعقد لميسرة عقدا وأسير معه رجالا لأنه هو أوّل من سارع الى هذا الأمر وأشار به ، فيفتح الله لهم الدروب ويغير على ماقرب من البلاد ويرجع فيخبرنا عن خبر البلاد فنعمل على حسب مانرى ، فقال خالد هذا هو الصواب فعقد لميسرة وانتخب له من القبائل ثلاثة آلاف فارس من الشجعان وألف عبد من السودان ، وجعل من كل قبيلة نقيبا ، وجعل على العبيد دامسا أبا الهول ، قال فلبسوا أكمل السلاح وكل منهم يقول انه يلقى الكتيبة وحده ، وجعل أمير القوم ميسرة ، وقال أبو عبيدة ياأبا الهول كن أنت بجماعتك فى أوائل العسكر ولاتخالف ميسرة فيما أشار به . فانه مبارك الطلعة ، فقال سمعا وطاعة . قال وجهز القوم . ثم ان خالدا قال أيها الأمير أرسل معهم أدلاء يعرفونهم الطريق ويكونون لهم عيونا على

أعدائهم فطلب لهم من أهل حلب من المعاهدين من يكون ناصحا لهم فاختاروا لهم أربعة وأعطاهم أبو عبيدة وأحسن اليهم وطرح عنهم الجزية ، وقال لهم فى أى درب يكون دخول المسلمين فى طلب العدوّ ؟ فاجتمع رأيهم على أن يدخلوا فى الدرب الأعظم من بلد قورص . ثم انهم قالوا أيها الأمير ان هذه الضروب ليست كمثل البلاد التى فتحتموها بل هى بلاد شديدة البرد كثيرة الشجر والمدر والحجر وفيها مضايق وشعاب وأودية وكهوف وعقبات ، فقال أهل اليمن سيروا أنتم أمامنا فانكم ترون منا عجبا فسار أبو الهول والمعاهدون أمامه وسار ميسرة فى أعقابهم بعد ماودعوا الناس ومضوا وهم بالتهليل والتكبير وقراءة القرآن والمسلمون يدعون لهم بالنصر والسلامة . قال عطاء بن جعدة وسرنا والدليل أمامنا حتى أتينا عقبه حنداس فقطعناها وعبرنا نحو الساجور وأتينا قورص فنزلنا فيها وبتنا ، فلما أصبحنا ودخلنا الدروب وجدنا بها أرضا وعرة وأشجارا ومياها جارية ومضايق ليس للفرس فيها مجال فهالنا وحشة ذلك المكان اذ ليس للعرب فيه مجال ولافسحة ، فقلت فى خاطرى ان طالت علينا هذه الأودية خشيت على المسلمين أن يظفر بهم عدوّهم والأدلاء أمام المسلمين ، وقد تعلقوا فى جبال شامخة صعبة الصعود فلم يبق أحد الاوترجل عن فرسه ، قال ومشينا حتى تقطعت نعالنا وسال الدم من أرجلنا فنزل على ذلك ثلاثة أيام والأدلاء يقولون لنا كونوا على يقظة ، فان أخذ عليكم المجاز هلكتم ، فلما كان فى اليوم الرابع خرجنا الى أرض واسعة ، وكان دخولنا الى بلاد الروم فى أوّل الصيف ونحن مخففون من الثياب ولما دخلنا الى تلك الأرض وجدنا بردا كثيرا ونظرنا الى الثلج ، وهو على الجبال عن يمننا وشمالنا . قال وكان دامس أبو الهول لم يأخذ معه ثيابا تدفئه فحصل له من البرد مالايحصل لغيره ، فقال قبح الله تلك البلاد ، فاذا كان هذا البرد عندهم فى الصيف فكيف يكون فى الشتاء ، وجعل يرتعد فرآه ميسرة ، فقال ياأبا الهول مالى أراك ترتعد ، فقال أخذنى البرد وليس معى مايدفئنى فدفع اليه فروة فلبسها فدفئ ، فقال كساك الله من ثياب الجنة .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وساروا الى أن وصلوا الى أرض طيبة كثيرة المياه قليلة الشجر فنزلوا فيها . ثم انهم ساروا فلم يروا أحدا لأن الروم كانوا قد نزحوا عن البلاد لحذرهم من المسلمين ، فلما كان فى اليوم الخامس ونحن سائرون اذ لاحت لنا قرية فقصدها المسلمون ، واذا هى خالية بل سمعوا أصوات الديوك والغنم فدخلوها فلم يجدوا عندها مانعا ولادافعا فعرفنا أنهم تواروا عنا فصاح ميسرة ، وقال خذوا حذركم . فان القوم قد انهزموا فدخل الناس الى القرية فأخذوا ما كان فيها من طعام وأثاث ومتاع ، قال سعيد بن عامر : فرأيت أبا الهول ، وهو يحمل على عاتقه ثلاثة أكسية وقطعتين . قال فقلت له ياأبا الهول ماهذا ؟ فقال استمدّ به لبرد هذه البلاد الخبيثة فما أنساها أبدا . قال وأخذوا ما كان فى القرية من طعام وعلوفة وساروا الى آن وصلوا الى مرج يقال له مرج القبائل ، وهو مرج واسع فانبثت الخيل فيه يمينا وشمالا ونزل الجيش هناك وميسرة يراود نفسه فى الرجوع الى حلب ، وذلك أن أبا عبيدة كان قد أمره أن لايبطئ عنه ، وأن يكون حذرا ، فبينما هو كذلك والخيل منبثة والناس آمنون من عدوّ يدهمهم اذ أقبل بعض الخيالة ومعه علج يقوده ، فلما وصل الى ميسرة ، قال له ماشأن هذا ومن أين أخذته ؟ فقال اعلم أيها الأمير أنى سبقت أصحابى فرأيت شخصا يلوح مرة ويختفى مرة فأسرعت اليه . فاذا

هو هذا فأتيته وسقته اليك . قال فتقدم اليه رجل من المعاهدين فسأله فحدثه فأطال معه الكلام والناس سكوت ، فلما أطال . قال ميسرة و يلك ماالذى يقول هذا العلج ؟ فقال أيها الأمير انه يقول ان الملك هرقل لماركب البحر وخرج من انطاكية ووصل الى قسطنطينية قصدته الروم من كل مكان من المنهزمين وغيرهم ، و بلغه أن انطاكية قد فتحت صلحا وأنه قتل من كان فيها من المقاتلة فصعب عليه و بكى ثم قال : السلام عليك ياأرض سوريا الى يوم اللقاء ، وقد تجمع عنده من البطارقة والحجاب وغيرهم خلق كثير ، فقال لهم انى أخاف من العرب أن ترسل فى طلبنا . ثم انه جهز ثلاثين ألفا مع ثلاثة بطارقة وأمرهم أن يحفظوا له الدروب ، فقال له ميسرة قل له كم بيننا و بينهم ؟ قال يقول لكم فرسخان . قال فلما سمع ذلك ميسرة أطرق الى الأرض لايردّ جوابا ولا يبدى خطابا ، فقال له رجل من آل سهم يقال له عبد الله بن حذافة السهمى ، وكان من أبطال الموحدين وشجعانهم ، وكان له عمود من حديد ، وكان يقاتل به لا يقله فى الحرب سواه وكان ذميم الخلقة ، فقال لميسرة بن مسروق مالى أراك أيها الأمير مطرقا الى الأرض اطراق الحصان لصلصلة اللجام والرجل منا يقاتل ألفا من الروم ، فقال والله ياعبد الله ماأطرقت خوفا ولا جزعا ، ولكن خوفا على المسلمين أن يصابوا تحت رايتى وهى أول راية دخلت الدروب فيلومنى عمر بن الخطاب وكل راع مسئول عن رعيته ، فقال المسلمون والله مانبالى بالموت ولا نفكر فى الفوت لأننا قد بعنا أنفسنا بجنة ربنا ومن يعلم أنه ينقل من دار الفناء الى دار البقاء فلايبالى بماوصل اليه من الكفار ، ثم انه قال أيها الناس أترون أن نلقاهم فى موضعنا هذا أونسير اليهم ؟ فسألوا المعاهد ، وقالوا ان كان موضعهم أفسح من هذا رحلنا اليهم ، فقال ليس من هذه البلاد بعد عمورية أفسح من هذا المكان ، فان عوّلتم على لقائهم فاثبتوا مكانكم ، وان عدتم الى ورائكم كان خيرا لكم من قبل أن يشرف عليكم عدوّكم . قال فعرض ميسرة على العلج الاسلام فأبى فضرب عنقه ، فبيناهم على ذلك اذأشرفت عليهم الروم فنزلوابازائهم وكانوا كالجراد المنتشر ، وكان قد مضى النهار فأضرمت النيران ، فلما أصبح الصبح صلى ميسرة بالناس صلاة الفجر ، فلما فرغ قام فى الناس خطيبا ، فقال أيها الناس هذا يوم له مابعده ، وان رايتكم هذه أول راية دخلت الدروب . واعلموا أن اخوانكم مطاولون لفعلكم ، واعلموا أن الدنيا دار ممرّ والآخرة دار مقرّ واسمعوا ماقال نبينا ﷺ «الجنة تحت ظلال السيوف» ولاتنظروا الى قلتكم وكثرة أعدائكم ، فقد قال تعالى — كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين — فقال المسلمون اركب بنا ياميسرة على بركة الله والقهم بنا ، وانا لنرجو من الله النصر عليهم . قال فاستبشر بقولهم وركبوا وانفصلت العبيد من العرب ووقفوا تحت راية أبى الهول وأخذوا على أنفسهم لقتال عدوهم واستنصروا بربهم ، وهو يوصيهم ، وجعل على الميمنة عبد الله بن حذافة السهمى وعلى الميسرة سعد بن أبى سعيد الحنفى وقدم العبيد مع أبى الهول فلم ينطق بكلمة وركب جيش الروم ومدوا صفوفهم ثلاثة صفوف كل صف عشرة آلاف وأمامهم الصلبان وهم فى عددهم وعديدهم ، فلما استوت الصفوف خرج رجل من الروم من المتنصرة وقرب من المسلمين ، وقال ان الباغى بغيه يرديه أما كفاكم ماملكتموه من الشام العظيم حتى اقتحمتم هذه الجبال ، وانما ساقتكم الآجال وهنا ثلاثون ألف عنان ، وقد حلفوا بالصلبان أن كلا منهم

لا ينهزم وان وقع ميتا ، فان أردتم أن نبقى عليكم فاستسلموا للأسر حتى يحكم الملك هرقل فيكم بما يريد فخرج أبو الهول والراية بيده ، وقال له صدقت فى قولك ان الباغى يرديه بغيه . وأما قولك انا نلقى اليكم بأيدينا لتبقوا علينا فانت إذا باغ بقولك هذا اذ نطقت بغير تجربة منكم وها أنا عبد من عبيد العرب لاقدر لى ولاقيمة عند ذوى الرتب فاقرب منى حتى أجندلك صريعا تخور فى دمك ، ثم ان دامسا همز حصانه اليه وطعنه فارداه عن فرسه قتيلا . ثم جال على فلوه وهز رايته ، وقال الله أكبر فتح الله ونصر وجاءنا بالظفر ونظرت الروم الى أبى الهول ، وقد قتل صاحبهم وكان من شجعانهم فغضبوا لذلك فخرج اليه آخر فتاركه يقرب منه حتى طعنه فى نحره فأخرج السنان من ظهره ونظر الروم الى ذلك ، فقالوا هذا عبد من عبيد العرب قد فعل ما ترون . قال فلم يجسر أحد أن يخرج اليه فاغار عليهم وقتل من القلب واحدا واحدا ورجع . قال فحمل عليه صف من الصفوف وهم عشرة آلاف ودهموه بالخيل فحملت العبيد وحملت المسلمون والتقى الجمعان . قال ميسرة ، فلله در العبيد لقد أبلوا بلاء حسنا واستنقذوا أبا الهول من عين الهلاك وهم يقولون نحن عبيد لعباد الله وضربنا مثل الحريق فى سبيل الله ونقتل من كفر بالله ، قال ولم يزل الحرب بينهم حتى قامت الشمس فى قبة الفلك وحمى عليهم الحر وافترق الجمعان ، قال وان المسلمين موقنون بالظفر والنصر ، والمشركون قد أيقنوا بالهلاك ، وقد قتل منهم خلق كثير وأسر من الروم تسعمائة وقتل منهم زهاء من ألف ، فلما انفصل الجمعان افتقد المسلمون أبا الهول فلم يجدوه ، فقال ميسرة ان كان أبو الهول قد قتل أو أسر فقد أصبنا به والى الله تعالى أشكو ما أصابنا من فقد أبى الهول وأسر من المسلمين عشرة . ثم ان ميسرة ، قال من فيكم يكشف لنا خبرهم ، واذا بالروم قد عادوا للقتال وجاءوا بأجمعهم فقاتلوا قتالا شديدا فكان الرجل من المسلمين يجتمع عليه العشرة والعشرون والخمسون الى أن يقتلوه أو يأسروه ، وكانت العرب فى أربعة آلاف والروم فى ثلاثين ألفا فعظم بينهم الحرب وهاج الطعن والضرب ، فلله در ميسرة بن مسروق العبسى لقد جاهد فى الله حق جهاده وهو مع ذلك ينادى : أيها الناس اذكروا الدار الآخرة واعلموا أنها أقرب لأحدكم من رجوعه لأهله فاستقبلوها استقبال الوالدة لولدها ولا تولوا الأدبار عنها ، فان أصاب القوم منا فانى أخشى أن ذلك وهن بنا ثم انه نادى أحطموا أجفرة سيوفكم فذلك طريق النجاة . قال زيد بن وهب فلم يبق أحد من المسلمين حتى رمى بجفير سيفه ، فلما رأت الروم ذلك فعلوا مثلنا ورمى كل منهم بجفير سيفه ، وسميت تلك الواقعة باسمين وقعة مرج القبائل ووقعة الحطمة لأجل حطم أغمدة السيوف . قال واقتتلوا حتى ان الرجل يقول ان سيفه ما بقى يقطع ، والمسلمون يبتهلون الى الله والكفار تعج بكلمة كفرهم ، قال وان المسلمين يطلبون الفرج من الله ، والسودان تقاتل قتال الموت ، وكان شعار العرب فى ذلك اليوم النصر النصر ، وشعار السودان يا محمد يا محمد . قال ابن ثابت وكنت قد أخذنى القلق على المسلمين ، ونحن فى ركب عظيم اذ سمعت فى الروم ضجة هائلة واذا بهم يقاتلون أناسا من ورائهم وهم فى وسط عسكرهم والزعقات منهم قد علت وسمعت قائلا يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فقلت هذه أصوات الملائكة فاتبعت الصوت ، فاذا هو صوت دامس أبى الهول ، وهو بارك تحت حجفته ومعه العشرة المأسورون وهم يقاتلون معه ويحمون بعضهم الى أن خلصوا من بينهم ، وسمعته يقول هذه الأبيات :

يوثقنى الأعداء فى الحديد ... وناصرى وسيدى المبيد
مهلك عاد و بنى ثمود ... أغاثنى بعونه الشديد
محمد الطاهر الرشيد ... حل عنى القيد والحديد
ذاك رسول الملك المجيد ... صلى عليه الناصر الحميد

قال فحملت المسلمون وكشفوا عنهم فخرجوا وكأنهم قد غرقوا فى بحور دم ، ووالله ماقتل من المسلمين أكثر من خمسين رجلا بواحد أوباثنين ، وقتل من المشركين نيف عن ثلاثة آلاف غير ماقتله أبو الهول وأصحابه فى وسط عسكر الكفر ، فلما نظر ميسرة الى دامس أراد أن يترجل اليه فأقسم عليه أن لايفعل وافترق الجيشان فضم ميسرة دامسا الى صدره وقبله بين عينيه وقال له كيف كان أمركم ؟ . قال اعلم أيها الأمير ان الروم كانوا قد تكاثروا على فرسى فقتلوه ووقعت فأخذونى أسيرا وجعلونى فى الحديد وفعلوا بأصحابى مثلى وقد أيسنا من أنفسنا ، فلما جنّ الليل رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول لا بأس عليك يادامس اعلم أن منزلتى عند الله عظيمة ، ثم انه أمرّ يده الكريمة على الحديد فسقط منى وفعل ذلك مع أصحابى وقال لنا أبشروا بنصر الله فانا نبيكم محمد رسول الله وقال لى أقرئ عنى ميسرة السلام وقل له جزاك الله خيرا ، ثم غاب عنى فانتبهت فوجدت الموكلين بنا نياما مما لحقهم من التعب وقد رموا سلاحهم فأخذنا سيوفهم وطوارقهم وقتلناهم وحملنا فيهم ونصرنا الله عليهم ببركة رسول الله ﷺ فقتلنا منهم من قتلنا وخرجنا من بينهم سالمين وهذا حديثنا . قال فضج المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] ثم ان بطريق الروم كان اسمه جارس ، فلما رأى ماقد حل بأصحابه قال وحق المسيح خاب ملك أنتم حماته ، فان لم تقاتلوا بعزم وشدة والاقتلتكم ، قال فتحالفوا أن لاينهزموا أو يقتلوا عن آخرهم ، فلما وثق منهم أمر أن تضرم النيران على شواهق الجبال وأمر أن ينفذ النفير الى البلاد بأسرها ، قال فأتت اليه الروم من كل جانب فأتى اليه عشرون ألفا ، و إن المسلمين لم يكترثوا بذلك ، فلما كان الغد صلى ميسرة بالمسلمين صلاة الخوف وهو أوّل من صلاها داخل الدروب وأوّل راية دخلت كانت رايته ، فلما فرغ من صلاته قام فى الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وقال : أيها الناس اثبتوا لما نزل بكم فالصبر عند نزول المصائب ، وهذه رحمة من الله لنا اذ نحن فى صدور الأعداء وقد دارت بنا هذه الجيوش ونحن لانقاتل الابنصر الله لنا و إن الأمير أباعبيدة كان قد أمرنى أن لا أبعدبكم عنهم ولنا منهم الآن سبعة أيام وما يظن أبوعبيدة أننا نلاقى جيشا . فقال له سعيد بن زيد ياميسرة ما الذى تريد بهذا الكلام ؟ ان كنت تريد أنك تحرضنا فنحن أشوق الى لقاء الله من الظمآن الى الماء البارد . فقال ميسرة ماأردت بذلك الا مشورتكم ، وقد رأيت أن تنفذ الى أمير المسلمين رجلا نعلمه بما قد بلينا به وان مدد القوم يزيد فلعله ينجدنا باخواننا . فقال سعيد : نعم ماقد أشرت به فدعا برجل من الأربعة المعاهدين ووعده بكل خير وأمره أن يأخذ معه آخر وأن يسير الى أبى عبيدة ويعلمه أن نفير القوم قد لحقنا من الحصون والقرى وسائر البلاد ، وقد نزلوا بازائنا وان يحدثه بما قد رأى . قال فسار المعاهد والرجل الى حلب وأجهدا نفوسهما فى السير من طرق

يعرفانها الى أن وصلا جيش المسلمين فسقطا كأنهما البغال الهرمة من شدّة السير والتعب فأمروا أن يرش عليهما الماء ، فلما أفاقا قال لهما ماوراء كما أهلكت الكتيبة قالا لاوالله ولكن نفر عليهم العدوّ من كل مكان وأخبراه بما كان من الحرب والقتال وكيف حطموا أجفرة سيوفهم وكيف أسر أبوالهول وكيف خلص وماهم فيه ؟ فقلق ابوعبيدة عند ذلك وقام مسرعاً وأتى قبة خالد بن الوليد فوجده يصلح درعه ، فلما رآه قام اليه قائماً وقال له خيرا أيها الأمير فأخذ بيده وسار به الى أن أتى رحله وقال للرجلين قوما فحدثا الأمير بما عاينتما فحدثاه بما كان من أمر المسلمين فقال خالد ان الله سبحانه وتعالى منذ نصرنا ماخذلنا فله الحمد على ذلك وقد أمرنا بالصبر على الشدائد فقال عز من قائل — ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، وقال : ان الله مع الصابرين — وأما خالد فقال أحبس على الجهاد فى سبيل الله ولا أبخل على الله ورسوله فلعلّ الله أن ينجينى من النار ويرزقنى الشهادة ، ثم أسرع الى خيمته ولبس لامته وقلنسوته المباركة وركب جواده فوقع النفير فى الناس . قال فأقبلوا من كل جانب فلولا أن منعهم أبو عبيدة كانوا ساروا بأجمعهم ، فانتخب منهم ثلاثة آلاف فارس وأردفهم بألفين آخرين . أخبرنا أحمد بن هشام عن عياض عمن حدّثه . قال لما سار خالد بالجيش لمعونة ميسرة بن مسروق ومن معه ، رفع خالد يديه الى السماء وقال : اللهم اجعل لنا اليهم سبيلا واطولنا البعيد و يسرلنا كل صعب شديد وسار نحوالدروب . قال وأما ميسرة ومن معه فانهم دارت بهم الروم من كل جانب وهم يقاتلون فى كل يوم أشدّ القتال الى أن يقل الظلام فيفترقون ، وفى كل يوم يزيد عددهم ومددهم وقد لحق المسلمون من التعب والجراح مالحقهم ولكن من غير فشل ، وكأنهم قوم قد حجب عنهم الموت باذن الله تعالى .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدّثنا عمر بن راشد عن الزبيدى قال : لما سار خالد ليحلق ميسرة و ينجده الى داخل الدروب سجد أبو عبيدة سجدة أطال فيها ، وقال : اللهم إنى أسألك بمن جعلت اسمه مع اسمك وعرفت فضله لأنبيائك ورسلك الا طويت لهم البعيد وسهلت لهم كل صعب شديد وألحقتهم بأصحابهم ياقريب يامجيب . قال وميسرة ومن معه منتظرون من الله فرجا يأتيهم ونصرا ينزل عليهم . قال عبد الله بن الوليد الأنصارى حدثنى ثابت بن عجلان عن سليمان بن عامر الأنصارى . قال كنت مع ميسرة فى وقعة مرج القبائل ويوم حطمنا أغمدة السيوف والروم تقبل من كل جانب ومكان الى المسلمين ونحن نباكر القتال ونروح رواحا . قال سليمان بن عامر فخرج يوما من الأيام بطريق من الروم قد لبس درعين وعليه سواعد من الحديد وعلى رأسه بيضة تلمع فوقها صليب من الجوهر و بيده عمود من الحديد كأنه ذراع بعير فجال بين الصفوف وطلب البراز وكان أحد الثلاثة المقدمين على الثلاثين ألفا ، قال فجعل يدعو الى البراز و يطمطم ، فقال ميسرة للترجمان مايقول هذا الأغلف . قال انه يذكر انه فارس شديد و يطلب شجعانكم وأبطالكم ، فقال ميسرة من يبرز اليه فأسرع اليه رجل من المسلمين من قبيلة النخع وعليه درع من دروع الروم وثياب من ثيابهم فقلنا إنه من المتنصرة وقد عاد الى الاسلام فجعل العلج يتكلم وهو يظن أنه يفهم كلامه ، فلما رآه لايبرز اليه حمل عليه وضربه بعموده فزاغ النخعى عنها وعطلها عليه فوقع العمود على رأس جواده فصرع الجواد براكبه وسار النخعى على قدميه فناداه ميسرة ياأخا النخع ارجع فرجع القهقرى والعلج يطلبه والنخعى

راجل والعلج فارس فسار اليه عبد الله بن حذافة السهمي وصاح بالعلج فأدهشه فالتفت اليه وسار النخعي الى أن وصل عسكر المسلمين وحمل عبد الله بن حذافة على العلج وحمل العلج عليه وصعب بينهما المجال وصار عبد الله كلما ضرب العلج لايقطع فيه شيئا والعلج كلما ضرب عبد الله يأخذها بحجفته فتوهن ساعده من ثقل العمود وطال بينهما القتال والتقيا بضربتين فبادره عبد الله بالضربة تحت لحيته فطلب بها نحره فلحق رأس سيفه رقبة العلج فطار رأسه عن بدنه وأراد الفرس أن يرجع الى عسكر الروم فأخذه عبد الله ونزل اليه وأخذ سلبه ورجع الى المسلمين فعظم ذلك على الروم وكان عندهم معظما وعند الملك ، قال فبرز بطريق آخر ، وقال هذا صاحب الملك قد قتل ولا بدّ لي من أخذ ثاره من الذى قتله إما بقتله أوأسره وأبعث به الى الملك يصنع به مايريد . ثم انه أتى الى البطريق المقتول ورأسه طائح عن بدنه فبكى عليه : وقال بلسان فصيح معاشر العرب يوشك أن الله سيهلككم ببغيكم علينا وفعالكم بنا فليبرز الىّ قاتل هذا البطريق حتى آخذ منه بثأره ، فلما سمع عبد الله بن حذافة همّ بالخروج فنعه ميسرة شفقة عليه لأجل راحته . فانه قد تعب وأراد ميسرة أن يلقاه بنفسه ، فقال عبد الله يدعونى أيها الأمير باسمي وأتخلف انى إذا لعاجز . فقال له ميسرة انى أشفق عليك ، فقال عبد الله أتشفق علىّ من تعب الدنيا ولاتشفق علىّ من حر النار وعيش عاش فيه رسول الله ﷺ لايبرز اليه غيرى . ثم برز اليه وتحته فرس المقتول وما غير من لامته شيئا و بيده سيفه وحجفته ، فلما التقيا ورأى البطريق فرس صاحبه علم أنه قاتله فما أمهله حتى نفر اليه وحمل على عبد الله كانه جبل قد انهدّ من علو وتشبث به وجذبه فأخذه أسيرا وذهب به الى قومه وقال أوثقوه بالحديد واحملوه على خيل البريد واذهبوا به الى الملك فى هذه الساعة ، قال ففعلوا ذلك وساروا به ورجع البطريق الى الميدان وهو يفتخر بما صنع فأراده ثلاثة من المسلمين كل منهم يريد أن يخرج اليه ، فقال ميسرة مايخرج لهذا اللعين غيرى واستدعى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وسلم الراية اليه ، وقال له كن للراية حافظا حتى أخرج الى هذا اللعين . فان عدت أخذتها ، وان قتلنى فأجرى على الله ، فأخذ سعيد الراية وخرج ميسرة الى البطريق ، وهو يقول :

قد علم المهيمن الجبار بأن قلبى قدكوى بالنار على الفتى القائم بالأسحار
سيعلم العلج أخو الأشرار أنى منه آخذ بالثار

قال وحمل عليه وتجاولا طويلا وعظم الأمر بينهما وتدانيا وتقاربا وتباعدا وغابا عن الأبصار تحت الغبار وكل فرقة تنظر الى صاحبها وتدعو له ، ثم انكشفا وهما للتفرق أقرب منهما للتقارب فقال العلج لميسرة بحق دينك ماهذه الراية التى طلعت من وراء عسكركم فلم يلتفت الى كلامه بل قال له — وماذلك على الله بعزيز — . فقال وحق دينى ماقلت لك الاحقا . قال وهو يحلف كاذبا فالتفت ميسرة لحرصه أن يأتى الله بالفرج وينظر تحقيق ماقاله اللعين فحمل البطريق عليه ومكن يده منه ليأخذه أسيرا ، واذا قد طلعت راية خالد بن الوليد وهى مشرقة بالنور وهى فى يد خالد ابن الوليد وكبر المسلمون يداً واحدة فمن عظم تكبيرهم ارتجت يد العلج عن ميسرة والتفت البطريق ليرى كيف الخبر فقبض عليه ميسرة وهمّ أن يقلعه فلم يقدر لأنه كان مرفلا فى السرج ، فجعل يجذبه فلم يقدر وقرب خالد منهم فرفع سيفه يريد أن يضرب به ميسرة ليطلقه من يده خالد

السيف عن يد ميسرة ووقع على يد العلج الشمال فقطعها وانتخع ميسرة وانثنى البطريق الى أصحابه ويده مقطوعة وهو يئن فالتقى به غلمانه فأخذوه وكووه ، وأما خالد فانه التقى بميسرة وتسالما وحدثه بما وقع له مع الروم وكيف أسروا عبد الله بن حذافه السهمى فتأسف خالد واسترجع ، وقال يؤسر مثل عبد الله بن حذافة والله لايفارقهم خالد أويخلصه ان شاء الله تعالى وأقام خالد بقية ذلك اليوم ، فلما كان من الغد أتاهم من جيش الروم شيخ وعليه مسوح السواد حتى وقف بازائهم وأومأ بالسجود فمنعه خالد ، وقال له ماالذى تريد ؟ . قال ان كبير هؤلاء القوم يريد صلحكم ويطلق أسيركم ويدفع لكم ماتريدون وترجعون . فقال خالد ماترجع الاعلى انفصال ، وأما الأسير فاذا لم تطلقوه طوعا أطلقتموه كرها . قال أنت أمير هؤلاء . قال نعم قال ان رأيت أن تؤخر القتال بقية يومنا هذا وليلتنا فافعل لندبر مابيننا وبينكم ويبرد وجع هذا البطريق ونجيبكم الى ماتريدون . قال له أجبناكم الى ذلك فرجع الشيخ الى قومه ، وقال للبطريق قد أجابوا ووضعت الحرب أوزارها ونزل خالد والمسلمون بازائهم فى أماكنهم وأضرم الروم النيران وزادوا فيها وحملوا أثقالهم وساروا من أول الليل ، فلما كان الغد ركب المسلمون فلم يجدوا للروم أثرا فعلموا أنهم قد ولوا الأدبار فتأسف خالد على مافاته فأراد أن يتبعهم فمنعه ميسرة ، وقال له انها بلادهم وهى وعرة وان الصواب رجوعنا الى عسكر المسلمين . قال فأخذوا ماتركه الروم ورجعوا منصورين ولكنهم حزينون على أسر عبد الله بن حذافة السهمى وساروا حتى أتوا حلب فلقيهم أبوعبيدة وفرح بسلامتهم وأقبل ميسرة يحدثه بماجرى لهم وكيف أسر عبد الله بن حذافة فتأسف عليه ، وقال اللهم : اجعل له من أمره فرجا ومخرجا وكتب الى عمر بن الخطاب يخبره بماوقع له من أمر السرية الى الدروب وما كان من المسلمين وأخبره بأسر عبد الله بن حذافة وبعث الكتاب ، فلما وصل الى عمر بن الخطاب فرح بسلامة المسلمين واغتم على عبد الله بن حذافة وأسره لأنه كان يحبه حبا شديدا ، فقال وحيش رسول الله لأكتبن الى هرقل بأن يرسل عبد الله بن حذافة ، فان لم يفعل والاسرت اليه بالجيوش والعساكر ، ثم انه كتب : بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى لم يتخذ صاحبة ولاولدا ، وصلى الله على نبيه محمد المؤيد ، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين . أمابعد فاذا وصل اليك كتابى هذا فابعث إلى بالأسير الذى عندك وهو عبد الله بن حذافة . فان فعلت ذلك رجوت لك الهداية ، وان أبيت بعثت اليك رجالا وأى رجال رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله والسلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى . ثم انه طوى الكتاب وبعث به الى أبى عبيدة وأمره أن ينفذه الى هرقل ، فلما وصل الكتاب الى هرقل . قال له من أين كتابك هذا . قال من أمير المؤمنين أمير العرب فقرأه ، فاذا هو من عند عمر بن الخطاب . قال فدعا بعبد الله بن حذافة اليه . قال عبد الله بن حذافة فدخلت عليه والتاج على رأسه والبطارقة حوله . فلما وقفت بين يديه . قال لى من أنت ؟ . قلت رجل من المسلمين من قريش . قال أنت من بيت نبيك ؟ . قلت لا أنا من بنى عمه ، قال هل لك أن تتبع ديننا وأزوجك ابنة بطريق من بطارقتى وأجعلك من أخصائى ؟ . فقلت لا والله الذى لا إله إلاهو لافارقت دين الاسلام أبدا وماجاء به محمد عليه السلام . فقال أجب الى ديننا ، وأنا أعطيك من المال كذا وكذا ، ومن الغلمان كذا وكذا ، ومن الجوارى كذا وكذا . قال عبد الله :

ثم دعا بسفط من الجوهر وقال اذا دخلت فى دينى أعطيتك إياه . فقلت لاوالله لوأعطيتنى ملكك وملك قومك مافارقت دين الاسلام أبدا ولوأعطيتنى كل ماتملكه . فقال اذا لم ترجع الى دينى قتلتك أشر قتلة . فقلت لست أفعل ولوقطعتنى قطعا ولوأحرقتنى بالنار لارجعت عن دينى فاصنع ماأنت صانع . قال فغضب من كلامى . وقال اسجد لهذا الصليب سجدة وأخلى سبيلك . فقلت لست أفعل . قال فكل من لحم الخنزير وأنا أطلقك . قلت حاش لله ما كنت بالذى أفعل . قال فاشرب من هذا الخمر شربة واحدة وأطلقك . قلت لاوالله لاأشرب أبدا . قال وحق دينى لتأكلن وتشربن قهرا . ثم أمر بى فجعلنى فى بيت ، وجعل عندى من ذلك اللحم والخمر ، وقال اذا أضر به الجوع والظمأ أكل وشرب وأغلقوا على الأبواب . قال حدثنا عامر بن سهل عن يوسف بن عمران عن سفيان بن خالد عمن يثق به أن هرقل كان قد مات بعد هزيمته من انطاكية بأيام قلائل مما دخل على قلبه من القهر و يقال انه مات مسلما والذى فعل ذلك بعبد الله ابن حذافة ولده نسطيوس وكانوا لقبوه باسم أبيه هرقل . قال فلما كان فى اليوم الرابع طلب عبد الله بن حذافة وقال للغلمان مافعل ؟ . قالوا لم يأكل شيئا ولم يشرب وهو على حاله . فقال له وزيره أيها الملك اعلم أن هذا الرجل شريف فى قومه لايرى الذل فكل ماتفعله فى هذا الرجل تفعله المسلمون اذا قبضوا على ملك منا . قال فاستدعاه ، وقال له مافعلت باللحم ؟ . قال هو على حاله . فقال له مامنعك أن تأكل ؟ . قال فزعا من الله ورسوله وأيضا انه قد حل لى بعد ثلاثة أيام ، ولكن ماأردت أن تشمت بى الملحدون ، وورد كتاب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فلما قرأه أعطى عبد الله مالا كثيرا وثيابا وأعطاه لؤلؤا كثيرا هدية لعمر بن الخطاب و بعث معه خيلا الى أن أخرجوه من الدروب ووصل الى حلب ولقى المسلمين ففرحوا به . ثم انه سار الى عمر ابن الخطاب ، فلما رآه سجد لله شكرا وهنأه بالسلامة وحدثه بما كان من هرقل وأخرج له اللؤلؤ . فلما رآه عمر عرضه على التجار ، فقالت التجار له هذا مايقوّم ومن جاءك به ، فقالت الصحابة خذه اليك بارك الله لك فيه ، فقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله اذا كنتم قد جعلتمونى منه فى حل فكيف أصنع بمن غاب من المسلمين ومن فى بطون الأمهات وأصلاب الرجال من أولاد المهاجرين والأنصار والمجاهدين فى سبيل الله ولا طاقة لعمر بمطالبتهم يوم القيامة ، ثم باعه وجعل ثمنه فى بيت المال .

حدثنا عمر بن سالم عن عبد الله بن غانم عن أبى بكر بن عمر عن عبد الله بن عبد الرحمن ابن عبد الله ، قالوا جميعا انه لما فتح أبو عبيدة انطاكية صلحا ، وكان من أمر سرية ميسرة ابن مسروق ماذكرناه أقام أبو عبيدة بحلب ينتظر مايأتى اليه من عمرو بن العاص لما مضى الى قيسارية فى خمسة آلاف من المسلمين فيهم عبادة بن الصامت وعمرو بن ربيعة و بلال بن حمامة وربيعة بن عامر .

ذكر فتح قيسارية الشام بساحل البحر

قال سبيع بن ضمرة الحرانى : كنت مع عمرو بن العاص حين سار إلى قيسارية فدخلنا قرية من قرى الشام ، وكان البرد شديدا ونظرنا إلى كرومها ونظرت إلى كرمة فى دار من دور القرية ،

وفيها عناقيد مدلاة أكبر ما يكون فأخذنا منها وأكلنا فبردنا ولحقنا البرد الشديد من شدّة برد ذلك العنقود . فقلت قبح الله هؤلاء الملاعين بلدهم بارد وعنبهم بارد وماؤهم بارد وأنا أخاف الهلاك من شدّة برد بلادهم . قال فسمعني رجل من أهل البلد فأراد أن يقرب إليّ لأداعبه ، فقال لي ياأخا العرب ان كنت تجد البرد من العنب فاشرب من مائه . قال سبيع : ثم إنه دلنا على دنّ كبير فيه خمر فشربت أنا وجماعة من عرب اليمن فسكرنا فجعلنا نتمايل سكرا فأخبر بذلك عمرو ابن العاص ، فكتب إلى أبي عبيدة يعلمه بذلك فكتب اليه أبو عبيدة : أما بعد فمن شربها فحده عليها وأقم حدود الله كما أمر ، ولا تخش لومة لائم ، فلما وصل الكتاب إلى عمرو دعا بسبيع ابن ضمرة وأصحابه فجلدهم بالسياط . قال سبيع : فلما ضربني عمرو وأوجعني . قلت والله لأقتلنّ العلج الذى دلنا على الخمر حتى شربناها وأكلنا الحدّ ، فأخذت سيفي ودخلت القرية أطلب العلج فلما رأيته ووقعت عيني عليه أردت قتله فولى هاربا فتبعته وهو يقول: ماذنبي عندك ؟ فقلت أنت دللتني على مايغضب الله حتى أكلت الضرب ، فقال والله ماعلمت أنه محرّم عليكم . قال فناداني عبادة بن الصامت وقال ياسبيع إياك أن تقتله فانه تحت الذمة . قال فتركته ومضى العلج وأتى إليّ بتين وجوز وزبيب وقال كل هذا بذاك فانه يدفئك . قال فأكلته فوجدته طيبا فقلت لحاك الله أين هذا كان قبل أن أضرب بالسياط ؟ .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ثم إن عمرا ارتحل فنزل بموضع يقال له محلّ و بلغ الخبر فلسطين بن هرقل ، وكان قد أتاه المهزمون من عسكر أبيه ولجئوا اليه وا كتمل جيشه فى ثمانين ألفا ، ثم انه دعا برجل من المتنصرة وقال له : امض واحزر لى عسكر العرب وا كشف لى أخبارهم فوصل اليهم ولجأ إلى قوم من اليمن وهم يصطلون حول النار ، فجلس بينهم يسمع حديثهم ، فلما أراد القيام عثر فى ذيله . فقال باسم الصليب كلمة أجراها الله على لسانه ، فلما سمعوا قوله علموا أنه متنصر جاسوس للروم فوثبوا اليه وقتلوه ووقع الصائح فى العسكر فسمع عمرو الضجة . فقال ماالخبر ؟ قيل ان قوما من اليمن وقعوا بجاسوس من الروم فقتلوه . قال فغضب عمرو وطلبهم ، وقال ماحملكم على قتل الجاسوس ؟ وهلا أتيتمونى به لأستخبره ؟ فكم من عين تكون علينا ثم انها ترجع فتصير لنا ، لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف شاء . ثم انه نادى فى جيشه : من وقع بغريب أو جاسوس فليأت به إليّ . قال وان فلسطين استبطأ الجاسوس وعلم بقتله فأرسل غيره فأشرف على القوم من فوق شرف عال وحزرهم وعاد اليه فأخبره أنهم فى خمسة آلاف ، الا انهم كالأسود الضارية أو كالعقبان الكاسرة يرون الموت مغنما والحياة مغرما ، فلما سمع ذلك . قال وحق المسيح والقربان لابدّ من قتالهم . فاما أن أبلغ المراد أو أموت صبرا ، ثم انه جمع عسكره واختار منهم عشرة آلاف فارس شدادا وولى عليهم بطريقا اسمه بكلاكون وهو صاحب جيشه : وقال سر بهؤلاء فأنت طليعة جيشى فسار من ساعته ، ثم انه عقد صليبا آخر وسلمه الى دمستق العسكر واسمه جرجيس بن باكور وضم اليه عشرة آلاف وقال له الحق بصاحبك فسار فى أثره ، فلما كان فى اليوم الثانى خرج فلسطين ببقية الجيش وترك ابن عمه قسطاس فى قيسارية يحفظها وترك عنده عشرة آلاف . قال بشار بن عوف : فبينما نحن نازلون إذ أشرف علينا البطريق الأوّل فى عشرة آلاف فارس ، فلما قربوا منا رأيناهم حزرناهم فاذاهم عشرة آلاف . قال ففرحنا وقلنا

نحن فى خمسة آلاف وعدونا فى عشرة آلاف ، فكل رجل منا يقاتل اثنين ، فبينما نحن كذلك إذ أشرف علينا الطريق الثانى فى عشرة آلاف ، فقال عمرو رضى الله عنه : اعلموا أن من أراد الله واليوم الآخر فلا يرتاع من كثرة العدوّ ولو تزايد المدد ، فان الجهاد أوفر متجرا وأعز قدرا ، وأى نخر أعلى عند الله ممن يقتل فى سبيل الله وصفوف الكفار ويكون حيا عند الله يرتع فى مروج الجنة وينال من الله سابغ النعمة والمنة ، فقد قال الله تعالى ـ ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم ـ الآية ، ولو أن الجاسوس الذى قتلتموه لم تعجلوا عليه لأخبرنا بمسير هذا الجيش إلينا وكثرته ، وكنا قد أخذنا حذرنا على أنفسنا بالأحوط ، ولكن أمر الله لايردّ . ثم انه جمع أبطال الموحدين ، وقال قد رأيت أن تنفذ إلى أبى عبيدة تعلمه ليمدنا بالخيل والرجال ، فان هذا جيش عظيم . ثم قال : أيها الناس من يركب ويسير إلى الأمير أبى عبيدة ويعلمه بما قد صرنا اليه ؟ فلعله أن ينجدنا كما أنجد يزيد بن أبى سفيان . وهو محاصر قنسرين وأجره على الله ، فقال له ربيعة بن عامر : ياعمرو الق بنا العدو وتوكل على الله ، فان الذى نصرنا فى مواطن كثيرة ونحن فى قلة ينصرنا اليوم على بقية القوم الكافرين . قال فقنع عمرو بكلام عامر بن ربيعة ، وقال والله لقد صدقت وأمر الناس بالتأهب إلى لقاء العدو ، فركب المسلمون ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير فأجابتهم الجبال والتلال والأوعار والأشجار والأحجار ، ومن هو فى تلك الأرض من العمار ، وقالوا الهنا ومولانا انا نسمع أصواتا موحدة غير مشركة ولا ملحدة فى التوحيد ، وقد أسمعتنا كلام التوحيد وأريتنا وجوه أهل التمجيد والتحميد ، إلهنا ماأطيب سماع ذكرك ومن لنا أن نوفى بشكرك . قال وضجت الوحوش والسباع إلى مولاها شاكرة لما أعطاها وأولاها ، ونادت عالم سرها ونجواها : يامن جمع الوحوش راضية بما آتاها أخرج رزقها ومرعاها تغدو خماصا وتروح بطانا إلى باب سيدها ومولاها ، يامن لو توارت دودة تحت الأرضين السبع لرآها ، ولو كانت فى غلس الظلمات تحت اليم المظلم حبة لرزق عبد لبلغه إياها ، إلهنا انا سمعنا أصوات توحيدك فى هذه الأرض وما كنا عهدناها ، ونسمع آيات ما كنا عرفناها ولا سمعناها ، سبحانك يامن قدرته لا ننساها ويامن احسانه وفضله لايتناهى .

قال فهتف بهم هاتف من الجوّ ، كم لله من مسبح فى الجبال وذراها وتحت تخوم الأرض وثراها ، وفى فلوات البرارى المقفرات ، وفى قعور البحار الزاخرات وماها . قال فارتاع عسكر الكفار لما سمعوا فى الجوّ هذه الأصوات ، وكأنما الأرض وأقطارها وأهلها تجاوبهم ، وكان فلسطين قد أتى وسمع ذلك ونظر إلى جيش العرب وقد زاد فى عينه أضعافا . فقال وحقّ دينى لما أشرفت على القوم ما كانوا فى هذه الكثرة وما كانوا أكثر من خمسة آلاف ، وقد زاد الآن عددهم وتزايد مددهم ، ولا شك أن الله قد أمدهم بالملائكة ، ولقد كان أبى هرقل على بصيرة من أمر هؤلاء العرب ، وليس جيشى هذا بأعظم من جيش ماهان الأرمنى لما لقيهم باليرموك فى ألف ألف ، ولقد ندمت على خروجى اليهم ، ولكن سوف أدبر حيلة على هؤلاء العرب ، ثم إنه دعا بقس عظيم القدر عند النصرانية ، وهو قس قيسارية وعالمها وقال له اركب إلى هؤلاء القوم وكلمهم بالتى هى أحسن ، وقل لهم ان ابن الملك يسألكم أن تنفذوا اليه أفصحكم لسانا وأجرأكم جنانا فابعثوا به ولا يكون من طغام العرب . قال فركب القس وعليه ثوب من الديباج الأسود وعليه برنس من

الشعر فركب بغلة شهباء وأخذ بيده صليبا من الجوهر وسار حتى وصل إلى المسلمين فوقف بحيث يسمعون كلامه . فقال : يامعشر العرب إنى رسول إليكم من الملك فلسطين بن هرقل يسألكم ان تنفذوا اليه أفصحكم لسانا وأجرأكم جنانا ، وانه والله يريد صلحكم ولا يبغى قتالكم ، لأنه عالم بدينه بصير بأموره ، وليس يحب سفك الدماء ولا فساد الصور ، فلا تبغوا علينا فالباغى مقهور والمبغى عليه منصور ، وقد قال لنا المسيح لاتقاتلوا الا من بغى عليكم ، وان الملك يريد أن تبعثوا االيه رجلا من أفصحكم لسانا وأجرئكم جنانا ، ثم سكت . قال فلما سمع عمرو كلامه . قال أيها لناس قد سمعتم ماقاله هذا الأغلف ، فمن منكم يبادر إلى مرضاة الله تعالى ورسوله و ينظر مايتكلم به مع كلب الروم . ؟ فتقدّم اليه بلال بن حمامة مؤذن رسول الله ﷺ ، وكان غلاما أسود طويلا من الرجال كأنه النخلة السحوق بصاص من السواد ، عيناه جمرتان كأنهما العقيق جهوريّ الصوت . فقال ياعمرو أنا أسير اليه ، فقال يابلال انك قد حطمك الحزن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأيضا انك من جنس الحبش ولست من العرب ، لأن العرب لهم الكلام الجزل والخطب والفصاحة . فقال بلال بحق رسول الله ﷺ الا تركتنى أمضى اليه . فقال عمرو لقد أقسمت علىّ بعظيم اذهب واستعن بالله ولا تهبه فى الخطاب وأفصح فى الجواب وعظم شرائع الاسلام . فقال بلال ستجدنى ان شاء الله حيث تريد . قال فخرج بلال نحوهم وهو كالنخلة السحوق عريض المنكبين كأنه من رجال شنوءة ، وكان من عظم خلقته إذا نظر اليه أحد يهابه ، وكان لابسا يومئذ قميصا من كرابيس الشام وعلى رأسه عمامة من صوف متقلدا بسيف ومزوده على عاتقه و بيده عصا . قال فلما برز بلال من عسكر المسلمين ونظر اليه القس أنكره ، وقال ان القوم قد هنا عليهم فانا دعوناهم نخاطبهم فبعثوا الينا بعبيدهم لصغر قدرنا عندهم . ثم قال أيها العبد أبلغ مولاك وقل له ان الملك يريد أميرا منكم حتى يخاطبه بما يريد ، فقال بلال : أيها القس أنا بلال مولى رسول الله ﷺ ومؤذنه ولست بعاجز عن جواب صاحبك ، فقال له القس قف مكانك حتى أعلم الملك بأمرك وعاد القس إلى الملك ، وقال له أيها الملك انهم قد بعثوا بعبد من عبيدهم يخاطبك ، وما ذاك الا استقلالا بأمرنا عندهم ، وهو عبد أسود . قال فأرسل له رجلا يقول له : أيها العبد أبلغ مولاك وقل له ان الملك إنما يريد أميرا منكم حتى يخاطبه . فقال له بلال أيها الرجل أنا بلال بن حمامة مولى رسول الله ﷺ ولست بعاجز عن جواب صاحبكم . فقال فلسطين ارجع اليهم وقل لهم بعث اليكم ملك النصرانية أيليق أن تبعثوا له بعبد من عبيدكم ؟ فرجع الترجمان إلى بلال وقال له ياأسود إن الملك يقول لك : لسنا ممن نخاطب العبيد بل يأتينا صاحب جيشكم أو المؤمر عليكم ، فرجع بلال وهو منكسر وأخبر عمرا بذلك . فقال لشرحبيل أنا أمضى اليه . فقال شرحبيل ياعبد الله إذا مضيت أنت فلمن تدع المسلمين ؟ . فقال عمرو : الله لطيف بعباده وهوأرحم الراحمين بخلقه ، ولكن خذ الراية واخلفنى فى قومى ، فان غدر الروم فالله الخليفة عليكم ، فوقف شرحبيل فى مقام عمرو وأخذ الراية وخرج عمرو نحو القوم وعليه درعه ومن فوقه جبة صوف وعلى رأسه عمامة من صنع اليمن مصبوغة صفراء قد أدارها على رأسه كورا وأرخى لها عذبة ، و فى وسطه منطقة ، وقد تقلد سيفه واعتقل رمحه وسار عمرو حتى وقف بإزاء الترجمان الذى أرسله فلسطين بن هرقل ، فلما رآه الترجمان ضحك ، فقال م تضحك

يأخا النصرانية ؟ . قال من دناءة رؤيتك وحملك هذا السلاح ، مالذى تصنع به ولم تحمله معك وما نريد حربا ؟ فقال عمرو ان العرب حمل السلاح شعارهم ووطاؤهم ودثارهم ، وإنما جاءت السلاح معى استظهارا ، ولعلى أن ألقى عدوّا فيكون ذلك حصنا من عدوّى وأحامى به عن نفسى . قال الترجمان : شيمتكم أيها العرب الغدر والمكر فكن مطمئن الجانب . ثم عطف الترجمان إلى فلسطين بن هرقل وأخبره حين سمع مقالة عمرو بن العاص ، وقال أيها الملك ان أمير العرب قد قدم علينا وعليه من اللباس كذا وكذا فتبسم الملك من قول القس ، وقال قل له يتقدّم الينا . قال فلما قدم أخذ الملك فى التأهب لقدوم عمرو عليه ، وزين ملكه وأوقف القسوس عن يمينه وشماله والحجاب بين يديه ، وأقبل على الترجمان ، وقال له يأخا العرب قد أذن لك الملك ، فسار عمرو على جواده وعسكر قيسارية تتعجب منه ومن زيه إلى أن وقف على قبة الملك ، ثم ترجل ومشت الحجاب أمامه حتى وقعت عينه على عين فلسطين فأدناه ورحب به وبش فى وجهه ، وقال مرحبا بأمير قومه ، وأراد أن يجلسه على السرير فامتنع عمرو من ذلك ، وقال بساط الله أطهر من بساطك ، لأن الله تعالى جعل الأرض بساطا وأباحنا إياها فنحن فيها سواء ، وما أريد أن أجلس الاعلى ماأباحه الله . ثم جلس على الارض باركا وترك رمحه أمامه وسيفه على فخذه الأيسر ، فقال له فلسطين ماإسمك ؟ . قال اسمى عمرو وأنا من العرب الكرام أرباب الحزم المعظمين فى القوم . قال فلسطين : إنك لفتى كريم من عرب كرام ، ياعمرو ان كنت من العرب فنحن من الروم وبيننا قرابة وأرحام متصلة ، ونحن وأنتم فى النسب متصلون ومن يكونون متصلين فى النسب ماهم يسفك بعضهم دم بعض ؟ ، فقال عمرو ان أنسابنا لاحقة من أبينا ونسبنا الأعلى هو دين الاسلام ، وإذا كان أخوان قد اختلفا فى الدين كان حلالا أن يقتل أحدهم أخاه ، وقد انقطع النسب بيننا ، وقد ذكرت أن نسبك لاحق بنا فكيف يكون نسبك ونسبنا واحدا ونحن قريش الكرام وأنتم بنو الروم ؟ . قال ياعمرو أليس أبونا آدم ثم نوحا ثم ابراهيم وعيصو بن إسحق واسحق أخو اسماعيل وكلاهما ولد ابراهيم ، ولا ينبغى للأخ أن يبغى على أخيه بل يجود عليه . فقال انك لصادق فى قولك الذى قلت وان عيصو ونحن بنو أب واحد وأبونا نحن اسمعيل صلوات الله عليه وان كان نوح عليه السلام قسم الأرض شططا حين غضب على ولده حام وعلم أن اولاد حام لم يرضوا بها فاقتتلوا عليها زمانا ، وهذه الأرض التى أنتم فيها ليست لكم وهى أرض العمالقة من قبلكم ، لأن نوحا عليه السلام قسم الأرض بين أولاده الثلاثة سام وحام ويافث وأعطى ولده ساما الشام وما حوله إلى اليمن إلى حضرموت والى غسان ، والعرب كلهم ولد سام ، وهم قحطان وطسم وجديث وعملاق وهو أبو العمالقة . حيث كانوا من البلاد وهم الجبابرة الذين كانوا بالشام فهذه العرب العاربة ، لأن لسانهم الذى جبلوا عليه العربية ، وأعطى حاما الغرب والساحل وأعطى يافث مابين المشرق والمغرب — وان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين — ونريد أن نردّ هذه القسمة فنأخذ مافى أيديكم من العمارة والأنهار عوضا عما نحن فيه من الشوك والحجارة والبلد القفر ، فلما سمع فلسطين كلام عمرو بن العاص علم أنه رجل ماكر . فقال له : صدقت فى قولك الا أن القسمة قد جرت ، فان نقضتموها كنتم من الباغين علينا ، واعلم أنه ماحملكم على ذلك وأخرجكم من بلادكم الا الجهد العظيم ، فقال له عمرو : أيها الملك . أما مازعمت

أن الجهد أخرجنا من بلادنا ، فنحن كنا نأكل خبز الشعير والذرة فاذ رأينا طعامكم واستحسناه فلن نبارحكم حتى نأخذ البلاد من أيديكم وتصيروا لنا عبيدا ونستظل تحت أصول هذه الشجرة العالية والفروع المورقة والأغصان الطيبة الثمار ، فان منعتمونا مما ذقناه من بلادكم من لذيذ العيش ، فما عندنا الا رجالا أشوق إلى حربكم من حبكم الحياة ، لأنهم يحبون القتال كما تحبون أنتم الحياة . قال وأفحم فلسطين عن جوابه ، فرفع رأسه إلى قومه وقال ان هذا العربى صادق فى قوله وحق الكنائس والقربان والمسيح والصلبان مالنا معهم ثبات . قال عمرو فوجدت الى وعظهم سبيلا ، وقلت معاشر الروم : ان الله عزوجل قد قرّب عليكم ما كنتم تطلبون . ان كنتم يريدون بلدكم فادخلوا فى ديننا وصدّقوا قولنا ، فان الدين عند الله الاسلام . قال فلسطين : ياعمرو انا لانفارق ديننا وعليه مات آباؤنا وأجدادنا . قال عمرو . فان كرهت الاسلام فأعطنا الجزية منك ومن قومك وأنتم صاغرون . قال فلسطين لا أجيبك إلى ذلك ، لأن الروم لايطاوعنى إلى أداء الجزية ولقد قال لهم أبى ذلك من قبل فأرادوا قتله ، فقال هذا ماعندى من الأعذار ، ولقد حذرتكم مااستطعت ولم يبق بيننا حكم الا السيف ، والله يعلم أنى دعوتكم إلى أمر فيه النجاة فعصيتموه كما عصى أبوكم عيصو عن أمه نخرج من الرحم قبل أخيه يعقوب ، وأنتم تزعمون أنكم أقرباؤنا فى النسب ، وانا ابرآء الى الله عز وجلّ منكم ومن قرابتكم اذ أنتم تكفرون بالرحيم ، أنتم من ولد عيصو بن اسحق ونحن من ولد اسمعيل بن ابراهيم عليهم السلام ، وان الله تعالى اختار لنبينا خير الأنساب من لدن آدم الى أن أخرج من صلب أبيه عبد الله ، فجعل خير الناس من ولد اسماعيل فتكلم بالعربية وتكلم اسحق على لسان أبيه فولد اسمعيل العرب ، ثم جعل خير الناس كنانة ، ثم جعل خير العرب قريشا ، ثم جعل خير قريش بنى هاشم ، ثم جعل خير بنى هاشم بنى عبد المطلب ، وخير بنى عبد المطلب نبينا محمدا ﷺ فبعثه رسولا واتخذه نبيا وأهبط عليه جبريل بالوحى ، وقال له طفت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر أفضل منك . قال فخضعت جوارح القوم حين ذكر رسول الله ﷺ ووجلت قلوبهم ودخلت الهيبة فى قلب فلسطين حين سمع كلام عمرو . فقال صدقت فى قولك ، كذلك الأنبياء تبعث من خير بيوت قومها على لسان ربها ، ثم قال له ياعمرو : وهل فى أصحابك رجل بين كلامه سريع الجواب اذا سئل ؟ ، فقال له اعلم انى والله أحب أن أمضى وآتيك بهم لتقف على صحة قولى ، ثم وثب وسار الى عسكره وركب وأتى جيشه فحمد الله المسلمون على سلامته وباتوا يتحارثون ، فلما صلى عمرو بالناس صلاة الفجر أمرهم بالركوب الى قتال عدوّهم . قال : فأسرعوا الى ذلك واستووا على متون خيولهم ، واصطفوا للحرب والقتال .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا عروة بن زيد عن موسى مولى الحضرميين عن موسى بن عمران وابن الصباح لما كان يوم الحرب صف فلسطين جيشه ثلاثة صفوف وقدّم المشاة وعدّل الميمنة والميسرة ورفع الصليب أمامه وتقدم أمام الجيش فنظر عمرو إلى فلسطين وقد رتب عساكره وعزم على الحرب ، فهيأ المسلمين وصفهم صفا واحدا وجعل فى الميمنة الحماة من أصحاب رسول الله ﷺ ومعهم شرحبيل بن حسنة كاتب الوحى وصابوب بن جباية الليثى عن شماله وكان أحد فرسان المسلمين ، فبينما الناس كذلك إذ خرج فارس من الروم وعليه ديباج ودرع

وجوشن ، وفى عنقه صليب من الذهب فحمل حتى تخطى برمحه من الميمنة الى الميسرة ومن الميسرة الى الميمنة ، ثم الى القلب ثم وقف بازاء جيش المسلمين وركز رمحه بازائه وأخذ القوس بيده وفوق سهمها ورمى رجلا من الميمنة فاثبت السهم فيه فجرحه ورمى آخر من الميسرة فقتله فنظر اليه عمرو وما قد صنع فصاح بالمسلمين ألا ترون الى هذا العلج اللعين وما يصنع بقوسه ؟ فمن يكفينا أمره ويزيل عن المسلمين شره ، فخرج اليه رجل من ثقيف وعليه بردة دنسة و بيده قوس عربية قد فوق سهمها ، وخرج الى العلج يريده فنظر اليه العلج وليس عليه شيء من الحديد يستره الا فروة دنسة ، وما معه من السلاح غير القوس فازدرى به و بلبسه وأطلق سهما من كبد قوسه فوقع سهمه فى صدره فاشتبك فى الفروة ووقع غير مصيب ، وكان اللعين أرمى أهل زمانه . مارمى قط شيئا الا نفذ فيه ، فغضب لذلك وهم أن يرميه بسهم ثان فامتعط الثقفى نبلة ورمى بها نحوه فلم يرها لصغرها وخفاء موقعها فاشتبكت النبلة فى حلق العلج فخرجت من قفاه ، فما تمالك العلج الا ان وقع صريعا فأسرع الثقفى الى جواده فاخذه واستوى على متنه ونزع بيضة المشرك عن رأسه ، وجعل يسحبه نحو جيش المسلمين فاستقبله ابن عم له وكلمه فلم يجبه من فرحه بما صنع . ثم أقبل الى عمرو فاعطاه اياه فنظرت الروم الى فعل الثقفى فغاظهم ذلك ، وجعلوا يشيرون الى السماء فلعلمنا أنهم يقولون ان الملائكة تنصرنا . قال ونظر فلسطين الى ذلك فعظم عليه وقال لبعض البطارقة اخرج الى هؤلاء العرب وحام عن دينك فخرج البطريق وعليه ديباجة خضراء ودرع حصين ومن تحت الدرع جوشن منيع وفى عنقه صليب من الذهب الأحمر ومعه غلام من ورائه يجنب جنيبة وعليه سيفه ودرقته فخرج حتى وقف بين الصفين فجعل يسأل القتال ، فلما نظر المسلمون اليه أقبلوا اليه ينظرون ولا يخرج اليه أحد . فقال عمرو معاشر العرب من يخرج اليه ويهب نفسه لله عز وجل فخرج اليه رجل من العرب وهو يقول أنا أكون ذلك . فقال عمرو بارك الله فيما تريد وحمل صاحب المسلمين عند ماخرج مصمما واستقبله البطريق وجعلا يتجاولان ساعة وهما يتعانقان بالسيوف الى أن خرجت لهما ضربتان فسبقه البطريق بالضربة فأخذها الرجل بالدرقة فقدها نصفين وكانت جلد بعير بطانة واحدة فلم يصل اليه من الضربة شيء وضربه الرجل ضربة فى أثرها فقطعت البيضة وسلكها فتقهقر البطريق الى ورائه ولم يصل اليه أذى ، فلما رجعت اليه روحه حمل على المسلم وضربه فجرحه جرحا فاحشا فألوى الى أصحابه فصاح به رجل من العرب من وهب نفسه لا يرجع من بين يدى عدوه . فقال الرجل أما كفاك هذه الضربة حتى توبخنى ان الله ليلومنى بأن ألقى بيدى الى التهلكة ثم شد جراحه وعظم عليه ماقال ابن عمه ، فلما خرج قال له ابن عمه الذى خاطبه ارجع فخذ هذه البيضة واجعلها على رأسك فقال ثقتى بالله أعظم من حديدك ، ثم دلف نحو البطريق وهو يقول :

يقول لى عند الخروج للقا ... دونك هذا الترس فاجعله وقا
من علج سوء قد بغى وقد طغى ... أقسمت بالله يمينا صادقا
لأتركن البيض فوق المرتقى ... وأدخل الجنة دار الملتقى

قال فدعا له المسلمون بالنصر وقالوا اللهم أعطه ماتمنى وحمل على البطريق وضربه ضربة هائلة فوقعت على عاتقه وخرجت من علائقه ثم حمل فى جيش الروم فقتل رجلا وجندل أبطالا ولم يزل

كذلك حتى قتل رحمه الله تعالى . فقال عمرو هذا رجل اشترى الجنة من الله بنفسه : اللهم أعطه ماتمنى .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان هرقل حين بعث ولده فلسطين الى قيسارية بعث معه بطريقا من البطارقة وكان اسمه قيدمون وكان من أفرس الروم ويقال انه خال فلسطين ، وقد كان لقى عسكر الفرس وعسكر الترك وعسكر الجرامقة قال وكان اللعين يحفظ سائر اللغات . فقال فلسطين لابد لى من قتال العرب . قال وخرج وعليه لامة وخرج مبارزا ، فلما رآه المسلمون قد خرج وكأنه جبل قد انهد من أعلاه الى أسفله وهو يلمع من بريق الجوهر ضج المسلمون بقول لاإله الا الله ، فلما وقف فى الميدان أقبل يرطن بلغته ويطلب البراز فأقبلت العرب يهرعون اليه من كل جانب ومكان يريدون قتاله لأجل ماعليه . فقال عمرو ثواب الله خير لكم مما عليه فلايخرج أحد لطلب سلبه فيكون خروجه لأجل ذلك وان قتل مات فى سبيل ماخرج إليه ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول « من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ماهاجر اليه » قال فخرج غلام من اليمن ومعه أمه وأخته يريدون الشام ، وأخته تقول له : ياابن أمى جد بنا فى السير لنصل الى الشام فنأكل من خيره ونعمه . فقال لها أخوها إنما أذهب لأقاتل لمرضاة الله عز وجل . وقد سمعت معاذ بن جبل يقول : ان الشهداء عند ربهم يرزقون . فقالت له أخته كيف يرزقون وهم أموات . قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى يجعل أرواحهم فى حواصل طيور الجنة فتأكل تلك الطيور من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها فتغدو أرواحهم فى حواصل تلك الطيور ، فهو الرزق الذى جعله الله لهم » فلما كان قتال قيسارية خرج ذلك الغلام الى القتال بعد أن ودع أمه وأخته وداع الموت وقال لهم نجتمع على حوض رسول الله ﷺ ثم خرج وبيده قناة وهى موصولة كثيرة العقد وتحته جواد هجين ، فلما خرج الغلام حمل على البطريق من ساعته وطعنه بسنانه . قال فاشتبك السنان فى درع البطريق فلم يقدر على انتزاعه فضرب البطريق قنا الغلام بسيفه فقطعها وحمل على الغلام وضربه على هامته فشطرها فوقع الغلام ميتا رحمه الله وجال قيدمون على مصرعه ، ثم طلب البراز ، فخرج اليه ابن قثم فقتله البطريق ، فلما نظر الى ذلك شرحبيل بن حسنة رضى الله عنه أقبل يعاتب نفسه ويقول : تتفرجين على قتل المسلمين ، ثم خرج والراية بيده التى عقدها له أبو بكر رضى الله عنه يوم خروجه الى الشام ، فلما رآه عمرو قد عول على الخروج قال ياعبد الله اركز الراية لئلا تشغلك . فركزها شرحبيل فوقفت كالنخلة وغاصت فى حجر كأنها منه فتفاءل بالنصر وخرج الى لقاء قيدمون والمسلمون يدعون له بالنصر على عدوه فلما رآه البطريق ضحك من زيه وكان للملعون صوت عال وهو ضخم من الرجال وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام بالليل والبطريق فى ميدانه فحمل كل واحد منهما على صاحبه واختلفا بضربتين ، وكان السابق شرحبيل فلم يعمل السيف فى لامة البطريق شيئا وثبت السيف فى بيضته وحمل قيدمون على شرحبيل فشجه ثم تجاولا على الجوادين . قال سعيد بن روح وكان ذلك اليوم كثير البرد والسحاب فبينما هما فى المعركة

اذنزل المطر كأفواه القرب قال فنزلا عن الجوادين وجعلا يتصارعان فى وسط الطين وذلك ان قيدمون حمل على شرحبيل فضرب يده فى مراق بطنه فاقتلعه من الأرض ورمى به على ظهره ثم استوى على صدره وهم أن ينحره فنادى شرحبيل ياغياث المستغيثين فما استتم كلامه حتى خرج اليه فارس من الروم وعليه لامة مذهبة ومن تحته جواد من عتاق الخيل فقصد موضع البطريق وشرحبيل فظن قيدمون انه إنما خرج ليعطيه جواده ويعينه ، فلما قرب منهما ترجل وأمال البطريق برجليه عن صدر شرحبيل وقال ياعبد الله قد أتاك الغوث من غياث المستغيثين فوثب شرحبيل قائما ينظر اليه متعجبا من قوله وفعله ، وكان الفارس متلثما ثم جرد سيفه وضرب البطريق ضربة قطع رأسه ، وقال ياعبد الله خذ سلبه . فقال شرحبيل والله مارأيت أعجب من أمرك وانى رأيتك جئت من عسكر الروم فقال أنا الشقى المبعد أنا طلحة ابن خويلد الذى ادعى النبوّة بعد رسول الله ﷺ وكذب على الله وزعم ان الوحى كان ينزل عليه من السماء ، فقلت له ياأخى ـ ان رحمة الله قريب من المحسنين ، وقد وسعت رحمته كل شئ ـ ومن تاب وأقلع وأناب قبل الله توبته وغفرله ما كان منه والنبى ﷺ يقول « التوبة تمحو ماقبلها» أماعلمت ياابن خويلد ان الله سبحانه وتعالى لما أنزل على نبيه ـ ورحمتى وسعت كل شىء ـ طمع فيها كل شىء حتى ابليس فلما نزل قوله تعالى ـ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ـ قالت اليهود نحن نؤتى الزكاة ونتصدق ، فلما نزل قوله تعالى ـ والذين هم بآياتنا يؤمنون ـ قالت اليهود نحن مؤمنون بما أنزل الله فى الصحف والتوراة فأراد الله أن يعلمهم انها خاصة بأمة محمد ﷺ بقوله ـ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ـ . فقال طلحة بن خويلد مالى وجه أرجع الى الاسلام وهم أن يسير على وجهه فمنعه شرحبيل وقال له ياطلحة لست أدعك تمضى ، بل ترجع معى الى العسكر قال مايمنعنى من المسير معك الا الفظ الغليظ خالد بن الوليد ، وانى أخاف أن يقتلنى ، فقلت ياأخى انه ليس معنا وهذا الجيش لعمرو بن العاص قال فرجع معى ، فلما قربنا من المسلمين تبادروا الينا وقالوا ياشرحبيل من هذا الرجل الذى معك ؟ فلقد صنع معك جميلا قال ولم يعرفوه ، لأنه كان متلثما بفضل عمامته . فقلت هذا طلحة بن خويلد الذى ادعى النبوّة فقالوا أوتاب ورجع الى الله ؟ فقال أنا تائب الى الله سبحانه وتعالى . قال شرحبيل فاتيت به الى عمرو بن العاص فسلم عليه وبش فى وجهه ورحب به .

قال حدثنا حسان بن عمرو الربعى عن جده ان طلحة بن خويلد لما ادعى النبوّة وجرى له ماجرى من الحرب مع خالد ابن الوليد رضى الله عنه وسمع ان خالدا قتل مسيلمة الكذاب وقتل الأسود العنسى أيضا لأنه قال إنه نبى فخاف طلحة على نفسه من خالد فهرب بالليل ومعه زوجته بالشام واستجار برجل من آل كلب فاجاره الكلبى وأنزله فى داره ، وكان الكلبى مؤمنا وبقى عنده مدة أيام الى أن استخبره عن حاله فحدثه طلحة بجميع أحواله مع خالد بن الوليد ووقائعه معه وكيف ادعى النبوّة فغضب الكلبى لكلامه وطرده من جواره فاقام طلحة بالشام ، وقد تاب من أمره ، فلما بلغه أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قد قبض قال ذهب من جرّدت السيف فى وجهه فمن ولى بعده قالوا عمر بن الخطاب قال الفظ الغليظ وهاب أن يمضى اليه وفزع من خالد بن الوليد أن يراه بالشام فيقتله فقصد قيسارية ليركب فى المراكب ويطرح نفسه فى بعض جزائر البحر ، فلما نظر الى جيش فلسطين قد خرج الى قتال العرب قال أسيرمع هذا الجيش فلعلى

أنكب نكبة وأغسل بها شيئا من أوزارى وتكون لى قربة الى الله تعالى والى المسلمين ، فلما نظر شرحبيل فى عين الملكة قال لاصبر لى عنه فخرج واستنقذه كما ذكرناه ، فلما وقف بين يدى عمرو بن العاص شكره وبشره بقبول التوبة . فقال ياعمرو إنى أخاف من خالد بن الوليد أن يرانى بالشام فيقتلنى . فقال عمرو فانى أشير اليك بشىء تصنعه وتأمن به على نفسك فى الدنيا والآخرة . قال وماهو ؟ قال أكتب معك كتابا بما صنعت وشهادة المسلمين فيه وتنطلق به الى عمر ابن الخطاب وتدفعه اليه وأظهر التوبة فانه يقبلها وسيند بك الى الفتوح وقتال الروم فتمحو عنك ماسلف من خطاياك فأجابه طلحة الى ذلك فكتب له عمرو كتابا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بما صنع وأخذه طلحة ومشى به الى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجد عمر فى المدينة وقيل له هو بمكة فمضى حتى وردها فوجد عمر متعلقا بأستار الكعبة فتعلق معه وقال ياأمير المؤمنين انى تائب الى الله عز وجل وحق رب هذا البيت مما كان منى . قال عمر من أنت ؟ قال أناطلحة ابن خويلد . قال فنفر عمر عنه وقال : ياويلك ان أنا عفوت عنك فكيف الأمر غدا بين يدى الله عز وجل بدم عكاشة بن محصن الأسدى . قال طلحة ياأمير المؤمنين عكاشة رجل أسعده الله على يدى وشقيت أنا بسببه وأرجو أن يغفر الله لى بما عملته . قال عمر وماعملت فأخرج له كتاب عمرو بن العاص ، فلما قرأه عمر وفهم مافيه فرح به وقال أبشر فان الله غفور رحيم وأمره عمر أن يقيم بمكة حتى يرجع الى المدينة فأقام معه أياما ، فلما رجع عمر الى المدينة وجه به الى قتال أهل فارس .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] رجعنا الى الحديث . قال لما قتل البطريق قيدمون على يد طلحة ونجا شرحبيل مما كان قد لحقه ورجع الى عمرو وكان المطر شديدا فقطع الناس القتال ولحق الناس الأذى لأن أكثرهم بلا أخبية ولا بيوت والتجئوا الى الجابية وتستروا بدورها وكان من رحمة الله بالمسلمين أن وقع فى قلب فلسطين الفزع والرعب لما قتل قيدمون البطريق وكان ركنه ودعامته فشاور أصحابه فى الرجوع الى قيسارية وقال : يامعاشر الروم أنتم تعلمون أن جيوش اليرموك ماثبتت لهؤلاء العرب ، وان أبى قد ولى الى القسطنطينية من خوفهم وقد ملكوا الشام جميعه ومابقى غير هذا الساحل ، وانى أخاف أن ندهى من قبلهم ويملكوا قيسارية والرحيل أوفق من المقام ههنا فأجابوه الى ذلك ، فلما كان الليل ارتحل القوم والمطر ينزل . قال سعيد بن جابر الأوسى : وكان ذلك كله رحمة للمسلمين من الله عز وجل . قال فلما كان فى اليوم الرابع ارتفع المطر وطلعت الشمس فخرجنا من الجابية نطلب قتال الروم فلم نرلهم أثرا ، فوالله لقد فرحنا بطلوع الشمس أكثر من فرحنا برحيل الروم فكتب عمرو بذلك الى أبى عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص السهمى الى أمير جيوش المسلمين أبى عبيدة عامر بن الجراح ، سلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فياصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان فلسطين بن هرقل قد أخرج الى لقائنا ثمانين ألفا من الروم وكان لقاؤنا معهم على موضع يقال له نخل وأخذ شرحبيل ابن حسنة وكان الذى ملك أسره قيدمون ابن خالة هرقل ، ثم خلصه الله على يد طلحة بن خويلد الأسدى وقتل قيدمون ابن خالة هرقل ، ثم وجهته بكتاب الى عمر بن الخطاب وقد انهزم عدو الله فلسطين ، وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته . وبعث

الكتاب مع جابر بن سعيد الحضرمى ، فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب فرح بسلامة المسلمين وسير الجواب وقال : اذا قرأت كتابى فانزل على قيسارية وأنا فى أثر الكتاب معوّل على السير الى صور وعكاء وطرابلس والسلام . ثم سلم الكتاب الى جابر بن سعيد وأمره بالرجوع .

ذكر فتح صور وعكاء وطرابلس الشام وقيسارية

قال وعوّل أبو عبيدة على النهوض الى الساحل ، فقام اليه عبدالله يوقنا وقال أيها الأمير اعلم أن الله عزّ وجل قد أباد المشركين ورفع علم الموحدين وانى أريد أن أسير قبلك الى الساحل لعلى أفوز من القوم بغزوة . فقال ياعبدالله ان أنت فعلت شيئا يقرّبك الى الله تجده بين يديك فافعل فوثب يوقنا قائما وأخذ أصحابه وكان قد انضاف اليه من كان يخدمه بحلب وكلهم رجعوا الى الاسلام وكانوا أربعة آلاف ، وفى عسكر العرب أيضا ممن أسلم من البطارقة مايزيد عن ثلاثة آلاف فارس .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ولما انهزم فلسطين الى قيسارية وتحصن بها بعث الى أهل طرابلس أن يبعثوا له نجدة فبعثوا اليه بثلاثة آلاف فارس من البطارقة المعدة وعليهم وال يقال له جرفاس . قال وساروا يطلبون قيسارية ، فلما كانوا بالقرب منها نزلوا فى مرج ليعلقوا على خيولهم ، فبينماهم كذلك اذ أشرف عليهم يوقنا وأصحابه وكان قد صحبهم قلنطانوس صاحب رومية وأصحابه وكانوا معوّلين على زيارة بيت المقدس والمقام بها ، فلما أشرفوا على المرج وهم بزيهم ماغيروا منه شيئا ورآهم جرفاس ركب بنفسه يختبر حالهم ، فلما قرب منهم سلم عليهم ورحب بهم وقال من أنتم قالوا نحن الذين لجأنا الى هؤلاء العرب واستكفينا شرهم وظننا أنهم على شىء فاذاهم طغاة لادين لهم فهربنا بدينا ونحن أصحاب حلب وقنسرين وعزاز ودارم وانطاكية ونحن قاصدون الى الملك هرقل لنكون فى جنابه ، فلما سمع جرفاس من القوم ذلك فرح بهم وأنس لكلامهم وقال انزلوا عندنا كى تستريحوا ساعة من التعب ، فلا شك أنكم سرتم الليل والنهار وخافت أنفسكم من العرب قال يوقنا أين أنتم سائرون ؟ قال بعث الينا فلسطين لنكون فى طرابلس فقال يوقنا تيقظوا لأنفسكم فان أمير العرب أبا عبيدة تركناه على نية القدوم الى الساحل . فقال جرفاس وماذا ينفع حذرنا ودولتنا قد اضمحلت وأيامنا قد ولت ولسنا نرى الصليب يغنى عن أهله شيئا .

[قال الواقدى] فنزلوا عندهم ساعة وقدموا لهم من أزوادهم فأكلوا ثم ركبوا وهمّ جرفاس أن يركب لركوبهم . فقال يوقنا اشتغل بأصحابك وألبسهم أفخر ثيابهم ، فان ذلك مما يظهر الرعب فى قلوب أعدائكم .

[قال الواقدى رحمه الله] حدثنى سليم بن عامر عن نوفل بن عبد الله عن جرير بن البكاء وكان أعرف الناس بفتوح الشام قال مادخل يوقنا الى ساحل البحر حتى أتقن الحيلة وذلك أنه قد نزل فيه الحرث بن سليم من بنى عمه يرعون إبلهم وكانوا فى مائتى بيت من العرب فأغار عليهم يوقنا وأخذهم وشدهم كتافا ودخل بهم الى بلاد الساحل ، فلماجنّ الليل جمعهم اليه وقال لاتظنوا أنى رجعت عن الاسلام وانما فعلت بكم هذا كى تسمع الروم بسواحلها أنى غدرت بالعرب وأخذتهم ؟ قال فاطمأنت العرب الى كلامه وقالوا له ان كنت تريد اقامة دين الله فالله ينصرك وبالأعداء يظفرك . قال ووكل يوقنا رجالا تسوق الأموال وانما اطمأن جرفاس وأصحابه إلى يوقنا

لما رأى الأسرى من العرب والجمال والأنعام ، فلما ركب يوقنا وأصحابه ورأى أنهم طالبون لساحل البحر نكب عن طريق طرابلس وكمن في الليل على طريق القوم . قال وان جرفاس فرق خزائنه التي كانت عنده على أصحابه وقعد حتى جنّ الليل وأكات الخيل عليقها ، ثم ركبوا واستقاموا على الطريق ، فلما توسطوا أطبق عليهم يوقنا وأصحابه وداروا بهم ولم يمهلوهم بالقتل وأخذوهم أخذا بالكف وانتشرت الخيل في تلك الأرض لئلا يكون قد انفلت من الروم أحد ، فلما حصلوا في قبضتهم وتحت أسرهم أرادوا أن يطلقوا الحرث بن سليم وأصحابه ، فقال الحرث انى أرى من الرأى أن تتركونا على حالنا فان ثواب الله قد حصل وصبحوا بنا بلاد العدو فانكم ماتشرفون على بلد من بلاد الساحل الافتحه الله لكم . قال يوقنا هذا رأى صحيح ثم أمر أصحابه أن يستوثقوا من الأسرى وكمن ألفين من أصحابه وأصحاب فلنطانوس مع الأسرى وهم ثلاثة آلاف فارس وقال اذا جاءتكم رسلى فاقدموا ، ثم ألبس أصحابه زى الروم مثل أصحاب قيسارية الذين أخذوهم وساروا نحو طرابلس فلما خرج كل من فى البلد الى لقائهم كان كتاب فلسطين قد وصل اليهم انى قد بعثت اليكم بثلاثة آلاف فارس مع جرفاس بن صليبا ودخل يوقنا مع أصحابه حتى استقر قراره فى دار الامارة ودخل عليه شيوخ طرابلس والبطارقة وأهل الحشمة منهم ، فلما حصلوا عنده أمر بهم وقبض عليهم وقال ياأهل طرابلس ان الله سبحانه قد نصر الاسلام وأهله وقد كنا فى غش مظلم نسجد للصلبان ونعظم الصور والقربان ونجعل لله زوجة وولدا حتى بعث الله لنا هؤلاء العرب فهدانا وألحقنا بهم ببركة نبيهم ﷺ وهو النبى المبعوث الذى ذكره الله فى التوراة و بشر به عيسى المسيح وان الاسلام حق وقوله الصدق يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وينطقون بالحق ويتبعون الصدق ويوحدون الله وينزهونه عن الصاحبة والولد ويجاهدون فى سبيله وهو الذى أمر به أنبياءه ورسله فاما أن ترجعوا الى دين الاسلام أوتؤدوا الجزية والابعثتكم عبيدا للعرب ، وهذا ماعندى والسلام . قال فلما سمعوا كلامه علموا أن يوقنا اجتاز عليهم وأخذ أصحاب الملك فى الطريق . فقالوا أيها السيد نحن نفعل ما أمرتنا به ، فنهم من أسلم ومنهم رضى بالجزية وعدل يوقنا فيهم و بعث الى أصحاب الكمين خلوا الأسرى فعرض عليهم الاسلام فأبوا فأمر بحبسهم و بعث الى أبى عبيدة بالخبر وماجرى له و بعث الكتاب مع الحرث بن سليم من وادى بنى الأحمر وقال ياعبد الله كن للأمير مبشرا بهذا الفتح . قال سأفعل ذلك ان شاء الله تعالى وسار بالكتاب حتى وصل الى أبى عبيدة وسلم عليه وناوله الكتاب ، فلما قرأه وعلم معناه فرح وقال للحرث بن سليم : ألم تستأذنى أن تسير أنت و بنو عمك الى وادى بنى الأحمر فمن أوصلك الى طرابلس ؟ قال أوصلنى القضاء والقدر ، وذلك أن يوقنا أغار علينا وأخذنا أسرى وحدثه بحديثهم فعجب من ذلك أبوعبيدة : وقال اللهم ثبتهم وأيدهم بنصرك .

قال حدثنى عامر بن أوس قال أخبرنى ابن سالم قال حدثنى موسى بن مالك . قال ان عمرو بن العاص لما ارتفع المطر رحل من الجابية ونزل على أبواب قيسارية ، وأما ما كان من أمر يوقنا فانه لما ملك طرابلس واحتوى عليها واستوثق من سورها وأبوابها ترك أصحابه على الأبواب وقال لاتدعوا أحدا يخرج من الأبواب وكان فى المرسى مراكب كثيرة فرفع آلاتها وأخذها كل ذلك ولايعلم أحد من أهل الساحل بماصنع . قال و بعد أيام جاءت مراكب كثيرة

زهاء من خمسين مركبا ، فتركهم يوقنا حتى نزل أكثرهم الى المدينة فأمر بهم فأتوا بهم اليه فاستخبرهم عن حالهم وقال من أين جئتم ؟ قالوا جئنا من جزيرة قبرص ومن جزيرة اقريطش وقالوا معنا العدد والسلاح مضروبة للملك فلسطين فأراهم الفرح والسرور وسلم عليهم وقال انى أريد أن أسير معكم ، ثم أمر بهم الى دار الضيافة و بعث الى قواد المراكب فأنزلهم وقدم لهم السماط ، فلما أكلوا قال انى أريد أن أسير اليكم الزاد والعلوفة وعدة السلاح الى خدمة الملك ولكن تقيمون عندى ثلاثة أيام . فقالوا : أيها البطريق اناعلى عجل من أمرنا نخاف من لوم الملك ولسنا نقدر على ذلك ولم يزل بهم حتى أذعنوا له . فقال أريد أن تنزلوا الشراعات والمقاذيف فتكونوا فى المدينة ليطمئن قلبى بذلك ففعلوا وألصقوا المراكب بالسور ونزل كل من فى المراكب ومابقى فى المراكب الاثلاثة رجال ، فلما دبر هذا التدبير قبض على الجميع فلما كان الليل سلم طرابلس لبنى عمه وللحرث بن سليم وفلنطانوس وعمر المراكب برجاله وهمّ بالصعود اليها واذا عند غروب الشمس قد أقبل خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه فى ألف فارس من أصحابه ، فلما رآهم يوقنا سجد لله شكرا وسلم على خالد بن الوليد وسلم له المدينة وحدثه بما جرى له وماقد عزم عليه فقال نصرك الله وأيدك ، ثم ان يوقنا ركب من ليلته وسار وكان على سور دمشق جيش فلسطين وهوأرمويل بن نشطة ومعه أربعة آلاف فما أصبح يوقنا الا وهو فى مدينة سور فأمر بالبوقات فضربت والرايات فنشرت ووقف الدمستق يختبرخبرهم فعاد صاحب البحراليه . فقال هؤلاء أهل قبرص وجزيرة اقريطش قد أقبلوا بالعلوفات والطعام والعدد يريدون قيسارية فى خدمة الملك ، ففرح أهل صور بذلك وأمروهم بالنزول فنزل يوقنا وأصحابه وكان جملة من نزل معه تسعمائة رجل وكان قد استخلصهم لنفسه فصنع لهم الدمستق طعاما ومدّ لهم سماطا عظيما وأحضر لقوّادهم الخلع و يوقنا ينتظر الليل حتى يثور بأصحابه ، وكان جملة من نزل معه تسعمائة رجل كما ذكرنا وترك الباقين فى المراكب ، وقال ان لم يتمّ لنا مانريد ولم نظفر بهم فلا تبرحوا من مراكبهم وأنفذ الى خالد وأخبره بالقصة .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ماسمع بأعجب من هذه القصة ، ولقد حدثنى ابن مزاحم عن الأرقط بن عامر عن عمار بن ياسر الربعى . قال لما حصل يوقنا والتسعمائة بمدينة صور وأكلوا سماط الملك وخلع على كبرائهم أقبل اليهم فى السر رجل من بنى عمّ يوقنا ممن استحكمت الضلالة فى قلبه واحتوى الكفر على أقانيم جسده فأقبل الى الدمستق وحدثه بأمر يوقنا وما قد عزم عليه وانه مسلم وأنه يقاتلكم مع العرب وقد فتح طرابلس وأخذ البطريق جرفاس صاحب الملك ، فلما سمع الدمستق ذلك لم يكذب خبرا دون أن ركب بأصحابه وقبض على يوقنا وأصحابه ووقع الصياح وكثر الضجيج وسمع بذلك أصحاب يوقنا فعلموا أن ذلك بسبب أصحابهم وانه قبض عليهم فاغتموا لذلك غما شديدا وأخذوا على أنفسهم من عدوّ يقبل عليهم ، قال فلما استوثق عليهم الدمستق أرمويل بن نشطة وكل بهم ألف رجل وقال سيروا بهم الى الملك يفعل فيهم مايريد وأقبلوا يعنفون يوقنا وأصحابه ويقولون لهم : ما الذى رأيتم فى دين العرب حتى تبعتموهم وتركتم دينكم ودين آبائكم قد طردكم المسيح عن بابه وأبعدكم عن جنابه ، فلما هموا أن يسيروا بهم وقع الصياح من الأبواب ونفر أهل القرى ، ومن كان بالقرب من صور فسألوهم عن أخبارهم

فقالوا قدمت العرب عليكم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان عمرو بن العاص لما نزل على قيسارية وجه يزيد ابن أبى سفيان فى ألفى فارس الى صور ، فلما سمع الدمستق أمر بالأبواب فاغلقت وصعدت الرجالة على الأسوار وعمروا الأبراج ونصبوا المجانيق وأدخل الدمستق يوقنا الى قصر صور واستوثق منهم لئلا يتمّ عليه أمر منهم وبات القوم يحرسون وأضرموا نيرانهم على الأسوار فأقبلوا يرقصون ويشربون طول ليلتهم ، فلما كان الغد أشرف عليهم يزيد بن أبى سفيان فنظر اليهم الدمستق ، فلما رآهم قليلا استحقرهم وطمع فيهم وقال ، وحق المسيح لابدّ لى من الخروج اليهم وهزم هذه الشرذمة اليسيرة ، ثم لبس الدمستق اللباس وأمرهم بالخروج وترك على حفظ يوقنا وأصحابه ابن عمه باسيل . قال وكان باسيل هذا ممن قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية وكان قد رأى النبى ﷺ فى دير بحيرا الراهب وكان باسيل قد مضى الى زيارة بحيرا ، فلما قدمت عير قريش وجمال خديجة بنت خويلد وفيها رسول الله ﷺ نظر بحيرا الى القافلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى وسطها والسحابة على رأسه تظله من حر الشمس ، فلما تبينه قال والله هذه صفة النبى الذى يبعث من تهامة ثم انتظروا واذا بالركب قد نزل ورسول الله صلى الله عليه وسلم نزل وحده تحت شجرة يابسة واستلقى اليها فأورقت الشجرة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما عاين بحيرا ذلك صنع طعاما لقريش واستدعاهم فدخلوا الدير وبقى هو مع الابل ليرعاها ، فلما نظر بحيرا اليهم ولم يره فى جملتهم قال يامعشر قريش هل بقى منكم أحد ؟ قالوا نعم بقى فينا من تخلف لحفظ القافلة ورعى الابل . قال ما اسم من يرعى الابل قالوا محمد بن عبد الله ؟ قال هل مات أبوه وأمه قالوا نعم قال هل كفله جده وعمه قالوا نعم ، قال ياقريش هو والله سيدكم وبه يعظم فى الدنيا مجدكم قالوا من أين عملت ذلك ؟ قال لما أشرفتم علىّ من البرّية لم يبق صخر ولامدر الا خرّ له ساجدا

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فبقى باسيل فى حيرة من أمرهم وكتم سره وعلم أن بحيرا لايتكلم الابالحق ، فلما وقع يوقنا وأصحابه ووكله الدمستق على حفظهم قال ان الاسلام هوالحق وقد بشر به بحيرا الراهب ، ولعل الله يغفرلى اذ حللت هؤلاء القوم .

[قال الواقدى] من حسن تدبير الله لعباده المؤمنين أنه لما خرج الدمستق الى لقاء يزيد ابن أبى سفيان لم يتأخر أحد من شباب المدينة لاصغير ولا كبير الا وخرج معه وبقيت العوام ينتظرون على الأسوار ما يكون بينهم وبين العرب ، فلما نظر باسيل الى المدينة وخلوّها واشتغل أهلها بالحرب أخذ رأيه على خلاص يوقنا ومن معه فأقبل اليهم بالليل والتفت الى يوقنا وأصحابه وقال أيها البطريق كيف تركت دين آبائك وأجدادك من قبل وعولت على دين هؤلاء العرب وما الذى رأيت من الحق حتى تبعتهم وقد كانت الروم تتخذك عضدا لها وعونا ، قال له يوقنا ياباسيل ظهرلى من الحق ماظهر لك من الحق فعرفته وقد هتف بى هاتف يقول لى ان الذى هداك الى دينه يخلصك و بشرنى بالخلاص على يديك . قال فلما سمع زاد إيقانه وتحقق ايمانه وقال ليوقنا لقد أنطق الله لسانك بالحق وان الله تعالى كشف حجاب الغفلة عن قلبى منذ رأيت نبىّ هؤلاء القوم بدير بحيرا الراهب وهو فى قافلة لأهل مكة ورأيت من دلائله أنه لايسير على الأرض الا والشجر تسير اليه والسحابة على رأسه تظلله ولقد استند الى شجرة يابسة فأورقت فى الحال

وأنبأنى بحيرا الراهب أنه وجد فى العلم أن جماعة من الأنبياء استندوا اليها وجلسوا حولها فلم تورق ، فلما استند بظهره اليها أورقت أغصانها وأينعت فعجبت من ذلك ، وسمعت بحيرا يقول هذا والله الذى بشر به المسيح فطوبى لمن تبعه وآمن به وصدقه ، فلما عدت من زيارة بحيرا سافرت الى القسطنطينية بتجارة وطفت فى بلاد الروم وأقمت ماشاء الله ، ثم عدت الى قيسارية فرأيت الروم فى هرج ومرج فسألت عن أحوالهم فقيل قد ظهر نبىّ من الحجاز اسمه محمد بن عبدالله وقد أخرجه قومه من مكة وقد أتى الى المدينة التى بناها تبع وقد ظهر على قومه ونصر عليهم فما زلت أسأل عن أخباره وهى فى كل يوم تنمو وتزيد حتى مات ، ثم ولى صاحبه أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وأنفذ جيوشه الى الشام فلم يلبث الا يسيرا ثم مات وولى هذا الرجل عمر بن الخطاب ففتح بلادهم وهزم جيوشنا وأنا مع ذلك أنتظر قدومهم الى هذا الساحل حتى أتى الله بهم . فقال له يوقنا وما الذى عزمت عليه ؟ قال عزمت والله ان أفارق قومى وأتبعكم فان الحق بين ثم حل يوقنا وأصحابه وسلم اليهم العدد والسلاح وقال ليوقنا : اعلم أن مفاتيح أبواب المدينة عندى والعسكر خارج المدينة مشتغل بقتال العرب وليس فى المدينة من يخاف جانبه فانهض على اسم الله فقال يوقنا جزاك الله خيرا فلقد هداك الله الى دينه وسلك بك طريق النجاة وختم لك بخير ويجب الآن علينا أن نظهر أنفسنا ونبعث فى المراكب حتى ينزلوا الينا ونكون نحن يدا واحدة . فقال باسيل سأفعل ذلك ثم انه خرج فى حال الخفاء وفتح باب البحر ومعه رجل من بنى عم يوقنا وركبا زورقا حتى وصلا الى البحر والمراكب وحدثاهم بما قد كان فأقبل كل مركب برجاله اليهما وساروا الى أن نزل الجميع وحصلوا داخل المدينة أعنى مدينة صور وأعمى الله أبصار الكفار ، فلما هموا أن يثوروا قال يوقنا : ليس هذا من الرأى وأين من يهب نفسه لله عزّ وجلّ ويخفى أمره ويخرج من الباب ويدور الى عسكر المسلمين ويتوصل الى أميرهم ويعلمه بما كان منا ويكون على أهبة .واذا سمع بنا أحد لايهوله وليصدم جيش العدوّ فقال رجل من القوم أنا أكون ذلك الرجل ، ثم خرج متنكرا وأغلق باسيل خلفه ووصل الى يزيد بن أبى سفيان وحدثه بالأمر على حقيقته وبما كان من أمر يوقنا فسجد لله شكرا وبعث من ساعته الى المسلمين ليأخذوا على أنفسهم فى السكبة على القوم ففعلوا ذلك . وأما يوقنا رحمه الله ، فلما علم أن الخبر وصل الى المسلمين قال لأصحابه ليصعد منكم خمسمائة رجل الى السور ويقتلوا من عليه ، قال باسيل ليس هذا رأيا فان العوام لااعتبار لهم ولعلّ الله أن يهديهم الى الاسلام ولكن مر أصحابك أن يلزموا مطالع السور حتى لاينزل أحد منهم ويزعقوا بالأمان قال فاستوصب رأيه ووكل الرجال بالمطالع ثم زعق يوقنا وأصحابه بصوت مزعج وقالوا : لااله الا الله محمد رسول الله فسمع كل من فى المدينة ومن على السور ذلك فعلموا أن يوقنا وأصحابه تخلصوا من الأسر ووثبوا فى المدينة وطارت عقولهم وانزعجت أفئدتهم على أولادهم وأهاليهم فبقوا فى حيرة فسمع يزيد بن أبى سفيان الضجة فعلم أن المسلمين قاموا فى المدينة فكبر وكبرت المسلمون وهلل الموحدون فسمع الدمستق الضجة من المدينة فعلم أن يوقنا وأصحابه تخلصوا من الأسر وهم الذين فعلوا ذلك فوقع الرعب فى قلوبهم ونظروا الى النيران قد اشتعلت فى عسكر المسلمين وتأهبوا للحملة عليهم فلم يبق لهم صبر وقد انقطعت قلوبهم من أجل أموالهم وأولادهم الذين فى داخل المدينة وقيسارية محاصرة وليس

لهم مدد من ولد الملك فولوا الأدبار واتبع المسلمون آثارهم وملكوا خيامهم وما كان فيها ، فلما أصبح الصباح فتح يوقنا باب المدينة ودخل يزيد بن أبي سفيان ومن معه من المسلمين واحتووا على أموال الروم ونادى من كان على السور الغوث الغوث فأمنهم المسلمون ونزلوا بأجمعهم ، فقال لهم يزيد : ان الله عزّ وجل قد فتح لنا مدينتكم عنوة وأنتم الآن لنا عبيد ، فما شئنا حكمنا فيكم ، ولكن نحن اذا عاهدنا وفينا ، واذا قلنا صدقنا ، وقد أعطيناكم الأمان من أنفسنا ولكن عليكم الجزية على من لم يدخل فى ديننا ومن أسلم منكم فله مالنا وعليه ماعلينا ، فأجاب القوم الى ذلك وأسلم أكثر القوم وبلغ الخبر الى فلسطين بأن صور قد فتحت ، فعلم أنه لا بقاء له فأخذ الفرصة وانهزم وأخذ خزائنه وأمواله وذخائره وخدمه وأركبهم فى المراكب بالليل وقلع يريد اللحوق الى قسطنطينية ، فلما نظر أهل قيسارية الى ذلك خرجوا الى عمرو بن العاص وصالحوه على أن يسلموا له المدينة فصالحهم على مائة ألف درهم وماترك الملك من خزائنه ورجاله فأجابوه الى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح فعندها دخل عمرو بن العاص الى قيسارية وأخذ بقية ماترك الملك وضرب الجزية عليهم من السنة الآتية كل رجل أربعة دنانير وبذلك أمرهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وبعث عمرو جيشا الى صور مع ياسر بن عمار بن سلمة وكان شيخا كبيرا قد شهد مع رسول الله ﷺ حنينا والنضير وقتل أخوه يوم حنين قتله مالك بن عون النضيرى فبعثه عمرو الى صور ومعه رجل من أصحابه ، وصالح عمرو بن العاص أهل قيسارية على مائة ألف درهم وما خلفه فلسطين من بقية ذخائره ، قال ودخلها يوم الأربعاء فى العشر الأول من رجب الفرد سنة تسع عشرة من الهجرة ووصل الخبر الى الرملة وعكاء وعسقلان ونابلس وطبرية فعقدوا كلهم صلحا مع المسلمين وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية ، وملك الله الشام كله للمسلمين ببركة سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الطاهرين .

ذكر فتوح مصر

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبى . قال زياد بن عامر ، قال شام بن عبد الله العنبرى حدّثنا سالم مولى عروة بن نعيم اليشكرى ، قال لما فتح عمرو بن العاص قيسارية صلحا كان لعمر فى الخلافة أربعة أعوام وستة أشهر وبلغ الخبر الى أهل الرملة وعكاء وبلقاء وعسقلان وصيدا وغزة ونابلس وطبرية فأتى كبراؤهم الى أبى عبيدة وأصلحوا أمرهم معه على مال لا يحصى وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية وأنفذ أبو عبيدة لعمرو بن العاصى أن يسير الى مصر بأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه وملك المسلمون أقاصى البلاد ببركة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعظم وكرم . قال وسكنها العرب وتفرّقوا فى البلاد والمدن ودانت لهم العباد وكل يوم يزدادون فلم يبق فى الشام وأعمالها مركز من مراكز الروم الا أخذه المسلمون وتوالدوا وتناسلوا وكثروا ببركة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

قال محمد بن اسحق الأموى رحمه الله تعالى . قال حدّثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة عليه بالخضراء بمدينة عسقلان . قال أخبرنا الليث بن سعد . قال حدّثنا نوفل بن عامر ، قال أخبرنى يحيى بن ساكن المدنى قراءة عليه يوم الجمعة ، ونحن عند منبر يونس بن متى . قال لما

فتح الله ساحل الشام على المسلمين فى سنة تسع عشرة من هجرة رسول الله ﷺ كتبوا بذلك الى أمير جيوش المسلمين أبى عبيدة عامر بن الجراح : بسم الله الرحمن الرحيم . من عمرو ابن العاص الى أمين الأمة . أما بعد : فانى أحمد الله الذى لا إله الا هو ، وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وان الله جل وعلا قد فتح ما كان قد بقى من الساحل وأخذنا قيسارية صلحا وهرب منها فلسطين بن هرقل بأمواله وعياله ونحن بها ننتظر أمرك والسلام . وكتب أيضا يزيد بن أبى سفيان بما تم ليوقنا فى صور وان الله قد عضد الدين ووصل الكتابان الى أبى عبيدة وقد رحل من حلب يريد طبرية فوصل اليه الخبر وهو نازل على الزراعة ، فلما قرأ الكتابين تهلل وجهه فرحا وضج المسلمون بالتهليل والتكبير وكتب من وقته وساعته الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يبشره بما فتح الله على المسلمين وبما فعله يوقنا ووجه الكتاب مع عرفجة بن مازن فركب ناقته وسار حتى وصل المدينة . قال عرفجة بن مازن وعلىّ من ديباج الروم قباء فاخر وعلى رأسى مطرف خزّ مذهب . قال فلما أتيت المدينة ودخلتها يوم الجمعة أوّل ليلة من شهر رمضان قبل مغيب الشمس ، وعمر رضى الله عنه قد أتى يريد المسجد ، فلما أبركت ناقتى وعقلتها وجئته لأسلم عليه نظر الىّ شزرا وقال من الرجل ؟ قلت عرفجة بن مازن ، فقال ياابن مازن أما كان لك برسول الله أسوة حسنة وان هذه ثياب الجبارين ، ومن جعل الله لهم الدنيا جنة وهذا الديباج حرام على الرجال منا ولا يصلح الا للنساء وهذا الذى عليك تصدّق به على فقراء المدينة . أما والله لقد دخلت يوما على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمل بشريط ، وليس بين جلده وبين الشريط شىء ، وقد أثر الشريط فى نعومة جلد رسول الله ﷺ ، فلما رأيت ذلك بكيت . فقال لى ياعمر ماالذى أبكاك ، فقلت يارسول الله ان كسرى وقيصر يعيشان فى ملك الدنيا وأنت رسول الله بهذه المثابة . فقال ياعمر أماترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة . قال عرفجة فسلمت اليه الكتاب ، فلما قرأه تهللت أسارير وجهه . قال عرفجة : ثم نزلت على خالتى عفراء بنت أبى أيوب الأنصارى وبتّ عندها ليلتى ، فلما أصبحت لم أقدر أن أقابل عمر بذلك الزىّ فأعطيت الثوب والعمامة لخالتى فباعتهما وتصدّقت بثمنهما على فقراء المدينة ، قال وسرت الى عمر وعلى ثوب من كرابيس الشام كان تحت ثيابى فلما رآنى تبسم فى وجهى ، وقال ياابن مازن مافعلت بديباجتك ؟ قلت ياأمير المؤمنين باعتها خالتى وتصدّقت بثمنها على المسلمين فقرأ عمر — وماتفعلوا من خير يعلمه الله — ثم انه كتب الى أبى عبيدة يقول : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر ابن الخطاب الى أبى عبيدة عامر بن الجرّاح أما بعد ، فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو ، وأصلى على نبيه محمد ﷺ وقد فرحت بما فتح الله على المسلمين وما وعدنا به رسول الله ﷺ من كنوز قيصر وسيفتح علينا من كنوز كسرى ، والحمد لله على ذلك كثيرا وقد بلغنى أن بادية الأعراب قد استلذوا الدنيا وزينتها ، وقد نصبت لهم شباك محبتها ، وقد تمسكوا بذيل غرورها ونسوا نعيم الجنة وقصورها ورفاوا فى ثياب الديباج والخز وأكلوا الحلواء وخبز الحنطة وألهاهم ذلك عن الآخرة ، وقد بلغنى ياابن الجراح أنهم قد تهاونوا بالصلاة ونسوا المفترضات فجرّد عليهم عتاق الخيل ذوات الهمم وأغلظ عليهم ولا تكن لهم خاملا فيطمعوا فيك ، ومن أخلّ منهم بشىء مما فرض عليهم فأقم فيهم حدود الله ، واعلم بأنك راع وكل راع مسئول عن رعيته . قال الله عزّ وجل — الذين ان

مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر — وقد قال فيك رسول الله ﷺ : أبو عبيدة أمين هذه الأمة فأعط الأمانة حقها ومن ترك صلاته فاضرب به عليها ، ولقد كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه . فاذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه اشتغالا بالصلاة و بعظمة الله ، وعنه ﷺ أنه قال «إن الله عز وجل يقول : ان بيوتى فى الأرض المساجد وان زوّارى فيها عمارها بالعبادة فطوبى لعبد تطهر فى بيته ، ثم زارنى فحق على المزور أن يكرم زائره » وقال ﷺ «جميع المفترضات افترضها الله علىّ فى الارض الا الصلاة فان الله افترضها علىّ فى السماء » واذا قرأت كتابى هذا فأمر عمرو بن العاص أن يتوجه الى مصر بعسكره و يقدمهم عامر بن ربيعة العامرى ومشايخ من أصحاب رسول الله ﷺ يقضى بهم عند مشورته وأنفذ من قدرت عليه الى أرض ربيعة وديار الجد بن صالح والله أسأله أن يكون لكم عونا ومعينا والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته . وسلم الكتاب الى عرفجة بن مازن وأمر له بنفقة من بيت المال . قال عرفجة فأخذت الكتاب وسرت به على طريق تيماء فلقيت عند بيت لحم ركبا من أهل وادى القرى ، فسألتهم عن أبى عبيدة فأخبرونى أنه على غباغب وهو طالب طبرية . قال عرفجة فخرجت أطلب الغور والجولان وأقصد طبرية ، قال فالتقيت بأبى عبيدة على الأردن ، فسلمت عليه وناولته كتاب عمر رضى الله عنه فلما قرأه جمع المسلمين وقرأه عليهم ، فلما فرغ قال مامن رجل ترك الصلاة أوأخلّ بشيء مما افترضه الله عليه الاجلدته ، ومن الغد أتى خالد بن الوليد من طرابلس فقرأ عليه الكتاب وأنفذه الى عمرو بن العاص وأرسل يحثه على المسير الى أرض مصر ، فلما وصل الكتاب الى عمرو أخذ على نفسه بالمسير وسار معه يزيد بن أبى سفيان وعامر بن ربيعة العامرى وجماعة من الصحابة وسار معه يوقنا فى أربعة آلاف من أصحابه وقد وهبوا أنفسهم لله ورسوله فسار عمرو على البيداء من وراء العريش قال وكانت أرض مصر وريفها عامرة بالديور والصوامع وكان دير الزجاج فى مملكة القبط ، وكان ملكهم يومئذ المقوقس ابن راعيل ، وكان هذا الملك من أهل الرأى والتدبير والفضل والحكمة ، وكان تلميذ الحكيم أعاشادمون وهو الذى لما غلبت الحيات على أرض مصر وأخربتها صنع لها جلجلا ، وكان ان حركه سمع صوته من مقدار ميل . قال فتخرج الحيات من حجرتها فمن هربت نجت ومن وقعت هلكت ، وكان المقوقس من أعلم أهل زمانه وكانت القبط معه فى عيشة مرضية وكان يتوقع ظهور رسول الله ﷺ ، وكان حكيم ذلك الزمان بمصر يقال له عطماوس وهو الذى صنع دواليب الريح ورحى الهواء ، وكان عمر فى الأجبال واطلع على مكنون الحكم والأسرار وعرف عمل صنعة الاكسير وعمل الذهب والفضة والجوهر والحركات المتحركة من نفسها بهبوب الريح وأجناس الأهوية فى أجسامها وكان يجد فى علمه أن الله يبعث نبيا من أرض تهامة ينشر دينه وتعلو كلمته وتملك أصحابه البلاد ، فعمل فى أيام راعيل أبى المقوقس هيكلا عظيما على أعمدة من نحاس بمكان يعرف بعين شمس وجعل عليه أشخاصا مجوّفة وجعل وجهها الى جهة مصر وكتب عليها بالقبطية اذا دارت هذه الأشخاص الى جهة الحجاز فقد قرب ملك العرب . قال فبينما المقوقس راكب فى بعض الأيام للصيد وقت هجرة رسول الله ﷺ ، وقد انتهى سيره الى عين شمس اذ هو سمع أصواتا من الأشخاص قد علت ثم انها حوّلت وجهها نحو الحجاز فأيقن

باتلاف ملكه وزواله فعاد من ركوبه وهو قلق ودخل قصر الشمع وجلس على سريره وجمع القسوس والرهبان وكبراء القبط ، وقال لهم يا أهل دين النصرانية اعلموا أن زمانكم قد مضى وهذا النبي المبعوث لاشك فيه وهو آخر الأنبياء ولا نبيّ بعده وقد بعث بالرعب ولابدّ لرجل من أصحابه أن يملك ماتحت سريري هذا فانظروا الى ملككم وأصلحوا ذات بينكم وارفقوا برعيتكم ولاتجوروا فى حكمكم وأمّنوا ضعفاءكم واياكم واتباع الظلم فان الظلم وبيل ومرتعه وخيم وأعطوا الحق من أنفسكم ولايستطل قويكم على ضعيفكم ومادامت الدنيا لأحد من قبلكم حتى تدوم لكم وكما ملكتموها عن كان قبلكم كذلك يأخذها منكم من كان بعدكم فأصلحوا نياتكم فيما بينكم و بين خالقكم فان فعلتم ذلك رجوت لكم النصر على أعدائكم ومن يريدكم ، وان اتبعتم أهواءكم تبين هلاككم .

قال **حدثنا** ابن اسحق رحمه الله ورضى عنه عن عبد الملك عن أبيه عن حسان بن كعب عن عبد الواحد بن عوف عن موسى بن عمران عن حميد الطويل عن أبي اسحق الراوى المغازى مع رسول الله ﷺ قال لما جاء النبي ﷺ من مكة الى المدينة وبايعه الأوس والخزرج كتب الى ملوك الأرض ، وفى الجملة كتابا الى المقوقس ملك مصر وكان الذى كتب الكتاب اليه أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، ونسخة الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الى صاحب مصر . أما بعد : فان الله أرسلنى رسولا وأنزل عليّ كتابا قرآنا مبينا وأمرنى بالانذار والاعذار ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بدينى ويدخل الناس فيه وقد دعوتك الى الاقرار بوحدانية الله تعالى فان أنت فعلت سعدت وان أنت أبيت شقيت والسلام ، ثم طوى الكتاب وختمه بخاتمه . قال أنس بن مالك فاستخرجه رسول الله ﷺ من أصبعه وكان فصه عليه ثلاثة أسطر : السطر الأوّل محمد ، السطر الثانى رسول ، السطر الثالث الله ولا نقش أحد على خاتمه كنقشه . قال سمرة بن عوف قلت لحميد الطويل أ كان لخاتم رسول الله ﷺ فصّ أم لا قال لاأدرى ، قال وسأل رجل جابر بن عبدالله الأنصارى . فقال له فى أىّ يد كان يتختم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . فقال : فى يده اليمنى ويقول اليمنى أحق بالزينة من الشمال وفص الخاتم فى يمينه ، وقال عبد الله بن عباس رأيت رسول الله ﷺ يتختم فى يمينه ثم حوله الى يساره .

حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يتختم فى يساره ، وحدثنا جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ والحسن والحسين رضى الله عنهم جميعا يتختمون فى اليسار .

[قال الراوى] فلما طبع الكتاب بخاتمه قال أيها الناس أيكم ينطلق بكتابى هذا الى صاحب مصر وأجره على الله قال فوثب اليه حاطب بن أبى بلتعة القرشى وقال أنا يارسول الله . فقال له بارك الله فيك ياحاطب قال فأخذت الكتاب من يد رسول الله ﷺ وودعته وأصحابه وسرت الى منزلى وشددت راحلتى وودعت أهلى واستقمت على الطريق الى نحو مصر . فلما بعدت عن المدينة بثلاثة أيام أشرفت على ماء لبنى بدر فأردت أن أورد ناقتى الماء واذا على الماء رجلان ومعهم ناقتان ومعهم رجل آخر راكب على جواد أدهم ، فلما رأيتهم وقفت واذا بالفارس أتى الىّ ، وقال لى : من أين أقبلت وأين تريد ؟ فقلت ياهذا لاتسأل عما لايعنيك فتقع فيما يحزنك

ويخزيك أنا رجل عابر سبيل وسالك طريق . فقال ماإياك أردنا ولانحوك قصدنا نحن قوم لنا دم وثار عند محمد بن عبد الله وقد جئت أنا وهذان الرجلان وتحالفنا على أن ندهمه على غفلة فلعلنا نجد منه غرّة فنقتله . قال حاطب والله لقد أمكنني الله منهم فلأجعلن جهادى فيهم ولو بالخديعة ، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحرب خدعة » فبينما أنا أخاطب الفارس واذا بالراكبين قد وصلا الىّ وقالا لى بغلظة وفظاظة ويحك لعلك من أصحاب محمد ؟ فقلت لهما لقد كاد أن يتبدّل لكما الطريق عن سبيل التحقيق وانى رجل مثلكما أطلب ماتطلبون وأنا قاصد يثرب ، وقد عوّلت على صحبتكم لأكون معكم ، ولكن سمعت فى طريقى هذا ممن أثق به أن محمدا أنفذ رسولا من أصحابه الى مصر بكتاب فلعله فى هذا الوادى فان وقعنا به قتلناه . فقال صاحب الفرس أنا أسير معك ثم انه تقدّم أمامى وتركنا صاحبيه واقفين ينتظران ، قال حاطب : فلما بعدت به عن أصحابه وغبنا عنهما ، قلت مااسمك ؟ قال اسمى سلاب بن عاصم الهمدانى ، قلت ياسلاب اعلم أنه لايقدر أن يدخل على يثرب الامن كان له جنان وقلب وغدر ومكر لان بها سادات الأرض وأبطالها مثل عمر وعلىّ ، ولكن كيف سيفك قال سيفى ماض ، قلت أرنى إياه فاستله من غمده وسلمه الىّ فأخذت السيف من يده وهززته وقلت سيف ماض ثم قلت :

سيوف حداد يالؤى بن غالب مواض ولكن أين للسيف ضارب

فقال مامعنى هذا الكلام ؟ قلت ياابن عاصم ان سيفك هذا من ضرب قوم عاد من ولد شدّاد ، وما ملكت العرب سيفا مثله ولا أمضى من هذا السيف ، ولكن وجب علىّ اكرامك وأريد التقرب اليك بحيلة أعلمك إياها تقتل بها عدوّك . فقال بذمة العرب افعل ذلك . فقال حاطب اذا كنت فى مقام حرب قتال وخصمك بين يديك وتريد قتله فهز هذا السيف حتى يهتز هكذا وتلتئم مضاربه واضرب عدوّك بحرفه فانه أسرع للقتل والقطع ، وملت بالسيف على عنقه واذا برأسه طائر عن بدنه ، فنزلت اليه وأمسكت الجواد لئلا ينفلت فينذر أصحابه ، وتركته مربوطا الى شجرة وأسرعت الى صاحبيه واذا هما ينتظراننا ، فلما رآيانى أقبل أحدهما الىّ فقال : ماوراءك وأين سلاب ؟ فقلت أبشر بأخذ الثأر وكشف العار واعلم بأننا وجدنا رجلين من أصحاب محمد وهما نائمان ، وقد وجهنى سلاب بأن يمضى معى أحدكما حتى نتمكن منهما ويقف أحدكما ههنا ، فان هذا الوادى ماخلا ساعة من أصحاب محمد . فقال نعم الرأى الذى قد أشرت به وسار معى ، فلما غيبته عن صاحبه قلت : ما اسمك ؟ قال عبد اللات . قلت له كن رجلا وإياك والخوف فانك اذا رأيتنا وقد هجمنا على الرجلين فاستيقظ . فقال لابدأن أفعل ذلك ، فقلت له : إنى أرى غبرة ولا شك أن تحتها قوما ممن صبأ الى دين محمد ، فجعل يتأمل كأنه الواله الحيران فعاجلته بضربة على غفلة فرميت رأسه عن بدنه وعدت الى الثالث ، فلما رآنى وحدى تيقن بالشر فقارعنى وقارعته وصدمنى وصدمته ، إلا ان الله أعاننى عليه فقتلته ، وأخذت الراحلتين والفرس وأسلابهما ، ووضعت الجميع عند رجل من أصحابى ، وكان رفيقا لى من زمن الجاهلية وهو من عبد شمس ، ثم توجهت أريدمصر ولم أزل الى أن أتيتها ، فلما وصلت الى باب الملك ، قالوا من أين جئت ؟ قلت أنا رسول الى ملككم ، فقالوا من عند من ؟ قلت من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمعوا بذلك أحاطوا بى وأوصلونى الى قصر الشمع بعد أن استأذنوا لى

وأوقفونى على باب الملك فأمرهم باحضارى بين يديه ، فعقلت راحلتى وسرت معهم عند المقوقس وإذا هو فى قبة كثير الجوهر فى حافتها ولمع الياقوت من أركانها ، والحجاب بين يديه . فأومأت بتحية الاسلام ، فقال حاجبه ياأخا العرب أين رسالتك ؟ قال فأخرجت الكتاب فأخذه الملك من يدى بيده . قال فباسه ووضعه على عينيه ، وقال مرحبا بكتاب النبى العربى ، ثم قرأه وزيره البا كلين ، فقال له اقرأه جهرا فانه من عند رجل كريم ، فقرأه الوزير الى أن أتى الى آخره . فقال الملك لخادمه الكبير : هات السفط الذى عندك فأتى به ، ففتحه واستخرج نمطا ففتح ذلك النمط وإذا فيه صفة آدم وجميع الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وفى آخره صفة محمد ﷺ فقال لى صف لى صاحبك حتى كأنى أراه . قال حاطب ومن يقدر أن يصف عضوا من أعضاء رسول ﷺ فقال لابدّ من ذلك . قال فوقفت بعدما كنت جالسا وقلت ان صاحبى وسيم قسيم معتدل القامة بعيد الهامة بين كتفيه شامة وله علامة كالقمر اذا برز ، صاحب خشوع وديانة وعفة وصيانة صادق اللهجة واضح البهجة أشمّ العرنين ، واضح الجبين سهل الخدين رقيق الشفتين براق الثنايا بعينيه دعج وبحاجبيه زجج ، وصدره يترجرج و بطنه كطى الثوب المدبج له لسان فصيح ونسب صحيح وخلق مليح . قال والملك ينظر فى النمط ، فلما فرغت قال : صدقت ياعربى هكذا صفته ، فبينما هو يخاطبنى اذ نصبت الموائد وأحضروا الطعام ، فامرنى أن أتقدم فامتنعت فتبسم وقال : قدعلمت ما أحلّ لكم وحرّم عليكم ، ولم أقدم لك الا لحم الطير فقلت إنى لا آكل فى هذه الصحاف الذهب والفضة فان الله قد وعدنا بها فى الجنة ، قال فبدلوا طعامى فى صحاف فخار فأكلت ، فقال أىّ طعام أحب الى صاحبك ؟ فقلت الدباء : يعنى القرع فاذا كان عندنا شىء منه آثرناه على غيره فقال : ففى أىّ شىء يشرب الماء ؟ فقلت فى قعب من خشب . قال أيحب الهدية قلت نعم فانه قال ﷺ « لودعيت الى كراع لأجبت ولو أهدى الىّ ذراع لقبلت » . قال أيأكل الصدقة قلت لا بل يقبل الهدية ويأبى الصدقة ، وقد رأيته اذا أتى بهدية لايأكل منها حتى يأكل صاحبها . فقال الملك أيكتحل ؟ قلت نعم ، فى عينه اليمنى ثلاثا وفى اليسرى اثنتين ، وقال من شاء اكتحل اكثر من ذلك أو أقل وكحله الأثمد وينظر فى المرآة ويرجل شعره ويستاك . فقال المقوقس اذا ركب ما الذى يحمل على رأسه ؟ فقلت راية سوداء ولواء أبيض وعلى اللواء مكتوب لاإله إلا الله محمد رسول الله . فقال أله كرسى يجلس عليه أو قبة ؟ قلت نعم له قبة حمراء تسع نحو الأربعين . قال فما الذى يحب من الخيل ؟ قلت الأشقر الأرثم الأغرّ المحجل فى الساق ، وقد تركت عنده فرسا يقال لها المرعد . قال فلما سمع كلامى انتخب من خيله فرسا من أنخر خيول مصر الموصوفة ، وأمر به فأسرج وألجم فأعده هدية لرسول ﷺ وهو فرسه المأمون وأرسل معه حمارا يقال له عفير ، و بغلة يقال لها دلدل وجارية اسمها بريرة وكانت سوداء ، وجارية بيضاء من أجمل بنات القبط اسمها مارية ، وغلام اسمه مجبوب وطيب وعود وندّ ومسك وعمائم وقباطى ، وأمر وزيره أن يكتب الى رسول الله ﷺ كتابا ، يقول فيه : باسمك اللهم من المقوقس الى محمد . أما بعد ، فقدوصل الىّ كتابك وفهمته ، وأنت تقول : ان الله أرسلك رسولا وفضلك تفضيلا وأنزل عليك قرآنا مبينا ، فكشفنا يامحمد خبرك ، فوجدناك أقرب داع دعا الى الله وأصدق من تكلم بالصدق ، ولولا أنى ملكت ملكا عظيما لكنت أول من آمن بك لعلمى أنك خاتم النبيين وإمام المرسلين ، والسلام عليك

ورحمة الله و بركاته منى الى يوم الدين . قال وسلم الكتاب والهدية الى وقبلنى بين عينى وقال : بالله عليك قبل بين عينى محمد عنى هكذا ، ثم بعث معى من يوصلنى الى بلاد العرب والى مأمنى . قال فوجدنا قافلة من بلاد الشام وهى تريد المدينة فصحبتها الى أن وردت المدينة فأتيت المسجد وأنخت ناقتى ودخلت وسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشأت أقول :

أنعم صباحا يا وسيلة أحمد — نرجو النجاة غدا بيوم الموقف
إنى مضيت الى الذى أرسلتنى — أطوى المهامه كالجد المعنف
حتى رأيت بمصر صاحب ملكهم — فبدا الى بمثل قول المنصف
فقرا كتابك حين فك ختامه — فاظل يرعد كاهتزاز المرهف
قال البطارقة الذين تجمعوا — ماذا يروعك من كتاب مشرف
قال اسكتوا ياويلكم وتيقنوا — هذا كتاب من نبى المصحف
قالوا وهمت فقال لست بواهم — إنى قرأت بيان لفظ الأحرف
وبكل سطر من كتاب محمد — خط يلوح لناظر متوقف
هذا الكتاب كتابه لك جامعا — ياخير مأمول بحبك نكتفى

[قال الراوى] ورجعنا الى الفتوح ، قال حدثنى أحمد بن عبيد عن عبد الله بن عمر السلمى عن محمد الزهرى عن عبد الله بن زيد الهذلى عن أبى اسحق الأموى وهو المعتمد عليه فى فتوح مصر وأرض ربيعة والفرس .

حدثنا عمر بن حفص ولم ينفرد بهذه الرواية سواه ، وكان أصحاب السير قد اشتغلوا بوقائع العراق وفتوحه ، وماتجدد من سعد بن أبى وقاص وبنى كسرى أنو شروان وتركوا فتوح الشام وأرض مصر فيما بعد ، وكان قد ارتحل عنهم فتركوه لأجل الزيادة والنقصان فيه ، وانما انفرد ابن اسحق لأنه انفرد عن مشايخ ثقات قد وثق بهم من آل مخزوم اجتمع بهم فى الرملة بعد الفتوح أحدهم نوفل بن ساجع المخزومى وكان عمه خالد بن الوليد وكان من المعمرين ، شهد تبوك مع النبى ﷺ ، وشهد بعدها الحديبية ، وشهد يوم اليمامة ومسيلمة ، وكان مع عمرو بن العاص بأرض مصر فى جميع فتوحها ، والثانى فهد بن عاصم بن عمرو بن سهل بن عمرو المخزومى وغيرهما من الثقات ممن شهد فتوح أرض مصر والوقائع كلها قالوا جميعا ، ومنهم من قال : ان عمرو بن العاص لما انفصل من ساحل الشام وكتب الله سلامة المسلمين وسار متوجها يريد أرض مصر ، فلما كان بمكان يقال له رفيح قال له يوقنا : ياعمرو وأنت تريد أن تدهم مصر على حين غفلة من أهلها ، وأنا ممن يمكننى ذلك لأن ثواب الله أجل غنيمة ، فان قلبى ملوث بحب الدنيا وإنى كنت ممن أشرك بالله سواه ، وأنا أجتهد فى الخلاص وأقاتل من كنت أنصره على الكفر وعبادة الصلبان والسجود للصور من دون الله ، وقد أخذت الاسلام بنية وقبول لأنه الحق وأريد أن أتقدم الى أرض مصر فلعلى أجد لكم بالحيلة سبيلا . فقال عمرو : وفقك الله وأعانك وحفظك وصانك . قال فسار يوقنا ليلا من رفيح يطلب الفرماء ولم يقرب من العريش ولا القاربا وكلها حصون عامرة وقد سكنها أقوام من العرب المختلطة ، وكانوا يؤدون المال الى الملك المقوقس بن راعيل ، وسنذكر فتوحها فيما بعد ان شاء الله تعالى . قال وان يوقنا أشرف على الفرماء ، وكان بها وال من قبل

المقوقس اسمه الرندبان ، والفرماء على جانب بحيرة تنيس من الشرق . فرأى يوقنا خياما منصوبة وقبابا مضروبة ، فلما رأوا يوقنا وقع الصائح ، فركب من كان هناك وكانت الأخبار ترد عليهم كل وقت بما صنع الصحابة ، فلما بلغهم أن قيسارية فتحت اغتموا لذلك ، لأنه كان فلسطين بن هرقل قد تزوّج بابنة المقوقس ارمانوسة ، وكان قد جهزها أبوها وأرسلها مع غلمانها وأموالها الى بلبيس ، ثم انها وجهت حاجبها تميلاطوس الى الفرماء فى ألفى فارس لحفظ ذلك المكان

حدثنا ابن اسحق رحمه الله أخبرنا موسى بن محمد بن ابراهيم بن الحرث التيمى عن أسامة ابن زيد بن أسلم . قال ابن اسحق حدثنى رجل من القبط رأيته وقد دخل فى دين الاسلام فقربت اليه وسألته فاخبرنى أنه من قبط مصر من جند المقوقس فقلت له كيف كان من أمركم لما سمعتم بقدوم المسلمين من الشام وكسر جيوش هرقل . قال لما بلغنا ذلك بعث المقوقس رسله الى جميع أطراف بلاده مما يلى الشام بأن لايتركوا أحدا من الروم ولاغيرهم يدخل أرض مصر ، كل ذلك لئلا يتحدثوا بما صنع المسلمون بجنود هرقل فيدخل الرعب فى قلوب قومه فلأجل ذلك أنه لما دخل يوقنا أرض مصر لم يعلم به أحد فلما ركبوا الى لقائه ورأوا حشمه وعسكره وكانوا بزىّ الروم سألوه عن مكانه وكان قد أخبر فى طريقه من حصن كيفا وأعلموه أنه اشتغل فلسطين عن زوجته أرمانوسة وان أباها قد جهزها وهى على مدينة بلبيس . فقال يوقنا ومتى تزوّجها ، قالوا تزوّجها والمسلمون على حصن حلب . فقال له انه قد ركب فى البحر وترك قيسارية وقد أرسلنى حتى آخذها فى المراكب من دمياط ، فلما سمع الحاجب قوله قال يوقنا أنا قد جئت رسولا من الملك فلسطين الى الملك المقوقس حتى يرسل معى ابنته الى زوجها ، فلما سمعوا كلامه قالوا ان الملكة فى بلبيس وقد أنفذها اليه وما منعها من المسير الا خوف العرب وهروب فلسطين من قيسارية فسار يوقنا حتى قرب من بلبيس فنزل هناك وسار حاجبها اليها وعرفها بما قاله يوقنا . فقالت علىّ به فأتى اليه الحاجب وأمره بالمسير فركب وركب أصحابه وهم بأحسن زىّ وأتوا الى عسكر أرمانوسة واذا به عسكر كبير أكثر من عشرة آلاف . قال فترجل يوقنا ووجهوا قومه ووقفوا على باب قصرها واستأذنوا عليها فأذنت لهم بالدخول ، فلما وقفوا بين يديها خضعوا لها فأمرت لهم بكراسى فوضعت لهم فأمرتهم بالجلوس فجلسوا ووقفت الحجاب والمماليك والخدم فقالت الملكة أرمانوسة له من غير ترجمان كم لكم عن الملك فقال شهر . فقالت أكان رحل من المراكب أم قبل رحيله فقال يوقنا بل قبل رحيله وانه ركب منهزما ، ولما وصلت الى غزة بلغنى أنه سار وقد قال لى فى السرّ بينى و بينه لاطاقة لنا بقتال هؤلاء العرب ، فان أبى هرقل ترك أنطاكية وذهب وقد قاتلهم بجميع جنوده واستنصر عليهم بجميع دين النصرانية وأنفذ اليهم ماهان الأرمنى الى اليرموك فى ألف ألف فهزموه وقتلوه وانى أريد أن آخذ خزائنى وأطلب القسطنطينية ، ثم انه وجهنى اليك أيتها الملكة لتركبى فى المركب اليه . قال فلما سمعت ذلك أطرقت برأسها الى الأرض ثم رفعت رأسها وقالت انى لا أقدر أن أصنع شيئا الا بأمر الملك أبى وانى مرسلة اليه . قال فقام يوقنا وصقع لها ودعا ثم خرج من عندها فوجد غلمانه قد ضربوا خيامه فنزل بها وأرسلت اليه العلوفة والضيافة . قال ابن اسحق الأموى رضى الله تعالى عنه : ولقد بلغنى أنه لما جنّ الليل أتت اليها الجواسيس وأعلموها بفتح قيسارية ومدائن الساحل جميعها و بتوجه عمرو بن العاص الى مصر

وبحديث يوقنا صاحب حلب وحذروها منـه وعرفوها بجميع الأخبار مفصلة وانه هو الذى فتح طرابلس وصور وجبلة . قال فلما سمعت ذلك دخل فى قلبها الرعب وعلمت أنه محتال فطلبت حاجبها وقالت له مر العسكر بلبس السلاح وأن يكونوا مستيقظين فقد جرى من الأمر كذا وكذا ثم انها أوقفت مماليكها وغلمانها وقالت لهم اذا دخـل هذا الرجل وخواصه فاقبضوا عليهم فاذا نحن ملـكناهم انخذل عسكر المسلمين ، فلما رتبت هذا أرسلت تطلب يوقنا فذهب حاجبها اليه وقال له أيها البطريق الـكبير ان الملـكة تطلبك لتوصيك بمـا تقوله لأبيها . فقال له السمع والطاعة ها أنا راكب وأصحابى فذهب القاصد . فقال يوقنا لأصحابه اعلموا أن الملـكة شعرت بنا والقوم قد عوّلوا على قتلنا فان حصلنا فى أيديهم قتلونا لامحالة وتضرب بنا الأمثال لمن يأتى بعـدنا فموتوا كراما ولاتلقوا بأيديكم الى القتل بأيدى الـكفار وكونوا نصرة لدين الاسـلام وما عسى نرجو من هذه الدنيا الغدارة التى ماصفت لأحد الا وغيرته بالـكدر فاعمروا دار البقاء وجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده فلعلـكم ترضونه بذلك . قال فأخـذ القوم على أنفسهم واشتدوا وركبوا وتوكلوا على الله فى جميع أمورهم .

حدثنا ابن اسحق قال رحمـه الله : لقـد بلغنى أن الملـكة أقامت تنتظر قدومهم لتقبض عليهم فاستبطأتهم فبعثت رسولا ثانيا تستحثهم . فقال له يوقنا ارجع الى صاحبتك وقل لها ماجرت بذلك عادة الملوك يبعثون يطلبون الرسل الالأمر يحدث وقد كنت عندها فما الذى تريده نصف الليل منى؟ فعاد الرسول وأخبرها بمـاقاله فركبت من وقتها وتقدمها حاجبها وأمرت الجيش كله أن يركب ودارت بيوقنا وأصحابه ولم تحدث بشئ الى الصباح فأقبل صاحب الملـكة اليهم وقال ماحملـكم أن تركتم دين آبائـكم وهجرتم دين المسيح وأمه وقد جئتم تحتالون علينا ألاوان المسيح قد غضب عليكم . فقال يوقنا ان المسيح عبد من عبيد الله لايقدر على شىء لانه مأمور مكلف وقد أنطقه الله بذلك وهو فى المهد فقال ــ انى عبدالله وقال : وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ــ ، ومن يؤمر بالصلاة والزكاة ويموت فليس باله انما هو عبدالله مكلف بالعبادة مثل واحد منا وان الله لايتشبه بأحد منا وان الله لايشبهه شىء ولا يشتبه بأحد ، ولقد أضلـكم من صدكم عن ذلك وزاغ بكم عن طريق الحق بقوله على الله والمسيح ، ولقد كنا مثلـكم نسجد للصلبان ونعظم القربان ونسجد للصور ونجعل مع الله إلها آخر الى أن تبين لنا دين محمد ﷺ فشفانا بعـد العمى وشرح صدورنا للهدى ، ودين الاسلام هو الدين الواضح وكنا نقول مثـل قولـكم ان المسيح ابن الله ، وإن ابراهيم وإسحق كانا نصرانيين فـكذبنا الله بقوله فى كتابه ــ ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولـكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ــ وقال سبحانه ــ ومن يبتغ غـير الاسلام دينا فلن يقبل منـه وهو فى الآخرة من الخاسرين ــ وها نحن قد جئناكم لنجاهدكم : اما أن تقولوا لاإله الاالله محمد رسول الله وإما الجزية وإما القتال . قال فلمـا سمع الحاجب كلامه قال لقومه دونـكم وهؤلاء فقد جاءوا يريدون قتلـكم وأخـذ أموالـكم وأولادكم وبلادكم وحريمكم . قال فحملوا على يوقنا وأصحابه وعمل السيف بينهم بقية يومهم ، فلما كان من الغد ركبوا وداروا بهم وتصايحت عليهم القبط ودارت بهم الخيل والرجال فبلى يوقنا ومن معه بمـالاطاقة لهم به وقتل منهم جماعة وقتلوا هم من القبط خلقا كثيرا

ولكنهم صبروا لأمر الله وقالوا والله لا نسلم أنفسنا أونموت كلنا فقد حصل لنا ما كنا نطلب من رضار بنا . قال ابن اسحق رحمه الله ورضى عنه : حدثنا سيف بن شريح عن يونس بن زيد عن عبد الله بن عمرو بن حفص عن عبد الله بن الحرث . قال لما أخبرت الجواسيس أرمانوسة بقصة يوقنا أنفذت كتابا الى أبيها المقوقس تعلمه بذلك وأنها مغلوبة معهم وان العرب متوجهون مع رجل يقال له عمرو بن العاص وأنا منتظرة جوابك . قال فلما وصل الكتاب اليه دعا أرباب دولته وقال لهم قد تم من الأمر على كذا وكذا فما تشيرون به على ؟ . قالوا أيها الملك نرى لك من الأمر أن تنفذ جيشا الى المملكة ينصرها على عدوها وتنفذ الى جلباب ملك البرية تستنصر به على هؤلاء العرب وتنفذ الى مازع بن قيس ملك البجاوة ينفذ لك جيشا وتنفذ الى من بالاسكندرية يأتون والى من بالصعيد يأتون فاذا اجتمعت اليك هذه الأمم فالق بهم العرب ولا تأمن لهم فيطمعوا فيك . فقال يا أهل دين النصرانية اعلموا أن الملك محتاج الى سياسة ، ومن ملك عقله ملك رأيه ومن ملك رأيه أمن من حوادث دهره وليست الغلبة بالكثرة وانما هي بحسن التدبير ، والله لقد كان قيصر أكثر مني جندا وأوسع بلادا وأعظم عدة وقد جمع من بلاد الروم الى اليونانية ومن أقاليمه ومن القسطنطينية ومن سائر البلاد وبلاد الاندلس واستنصر بنا و بغيرنا فما أغنى عنه جمعه شيئا ولا قدر أن يرد القضاء والقدر عنه ، واعلموا أن العقل أساس الآدمى المخاطب المكلف المفضل به على سائر ماخلق على الأرض ، فمن ملك عقله ملك أمره ومن لم يجد منه حظا كان بجهله أرضيا ، ولن تنال الحكمة الابالعقل . قال الحكيم ماسوسى : ان الحكمة مرقى جليل وطالبها نبيل وتاركها ذليل لانها غذاء الأرواح وقوت القلوب ، واعلموا أنى لست أتكلم الا بالصدق وأنتم تعلمون أن محمدا فى أيامه بعث الينا يدعونا الى دينه فاستدليت على صدق قوله بكتابه وماظهر من معجزاته وقدسمعتم أنه لما بعث ماسمع أحد بذكره الا وخاف منه ، وقد سمعتم أن القمر انشق له والذراع المسموم كلمه وقال : يارسول الله انى مسموم فلاتأ كلنى وقد كلمه الضب والحجر والشجر والمدر وعرج به الى السماء وركب أوج الماء وأول من تغلب عليه قومه وحاربه عشيرته حين أنكروا قوله وفعله فنصر عليهم وقهرهم وقد تبين لهم الحق فاتبعوه ونصروه ، وهم هؤلاء الذين فتحوا الشام وما أنكرت من أمرهم شيئا فانهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر و يقيمون حدود الله التى أمر بها ومافى كتابهم شىء الا وفى الانجيل مثله وقد أضلكم بولص وأغواكم حين غربكم و بدل شرعكم وسماكم باسم لايليق بكم ، وكيف وقد عاد بكم من الطريق الواضح وأحل لكم جميع ماحرم عليكم من قبل ، وهذا هو عين المحال وداعية العمى أن تتعدوا ماقال نبيكم وكيف نبغى لروح الله عيسى بن مريم أن يكلمكم بما لم يرسله الله اليكم . ثم ان بولص قال لكم انه أحل لكم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب المعاصى ماظهر منها ومابطن فأطعتم أمره وصدقتم قوله وحاشا المسيح أن يفعل ذلك ، وما كان أحد من الأنبياء الاعلى ماجاء به محمد ، وهؤلاء الحكماء الأولون مامنهم الامن يتكلم بوحدانية الله تعالى ، وهذا الحكيم دمونا الذى صنع فى برارى اخميم أرصادا وجعلها مثلا للأمم الآتية ، وذكر فيها من يأتى من الأمم والأجيال الى آخر الزمان وصور الحكماء منفردة به والنسر يعقد رأس الجمل والنسر يقيم فى كل برج ثلاثة آلاف سنة كما قدر بالمقدار الحكيمى ، وكان قد صور صورة وكتب على رأسها بقلم اليونانية أربعة أسطر . الأول من خاف الوعيد سلم مما يريته

الثانى : من خاف مابين يديه صان دموعه بما فى يديه . الثالث : ان كنت تريد الجزيل فلا تنم ولا تقيل . الرابع بادرقبل نزول ماتحاذر ، فمن كان هذا كلامهم فكيف صنع سواهم ، وهذه فريضة هؤلاء القوم المحمديين . قال فأطرقوا برؤوسهم الى الأرض غيظا على الملك . قال وما تكلم المقوقس بهذا الكلام حتى أوقف عنده من مماليكه ألف غلام فوق رأسه بالسيف ، لانه كان قد سمع ماجرى لقيصر وهرقل مع بطارقته لما جمعهم ونصحهم فوثبوا عليه وأرادوا قتله . أما المقوقس فانه استوثق بمماليكه حتى لايطمع فيه . قال فلما تكلم بذلك قال له وزيره : أيها الملك رأيك راجح وأنا أوّل من يؤمن بما تقول . فقال للوزير اكتب الى ابنتى كتابا تأمرها فيه أن تتلطف بالقوم وتعطيهم الأمان وتنفذهم الينا حتى نخلع عليهم وتطيب قلوبهم ويكونوا معنا يقاتلون من يريد قتالنا ، وما أراد بذلك الا أن يسلم مثل يوقنا وأصحابه إذ هم على الحق . قال فكتب الوزير الى الملكة كتابا بما قاله أبوها ، فلما وصل الكتاب اليها وقرئ عليها أمرت أصحابها أن يرجعوا عن قتل يوقنا ومن معه فرجعوا وأرسلت الى يوقنا تعلمه بكتاب أبيها وأرسلت اليه الكتاب ، فلما قرأه قال لرسولها امض اليها حتى أستخير الله تعالى فى ذلك . فقال يوقنا لأصحابه ان الله قد كشف حجاب الغفلة عن قلب هذا الملك وقد ظهر له ماظهر لنا من الحق فما الذى ترون من الرأى ؟ قالوا نحن نسمع من رأيك . فقال دعونى هذه الليلة . قال فلما جنّ عليه الليل قام يصلى وأمر أصحابه أن لاينزلوا عن خيولهم مخافة من غدر القوم فبينما هو يصلى واذا بشخص قد دخل عليه فارتاع منه ثم تأمله فاذا هو عمرو بن أمية الضمرى ساعى رسول الله ﷺ ، فلما رآه يوقنا فرح وكان قد رآه مرارا فقال له مرحبا ياعمرو من أين ؟ فقال ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعثنى الى عمرو بن العاص لأحثه على المسير الى مصر فوجدته قد وصل وهاهو منك قريب وقد أرسلنى اليك لأعرفه خبرك فأخبره بما وقع له وقال له امض ياعمرو ودعه يعجل بالمجىء يعيننا على هؤلاء القوم وحدثه بجميع ماجرى علينا . قال فرجع عمرو مسرعا مثل الريح الهبوب الى عمرو بن العاص وأعلمه بقصة يوقنا . قال فترك عمرو بن العاص الأثقال ومعها من يحفظها وركب وسار بجرائد الخيل وترك مع الأثقال عامر بن ربيعة العامرى ، فما كان قبل طلوع الفجر الا وهو عند يوقنا فدار بالقوم فلما أحس بهم يوقنا كبر هو ومن معه ورفع الجميع أصواتهم بالتهليل والتكبير ووضعوا السيف فى القبط فما طلعت الشمس الا وقد قتل من القبط أكثر من ألف وأسر منهم خلق كثير وولى الباقى منهزمين ، وأخذت أرمانوسة ابنة الملك وجميع مامعها من الأموال والرجال والجوارى والغلمان . فقال عمرو بن العاص لأصحاب رسول الله ﷺ مثل يزيد بن أبى سفيان وهاشم بن سعيد الطائى والقعقاع بن عمرو التميمى وخالد بن سعيد وعبد الله بن جعفر الطيار وصفوان وأمثالهم : ان الله سبحانه وتعالى قد قال — هل جزاء الاحسان الا الاحسان — وهذا الملك قد علمتم أنه كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث هدية ونحن أحق بمن كافأ عن نبيه صلى الله عليه وسلم هديته وكان يقبل الهدية ويشكرعليها وقد رأيت أن ننفذ الى المقوقس ابنته وماأخذنا معها ونحن نتبع سنة رسول الله ﷺ وقد سمعته يقول « ارحموا عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر » فاستصوبوا رأيه فبعث بها مكرمة مع جميع مامعها مع قيس بن سعد رضى الله عنه .

ذكر فتح مدينة مصر

قال ابن إسحق الأموى رحمه الله تعالى ورضى عنه : لما ورد المنهزمون على الملك وأخبروه بما تمّ عليهم وعلى ابنته ضاق صدره و بقى متفكرا فيما يصنع وليس له نية فى القتال مع الصحابة ، فبينما هو متفكر إذجاءه البشير بقدوم بنته ومامعها خفف عنه بعض ما كان يجده ، فلما دخل عليه قيس رفع مجلسه فوق الملوك والحجاب وأرباب دولته وكانوا قد اجتمعوا يهنئونه بابنته ، فلما حضر قيس بن سعد سأله الملك عن أشياء لعلّ أصحابه أن تلين قلوبهم الى الاسلام . فقال يا أخا العرب أخبرنى عن صاحبكم ما الذى كان يركب من الخيل . قال الأشقر الأرثم المحجل فى الساق وكان اسمه المترجل . فقال لقد بلغنا أنه كان لايركب الا الجمال . فقال قيس ان الله أكرم الابل وشرفها قال لها كونى فكانت وأخرج ناقة من الصخر وخص بها العرب من دون غيرهم من بنى آدم وكان يركبها لكونها قدجعلها الله مباركة تقنع بما تجد وتصبر على الحمل الثقيل والسير الشديد وتصبر عن الماء أياما وقد ذكرها ربنا فى قوله فى كتابه العزيز . فقال — وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق — وقال — والبدن جعلناها لكم من شعائر الله — ولما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزواته غزوة بدر كان معه مائة ناضح من الابل وكان معه فرسان يركب أحدهما المقداد بن الأسود الكندى ويركب الآخر مصعب بن عمير وانا لقينا قريشا فى عددها وعديدها فهربوا ببركة رسول الله ﷺ ، وكان أصحابه يتعاقبون فى الطريق ، وكان عليه الصلاة والسلام وعلى بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد حليف حمزة عبدبن المطلب وغيرهم يتعاقبون شاخا ، وكان أيها الملك يركب الحمار الذى أهديته اليه ويردف وراءه معاذ بن جبل ، وعلى الحمار ركاب من ليف وخطامه ليف ، واعلم ياملك القبط أنه كان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويقول « من رغب عن سنتى فليس منى » ، وكان قميصه من القطن قصير الطول والكمين ليس له أزرار ولقد أهدى اليه ذو يزن حلة اشتراها له قومه بثلاثة وثلاثين بعيرا فلبسها رسول الله ﷺ مرة واحدة وأهدى له جبة من الشام فلبسها حتى تخرقت وخفين فلبسهما حتى تخرّقا ، وكان له رداء طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان ونصف ، وكان له ثوب خز يلبسه للوفد اذا قدموا عليه ، وكان أفصح الناس إذا تكلم بكلمة رددها ثلاثا ، وكلما رأى قوما سلم عليهم ورأيته كلما تحدث تبسم فى حديثه ، وكان اذا اجتمع اليه أصحابه وأراد أن ينهض . قال سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب اليك ، قلنا يارسول الله إن هذه الكلمات اتخذتهن عادة . قال أمرنى بهن جبريل وأخرجت لنازوجته لماقبض كساء وإزارا غليظين ، وقالت قبض رسول الله ﷺ فوق هذين ، فقال المقوقس : هذه والله أخلاق الأنبياء فطوبى لمن اتبعه ، فان أمته هى الأمة الموصوفة فى الأنجيل ، فقال بعض من حضر أيها الملك ماتكون أمة عند الله أفضل من هذه الأمة وهم نحن فغضب الملك من قوله ، وقال وبأىّ شىء أنتم أفضل عند الله أبأ كلكم الحرام وارتكابكم الآثام وصنعكم المنكرات وتجنبكم الحسنات وظلمكم فى الرعية وميلكم الى الدنيا أين أنتم من قوم عبر عليهم الاسكندر فرآهم ليس بينهم قاض ولا حاكم ولا أمير قائم عليهم ولا فيهم من يختص بالغنى دون أخيه ، بل هم سواء فى كل ماهم فيه ، أكلهم وشربهم واحد غير متناف ، ولا متضاد وملبسهم غير

متناف ولامتباعد، فتعجب الاسكندر منهم وسأل الأكابر منهم عما رآه من أحوالهم . فقالوا أيها الملك انا وجدنا جمجمة وعليها مكتوب : ياابن آدم ماخلقت إلامن التراب ، وقد خلوت بماقدمت إماصالحا فيسرك ، واما طالحا فيضرك فتندم حيث لاينفعك الندم ولم يكن لك الى الدنيا مرجع ، فطوبى للكيس العاقل الذى ليس ببليد ولا غافل ، يتزود الى ماإليه يصير ولايلقى الاتكال على التقصير ، فبادر الى الخير قبل الموت واغتنم حياتك قبل الفوت ، وكأنك بالحى وقد هلك وترك كل ماملك ، فلما قرأنا هذا اعتبرنا أيها الملك بهذه الموعظة البالغة ولبسنا أثوابها السابغة ، فقال مابال مساجدكم شاسعة نائية وقبوركم دانية ؟ . فقالوا أمامساجدنا فبعيدة ليكثر الأجر بكثرة الخطا وقبورنا قريبة لنذكر الموت فننتهى عن الخطا ، فقال مالى أرى أبوابكم بغير غلاق ؟ ، قالوا لاننا مافينا خائن ولا سراق . فقال مالى لاأرى فيكم أميرا ولاحاكما ؟ ، فقالوا لأننا مافينا معتد ولاظالم ، فقال مالى لاأرى فيكم معسرا ولافقيرا ؟ ، قالوا لأن رزق الله فينا للكبير والصغير ، ثم إنهم أخرجوا له جمجمتين عظيمتين فقالوا : أيها الملك هذه جمجمة رجل عادل سالم وهذه جمجمة رجل ظالم وكلاهما صار الى هذا المصير ولم يغن عنهما الجمع والتدبير . أما العادل فسرور ريان ، وأماالظالم فنادم حيران فاز المتقى وخسر الشقى ، فاختر ماتراه قبل الحين أيها الملك لأنك قد ملكت النواصى ونفذ أمرك فى الدانى والقاصى واستخلفك الله فى الأرض وأمرك بالقيام بالنفل والفرض ، فتذكر مرجعك ورمسك واعمل لنفسك واعلم أنه لاينفعك جدك اذاقبضت روحك واشتمل عليك لحدك ، فاترك أوامر الشيطان ودواعيه وخذ بأوامر الرحمن ونواهيه ولايغرنك النعيم فتبوء بالاثم العظيم ، اذكر أيها الملك مافعل الشيطان بأبيك حين نصب له مكيدته وأدار عليه حيلته فنصب له فخ العداوة وغره فيه بحبة البر . فقال قيس أيها الملك أتدرى من أولئك ؟ . قال لا . قال هم قوم مؤمنون قال الله عنهم فى كتابه — وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون — وقد رآهم نبينا ﷺ ليلة عرج به ، فلما عاد أخبر أصحابه بهم ، قالوا يارسول الله أهم قوم مؤمنون بما أنزل عليك ؟ فأراد أن يعلمهم أن أمة محمد أفضل منهم فأنزل الله — وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون — فقال المقوقس لقيس بن سعد ياأخا العرب ارجع الى أصحابك وأخبرهم بماسمعت وبما رأيت وانظر فيما يستقر عندكم وبينكم . فقال قيس أيها الملك لابدلنا منكم ولاينجيكم منا إلا الاسلام أوأداء الجزية أو القتال . فقال المقوقس أنا أعرض ذلك عليهم واعلم أنهم لايجيبون لأن قلوبهم قاسية من أكل الحرام .

حدثنا ابن اسحق رضى الله عنه حدثنا عبدالله بن سهل عن عدى بن حاطب عن سليمان ابن يحيى قال : ان الملك المقوقس كان من عادته أنه فى شهر رمضان لايخرج الى رعيته ، ولا يظهر لأحد من أرباب دولته ، ولا أحد منهم يعلم ما كان يصنع ، وكانت مخاطبته لقيس بن سعد فى أواخر شعبان سنة عشرين من الهجرة ، فخرج قيس من عنده ومضى الى عمرو بن العاص وحدثه بما كان منه . قال ابن اسحق رحمه الله : وكان ولى عهد الملك ولده أسطوليس وكان جبارا عنيدا وانه لما سمع ماتحدث به أبوه رأى ميله الى الاسلام وعلم انه لايقاتلهم وربما أسلم وسلم اليهم ملكه صبر الى أن دخل أبوه الى خلوته التى اعتاد ان يدخلها ويختلى فيها كل سنة فجمع أرباب الدولة فى الخفية لئلا يدرى به أحد فيعلم أباه وقال لهم : اعلموا أنكم قد ملكتم

هذا الملك وان أبى يريد أن يسلمه الى العرب لأننى فهمت من كلامه ذلك . فقالوا أيها الملك أنت تعلم أن هـذا الأمر مرجعه اليك ، وأنت ولى عهده فاعمل أمرا يعود صلاحه عليك وعلينا . قال فطلب صاحب شراب أبيه وأعطاه ألف دينار ووعده بكل جميل وأعطاه سما وقال له ضعه فى شرابه . قال ففعل الساقى ماأمر به وسقى الملك فمات فأتى الساقى الى أرسطوليس وأعلمه ان أباه قد مات فذهب اليه ودفنه فى الخفية وقتل الساقى وجلس على سرير الملك كأنه نائب عن أبيه اذا غاب كعادته فى كل عام ولم يعلم أحد بموته ، هذا ما كان منه وأما عمرو بن العاص فانه ارتحل من بلبيس ونزل على قليوب و بعث الى أهل البلاد والقرى وطيب خواطرهم وقال لهم : لايرحل أحد من بلده ، ونحن نقنع بما توصلونه الينا من الطعام والعـلوفة فأجابوا الى ذلك وارتحل من قليوب ونزل على بحر الحصى فارتجت بنزولهـم اليها ووقع التشويش فيهم وعلا الضجيج وأغلقوا الدروب والدكاكين ووقف أهل كل درب على دربهم بالسلاح ليحموا حريمهم . قال وأما عمرو بن العاص فانه أمر أهل اليمن ومن معه من العربان ان يحدقوا بالبلد ، وان أهل البلاد أقبلت اليهم بالعلوفة والطعام والخيرات وهم يردون عليهم من كل فج . ثم ان عمرا أراد أن يرسل الى صاحب مصر رسولا ، وكان عنـده غلام له من أهل الرملة ، وكان اسمه وردان ، وكان يعرف سائر الألسن ، فقال له عمرو ياوردان انى أريد أن أرسلك الى هؤلاء القبط فانك تعرف بلسانهم ولا تظهر لهم أنك تعرفه ، فقال سمعا وطاعة ، فقال أريد أن أكتب معك كتابا وهم أن يكتب واذا برسول أرسطوليس قد أقبل وقال : يامعاشر العرب ان ولى عهد الملك يريد منكم أن تبعثوا له رجلا منكم ليخاطبه بما فى نفسـه فلعل الله أن يصلح ذات بينـكم ، فقال عمرو ليزيد بن أبى سفيان ولهاشم الطائى ولعبـد الله بن جعفر الطيار وللنعمان بن المنذر ولسعيد بن وائل : اعلموا أنى قد ضربت على ملوك الروم ولست أرى من يتكلم مثلى ومايسيرالى هؤلاء إلاأنا فانى أريد أن أرد القوم وأنظر حالهم وماهم فيه من القوة وأن لايخفى على شئ من أمرهم ، فقالوا ياصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوّى الله عزمك وما عنـدنا الا النصيحة للدين والنظر فى مصالح المسـلمين فافعل ماأردت تعان . فقال لشرحبيل قد قلدتك أمور المسـلمين فـكن مكانى حتى أمضى الى القوم وآتيكم بمافيه . فقال له شرحبيل الله يوفقك ويسددك . قال فلبس عمرو ثوبا من كرابيس الشام وتحته جبة صوف وتقلد بسيفه وركب جواده وسار ومعـه غلامه وردان وسار الثلاثة الى قصر الشمع ، واذا هم بالمواكب مصطفة والعساكر واقفة وهم بالدروع والجواشن والعدد ، وقد أظهروا ماأمكنهم من القوة ، فلما وصلوا الى قصر الملك أخبروا ارسطوليس أن رسولك أتى بواحد من العرب فأمرهم باحضاره فدخل عمرو راكبا وهو متقلد بسـيفه ، فأراد الحجاب أن ينزلوه عن جواده فأبى وان يأخذوا سيفه فأبى ، وقال ما كنت بالذى أنزل عن حصانى ولاأسلم سيفى . فان أذن صاحبكم ان أدخل على حالتى والارجعت من حيث أتيت فاننا قوم قد أعزنا الله بالايمان ونصرنا بالاسلام فـالنا أن ننزل لأهل الشرك والطغيان ، وأنتم طلبتمونا ونحن لم نطلبـكم فأعلموا الملك بماقاله . فقال أرسطوليس دعوه يدخل كيف شاء ، فخرجوا اليه وقالوا له ادخل كيف أردت فدخل عمرو وهو راكب حتى وصل الى قبة الملك ورأى السريرية والحجاب وقوفا والبطارقة وهم فى زينة عظيمة ، فلما رأى عمرو ذلك تبسم وقرأ ــ فما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وماعند

الله خيرا وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ـ . قال وكان قصر الملك قد بناه الريان بن الوليد بن أرسلا ووس وهو الذى استخلف يوسف على مصر بعد العزيز . ثم خرب وأقام خرابا خمسمائة سنة ومابقى إلا أثره ، فلما بعث عيسى وانتشرت دعوته ورفعه الله اليه وافترقت أمته فرقا وادعوا فيه ماادعوا من الالهية وتقوّل الكذب ولى مصر رجاليس بن مقراطيس فبنى ذلك القصر الخراب ، وهو فى وسط قصر الشمع ، وانما سمى قصر الشمع لأنه لايخلو من شمع الملوك ، فلما بناه أحضر الحكماء الذين كانوا قد بنوا فى برية إخميم ، وكان المقدّم عليهم قربانس . فقال لهم انى قد قرأت كثيرا من الكتب التى أنزلت على الأنبياء من الله وقرأت صحف موسى ، ورأيت أن الله يبعث نبيا قوله حق ودينه صدق ، أخلاقه طاهرة وشريعته ظاهرة ، وقد بشر به المسيح فماتقولون فيه ؟ فقال قربانس الحكيم : إن الذى قرأته هو الصحيح . قال فثم من يخالف ذلك ؟ . قالوا نعم : قال الحكيم أريد أن أصنع تمثالا من الحكمة ونجعله بيتا للعبادة ؛ ونجعل على هيكلها تماثيل يكون وجوهها ممايلى التمثال بأعلى قصرك . فاذا جاء وقت مبعث هذا النبى يحوّل كل تمثال وجهه عن صاحبه . وأماالذى يجعل على الكنيسة . فانه عند مبعث النبى العربى يقع على وجهه ويكون موضع عبادة القوم وإقامة شرعهم . قال فاخذوا فى عمل الحكمة وأقاموا التماثيل على ماذكرنا ، فلما بعث النبى ﷺ حوّل كل شخص وجهه عن صاحبه وسقط الذى كان على سطح الكنيسة ، وهو الجامع اليوم . وأما التمثال العالى فبقى على حاله بأعلى القصر ، فلما دخل عمرو بجواده سمعوا من التمثال صوتا عظيما . ثم انه سقط على وجهه فارتاع له الملك وأرباب دولته وصكوا وجوههم ودخل الرعب فى قلوبهم ، وقالوا بلسانهم ماوقع هذا التمثال إلا عند دخول هذا العربى وماجرى هذا إلا لأمر عظيم ، ولاشك أنه هو الذى يقلع دولتنا ويأخذ ملكنا فامروا عمرا أن ينزل عن جواده فنزل وترجل وجلس حيث انتهى به المجلس وأمسك عنان جواده بيده ويده اليسرى على مقبض سيفه ونظر الى زينتهم وزخرفة قصرهم فقرأ ـ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ـ ، ثم قال اعلموا أن الدنيا دار زوال وفناء ، والآخرة هى دار البقاء . أما سمعتم ما كان من نبيكم عيسى وزهده وورعه كان لباسه الشعر ووساده الحجر وسراجه القمر ، وقد قال نبينا صلوات الله عليه « ان الله أوحى الى عيسى أن نح على نفسك فى الفلوات ، وعاتبها فى الخلوات ، وسارع الى الصلوات ، واستعمل الحسنات ، وتجنب السيآت ، وابك على نفسك بكاء من ودّع الأهل والأولاد ، وأصبح وحيدا فى البلاد ، وكن يقظان اذا نامت العيون خوفا من الأمر الذى لابدّ أن يكون » فاذا كان روح الله وكلمته خوّف بهذا التخويف فكيف يكون المكلف الضعيف ، وأوّل من تكلم فى المهد . قال انى عبد الله فاذا كان أقر لله بالعبودية فلم تنسبون اليه الربوبية ، تعالى الله ماتخذ صاحبة ولاولدا ولاأشرك فى حكمه أحدا ، جل عن الصاحبة والأولاد ، والشركاء والاضداد ، لاصاحبة له ولاولد ، ولاشريك له ولاوزير ، ليس لأوليته ابتداء ولالآخريته انتهاء ، ولايحويه مكان ، ليس بجسم فيمس ولابجوهر فيحس لايوصف بالسكون والحركات ، ولابالحلول والكيفيات ، ولاتحتوى عليه الكميات ولاالمنافع ولاالمضرّات . ثم انه قرأ ـ ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن

عبدا لقد أحصاهم وعدّهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا — . فقال له الوزير أصح عندكم معاشر العرب ان المسيح تكلم فى المهد ؟ . قال نعم : قالوا له فهذه فضيلة قد انفردبها عن جميع الأنبياء ، فقال عمرو قد تكلم فى المهد أطفال منهم صاحب يوسف وصاحب جريج وصاحب الأخدود وغيرهم ، فقالوا ياعربى أتكلم نبيكم بغير العربية ؟ . قال لا قال الله فى كتابه — وماأرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء — قالوا أبعث الله منكم أنبياء غيرنبيكم ؟ . قال نعم : قالوا من ؟ . قال صالح وشعيب ولوط وهود . قال فلماسمعوا كلام عمرو وفصاحته وجوابه الحاضر ، قالوا بالقبطية للملك ان هذا العربى فصيح اللسان جرئ الجنان ، ولاشك أنه المقدّم على قومه وصاحب الجيش فلو قبضت عليه لانهزم أصحابه عنا . قال وغلام عمرو وردان يسمع ذلك ، فقال الملك انه لايجوز لنا أن نغدر برسول ، لاسيما ونحن استدعيناه الينا ، فقال وردان بلسان آخر ماقالوه ففهم عمرو كلامه . ثم ان الملك قال ياأخا العرب ماالذى تريدون منا ؟ وماقصدنا أحد إلاورجع بالخيبة ، وانا قدكاتبنا النوبة والبجاوة وكأنكم بهم قد وصلوا الينا . فقال عمرو : اننا لانخاف من كثرة الجيوش والأمم ، وان الله قد وعدنا النصر وأن يورثنا الأرض ونحن ندعوكم الى خصلة من ثلاث . إما الاسلام . و إما الجزية . وإماالقتال . فقالوا انا لا نبرم أمرا الابمشورة الملك المقوقس ، وقد دخل خلوته ، ولكن ياأخا العرب مانظن أن فى أصحابك من هو أقوى منك جنانا ولاأفصح منك لسانا . فقال عمرو أنا ألكن لسانا ممن فى أصحابى ومنهم من لو تكلم لعلمت أنى لاأقاس به . فقال الملك هذا من المحال أن يكون فيهم مثلك ، فقال ان أحب الملك أن آتيه بعشرة منهم من يسمع خطابهم . فقال الملك ارسل فاطلبهم ، فقال عمرو لا يأتون برسالة ، وانما ان أراد الملك مضيت وأتيت بهم . فقال الملك لوزرائه اذا حضروا قبضنا عليهم والأحد عشر أحسن من الواحد ووردان يفهم ذلك ، ثم ان الملك قال لعمرو امض ولا تبطئ علىّ فوثب عمرو قائما وركب جواده ، فقال الملك بالقبطية لاقتلنهم أجمعين ، فلما خرج من مصر ، قال له وردان ماقاله الملك ، فلما وصل الى الجيش أقبلت الصحابة وسلموا عليه وهم يقولون والله ياعمرو لقد ساءت بك الظنون ، فأقبل يحدثهم بماوقع له معهم و بماقالوه و بما قاله وردان فحمدوا الله على سلامته وكان أقبل الليل ، فلما أصبح صلى عمرو بالناس صلاة الفجر وأمرهم بالتأهب للقتال واذا برسول الملك قد أقبل وقال له ان الملك ينتظرك أنت والعشرة ، فقال عمرو : ان الغدر يهلك أصحابه وأهله وان على الباغى تدور الدوائر ، ياويلكم ينفذ صاحبكم يطلب منا رسولا ، فلما أتيته أراد أن يقبض علىّ ، وقال كذا وكذا فأنت ياويلك ماالذى يمنعنى عنك إذا أردت قتلك ولسنا نحن ممن يخون ويغدر ارجع اليه وقل له انى فهمت ماقاله ومابقى بيننا و بينه إلا الحرب . قال ابن اسحق رحمه الله ورضى عنه هكذا وقع له مع القبط ، وكان عمرو اذا ذكر ذلك يقول لاوالذى نجانى من القبط . قال وعاد الرسول وأخبر الملك بماقاله عمرو ، فعند ذلك قال أريد أن أدبر حيلة أدهمهم بها ، فقال الوزير اعلم أيها الملك ان القوم متيقظون لأنفسهم لا يكاد أحد أن يصل اليهم بحيلة ، ولكن بلغنى أن القوم لهم يوم فى الجمعة يعظمونه كتعظيمنا يوم الأحد ، وهو عندهم يوم عظيم وأرى لهم من الرأى أن تكمن لهم كمينا مما يلى الجبل المقطم . فاذا دخلوا فى صلاتهم يأتى اليهم الكمين و يضع فيهم السيف . قال فأجابه الملك الى ذلك وأقاموا ينتظرون ليلة الجمعة .

قال وأما عمرو فانه أرسل يوقنا الى القرى التى صالحوها ليأتيه منها بما يأكلونه و يعلفون به خيلهم قال فركب يوقنا الى القرى التى صالحوها وسار فى عسكره و بنى عمه الى ما يأتى به ومضى نحو الجرف ، وكان معهم جواسيس الملك فى عسكرهم فاتوا الى الملك وأخبروه بما جرى من المسلمين ، فعندها دعا بابن عمه ماسيوس وهو المقدم على جيوش مصر ، وقال له اختر من جيوشنا أربعة آلاف وامض بهم واكمن وراء عسكر المسلمين من جهة الجبل ، واياك أن يظهر عليكم أحد وليكن لكم ديدبان . فاذا دخل القوم فى صلاتهم فاحملوا عليهم وضعوا فيهم السيف . قال ففعل ماسيوس ما أمره به الملك ومضى فى الليل من نحو مغارة السودان ولم يعلم بهم أحد ، فلما كان وقت صلاة الجمعة أتاهم الديدبان وأعلمهم أنهم دخلوا فى الصلاة وكانوا قد أخذوا بغالا ودواب وحملوها برا وشعيرا وكان قد قال لهم اذا أردتم أن تحملوا عليهم فقدموا الحمول أمامكم فانهم يأمنون ويحسبون أنها هى التى مضى صاحبهم يأتى بها قال ففعلوا ذلك .

حدثنا ابن اسحق رحمه الله حدثنا عمارة بن وهب عن سعيد بن عامر عن سليمان بن ناقد عن عروة عن جابر عن محمد بن اسحق قال : هكذا دبر عليهم القبط وكان بين القوم و بينهم نصف ميل ، وليس عند المسلمين خبر بما صنع المشركون ، وكان سعيد بن نوفل العدوى يقول لعمرو أيها الأمير ما الذى يمسكنا عن قتال هؤلاء القبط فيقول والله ما تأخرى جزع ، وانما قد علمتم قصد هذا الملك المقوقس وما عليه من الدين والعقل وهو مقرّ بنبوّة نبينا وقد دخل الى خلوته التى أنسها لنفسه فى هذا الشهر المعظم ، وقد بقى منه خمسة أيام و يظهر ونبعث اليه رسولا ونرى ما يكون جوابه ؟ فاما الصلح ، و إما القتال . قال فبينماهم يتحادثون فى ذلك اذ أتاهم رسول من عند أرسطوليس بن المقوقس ، وقال لهم معاشر العرب ان ولى عهد الملك يسلم عليكم و يقول لكم انى لا أقدر أن أحدث أمرا حتى يخرج الملك من خلوته ، وقد بقى له خمسة أيام وهو يدبر فى رعيته بما يشاء . فقال له عمرو : قد علمنا ذلك ولولا الملك وما نعلم منه أنه يحب نبينا وأنه مؤمن به ما أمهلناكم طرفة عين ، فمضى الرسول . قال ابن اسحق رحمه الله وما بعث هذا اللعين هذا الرسول الا ليطمئن المسلمون وليقضى الله أمرا كان مفعولا واذا جاء القدر لا ينفع الحذر واذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه .

[قال الراوى] فكان المسلمون قد اطمأنت قلوبهم بذلك الخبر وقربت الصلاة فقام عمرو وخطبهم خطبة بليغة حذر فيها وأنذر ، فلما فرغ أقيمت الصلاة وأقاموا مواليهم يرقبون مخافة العدوّ أن يكبسهم فى صلاتهم . قال صابر بن قيس ونحن لا نرى أحدا من أهل مصر لا فارسا ولا راجلا قال فاصطففنا خلف عمرو للصلاة ، وليس بيننا لنا عدوّ نخافه ، فلما أحرمنا وقرأ عمرو ركعنا وأومأنا للسجود اذ أشرفت الدواب والبغال وعلى ظهورها الأحمال والعسكر من ورائها وهم أهل الكمين الذى أكمنه أعداء الله وهم على عدد أصحابنا الذين مع يوقنا فلما رآهم موالينا ظنوا أنهم أصحابنا وقد أقبلوا بالعلوفة فرفعوا أصواتهم بالفرح وقالوا جاء يوقنا وأصحابه ولم يكلمهم العدوّ حتى أتونا ونحن فى الصلاة ووضعوا السيف فينا ونحن ساجدون السجدة الأخيرة ونحن بين يدى الله تعالى قال واذا بالسيوف تقرقع فى لحومهم وما أحد منهم قام من سجوده وكان القتل فى آخر صف من المصلين والصف الذى يليه وهم من اليمن ومن بجيلة ومن وادى القرى ومن

الطائف ومن وادى نخـلة ، ثم قال ابن عتبة وكنت قد شهدت وقائع الشام وحضرموت واليرموك فوالله ماقتل منا فى وقعـة من الوقائع مثل ماقتل منا يوم بحر الحصى فى أرض مصر بالحيلة التى دبرها عدوّ الله علينا ، وقال والله مامنا من انحرف عن صلاته ولاحوّل وجهه عن ربه وقد أيقنا بالهلاك عن آخرنا حتى أشرف علينا يوقنا بأصحابه ، فلما نظروا ماحـلّ بالمسلمين صاحوا ورموا ماعلى رؤوسهم من العمائم وقال يوقنا لبنى عمه والله من قصر منكم عن عدوّه فالله يطالبـه به يوم القيامة وما أرى الا أن الأعداء قدغدروا وكبسوا المسلمين فدوروا من حولهم وضعوا السيوف فيهم واحذروا أن ينفلت منهم أحـد فحملوا وأطبقوا على القبط فدفعوهم عن أصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ولم يزل القتال بينهم حتى فرغ عمرو من الصلاة هو ومن معه وثاروا ثوران الأسد وركب عمرو ومعاذ وسعيد بن زيد وجميع الصحابة وحملوا فى العـدوّ وطحنوهم طحنا . قال جابر بن أوس وحلنا بينهم و بين الوصول الى مصر فوالله مانجا منهم أحـد و بقوا كأنهم طيور وقعت عليهم شبكة صياد ، فلما وضعت الحرب أوزارها هنأ المسلمون بعضـهم بعضا بالسلامة وشكروا الله على ماأولاهم من نصره وأثنوا على يوقنا خيرا وافتقدوا قتلاهم فكانوا أربعمائة وستة وثلاثين قد ختم الله لهم بالشهادة . قال واتصل الخبر الى أرسطوليس بقتـل ابن عمه ، ومن معه وانهم لم ينج منهم أحد فصعب عليـه ذلك وأيقن بهلاكه ، فدعا ببطارقتـه وأرباب دولته وشاورهم فى أمره فقالوا أيها الملك أنت تعلم بأن الدنيا مادامت لأحد ممن كان قبلك حتى تدوم لك ومازالت الملوك تنكسر وتعود وما أنت بأكثر ممن انهزم من ملوك الأرض ، وقد سمعنا أن داونوس بن أردين بن هرمس بن كنعان بن يزحور الطارسى هزمه الاسكندر الرومى سبعين مرّة فاخرج الى لقاء القوم واضرب معهم مصافّ ولاتيأس وهؤلاء القسوس والرهبان والشمامسة والمطران والبترك يدعون لك بالنصر . قال فعوّل على لقاء المسلمين وفتح خزائن أبيه وأنفق على الجنـد وأعطاهم السلاح وطلب شباب مصر وأمرهم بالخروج و بعث يستنجد بملك النوبة وملك البجاوة وأقام مدّة ينتظر قدومهم .

قال **حدثنا** محمـد بن اسحق القرشى عن عقبة بن صفوان عن عبـد الرحمن بن جبير عن أبيه قال : لما كان من أمر المسلمين ماذكرنا مما قدّره الله عليهم من كبسة عدوّهم كتب بذلك عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : بسم الله الرحمن الرحيم . من عمرو ابن العاص الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، سلام عليك وانى أحمد الله اليك وأصلى على نبيه . أما بعد فقـد وصلت الى مصر سالما وجرى لنا على بلدة بلبيس مع ابنـة المقوقس كذا وكذا ونصرنا الله عليهم ورحلنا الى بحر الحصى وقد كنا صالحنا قوما من أهل قرى بلاد مصر ببلاد يقال لها الجرف حتى يعينونا بالعلوفة والميرة ويجلبوا الينا الطعام وانى أرسلت عبد الله يوقنا ليشترى لنا منهم طعاما ومضى فى خيـله وسرت بنفسى رسولا الى مخاطبة القوم فهموا بالقبض علىّ ونجانى الله منهم وانهم أكمنوا لنا كمينا من الليل وأشغلونا برسول والكمين كان من الليل ، فلما استوت صفوفنا للصلاة كبسوا علينا ونحن فى الصلاة فلم نشعر حتى بذلوا فينا السيف وقتلوا منا أربعمائة وستة وثلاثين رجـلا والأعيان منهم ستون ختم الله لهم بالشهادة ، ونحن الآن فى بحر متلاطم أمواجه من كثرة القوم والعساكر فانجدنا ياأمير المؤمنين وأدركنا بعسكر ليعيننا على عدوّنا والسلام

عليكم ورحمة الله وبركاته وختم الكتاب وأعطاه عبد الله بن قرط ، فسار من ساعته وجدّ فى السير الى أن وصل المدينة فقدمها فى العشر الأوسط من شوّال سنة اثنتين وعشرين من الهجرة فأناخ مطيته بباب المسجد ودخل فرأى عمر بن الخطاب عند قبر رسول الله ﷺ . قال ابن قرط فدفعت الكتاب اليه فنظر الىّ ، وقال عبد الله ؟ . قلت نعم : قال من أين أتيت ؟ . قلت من مصر من عند عمرو بن العاص . قال مرحبا بك يا ابن قرط ثم فك الكتاب وقرأه وقال : لاحول ولاقوّة الا بالله العلىّ العظيم ، ثم قال من ترك الحزم وراء ظهره تباعدت عنه فسيحات الخطا ، ووالله ما علمت عمرا إلاحازم الرأى مليح التدبير ، ضابط الأمر ، حسن السياسة ولكن اذا نزل القضاء عمى البصر ، ثم انه كتب كتابا الى أبى عبيدة وذكر له ماجرى لعمرو بن العاص بمصر وأمره أن ينفذ اليه جيشا عرمرما وأنفذ الكتاب مع سالم مولى أبى عبيدة قال عبد الله بن قرط فأقمت فى المدينة يومين واستأذنته فى المسير فزوّدنى من بيت المال وكتب الى عمرو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص . أما بعد : فانى أحمد الله الذى لا إله الا هو وأصلى وأسلم على سيدنا محمد ﷺ ، وقد بلغنى ماجرى لكم بمصر من غدر عدوّكم كما سبق فى أم الكتاب ، وكان يجب عليك يا ابن العاص أن لا تطمئن الى عدوّك ولاتسمع منه حيلة ، وما كنت أعرفك إلا حسن الرأى والتدبير ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، فاستعمل النشاط فى أمرك ولا تأمن لعدوّك واستعمل الحذر فان الامام ما يكون الاعلى حذر والله يعيننا واياك على طاعته وقد أنفذت الى أبى عبيدة أن يرسل اليكم جيشا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وختمه وسلمه لعبد الله ابن قرط . قال فأخذته وسرت وأنا أجدّ السير حتى أتيت مصر ودفعت الكتاب لعمرو بن العاص فقرأه على المسلمين ففرحوا بذلك وأقاموا ينتظرون اخوانهم .

حدّثنى ابن اسحق حدّثنى سهل بن عبد ربه عن موسى بن عبد الرزاق . قال : لما كبس ابن المقوقس جيش المسلمين ورجعت دائرة السوء عليه وقتلوا عن آخرهم وبلغه الخبر بكى على ابن عمه وحلف بما يعتقده من دينه انه لابدّ له أن يأخذ بثأرهم ، ثم انه أمر أرباب دولته أن يجتمعوا بالكنيسة المعلقة فى داخل قصر الشمع فاجتمعوا فجلس على سرير عند المذبح وقام فيهم خطيبا . فقال : يا أهل دين النصرانية وبنى ماء المعمودية اعلموا أن ملككم عقيم وبلدكم عظيم وهذه بلاد الفراعنة ممن كان قبلكم وقد ملكها عدة ملوك ممن احتوى على الأقاليم وملكها مثل الملك المعظم من آل حمير ومثل مستفان والبستق والملحان وهو بانى هذه الاهرام ونمروذ ابن كنعان ولقمان بن عاد ، وذى القرنين الملك العظيم وانقضى ملكهم منها ورجع الى سبأ وأرضها وحضرموت وقصر عمان ، ثم تولى هذه الأرض القبط من آبائكم ، وأجدادكم إطسليس وبلينوس والريان بن الوليد وهو الذى استخلص يوسف لنفسه والوليد وهو المكنى بفرعون ، وبعدهم طبلهاوس ثم جدى راعيل ، ثم أبى المقوقس وجميع ملوك الأرض تحسدنا على ملك مصر وهؤلاء العرب الطماعة ، وليس فى العرب أطمع منهم فانى أراكم قد كسلتم وفشلتم عن لقائهم فطمعوا فيكم وفى ملككم كما طمعوا فى ملك الشام وانتزعوه من أيدى القياصرة فقاتلوا عن أموالكم وحريمكم وأولادكم ، وأما أنا فواحد منكم ، واعلموا أن الملك المقوقس قد أمرنى بلقاء هؤلاء العرب وقال انه لايظهر اليهم حتى أرى مايظهر من قومى وأرباب دولتى فما تقولون وما الذى اجتمع عليه

رأيكم . ؟ فقالوا أيها الملك إنما نحن عبيد هذه الدولة وغلمانها فانها قد استعبدت رقابنا بنعمتها واحسانها ، ونحن نقاتل لمحبتها فاما ان نرزق النصر من المسيح واما أن نموت فنستريح . قال فشكر قولهم وخلع على أكابرهم وقال لهم اخرجوا واضربوا خيامكم ظاهر البلد مع القوم وطاولوهم بالمبادرة الى أن يأتي الينا نجدة من ملك النوبة والبجاوة فأجابوا الى ذلك وأمروا غلمانهم بأن يضربوا الخيام خارج البلد فضربوها مما يلى النور والرصد . قال ابن اسحق : وفى ليلتهم تلك جاءتهم الأخبار بأنه وقع بين ملك النوبة وملك البجاوة حرب وانه مايجيبكم منهم أحد وأخرجوا للملك ارسطوليس سرادقا معظما وسط جيش القبط . قال وأخذ المسلمون على أنفسهم وأقبلوا يحرّضون بعضهم ويحرسون قومهم بالنوبة ، فكان عمرو فى أوّل الليل يطوف حول العسكر ومعاذ اذا انتصف الليل ويزيد بن أبى سفيان فى آخر الليل والنور على عسكرهم والايمان لائح عليهم وأصواتهم مرتفعة بالقرآن وبذكر الله وبالصلاة على نبيه ﷺ قال ابن اسحق ، فلما وصل كتاب عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة وقرأه على المسلمين قال خالد بن الوليد ياأبا سليمان ماترى من الرأى ؟ فقال اذا كان أمير المؤمنين أمرك أن تنجد عمرو بن العاص فانجده . فقال أبوعبيدة ان الطريق الى مصر بعيد وان أنا أرسلت جيشا كبيرا خفت عليه من بعد الطريق ومن المشقة فقال خالد كم جهدك أن ترسل ؟ قال أربعة آلاف فارس . فقال خالد ان الله كفاك ذلك قال وكيف ذلك ياأبا سليمان . ؟ قال ان عزمت على ماذكرت فابعث أربعة من المسلمين فهم مقام أربعة آلاف فارس . فقال أبوعبيدة من الأربعة ؟ . قال خالد أنا أحد الأربعة والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر ومالك بن الحرث ، فلما سمع أبوعبيدة ذلك تهلل وجهه وقال ياأبا سليمان افعل ماتراه فدعاهم خالد وأعلمهم بما عزم عليه ، فقالوا سمعا وطاعة فقال خذوا على أنفسكم فنحن نسير هذه الليلة . قال فلما صلى أبوعبيدة بالناس صلاة المغرب قدم الثلاثة الى قبة خالد فركبوا وودعوا أبا عبيدة والمسلمين وأخذوا معهم دليلا يدلهم على الطريق الى وادى موسى والشوبك وأخذوا معهم مايحتاجون اليه وساروا يريدون مصر فما زالوا يجدّون الى أن قربوا من عقبة أيلة واذاهم بخيل ومطايا تزيد على ألف فارس فأسرعوا اليهم فاذا هم من ثقيف وطى ومرداس قد وجههم عمر بن الخطاب الى مصر مع رفاعة بن قيس وبشار بن عون . قال فلما رأوهم سلموا عليهم ورحبوا بهم واستبشروا بالنصر لما رأوا خالدا وعمارا والمقداد ومالكا وارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير وساروا بأجمعهم .

قال حدثنا يوسف بن يحيى عن دارم عن منصور بن ثابت قال كنت فى جملة الوفد الذى وجهه عمر رضى الله عنه مع رفاعة وبشار والتقينا بخالد بن الوليد وأصحابه عند عقبة أيلة وسرنا معهم حتى وصلنا أرض مصر وقربنا وبقى بيننا وبينها يومان ، فبينما نحن نسير فى بعض الليالى وكانت ليلة مظلمة لا يكاد الرجل أن يرى من شدّة الظلام اذ سمعنا حسا بالبعد منا فوقفنا . فقال خالد أيكم يأتينا يافتيان العرب بخبر هؤلاء الذين فى هذا الجيش قال نصر بن ثابت وكنت راكبا فقفزت من ظهر الراحلة وسعيت على قدمى وأخفيت حسى إلى أن تبين لى جيش كثير فتحققت أمرهم فاذاهم جيش من العرب المتنصرة وهم يزيدون على ثلاثة آلاف وهم ركبان المطايا والخيل . فقلت والله لاعدت الى أصحابى الا بالخبر اليقين . قال فاتبعت أثرهم لأسمع مايقولون ومايتحدثون فمشيت معهم قليلا فأسمعهم يقولون أذلّ الصليب أعداءنا فانا قد أصابنا التعب ولحقنا الجهد ومن

وقت خروجنا من مدين لم نجد أحدا ومصر قد قربنا منها فانزلوا لنأخذ راحة ونريح مطايانا ونعلق على خيلنا واذا بمقدمهم يقول : وحق المسيح مابغيتنا الا فى الخلع والأموال من ملك مصر ولكن اذعوّلتم على الراحة فانزلوا قال فنزل القوم على ماء يعرف بالغدير وأقبلوا يجمعون الشيح ويصنعون لهم الزاد وعلقوا على خيولهم وتركوا ابلهم ترعى . قال نصر بن ثابت فعلمت أن القوم من متنصرة العرب فتركتهم وأتيت الى أصحابى وحدثتهم بذلك فحمدوا الله كثيرا وأثنوا عليه وقالوا لخالد ماالذى ترى ؟ . فقال أرى أن تركبوا خيلكم الآن وتستعدوا للحرب ونسير اليهم ونكبسهم فانهم قد أتو النصرة صاحب مصر وما أتوه الا بمكاتبة لهم يستنجد بهم على أصحابنا ، قال فلبسوا سلاحهم وركبوا الخيل وتركوا مواليهم مع المطايا والرجال وساروا خيلا ورجالا الى أن قربوا من نيران القوم فصبروا حتى خمدت وناموا فتسللوا عليهم كتسلل القطاة فقال دوروا بالقوم ولاتدعوا أحدا منهم ينفلت من أيديكم فيثير عليكم عدوّكم ، قال فداروا بهم كدوران البياض بسواد الحدق وأعلنوا بالتهليل والتكبير ووضعوا فيهم السيف فما استيقظ أعداء الله الا والسيف يعمل فيهم ووقعت الدهشة فى القوم وهم فى أثر النوم فقتل بعضهم بعضا ووقف ابن قيس ومعه جماعة على البعد منهم و بشار ورفقته وكل من انهزم أخذوه ، فلما أصبحنا رأينا القتلى منهم ألفا وأسرنا منهم ألفا فعرضوهم على خالد فقال حدثونى من أين جئتم والى أين مقصدكم ؟ . فقالوا إنا قوم من متنصرة العرب وكلنا كنا أصحاب الشام ، فلما هزمتم الملك هرقل رحلنا من أرض الشام ونزلنا أرض مدين ونحن على خوف منكم وكاتبنا صاحب مصر وهو المقوقس لعله أن يأذن لنا أن نكون من أصحابه ونكون له عونا عليكم ، فلما أجابنا الى ذلك فبعثنا الخيل العربية الى ولىّ عهده وصاحب الامر من بعده ، فلما كان فى هذه الايام جاءتنا خلعة ورسالة بالدخول الى مصر فرحلنا اليهم فوقعتم بنا ، فلما سمع خالد منهم ذلك قال «من حفر لمسلم قليبا أوقعه الله فيه قريبا» ثم عرض عليهم الاسلام فأبوا فأمر بقتلهم فقتلناهم عن آخرهم وقسمنا رحالهم وما كان معهم ووجدنا معهم الخلع التى وجهها اليهم ابن المقوقس ففرقها خالد على المسلمين وفيها خلعة سنية وكانت لمقدّم القوم فأعطاها رفاعة وساروا حتى قربوا من الجبل المقطم فرأوا جيش المسلمين فأرسل خالد رجلا من قبله وهو نصر بن ثابت وقال له : امض الى هذا الملك وقل له ان العرب أصحاب مدين قد أتوا لنصرتك قال فمضى الرجل الى أن وصل الى عسكر القبط فأخذه الحرس وقالوا له من أنت ؟ قال أنا مبشر الملك بقدوم العرب المتنصرة الى نصرته قال ابن اسحق فأخذوا نصر بن ثابت وأتوا به الى سرادق الملك . قال فلما وقفت بين يديه نادانى الحجاب أن اسجد للملك ففعلت وأنا أسجد لله تعالى حتى لاينكروا علىّ وكان قد صح عندهم أنه من امتنع من السجود فهو مسلم . قال فلما رفعت رأسى قال لى الوزير يا أخا العرب أوصل أصحابك الى نصرة الملك فقلت نعم وهاهم فى دير الجبل المقطم . قال فلما سمع الملك ذلك أمر من حجابه أناسا أن يمضوا الى لقائهم وسرت فى جلتهم وأخذوا معهم الجنائب وأظهروا زىّ الفراعنة وخلع على نصر بن ثابت عوض بشارته وساروا الى لقاء المتنصرة .

قال حدثنا عسكر بن حسان عن رفاعة بن أوس عن موسى بن عون عن جده نعيم بن مرة . قال : كنت فيمن وجه عمر بن الخطاب من أهل نخلة وكان خالد يحبنى ويقربنى

لان أبى كان يسافر له ببضاعة الى سوق بصرى . قال فلما رأى خالد أصحاب الملك قد أتوا قال لى خالد يا ابن مرة أريد أن أوصيك . فقلت بماذا قال : اعلم أن العدوّ قد أرسل يلاقينا وهو يظن أننا من متنصرة العرب ولا شك أن عمرو بن العاص ومن معه تجفل قلوبهم منا وأريد أن تنزل عن فرسك وتكمن خلف هذه الحجارة فاذا خلا لك الطريق فانسلّ نحو عسكر المسلمين وحدثهم بأمرنا وماقد عزمنا عليه من غدر القوم ، فان عمرا لايطمئن لغيرك وأقرئه سلامى وقل له يكن على أهبة فاذا سمع تكبيرنا يأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ، فان ذلك مما يزيد فى رعب أعدائنا فقال نعم . قال وفعلت كما أمرنى خالد ونزلت عن فرسى وأسلمتها لغلامى دارم ومضيت نحو الجبل وكمنت بين الأحجار .

[قال الراوى] وان خالدا أمر أصحابه بلبس الخلع التى أرسلها لهم ابن المقوقس فلبسوها فوق دروعهم ولبس رفاعة بن قيس و بشار بن عون أحسنها وغير خالد زيه والمقداد وعمار ومالك الأشتر . قال فلما وصل مقدم جيش القبط . قال خالد لرفاعة و بشار ترجلوا له واصقعوا بين يديه وصلبوا على وجوهكم فليس عليكم فى ذلك حرج واحلفوا بالمسيح والسيدة مريم و إياكم والغلط بأن تذكروا محمدا ﷺ فيفطن القوم بنا واجعلوا الجهاد نصب أعينكم وتوكلوا على الله فى جميع أموركم قال ففعلوا ماقال لهم خالد وترجلوا عند رسول القبط وصقعوا .

قال حدّثنا نصر بن عبد الله عن عامر بن هبار قال : ياعم اعلم ان الله اذا أراد أمرا هيأ أسبابه ، وذلك أننا لما أشرفنا على أول ديار مصر نزلنا على دير يقال له دير مرقص وكان ديرا عامرا بالرهبان ، فلما نزلنا عليه أشرف علينا أهله وقالوا من أنتم ؟ قلنا نحن من أصحاب الملك هرقل ملك الشام وقد جئنا لنصرة صاحبكم فانه قد أرسل الينا يستنفرنا لأجل هؤلاء العرب . قال ففرحوا بنا ودعوا لنا وكان كبيرهم والمقدم عليهم فى دينهم شيخا كبيرا وكان من قسوس الشام وكان من أعلم القوم بدينهم وأعرف الناس بآل غسان وكانت الضيعة قد أقطعها هرقل للملك جبلة ابن الأيهم وكان قد جعل على جبايتها ولد هذا القس وكان اسمه نونلس ، وان المسلمين لما فتحوا بعلبك وحمص هرب هذا القس بأمواله وأولاده الى طرابلس وركب البحر فى مركب وتوصل الى مصر و بلغ خبره المقوقس فأحضره وسأله عن حاله فحدّثه بأمره فخلع عليه وجعله قيما فى الكنيسة المعلقة التى فى قصر الشمع وصار من أصحاب سكناه فى دير مرقص ولايدخل مصر الا فى أمر مهمّ ، فلما نزل عمرو بمن معه عليهم وقتل ابن المقوقس أباه احتاج الى رأى البترك فأرسل اليه وأنزله فى الكنيسة وولى البترك مكان هذا القس نونلس بن لوقا فكان فى الدير فلما نزل خالد بن الوليد ومن معه على الدير . قال عامر بن المبارك الثعلبى فأشرف علينا وتأملنا وكان أعرف الناس بخالد ابن الوليد لانه رآه فى مواطن كثيرة من الشام وكان صاحب حمص قد أرسله رسولا الى أبى عبيدة ليصالحوهم . قال فجعل يتفقدهم و ينظر فى وجوههم ، ثم قال وحق المسيح ما أنتم من آل غسان وماأنتم الامن عرب الحجاز وقد جئتم لتحتالوا علينا فانى رأيت أمامكم الذى فتح الشام وقتل ملوكها وسوف أكاتب الملك بقصتكم ليقبض عليكم ، فقالوا ماعندنا خبر من الذى تقوله وقد خيل لك ذلك : أما علمت أن المسلمين ماخلوا لنا حالا وقد نهبونا وأصبحنا بالذل بعد العز والفقر بعد الغنى وقد كتب الينا ملك مصر بأن نجىء اليه فأرسل الينا بالخلع وطيب قلوبنا . قال عامر فضحك

اللعين من قولى وقال لى : ان آل غسان أكثرهم يعرف بكلام الروم وحق دينى ما أنتم منهم وقد صح قولى : انكم مسلمون . فقلنا له ياويلك لوكنا من الذين تقول عنهم ما كنا نأتيكم بالنهار وكنا نكمن ونسير فى الليل حتى نصل الى أصحابنا وانك استحقرت المسيح اذ جعلتنا من أصحاب محمد فقد وقعت فى ذنب عظيم ، ثم اننا نزلنا بالقرب منهم . فقال أصحابه يا أبانا ليس هؤلاء القوم ممن ذكرت فلوكانوا مسلمين ماجسروا أن يدخلوا أرض مصر فى ضوء النهار ولايقربوا العمران . فقال وحق دينى : أنا أعرف الناس بهم وانهم مسلمون بلاشك فامتنعوا منهم ولا تخرجوا لهم طعاما ولاماء وسأنفذ خبرا للملك بذلك فيكون منهم على حذر . قال عامر بن هبار وكان من لطف الله بنا أن الرهبان الذين بالدير لما سمعوا كلامه قال بعضهم لبعض يجب علينا أن نأخذ لنا منهم صلحا فنكون آمنين من غائلتهم ولا نبرح من ديرنا هذا . فقال أكبرهم ان أنتم فعلتم ذلك فاننا لا نعلم من ينصر من الفريقين أأصحابنا أم العرب ، فان كان النصر لأصحابنا خفنا من هذا القس أن يعلم بنا الملك أننا صالحنا المسلمين بغير أمره فانه يقتلنا ، وان هذا اللعين تعلمون أنه على غير مذهبنا وهو فى كل يوم يكفرنا لانه نسطورى ونحن يعقوبية ، فان أنتم أردتم صلح هؤلاء العرب فدونكم وهذا القس فاقبضوا عليه وسلموه لهم وخذوا منهم أمانا . قال ففعلوا ذلك وقبضوا عليه وأشرفوا علينا وقالوا لنا بحق ماتعتقدون من دينكم أنتم من أصحاب محمد أم لا فانا قد قبضنا على هذا اللعين ونريد أن نسلمه لكم وانكم تعطوننا أمانا فانا قوم لانعرف حربا ولاقتالا . فقال لهم مالك الأشتر ياهؤلاء امامازعمتم من صلحنا فانا نصالحكم وما كان أمرنا بالذى يخفى ولانرضى بالكذب فانه أشنع شىء عندنا ، ولاسيما ان الاسلام يمنعنا من استعماله ، ولو أن السيف على رأس أحدنا اذا سئل عن دينه أجاب به وتكلم بوحدانية الله تعالى ، ونحن من أصحاب محمد ﷺ ولكم الأمان وهذا أمان الله ورسوله ، قال فلما سمع الرهبان من مالك ذلك نزلوا وفتحوا الباب وسلموا لنا القس . فقال له خالد : ياعدو الله أردت أمرا وأراد الله خلافه ، ثم انه عرض عليه الاسلام فأبى وقال أنا هربت منكم من الشام ثم أوقعنى المسيح فى أيديكم وما أظن الا أن المسيح مسلم فافعل ما أردت فضربوا عنقه . قال عامر بن هبار : وخرج الينا أهل الدير بأجمعهم ومعهم الطعام والعلوفة فأكلنا واقمنا عندهم الى الليل . فقال شيخهم الذى أشار عليهم بقبض القس الرومى لخالد : أيها السيد انى قد تفرست فيك الشجاعة فبالله من أنت من أصحاب محمد . فقال أنا خالد بن الوليد المخزومى . فقال أنت وحق دينى الذى فتحت بلاد الشام وأذللت ملوكها و بطارقتها وان صفتك عندى ثم انه دخل الدير وأتى ومعه سفط ففتحه واذا فيه بين أوراقه ورقة وفيها صفة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وزيه وصورته وصورة أبى عبيدة وصورة خالد بن الوليد والسيف فى يده مشهور . قال مازلت أسمع أخبارك كلها فلم عزلك عمر بن الخطاب وولى غيرك . فقال خالد : اعلم أن عمر هو الامام وهو الخليفة ومهما أمرنا فلانخالفه فان الله أمرنا بذلك فى كتابه . فقال تعالى — أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم — فطاعته فرض علينا لانه يحكم بالعدل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وانا قد وجهنا اليه خمس الغنائم من الفتوح كلها من الأموال فما ازداد فى الدنيا الازهدا ولا آثر الدنيا على الآخرة بل مجلسه على التراب ولباسه المرقعة ويمشى فى سوق المدينة متواضعا راجلا ، فالتواضع لباسه والتقوى أساسه والذكر شعاره والعدل

فى الرعية دثاره ومازال يعطف على اليتيم ويرفق بالأرملة والمسكين ويرفد أبناء السبيل فظ فى دين الله غليظ على أعداء الله قائم بشعائر الله لايستحى من الحق ولايداهن الخلق . فقال القس أكانت له الهيبة على عهد نبيكم ؟ . قال خالد نعم سمعت سعد بن أبى وقاص يقول «استأذن يوما عمر فأذن له فدخل ورسول الله ﷺ يضحك . فقال عمر أضحك الله سنك يارسول الله . قال عجبت من هؤلاء اللواتى كن عندى ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب . فقال عمر : أنت أحق أن يهبنك وقال لهن ياعدوات أنفسكن أتهبننى ولاتهبن رسول الله ﷺ . فقلن نعم أنت فظ غليظ دون رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان سالكا فجا الاسلك فجا غيره » . قال فلما سمع القس ذلك قال بركة نبيكم عادت على إمامكم وعليكم فقال خالد وما يمنعك من الدخول فى ديننا . فقال حتى يشاء صاحب هذه الخضراء ، ثم قال لخالد أريد أن أعطيكم من صلبان هذا الدير حتى تكمل حيلتكم . قال وأخرج لهم صلبانا كثيرة فأخذها خالد ودفعها لرفاعة بن قيس و بشار بن عون وتزيوا بزى الذين قتلوهم من آل غسان وارتحل خالد بعد ماوكل بالدير عشرة من أهل وادى القرى لئلا يخرج أحد بأخبارهم ويقربوا للملك بذلك . قال وعدنا الى سياق الحديث ، فلما أشرف أصحاب ابن المقوقس عليهم رأوهم وقد لبسوا خلع الملك وعلقوا الصلبان وشدوا الزنانير ورفعوا صليبا من فضة كان قد أخرجه لهم القس فلما صقعوا للمحجاب ركبوا وساروا حتى وصلوا الى سرادق الملك فترجلوا وقد أخذوا لهم اذنا فأذن لهم فدخلوا ودخل أولهم رفاعة و بشار ومن معه وخدموا الملك وسجدوا له ولم يدخل خالد ومن معه ووقفوا مع بقية العرب خارج السرادق ، وإن الملك لما رآهم قال لهم : يامعاشر العرب أنتم تعلمون محبتنا لكم ؟ وتقربينا لكم وقد طلبتم أن تكونوا لنا عونا على هؤلاء العرب فان نصحتم لنا فى دولتنا شاركنا كم فى مملكتنا وقاسمنا كم فى ملكنا ونعمتنا . فقال له رفاعة أبشر أيها الملك سوف ترى مانبذله فى محبتك يوم الحرب . قال فخلع عليه وخرج من عنده وأمر لهم بخيام تضرب فى عسكرهم .

قال حدثنا عامر بن أوس عن جرير بن صاعد عن نوفل بن غانم عن سهل بن مسروق . قال لما قدم الجيش الذى وجه عمر بن الخطاب مع رفاعة و بشار وكان من أمرهم ماذكرناه ، ونظر اليهم عمرو بن العاص ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ أقبلوا ينظرون اليهم والى زيهم . فقال معاذ لعمرو : ماهؤلاء من المتنصرة وان نفسى تأبى ذلك . فقال عمرو والله يا أبا عبد الرحمن لقد نظرت بنور الله وانى نظرت فيهم واحدا واحدا ورأيتهم بزى وادى القرى وزى الطائف . فقال شرحبيل بن حسنة وأنا نظرت أعجب من ذلك انى رأيت خالد بن الوليد فى جملتهم ولاحت لى عمامته وقلنسوته وثيابه التى كانت عليه يوم دخول طرابلس . فقال يزيد بن أبى سفيان أنا والله رأيت مالكا الأشتر النخعى وعرفته بطول قامته وركبته على فرسه ، ثم قالوا لابد أن ينكشف لنا خبرهم على جليته فهم فى الحديث إذ قد أتاهم نعيم بن مرة ، فلما رأوه تهللت وجوههم فرحا وسرورا ، فلما وصل اليهم وسلم عليهم وحدثهم بالحديث كله سجدوا لله شكرا ، وقال بعضهم لبعض أيقظوا هممكم وكونوا على يقظة من أمركم ، فاذا سمعتم التكبير فى عسكر العدو فبادروا اليهم . قال ابن اسحق ولله فى خلقه تدبير ، وذلك أنه لما جن الليل جمع أرسطوليس بن المقوقس أرباب دولته ، وقال لهم قد ضاق صدرى من هؤلاء العرب ، وقال لهم قد

غلا السعر عندنا ، لان أهل البلاد قد أجلت من خوفهم ، وان خيلهم تضرب الى الريف من هذا الجانب والى الصعيد من هـذا الجانب والنوبة والبجاوة ماياأتينا منهما أحـد للفتنة التى هى بينهم والرأى عندى أن تحارب هؤلاء العرب صبيحة عيدهم . قالوا أيها الملك هذا هو الرأى . فقال أخرجوا السلاح وفرقوه على من ليس معه سلاح هذا ماجرى عنده ، وليس عنده خبر بما جرى فى قصره بعد .

[قال ابن اسحق] وكان من حسن تدبير الله تعالى لعباده المؤمنين أنه كان للمقوقس أخ شقيق واسمه ارجانوس وكانا متحابين وكان المقوقس لايقطع أمرا دونه وكانا اذا ركبا لايفترقان واذا جلسا يجلسان معا على السرير وكان المقوقس قـد دخل فى خلوته التى ذكرنا وكان أخوه من محبته قد رتب هناك من يعرفه لما يخرج من خلوته ، فلما كان فى هذه النوبة استبطأه فأتى الى ابن أخيه فرآه على السرير . فقال له مافعل الملك ؟ فقال انه فى خلوته الى الآن وقد رأى ان طالعه ضعيف مع هؤلاء العرب وقد أمرنى أن أكون مكانه حتى يرى مايريد من قتالهم أوصلحهم قال فكتم ارجانوس الأمر فى نفسه وعلم ان أخاه قد قتل وكان ارجانوس ممن يعتقد نبوة محمد ﷺ ويعلم أن دعوته تطوف المشرق والمغرب ، وان الملوك تضمحل فى أيام أصحابه وسينزلون على البلاد فترك أرجانوس الأمر موقوفا ولم يبد مافى نفسه لأحد ، فلما خرج ابن أخيه مع العسكر جمع ارجانوس الذين تركهم ابن أخيه لحفظ البلد فى قصر الشمع ، وقال لهم : اعلموا أن العقل هو عمدة قوى ابن آدم ، لان الله قد خصه به دون سائر المخلوقات وان أخى قد قتله ولده لامحالة وقد كان محبا لكم ومشفقا عليكم ، واعلموا ان هؤلاء العرب قد كان قدامهم من ملكه أعظم من ملككم ومائبت بين أيديهم ، وليس بين دولتكم و بين أن تزول وتضمحل الا أن يلتقى هذان الجيشان ، وان ظفر بكم هؤلاء العرب قتلوكم ونهبوكم وسكنوا فى مساكنكم وأيتموا أولادكم . فقالوا أيها الملك فما يكون عندك من الرأى وما تفعل ؟ قال انى أرى من الرأى أن تستيقظوا لأنفسكم وتغلقوا أبواب هـذا القصر ولا تدعوا أحدا يدخل عليكم من جند الملك ولا هو نفسه فانهم لايقدرون أن يقاتلوكم ، والعرب من ورائهم ، وانه يعـدى الى الجانب الغربى ويمضى الى اسكندرية ونعقد لنا صلحا مع هؤلاء العرب على أنفسنا وأولادنا وحريمنا ونسلم لهم بعد ذلك ، فمن أراد يتبعهم ومن أراد يعطيهم الجزية . قال فاستصوبوا رأيه وعلموا أنه نطق بالحق ، وكان أرجانوس له فى سرايته ألف مملوك . قال فاحتوى على قصر الملك وأخذ الخزائن والأموال وغلق أبواب قصر الشمع وفعل مافعل وليس عند ابن أخيه خبر الى أن ذهب من الليل نصفه أوأكثر فجاء اليه بعض خدمه وأخبره بما فعل عمه فأيقن بتلفه وخروج ملك مصر منه . قال فبينما هو فى حيرة فى أمره إذ كبر خالد بن الوليد ومن معه فى وسط عسكره فسمع عمرو وأصحابه التكبير فكبروا ووقعت الخذلة على الكفار وحلت فيهم المسلمون ووضعوا فيهم السيوف ، فلما نظر أرسطوليس الى مانزل به والكبسة التى وقعت بعسكره لم يكن له دأب الا أن ركب وأحدقت به مماليك أبيه وأرباب دولته وطلبوا الهزيمة وقصدوا البحر وعدوا الجانب الغربى وطلبوا اسكندرية فجازوا على مدينة صربوط وفيها الموبذان الساقى ومعه ثلاثة آلاف من عسكره ، فلما أن صاح الصائح فى مصر بأن الملك انهزم ومائبت احـد من عسكر القبط وولوا والسيف يعمل فيهم وغرق

منهم فى البحر خلق كثير ونصر الله المسلمين وانهزموا .

قال ابن اسحق حدثنى من أثق به أنه قتل فى تلك الليلة من عسكر القبط خمسة آلاف وغنم المسلمون أثقالهم وما كان فيها من الأموال ، فلما أقبل الصباح اجتمع خالد بالمسلمين وسلم بعضهم على بعض وهنوهم بالسلامة ودخلوا مصر وملكوا دورها وأحاطوا بقصر الشمع فأشرف عليهم أرجانوس بن راعيل أخو المقوقس ، وقال لهم يافتيان العرب : اعلموا أن الله قد أمدكم بالنصر وقد فعلت فى حقكم كذا وكذا ولولا حيائى على ابن أخى لما انهزم منكم ، وقد ظفرتم الآن ونحن نسلم اليكم على شرط أنكم لاتتعرضون لنا ولاتمدون أيديكم لنا بسوء ، ومن أراد منا أن يبقى على دينه يؤدى الجزية ومن أراد أن يتبعكم يتبعكم . فقال له معاذ بن جبل : قد نصرنا الله على الكفار بصدق نياتنا وصالح أعمالنا واتباعنا للحق ، وإنا ما قلنا قولا الا وفيناه ولا استعملنا الغدر ولا المكر ، وأنتم لكم الأمان على أنفسكم وأموالكم وحريمكم وأولادكم ، ومن بقى منكم على دينه فلن نكرهه ، ومن اتبع ديننافله مالنا وعليه ماعلينا ، فلما سمع أرجانوس ذلك نزل اليهم بالمفاتيح فأمّنوه وأمنوا من كان معه فى القصر ، وجمعوا أكابر مصر ومشايخها وقالوا لهم : ان الله قد نصرنا عليكم ، وقد انهزم ملككم منا وأنتم الآن فى قبضتنا وقد صرتم ممالكينا ومن أسلم منكم قبلناه ومن أبى استعبدناه ، فقالوا أيها الملك ماهكذا بلغنا عنكم . قال وما الذى بلغكم عنا ؟ قالوا سمعنا عنكم أن الله قد أسكن الرحمة فى قلوبكم وأنتم تعفون عمن ظلمكم وتحسنون الى من أساء اليكم وأنت تعلم أننا قوم محكوم علينا ولوكان الأمر الينا لاتبعناكم فارفقوا بنا وانظروا فى أحوالنا ، فقال عمرو لأصحابه وللأمراء : ماترون من الرأى فى أمر هؤلاء القوم ؟ فقال شرحبيل ابن حسنة اصنع ماأمر الله به من العدل فيهم وأحسن اليهم وطيب خواطرهم فاننا اذا قصدنا غير هذه المدينة وسمع أيها الأمير عنك أهل المدينة الأخرى بما فعلته مع أهل مصر يسلمون بغير منازعة ولاحرب ، فقال معاذ بن جبل وخالد بن الوليد والمقداد وعمار ومالك وربيعة ويزيد : القول الذى قاله كاتب وحى رسول الله ﷺ هو المعمول به ، فقال عمرو لأهل مصر : قد أمناكم على أنفسكم وأولادكم وحريمكم منة منا عليكم وقد وضعت عنكم جزية هذه السنة ، وفى السنة الآتية نأخذ منكم الجزية من كل محتلم أربعة دنانير ، ومن أسلم منكم قبلناه ، قال فلما سمع أرجانوس ابن راعيل كلام عمرو ، قال : لقد أنصفت وإن الله بهذا نصركم وقد وقفت الآن على صحة دينكم وأنا أشهد أن الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، واشهدوا على أن كل ماتركه أخى من الأموال والأصول والثياب والمتاع هو هبة منى اليكم بما فعلتم مع أهل بلدى . قال فلما نظر أهل مصر الى أرجانوس وقد أسلم دخل أكثرهم فى الاسلام ، وعمد عمرو الى الكنيسة وعملها جامعاوهو المعروف به الى يومنا هذا ، وجمع الأموال التى أخذها من وراء القبط المنهزمين ومن منازلهم وماكان فى قصر الملك وأخرج الخمس وأعطى كل ذى حق حقه ، ثم كتب كتابا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه و بعث الخمس والكتاب مع علم بن سارية ، وسلم المال والكتاب له وسير معه مائة فارس وأمره بالمسير الى المدينة ، فاستلم الخمس وسار حتى قدم المدينة وسلم المال والكتاب لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما قرأه سجد لله شكرا وأمر بالمال الى بيت المال . فقال علم بن سارية ، ياأمير المؤمنين ان عمرا يسلم عليك ويقول لك ان القبط كانو

استسنوا سنة فى نيلهم فى كل سنة وذلك أنهم كانوا اذا أبطأ عليهم الوفاء فى النيل يأخذون جارية من أحسن الجوارى ويزينونها بأحسن زينة ويرمونها فى البحر فيأتى الماء ويفى النيل وقد قرب ميقات ذلك ، ولا يفعل عمرو شيئا الا باذنك . قال فكتب عمر بن الخطاب : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى نيل مصر ، أما بعد فان كنت مخلوقا لاتملك ضرا ولا نفعا وأنت تجرى من قبل نفسك و بأمرك فانقطع ولاحاجة لنا بك ، و إن كنت تجرى بحول الله وقوّته فاجر كما كنت والسلام . وأمره أن يدفعه لعمرو بن العاص يرميه فيه وقت الحاجة اليه ثم انه كتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فالسلام عليك و إنى أحمد الله اليك وأصلى على نبيه ، وإذا وصل إليك كتابى فاطلب أعداء الله حيث كانوا ، وإياك أن تلين جانبك لهم وانظر فى أحوال الرعيــة واعدل فيهم مااستطعت ، واطلب العفو بالعفو عن الناس وأجر الناس على عوائدهم وقوانينهم وقرر لهم واجبا فى دواوينهم وأعل رسوم العافية بالعدل فانما هى أيام تمضى ومدة تنقضى ، فاما ذكر جيل وإما خزى طويل ، ثم إنه سلم الكتاب الى علم بن سارية فسار هو ومن معه الى أن قدموا مصر وسلم الكتاب الى عمرو ، فأما كتابه فقرأه على المسلمين ، وأما كتاب النيل فانهم قد كانوا عــدوا ليالى الوفاء وتوقف النيل عن الوفاء ، وقد يئس الناس من الوفاء فى تلك السنة ، فمضى عمرو الى النيل وخاطبه ورمى فيــه كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قال فلما رماه فيه هاج البحر وزاد فوق الحدّ ببركة عمر بن الخطاب ، وانقطعت عن أهل مصر تلك السنة السيئة ببركة عمر رضى الله عنه .

حدّثنا محمد بن يحيى بن سالم عن عدى بن يحيى بن عوف قال : لما بلغنا أن عمروا فتح مصر وأتى الى الكنيسة المعظمة عندهم وجد فى مذبحها بيتا مغلقا واذا فيه سورة من الفضة وأمام الصورة شخص آخر وفى يده أعلام وهى على صفة الصورة التى وجدها النبى ﷺ فى الكعبة لما فتح مكة . فدعا عمرو بالقسوس ، وقال لهم : ماهذه الصورة ؟ قالوا له هذه صورة ابراهيم وأبيه آزر ، فتبسم عمرو وقال — ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين — فقال معاذ بن جبل لما قدمت من اليمن سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجهه قترة ، فيقول له ابراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى فيقول آزر : اليوم لا أعصيك ، فيقول ابراهيم يارب إنك وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون ، فأىّ خزى أخزى من هذا ؟ فيقول الله حرّمت الجنة على الكافرين ، ثم يقول له ياابراهيم انظر الى ماتحت قدميك ، فينظر الى الريح وقد أخذت أباه فتلقيه فى النار » قال ثم أمر عمرو بالصورتين فكسرتا . وعبر عسكر المسلمون الى الجانب الغربى ، وقد تقــدّم خالد فترجل الى نحو الاسكندرية وتقدّم على مقدّمته عبد الله يوقنا وسار يوما وليلة هو و بنو عمه وهم بزىّ الروم .

ذكر فتوح مدينة مريوط

قال ابن اسحق وكان قد بلغ المو بذان الذى مع الثلاثة آلاف وهم فى مدينة مريوط ، وقد حصنها ماحصل ، فلما قدم عليه يوقنا ، قال له المو بذان : ماالذى أقدمك علينا ؟ فقال يوقنا ان المسلمين وجهونى اليك وهم يحرضونك على خلاص نفسك . ويأمرونك بتسليم هــذه المدينة

اليهم ولك الأمان على نفسك وأهلك ومالك ومن أردت ، ولك الخيار فى المقام تحت يد الاسلام أو الانفصال فان اخترت المقام فلا مانع يمنعك و إن أردت المسير أوصلناك الى أىّ موضع أردت ، فلما سمع الموبذان ذلك قهقه ضاحكا . وقال : وحق دينى ان الغدر شعاركم والمكر دثاركم ، فلا أفلح من آمن لكم ، وأما أنا فلا أخون الملك فى بلده وأنا وهو فى أرض واحدة وسوف أبعث اليه بان أقدم اليه وأساعده عليكم جزاء بما عملتموه من الخديعة وستعلمون على من تدور الدائرة ومن يكون المغبون فى الآخرة وأنت يامعشر الروم قد كفرتم بالمسيح وجحدتم السيدة أمّ النور وخرجتم من ملة الحواريين وأردتم هؤلاء العرب الجياع الا كباد العراة الاجساد ولن يغنوا عنكم شيئا ووحق المسيح لأبعثنّ بكم الى الملك فيقتلكم على كفركم ، وكان يوقناقد ترك جماعته ومضى فى عشرين رجلا منهم لعله يعمل عليه حيلة ، فلما دخل عليه أنزله فى دار الضيافة فوضعوا سلاحهم ، فلما أكلوا الطعام وتحادثوا وكان قد فطن بهم وأمر غلمانه أن يكونوا على حذر وأن يهجموا عليهم فيقبضوهم يريد بذلك أن يرسلهم الى الملك الى الاسكندرية ورماهم فى بيت مظلم فى دار إمارته وأقام ينتظر غفلة من عسكره وكانوا قد أحاطوا بالبلد ووكل بهم جارية اسمها رينا وهى أخت مارية التى أرسلها المقوقس الى رسول الله ﷺ ، وكانت أختها شقيقتها وسلم اليها المفاتيح لعزّتها عنده وقال لها احفظى عليهم لأرى ما أنظر فيهم قال فلما جنّ الليل واشتغل عدوّ الله الموبذان بالشراب قال فصبرت رينا الى أن غرق فى سكره هو ومن معه وناموا وأمنت على نفسها فأتت الى الباب وفتحت على يوقنا وأصحابه وقالت لهم أبشروا لاخوف عليكم فان الله قد جعل رحمتكم فى قلبى وأنا أخت مارية التى أهداها المقوقس لنبيكم وانى أريد منكم أن توصلونى عند أختى مارية . فقال لها يوقنا أبشرى بما يسرك ، ولكن أخاف عليك من عدوّالله فاترين ؟ فقالت والله ماجئتكم حتى سكرونام . فقال يوقنا فعرّفينا الطريق التى نسلكها الى قومنا قالت ان هذا المكان فيه سرب يخرج الى ظاهر البلد وهو مبنى من قديم الزمان وبابه الخارج مبنىّ عليه قبة على أعمدة وتحتها قبر بين المقابر فكل من رآه يظن انه قبر ، وان الذى بنى هذه المدينة امرأة يقال لها فعمان بنت عاد وصنعت هذه المقابر التى وراء التل وهى كأنها قصور مشيدة ، وكان فيها أناس سكنوها . فقال يوقنا افعلى بنا مايقرّبك الى الله تعالى ورسوله ولعلك أن تنزلينا من هذا السرب حتى نذهب الى أصحابنا ونأتى بهم من هذا مادام الموبذان سكران وهو نائم ، فقالت : سأفعل ذلك ان شاء الله تعالى غير أنى أريد أن أفتح لكم باب السرب قبله حتى لاتتعوّقوا .

[قال الراوى] وقد مضت رينا أخت مارية وأشرفت على الموبذان . فاذا هو ومن معه صرعى من الخمر فتركتهم وعادت الى باب السرب لتفتحه ، واذا هى تسمع وراءه حسا ففزعت ووقفت تسمع .

قال حدثنى عبد الرزاق بن يحيى عن سليمان بن عبد الحميد عن سفيان الأعمش عن أوس بن ماجد ، وكان ممن شهد فتوح مصر والاسكندرية . قال لما نزل خالد بن الوليد على مريوط بجيشه تفقد يوقنا وقال لأصحابه انه من وقت أن بعثته برسالتى الى مريوط للموبذان ماعاد قالوا أيها الأمير انه من وقت مادخل اليه ماخرج ونحن فى انتظاره ، فعلم خالد أن يوقنا مقبوض

عليه فبات مهموما من أجله ، وكان خالد صاحب همة وعزيمة لاينام من خوفه على المسلمين وكان معه جواسيس قد أخذهم معه من كل اقليم وقد اصطفاهم لنفسه وهويحسن اليهم وأينما ذهب يلونوا معـه ليأتوه بالأخبار فبينما هو فى غمّ بسبب يوقنا ، واذا هو بواحـد منهم قد دخل عليه وأعلمه أن ولد المو بذان قد أتى من اسكندرية من عند أرسطوليس ومعه خلع وهدايا لأبيه ومعه خمسمائة فارس ، وقد بلغه أنكم محاصرون أباه فترك العسكر ومامعه بالبعد وانفرد ومعـه خادمان وأتى ومانعـلم مايريد . قال فلما سمع خالد ذلك قام وأخذ معه غلامه هماما وأربعة ممن يعتدّ بهم وأبعد وقعد على سفح التل من نحو اسكندرية ونظروا الى التل واذا بولد المو بذان ومعه الخادمان قصدوا الى وراء التل عنـد تلك المقابر التى وصفتها رينا ليوقنا وقصـدوا القبة فمشى خالد وراءهم وفرّق جماعته من أربع جهات القبـة وكبسهم واذاهم قد فتحوا طبقا فى وسط القبة فأخذهم خالد فلما رآه المو بذان ارتعدت فرائصه وخاف فقال خالد ان صدقتمونى أمنتـكم وان لم تصدقونى رميت رقابكم . فقال الغلام أنا أصـدقك أنا ولد المو بذان وكنت عند الملك فى اسكندرية وقد أنفذ معى خمسمائة فارس عونا لأبى وحفظا لهـذه المدينـة فنحن فى الطريق ، واذ قـد جاءتنى الجواسيس بأنكم نازلون على البلد فأوقفت العسكر وأتيت الى هذه القبة ، فقال له خالد : وما الذى تريد من هذه القبة ألكم فيها سلاح أم مطلب فيه مال ؟ قال لا قال فما تريد منها . قال الغلام ان أمنتنى قلت لك الحق ، فقال له خالد قد أمنتك على نفسك فقبـل يده وقال يامولاى أريد أمانا لأبى ، ومن يلوذ به فأعطاه ، فقال : اعلم أن هذه القبةعلى سرب والسرب ينتهى الى دار الامارة ودار الامارة فى وسط هذه المدينة ، قال فلما سمع خالد ذلك تهلل وجهه فرحا وسرورا وقبض على الغلام وعلى الخادمين وأمرهما مع واحد آخر ممن معه أن يفتحوا السرب ففتحوه فأرسل همـاما الى العسكر وأمره بأن يأتى بهم فى السرب وأن يأتوا معهم بالناروالزيت والقناديل وأن يسرع بذلك وكان ذلك التلّ عاليا والذين فى المدينـة لاينظرون ماوراءه ، فلما أقبل همام بما طلبه خالد أوقدوا المسارج ونزلوا فى السرب وابن المو بذان أمامهم فوصلوا الى الباب واذا برينا عنـد الباب تريد فتحه ليوقنا ومن معه ، فلما سمعت حسهم قالت من أنتم ؟ فقال خالد لابن المو بذان أن كلمها فقال أنا فلان بن المو بذان افتحى ولا تعلمى أبى قال فلم يبق لهـا بدّ أن تفتح الباب ففتحت فصعد خالد ومن معه فقبضوا على رينا . فقالت لهم ياقوم دعونى فانى أردت أن أخلص أصحابكم وجئت لأفتح لهم هذا الباب وأنزلهم اليكم وتملكوا هذه المدينـة من ههنا ، وقد أتى بكم رب العالمين وأنا رينا أخت مارية زوجة نبيكم ، فلماسمع خالد فرح وقال لهـا وأين أصحابنا ؟ فأتت بهم عندهم فحلواوثاقهم وأتوا الى دار الامارة فوجدوا المو بذان لايشعر بنفسه من الخمر فوكل به جماعة وأمر الباقى أن يملكوا السور وقبضوا على الحرس ونزلوا الى الأبواب وكان لهـا بابان فكسروا أقفالهما وفتحوهما وأرسل الى بقية العسكر فدخلوا المدينـة والكل فى حالك الليل ، فلما أصبح الصباح استيقظ المو بذان ومن معه واذابالمسلمين حولهم ، وكل من فى المدينة قدأسر . فقال له خالد ياعبدالله لولا أنى أعطيت ولدك الأمان كنت قتلتـك شرّ قتلة ، ولـكن خـذ أهلك وانصرف فاننا قوم اذا قلنا قولا نعمل به ، وفهم المو بذان أن ولده قد دلهم على السرب ، فلما خرج المو بذان بأهله قال ولده لخالد يامولاى انأنامضيت معه قتلنى ولست أريد بغيركم بدلا ، وأنا أقول : أشهدأن لا اله

الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، فقال له خالد إن قصر أبيك ومافيه لك ، وعرض خالد الاسلام على أهل مريوط فأسلم أكثرهم ثم ان خالدا قال ليوقنا رحمه الله : أبشر من الله بالرضوان والغفران والثواب فبصبرك على الشدائد فتح الله علينا هذه المدينة ، فقال والله مافتحها الا بفضله وبركة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فكتب خالد الى عمرو بن العاص يبشره بفتح مريوط ونحن معوّلون على الدخول الى اسكندرية وأرسل الكتاب اليه .

[قال ابن اسحق] وأقام خالد بمريوط لأجل ذى الكلاع الحميرى لأنه مرض معه ، وكان مرضه شديدا فجلسوا عنده شهرا ولم يفارقه خالد فقدّر الله له بالوفاة فحزنوا عليه حزنا شديدا عظيما ، فكان ذو الكلاع ملك حمير ، وكان قبل دخوله فى الاسلام يركب له اثنا عشر ألف مملوك سود سوى غيرهم . قال أبو هريرة الدوسى رضى الله عنه : ولقد رأيته بعد تلك الحشمة يمشى فى سوق المدينة وعلى كتفه جلد شاة لما قدم من اليمن الى الجهاد فى أيام أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فلما مات رثاه ولده تنوخ بمارثى به حمير أباه سبأ بن يشجب فى الزمن المتقدّم وهو :

عجبت ليومك ماذا فعل ... وسلطان عزّك كيف انتقل
وسلمت ملكك ذا طائعا ... وسلمت للأمر لما نزل
فيومك يوم رفيع النزال ... ودورك فى الدهر دور رحل
فلا يبعدنك فكل امرئ ... سيدركه بالسنين الأجل
لئن صحبت نائبات الزمان ... وشت مع الدهر وجه الأمل
لقد كنت بالملك ذا قوّة ... لك الدهر بالعزّ عان وجل
بلغت من الملك أقصى المدى ... نقلت وعزّك لم ينتقل
فطحطحت آفاقه والمدى ... وجئت من العرب حول الدول
حويت من الدهر اطلاقه ... ونلت من الملك مالم ينل
وحلت عزمك ثقل الأمور ... فقام بها حازم واستقل
صحبت الدهور فهنأتها ... ومامر عيشك فيما فعل
بنيت القصور كمثل الجبال ... ذهبت فلم يبق الا الطلل
نعمنا بأيامك الصالحات ... ومشرنا بك وبل وطل
تؤمل فى الدهر أقصى المنى ... ولم تدر بالأمر حين نزل
فزالت لعزمك شم الجبال ... ولم يك حزمك فيها هبل

ذكر فتوح اسكندرية

قال : وعوّل خالد على المسير الى اسكندرية .

حدثنا زياد بن أوس الطائى عن معمر بن الرشيد ، قال لما نزل خالد بعد رحيله عن مريوط ، قال له عيونه انه لما انهزم ابن المقوقس وأتى الى اسكندرية وبلغه فتح مصر صعب عليه ، قال وكانت اسكندرية عامرة كان فيها الخلق كثيرا والمراكب فأرسل مراكب وعمرها بالرجال وأمرهم أن يكبسوا سواحل بلاد الشام على المسلمين ، فقالوا سمعا وطاعة ومضوا الى ساحل الرملة

فوجدوا بالليل نيرانا كثيرة فسألوا من كان خبيرا بالبلاد ، فقالو هذه نيران المسلمين النازلين ههنا ، فقالوا : هذه حاجتنا التى جئنا فى طلبها ، فنزلوا وقصدوها واذا بها حلة من حلل دوس بنى عم أبى هريرة ، وكان معهم طائفة من بجيلة وفى جملتهم ضرار بن الأزور وهو مريض وأخته خولة معه تمرضه وكان أبوعبيدة أمرهم بالنزول هناك لأجل كثرة المرعى وهم آمنون مطمئنون من الروم وغيرهم ، لأن دولة الروم قد انصرمت وأيامهم قد ولت ، فما فطن القوم الاوقد كبسهم القبط فى حندس الليل ووضعوا فيهم السيف فقتلوا منهم رجالا وأخذوا منهم أسارى ومن جملتهم ضرار وأخته وأخذوا ماقدروا على حمله وأتوا بهم المراكب ، وكان جملة من أسروه من الرجال والنساء والأولاد والعبيد ألف ومائة فوضعوهم فى المراكب وأقلعوا بهم من ليلتهم وساروا طالبين اسكندرية .

[قال ابن اسحق] وكان أبو عبيدة قد استوطن طبرية لكونها فى وسط البلاد وهى قريبة من الأردن والشام والسواحل ، وان أبا هريرة قد أتى ليزور قومه فى تلك الأيام ويسأل عن حال ضرار وكانوا يحبونه لشجاعته فأتى أبوهريرة ومعه حليف له من بنى بجيلة فأصبحنا تلك الليلة فى الحى واذا بهم قد أخذهم القبط وبيوتهم مطروحة والرجال مقتولة وآثارهم منبوذة ووجدوا من الذين انهزموا أناسا مجروحين فسألوهم فقالوا ماعندنا خبر حتى كبسنا قوم نصارى ومانعلم من أى الطوائف هم ولم نفق حتى وقعوا فينا بالسيوف فقتلوا ماترون وأسروا الباقين وأخذوهم فى مراكبهم . فقال أبو هريرة : لاحول ولاقوة الابالله العظيم ، وساروا الى ساحل البحر فلم يروا لهم أثرا ، فلما عولوا على الرجوع اذا بلوح من ألواح المراكب تلعب به الأمواج ، وعليه شخص فوقفوا له حتى أقبل وخرج الرجل واذا به أمير دوس وحيان ابن عم أبى هريرة ، فلما رآه ترجل له وعانقه وهنأه بالسلامة وقال له ياابن عم ماوراءك . فقال هجم العدو علينا ليلا وأسرونا وساروا ، فلما توسطنا البحر بعث الله بريح فغرقت مركبنا ، وقد نجانى الله على هذا اللوح . فقال له : ومن أعداؤكم ؟ قال من قبط مصر ، وانى سمعتهم يذكرون اسكندرية كثيرا . قال فرجع أبوهريرة يطلب طبرية وأتى ابن عمه الى مكان الحلة حتى يلم شعث الناس ويداوى المجروحين فجمع ماتركوه وأتى بهم الى الرملة . وأما أبوهريرة فأتى أباعبيدة وأخبره بما جرى فاسترجع وبكى ، وقال أعوذ بالله من الساعات الرديئة ، ثم قال والله لئن وصلوا الى اسكندرية مايبقيهم صاحبها طرفة عين ويموت ضرار ويمضى دمه هدرا وكتب الى عمرو بن العاص يعلمه بذلك ويحذره من صاحب الاسكندرية وانه أسر ألفا ومائة من جملتهم ضرار وأخته ، وكانت تداويه وهى عنده فاذا وصل اليك كتابى هذا فاجتهد فى خلاصهم وان وقع فى أيديكم أحد من القبط ففادوهم به ودفع الكتاب لزيد الخيل وأمره أن يسير الى مصر ، فلما قدم زيد الخيل الى مصر دفع الكتاب لعمرو بن العاص ، فلما قرأه صعب عليه ، وكان يحب ضرارا فأرسل الكتاب الى خالد بن الوليد ، وكتب اليه يحثه بالمسير الى اسكندرية وأنه يفتقد حال الأسرى ، فلما وصل الكتاب الى خالد وقرأه صعب عليه أمر ضرار وأخته خولة .

حدثنا ابن اسحق قال حدثنا عاصم بن منصور عن أحمد المروزى عن سلمة عن عبد الله ابن المبارك عن عبدالعزيز عن أبيه . قال لما أخذت النصارى حلل دوس وضرارا واخته وعصفت عليهم الريح وغرق أحد المراكب ووصل الباقى الى اسكندرية أوقفوهم أمام ابن المقوقس فأراد

قتلهم فقال له أرباب دولته أيها الملك لاتعجل عليهم ، واعلم أن العرب متوجهة اليك ولا بدّ لنا من قتالهم فان أسرأحد منا ممن يعز عليك يكون عندنا من نفادى به ولعلّ أن نصالح العرب فاستصوب رأيهم وقال ادفعوا هؤلاء الاسرى الى دير الزجاج وأرسل معهم ألفى فارس يوصلونهم الى الدير فجاءت عيون خالد وأخبروه بما وقع فقام وأخذ معه أصحابه وسار يطلب دير الزجاج فوصل خالد الى الدير قبل وصول الأسارى ومن معهم ، فلما أحدقوا بالدير أشرف عليهم راهب كبير السن وكان اسمه مباحا وكان تلميذا لبحيرا راهب بصرى ، وكان مؤمنا بالله و بأنبيائه . فقال له خالد ياراهب كيف ترى الدنيا . قال تنحف البدن ، وتجدد الأمل ، وتقرب المنية ، وتقطع الأمنية قال فما حال أهلها قال من نال منها شيئا نغصته ومن فاته منها شيء حسرته ، قال فما خير الأصحاب فيها قال العمل الصالح والتقى ، قال فماشر الاصحاب فيها ؟ قال اتباع النفس والهوى . قال خالد صدق رسول الله ﷺ اذ قال الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها ، ثم قال كيف طابت لك الوحدة ؟ قال ألفتها قال فهل نلت منها فائدة . قال نعم : الراحة من مداراة الناس . قال فما أحسن هذا الاعتقاد لوكان فى دين الاسلام والتوحيد ، قال فما أعرف غيره ، قال فما تقول فى محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ؟ قال سيد الرسل وخاتم الأنبياء وصفىّ الأصفياء وحجة الجبار على الورى ، قال فلم لاتكون فى بلاد الاسلام فهى أصلح لك من ههنا ، قال قلبى ملوّث بحبّ الدنيا . قال خالد أعندك خبر بالعرب الأسرى الذين أرسلهم الملك هنا ، قال لا والله ، ولكن مرّ بى البارحة بطريق وأسقف واستقيا ماء من بئر هذا الدير فسألتهما من أين أتيتما ؟ فقالا من الاسكندرية واننا رسل الملك كماويل صاحب أرض برقة وانه أرسلنا الى ملك القبط يسأله أن يرسل له أسرى من عرب المسلمين حتى يراهم ويسمع كلامهم فأجاب أنه يرسل منهم جماعة وانا ماضون نعلم صاحب برقة بذلك . فقال خالد لعلكم من المسلمين الذين فتحوا بلاد الشام قال خالد نحن هم . فقال الراهب ان أخباركم عندى فى كل وقت وأعلمك أنى رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وهو فى قافلة قريش وأنا عند بحيرا ، فلما مات بحيرا انتقلنا الى هذا الدير ، واعلموا أنه مابقى من أرض الكنائس ولا بأرض العقبة ولابأرض الرمادة أحد ولاديار من راهب ولاقسّ الاوقدم لزيارتى و يسألنى عنكم وعن نبيكم ، ويقولون لى أنت كنت على طريقهم ورايت نبيهم وشرحت لهم دينكم وأوصلتهم الى ماظهر من معجزات نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ولقد جرى بينى و بين راهب منهم بالقرب مناظرة ، وقال لى ان النبى الذى بشر به عيسى المسيح ابن مريم ليس هذا ، فقلت له بلى هو والله النبى العربى . فقال لى إننا سمعنا فى العلم أن الرسول الذى يظهر من أرض الحجاز يعرج به الى السماء ، وماسمعنا أن هذا عرج به ، فقلت بلى والله أنا سمعت بأنه عرج به الى السماء وخاطب العلىّ الأعلى ، وأصبح فأعلم بذلك قريشا ، ثم قال لخالد : اعلم أن فى وسط هذا الجبل ديرا يقال له دير المسيح ، وقد استوى عليه بطريق ومعه جماعة وهو يقطع الطريق على قوافل العرب ، و إنه منذ زمان قطع الطريق على قافلة وفيها شخص من بلادكم وهو مسلم ، فأخذ القافلة وعرّى أهلها وأطلقهم وقبض على ذلك المسلم وأخذ ماله ، ووضعه عنده فى العذاب الشديد ، والرجل يستجير فلا يجار ، و يقول له ماأطلقك حتى تكفر بالرحمن وتسجد للصلبان ، ثم إنه يأتيه بصورة من نحاس وعلى رأسه عمامة سوداء ، و يقول له هذه صفة نبيكم

وينصبه قباله ويصب فضلة كأسه على رأس هذه الصورة ، وذلك الرجل يستجير من فعاله . قال فلما سمع خالد ذلك أخذ معه شرحبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة ويزيد بن أبي سفيان وهاشم بن سعيد والقعقاع ورفاعة ، وترك بقية العسكر محيطة بالدير ومضوا الى وسط الجبل فوجدوا الدير فوصلوا اليه ، وإذا بالبطريق قد أقبل ومعه وحش مذبوح ، وقد قصد الى شجرة بالقرب من الدير وتحتها عين ، فنزل على العين وصاح بغلمانه فأتوا اليه وأضرموا النار وجعلوا يشوون له وهو يأكل ويشرب الخمر ، وقال لهم هاتوا المحمدى ، فأتوه برجل قد ركبه الذل وغلبه القهر ، فلما رآه قال له : أنت قد غلبتني بتجلدك على العذاب ، وحق ديني لأرفع عنك العقوبة حتى ترجع عن دينك الى ديني ، فقال له اصنع مابدا لك فاني أعلم أن الكل بمشيئة الله وبارادته ، وإنى صابر على مر البلاء وماأرجع عن دين محمد المصطفى . قال فهم أن يقوم اليه يضربه فصاح به خالد بن الوليد وحمل عليه وطعنه فأخرج السنان من ظهره وقتلوا غلمانه وخلصوا المسلم ونزلوا على العين ، ولم يكن لأهل الدير شرب الا من تلك العين ، فأشرف عليهم الرهبان من أهل الدير ، وقالوا : مانحن أهل سيف حتى نقاتلكم ، وقد نهاكم نبيكم عن قتل الرهبان ، فقال خالد : سلموا لنامال هذا البطريق وعياله وأطفاله ونحن نترككم فى ديركم ، ففتحوا لهم وسلموا لهم جميع موجوداته ، وأخذوا الأسير وساروا وسأله خالد بن الوليد من أين أنت ؟ فقال أنا أمية بن حاتم أخو عدى ، وقد أخذنى هذا فى أواخر أيام أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فانى كنت طالب برقة مع قافلة ومعى بضاعة فأخذها وأخذنى ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . قال فرجعوا عند أصحابهم ولم يأتوا القبط فما لحقوا أن ينزلوا عن خيولهم الا والراهب صاح ، وقال لهم استعدوا للقاء عدوكم فانهم قربوا منكم ، فتجهزوا للقاء العدو وإذا بهم قد أقبلوا ، وضجيج الأطفال وبكاء الناس وأنين الرجال وصراخ المأسورات ، وصياح القبط عليهم يسوقونهم من ورائهم ، وزئير الفرسان ، وهفيف الصلبان والعربيات ، تنادى بالويل والهوان ، وخولة بنت الأزور على مقدمة الأسارى وهى تقول :

جل المصاب وزادالويل والحرب ... وكل دمع من الأجفان ينسكب
ومادت الأرض مما قد بليت به ... حتى توهمت أن الأرض تنقلب
جالت يد القبط فينا عند غفلتنا ... واستحكم القبط لما زالت العرب
لهفى على بطل قد كان عدتنا ... فيه العفاف وفيه الدين والأدب
قد كان ناصرنا فى وقت شدتنا ... أعنى ضرار الذى للحرب ينتدب
فيه الحمية والاحسان عادته ... فيه التعصب والانصاف والحسب
لو كان يقدر أن يرقى مراكبه ... كان العدو فنى والحرب تلتهب
أو كان خالد فينا حاضرا وطنا ... لزال عنا الذى نشكو وننتحب
لوكان يسمع صوتى صاح بى عجلا ... مهلا فقد زال عنك البؤس والعطب

قال : فلما سمع خالد نداءها ، قال : لبيك يابنت الأزور ، قد جاءك الفرج وذهب عنك الحرج فأطبقوا على القبط ، فما كان ببعيد حتى قتلوا منهم سبعمائة وأسروا ألفا وثلثمائة ، وخلصوا الأسرى وسلموا على ضرار ، وهنئوه بالسلامة وودعوا الراهب ، بعدما كتب له خالد كتابا بأن له من طعام

الاسكندرية صاعا ، ولكل من سكن الدير من أهله وقبيلته ، ثم إنهم ساروا طالبين الاسكندرية وهم سائقون الأسرى من القبط بين أيديهم . قال وكان الملك أرسطوليس لما سمع بأن العرب قد أتوه أخرج عسكره ، وضرب خيامه خارج باب السدرة . قال فلما قدم المسلمون وقع الصائح بقدومهم ووقع الخوف فى قلب الملك وعسكره وقال له : أيها الملك ماالذى تدبر فى أمر هؤلاء العرب ؟ قال وماعسى أن أدبر والخوف قد ملأ قلوبكم ، وهم طمعوا فيكم ورأوا أنكم تنهزمون ولاتخافون العار ، وإذا قاتلتموهم كانت قلوبكم متفرقة وأهواؤكم غير متفقة وقد أسروا رجالكم ولم يرهبوا قتالكم ولامانع يمنعهم ، ولو أن أصحابهم الذين أرسلتهم الى دير الزجاج عندى لكنت صالحتهم باطلاقهم ودفعناهم عنا ، وقد فرطنا أيضا فى الألفين الذين أرسلتهم معهم ، فلو كانوا فينا لقاتلوا معنا . فقال له وزيره : أيها الملك هل لك أن ترسل اليهم وتتحدث معهم فى أمر الصلح ، ونحن نسلم اليهم أصحابهم . فقال إنهم لن يقبلوا منكم رسولا منذ صبأنا عليهم ببحر الحصى ، فبينما هم فى ذلك وإذا بساحب البحر ، قد أتى اليه وهو الموكل بالنار ، وأخبره أنه رأى مركبا قد ظهر من قبل الغرب ، ولا أعلم من أين أتى . فقال لاشك أنه من صاحب برقة الملك كماويل ، وقد أنجدنا ، فأقبل المركب ورمى مراسيه ونزل منه شيخ مهيب مليح الشيبة ظاهر الهيبة ، وعليه ثياب من الصوف الأسود ونزل معه عشرون شخصا من القسوس والرهبان ، فلما نزلوا الى البر جاءتهم الخيول بالمراكب المذهبة والغلمان والحجاب وعظموا شأنهم وأركبوهم وساروا بين أيديهم الى أن أوصلوهم الى الملك وأدخلوهم عليه ، فقام لهم وعظم شأنهم وأجلس ذلك الشيخ معه على السرير

[قال الراوى] وكان أرسطوليس قد أرسل هدية الى الملك صاحب برقة ، وأرسل اليه يعلمه بما فعله العرب فى مدة قيصر وإنهم قد أتونا ، ومن جملة ماأرسل له يقول : أيها الملك اعلم أن الدنيا دار زوال وانتقال ، فما وهبت إلا واستردت ، ولافرحت الا وأحزنت ، فالمغرور من تشبث بذيلها واطمأن اليها ، والسعيد من لبس ثياب الحذر منها وعمل لدار المقر ، أماترى أيها الملك الى هرقل ملك الشام كيف هرب وزال ملكه ؟ وذلك عند مارمته الدنيا بمصائبها ، وشتته بسهام نكائبها بعد ما كانت فى وجهه مشرقة ولايخطر له هم الأعداء على بال ، وماضربت لك هذا المثال الا لعلمى أن الدنيا لاتبقى على حال ، وهؤلاء العرب قد استولوا على البلاد ، وأذلوا بسيوفهم العباد ، وقد أقاموا لهم شرعا بالسيوف الحداد ، وقد ملكوا القياصرة وقد جاءت طائفة الينا ، وأخذوا مصر منا وأخذوا ملكنا وحكموا على بلادنا بعدنا ولابدلهم منك ولاغنى لهم عنك ، والصواب أن تشمر لهم عن الهمم وتنجدنا على من بغى وأجرم ، فنحن جيرانك وكلنا جندك وأعوانك والسلام .

[قال الواقدى] فلما وصلت الهدية والكتاب عرضه على أرباب دولته وقال لهم ماترون فيما كاتبكم به صاحب مصر والاسكندرية ؟ . فقالوا له أيها الملك مازالت الملوك يستنصر بعضها ببعض والذى أشار اليه هو الحق وان العرب اذا ملكت ملك القبط فلابد لهم منا والعبور إلى بلادنا ، فابعث اليه بنجدة ونكون نحن وهو يدا واحدة ، فالمسيح يعطى النصر لمن يشاء فأجابه الى ذلك وأمر ابن أخيه أسطفانوس أن يمضى فى أربعة آلاف وأمره أن يسير لمعاونة صاحب اسكندرية

ثم انه أرسل خادمه الى عالم أرضهم والمشار اليه فى علم النصرانية وهو البترك واسمه سطيس ، وكان عمره مائة وعشرين سنة ، وكان تلميذ زيروسا وزيروسا تلميذ مرقس ومرقس تلميذ يوحنا ويوحنا أحد حوارى عيسى المسيح وكان هذا البترك سطيس مؤمنا بالله وموحدا وسمع بأخبار رسول الله ﷺ ومعجزاته وهو مؤمن من قبل مبعثه وظهوره حتى بلغته أخباره ﷺ وانه مات فبكى لموته ولزم زاوية الحزن ولم يظهر خبره لأحد مدة من الزمان ، وقد بنى له صومعة وانفرد بها وجعلها على قارعة الطريق فما مرت به قافلة الا واستخبرها عنه ويسأل عمن جلس بعده للمسلمين خليفة ؟ . فقالوا أبو بكر الصديق و بلغه موته وولاية عمر ، ثم بلغه فتوح الشام وقدوم الصحابة الى مصر وفتحها ، فلما أرسل صاحب مصر يستنجد صاحب برقة وأرسل أخاه أرسل هذا البترك فى مركب يبشره بقدوم اسطفانوس الى نصرته ، فلما وصل اليه و بشره فرح بذلك وقال ياأبانا أريد من إنعامك أن تسير الى هؤلاء العرب وتختبر دينهم ونبيهم وتدعوهم الى الصلح وتعلمهم أن فى أيدينا جماعة منهم أخذناهم من ساحل الرملة وقد أنفذت بهم الى دير الزجاج ، فان أرادوا أصحابهم أطلقناهم لهم ونعطيهم شيئا من مالنا واعقد لنا ولهم الصلح بأنهم لايرجعون الينا ولايتعرضون لنا . فقال البترك سأفعل ذلك وانى قد قرأت فى الكتب السالفة فوجدت فيها ان الله يبعث نبيا من أرض تهامة تعرض عليه مفاتيح الأرض وكنوزها فلا يلتفت اليها ولا يعبرها نظره ولايختار الا الفقر على الغنى وان أصحابه يتبعون سنته وأنا أستخبر حالهم قبل سيرى اليهم . فقال الملك وكيف تستخبر حالهم ياأبانا ؟ . قال أيها الملك أرسل بغلة من مراكبك وعليها مركب من ذهب وهو مرصع بالمعادن وتأمر غلمانك أن يسيروا بها ويرسلوها نحو عسكر المسلمين ، فان أخذوها فنعلم أنهم يحبون الدنيا ولايريدون الآخرة وان ردوها فنعلم انهم يطلبون ماعندالله . قال ففعلوا ذلك وأرسلوها وكانوا فى حندس الليل ، وكان فى الحرس شرحبيل بن حسنة ، فلما رأى البغلة وماعليها من الزينة ضحك وقال ان أعداء الله يريدون اختبارنا ومعرفة أحوالنا ان كنا نطلب الدنيا أوالآخرة ، فوالله مامنا من يميل الى مايفنى وانما بغيتنا فيما يبقى ثم قرأ — إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور — ثم أمسك بعنان البغلة وأطلقها نحو عسكر القبط . قال فلما رأوها صلبوا على وجوههم وقال الملك والله بهذا نصروا وخذلنا والله انى كان على بصيرة من أمرهم ، ثم أمر البترك سطيس أن يتوجه اليهم فمضى ، فلما قرب منهم رأى أقواما قد هجروا الدنيا ، فمنهم القارئ ، ومنهم الذاكر، لباسهم بالصوف ، صغيرهم يوقر كبيرهم وكبيرهم يرحم صغيرهم وصوت أحدهم لايعلو على الآخر ، الذكر كلامهم والقرآن شعارهم والتقوى لباسهم والخوف من الله أنيسهم ، فلما دخل على عسكرهم سأل عن أميرهم وصاحبهم فدلوه على موضع خالد فقصده ، فلما وصل اليه وجده فى ذكر الدين والقيامة فنزل عن بغلته ووقف أمامه وأومأ اليه بالسجود فمنعه خالد . فقال له أنت أمير هؤلاء القوم قال كذا يزعمون أنى أميرهم مادمت على الحق واتباع العدل والانصاف والخوف من الله محسنا للمحسنين منهم مشدادا على المسيئين منهم فتى حدت عن هذه الأشياء فلا إمارة لى عليهم . فقال البترك أنتم والله القوم الذين بشر بكم عيسى ابن

البتول ، وان الحق معكم لايفارقكم ، قال فأمره خالد بالجلوس فجلس وقال : يامعاشر العرب أخبرونى عن نبيكم ؟ . فقال خالد ان الله اختار من ولد آدم العرب واختار من العرب مضر واختار من مضر كنانة واختار من كنانة قريشا واختار من قريش بنى هاشم واختار من بنى هاشم عبدالمطلب واختار من عبدالمطلب عبدالله واختار من عبدالله محمدا ﷺ وقال « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » وقال : لما خلق الله العرش كتب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فلما وقع آدم فى الزلة رأى على ساق العرش لا إله الا الله محمد رسول الله . فقال يارب من هذا ؟. قال ولدك يا آدم الذى لولاه ماخلقتك قال يارب فبحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد . فقال يا آدم لوتشفعت الينا بمحمد فى أهل السموات والارضين لشفعناك ، ثم ان الله جعل اسمه مقرونا باسمه وذكره مع ذكره ووسمه بما وسم به نفسه . فقال — ان الله بالناس لرءوف رحيم — ، وقال فى حقه — بالمؤمنين رءوف رحيم — وقال — من يطع الرسول فقد أطاع الله — وقال — النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم — وقال — ياأيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك — وان الله عزّوجل رفع ذكره وعظم فخره وأعز قدره فقال تعالى — ورفعنا لك ذكرك — وهذا غاية الشرف والتعظيم والتبجيل والتكريم وقال : يامحمد لا أذكر حتى تذكر فمن أحبك فقد أحبنى ، ومن سبك فقد سبنى ، ومن جحدك فقد جحدنى ، ومن أنكر نبوّتك فما عرفنى وها أنا أشهد على نبوّتك . فقال عز من قائل — ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم — ، وقال فى موضع آخر — وكفى بالله شهيدا محمد رسول الله — ، قال فلما سمع البترك ذلك من خالد فرح وقال لقد نجا من اتبعه وخسر من فارقه ثم جدد إسلامه على يد خالد وحدثهم بأمره من أوّله الى آخره ، ثم حذرهم من أخى صاحب برقة وانه واصل ومعه أربعة آلاف فارس وأنى قد سبقته فى البحر ، وهذا الملك القبطى يريد صلحكم ويقول لكم على انكم تصالحونه أن يعطيكم شيئا من المال ويسلم اليكم قوما من أصحابكم قد أخذوهم من ساحل الرملة . فقال خالد ان أصحابنا قد فك الله أسرهم وجمع بناشملهم وقد نصرنا الله على القبط الألفين الذين كانوا مع الأسارى فاننا أخذنا ألفا وثلثمائة أسير وقتلنا سبعمائة ، ثم انه عرضهم عليه وعرض الاسلام عليهم فأبى أكثرهم وأسلم بعضهم فأمر خالد بضرب رقابهم بين العسكرين ثم إن البترك عاد الى صاحب أسكندرية وقال له هؤلاء لا نملك غرتهم لأنهم حذرون من أعدائهم وعرفه بقصة أصحابه وأنهم هؤلاء الذين ضربوا رقابهم قبالك فقال له ياأبانا ومن أين هؤلاء قال قد وقعوا بهم وخلصوا أصحابهم وأسروا من أصحابك ألفا وثلثمائة وقتلوا سبعمائة . قال فلما سمع ابن المقوقس ذلك سقط فى يده وأيقن باتلاف ملكه ، وقال لأرباب دولته وعسكره خذوا أهبتكم للقتال وكأنكم بعسكر الملك كماويل صاحب برقة ، وقد أقبل عليكم ونقاتل هؤلاء العرب بقلوب قوية وأسرار نقية ويعطى الله النصر لمن يشاء وباتوا وهم معولون على القتال .

[قال ابن اسحق] ولقد بلغنى أن الملك نام بقية ليلته فرأى فى منامه كان شخصا أشقر عريض الصدر قد خرج من حمام ومعه شخص آخر مليح الوجه حسن الخلق وسيم قسيم فى عينيه دعج وله نور يسطع كأنه قمر . فقال ابن المقوقس للاشقر من أنت ؟ قال ابن العذراء البتول أنا المسيح بن مريم ، وهذا الذى بشرت به من قبل مبعثه هذا محمد رسول الله العربى الامى من آمن به فقد اهتدى ، ومن جحد نبوته فقد اعتدى ، وقد جئنا لنصرة أصحابه ومقامنا على القبة .

[قال ابن اسحق] رحمه الله ولقد بلغني ان برج القبة مما يلي باب البحر وذلك ان الاسكندر لما بنى الاسكندرية وسماها باسمه كان الخضر وزيره ، وهو الذى بنى الباب الأخضر وصنع تلك القبة باسمه ورسمه وكان يأوى اليها فصار ذلك الباب مشتهر ابه الى يومنا هذا . قال ثم ان عيسى عليه السلام قال للملك فى نومه ان كنت من أمتى فاتبع شريعة هذا النبى وذهب عنه ، فلما أصبح حدث أرباب دولته بما رأى فى نومه فقالوا أيها الملك هذه أضغاث أحلام وما كان عيسى المسيح يماشى العربى وهو عدوه ، وانما الشيطان قد خيل لك ذلك فلاتلتفت اليه قال فأصغى الملك الى كلامهم ثم انه أمر عسكره بالقتال فركبوا وصافوا المسلمين . وأما الملك فانه نظر الى برج القبة واذا بالقبة يسطع منها نور فدخل الوهم فى قلبه بما رأى فى منامه ، وقال والله ماهذا النور الانور المسيح ومحمد وان هذا هو الحق لاشك فيه .

حدثنا ابن اسحق حدثنا عامر بن بشر عن الاحوص قال : كنت فى خيل خالد بن الوليد يوم قتالنا على اسكندرية قال لما وقفنا فى ميدان الحرب وقف يقاتلنا فارس وهو بطريق عظيم الخلقة وعليه لبس يلمع وتحته جواد عربى فنادانا بالعربية بلسان فصيح ، وقال ياعرب انصرفوا عنا فانا لانريد حربكم وقد ملكتم منا مصر والصعيد وأكثر الريف وقد بقى فى أيدينا هذه الجهة وما نحن منازعونكم فيما أخذتموه منا ، ونحن لانقلدكم فى البغى ونصالحكم صلحا نعود منه عن ظلم أنفسنا ونعدل فى رعيتنا وان أبيتم صلحنا لقيناكم بأسرار نقية وقلوب للجهاد قوية فنردكم على أعقابكم منهزمين ، وفى أذيال الذل متعثرين ، لأنه ماعدا أحد على أهل هذا الدين إلا ذل وانهزم لاننا قوم لنا الكنائس الأربع والصوامع والبيع والقسوس والرهبان والمذابح والقربان والانجيل والصلبان ثم سكت عن كلامه .

[قال الراوى] وكان هو الملك بن المقوقس فكان أوّل من بادر الى رد جوابه شرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ فقال له : لقد افتخرت بما يؤدى صاحبه إلى البوار ، ويعقبه سوء الدار ، ياويلكم أفتخرون علينا بالشرك والطغيان وعبادة الصلبان والكفر بالرحمن ، ونحن أولو التقى والايمان ، والفوز والرضوان ، والقبلة والقرآن ، والحج والاحرام ، والصلاة والصيام ، والاجتهاد والاحترام ، ديننا أفضل الاديان ، ونبينا المبعوث بالمعجزات والبيان ، و بالآيات والبرهان والمنزل عليه القرآن ، ومن اتبعه نال من ربه الغفران ، ومن جحد صحبته باء بغضب الملك الديان الذى كان ولامكان ، ولادهر ولازمان ، ولاوقت ولا أوان ، شهد لنفسه بالربوبية ولصفاته بالأزلية ولذاته بالأحدية ، ولملكه بالأبدية سلطانه قاهر وكرمه ظاهر وتدبيره محكم وقضاؤه مبرم وعرشه رفيع وصنعه بديع ، وليس بوالد ولامولود ولا لذاته حد محدود ولالبقائه أجل معدود خضعت الأعناق لعظمته وخشعت الاصوات لهيبته وعنت الوجوه لعزته وذلت الاقوياء لقوته لايحصى نواله ولا يفنى كماله ولاتبيد نعمه وافضاله ياويلكم كيف طاب لكم الكفر بالهيته والاشراك بربوبيته وان تجعلوا له ولدا من خلقه وبريته وتسجدون للصلبان فى دار مملكته ولا تفزعون من عظمته ثم انه قرأ — ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى إذا ماؤجاها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون — . ثم قال شرحبيل إن لله عبادا لوأقسموا

على الله أن يدكدك لهم هذا السور لفعل ، وكانت اشارته الى سور المدينة فغار السور فى الأرض وبانت المنازل والدور . قال فارتعدت فرائص الملك لما عاين ذلك من عظيم القدرة فلوى عنان جواده الى عسكره وأفئدتهم قد طارت وأفكار القبط قد حارت ، فلما جن الليل أخذ الملك خزائنه وأمواله وحريمه وعياله وركب فى المراكب وسار يريد جزيرة إقريطاش ، فلما أصبح الصباح وقع الصايح بالمدينة بأن الملك قد انهزم فاجتمع الأكابر وقالوا : ان الملك قد انهزم ومالنا من يدفع هؤلاء العرب . قال فخرجوا بأجمعهم الى أصحاب رسول الله ﷺ ووقفوا بين يدى خالد ، وقالوا ان الله قد نصركم بحق وأيدكم بصدق ، وانا نريد منكم ان تعاملونا بالنصفة وتنظروا الينا بعين الرحمة ، والعدل سنة من كان قبلنا معكم من الروم ، فقال خالد مافعل ملككم ؟ . قالوا انهزم بأهله وماله فى البحر . فقال نحن قوم قد أسكن الله الرحمة فى قلوبنا وبصرنا بمعالم ديننا ، وأظهرنا على أعدائنا ، وفضلنا على سائر من كان قبلنا من الأجناس . فقال تعالى — كنتم خير أمة أخرجت للناس — ، ونحن نجريكم على أحسن عوائدنا مع سائر من فتحنا بلادهم ، وقد أمسكنا عنكم ولوأردنا أن نملك البلد بالسيف لهان علينا ، ولكن خير الناس من قدر وعفا ونريد منكم مائة ألف مثقال ذهبا صلحا عن أنفسكم وأهاليكم وندعوكم بعد ذلك الى الاسلام ، فمن أجاب منكم كان له مالنا وعليه ماعلينا ومن عدل عن ذلك أخذنا منه الجزية عن السنة الآتية من كل رجل وغلام بلغ الحلم أربع دنانير ونشرط عليكم شروطا أن لاتركبوا دابة ولاتعلوا دوركم على دور المسلمين ولاترفعوا أصواتكم عليهم ولاتبنوا كنيسة ولاصومعة ولاديرا ولاتجددوا مادثر وتلقوا المسلمين بالذل والانكسار وتسارعوا فى قضاء حوائجهم ومايريدون فى اصلاح شأنهم ولاتعدلوا عن تعظيم أهله ، ومن أذنب منكم ذنبا حددناه ومن ارتد عن قولنا قتلناه ، وان تشدوا الزنانير على خصوركم اظهارا لدينكم ، وأن لاتظهروا ناقوسا ولاصليبا ولوآمنتم بالله ورسوله لكان خيرا لكم . فقالوا أيها الأمير مانترك ديننا فقرأ — واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا أولوكان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور ومن كفر فلايحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ — فقالوا أيها الأمير نريد أن تولى علينا رجلا منا حتى يجمع المال الذى تقرر علينا فيامه بالعدل وليكن معه رجل منكم من أصحابكم ، فقال خالد انى لاأعرف أحدا من أجاويدكم فاختاروا لأنفسكم رضاكم من أوليه عليكم فأشاروا الى رجل منهم اسمه شيعا بن شامس ، وكان مقدما فى القبط فولاه خالد على جمع المال ورياسة البلد وندب معه قيس بن سعد وأوصاهم ، وقال خذوا من كل واحد مايحتمل حاله ومن كان معسرا ضعيفا فدعوه ، واحسنوا ان الله يحب المحسنين . ولا تظلموا يتيما ولافقيرا ولاأرملة ، فتعجب القبط من حسن وصيته وكلامه فدخل القوم واجتمعوا فى دار الامارة وبعث شيعا غلمانه يجمعون الناس .

قال حدثنا جرير بن عاصم عن نعيم بن موسى الدارانى عن سليمان بن عوف عن جده مازن بن سعيد . قال وقع القسط على أهل اسكندرية فكان أكبرهم فى الحشمة وأغزرهم فى فى المال يزن عشرة قراريط وأوسطهم حالا يزن قيراطين ولقد أتى برجل من أغنيائهم اسمه

براس لايدرى مايملك من المال والدبش والغنم وكان أبخل أهل زمانه ، فقال له شيعا قد وجب عليك فى هذا المال دينار ، قال وحق المسيح ماأنا بالذى يؤديه ولومت وان تصدقت به كان أفضل من عطيتى للعرب . فقال له قيس بن سعد : ان فى الذى نأخذه منكم صونا لأنفسكم وحفظا لدمائكم ونحن مانأخذه على وجه الصدقة منكم بل نأخذه حلالا لاحراما ياويلك لودخلنا مدينتكم بالسيف ألست كنت أنت أوّل من قتل ومالك أول مانهب ، وقال له شيعا خذلك الله ولعنك كل من فى اسكندرية يعلم أنك كنت أولا فقيرا لاتقدر على شىء من أمور الدنيا وقد آتاك الله من فضله ووسع عليك رزقه . فقال ألست ورثته عن آباء كرام وأجداد عظام وما لله علىّ من فضل . قال فغضب قيس وقام اليه وقمعه بمقرعة كانت معه ، وقال له كذبت ياعدو الله ورسوله الفضل والحمد والمنة لله لأنه رزقنامن فضله وأسبغ علينا من نعمه — وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها — ثم قال قيس : اللهم انه جحد نعمتك فأزلها عنه . قال فوالله مامضى يومه حتى جاء الخبر بأن أغنامه قد هلكت جميعا و بساتينه يبست ودياره قد تهدمت وأمواله ذهبت . قال قيس : الله أكبر هذا والله حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوهريرة بجانبى . قال «ان ثلاثة من بنى اسرائيل كان أحدهم أبرص ، والآخر أقرع ، والآخر أعمى . فبعث الله اليهم ملكا فأتى الأبرص فقال له أىّ شىء أحب اليك ؟ . فقال : الجلد الحسن والابل ، فأتى الأقرع فقال له أى شىء أحب اليك ؟ قال الشعر الحسن والغنم ، وأتى الثالث فقال له أىّ شىء أحب إليك ؟ . فقال النظر والبقر . قال ثم ان الملك مسح بيده على جلد الأبرص فعاد أحسن جلدا وأعطاه ناقة عشراء فبارك الله له فيها حتى ضاقت بابله الديار ، وأما الأقرع فأتاه ومسح بيده على رأسه فأنبت الله له شعرا حسنا وأعطاه نعجة عشراء فتوالدت الى أن ضاقت بها تلك الديار . ثم أتى الأعمى ومسح بيده على عينيه فعادتا أحسن عينين وأعطاه بقرة عشراء فتوالدت الى أن ضاقت بها تلك الديار . قال ثم أتاهم ليمتحنهم ، فأتى الأبرص . فقال له كنت أبرص فقيرا لاتملك شيئا فأعطنى مما آتاك الله من هذه الابل ناقة أتسبب عليها ، فقال له ماكنت فقيرا ولا أبرص وانما ورثت هذا المال من آبائى . قال فذهب الى الأقرع ، وقال له مثل ماقال للأبرص ، فقال مثل ماقال الأبرص ، فذهب الى الثالث ، وقال له مثل ماقال لصاحبيه . فأجاب بأن . قال بسم الله والله لقد صدقت فاذهب الى هذا البقر فاقسمها بينى و بينك ، فقال له بارك الله لك فى مالك وقد رد الله صاحبيك كما كانا فانهما كفروا نعمة الله » .

[قال الراوى] وجمعوا المال ومضوا به الى خالد و بنى فيها المساجد وأخذ كنيستهم العظمى فجعلها جامعا وترك لهم أربع كنائس ، وكتب الى عمرو بن العاص يعلمه بفتح اسكندرية ففرح وركب وترك موضعه أباذرّ الغفارى وذهب الى الاسكندرية و بنى فيها جامعا فى الربض ، وهو معروف بجامع عمرو الى يومنا هذا .

ذكر فتح مدينة دمياط وماوالاها

[قال الراوى] وأتت اليه أهل رشيد وفوّة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهور و إبيار والبحيرة وصالحوه على بلادهم . ثم انه بعث المقداد ومعه أربعون فارسا وهم ضرار وشاكر

ونوفل وراجح وعاصم وفارس وعروة وسهل وعمير وكعب وسعيد ويزيد وصعصعة وغيرهم وأمرهم بالمسير الى دمياط وأمّر عليهم المقداد بن الأسود الكندى فساروا الى البراس ، ودمياط كان بها خال الملك المقوقس ، وكان عسكره اثنى عشر ألفا ، وكان قد حصن البلد وجمع فيها من آلة الحصار من الزاد وغيره ، قال فلما أشرف عليه الصحابة ونظر الى قلتهم ضحك وقال : ان قوما ينفذون الينا منهم أربعين ليملكوا بلدنا إنهم انى عجز وقلة عقل . قال وكان ولده الأكبر فارسا مشهورا فى جميع بلاد النيل وكان اسمه هريرا وكان يثق به وبشجاعته وبراعته وليس فى عينيه الفرسان شيئا ، فلما رأى الصحابة وهم أربعون قفز إليهم وهو لابس لامة حربه وطلب البراز فخرج اليه ضرار بن الأزور وحمل عليه فطعنه فقتله وحمل على عسكر دمياط فالجأهم الى حيطان البلد وهو كأنه النار فى الحطب فاستعاذ منه الجيش . ثم ان خال الملك وكان اسمه الهامرك اجتمع بأرباب دولته وقد صعب عليه قتل ولده وكان عندهم حكيم يثقون به وبرأيه ويعتمدون على عقله فأحضروه ، وقالوا له أيها الحكيم العالم ماالذى تشير به علينا فى أمر هؤلاء العرب ؟. فقال : أيها الملك ان جوهر العقل لاقيمة له وماستضاء به أحد الاهداء الى سبيل نجاته وقاده الى معالم مصالحه ، وهؤلاء القوم لاتذل لهم راية ولاتلحق لهم غاية قد فتحوا البلاد وأذلوا العباد واشتهر أمرهم ، وعلا ذكرهم ، وفشا خبرهم ، وعلت كلمتهم ، وطافت الأرض دعوتهم ، فماأحد يقدر عليهم ، ولايصل اليهم ، ومانحن بأشدّ من جيوش الشام ولاامنع بلدا وهؤلاء القوم قد أيدوا بالنصر وغلبوا بالقهر وان الرحمة فى قلوبهم فعاهدهم فماعاهدوا عهدا وخانوا وماحلفوا يمينا فكذبوا وقد بلغك ماهم عليه من الدين والصيانة ، والصدق والأمانة ، والرأى عندى ان تصالحهم لتنال بذلك الأمن وحقن الدماء وصون الحريم ودفع الأمر العظيم ونكون قد صالحناهم ودفعناهم بشىء من مالنا . قال فلما سمع الهامرك ذلك من الحكيم أمر بضرب عنقه فلما عرف الحكيم أن المنية قد غشيته قال : اللهم انى برىء مما يشركون بك لاشريك لك ولا ولد لك ولاصاحبة لك ، وأنا أشهد أن لاإله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . قال فلما سمع الهامرك كلامه ضربه فقتله وأمرهم بأن يأخذوا على أنفسهم للحرب ، فلما كان الغد خرجوا الى ظاهر دمياط ونصبوا خيامهم . قال وكان للحكيم ولد ورث فضائل أبيه ، وكان فيه فطنة وعقل وتدبير . فلما قتل أبوه أظهر الفرح والدعة للملك الهامرك ، وقال لقد أراحنى الملك منه ومن شره فبلغ الهامرك ماقاله ابن الحكيم فأرسل اليه وخلع عليه وطيب قلبه ، فلما كان الليل قال والله لآخذنّ بثأر أبى من هذا اللعين ومن أولاده ، وكانت داره ملاصقة للسور فنقب نقبا واسعا وخرج منه وقصد الصحابة ، فلما رأوه قالوا له من أنت ؟ . قال ان أبى قد قتل من أجلكم وقد نقبت نقبا وخرجت منه فقوموا على بركة الله وعونه حتى تملكوا المدينة منه . فقال له ضرار ياويلك ، وان الذى بعثك بهذه الحيلة أراد قتلك أماعلمت ان الحذر شعارنا واليقظة دثارنا وهم بقتله . فقال له المقداد أمهل ياضرار وفقك الله الى الخير ووقاك الألم والضير . ثم قال المقداد انى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وهو يشير الى شخص بين يديه وكأنما يقول على زى هذا الغلام ، وكأنما أتأمل الى هذا الغلام فرأيته على ماهو عليه الآن وكان على وسطه منطقة من الأديم وفيها جلاجل فضة وهى تحت أثوابه . ثم ان المقداد . قال ياغلام اكشف عن أثوابك

فكشف عن أثوابه واذا المنطقة بعينها ، فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام المسلمون فصافحوه ومضى الغلام أمامهم الى أن دخل بهم النقب ووسعوه بأيديهم حتى دخلت خيولهم . ثم ردوا الحجارة والطين والبناء على حاله وأعمى الله أبصار القوم عنهم ، فلما كان الغد نظر أعداء الله فلم يروا للصحابة أثرا ولا خبرا فضجوا بكلمة كفرهم وماجوا وقالوا هربت العرب ووقع الصائح فى العسكر فظهر أهل البلد ليقفوا على صحة الخبر ولم يبق فى البلد سوى النساء والأطفال . قال ابن اسحق وكان للحكيم بنوعم ثمانون رجلا وان ولده طاف عليهم بالليل وأعلمهم بما فعل فأقبلوا معه وأسلموا عن آخرهم ، فلما كان الغد وخرج كل من فى البلد بادر بنوعم الحكيم واخوته الى الأبواب فأغلقوها وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير فوقعت الجدة على النساء والصبيان واستوثق القوم من المدينة بالثمانين رجلا فأمسكوهم الأبواب وخرج الصحابة رضى الله عنهم ورفعوا أصواتهم يكبرون ويدعون الله عز وجل ، فلما نظر لهم أهل البلد علموا أنهم قد ملكوها وأن الذى فعل ذلك بنوعم الديرجان الحكيم وقد أغلقوا الأبواب وقفلوها وملكوا السور ، فوقف الملك ينظر الى مافعله الصحابة وعلم أن المدينة أخذت منهم وكان فى أولاده ولد عاقل لبيب كامل الذات والصفات وافر العقل وكان منذ نشأ يتبع العلماء ويجالسهم ويطلب العلم ومنذ ملك عقله ماأكل لحم خنزير ولا كشف ذيله على محرم ولاسجد لصورة ولاالصليب ، وكان همّ أن يبنى صومعة وينفرد فيها فلم يمكنه أبوه من فرط محبته له وكان لايستطيع فراقه وهذا الغلام اسمه شطا وكان يحب أن يسمع أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبحث عنها ، فلما نظر الى الصحابة وقد ملكوا منه البلد وشطا عن يمين أبيه نظر شطا الى الصحابة والى زيهم والى نور الايمان وهو ساطع منهم . قال فشخص شطا نحو السماء ببصره وصاح وسقط عن قربوس فرسه بوجهه . قال فارتاع أبوه وجميع عسكره من تلك الصيحة ، فلما أفاق قال له أبوه يابنى ماوراءك ؟ . قال ظهر والله الحق وبان وقد تبينت لى حقيقة الايمان ، وقد نظرت الى عسكر هؤلاء العرب وعليهم نور عظيم ومعهم رجال عليهم ثياب خضر وهم على خيول شهب وبينهم قبتان معلقتان فى الجوّ بلا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وفيها رجال مارأيت أحسن من وجوههم ، ولاشك أنهم الشهداء ورأيت فى احدى القبتين حورا لو برزن لأهل الدنيا لماتوا شوقا ، اليهن وان الله تعالى ما كشف عن بصرى وأرانى ذلك الاوقد أراد لى الخير ، وما كنت بالذى بعدهذه الرؤيا أبقى على الضلال ولاأتبع المحال ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وحرك جواده وقال : من أحبنى من رجالى وغلمانى فليتبعنى . قال فتبعه من القوم ألف رجل ولحقوا بالصحابة وألقوا سلاحهم وأعلنوا بكلمة التوحيد . قال فلما نظر البامرك الى مافعل ولده شطا . قال والله مافعل ولدى شطا ذلك الاوقد رأى الحق ولست أشك فى عقله ودينه . ثم انه أسلم ولحق بولده ، فلما نظر أرباب دولته ذلك ، قالوا اذا كان الملك وولده قد أسلما فارقونا نحن فأسلموا جميعا على يد صحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا المدينة ، فمن أسلم تركوه ومن أبى أخرجوه الى بلاد الأرياف . قال وفتح المقداد النقب الذى دخلوا منه وأسس بينائه بابا فسماه باب اليتيم وهو ابن الحكيم وترك عندهم المقداد رجلا من الصحابة يعلمهم شرائع الاسلام وهو يزيد بن عامر رضى الله عنه ورجع المقداد وأصحابه

الى اسكندرية وحدثوا عمرا بمافتح الله عليه من دمياط ففرح بذلك وكتب كتابا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بفتح مريوط والاسكندرية ودمياط ورشيد وفوة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهور وابيار والبحيرة و بعث الكتاب مع عامر بن لؤى .

ذكر فتح جزيرة تنيس

قال حدثنى زياد عن حميد الطويل عن يونس بن الصامت عن نصر بن مسروق . قال: لما فتحت دمياط وكان من أمرها ما كان . قال الهامرك لولده : يابنى ان الله قد أنقذنا من نار الجحيم وقد هدانا الى الصراط المستقيم وذلك لسابقة سبقت لنا فى القدم ، وهذه تنيس بالقرب مناوهى جزيرة ولا يمكن التوصل اليها إلا فى المراكب ، والصواب أننا نكاتب صاحبها أباثوب وندعوه الى الله والى دين نبيه . فان أجاب والا قصدناه والله ينصرنا . فقال شطا هذا هو الرأى وأنا أكون الرسول اليه بنفسى . فقال يابنى اعزم على بركة الله وعونه . قال فركب شطا فى مركب وأخذ معه أربعة من غلمانه الخواص ، فلما نظر يزيد بن عامر الى ذلك . قال وأنا أسير معك الى صاحب تنيس . فانه لوسألك عن ديننا ومعالمه لم يكن عندك به علم بأن تكلمه ونحن بحمد الله مافينا من يتكبر ولامن يتجبر وماطلبتنا الاالآخرة والعمل بمايقربنا الى الله . ثم سار معه يزيد ابن عامر صاحب رسول الله ﷺ حتى وصلوا الى جزيرة تنيس وفيها رجال يحفظونها ، فلما نظروا الى شطا وغلمانه و بينهم رجل بدوى . قالوا من أنتم . قال لهم شطا أنا ابن الملك الهامرك صاحب دمياط ومعنا هذا الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ وقد جئنا كم رسلا . قال فأرسلوا منهم واحدا يستاذن لهم فاذن لهم أبو ثوب . قال فنزلوا فى الزورق واذا به قد أرسل لهم دواب ليركبوها فامتنع يزيد من الركوب ووافقه شطا على ذلك وساروا كلهم رجالا الى أبى ثوب فاستأذنوا عليه فأذن لهم ، فلما دخلوا قصر أبى ثوب واذا به فى حشمه وخدمه وزينته والحجاب والغلمان بين يديه وهو فى مرتبة امارته ، وكان قد تكبر وتجبر منذ نزل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصر ومنع المال والخراج أن يؤديه للمقوقس وولده ، وقد اجتمع عنده مال عظيم ، فلما دخل عليه يزيد صاحب رسول الله ﷺ وشطا وغلمانه ونظروا الى أبى ثوب وغلمانه وتجبره بدأ يزيد بالسلام ، فقال السلام على من اتبع الهدى — انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى —

[قال الواقدى] حدثنا ابن سالم عن جرير بن أحمد عن أبيه عيينة عن ابن جرير وكان أعلم الناس بقصة فتوح مصر والمغرب . قال : كان أبوثوب هذا من أرض العريش من متنصرة العرب من آل غسان ، وهو قريب جبلة وكان صاحب مال ورجال ، وأنه لما وقعت الهزيمة على الروم وفتح الشام وانهزم الملك هرقل وهرب معه جبلة هرب معهم أبو ثوب هذا بماله وأهله واخوته الى أرض الجفار ونزل فى البرّية مابين العريش ورفح ، وأن المقوقس خرج فى بعض الأيام يريد الصيد فى عسكره فانتهى فى سرحته الى أرض العريش ، فانطرد قدامهم وحش كبير فطلبه الملك وتبعه ولم يتبعه أحد من عسكره وهو وراءه وحده الى أن رماه فى حلل العرب فى حلة أبى ثوب ، فقام اليه وعظمه وبجله وعلم أنه الملك فأمسك ركابه وأنزله فى بيته وذبح له

الأغنام ووضع له الطعام وتلاحق الجيش . قال فأضافهم أبو ثوب ثلاثة أيام ، فلما كان فى اليوم الرابع ، وركب فى خدمة الملك وشيعه وعاد ، فلما دخل المقوقس الى مصر أمر وزيره بأن يكتب الى أبى ثوب بولاية تنيس وأعمالها وأرسل له الخلع والأموال والمماليك والغلمان ، فلما وصل اليه منشور الملك وخلعه فرح أبو ثوب وركب وسار الى الفرمة وركب منها فى المراكب الى تنيس ، فلما مكث فى ولايته بعث الى أهله وإخوته فأتوا اليه ، فولى أخاه أباسيف على جزيرة الصدف وولى أخاه الثانى أباشق على جزيرة الطير ، وولى ولده على دنيوز ، فلما طال عليه الأمر طغى وتجبر ومرت الأيام والليالى حتى قدم أصحاب رسول الله ﷺ الى أرض مصر فمنع دفع الخراج الى مصر وإلى المقوقس وولده ورأى نفسه فى تلك الجزيرة فتحصن بها وقال ماأحد يقدر أن يصل الى ، فلما قدم شطا ويزيد بن عامر ونظر اليهم أبو ثوب أظهر الاعجاب والتكبر ولم يلتفت اليهم ولم يجسر أحد من جماعته أن يأذن لهم بالجلوس ، فلما نظر إلى ذلك يزيد بن عامر قرأ — إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين — وجلس الى جانبه شطا ، ونظر يزيد إلى سرير أبى ثوب فاذا هو من الذهب وفيه صورة النخلة ومن تحتها صورة مريم والمسيح فى حجرها فقرأ — فناداها من تحتها أن لاتحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر أحد فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا الى قوله انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا — . قال فلما سمع أبو ثوب كلام يزيد ، التفت اليه بغضب وحنق وقال : ماهذا الكلام الذى نطقت به ؟ قال يزيد هذا كلام الله جل جلاله الذى أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذى لاتفنى عجائبه ، ولاتنفد غرائبه ، ولاتبدل كلماته ، ولاتمل آياته . فقال مامعنى الذى ذكرت ونطقت به ، وماتفسيره ؟ فقال يزيد : أماقول الله إخبارا عن عيسى حين قال : إنى عبد الله فانه يعلم الخلق أنه عبد الله وليس بولد ، جل الواحد الأحد الفرد الصمد . وأما قوله آتانى الكتاب فمعناه أعلمكم الأحكام وأعرفكم الحلال والحرام ، وأما قوله وأوصانى بالصلاة والزكاة فمعناه إنى مأمور بالطاعة والخدمة والزكاة مثلكم فان فى مالى حقا لله ، وأما قوله : والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت فيعلمهم أنه يموت ، ومن يموت لايكون له العزة والجبروت ، وأماقوله ويوم أبعث حيا ، فيعلمهم أنه وإياهم مبعوثون فى يوم القيامة وقوف يوم الحشر والندامة ، ولوكانا إلهين لكان لهما ارادتان ووقع الخلف بينهما ، وإن الحكمة غير ذلك ، وهى على وحدانيته شاهدة . قال فلما سمع أبو ثوب من يزيد بن عامر هذا المقال ، قال : لقد ملئتم بالأباطيل وغرقتم فى بحر الأضاليل . فقال يزيد الله أعلم من هو تائه فى تيه المحال مشرك بالملك المتعال ، الذى لاسماء تظله ولاأرض تقله ، ولاليل يؤويه ولا نهار يأتيه ، ولاضياء يظهره ولا ظلام يستره ، ولايقهره سلطان ، ولايغيره زمان ، كل يوم هو فى شان ، أما لكم بصائر أمامكم من ينظر ويعتبر فى قدرة الله القادر ؟ امامنكم من يعظ نفسه بذهاب النهار وإقبال الليل ؟ اما آن لكم أن تنزهوه ؟ أما آن لكم أن توحدوه ، أماسمعتم بمن تعبدونه ، وتبرءون اليه وتعظمونه ؟ فان المسيح قد أقر له بالعبودية وتبرأ من دعوى الربوبية ، وقال إنى عبد الله ، ولقد بشر بنبينا قبل

مبعثه وعرّف بنى اسرائيل بقربه من الحق وكرامته ، أما سمعتم بمعجزاته ، وما ظهر من دلالاته أما انشق له القمر ؟ أما كلـه الضب والحجر ؟ أما خاطبه البعير والشجر ؟ أماهو من أطيب بيت من مضر ؟ قال فعجز أبو ثوب عن رد الجواب ، ولم يكن له مايزيل حجته الا أن قال ليزيد بن عامر : لقد علمنا مافعل ، ولـكنه كان ساحرا ، وإن كان قولك هذا حقا ، فادع الله وتوسل اليه بمحمد أن يسقينا الغيث ، فان جاء الغيث علمنا أن قولك ليس فيه شـك ، ونؤمن بالله ونصدّق برسالة محمـد ﷺ . قال يزيد بن عامر : ان الله يقدر على ماذكرت ، فان الله على كل شيء قدير ، ان العبـد المخلص اذا دعاه أجاب دعوته ، ولـكنه يفعل مايشاء ، وأنا أتوسل الى الله بخـير خلقه وصـفيه وهو الفعال لما يريد ، ثم ان يزيد قام وخرج من مجلس أبي ثوب . فقال له الى أين ؟ . قال : أدعو الذى لوشاء أنزل عليـكم رجزا من السماء ، ثم قرأ — بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله ومالهم من ناصرين —

قال حدثنا عاصم عن رويم عن ابن جبـير قال : إنما طلب أبو ثوب الغيث واقتصر عليـه لأنه كانت له مزرعة بالبعد من النيل ، ولا يقدر أن يسقيها ولا يصل اليها ماء ، وكانت قد أشرفت على الهلاك واليبس ، وكانت منه ببال ، وكان قد غرس فيها من جميـع الثمار والأشجار وصنع لها مصانع تمتلئ بماء المطر فيسقيها وقت الحاجة اليها ، وكان المطر قد أمسك عنها والمصانع نشفت ، فلما خرج يزيد الى البحر توضأ وصلى ركعتين ، ثم رفع رأسـه نحو السماء وقال : اللهم انك قد أمرتنا بالدعاء ووعدتنا بالاجابة ، فقلت وأنت أصدق القائلين — وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان — وقد دعوت كما أمرت ، فاستجب كما وعـدت ياذا المعروف الذى لاينقطع أبدا ولا يحصيه غيرك . قال ابن جبير : لقد بلغنى ممن أثق به أن يزيد بن عامر مابرح يدعو حتى ارتفع السحاب من الجوّ ووقف وقفة الخاضع ، ورفع جناح السائل المتواضـع وارتفعت سحابة وتألقت ، والرعـد يصول حولها صولة الغاضب ، وهو لها بصوت البرق يزجر بصلصلة وقعقعة وهرير وهو على ذلك سـيره ومسـيره ، وقد أحاطت بالسحابة ملائـكة الرحـمة متمنطقة بنطاق الخـدمة يسوقونها من خزائن رحمتـه ، ويجذبونها بأزمة القهر الى ملك أيديته وهو واضع أجنحة عبوديته ، موسوم بوسم — يسبح الرعد بحمده والملائـكة من خيفته — ، والركام يسرى ويسرع إسراع الوجل يسبح من يسجد لجلاله — فترى الودق يخرج من خلاله — فاذا هى أشرفت وتـكاملت بالماء ووسقت ، والبروق من أركانها قد انشقت ، وهبت عليها رياح قدرته من مواضع خزائن رحمته — وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته — فعندها تفتح مغاليق أبوابها وترفع سـتر حجابها فهمت بدموع أشجانها على أيدى خزانها ، فتستبشر الأرض عنـد ورودها وتنتظم عقود الزهر عند ورودها فى جيد وجودها ، وتخرج كنوز ذخائرها — فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها — . قال ونزل المطر يسكب بقية يومهم وليلتهم ، فلما كان من الغد حضر يزيد بن عامر مجلس أبي ثوب وقال له : كيف رأيت صنع الله الصانع المتكفل بأرزاق العبيد . قال فضحك أبو ثوب ، وقال ان سحركم لعظيم وان مـكركم لجسيم وإن سحركم يفعل أكثر من هذا . فقال إنما ذلك رحمـة من الله ، قد أبرّ من أقسم باسمه عليه ، فلما رأى نزول المطر وظهرت بركات صاحب رسول ﷺ قال على سبيل المكر : الآن تحققت أن دينـكم الحق

وقولكم الصدق وأنا مؤمن بالله ، ومصدّق برسالة رسول الله ﷺ وسوف أعرض دين الاسلام على أهل جزيرتى وأصحابى وأهلى ، وأبنى المساجد وآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر . فقال يزيد ان أنت فعلت ذلك رشدت ، و إن نافقت فان ربك لبالمرصاد ، ثم خرج من عنده هو ومن كان معه شطا وغلمانه ومضوا الى دمياط الى الباصرك وحدثوه بما كان من أبى ثوب . فقال والله لقد خدعكم بخديعته ورماكم بسهم مكيدته . فقال يزيد بن عامر — ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين — فما لبثوا أياما قلائل حتى وصل الخبر أن أبا ثوب جمع من سائر الجزائر وهو قادم عليهم ، فلما سمع الباصرك بذلك قال ليزيد بن عامر : ماالذى ترى من الرأى فى أمر هذا العدوّ ؟. فقال يزيد نستعين بالله ونتوكل على الله ، ومن قاتلنا قاتلناه .

[قال بن اسحق] و إن الباصرك أرسل ولده شطا الى البرلس ودميرة وطناح ومن تحت يده يطلبهم فجاؤا من كل جهة ، وكتب يزيد الى عمرو بن العاص يعلمه أن أبا ثوب قد جمع الجموع ، فلما وصل اليه الكتاب أرسل اليهم هلال بن أوس بن صفوان بن ربيعة أحد بنى لؤى ومعه ألف فارس وأمره بالمسير الى دمياط ، وذلك فى العشر الأول من شعبان سنة عشرين من الهجرة ، وكان لعمر بن الخطاب فى الخلافة أربع سنين ونصف . أما ما كان من أبى ثوب ، فانه لما نفر اليه العساكر أخرجهم بظاهر تنيس ، فكانوا عشرين ألفا من الرجال ، ومن الخيل خمسمائة فارس من القبط ومتنصرة العرب وعداهم فى المراكب وأتوا نحو دمياط فخرج شطا بن الباصرك فقتل رجالا وجندل أبطالا ، و إنه اشترى الجنة من الله بنفسه ، ولم يزل يقاتلهم بقية يومه ، ثم إنه عاد من قتال اللئام الى الصلاة والصيام ، ولم يزل على قدم الخوف والوجل وهو منكس الرأس من الخجل من الله تعالى عزّ وجل ، فلما مضى أكثر الليل وطلع نجم سهيل اضطجع ، فلما كان وقت الغلس وقرب الصبح وتنفس استيقظ شطا وهو باكى العين . فقال له أبوه : يابنىّ ماالذى أبكاك ؟ فقال رأيت شيئا فى منامى أبصرته وسمعت منه كلاما وعاينته وحفظته وحررته ، والدنيا هى طالق وانى بعون ربى واثق ، ولا شك أنى لك مفارق . فقال أبوه أعوذ بالله يابنىّ ماهذا الكلام ؟ ولعل ذلك أضغاث أحلام . فقال لا والله ماهى أضغاث أحلام لكنه أمر من الملك العلام الذى أجرى الاقلام وخلق الضياء والظلام وبعث سيد الانام بشرائع الاسلام ، وانى رأيت فى منامى كأن أبواب السماء قد فتحت ، وأنوار الهداية قد سطعت ولمعت ، ثم تفتحت أبواب السماء الثانية ، ثم رأيت ملائكتها سجودا على جباههم لايقومون وركعا لاينتصبون وقياما من هيبة ربهم لايقعدون و باكين لاتجف لهم دموع ، ثم كذلك رأيت سماء بعد سماء الى السماء السابعة ، ثم رأيت قبة من زمرد أخضر وفيها قناديل من الجوهر وهى تسرج من الأنوار وتوقد من غير نار وفيها أربعون حوراء عليهنّ حلل مارأيت قط مثلها ولا أبصرت شكلها بوجوه تفتن الانس وفى أرجلهنّ نعال الياقوت الأحمر يطأن بها على النمارق والزرابىّ ، فصاحت بى إحداهنّ وهى كبيرتهنّ ، وقالت يامفتونا بدار الدنيا : أما آن لك أن تذكرنا فقد خلقنا الله لك منذ خلقك ، وجعل مهرنا منك الجهاد فى مرضاة رب العباد ، وقد ألفت الجفاء ، وما هكذا صنع أهل الوفاء ، انظر الى ماأعدّ لك وللشهداء ، قال فنظرت واذا بقباب معلقة حيث لايدرك لها نهاية بعدد النجوم وقطرات الغيوم ، وقد نفد الميقات ، وانقضت الساعات

والاوقات ، فتيقظ فى المنام وارحل الى دار السلام ، وقالت : فى كل قبة مثل مارأيت ، فقلت : ماهذه القباب ؟ . فقالت : هذه قباب قوّام الليل والشهداء يأوون اليها فى جنة المأوى ، ثم انها جعلت تقول :

أنت يامفتون دوما — فى الدنا ثم المنام
فدع النوم وبادر — مثل فعل المستهام
وابك بالوجد دواما — بدموع وانسجام
ثم نح ياذا كثيرا — فى نهار وظلام
أيها اللائم دعني — لست أصغى للملام
فى عروس قد تبدّت — فاقت البدر التمام
طرفها يرشق باللحظ مصيبا كالسهام
ولها صدغ منير — مثل نون تحت لام
أحسن الأتراب قدّا — فى اعتدال وقوام
مهرها إن قام ليلا — وهو باك فى الظلام
ياعمادى ورجائى — ومنائى والمرام
فاستمع منى قولى — ثم فكر فى النظام
وغدا بادر لحرب — والى ضرب السهام
مسرعا تأتى الينا — بعد ترحال الظلام

فقال أبوه : اعلم ياولدى أن من المنام مايصدق وما يكذب فلاتشغل نفسك بما رأيت . فقال لاوالله ياأباه مابقى لى فى الدنيا طمع ولم يزل باقى ليلته يبكى ويتضرّع ويقوم على أقدام الخشوع ويخضع وأجفانه بالدوام تدمع الى أن أصبح الصباح وأشرق بضيائه ولاح فودع شطا أباه وأهله وخرج الى الحرب فتعلق به أبوه وقال له يابنى بحق عليك لاتبلنى بفراقك . فقال شطا دع عنك العتاب ، فقد قرب لقاء الأحباب ، فعندها قامت على أبيه المواسم وانهل الدمع الساجم ودنا الفراق وقامت الاشواق وجرى دمع كل عين وأقبل البامرك يودع ولده ويقول يابنى ان صح منامك وضربت فى دار السلام خيامك فاذكرنا بحسن طريقة الوفا وأقرئ سلامى على النبى المصطفى ، فبرز شطا الى مقام الحرب ودعا للبراز فخرج اليه واحد فقتله وثان وثالث حتى قتل اثنى عشر فارسا .

[قال ابن اسحق] فلما رأى أبوثوب مافعل شطا بفرسانه لم يطق الصبر دون ان خرج اليه بنفسه وكان من الفرسان المذكورة ، فلما سار شطا فى الميدان قال له ياشطا كيف تركت الدين المستقيم وعدلت عنه وصغيت الى هؤلاء اللئام واتبعت دين الاسلام ، لقد عمل فيك القوم واستوجبت العتب واللوم يافتى عد الى الدين الصحيح والقول الرجيح وهو دين المسيح فأى شىء رأيت من هؤلاء المساكين حتى تبعت دينهم ، فلما سمع شطا كلام أبى ثوب أقبل عليه مغضبا وقال له يالئيم أتأمرنى أن أدع الدين المستقيم الذى كان عليه الخليل والكليم ، وأنى لى بذلك وقد رأيت الليلة مالى من الكرامة عند الله ، وقد طلقت الدنيا ثلاثا ، فلما سمع أبوثوب كلامه حمل عليه ومدّ سنانه اليه فتلقاه بقلب قوى وجنان جرى وعزم مضى وحسام سرى وتقاتلا نصف نهار فعطش شطا فأراد الله أن يطيب قلبه فكشف عن بصره فرأى القبة التى رآها فى المنام والحوراء التى أنشدته الأبيات وفى يدها كأس من شربها لايفنى ولايسقم وفيه من الرحيق المختوم ، وهى تقول ياشطا هذا شراب من شرب منه لايسقم ولا يفيق والساعة تصل الينا وتقدم علينا . قال فلما نظر شطا الى ذلك وسمع منها ماقالت صاح الله أكبر — هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون — وأخذه الدمع والبكاء خوفا من الله . فقال له أبوثوب مم بكاؤك ؟. قال رأيت كذاوكذا فضحك أبوثوب من كلامه وحمل عليه فتقاتلا قتالا شديدا أعظم من الأوّل الا أن أباثوب سبق

شطا بطعنة فى صدره فأطلع السنان من ظهره فخر صريعا ، فلما نظر الباصرك الى ولده مطروحا لم يأخذه صبر دون أن حمل عليه هو وأصحابه . قال وأظلمت آفاق تلك الأرض من الغبار وترادف القتال فوقعت الهزيمة على الباصرك وأصحابه فالجأهم الى أبواب دمياط وطمع فيهم عدوّ الله أبو ثوب وإذ قد أتاهم هلال بن أوس بن صفوان بن ربيعة فوضعوا أيديهم فى أبى ثوب وأصحابه وهم ينادون بالتهليل والتكبير وتحامى أصحاب الباصرك وحملوا من قبلهم . قال : وأما أبو ثوب وأصحابه فانهم أيسوا من أنفسهم قال فهم فى ذلك اذ التقى يزيد بن عامر بأبى ثوب . فقال له ياعدوّ الله أما اتعظت بآيات الله أماظهر لك الحق من أصحاب رسول الله ﷺ ؟ وأطبق عليه فأخذه أسيرا وصاح الصائح أن أباثوب أسر فاستسلم قومه للقضاء فأخذوهم عن آخرهم بعد ماقتل منهم خلق كثير ، ثم انهم عزوا الباصرك فى ولده شطا . فقال احتسبته عند الله . فقال له يزيد بن عامر ان فى الجنة درجات لاينالها الا الصابرون قال الله تعالى — وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون — .

[قال ابن اسحق] ودفنوا شطا فى ثيابه بعد ماصلوا عليه ودفنوه فى موضع قتله . قال فلما كان الغد أقبل الباصرك الى يزيد بن عامر ، وقال رأيت الليلة ولدى فى النوم وهو فى القبة والحور بين يديه . فقلت مافعل الله بك قال قبلنى بأحسن قبول وجادعلىّ وأنزلنى بجوار الرسول .

حدثنا ابن اسحق حدثنا عمر بن الأسقع عن جده عامر بن خويلد قال قتل شطا فى ليلة نصف شعبان فجعل له تلك الليلة موسما فى كل سنة ، وذلك انه لما قتل لم يبق أحد إلا زار قبره تلك الليلة ، وإن هلال بن أوس نزل وأحضر أباثوب وعرض عليه الاسلام فأسلم وأسلم من الاسرى أناس وأبى منهم أناس وبقوا على دينهم وقرروا عليهم الجزية ودخل المسلمون فى المراكب الى تنيس وبنوا موضع الكنيسة جامعا وبنوا فى جميع الجزائر جوامع ، وأخرج أبو ثوب الخمس من ماله وأموال قومه وبعثوه الى عمرو بن العاص مع أموال من قتل وان هلال بن أوس نزل على التل الأحمر بظاهر تنيس وأقر أهل الجزائر فى أماكنهم . فقالوا أيها الامير قد أمنتنا من جانبك وبقى علينا الخوف من جانب آخر . قال هلال من أين ؟ قالوا من أصحاب القلعة المسماة الفرماء . قال وأين هى قالوا على جانب بحيرة تنيس مما يلى شرقها وفيهم أقوام وعليهم الصامت ابن مرة من آل مرداس ، فلما سمع هلال بن أوس ذلك مضى اليها بجميع من معه ، فلما وصلوا اليها أشرف عليهم الصامت بن مرة وأمر أصحابه أن يرموهم وكان بها ألف رجل وغالبهم رماة النبل فرموا عن قوس واحد ألف سهم فسمعتها العرب من الفرماء فأقام عليها هلال بن أوس عشرين يوما فلم يقدر عليها فبعث الى عمرو يعلمه بما وقع ويستنجده فأرسل اليه المقداد ابن الأسود الكندى فى خمسمائة من عسكر الاسلام وأرسل معه ثلاثة آلاف ممن أسلم من القبط .

ذكر فتوح الفرماء والبقارة والقصر المشيد

قال فلما نزل المقداد على الفرماء تأهب أهلها للقتال فنزل بالصامت بن مرة مانزل به فعلم أنه بيد القوم ، لأنه ليس له ناصر ولامعين فصالح المقداد على أن يؤدى لهم أربعة آلاف مثقال من الذهب وأربعمائة ناقة وألف رأس من الغنم وأن يمهلوه الى تمام السنة فان شاء دان الى الاسلام

والا ارتحل بأمانه ، فأجابه المقداد الى ذلك وارتحل المقداد وهلال بن أوس ونزلوا على البقارة وكان عليها الباقر بن الأشرف فأسلم هو ومن معه ومضوا الى القصر المشيد ففتحوه صلحا ثم ارتحلوا ونزلوا على الوردة وكان اسمها الواردة فسلمها أهلها وارتحلوا الى العريش فصالحهم أهلها وكذلك أهل رفح و بيدا ومياس ونخلة وعسقلان .

[قال ابن اسحق] حدثني يوسف بن عبد الأعلى قراءة عليه بجامع الرملة سنة مائتين وعشرين من الهجرة . قال حدثني موسى بن عامر عن رفاعة عن جده عبد العزيز بن سالم عن أبي يعلى العبدى عن طاهر المطوعى عن أبي طالب الفشارى عن وهبان بن بشر بن هزان قال سمعت الشرح كله من محمد بن عمر الواقدى وهو يومئذ قاضى بغداد فى الجانب الغربى .

ذكر فتوح ديار بكر وأرض ربيعة

حدثنا عدنان بن يحيى الحرثى عن معمر الجونى ومن طريق آخر عن ابن عمير التيمى والابتداء عن المهلب وطلحة ومحمد قالوا جميعا أومن قال منهم انه لما فتح الله الشام على يد أبى عبيدة عامر بن الجراح وعلى يد خالد بن الوليد وفتح أرض مصر على يد عمرو بن العاص بن وائل السهمى كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة يقول له : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله عمر أمير المؤمنين الى عامر بن الجراح سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ . أما بعد : فقد أجهدت نفسك فى قتل الكفار وسارعت الى رضا الجبار ، وقدمت لك ما تجده يوم عرضك ولم نر منك يوما معرضا عن أداء فرضك وقت بسنة نبيك وجاهدت فى الله حق جهاده تقبل الله منا ومنك وغفر لنا ولك ، فاذا قرأت كتابى هذا فاعقد عقدا لعياض بن غنم الأشعرى وجهز معه جيشا الى أرض ربيعة وديار بكر وانى أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يفتحها على يديه وأوصيه بتقوى الله والجهاد والاجتهاد فى طاعته ولا يلحقه التوانى فى الجهاد ويتبع سنن المؤمنين المجاهدين وما أمر به سيد المرسلين مما أنزل عليه رب العالمين يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته . ثم كتب كتابا آخر الى عياض بن غنم بالولاية والمسير الى أرض ربيعة الفرس وديار بكر . قال و بعث بالكتاب مع ساعدة بن قيس المرادى وزوّده من بيت مال المسلمين وأمره بالمسير فسار الى أن ورد على أبى عبيدة فى طبرية فسلم اليه كتاب عمر وسلم الكتاب الثانى الى عياض بن غنم الأشعرى ، فلما قرأه أبو عبيدة قال السمع والطاعة لله ولأمير المؤمنين وهيأ عياضا بمسيره الى الجهاد وعقد له عقدا على ثمانية آلاف منهم ألف صحابى من جملتهم خالد بن الوليد والنعمان بن المنذر وضرار بن الأزور بن سابق وضمرة وعمرو بن ربيعة وذو الادغار بن قيس والحكم بن هشام واليسع بن خلف وطلحة وعامر بن بهرام والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر وعبد الله بن يوقنا وكانوا قد قدموا على أبى عبيدة بعد فتوح مصر وكان قدومهم فى شهر شوّال سنة ست وعشرين من الهجرة وسار عياض بن غنم من طبرية فى ثمانية آلاف يريد الجزيرة وعلى مقدمته خيل سهل ابن عدى فلم يزل سائرا حتى نزل على بالس وكان خالد قد فتحها صلحا فأقام عليها وسرح سهيل ابن عدى الى الرقة فنزل على حصارها وكان عليها بطريق اسمه يوحنا وكان من قبل صاحب

رأس العين ، وكان قد استعد للحرب وعبى آلة الحصار ، فلما رأى أهل الرقة أن صاحبهم معوّل على الحصار اجتمع بعضهم ببعض وقالوا : أى شيء أنتم بين أهل الشام وأهل العراق ولامقام لكم بين يدى هؤلاء القوم قال فمشوا الى عياض بن غنم بالصلح فرأى أن يقبل منهم فبعث الى سهيل بن عدى أن يصالحهم على ماوقع عليه الاتفاق وارتحل عياض بن غنم عن بالس ونزل على الرقة البيضاء ، وفى ذلك قال سهيل بن عدى :

وصادفنا الغزاة غداة سرنا ... بجود الخيل والأسل الطوال
أخـذنا الرقة البيضاء لما ... رأتنا الشهب تلعب بالتلال
وأزعجت الجزيرة بعد خفض ... وقد كانت تخوف بالزوال
سنقصد رأس عين بعد حين ... أجد بحملتى جيش الضلال
وقصدك ياسهيل تبيد جيشا ... وتقتل فى البطارق لاتبالى
فنحن أولو التقية والمعالى ... ونحن الصابرون لكل حال
صحابة أحمد خير الموالى ... رقى العلياء والرتب العوالى
الى رب السماء دنا علوّا ... وخاطبه شفاها بالمقال

ذكر فتح القلعتين : زبا وزلوبيا

[قال الواقدى رحمه الله ورضى عنه] لما فتحت الرقة صلحا عول عياض بن غنم على المسير الى رأس العين وكان يملك يومئذ الجزيرة ملك من ملوك الروم يقال شهرياض بن فرون وكان جيشه مائة ألف وتحت يده وفى عماله من العرب المتنصرة السلطان بن سارية التغلبى وهبيرة وهم ثلاثون ألفا من الأبطال وانهم لما اتصلت بهم الاخبار بفتح الرقة وان المسلمين قاصدون اليهم مع عياض بن غنم وخالد والمقداد أتوا الى الملك شهرياض برأس العين وقالوا له اعلم أيها الملك ان أصحاب محمد ﷺ قد أتوا ديارنا وقصدوا نحونا ، ونحن علينا الطلب أكثر منكم ومطلب القوم أننا ندخل فى دينهم فاضرب خيامك بظاهر البلد واظهر بجيشك حتى نلقاهم فاما لنا ، واما علينا فأجابهم الى ذلك وقال غير أنى أخاف أن تنهزموا عنى فأعطوا رهائن واستوثق منهم ورتب آلة الحصار وأخرج الخزائن والأموال ورتب الحرس على الأسوار ، وزاد فى عمق الخندق وعرضه وأرسل الى جلين وكفر توثا ودارا وماردين وحران والرها وتل موزن والسن والموزر وأقام ينتظر عياض بن غنم .

قال **حدثنا** عبد الله بن أسلم عن عاصم بن عبد الله عن ابن اسحق الأموى عن يزيد ابن أبى حبيب عن راشد مولاه قال لما عوّل عياض بن غنم الأشعرى على المسير الى رأس العين الى قتال الملك شهرياض بعث قبل مسيره أشعث بن عويلم وعبد الله بن غسان الى القلعتين المعروفتين بزبا وزلوبيا . فقال عبدالله يوقنا لعياض بن غنم : اعلم أيها الأمير : أن هاتين القلعتين اللتين ذكرتهما حصينتان منيعتان احداهما من الجانب الشرقى والاخرى من الجانب الغربى وهما كانتا تحت ولايتى وان صاحبهما كان من قبلى وهو أحد بنى عمى واسمه اشفكياص بن مارية كنى باسم أمه وكنت قد زوجته ابنتى فأخذت فى صداقها الحصن الشرقى من الفرات

وقد رأيت أنك تأمرني بالتقدم على هذين الحصنين حتى أحل في القلعة الغربية فان فتحتها كانت الأخرى في قبضتنا . فقال له لله درك ياعبد الله لقد نصحت الاسلام وأهله فجزاك الله خيرا أحسن ماجازى به أولياءه ، سر على بركة الله وعونه فاذا استقر بك المكان ثلاثة أيام أنفذت اليك شعيبا وعبد الله ومن معهما من المسلمين ، و بعد الفتح إن شاء الله تنزلون الينا . فقال يوقنا استعنا بالله وتوكلنا عليه ، ثم انه أخذ معه من صناديد جماعته مائة ولم يأخذوا معهم ثقلا سوى جنيب من الخيل واحد وسار من أول الليل وترك عياض بن غنم على الباسل فجدوا السير بقية ليلتهم فلما كان قبل الفجر أشرفوا على الخانوقة فوجدوا فيها ألفا من الأرمن وهم بالعدة الكاملة ، فلما أشرف عليهم يوقنا ومن معه وهم يتحدثون بلغة الروم أنسوابهم وسألوهم عن خبرهم فقالوا هذا البطريق المعظم يوقنا صاحب حلب قد هرب من العرب وأقبل لنصرة صاحب هذه القلعة ، فلما سمعوا بذلك فرحوا وصفعوا بين يدى يوقنا وأرسل المقدم عليهم خيالا وأمره بالسرعة ليبشر اشفكياص بقدوم يوقنا اليه وهروبه من العرب وانه يستأذن عليه فمضى الرجل وأخبر اشفكياص فأطرق الى الأرض ، ثم قال لوزيره وحق المسيح والانجيل ماجاء الا لينصب علينا و يملك هاتين القلعتين منا كما فعل بطرابلس وصور وماأنا بالذى يأمن ، فما ترى أيها الوزير ؟ .

[قال ابن اسحق] ولقد بلغنى أن هذه الوزير كان من أهل القراءة ، وكان أديبا عاقلا لبيبا ممن قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية وقرأ ملاحم دانيال ، وكان منذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم يسكن فى دير مترهبا وهو مابين السر [٣] وحلب فتعبد فيه زمانا طويلا حتى شاع ذكره بين أهل دين النصرانية ، ثم بعد ذلك أخبر الروم بأنه قد وقع بحافر من حوافر حمار المسيح فكانت الروم ينذرون له النذور والصدقات وشاع خبره وسما ذكره فسمى ذلك الدير بدير حافر وانه فى بعض الأيام خرج من ديره الى مزرعة له هناك ، واذا برجل من البدو قد عبر وهو راكب على ناقة وكان الحر قد اشتد فأوى الى ظل حائط الدير وأناخ ناقته وعقلها ونام والراهب ينظر اليه ، فلما غرق فى نومه أتت حية من مزرعة الراهب وفى فمها باقة نرجس فجعلت تروح عليه حتى استفاق وذلك الراهب ينظر اليه ، فلما أفاق أتى اليه وسلم عليه ، وقال له من أى الناس أنت ؟قال من العرب ،قال الراهب قد علمت ذلك ، وانما أسألك عن دينك قال دينى الاسلام الذى كان عليه أنبياء الله كلهم عليهم أفضل الصلاة والسلام . فقال لعلك على دين هذا الرجل الذى فى أرض الحجاز ، قال نعم .

[قال ابن اسحق] وكان البدوى ورقة بن الصامت الهذلى ابن أخت رواحة الانصارى صاحب رسول الله ﷺ وكان حضر غزوة تبوك وحضر يوم السلاسل ، وكان أديبا لبيبا شاعرا لايتكلم الا بسجع وكان أبوعبيدة قد وجهه لما كانوا فى حصار قلعة حلب الى صاحب الرقة يدعوه الى الاسلام . فقال الراهب وكان اسمه شوجوان بن كربان قد بلغنى أنكم تقولون ماخلق الله خلقا أعظم ولا أكرم ولا أرحم من محمد وتركتم آدم ونوحا وابراهيم واسحق ويعقوب والاسباط وموسى وداود وسليمان وعيسى فأريد أن تبين لى حقيقة ذلك ، فقال ورقة بن الصامت : اسمع ما أقول ولا تتبع الفضول : أما علمت أن عالم الملائكة اجتمعوا بالبيت المعمور ووقع بينهم الجدل

فى تصاريف الامور وافتخر الكروبيون على الروحانيين والمسبحون على المقربين فزاحهم ابليس بدقة عبادته ، ومشيد مبانى زهادته . فقال أنا المخلوق من ضرام النار البارع فى خدمة العزيز الجبار أين أنتم من وقوف على أقدام الاهتمام مائة ألف عام وتعبدى فى السموات وأكنافها وبروجها واعرافها وأوساطها وأطرافها وجبال الأرض وأكنافها ، فعارضه جبريل بالامتحان والابتداء ، وصرفه عن حجة الافتخار والاعادة ، وقال له : ماأنت فى الافتخار الا فى الحضيض المخضوض ان لله نبيا فى عالم الملكوت محجوبا قد طال اشتياقنا اليه ووددنا الخبر فما يريد وجعل نهاية عبادتنا الصلاة عليه فأيقن من المفاخر بالنزول ومن اطلاق شمس ادعائه بالأفول ، وقال رب فهل الى لقائه من سبيل والى الوصول اليه من دليل ، فقال جبريل اقطع مسافة الأمنية وخض بحر الاعتراف بعز الربوبية وثق بحبال العز المكين فانك لخدمة من كوّن من نور التكوين عليه منقوش بقلم التمكين — انك لمن المرسلين — فخلع ابليس لباس العمل واستعمل أجنحة الامل وألقى قلادة الادعاء ونكس تاج الكبرياء واستعد لقوادم الطلب وداخله من قول جبريل غاية العجب ، وجعل همة عزمه تحصيل السبب وحذر من سوء المنقلب ، وقال ياللعجب أنا مع صدق طويتى فى المعاملة والانابة ، وخلوص سريرتى فى طلب الزيادة هل يكون أحد مثلى أو يبلغ درجة فعلى وكيف ذلك واذا رفعت رأسى بالتسبيح أعاين ماحول العرش ، واذا سجدت لعظمة الله أنظر ماتحت الفرش فنودى أتفتخر علينا بجواهر طاعتك وتوفر أسباب بضاعتك ونحن وفقناك لطاعتنا ومعاملتنا وأريناك أطراف أرضنا وسمواتنا من قوّاك على خدمتى من جعلك معلما للملائكتى ، وعزتى وجلالى لولا أحمد ماخلقت ملكا . ولا أجريت فلكا ، ولاأنرت قمرا ، ولا أمضيت قدرا ، ولاأسرجت شمسا ، ولاأقررت عرشا ، ولا بسطت فرشا ، ولاخلقت جنة ولانارا ، ولافجرت أنهار ولابحارا ، ولاجعلت النجوم طوالع ولاغوارب ، ولاالدنيا مشارق ولا مغارب ، ولكن طر بأجنحة عجل فى طلب الايثار حتى يميتك الله بين الجنة والنار ، قال فسار بفلك طلب النجوم على قدم مطايا التفريد حتى اخترق مابين العرش والكرسى واختبر كل جنى وانسى ، وكلما مر بمعنى من المغانى رأى معنى من المعانى ، وذلك أنه لما رأى أصنافا من الملائكة على اختلاف الأحوال من الاجتهاد والطاعة والأعمال وجميع عباد الله الشاكرة موقوفة على خدمة سيد الدنيا والآخرة ، وعلم معنى عبادتهم ، وتحقق آثار ارادتهم زادبه الاعجاب فاستعظم وجود ذلك فى عالم التراب ، وقال أى رب : أين أجده وأناديه ، أم كيف التوصل الى سبيل ناديه ؟ . فقال اطلب نهر السلسبيل فهناك تجد الى نظره سبيل ، فسار تحت مشيئة القدر الى أن وصل الى النهر فرأى ضوءا يلوح وأسراره بصفات مافيه تبوح ، ودار به المقربون والروحانيون والمسبحون والصافون والراكعون والساجدون وقطب عبادتهم دائرة على الاستغفار لأنه صاحب الافتخار وكلما سبحوا وسجدوا يستغفرون للذين آمنوا به . قال فانتظم فى سلكهم واسلك سبيل مسلكهم لتفوز بالنظر فى جملة من حضر واذا بنور أحمد قد تعلى ومن سرادقات قصره تجلى فسجدت الملائكة له بمعنى عظيم ، وقالوا — انك لعلى خلق عظيم — فرد لما غشيه النور الوارد ونطق لسان حسده بما فى جسده من ذا الذى ملأ الأكوان بعبادته وافتخر على الملائكة بخالص مجاهدته ، واذا بالنداء معاشر الملائكة دعوا النظر الى المغانى ، وحققوا النظر الى الفضائل والمعانى

فاحدقت الملائكة نحو القصر بالأعين ، واذا فى جوانبه أربعة أعين ، فقالوا يارب العزة قد تركنا المغنى فما حقيقة هذا المعنى ؟ . قال هذه العيون عيون أنهاره ، وسيوف أنصاره ومعالم سنته بحساب نسبته ، وأبواب علمه ومقر حكمه وزينة دينه وأعلام يقينه وأول عين هى عين التصديق والعين الثانية هى عين العدل والتحقيق ، والعين الثالثة هى عين النور والحياء والتوفيق ، والعين الرابعة عين العلم والتشريق . فعين التصديق لصديقه ، وعين العدل لفاروقه ، وعين الحياء لصهره ورفيقه ، وعين العلم لأخيه وشقيقه فانظروهم بعين التبجيل والوقار وأكثروا لهم الدعاء والاستغفار . فأنا الذى قلت فيهم ـ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ـ فلما علم شوجوان كلام ورقة بن الصامت لم يرد عليه جوابا ولا أبدى له خطابا غير أنه عرف الحق فكتمه ، ولم يزل شوجوان فى الدير حتى أخذ المسلمون حلب فانتقل الى اشفكياص فاستوزره . قال فلما استشاره فى أمر يوقنا . قال له اعلم أيها الملك أن يوقنا من الملوك وأبناء الملوك ، وقد قرأ الكتب وأخوه كان أفضل منه فى الدين وقد صحب هؤلاء العرب واطلع على سرائرهم ونظر الى دينهم ، وربما أنه علم عند النظر أن دين المسيح أفضل من دين هؤلاء العرب وقد هرب من أيديهم اليك . فان كان الرجل قد أتى بغير حمل ولا ثقل فاعلم أنه هارب من القوم اليك فيجب عليك أن تخرج الى لقائه وتعظم شأنه وترفع مكانه ، فلما سمع اشفكياص ذلك خرج بعسكره للقائه وبقى الوزير فى القلعة . قال فسمعت ابنة يوقنا أن أباها قد أتى فنزلت تسبح فى سرب لها تحت الأرض مع جواريها وخدمها وقصدت القلعة الثانية فوجدت اشفكياص قد خرج للقاء أبيها الوزير شوجوان فى مرتبة وزارته فقام اليها وصقع بين يديها وخدمها فجلست تتحدث معه . فقال لها خذى على نفسك الحذر . فان الملك قد خرج وأخاف أن يبطش هذا اللعين بأبيك واعلمى أنه ماتبع هؤلاء العرب الا وقد تحقق عنده أن دينهم الحق وقولهم الصدق ، فقالت له الجارية فما تقول أنت فى دين القوم ؟ . قال هو والله الحق ، والدين الصدق ، وانى كنت كاتم هذا السر ، فلما سمعت ذلك تبسمت وقالت والله لقد رضيت لنفسى مارضيه أبى ، ولكن أنت اكتم هذا عنى .

[قال الواقدى رحمه الله] وان إشفكياص لقى عبد الله يوقنا وسلم بعضهما على بعض وترجل كل منهما لصاحبه وشكا كل واحد منهما مايجده من الشوق . ثم ركبا وسارا الى القلعة فنزل يوقنا فيها ومن معه وأتت ابنته وسلمت عليه وبكت وبكى ، وأما اشفكياص ، فانه معوّل على القبض على يوقنا ، فقال أيها الملك كيف رأيت هؤلاء العرب فى دينهم وعدلهم وسياستهم فى ملكهم . فقال يوقنا ان القوم يزعمون أنهم لايريدون ملك الدنيا وانما يريدون ملك الآخرة ومع هذا قد ملكوا الشام وأرض مصر وماتغيروا عن طباعهم وأنفسهم الدنيئة وأول الأمر وآخره أنهم أظهروا الناموس حتى ملكوا البلاد ، ولما كشفت أسرارهم وتحققت أخبارهم ورأيت بيان ماهم عليه هربت منهم وبعدت عنهم بعد أن ظننت أنهم على الحق ونصحت لهم وملكتهم طرابلس وصور وغيرهما وانطاكية ، وقد علمت أن المسيح قد غضب علىّ اذ تركت دينه وماأمر به من القربان وماأوصى به المريحا المعمدان ، ولست أظن أن لى تطهيرا من درن الذنوب ومساوى العيوب . ثم انه أظهر البكاء والتوجع والشكوى . فلما عاين اشفكياص مافعله

وسمع كلامه انطلى عليه ، وقال له أيها الملك اذا كنت قد ندمت على قبيح فعالك ورجعت الى الدين الصحيح بقلبك فابشر بقبول التوبة وزوال الحوبة ، واعلم أن باب التوبة مفتوح وعلم القبول لأهل الندامة يلوح ، وقد قرب عيد الصليب و بقى له عشرون يوما وهذا مرقس الراهب بدير السكرة ، وهو من أعظم أهل دين النصرانية فسر اليه ليغمسك فى ماء المعمودية فتخرج نقيا من الذنوب . فقال يوقنا أفعل ذلك ، ولكن من يضمن أن يعيش فعندها قامت ابنته وصقعت ، وقالت والله ياأبت ماأدعك تمضى حتى أتملى منك بالنظر وقبلت يد أشفكياص ، وقالت ياسيدى أريد أن تأذن لأبى أن يسير معى الى حصنى ، فقال هو الليلة عندى وليلة غد يكون عندك فعلم يوقنا أنه لابدّ من الأكل معه ولابد فى سماطه من لحم خنزير ولابد من الخمر ، فقال أيها السيد أينما كنت فأنا فى نعمتك وخيرك . فقال شوجوان لاشفكياص اعلم أيها الملك أن الملك يوقنا كثير الشوق الى ابنته ولهما زمان مارأيا بعضهما ومايخفى عليك ذلك ، والصواب أن يكون الليلة عندها وليلة غد يكون عندك ، فقال افعلوا ذلك . قال فأخذت أباها ونزلت فى السرب الى القلعة الشرقية وعبر أصحابه اليه فى المركب ، فلما جنّ الليل قالت الجارية لأبيها ياأبت كيف تركت العرب بعد صحبتك لهم ونصحك لدينهم أرأيت أن القوم على باطل وأن دينك الأول أفضل منه فرجعت اليه . فقال يوقنا أى بنية والله ماأتيت اليك الا من شفقتى عليك وقد افترقنا فى الدنيا وأخاف أن يكون الفراق فى الآخرة أيضا ، وقد علمت وتيقنت أن هذين الحصنين نصب أعين المسلمين ، وأنت تعلمين أن قلعتى كانت أمنع من كل قلعة بالشام ، وقد ملكتها العرب ونزعت ملوكها عن أرضهم و بلادهم فاتقى الله يابنية فى نفسك واعملى لخلاص نفسك من الزبانية والجحيم الحامية والخلود فى الهاوية وارجعى الى الله من قريب وا كفرى بدين الصليب ، فوالله ماثم دين أفضل من دين الاسلام ، وعليه كان المسيح والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وانما غرر بالنصارى وحيدهم عن طريق الحق رجل يقال له بولص كان من اليهود أضلهم عن الطريق المستقيم وشرع لهم الضلال القديم حتى كفروا بما جاء به الخليل ابراهيم وهؤلاء العرب قد اتبعوا ماأمر الله به وأمر نبيه محمد ﷺ ولديهم القول الراجح والفضل الصالح وانهم طلقوا الدنيا ثلاثا وطلبوا بعد الاجتماع شتاتا فارضى لنفسك مارضى أبوك لنفسه . فقالت والله ماقلت شيئا إلا وأنا به عارفة وقد رضيت لنفسى مارضيت لنفسك ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله . قال ففرح باسلامها . ثم قال أى بنية ماالذى نصنع فى أمر هذا الكافر اللعين الفاجر ؟ . قالت والله لقد قال لى الوزير شرجوان انه مصرّ على قبضك . وقال انك ماأردت الا التنصب عليه . فقال يوقنا اذا كان الأمر كذلك فاصنعى لنا سماطا وسيرى اليه واستدعيه هو وخواصه فأنا آمر أصحابى أن يقبضوا عليهم وعليه اذا اشتغلوا بالطعام والشراب ، فاذا فعلنا ذلك كانت القلعتان فى قبضتنا ونسلمهم الى أصحاب نبينا . ثم انى أريهم أننا هربنا منهم الى أن نحصل فى قرقيسيا فلعل الله أن يفتحها على أيدينا وهذا هو الرأى .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما ذهب الليل وأتى النهار أمرت جماعتها بصنع الطعام والحلويات وغيرها ، فلما صنعوا ذلك وصفوا الموائد وعليها من كل حارّ وبارد نزلت فى السرب وقصدت اشفكياص فى قلعته ووقفت بين يديه وصقعت له فقام لها اعظاما وقال لها كيف

الملك يوقنا وأحواله . فقالت أيها الملك انه مانام الليل ، وهو متفكر فى القيامة وأحوالها والجحيم ومآلها ، ولقد أراد اليوم المسير الى مدينة قرقيسيا ، وأن يقصد الراهب المعظم قرياقوس وقد أخرته الى أن تحضروا معه على السماط وتمضى أنت وهو الى جرجيس حتى يرجع الى دينه وقد جئت اليك لتحضر سماطى وضيافتى أنت وأصحابك وخواصك وتأكلوا من طعامى وتشربوا من شرابى ومدامى والكل من فضلك وإنعامك واحسانك وتجبر خاطرى . قال فأبى اشفكياص مما دخل على قلبه من يوقنا اذ لم يبت عنده وخاف أن يقبضه ، فقال له الوزير شرجوان أيها الملك ليس هذا برأى ، واذا امتنعت نفر قلبه منك ومايدريك أيها الملك أنه ندم على ماسلف منه وقد أقر بالذنب واعترف وانك إذا أكلت على سماط ابنته ودعوتهم أنت الى سماطك فافعل بعد ذلك فيهم ماشئت . قال وكان هذا الكلام من شرجون لاشفكياص سرا من ابنة يوقنا فقام عند ذلك وقال لوزيره : احفظ مكانى حتى أعود اليك ، ولم يكن له ولد يرثه فى الملك . قال فأخذ معه خواصه من قومه وحجابه وبنى عمه ، ونزل فى السرب والجارية أمامهم وجواريها بين يديه بالشمع ، وقد علم الوزير أنه مابقى يعود إليه بعدها ، فلما حصل اشفكياص فى قلعة زلوبيا وثب القائه يوقنا وأصحابه ، وكان قد أوصاهم بما يفعلونه ، فلما وقعت العين على العين ، أقبل يوقنا اليه ليعانقه وضمه الى صدره وقبض عليه قبضة الأسد على فريسته ، وفعل أصحابه كما فعل ، وضربوا فى الحال رقابهم ، ولم ينتطح فيها شاتان ، ولم يعلم بما فعلوه أحد ، ثم نزلوا من فورهم من السرب ومضوا إلى زبا ، فوجدوا شرجوان ينتظرهم ، فلما رآهم تبسم وأعلن بكلمة التوحيد وقال : لله درك ياعبد الله فقد شرح الله صدرك للإيمان ، وأرضيت الملك الديان ، فجزاه يوقنا خيرا ، وملك قلعة اشفكياص وجعل يدعو بالرجال ويعرض عليهم الاسلام ، فمن أسلم تركه وضمن بعضهم بعضا حتى لاينهزم أحد منهم ويروح الى صاحب قرقيسيا ويخبره بما صنع يوقنا وبعد أيام أشرف عليهم عبد الله بن غسان وسهيل بن عدى فى ألفى فارس ، فأراهم يوقنا التمنع والاعراض وناشبهم القتال خمسة أيام ، وقد عرفوا أن ذلك منه حيلة وأرسل يعلمهم فى السر أن القلعتين فى يده ، والليلة أسلمها اليكم وأظهر الهرب الى قرقيسيا فلعل الله أن يفتحها على يدى ، فلما كان من الليل أمر شرجون أن يسلمها اليهم ، ثم ان المسلمين أعلنوا بالتهليل والتكبير ووقع الصائح من كل جانب وشهروا القواضب ، وكان فى يومه هذا قد وصل الرسول من صاحب قرقيسيا بالهدايا والتحف الى يوقنا يهنئه بالسلامة والخلاص من العرب والرجوع الى دينه ، فقبل يوقنا الهدية وأنزل الرسول فى خيام أصحابه وكانوا قد ضربوا لهم وطاقا فى الجانب الشرقى ، فلما صار أصحابه المسلمين فى قلعة زبا أظهر يوقنا الفزع والهلع ، وقال : وحق دينى ماهؤلاء العرب الا شياطين ، ثم إنه أخذ بعض ثقل ابنته فى الليل وساروا يطلبون قرقيسيا ففى ذلك قال طريف أحد بنى ربيعة بن مالك وهو سائر صحبة المسلمين الصحابة رضى الله عنهم هذه الأبيات :

أتينا الى أرض الفرات مع الزبا ... ونحن نروم الروم من كل فاجر
وقد أمنا ليث الحروب وسهمها ... همام شجاع قاتل كل كافر
وأعنى بيوقنا عليه تحية ... يناصب للاعدا بحيلة غادر
وقاتل أبناء الصليب وحزبهم ... بحد حسام ماضى الصفح باتر

وصاح على الملعون قوم زلوبيا فأوردوه فى الحال سكنى المقابر
وملكنا فى القلعتين كلاهما بسعد وإقبال ونصرة قادر
سيحظى غداة البعث يوم معاده بروح وريحان وحور قواصر .

حدثنا سيف بن عمرو التميمى ، قال : حدثنا الأنصارى عن المهلب عن طلحة عن محمد ابن أبى الدقيلى بن ميسور قال : لما كان من أمر يوقنا واشفكياص ماذكرناه وأرى من نفسه الهرب ، سار مع ابنته وأصحابه والرسول معهم ، يرومون قرقيسيا وهم منهزمون فوصلوها مساء ودخلوا معه على شهرياض وأعلموه بأخذ القلعتين ، وكيف فعل معهم العرب ، فأيقن بهلاكه وأخذ بلاده . فقال له يوقنا : أيها السيدلاتخف فنحن نقاتل بين يديك حتى نموت ، وإن نزلت العرب علينا يريدون حصارنا ، لأرينك العجب بقتالهم ، ولن يصلوا اليك بسوء ، فوثق بقوله وخلع عليه وطيب قلبه ، وأنزله بدار جواره وبعث شهرياض من ليلته الى خاله وهو يومئذ ملك أرض ربيعة برأس العين فأرسل يستنصر به على العرب ويعلمه أن العرب قد أخذوا قلعتى زبا وزلوبيا ، وإن الرجل المعظم يوقنا ملك حلب قد هرب منهم بعد خدمته لهم وهو عندى ، فسار الرجل الرسول الى دير مريم ومنه الى الجدل الى رأس العين ، فوجد رسول شهرياض الملك بأعظم تحصين قد أعد آلة الحصار وزاد فى عرض خندقها ، ونصب خيامه ومضاربه على مغاربها وعلى طريق النقب ، وهو معول على لقاء عياض بن غنم ومن معه . وقد جمع عنده سائر عرب الجزيرة من بنى تغلب وغيرهم ، وقد صنع لهم سماطا واستدعى بأمرائهم وهو نوفل بن مازن والفريد بن تغلب بن عاصم والأشجع بن وائل وميسرة بن وائل وميسرة بن عاصم وحزام بن عبد الله وقارب بن الأصم ، وقال لهم : يافتيان العرب لم نزل نرعى صغيركم وكبيركم وحريمكم وعبيدكم ، وقد أبحناكم أرضنا ترعون فى حزنها وسهلها ونرضى منكم بما تؤدون الينا من أوباركم ، فأنتم آمنون ، وهؤلاء بنو عمكم قد ملكوا الشام ومعاقله وأرض مصر وما معها ولم يكفهم ذلك ، حتى أقبلوا الينا يريدون أن يزاحمونا على ملكنا ويخرجونا من أرضنا ، وقد علمتم أن القوم ان ظفروا بكم لايبقون عليكم ولا يرضون منكم ، الا أن تدخلوا فى دينهم أو تقاتلوا عن دينكم وأهلكم وأموالكم فكونوا يدا واحدة لاينفصل منكم شىء كما كان جبلة بن الأيهم وآل غسان مع الملك هرقل ، فان نحن نصرنا على القوم فالأرض لنا ولكم على السواء ، وان كانت الأخرى فنموت على دين واحد ويبقى ذكرنا الى الأبد . قال فأجابوه الى ذلك وتحالفوا وتعاقدوا أن يموتوا على سيف واحد ، فأعطاهم الأموال والعدد والسلاح ، وساروا معه . قال ثم ان رسول صاحب قرقيسيا قدم عليه ، وأعطاه كتاب ابن أخته شهرياض ، فلما قرأه وفهم مافيه ، وأنه يطلب منه النجدة أرسل إليه يوريك الأرمنى وهو الذى بنى تل المؤزر والسن وتل عرب وعابدين والسوائد فأرسله ومعه أربعة آلاف ، فلما قدم الأرمنى ومعه أربعة آلاف فارس الى قرقيسيا ، وكانوا قد قطعوا جسرهم الذى كان على الخابور وكان الجسر على أعمدة من حديد وعليها سلاسل وعلى السلاسل أرماح ، وكذلك أيضا من ناحية الفرات وحفروا حول مدائنهم خندقا عميقا عريضا وحصنوا مدائنهم غاية التحصين وأقاموا ينتظرون عسكر الصحابة رضى الله تعالى عنهم .

ذكر فتح قرقيسيا

ولما ملك عبد الله بن غسان القلعة الغربية حين سلمها اليه شرجون بأمر يوقنا وترك يوقنا العرب وهرب الى قرقيسيا دلهم الراهب شرجون على الطريق نحو السرب الى القلعة الشرقية فملكوها واحتووا على ما كان لأشفكياص فيها ، و بعثوا الى عياض بن غنم وأرسلوا يعلمونه فى السرّ بما صنع يوقنا ، فدعا له المسلمون وشكروه ، وأرسل يقول لعبد الله بن غسان ولسهل بن عدى : احتفظا على مافى القلعة الثانية ولا تأخذا منها قيمة الدرهم الواحد حتى يسلمه يوقنا لبنته واتركا فى القلعة من يحفظها واطلبا قرقيسيا وأنزلا عليها والسلام : قال فلما وصل الكتاب اليهما ، فعلا ما أمرهما به عياض ووليا على القلعة الغربية الأحوص بن عامر ومعه مائة فارس ، وعلى الشرقية زياد بن الأسود فى مائة فارس ومضى عبد الله بن سهل الى قرقيسيا ، فحال بينهم و بينها الفرات ، فدلهم بعض سكان تلك الأرض على المخاضة ، فعبروا فى الليل ، وأصبحوا على أرض واحدة مع أعداء الله ، وأرسلوا الى ماجن والمحولة والبديل والصور و بعثوا إليهم الأمان وأقروهم فى منازلهم وقالوا : ان كانت لنا فقد أحسنا فيكم الصنيع ، وان كانت علينا انصرفنا عنكم مشكورين على عدلنا فيكم . قال فأجاب القوم الى ذلك و باعوا عليهم الميرة .

قال **حدثنا** هلال بن عاصم عن يحيى بن جبير عن سوار بن زيد قال : لما بعث عبد الله بن غسان الى أهل تلك القرى وطيب قلوبهم ، بعث بعد أيام سهل بن اساف التميمى وكان من الصحابة الأول ومعه مائة من المسلمين ليأتوهم بالطعام والعلوفة من ناحية ماسكين فسار سهل ومن معه ، فلما وصلوا الى السمسانية شن عليها الغارة واستاق أموالها ، فخرج عليه نوفل بن مازن فى خمسمائة فارس ، واستخلصوا منهم ما أخذوه ووقع بينهم القتال ، فحملوا بأسرار صافية ، ونيات سامية ، وأفعال نامية ، وقلوب تنزهت بالايمان ، وألسنة تنطق بذكر الرحمن ، ولم يزالوا فى قتال الى أن قتل من المسلمين ثلاثون ، وانهزم سبعة وأربعون ، وأسر سبعة وعشرون من جملتهم سهل بن اساف بن عدى وحدثوا أصحابهم بما كان من المتنصرة ومنهم ، فعظم ذلك عليهم .

[قال الراوى] **حدثنى** نوفل بن عامر ، عن سالف بن عاصم ، عن سالم عن الدوسى قال : كنت مع سهل بن أساف حين قدمنا على السمسانية وخرج علينا نوفل بن مازن ، فقال والله لقد قاتلنا قتالا شديدا ما شهدنا مثله حتى كان من أهل الهزيمة ما كان . قال سالم بن عبد الله : لما أسرهم نوفل بن مازن شدهم فى الحبال وقرن بعضهم الى بعض ورجلهم عن خيولهم وسار بهم يطلب رأس العين ، فأخبروه أن الملك شهرياض على مرج الطير من جانب النقب فقصد اليه ومعه من بنى عمه أربعون رجلا وساقوا أصحاب رسول الله ﷺ الى أن أوقفوهم بين يديه وحدثوه بأمرهم ، فأمر بضرب رقابهم فضرب رقابهم وكان آخر من بقى أميرهم سهل بن اساف وكان أحسن الرجال وجها ، قال فشفع فيه بعض البطارقة ، فوهبه له وكان ذلك البطريق اسمه توتا بن لورك وهو صاحب كفر توتا فأخذه وأتى به الى قصره فى كفر توتا . قال فنظرت اليه ابنته ، فسألت أباها عنه . فقال اى بنية ان المسيح قد طرح رحمة هذا الشاب فى قلبى فسألت الملك فيه ، فوهبه لى فخذيه إليك ، فأخذته وأدخلته فى بستان . قال فلما كان بعض الأيام دخلت

البستان ، فنظرت الى سهل بن أساف وهو يقرأ ـ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ـ ، فلما سمعت قراءته أخذت بمجامع قلبها . فقالت ما أفصح هذا الكلام وأطيبه وألينه للافهام . فقال لها هذا كلام الملك العلام الذى أنزله على سيد الأنام . فقالت الجارية : أما محمد فهو نبيكم لامحالة فيه فمن هؤلاء الذين قال فيهم ـ والذين معه ـ ؟ قال هو صاحبه ووزيره أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ـ أشدّاء على الكفار ـ هو صاحب هذه الفتوح ومجهز هذه الجيوش عمر بن الخطاب ـ رحماء بينهم ـ هو كاتبه وصهره عثمان بن عفان ـ تراهم ركعا سجدا ـ هو أخوه وابن عمه وصاحب سيفه علىّ بن أبى طالب . فقالت له الجارية ، وكان اسمها ابريتا ، وكانت تكتب بقلم التوراة والانجيل وتتكلم بكلام العرب ، وكثيرا ما كانت تسأل علماء دينهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يعطيها أحد منهم خبرا حتى وقع بيدها سهل بن أساف . فقالت من هؤلاء الذين ذكرت ؟ قال هم الذين قالوا وصدقوا وقالوا فحققوا وركبوا نجب السوابق ، فوفقوا وساروا فى بادية الطلب فلم يرفقوا ، وكلما لاح لهم علم الأفاضل تشوّقوا ونودوا فى سرائرهم رجال صدقوا ، ثم أنشد يقول :

رجال من الأحباب تاهت نفوسهم ... ينادونه خوفا ويدعونه قصدا
وقاموا بليل والظلام مغلس ... الى منزل الأحباب فاستعملوا الكدا
يحثون حث الشوق نحو مليكهم ... وقصدهم الفردوس كى يرزقوا الخلدا
أولئك قوم فى العبادة أخلصوا ... فتاهوا به شوقا وماتوا به وجدا

فقالت له الجارية . لقد سمعت من نيسا راهب ديرقنا ان الله ينشر دعوة نبيكم فى المشرق والمغرب ويملك المشرق والمغرب ، وأنهم يفضلونه على الآباء والأمهات والاخوة والأخوات وأنهم يعدمونه يسيرون اليه ، وإذا ذكر يكثرون الصلاة عليه . فقال لها سهل بن أساف أما علمت أنه كان فى حياته يدعو لهم ويستغفر لهم ولمن دخل فى دينه وأقربه ، ولقد كانت زوجته عائشه رضى الله عنها تقول : كانت ليلتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مضى الثلث الأوّل منها والفلك يدور بالنجوم ، والسماء تزهو بالكواكب ، والمردة تحرق بالشهب الثواقب ، وسرادق الله قد مدّ جناحه وأحال الظلام بادلهامه ، فبينما أنا فى وادى الوتين ساكنة وبجانبى أفضل مرسل وأكرم من ابتهل وتوسل ، وإذا به قد قبضنى وبكلامه الشريف أيقظنى وهو يقول : أيتها العين المتكحلة بعين السبات الغافلة عن موارد الهبات ، هبى من منامك ، واعملى ليوم حمامك ، فقد قام أولو الألباب ، ومرغوا خدودهم على الأعتاب وفى التراب . قالت فقمت معه للخدمة ، ووقفنا نشفع للأمة الى أن برق بارق الصباح ، وانفلق فلق الأصباح . فقال هلمى للصلاة والاستغفار ، وطلب العفو من العزيز الغفار . قالت فوافقته على ما أراد ، وبلغنا القصد والمراد ، فلما سكت من تسبيحه ، وفاح طيب ريحه رأيته وهو يتنفس ويقرع بسبابته جوهر سنه . فقلت : ياسيد الوجود وطيب الآباء والجدود ان العرب لاتقرع سنها الا لأمر مهم أو لشأن ملم . قال : تذكرت حال العصاة من أمتى ، والمخلصين فى محبتى ، وذكرت قوله تعالى ـ لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ـ فقلت يارسول الله أما أنزل عليك قوله تعالى ـ ليغفر لك الله ماتقدّم

من ذنبـك وما تأخر ـ فوالله ليغفرن لك ولأمتك ، لقوله ـ ولسوف يعطيك ربك فترضى ـ أنت الذى خلقت السموات والأرضـين والعرش والكرسى من أنوارك ، وأنت الذى ربط براق القرب ببابك ، أنت الذى اخترقت معالم الملكوت وحلت الى حضرة القرب والجـبروت ، وأنت الذى أوتيت ليـلة القدر ، وأنت صاحب البطحاء والحرم ، ولانت لك الأحجار ، وسلمت عليك الأشجار وانشق لك القمر ليلة الأبدار ، وأنزل عليك ـ ياأيها النبى جاهد الكفار ـ أنت صاحب عرفات ومنى ، والمخصوص بالشكر والثنا ، وسوف يبلغك الله من أمتك المنى ، أماوعدك الله المقام المحمود واللواء المعقود ، والحوض المورود ، والكرم والجود ، وسرادق السعود على أمتك ممدود وسحاب التوفيق عليهم يجود ، ولواء أصحابك بجواهر قبولك منضود ، وعليـه مرقوم عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ، فكيف تخاف على أمتك نزول البأس ، وقد فضلوا على سائر الناس بقوله تعالى ـ كنتم خير أمة أخرجت للناس ـ ياسيدى أنت تعلم أن أباك آدم تشفع بك فتاب الله عليه ، ونوح سأل بك فنجاه الله من الغرق ، وابراهيم مع عـلو قدره بك أنجاه الله من النار والحرق ، وموسى مع تقربه ومكانته بك سأل ربه أن يشرح صدره وييسر أمره

[قال الراوى] وماذكر سهل للجارية هـذه المناقب الا لأن ترجع الى دين الاسـلام . قال فلمـا سمعت كلامه قالت فـا جزاء من يدخل فى دينـه ويقول بقوله . ؟ فقال يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وتمحى عنه سيآته ويكون جزاؤه الرضوان فى الجنان ، ثم قرأ قوله تعالى ـ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجـد الله غفورا رحيما . قال فلمـا سمعت الجارية ماتـكلم به سـهل وقع بقلبها وصغت اليـه بابها وقالت أنا أشهد أن لاإله الا الله وحـده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله ففرح سهل باسلامها . فقالت له اكتم أمرك الى الليل حتى أخلصك وأسير معك الى عسكر الاسلام .

[قال الراوى] حدثنا صاعد بن عدى النميرى عن أبيـه انه سمعه وهو يحـدث الناس بالمدينة وقد أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأموال رأس العين وخزائن الملك شهرياض . قال وان الجارية مضت واستدعت بجواريها ، وأخـذت من مال أبيها ألف دينار ، فلمـاجن الليل فتحت باب السر بعد ماتجسست فرأت كل من فى قصر أبيها نياما فأتت الى سهل وحلته من وثاقه وقالت له قم على اسم الله وبركة نبيه فقام سهل بن أساف الى الباب وأعطته لامة حرب ولبست هى مثلها وخرجا من الباب واذاهما بجوادين فركبا وخرجا وسارا مقدار فرسخين عن كفرتوثا واذاهم بحس الخليـل وراءهم ، فقالت ان كانوا من الروم فعلى مخاطبتهم وان كانوا من العرب المتنصرة فعليك مخاطبتهم قال فوقفوا غـير كثير واذا بالقوم عدتهم ثلاثة وعشرون فارسا وعليهم ثياب خضر وهم على خيول شهب قال فتأملهم سهل واذاهم أصحابه الذين قتـلوا بحضرة الملك قال فدنا منهم سهل وسلم عليهم وقال سبحان الله ألم أشاهد قتلكم ؟ قالوا نعم . أما علمت أن الشهداء أحياء لايموتون ، وإنمـا هى نقلة من دار الى دار وان الله قد بعث بأرواح الشهداء فى هذه الليلة لتزور قـبر النبى ﷺ وكانت تلك الليلة ليـلة النصف من شعبان . فقال لهم انى أريد المسير معكم وفى صحبتكم ، قالوا إنك لاتقدر على ذلك وقد بقى من عمرك احدى وأربعون ليلة وتلحق بنا . وأما هذه الجارية فقد أعد الله لها فى الجنة ما أعد لأوليائه ، وقد بنى لهـا قصرا من الجوهر والياقوت

الأجر على شاطئ نهر الكوثر ، ستوره معلقة وبالأنوار مرونقة ، وقبابه منزوّقة وأسرّته موضونة وفرشه مرفوعة ، وأباريقه مصفوفة ، وزواياه محفوفة ، وحلله منسوجة ، وحواشيه بحسن الوفاء مسروجة ، على أبوابه مكتوب بقلم السرّ المكنون ـ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ـ فلما سمعت الجارية قولهم قالت فبم استوجبت هذا النعيم ؟ قالوا بتوحيدك الرب العظيم ، وتصديقك النبي الكريم . قال فصاحت صيحة فاذا هي ميتة قال سهل فنزلت فدفنتها وغاب الشهداء عنى وسرت الى المسلمين فحدثت عبدالله بن غسان وسهل بن عدى بذلك فازداد المسلمون يقينا بذلك وعاش سهل بعدها أحدا وأربعين يوما ومات رحمه الله .

حدثنا صفوان ابن عامر عن خويلد بن ماجد عن عبد الرحمن بن النعمان عمن حدثه عن فتوح الشام وأرض ربيعة الفرس . قال لما نزل عسكر المسلمين على قرقيسيا مع عبد الله وسهل قال خندق المسلمون على أنفسهم خندقا وتركوا لهم موضعا يدخلون منه ويخرجون . قال واتصلت الأخبار بعياض بن غنم وهو بجانب الرقة ، وهو يتروّى فيمن يبدأ بحربه بشهرياض وجنوده أوبحران والرها . فقال له خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه أتترك جيشا قد تهيأ واحتفل لقتالك وتمضى لسواه ، والرأى أن تلقى هذا العدوّ . فاذا أنت هزمته وأوقعت الهيبة هناك فاقصد ماشئت من البلاد فانها تفتح ان شاء الله تعالى . قال فعوّل عياض على ذلك واذا قد أتته جواسيسه وأخبروه انه قد تهيأ لحربكم الملك شهرياض ونوفل وطرباطس صاحب دارا والمؤزر وصاحب جلين وأرمانوس صاحب تل سماوى وأرجو وصاحب البارعية وشهرياض صاحب ماردين وورودس صاحب حران والرها وقد صارت جريدتهم مائتى ألف وقد ضمنوا للملك لقاءكم وقالوا لانلقى العدوّ الا بأهالينا وأولادنا وأموالنا وحريمنا حتى لاينهزم منا أحد وقد تقدّم اليكم الأرمن وبعدهم الروم وهم دون الفرات ، فلما سمع عياض ذلك بعث اليهم الوليد بن عقبة ووصاه بما أراد قال فقدم على بنى تغلب وجمع أمراءهم وهم نوفل بن مازن وعاصم والاشجع وميسرة وحزام وقارب وقال : يافتيان العرب اعلموا ان من نظر فى العواقب أمن من المعاطب ، وليس أنتم أحدّ سنانا ولا أقوى جنانا ولا أجرأ فى الجولان ولا أوسع ميدانا من بنى غسان ، وليس فيكم من يشبه جبلة بن الأيهم وكان فى ستين ألفا ، وقد نصرنا الله عليهم وقتلنا ساداتها ، والصواب أن ترجعوا الينا وتكونوا من حزبنا . قال فأجابوه بأجمعهم الا طائفة إياد الشمطاء فانهم ارتحلوا الى بلاد الروم ووصل عرب بنى تغلب الى جيش عياض بن غنم مسلمهم وكافرهم فرحب بهم وطيب قلوبهم وقال لهم : يامعاشر العرب ان الله سبحانه وتعالى قد أراد بكم خيرا بوصولكم الينا ونزوعكم عن عبدة الصليب ، وقد أراكم الله إعزاز دينه وشرف نبيه وقد وعدنا ووعده الحق بملك كسرى وقيصر وأخذ كنوزهما وما كان ينطق عن الهوى وقال الله فى حقنا ـ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ـ قال فأسلم كافرهم وبقوا جميعهم مسلمين .

[قال الراوى] اخبرنا سيف عن خالد بن سعيد قال لما علم عياض بهروب إياد الشمطاء الى بلاد الروم كتب الى عمر بن الخطاب بذلك فأرسل عمر رضى الله تعالى عنه الى هرقل وولده قسطنطين يقول لهم ان لم تصرفوهم عن أرضكم لأفنينّ كل نصرانى عندنا .

[قال الواقدى] فلما وصلت رسالة عمر الى هرقل وولده أنفذ بهم اليه . قال وعزم عياض

على لقاء الملك شهرياض ، . وأما ما كان من شهرياض صاحب قرقيسيا فانه جمع بطارقته وقال لهم: اعلموا أنه قد بلغني عمن تقدّم من الملوك انهم كانوا يجيشون الجيوش ولا يستغنون عن الحيل وأنا أريد في غداة غد أن أخرج الى لقاء العرب . فاذا اصطفت الصفوف فرجلوني عن جوادي واشهروا على سلاحكم كأنكم تريدون قتلي فأقول لكم أنا معتذر إنما أردت أن أجرّب خبر جيشكم لدينكم وظننت انه قد أخذكم الخوف من هؤلاء فاذاسمعتم مني ذلك فأرجعوني الى اجلالي واعظامي ، ثم ناوشوهم الحرب فأهرب أنا اليهم وأقول لهم اني أردت أن أسلمكم البلد فهاش القوم عليّ كما رأيتم وهموا بقتلي وقد جئت اليكم راغبا في صحبتكم فاذا أمنوني وغفلوا عني قتلت أميرهم في الليل وأنا أعلم أن القوم بعده يهون عليّ أمرهم ثم أعول على انهزامهم فقال له وزيره الارمني وكيف تسمح بنفسك وتلقيها في أضيق المسالك وان أنت فعلت ذلك لانأمن عليك من العرب ويعتبنا خالك ويقول لنا كيف تركتموه يمضي الى العرب ؟ . فقال عبد الله يوقنا : لقد صدق السيد في قوله وكيف نتركك تمضي اليهم وأنا أدبرلك مع هؤلاء القوم تدبيرا يكون أقرب من هذا وأهون فقال شهرياض والوزير الارمني وماهذا التدبير أيها الملك قال أن نخرج غدا بأجمعنا ونلقاهم ونريهم الجد من أنفسنا ونقاتل بحسب الطاقة ثم نهزم الى المدينة ونستوثق من أبوابها ونصعد على السور فربما قربوا منا فلانقاتل . فاذا فعلنا ذلك طمعت العرب فينا ودنوامنا واعلموا ان في عسكرهم جماعة من الروم ممن صبأ الى دينهم فربما قربوامنا فاذا أرادوا ذلك كتبنا اليهم نطيب قلوبهم ونرسل رسولا في طلب الصلح ونقول ارسلوا الينا عشرة من عقلائكم حتى نرى ماتريدون منا ولعلنا نعقد معكم صلحا ، فاذا فعلواذلك وحصلوا عندنا قبضناعليهم ونشهر سيوفنا عليهم ونقول لهم اما أن ترحلوا عنا والاضربنا رقابهم فان القوم اذا رأوا الجد منا طلبوا صلحنا بأصحابهم ورحلوا عنا ، والعرب اذا قالوا قولا وفوا به فان هزموا الملك شهرياض واحتووا على بلاده دخلنا بعدها تحت طاعتهم وارتحلنا عنهم الى بلاد الروم . قال وانما أراد يوقنا بهذا الكلام أمرين : أحدهما أن يبرأ عندهم من التهمة حتى يطمئنوا اليه . والثاني أن يحصل من أصحاب رسول الله ﷺ عشرة في المدينة فيحتال أن يكونوا تحت يده ليثوربهم فيملك بهم المدينة . فقال له وزيره الارمني وان كان العرب يبعثون الينا صعاليكهم أومواليهم فنقبض عليهم ونعدهم بالقتل فلايلتفتون الى ذلك ويقع الجد منهم في قتالنا ولايرحلون عنا فكيف نصنع . قال فأراهم يوقنا أنه غضب وحول وجهه ، وقال وحق المسيح لقد دخل رعب القوم في قلوبكم ولن تفلحوا بعدها أبدا وحق ماأعتقده لقد قاتلتهم في قلعتي بحلب قتالا سارت به الركبان الى سائر البلدان مدة سنة كاملة ولولا ان عبدا أسود من عبيدهم اسمه دامس أبوالهول وعشرين معه نصبوا حيلة على حتى ملكوا قلعتي لما قدروا عليها أبدا وكانوا قد نزلوا على بجميع عسكرهم وأبطالهم فكيف بكم ومانزل عليكم الاشرذمة يسيرة وبلدكم حصين ليس عليه قتال الامن موضعين من صوب الجبل ومن الغرب ومالكم عذر ومن أراد رضا المسيح والاجر قاتل عن دينه وصان أهله وحريمه من هؤلاء العرب ، وان خفتم أن القوم يرسلون الينا مواليهم أومن لاله عندهم قدر ولاشان فانا أعرف الناس بهم وبفرسانهم وأبطالهم ومواليهم وخاصة أصحابهم فانفذوا مع رسولكم كتابا باسماء القوم الذين أريد منهم المقداد والنعمان وشرحبيل بن كعب ونوفل وعبد الرحمن بن مالك

والاسود بن قيس وخالد بن جعفر وابن قيس وهمام بن الحرث ومالك بن نوبة وسلامة بن عامر . قال فضحك الوزير الأرمنى وقال وحق دينى إن العرب لايسمحون بهؤلاء قط الا أن يطلبوا رهائن منكم . فقال يوقنا ماأفشل رأيكم وأضعف قلوبكم انفذوا الى القوم فان أجابوا كان ببركة السيد المسيح ، وان طلبوا رهائن أرسلنا أضعفنا من أهل المدينة ومن أولادهم وألبسناهم أنخر الثياب وقلنا هؤلاء أكابرنا من أهل المدينة . قال شهر ياض وحق القربان مانفعل الاماأمرتنا ، ثم انه أمر بطارقته وأرباب دولته أن يأمروا الناس بالتأهب للحرب ففعلوا ولبسوا سلاحهم واستعدّوا للقتال ، وأمر سهل بن عدى أصحابه بالركوب فركبت العرب وخرجت من باب الخندق واستقبلوا العدوّ بهمم عالية وقالوا : اللهم انصرنا عليهم كنصر نبيك يوم الاحزاب وعبوا صفوفهم ثم وعظهم وقال فى آخر وعظه ها أنا حامل نحو طاغية الروم وصليبه فاتبعونى ، فان فتح الله بقتله أوأخذ صليبه فالقوم لاثبات لهم فقالوا أيها الأمير لقد دعوتنا الى شىء هو أحب الينا فاحمل حتى نحمل . قال محمد بن عبد الله فحمل هو ومن معه على عسكر قرقيسيا وكان أمير المسلمين عبدالله ابن غسان وسهل بن عدىّ فلقد قاتلوا قتالا شديداً وجاهدوا فى الله حق جهاده وبذلوا رماحهم وسيوفهم فى أعداء الله والتقى عبد الله بن مالك الاشتر بيورنيك الأرمنى ، فلما عاين زيه علم انه من ملوكهم فطعنه فى صدره فأخرج السنان من ظهره والتقى النعمان بن المنذر بشهرياض وقد طحطح الجوع ولم يعلم النعمان بأنه صاحب البلد بل عرف أنه من الملوك فحمل عليه النعمان وهو يقول هذه الأبيات :

وإنا لقوم فى الحروب ليوثها ... وتنفر منا عند ذاك أسودها
نحامى عن الدين القويم نصونه ... ونرغم آناف العدا ونذودها
لنا الفخر فى كل المواطن دائما ... بأحمدنا الهادى فذاك سعيدها
ملكنا بلاد الشام ثم ملوكها ... الى أن تبدى بالنكال عديدها
وسوف نقود الخيل جردا سوابقا ... الى شهرياض الكلب ذاك شديدها
ونملك دارا ثم جلين بعدها ... كذا رأس عين والجيوش نقودها
ونمضى الى حران ثم سروجهم ... كذاك الرها للمسلمين نعيدها
وإنى أنا النعمان ذاك ابن منذر ... أبيد ليوث الحرب ثم أسودها

ثم أطبق عليه وفاجأه بطعنه فالقاه صريعا ، فلما نظر جيش قرقيسيا الى هلاك ملكهم انحرفوا الى مدينتهم وتحصنوا فى بلدتهم وخافت أرمانوسة ودخل الرعب فى قلبها . ثم انها قالت للعبد الصالح يوقنا ياعبد المسيح مابقى لى أحد سواك يسوس ملكنا و يدبر حالنا . فقال أيتها الملكة أنا لك و بين يديك . ثم انها خلعت عليه وعلى أصحابه وقالت اعلموا أن هذه المدينة والمملكة لكم . فقال يوقنا يجب علينا أن نقوم بحقها ونقاتل بين يديها ، ثم انه رتبهم على الأسوار فدنا المسلمون ورجالهم وهم يرمون بالمقاليع فكانت حجارتهم لاتخطئ أبدا وكان المقدم على الرجال والموالى المنذر بن عاصم ولم يكن بالحجاز ولاباليمن قاطبة أرمى منه بالمقاليع وكان من قوة ساعده اذا خرج حجره يجاوز البرج الأعظم فلم يزل يرمى فيه كل يوم فيصيب الرجل والرجلين فسمته العرب برج المنذر ، وكانوا قد ضايقوا أهل قرقيسيا مضايقة شديدة . فقالت أرمانوسة أين

ماوعدت به الملك شهرياض من تدبيرك فى هؤلاء العرب ، فقال أنا فى هـذا الأمر متفكر . ثم انه صعد على السور مما يلى المسلمين ونادى يامعاشر العرب قد طال الأمر بيننا و بينكم ولا نسلم لكم إلا أن تهزموا الملك وتملكوا رأس العين ونحن لكم بعد ذلك واطلبوا منا من المال ماتريدون فقد علمنا أنكم إذا قلتم فعلتم ووفيتم . قال فلما رآه عبد الله بن غسان وسهل بن عدى والصحابة ونظروا إليه علموا انه يريد أن ينصب حيلة على أهل قرقيسيا . فقال سهل بن عدى ياعدو نفسه مكرت بنا وتممت منصوبك علينا بدخولك فى ديننا حتى اطمأننا اليك ، ثم غدرت ورجعت الى دينك الأول فأين تهرب منا أوتولى عنا ونحن لك فى الطلب وسوف نملك هذه المدينة بالسيوف ونضرب عنقك وهذا أيضا من تمام الحيلة . فقال يامعاشر العرب لقد نصحتكم وخدمتكم ومارأيت منكم الاخيرا ، ولكن طالبتنى نفسى بدينى فرجعت اليه والآن فقد مضى مامضى وهذه المدينة مالكم اليها وصول ولاتقدرون عليها لأنها حصينة وفيها رجال الحرب والقوت عندنا كثير ، ولكن انفذوا الينا منكم عشرة من أعزّ أصحابكم ممن نثق بهم يحلفون لنا ونحلف لهم اذا فتحتم رأس العين سلمنا هذه المدينة اليكم ويكون الصلح بيننا بقية هـذه السنة فقد بقى منها أربعة أشهر أولها شهر رمضان ، فقال له عبد الله بن غسان قد أجبناك الى ذلك فمن هم العشرة الذين تريدهم حتى نرسلهم اليك . فقال أريد المقداد بن الأسود والأسود مولى قيس وخالد بن جعفر ورواحة بن قيس وهمام بن الحرث وسلامة بن عامر وابن نعيم فهؤلاء نريدهم فانه لايقع الصلح الابهم . قال فوجد عبد الله هؤلاء الذين ذكرهم له يوقنا . قال وفتح لهم الباب ، فقال له عبد الله نحن مانسمح بأصحابنا بلا رهائن فمضى يوقنا الى الملكة أرمانوسة وأخبرها أن القوم يريدون رهائن ، فقالت ارسل لهم من أولاد السوقة . قال يوقنا أيتها الملكة ان الحيل فى الحرب من عند العرب خرجت والملوك من شأنها إذا قالت قولا وفت به واعلمى أنه قد قال حكيم الفرس : اذا كان الغدر طباع قوم فالثقة بكل أحد عجز ، واعلمى ان أهل بلدك فيهم رؤساء وملوك وهم يعظمون شأنك بعد بعلك الملك ، ولكن ينظرون اليك بعين التأنيث وينظرون الىّ بعين الغربة ولاهيبة لى عندهم وربما سمعوا بصلحنا مع العرب فلايملكونا من ذلك ولايتم لنا ماتريده وربما يرسلون يستنجدون علينا بمثل ملك الموصل وصاحب الهنكارية ويعظم الأمر . قالت فما الذى تراه من الرأى ؟ . قال الرأى ان نبعث الرؤساء رهائن عند العرب ، وانما فعل ذلك يوقنا حتى لايتعرض له متعرض فى المدينة واذا سلمهم لا يكون فيها رئيس من رؤسائهم فأجابته الى ذلك وأنفذت الرؤساء منهم رهائن الى عبد الله بن غسان ، فلما وصلوا اليه دخل العشرة من أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما حصلوا فى المدينة أمرهم الى البرج الكبير وهو المعروف ببرج المنذر ، و إنما فعل ذلك حتى لا يعصى من فى البرج ، لأن فيه مال أهل البلد ، فلما حصلوا هناك رجع الى الملكة ارمانوسة وقال قد حصلتهم فى البرج وغدا نوقفهم بأعلى البرج ونقول لهم اما أن ترحلوا عنا أونقتلهم . قالت وكيف نصنع برهائننا وان نحن فعلنا بأصحابهم ماذكرت يفعلوا بأصحابنا كذلك ؟ . قال لها يوقنا اذا كنت تفزعين على أهل البلد فصالحى القوم قالت دبرنا بحسن رأيك . فقال السمع والطاعة وأنا أمضى الى هؤلاء العشرة مع ماوصاهم به أميرهم وننظر ما الذى يطلبونه منا ، ثم انه مضى الى الصحابة وحدثهم بما عزم عليه من تسليم

البلد وقال لهم: اذا سمعتم الضجة فدونكم ومن فى البرج ، ثم رجع الى أصحابه ورتبهم على السور ولم يترك معهم أحدا من أهل البلدة ، فلما أظلم الليل سار عبدالله يوقنا مع أصحابه المائتين وأعلنوا بالتهليل والتكبير وبادروا الى الباب ففتحوه وأرسل الى عبدالله بأن يأتى اليهم بعسكره فأتوا ووضعوا السيف فى أهل البلد ، فما أفاق أهل قرقيسيا الا والمسلمون قد مكنوا منهم القواضب فقصدوا البرج الأعظم فثار عليهم العشرة الصحابة فعلمت الملكة أرمانوسة ان الحيلة قد تمت عليها من قبل يوقنا وسمعت أهل البلد ينادون الغوث الغوث فأمنهم عبدالله بن غسان وسهل بن عدى واحتووا على ما فى المدينة وأخذوا جميع ما كان فيها من الأموال وما فى البرج الأعظم من الذخائر فأخرجوا منه الخمس وقسموا الباقى على المسلمين وعرضوا عليهم الاسلام ، فمن أسلم منهم وهبوا له أهله وماله ومن أبى ضربت عليه الجزية ، ثم اجتمع الذين أسلموا وأتوا الى الأمراء وقالوا نحن قد دخلنا فى دينكم فسلموا لنا كرومنا وبساتيننا . فقال لهم عبد الله بن غسان وسهل بن عدى هى بحكم الامام : يعنى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وهو الذى يسكن فيها من أراد ويأخذ خراجها ممن هى فى يده ، فان حكم الخراج والخمس والجزية بأمر الامام يأخذ حاجة منه ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين .

[قال الواقدى] وأسلمت ارمانوسة ومن كان يلوذ بها فأقرهم عبد الله فى أماكنهم وأحسن اليهم غاية الاحسان وجدد لهم الامان كل ذلك ليتصل الخبر بأهل البلاد فيدخلوا فى الاسلام . قال عطية بن الحرث ، وكان ممن أدرك ذلك : كان فتح قرقيسيا أول ليلة من شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين من الهجرة ، و بنوا الكنيسة العظمى وهى بيعة جرجيس جامعا ولم يبرحوا حتى صلوا فيه وأطلقوا الرهائن وتسلم ولايتها شرحبيل بن كعب فى مائة وخمسين رجلا وعوّلوا على المسير الى ماكسين والتفت الأمير الى عبدالله يوقنا ، وقال من ابنتك أن ترجع الى قلعتها فقد جاءت الوصية الينا من قبل الأمير عياض . قال فرجعت والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبىّ بعده .

ذكر فتح ماكسين والشمسانية

قال حدّثنى زهمان بن رقيم عن الصلت بن مجالد عن القيل بن ميسور . قال لما ارتحل عبد الله عن قرقيسيا ونزل على ماكسين فتحها صلحا على أربعة آلاف درهم من نقد بلادهم وألف حمل طعام حنطة وشعير فقلقوا من ذلك فترك لهم النصف وكذلك أهل الشمسانية ، ثم نزل على عربان فجاءوا اليه وصالحوه بما صالح به أهل ماكسين ، ثم ارتحل الى المجدل فملكها وأقام ينتظر مايرد عليه من أخبار أميره عياض بن غنم وهو نازل على نهر البلخ فكتب اليه يعلمه بما فتح الله على يديه ، فلما وصل الكتاب اليه كتب اليه أن الزم مكانك حتى يأتيك أمرى والسلام . قال سهل بن مجاهد بن سعيد : لما فتح الله على يد عبد الله بن غسان أرض الخابور صلحا وأقام بالمجدل أنشد قيس بن أبى حازم البجلى هذه الأبيات :

أقمنا منار الدين فى كل جانب ۝ وصلنا على أعدائنا بالقواضب
ودان لنا الخابور مع كل أهله ۝ بفتيان صدق من كرام العرائك

هزمناهم لما التقينا بماسح | وثار عجاج النقع مثل السحائب
وكل همام فى الحروب نخاله | يكرّ بحمل فى صدور الكتائب
وجندل وفد الروم فى كل جانب | تركناهمو فى القاع نهبا لناهب
ومازال نصر الله يكنف جمعنا | ويحفظنا من طارقات النوائب
فلله حمد فى المساء وبكرة | وما لاح نجم فى سدول الغياهب

ذكر فتوح قلعة ماردين

قال حدثنى سوار بن كثير عن يوسف بن عبد الرزاق عن الكامل عن المثنى بن عامر عن جده : قال لما فتحت مدائن الخابور صلحا بلغ قتل الملك شهرياض صاحب أرض ربيعة وعين وردة ورأس العين فعظم عليه وكبر لديه فجمع أرباب دولته وهو نازل على أرض الطير وقال لهم : هذه ثلاث مدائن من بلادنا قد ملكت وقلعتان والعرب المتنصرة قد مضت عنا . فقال له البطريق توتا : أيها الملك انه لابدّ للعرب منا ولا بدّ لنا منهم ويعطى الله النصر لمن يشاء غير انه كان من الرأى انك لو زوّجت ابنك عمودا الملكة مارية بنت أرسوس بن جارس صاحب ماردين وصرين لأعانتنا قلعة المرأة .

[قال الراوى] وكان السبب فى بناء القلعتين المذكورتين أن هذا الرجل أرسوس بن جارس كان من أهل طبرزند ، وكان شجاعا بطلا مناعا ، وكان أوّل من بنى المملكة بأرمينية وكان منفردا بطبرزند ، وكان يغير فى بلاد الروم حيث شاء حتى كتب أهل تلك البلاد الى الملك الأعظم يستغيثون به من يده فأرسله الملك هرقل من انطاكية الى ديار ربيعة وقال له ابن لك حصنا تسكن فيه ، فلما توسط أرض جبل ماردين نزل تحته ونظر وإذا على قلة الجبل موضع نار وكان فيه عابد من عباد الفرس وكان مشهورا عندهم بالعبادة وكانت الهدايا تقبل اليه من أقصى بلاد خراسان والعراق وكان اسمه دين ، فلم يمرّ به أرسوس حتى صادقه وكان يحمل اليه الهدايا والتحف وكان العابد لايحتجب عنه ولم يزل معه حتى انه وقع به منفردا فقتله وغيبه ، فلما عدمه أهل تلك الأرض قالوا مات دين ، ثم ان أرسوس بنى بيت النار وجعله حصنا وكانت له ابنة يقال لها مارية ، فلما رأت أباها بنى له مكانا وتحصن فيه بنت أيضا قلعة بازائه وحصنتها وجعلت فيها أموالها وذخائرها ورجالها وكانت كلما خطبها أحد تراه دونها لأنها من بيت المملكة ، وكان بالقرب من قلعتها دير بسفح الجبل وفى الدير راهب قد انقطع فيه وكان من أجمل الناس وجها وكان اسمه قرما ، قال فأتت اليه زائرة ، فلما رأته وقعت محبته فى قلبها فلم تزل تتردد اليه وتتجاسر عليه الى أن صارت بينهما صحبة فسلمت نفسها اليه فحملت منه ، فلما تكامل حملها ولدت فى خفية ولدا ذكرا فسلمته الى دايتها وقالت لها انظرى كيف تفعلين بهذا الغلام فانى أحبه ولا أريد قتله ، لأنه ان علم أبى بقصتى قتلنى ، ثم أخرجت له ذخائر نفيسة وجعلتها فى قماطه وخيطت عليها وقالت من وقع به ينفقها على تربيته ، ثم انها افتقدت بدنه واذا على خده الأيمن شامة سوداء بقدر الظفر ورأت أذنه اليمنى وفيها زيادة قال فاخذته الداية ونزلت به ليلا ومعها خادم وكان مطلعا على أسرار الملكة فأتت به الى أسفل القلعة فى الطريق الاعظم وهناك عمود من رخام وغالبه غائص فى الارض

وهو قائم وعلى رأس ذلك العمود قاعدة من الرخام فوضعت ذلك المولود على القاعدة خوفا عليه من الوحش أن يقربه فيأكله ثم رجعت هى والخادم الى القلعة .

[قال الراوى رحمه الله] وكان من قضاء الله وقدره : أن صاحب الموصل الملك الانطاق قد بعث رسولا لشهرياض ثم الى أرسوس بن جارس صاحب ماردين فجاز سحرا فى الطريق الذى فيه العمود فسمع بكاء الطفل فدنا منه وهو على جواده فنظر عصابة الذهب فأخذه وسلمه الى جارية كانت معه فى السفر وقال لها احتفظى على هذا المولود فلا شك أن له شأنا ، ثم أوصل الرسالة الى صاحب ماردين وارتحل الى رأس العين وأعاد الجواب على الملك شهرياض وأجرى الله على لسانه بأن حدث الملك شهرياض بقصة الطفل الذى وجده على العمود . فقال أعطنى إياه فانه ليس لى ولد يرثنى ويخلفنى فى ملكى فدفعه اليه فأخذه الملك ودفعه للحواضن والدايات فربوه الى أن ركب الخيل ونشأ وترعرع فسماه الملك عمودا وسماه الناس ولد الملك وترقى فى النعمة وتعلم طريقة الملوك من ركوب الخيل والرماية والقتال والمعالجة والصراع الى أن سما ذكره وانتشر فى الناس فخره وكان لا يأوى الى عين وردة بل أكثر زمانه فى الصيد والقنص وبنى له قصرا على رأس المغارة يأوى اليه وسمى القصر باسمه عمودا وليس عند أمه مارية خبر بما فعل الزمان به وانقضت الأيام واندرجت الأعوام حتى قدم عسكر المسلمين يريد فتح أرض الجزيرة ، فلما شاور الملك أرباب دولته فى أمر العرب أشار عليه توتا أن يزوج ولده عمودا من الملكة فانها لا تصلح الا له وهى بكر ولها من العمر ثلاثون سنة وقد خطبها الملوك وأبناؤهم فلم ترض بهم لأنها تراهم دونها وأنت اذا طلبتها لولدك لم يمتنع من ذلك أبوها ويفرح بمصاهرتك ، فأجابه الى ذلك وبعث الى أرسوس بن جارس هدية عظيمة وقال لتوتا كن أنت الواسطة فى ذلك ، فسار توتا الى أرسوس وسلم عليه ودفع اليه الهدية فقبلها وتحدث معه فيما ذكرناه فاجابه الى ذلك وطلب منه الصداق مائة ألف دينار والبارعية وجلين وعشرين أميرا من العرب ليقتلهم قربانا للمسيح ليلة زفافها فاجابه توتا الى ذلك ، فركب أرسوس الى قلعة ابنته ودخل عليها وأعلمها بالخبر فرضيت فخرج من عندها وجمع القسوس والشمامسة وزوج ابنته لعمودا وليس عندهم خبر من أحكام القدر .

[قال الراوى] ورجع توتا الى الملك شهرياض وأعلمه ان الأمر قد انبرم وأعلمه بما اشترط عليه أرسوس من القلعتين البارعية وجلين ومائة ألف دينار وعشرين أميرا من العرب ليقربهم ليلة زفافها ففرح بذلك وأنفذ الأموال وقال : اذا زفت اليه سلمت الى أبيها القلعتين ، ثم انه طلب عمودا وأخبره أنه قد زوجه ابنة أرسوس بن جارس وقال له اعلم يابنى : ان من جملة الصداق عشرين من فرسان العرب فتجهز وخذ العسكر واقصد العرب وأمر أن يخرج معه توتا الوزير وردوس صاحب حران وقال لهم ان قدرتم أن تكبسوا العرب فافعلوا ومضوا فى عشرين ألفا .

[قال الراوى] وأتت عياضا عيونه وأخبرته بما جرى وانهم قد أقبلوا اليك وهم ردوس صاحب حران وصاحب كفر توتا وعمودا ابن الملك فى عشرين ألفا وهم يريدون كبسكم فى الليل فاستيقظوا لأنفسكم . قال فجمع عياض وجوه الصحابة واستشارهم . فقال خالد بن الوليد اكتب من وقتك الى عبد الله بن غسان وسهل بن عدى أن يسيروا الينا من وقتهم ويعلمهم بما قصد العدو فيكونون منهم على حذر . فاذا قربوا منهم يكمنون لهم حتى يعبروهم ويصير أصحابنا من

ورائهم ونكمن نحن عن يمينهم وشمالهم ثم نطبق عليهم . فقالوا كلهم هـذا هو الرأى المصيب وخرج خالد فى ألفين وكتب فى الحال الى عبدالله وسهل يأمرهما باللحوق بعسكر خالد ويوصيهما بما يفعلون وبعث الكتاب مع سراقة بن دارم فوصل اليهما فى يومه على ناقة له ، فلما وصل وقرأ الكتاب ارتحلوا من ساعتهم وأطلع الصحابة على الخبر فركبوا وأنفذ عبـد الله عيونه يتجسسون له خبر العدو .

[قال الراوى] وأما خالد فانه انفصل من عياض فى ألفين ولم يأخذ بهم على الجادة ، بل أرسل ألفا عن يمين الطريق وأمر عليهم ابن سعدا ، وألفا عن يسار الطريق مع خالد وأمر سعدا أن لا يبعد عن الطريق وأرسل عيونه .

[قال الواقدى] انه لما سار عمودا وتوتا وردوس فى العشرين ألف فارس لم يزالوا سائرين الى أن بقى بينهم وبين عسكر عياض بن غنم عشرة فراسخ فنزلوا فى مكان يستريحون ويعلقون على خيلهم ويلبسون لامة حربهم .

[قال الواقـدى رحمه الله ورضى عنه] وسار جيش عبـد الله بن غسان من ورائهم وسار خالد بن الوليد عن يمينهم ونجيبة بن سعد عن يسارهم وليس عند الروم خبر من ذلك ، فلما علم خالد أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم قد أحدقوا بالقوم أرسل يعلم المسلمين أن يتأهبوا الى وقوع الصوت . قال فتأهبوا ، ثم ان خالدا أخذ خمسمائة من أبطال المسلمين وترك خمسمائة مع عدى بن سالم الهلالى وقال له : اذا رأيت الحرب قـد اشتعل نارها وتطاير شرارها فاخرج من كمينك ، ثم ان خالدا لما قصد جيش العدوّ بمن معه وتظاهر لهم رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير قال فسمعت الروم أصواتهم فلبسوا سلاحهم ولم يركب منهم سوى ردوس وأصحابه وهم خمسة آلاف ولم يكن فيهم مستيقظ سواه وتوتا مشغول مع عمودا . قال وان صاحب حوان استقبل خالدا واستصغر شأنه لما رآه فى شرذمة قليلة فطمع فيه واشتغلت الروم بالنظر اليهم وقالوا : ردوس يكفينا أمرهم . قال فبينماهم ينظرون إذصاح خالد بعدوّ الله ردوس وانحط عليـه انحطاط السحاب وهو يقول هذه الأبيات :

وانا لقـوم لا تكلّ سـيوفنا — من الضرب فى أعناق سوق الكتائب
سيوف دخرناها لقتـل عـدونا — واعزاز دين الله من كل خائب
قتلنا بها كل البطارق عنـوة — جلاء لأهل الكفر من كل جانب
الى أن ملكنا الشام قهرا وغلظة — وصلنا على أعـدائنا بالقواضب
أنا خالد المقـدام ليث عشيرتى — اذا همهمت أسـد الوغى فى المغالب

وفاجا ردوس بطعنة فألقاه على وجـه الأرض فأوثقه غلامه همام وحمل فى أصحابه هو ومن معه . قال فهم فى ذلك إذ خرج عليهم نجيبة بن سعد وعدى بن سالم وأشرف من بعدهم عبد الله ابن غسان فامتلأت الأرض بالزعقات وارتجت سائر الجهات وصدموهم على الخيـل العربيات ونادوا باسم جبار الأرض والسموات وأطبقوا عليهم من كل جانب ، وكان التوفيق للصحابة مصاحبا فما لحقت الروم أن تركب على خيلها الا والسيف يعمل فيهم فطحطحوهم وفرقوا مواكبهم واستوثقوا منهم أسرى وأخذوا عمودا وتوتا فكانت الأسارى أربعة آلاف والقتلى ألفا وسبعمائة

وستة وستين وولى الباقى الأدبار فوصلوا الى الملك شهرياض فأعلموه بما وقع فضاقت عليه الأرض بما رحبت وعلم أن دولته قدانقرضت وأن أيامه قد اضمحلت ومضت فأحضر من بقى من أرباب دولته فاستشارهم فيما يفعل . فقالوا أيها الملك ان مقامنا على رأس العين سفه فان بينه و بين حران والرها وسروج بعيدا فطمع العرب فى بلادنا ، بل الرأى أن نرحل ونتوسط البلاد وتكون قلاعنا أقرب منا والميرة تصل الينا من كل جانب ، فان كانت لنا وانهزمت العرب أخذنا عليهم سائر الطرقات ، وان كانت علينا انهزمنا الى ماردين وقلعة مازن وكفر توثا وقصدنا جلين وتل توثا والبارعية وتل سماوى وتل القرع والصور ودجلة الجبل ونأمن على أنفسنا . قال فأجابهم الى ذلك وارتحل من برج الطير وقصد رأس العين ورتب آلة الحصار وترك فى المدينة عشرة آلاف فارس مع مرتودس وكان من الفرسان المشهورة وهو متزوج بابنة الملك شهرياض ، فلما رتب أمره رحل الى مرج رغبان .

حدثنا أبو يعلى عن طاهر المطوعى عن أبى طالب بن مليحة عن وهبان بن بشر بن هزارد . قال قرأت الفتوح من أوله الى آخره بجامع الرصافة على أحمد بن عامر الحوفى وأحمد قرأ على سعدان بن صاحب وابن صاحب قرأ على يحيى بن سعيد المروزى ويحيى قرأ على أبى عبد الله ابن محمد الواقدى وهو يومئذ قاضى الجانب الغربى . قال لما نزل الملك شهرياض على مرج رغبان بجيوشه ارتحل عياض فى أثره بعد ما كتب بخبر الوقعة وفتح زباوزلو بيا والخابور الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسأله الدعاء و بعث الكتاب والخمس وما أخذه من القلاع وأرسله مع حبيب بن صهبان وضم اليه مائة فارس فسار الى المدينة ، وأما عياض بن غنم ومن معه من عساكر المسلمين فانهم تبعوا شهرياض الى أن نزلوا مع العدو بمرج رغبان . قال فنزلوا فى مقابلتهم قال واتصلت الأخبار بأرسوس بن جارس صاحب ماردين بأسر عمودا فأحضر ابنته اليه وقال لها أى بنية : اعلمى أن بعلك قد أسر وهو ابن الملك ونحن نخاف العار بأن يقال مارية بنت أرسوس ما كانت موافقة على ابن الملك وانه لما تزوج بها أسر وقد حرت فى أمرى . فقالت له مارية ياأبت وحق المسيح لقد قلت الحق وتكلمت بالصدق فما عندك من الرأى ؟ قال لها وما عندك أنت ؟ . قالت أريد أن أتنكر وأدخل الى عسكر المسلمين وآتى أميرهم وأقول له انى قد أتيت أسلم على يديك لرؤيا رأيتها وهو أنى رأيت المسيح فى النوم ومعه الحواريون وكأنى أشكو للمسيح مانزل بنا منكم ، وكأنه يقول لى اسلمى فان القوم على الحق وقد جئتكم لأسلم وأملككم قلعة أبى وتتركونى أنا فى قلعتى ، فاذا قال أميرهم فكيف تملكيننا قلعة أبيك وهى أمنع الحصون وأحصن القلاع ، فأقول له يرسل معى من فرسانهم مائة فارس من صناديدهم وأدخلهم فى قلعتى وأجعلهم فى صناديق وأرسلهم الى قلعة أبى وأسير معهم الى والى قلعة أبى وأقول هذه الصناديق فيها أموالى وأريد أن أجعلها فى خزانة أبى فاذا حصل القوم عندى رميتهم فى المطامير وأقول لهم لست أدعكم حتى ترسلوا الى أميركم يرسل الى بعلى . فقال لها أبوها انك تريدين أن تلقى نفسك فى الهلاك ، وان العرب لاتتم عليهم الحيل لأنهم هم أربابها . قالت وان طلبوا منى رهائن ، فاذا وقع الفداء بأصحابهم طلبت الرهائن مع بعلى . فقال لها دبرى ماتريدين فلعل أن يكون فيه المصلحة . قال فنزلت فى الليل وقصدت مرج رغبان ومعها خادم وأربعة مماليك يسوقون بغلتها وعليها من الهدايا

والتحف والطرف . قال فلما وصلت الى تنيس التقت بغلمان أبيها وحاجبه ومعهم أربعون أسيرا من العرب : منهم عبد الله بن غسان وأمثاله . قال وكان السبب فى ذلك : أن عياض بن غنم لما ارتحل يطلب رأس العين مع هؤلاء السادة الذين مع عبد الله بن غسان بحسب العادة فى سيرهم الى حران وسروج والرها ليأتوا بالطعام والميرة للعسكر فساروا ، فلما توسطوا البلاد لقيهم السائس ابن نقولا وجرجيس بن شمعون وقد أقبل بميرة عظيمة لعسكر الملك شهرياض ومعهم ثلاثة آلاف غائصون فى الحديد ، فلما رأوا قلة المسلمين طمعوا فيهم فاقبلوا وأطبقوا عليهم من كل جانب فأخذوهم قبضا بالكف وأحضروهم بين يدى الملك شهرياض فهمّ بقتلهم . فقال له وزيره : أيها الملك ليس هذا برأى لان ولدك عمودا فى يد العدوّ وورودس صاحب حران وتوتا صاحب الحجاب ، فان أنت قتلتهم قتلوا أصحابك وولدك والصواب أنك ترسلهم الى قلعة ماردين : يعنى قلعة المرأة وتسلمهم الى الملكة مارية ويكونون عندها فاذا طلبتهم العرب تقول لهم انهم بقلعة ماردين وليس هم فى أسرنا ونحن لانبالى بمن هم عندهم فيكون أعظم لحرمتك وهيبتك ، فاستصوب رأيه وأرسلهم الى مارية مع حاجب أبيها فالتقت بهم على تنيس كما ذكرنا ، فأمرت الحاجب أن يوصلهم الى قلعتها ففعل ، ثم انها سارت حتى أتت الى عسكر المسلمين فى حندس الليل فكان يطوف فى العسكر سهل بن عدى ونجيبة بن سعد فى جماعة ، فلما رأوها أتوا اليها وسألوها عن حالها . فقالت أريد أميركم فأتوا بها الى عياض بن غنم ، فلما وقفت بين يديه قدمت له الهدايا وهمت أن تسجد له فنهاها ، وقال : ان الله قد أعزنا بالاسلام وأنقذنا من الضلال بمحمد ﷺ ، فأزال عن قلوبنا الغل والحسد واتباع الهوى وشرفنا بالتحية ونزهنا أن يسجد بعضنا لبعض وما يرغب فى ذلك الا الجبابرة من ملوك الأرض ، وان الله يقول : العظمة ردائى والكبرياء إزارى ، فمن نازعنى فيهما قصمته ولا أبالى ، ومارية تفهم مايقوله ، فلما انتهى قالت أيها الملك ان الله بهذا نصركم علينا . قال لها فمن أنت ؟ قالت أنا مارية بنت أرسوس بن جارس صاحب ماردين ، وان الذى بايديكم أسيرا هو بعلى ولاصبر لى عليه وهو عمودا ، فلما كثرت فكرتى فيه واشتد شوقى اليه رأيت المسيح فى نومى والحواريين ، وقد أمرنى باتباعكم وقد أتيت اليكم بهذه النية بأن أتبع دينكم وأسلم لكم القلعتين قلعتى وقلعة أبى على شرط أن تبقونى فى قلعتى ولا تغيروا من أمرى شيئا وأقيم أنا وبعلى فيها وأكون الحاكمة على أهل بلدى . قال فتبسم عياض من قولها وقال يامارية اما انك ماأتيت الينا الا لتنصبين علينا إبسبب بعلك وكيف يكون هذا بعلك وهو ولدك وحديثه كذا وكذا . قال فلما سمعت الجارية الحديث من عياض بن غنم انتقع لونها وتغير كونها وقالت له ياسيدى ومن أين لك هذا وان عمودا ولدى وهو ولد الملك شهرياض . قال لها رأيت رسول الله ﷺ الليلة وحدثنى بذلك كله . فقالت انى أريد أن أراه . فان كان ولدى فان لى فيه علامة ، فأمر عياض بن غنم بحضوره فأتى به سعيد بن زيد ، فلما نظرت اليه ووقعت عينها عليه ورأت الشامة التى على خده وزيادة إذنه ورأت عصابتها ومافيها من الجواهر صاحت صيحة عظيمة أذهلت من حضر وترامت عليه والتزمته وقالت ولدى لاشك فيه ، وقد صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله . قال ونظر الغلام الى أمه فتحرك الدم فى بدنه فغشى عليه من البكاء ، فلما أفاق بكى بكاء شديدا هو وأمه ، فلما سكتا قال لهما عياض قد وجب عليكما أن توحدا الله شكرا على ما أنعم عليكما

فانه يزيد الشاكرين ورحمته قريب من المحسنين ولا يردّ بأسه عن القوم المجرمين ليس له حدّ ولا قبل ولا بعد ، هو الأول وعليه المعوّل ، وهو الآخر وله المفاخر . قال فلما سمع عمودا ماقاله عياض قال والله مافى قولك زور ولا محال ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ووسوله . قال فلما نظرت مارية أمه اليه وقد أسلم وافقته فى الحال وعرجت عن طريق المحال وشهدت لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة . فقال عياض بن غنم ومن حضر من المسلمين : تقبل الله منكما اسلامكما ووفقكما واعلما أن الله قد طهر قلوبكما وغفر ذنوبكما فاستأنفا العمل ولكن كيف السبيل الى هذه القلعة المنيعة . فقالت أبشر فان أصحابكم اسروا عند حران وقد وجههم شهرياض الىّ لأفدى بهم منكم هذا الغلام عمودا وقد سيرتهم الى قلعتى ، وها أنا أسير اليهم وأحصلهم فى قلعة أبى وأفك أسرهم وأملك بهم القلعة ان شاء الله تعالى . فقال لها عياض لقد وفقك الله فى كل حال ، وصرف وجهك عن المحال ، ولقد صعب علىّ أسر أصحابى ، ولكن قد طاب قلبى بما قلت من الصواب ، فدعى ولدك عندنا وارجعى الى أبيك ، فاذا رأيتيه فقولى له قد تمت حيلتك علينا ، فاذا حصلت عند أصحابنا فافعلى مافيه الصلاح . فقالت السمع والطاعة ، ثم ودعت زوجها أى ولدها والمسلمين ، وسارت من ليلتها الى ماردين ، فوجدت أباها قد نزل الى خدمة الملك الى مرج رغبان ، ووجدت الحاجب الذى كانت معه الأسرى ، قد أوصلهم الى قلعة أبيها وتركهم تحت قبضته ، وكان هذا الحاجب من عقلاء الناس ، ممن قرأ التوراة والانجيل والزبور ، وكان راهبا فى مبدإ أمره ، وكانت له صومعة على عمود رخام قائم طويل ، وصنع على رأس العمود قائمة عظيمة ، وعقد عليها قبة وكان يصعد إليها بسلم ابريسم معلق بأعلى القبة ، وله سكتان فى الأرض ، فاذا حصل فى القبة ، انتزع السكتين وأخذ السلم اليه . فشاع خبره ونما ذكره بالعبادة والرهبانية ، فلما توجه الى بلادهم وفتحت الخابور صلحا ، اجتمع حول ذلك العمود أمم ، وقالوا ياأبانا ماالذى تشير به علينا ، فان العرب قد توجهت إلينا وقد فتحوا الشام وأكثر العراق وحصلوا فى أرضنا فما الذى نصنع ؟ قال فاطلع عليهم من القبة وقال : يامعاشر النصرانية ، مازالت النعم عليكم ظاهرة وباطنة ، مطمئنين فى البلاد ، وقد ذلت لكم رقاب العباد ونصركم المسيح على سائر الأمم ، وردّ عنكم سائر الغمم ، ومهد لكم الأرض فى الطول والعرض اذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتردون المظالم الى أهلها وتحكمون بالحق وتتبعون شريعتكم ، وتزجرون أنفسكم عن أكل الحرام واتباع الزنا ، فلما غيرتم غير بكم ، وفى انجيل يحيى وإنجيل مرقس مكتوب من اتبع سنن الحق وعوّد لسانه طريق الصدق ، وفعل بأوامر ربه وألزم نفسه بمايعنيه ولم يبخس الناس أشياءهم ، وداوم على صلاته ، وعمل بأوامر شريعته ، ولم يتبع هواه بلغه زهده ماتمناه ، ومن جار وبغى وظلم وتجبر وحاد عن طريق الحق ، كان فناؤه عاجلا ولنفسه بيده قاتلا وخربت داره ، ونفد ادّخاره ، وكان الخوف شعاره ، والجحيم دثاره ، وفى التوراة مكتوب لاتظلموا إنه لايحب الظالمين . وقد بلغنى أن فى القرآن مكتوبا — ان الله لايصلح عمل المفسدين — فأصلحوا ذات بينكم ، واجعلوا تقوى الله نصب عيونكم ، وقاتلوا عن أهلكم وحريمكم واتبعوا شريعة نبيكم ، واخرجوا الى جهاد عدوّكم ، فان الجهاد اليوم أفضل من جميع العبادات المأمور بها فانه من جاهد أعداءه ، كانت الجنة مأواه ، ألا وإنى نازل الى صومعتى هذه

فلا يتخلف أحد منكم ، ثم إنه أرسل سلمه ونزل ، فلما رأوه وقد نزل أقبلوا عليه بالسلام وقبلوا يديه ورجليه ، فأتى بهم الى كنيسة دمأر وكنيسة باذا ، فصلى بهم ودعا ، ثم أمرهم بالجهاد وقصد دير ماوخ هو قبله من دار عبديدان الروم ، وكان فيه راهب فناداه باسمه وقال : له ليس هذا وقت العبادة فأنزله من صومعته وسار الى نصيبين ، نخرج الى لقائه الملك قرقياقس ، فترجل اليه وصافه ، وسار بين يديه الى البيعة وزار دير يعقوب ، وهرع اليه أهل نصيبين فوعظهم وأمرهم بالجهاد ، وقصد رأس العين و بلغ خبره لأرسوس بن جارس ، فلما أسر عبد الله بن غسان ومن معه بعثهم مع الراهب ميتا بن عبد المسيح واقيته مارية فى الطريق كما ذكرنا وأمرته بأن يسير بهم الى قلعتها ، فلما أبعد عنها لقى أباها فى عسكره فسأله عما هو فيه فأخبره أن الملك شهرياض أرسله بهؤلاء الأسرى . فقال له من أنت قال ميتا بن عبد المسيح ، فلماسمع أرسوس قوله فرح به وقال وحق دينى لى زمان أرقبك واست أستغنى عن رأيك ، ولكن انطلق بهؤلاء الى قلعتى وتولّ أنت حفظهم حتى يأتيك أمرى وخذ خاتمى هذا فانطلق وأوصلهم الى القلعة ووضعهم فى الاعتقال وتولى حفظهم بنفسه وجعل ينظر الى حسن عبادتهم وجودة تلاوتهم فأقبل عليهم ، وقال لهم أخبرونى كم فرض عليكم فى اليوم والليلة . فقال عبد الله بن غسان خمس صلوات فمن أتى بها بركوعها وسجودها على الكمال لا يرد على النار قال الله تعالى فى كتابه — حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين — وقال نبينا ﷺ « الصلاة صلة مابين العبد وربه فيها اجابة الدعاء وقبول الأعمال وبركة الرزق وراحة الأبدان وستر بينه و بين النار وثقل فى الميزان وجواز على الصراط ومفتاح الجنة » وهذه الصلاة فرضت على جميع الأمم فلم يؤدوها وقصروا فيها حتى فرضها الله علينا فأدّيناها والصلاة جامعة لجميع الطاعات فمن جملتها الجهاد وان المصلى مجاهد عدوّين نفسه والشيطان وفى الصلاة الصوم فان المصلى لا يأكل ولا يشرب وزادت على الصيام التمسك بمناجاة ربه وفى الصلاة الحج وهو القصد الى بيت الله الحرام والمصلى قصد رب البيت وزاد على الحج بقربه من ملكوت ربه قال الله تعالى — واسجد واقترب — وقال نبينا صلى الله عليه وسلم جميع المفترضات افترضها الله تعالى فى الارض الا الصلاة فان الله افترضها فى السماء وأنا بين يديه وقال يامحمد هذه الصلاة افترضتها على جميع الانبياء ، وأما أمتك فقد سلمتها اليهم وجعلت جميع الطاعات كلها فيها وقال ﷺ أتانى جبريل وقال لى يامحمد قم فاصنع مثل ماأصنع فتقدم وصلى ركعتين وقال لى يامحمد هذه صلاة الصبح وهى أوّل صلاة صلاها ولذلك سماها الاولى ، ثم صلى به مرة أخرى اذصار ظل كل شيء مثله ، وقال له هذه صلاة الظهر ، ثم صلى العصر أوّل وقتها وقال هذه صلاة العصر ، ثم صلى به مرة أخرى اذ صارت الشمس مصفرة ، ثم صلى والشمس قد غربت وقال هذه المغرب ، ثم صلى به عند مغيب الشفق ، وقال هذه العشاء الأخرى ، ثم صلى المرة الخامسة والفجر قد طلع ، وقال هذه صلاة الصبح وقال نبينا فرضت الصلاة مثنى مثنى فزيدت فى الحضر وتركت صلاة السفر على حالها . فقال ميتا لعبد الله بن غسان ياأخا العرب فما معنى رفع أيديكم فى الصلاة للتكبير . فقال ألا ترى ان الغريق لما يجد شيئا يتعلق به لينجو من الغرق وكذلك العبد فى الصلاة فهو غريق فى بحار الخطايا والمعصية يرفع يديه ويقول ياربّاه خذ بيدى فانى غريق فى بحار الخطايا والمعصية هارب منك اليك ، وأما معنى القراءة فى الصلاة

فهو عتاب بين العبد وربه ، وأما الركوع فمعناه أنا عبدك وقد مددت يمينى اليك ، وأما الرفع من من الركوع وقول العبد ربنا لك الحمد يعنى على عتق رقبتى من الذنوب يقول الله تعالى بقول العبد أنا عبدك قد أعتقتك من الذنوب ، وأما معنى السجدة الأولى ووضع الجبهة على الأرض كأنه يقول منها خلقتنى والرفع منها أخرجتنى والسجدة الثانية وفيها تعيدنى والرفعة الأخرى ومنها تخرجنى تارة أخرى ، وأما معنى السلام على اليمين : اللهم أعطنى كتابى بيمينى ولاتعطنى كتابى بشمالى ، ولما حضرت عند رسول الله ﷺ سمعته قال « من حافظ على الصلوات الخمس كانت كمثل نهر عذب يغتسل فيه أحدكم كل يوم خمس مرات فهل يبقى من درنه شىء فكذلك الصلوات الخمس لاتبقى على العبد خطيئة » ، فلما سمع الراهب ميتا كلام عبدالله قال أشهد أنكم على الحق وان دينكم حق وقولكم صدق ، ثم أسلم ، و بعده بقليل وصلت مارية لما علمت أن الصحابة فى قلعة أبيها فلما صارت فى أعلى القلعة ونزلت فى دار أبيها باتت على قلق بسبب الصحابة فلما كان قد دخل عليها ميتا وسلم عليها . فقالت له ياميتا ما الذى صنعت بالعرب قال استوثقت منهم حتى يرى الملك فيهم رأيه فقالت والله ماقصرت ، ولكن اجعلهم معنا فى البيعة حتى يروا حسن عبادتنا وقراءتنا الانجيل فلعلهم أن يدخلوا فى ديننا . فقال السمع والطاعة ثم انه نقلهم الى البيعة فلما كان الليل أتت البيعة فرأت أصحاب رسول الله ﷺ وهم فى القيود ولم يكن هناك سوى ميتا فقالت له ياميتا أنت من علماء ديننا وما يخفى عليك الحق اطلعت على دين هؤلاء القوم فالحق معنا أومعهم . فقال أيتها الملكة ليس على الحق من غطاء ، الحق مع هؤلاء العرب والذى قد جئتنى به فانجزيه من قبل أن تطلبيه فلاتقدرى عليه وقد رأيت بيان صدق القوم وصدق دينهم حتى جمع الله بينك و بين ولدك عمودا . قال فلما سمعت كلام ميتا بقيت باهتة فيه فقالت له ومن أين لك هذا . قال رأيته فى نومى وحدثها بما كان كأنه كان حاضرا فسجدت شكرا لله ، فلما رفعت رأسها وثبت قائمة وحلتهم من وثاقهم ودفعت اليهم السلاح وأمرت ميتا أن يكرمهم ، وقالت له أنا أدبر كيف نقبض على الوالى ونملك القلعة ، ثم انها سارت الى قلعتها وولت عليها من هى به مطمئنة الفكرة وأخرجت منها من تخشى جانبه واستوثقت منها ، وأما ميتا فانه جعل الصحابة فى البيعة فى بيت المذبح ، وقال لهم اذا كانت غداة غد وأتى الوالى وأصحابه الى الصلاة فاخرجوا عليهم فان الله ينصركم عليهم .

[قال الراوى] فلما كان الصبح أقبل الوالى وخواصه ليصلوا وضربت النواقيس وأتى القس ليفتح باب المذبح ويقرب القربان ، فلما فتح الباب خرج عبد الله بن غسان وأصحابه الأربعون وكبروا تكبيرة واحدة ارتعدت لها القلعة ومافيها و بذلوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم واحتووا على القلعة ومافيها وسمع أهل الربض التكبير فعلموا أنهم قد ملكوا القلعة فولوا على وجوههم هاربين ، قال فلما سمعت مارية التكبير والصياح علمت أن قلعة أبيها قدملكت فغلقت أبواب قلعتها وأرسلت من تثق به الى عياض بن غنم وأخبرته بماجرى فشكر الله على ذلك ووصل أكثر المنهزمين الى الملك شهرياض وأعلموه أن قلعة ماردين ملكها العرب فصعب عليه وأيقن بتلف ملكه ووقع الرعب فى قلبه وقلوب عسكره و بلغ أرسوس الخبر أن قلعته ملكت وخزائنه أخذت فكتم أمره الى الليل وأخذ من يثق به ، وصار يطلب حوران فوصل

اليها فى الليلة الثانية ، فلما قرب من الباب قام اليهم الحرس فصاح بهم أصحابه وقالوا افتحوا ، هذا البطريق رودس يعنون بطريقهم الأول وقد تخلص من العرب ففتحوا لهم فدخل ارسوس وملك المدينة وفشا الخبر فى تلك البلاد أن أرسوس صاحب ماردين قد ملك حران بالحيلة فقصد اليه جميع من يطلب الديوان فصار عنده جيش عظيم .

ذكر فتوح الرها وحران

[قال الراوى] وكان لرودس هذا صاحب حران المقبوض عليه ولد وكان قد قبض أبوه عليه لأنه خاف منه وكان شجاعا اسمه ارعوك فقبض عليه وحبسه فى العمق وكان له أمّ اسمها ست العسكر وهى صاحبة سميساط ، وكانت قد مضت الى زيارة أهلها وهى غضبانة لأجل قبض ولدها ، فلما بلغها أن أرسوس ملك حران صعب عليها وركبت من سميساط وجاءت العمق وخلت بولدها وأخبرته أن حران ملكها أرسوس فأخرجته وسلمت اليه الأموال وقالت انفق على الفرسان واجمع لك جيشا وامض الى هذا الرجل الذى فعل مافعل قال فانفق المال وأتت اليه الرجال و بقى فى جيش عظيم وعبر الفرات وقصد حران و بلغ أرسوس الخبر فخرج الى لقائه والتقى الجمعان وكان قد قدم أمام جيشه بطلا من الأرمن اسمه أرجوك فى ثلاثة آلاف فوقعت الهزيمة على الأرمنى .

حدثنا عبد الله بن أسيد . قال حدثنا سالم بن ربيعة عن عدلان التميمى عن محمد بن عمر الواقدى . قال لما بلغت الأخبار الى عياض بن غنم بمسير أرجوك الأرمنى الى أرسوس أحضر عياض رودس صاحب حران وأخبره بما انتهى اليه من خبر أرسوس وكيف ملك حران وان ولده يريد أن يلقى أرسوس وانى قد عوّلت على قتلك الا أن تدخل فى ديننا ، فقال ان أنت أطلقتنى سلمت اليك ماتحت يدى من القلاع ولعلى أخلص حران لأن أهلها يحبوننى لأنى كنت محسنا فى حقهم ، وأنا أقول انهم اذا رأونى سلموا الى البلد ، وأنا أسلمها اليكم على انك تعطينى السويداء ونصيبين الصغرى ، وأنا أعطيكم الجزية كل عام . قال فأجابه الى ذلك وأمر عبد الله يوقنا أن يستحلفه فحلف وأجاب الى ذلك فاطلقه و بعث معه يوقنا فى جماعته وردّ على رودس خيامه وثقله وجماعته وانسلوا من الليل من مرج رغبان طالبين حران ، فلما قربوا منها أرسلوا عيونهم فوجدوا العسكر نازلا خارجا منها وعسكر ولده بازائه غير أنه قد أسر أرجوك وأخذه أرسوس ، وان عسكره باق على حاله وقد بعث اليهم أرسوس رسولا يدعوهم أن يكونوا من حزبه وينعم عليهم وأن ينزل بهم و بعسكره على الرها ليأخذها وتصير من تحت يده ، قالوا حتى نرى لأنفسنا فى ذلك .

[قال الراوى] فلما قدم رودس و يوقنا ونظرا الى العسكرين والنيران تتقد ، قال رودس ليوقنا هذه النار القريبة لاشك أنها لعسكر ولدى فأرسل اليهم من يختبرهم فسار الرجل وعلم من هم وعاد فأخبره أن القوم معوّلون على أن يحلف لهم ارسوس ، وان يكونوا جنده وقد تقرر الحال على أنه فى غداة غد يخرج فى مائة فارس من أصحابه الى ديرفرها بين الرها وحران ومن عسكر ولدك خمسون من أكابرهم ويتعاهدون هناك . قال فلما سمع يوقنا ذلك تهلل وجهه

فرحا ، وقال لرودس أبشر فقد صار القوم فى قبضتنا . ثم مضوا يطلبون الدير وكمنوا بالقرب منه ثم ان يوقنا أرسل غلاما له ، وكان نجيبا قد رباه ، وكان اسمه شامس وكان لبيبا ، فقال ياشامس انطلق الى صاحب الرها وهو كيلوك وقل له ان مقدمى صاحب أرجوك قد بعثنى اليك لكى يكونوا من رجالك فانك منهم واليهم وأرسوس من الروم ، وان رجالا منا يأتون الى دير فرها وارسوس معهم حتى يحلف لهم ويحلفوا له ويريد منك أن تخرج فى مائة وتكمن لنا بالقرب من الدير . فاذا قدمنا فاخرج علينا ، قال فانطلق شامس الى أن قدم على صاحب الرها وحدثه بما أتى اليه صاحبه يوقنا ، وكان من قضاء الله وقدره أن الحيلة التى دبرها يوقنا و بعث بها الى صاحب الرها قد بعث بها أكابر جيش أرجوك ، فلما قدم شامس عليه من قبل يوقنا وحدثه بالحديث الذى ذكرنا تأكد عنده ذلك وخرج فى أربعمائة من قومه فى أكمل سلاح وساروا طالبين ديرفرها ، قال وكان يوقنا قد كمن بالقرب منهم واختلس شامس وأتى الى يوقنا وأخبره بأنهم كامنون فى المكان الفلانى وهم منكم قريب ، قال وأما ما كان من أمر ارسوس فانه لما أرسل رسوله الى الأرمن من عسكر أرجوك أتى رودس ، وقال لهم انه يحلف لهم ويحلفون انهم لايخامرون عليه ووقع الاتفاق على أن يكون الحلف فى دير فرها ، فلما كان آخر الليل مضوا وهم متباعدون من بعضهم خوفا من الغدر وكان خاطرهم طيبا بصاحب الرها بما قرروا عنده . ثم انه قبل خروجهم أعلموا ألفا من شجعانهم بأن ينسلوا من العسكر فى خفية وأن يلحقوهم ليكونوا عونا لصاحب الرها ، وقالوا لهم لاتتكلموا دون أن تروا صاحب الرها قد خرج عليه بكمينه . فاذا خرجتم فازعقوا بشارة كأنكم من أصحابه حتى يطمئن اليكم فلعل أن تقبضوا عليه حتى يخلص أميرنا أرجوك ، قال فانسلوا من أول الليل ولم يعلم بهم أحد .

[قال الراوى] ولما أشرف أرسوس على الدير اذا به قد خرج عليه مائتا فارس من أصحاب رسول الله ﷺ وكان المقدم عليهم عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وكان السبب فى ذلك أن عياض بن غنم لما بعث رودس ويوقنا معه وأصحابه ساء ظنه من جانب رودس ، وقال لقد فرطت وأذهبنا ولى الله مع عدو الله . قال خالد أيها الأمير لاتشغل سرك من قبل رودس فان ملوك الروم اذا قالت وفت ويرون العار فى أن يقول أحدهم قولا ولايفى به ، فقال ياأبا سليمان انه لاينبغى لنا أن نغفل عن صاحبنا ومن معه . ثم انه أرسل عمرو بن معد يكرب الزبيدى فى مائتى فارس وساروا طالبين حران فلقوا فى طريقهم ارسوس وهو خارج الى الدير فقبضوا عليه وعلى من كان معه ، وأما يوقنا فانه قبض على كيلوك صاحب الرها وكمن الى الليل وتوجه الى الرها ، فلما قربوا منها وقد لبسوا الثياب التى كانت على صاحب الرها وألبس جماعته ثياب جماعة صاحب الرها ، فلما قربوا منها وكانوا قد أوقدوا لهم مشاعل فتحوا لهم الباب فدخلوا ، فلما حصلوا داخلها رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والثناء على رب العالمين فما جسر أحد من العوام أن يتكلم واحتوى يوقنا على ما كان فيها من ذخائر وتحف وخزائن كيلوك وأمواله وترك عليها من يثق به بعد ماقبض على من يخافه من رؤسائها وأكابرها وكان قد استأمنه ابن عم كيلوك فأمنه فدله على جميع ما كان لكيلوك . ثم أخذه أمامه وساروا طالبين حران فوجدوا رودس قد فتحها وذلك أنه لما قبض عمرو بن معد يكرب على ارسوس سار رودس ومعه بقية عسكر المسلمين حتى

وصل الى حران ونادى الناس الذين على السور ، فلما عرفوه فتحوا له الباب وصقعوا له وساروا معه الى دار امارته فلكها وأتى له عظماء البلد وهنئوه بالسلامة فقام فيهم خطيبا ، وقال لهم اعلموا أن الله تعالى أنقذنى وأنجانى وقد جرى من حديثى كذا وكذا وانى عاهدت أمير القوم أن أسلم اليهم هذه المدينة و يولينى على نصيبين الصغرى والسويداء وحلفت له على ذلك ، وانى سوف أوفى بعهدى وأشهدكم ان كل دين يخالف دين الاسلام فهو باطل ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله : وأشهد أن محمدا رسول الله . قال فلما سمع أهل حران ذلك ، قالوا لقد أراد الله بك خيرا ونحن نوافقك على اسلامك فأسلموا الاقليلا منهم .

ذكر فتوح قلعة رأس العين

[قال الراوى] حدثنا ربيعة بن هيثم عن عبد الله التنوخى عن عبدان بن عطية : قال ماأسلم من أهل الجزيرة الاحران ، فلما رآهم أصحاب رسول الله ﷺ قد دخلوا فى الاسلام . قالوا اللهم ثبتهم على دينك ولاتمكن من بلدهم عدوّا وأعادوا الكنائس مساجدا وجوامع وسلموا الصحابة ماحول حران والرها تسليما وأتى يوقنا من الرها الى حران واجتمع بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاورهم فى أمر الرها وكيف يكون حكمها ، فقال سعيد بن زيد انك قد أخذت هذا البلد بحيلتك ، وقد قال رسول الله ﷺ الحرب خدعة وقد صار كل من فيها عبيدا للمسلمين هم وأموالهم . فقال يوقنا أنتم تعلمون ان أكثر الجزيزة ماملكتموه ، وثم الى الآن حصون وموانع والصواب أن تصنعوا جيلا وخيرا يعلو به ذكركم ويرتفع به فخركم ، فقال له سعيد إذا كان الأمر على ماذكرته فاتركوهم على حالهم حتى نرى مايرى فيهم الأمير عياض بن غنم . قال ففعلوا ذلك ثم ان الأخبار اتصلت بالملك شهرياض ان حران والرها وسروج والسخن وأكساس والعمق قد صارت كلها للعرب فأيقن بزوال ملكه فدخل الى رأس العين هو ومن يثق به وصلوا فى بيعة نسطوريا وهى الجامع اليوم ، فلما فرغوا من صلاتهم قال يامعاشر الروم اعلموا أن العرب قد شاركونا فى بلادنا وقد صار لهم معاقل يجتمعون فيها وتقوم بأودهم ويصل اليهم منها الميرة والعلوفة وتجيئهم منها الأموال والخابور وفيها كلها حكمهم ومابقى بيننا وبينهم إلاهذا المصف . فان كان لنا فلامقام للعرب بيننا وان كان للعرب فالبلادلهم من دوننا وقد رأيت رأيا فيه السداد . فقالوا وماهو ؟ قال أرى أن أماطلهم بالمصف ونكاتب للملكين المعظمين شقر وزعفرة فلعلهما ينجدوننا بعسكرهما ونكاتب الملك حرقتاس بن فارس ونكاتب الملك الانطاق صاحب نينوى و بلادها والى الجبرابن صاحب الهكارية . فاذا أرسلوا الينا عسكرهم نستعين بالمسيح ونلقى المسلمين والله يعطى نصره لمن يشاء ، فقالوا هذا رأى جيد فكتب الكتب وأرسل الرسل الى الملوك المذكورة وعاد الى عسكره .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] ومامنع عياض بن غنم عن حرب القوم إلاأنه رأى أن البلاد تفتح لأصحابه بدون قتال فلم يستعجل لأنه قوى ظهره بالبلاد التى فتحت ، وأيضا أنه كتب الى عبيدة بن الجراح يطلب منه خبرا يأتيه ، قال ووصلت كتب الملك شهرياض الى أصحاب الأقاليم فامنهم الامن عين عسكرا لنصرته . قال ووصل مكتوبه الى صاحب أخلاط وكان له

بنت ذات جمال فائق وكانت من الشجاعة على جانب عظيم ، وكان اسمها طاريون وكان مستقرها بجبل سموه باسمها ، وكان كل من خطبها لاترضى به إلاأن تلقاه فى الميدان فان قهرها كانت له زوجة . قال وانها غلبت جميع خطابها ، وكان من جملة من خطبها غلام اسمه سوسى بن سلنطور صاحب جبل النساسنة وكان قد قدم الى أخلاط بهدية من أبيه الى أبيها ، فقالت هى على شرط معروف فبارزته فى الميدان فقهرته وجزت ناصيته ومرت الأيام والليالى ، فلما بعث الملك شهرياض يستنجد الملوك وأرسل الى صاحب أخلاط أرسل اليه أربعة آلاف فارس وأمّر عليهم ابنته طاريون ، وقال لها أى بنية قد قدمتك على الجيش وأريد منك أن تظهرى على العرب ما كنت تظهرين به على الفرسان حتى تشكرى عند أمة المسيح . قال وأرسل معها ملك النساسنة نجدة وهم ألف رجل وكان المقدم عليهم ولده فسار فى صحبتها وكان الغلام قد كمل شأنه وحسن كماله وابتدر هلاله ولم يكن أحد فى زمانه يوصف بجماله ، فلما نظرت طاريون الى حسنه وجماله نظرته بعين المحبة فوقع قلبها فى شبكة عشقه فسيرت رجالها مع رجاله .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] وأحسن مارأيت فى هذه الفتوح أنه كان لهذه الجارية ابن عم اسمه يرغون وكان يحبها ولايستطيع أن يسمع بذكرها وكان من أهل الشجاعة والشدة وكان تحت يده من المعاقل حيزان والمعدن وأبزون وقف وأنطر ويدليس وأرزن وانه سار ينجد شهرياض فى ثلاثة آلاف ، فلما عبر جيش ابنة عمه طاريون بيدليس اهتم لها وأكرمها وأهدى لها الهدايا والتحف وسار معها الى أن عبروا حصن كيفا وأخذوا طريقهم على الموزر ونزلوا على حصن يعرف بالمشاج على طريق النهر وكان لابن عمها عيون يطلعونه على أخبارها . قال فلما نزلت على النهر أرسلت الى الغلام سوسى الذى تحبه وهى تقول له اعلم أن المحبة الصادقة لاتكون الا بعد العداوة المفرطة وقد ندمت على مافات وما كان منى اليك وقد رأيت أنك بعد رجوعنا من قتال العدو ترسل الى أبى وتطلبنى منه ، ولكن أريد منك أن تصل الىّ ليلا فى خفية من ابن عمى يرغون حتى تحلف لى أنك ترسل الى أبى وتطلبنى منه وأحلف لك أنى لاأريد سواك وبعثت له بهدايا مع بعض خدمها وأرسلت معه شيئا من الحلوى وأرسلت مثل ذلك لابن عمها ولكل أمير صحبها حتى لاينكر عليها . قال وان ذلك الخادم قد علم بما جرى وكان هذا الخادم قد ربى ابن عمها على كتفه وكان يحبه محبة شديدة فأعلمه بماوقع من حديثها مع الغلام سوسى بن سلنطور وهى تريد أن تجتمع به الليلة حتى تحلف له أنها ماتريد غيره . قال فكتم يرغون أمره ، فلما جنّ الليل طلب عظماء جيشه ، وقال لهم اعلموا أنى ماوليت عليكم الا وقد علم المسيح أن عقلى أوفر من عقلكم . قالوا أيها الصاحب أعلمنا بماتريد حتى نقبل قولك ونطيع أمرك . قال ياقوم اعلموا أننا سائرون على غرة وعن قليل ترون الخيل تنوشنا والرماح تحوشنا ، قالوا وكيف ذلك ؟ قال لأن العرب لاتنام ولا ترام ، وقد عاد النصر اليهم ، واعلموا أن الملك شهرياض ليس بأعظم همة ولا أكثر جنودا من هرقل ولا من ملوك الأرض ، وقد ملكت العرب دولتهم وأخذوا معاقلهم وأذلوا ملوكهم ، وأنا أعلم أن شهرياض لاثبات له مع العرب يوم المصف ، وقد ملكت بلاده وهى : حران والرها وسروج والبيرت والخابور ، وقد أخذوا ماردين وقلعة ماردين يعنى قلعة المرأة ، وأخذوا أرسوس

وابنته مارية ، وكأنكم بالعرب قد ملكت ديار شهرياض وعادت اليكم وملكت دياركم ، وسبت حريمكم ، واعلموا أن الحق مع العرب وأنهم اذا قالوا قولا وفوا به ، ومن أسلم اليهم أمن على نفسه وأهله وماله ، سواء رجع الى دينهم أو أقام على دينه ، واعلموا أن بقلبي النار من هذه الجارية طاريون ، وقد أرسلت اليها لتكون لى أهلا وأكون لها بعلا ، فأبت ذلك وهى تحب ابن ملك السناسنة ، فان تزوجت به وصاروا يدا واحدة أخذوا معاقلنا وملكوا حصوننا ولا يكون لنا معهم مقام ، وقد رأيت أنني فى هذه الليلة أقبض عليها ، ثم إنه أخبرهم بما حدثه به الخادم . قالوا أيها الملك : اذا أخذتها فأى أرض تؤويك وأى حصن يحميك ؟ . قال نقصد الى عسكر العرب ونأخذ لنا منهم أمانا . قالوا إذا كنت عولت على ذلك فاعزم . قال خذوا على أنفسكم وتأهبوا للرحيل ففعلوا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] فلما جن الليل ، تزيا برغون ابن عمها بزى الغلام سوسى ، وسار الى سرادق الجارية ، فلما رأته ظنت أنه سوسى فوثبت اليه قائمة وسلمت عليه وصفقت له ، وكانت قد أبعدت الحرس عنها والغلمان والحجاب حتى لا يطلع أحد على سرها . قال ثم إنها تحققت أنه ابن عمها فاستحيت منه ووجلت ، فلم يمكنها الا أن تخدمه بأعظم خدمة . فقال لها : ياطاريون أظننت أنى لا أقف على سرك ولا أبحث عن أمرك ؟ ياويحك أى مناسبة بين الروم والأرمن ، حتى إنك ملت الى ابن ملك السناسنة وتركت مثلى ، ثم إنه مال عليها بشدته وقبض عليها وألقمها أكرة وكتفها وخرج بها الى عسكره ، فوجد أصحابه قد لبسوا وركبوا ورموا المضارب ، وشالوا ثقلهم ، فلما وصل اليهم حملها على بغل وساروا ونظر أصحاب سوسى الى رحيل برغون ، فقال لهم : أمهلوا أنتم بالرحيل الى أن يطلع الفجر ، فان هذا طريق ضيق تزدحم فيه الخيل والبغال ، قال ففعلوا ذلك وجد برغون فى السير ، فما أصبح الا وهو على مرج السور ، فنزل هنالك ، وأما الغلام سوسى فانه لم يمض الى الجارية ولاسأل عنها ولا سار اليها ، لأنه خاف أن يكون ذلك منها مكرا به ، فنقبض عليه ، فلما أصبح أمر غلمانه بالرحيل وركب وأتى الى سرادق الجارية طاريون ، فوجد قومها ينتظرون خروجها من سرادقها ، فدخل عليها خادمها وخرج وقال لهم . إن الملكة ما كان من أمرها ولا سبب لغيبتها . قال فهاج أصحابه وأرادوا الرجوع ، فقال لهم صاحبها ان عدنا الى الملك فلا نأمن أن يرمى رقابنا ويقول كيف غفلتم حتى أخذت ابنتى من بينكم ، وما عندكم خبر وما أخذ الملكة الا برغون ابن عمها لأن فى قلبه شيئا ، ثم إنهم ركبوا وجدوا فى طلبه . قال وإن برغون لما نزل فى مرج السور واستراح ، وهم بالمسير اذا بالقوم قد أشرفوا عليه ، وهم يزعقون ياويلك اترك الملكة من يدك ، قبل حلول منيتك ، فاستقبلهم هو ومن معه من بنى عمه وأقاربه فعندها قال لبنى عمه : اعلموا أن العرب مانصروا على أعدائهم إلا بالصدق فى دينهم وقتالهم عن دين الله ، واعلموا أن هؤلاء القوم الذين طلبناهم لا يبخلون لاسيما اذا علموا اننا قصدناهم وأردناهم من غير قهر ، لكن من طريق العقل أن دينهم أفضل من ديننا ، لأنهم يشيرون الى الله بالوحدانية ، ونحن نسجد للصلبان والصور ونقول أن للخالق زوجة وولدا وهو واحد أحد فرد صمد ، وقد بلغنى أنهم يقولون انه من قتل منهم صار الى الجنة ، ومن قتل منا صار الى النار لأننا عندهم من الكفار ، فان كنتم تريدون النصر

على أعـدائـكم فأقروا الله بالوحدانية وقولو : لا إله إلا الله محمـد رسول الله . قال فأعلنوا بكلمة التوحيد فدوت من أصـواتهم الجبال والتلال والرمال والشجر والحجر ، فلما سمع أعـداء الله ما نطقوا به علموا أنهم دخلوا فى دين الاسلام ، فتقدّم سوسى وقد داروا بيرغون وأصحابه وقالوا له : ياويلك يارغون أما كفاك أن تكون غادرا حتى تكون بدين النصرانية كافرا ؟ أتظن أنك برجوعك الى دينهم ينصرونك علينا ، وأين العرب ومايصل صائحك اليهم الاونحن فرغنا منك وقتلناكم أشر قتلة عن آخركم ؟ فقولوا لمحمد ينصركم ، ثم إنهم حملوا على يرغون ومن معه ، فاستقبلوهم بنية صادقة ، وهمم متوافقة ، وأعلنوا بكلمة الحق ، والصـلاة على سـيد الخلق ، وبذلوا صوارمهم فى العـدا واوردوهم شراب الردى ، وقصدوا نحو أعـدائهم وطلبوا بجهادهم منازل الجنة ، وطلقوا الدنيا ثلاثا وكانوا يمشون فى ظلمات ثلاث ، فانقدحت نار شوقهم بزناد صـدقهم فأحرق زرع الـكفر ــ فأصبح هشيما تذروه الرياح ــ ، فلما أضاءت لهم الأفـكار ولاحت لهم لوائح الأنوار لم يجدوا من يشار اليه بالوحـدانية و يوصف بالالهية وينعت بالأزلية الا الواحـد القهار ، فركضوا فى ميدان الاعتذار ، ونادوا بلسان الأقرار : آمنا بالله الواحـد القهار ، فلما سرّحوا خواطر الافتـكار ، فى أسرار الاعتبار . قالوا كيف عبدنا سواه ؟ ، ومالنا معبود إلا إياه ، فواخجلتنا إذا وقفنا بين يديه يوم العرض عليه ، فبأىّ عمل نلقاه ، و بأىّ بضاعة نقصد رضاه ، فأشار اليهم منادى الايمان من القرآن ــ وآخرون اعترفوا بذنو بهم خلطوا عملا صالحا وآخرسيئا عسى الله أن يتوب عليهم ــ ، فلما رحلوا فى عسكر الطاعة ، وخافوا من هول يوم الساعة ، وجعلوا رواحل رجائهم ، فى ركب إقبالهم ، وساروا فى موكب عزّهم وجـلالهم ، أشرقت شموس اسـلامهم فى فلك استسـلامهم ، وانقضت بازات أفراحهم ، من جوّ أتراحهم ، ومنادى جهادهم يناديهم : ياأخيار ــ سلام عليـكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ــ .

[قال الواقـدى] ودارت بهم الأوغاد ، وشرعوا نحوهم الصعاد ، وأشرف يرغون وأصحابه على الهـلاك ، واذ باب السور قد فتح وخرج منـه مائة فارس كالليوث العوابس ، وقد رفعوا أصواتهم بالتهليل والتـكبير ، ونادوا يامن تعلقوا بكلمة التوحيد أبشروا بالنصر والتأييد ، ها نحن قد لبينا دعوتـكم ، وخرجنا لنصرتـكم وسوف نخلصكم من الأمر المهول ، فنحن أصحاب الرسول .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] وكان هذا السور حصنا من الحصون وكان قد سـلمه ميتا لأصحاب رسول الله ﷺ وكان قد أرسـل عياض بن غنم عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق فى مائة فارس ليأتوه بالميرة ، وكان فيهم المقداد بن الأسود ، وضرار بن الأزور ، وسعد بن غنيم الأسدى ، ومعمر بن ماجد السلمى ، وبارى بن مرّة الغنوى ، وهلال بن عامر الأنصارى ، وعيينة بن رافع الجهنى ، وخضر بن يعشور الفزارى ، ومثل هـؤلاء السادات رضى الله عنهم أجمعين ، فلما وصلوا الى السور تلقاهم طالوت صاحب الحصن وأنزلهم وأكرمهم وأمر لهم بالطعام وأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى جاء يرغون ، وكان من أمره ما كان ، فلما سمعوهم يكبرون قالوا هؤلاء قد دخلوا فى ديننا ، وقد وجب علينا نصرتهم فخرجوا كما ذكرنا وحملوا على أعداء الله ونصروا يرغون ومن معـه وانهزموا فى الليـل الى مرج رغبان الى الملك شهرياض فأخـبروه بماجرى عليهم . قال فأيقن بذهاب ملـكه . قال فلما أصبح يرغون أتى الى الصحابة وشـكر الله

اذنجاه ومن معه على أيديهم ، وقد ازدادوا ايمانا وحدث الصحابة بما كان من أمرهم وسار معهم الى عياض بن غنم ، فلما جازوا على ماردين نزل اليهم ميتا وكان قد بلغه ماجرى فسلم عليهم وهناهم بالسلامة وقال ليرغون وأصحابه : ان كنتم تريدون الثواب الجزيل من الملك الجليل فتمموا اسلامكم بما ألقيه عليكم . فقال يرغون وكيف العمل ؟ قال ميتا انزل ههنا أنت ومن معك فاذا غربت الشمس فسيروا على بركة الله وعونه واقصدوا كفرتوتا . فاذا جئتم اليهم ليلا فقولوا لاهلها نحن قد وجهنا الملك اليكم لحفظ المدينة . فاذاصرتم داخلها فثوروا على اسم الله و بركة نبيه . قال ففعل ذلك يرغون وجلس الى أن جن الليل وارتحل بجيشه وثقله وودعوا الصحابة وساروا بالميرة وسار يرغون الى أن وصل الى كفرتوتا ، وكان آخر الليل والفجر بدر ، فلما وصل اليها أمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بذكر شعارهم حتى لاينكر عليهم القوم وجاءت الاثقال والبغال وسمع أهل كفرتوتا ضجة العسكر فاشرفوا عليهم من أعلى السور وسألوهم من أنتم ؟ قالوا نحن من عسكر الملك شهرياض وقد بعثنا لنكون عونا لكم .

[قال الواقدي رحمه الله تعالى ورضي عنه] وأعجب مافي هذه القصة أن الملك شهرياض قد بعث اليهم يعرّفهم انى مرسل اليكم جيشا مع الحاجب ، فاذا وصلوا اليكم فافتحوا لهم الباب فان العرب فى آثارهم . قال فلما وصل اليهم يرغون ومن معه وقالوا لهم نحن من عسكر الملك فتحوا لهم ودخلوا ولم يتكلم حتى انه نزل فى دار الامارة فلما استقر به الجلوس وثق من الأبواب وصعد الى السور وقال لاهل البلد استريحوا ، لان الملك قد وصانى بالحرس على البلد فقالوا أيها السيد ان كتاب الملك قد جاءنا بغير ماقلته بأن لايتولى حفظ البلد الا الحاجب . قال فلما سمع يرغون قولهم علم ان الملك يريد أن يرسل لهم جيشا فقال لهم انصرفوا الى منازلكم واياكم أن يظهر منكم أحد فى الليل فانى ان وقعت بأحد منكم قتلته قال فانصرفوا ولم يبق عنده سوى الوالى الذى كان من قبل توتا هو وغلمانه فقبض عليهم يرغون وضرب رقابهم وتركهم فى بعض الابراج المهجورة وقال لأصحابه كونوا على حذر فان شهرياض يريد أن يرسل جيشا الى هذه المدينة فاذا رأيتموهم قد وصلوا فانزلوا وافتحوا لهم درقة الباب الواحدة ، وكلما دخل فارس فأبعدوا به عن الباب وأنزلوه عن فرسه وخذوا عدته وكتفوه وألقوه فى البرج . قال فبينما هو يوصيهم اذ وصل الجيش وهم ألف فارس والمقدم عليهم صاحب الملك الكبير فصاحوا عليهم افتحوا لجيش الملك فتبادرت أصحاب يرغون ففتحوا درقة الباب الواحدة وقالوا لايمكن أحدا يدخل الاواحدا واحدا مخافة من يوقنا وأصحابه فانا نخاف أن يدخلوا فى جملتكم ، فبقى كلما دخل فارس رجلوه بعد أن يبعدوا به عن الباب ويأخذوا سلاحه وجواده ويكتفوه الى أن أدخلوا الألف والحاجب بعدهم ، فلما اجتمعوا نادوا بأعلى أصواتهم الله أكبر الله أكبر فتح الله ونصر وجاءنا بالظفر . قال فارتج كفرتوتا ووقع الرعب فى قلوب أهلها وعلموا أنهم ملكوا بلدهم فلم يتجسر أحد منهم أن يظهر فى المدينة ومن ظهر قتل ، فلما أصبح طلب يرغون أكابر البلد ومشايخها و بطارقتها ، فلما حضروا قبض عليهم وأنفذ الى عياض بن غنم يعلمه بما صنع ، فلما وصلت اليه الرسالة سجد لله شكرا ، وكان عبد الرحمن بن أبى بكر وأصحابه لما وصلوا بالميرة أخبروا المسلمين والأمير بما وقع وان يرغون مضى الى كفرتوتا فكان منتظرا لما يأتى اليه من خبره ،

فلما جاء الخبر بالفتح حمد الله تعالى وتفاءل بالنصر .

[قال الوقدى رحمه الله تعالى] قال عياض بن غنم للصحابة اركبوا ودونكم القوم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وأمر خالد بن الوليد أن يكون بأصحابه فى الميمنة من القوم وأمر عمر ابن سالم أن يكون على يسار القوم وقال لهم لا تخرجوا حتى تشب نار الحرب وتشتعل بالطعن والضرب فاحملوا واعتمدوا على السيوف فانها أقرب للحتوف وليكن شعاركم التهليل والتكبير واقطعوا أجل أمنيتكم من الحياة الفانية ، وارغبوا فى العيشة الراضية ، وإياكم والميل إلى دار الغرور ، فانها محل النوائب والثبور — فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور — وقفوا بهممكم وقوف قوم غذوا بحلاوة وصاله فصانوا أمرهم بالوقوف على طاعته فهاموا وتجردوا فى الليل لخدمته وقاموا فأثنى عليهم اذعجبه هاموا — ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا — قال فسار أصحاب رسول الله ﷺ نحو الجهات التى ذكرنا وزحف الموحدون ونشرت الرايات والبنود وتواعدوا على اللقاء فى اليوم الموعود وقالوا الهنا مالنا سواك من نصير فأنت — نعم المولى ونعم النصير — قال ووقع الصائح فى عسكر الروم أن المسلمين قد زحفوا وأشرفوا . قال فتبادروا الى القتال وتمسكوا بقول المحال ولبسوا وتدرعوا ، وعن الآخرة نزعوا والى الصليب تضرعوا ، ورفعوا رايات الطغيان وتلت عليهم الانجيل القساوسة والرهبان ، وفتحت لهم أبواب النيران عند ماأشركوا بالرحمن وصار على جيشهم من الكفر شبه الدخان ، وصار أمامهم الشيطان ، وعلا منهم الضجيج ووقعوا فى أمر مريج ، فلما نظر المسلمون الى كثرة من اجتمع من قومهم استسلموا لحكم القضا وقالوا نرضى بما قدر وقضى فنودوا من سرائرهم قد اشترينا منكم النفوس فاصبروا لحكم الملك القدوس ولا تولوا الأدبار فقد سبق الحكم وانبرى وخط القلم فى اللوح وجرى وكتب بأمر الله ان الله اشترى قالوا ماالذى اشتراه من له المنة قال أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . فقالوا نحن نريد التسلم لنصل الى جنان النعيم . فقيل لهم انهضوا الى سوق المبيع فقد هبت بشائر الربيع وتجلى لقبض أرواحكم البصير السميع فسبحوه وسجدوا ورفعوا أصواتهم بتوحيده ومجدوا ، فلما أيقنوا بالوصال طلع لهم سهيل الحال وأزهرت شجرة الاحوال واستدار لهم رقيبه فى فلك التيسير وناداهم — انى بما تعملون خبير — فلما سمعوا منادى الافكار يناديهم بالعشى والابكار بذلوا نفوسهم وأرضوا قدوسهم وجاهدوا واجتهدوا وحملوا واقتصدوا ونهلوا من نهر الشهادة ووردوا ولم يزالوا فى حرب الاعادى وموارد الاجتهاد فى مغانى ميادين الجهاد حتى خرجت الكمناء وهبت عواصف رياح الفناء ، فدمروا ما كان شيده الكفار من البنا وانتشرت أستار ماأملوه من الامانى والمنى فقتلت بينهم الصناديد ، وأصبحوا صرعى على وجه الصعيد ، وناداهم منادى التهديد — ان عذابى لشديد ، وما هى من الظالمين ببعيد — ، ولم يزالوا فى قتال الكفار الى أن مضى النهار وأقبل الليل بالاستتار ، والمسلمون يقولون ياليتنا دام لنا النهار ، ولاغلبتنا جيوش الاعتكار ، واذ قد ظهر لهم على أطناب سرادق القتار ، ولا الليل سابق النهار ، قال فلما مضى الليل بغياهبه ، وأقبل الصباح بجانبه بادروا الى الحرب والطعن والضرب ولم يمهل بعضهم بعضا دون أن وقعت الحملة على المسلمين فانهزم الجناح الأيمن ، وكان فيه أخلاط العرب . قال وانهزمت ميسرة العدو ووقع فيهم أصحاب رسول الله ﷺ ولم يزل القتال فيهم الى أن غلبهم الليل فانفصلوا ، فلما كان اليوم الثالث

تولى الحرب خالد بن الوليد ورتب الناس ترتيبا جيدا وجعل فى الميمنة باهلة وطيا ، وجعل فى الميسرة عديا وتميما وفزارة ، وفى الجناحين كندة وعاملة ومرة ، وفى القلب ابطال الأنصار من ذوى الشدة والانتصار ، وجعل راية الميمنة بيد عامر بن سراقة ، وراية الميسرة بيد ضرار بن الأزور وراية الجناح الأيمن بيد عبد الرحمن الاشتر ، وراية القلب بيد عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، فلما رتبهم قال لهم اتقوا الله الذى اليه مصيركم ، واعلموا انه متكفل بتأييدكم ونصركم واياكم ان تؤتى المسلمون من قبلكم واتبعوا سنن الذين فتحوا الشام من قبلكم ، فمن ولى الادبار كان مأواه النار وغضب عليه الجبار ، واعلموا ان الله فرض عليكم الجهاد وقتل الاعداء ، واعلموا أن الأحب الى الله تعالى جل جلاله قطرتان قطرة دم جرت فى سبيل الله وقطرة دمع جرت من خشية الله ، وهذا اليوم له من الاجر مالا يعد فاتقوا الله عباد الله واثبتوا فى هذه المواطن كما ثبتم فى المواطن الكبار واياكم والفشل فتذهب ريحكم وقوموا شريعة نبيكم ، واعلموا ان الله مع الصابرين ولا يضيع أجر المحسنين ، وها أنا أنفرد بجماعة من اخوانكم الى صليب القوم ولست براجع الا بحطم من حوله من الكفرة والمشركين . قال جل ذكره وكان حقا علينا نصر المؤمنين ، فاذا رأيتم صليب القوم قد هوى الى الارض فاحملوا ولا تمهلوا . قال فلما وعظهم خالد رتب كل صاحب راية فى موضعه وانتخب من انتخب من أبطال المسلمين وقال للناس : اذا رأيتم الصليب قد وقع فاحملوا والله ينصركم وحمل هو ومن معه وقصدوا لواء شهرياض وصليبه الأعظم فما ردهم عن حملتهم كثرة العساكر .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] ولقد بلغنى ممن أثق به انهم لما حملوا طحطحوا العساكر وزعزعوا الدساكر وأزالوا الابطال عن مراكزها والبطارقة عن مراتبها وما اعتمدوا الا على السيوف واستقبلوا بها الصفوف ، فلما رأى شهرياض فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى التاج عن رأسه وزعق بالبطارقة والاراجية والقياصرة وقال : يامعشر الروم من بنى الأصفر اعلموا انه مابين ذهاب دولتكم الا هذا اليوم فاما أن تقاتلوا عن دينكم وحريمكم وملككم وذراريكم وأولادكم والا أخذت منكم فاياكم أن تولوا الأدبار فمن تولى غضب عليه المسيح وأدخله النار .

[قال الراوى] و بلغنى أنه فى ذلك اليوم وصل اليهم بتركهم الكبير المشار اليه فى دينهم ومعه كل قس وشماس ورهبان بأرض الجزيرة جاء ليحرض الروم على القتال ، وكان هذا البترك اسمه دين الديروم ، وكان يسكن بدير يقال له دير قرقوت وانهم وصلوا قبل أن تحمل المسلمون فوعظهم بين الصفوف وقال : من انهزم منكم حرمته فلا يقبله المسيح أبدا ثم انفصل من القوم هو ومن معه وعلوا على رابية تشرف على القوم ورفعوا الصلبان وفتحوا الاناجيل وأشركوا بالملك الجليل .

[قال الواقدى] حدثنا عبدالله بن مالك عن موسى بن أبى العام عن الأشعب عن يحيى قال وحدثنا بشر بن عامر وكان ممن حضر وقعة مرج رغبان وكانت الواقعة يوم الثلاثاء ثالث شهر صفر سنة سبع عشرة وكان شهرياض قد أرسل الى رأس العين وسائر بلاده فأتوا بحريمه وحريم سائر الأجناد والبطارقة وأولادهم وأقامهن يوم المصف على أبواب الخيام وقال لهن مامن امرأة الا ترفع ولدها وتصيح باسم بعلها وأخيها ، و إنما فعل ذلك ليثبتوا فى القتال فأوقعوا الصياح

من كل جانب وعملت القواضب وثبت الروم ثباتا عظيما لأجل حريمهم وأولادهم ولأجل البترك ووقف فى مقابلتهم رجال من اليمن يرمونهم بالنبل ، وأما خالد بن الوليد ، فلما حمل بأصحابه وهو يريد صليب القوم سمع عياض بن غنم وهو يقول هذه الأبيات :

سنحمل فى جمع اللئام الكواذب ونفرى رؤوسا منهم بالقواضب
ونهزم جيش الكفر منا بهمة تطول على أعلى الجبال الرواسب
وننصر دين الله فى كل مشهد بفتيان صدق من كرام الأعارب
فيامعشر الأصحاب جدوا وجندلوا وكروا على خيل كرام المناصب
فدونكموا اقصدا الصليب وبادروا لترضى اله الخلق معطى المواهب

قال ثم قصدوا الصليب وكان اللعين شهر ياض لما صف الصفوف أقام حول الصليب الاعظم اثنى عشر ألف فارس كلهم لبس الزرد وترك امامهم حسكا من حديد حتى لايصل اليهم أحد ، فلما حمل خالد وأصحابه وقربوا من الصليب داست خيولهم على ذلك الحسك فانكبت على وجوهها فوقعوا عن ظهورها فانكبت عليهم الروم بغيظهم وحنقهم فاخذوهم بالا كف ، لأنهم وقعوا عن ظهور خيولهم من الحسك فأخذوهم عن آخرهم وارتفعت العطاعط من كل جانب وعملت المرهفات القواضب ، فلما نظر الامير عياض بن غنم مانزل بخالد ومن معه صعب عليه واشتد لديه ، وقال فى نفسه ياابن غنم مايكون عذرك بين يدى الله وقد مضت هذه السادة تحت رايتك فصاح باعلى صوته يامعاشر المسلمين احملوا ولاتمهلوا أيقظوا اهممكم وعجلوا واستخلصوا السادة من الاسر واطلبوا من الله النصر . قال فلما صاح عياض أوقفوا خالدا ومن معه أمام الصفوف فتأسف ابن وضاح بن مجيد بن نافور بن عمر بن سالم بن النابغة الذبيانى وكان من أفصح الناس لسانا ، وأجرئهم جنانا وأحدهم لسانا ، وأعلمهم بيانا وكان حليفا لخالد بن الوليد رضى الله عنه ، فبرز يومه بمرج رغبان وقال : أيها الناس ان الصبر والثبات جندان فلايغلبان ، وهذا يوم ياله من يوم وماترون من نخواتكم ومروتكم ودينكم أن تدعوا أصحاب رسول الله ﷺ فى يد العدا فاستنقذوهم من الردى واتقوا الله الذى اليه مصيركم ، واعلموا ان ترك الأشياء النفيسة لايليق الابالنفس الخسيسة ، أماتحققتم ان الدنيا تئول الى الزوال والفناء ، والآخرة هى دار النعيم والبقاء . أماعلمتم ان الهمم العلية الروحانية والأشباح الجسمانية عوّلت على الانتقال من الدنيا الساحرة الى دار الآخرة ، وقالت لابد من الرحيل ، لأن البقاء فى الدنيا قليل فتزوّدوا معاشر الأرواح فقد قرب الرواح والقصد منكم قد عرفناه ومرادكم قدفهمناه وان سفركم سفر شاق يحتاج الى زاد ورفاق قالوا فما الزاد الذى نكثر منه ولا نعدل عنه قيل لهم الزاد الاقوى فى وتزوّدوا فان خير الزاد التقوى قالوا أما هذا الزاد فنا من يقدر عليه ومامنا من لم يقدر عليه قيل اياكم والتعرض لهذا السفر بغير أعمال واعملوا ليوم لابيع فيه ولاخلال ، فلماتزودوا أخلصوا ومن جيفة الدنيا تخلصوا خلع عليهم خلع الانعام وتوجهم بتاج العز والاكرام وجعل لهم الفردوس نزلا وقال فى حقهم ـ كانت لهم جنات الفردوس نزلا ـ واسمعوا ماقال فيهم الملك المقتدر ـ فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ـ قال فعندها حملوا بأسرار صافية وهمم وافية وطعنوا فى صدور الرجال ورفرفت على رؤوسهم طيور الآجال ووضعوا السيف فى الروم وجعلوه عليهم يوما مشئوما . قال ولم يزل القتال بينهم بقية يومهم الى الليل

وانفصلوا عن القتال ورجع المسلمون وهم متأسفون على أسر خالد ومن معه ، فانهم لما وقعوا فى الأسر وانفصل الناس من القتال وجنّ الليل أرسلهم الملك شهرياض الى رأس العين مع حاجبه نقيطا بن عبدوس ومعه ألف فارس وأمره أن يسير بهم فى الليل ويجدّ بهم فى السير وأن يسلمهم الى والى رأس العين . قال فسار بهم ولم يطلع الفجر الا وقد وصل بهم الى رأس العين وأرسل من يعلم الوالى بالقصة ، فخرج فى موكبه للقائهم ووضع الصائح فى رأس العين بقدومهم فما تخلف أحد وكان لهم يوم مشهود فألقاهم الوالى فى الكنيسة العظمى التى هى جامع اليوم وأوثقوهم فى الحديد .

قال **حدثنا** فاهم اليشكرى عن بشار بن عدى عن سراقة بن زهير عن خزيمة بن عازم عن جده عن عبد الله بن عامر . قال انه لما فتح الرها وحران وسروج صلحا اجتمع يوقنا ومعه أصحابه . فقال اعلموا أن الله سبحانه وتعالى قد فتح علينا هذه البلاد ، وان رأس العين مدينة عظيمة وأهلها قد استعدوا للقتال وآلة الحصار وربما صعب أمرها وعسر فتحها على المسلمين ، وانى معوّل أن أهب نفسى لله وأسير مع أصحابى فلعلى أن أحصل فى داخل المدينة ، ولعل الله أن يفتحها على يدى . فقال له سعيد بن زيد قوى الله عزمك وسدد أمرك ؟ قال وعوّل على المسير فى تلك الليلة واذا بعيون المسلمين قد أقبلت الى حران يخبرون أنه قد أتى عاصم بن رواحة المتنصر فى خمسمائة فارس من قومه من إياد الشمطاء ، وكان قد وصل مع قومه الى قسطنطينية وقد ورد على الملك هرقل كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأن يبعدهم عن دياره فأبعدهم عن أرضه فتفرّقوا فى كل موضع وأتى منهم عاصم بن رواحة الى هذا الملك شهرياض فى خمسمائة فارس وكان الملك يحبه ، ولما وصل الى البرّية كتب الى الملك يعرفه انه خرج من بلاد القسطنطينية وأتى قاصدا الى بلاده وخدمته و بعث الكتاب مع رجل من بنى عمه اسمه رفاعة بن ماجد فوصل الى الملك وأعطاه الكتاب ففرح الملك بقدومه وأمره أن يعجل فى الحضور وأرسل الى والى رأس العين بأن يخلى له دارا ينزل فيها اذا قدم مع أصحابه ، فلما سمع يوقنا ذلك الخبر من عيونه فرح وقال من أىّ طريق يأتون . قال من طريق سروج و بقى بينكم و بينه ليلة واحدة ، فخرج يوقنا ومن معه وصحبهم عمرو بن معد يكرب وسعيد بن زيد ومن معهم وكمنوا لهم فى موضع قد علموا أنهم لابدّ لهم من العبور فيه ، فلما ضرب الليل سرادقات ظلامه ونصب على الخافقين أعلامه إذ أقبلت خيول القوم وسمعوا حسهم فصبروا حتى توسطوهم من كل جانب وقصد كل واحد واحدا فأخذوهم عن بكرة أبيهم ولم ينفلت منهم أحد واحتووا على أثقالهم ورحالهم ورجعوا الى مكمنهم ونزلوا عن خيولهم . فقال لهم سعيد بن زيد من أميركم حتى أخاطبه فأشاروا الى عاصم بن رواحة . فقال له سعيد بن زيد يابن رواحة أى مناسبة بينكم و بين الروم حتى لذت بهم وملت الى جانبهم وتركت العرب العرباء فأنت منا والينا وحسبك حسبنا ونسبك نسبنا ، لان أنمارا وايادا وربيعة ومضر كلها ترجع الى نزار بن معدّ بن عدنان ، وان الله تعالى قد اختارهم لسكنى حرمه وبجوار بيته وقد كنا نعبد الأصنام ونستقسم بالأزلام ونتبع طرق الحرام حتى بعث الله نبيه محمدا ﷺ وأنزل عليه — وأنذر عشيرتك الأقربين — وأمره بالمقام فى دار الخيزران ، ثم دعاهم الى عبادة الملك الديان وقال لهم أنتم من ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل وقد فضلكم بارئ النسم بسكناكم البلد الحرام والبيت المعظم وزمزم والمقام فمالى أراكم على الأصنام عاكفين وبالأزلام حالفين

وفى ثياب الكفر رافلين : أما لكم عقول تردكم : أما لكم بصائر تصدكم : أما أنتم من ذوى الأحلام الراجحة : أما أنتم من ذوى الآراء الشامخة ، أهذا خلقتم أم به أمرتم ؟ ، نحتم الأصنام من الأحجار وسلكتم طريق الفجار وكفرتم بالواحد الجبار الذى سير البحار وأجرى الفلك الدوّار ، وخلق الليل والنهار : أما تشكرون الصانع الذى جعل النجوم طوالع وكلّ اليه راجع . قالوا يامحمد من أمرك أن تسبّ آلهتنا وتسفه أحلامنا ؟ . قال ياقوم العلم أمرنى والعقل بصرنى : أماعلمتم أنه من نظر فى المصنوعات وتدبر علم أن لها صانعا لايتغير ، فالنظر فى المخلوقات حكمة ، والتفكر فى صنعه والاقرار بوحدانيته نعمة والايمان به رحمة . قالوا فمن تعبد ؟ قال أعبد الذى فطرنى وصوّرنى وشرح خاطرى ونوّر بصائرى وخلق المخلوقات وقدّر وصنع المصنوعات وأنزل الأرزاق بقضاء وقدر ليس فى مشيئته كيف ولا فى أقضيته حيف : يقول ولايتلفظ ويريد ولايظهر ويسمع ويبصر تعالى عن المكان والأين والشبيه والبين ، وقال — لاتتخذوا إلهين اثنين — : أماعلمت يا ابن رواحة أن ديننا هوالحق وقولنا هو الصدق ومابعث الله نبيا الا وأمر أمته باتباع دين الاسلام . قال الله تعالى فى القرآن — ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين — وقال تعالى — اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا — وقال — وماجعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل — وأنت تعلم الآن أنكم فى قبضتنا وأسرنا ، فان آمنتم بالله وصدقتم برسالة نبيه ﷺ كان لكم مالنا وعليكم ماعلينا وان أبيتم ضربنا أعناقكم . قال فلما سمع عاصم بن رواحة ذلك من كلام سعيد ابن زيد . قال وان نحن رجعنا الى قولكم واتبعنا دينكم يغفر لنا ربنا ماسلف من الاشراك فى ربوبيته والسجود لغيره ؟ . قال سعيد نعم ، لان الاسلام يهدم ما كان قبله وجميع ما كنتم فيه لايطالبكم الله به وتخرجون من الذنوب كما خرجتم من بطون أمهاتكم الى الدنيا ، ثم تلا قوله تعالى — قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم — فلما سمع عاصم كلام سعيد قال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، فلما نظر أصحاب عاصم اليه وقد أسلم أسلموا عن آخرهم ، ففرح المسلمون بذلك وقالوا قد وجب علينا أن نطيب قلوب هؤلاء القوم ثم ساروا الى حران وأنزلوهم وخلعوا عليهم . فقال يوقنا الآن فتحنا رأس العين ورب الكعبة . فقال سعيد فكيف ذلك ياعبد الله ؟ قال سوف أريك بيان ذلك ، ثم انه قال لعاصم بن رواحة فى السرّ بينه وبينه أريد منك أن تشدنى كتافا أنا وأربعين من أصحابى وتجعلنا على ظهور الجمال التى تحمل أثقالكم وتركب مع هؤلاء السادة يعنى الأربعين الذين هم من أصحاب رسول الله ﷺ وتسيروا من ليلتكم هذه الى رأس العين وتقولوا لواليها لما عبرنا الفرات خرج هؤلاء علينا فنصرنا المسيح عليهم فقتلنا من قتلنا وأسرنا هؤلاء وأتينا بهم اليكم وإياك أن تمكنه أن يقتل واحدا منا ، واذا أراد ذلك تقول له ان المصف بين يدى الملك وبين العرب ولا ندرى من يؤخذ من أصحابنا فيكون عندنا الفداء وتترك أصحابك بحران . قال عاصم : ولم لانسير بأجمعنا وبأصحابى كلهم ؟ . فقال يوقنا : ان الاسلام لم يتمكن بعد من قلوب القوم ونخاف أن أحدا منهم يغمز علينا فيفسد حالنا ، والثقة بكل أحد عجز . فقال والله لقد صدقت فى قولك فنزل ببنى عمه الخمسمائة فى حران ، وانما قال يوقنا ذلك ودبره ليكونوا على

سبيل الرهائن . قال فكتفوا يوقنا والأربعين من بنى عمه وتزيا الصحابة بزى اياد الشمطاء وخرجوا من حران فى الليل وطلبوا رأس العين ، فلما وصلوا الى مكان يعرف بعلوا اذا بقرع حوافر الخيل فأخفوا أمرهم حتى وصلوا اليهم ، واذا هم بأربعمائة عبد أسود وخمسين وهم يقرءون القرآن و بعضهم يسبح فاستقبلهم سعيد بن زيد ومن معه وكبروا مثل تكبيرهم وقربوا منهم فاذا هم موالى أصحاب رسول الله ﷺ والمقدم عليهم دامس أبو الهول رحمه الله تعالى ، وكان السبب فى قدومهم أنه لما بعث عياض بن غنم كتابا الى أبى عبيدة يستنجده على القوم ويعلمه بمن قد اجتمع من الكفار بمرج رغبان . فلما قرأ الكتاب أرسل دامسا ومن معه لنصرة الاسلام ، وكانوا بسميساط وبلادها ، ومنذ فتحوها استمروا بها حتى جاءهم كتاب أبى عبيدة : فترك دامس على سميساط وبلادها من يثق به ، وجاء فى العدة التى ذكرناها . فلما لقيهم سعيد بن زيد سلم بعضهم على بعض وفرحوا باجتماع الشمل ، ونظر دامس الى الجمال وعليها يوقنا وأصحابه . فقال أظفرتم بهؤلاء فى طريقكم . فقال سعيد : هذا يوقنا عبد الله وأصحابه قد باعوا نفوسهم لله . قال فلما سمع أبو الهول كلام سعيد سجد لله على قربوس فرسه وأتى الى عبد الله يوقنا وسلم عليه . فقال له : مرحبا بقوم طلقوا الدنيا بتا زهدا ، وطلبوا مرضاة الله . ثم إنه قال لسعيد بن زيد : ياصاحب رسول الله أشركونا معكم فى هذه الحيلة . قال نعم ، ولكن اسحبوا هذه الجمال وأخفوا الدروع والعدد واحتزموا فوقها وسوقوا الجمال أمامكم كأنكم عبيدنا فانه لاينكر عليكم من رآكم . قال : ففعلوا كما أمرهم سعيد وأخفوا سلاحهم فى وسط الجمال وأقبلوا على سوقها . فلما وصلوا الى الزليخة نزلوا هناك ولبسوا وتدرعوا ونشرت الأعلام والصلبان التى كانت مع اياد الشمطاء ، وداروا بيوقنا وأصحابه وجعلوهم بينهم وساروا حتى قربوا من رأس العين فبعث سعيد رجلا من حلفائهم الى والى رأس العين يبشره بقدوم عاصم بن رواحة واياد الشمطاء ، فلما وصل اليه الرسول خرج بالمواكب الى لقائهم ، وقد أعلمه الرسول بقدوم يوقنا أسيرا ومعه أربعون من أصحابه ، فصاح الصائح بذلك ، فما بقى أحد إلا وخرج أمام الوالى والتقوا بالصحابة ، وهم بزى أصحاب إياد الشمطاء ، وقد داروا بعاصم بن رواحة وكان الوالى يحبه ويعرفه فترجل اليه وترجل عاصم وتعانقوا ، وأقبلت المواكب يسلم بعضها على بعض . فقال الوالى كيف أخذت هؤلاء وهذا المارق يعنى يوقنا . فقال له انا لما وصلنا الى الفرات وعدّينا خرج علينا برجاله فقاتلناه وقاتلنا فنصرنا المسيح عليهم بعد ماقتلنا منهم خمسين رجلا وأخذنا هؤلاء وانهزم الباقى . قال ففرح الوالى وأقبل على يوقنا يوبخه بكلام وهو لايرد عليه والروم تشتمه وتسبه وهو لاينظر اليهم ولا يكلمهم الى أن دخلوا رأس العين وأمرهم أن يجعلوهم عند الأسارى فى بيعة نسطوريا ، وقال لهم احتفظوا بهم حتى نكاتب الملك ويرى فيهم رأيه ، قال فجعلوهم عند خالد وأصحابه . ثم ان عاصما . قال للوالى أنت تعلم مابيننا و بين هؤلاء القوم من العداوة وان كانوا عربا مثلنا ، ونخاف أنك تجعل على حفظهم أحدا من الروم أو من الأرمن ، وأن يتحدثوا معهم باطلاقهم وتدخل المضرة على الملك وعليكم ، والصواب أن نجعل بعضنا فى البيعة وبعضنا خارجا فانه من أتى الى الجهاد لايركن الى الراحة ، فانه من تعب فى الدنيا قليلا استراح فى الآخرة طويلا . قال : فاستصوب الوالى رأيه وأنزله فى البيعة هو وأصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وأضاف يوقنا الى خالد .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] حصل ستمائة فارس من المسلمين .

[قال الراوى] فلما استقروا فى البيعة وجن الليل قام سعيد بن زيد الى خالد وسلم عليه و بشره بالفرج . فقال يا ابن زيد لقد علمت بذلك منذ قيل ان يوقنا قد أتى به ومعه أربعون فنظرت بنور الايمان فعلمت صحة ذلك . قال وان الوالى بعث الى الملك يبشره بأخذ يوقنا ومعه أربعون من أصحابه وقدوم عاصم بن رواحة ومعه خمسمائة من أصحابه ، فلما بلغه الخبر أمر بالبوقات فضربت فسمعت المسلمون بذلك . فقالوا ماضربت البوقات الالأمر يهمهم اذ أقبل عباد ابن بشير وهو متنكر وأتى الى عياض بن غنم ، فلما رآه قام اليه وسلم عليه ، وقال يا ابن بشير بم تبشرنى أقر الله عينيك فلم يرد عليه شيئا حتى خلا به وحدثه بجميع ماجرى ، فلما سمع عياض بشارة عباد بن بشير سجد شكرا لله . فقال عباد أيها الأمير ان سعيد بن زيد ومن معه يسلمون عليك وعلى من معك ويقول لك أنجز المصف فلعل أن يفتح على يديك فما بينك و بين فتح رأس العين إلاأن تهزم القوم وقد فتحت . فقال عياض توكلنا على الله ، فلما جن الليل جمع أصحاب الرايات وحدثهم ، وقال لهم لا تعلموا أحدا مخافة من جواسيس الروم ولا يصبح الصباح إلاوأنتم على أهبة الحرب ، قال فما أصبح الصباح الا والمسلمون قد أخذوا أهبة الحرب ، فلما طلعت الشمس وانبسطت على الأرض علت على الخيل ركابها وحملت بأصحابها وشبت من الحرب نارها وطار شرارها ، وقطعت الجماجم ، واستعرت الملاحم ، وصالت أسودها ، وتعفرت خدودها وصبرت علي شدة حالها ، وحانت منها أحوالها ، وتدانت آجالها ، فهم فى الحرب متوافرون وفى العدد والعديد متقاربون ، وفى الزحف الى الفزع مختلفون ، والعجاج ثائر ، والدم فائر ، والاسلاب مطروحة للضياع ، ولحوم القتلى رزق للطير والسباع ، ولقوة العمائم تشتكى منها الاسماع ، والشمس تضجر منها الجسوم والنفوس ، والحرب قد أخذت أمرا يقطع الآجال ، وقد شمرت عن ساق وسروال ، والوطيس قد حميت جوانبها ، واستحيت عن مجانبها ، والصفوف تدانت الى الهياج ، وقد غيبهم غيم العجاج ، وكل مقدم قد شذ منه جيشه وتكدر بعد الصفو عيشه ، والخيل تكر كرات ، وتجتمع مرات ، والسيوف تقطع البيض ، والنفوس تكاد تميز من الغيظ والغبار قد سحب ذيلا زنجيا ، وانسبل وأسبل على الوهاد رداء سجيا ، والطيور قد حامت ، وكأن القيامة قد قامت واستقبل المسلمون هذا الحرب الخطير ، والضرام المستطير حل بالروم العقاب وسمحوا بنفوسهم ولقوا أليم العذاب ، ونال المسلمون مارغبوا فيه من حسن المآب .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] والتقى عبد الله بن عياض بن وائل وعبد الله ابن قرط بالملك شهرياض وقد عوّل على الهرب وكل من فى جيشه قد اشتغل بنفسه عن نصرته وليس عنده سوى عشرة من غلمانه فاطبق عليه عبد الله بن قرط وعبد الله بن عياض .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] ولم أدر أيهما كان أسبق بالطعنة فطعنه فى صدره فاخرج السنان من ظهره ، فلما نظر غلمانه الى ملكهم مجندلا ولوا على أدبارهم ونزل عبد الله فاحتز رأسه وجعله على رمحه وركب وصاح : ألا وان الملك قد قتلته فمن كان منكم يثبت

للحرب فليثبت وصالت المسلمون على أعداء الله ووضعوا فيهم السيوف فقتل من قتل وانهزم الباقون بعد ماأسروا منهم من أسروه وقد تركوا الأثقال على حالها والأموال والسرادقات فاحتوى عليها المسلمون .

[قال جديد بن ناشب الضيمرى] كنت مولعا اذ سكنت الحرب بعدد من قتل من الروم فأخذت مخلاة على عاتقى ، وملأت حجرى حصى ، فكنت لاأمرّ بمقتول الا وطرحت عليه حصاة ، ثم عددت الحصى ، فاذا هى ثمانون ألفا وسبعمائة وخمسون ، وأما الأسرى فلا يحصيهم عدد ، فلما وضعت الحرب أوزارها أمر عياض بالأثقال والأسرى الى كفر توثا ، و بعثها مع الصلت بن مازن ومعه ألف فارس ، وأمره أن لايبرح منها ، حتى تفتح رأس العين . قال ثم ارتحل عياض فى أثر الوقعة الى رأس عين وردة و بات ليلته يتلو القرآن . قال ووصل المنهزمون الى رأس العين ، وهم بأسوإ حال ، ووقع الصائح بجوانب المدينة بهزيمة الجيش ، وقتل الملك شهر ياض فعظم عليهم ، وكبر لديهم ، واستوثق الوالى مرسيوس من المدينة والأسوار وعوّل على أنه فى غداة غد يضرب رقاب المأسورين ، وكان من عادة الروم اذا قتل منهم ملك يقتلون عليه مائة أسير من أعدائهم ، فلما كان الغد ركب عدوّ الله مرسيوس الوالى وسط المدينة وأمر أن يؤتى بالأسرى وهم خالد ومن معه ليضرب رقابهم فأرادوا أن يأتوا بهم واذا بعياض قد صبحهم صباحا فأشغلهم عن ذلك ، ونزل على باب أسطاحون وهو الباب الشرقى ، وكان قد ضرب على الباب المذكور قبة من الديباج المدثر برسم عدوّ الله مرسيوس ، والى جانب القبة منجنيق عظيم يتعلق فى حباله مائة رجل ، وكان صاحبه ابن عم الملك ، وكان اسمه مترقيس بن اشفكياص ، وكان أبوه هوالملك قبل شهر ياض ، وهو صاحب الدنانير الاشفكياصية . قال وإنما تقدم عياض بالمسلمين للقتال ، حتى يشغل أعداء الله عن خالد ومن معه بالمدينة ، فصاروا يرمون بمجانيقهم وسهامهم ، وكان قد وصل مع عياض غلام من أهل المدينة اسمه جبيل بن سعد الدارى ، وكان أرمى خلق الله بالنبل ، وكان قد وصلت له أم عجوز ، فلما كان ذلك قال : ياأماه أريد أن أجاهد هذا اليوم فى الله حق جهاده ، فلعلى أن ألحق باخوانى وجدى الذين قتلوا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فودّعها وسار . فقالت يابنىّ سر والله ينصرك ويؤيدك ، قال ثم إنه تقدّم ووقف وهو يتستر ، وكان قد شاع ذكره بين العرب ، وأنه كان ينظر الى الطائر فى الجوّ . فيقول : إننى قد عوّلت أن أضرب هذا الطائر فى موضع كذا ، فيضربه فيقع الطائر والضربة فى المكان الذى ذكره ، فلما كان يوم قتال عين وردة تقدّم وجعل يضرب البطارقة من أعلى السور ، فلا يقع سهمه الا فى فؤاد أو فى حدقة ، حتى قتل ثلاثين بطريقا ، منهم من وقع الى المدينة ومنهم من وقع الى الخندق . قال وكشف برج الباب . قال وكان عدوّ الله مترقيس المتقدم ذكره صاحب المنجنيق أرمى خلق الله ، فجعل يعبر ويرمى . فقال الناس لجبيل بن سعد : أيها الغلام أبعد لئلا يصل اليك حجر المنجنيق فانا نخاف عليك منه . فقال ياقوم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى كتاب الله العزيز — أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة — ولا بدّ أن أثبت لهم ، ثم إنه رمى رجلا من الذين يجرون الحبال فقتله ، وثانيا وثالثا فقتلهما ، قال فهربت البطارقة عن الحبال ، وقالوا لاطاقة لنا بالوقوف فى هذا المكان من هذا

الغلام . فقال مرسيوس البسوا الدروع واستتروا ، ففعلوا وقعدوا فى الحبال ، ورمى بحجر فوقع فى رجل من بجيلة فقتله ، ولم يزل حتى قتل ستة رجال . قال وإن جبيل بن سعد يرمى فلا تخطىء نباله وهو يقول : واشوقاه الى الشهادة وأن أصل إلى دار العلم والشهادة ، فنودى من سرّه إن أردت ذلك فبادر الى ذلك ولا تخف ولا تحاذر ، وأطلق عنان كلينك فى ميدان طلبتك و إياك والتخلف عن بابنا ، فمن أرادنا أردناه ومن أحبنا أحببناه . فقال هاأنا أتقدم وجنانى فى الحقيقة لايتألم ، قد بعت منك نفسى فاقبل شراها فعسى أن آتى الجنة وأراها ، فقيل له قد قبلناك فاصرح وأطلق لسانك بشكرنا وافرح ، فمن باع نفسه منا لم يكن بمغبون ، واسمع ماسطرناه فى الكتاب المكنون ، ـ ولاتحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ـ . قال فبينما هو كذلك اذ عبر عليه عدوّ الله ورماه ، وكذلك جبيل قصده بنبلة فوقعت فى صدره ومرّت من ظهره ونظر جبيل الى الحجر وقد قصده ، فعلم أنه ميت ، فالتفت الى ابن عمّ له اسمه رافع بن خالد . وقال له بلغ العجوز سلامى ، وأنشدها هذه الأبيات ، وجعل يقول :

أيا رافعا إلا حملت رسالتى ... تخبر أنى قد لقيت حمامى
و إن جئت أمى رافعا وعشيرتى ... فخصهم منى بكل سلام
و إن سألت عنى العجوز فقل لها ... قتيل بحجار لاقتيل سهام
طريحا بباب الحصن لمانطايرت ... من الحجر الصلد الأصم عظامى
ولست أبالى أن قتلت لأننى ... أرجى بقتلى فى الجنان مقامى

قال : وعلم عياض بقصته فبكى رحمة لأمه ، وأمر به فدفن بعد ماصلى عليه و بلغ خبره الى أمه فصبرت صبر الكرام وقالت يابنىّ عشت سعيدا ومت شهيدا وسلكت سبيل آبائك فرحمك الله وآنس غربتك ونفعنى بك يوم القيامة ، ثم قرأت ـ الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا اليه راجعون ـ .

قال حدثنا معمر بن الجون النبهانى ، وكان ممن حضر مع جدّه سراقة فتح رأس العين . قال : لما قتل جبيل بن سعد فرحت الروم ، وان عدوّ الله مرسيوس صاحب الأمر بعد شهرياض لما رأى أن المسلمين معوّلون على حصاره مضى فى الليل الى بيعة نسطوريا وصلى بها وقرب القربان ، وكان من بغضه للمسلمين قد صوّر على باب البيعة صورة رجل من العرب وكتب عليه هذا نبىّ العرب ، فكل من دخل البيعة يبصق عليه ، وكان فى داخل البيعة صورة القيامة والميزان والصراط والجنة والنار وصورة عيسى و بيده الصليب وصورة أمه تحت لوائه على باب الجنة . قال : فلما صلى قال لعاصم بن رواحة : لقد أردت الليلة أن أقرّب عشرة من هؤلاء العرب الأسرى فى بيت المذبح . فقال له عاصم : ليس هذا برأى أيها الملك حتى ترى ما يكون من أمر العرب وهذا بين يديك . قال فسكت وخرج : وان عاصما لم يترك فى البيعة أحدا من الروم ، واستوثق من أبواب البيعة ودخلت الصحابة الى بيت المذبح ، فوجدوا فيه سلاحا كثيرا مما كان يجتمع من النذور ، فأخذوه وعوّلوا على أنهم فى صبيحة غد اذا اشتغل أهل المدينة بالقتال ليثورون فى المدينة . قال ولما دخل الليل قاموا يذكرون الله وينظرون الى تلك الصور المصوّرة وصفة القيامة والصراط والجنة والنار . فقال عاصم بن رواحة لسعيد بن زيد الحرب الى دين رسول الله ﷺ

يزيد في الايمان . قال نعم ، ويقرب الى مقام ابراهيم اذا كان يوم القيامة يوم الحسرة والندامة ، وعصفت رياح الطامة ، وحشرت الخلق والورى ، وبرزت الجحيم لمن يرى ، وصفت صفوف العالمين ، وحييت جوانب المتقين الموقنين ، ونشرت رايات الصادقين ، ورفعت أعلام المحققين ، ونصبت منابر الأنبياء والمرسلين ، وتصدرت مراتب الصديقين ، وفرحت أرواح الموحدين ، وضاقت أرواح الكافرين ، وزهقت نفوس المشركين ، وقيل بعدا للقوم الظالمين ، وذلت الملوك والجبابرة ، وطأطأت رءوس الأكاسرة والقياصرة ، واستبشرت الأبرار ، ويئست الفجار ، ونادى مناد الملك الجبار : لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ، ألم نحذركم دار البوار ؟ ألم يأتكم الانذار ؟ ألم تسمعوا ماأنزل على السيد المختار ؟ قل تمتعوا فان مصيركم الى النار ، هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ، هذا يوم العرض ، هذا يوم الوفاء ، هذا يوم الجزاء ، هذا يوم الراجفة ، هذا يوم الآزفة ، هذا يوم الفصل ، هذا يوم العدل ، فاذا غص الموقف بأهله ، وقدم كل ذى جهل بجهله ، وعضت الأنامل أسفا ، وطارت القلوب لهفا ، ونادى المنادى يامعاشر المجرمين : امتازوا فان المتقين قد فازوا ، أما سمعتم فى الكتاب المكنون ، وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، فبينما هم قد كظمهم العطش ، ولحقهم الدهش ، وعظم الأرق ، واشتد القلق ، وسال العرق ، ونادى المنادى ، وهم يسمعون وقفوهم إنهم مسئولون قفوهم حتى يروا هيبتى ومملكتى ، قفوهم حتى يشاهدوا سلطانى وعظمتى ، قفوهم حتى يعرضوا علىّ ، قفوهم حتى أناقشهم الحساب ، أين من عصى وأجرم ، أين من طغى وظلم ، أنا الجبار الأعظم ، لاأرحم من لايرحم ، أين أمة نوح ، أين من كان يغدو فى البطالة ويروح ، أين أمة هود ، أين آل ثمود ، أين أمة التظليل ، أين أمة شعيب ، أين أهل الشرك والشك والريب ، أين أمة التوحيد ، أين أهل الصلاة والتمجيد ، أين أهل القرآن ، أين أمة راكب البراق ، أين أمة طاهر الأخلاق ، هلموا للعرض والحساب ، فقد تجلى رب الأرباب ، لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب ، والمصطفى ﷺ فى كبكبة حشمته ، وموكب زينته ، على رأسه تاج الرضا مكتوب عليه بقلم الامضا — ولسوف يعطيك ربك فترضى — وبيده لواء الحمد ، وبين يديه جنائب السعد ، وعن يمينه الأنبياء ، وعن يساره الأولياء والملائكة وقوف بين يديه ، وأهل الموقف ينظرون اليه ، وأمته يصلون عليه وقد تهللت وجوههم فرحا ، وقد أسبل عليه الاسلام سرباله ، واوصل بهم حباله ، قد نادوا ربهم بالتمجيد ، وازعجوا الموقف بالتوحيد ، وقد أضاء نور إيمانهم ، وعرضوا على ديانهم ، واستشهدهم على الأمم فشهدوا ، فقبلت شهادتهم وغيبت عنهم نجوم الافلاس ، وأمنوا من الهول والباس ، ونادى مناديهم — كنتم خير أمة أخرجت للناس — وأهل الموقف ينظرون الى جمالهم ، ويتعجبون من هيبة جلالهم ، ويقولون : لقد فاز من اتبع ملتهم وصدق شريعتهم . قال مالك يوم الدين ربما يودّ الذين كفروا لوكانوا مسلمين ، فاذا ورد مقامه ، أطال فيه هنالك قيامه ، وبسط كف ابتهاله ، وبالغ فى طلبه وسؤاله ويقول : أسألك قبول شفاعتى فى العصاة من أمتى . وإذا بالنداء : وعزتى وجلالى لاأخلف لك وعدا ولاأنقض لك عهدا ، ولأرين أهل الموقف علوّ شأنك ورفيع مكانك ، ولأعطينك حتى ترضى — ولسوف يعطيك ربك فترضى — . قال فازدادا عاصم إيمانا ، فلما كان وقت السحر ، وثبت الصحابة على أقدام الحزم والعزم ، وخرجوا على أهل المدينة ، فاستعانوا

بالله وقالوا . اللهم انصرنا كنصر نبيك يوم الاحزاب ، وقال خالد إياكم أن تفترقوا فتذهب ريحكم واتقوا الله الذى إليه مصيركم ، واعلموا أن الأعداء يجتمعون عليكم والنساء يرجمنكم ، والشباب يقاتلونكم وإياكم أن تطمعوا أحـدا فى بحار الحرب ، بل اصبروا على مر الكرب والضرب ، وإنما يتبين صبر الرجال عند ملاقاة الأهوال ، وما نحن ممن يفزع بهجوم الآجال لأنا قد تحققنا أن لكل منا أجلا لا يتعداه ، ومن خاطر بعظيم نال عظيما ، وهذه اسمها عظيم والجمع فيها أعظم ، وهى قصور ديار بكر وربيعة ، وقد حصلنا فى وسط مدينة القوم ، فان كنتم طالبين الظفر فاصبروا ولا تعجلوا فالصبر مقرون بالظفر ، والعجلة مقرونة بالزلل ، والصبر عاقبته النصر ، واعلموا أن هذه البيعة هى بيعتهم المعظمة ، ولا بدلهم من القدوم الى الصلاة ، فاذا حصل واليهم ههنا ومقدم عساكرهم أطبقنا عليهم من كل جانب ، وقصمناهم بالقواضب ، فانه إذا قتلت الملوك وعظماء البطارقة فما يجسر بعدهم أحد أن يرفع يده ، وأما العوام فلا اعتبار بهم . فقال عاصم بن رواحة : لله درك أيها الأمير ما أخبرك بالأمور والحرب ، ولقد تكلمت بالصواب وأحسنت فى الخطاب ، فليقر كل واحد منكم فى مكانه وأخفوا سلاحكم فى أعيابكم ، فاذا اشتغل القوم فى صلاتهم ثرنا عليهم ومددنا أيدينا إليهم ، فاستصوبوا رأيه . قال وكانت الصحابة فى بيت كبير فى البيعة كان برسم النذور وفيه شيء من الأمتعة لا يثمن لكثرته .

[قال الراوى] حدثنا عبد الله بن يانس ، عن جده فياض بن زيد ، وكان من جملة من ذكرناهم من الصحابة وحضر فتوح رأس العين . قال هكذا كانت قصتنا وكنا قد دبرنا هذا التدبير ، ثم رجعنا عنه ، وكان من الأمر المقدر أن ذلك اليوم الذى رجعنا فيه لم يقاتل فيه أحد من جند رأس العين وكان له سبب نذكره .

[قال الراوى رحمه الله] كان من قضاء الله السابق فى خلقه ، أنه كان للوالى أخ عاقل لبيب له رأى وتدبير ، وكان يعرف من الحكمة التى وصاه بها فهرايس أحد حكماء اليونانيين ، وقد عرف من علم الملاحم ، وكان صاحب سر شهرياض ، فما كان يفعل شيأ الا بمشورته وكان قد نهاه عن قتال العرب وقال له : ما أرى لك فى قتالهم خيرا والأمر عليك لا لك ، فلما كان من الملك ما كان ، وقتل جيشه ورجع الأمر الى مرسيوس . قال له أخوه الحكيم ، وكان اسمه اسالوس ، معناه حكيم زمانه : اعلم يا أخى أنه ليس ينبغى للعاقل اللبيب الفاضل الأديب أن يرمى نفسه فى غير مراميها ولا ينقاد بزمام شهوة النفس ، فانه من أطاع نفسه هوى فى مهاوى الذل ونسب الى الجهل ، فان الشهوة عرض واتباع الهوى مرض والاستماع باللذات سبب الهلكات ولا خير فى لذة تؤدى الى الفناء وتورث صاحبها العناء ، الشهوة حين ، والأمل شين ، والاستمتاع بين ، والتمتع دين ، وحب الدنيا مين ، وما ندم عاقل ، ولا ساد جاهل ، ولا وفق عجول ، ولا رأى لملول ولا سعد خائن ، ولا صدق مائن ، ولا عظم بخيل ، ولا قدم ذليل ، ولا خم نبيل ، ولا حقر جليل ولا نال العبادة من زهد فى الافادة ، ولا أمن فى الآخرة من سر بالدنيا الساحرة ، ولا سدد من ظلم ، ولا حزم من حلم ، ولا حزم من ندم ، ولا خاف من تاب ، ولا رد من أناب ، ولا هجر من لزم الباب ، ولا ذل من اتبع الصواب ، واعلم أن بالسياسة تدوم الرياسة ، وبالعدل تدوم الدول ، وبالجور هلك الأول ، وبقلة التدبير يحصل التبذير ، ومن بذل جهده كملت أوصافه ، ومن أفشى

السلام فضله الأنام ، و إصلاح السريرة نعم السيرة ، وجمال الانسان فصاحة اللسان ، وزينة الرجال كرم الخلال ، وخير الأصحاب التقوى ، وشر الاخوان اتباع الهوى ، ولا خاب من قصد طوره . ولا ارتفع من جهل قدره ، والتعلق بالآمال ضياع الأعمال ، ومعالى الأخلاق نعمت الرفاق وممارسة الحلال نجاة من الأهوال ، وحب العاجل يبيد الآجل ، وارتكاب العصيان علامة الخذلان ، وعلامة التوفيق تيسير الطريق ، والنظر فى العواقب أمن من المعاطب ، ومن نظر الى الدنيا بعين الفنا أدرك فى الآخرة ما تمنى ، واعلم يا أخى أنك قد أصبحت مقيدا بحب الدنيا سابحا فى بحار أهوالها متعلقا بأذيال محال آمالها ، وقد تزينت لك بر ياشها ، ووقفت لك على قدم احتياشها ، وزوت عنك جل مصائبها ، ونصبت لك شبكة مصايدها ، ووضعت لك تاج شهواتها ، على مفرق رأس آفاتها ، حتى إذا أشرت اليها بالوصال ، منحتك لذيذ الاتصال ، وأحسنت لك صحبتها شهرا ، ورمتك بسهام الهجر دهرا ، وطالبتك بما كتبت عليك مهرا ، حتى إذا علمت أنك غريم الأنفاس غير منقاد للقصاص ، ألقتك فى بحر الآفات ، وحجبتك فى سجن الغفلات ، وصغرت أمرك عند الناس ، ووكلت بك سحائب الوسواس ، فلا تبرح تذكر الانسان بما كان فيه حتى تخرج روحه من فيه ، واعلم أن من جملة ما ذكر لنا عن عيسى ابن مريم عليه السلام : أنه رأى طائرا مليح الشكل ، حسن الريش ، كامل الزينة . فقال من أنت ؟ قال أنا الدنيا ، ظاهرى مليح ، وباطنى قبيح . قال عيسى : عجبت لغافل ليس بمغفول عنه ، ومؤمل اتمام شيء والموت يطلبه ، و إنما ضربت لك هذه الأمثال لتتعظ بها و بما نزل بالملك شهر ياض ، كان بالأمس على السماط واليوم نزل على الصراط ، بالأمس كان فى سلطانه وملكه يباهى ، واليوم صار فى الحفر واهى ، ما أفاده ، الغنى أذهبه الفنا ، وذهب الفرح بالترح ، والنوم على السرير بالنوم على العفير ، ومعانقة الأتراب ، بالتعفر فى التراب ، وبدل عن كل خل ودود بمجاورة الدود ، جار وما أجار ، واشتغل بالدار عن الجار ، و بالرماد عن المهاد ، وانظر بأى سنان بتر ، و بأى آلة كيف هجر ، وصار قصره مهجورا ، وعمارته خرابا بورا ، وتبدل السرور بالثبور ، ما نفعه الجيش وكثرته ، ولا الخزائن وعدته أصبح والله ذليلا ، و بعد الكثرة قليلا ، فلا عمل صالح ، ولا عز راجح ، ولا ثواب ينفع ، ولا جيل يدفع ، وقد بقى مرتهنا بأعماله موثقا بأفعاله ، وأنت تريد أن تسلك مسلكه ، وتتبع سبيل ما أهلكه ، فما أحد ينفعك ولا عمل يتبعك ، اتق الله فى نفسك وفى أهل ملتك و بلدتك واعقد لك مع هؤلاء العرب صلحا ، واقبل ما قلت لك نصحا ، واحقن الدماء وارحم النساء والاماء وأسلم تسلم ، وهؤلاء القوم ما قالوا قولا إلا وفوا به ، لأن الصدق دليلهم والايمان يقينهم ، ما هم ممن يطلبون الملك فينازعون عليه ولا يميلون إليه ، بل طلبهم الآخرة وما عند الله ، و بالأمس وفوا الرودس صاحب حران ، ورجع عن دينه ودخل فى دينهم وكذلك الملكة مارية بنت أرسوس ، وقد دخل فى دينهم جبابرة ملوك الروم مثل يوقنا ويرغون وعمودا وميتا الذى هو أعلم منا بديننا وقد ملكوا الأرض فى الطول والعرض ، و إنما يحاصر عن نفسه من له ميرة وعدد وجيش وسلاح وعدد يقدر على محاصرة البلد ، وهذا بلد عظيم وما فيه ما يقوم بأهله سنة أو أقل فان لم تسلم أنت سلم أهله وسلموك اليهم برقبتك ، وهذه حران لهم وكفر توتا والرها وسروج وسجستان وماردين والصور والخابور وماعدا الفرات الى الشام الى أرض مصر ، وجيوشهم قد طبقت العراق

وملأت الآفاق ، وقد بلغني أن الملك كسرى قد عاد الى الحاق فابعث الى أمير هؤلاء العرب واطلب منه الصلح فانه يعطيك وتربح نفسك ومالك وأهلك وولدك وعش فى ظل القوم ان شئت على دينهم وإن شئت على دينك فانهم لايغصبونك . قال : فلما سمع مرسيوس كلام أخيه الحكيم ارسالوس غضب عليه وضربه بمقرعة كانت فى يده . وقال أنت ماخلقك المسيح إلا ذليلا ، وكيف تأمرنى أن أسلم ملكى للعرب ، وتعرضنى للعطب ، اخرج ياويلك عنى ، فان وقعت عينى عليك بعدها قتلتك . قال : فخرج من عنده وهو غضبان ، وأما اللعين مرسيوس فانه أمر أرباب دولته أن يجتمعوا فى كنيسة بيعة نسطوريا حتى يحلفهم فمضى شاويشه فجمعهم وجمع مشايخ البلد وكبراءها ورؤساءها وأحضر القسوس والرهبان والشمامسة وبترك دير مقرب حتى يستحلف أهل المدينة . فلما حصلوا فى البيعة أغلقوا أبوابها حتى لايدخل اليهم أحد من العوام وحصلوا كلهم بمجلس الملك والبترك وشرعوا يحلفونهم وهم آمنون مطمئنون اذ خرج عليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل سيف مسلول وعزم غير محاول وصاحوا بالتهليل والتكبير ونادوا : نحن أمة التنزيل وأصحاب النبي الجليل ، نحن حملة القرآن ، وصوام رمضان قد أخذ الله منكم بذنوبكم ، وهتك ستوركم ، وعصفت عليكم المحن ، أين الصلبان وعبادتها ، أين الصور وحشمتها ، أين تقريب القربان ، أين تدبير الرهبان ، ادعوا أربابكم ينصرونكم هيهات والله ذهب باطلكم ، وهلك بالشرك جاهلكم ، واضمحلت أيامكم ، وذهبت دولتكم ، ووضعوا فيهم السيوف ، وعجلوا بهم الحتوف ، وقتلوا البطارقة بالنية الصادقة فأتوا عن آخرهم ، فلما رأت الروم مانزل بهم ضجوا و بأصواتهم عجوا ، فقال خالد أولياء الله جوّدوا الضرب فى أعداء الله وأهريقوا دماء من أشرك بالله . قال فقتلت الطراخنة وذووالحشمة الشامخة ، فلما بلغ الخبر العوام انهزموا عن الأسوار لما حلّ بقومهم البوار ودهمتهم الأقدار فذهب دامس الى الأبواب ففتحها فدخل المسلمون بالتهليل والتكبير ولم يزل القتل يعمل فى رأس العين وقد وردوا موارد الحين وناح عليهم غراب البين وأيدت شريعة سيد الكونين .

[قال الواقدى] وكان فتح رأس العين فى ربيع الأوّل سنة سبع عشرة فجمعوا الأموال والرجال وكانت عدتهم عشرين ألفا منها عشرة آلاف محاربة فأسلم كثير من القوم وأسلم الحكيم ارسالوس وجميع من يلوذ به .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] ولم يؤخذ من ديار بكر بالسيف الارأس العين . قال وأخرج الخمس من المال وأرسله الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وكتب له كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عياض بن غنم الأشعرى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، سلام عليك فانى أحمد الله الذى لاإله إلاهو ، وأصلى على نبيه . أما بعد فان الله قد فتح علينا يسيرما كان عسيرا وكان لعدة الفتيان شعاع يخطف العيان ، فلما تضايقوا أمامى وازدحموا قدامى عاينت جيشا كثيفا وسدا منيفا قد أقبلوا من الأفواج وتتابعوا كالامواج وتناصروا من كل صوب واشتهروا فى كل ثوب ، والحديد يتألق كالحريق ، وقد تطايرت السيوف فللا ، والأرماح كعوبا وانقضت المدة وقد وضعت الحرب أوزارها وانطفأت نارها بعد ماقتل المسلمون أهل الطغيان الفاسقين ونصر الله الكفاة وخذلت العتاة وولت الأعداء الأدبار

وأراحنا الله من مضرتهم وطهرت البلاد من كفرهم وكان زعيمهم الخائن ، وملكهم أول مخذول ، وأهون مقتول ، و بعد ذلك فتحنا رأس العين ونحن بعد ذلك معوّلون على ديار بكر والله المعين و به نستعين والسلام عليك وعلى جميع المسلمين واقرأ سلامنا على قبر سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم . ثم طوى الكتاب وختمه وسلمه مع الخمس لعبد الله بن جعفر الطيار وضم اليه مائة فارس من المهاجرين والأنصار فسار عبد الله ومن معه ، وأقام المسلمون على رأس عين شهرا وعمل بيعة نسطوريا جامعا وصلوا فيه و بنوا الكنائس مساجد وترك عرفجة بن مازن العامرى عليها واليا ومعه مائة فارس وأخذ مال الرها وكفر توثا فأخرج منه الخمس وأرسله بعد عبد الله بن جعفر مع سلامة بن الأحوص ومعه خمسون فارسا .

ذكر فتح دارا و بيرحا و باعمـاء

قال ورحل عياض بن غنم من رأس العين ونزل على كفرتوثا وأقبل اليه الغلام يرغون فرحب به وولاه على المدينة وعرض الاسلام على الجارية طاريون فأسلمت وزوجها بابن عمها و بنى البيعة جامعا ، وارتحل منها الى دارا فنزل عليها وخرج اليه أهلها واعتقبوا لهم منه صلحا وكان جملة ماصالح عليه أهل دارا عشرين ألف مثقال ذهبا وثلاثين ألف مثقال فضة وأن لا يبقوا سلاحا فاجابوا الى ذلك و بنى كنيستهم جامعا وما أسلم منهم الا القليل وأقرهم على أداء الجزية وارتحل عن دارا وقصد بيرحا فصالح أهلها على ربع ماصالح عليه أهل دارا ورحل عنها وكانت بنو إسرائيل تعظمها وتقصد اليها بالنذور ، وكان بانيها حزقيا بن تورخ بن بازيا أحد أنبياء بنى اسرائيل فخرجوا الى عياض وصالحهم على قدر ماصالح به أهل دارا غير أن مقدمهم قال انى لم أزل أملك البلد حتى يأتينى الموت ومن أراد أن يدخل فى دينكم من أهل بلدنا فلامانع يمنعه . فقال له عياض ماسمك ؟ قال اسمى طرياطس فقال ياطرياطس انا نحكمكم على العدل فما فتح الله علينا الا باتباع الحق وسلوك طريق الصدق والعدل فى الرعية ، وانا نتجنب البغى والظلم وماقصدنا قاصد الاوجدنا وأنتم منذ خرجتم الينا ووردتم علينا فنحن نجيبكم الى سؤالكم ونصالحكم على ماصالحنا عليه أهل دارا . فقال طرياطس وتصالحون أهل معرين على ماصالحتم عليه أهل بيرحا فأجابهم عياض الى ذلك ونزل على باعمـا ودير . قال وانما أجابه عياض الى ذلك وألانله العريكة حتى يبلغ الخبر أهل ديار بكر فيجيبون طائعين ويسلمون له من غير منازعة ، وكان قد بلغه تحصن بلادهم وامتناع قلاعهم . قال فدخل طرياطس وأخرج المال من خزائنه ولم يأخذ من أهل بلده شيئا ودفعه لعياض فقبله منه وكتب له كتاب الصلح وشرط عليهم الجزية كما فعل أهل دارا من العام القابل ، فلما تمّ ذلك دخل المسلمون اليه و بنوا جامعا ، فلما بلغ أهل نصيبين حسن سيرتهم وعدلهم وجودة أحكامهم أسلم أكثرهم ، وكان فى جملة من أسلم أصحاب النذور وأخربوه و بنوه جامعا وأقام عياض على نصيبين شهرا ، فلما أراد الرحيل جاءه طرياطس وقال : قد زدتم فى أعيننا بما رأينا من صلاتكم وعبادتكم فأسلم وحسن اسلامه ولم يزل ملكا حتى مات فى خلافة عثمان ونزل فى مسجد كندة أسامة بن عامر الكندى وعشرة من بنى عمه وارتحل عياض ونزل تحت قلعة المرأة وفيها مارية وولدها محمودا فانزلوا له الاقامة والضيافة وسار الى أن نزل على آمد لسبع خلون من شهر جمادى الأولى .

ذكر فتوح ميافارقين وآمد

وكان بآمد أخوان شديدا البأس اسم أحدهما بطرس والآخر يوحنا وكان بطرس فى شرقى البلد ويوحنا فى غربيها وكان ليوحنا بنت اسمها رغوة ولبطرس بنت اسمها صفورا وكل واحد مشغول بما هو فيه ويوحنا أراد أن يتزوّج فارسل الى صاحب دارا وهو مرطاوس فزوّجه لبنته مريم وحملت من بلد أبيها اليه ، وكانت صاحبة حيلة ومكر ، فلما حصلت بآمد نظرت الى المدينة وكثرة مائها ونعمها وتحصن أهلها وسورها وغزارة بساتينها . فقالت لدايتها فى السرّ يادايتى مارأيت أحسن من هذه المدينة ولا أحصن منها ولا أمنع الآثار من الى الأعين المخترقة فى وسطها والى الجبال التى قد دارت بها ، تعنى سورها الاسود ، فمن بناها على الحقيقة ؟ قالت لها اعلمى انه قدملك بلاد الروم أجمع من أوّل بلاد اليونان الى بلاد عمورية ملك يقال له طماوس بن أرسالوس ابن ميهاط بن مكلاوكن بن الأصفر بن العيص بن اسحق وكان أوّل من بنى بيت الحكمة فى بلده رومية الكبرى ، وكان قد فتحت له المطالب ونشر فى الأرض العجائب وانه حدثته نفسه بملك الأرض لكثرة المال فانتهى الى سويقة ، وكان له ولد اسمه اصطنبول فقال لأبيه طماوس أريد أن أبنى لى ههنا مدينة أذكربها قال يابنى افعل وأمده بالمال والرجال فادار سورا على ستة فراسخ وسماها باسمه وعاش أربع سنين ومات وخلف ولدا اسمه قسطنطين فأتمّ بناءها فسميت باسمين اصطنبول باسم ابيه والقسطنطينية باسم ابنه وأما أبوه فانه صار يفتح البلاد حتى وصل الى ههنا فرأى هذه الأعين والدجلة فاستحسن المكان فطلب أرباب دولته وكانوا اثنين وسبعين ملكا وقال قد اخترت أن أبنى ههنا مدينة لا يكون على وجه الأرض مثلها ولا أحصن منها ولا أمنع وأريد أن كل واحد منكم يبنى لنفسه مدينة وبرجا فقالوا جميعا نفعل أيها الملك فركبوا واختطوا المدينة وشرعوا فى بنائها وأتوا بالصناع من أقصى البلاد واختص كل ملك بمدينة وبرج وحمام وكنيسة ، فلما أتموا بناءها مات الملك فسميت آمد لانقضاء أمده بها وما زال الملوك يتوارثونها الى أن انتهت الى هذين الأخوين بطرس ويوحنا قال فتعجبت مريم من قول دايتها وكتمت الأمر وكان لبطرس ولد اسمه لاون فطلب من أخيه ابنته صفورا لولده وقال له زوّج ابنتك لولدى حتى أزوّج ابنتى لولدك فامتنع ووقع الشر بينهما حتى كان فى وسط البلد سور وأبواب فاغلقت وصار كل واحد منهما مشغولا بناحيته ، فلما رأت مريم ذلك دخلت بينهم بالصلح وقالت هذا لايجوز وأنتما أخوان ويطمع فيكما ملوك ديار بكر وركبت بنفسها وأصلحت بينهما وفتحت الأبواب التى داخل المدينة وصنعت وليمة عظيمة ودعت اليها بطرس وولده لاون وابنته صفورا فأكلوا وليمتها وقدمت لهم الخمر ممزوجا بالسم ، فلما تمكن منهم قتلوا عن آخرهم وكذلك فعلت بزوجها وولده وصارت ملكة وبنت بيعة لم ير ببلاد الروم مثلها وفرشت أرضها بالفصوص والرخام الملوّن وزخرفت الحيطان بالذهب والفضة وعلقت فيها ستور الديباج المذهب وطلبت كل عالم مشهور وأزالت عن أهل البلد جميع ما كان عليهم من الحيف وعدلت فيهم فأحبها أهل البلد وشكروا سيرتها واستخدمت الرجال وزادت فى اكرامها وقصدها الناس من كل مكان لأجل عدلها وأقامت فى ملك آمد اثنتى عشرة سنة وبعدها نزل عليها عياض بن غنم ، ومن معه

وأحاط بالمدينة .

[قال الواقدى رحمه الله ورضى عنه] بلغنى أن عياضا نزل على التـل ونزل سعيد بن زيد على باب الروم ونزل معاذ على باب الجبل ونزل خالد على باب الماء ، فلما نظرت الملكة مريم الى ذلك ورأت أن الصحابة قد عوّلوا على حصارها ركبت الى كنيستها وجمعت أرباب دولتها وقالت : اعلموا أن هؤلاء العرب قد حلوا بساحتكم ونزلوا على مدينتكم ، وقد طمعت أنفسهم فى أخذها وأنتم تعلمون أن هذه قفل ديار بكر ومتى فتحوها فقد أخذوا ديار بكر عن بكرة أبيها واضمحل دين المسيح ولايبقى له ذكر فى هـذه البلاد وأنا أعلم أن الملوك ومن يشار اليهم من أهل دين النصرانية و بنى ماء المعمودية كلهم ينتظرون ما يكون منا و يعلمون أن مدينتكم لوأقاموا عليها مائة سنة ماقدروا عليها فقاتلوا عن حريمكم وأموالكم واصعدوا فوق الأسوار وقاتلوا هؤلاء العرب وطلبت القسوس والشمامسة والرهبان وأمرتهم أن يحلفوهم على أن يكونوا يدا واحـدة ولايخامروا عليها ففعلوا ذلك وصعدوا على الأسوار وشهروا السلاح وآلة الحرب وأقاموا الصلبان والرايات والأعلام وتولت كل طائفة بحفظ برج من الأبراج . قال : فلما نظر عياض الى ذلك وأنهم قد عوّلوا على القتال من أعلى الأسوار جمع أمراء جيشه اليه وقال لهم ان هذه المدينة حصينة وهى عين ديار بكر ومتى فتحها الله علينا ملكنا ديار بكر فما الذى ترون من الرأى ؟ وكيف يكون قتالها ؟ وأعداء الله قد تحصنوا بهـذا الحصن المنيع . فقال خالد أيها الأمير اعلم أننا ماملكنا الله البلاد بقوة ولا بكثرة مدد ولا بعدد بل بتيسير الله لنا ونرجو الله أن يفتحها ببركة نبينا صـلى الله عليه وسلم و بذلك وعد الله نبيه وإن هؤلاء القوم ان باطشونا على ظاهر مدينتهم بالقتال رجونا تسهيل الأمر وان أقاموا على ماهم عليه فالصبر ، فان عاقبـة الصبر النصر ، ولعـل أن يأتى فى العرضيات مالم يكن فى الحساب واكتب الى هذه المرأة كتابا وخوّفها ، ثم منها بكل جميل فلعل الله تعالى أن يلين قلبها للايمـان أوتسلم لنا صلحا فدعا عياض بدواة و بياض وكتب اليها يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد وآله ، من عياض بن غنم أمير جيوش المسلمين بأرض ربيعة وديار بكر الى مريم الدارية : أما بعد فان الله سبحانه وتعالى قد نصرنا وبجميع الكفار قد ظفرنا ، وعلى قبض ملوكها أيدنا ومانزلنا على بلد الاملكناه ولاقابلنا جيشا الاهزمناه والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين وليس حصنك بأمنع من تدمر ولا حصن وهو الحصن المنيع الذى بناه سليمان بن داود وماهو الاأن نزل عليه المسلمون حتى ملكوه وكذلك بعلبك وحلب وانطاكية دار الملك هرقل ، ولم يبق بين أيدينا صعب الاسهله الله علينا و بذلك وعدنا الله فى كتابه العزيز فقال وكان حقا علينا نصر المؤمنين فاذاوصل اليك كتابى هذافسلمى تسلمى واياك أن تخالفى تندمى ومهما أردت بلغناك ولسنا نكرهك على فراق دينك ولاأحدا من أهل بلدتك قال الله تعالى — لا اكراه فى الدين وان تمسكت بالهوى فستعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، ثم طوى الكتاب وختمه وسلمه الى رجل من المعاهدين وقال له ادن من الحصن وناولهم الكتاب وقف حتى يردّوا عليك الجواب . قال فذهب ودنا من السور وناداهم بلغتهم وأشار اليهم بالكتاب فأدلوا له حبلا فربطه لهم ووقف ينتظر الجواب . قال فأوصلوا الكتاب الى الملكة مريم فقرئ عليها ، فلما فهمت مافيه قالت لأرباب دولتها ماتقولون فيما كتب الينا أمير العرب ؟ قالوا

أيتها الملكة الرأى لك فهما أمرتينا به امتثلناه . فقالت ياقوم أنتم تعلمون أن النار ولا العار ومتى سلمنا لهؤلاء العرب عيرتنا الروم ويقولون كيف سلمتم مدينتكم وما حاصرتم سنة ولاعشرة أيام ومدينتكم أحصن بلاد الروم ، واذا شئتم كان لكم موضع تزرعون فيه والمياه عندكم وكل ماتحتاجون اليه ، وقدوصلت الى الكتب من جميع ديار بكر ووعدونى أن يرسلوا عساكرهم لنصرتنا فقالوا أيتها الملكة هذا هو الرأى الرشيد فاكتبى للقوم كتابا أن يقطعوا طمعهم منا فكتبت تقول . أما بعد : فقد وصلنى كتابك وفهمت خطابك ، فأما ماذكرت من نصر الله لكم ، أما علمت أن المسيح يمهلكم ولايهملكم ، وإنما ذلك استدراج لكم ثم يأخذكم بعدذلك وكأنكم بالملوك وأبناء الملوك وقد أقبلت عليكم بسواعد شداد وسيوف حداد وجيوش وأمداد فيأخذون منكم بالثار ويكشفون عن عباد المسيح العار ، وما كنا بالذى نسلم حصننا لكم أبدا ، فان شئتم المقام وان شئتم الرحيل والسلام وربطوه بالحبل وأعطوه للمعاهد فأخذه وأتى به الى عياض ، فلما قرأه وفهم مافيه قال توكلنا على الله وفوضنا أمرنا اليه ثم قرأ — ومن يتوكل على الله فهوحسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا — . قال وعول عياض أن يقيم على آمد وخيله تغير على الهتاج وميافارقين وسائرتلك البلاد . قال وسمعوا ضرب الناقوس . فقال عياض أتدرون مايقول هذا الناقوس ؟ . قالوا ومايقول قال : بعث رسول الله ﷺ ابن عمه عليا ومعه جماعة من المسلمين ليغيروا على أطراف تبوك فاجتازوا بدير الراهب ، وذلك الراهب يضرب بناقوسه . فقال على لمن معه أتدرون مايقول هذا الناقوس ؟ . قالوا الله ورسوله أعلم وأنت ياعلى فقال يقول مهلامهلا يابنى الدنيا مهلا مهلا إن الدنيا قد غوتنا واستغوتنا وشغلتنا غدا نرى مانرى مامن يوم يمضى عنا الا لنا أوعلينا يابنى الدنيا جمعا جمعا يابنى الدنيا شرطا شرطا ، مامن يوم يمضى عنا الا أثقل ظهرا منا ، مامن يوم يمضى عنا الا صار منا جهلا قد ضيعنا دارا تبقى واستوطننا دارا تفنى . قال عياض : فقالوا يا ابن عم رسول الله أويعلم النصرانى ذلك ؟ . قال لايعلم ذلك الا نبى أوصديق .

قال حدثنا الربيع أبو سليمان عن موسى بن عامر عن جده قراءة بالخضراء من عسقلان قال فأقام عياض على آمد أربعة أشهر قال فخرج من جيشه الحكم بن هشام واستأذن عياضا أن يشن الغارات على ميافارقين فاذن له فأخذ معه من الصحابة مائة من المهاجرين والأنصار فخرجوا بعد ماصلوا الظهر وعبروا الدجلة وساروا والأرض تطوى لهم فما مضى قليل من الليل الاوهم على ميافارقين فداروا بها الى أن وصلوا الى برج يعرف ببرج الشاة . فقال الحكم بن هشام وددت من الله لوفتح لنا هذه المدينة بلا قتال . قال فما استتم كلامه حتى انفتح لهم باب من حائط البرج فدخلوا وهم يخترقون الطرق الى وسط المدينة الى كنيستهم العظمى وتعرف ببيعة ماريا وكانت تلك الليلة عيدا عند النصارى ، فلما أقبلوا الى الصلاة وجدوا أصحاب رسول الله وهم نزول على باب البيعة فصاحوا وتسامع الناس فأتى صاحب البلد وكان اسمه إسلاغورس ، فلما رآهم قال من أنتم ؟ . قال له الحكم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ومن أين جئتم ؟ . قالوا من عسكرنا ؟ . قال ومتى جئتم . قالوا بعدماصلينا الظهر . قال ومن فتح لكم مدينتنا ؟ . قال له الحكم فتح لنا من بيده مقاليد الأمور . قال اوماتفزعون منا . فقال الحكم وكيف نفزع من مخلوق لايضر ولا ينفع وهو تحت أحكام القهر ؟ وقد قال ربنا فى كتابه — فلاتخافوهم وخافون

ان كنتم مؤمنين ـ فقال إسلاغورس : ان دينكم دين محدث وديننا دين قديم والقديم أفضل من المحدث . فقال له الحكم اذا كان ماقلته حقا ففضل ابليس على آدم لأنه أقدم منه أماعلمت أن طينة آدم مشكاة ، وقد قال الله تعالى ـ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ـ أشرق نور قلبه فى وقت تجليه واشتعل بالاتقاد فيه فنظر اليه ابليس وظن قميص عبوديته أبيض بالتوحيد ، واذا هو أسود بالشرك فابان نعته القديم عن نعت وقته بقوله ـ وكان من الكافرين ـ ، كان سائرا فى أرض الشرك تحت ظل الجهل بالعواقب فمازال يقطع منازل العبادات بالعبادات ، وهو فى عماية عن أبصار جمال المشاهدات ، فلما ظهرت أنوار مصباح الالهية من مشكاة الأبدية استنار وجه صورة حاله ، فاذا هو قدفهم من جوابه وان عليك لعنتى ، وأصل آدم لما طار من وكر بشريته بأجنحة همته فى جو الطلب تعالى عن حطيطة انسانيته حتى دنا من نيران المحن فاحترقت أنوار القسم بأجنحة اصطفائه وحصن قوادم ارتقائه فوقع فى حبال وعصى آدم ربه ، فلما أتاه فى أودية محبته ، هطلت عليه سحائب محنته ، ورمى بصواعق اهبطا ، فلما خرج إلى بيداء كربانه اشتملته مواكب آلائه مبشرة اياه باجتبائه ـ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ـ قال وان اسلاغورس أمرهم أن يدخلوا البيعة . فقال الحكم بن هشام وماالذى نصنع فى بيعتكم ؟ . قال تذكرون فيها ربكم . قال ماكنا ندعى إلى ذكر ربنا فنتأخر عنه . قال فربطوا خيلهم ودخلوا وماأراد اسلاغورس بذلك إلاأنه قد زخرفها وصور فيها بيت المقدس والصخرة وقبة السلسلة ومحراب داود ومهد عيسى وصورته وأمه مريم ، فلما توسطها أصحاب رسول الله ﷺ قرأ الحكم بن هشام ـ وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ـ ورفع بهاصوته . فقال لاوالله . وإنما أقول لاإله إلاالله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . قال فوالله لقد ماجت بيعة القوم وتزلزلت وصفقت القناديل بعضها ببعض ، قال وكان للبيعة شيخ عالم بالأديان والشرائع وكان اسمه عبد المسيح ، فلما نظر ماحل بالبيعة والقناديل صلب على وجهه وكذلك كل من كان فيها ، وقالوا لملكهم أنت ماأردت إلا هلا كنا إذ أدخلت هؤلاء العرب الينا أماترى كيف غضب المسيح علينا ؟ . فقال البطريق لاوحق المسيح ماهو إلاتوحيدهم الله وذكر نبيهم أظهر لكم من معجزة نبيهم مارأيتموه ياويلكم إذاكان قد فتح لهم باب فى السور ودخلوا منه علينا فكيف لاتهتز البيعة وتصفق القناديل لمادخلوها ، وأنا كنت فى شك مماذكرت والآن فياطوبى لمن كان على دينهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان هذا خادم بترك بيت المقدس ، وكان فى بيت المقدس يوم فتحت على يد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسمع من البترك فى بيت المقدس وهو يقول هذا الذى يفتح الأرض فى طولها والعرض ، ومحمد هو الذى بشر به المسيح بن مريم ، ولقد سأله رجل لما رأى المسلمين يعظمون الصخرة ويقبلون القدم الذى فيها ، فقال للبترك نرى المسلمين يقبلون قدم المسيح ، فقال له يابنى نحن نقول انه قدم المسيح ، وانما هوقدم نبيهم محمد بن عبدالله لما عرج به الى السماء . قال أوعرج به ؟ . فقال نعم أسرى به من مكة الى بيت المقدس وصلى بالنبيين وأسرى به .

قال الحكم رحمه الله : وذلك لمااستبشرت به النفوس وبلغ خبر رسالته ، وانه زيد فى كماله

وأشرقت أنوار جماله ، وأراد الحق أن يشرّفه على أهل الكونين باقترابه من قاب قوسين فنودى في عالم الملكوت : تأهبوا ثم تأدبوا فهذه ليلة الدنوّ والاقتراب ، هذه ليلة عتق الرقاب ، هذه ليلة الحبور ، هذه ليلة السرور ، هذه ليلة الابتهاج ، هذه ليلة المعراج ، انصبوا سلم الارسال ، وافرشوا فرش الاظلال ، وقوموا على أقدام الاسترسال ، ياجبريل زخرف الجنان ، وزين الحور والولدان ، ياجبريل انزل بالتهاني الى بيت أم هاني ، أيقظ حبيب مملكتنا وأركبه على براق قدرتنا لنريه من آياتنا ، فأخذ جبريل مطية خلقها عجيب ، ونعتها غريب ، فألجمها بلجام القرب ، وأسرجها بموكب الحب وسار بها في ميدان الجلال ، وهو ينادى سبحان الذى أسرى ، فلما وقف ببابه ورفع حجابه ونظر ، واذا هو مدثر بعباءة تذلله ، متوسد بوسادة تحمله ، قد أنحله الشوق ، وأذابه التوق فنشر عليه أنوار السعد ، و بشره بانجاز الوعد ، فقال له ياأيها المدثر قم على قدم همتك ، وقم بوارد عزيمتك ، واركب الى السماء ، وارق واصعد معراج الدنوّ والارتقاء ، فقام السيد واتشح ، وجسمه من الحياء قد رشح ، وقد باح باستسلامه ، وركب مركب تحيته وسلامه ورفع على رأسه سحابة الاحترام ، وأسرى به من البيت الحرام ذكره جليسه ، وفكره أنيسه ، وشوقه دليله وجبريل خليله ، فلما ولج دائرة بيت المقدس ، وحصل فى فناء المسجد الأقصى جليت عليه أرواح الأنبياء فى حلل الأنوار والبهاء ، فبادروا الى سلامه وتحيته واكرامه ، وجليت بين يديه وأثنوا بالصلاة عليه ، وأراد كل منهم أن يصف منزلته ، ويذكر فضيلته ، فقال آدم الحمد لله الذى خلقنى بيده ونفخ فىّ من روحه وأسجد لى ملائكته وأسكننى دار كرامته ، وقال ادريس الحمد لله الذى رفعنى مكانا عليا ، و بوأنى مجلسا سنيا ، وقال نوح الحمد لله الذى نجانى من القوم الظالمين ، وجعلنى أبا للمؤمنين ، وقال ابراهيم الحمد لله الذى اتخذنى خليلا ، وجعل النار بردا على وسلاما وأصلح لى زوجى بعد ما كانت عقيما ، وقال موسى الحمد لله الذى أعطانى تسع آيات بينات وكتب لى فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء وأهلك عدوّى فرعون ونجى قومى ، وفلق لى البحر وكلمنى تكليما ، وقال لى إنى أنا الله ، وقال سليمان بن داود الحمد لله الذى سخر لى الانس والجن والطير والريح وعلمنى منطق الطير وآتانى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، وقال عيسى الحمد لله الذى لم يخلقنى من نطفة قدرة وأحيا لى الموتى وأبرأ لى الاكمه والأبرص ، فلما افتخروا بجميع كراماتهم . قال النبى ﷺ الحمد لله الذى خلقنى من أنوار البهاء ورفع قدرى فى الأرض والسماء ، وكتب اسمى على ساق عرشه ، وقرن اسمى باسمه ، ونزه ذكرى فى معالم قدسه ، وشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، ورفع قدرى ، وغفر لى ماتقدم من ذنبى وماتأخر ، وأيدنى على من كفر ، و بعثنى بالرعب ، وأرسلنى بالحنيفية ، ونصرنى وجعل أمتى خير الأمم ، وفرض طاعتى على العرب والعجم ، وجعل لى الأرض مسجدا ، وترابها طهورا وشفعنى يوم القيامة فى أمتى ، ونسخ سائر الشرائع بشريعتى ، وأدخل سائر الأمم فى شفاعتى ، وجعل الكعبة قبلتى ، وأسمعنى صلاة أمتى من بعدى لأشهد لهم يوم القيامة ، وجعلنى شاهدا ، وأمتى شهودا على من جحد وظلم ، وكتب اسمى على الأفلاك ، وقال جل وعلا — إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما سمع بطريق ميافارقين هذا الكلام من الحكم بن

هشام . قال والله مافى دينكم مراء وأنتم على الحق ، ولقد كنت أسلمت على يد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ببيت المقدس ، ثم جئت إلى هذه المدينة وكان عليها وال فمات ووليت الأمر من بعده فرجعت إلى دينى الأول . فان أنا تبت اليه ورجعت إلى دينكم أيقبلنى على ماارتكبت من المعاصى . فقال له الحكم « سمعت رسول الله ﷺ يقول يوما لأصحابه بأىّ شىء يكون ابن آدم أشد فرحا ؟ . فقالوا بالأهل ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسكت الناس . فقال رسول الله ﷺ : لا يكون ابن آدم أشد فرحا منه إذا كان فى مفازة ومعه راحلته عليها زاده وماؤه ومنافعه . فاذا كان فى بعض المفازة اشتد عليه الحرّ فأوى الى ظل فنزل عن راحلته وتوسد ذراعه فنام ثم انتبه وقد ذهبت راحلته وعليها طعامه وشرابه وغداؤه ومنافعه فانطلق فى طلبها يمينا وشمالا فلم يجدها فرجع الى موضعه ليموت فيه ، وقد أيقن بالهلاك فنام ، ثم انتبه فوجد راحلته كما هى فأخذ بخطامها ، ثم قال النبى ﷺ : إن الله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من ذلك الرجل بتلك الراحلة » . قال فلما سمع اسلاغورس كلام الحكم بن هشام دمعت عيناه وأخذهم الى دار ولايته وقال : والله لقد بان الحق وظهر الصدق فاسلم وحسن اسلامه وطلب جماعته فأسلموا بأجمعهم . ثم إنه طلب أكابر البلد وأخبرهم باسلامه وقال لهم : إنى أريد منكم ماأريده لنفسى ، و إن دين هؤلاء يعلو ولايعلى عليه فمن أسلم منكم أمن فى الدنيا والآخرة وهم قد نزلوا على آمد ولابد لهم من ديار بكر جميعها فمن خالفهم وعصى نهبوا بلده ، واستعبدوا أهله وولده ، فان أسلمتم لهؤلاء القوم أمنتم على أنفسكم و بلادكم . فقالو أيها الصاحب أمهلنا ثلاثة أيام حتى نرى مالنا فيه الصلاح فتركهم وانصرفوا من عنده ، فلما كان الليل اجتمعوا وتحالفوا أن لا يسلموا للعرب أبدا ولو هلكوا عن آخرهم وأصروا على القتال ، فبعد ثلاثة أيام طلبهم فلم يأته إلا القليل ، وأتت اليه العين الصافية وأخبرته بما عزم عليه أهل البلد فلبسوا سلاحهم وأتوا اليه يقاتلونه فخرج اليهم بجماعة ومعه أصحاب رسول الله ﷺ فقاتلوا قتالا شديدا ، فلما جن الليل . قال لهم ارسلوا الى أميركم ينجدنا فأرسل واحدا منهم فابعد عن البلد حتى سمع قرع حوافر الخيل ، فلما تبينهم اذا هم من عسكر الموحدين ، واذا هم خمسمائة فارس وعليهم ضبة بن عدى ، وكان السبب فى ذلك أن عياض بن غنم رأى النبى ﷺ فى المنام وأخبره بقصة ميافارقين وماجرى لصاحبها من أهل بلده وأمره أن يرسل اليهم جيشا فاستيقظ من نومه وأرسل اليهم ضبة بن عدى ومعه خمسمائة فارس وأذن الله للارض أن تطوى لهم فوصلوا اليهم فى تلك الليلة فأتى بهم إلى باب السر ، وكانوا قد وكلوا به من يحفظه فنادى بهم ففتحوا لهم ، وإذا بصاحب البلد قابلهم فادخلهم ، فقالوا له من أعلمكم بقدومنا ، فقال صاحب البلد أعلمنى بكم النبى صلى الله عليه وسلم رأيته ، وقد نمت من ضيق صدرى بقتال هؤلاء القوم أهل البلد فنمت فرأيت شخصه الشريف فبشرنى بقدومكم ، فلما حصلوا بأجمعهم خرج للقتال أهل البلد فصاح بهم المسلمون : ياأعداء الله قد حل بكم البوار ، وأحاطت بكم الأقدار ، من أصحاب محمد المختار ، ووضعوا فيهم السيف فولوا إلى منازلهم ودورهم ليتحصنوا بها ، وقد علموا أنه قد نزل بهم مالاطاقة لهم به فنادوا الغوث . فقال لهم من أتى إلينا فهو آمن فخرجوا ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ قد أمناكم على جميع مالكم إلا السلاح . قال فأتوا بجميع ماعندهم من السلاح وسلموه للصحابة .

فلما رأوا منهم صدق القول أسلموا إلا قليلا منهم وعملوا البيعة الكبيرة جامعا وأقاموا ثلاثة أيام وتركوا عندهم الحكم بن هشام ومعه عشرة من أصحابه ليعلموهم شرائع الدين ، وأتى ضبة ومن معه إلى عياض وأخبره بما جرى ففرح بذلك وقال و إن أهل آمد لم يفتحوا بابا ولاباشروا قتالا وضاق صدر عياض ومن معه من ذلك .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ومكثوا خمسة أشهر وكان خالد بن الوليد كما ذكرنا على باب الماء وكان فى كل يوم يركب بجيش الزحف ويدور حول المدينة ، فاذا أتى الليل نزل فى منزله وكان غلامه همام يخبزله فى كل ليلة أقراص شعير ويتركها له فى قبته . فاذا صلى المغرب أكل تلك الأقراص الشعير عند الافطار وانه استمر ثلاث ليال لم يجد شيئا يفطر عليه ، فقال لغلامه همام أنت ياولدى ماعندك ماتفطرنى عليه ولك بهذه الليلة ثلاث ليال لم تصنع لى شيئا . فقال والله يامولاى إننى فى كل ليلة أصنعها وأضعها لك ولم يكن عندى منها علم وماظننت إلا أنك تأكلها ، فلما كانت الليلة الرابعة وضع همام الأقراص على عادته وأخفى نفسه وجلس لينظر من يأخذها ، فاذا هو بكلب قد أقبل من نحو المدينة ودخل القبة وأخذ الزاد وخرج فتبعه همام واذا به قد دخل من مسرب الماء فى جانب السور . قال فتركه همام وعاد ، فلما أتى خالد من صلاته أقبل وطلب الفطور ، فقال له همام يامولاى كان من الأمر ماهو كذا وكذا ، قال خالد ياهمام أرنى الموضع فمضى همام أمام خالد وأراه الموضع الذى دخل منه الكلب ، فلما رآه قال الله أكبر فتح الله ونصر وعاد وطلب أصحابه وأعلمهم بالقصة ، وقال لهم قد عوّلت أن أدخل المدينة من مسرب الماء وأريد منكم مائة رجل يهبون نفوسهم لله تعالى وتعلمون أن الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار وفاء لمن أخذ منها بحقها ، ودار رجاء لمن تزود منها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، الدنيا مهبط وحى الله ومصلى ملائكته ومسجد أحبابه وأوليائه ، اتخذوها مزرعة فرحمنا الله واياكم ، وكان لنا ولكم فمن أراد الزاد من هذه الدنيا الفانية الى يوم حشره ، فليبادر الى التجارة الرابحة ولايغره طول الأجل فيطمئن الى التقصير فى العمل ، ألاوانى قد وهبت نفسى لله وقد أشترى . ثم قرأ — ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة — فمن باع فليبادر ولايجزع مما يحاذر فالموعد بيننا فى عرصات القيامة وموقف الحسرة والندامة فاتبعوا سلفكم الطاهر والدين الباهر فعوّلوا على بركة الله وعونه واختار من أصحابه مائة وأمرهم بلبس السلاح وركب إلى عياض وأعلمه بما عزم عليه من دخوله المدينة من المسرب وقال له : كن على أهبة إذا سمعت التكبير والتهليل . فقال علمت ذلك وأنا على أهبة بحمد الله إمض أعانك الله ونصرك وسر على بركة الله وعونه . قال فودعه خالد ورجع إلى أصحابه فوجدهم قد استعدوا فسار أمامهم وهم رجالة إلى أن أتى إلى باب المسرب وكان نصف الليل ، وأمر الله سلطان النوم فاستولى على من كان على السور والحرس لأنه جل شأنه إذا أراد أمرا بلغه وهيأ أسبابه . قال فأوّل من دخل من المسرب خالد رضى الله تعالى عنه وتبعه عامر بن الأحوص وحذيفة بن ثابت وعمران بن بشر وتمام المائة رضى الله عنهم ، ومامنهم إلا من تسرّب ودخل ومن كان جسيما لايقدر على الدخول رجع وهو متأسف على الشهادة فحصل فى المدينة ثمانون رجلا ولم يصحبهم إلا من دخل من المسرب . ثم ان واحدا من الذين تأخروا عالج فى حجر فقلعه فاتسع المكان ودخلوا بأجمعهم وأدركوا

أصحابهم وقد توسطوا المدينــة وارتجت بها الأصوات واستيقظ الراقد وارتعــد القاعد وقصد خالد مطلع السور ومنع الناس من النزول وأخذتهم الأحجار وأرسل خالد عشرة من أصحابه إلى الباب فكسروا الأقفال وفتحوا الباب ، وكان عياض قد ركب وأيقظ الناس وقد تهيأ للحرب ، فلما كبر خالد ومن معه بادر عياض ومن معه إلى الباب فوجده مفتوحا فدخلوا ، وأقبل أهــل المدينة يهربون الى السور والليل قد غسق والظلام اتسق والقتام قد أطبق ، فما بقي أحــد يقوم من مرقده الاوالسيف قدرمى رأسه عن جسده وهذا خرج من عنــد أولاده والسيف قد قطع فى فؤاده وخالد ومن معه يكبرون وقد تقطعت بأهل آمد الأسباب وأحاط بهم العــذاب . قال ولم تزل الأبطال تبطح وتطرح وصدور المســلمين تشرح ، ولنحور الـكفرة تذبح ، والعوائق تقطع والشجعان للرؤوس تقرع ، والصوارم تقطع ، والانوف تجدع ، وقلب الذليــل يفزع ، والجبان يجزع ، والعيون تدمع ، والصائح لايسمع ، ولاشافع يشــفع ، ولامانع يمنع ، ولادافع يدفع ، ولا قلب يخشع ، حتى اذا ولى الليــل ونزع ، والصباح عول على أن يطلع ، وخالد يصيح صياح السميذع ، حتى انطوى الليل بمطارف الدجى عند انتشار رايات الضيا ، فنظر أهل البلد الى ماحل بهم ونزل عليهم . فأقبلوا الى دار الامارة يطلبون الملـكة مريم فلم يجــدوها . قال وكان السبب فى ذلك انها سمعت بان الصحابة قد حصلوا فى المدينــة فعلمت انها لاتخرج من أيديهم فأخفت نفسها ومن معها ونزلت فى سرب فى دار الامارة وأخــذت ماتقدر على حمله وخرجت من ذيل الجبــل وطلبت بلاد الروم .

[قال الواقدى رحمه الله] فلما علم أهــل المدينة أن ملـكتهم هربت نادوا الغوث الغوث فرفعوا عنهم السيف وجمعهم الأمير اليــه فاجتمعوا فى ميدان المدينة . فقال لهم عياض : أما بعد فان الله تعالى قد نصرنا عليـكم وصبرنا وظفرنا بكم ولولا أن الله جعــل نبينا نبي الرحمة وأسكنها قلوب المؤمنين لأبدنا كم بالسيف عن آخركم ، ولـكن قد أمرنا ربنا فى كتابه بكظم الغيظ والعفو فقال الله تعالى — والـكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين — ثم نظر فيهم فمن أسلم قبله ومن لم يسلم ضرب الجزية عليه من عامه .

[قال الواقدى رحمه الله] وكان شاهد الجمع فى فتح آمد زيد بن حالوك اليهودى ، وكان عالما بدين اليهودية والنصرانية ، وكان يزعم انه من أولاد داود عليه السلام ، وكان بنواسرائيل يعظمون شأنه ويأتونه بالهدايا والتحف ، وانه لما دخل عياض بن غنم رضى الله تعالى عنــه الى آمد وجمع أهلها فى الميــدان وتـكلم المشايخ بماتـكلموا به قام هو من وسط قومه ، وكان اســمه مليا بن حنيتا وعرف المسلمين بمكانه وأنه مقدم على بنى اسرائيل وانه من ذرية داود . قال أنتم أصحاب نبي الرحمــة وان الله خالق الرحمة وأسكنها فى قلوبكم ، وان الله فضلـكم على سائر الأمم وقد أنزل فى صحف ابراهيم وموسى يقول : انى أبعث فى آخر الزمان نبيا أميا ، وأجعل أمته أفضل الأمم ، وأسكن الرحمــة فى قلوبهم وبهم أباهى ملائـكتى وأبعثهم غرا محجلين من آثار الوضوء ، وإن دواد عليه السلام لماأصاب الذنب ونفرعنه الوحش خرج الى فلاة من الأرض وقال : إلهى بحق النبي العربى الذى تبعثه فى آخر الزمان الاغفرت لى فأجاب دعوته . فقال عياض : ان الله يحب العفو وقد عفونا عنـكم . فقال أهل المدينة : فاذا عفوتم عنا نرجع الى دينـكم فأسلم أكثرهم

وضربت الجزية على من لم يسلم فى العام القابل على كل بالغ أربعة مثاقيل ذهبا وأخذوا سلاحهم وجلوا لهم شطر أموالهم فخماها وبنى البيعة المعروفة جامعا وأقام فى آمد اثنى عشر يوما وولى عليه صعصعة العبدى ومعه خمسمائة من بنى عمه ومن العرب .

ذكر فتوح اليمانية وجبل الجودى

قال وارتحل عياض الى الحصون وهى حصون الجبابرة وأنفذ الى أهلها فأسلموا وأرسل النعمان بن معرف الى أهل أنكل فأسلموا وسميت باليمانية لأنها فتحت على يد حذيفة بن اليمان ومضى عياض الى الجابية ففتحها صلحا ونزل الى أهل جبل الجودى والسيوان وذى القرض فأخذوا من المسلمين صلحا وعهدا على تقرير بينهم وارتحل المسلمون حتى نزلوا على الهتاج فأبى أهله أن يسلموا وعوّلوا على القتال ونصبوا الرعادات والمجانيق فنظر عياض الى ذلك فعظم عليه . وقال هذا حصن منيع ومتى تركناه ومضينا عنه أغاروا على أهل هذه البلاد وأذاقوهم الشر وقد لزمنا من أسلم ومن صالحنا ألزم لنا فلانحيد عنه حتى نفتحه ان شاء الله تعالى ، فقال خالد انزلوا بنا عليه ولعل أن يأتى من عرضيات الأمور مالم يكن فى حساب .

[قال الواقدى رحمه الله] وكان صاحب الهتاج شيطانا مريدا وجبارا عنيدا ، وكان اسمه يانس بن كليوس وكان قد تزوّج بميرونة ابنة بريونة ابنة بريول بن كالوص صاحب قلب والحصن الحديد وكانت قد زفت اليه وأقامت عنده سنة ، ثم انها مضت الى زيارة أبيها وأمّها وأقامت عندهما شهرا ، فلما خرجت من عندهما ومضت الى الهتاج عند زوجها فبينما هى فى نصف الطريق اذ بلغها ان المسلمين قد نزلوا على الهتاج فجلست فى مكانها ولم تبرح وكان عدوّالله يحبها ولايجدله عنها صبرا ، فلما رأى المسلمين وقدنزلوا عليه علم انه لايقدر أن يجتمع بالجارية فاتفق رأيه أن يصالح المسلمين حيلة منه ومكرا وخديعة حتى تحصل زوجته عنده ويغدر ولا يعطى أحدا طاعة فأرسل الى عياض يقول له انك لوأقمت علينا بقية عمرك لما قدرت علينا ولكن صالحنا سنة كاملة شمسية ، فان أنت فتحت مابقى من ديار بكر فنحن نرجع الى طاعتك وان لم تقدر على فتح البلاد فلاطاعة لك علينا والسلام ، وأرسل إلى عياض رجلا من متنصرة العرب من ربيعة الفرس وكان ذلك الرجل مدبر بلاد الهتاج هو وبنوعمه ، وكان اسمه مرهف بن واقد وكان ميله الى العرب أكثر من الروم ، فلما أدى الرسالة الى عياض أجابه الى الصلح لئلا يطول مقامهم ، فلما همّ مرهف بالرجوع قال لعياض أما والله أيها الأمير ما كنت بالذى أدع النصيحة للعرب وأستعملها للعلوج وهذا العلج قداتفق رأيه على كذا وكذا ، فان كنت ترحل وتكمن لزوجته وتأخذها ومن معها وتطلب منه البلد فانه يسلم لوقته فافعل . فقال عياض ما كنا نقول قولا ولا نفى به ولعلّ الله ينظر الى صدق نياتنا فيفتحه علينا .

حدثنى مالك بن بشر بن عامر وكان ممن حضر فتوح الشام وديار بكر وديار ربيعة . قال بينما مرهف يحدث عياضا اذا بغبرة قد أقبلت فقال عياض لميسرة بن مسروق اركب وانظر ماهذه الغبرة ، فركب ومضى هو وجماعة من الصحابة وعاد ميسرة وهو يقول : أبشر أيها الأمير بالفتح . قال وما الخبر يا ابن مسروق ؟ . قال هذاجيش ابن هبيرة المازنى قد أغار على البلاد وأتى بالاموال

والرجال . قال فظهر البشر فى وجه عياض وجعل يتطاول الى قدوم ابن هبيرة المازنى حتى وصل وسلم على عياض وعلى المسلمين وعرض عليه الغنائم ومرهف بن واقد يتأملها الى أن عرضت عليه جارية رومية تخجل الشمس منها وعليها زى الملوك فأطرق المسلمون الى الارض يستعملون الأدب مع الله فى قوله — قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم — فلما نظر اليها مرهف قال أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وأن دينكم الحق وقولكم الصدق . فقال له عياض مابالك أيها الرجل ؟ قال هذه زوجة يانس صاحب الهتاج وقد طرحها الله فى أيديكم فسجد عياض شكرا لله ، فلما رفع رسه قال — ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب — .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكانت ميرونة قد خرجت من عند أهلها ومعها جماعة من بنات البطارقة فوافق طريق قيس بن هبيرة تلك الأرض فأخذها ومن معها وأتى بها الى عياض . فقال عياض لمرهف ارجع الى يانس وا كتم اسلامك وأخبره بما رأيت واستعمل النصح للمسلمين وقل له ان أراد أهله فليسلم لنا هذه القلعة ومهما أردنا منه قال فرجع مرهف الى يانس وحدثه بماجرى فعظم ذلك عليه وكبرلديه وقال لمرهف ماالذى ترى من الرأى ؟ قال اعلم ان هؤلاء القوم ماقالوا قولا الاوفوا به وبذلك نصروا علينا ومن الرأى ان نسلم لهم القلعة ويعطوك زوجتك وجميع مالك ، وأنا الضامن لك منهم ذلك . فقال يانس انزل اليهم وائتنى بعشرة رجال يحلفون لى على ماأريد فان أجابونى الى ذلك سلمت اليهم القلعة ولاتأتنى الابمن يقبل قوله ويشكر فعله حتى أستوثق منهم لنفسى ولعله يكون الرجل الذى شاع ذكره بالشجاعة وفتح البلاد والشام يعنى خالد بن لوليد ، وانما أراد الملعون ذلك حتى يقبض عليهم ويخلص بهم زوجته . قال فنزل الى عياض وأخبره بذلك وبما قاله يانس . فقال عياض يامرهف يريد الملعون أن يخدعنا ، ونحن عرة الخداع ونرجو من الله أن يرجع مكره عليه ولديه ، ثم قرا ان الله لايصلح عمل المفسدين . قال خالد دعنا أيها الأمير نصعد اليه والله الموفق للصواب . فقال عياض اعزموا على بركة الله ولاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم ، فنهض خالد والمقداد وعمار وسعيد بن زيد وعمرو بن معد يكرب والمسيب بن نجيبة وقيس بن هبيرة وميسرة وضرار بن الأزور وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم أجمعين وساروا ومرهف أمامهم الى أن وصلوا باب القلعة وكان رتب عدو الله غلمانه فى دركات القلعة وأمرهم أن يأخذوا منهم سلاحهم ففعلوا ذلك الاخالدا وعبد الرحمن وضرارا فقالوا ماكنا نسلم عدتنا لغيرنا فان أراد ان ندخل عليه بسلاحنا والارجعنا من حيث أتينا فدخل مرهف عليه وقال ان هؤلاء الثلاثة امتنعوا من عطاء السلاح وما الذى يقدرون على ان يفعلوه دعهم يدخلوا كيف شاءوا فلوكانوا نارا ماأحرقوا ولاترهم الجزع فيطمعوا . فقال وحق المسيح لقد صدقت دعهم كلهم يدخلوا بعددهم حتى يعلموا اننا لانخافهم ولانرهبهم وأيضا لئلا تنفر قلوبهم منا فرجع مرهف وأمر الغلمان أن يردوا اليهم أسلحتهم ودخلوا ، فلما توسطوا القلعة اذا بيانس واقف ، فلما وقعت عينه عليهم دخل الرعب فى قلبه ، لأن من خاف الله خاف منه كل شىء فجعل يهتز ويقع وكان قد قال لجماعته اذا رأيتمونى قد قربت منهم وصافحتهم فدونكم واياهم فنظر خالد اليهم فعلم مافى قلوبهم . فقال له أيها البطريق قف مكانك فانا قوم لا نؤتى بحيلة ولامكر لاناقهرنا الملوك وأخذنا بلادهم بهذه الأشياء ثم انه انتضى سيفه وزعق

بيانس فأدهشه وخيل له أن كل من فى القلعة منهم وتقدّم اليه وضربه على حبل عاتقه فأطلع السيف من علائقه فهجمت الصحابة على أهل القلعة ووضعوا السيف فيهم وتكاثر عليهم العدوّ و تزايد المدد . قال وكان فى داخل المدينة خلق من الرساتق من قرى الهتاج من فسطاس وقرساط وكان يانس قد جمعهم لقتال المسلمين . قال فلما قتل خالد يانس ونظروا الى صبر الصحابة على قتال أهل القلعة قالوا لبعضهم أنتم تعلمون أن العرب مايسكتون عن أصحابهم ، وقد فتحوا آمد والبلاد فلايمتنع منهم الهتاج وغيرهافخذوالحكم عند المسلمين يداوقاتلوا معهم أهل القلعة . قال ففعلوا ذلك وجردوا سيوفهم وضربوا معهم من كان فى القلعة وسمع عياض الصياح . فقال أما والله ان خالدا ومن معه غدر بهم فبادروا اليهم أيها المجاهدون قال فبادر أبو الهول وأصحابه الاربعمائة وهم رجاله فتفرقوا فى الجبل وقصدوا القلعة فمن انهزم من الكفار وضعوا فيهم السيوف فما نجا منهم أحد وماوصل أبو الهول الى القلعه الاوقد ملكها خالد واحتوى عليها وصعد عياض والمسلمون وأخذوا كل ما كان فيها وولى عليها مولاه سالما وجعل عنده مائة رجل وكتب الى أهل فسطاس وفرساط ومن فى القلعة أن لايزنوا بامرأة أبدا وأشهد عليهم خالدا والمقداد وعمارا ومعاذا وشرحبيل وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وضرارا وأطلق عياض الاسارى الذين أتى بهم قيس بن هبيرة وارتحل يطلب ميافارقين فلقيه فى طريقه أهل تلك الجبال وأهل الجزيرة وقلب ومتنان وحزب الكلاب فأعطاهم الأمان وضربت عليهم الجزية وردهم الى بلادهم وأتى اليهم أهل ميافارقين للقائهم وشكروهم على حسن سيرتهم وعدلهم وأخرجوا لهم الضيافات والعلوفات ونزل من جهة الميدان فى سفح الجبل وأقام بها عشرة أيام ثم جمع أصحاب رسول الله ﷺ واستشارهم وقال : انى عوّلت على المسير الى ديار أرمينية والى أرزن الروم فأشيروا علىّ يرحمكم الله أى طريق نسلك ؟ فقال رجل من المعاهدين ممن هو أعرف الناس بتلك البلاد أيها الأمير أتأذن لى أن أتكلم . فقال من كان له رأى فليتكلم . فقال اعلم انك اذا قصدت بلاد أرمينية يطول مكثك فيها ، واعلم أن بالقرب منك حصنا منيعا يقال له حصن لغوب وغلب عليه اسم صاحبه وهو يطالقون بن كنعان ابن عيديوس له جيش عرمرم يزيد على ثلاثة آلاف فارس .

ذكر فتح حصن لغوب

ثم قال اعلم أيها الأمير ان تحت يده معاقل كثيرة ، وربما انه رحل ركابه من هنا فوقع بهذه البلاد وشن الغارات على أهلها ، ومن الرأى انك لو وجهت اليه جيشا لعلّ الله أن يفتح عليك ، فان أنت فتحت هذا الحصن مضيت حيث تريد وتكون طيب القلب على من تستخلفه من أصحابك . فقال عياض لأصحابه ماتقولون فيما تكلم به هذا الرجل . فقال خالد لقد تكلم بالحق ونطق بالصدق فاعزم وتوكل على الله ، ثم انصرفوا من عنده وبات ليلته متفكرا فيمن ينفذه الى الحصن فوقع اختياره على يوقنا فدعا اليه وقال له يايوقنا ياعبد الله قد اتفق الرأى عليك أن تمضى الى الحصن فما الذى تراه . فقال يوقنا أصلح الله الأمير قد بلغنى أن الحصن منيع ، وربما اذا نزلنا عليه طال الأمر وتنفد المدة وينقضى هذا الوقت ولاندرى ما يكون ، ولكن أهب نفسى لله ولرسوله وآخذ مائة من بنى عمى ونتزيا بزى الفلاحين ونأخذ نساءنا وأولادنا نتركهم على البقر

وندخل فى جملة أهل البلاد الفلاحين ، فان حصلنا فى الحصن فنحن نملكه ان شاء الله تعالى فقال عياض : ياعبد الله قد اشتهر أمرك عند جميع أهل النصرانية ونخاف أن تسير فتغرّر بنفسك ومن معك فيقبض عليكم والله تعالى قال — ولاتلقوا بأيديكم الى التهلكة — قال فاذا أبيت فائذن لى أن أشن الغارات على بلاد القوم قال قد أذنت لك فخرج يوقنا ومن معه وهم ألف من قومه وساروا على أرزن وسرد وأسعرد وياباسا وحيزان والمعدن .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان من قضاء الله وقدره ان صاحب أسعرد وحيزان والمعدن وياتحاسا ويهرد وطراجر وسلواس كان بينه وبين يطالقون حرب ، وكان يغير بعضهم على بعض وأخربوا المملكتين ، فلما انتشرت الأخبار بقدوم أصحاب رسول الله ﷺ وانهم على ميافارقين جفل أهل تلك البلاد ، وعلم بذلك حرسلو صاحب أسعرد وانه لاطاقة له بالعرب فأخذ هدية سنية وذهب بنفسه ليطالقون بن كنعان حتى يصطلح معه ويكونوا يدا واحدة على قتال المسلمين ، فبينما هو سائر والهدية معه وقد نزل على قرية اسمها أرغير وعلق على خيله وهو معوّل على المسير وهو ينتظر الخيل تقطع عليقها واذ قد كبسهم يوقنا ، وقد أحاط بالقرية وأخذ كل من فيها وأسر البطريق ومن معه وبات ليلته ، فلما أصبح عرض الاسرى وقال لهم ان الله قد ظفرنا بكم ونصرنا عليكم ، واعلموا انى ملك من ملوك الروم ملكت البلاد وقدت الجيوش وأمرت ونهيت وعبدت الصليب وقربت القربان ، فلما أتى الله بهؤلاء القوم اختبرتهم ونظرت ماهم عليه فعلمت ان الحق معهم فتبعتهم وقلت بقولهم ، وقد كنا بالشام تفزع منا ملوك العجم وكسرى بن هرمز والديلم والترك وكان لنا كرة الارض وكنا لانلتفت الى العرب حتى خرجوا علينا فاذاقونا مرّا وذهبت شجاعتنا وملكوا معاقلنا وحصوننا واحتووا على ملكنا ونصرهم رب الأرض والسماء علينا لانهم يشيرون اليه بالوحدانية ، فان آمنتم بالله وحده كان لكم الربح فى الدنيا والآخرة وأطلق سراحكم وان أبيتم قتلتم عن آخركم فقالوا اتركنا يومنا هذا الى الليل ندبر أمرنا فتركهم واختلى بحرسلو البطريق وحدثه فى السر وقال له اعمل فى خلاص نفسك ورقبتك من النار وأسلم وفاد نفسك حتى تنال ماتريد فقد بلغنى من الوقائع بينك وبين صاحب الحصن . فقال البطريق لقد صدقت فمن أعلمك ؟ . فقال له ماالسبب فى العداوة بينك وبينه ؟ . فقال إنه طلب أن يتزوج ابنتى وبعث الىّ هدية فرددتها عليه ، فصار عدوى وأغار على بلادى وأغرت على بلاده ، والآن قدمت إليه بهدية حتى أكون أنا وإياه يدا واحدة ، فأتيت أنت إلىّ وأخذتنى فقال يوقنا إنى أريد لك من الخير ماأريد لنفسى واست أجبرك على أن تترك دينك ولكن تعاهدنى على أن لاتغدر وأنا أخلى سبيلك وتمضى إلى صاحب الحصن وتدنى نفسك بين يديه وتقول : أيها الصاحب قد ندمت على ما كان منى إذ رددتك عن تزويج ابنتى وإنى كنت أخذتها وزينتها وسقت معها أموالها على إنى أهديها لك ، فلما كنت فى قرية كذا وكذا خرج علىّ قوم من العرب ، فأخذوا المال والرجال ، وقد نجوت إليك بنفسى ، لتأخذ بيدى وتستنقذ ابنتى من العرب ، فانه إذا سمع دعاه الطمع واستجره الأمل حتى يخرج إلينا ولعل الله تعالى أن يظفرنا به ، فاذا ملكنا الحصن ان شاء الله تعالى كنت أنت تبقى على بلادك ، وكنت آمنا مطمئنا ، واعلم أن ذمامى هو ذمام العرب ومهما فعلته امتثلوه وأمضوه ، فلما سمع البطريق

كلام يوقنا رحمه الله قال أفعل ذلك ولكنى أخاف من المسيح أن يغضب علىّ إذا خامرت على أهل دينى . فقال يوقنا أنا أحمل هذه الأوزار عنك ، ودع عيسى بن مريم يطالبنى يوم القيامة . فقال البطريق : إن كان هذا الذى قلته ، فأنا أفعل وليس يصعب علىّ ولكنى أخاف ان فعلت ذلك الذى أمرتنى به أن لاينزل من الحصن وربما بعث معى بعض أصحابه فلا يحصل طائل من عدوّكم . فقال يوقنا : وما يكون التدبير ؟ فقال البطريق الرأى عندى غير هذا . قال وما هو ؟ قال تذهب مع أصحابك جريدة بالخيل ، وأنا أكون معك فما نصبح الا ونحن على الحصن ، فاذا أشرفنا عليه تعطينى جوادى وسلاحى وأركض على فرسى فى حال العجلة ، فانى أجده فى الميدان مع أرباب دولته فاذا وقعت عينى عليه ترجلت وحثوت التراب على رأسى وأصيح : أيها الملك ، العرب قد أخذوا أصحابى وغلمانى ، وما جاء معى برسمك ، فاذا قال وأين هم ؟ أقول على فرسخ من بلدك . فانه إذا سمع قولى لايمكنه التأخير عن نصرتى ولاله الا السرعة اليكم ، واعلم أن أكثر جنده قد فرّقهم على الحصون وما عنده الا ألف فارس أو أقل . قال فلما سمع يوقنا ذلك من قوله وثق به وبعث الأسرى الى عياض ، فلما وصلوا اليه قال لهم : إن أطلقتكم أتعرفون لنا ذلك قالوا نعم وكيف لانعرفه . فأطلقهم حتى تسمع أهل البلاد فينزلوا الى طاعته ، وأما يوقنا رحمه الله فانه سار جريدة بقية ليلته ، فما برق ضياء الفجر الا وقد أشرفوا على الحصن فعندها أطلق البطريق ووثق منه بالعهود وأعطاه جواده وسلاحه ، وسار كأنه قد أفلت نفسه وساق على شوط واحد الى الحصن ، وكان بالقضاء المقدر أنه وجد البطريق يطالقون قد عبر الى جانب أسعرد ومعه ألف فارس وألف راجل ، وكان السبب فى ذلك أن قوما من أصحاب البطريق حرسلو كانوا فى كبسة يوقنا فأتوه وحدّثوه بما تم عليهم من القوم ، فعبر لعله يستخلصهم من يد يوقنا ، فلما وصل اليه البطريق ترجل وصقع له وحدّثه فرق له وقال : كيف تخلصت ؟ قال خلصت يدى من الكتاف وركبت هذا الفرس ، فلما أحسوا بى ركبوا ورائى ، وهاهم فى أثرى بالقرب من باياعا . قال فلما سمع ذلك يطالقون بن كنعان أمر بالركوب وسار من وقته طالبا يوقنا ، وقال هذا الذى أردناه من أمر الجهاد قد قربه الله الينا فدونكم والقوم ولم يمهل بعضهم بعضا ، وتطاعنوا بالرماح وصبر يوقنا صبر الكرام ووقع الصائح من كل جانب ونشرت أجنحتها النوائب ، واستغاث أصحاب يوقنا برب المشارق والمغارب ، فبينما هم قد أشرفوا على المعاطب ، إذ أشرفت عليهم غرر الخيل وهم يتسابقون ، فنظر إليهم يوقنا وإذا هم أصحاب رسول الله ﷺ وهم ثلاثة آلاف فارس يقدمهم خالد بن الوليد وكان السبب فى قدومهم أن عياضا خاف على يوقنا وبنى عمه ، فأرسل اليهم فى أثرهم خالدا فوجدهم فى القتال فأطلق عنانه وقال : ياأهل الايمان ، وحملة القرآن ، دونكم وعبدة الصلبان ، ارفعوا أصواتكم بذكر ربكم . قال ونظر يوقنا النصرة وقد أقبلت ، فعظم شأنه والتقى بصاحب الحصن ، وقد عرفه بزيه فتطاعنا طعنا كافيا وتضاربا ضربا شافيا إلا أن يوقنا طعن صاحب الحصن فرماه الى الأرض قتيلا ، وصنع فيهم خالد رضى الله عنه والصحابة رضى الله عنهم كما تصنع النار فى الحطب ، ولما قتل يوقنا صاحب الحصن قطع رأسه وجعله على سنانه ونادى : عمن تقاتلون وقد قتلنا صاحبكم ، فلما رأوا الرأس ولوا الأدبار ومات أكثرهم وولى الباقون نحو الجبل ، ووقع الصائح فى الحصون بأن يطالقون قد قتل فولوا الأدبار .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] وكان ليطالقون زوجة عاقلة لبيبة صاحبة رأى وتدبير ، فلما رأت ماحل بزوجها وأن أهل الحصن قد قتل أكثرهم وتفرقوا بالهزيمة أيقنت بزوال ملكها وخراب بيتها ، فجمعت المشايخ من أرباب دولتها ، وقالت لهم : اعلموا أن الملك قد قتل وقد تفرّق شمل من كان معه ، وقد وصلكم ماصنع هؤلاء العرب مع ملوك دين النصرانية و بنى ماء المعمودية ، وكيف ملكوا الشام وأرض ربيعة وديار بكر وديار مصر ، وقد دانت لهم الأمور وانتشر شرعهم وعلا ذكرهم ودخل فى دينهم الملوك والبطارقة ، ومانزلوا على حصن إلا ملكوه ، ولا وافوا جيشا إلا هزموه وقد دخلوا أرضكم ، وحلوا ساحتكم فما ترون من الرأى الرشيد ؟ قالوا أيتها الملكة ماتكلمت بشىء الا فهمناه وعرفناه والأمر اليك . فقالت الصواب انكم تحقنون دماءكم ، وتصونون حريمكم وأموالكم وتدخلون فيما دخل فيه أهل البلاد وتصالحون العرب فتأمنون على أنفسكم وتعيشون فى ظلهم . فقالوا هذا هو الصواب . قالت فلينطلق منكم رجال إلى هؤلاء العرب و يعقدوا لنا منهم صلحا . قال فخرجوا من عندها وسار منهم ثلاثون رجلا من خيارهم وعبروا الشط الى عسكر خالد ، فلما رآهم خالد والمسلمون ، علموا أنهم من أهل الحصن فاستقبلوهم وسلموا عليهم ورحبوا بهم ومشوا معهم الى قبة خالد ، وإذا هو جالس على التراب وجوه أصحابه حوله وهم يكثرون من ذكر الله وليس لهم حاجب ولا بواب ، فسلموا عليهم فقرأ خالد — وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها — فتقدّم كبراؤهم وعلماؤهم فى دينهم ، وقالوا أيكم الأمير حتى نخاطبه . فقالوا ليس فينا أمير ولا من يلحظ أخاه بعين الذل ، لأن الاسلام شملنا والدين جمعنا ، ونحن عباد الله ، فلما سمع القوم ذلك قالوا بأجمعهم : والله مانصركم الله علينا الا باتباع نبيكم وقول الحق فى دينكم ونحن نريد منكم أن تحملونا على القول وتشركونا فيما دخل فيه أهل البلاد . فقال خالد كم تبذلون لنا من المال ؟ فقالوا مهما أردتم امتثلناه . فقالوا إنا لانريد إلا مانرضى به أهل الذمة الذين فى البلد حتى تطيب قلوبهم ومن لايرحم لايرحم ، ولقد سمعت نبينا ﷺ يقول « لاتنزع الرحمة الا من قلب شقى » . قال فلما سمع القوم ذلك تهللت وجوههم فرحا وقالوا لقد نصركم الله بحق ومارى دينكم الا حقا ، فأسلموا عن آخرهم وعادوا الى قومهم واجتمعوا فى كنيستهم وحدّثوهم بما كان وبما رأوا من أصحاب رسول الله ﷺ وحسن سيرتهم . فقال أهل البلد ماكنا بالذين نرفع أنفسنا عليكم لأنكم أولو الرأى والدين ، وقد رضينا بما رضيتم به لأنفسكم فأسلموا إلا قليلا منهم ، وأما الملكة لما سمعت ذلك طاب قلبها و بعثت بالاقامة والعلوفة الى خالد وأمرته أن يعبروا إلى جانبهم ونصبت لهم الجسر ، فعبر خالد ومن معه ونزلوا بالبيعة بحيث أن الملكة تشرف عليهم وتنظر اليهم فرأت أقواما قد طلقوا الدنيا وطلبوا الآخرة رضى الله عنهم وليس فيهم من ينهر ولا يسفه ، ولايخالف أخاه ، قد اشتغلوا بالذكر ، وتوشحوا بالصبر ، فلما نظرت الى حسن عبادتهم نزلت اليهم ، وأسلمت على أيديهم . فقال خالد تقبل الله منك ورضى عنك ، فالزمى قلعتك ، فلا سبيل لأحد عليك ، ونظر يوقنا إليها . فقال وددت لو كانت هذه أهلى ، فأنفذ خالد يشاورها : فأجابت الى ذلك ، و بعث خالد الى عياض يشاوره ، فبعث اليه الجواب بأن زوّجه ولا تترك من بلاد الحصن مكانا الا وتنزل فيه .

ذكر فتح طنز ويعهرد وأسعرد

قال فعوّل على العبور الى جانب أسعرد ويعهرد ، إذ قدم عليه أهل حصن طنز للصلح وأن يكونوا طوعا للمسلمين . فقال خالد : من أسلم منكم قبلناه وكان له مالنا وعليه ماعلينا ، ومن بقى على دينه كانت عليه الجزية من العام القابل فأجابوه الى ذلك ، فكتب لهم عهدا وعبر الى طنز ويعهرد وأسعرد والمعدن وأرزن ، وقرروا صلحا ورضوا به . قال وانقضت عدّة صاحبة الحصن وهي جانوسة وتزوّجها يوقنا رحمه الله تعالى ولحق خالد بعياض ، فوجده على سوقاريا وهى مدينة جالوت ، فلما وصل خالد اليه سلم الناس بعضهم على بعض واقاموا هناك خمسة ايام وعوّلوا أن يسيروا الى بدليس وأخلاط وإذ قد جاءهم الخبر أن طاريون ابنة الملك وهى زوجة الغلام يرغون الذى فتح كفر توثا وكان من أمرها ماذكرناه قد هربت الى أبيها ورجعت الى دينها . قال فصعب ذلك عليهم .

[قال الواقدى] حدثنى محمد بن يونس . قال حدّثنى اسمعيل عن قيس قال رحمه الله تعالى : ان طاريون لم تتنصر ولا عادت عن الاسلام ، وإنما مضت الى أبيها لتدبر عليه حيلة وتسلم البلد للمسلمين لأنها أرادت أن تصنع كما صنع زوجها يرغون بكفر توثا ، فاتفق رأيها ورأى زوجها على ذلك . فقال يرغون أما أنا فلا أتبعك لأنى أفزع من أبيك أن يقبض علىّ . فقالت له الزم مكانك ولبست ثيابها وعوّلت على المسير ، وجعلت غلمانها فى محل خلوة وقالت لهم : اعلموا أنى قد عزمت على أمر أفعله وأنا أبوح به إليكم . قالوا : أيتها الملكة ماعلى العبد إلا الطاعة لمولاه ، فأوقفينا على سرّك . قالت لهم : اعلموا انى كرهت المقام بين هؤلاء العرب ، وأيضا قد اشتقت الى وطنى وعوّلت على أن أخرج بكم الى الصيد فى الجبل ، فاذا جنّ الليل طلبنا أرضنا ، فلما سمعوا قولها فرحوا ، وقالوا نعم الرأى . فقالت إنى لست أكرهكم ، فمن كان له رغبة أن يلبث ههنا وهو مائل الى هذا الدين ، فليقم غير ملوم ، ومن أراد الرجوع الى وطنه فليعزم معى فانى أمضى فى هذه الليلة ، وحق ماأسير إليه لئن بلغنى أن أحدا منكم أفشى سرّى الى يرغون أو غيره من الناس لأضربنّ عنقه ، فمن كان عازما على صحبتى فليتبعنى ، فأجابوها الى ذلك ، فلما جن الليل ودّعت يرغون وخرجت ومعها اثنا عشر نفرا كانوا لا يريدون الاسلام ، وكان لها بكفر توثا اثنا عشر غلاما قد رسخ الاسلام فى قلوبهم وأحبوا المسلمين . قال وسارت نحو الجبل ومضت الى أن تركت أرزن خلف ظهرها ، وأشرفت على بدليس ، فنزل صاحبها اليها ، وقدم لها إقامة وعلوفة وأقامت هناك بقية يومها .

ذكر فتوح بدليس وأرزن وأعمالها

وكان من قضاء الله السابق وقدره ان عياضا لما نزل على سوقاريا ولحق به خالد ومن معه ولحقهم يوقنا فرح المسلمون بسلامتهم وحدّثه بما جرى فسجد لله شكرا ، ثم بعث يوقنا رسولا الى صاحب بدليس وكانت أرزن وبدليس وقف وأنظر وغيرها من القلاع لبطريق اسمه سروند بن بولص والجارية طاريون نازلة هناك وسروند عندها ، فلما علموا بقدوم يوقنا ركبوا الى لقياه واختلت به طاريون وقالت له ياعم لا تظن انى هاربة ولا الى الروم طالبة وانما أريد أن أنصح لله

ولرسوله وللمسلمين وأريد أن أغدر بأبى وأقتله وأسلم معاقله للمسلمين ، ولكن ياعم أشر على بما أصنع فأنت تعلم ان هذا الدرب لبدليس وأخلاط وعليه قلعة قف وأنظر ، واذا أرادت العرب العبور فليس لهم قدرة فما الذى تراه ؟ وأخاف إن حصلت عند أبى أن لاأقدر على الرجوع الى بعلى والى المسلمين . فقال لها يوقنا اعلمى انك اذا سرت بهذه النية فان الله جل وعلا يفتح عليك أبواب الخير وامضى على ما أنت عليه وأنا لابد لى أن أمضى برسالة الأمير عياض الى أبيك وها أنا أبكر فاذا حصلنا هناك كان لنا من التدبير مايريده الله ونصل ان شاء الله الى مانريد وعلمها ماتصنع وودعته وعادت . فقالت ان هذا العديم العقل يلح على ويعذلنى لأجل أن أرجع وأعود عما عزمت عليه من الرجوع الى دين المسيح ولولا انى أخاف ممن معه ومن صاحب هذا الحصن أن يعينه علينا لكنت قبضت عليه ، ثم انها ركبت وسارت تجد السير وأرسلت بعض غلمانها يبشر أباها بقدومها ، فلما وصل البشير ارتجت المدينة وركب أبوها والبطارقة وأهل البلد لالتقاها فلقوها عند خضريا ، فلما رأت أباها ترجلت وترجل أبوها والعسكر جميعه وصقعوا بين يديها وضمها أبوها الى صدره وقال لها يابنتى كيف كان أمرك . قالت ان يرغون نصب على ووصل بى الى عسكر المسلمين وأسلم فلم يمكنى الا أن أطاوعه خيفة منهم الى أن دخلوا ديار بكر فهربت اليك فصلب أبوها على وجهه وهنأها بالسلامة وركب وساروا والموا كب حولهم الى أن دخلت البلد ودخلت دار المملكة فتلقاها الجوارى والخدم وصقعوا لها وبكوا وبكت وأخرجت الصدقات والنذور للبيع والكنائس وباتت تحدثهم بما جرى لها وحديث شهرياض وكيف أخذت رأس العين . فقال أبوها يابنية كيف رأيتيهم فى دينهم ؟ قالت أيها الملك القوم يتظاهرون بالدين وانهم يطلبون الدين والعدل حتى يرجع الناس اليهم ، وليس والله دين أفضل من دين المسيح وقد نذرت نذرا متى خلصت من يد العرب أن لا أقرّب قربانا ولا أشرب خمرا ولا آكل لحم خنزير ولا أنغمس فى ماء المعمودية حتى أتعبد فى بيعة يوحنا شهرين كاملين فاذا أنا تطهرت من دينهم أقرّب القربان وأقبل الصلبان ففرح أبوها بذلك ، فلما كان الغد مضت الى البيعة وأخلت لها موضعا وجعلت تتصدق على الفقراء وتظهر النسك والعبادة وأقامت تنتظر ماوعدها به يوقنا من القدوم بالرسالة الى أبيها .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] **حدثنا** أبو محمد قال حدثنى من أثق به عن قيس ابن هبيرة . قال كنت من أصحاب يوقنا حين سار بالرسالة الى بدليس وتحدث مع طاريون وأنفذ صاحب بدليس اليه ، وكان لما بلغه قدوم يوقنا صعد الى حصنه فاستحضره وأنا معه فوجدناه على سرير مملكته فسلمنا عليه . فقال يوقنا ان أمير جيوش المسلمين بأرض ربيعة وهو عياض ابن غنم قد أرسلنا إليك ندعوك الى توحيد الله ورسالة نبيه ولكم مالنا وعليكم ماعلينا واعتبر بمن تقدم من الملوك وأصحاب الأقاليم والعز فقد أصبحوا هالكين فما جوابك ؟ . فقال أيها السيد انى قد كنت أردت أن أرسل رسولا الى أميركم فى طلب الصلح وأعطيه شيئا وان أبقى على دينى ، ومن أراد من أهل بلدى أن يرجع الى دين القوم فلست أمنعه . فقال يوقنا بكم يطيب قلبك أن تدفع فى صلحك على بدليس وأرزن وماتحت يدك من البلاد فانى إذا أمضيت لك الصلح فقد رضيت به العرب ؟ فقال : أيها السيد اعطيهم مائة ألف دينار وخمسمائة زردية وألف قوس وأن لايولى على مملكتى غيرى حتى أموت وأن لا يبقى عندى من قبلهم الارجل أو رجلان حتى يعلموا من أسلم

شرائع الاسلام وأن يكون أمرى نافذا فى مملكتى ، ومن أسلم يكون أمره لمن يكون عنـدنا من قبلـكم وما يكون لى عليهم حكم . فقال يوقنا قد أمضينا صلحك وأتممنا عهدك وانا أعطيناك عهد الله ورسوله على ماذكرته . قال وأعطاه عهد الله ورسوله وهادنه على الهيئة التى هادن رسول الله ﷺ هرقل ملك الروم وحلف له عن المسلمين كلهم . قال وان قيسا ذهب الى عياض فأعلمه بمـا استقرّ بينهم ، فلمـا وصـل كتاب يوقنا الى عياض رحل من مكانه الى أن نزل على بدليس فوجد البطريق قدأخرج ماوقع عليه الصلح ، فلما قدم عياض نزل اليه البطريق وتلقاهم وحياهم بأحسن تحية وأنزلهم فى أحسن منزل وقدم لهم الأموال وكتبوا بذلك عهدا . قال ونظر المسلمون من أهل اليمن وبادية العرب الى البنات وحسنهن فـالت أنفسهم اليهنّ وشرب أكثرهم الخمر ، فلما رأى عياض ذلك صعب عليـه فأمر أن يؤتوه بمن فعل ذلك فأقام عليهم الحد وأخـذ منهم حق الله وقال لهم أكفر بعد إيمـان ، أبهذا أمرتم أم لهذه خلقتم ، أماسمعتم ماقال من أمره بين الـكاف والنون . قال فتابوا بأجمعهم ، فلما جنّ الليل اجتمع يوقنا بعياض وحدثه بأمر طاريون وماوافقته عليه وانها قد وهبت نفسها لله تعالى ومضت تدبر كيف تعمل فى تسليم البلد للمسلمين وانى وعدتها أن أسير اليها وأعينها على ذلك . فقال عياض اذا كان الأمر كذلك فيجب علينا أن نطلع عليـه خالدا وأصحابه . فقال يوقنا افعل مافيه الصواب ، فأرسل الى خالد ومعاذ وقيس والمسيب بن نجيبة وعمرو بن معديكرب وعبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهم وحدثهم بالحديث وقال لهم ما ترون من الرأى ؟ .

ذكر فتح أرمينية وأخلاط وقف وأنظر

قال خالد : أصلح الله الأمير اذا كان الأمر كـذلك فابعث يوقنا رسولا ونحن معه ، فاذا حصلنا هناك يفعل الله مايريد والحاضر يرى مالايراه الغائب . قال فسيروا على بركة الله تعالى فتأهبوا وساروا وسار مع يوقنا خمسة وثلاثون من الصحابة وعشرون من أصحاب يوقنا ، فلما وصلوا أخلاط ونظرت اليهم الروم والأرمن علموا انهم رسل فأعلموا بذلك الملك وأنهم رسل من العرب ، فأمر باحضارهم فأتتهم الحجاب الى باب رومية وهو باب بدليس فرأوهم على خيولهم . فقالوا لهم ادخلوا فأخذوهم الى دار الامارة وأعلموا الملك بوسطيوس بذلك فأمر باحضارهم ، فلما توسطوا الدهليز آراد الغلمان أن يأخذوا أسلحتهم . فقال خالد انا قوم لانسلم سيوفنا لغـيرنا ، وان الله بعث نبينا بالسيف وقد قلدنا إياه ولسنا نزيل ماخصنا الله ورسوله به ، فدخل الحجاب وأعلموا الملك بمـا قال خالد . فقال الملك دعوهم يدخلوا كيف شاءوا لئلا يظنوا اننا نخافهم وانمـا ذاك ناموس الملك فدخلوا بهم ، فلما رآهم وسلموا عليـه جلسوا على الأرض كأنهم السباع وكل منهم قد جعل يده على مقبض سيفه وقد بلغ الملك ماهم عليـه من الدين والزهد فى الدنيا ، فأوصى أصحابه أن لا يأمروهم بأن يصقعوا له فانهم لايجيبونهم لذلك . قال فلمـا استقرّ بهم الجلوس قال لهم ترجمـانه : ياهؤلاء بم أتيتم الينا ؟ . فقال يوقنا ان أمير جيوش المسلمين بأرض بدليس قد بعثنا اليكم رسلا ندعوكم الى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله أوتدخلوا فيما دخل فيه الناس وتؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون فأعلم الترجمان الملك بمـا قاله يوقنا .

حدثنا قدامة انه لم يكن بينهم ترجمان ، وانما كان المتكلم يوقنا بالرومية وهولسان القوم .
[قال الراوى رحمه الله تعالى] حدثنى من أثق به . قال كان الترجمان بينهم لان الملك أرمنى لايفهم الا بلسان الأرمن ويوقنا كان روميا لايفهم لسانا آخر ، فلما بلغه الترجمان غضب وقال وحق المسيح والانجيل لا نعطيهم ولاندخل فى دينهم أونموت عن آخرنا ولايحسبوا أننا مثل من لاقوا من جيوش الروم ولنا الشدّة والبأس والقوّة والمراس ، ونحن نرمى عن الأقواس بالنشاب والعرب تسميه قاطع الشهوات والأسباب وأنا أبعث الى صاحب خوى وسلوس وأستنصر عليهم باسراغوص ملك المرج ونردهم على أعقابهم ونستخلص منهم البلاد وليس عندنا جواب غير هذا . قال فبلغهم الترجمان ماقاله . فقال يوقنا ليأذن لنا بالانصراف لنعلم صاحبنا بهذا الجواب . فقال الملك بيتوا عندنا هذه الليلة وفى غد تنصرفون وأمر بهم أن ينزلوا فى المكان الفلانى فخرجوا من عنده الى المكان الذى أمر به فنزلوا به ينتظرون مايكون من الجارية طاريون . قال ولما خرج الصحابة من عنده ركب من وقته الى بيعة يوحنا واجتمع بابنته وقال لها ان العرب قد وجهوا الىّ رسولا ومعه جماعة وقالوا لى كذا وكذا وأجبتهم بكذا وكذا فما ترين من الرأى ؟ .
فقالت أيها الملك أين هم ؟ قال عوّقتهم هذه الليلة حتى أشاورك فى أمرهم . فقالت أريد أن أنظر من هم فانه لايخفى علىّ أمرهم ، فان كانوا من وجوه العرب النافذ أمرهم ، فأمرنى أن أتحدث معهم وأطيب قلبهم بأنك تصالحهم وأطمعهم بذلك ، فاذا اطمأنوا بذلك أمرتك بالقبض عليهم واتركهم عندك حتى لا يكون لهم خلاص ، فاذا قبضت عليهم ترسل الى صاحبهم تقول له متى تقدمت الينا مرحلة واحدة بعثت اليك برؤوسهم فاذا سمع ذلك لايتقدم ويقع الصلح على أن نسلم اليه أصحابه وينصرك المسيح ويطول عمرك ويرفع قدرك وينصرفون عنك وما ثم رأى أوفق من هذا . فقال لها يابنية المسيح يطيل عمرك ويرفع قدرك فقومى اليهم ودعى هذه البيعة والزمى البيعة التى فى دارنا فانك كلما أقمت ههنا كان أخوف بنا ، وان كان مقصودك العبادة ففى أىّ مكان كنت فيه فان لك معبدا ، فلما سمعت قوله قالت لست أبرح من ههنا حتى يأمرنى بترك هذا المكان فأرسل الملك وراء البترك ، فلما حضر قام الملك له وعظمه وأجلسه الى جانبه وحدثه بقصة ابنته . فقال البترك قد أذنت لك ان تتعبدى حيث شئت وقد استوهبت ذنوبك مع المسيح وغفر لك . قال فصلبت وجهها ودعت له وقدموا لها بعض مراكب أبيها فركبت ومضت الى المكان الذى فيه أصحاب رسول الله ﷺ ولم يدخل فيه سواها وأبيها الملك ، فلما رأت يوقنا فرحت واستبشرت وقالت له : أيها السيد ان أبى جاهل بكم غير عارف بقولكم وسوف أكشف له عن أموركم وحق دينى مارأيت منكم الا خيرا وسوف أجازيكم على ذلك ، ولولا محبة الأهل والوطن ودين المسيح ماكنت فارقتكم وخرجت هى وأبوها ومضت الى القصر وقالت له : ابشر بما يسرك هؤلاء وجوه القوم وساداتهم والذى عليه زىّ الروم هذا يوقنا بطريق حلب الذى طرده المسيح عن بابه والرأى عندى أن نطلبهم عندنا الى هذا القصر ونقبض عليهم بحيث لايقف أحد على سرنا . قال ففرح أبوها بقولها وبعث حاجبه الى الصحابة فأتى بهم وأنزلهم فى بعض حجر القصر .
[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان عمال أبيها من البطارقة والمقدمين على القلاع قد أتوا يهنئون أباها برجوعها الى دين المسيح . فقالت طاريون من الصواب أن نمضى أنا وأنت الى

هؤلاء العرب ونجلس عنـدهم ونأكل معهم حتى يطمئنوا الينا وأقول لهم انى أريد أن أشاور أهل بلدى وأرباب دولتى ، فاما أن نصالحكم ونؤدّى اليكم الجزية أونقاتلكم ونبعث اليهم طعاما مبنجا فاذا أكلوه وحكم فيهم البنج قبضنا عليهم ونفعل بهم ماتريد وأشير به عليك . قال فلما جن الليل أتت هى وأبوها عندهم وتحدثوا ساعة ومضوا ، فلما كان الغد جلس أبوها على سريره وعلمت ابنته انه اشتغل بماهو فيه فأتت طاريون الى الصحابة وقالت لهم : اذا جئت الليلة أنا وأبى فدونكم وإياه ولا تمهلوه فقد اتفق رأيه على كذا وكذا فشكروها على فعلها ومضت عنهم ، فلما كان الليل جاءت ومعها أبوها وتقدمت كأنها تحجبه وأشارت اليهم بأن لا تعجلوا وأمهلوه فامسكوا عنه وتحدّثوا ساعة وخرجا من عندهم ، فلما خلا مع ابنته قال لها أما قولك نقبض على هؤلاء العرب فليس بصواب ، وانى أريد أن أجمع بطارقتى وولاة أمرى من الحصون والقلاع وآخذ لك عليهم عهدا أن لا يخامروا عليك أبدا وان يطيعوك وأرسل المال والذخائر وماتخاف عليه الى قلعة يرقبوس فانها أمنع قلاع الأرض .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وهذه القلعة التى ذكرت فى وسط بحيرة أرجيس لاسبيل لأحد عليها . قال لها واذا وليتك عليها أطلق هؤلاء العرب فانه ماسبقنى أحد من الملوك الى قبض الرسل وأيضا يتحدث عنى انى فزعت من العرب وقد عوّلت على لقائهم ، فان نصرت عليهم فذاك هو المراد وان نصروا علىّ فلى أسوة بأمثالى من الملوك ، وقد أرسلت الى الملك درفشيل صاحب أرزن الروم بأن يأتى الىّ بجنوده وعدّته وعدده ووعدته أن أزوّجه بأختك فارونة فما ترين من الرأى . قالت له : أيها الملك اذا عزمت على هذا الأمر فلا تترك هؤلاء يمضون حتى يجتمع العسكر ويقدم الملك درفشيل بجيشه ولا يتخلف عنك أحد وبعد ذلك اترك هؤلاء ، فاذا ساروا الى صاحبهم فسر أنت فى أثرهم بالجيوش وا كبس عسكرهم . فقال يابنية ليس من الرأى أن نطلقهم من أيدينا بل نبعث الى صاحبهم نقول له انهم مكرمون عندنا وقد رأينا أننا فى يوم عيد ندبر فيه أمرنا فاما أن نصالحكم بأداء الجزية وإما أن نقاتلكم والله ينصر من يشاء ونأمرهم أن ينزلوا فى مرج بطان فانه مرج واسع يصلح لملتقى العساكر ونضرب معهم مصفا ، ونحن أخبر منهم بالبلاد ونمسك عليهم الدروب فما ينجو منهم أحد ونسير الى ديار بكر فنملكها ونأخذ أرض ربيعة ولايبقى فى هذه البلاد ملك سوانا . فقالت له طاريون افعل ماتشاء وتركته وانصرفت الى مكانها ، فلما عرفت أن أباها قد أغلق أبوابه أتت الى الصحابة وعرفتهم بما قال أبوها . فقال خالد اللهم يسر لنا الأمر من غير تعب واذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ؟ فقال يوقنا وكيف ذلك ياصاحب رسول الله . فقال خالد نعم نحن أمورنا بحمد الله منوطة بالنصر وقد كفانا كل أمر ، واعلموا أن هذا الرجل قد عوّل أن يبعث ليجمع ملوكه وجيوشهم ويحرضهم على قتالنا ، والصواب أننا نصبر حتى يجتمعوا . فقالت طاريون لقد نطقت بالصواب ياصاحب رسول الله ووفقت ولعل أن يحصلوا كلهم فى أيديكم ان شاء الله فان أبى لايقدر أن يولينى الا فى البيعة بحضرة أصحاب القلاع والحصون ويأخذ لى عليهم العهد وبعد مايفعلون ذلك تثورون عليهم ان شاء الله ، ولعلّ أن يكون فى جملتهم صاحب أرزن ونرسل العبد الصالح يوقنا بزى صاحب أرزن فلعله يملكها ان شاء الله تعالى ونكون ظفرنا بالأرب وخرجت من عندهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا صالح بن عمران عن عبد الرحمن بن الحسن عمن حدثه قالوا جميعا أومن قال منهم : انه لما اتفق الرأى من الملك صاحب خلاط على ماذكرنا وأصبح الصباح أرسل وراء صاحب اعماله وولاة الحصون أن يحضروا عنده فاتوا بأجمعهم ولم يتخلف منهم أحد وأتى درفشيل من أرزن ومعه عسكره وكان اجتماعهم فى ليالى عيدهم الكبير فزينوا البيعة وجاءت القسوس والرهبان من كل مكان ودخلوا البيعة وصلوا وقربوا القربان ، فلما فرغوا من قربانهم وصلاتهم جلس الملك على سريره وابنته واقفة عن يمينه . فقال للملوك والبطارقة اعلموا انى ماجمعتكم الا لأمر أعرضه عليكم وفيه سداد أمركم وملككم ودينكم وقد عوّلت على انى أولى أمركم الملكة طاريون فانها كما علمتم من أصحاب العقل والرأى والتدبير فى الحرب والشجاعة والبراعة فان قضى علىّ فانها تكون مالكة أمركم فما تقولون فقاموا بأجمعهم وصقعوا له وقالوا نعم الرأى الذى رأيته أيها الملك فانجز أمرك فعندها وثب قائما وأزال التاج عن رأسه ووضعه على رأس طاريون وأمسك بيدها وأجلسها على السرير ووقف عن يمينها كأنه حاجب ووقف صاحب أرزن عن يسارها وصقعت لها الملوك وبايعوها وتقدّمت القسوس والرهبان وأخذوا لها عليهم العهد والميثاق وأجابوا بالسمع والطاعة وبعدها زوّجوا أخت طاريون بولد صاحب أرزن وخرجوا من البيعة فى خدمة طاريون الى قصر الملك وأكلوا السماط وخلعت عليهم وزينت المدينة وضربوا خيامهم بظاهر البلد وعوّلوا على قتال المسلمين .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى اسرائيل بن اسحق عن أبى الأحوص . قال بلغنى ان عياض بن غنم لما وجه خالدا الى مدينة أرمينية وهى أخلاط واستبطأهم ساءت به الظنون فيهم فارتحل من بدليس الى أرض أرزن ونزل بالمرج ووجه عيونه الى خلاط فغابوا عنه أياما وعادوا اليه وأخبروه ان الملك قد ولى ابنته طاريون على المملكة وقد عقد لها التاج على رأسها وبايعها الملوك وزينوا المملكة من أجل ذلك وقدم صاحب أرزن الروم وزوّج أخت الملكة لابنه وان القوم قد عوّلوا على لقائكم ، فلما سمع عياض ذلك قال لاحول ولاقوة الابالله العلى العظيم غدروا أصحابنا . فقال المسلمون كيف ذلك ياصاحب رسول الله ؟ قال لان أصحابنا مضوا لأمر يرومونه وقد قبض عليهم . فقالوا ثق بالله وتوكل عليه وأقام عياض على المرج عشرة أيام وحصل له مرض على أمر الصحابة فأتته الناس يعودونه . فقال اذا أراد الله بعبده خيرا زاره الناس .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] وعوفى عياض ، فبينما هو قد ركب مع وجوه الصحابة وهم يسيرون وقلبه مشغول من قبل خالد ومن معه ، واذ قد أتاه سعيد بن زيد وهو ينادى : الوحا الوحا العجل العجل فأسرع اليه عياض وقال مابك يابن زيد يرحمك الله ؟ . فقال ألحق خالدا ومن معه فقد وقعوا فى بحر اللجاج وهم فى وسطه ، فلما سمع عياض ذلك قال وكيف ؟ قال ان طاريون لما ولاها أبوها الملك وجعل العهد لها ظفرت بابيها فقتلته وبعثت وراء الملوك على لسان أبيها ، فلما جاءوا اليها قتلتهم وان بعض غلمانها اطلع على سرها فمضى الى بقية البطارقة والولاة فأخبرهم بماصنعت فلبسوا السلاح وقعدوا على أهبة ، فلما كان بالامس ركبت هى فى جيش أبيها الى الميدان وركبنا نحن لركوبها فما علمنا الا والقوم قد أطبقوا علينا وقالوا لنا أظننتم ان المسيح غفل عن أمركم وانه لايؤاخذكم بذنوبكم ، وقد أمكن الصليب منكم وهموا بأخذنا

فقاتلناهم قتالا شديدا ماسمع أحد بمثله وملأ نا الارض من قتلاهم ، فلما جن الليل وضعت الحرب أوزارها وانفصل الجيش مع صاحب أرزن الروم و بقى مع الجارية نفر يسير من غلمانها وغلمان أبيها فأفاضت عليهم الخلع والنعم و بعثت الى الارمن تقول لهم : إنما فعلت ذلك شفقة عليكم وصونا لحريمكم لأنهم أرادوا أن يقبضوا على هؤلاء العرب و يقتلوهم فكان أصحابهم لايتركون منكم مخبرا ، فلما بلغهم ذلك . قال العقلاء منهم والله لقد فعلت معنا كل خير وأجابها من القوم خمسة آلاف رجل وانى تركت المصف وجئت اليكم مستنفرا ، فلما سمع عياض كلام سعيد أمر الناس بالرحيل وسار سيرا خفيفا وخببا الى أن أشرفوا عليهم واذا بالحرب قد قامت على ساقها فكبر عياض ومن معه فارتجت منهم تلك الأرض والجبال وحملوا وكان خالد وأصحابه قد أرضوا الله بقتالهم فقاتلوا قتالا ماسمع على وجه الأرض بمثله ولم يزالوا كذلك حتى انقشع الغبار وانفصل القتار ، وافتقدوا من قتل فوجدوا من قتل من بادية الاعراب مائة وعشرين رجلا ، وافتقد معاذ ابن جبل ولده فلم يجده ، فلما جنّ الليل دخل ومعه رجال من المسلمين الى المعمعة فوجدوه يجود بنفسه وقد ناله جراحات فحملوه الى رحله وجلس أبوه عنده رأسه . فقال عبد الرحمن بن غنم أخو عياض لما رأيته يجود بنفسه بكيت وانتحبت . فقال لى مه وهذه الغزوة أحب الىّ من كل غزوة غزوتها مع رسول الله ﷺ ، ثم قال له يابنىّ ستلقى ربك ، وكان لما أذن المؤذن للظهر فما انصرف العسكر من صلاتهم الاوقد كفنه فى درّاعته ، وهو متضمخ بدمائه ، فجاءه الناس فوجدوه قد دفنه ، فقالوا له يرحمك الله هلا كنت انتظرتنا حتى نحضر جنازته . قال : ليس ذلك من السنة ، وان ذلك فعل الجاهلية ، وقد كنا نشتهى ان نبطئ بموتانا ولكنا أمرنا بانجاز موتانا ، فلما دفنه فى القبر ورجع الى رحله غسل رأسه ولحيته واكتحل ولبس برديه وأتى الى خيمة عياض وهو يكثر من الابتسام والتكبير ، وليس به الاماييسليه عن ذلك ، وقال هنيئا لك ياولدى . فقال له عبد الرحمن وماذا ؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من مات له ابن وكان به ضنينا ، وكان عليه عزيزا فحسن عليه عزاؤه ولم يرمنه شىء فى قضاء الله الاغفر له وللميت وأبدله دارا خيرا من داره ، وأهلا خيرا من أهله ، وزوّجه الله من الحور العين » ولما طلع النهار ركب المسلمون وطلبوا الجهاد واذا بخيل قد أتت وعليها فرسان بغيرسلاح ، فلما قربوا منهم ترجلوا وقصدوا الامير فابتدر اليهم يوقنا وقال لهم من أنتم ؟ قالوا نحن أصحاب ارزن الروم وهذا مقدمنا ، وأشاروا الى شيخ منهم حسن الشيبة فراطنه يوقنا . فقال ان الله دلنى عليكم و بتّ الليلة على نية القتال فرأيت المسيح بن مريم فى النوم وهو يأمرنى باتباع محمد ، وقال لى ان نبىّ هؤلاء العرب هوالذى بشرت به فمن عدل عنه فليس منى ، فلما سمع يوقنا قوله ترجل هو وجميع من كان معه ومشوا معه الى عياض وحدثه بجميع ماجرى فقام له وصافحه هو والمسلمون وحدث عياضا بما حدث يوقنا ، ثم أسلم هو ومن معه ففرحت بذلك الجارية طاريون وسلمت اليه أختها ، وسار بها الى أرزن الروم وأرسلوا معه عشرة من المسلمين ليدعوا أرزن الروم الى الاسلام و يعلموهم شرائع الدين .

[قال الواقدى رحمه الله] وهم رواحة بن عبدالله وسلامة بن عدى والمرقال بن الأكوع وابن خويلد وجرير بن صاعد ، وعبد الله بن صبرة ، وسهل بن سعد ، ومصعب بن ثابت ، وحازم بن معمر وأبو نمير بن بشار . قال وودع درفشيل أصحاب رسول الله ﷺ وارتحل والعشرة معه حتى

وصل أرزن الروم ففرح أهل المدينة بهم وخرجوا للقائهم ، فلما استقر الملك فى مجلسه طلب أكابر الناس وحدثهم بمارآه وعرض عليهم الاسلام فأسلم أكثرهم ، وأقبل العشرة يعلمونهم شرائع الاسلام والقرآن قال وسلم القلاع والحصون التى كانت لاخلاط المسلمين ، فنهم من أسلم ومنهم من أقام على أداء الجزية من عامهم الآتى و بعث عياض الى خوى وسلماس ومايلى تلك الأرض فأسلم أهلها الا القليل و بعث من المسلمين رجالا يعلمونهم الشرائع وأقر طاريون على أخلاط ، والله تعالى هو الموفق للصواب واليه المرجع والمآب .

ذكر فتح أرزن وأسعرد وجبل مارون

[قال الواقدى رحمه الله] قال عبدالله بن عقيل الجعدى عن أبى اسحق الهمدانى قالوا جمعا وفرادى أومن قال منهم : انه لما فتح الله ديار بكر وأرمينية واخلاط على المسلمين على يدى عياض ابن غنم بعد فتوح أرض ربيعة أرسل وراء الغلام يرغون فى كفر توثا ، فلما قدم عليه قلده أمر أرمينية وأخلاط له ولزوجته طاريون وأخذ عليهما موثقا من الله أن يعاملا الناس بالعدل وأن يتبعا الشريعة وان يأمرا بما أمر الله ورسوله فقبلا ذلك وارتحل عياض من أرض أرمينية بعد أن بعث أفلح مولى رسول الله ﷺ مع مائة رجل الى بلاد العراق حتى يدعوا أهلها الى الاسلام ووعدهم بالاجتماع هنالك . قال فانصرفوا بالرسالة ، وأما عياض فانه سار على طريقه التى ورد عليها الى أرزن الروم وخرج منها الى أسعرد الى جبل مارون .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] كان الذى أسسها السموأل بن عاديا ، وكان قد سبق قبل ذلك الأبلق الفرد من أرض تيماء ، ولما جاء وزير كسرى وطلبه هرب الى هذه الأرض و بنى له فيها هذا البلد ، فلما نزل عياض عليها دعاهم الى الاسلام فأجاب العقلاء منهم ، ومن أبى أقر عليه الجزية وكتب لهم عهدا ورحل حتى نزل على الشمطاء وأساوح فأجاب أهلها ولم تكن الجزيرة يومئذ محدودة وان الذى بناها رجل من أهل برقعيد يقال له عبد العزيز بن عمر وكانت دجلة قبل ذلك ، فلما نزل عياض عليها وزار هو ومن معه جبل الجودى وموضع السفينة ، وكان بجنبها أخباث كثيرة فكانت أهل تلك البلاد تنزح الأخباث ، وكان ملكها الجزيرى صالح فأجاب وأطاع وكان يسكن بعاديا ، وكانت تحت يده كواس والزعفران وقفيز ودر بيس وأماكن كثيرة قال ولما بلغته الرسالة أجاب صالح وأطاع وأقبل الى عياض وأسلم وكتب لأهل بلده عهدا وأنفذ لهم من يدعوهم الى الاسلام .

ذكر فتوح الاسماعيليات

قال وارتحل عياض الى الجانب الغربى ونزل على بلد فيها بديع القبطى فأجاب صلحا على ماتقرر عليه وارتحل عياض الى أن نزل بالاسماعيليات ، و بعث عمرو بن جند ليغير على الموصل واعمالها فمضى وأغار وأخذ الغنائم ووقع الصايح فخرجوا عليه وقاتلوه وانتزعوا منه الغنيمة وقاتل حتى قتل ودفن بالجانب الغربى ، فلما بلغ عياضا ذلك ارتحل من الاسماعيليات ونزل على الموصل فخرج اليه أهلها بالعدد والسلاح فكر عليهم خالد بجيش الزحف فجعلهم حطاما ولم يكن

عليها يومئذ سور يمنع فأخذها بالسيف ونظر الى نينوى فاذا هى مدينة قد أخذت السهل والجبل فقال ماهذه ؟ فقيل هذه نينوى ، فقال لعلها مدينة يونس بن متى عليه السلام .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان ملكه يومئذ الملك أنطاق فكاتبه عياض فأبى فانفذ اليه الجزيرى صالح . فقال لئن لم تجب هؤلاء الى ماأرادوه والا أذقتك شرا ولا أترك لك عيشا فكتب اليه يقول : إنى أصالحهم الى ستة أشهر حتى أرى ما يكون من أمر كسرى ، فان فتحوا بلده دخلت فى طاعتهم . قال وكان هو من تحت يد كسرى فأجابه المسلمون الى ذلك وصالحوه على موجها ومرجها وكتب عياض الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلمه بما فتح الله عليهم فكتب اليه يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عياض بن غنم الأشعرى الى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . أما بعد سلام الله عليك ورحمته وبركاته فانى أحمد الله الذى لا إله الا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ فالحمد لله الذى أيد الاسلام بنصره وأدحض الشرك بقهره ، ولله الحمد على ماأولى ومنح وأزال وكشف ورفع وصرف من عظائم ، وأخذ من غنائم حمداً يزيد الآمال انفساحا ، والصدور انشراحا ، وقد لانت الشدّة بعد صلابتها ورقت الأيام بعد قساوتها ويسر الله تعالى أمرها ، وقد أوردت الأعداء موارد المهالك ، وضيقت عليهم المسالك فارتبكوا فى زقاقهم ، واشتركوا فى وثاقهم ، ولم يجدوا فى الأرض نفقا ولافى السماء مرتقى واشتد بهم الفرق وأزعجهم القلق وانهم احتالوا وخايلوا وداهنوا وأرسلوا وأظهروا البعد عن الآثام والدخول الى الاسلام والتنزه من الظلم ، والجنوح الى السلم فأقررناهم على ذلك بعد ان أشرفوا على المهالك ، فنهم من أسلم وبايع ، ومنهم من أقام تحت الذمة وتابع ، وقد نشر الله أعلامنا ، وأعزّ ديننا ، وقهر عدوّنا ، وشد سيوفنا ، وأعلى كلمتنا ، وأظهر شريعتنا ، وقد صرف الله سورتهم ، وأخمد نارهم ، وأزال نصرتهم ، وكفى البلاد والعباد مؤنتهم ، والحمد الله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته وبعث خمس ماتحصل من ديار بكر مع شرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله صلى الله عليه وسلم وضم اليه مائتى فارس وسلمه الكتاب وأمره بالمسير فسار شرحبيل وبعد أيام وصل الى عياض من العراق عاص بن مزينة رسولا من عند سعد بن أبى وقاص يستنجد عياضا على كسرى فأنفذ له نجدة ثم فتح الله العراق على يد سعد ، وماجرى له من الحروب والوقائع نذكر من أمره ما كان والله الموفق .

ذكر فتوح العراق

قال حدثنا عبد الله بن محمد . قال أخبرنا عبد الله بن جابر .

[قال الواقدى رحمه الله] أخبرنى من أثق به ، قال لماوجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه سعد بن أبى وقاص بالجيوش الى العراق لم يزل سائرا حتى قدم أرض الرحبة واتصلت الأخبار باليعمور بن ميسرة العبسى ، وكان يومئذ ملك العرب بعد إياس بن قبيصة النعمان بن المنذر ملك من قبل كسرى بن أزدشير فكتبا يعلمانه أن جيوش المسلمين قد أقبلت من المدينة ، وقد وجهها عمر بن الخطاب رضى الله عنه اليك . وقد عوّل على أخذ العراق فاستيقظ أيها الملك من غفلتك وانظر فى مصالح دولتك واعلم أن هذا الزمان هو

الذى كنا نسمع به ولا نصدق ، ونكذب به ولانحقق ، ولا نظن أن أحدا يجسر علينا ولا يصل بجيشه إلينا حتى جاء الوقت المقدور وولى المدينة عمر وهو صاحب الفتوح ومصبح الملوك بشر صبوح ، فقم على قدم الهمم وسر إلى أعدائك وتقدم ، وقد أعلمناك لتكون على بصيرة من الأمر ، وإياك أن تهمل الأمر فرب صغير أمر عاد كبيرا ويسير عاد عسيرا والحرب أوله شرر وآخره نار تسعر والسلام ، قال وبعثنا الكتاب مع نجاب ، فلما وصل به إلى كسرى وقرئ عليه انتفض لذلك واهتز على سريره وأحضر الاساورة والموابذة والديلم والسهارجة وقرأ عليهم كتاب الملوك . وقال لهم ماترون فى هذا الأمر الذى قد وقفنا عليه وأشرفنا من زماننا عليه ؟ ، واعلموا أن هؤلاء العرب قد أخرجهم الجدب والجهد فهم ينظرون لهم مواضع يسكنون إليها وينزلون فيها ، وقد أذاقوا الروم شرا وأنزلوا بهم ضرا وملكوا المدائن واحتووا على الخزائن ، وكانت الروم قد اجتمعوا عن بكرة أبيهم وما كان منهم أحد إلا أتى الشام وتلاقوا فى الحرب بمكان يقال له اليرموك وهذه شرذمة من العرب قد سرحوا الى بلادكم . وقد عولوا على أن ينزعوا الملك من أيديكم ولا ينفعكم إلا أن تكشفوا عن ساق العزم ، وتتشحوا بوشاح الحزم وتذبوا عن أهليكم وأموالكم وأولادكم وحريمكم وبلادكم ، واعلموا أن العرب لهم الطمع ، وقد دخل فى قلوبهم أن يملكوا بلادكم وحصونكم ، ومتى رأوكم ناكلين عن قتالهم فشلين عن نوالهم مالوا عليكم ميلة الأسود على فرائسها فاحسموا موادهم من أول يوم ، وقد قيل فى الأمثال : من نظر فى العواقب أمن غائلة النوائب ، ثم انه فتح خزائن الأموال والخلع وخلع على الهرمزان وقدمه على خمسين ألفا ، وخلع على عطارد بن مهرود ، وقدمه على عشرين ألفا وخلع على قارين بن همام وقدمه على عشرين ألفا وأمرهم أن يضربوا خيامهم بأرض زرندان ففعلوا ذلك ، وكتب من وقته إلى خراسان وماوراء النهر يستفزهم ومن معهم من الأجناد على قتال أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما وصلت الكتب إليهم أقبلوا يهرعون إلى العراق كالجراد المنتشر ، وكان فى جملة القوم شهريار بن كباد والفرحان الأهوازى والهزيل بن جسوم جاسر الهمذانى ومعهم أربعون فيلا ووفد الجانيوس بن قتاد .

[قال الراوى] فلما اجتمعت الجيوش خرج كسرى يحرضهم بأرض شهرطاق وفراشة ، وكان رأس جيشه مهرمان فعرض الجيوش . فاذا هى مائة ألف وخمسون ألفا غير الأتباع وقدم الديلم والعجم وأمامهم الفيلة وعقدوا على ظهورها الأسرة بثياب الديباج ، وعلى كل سرير أربعون رجلا مقاتلة ، وهم يضربون بالطبول والصنوج فى خراطيمها أعنى الفيلة السيوف ليقاتلوا بها ، وكان فيها فيل أعور كانه الجبل العظيم وكان هو المقدم على الفيلة حيثما سار سارت وراءه ، وان وقف وقفت ، وقد ربط وراء الفيلة عجل يحمل بيوت السلاح والأموال ، فلما عولوا على المسير عاد الملك أزدشير إلى من ذكر من المقدمين . وقال اعلموا ياأهل فارس انكم مازلتم ملوكا وهيبتكم فى قلوب الترك والديلم والروم والجرامقة وذلك لما كنتم عادلين فى الرعية فادفعوا هؤلاء بالمال . فان أبوا فدونكم والسيف وودعوه وساروا .

ذكر فتوح الخورنق وقتل النعمان بن المنذر وفتح الحيرة والقادسية

[قال الواقدى رحمه الله] حدثنا الحسن بن اسحق . قال أخبرنا سليمان بن عامر . قال بلغنى أن سعد بن أبى وقاص قدم العراق فى ثلاثين ألف فارس من بجيلة والنخع وشيبان وربيعة وأخلاط العرب ومامنهم من قدم العراق الا بأهله وولده وماقدم أحد من ملوك الفرس الا عياله كله حتى يقاتلوا بجدّ وعزم وبذلك وصاهم الملك كسرى . قال وان سعدا ارتحل من الرحبة إلى الحيرة البيضاء وكان هناك جيش النعمان بن المنذر وقد ضرب خيامه والسرادقات إلى ظاهرها ، وقد أضاف اليه جميع العرب وهم من العراق فى ثمانين ألفا وقد أفاض عليهم النعمان النعم والخلع ووعدهم من الملك كسرى بكل جميل وقال لهم ان هؤلاء عرب وأنتم عرب وهلاك كل شىء من جنسه ، وهؤلاء مثلنا وليس لهم فضل علينا وقد جعلنا الأكاسرة مقدمى دولتهم حتى نكون لهم ركنا وعلى أعدائهم عونا وليس لأصحاب محمد فخر يفتخرون به علينا لكن نحن لنا الفخر عليهم وهم يزعمون ان الله بعث فيهم نبيا وأنزل عليهم كتابا يقال له القرآن ، ونحن لنا الانجيل وعيسى بن مريم وجميع الحواريين ، ولنا المذبح ، ولنا القسوس والناقوس والرهبان والشمامسة ، وعلى كل حال ديننا عتيق ودينهم محدث فاثبتوا عند اللقاء وكونوا عند ظن الملك كسرى بكم . قال فبينما هو يقول ذلك إذ جاءه عمه إلياس وهو صاحب الحرس . فقال له أيها الملك إن أعداءنا قد أنفذوا إلينا رسولا ، فقال ائتنى به فأحضره وكان الرسول سعد بن أبى عبيد القارى ، فلما وقف بين يدى النعمان صاح به الحجاب والغلمان قبل الأرض للملك فلم يلتفت إليهم . وقال ان الله أمرنا أن لا يسجد بعضنا لبعض ، ولعمرى ان هذه كانت العادة المعروفة فى الجاهلية قبل أن يبعث الله نبيه محمدا عليه السلام . فلما بعث جعل تحيته السلام ، وكذا كانت الأنبياء من قبله ، وأما السلام فهو من أسماء الله تعالى . وأما تحيتكم هذه فهى تحية جبابرة الملوك . فقال النعمان لسنا من الجبابرة ، بل نحن أجلّ منكم لأنكم توحدون فى دينكم وتقولون ان الله واحد وتجحدون ولده عيسى بن مريم . فقال سعد أخبرنى عن عيسى بن مريم أكانت القدرة فيه حالة أم ربانية وجرى بينهم كلام كثير . قال فأعجب النعمان كلام سعد . وقال له ياويح قومك ماالذى جئت به . فقال ان الأمير سعد بن أبى وقاص وجهنى اليك إذ أنت من العرب ويصل إلينا مانقص عليك وهؤلاء القوم علوج ليس لهم شريعة يؤدونها ولا فريضة يتبعونها ونحن ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ولكم مالنا وعليكم ماعلينا . فان أبيتم فأدوا الجزية . فان أبيتم إلى مادعوناكم إليه فأذنوا بحرب من الله ورسوله . فلما سمع النعمان كلام سعد ضحك استهزاء بقوله ، وقال لقد حدثتكم أنفسكم بالأباطيل أظننتم أن الفرس مثل الروم لاوحق المسيح ، بل هؤلاء أثبت جنانا ، وأشد طعانا ، وأوسع ميدانا ، فليت شعرى من نفخ فى معاطسكم وحسن الأمل فى أنفسكم حتى جئتم من خط البلاد تروون ملك الأساورة وأخذ بلاد الأكاسرة ودونه حرب تصطفق أجرامه وتشبّ ضرامه ، وهذا الملك أزدشير قد أنفذ جيوشه وعساكره وكأنكم بهم وقد أقبلوا فينالون منكم مايؤملون وماحدثتكم به أنفسكم تزيلونه من قلوبكم . فقال سعد بن عبيد يانعمان لقد تشدقت بالباطل ، وتفوهت بكلام غير عاقل ، أماعلمت

أن العاقبة للمتقين ، والله بكرمه يرفع عنا الباس ، ويظفرنا بجميع الناس ، وقال نبيه صلى الله عليه وسلم «ستفتح على أمتي كنوز كسرى وقيصر» . فأما كنوز قيصر فقد فتحها الله علينا وقد بقيت كنوز صاحبك . فقال النعمان من أين كان لصاحبك العلم ومن أين ورثه ، وقد بلغنا أنه كان لايكتب ولايقرأ ؟ . فقال سعد بصره الله بالعلم فى القدم وعلم ما كتب فى اللوح المحفوظ بالقلم . فلما سمع النعمان كلام سعد . قال له ياويح قومك ارجع الى قومك فليس عندنا جواب إلا السيف . قال فركب سعد وعاد فوجدهم قد نزلوا بالقرب منه فحدث سعد بما جرى له مع النعمان بن المنذر وما كان من جوابه ، وجعل الأمير سعد بن أبي وقاص ينشد :

سأحمل فيهم حملة عربية ولا أنثني والله عنهم بعسكرى

فما ترى النعمان فى القيد موثقا وإما طريحا فى الدماء المعفر

ثم أمر الناس بالرحيل فرحلوا وساروا الى أن أشرفوا على جيش النعمان . قال فلما رأوا جيوش سعد أمر الناس بالركوب فتبادرت العرب الى خيولهم فركبتها وجنبت الجنائب وضربت الكاسات وتبادرت الأبطال ونشرت الأعلام ، فلما وصل سعد رضى الله تعالى عنه وافى القوم قد أخذوا أهبتهم رتب جيشه وصفهم وألفهم ، وجعل فى الميمنة سعد بن عبيد القارى وفى الميسرة سعد العشيرة وفى الجناح الأيمن سعد بن نجيبة وعلى الجناح الأيسر سعد بن الاقيس الهلالى وأقام الأمير سعد فى القلب ومعه أبو محجن الثقفى وزهرة بن جويرية وشرحبيل بن كعب

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا أحمد بن عامر . قال أخبرنا على بن مسهر عن أبان عن الحسن . قال لما استوت الصفوف وترتبت كل قبيلة جعل الأمير سعد يتخلل الصفوف ويعظ من فيها من عرب بجيلة وطيء وبنى هلال والنخع وغيرهم ، ويقول هذا يوم لانرى بعده مثله أما بلغكم مافعل اخوانكم بالشام لما تكاثرت عليهم جموع اللئام فاستيقظ المسلمون بقول سعد . وقالوا نحن نحمل عليهم بشدة العزائم ولعل الله أن ينصرنا عليهم فصاحوا بخيولهم فخرجت كالرياح العواصف ولم يزالوا فى القتال الشديد الى أن توسطت الشمس فى قبة الفلك ، وقد ثبتت أصحاب النعمان بن المنذر للضرب والطعان .

[قال الواقدى] وان القعقاع بن عمرو التميمى أو بشر بن ربيعة التميمى أحدهما التقى مع النعمان فى كبكبة من الخيل والازدهارات على رأسه فحمل القعقاع أو بشر على الكبكبة ففرقها وعلى الكتيبة فمزقها ورمى النعمان بطعنة فى صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره . فلما نظرت جيوش الحيرة إلى الملك النعمان مجندلا ولوا الأدبار يريدون القادسية نحو جيش الفرس وغنم المسلمون رحالهم وأموالهم وباتوا فرحين وافتقدوا من قتل من المسلمين فكانوا خمسمائة وثلاثين غالبهم من أهل نخع وقد ختم الله لهم بالشهادة وفى ذلك . قالت خزانة بنت خالد بن جعفر بن قرط ترثى من قتل من المسلمين :

فيا عين جودى بالدموع السواجم فقد شرعت فينا سيوف الأعاجم
فكم من حسام فى الحروب وذابل وطرف كميت اللون صافى الدعائم
حزنا على سعد وعمرو ومالك وسعد مبيد الجيش مثل الغمائم
هم فتية غر الوجوه أعزة ليوث لدى الهيجاء شعث الجماجم

قال وإن المسلمين جمعوا الأموال واحتوى سعد على قصر الخورنق والسدير، وترك جميع ماأخذه بالحيرة، وترك عنده سالم بن نعيم بن مسروق وترك عنده مائة من أبناء المهاجرين والأنصار. قال وأما من انهزم من جموع النعمان بن المنذر فوردوا على القادسية وعليها جنود الفرس مع رستم زاده بن اسفنديار ومعه شهر يار بن كشار، والهذيل بن جشوم، وحشمرسوم الهمذانى والجناتيوس بن فتاك وشماهير بن حسوسا. قال فلما رأوا المنهزمين من جيش النعمان ملك العرب، سألوهم عن أمرهم، فأخبروهم بقتل النعمان وأخذ الحيرة وقصر الخورنق والسدير وجميع مافيها. قال فوقع التشويش فى عسكر الفرس وتمكن الخوف من قلوبهم وكثرت الأراجيف، وأما رستم فانه جمع الملوك والأساورة وملوك الديلم فى خيمته وقام على سريره خطيبا. فقال: اعلموا أن الدولة بالسياسة والناموس بالرياسة، وكأنكم بالعرب وقد أشرفوا عليكم فاخرجوا واذهبوا اليهم واركبوا. فخرجوا من عنده وأخذوا أهبة الحرب، فبينما هم كذلك اذا بعسكر سعد قد أشرف عليهم وهم على الخيل المضمرة العربية وعليها الفرسان الاسلامية والطائفة المحمدية، فرتبوا الصفوف وجعل رستم ملوك الفرس عن يمينه، وملوك الديلم عن يساره، ووقف رستم فى القلب ودارت به الأساورة، فبينما هم كذلك إذ بعث الأمير سعد رسولا الى رستم وكان الرسول أبا موسى الأشعرى، فقصد القلب، فلما رآه الحجاب أتوا اليه والترجمان معهم فقالوا له: ياعربى ماالذى تريد؟ قال أنا رسول من عند صاحب الجيش، فبلغوا رستم ماقاله أبو موسى الأشعرى. فقال قولوا له مالك وصول الى المقدم ولكن افصح لنا عما تريد حتى نأتيك بجوابه. قال فبلغه الترجمان ماقاله. فقال أبو موسى قل له ندعوكم الى الشهادة فان أبيتم الاسلام فأدوا الجزية فان أبيتم فالسيف أصدق شاهد، وقد قال الله فى كتابه العزيز — وكان حقا علينا نصر المؤمنين — فبلغهم الترجمان ذلك، ورجع أبو موسى الى سعد، فلما جن الليل هرب من عسكر رستم جماعة والتجئوا الى عسكر المسلمين، فلما أصبح رستم بلغه أن جماعة من عسكره هربوا الى عسكر المسلمين، فبعث رسولا الى سعد يطلب منه أن يرد عليه الذى هرب من الأساورة والمرازبة. فقال سعد إنا قوم لانضيع ذمامنا ولا ننقض عهدنا، وقد أتوا إلينا مستسلمين وفى محبتنا راغبين فيجب علينا أن نذب عنهم ولا نمكن أحدا منهم، فعاد الرسول الى رستم وأعاد عليه الجواب، فغضب وأمر الجيوش بالزحف. قال وكان الذى هرب الى جيش سعد شاور بن سليم ونسليك بن أكتم وضرار بن مكتال ومن تبعهم، فلما رأوا العساكر قد أقبلت تريد المسلمين. قال القعقاع: أيها الأمير قد تقدمت الأعداء والفيلة أمامهم، ولا مقام لخيل العرب عند رؤيتها وصياحها. فقال سعد أخلصوا النيات وأرضوا خالق الأرض والسموات، وأرشقوا الفيلة بالنبل واقطعوا مشافرها بالسيوف. قال وكان أمام الفيلة فيل عظيم كأنه جبل وكان إذا سار سارت وإذا وقف وقفت، وأينما توجه كانت وراءه. قال فلما جلت الكتائب واضطربت المواكب، وجاءت الفيلة كأنها جبال وعلى ظهورها الأبطال، وقد أقبلت بالسيوف فى خراطيمها فقتلت من عسكر المسلمين، ولم تثبت لها خيل المسلمين، فرفع سعد بن أبى وقاص كفيه مبتهلا بالدعاء لرب الأرض والسماء وقال: — ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين —. قال زهرة بن جويرية: فوالله لقد رأيت سعدا يدعو وعينى مع الفيلة، وإذا بالفيل

الأعور قد ولى يريد المدائن والفيلة بأجمها ، والرجال لا يقدرون على ردّها وهى سائرة على وجوهها ، وكفى الله المؤمنين القتال من الفيلة . قال فلما ولت الفيلة ، غضب رستم وأقبل بعموده الذى من الذهب يضرب به وجوه الفيلة ويطمطم بفارسيته ويحرض قومه على القتال وهم يحملون خوفا منه وهو يطلب من هرب من جيشه ، والخيل أمامه منهزمة والمسلمون لا يتبعون المنهزمين وأوقفوهم مواقفهم ، وقد طابت قلوبهم بمعاملة الله ، فطعنوا فى صدور الأعداء وقد اطلع الحق على قلوبهم ، فما وجد فيها غيره ، فبينما الأمير سعد يحرّض على القتال إذ لقيه الأسود العنسى وهو طائش العقل ذاهل اللب . فقال له ماوراءك ياابن قيس ؟ فقال أيها الأمير إياك أن تعبر هذا الصف ، فان فيه الموت الأحمر والضيغم القسور ، وهو جبار من الفرس ، وقد قتل من المسلمين أربعة ، ولقد قاتلته حتى كاد أن يأتى علىّ ولولا أن منّ الله علىّ بخالد بن جعفر بن قرط لكان قتلنى ، لأن فيه شجاعة وبراعة . فقال سعد : يامسكين وأين المفرّ من المقدور وقد قدّر الله الأقدار ، أما سمعت قول الملك الجبار ـ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ـ ، ودخل الصف الذى ذكره الأسود ، وإذ قد لقيه خالد بن جعفر ، ولونه قد تغير . فقال له ماوراءك ياابن جعفر ؟ فقال الثعبان الأغبر ، والأسد الغضنفر ، أيها الأمير ارجع عن هذا الفارس ، فانه علج عنيد ، وفى يده عمود من الذهب ، يورث به خصمه العطب ، وقد قتل الأقران ، وأباد الشجعان ، وقد كاد أن يقضى علىّ لولا سعد العشيرة أدركنى لكان أهلكنى ، فلما سمع سعد ذلك عظم عليه ، وقصد مكانه يريد أن يفدى الناس بنفسه وبروحه ، ويبذل فى سبيل الله مهجته ، وهو يخترق الصفوف فلقى سعد العشيرة ، فقال له : ماوراءك ياابن لؤى ؟ قال ورائى جبار لا يقابل وبطل لا ينازل ، ولولا بشر بن ربيعة لسقانى من عموده كاس القطيعة ، فلما سمع قوله قصد نحوه ، فوجد بشرا مصفر اللون ، فقال له : ماوراءك ياابن ربيعة ؟ فقال ماقصر القعقاع إنى لولاه لكنت من الهول على غرر ، فسار سعد على طريق بشر وقد سلك سبيل توفيقه فلقى القعقاع وهو يفرق الكتائب ويصدم المواكب . فقال له : لله درّك ياابن عمرو أين فارس الفرس وكيف خلص من يدك ، فقال أيها الأمير لولا أنه دخل الصفوف لسقيته كاس الحتوف ، وغاص من وسط الخيل ولم ابلغ منه النيل .

[قال الواقدى رحمه الله] ولم يزل القتال بين المسلمين والكفار ، الى أن فرق الليل بينهم فرجعت كل طائفة الى مكانها ، فلما رجع رستم الى سرادقه بعث غلمانه إلى مقدمى عسكره فحضروا . فقال لهم : لقد خذلتم ونزل بكم العار والبوار ، فما الذى خذلكم وأىّ شىء شغلكم ونزل بكم وأنتم أولو البأس الشديد والأمر العتيد ، وهؤلاء قوم كنا لا نعبأ بهم ولا تحدّثنا أنفسنا عنهم بأمر ، وقد خذلوا فرسانكم وأوردوهم موارد الهلاك وقتلوا منكم الصناديد ، فبأىّ وجه ترجعون الى المدائن وبم تحتجون عند الملك أزدشير ، وإنى أرى دولتكم قد انصرمت ، وأيامكم قد انقضت . فقالوا أيها السيد : لقد بلينا بقوم لا يرهبون الموت ، ولا يجزعون من الفوت ، وكلما طعنا صدورهم تقدموا ، وكلما قلنا جوعهم صدموا . فقال رستم ماأرى من الرأى إلا أننا فى نصف الليل نكبسهم فلعلنا نظفر بهم ويكون لنا عند الملك اليد البيضاء ، فاستصوبوا رأيه وافترقوا لأجل أن يصلحوا شأنهم .

[قال الواقدى رحمه الله] حدثنا عامر بن سويد . قال لما رجعنا من قتال العدوّ الى خيمة سعد رأيناه جالسا على التراب ، فلما رآنا قال مرحبا بقوم هجروا الدنيا وطلبوا العقبى كيف كان يومكم قلنا لقد شفينا نفوسنا من الأعداء ونصرنا شرع نبينا المصطفى ، ولقد رميت منا رجال كثيرة من المسلسلة بنشابهم . فقال سعد اجمعوا الىّ العسكر جميعه وأمروا غلمانكم أن يجمعوا الشيح والقيصوم فانى أريد أمرا أرجولكم به النجاة من الله قال ففعل القوم ذلك . فقال للموالى اجعلوا ماجئتم به من الشيح والقيصوم على ظهور الابل ووجهوها نحو المسلسلة . فاذا قربتم منها فاضرموا النار فى ظهور الابل وادعوها بأسنة الرماح حتى تدرسهم ، ونحن من ورائكم بسيوفنا . قال ففعلوا ذلك ، فلما أتى الليل تقدّموا أمام العسكر بالأموال والموالى من ورائهم الى ان قربوا من المسلسلة وأطلقوا النار فى الشيح ولدعوها بالأسنة ، فلما رأت الجمال ماعلى ظهورها من النار وماحل بها من الأسنة داست صفوف المسلسلة دوس الحصيد وحطمتها على وجه الصعيد وركب الأمير سعد مع الجيش ووضعوا السيف فيمن بقى من المسلسلة فبيناهم كذلك واذا بعساكر الفرس قد أتوا وارتفع الضجيج ، وعلا العجيج ، وسميت تلك الليلة بليلة الهديرة ولم يزالوا فى القتال الى الصباح . قال وسمعت قائلا يقول كفينا كهيا، فقلت من أنتم ؟ . فقالوا نحن من خزيمة النخع ، ولم يزالوا يقاتلون حتى مابقى منهم أحد ولا بقى لهم نسل ، فلما طلعت الشمس ركب رستم ابن اسفنديار وركب جيشه عن آخرهم ووقفوا بأجمعهم فاستقبلهم الموحدون وسعد يتخلل الصفوف و يعظهم و يوصيهم : أى الامراء ، وكان فى الليل قد طاف على العسكر فرأى أبامحجن الثقفى يشرب الخمر ، وقال له : ياعدوّ نفسه لقد محوت أجر جهادك وعبادتك والله لآخذن منك حق الله وجلده الحد وقيده .

[قال الواقدى رحمه الله] أخبرنا يوسف بن عمر قال الأسدى عن طلحة ومحمد قالوا ان أوّل من فتح الحرب رستم وطلب البراز فخرج إليه نجيبة .فقتله فخرج زهير فقتله فأراد القعقاع أن يخرج وإذا بفارس قد أقبل إلى رستم وهو كالريح فى هبوبها فصاح برستم صيحة أدهشته وطعنه فى خاصرته فأطلع السنان من الخاصرة الأخرى فنظر اليه سعد فاذا هو أبومحجن وقد صنع ذلك برستم ، قال المتوكل عليه : سألتك بالله أن تتركه .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا يوسف بن عبد الأعلى قال حدثنا عمر بن ابراهيم عن عبدالله بن المبارك قال لما نزل سعدبن أبى وقاص على القادسية وقاتل عسكر الفرس وانهزمت الفيلة الى المدائن ، وكان سعد رضى الله تعالى عنه يتنكر فى الليل ويمشى فى عسكره فمرّ فى بعض الليالى برجال من ثقيف فوجد أبا محجن وهو يشرب و يترنم على خمرته ، فلما رآه غضب وقال له لقدذهب اجرك ونقص قدرك بعد جهادك للكافرين تتعرض لغضب رب العالمين ، أترضى لنفسك بذلك ثم انه حدّه وقيده وجعل عليه من يحفظه ، فلما كان من الغد ووقع الزحف وبرز فارس العجم وكان منه ماذكرناه عاد الى القيد ، فلما قتل رستم بمشاهدة الناس أتى اليه سعد ليعلم حقيقة الأمرفوجده فى القيد . فقال له ياأبا محجن أنت صاحب الفضيلة . فقال الفضل لله ولرسوله فأقسم عليه فحدثه بحديثه . فقال له اذا كان هذا صنيعك فاذهب ، فقد عفوت عنك، ومن عاد فينتقم الله منه . فقال أبومحجن : والله ماعدت أشربها أبدا وتاب .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا زائدة عن جده مروان بن أوس . قال كنت بالقادسية ، وشهدت فتحها لما قتل رستم وولده عجزشير وولت الفرس على عقبهم لايلتفت أحد منهم الى ماوراءه من الأموال والأصحاب وماهم قصد الا السلامة لأنفسهم ، وأتى نساء المسلمين ومعهنّ الماء فدرن بين القتلى والجرحى فمن وجدنه من المسلمين فيه الرمق سقينه الماء ونضحن على وجهه وينقلن من قتل من العرب الى العرب ويتركن رمم الفرس .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا سليمان بن بشر عن أم كثير امرأة همام بن الحرث قالت شهدت القادسية مع سعد ، فلما نزل النصر وانهزمت الفرس شددنا ثيابنا وأخذنا الماء وابتغينا القتلى فمن كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، ومن كان من المشركين أخذنا ماعليه .

حدثنا الحرث عمن أدرك ذلك . قال لم يكن من قبائل العرب أكثر نساء من نساء بجيلة والنخع وكانوا فى ألف وسبعمائة امرأة . قال وأخذت المسلمون عدة لم يروا مثلها وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد وسفيان بن سليم والمهلب بن غزوان والقادح بن عنبسة ونعمان بن نعيم وأربعون رجلا من المهاجرين والأنصار وسنذكر من قتل ممن كانوا يقرءون القرآن اذاجنّ الليل كدوىّ النحل قال وأخذ المسلمون من الأموال مالم ير مثله ، ولما كان بعد الفتح بيوم جاءت النجدة التى بعثها عياض بن غنم من أرض الموصل وجاء من شهد الفتوحات بالشام مع عامر بن الجراح ، وكان الذين قدموا سبعمائة ، فلما وصلوا الى عين التمر استعجل للنصرة فترك الجيش وسار فى سبعين فارسا وأتت بقية السبعمائة بعد ذلك ، وكان معه قيس بن عبد يغوث وقيس بن أبى حازم وسعيد بن نزار ومالك الأشتر النخعى فتقدّم هاشم وقيس معه فى السبعين .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا ابراهيم بن بشار . قال أخبرنا محمد بن على عن سليمان بن أرقم أن عدة القتلى بالقادسية تسعة وثمانون رجلا ، وكان المشهور منهم قيس وعطارد وهشام ومذعور ومقرب الأسود وعمرو بن قيس والنعمان .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] وبلغنا عن رجل من تميم عن امرأة منهم قالت : شهدت القادسية وضم للنساء لكل منهن ثلاثة وثلاثون مثقالا من العنبر ومثلها مسك ، وأما الكافور فما كنا نعبأ به الامن عرفه ، وكانت العرب تقول للسوقة : هل لكم من ملح طيب وكانوا يعطون كيل كافور بكيل ملح ، وان رجلا من العبسا كر عجن عجينا وجعل فيه من الكافور وجعل يذوقه بعد خبزه ويقول : ماهذا الملح لايطعم فى العجين وان رجلا ممن له خبرة بالملح قال أعطيكم جراب ملح يطعم طعمه . قال فأخذوه وأعطوه ملء جرابه كافورا غال وان سعدا لما هزم الله العدوّ على يديه جمع الأموال كلها وكان الذى يقبض الأموال سليمان بن ربيعة . قال فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من العامل بالعراق سعد بن أبى وقاص الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . أمابعد : سلام عليك وانى أحمدالله الذى لاإله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ وانا وصلنا الى العراق والتوفيق يقدمنا ، والنصر يؤيدنا ، وقد اطلع الله على قلوبنا وامتحن خفىّ أسرارنا فما وجد فيها سواه ، ولا نعبد إلا إياه ، فوفى لنا بوعده اذ وفينا بصادق عهده ، فلقينا العدوّ وهو شاكى السلاح ، وغير راجع عن الطماح ، وقد شمر انا عن ساق الجد فدارت لنا عليه الدوائر فهزمنا كتائبهم وزلزلنا مواكبهم ،

واستأصلنا شأفتهم ، وقتلنا مقدّمهم ، فجرى بذلك سابق القدر — وأخذناهم أخذ عزيز مقتدر — وملكنا الحيرة والقادسية ، وأنزل الله بأعدائنا الرزية ، فلما كان بعد الفتح بيوم قدم المرقال وهشام وسبعون رجلا من الصحابة و بعده بثلاثة أيام قدم سبعمائة من الشام من جند أبى عبيدة ولم أسلم لأحد شيئا من الغنيمة ، ونحن ننتظر أمرك فى ذلك والسلام عليك ورحمة الله و بركاته وعلى جميع المسلمين . وسلم الكتاب الى زيد بن عمرو فركب نجيبه وسار نحو المدينة .

قال أخبرنا أحمد بن عمر قال حدثنى سابق بن مسلم قال وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يركب فى كل يوم نجيبه و يقصد طريق العراق الى قريب الظهر ، وذلك لما بلغه أن رستم نزل على القادسية . قال فخرج على عادته اذ لقيه البشير وهو نوفل ، فلما رآه نوفل أبرك ناقته وسلم على أمير المؤمنين ، وقال له أبشر بكل خير ودفع اليه كتاب سعد وهو يقول : قد هزم الله العدوّ ونصر الموحدين وملكنا الحيرة والقادسية ومشى هو واياه يخبره بما كان الى أن دخلوا المسجد وهرع الناس اليهم الى أن غص المسجد بهم فرقى المنبر وقرأ عليهم كتاب سعد ، وقال ألا وان اخوانكم المسلمين يقرئونكم السلام ، وقد اتبعوا الكتاب والسنة وحادوا عن طريق البدعة وأقاموا على شرائع الهدى ، وأرادوا المشورة فيمن قدم عليهم ، فأما الجواب فالغنيمة لمن شهد الوقعة والمواساة لمن لحق بهم بعد الوقعة بثلاثة أيام. ونزل عن المنبر وكتب الى سعد : بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : سلام عليك فانى أحمد الله الذى لا إله الا هو وأصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد وصلنى كتابك فحمدت الله كثيرا بما فتح الله على أيديكم و إنى قد أبليت بكم وأبليتم بى ، وانى والله لاأحصى شيئا من أموركم فأعلمه ، وأما اذا اجتمع صلح فاذا أشفق الوالى ونصحت الرعية وعمل الاحسان وعلى الرعية الصبر والشكر ، وأما الغنيمة فلمن شهد الوقعة والمواساة لمن أتى بعد ثلاثة أيام ، ومن شهد حربكم من مملوك وعتيق بعد ثلاثة أيام فأشركوه والزموا الاحسان فما فتح الله عليكم وختم الكتاب وسلمه للرسول فسار يجد السير الى أن أتى سعدا ودفع اليه الكتاب ، فلما قرأه كتب اليه بعد البسملة يعلمه بما تجدد . أما بعد : ياأمير المؤمنين فانى لم أر فارسا مثل القعقاع بن عمرو التميمى فانه حمل فى العدوّ فى يوم واحد ثلاثين حملة يقتل فى كل حملة فارسا ولم أر فارسا مثل الحرث الكندى فانه كان يحمل فى المواكب فيقصم عروقها وأرسل الكتاب الثانى والخمس مع سعد ، قال ووصل المنهزمون من الفرس الى المدائن ودخلوا الايوان وحدثوا كسرى بما جرى و بقتل رستم وولده فاغتم لذلك وأيقن أن دولة الفرس قد انقرضت وانصرمت فاحتجب ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع مات لأنه حمل الهمّ على قلبه فقام بعده ولده يزدجرد ولم يكن له غيره .

قال حدثنا عبد الله بن مروان قال حدثنا نعيم عن جده وكان أحفظ الناس للفتوح . قال لما وجه كسرى بن ازدشير رستم الى قتال سعد أنفذ معه نصف بيت ماله ، وهى ستمائة ألف ألف الى المصف ، فلما صفت الصفوف وضعها أمام الجيش ، وقال كل من قتل فارسا كان له كذا وكذا ومن قتل راجلا فله كذا وكذا فصار ذلك كله الى المسلمين فأرسل الخمس مع سعد وهو مال كثير لايحصى عدده لكثرته ، فلما وصل المال لعمر بن الخطاب بكى ، وقال أف لمن يغتر بالدنيا أو يميل اليها ثم قرأ — قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى — فوالله لم يلتمس منه قليلا

ولا كثيرا ولادرهما ولادينارا فقالت له حفصة ياأمير المؤمنين : لورفقت بنفسك وأكلت طعاما أطيب من طعامك ولبست ثوبا أميز من ثوبك فقد فتحت لك الفتوح ، وأتت الأموال فتمعر وجهه غضبا ، وقال لها ناشدتك الله أخبريني عن أفضل مااقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت مال المسلمين قالت ثوبان كان يلبسهما يوم الوفد ويخطب فيهما يوم الجمعة والعيدين . فقال أيّ طعام كان يأكل عندكنّ قالت خبز الشعير ، وكان عندنا في أسفل عكة دسم فان تظاهر طعمه فيها يقول قد زدتنّ في الدسم ، قال فأيّ بساط كان يبسطه عندكنّ قالت كان لنا كساء نجعله في الصيف تحتنا ، وفي الشتاء نفرش نصفه ونلتحف بنصفه . فقال ياحفصة : ان مثلي ومثل صاحبيّ كثلاثة نفر تتابعوا طريقا فمضى الأول وقد زاد فبلغ ، ثم تبعه الثاني فسلك طريقه فمضى اليه ، ثم تبعهما الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما كان معهما وان سلك غير طريقهما لم يجتمع معهما أبدا .

ذكر فتح نهمشير

[قال الواقدي رحمه الله تعالى] وان عمر رضي الله عنه بعث الى سعد بأن يمضي الى المدائن وأن يخلف النساء والأولاد في الحيرة وعندهم من الجند جماعة ويجعل لهم شركة في كل مغنم وكان مقام سعد بعد الفتح بالقادسية شهرين ، فلما استهلّ الشهر الثالث أنفذ على مقدّمته زهرة بن جويرية وأتبعه بعبد الله وشرحبيل بن الشمطاء وأتبعهما بهاشم بن عتبة وخالد بن عرفجة صاحب الساقة وقسم الجيش معهم وقد غنموا ما كان في عسكر الفرس من مال وسلاح وكراع ، وكان رحيلهم من القادسية لبضع أيام مضين من شهر شوّال . قال ونزل زهرة بالكوفة بمن معه ولحق به عبد الله وشرحبيل بمن معهما وتتابعت الجيوش وارتحل زهرة وسار الى بالس ونزل عليها واذا بأناس من أهل السواد أتوا اليه وطلبوا منه أمانا فأعطاهم وقال لهم ماعندكم من خبر العدوّ ؟ . فقالوا أيها الأمير استعمل الحذر جلبابا والتيقظ بابا ، واعلم ان رجلا من المرازبة قد ضمن لكسرى لقاءكم وردكم ومعه عسكر جرار . فقال زهرة أبعد الله شرّه وجعل كيده في نحره ، فبينما هو كذلك إذ أشرفت عليهم طلائع القوم وتبينت لهم البيارق والازدهارات فركب زهرة للقائهم ورتب أصحابه للحرب وهو يقول — ان ينصركم الله فلا غالب لكم — .

[قال الواقدي رحمه الله تعالى] ولما أشرفت الكتائب أطلقوا ألسنتهم بذكر الله وتسارعوا اليهم فأوسعوا لهم الميدان وتقدمت الصناديد وتأخرت الرعاديد وضج المسلمون بالتكبير وطعنوهم في صدورهم ونحورهم واذ قد وقعت عين زهرة على فارسهم العميد و بطلهم الشديد فقصده دون غيره وتطاعنا وتضاربا وتقاربا وتباعدا ، ثم ان زهرة رماه بطعنة في صدره فأخرج السنان من ظهره فخرّ الى الأرض صريعا ، فلما رأوه ولوا الأدبار وركنوا الى الفرار وكان فيهم رجل من أكابرهم ذوعقل سديد ورأي رشيد ، فلما رأى ماحل بقومه أتى الى زهرة طائعا مختارا وعقد له معه صلحا فأعطاه أمانا وسأله عن خبر جيوش كسرى . فقال ياسيد قومه: اعلم ان أكابر من انهزم منهم بالقادسية قد اجتمعوا وهم النهرجان والمهراق الداري والهرمزان . فقال لهم القيروان بأي وجه تعودون للملك كسرى ، وقد أعطاكم الوظائف والعطايا والولايات فأقيموا هنا حتى تبيضّ

وجوهنا عنده أونهلك عن آخرنا . قال فلما سمع زهرة وعبد الله وشرحبيل وهاشم وخالد انتظروا سعدا حتى أتى وأعلموه . فقال استعينوا بالله وتوكلوا عليه وكانوا قد ملكوا الجسر فعبروا عليه وعدّوا الى الجانب الآخر وأشرفوا على جموع القوم فوقعت فى الفرس الأراجيف وتمكن الخوف من قلوبهم ، وكلما عين الهرمزان والقيروان جيشهما وصفاصفا انتقض بغيره فعلم أن مافيهم خير وما كانت الا ساعة حتى فرّق الله جموعهم وبدّد شملهم وانطلقوا على وجوههم فمضى الهرمزان الى الأهواز وكانت كنوز كسرى فى جبل ظاهر الأهواز وكان عليها مقدمانهاوند ، فلما بلغه هزيمة العسكر نهبها ، وأما النهرجان ومهراق فانهما قصدا المدائن وعبرا نهرا شير وهى مدينة الذنب . قال فلما حصلوا بالعدوة القصوى وقطعوا الجسر قصدوا الايوان ويزدجرد هناك فدخلوا عليه وحدثوه بما جرى لهم مع العرب ، فلما سمع ذلك أيقن بزوال ملكه ، فلما كان الليل عوّل على أن ينفذ أمواله وذخائره الى نهاوند وتهيأ للحرب ، وأما زهرة فانه سار فى أثر القوم حتى جاوز سوار ونزل وأتى بعده هشام والمرقال ونزلا عنده حتى تكامل الجيش ونزل سعد بن أبى وقاص وارتحلوا الى كوثار يا وأشرفوا عليها ، فلما رأى الفرس عسكر المسلمين قد أشرف عليهم أخذوا أهبة القتال وتهيئوا ومقدمهم شهريار ، فلما وصل اليهم زهرة ورآه شهريار وقع الرعب فى قلوب أصحابه وماج بعضهم فى بعض ولولا خوفهم من شهريار لولوا الأدبار ورتب زهرة أصحابه ، فلما استوت الصفوف خرج شهريار للبراز وعليه زى الملوك الأكاسرة ، وقال : أنا شهريار فهل يبرز الىّ فارس لفارس أوأربعة لفارس أوعشرة لفارس ، فلماسمع زهرة كلامه قال والله لقد أردت برازك غير أنى لاأدع أحدا يخرج اليك الاعبدا فان قتلته فتكون قد قتلت عبدا وان قتلك فهو المراد ، ثم انه دعا مولاه أبانباتة الأعوجى فقال له دونك وهذا العلج واستعن عليه بالله فخرج اليه أبو نباتة ، فلما وصل اليه ونظره استحقره لان شهريار كان مثل البعير فألقى نفسه على أبى نباتة وقد جرد سيفه ، فلما رآه أبو نباتة قد وصل اليه صادمه كأنه أسد وتضاربا بالسيوف حتى تكسرت فرمياها وتقابضا حتى سقطا الى الأرض فوقع شهريار بأبى نباتة وهو يراوغه فوقعت إبهام شهريار فى فم أبى نباتة فقطعها فارتخت أعضاؤه فانفلت وانقلب عليه فصار فوقه وجرد خنجره وطعنه به فى نحره فقضى عليه فأخذ تاجه وسواريه وسلبه وفرسه وعدته وتوجه بها الى المسلمين ، فلما نظر جيشه ماحلّ به ولوا الأدبار وأقام زهرة هناك الى الصباح وأقبل بقية الموحدين فحدث زهرة سعدا بما جرى لمولاه مع شهريار وكيف انهزم الفرس ، ففرح سعد بذلك وأمر أن يحضر أبا نباتة فأحضره . فقال سعد عزمت عليك الا لبست سواريه ودرعه وتاجه وركبت جواده . قال ففعل فأعطاه السلب جميعه ، وقال له قد أفلحت فكان أول مسلم سوّر بالعراق .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى نوفل بن عدى . قال أخبرنا وائل بن غانم اليشكرى قال لما قدم سعد الى كوثار يا نزل فى المكان الذى سجن فيه ابراهيم الخليل عليه السلام فصلى فيه وحمد الله وصلى على رسوله ﷺ وقرأ — وتلك الأيام نداولها بين الناس — الآية . قال وأقام سعد بمشهد كوثاريا أياما ثم دعا الناس اليه ، وقال لهم اعلموا ان الله تعالى قد نصركم فى مواطن كثيرة وقدأرا كم ماوعدكم نبيكم محمد ﷺ لماقال «ستفتح على أمتى كنوز كسرى وقيصر» ، وقد ملكتم طرفا من كنوز كسرى والتمام على الله ، وقد عوّلت على العبور الى المدائن التى من

الجانب الغربي . فقالوا جميعهم أيها الأمير مامنا من يخالف ولايبخل بنفسه على الله ورسوله فاعزم ولاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم . قال فلما سمع قولهم قدّم زهرة برايته وجيشه وأمره أن يسير فسار في اثني عشر ألف فارس فساار غير قليل اذ رأى بين يديه خيلا وعليها فوارس فأخذوا أهبتهم فاذاهم زهاء من مائتي فارس من الفرس فارسلوا منهم فارسا يعلم المسلمين أنهم أهل ساباط ومقدّمهم يقال له سرزاد وهو يطلب لأهل بلده صلحا وعهدا . فقال له زهرة ائتني بهم ، فلماقربوا منهم ترجلوا وأتوا المسلمين فتلقوهم بالبشر والسرور . فقال لهم زهرة من أنتم ؟ قالوا نحن أهل ساباط وهذا مقدمنا وقد أقبلنا نطلب صلحكم . فقال زهرة من قصدنا قبلناه ، ومن أراد صلحنا صالحناه ولسنا قوما نريد الفساد في الأرض ، ثم أمضى صلحهم على ماوقع عليه الاتفاق بينهم . قال وانطلق سرزاد الى قومه ومعه جماعته فرحين بالصلح ، ولما نزل زهرة في نهمشير وجد كتائب الفرس وعليهم مقدم يقال له فيروز وهو فارس قومه ومعهم كبكبة كسرى التي يعتمد عليها في وقت شدّته . قال واجتمع جيوش الموحدين عند زهرة مع سعد وتأهبوا للقتال .

[قال الواقدي رحمه الله تعالى] فلما ترتبت الصفوف كان أوّل من برز واشتهر وسما وافتخر فيروز ورطن بالفارسية ، وقال ياهؤلاء العرب لقد أطمعتم أنفسكم فيما لا تصلون اليه وساءت ظنونكم وزعمتم انكم تملكون العراق وتأخذونه من أيدي الأكاسرة وهذا ظن لايصير أبدا ، ونحن كتيبة كسرى أولو الشدة والباس والقوة والمراس وأنا مقدمهم والرئيس فيهم فليبرز الي مقدمكم ويفعل مثل مافعلت أنا من بين قومي . قال فما استتم كلامه حتى خرج اليه هاشم بن المرقال بجرقناته من ورائه وحمل عليه وحصل بينهما حرب يشيب منه الطفل ، ثم ان هاشما طعنه في صدره فأطلع السنان من ظهره . قال فلما قتله هاشم ورجع الى المسلمين قبله سعد بين عينيه ، فترجل هاشم وقبل رجل سعد وقرأ — أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال — . قال وارتحلوا في أثرهم الى أن نزلوا نهمشير وبقي كلما أقبلت قبيلة تكبر وتنزل الى أن أحاطوا بهم من كل جهة فأظهر القوم الزينة والسلاح والعدد والمجانيق وهم على الأسوار .

[قال الواقدي رحمه الله تعالى] وأقام سعد على نهمشير شهرين وبعث خيله للغارات على شط الفرات والدجلة ، فأتوا ومعهم ألف فلاح فضمهم الى سرزاد مقدم ساباط حتى يأتيه الجواب فيهم من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويرجعوا الى مقرهم ، فكتب سعد الى أمير المؤمنين يقول بعد البسملة : أمابعد ، سلام عليك ورحمة الله وبركاته فاني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه ، وإننا نزلنا على نهمشير بعد مالقينا فيما بين القادسية ونهمشير عسكرا مع قرط بن فيروز وظفرنا الله به وبمن معه ، وان فيروز قتله هاشم وانهزم من بقي معه ونزلنا بعد ذلك على نهمشير وبثثنا عساكرنا فأصابوا من الفلاحين ألف نفر فمارأيك فيهم ؟ فأجابه ان من أتاكم من الفلاحين اذا كانوا مقيمين على عهدكم ولم يعينوا عليكم عدوّكم فلهم أمانهم ومن لم يأتكم وهرب منكم وأدركتموه فشأنكم وإياه افعلوا فيه ماشئتم ، فلما جاء الكتاب خلى سبيلهم وأرسل وراء الدهاقين فدعاهم الى الاسلام أوالجزية فأجابوا الى أداء الجزية . قال وأما أهل مدينة نهمشير فشرعوا يرمون عسكر المسلمين بالسهام والحجارة والمجانيق ، فلما نظر سعد الى ذلك دعا سرزاد وقال له : ان أهل هذا البلد لم يتركوا للصلح موضعا وأريد منكم أن تصنعوا لنا مجانيق ، ففعل سرزاد وعمل

مجانيق فما مضت ثلاثة أيام حتى صنع له ذلك ونصب له ذلك على نهمشير أكثر من عشرين منجنيقا فأشغلوهم بها عن قتال المسلمين والعرب فرحت بذلك ، فلما طال على البلد الحصار خرجوا يقاتلون المسلمين وتبايعوا على الصبر فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا وترامت الفرس بنشابها والعرب بنبالها وقاتل زهرة بن الجويرية قتالا يرضى الله ورسوله ، ثم ان زهيرا قال لسعد دعنى أتقدم لعلى أرمى بنبلة أو أضرب بسيفى هذا ضربة ، فتقدم ودخل العدو فتلقاه فارس اسمه شهرياض فحمل عليه وطعنه طعنة أخرج بها أمعاءه وقتله فاجتمعت عليه الأعاجم فقتلوه وانهزموا ودخلوا المدينة وأغلقوا الأبواب وصعدوا على الأسوار وبعدها أشرف علينا رجل منهم وقال : ان الملك يقول لكم هل لكم فى الصلح على أن لنا مابين دجلة الى هنا ولكم ما يأتيكم من دجلة الى خيلكم ، فتقدم اليه أبو مقرة الأسود بن قطينة وقد أنطقه الله بما لا يدرى ماهو ، فأجابه بالفارسية وهو لا يعرف منها شيئا ولا يحسنها . قال فرجع الرجل على السور . فقلنا لأبى مقرة ماقلت له ؟ فقال والذى بعث محمدا بالحق ما أدرى ماقلت له الا أن الله أنطقنى بشىء ، ولعل أن يكون فيه خير للمسلمين ولازالوا يسألونه حتى سأله سعد بن أبى وقاص . فقال والله يا أمير ما أعلم ولا أدرى فتعجب سعد من ذلك وأمر الناس بالزحف والرمى وان لا أحد من أهل المدينة يظهر لهم ولا يبين . فقلنا لعلهم أن يكونوا يكيدوننا بمكيدة ، واذا نحن فى اليوم الثانى برجل قد خرج الينا وهو ينادى الأمان الأمان ، فأمناه وأتينا به الى الأمير سعد . فقال له ما الخبر ؟ . قال ان القوم ليسوا فى المدينة وقد هربوا . فقال سعد ومن أى شىء هربوا ؟ فقال الرجل ان الملك بعث اليكم رسولا يعرض عليكم الصلح فأجبتم انه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدا حتى نأكل عسل افريزيا نوح كونا ، فلما بلغته هذه الكلمات منكم قال : واويلاه ان الملائكة تتكلم على ألسنتهم وترد علينا وتجيبنا عن العرب ، ووالله لئن لم يكن كذلك والا فانما هو شىء ألقى على فم هذا الرجل فابرزوا الى القصوى فخرجوا من البلد وقد تركوا المتاع والأموال والرجال ولم يكن لهم غنيمة الا أنفسهم. قال فلما سمع سعد ذلك من الرجل سجد لله شكرا ، وأمر المسلمين أن يدخلوا المدينة بالعدد خوفا من الكمين ففعلوا وركب سعد وتقدم المجاهدون ودخلوا وداروا بالبلد فلم يجدوا فى نهمشير أحدا من الفرس ووجدوا الأموال على حالها فاحتووا عليها وأقام سعد بها ثلاثة أيام وخرج الى الشط وأراد أن يعبر بالناس الى المدينة القصوى وهى اسبانير فلم يجدوا شيئا من السفن فأقام أياما من شهر صفر والناس يحرضونه على العبور الى ذلك الجانب وهو يأبى اشفاقا على المسلمين ، فبينما هو كذلك إذ جاءه أعلاج فوقفوا بين يديه ودلوه على مخاضة تخاض فأبى .

ذكر فتوح الايوان ودخول المسلمين فى الدجلة وفتوح اسبانير وهى المدينة القصوى

فلما دلوه على المخاضة أبى وقال بحر عميق وما كنت أغرر بالمسلمين والله يصنع بهم ما يشاء ، فبينما هو كذلك اذ أتوه بعلج وأثوابه تقطر بالماء فسأله سعد عن حاله فقال كيف حالى والملك قد رأى فى منامه ان المسلمين قد عبرت اليه وقد استشعر بزوال ملكه وهو معوّل على الهرب وان يأخذ أمواله ويمضى الى خراسان . قال فلما سمع سعد ذلك جمع المسلمين وحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس ان عدوكم قد استعصم منكم بهذه السفن ، وكسرى قد عوّل على الهرب بأمواله

ورجاله وانى قد عوّلت على العبور ان شاء الله تعالى ، واعلموا انه ليس وراءكم من تخافونه ، لان الله قد ملككم معاقلهم و بلادهم ، وقد رأيت من الرأى أن نقطع هذا البحر اليهم ونقدم عليهم فما أنتم قائلون . فقالوا جميعا قوّى الله عزمك على الرشد فافعل ما أراد الله به ، فعندها قال سعد رحمكم الله ونصركم أيكم يبتدئ أو يتقدم ويجس لنا المخاضة وينبش عليها من على الشط حتى تتلاحق به الناس فابتدرها عاصم بن عمر وانتدب معه ستمائة من أهل النخوة ممن شاع ذكرهم ونما نفرهم وعلمت شدّتهم وسار عاصم أمامهم حتى وقف على الشط ومعه الكتيبة الخرساء وهى كتيبة القعقاع بن عمرو رضى الله عنهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا يونس بن عبد الأعلى عن يوسف بن عمرو . قال ابتدر عاصم وشرحبيل وأبو مقرّن ومالك بن كعب الهمدانى ومثل هؤلاء السادات وركبوا خيولهم واقتحموا الدجلة وأقتحم بعدهم الستون والستمائة فى أثرهم وأوّل من نزل فى الماء عاصم بن ولاد وأبو مقرّن وشرحبيل ومالك بن كعب وغلام من بنى الحرث ، فلما رأتهم الأعاجم وقد قربوا منهم وأعدوا للخيل التى تقدّمت خيلا منهم اقتحموا الماء ، فأوّل من لقيهم من جيش سعد عاصم بن عمرو ، فلما لقى خيل فارس فى الماء صاح بأصحابه ، وقال شرعوا رماحكم الى الاعلاج واقصدوا أعينهم ، فلما سمعوا كلام عاصم قصدوا عيون العدا وسقوهم كاس الردى ، فلما رأت الفرس ثبات العرب فى الماء كثباتهم فى الأرض للطعن والضرب ولوا الأدبار والمسلمون فى أثرهم فقتلوا غالبهم وما نجا الى الشط الا القليل وملك المسلمين جانب الشط من جهة الفرس وتلاحق المسلمون ، فلما علم سعد ذلك أذن للمسلمين بالاقتحام ، وقال لهم استعينوا بالله وتلاحق الجند ونزلوا الدجلة وهى ترمى بالموج والناس يجهذون فى عومهم وهم لايكترثون بالموج ولا بتلاطمه وكأنهم على وجه الأرض ونزل بأهل فارس مالم يكن فى حسابهم وقاتلوا قتالا شديدا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى من أثق به : ان أوّل من عبر من الجيش ستون فارسا خرجوا زمرا ، فأوّل زمرة تسعة أوّلهم عاصم ، والزمرة الثانية ثلاث وثلاثون . قال عاصم ابن عمرو وقد اقتحمنا الدجلة خيلا ورجالا ودواب حتى نزلنا ولا نرى الماء من كثرة الناس وخرجت خيلنا وهى تنفض معارفها وتصهل على الشط إلهاما من الله . قال ولما رأى الملك كسرى ان المسلمين قد عدلوا الى الجانب الثانى أمر شهريار بن ساور أن يبرز للمسلمين ويقف فى مقابلتهم ففعل وأخذ كسرى ماقدر على حمله من أمواله من الدر والجواهر واليواقيت وماأشبه ذلك . قال وان سعدا ليخوض الماء خوضا وهو يقول — ذلك تقدير العزيز العليم — . قال ولم يغرق من الناس أحد .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنى النعمان بن عاملة الضبى عن أبيه عثمان انهم سلموا عن آخرهم ، وان رجلا من بارق يقال له عرقدة زال عن فرسه وكانت شقراء وكأنى أنظر اليها وصاحبها غريق ، فمضى اليه القعقاع بفرسه وأخذ بيده وجره حتى عبر به . فقالت الناس عجزت النساء أن تلد مثلك ياقعقاع ولم يذهب للناس فى الماء شىء الا قدحا كانت علاقته رثة فانقطعت فذهب الماء بالقدح . فقال صاحبه والله لأجهدن عليه وما كان الله ليسلبنى قدحى من بين العسكر فلما عبروا أتى رجل من الناس ليغتسل واذا بالأمواج قد رفعت القدح اليه فتناوله وأتى به الى

العسكر فعرفه صاحبه فأخذه .

[قال الواقدى] حدثنى عمرو بن تميم . قال بلغنا انه لما عبرت المسلمون تحامت الفرس وقاتلت قتالا شديدا وحت أنفسها وعوّلت على أن تقاتل الى أن تموت وهم خواص الملك وأصحاب الايوان والحصون والقلاع ومقدّمهم شهريار بن ساور ، فطعنه خالد بن نمير فى عينه ففقأها وانثنى عليه بضربة بالسيف فقتله واذ فاجأتهم خيالة من نحو الايوان وقالوا لهم عمن تقاتلون ، فان الملك هرب بأمواله وأهله وخدمه . قال فلما سمعوا ذلك ولوا الأدبار ولم يكن بالمدائن أعجب من عبور المسلمين اليها وسموا يوم عبورهم الدجلة يوم الجراثيم لانه لم يكن أحد يعبر الاظهرت له جرثومة يسير معها وهى من القش المربوط حزما .

قال قيس بن أبى حازم خضنا الدجلة وهى تطفح . فلما توسطناها كان يصل الماء من الفرس للحزام . فلما نظرت الفرس إلى ذلك والمسلمون يعبرون من غير مشقة جعلوا يقولون بالفارسية ديوور : يعنى جاء الجن ، وقالوا والله ماأنتم تقاتلون إنسا إنما تقاتلون جنا فانهزموا ، وأراد المسلمون الدخول إلى الايوان فنعهم سعد من ذلك . وقال لهم إياكم والعجلة فى الأمور ، فانها تورث الندامة وانى أخاف أنها من بعض مكايد العجم فلم يدخل إليه أحد . قال وتقدم سلام الحجازى الى سعد وكان غلاما . وقال له أيها الأمير والله لقد أرضيت اليوم الله ورسوله وقتلت المقدم عليهم . ثم إنه استشهد بقية رفاقه الستين فلم يشهد له أحد منهم . فقال للغلام الحجازى والله ماقتلته فنكس الغلام رأسه وأراد أن ينصرف واذ قد وثب رجل من الصحابة اسمه هاشم بن عتبة . وقال لسعد أيها الأمير أنا رأيته وقد قتل مقدم الفرس فصدقه سعد وأعطى الغلام سلبه .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا عبد الله بن بشر . قال حدثنا سليمان بن عامر . قال أخبرنا عبد الله بن يزد جرد الملك لما كان بأعلى الايوان يوم خاض المسلمون الدجلة ورأى عبورهم والخيل لاترجع والعرب لاتجزع والصحابة يتحدثون وهم فى الماء كأنهم على الأرض أيقن بزوال ملكه وذهاب عزه فنزل وهو يبكى : وأخذ من بيوت المال والخزائن من الثياب والآنية شيئا لاقيمة له ولايعرف له ثمن وترك مابقى عنده من عدة الحصار من الزاد والبقر والغنم ومن كل الأطعمة والاشربة ، وكان أوّل من دخل المدينة القصوى مسكن الملك ، وهى اسانير يعقوب الهذلى ومعه الكتيبة الخرساء كتيبة القعقاع بن عمرو فدخلوا يخترقون أزقة المدينة ولايلقون أحدا . قال فعزم سعد على الدخول فى المدينة القصوى لما أمر زهرة بن الجويرية أن يذهب بعسكره ويتبع المنهزمين وسير كتيبة أخرى مع المرقال فلحق بحاجب بن حجاب ابن كسرى نخاطبه بالفارسية . فقال ان العرب قد عبرت الينا ولم يعرفه فطعنه المرقال فقتله وأخذ غلمانه أسرى وموجودهم وأتى به الى سعد ويقال أحد مرازبة كسرى الكبار كان يوم دخول العرب المدينة داخلها وكان غير مكترث بهم نخرج الى ظاهر داره ورجع يريد منزله واذا بغلمانه وهم خارجون من الدار يهرعون وقد أخرجوا الأمتعة ، فقال مالكم ؟ . قالوا ان الزنابير قد غلبت على منازلنا فأخرجتنا قوّة . قال واشتدّ الصياح والبكاء والعويل من أهل المدينة وهم يلطمون على وجوههم . فلما رأى المرزبان ذلك أخرج لامة حربه ولبسها وأتوه بجواده فشده وأسرجه فانقطع ثلاث مرات فربه فارس من العرب فطعنه . وقال خذها وأنا ابن

المخارق ومضى عنه ولم يلتفت الى سلبه . قال ودخل سعد يطلب الايوان . فلما دخل المدينة دخلها وهو يقرأ — وأورثناها قوما آخرين — . فلما دخل الايوان ترجل وصلى فيه صلاة الفتح ثمان ركعات لا يفصل بينهما واتخذه مسجدا . قال وكان فى الايوان تماثيل وصور فتركوها على حالها . قال وأتم سعد الصلوات من يوم دخل الايوان . فانه أراد المقام بها وجمع وكانت أول جمعة صليت بالعراق و بالمدائن فى شهر صفر . ثم ان سعدا تحول من الايوان بعد ثلاثة أيام الى القصر الأبيض وأقام سعد على قبض أموال الغنائم عمرو بن عمرو بن مقرن وأمره أن يجمع ما فى القصور والايوان والخزائن والدور والأسواق وان يحصيها ، وكان أهل المدائن لما رأوا العرب فى أرض واحدة خرجوا فرارا وأخذوا معهم ماقدروا على حمله وماانفلت أحد منهم بشىء إلا وأخذه منهم المسلمون وأتوا به الى سعد فتسلمه عمرو وصيرها فى جملة ماجمعوه من الأموال ، وكان أوّل شىء جمعوه يومئذ بالقصر الأبيض ، ثم منازل كسرى وسائر دور المدائن . قال جهد بن صبار دخلنا المدائن فررنا بأبيار عليها أغطية من رصاص فظننا أنها طعام ففتحناها . فاذا هى أوان من ذهب وفضة ورأينا كافورا كثيرا فحسبناه ملحا فما اعتبرناه . قال وخرج زهرة فى طلب المنهزمين فانتهى الى جسر النهروان واذا عليه كثير من الفرس بأعظم عدّة وأحسن زينة وهم يزدحمون على الجسر . قال ووقع بغل فى الماء فتكاثروا عليه وتكالبوا عليه وصاح بعضهم على بعض . قال ووقع منهم بغل آخر فصاروا فى هرج ومرج . فلما رآه المسلمون . قال زهرة ان لهذا البغل لشأنا وماتكالب عليه القوم وصبروا مع مافى قلوبهم من الخوف إلا لأمر عظيم . وقال احملوا عليهم وابذلوا فيهم السيوف . قال فحملنا عليهم حملة صادقة فقتلنا منهم أناسا كثيرة وولى الباقى منهزمين وأخذنا البغل ، وإذا عليه حلة كسرى وثيابه ودرعه ووشاحه التى كان فيها الجوهر وكان يجلس بها للمباهاة . قال فأتينابها . قال سهل بن سابق لما أخذنا البغل وأتينابه لم ندر ماعليه ، وعن يعقوب عن جده . قال كنت مع من خرج فى طلب المنهزمين ، و إذا نحن ببغلين مع اثنين وهما يرميان كل من يقربهما بالنشاب ولم يجسر أحد أن يدنو منهما فقصدتهما وحملت عليهما وقتلتهما وأتيت بالبغلين إلى صاحب الأقباض وهو يكتب كل ماتأتى به العرب من سائر العراق . فلما أتيته بالبغلين . قال لى على رسلك حتى ننظر مامعك فحطيت عنهما . فاذا فى الحمل الواحد تاج كسرى وجواهره وفى الحمل الثانى ثيابه وهى موشحة بالذهب منظومة بالدر ، وعن محمد بن طلحة والمهلب قالا خرج القعقاع فى طلب المنهزمين فلحق بفارس من الفرس ، وهو يكر على قوم من المسلمين وقد جزعوا منه وما أحد منهم يدنو اليه فقصده القعقاع بشدّة عزمه وقال له دونك أيها الكلب اللئيم لقتالى وطعنه فقتله ووجد معه عيبات مغلقات ففتحوها . فاذا بالعيبة الواحدة خمسة أسياف وفى الأخرى خمسة أسياف محلاة بالذهب ودروع كسرى ومغفره ومنطقته ودرع هرقل ملك الروم ، ودرع خاقان ملك الترك ، ودروع جماعة من الملوك قد اجتمعت عند كسرى من أيام غزواته لهم ، وأما السيوف فكانت سيف كسرى وسيف هرقل وسيف مهمود وسيف خاقان وسيف النعمان بن المنذر . فلما رآها سعد . قال ياقعقاع خذ أى سيف شئت وجاهد به العدو فأخذ سيف هرقل وأعطاه درع بهرام جور ، وأما بقية الاسلاب فأعطاها للكتيبة الخرساء الاسيف كسرى والنعمان فأمسكهما لأمير المؤمنين يرسلهما مع الخمس والتاج والثياب ، وعن

برجل من الصحابة . قال كنت مع الناس فى طلب المنهزمين من خيل كسرى . فبينما أنا على طريق اذا برجل ومعه حمار وكان راكبا عليه ، فلما رآنى ترجل ، وجعل يحث حماره على السير حتى انتهى إلى نهر قد خرب فلم يمكنه العبور فدنوت منه فأخذ يرمينى بالسهام فزغت عن رميه وحملت عليه فقتلته وأخذت الحمار ووجدت آخر ومعه حمار فتركه وانهزم فاتيت بهما الى صاحب الأقباض . فاذا على أحدهما فرس مصوغ بالذهب والفضة مرصع بالدر والجواهر ولجامه كذلك وسرجه كذلك وعليه فارس كذلك ، واذا على الحمار الآخر ناقة من فضة وعليها كور من الذهب مرصع ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب مرصع بالجواهر ، وكان كسرى يضيفهما للتاج وكان يباهى بهما ملوك الأرض . وعن أبى عبيدة الهبرى . قال لما هبط المسلمون بالمدائن وجمع صاحب الأقباض الغنيمة و بقى الرجل يأتى بما معه فيدفعه إلى صاحب الأقباض . فقال صاحب الأقباض مارأينا مثل هذا قط . ثم قال للرجل الذى أتى بالحمارين بالله عليك هل أخذت شيئا منه ؟ . فقال والله لولا الله لما أتيتكم بهما . فقالوا له وما أنت ؟ . فقال والله لاأخبركم لتحمدونى ، ولكن أحمد الله وأرضى بثوابه ومضى فتبعه واحد من موالى صاحب الأقباض فسأل عنه . فقالوا هذا عامر بن عبد القيس . قال و بلغ الخبر سعدا رضى الله عنه . فقال أحلف بالله الذى لاإله إلاهو إننا مااطلعنا على أحد من أصحاب جيش القادسية يريد الدنيا ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فاتبعناهم فعجزنا عن وصف أماناتهم وزهدهم ، وهم طلحة بن خويلد الذى إدّعى النبوة بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، والثانى عمرو بن معد يكرب ، والثالث هو قيس ابن هبيرة .

قال حدثنا من شهد فتح المدائن . قال خرجنا بعد فتح القصر الأبيض وكان قد تحصن به رجال من المرازبة ، وكان أشد جلدا وأقوى عزيمة من جميع الفرس وتحالفوا أنهم لايسلمون أبدا والذين حصلوا وتولوا حصارهم كتيبة الاهواز وهى كتيبة القعقاع . فلما رأينا عزمهم على الموت بعدنا عن نشابهم وحجارة مجانيقهم وطال علينا ذلك وشكونا ذلك إلى سعد ، وقلنا له قد حرمنا الجهاد بحصارنا لهؤلاء الاعلاج ، فقال سعد لسلمان تقدم إليهم ودبر شيئا فيه مصلحة للسلمين وأمنهم فتقدم إليهم سلمان وكلمهم بالفارسية فأمسكوا عن رميه ، وقالوا له من أنت ؟ . فقال أنا رسول من المسلمين اعلموا أن الرجل يقاتل عن نفسه وماله وولده إذا رجا الخلاص وماأرى لكم من خلاص قط ، وهذا الملك قد انهزم وأخذنا مملكته وخزائنه ومابقى فى المدائن أحد غيركم فاتقوا الله فى أنفسكم ولاتهلكوها وسلموا لنا هذا الحصن ولكم الأمان إلى أى جهة توجهتم لايعارضكم منا أحد . قال فلما سمعوا قوله قالوا لانسلم حتى نهلك عن آخرنا ، ثم رموا سلمان بالنشاب فقرأ — وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا — وأشار إلى النشاب بيده فذهبت السهام يمينا وشمالا ولم يصبه منها شىء . قال فلما رأوا ذلك . قالوا زنهار فبحق من تشير إليه من أنت . قال أنا روزنة وقد عمرت أربعمائة سنة ولحقت آخر أيام عيسى بن مريم وطفت الأرض حتى لحقت بنبى هذه الأمة صلى الله عليه وسلم . فلما أتيته أكرمنى وخدمته فعظمنى حتى إنه جعلنى من أهل بيته . فقال سلمان منا أهل البيت ، فلما سمعوا قوله وحققوا معرفته علموا أنه كان من عظماء أهل دينهم . قال فصقعوا له

وقالوا والله مانخفى عليك شيئا من أمرنا وسبب قتالنا فانه ليس بسبب مال ولامتاع ، وانما الملك قد مضى يريد نهاوند ولم يقدر على أخذ ابنته معه وهى مريضة وقد سلمها الينا فلزمنا من أمرها مالزم ، فان كنتم تعطون الأمان عليها سلمنا لكم و إلا نموت يدا واحدة ، فلما سمع سلمان منهم ذلك . قال دعوا هذا الأمر حتى أشاور الأمير ، ثم عاد وحدث سعدا بما سمعه . فقال ياعبدالله ان المسلمين قد انتشروا فى العراق ونخاف أن يقع بهم أحد فلايبقى عليهم ، ولكن قل لهم لكم علينا أن نذب عنكم وتكونوا فى ذمامنا حتى تجاوزوا أى جهة تريدونها ، وبعد ذلك لانضمن لهم مايأتى عليهم . قال فحدثهم سلمان بما قاله الأمير . فقال العقلاء منهم لولا أن العرب على حق مانصروا علينا ومن الرأى أن نرجع إلى دين هؤلاء العرب ونعيش فى ظلهم ، وان القوم لايريدون ملكا وقد رأيتم هذا الرجل وماظهر لكم من كرامته . قال ففتحوا باب باب السر وخرجوا إلى العسكر وأتوا إلى سلمان فأتى بهم إلى سعد وأسلموا على يديه ، فلما جرى ذلك بكى سعد . وقال اللهم انصر الاسلام وقرأ قوله تعالى — وتلك الايام نداولها بين الناس — وبعث إلى صاحب الاقباض فأخذ جميع مافى القصر الأبيض من الأموال وخزانة الملك ، فلما قسم الغنائم على المسلمين أعطى أولئك أوفى نصيب وأنزل كل واحد منهم فى داره ، فلما رأى أهل البلد ذلك منه وماصنع مع هؤلاء دخل فى دين الاسلام منهم ألوف اقتداء بالقوم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا موسى بن عبد الله عن عمرو عن جده يحيى . قال بلغنا غير هذا ، وذلك أن هاشم بن عتبة تبع المنهزمين من جنود الملك ، فانتهى سيره إلى مرج حلوان فالتقى بكتيبة من أهل فارس بالعدد والسلاح والهوادج والخدم والجوارى والمماليك وقد دار بمحفة من العود الرطب وعليها من الثياب الملونة المذهبة وأهلتها من الذهب مرصعة بالجوهر وهى تأخذ بالأبصار ، فلما رأى هاشم ذلك كر عليهم بكتيبته وحملوا بجملتهم . قال فصبروا لهم وقاتلوا دون المحفة قتالا شديدا ، وكانت المحفة لشاهران ابنة الملك يزدجرد بن كسرى ، وكان السائر بها ساقر بن هرمز ، فقتله وقتل أصحابه أكثر ما كان مع ساقر ، وولى الباقى منهزمين وتسلم هاشم المحفة وماحولها وأتوا بذلك كله الى سعد وأعلموه بأن ابنة كسرى معهم ، فقرأ سعد قوله تعالى قل اللهم مالك الملك — الآية ، ثم أشرف سعد على مابقى من الخزائن فوجد صندوقا عظيما ظاهره و باطنه بالديباج المذهب وفى داخله بساط كسرى وهو البساط الذى كان يفتخر به على الملوك ملوك الدنيا ، كله ذهب مفسوج بالحرير منظوم بالدر واليواقيت الملونة والمعادن والجواهر الثمنة والزمرذ ، وكان طوله ستين ذراعا قطعة واحدة ، فى جانب منه كالصور ، وفى جانب كالشجر والرياض والأزهار ، وفى جانب كالأرض المزروعة المبقلة بالنبات فى الربيع ، وكل ذلك من الحرير الملون والمعادن على قضبان الذهب والزمرذ والفضة ، وكان الملك لايبسطه إلا فى أيام الشتاء فى ايوانه إذا قعد للشراب ، وكانوا يسمونه بساط النزهة والمسرات ، فيكون لهم شبه الروضة الزهراء ، فلما رآه العرب قالوا : والله هذه قطيفة زينة . قال ولما قسم سعد على الناس الغنائم أصاب الفارس اثنا عشر ألف دينار وكلهم كانوا فرسانا ولم يكن فيهم راجل ، وأخرج للغائبين مع النساء والحريم فى الحيرة نصيبهم ، وقسم الدور بين الناس وكان قد ولى القبض عمرو بن عمرو المدائنى ، وولى القسمة سليمان بن ربيعة ، وكان فتح المدائن فى شهر صفر ، وأخرج الخمس لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ،

وأراد أن يقسم البساط ، فلم يدر كيف يقسمه ، فقال سعد : معاشر المجاهدين انى رأيت من الرأى أن نرسله الى عمر ليصنع فيه مايختاره فأجابوه على لسان واحد نعم مارأيت أيها الأمير فردّوه الى صندوقه وأضافه الى الخمس ، وكتب الى عمر رضى الله تعالى عنه يقول : بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، من عامله على العراق سعد بن أبى وقاص ، أما بعد فسلام عليك و إنى أحمد الله الذى لاإله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ على مامنحنا الله الظفر على العـدوّ الذى أطاع شيطانه وأرخى فى ميدان الغى عنانه ، وقد أجرانا الله سبحانه على جميل العادة ، وأخذنا الملك من يزدجرد بن كسرى فى كثرة أطواده واحـتزاز رؤوس أجناده الذين جاست الهيبة ديارهم ، وضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم ، ـ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لامولى لهم ـ ، وقد انهزم عدوّ الله بعد ماقتلنا جنـده وأخـذنا ابنته و إننا منتظرون أمرك فيما يكون بعد هـذا ، ونحن مقيمون على المدائن ، والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله و بركاته ، وسلم الكتاب والمال إلى بشر ، وضم اليه خمسمائة فارس ، وسلمه ابنة كسرى بمحفتها وخدمها ، ثم إن سـعداً رأى رأياً أن يسـير بشيراً يبشر عمر بفتح المدائن و بقدوم الخمس و بما أنعم الله على المسلمين ليكون أزيد هيبة و بهجة بالفتوح ، فأرسل جيش بن ماجـد الأسدى أو ابن هلال والله أعلم فخرج على ناقته وقصد المدينة بجدالسير . قال وكان عمر رضى الله تعالى عنـه فى كل يوم بعد مايصـلى الصبح يقرأ ما تيسر ، ويركب ناقته ويتوجـه نحو طريق العراق ويرتقب مايرد عليه من أخبار المسلمين . قال فخرج على حسب العادة و إذا هو بجيش قد أقبل على ناقته ، فلما رآه عمر قصده وقال له : ياعبد الله من أين أقبلت ؟ قال من المدائن ياأمير المؤمنين . قال فما عندك من الخبر أقر الله عينك وغفر لنا ولك ؟ . قال أبشر ياأمير المؤمنين بالفتح العميم والسعد الجسيم ، و إن الله سبحانه وتعالى قد هزم جند المشركين وقطع دابر القوم المجرمين وأخلى منهم ديارهم وأخفى آثارهم ، وزعزع مراكبهم وطحطح مواكبهم وكتائبهم ، وشتت جموعهم ، وأخلى ربوعهم ، وقصم آجالهم ، وفرّق أحوالهم ، وترك مساكنهم خالية وأوطانهم خاوية . قال فلما سمع عمر رضى الله تعالى عنه هـذا المقال ، حمـد الله وأثنى عليه وقال خـذلوا من مأمنهم وسار وهو يحدّثه بفتح المدائن حتى دخل المسجد وتسامع الناس ، فأتوا حتى غص المسجد بالناس وأقبل جيش يحدّثهم وهم يكثرون الثناء على الله و يصلون على النبى ﷺ ، و بعدها وصـل بشر بالمال ومعه ابنة الملك كسرى ولباسه وسـلاحه و بساطه ، فلما نظر عمر الى ذلك قال : ان الذى أهدى إلينا هذا لأمين . فقال علىّ كرّم الله وجهه : إنك عففت فعفت الرعية ، فحمد الله وأثنى عليـه وأفرز من الخمس سهم من غاب من المسـلمين وقسم الخمس فى مواضعـه ، ثم قال أشـيروا علىّ فيما أصنع فى هذه القطيفة أعنى البساط ؟ . فقالوا رأيك أعلى . فقال على كرّم الله وجهه لم يدخـل عليك جهل ولا تقبل شكا ، و إنه ليس لك من الدنيا الا ماأعطيت فأمضيت ، ولبست فأبليت ، وأكلت فأفنيت . قال فوالله لقد صدقتنى ياأبا الحسن ، ثم إنه قسم البساط قطعاً بين الناس ، قال فأصاب كل رجل منهم قطعة فباعها بنحو العشرين ألف دينار ، فلما فرغ من توزيعه وتوزيع مال الخمس ، دعا بمحكم بن رواحة وكان من أجسم أهـل المدينة وأجفاهم خلقة فألبسـه زى كسرى و وشاحه وتاجه وسواريه ومنطقته وحلاه بحليته وعصابته وسيفه وسـلاحه

وعدته ، ونظر الناس اليه كأنه كسرى فى ملكه ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه : اعتبروا بالدنيا وتقلباتها بأهلها وما يرى من مصائبها وعطبها ، هذا كسرى مازال يفتخر على ملوك الدنيا بكثرة أمواله وذخائره وجواهره وعزه وجنوده ، ولم يقدم لنفسه شيئا ينفعه عند الله وغرّته الأمانى الكاذبة ، فأخذه الله من مأمنه و بقى مرتهنا بما اكتسب فى دينه ودنياه ، ثم قال : أيها الناس هذا ملك المدائن ، قد انتقل عن أصحابه وتوزع بين أربابه ، أين تلك الحشمة والسلطان ، أين الجنود والأعوان ، أين الغلمان ، أين المماليك والخدام ، أين التاج والأكاليل ، أين الجيش والفيل ، أين الصاحب والخليل ؟ وقرأ قوله تعالى — قل متاع الدنيا قليل — ، ثم قال : أيها الناس من له منكم يد سابقة فليقم فقام عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنه . فقال أنا ياأمير المؤمنين ابن الصاحب والخليل وابن أوّل من آمن ووزر وصدّق رسول الله ﷺ ونصر وأنفق ماله وتصدّق ودخل معه الغار وانتصر وجاهد بين يديه وحاجج من كفر وجادل وافتخر وأنزل الله فيه — لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل — . فقال عمر رضى الله عنه والله لقد صدقت و بقليل من فضله قد نطقت . ثم أمر له بخلعة وعشرة آلاف درهم . ثم قال أيها الناس من يقم منكم فقام عثمان بن عفان وقال : أنا من جهز جيش العسرة وحفر بئر رومة وألف القرآن وجمعه وختمته فى ركعتين وتزوّجت الابنتين وصليت الى القبلتين وأنفقت المال فى حبه وأنزل الله فى حقى — أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه — فقال عمر رضى الله عنه : أحسنت ياأبا الفتيان فثلك من رفض الكذب وأبان الحق وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثم إنه نظر الى الاخوين الزاهدين والغصنين النضرين ، سيدى شباب أهل الجنة وريحانتى نبى هذه الأمة وقال لهما : ياحبيبى ماالذى أخركما من مثلكما يفتخر وقال : ألستما سبطى الرسول ، أليست أمكما فاطمة البتول ، أليس أبوكما سيف الله المسلول ، أليس فى بيتكما نزل التأويل ، أليس كان سادسكما تحت العباء جبريل ، أليس فيكما أنزل الله الجليل ماعلى المحسنين من سبيل ؟ فان افتخرتما فلكما الفخر البليغ ، ثم أمر لكل واحد منهما بعشرين ألف درهم . فقال على لله درك ياعمر ومن مثلك تكلم ونشر ومدح أهل البيت وأثنى وذكر خيرا وشكر ، ثم قال : أيها الناس من كان لأبيه سابقة فليقم . فقام عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وقال : ياأبت أما أنا ابنك وأنت أبى لك الفضائل والجد والافتخار فى الأمة ، ولك الوقار والرجاحة والفصاحة والنصاحة نصرت الاسلام والمرسلين ، واتبعت سنن سيد المرسلين ، وأنزل فى حقك أرحم الراحمين — ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين — وأنت الذى أظهرت الاسلام جهرا وقلت لايعبد الله سرا . فقال عمر : يابنى الشقى من يغتر بالدنيا الساحرة ، والسعيد من يعمل للآخرة ، وقرأ — من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها — ، ثم أمر له بألف درهم . فقال ياأبت أنا هاجرت وأنفقت ونصرت وزعزعت مواكب الروم وما قصرت وتأمر لى باليسير من مال الله الكثير وتعطى هؤلاء ماأعطيت فقال يابنىّ اسلك طريق الانصاف ولا تتبع الاسراف ، وأنا أقول لك ان كان لك جد كجدهما أعطيتك أوأم كأمهما وفيتك ، وإن كان لك أب كأبيهما أرضيتك ، يابنىّ كل نسب يضمحل يوم القيامة ويخفى إلا نسب البتول ، ولما فرغ من ذلك أمر بابنة كسرى أن يوقفوها ، فأوقفت بين يديه وعليها من الحلى والحلل والزينة والجواهر شيء كثير ، وأمر أن ينادى عليها ، فقال

المنادى : أزل عنها هـذا القناع ليزاد فى ثمنها ، فتقـدم إليها المنادى ليزيل عنها ذلك فامتنعت وضربته فى صدره ، فغضب عمر وهم أن يعلوها بالدرة وهى تبكى . فقال على كرم الله وجهه : مهلا ياأمـير المؤمنـين فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول « ارحموا عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر » فسكن غضب عمر رضى الله عنه ونظر إليها فرآها تحدق بالنظر الى الحسين بن على رضى الله عنهما . فقال عمر رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » وإنى أرى هـذه الجارية تحـدق بنظرها الى الحسين بن على وما خفى على أنها أرادته من دون الناس أجمعين لأنه ليس فينا أصبح وجها منه ، ثم قال ياأبا عبد الله خـذها هدية منى اليك فشكره على ومن حضر من المسلمين

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] قال يونس بن عبد الأعلى حـين قرأت عليـه فى المسجد الأقصى فى شهر ربيع الأول سنة مائتين وتسعين من الهجرة **حدثنا** عدنان بن ماجد الغنوى قال : لما انهزمت الفرس من المدائن واستولى عليها سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وكان من أمره ماذكرناه استقر قراره بالقصر الأبيض ، وجلس حيث كانت الأكاسرة تجلس فلبس عنـد ذلك ثياب النسك والخشوع وتسربل سربال الخضوع وعلم أن الدنيا أضغاث أحلام وأن الآخرة هى دار المقام ، وكلما نظر الى آثار الأكاسرة وملكهم ازداد يقينا ودينا على دينه . قال وأنشـد عاصم بن عمر فى ذلك بعد فتح المدائن يقول :

شهدنا بعون الله أفضل مشهد ... بأكرم من يقوى على كل موكب
ركبنا على الجرد الجياد سوابحا ... بكل قناة بل بكل مقضب
وكنا بعون الله لانرعوى اذا ... تبادر طعن كالغمام المشطب
وكان جهاد قد ملكنا بأمره ... من الملك مستعلى البناء المذهب
ترانا وانا فى الحروب أسودها ... لنا العزم لايخفى لـكل مجرب
نجول ونحمى والرماح شوارع ... ونطعن يوم الحرب كل مخبب
قدمنا على كسرى بشدة حربنا ... وماحربنا فى النائبات بمختبي

ذكر فتوح مدينة نشاور ، وهى آخر فتوح العجم والعراق

[قال أبو عبد الله الواقدى رحمه الله تعـالى] وكان من قضاء الله وقدره ان ابن كسرى لما انهزم من المدائن مضى الى حلوان وانضاف اليه كل من وصل اليه من المنهزمين من الأساورة والمرازبة والديلم وغيرهم فقام فيهم خطيبا وذكر زوال ملكه وأسر ابنته وخزائنه وأمواله وبكى وبكت أرباب دولته ، ثم قال : ياأهل فارس ان الدنيا دنية الفعال ، سريعة الزوال ، قريبة الارتحال ، وهذا ملكـكم قدزال ، وعزكم قد حال ، ودياركم قد سكنت ، ومعاقلـكم قدأخذت ، وحصونـكم قدهدمت ، وأموالـكم قدنهبت ، وبناتـكم قد سبيت ، والعرب قد اسـتولت على العراق ولابد لهم منكم ولاغنى لهم عنـكم وستنظرون خيلهم ، وقدطلبت خراسان والرى وهمذان ، ومابقى لـكم جهة تتوجهون اليها الابلاد آبائـكم وأجدادكم فانتبهوا وانتهزوا الفرصة وأزيلوا الغصـة وأدركوا مابقى من أيامكم ولاترتدوا على أدباركم ، وقد بلغنى أن الدونوس العادى بن هرز بن كيقباذ بن

يزدجرد التقي هو والاسكندر بن القليس الرومي ومازالا يقاتلان و يقتتلان حتى قتل أحدهما فشمروا أنتم عن ساق الجد ودونكم والقوم هذه الكرة إما لكم واما عليكم فلعل النار والنور ينصرانكم وأنفق فيهم ما كان معه فاستعدوا للقاء ، وأخذوا على أنفسهم وضربوا خيامهم فى مرج حلوان وجاء علماء دينهم وأوقدوا لهم النار وقربوا لها القربان وتحالفوا أن لاينهزموا ولوماتوا عن آخرهم ، قال ومضت نساؤهم و بنات ملوكهم وأبطالهم الذين قتلوا فى الثياب ملطخات بالدماء وهن يستفززن الجيوش والعساكر من بلاد العجم وغيرها ، قال وان الحجاب والمرازبة والاساورة تعاهدوا على أن لايفروا أويموتوا عن آخرهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثني محمد بن عاصم بالكوفة بعد ماأخذها المسلمون . قال لما فتحت المدائن واتخذها المسلمون وطنا فما كان دأبهم الا ان يحفروا دور الفرس ويخرجوا خباياهم وأموالهم قال عبد الله بن جحفة : حضرت العرب وقد أخرجوا من ازاء القصر الأبيض من مصنع هناك للفرس الأكاسرة تمثالا من الذهب على صفة الفارس ، وقد سكبوا عليه الماء حتى غار فى الارض ، وكانت ملوك الفرس يفتخرون بذلك على سائر الملوك ، فوالله لوقسم ذلك على عرب بكر بن وائل لكان يسد منهم مسدا وجاءت عيون المسلمين الى سعد وأخبروه بما فعل القوم واجتماعهم فى مرج حلوان فى مائة ألف ، وقد وجهوا أثقالهم ومايعز عليهم الى الجبل وهم يطلبون لقاءكم . قال واجتمع المسلمون فى الايوان وقالوا : أيها الأمير إن العدو قد اجتمعوا بمرج حلوان وتعاهدوا على أن لاينهزموا أبدا ويموتوا عن دم واحد يريدون مدائنهم . قال فكتب سعد الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلمه بذلك و يقول له : ان أهل الموصل قد مات ملكهم الانطاق وقد تولى عليهم الشكان بن قالوص وارتدوا عن صلحنا وعول ملكهم على أن يكون عونا لأهل فارس علينا والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله و بركاته ، فلما وصل الكتاب الى عمر أرسل يقول له :ياسعد اعلم ان الله منجز وعده و بعث اليه هاشم بن عتبة فى اثنى عشر ألف فارس من المهاجرين والأنصار ألفان والبقية من العرب . قال وان ابن كسرى لما حصن حريمه وأمواله فى الجبل أمر على عسكره مهران الدارى ووصاه وسار مهران بالعسكر فركب معه ابن كسرى مقدارميل وودعه ورجع الى حلوان والمدد يأتى اليه من سائر بلاد العجم . قال ووصل مهران الى مدينة نشاور ونزل بها فى دار الولاية وأقام بها ، فلما كان الغد ركب فى وجوه قومه ودار بهم على أسوارها وأبوابها وأمر بتحصينها فى علو سورها ونصب آلات الحصار بالعرادات والمجانيق وحفر خندقا عميقا وصنع حسكا من الحديد وجعله حول المدينة والخندق وماخلى من أهل البلد صغيرا ولا كبيرا حتى استعمله فى السور والخندق وادخر القوت وعلف الخيل ومايحتاجه للحصار واستوثق من أهل البلد الكبير والصغير منهم وأخذ رهائنهم وحلفهم على أن لاينهزموا أبدا . قال فلما اتفق ذلك كله أقام ينتظر قدوم المسلمين . قال وأما هاشم بن عتبة فانه سار فى اثنى عشر ألف مجاهد حتى أشرف على مدينة نشاور فوجدها محصنة بالعدد والعدو قد أظهر الزينة والسلاح على الابراج بالدروع والجواشن والمجانيق والعرادات والبيارق والاعلام ووضعوا فى أركان المدينة على الابراج قباب حديد ليضرموا فيها النار و يستنجدوا لها و يستنصروا بها على العرب ، فلما أشرف عليهم عسكر هاشم بن عتبة ضجوا بكلمة كفرهم وأشاروا الى الشمس والنيران يسجدون لهما

قال والارض ترتج من تحتهم والسماء ترعـد من فوقهم والاكوان تسترجع وتصيح فى هلا كهم فنودوا من قبل الله ان اسكنوا عن اضطرابكم فأنا الحليم الذى لاأعجل على من عصانى ، ولاأخيب من دعانى ، أنا الذى تسبح لى السموات ومن فيها ، والارضون بنواحيها ، وقد سبق فى علمى أن أطهر هذه الأرض من الارجاس وأبدلها بمن قلت فيهم — كنتم خير أمة أخرجت للناس — أنا الذى أمهل ولا أهمل وعزتى وجلالى لأطهرنّ هـذه الأرض من الكفرة الملحدين والفئـة المفارقين ولأبدلنّ بيوت النـار بمساجـد أذكر فيها آناء الليـل وأطراف النهار يعمرها رجال قد أحسنوا الظنون وذكرتهم فى الكتاب المكنون — ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون — .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا عمرو بن ربيعة الشيبانى . قال أخبرنا أحمد الطويل قال لما نزل هاشم بن عتبة على مدينة نشاور بمن معـه من المسلمين لم يلتفتوا اليهم ولم يكترثوا بهم وأروهم التجلد والشـدّة وجعلوا يطاولونهم ولايخرجون اليهم فصعب ذلك على المسلمين والمدد واصل اليهم من عنـد يزدجرد بن كسرى فاشـتدّت قلوب أعداء الله فقالوا لمهران الدارى أيها الصاحب ما الذى تنتظر بنا فى قعودنا ومقامنا من وراء السور ، وقد اشتقنا الى القتال فاخرج بنا الى هؤلاء القوم فقد ضاقت صدورنا وضاقت بنا المدينة وهذه الشمس المنيرة تنصرنا وتظفرنا على أعدائنا وكذلك النار والنور ، فلما رآهم معوّلين على القتال أمرهم بالخروج وجعـل على خيله جوزان بن جهران وأمره أن يزحف بالجيش ، فلما فتح باب المدينة وخرج الفرس فرح المسلمون بذلك وتبادروا اليهم بأسرار صافيـة وهمم وافيـة يطلبون القتال فى مرضاة الله ذى الجلال ، وأنفسهم لذلك مستبشرة نازحة وهممهم الى الحرب مسرعة فادحة ، وقد سئموا من سكنى دار الغرور ، واشتاقوا الى سكنى القصور ، ومعانقة الحور ، وقالوا الهنا قد سئمنا من هذه الدار ، واشتقنا الى دار القرار ، ومجاورة المختار ، فانجزنا ماوعدتنا ، وسامحنا اذا توفيتنا ، وأجرنا من عذاب النار ، واحشرنا مع الكرام الابرار ، الذين قلت فى حقهم — والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار — قال ولما ركب المسلمون جعـل على مقدمة الخيـل طلحة بن خويلد وبقى هاشم على الساقة . فقال أيها الناس والله لاتنال الجنـة الابحسن الأعمـال فاتركوا من قلوبكم الميل الى دار اللهو والاهوال ، والمقام فى دار الزوال ، جاهدوا لتدخلوا جنـة عرضها السموات والارض فهـذه نار الحرب قد فاض تيارها ، وعلا دخانها ، وصفقت أمواجها ، وبدا عجاجها فاركبوا فيها سفينـة النجاة والانجاد ، واقطعوا بشراع الاجتهاد هـذا الطريق وانشروا أعلام الصدق . قال وقد اصطفت عساكر العجم ودقت بوقاتها ، ونشرت ازدهاراتها فهم كذلك اذ أقبل عليهم ملك الرى فى اثنى عشر ألف فارس ، فلما رأى هاشم ذلك . قال يافتيان العرب لاتنظروا إلى كثرتهم وقلتكم فقـد كان المصطفى ﷺ يوم بدر فى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا وخذل الكافرين ، وقد كانت قريش فى حدها وحديدها وعددها وعـديدها ، ونصر الله نبيه ورسوله ، قال الله تعالى — كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين — وإذا بالخيـل قد حلت عليهم كأنهم السيل . فقال هاشم أخلصوا النيات ولاتولوا الأدبار ، واعلموا أنه قد تولى عليكم الجبار . قال وأطبق الناس بعضهم ببعض وساروا بين البسط والقبض وازدحمت

الأمم وقامت الحرب على قدم ، وقاتلت أبطال العجم وضربت بحرابها ، ورمت بصفاحها ، وفوّقت بسامها ، وأظلم الجوّ من الغبرة فى تلك الآفاق ، واعتمدوا على الضرب بالاسياف الرقاق ، وطعنت العرب بالرماح الدقاق ، وقلعت عرب اليمن بنبالها الاحداق ، ودنت الأعمار الى المحاق ، و بلغت الارواح التراق ، وعظم الانين والزعاق ، وصبرت الاعاجم على مالا يطاق ، وسقاهم العرب من أسنة رماحهم كأس الفراق ، ولم يزالوا فى القتال الى أن ذهبت الأنوار وجاء الليل ومضى نور النهار ، وفى آخر يومهم قدم القعقاع بن عمرو ومعه اثنا عشر ألف فارس فقويت قلوب المسلمين بقدوم عساكر الموحدين وأعلنوا بكلمة التوحيد فدوت من أصواتهم الجبال والتلال والرمال والحجر والشجر ، فلما سمع أعداء الله مانطقوا به ارتعدت فرائصهم فاستقبلوهم بنيات صادقة ، وهمم متوافقة ، وأعلنوا بذكر كلمة الحق والصلاة على سيد الخلق فبذلوا صوارمهم فى الأعدا ، وأوردوهم شراب الردى ، وقصدوا نحو أعدائهم وطلبوا بجهادهم منازل الجنة وطلقوا الدنيا بتاتا ، وعلموا انهم يصيرون أمواتا ، وصاروا بعد الالفة أشتاتا ، فوقعت الهزيمة على عسكر العجم وحمل المسلمون فى آثارهم وخذلهم الله فقتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا وهرب الباقون ، وأخذ المسلمون مدينة نشاور وغنموا مافيها من الأموال ، وكان شيئا لايقع عليه حصر وأقاموا فيها و بنوا الجامع وذكروا الله فيه ذكرا كثيرا وأكمل الله لهم فتوح العراق ، وكتبوا بذلك كتابا الى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه يعلمونه بذلك و بعثوا الخمس فوصل ذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فسر بذلك سرورا عظيما فحمد الله تعالى كثيرا وسرّت المسلمون سرورا زائدا على مافتح من بلاد كسرى وأعمالها على يد سعد بن أبى وقاص واستوطنوا البلاد رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

ذكر فتوح البهنسا وأهناس وأعمالها وفضائل جبانتها

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ . اعلم وفقك الله ان مدينة البهنسا ذكر بعض المفسرين ان الله سبحانه وتعالى ذكرها فى كتابه العزيز بقوله عزّوجل فى حق عيسى عليه السلام ــ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين ــ قال هى أرض البهنسا ، وكان من أمر عيسى عليه السلام ماسنذكره ان شاء الله تعالى ، واستشهد بها زهاء من خمسة آلاف من أصحاب رسول الله ﷺ منهم من الأعيان والأمراء زهاء من أر بعمائة ، و يتبعهم من الأشراف والصحابة نفر كثيرة منهم على بن عقيل بن أبى طالب والحسن بن صالح بن الحسين بن على بن أبى طالب الذى عمر جامعا بها ، وكان من أمره ماسنذكره إن شاء الله تعالى وزياد بن أبى سفيان بن الحرث بن عبدالمطلب والفضل بن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنذكر من استشهد من الصحابة الأعيان بها ان شاء الله تعالى عند الفتوح وأبنائهم وجماعة كثيرة ، وذكر جماعة من السادات الأخيار أن من زار جبانة البهنسا خاض فى الرحمة حتى يعود ومن زارها خرج من ذنو به كيوم ولدته أمه وانه لايزورها مهموم الافرج الله همه ، ولامغموم الا أذهب الله غمه ، ولاصاحب حاجة الاقضيت باذن الله عزّ وجل ، والأماكن المستجاب فيها الدعاء منها عند مجرى الحصى ومقطع السيل وان هناك خلقا كثيرا من الشهداء ،

ومشهد الحسن بن صالح بن الحسين بن على بن أبي طالب ، وعند قبر زياد بن أبي سفيان بن الحرث ، وعند قبر عبد الرزاق من داخل الباب ، وعند معبد عيسى بن مريم عليهما السلام ، وعند قبور الشهداء بسفح الجبل ، وقبليها مكان يعرف بالمراغة قبل الجبانة عندها قبور الشهداء هناك بسفح الجبل .

روى جماعة من الصالحين انهم قد جاوروا الجبانة المذكورة ، وكانوا من أرض المشرق وجماعة من أكابر الصالحين من أرض المغرب من أقصى الاندلس وانهم رأوا هذه الفضائل وبانت لهم فضائل وأنوار وشاهدوا ذلك عيانا ، وروى أصحاب التاريخ رضى الله عنهم أنه لم يكن بأرض مصر من البحيرة مشهد أكثر من أرض البهنسا وان مجرى الحصى عند منقطع السيل من الجهة الغربية قتل هناك خلق كثير واستشهد بها أربعمائة رضى الله عنهم أجمعين ، وسنذكر ذلك عند الفتح ان شاء الله تعالى . أما فضائل البحر اليوسفى الذى المدينة على جانبه فهو أكثر عجائب ، منها انه غزير البركة لأنه يفيض حتى يروى ماحوله من القرى والبلدان مع قليل من زيادة النيل ، ومنها أنه إذا زاد النيل شيئا قليلا يزاد فيه شيء كثير ، ومنها انه اذا انقطع عنه مدد النيل تفجرت من أصله عيون فصارت نهرا جاريا وهذا لايوجد بغيره أبدا من الأنهار ، ومنها أنه ينقسم بأرض الفيوم ماء يسيرا فيروى زراعات وأراضى شتى وضياعا وهذا لايوجد لغيره أبدا ، ومنها انه دفن فيه يوسف الصديق عليه السلام وأقام الى زمن موسى عليه السلام فازداد بذلك بركة ، ومنها انه شقه جبريل عليه السلام بخافقة من جناحه بأمر الله عزّ وجل للسيد يوسف عليه السلام وحسدهم العمالقة على ذلك ، وقد ذكرت الرواة أنه كان بين يوسف عليه السلام وبين صاحب مصر كلام بعد فراغ السنين المجدبة ، فانه لما اجتمعت بنو إسرائيل عند يوسف عليه السلام وحسدهم العمالقة على ذلك وذكروا ذلك لملك مصر . فقال ملك مصر يايوسف ردّ علىّ ملكى فاجتمع رأيهم على الفرقة والقسمة فقسمت الأرض : أى أرض مصر ، فوقع الجانب الغربى ليوسف عليه السلام ، وكان قفرا رمالا وتلالا ، فأراد أن يجرى له نهرا من النيل ، فجمع له مائة ألف عبد ودفع لهم المساحى والزنابيل وأمرهم أن يحفروا من الجهة القبلية عند فم الآن فحفروا ثلاث سنين ، وقد أجرى لهم مؤنة من خزائنه ، فكان كلما جاء النيل سد ماحفروا ففعل من الجهة الشرقية كذلك الى سبع سنين حتى أعياه ذلك ، وقلق قلقا شديدا فأوحى الله إليه يايوسف قد استعنت برجالك ومالك ، ولم تستعن بى وعزتى وجلالى لواستعنت بى لحفرته لك فى أقل من طرفة عين فخر ساجدا لله تعالى وهو يقول : سبحانك ما أعظم شأنك وأعز سلطانك ، ثم قام من سجوده ونزع أثوابه واغتسل ولبس المسوح وخرج الى الربوة وخرّ ساجدا متضرعا الى الله تعالى فأوحى الله إليه ارفع رأسك فقد قضيت حاجتك ، ثم أمر الله سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام فخرقه بخافقة من جناحه ، وقال بعضهم بطرف ريشة من جناحه من فم من الجهة القبلية الى آخر الفيوم فى أقلّ من طرفة عين بقدرة الله تعالى ، فعمر يوسف عليه السلام قناطر و بنى مدينة الفيوم وقسم الأرض بينه و بين اخوته و بنيه فكانت أرض البهنسا لأفرائيم بن يوسف ، فشرع فى عمارتها وقطعت الأحجار وعمرت الأسوار والقناطر ، وكان النهر يجرى من وسطها من الجهة القبلية ، ثم يخرج من الجهة البحرية الى زمن الاسلام

وسنذكر ذلك فى الفتح إن شاء الله تعالى ، وكان لها من الأبراج والرساتيق مالا يوصف وسكنها جماعة من بنى اسرائيل واتخذوا دورا ومساكن ، وذلك جميعه غربى مصر ، وأرض البهنسا الى آخر الصعيد من الجهة الغربية كلها مختصة ببنى إسرائيل لايشاركهم فيها أحد غيرهم ، وجعل يوسف عليه السلام هؤلاء العبيد خولة فلاحين وزراعا بأرض البهنسا والفيوم وغيرها ، وشرع فى عمارتها وغرست فيها الأشجار على جانب البحر اليوسفى من الجهة الشرقية والغربية ، وكانت المرأة تخرج بمكتلها ومغزلها فى يدها والمكتل على رأسها فلا ترجع إلا وقد امتلأ من جميع الثمار من غير أن تمس شيئا بيدها فلما عصت بنواسرائيل وجحدوا نعمة الله عزّ وجل وعملوا المعاصى نزع الله تلك النعمة من أيديهم وأعطاها لغيرهم ، فاحتووا على الملك دونهم بجحودهم نعمة الله وقتلهم أنبياء الله الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر حتى اتخذوهم أذلة بعد ان كانوا سادات واستعملوهم خولة وفعلة و بنائين وحجارين ونجارين واستخدموا نساءهم وأبناءهم ، ولم يزل بنو اسرائيل فى أضيق عيش وأعظم بلاء وأشدّ كربة وأعظم بلية من تكاليف مالا يطيقون حتى أنقذهم الله عزّ وجل ببعث موسى عليه السلام ، وليس هذا الكتاب مختصا بذلك ، واحتووا على المدائن والمزارع والبساتين .

ذكر خروج عيسى عليه السلام من مصر واقامته بأرض البهنسا

قال الله تعالى ـ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين ـ الآية ، وتقدم انها البهنسا على اختلاف المفسرين . قال أصحاب التواريخ ، وهم المسعودى وأبو جعفر الطبرانى والواقدى وابن اسحق وابن هشام وأصحاب السير وأهل التفسير مثل سعيد بن جبير وسعيد ابن المسيب وابن عباس ؓ ، ومن تكلم فى هـذا الكتاب العجيب الذى لو كتب بالذهب لكان قليلا وقد جمع فيه كتب كثيرة وتواريخ وتفاسير وفتوحات . قالوا : كان مولد عيسى لمضىّ اثنتين وأربعين سنة من ملوك الطوائف وكانت الرياسة بالشام ونواحيها لقيصر ملك الروم وهرقل كما تقدم فى فتوح الشام وكان بالبهنسا قنطاريوس ، والله أعلم باسمه ، فلما سمع الملك هيردوس بخبر المسيح قصد قتله ، وذلك انهم نظروا الى نجمه وقد طلع فعرفوا ذلك بحساب لهم فى كتاب لهم فبعث الله ملكا الى يوسف النجار وأخبره بما أراد هيردوس وأن يعلم مريم أن تخرج الى أرض مصر فانه ان ظفر بولدك قتله ، فاذا مات هيردوس فارجعى الى بلادك فاحتمل يوسف مريم وابنها عيسى على حماره حتى دخل مصر ، وورد أرض البهنسا وهى الربوة التى ذكرها الله فى كتابه العزيز ـ وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين ـ وهناك بئر فى المعبد يستشفون بمائها من الأمراض وهى التى كانت مريم وابنها يستقيان منها و يتوضآن منها للصلاة ، وكان هناك سرب تحت الأرض قيل ان مريم لما دخلت بولدها أرض البهنسا وجدا بئرا وليس عليها رشاء ، فطلب عيسى عليه السلام الماء ليشرب بعد أن عطش عطشا شديدا و بكى فحزنت أمه فارتفع الماء من قعر البئر حتى شرب منه ، وهى من ذلك اليوم تزيد و يعرف منها زيادة النيل فجعل النصارى لها عيدا الى يومنا هذا ، وهناك دير وزراعات والله أعلم ، ثم دخل مدينة البهنسا وأقام بها اثنتى عشرة سنة وأمه تغزل الكتان وتلتقط السنبل فى أثر الحصادين حتى تم لعيسى المدة المذكورة .

روى محمد الباقر . قال لما جاء عيسى الى البهنسا وهو مع أمه له شهرين كأنه ابن سنتين ، فلما كمل تسعة أشهر أخذته والدته وجاءت به الى الكتاب بأرض البهنسا فأقعده المؤدب بين يديه وقال له قل بسم الله الرحمن الرحيم . فقال عيسى بسم الله الرحمن الرحيم . فقال له المؤدب قل أبجد فرفع عيسى طرفه وقال أتدرى ما أبجد ؟ فعلاه المؤدب بالدرة ليضربه . فقال له يامؤدب لاتضربنى ان كنت لاتدرى فاسألنى حتى أعرفك . فقال قل لى . فقال انزل من على مرتبتك فنزل من على مرتبته وجلس عيسى مكانه ، ثم قال الألف آلاء الله ، والباء بهاء الله ، والجيم جلال الله ، والدال دين الله ، والهاء هوية جهنم وهى الهاوية ، والواو ويل لأهلها ، والزاى زفير جهنم ، والحاء حطت الخطايا عن المستغفرين ، والكاف كلام الله لامبدل لكلماته ، والصاد صاع بصاع ، والقاف قرب حيات جهنم من العاصين . فقال لها المؤدب خذى بيد ابنك فقد علمه الله تعالى فلاحاجة له بالمؤدب .

حدثنا الحسين ومحمد بن الحسن المقرى . قال حدثنا الحكيم محمد بن أحمد بن حمدون . قال حدثنا محمد بن حمدون بن خالد ؟ قال حدثنا الحكم بن نافع عن اسمعيل عن ابن أبى مليكة عن عطية عن أبى سعيد الخدرى . قال قال رسول الله ﷺ « ان عيسى عليه السلام أرسلته أمه الى المكتب ليتعلم ، فقال له المعلم قل بسم الله الرحمن الرحيم . فقال عيسى عليه السلام ، ومابسم الله الرحمن الرحيم ؟ . فقال المعلم لاأدرى . فقال عيسى : الباء بهاء الله ، والسين سناء الله ، والميم ملك الله » الى آخر ماجاء من الآيات والمعجزات التى ظهرت لعيسى عليه السلام بأرض البهنسا . قال وهب : كان أول آية أراها عيسى عليه السلام بمدينة البهنسا للناس فى صغره ان أمه كانت نازلة فى دار بالبهنسا من أرض مصر عند دهقان من دهاقنة الملك أنزلها فيها يوسف النجار عنده حين أتى بها من أرض الشام الى مصر ، وكانت داره مأوى المساكين ، فسرق للدهقان مال جزيل من خزانته وكان الدهقان من أخصاء الملك صاحب البهنسا ولم يتهم المساكين فحزنت مريم على مصيبة الدهقان صاحب ضيافتها ، فلما رأى عيسى عليه السلام حزن أمه . قال يا أماه أتحبين أن أدلك على ماله ؟ قالت نعم قال قولى له يجمع المساكين الذين كانوا فى داره . فقالت مريم للدهقان ذلك فجمع المساكين الذين كانوا فى داره ، فلما اجتمعوا أتى الى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مقعد فجعل المقعد على كاهل الأعمى وقال له قم به . فقال له الأعمى انى ضعيف عن ذلك . فقال له كيف قويت على ذلك البارحة ، فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام به ، فلما استوى قائما وهو حامله أوصله الى كوة الخزانة . فقال عيسى عليه السلام : هكذا أخذ مالك البارحة ، لان الأعمى استعان بقوته والمقعد بعينه . فقال الأعمى والمقعد صدقت فردا على الدهقان ماله فوضعه الدهقان فى خزانته وقال يامريم خذى نصفه . فقالت انى لم أخلق لذلك ، ثم قال الدهقان أعطيه لابنك . قالت هو أعظم منى شأنا ، ثم لم يلبث الدهقان الا قليلا وعمل لولده عرسا فجمع اليه أهل المدينة كلهم فكان يطعمهم شهرين ، فلما انقضى ذلك زارته أكابر البلاد وملوكها وليس عنده طعام ولاشراب ولا ادام ، فلما اجتمعوا أمر عيسى عليه السلام بجرار الجر الفارغة أن تملأ ماء ، ثم مر بيده على أفواهها وهو يمشى فكلما مرت يده على جرة امتلأت شرابا هذا وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، فازدادت أهل البهنسا فيه اعتقادا ومن حولها من المدائن والقرى

والسواد من أرض مصر وله آية أخرى بأرض البهنسا .

قال السدّى كان عيسى عليه السلام يحدث الصبيان فى المكتب بما تصنع آباؤهم ، ويقول للغلام انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ، فينطلق الصبى الى أهله ويبكى عليهم حتى يعطوه شيئا فيقولون له من أخبرك بهذا ، فيقول عيسى فحبسوا أولادهم : أى أهل البهنسا عنه وقالوا لهم لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم فى مكان فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم . فقالوا لعيسى ليس هنا أحد . فقال مافى هذا البيت قالوا خنازير . قال عيسى كذلك يكونون ان شاء الله تعالى ففتحوا عليهم الباب فوجدوهم خنازير ، ففشا ذلك فى الناس وهابه الناس . قال السدّى لما نزل عيسى عليه السلام بأرض البهنسا نزل فى قرية من قراها على رجل فأضافهم ، وكان للملك خباز فجاء ذلك الرجل ذات يوم وهو مغتم حزين فدخل بيته ومريم عند زوجته . فقالت لها مريم ماشأن زوجك أراه كئيبا ؟ قالت لا تسأليني . فقالت لها أخبرينى لعل الله أن يفرّج عنك . قالت لها ان ملك البهنسا إذا خرج من مدينته يجعل على كبير كل قرية يوما يطعمه ويسقيه الخمر فان لم يفعل ذلك عاقبه واليوم علينا وليس عندنا سعة . قالت مريم قولى له لايهتم فانى آمر ابنى أن يدعو له فيكفى ذلك فذكرت مريم ذلك لعيسى عليه السلام . فقال عيسى عليه السلام ان فعلت ذلك يقع شىء . فقالت له أمه لاتبال فانه أحسن الينا وأكرمنا . فقال عيسى قولى له اذا قرب الملك فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم اعلمينى ، ففعل ذلك واذا بالملك قد أقبل فارتجت الأرض من الطبور والزمور والصناجق وأقبلت العساكر ، فدعا عيسى عليه السلام ربه عزّ وجل فتحول ماء القدور لحما وطعاما ملوّنا وماء الخوابى خمرا لم ير الناس مثلها قط ، فلما أكل الملك ذلك الطعام وشرب سأل الدهقان من أين لك هذا الخمر . قال من أرض الفيوم فلم يصدّقه ، وقال للدهقان انه يأتينى منها الخمر والعنب لعصره وليس يساوى هذا . فقال من أرض أخرى ، فلما خلط عليه الكلام أنكر عليه ؟ فقال أنا أخبرك عندى غلام لايسأل الله شيئا الا أعطاه ، وانه دعا الله تعالى حتى جعل الماء خمرا ، وكان للملك ولد يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام وكان أحب الخلق اليه . فقال ان كان كلامك صدقا فليدع ربه أن يحيى لى ولدى ، فدعا عيسى وأعلمه بذلك . قال أفعل لكنه ان عاش وقع شىء كثير . فقال الملك لا أبالى بعد أن أراه . فقال عيسى ان فعلت ذلك اتتركونى أنا وأمى نمضى حيث جئنا . قال الملك نعم فدعا الله تعالى فأحيا الغلام ، فلما رآه أهل المملكة قد عاش تبادروا بالسلاح وقالوا أكل أموالنا هذا الملك بظلمه حتى اذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه فيأكلنا كما أكلنا أبوه فاقتلوهما ، فذهب عيسى وأمه والآيات فى ذلك كثيرة يطول شرحها ذكرها أبو اسحق الثعلبى فى عرائسه ، والله تعالى أعلم .

ذكر فتح البهنسا ومافيه من الفضائل وما وقع فيه للصحابة رضى الله عنهم

قالت الرواة بأسانيد صحيحة عمن حضر الفتح من أصحاب السير والتواريخ مثل الواقدى وأبى جعفر الطبرانى وابن خلكان فى تاريخ البداية والنهاية ، ومحمد ابن اسحق وابن هشام وكل منهم دخل حديثه فى حديث الآخر لما فى ذلك من اختلاف الرواة ممن حضر الفتوحات وشاهد الوقعات من الصحابة رضى الله عنهم . قالوا وحضر ذلك معظم الصحابة وكبراؤهم مثل عبد الله بن عمرو

ابن العاص أمير الجيوش على مصر وأخيه محمد وخالد بن الوليد وابنـه سليمان وقيس بن هبيرة المرادى والمقداد بن الأسود الكندى وميسرة بن مسروق العبسى والزبير بن العوام الأسدى وابنه عبد الله وضرار بن الأزور ، ومن بنى عم النبى ﷺ مثل الفضل بن العباس وجعفر بن عقيل ومسلم بن عقيل وعبـد الله بن جعفر ومن أبناء الخلفاء مثـل عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأبان بن عثمان رضى الله عنهم ، وقد اختصرنا فى أسمائهم خوف الاطالة وكلهم حدثوا بما عاينوا من الفتوح وما شاهدوا من الوقعات وحدثوا بذلك أبناءهم رضى الله عنهم وقد أخذنا هذه الفتوح على قاعدة الصدق لاثبات فضل رسول الله ﷺ والصحابة رضى الله عنهم إذ لولاهم ما كانت البلاد للمسلمين ولا انتشر علم هذا الدين ، ولقد نفذت سراياهم فى الأرض شرقا وغربا حتى ولت الأعـداء منهم هربا وسكبوا دماءهم فى الأرض سكبا واستباحوا أموال الكفار نهبا وسلبا ، والله قد جعل منهم فى قلوب أعدائه خوفا ورعبا فهم نجوم الهداية وأهل الولاية قد شرّعوا الشرائع ورتلوا القرآن ترتيلا . قال الله فى حقهـم تعظيما وتبجيلا ، فنهـم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر — وما بدّلوا تبديلا — .

قال **حدثنا** ابو عبـد الله محمد بن المحدث المصرى غفر الله له : اطلعت على فتوحات كثيرة فوجدت فيها زيادة ونقصانا وكذلك تواريخ منقولة وكنت قدمت المدينـة يعنى البهنسا لزيارة جبانتها لما رأيت فى ذلك من الفضائل والفضل والأجر والخير والحبور . فان زيارتها تمحص الذنوب ، وتكشف الكروب ، وتحسن الأخلاق ، وتدرّ الأرزاق ، وتورث النصر على الأعداء وتكفى البأس والردى ، لما فيها من السادات الشـهدا ، ممن باع نفسـه لله ، وقتل فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ممن قال فى حقهم من له الفضل والمنـة — إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة — فهم — أحياء عند ربهم يرزقون — فزرنا الجبانة فى ساعة الأسحار ، ورأينا مافيها من الأنوار ، وبزيارة قبور السادة والأخيار ، نرجو من الله أن يحط عنا الذنوب والأوزار ، فلما قضينا الزيارة ، ولاحت لنا تلك الاشارة أخبرنا عن تلك السادة الأمجاد وما كان لهم من الصبر على الغزو والجهاد فسألنى بعض الاصحاب عن سبب فتح مدينـة البهنسا ليدفع البأس والردى فحرك لذلك خاطرى ، حتى أسهرت لذلك ناظرى ، وطالعت التواريخ والفتوحات ، وتجنبت المزاحمات ، حتى انتخبت هـذا الكتاب فهو كالدرة اليتيمة التى لا يعرف لها قيمة ترتاح عنـد سماعه النفوس ، ويزول الهم والبوس ، ويشجع على الجهاد ويعين على اقامة العدل فى البلاد ابتغاء لوجه الله الكريم ، راغبا فى ثواب الله العميم ، وذلك بعد الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين . ونحن نبتدئ .

بسم الله الرحمن الرحيم . قال **حدثنى** من أثق به من الرواة ممن تقـدم ذكرهم . قال : لما فتح عمر بن الخطاب رضى الله عنـه مصر والاسكندرية والبحيرة والوجه البحرى كله جميعا كان بالصعيد نوبة وبربر وديلم وصقالبة وروم وقبط ، وكانت الغلبة للروم ، وكان أكثرهم روما . ثم استشار عمرو بن العاص أصحابه أى جهة يقصد وهل يسير بالجيوش شرقا أوغربا وما يصنع فأشاروا عليه بمكاتبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب اليه يقول : بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمرو بن العاص عامل أمير المؤمنين على مصر ونواحيها الى عبد الله

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه سلام عليك ورحمة الله وبركاته : أما بعد فانى أحمد الله وأثنى عليه وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والسلام على من بالمدينة من المهاجرين والانصار والحمد لله قد فتحت لنا مصر والوجه البحرى والاسكندرية ودمياط ولم يبق فى الوجه البحرى مدينة ولا قرية إلا وقد فتحت وأذل الله المشركين وأعلى كلمة الدين ، وقد اجتمعت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من السادات والأمراء والأخيار المهاجرين والأنصار يطلبون الاذن من أمير المؤمنين هل يسيرون إلى الصعيد أوالى الغرب والأمر أمرك ياأمير المؤمنين فانهم على الجهاد قلقون وباعوا نفوسهم لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم ، وكتب هذه الأبيات :

صوارمنا تشكو الظما فى أكفنا ... وأرماحنا تشكو القطيعة كالهجر
إليك افتقاد الحرب ياطيب الثنا ... ويامن أقام الدين بالعز والنصر
فقد ولعت خير الكرام إلى العدا ... بنوشيبة الجد السرى وبنو فهر
وصالت لؤى مع معد وغالب ... وسادات مخزوم الكرام ذوى الفخر
تروم مسيرا للأعادى على شفا ... تمكن من أعلاهم البيض كالسمر
ترى كل علج غائص فى دلاصه ... تجعجع فى نقع تأجج كالجمر
بكل كميت صادق الوعد صائل ... يرى درعه الزاهى تمكن بالصبر
نرى الموت فى وقع الوقائع مغنما ... ونكسب من قتل العدا غاية الاجر

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] فلما فرغ عمرو بن العاص من الكتاب عرضه على أصحابه ، ثم طوى الكتاب وختمه واستدعى برجل يقال له سالم بن بجيعة الكندى وسلم إليه الكتاب ودفع له ناقة عشارية فاستوى على كورها وخرج يريد المدينة ، وهو يقول :

أسير الى المدينة فى أمان ... وأرجو الفوز فى غرف الجنان
وأرجو أن يقرب لى اجتماعى ... وأعطى ماأريد من الأمانى
ألايانافتى جدى وسيرى ... الى نحو النبي بلاامتهان
وأقرئيه السلام وأنشديه ... كلاما صادقا حسن البيان
ألا ياأشرف الثقلين يامن ... به شرف المدينة والمكان
فكن لى فى المعاد غدا شفيعا ... اذا ماقيل هذا العبد عانى

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ولم يزل سائرا ليلا ونهارا حتى قدم المدينة الطيبة الأمينة بعد صلاة العصر فدخل وأناخ ناقته على باب المسجد وعقلها بفضل ذمامها ، ودخل فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم على قبره الشريف وصلى ركعتين بين القبر والمنبر ، ثم تقدم فوجد عمر بن الخطاب فسلم عليه . قال فرد على السلام وصافحنى ، وكان لما رآنى أقبلت وأنا فرحان قال سالم جاء بكتاب من مصر مرحبا به . ثم التفت وعن يمينه على بن أبى طالب وعن شماله عثمان بن عفان وحوله من السادات والمهاجرين والأنصار مثل العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وطلحة بن عبد الله وبقية الصحابة رضى الله تعالى عنهم حوله ، ثم ناولته الكتاب . فقال ماوراءك ياسالم؟ . فأنت سالم فى الدنيا والآخرة ان شاء الله تعالى .

فقلت الخير والبشرى والأمن ياأمير المؤمنين ، فلما قرأ الكتاب فرح واستبشر وكانت تلك الغنائم قد وصلت الى المدينة قبل ذلك بأيام ، وقسمت على الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، ثم انه استشار عمر رضى الله تعالى عنه علىّ ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ومن حضر فأشار عليه على بن أبى طالب أن عمرو بن العاص لايسير بنفسه ليكون أهيب له فى قلوب أعدائه وأن يجهز جيشا عشرة آلاف فارس و يؤمر عليهم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه فانه سيف الله . فقال عمر صدقت وقد قال رسول الله ﷺ «خالد سيف من سيوف الله تعالى» وفى رواية «ان خالدا سيف لايغمد عن أعدائه» . ثم بات سالم تلك الليلة . فلما أصبح صلى الصبح فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أقبل على أمير المؤمنين عمر يسأله الجواب . فعندها استدعى عمر رضى الله تعالى عنه بدواة وقرطاس ، ثم كتب كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عامله على مصر ونواحيها عمرو بن العاص ، سلام عليك ورحمة الله وبركاته . أما بعد . فانى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ ، والسلام عليك وعلى من معك من المهاجرين والأنصار ورحمة الله وبركاته ، وقد قرأت كتابك وفهمت خطابك ، فاذا قرأت كتابى هذا فاستعن بالله وار بط الخيل وارسل الأمراء لكل بلد أمير ليقيموا شرائع الدين و يعلموا الأحكام ، ثم انتدب عشرة آلاف من أصحاب رسول الله ﷺ وأمر عليهم خالد بن الوليد وأرسل معه الزبير بن العوام والفضل بن العباس والمقداد بن الأسود وغانم بن عياض الأشعرى ومالكا الاشتر وجميع الأمراء وأصحاب الرايات ينزلون على المدائن و يدعون الناس إلى الاسلام ، فمن أجاب فله مالنا وعليه ماعلينا ، ومن أبى فليأمروه بأداء الجزية ، وإن عصى وامتنع فالحرب والقتال وأمرهم إذا حاصروا مدينة أن يشنوا الغارات على السواد ، وأن بمصر مدينتين كما بلغنى احداهما يقال لها أهناس قريبة من مصر ، والثانية يقال لها البهنسا أمنع وأحصن و بلغنى أن بها بطريقا طاغيا سفاكا للدماء يقال له البطليوس وهو أعظم بطارقة مصر كما بلغنى ، و إنه ملك الواحات فلا تقربوا الصعيد حتى تفتحوا هاتين المدينتين وعليك بتقوى الله فى السر والعلانية ، أنت ومن معك ، وأنصف المظلوم من الظالم ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر وخذ حق الضعيف من القوى ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، وأقم أنت بمصر ، وأرسل الأجناد وان احتجت إلى مدد فارسل وكاتبنى ، وأنا أرسل لك المدد ، والمعونة من الله عز وجل ، وأسال الله تعالى أن يكون لكم بالنصر والمعونة والفتح ، والحمد لله رب العالمين . ثم طوى الكتاب وختمه بخاتم رسول الله ﷺ ودفعه إلى سالم فأخذه وودّع الصحابة وودّع قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن توضأ وصلى ركعتين وسار ولم يزل سائرا حتى قدم مصر فوجد عمرا والصحابة نازلين بأرض الجيزة ، وكان زمن الربيع ، وهو جالس فى خيمته وأصحابه عنده ، وهذه الخيمة كانت لملك القبط من الحرير الأزرق والأحمر والأصفر سعتها ثلاثون ذراعا ، وقد فرش فيها فرشا كان للقبط ، وهو جالس يتحدث مع المقداد وخالد والفضل وغانم والامراء جميعهم رضى الله تعالى عنهم وهو كأحدهم . قال سالم فأنخت ناقتى فسمعت عمرا يقول ، وأنا خلف الخيمة قد أبطأ سالم . فقال خالد كأنك به ، وقد أقبل فهويت فأحس خالد بى من داخل الخيمة ولم يرنى بعينه ولاغيره ولاعلم بى ، فقال سالم . فقلت لبيك ياأبا سليمان ، فقال مرحبا بك ياسالم وحياك الله . ثم تقدمت

وسلمت على عمرو وخالد وعلى بقية الأمراء . ثم ناولته الكتاب فقرأه إلى آخره وفهم مافيه . فلما سمع الأمراء مافيه فرحوا بذلك فرحا شديد . ثم ان عمرا استشار الأمراء فى ذلك ، وكانوا لايفعلون شيئا إلا بمشورة بعضهم ولذلك مدحهم الله فى كتابه العزيز بقوله عز وجل — وأمرهم شورى بينهم — فأشاروا عليه أن يرسل خلف الامراء والجنود المتفرقة فى البحيرة شرقا وغربا وأن يرتب الجيوش ويقصدوا الصعيد ويتوكلوا على الله عز وجل .

[قال الواقدى] وكانت الصحابة لما فتحت مصر والوجه البحرى قد تفرقوا فمنهم فى الاسكندرية وأمسوس ودمياط ورشيد وبلبيس ، وكان أكثرهم بوسط البحيرة فى المكان المعروف بالمنزلة مثل القعقاع بن عمرو التميمى وهاشم بن المرقال وميسرة بن مسروق العبسى والمسيب بن نجيبة الفزارى ، فعندها استدعى عمرو رضى الله تعالى عنه بالنجابة والسعاة وعمرو ابن أمية الضمرى ومثل هؤلاء رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، وكتب الكتب وأرسلها للأمراء فعندها أجابوا بأجمعهم لأنهم رضى الله تعالى عنهم كانوا أشوق للقتال من العطشان للماء البارد الزلال ، وتركوا فى البلاد والمدائن من يحفظها أو يحرسها خيفة من العدوّ وأقبلوا نحو مصر مسرعين ونزلوا حولها وأخبرهم عمرو رضى الله تعالى عنه بقدومهم فدخل دار الامارة ، وهى قريبة من الجامع العمرى ، وأقبلت السادات والأمراء يسلمون عليه ، وكان ذلك نهار الأربعاء عاشر شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وعشرين من الهجرة النبوية ، وقيل اثنتين وعشرين ، والله أعلم

قال حدثنا محمد بن عبد الله . قال حدثنا عبيدة بن رافع عن أبيه جحيفة عن جابر بن عبد الله الأنصارى ، وحدث بذلك ابن سلمة رضى الله تعالى عنه . قالوا لما قدمت الأمراء والاجناد من الصحابة رضى الله عنهم أقاموا الأربعاء والخميس والجمعة فخطب عمرو رضى الله عنه بالناس . فلما فرغ من خطبته أمر الناس أن لايتفرقوا حتى يقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، فقرأ عليهم الكتاب . فلما فرغ من قراءته تواثبوا كلهم كالأسود الضارية المشتاقة الى فرائسها ، وقالوا كلهم سمعنا وأطعنا ، ولارواحنا فى سبيل الله بذلنا ، وللجهاد طلبنا ، وفى الثواب رغبنا ، والى الجنة اشتقنا ، ففرح عمرو بذلك . وقال ان أمير المؤمنين قد أمرنى أن أولى عليكم سيف الله ، والنقمة على أعداء الله ، صاحب القتال الشديد ، والبطل الصنديد ، خالد بن الوليد .

[قال الراوى] وكان خالد بن الوليد صديق عمرو فى الجاهلية وأسلما فى يوم واحد . ثم التفت عمرو إلى خالد ، وقال ادن منى ياأبا سليمان فدنا منه ، فقال عمرو يامعاشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انكم كلكم لكم الفضل وانى لست بأفضلكم وفيكم من هو ذوقرابة ونسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنتم السادة والأمراء ، وانى كأحدكم وقد أمرت عليكم خالد بن الوليد ، وأنتم تعلمون مافتح الله على يديه من البلاد ، وماأذل الله على يديه من الاجناد .

[قال الراوى] فوثب الفضل بن العباس رضى الله عنهما ، وقال أيها الأمير انا بذلنا أنفسنا فى رضا الله عز وجل ، ومانريد بذلك إلا رفعة عند الله عز وجل ، وإن خالدا من أخيارنا ولو أمرت علينا عبدا حبشيا لامتثلنا أمره فى رضا الله عز وجل فناهيك بخالد ، وهو سيد من

سادات قريش عزيز فى الجاهلية والاسلام ، فتهلل وجه خالد وعمرو فرحا . ثم أمرهم بالنزول جيعا بأرض الجيزة قريبا من الهرم الشرقى ، وأقبلوا يضربون خيامهم حوله حتى تكاملت العساكر رضى الله عنهم أجمعين .

[قال الراوى] بسنده إلى الواقدى رحمه الله وابن اسحق وابن هشام لما تكاملت الجيوش وذلك فى ربيع الآخر من السنة المذكورة صلى عمرو بأصحابه صلاة الصبح ، ثم قام من ساعته يمشى على قدميه وحوله جماعة من المسلمين ، ومعه خالد بن الوليد والمقداد ابن الأسود الكندى والزبير بن العوام الاسدى والفضل بن العباس الهاشمى وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وهاشم بن المرقال والمسيب بن نجيبة الفزارى والعباس بن مرداس وأولاد عبد المطلب وبقية السادات حتى طلع على رابية وأشرف على الجيش ، فلما رأى اجتماعهم سر سرورا عظيما . ثم أمر بعرض الجيش فتقدمت الأمراء أصحاب الرايات وصار كل أمير يعرض جيشه وبنى عمه على عمرو بن العاص ، فكانت عدتهم فيما ذكر ، والله أعلم ستة عشرة ألف فارس فانتدب منهم عشرة آلاف فارس كلهم ليوث عوابس وعليهم الدروع الداودية متقلدين بالسيوف الهندية ، معتقلين بالرماح الخطية ، راكبين الخيول العربية ، من خيار أمة خير البرية ، فعند ذلك قال لهم عمرو : يامعاشر الأمراء أصحاب الرايات والسادات الأخيار ان خالدا أمير عليكم فاسمعوا له وأطيعوا ، وكونوا كلمة واحدة ، ونازلوا المدائن والقلاع ، وشنوا الغارات على السواد ولاتقاتلوا قوما حتى تدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . فان أبوا فأداء الجزية . فان أبوا فالقتال بينكم وبينهم — حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين — وأرسلوا الطلائع ولا يكون فى الطلائع إلا كل فارس كرار فى الحرب والقتال وثبتوا أنفسكم ولايغرنكم كثرة أعدائكم فأنتم الغالبون ، فقد ذكر الله فى كتابه المكنون المبين — كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين — وأحسنوا نياتكم وثبتوا عزائمكم ، فأنتم الغالبون والله معكم ، وأنتم كلكم أهل الفضل والسابقة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلتم بين يديه ولاتحتاجون إلى وصيتى بارك الله فيكم .

[قال الراوى] ثم ان عمرا استدعى بأصحاب الرايات ، فكان أول من تقدم بعد خالد الزبير ابن العوام رضى الله عنه وهو راكب على جواده الاغر شاك سلاحه فسلمه الراية وأمره على خمسمائة ، فلما خرج بعسكره هز الراية ، وأنشد يقول :

أنا الزبير ولد العوّام ليث شجاع فارس الاسلام
قرم همام فارس هجام أقتل كل فارس ضرغام
وإننى يوم الوغى صدّام وناصر فى حانها الاسلام

قال ثم استدعى بالفضل بن العباس وأمره على خمسمائة فارس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتسلم الراية بيده وتوجه ، وهو يقول :

إنى أنا الفضل أبى العباس وفارس منازل حواس
معى حسام قاطع للراس وفالق الهامات والأضراس
أفنى به الأعدا بلا إلباس وما على فيهم من باس

قال ثم استدعى بزياد بن أبى سفيان بن الحرث بن عبد المطلب وسلمه الراية ، وكان رضى الله عنه فارسا عظيما وبطلا صنديدا فتسلم الراية وتوجه ، وهو ينشد :

أنا الفارس المشهور يوم الوقائع ... بحدّ حسام فى الجماجم قاطع
ورمحى على الأعداء مازال طائلا ... إذا التحم الأعداء للضد قاطع
وعزمى فى الهيجاء مازال ماضيا ... برأى سديد للمحاسن جامع
أصول على الأعداء صولة قادر ... وأشبعهم ضربا ببيض لوامع
امام الوغى من آل ذروة هاشم ... حماة البرايا كالبدور الطوالع
أنا ابن أبى سفيان من نسل حارث ... تموت العدا منى وكل منازع

قال ثم استدعى من بعده عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنهما وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول :

أسير الى الاعادى باهتمام ... بقلب صادق حسن الذمام
بأبطال جحاجحة أسود ... سراة فى الوغى قوم كرام
أبيد بهم عداة الدين جمعا ... ولا أخشى من القوم اللئام
اذا ماجلت فى الهيجا برمحى ... أصول به وفى أيدى حسامى

قال ثم استدعى من بعده عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وأمره على خمسمائة فارس فتسلم الراية وتوجه وهو يقول :

وحق من أنزل الآيات فى السور ... وأرسل المصطفى المبعوث من مضر
لاأنثنى عن لقا الاعداولو جمعت ... حماة أبطالهم يوما كما الدبر
حتى أبيدهم ضربا وأتركهم ... فوق الثرى خشا مخدوشة الصدر
بكل قرم همام ماجد نجد ... الى الوقائع يوم الحرب مبتدر
نحن الكرام الذى للدين أرسلنا ... امام دين الورى غيث الندا عمر

قال ثم استدعى من بعده جعفر بن عقيل وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول :

أنا ابن عقيل من لؤى وغالب ... همام شجاع للأعادى غالب
حماة الوغى أهل الوفا معدن الصفا ... الى جود يمنانا مسير الركائب
ولا يعرف المعروف الا بعرفنا ... ولا الجود الاجودنا كالمواهب
علا مجدنا فوق الثنا وسناؤنا ... علا شرفا من فوق كل الكتائب
فياويل أهل البغى منا اذا التقت ... فوارسنا فيهم بحد القواضب

قال ثم استدعى من بعده أخاه الفضل وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتسلمها وتوجه وهو يقول :

انى أنا الفضل أبى عقيل ... أسير للحرب بلا تمهيل
بحد سيف قاطع صقيل ... به أبيد الكافر الجهول
أنا ابن عم أحمد الرسول ... المرسل المبعوث فى التنزيل

قال ثم استدعى من بعده المقداد ابن الاسود الكندى وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول :

أنا المقداد فى يوم النزال ... أبيد الضد بالسمر العوالى
وسيفى فى الوغى أبدا صقيل ... طليق الحد فى أهل الضلال
معى من آل كندة كل قرم ... يجيد الطعن فى يوم النزال
فياويل العدا والروم منا ... اذا التحم الفوارس فى القتال
وهم صرعى كأعجاز لنخل ... بقعها الفوارس بالنصال

قال ثم استدعى من بعده عمار بن ياسر وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول :

أنا الهمام الفارس الكرار ... أفنى بسيفى عصبة الكفار
ان جالت الخيل بلا انكار ... وقام سوق الحرب من عمار
حمى لدين المصطفى المختار ... صلى عليه الواحد القهار
وآله وصحبه الأخيار ... مابان ليل وأضا نهار

قال ثم استدعى من بعده العباس بن مرداس السلمى وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول :

أنا العباس ذو رأى قويم ... معى سادات آل بنى سليم
أذل بهم حماة البغى لما ... ترى الهيجاء كالليل البهيم
وسيفى ماضى الحدين أضحى ... لأهل الشرك والموت العميم
به أفنى الطغاة بكل أرض ... وأقتل كل أفاك أثيم
ونحن بنو سليم خير قوم ... هدينا للصراط المستقيم

قال ثم استدعى من بعده أبا دجانة الأنصارى رضى الله عنه وسلمه الراية فتوجه وهو يقول :

أسير باسم الواحد المنان ... جهرا لأهل الكفر والطغيان
أذيقهم ضربا على الأبدان ... بكل هندى مبيد الجان
أنصر دين مصطفى العدنانى ... صلى عليه الملك الديان
وآله والصحب والاخوان ... ماناح قمرى على الأغصان

قال ثم استدعى من بعده غانم بن عياض الأشعرى رضى الله عنه وسلمه الراية وتوجه وهو يقول :

انى اذا انتسب الفوارس أشعرى ... قرم همام فى المعامع عنترى
بحماة أبطال الأعادى نزدرى ... وبراحتى من القواضب أبترى
يوم التلاطم للفوارس مسكر ... وأحوم حومات الغزال الجؤذرى
فلأقتلن فوارسا وعوابسا ... وأذيقهم منى العذاب الاكبر

قال ثم استدعى من بعده أباذر الغفارى وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول :

سأمضي للعداة بلا كتاب وقلبي للقا والحرب صابي
ولي عزم أذل به الأعادي وأرجو الفوز فيهم كالثواب
وان صال الجيع بيوم حرب لكان الكل عندي كالكلاب
أذلهم بأبيض جوهري طليق الحد فيهم غير آبي

قال ثم استدعى من بعده القعقاع بن عمرو التميمي والمغيرة بن شعبة الثقفي وميسرة بن مسروق العبسي ومالكا الاشتر النخعي وذا الكلاع الحيري والوليد وعقبة بن عامر الجهني وجابر ابن عبد الله الانصاري وربيعة بن زهير المحاربي وعدى بن حاتم الطائي ومثل هؤلاء السادات رضي الله عنهم وقد اقتصرنا في أشعارهم خوف الاطالة وكل واحد يسلمه راية ويؤمره على خمسمائة فارس قال فلما تكاملوا وتجهزوا خرج عمرو وأصحابه فودعهم وسارت الكتائب ، وتتابعت المواكب يطلب بعضها بعضا وخلفهم الذرارى والصبيان حتى أتوا الى الجيزة ونزلوا بمكان يعرف بالمرج الكبير قريب من تلك المدائن والقرى والرساتيق وتقدمت الطلائع يتجسسون الأخبار ، وقد كان بدهشور بطريق عظيم من قبل مارنوس صاحب اهناس ، وكان فارسا مكينا وكلبا لعينا قاتله الله وكان يقول في نفسه انه يناظر البطليوس في ولايته لكن البطليوس صاحب البهنسا لعنه الله كان أشد بأسا ، وأعظم مراسا ، وأكثر عددا ، وأقوى مددا ، وأوسع بلادا فكاتبه في ذلك وكاتب روسال صاحب الأشمونين وكاتب اقراقيس صاحب قفط ، وكان يحكم على اخميم وكاتب الكيكلاج وكان يحكم الى عدن والبحر المالح الى بلاد البجاوة والنوبة وحد السودان وتسامع الناس بمسير العرب الى الصعيد وكاتبت الملوك بعضها بعضا وماج الصعيد بأهله الى حد الواحات ووقع الرعب في قلوبهم فعند ذلك وثب مكسوج ملك البجاوة وحليف ملك النوبة وجمعوا ماحولهم من أرض النوبة والبجاوة والبربر وأتوا الى أسوان ، وكان مع ملك البجاوة ألف وثلثمائة فيل عليها قباب الجلد بصفائح الفولاذ في كل قبة عشرة من السودان طوال القامة عراة الأجساد على أوساطهم واكتافهم جلود النمور وغيرها ومعهم الدرق والحراب والكرابيج والقسي والمقاليع والأعمدة الحديد والطبول والقرون ، وكانت عدتهم عشرين ألفا ، فلما وصلوا أسوان خرجوا الى لقائهم بعسكرهم وأعلموهم بأمرهم وساروا اليهم بالملاقاة من الذرة والشعير والقصب ولحوم الخنازير والضباع وغيرها من الوحوش فأنزلوهم وضيفوهم ثلاثة أيام ، ثم خرج بطريق أسوان ومعه جيش حتى وصلوا الى ملك قفط صاحب القرية القريبة من قوص وعمل معهم مثل ذلك وسير معهم جيشا وساروا حتى وصلوا الى أنصنا ، وكان بها بطريق عظيم وبطل جسيم ، وكان منجما ، وكان يحكم شرقا وغربا ، وكانت مدينته عظيمة على شاطئ البحر وبها جند كثير وعجائب عظيمة ولها حصن عظيم من الحجر علوه ثلاثون ذراعا ومن داخلها قصور ومقاصير وكنائس وقلاع على أعمدة الرخام وغيرها في المدينة ، فلما نزلت تلك العساكر على أنصنا خرج اليهم بطريقها جرجيس بن قابوس وتلقاهم وأرسل معهم ابن عم له يسمى قيطارس ، وكان فارسا شديدا في أربعة آلاف فارس ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا بوادى البهنسا عند بطريق يسمى قلوصا من بطارقة البطليوس ، فلما سمع بهم البطليوس خرج الى لقائهم في عسكر عظيم زهاء من خمسين ألف فارس من البطارقة وعليهم الدروع المذهبة وأقبية الديباج المرقومة بالذهب الوهاج وعلى رؤوسهم التيجان

المكللة باللآلى والجواهر راكبين على خيول وبراذين مسرجة عليها سروج الذهب والجنائب مغطاة بأغشية من الحرير الملوّن المرقوم بالذهب والفضة والخز ، وكان معهم خمسون صليبا طول كل صليب أربعة أشبار من الذهب تحت كل صليب ألف فارس على كل صليب رمانة من الذهب المنقوش وهم فى زىّ عظيم عجيب ، وقد أكثروا من الطبول والزمور وضرب القرون والمعازف حتى ارتجت الارض ومعهم الجمال والبغال والجاموس ، فلما التقوا ترجلت الملوك والبطارقة للقائهم وسلم بعضهم على بعض وتكلموا فيما بينهم بسبب العرب ، فقال لهم البطليوس لاتطمعوا العرب فيكم ولافى بلادكم فانما مثل العرب كمثل الذباب ان تركته أكل وان منعته فرّ وهلك فاثبتوا واصدقوا العزم فلقد كانبت لكم سنجاريب ملك برقة وكاتبت ملك الواح وكأنكم بهم قد أتوا اليكم ولولا أنى أخشى أن العرب يأتون الى بلادى لما يسمعون انى خرجت اليهم فيشتغل جماعة بقتالكم وجماعة يأتون الى بلادى فيملكونها ، وليس فيها من يذب عنها اذا خرجت معكم لكنت فى خدمتكم فانا نجد فى الكتب القديمة أنهم اذا ملكوا البهنسا ونواحيها فلاتقوم لأهل الصعيد قائمة . قال كرماس الرومى ، وكان ممن أسلم بعد ذلك وحضر وحدث به يامعاشر الملوك والبطارقة انى قد اطلعت على الكتب القديمة وفيها انهم ان ملكوا البهنسا ونواحيها فلاتقوم لاهل الصعيد بعد ذلك قائمة . قال فلما سمع الملوك ذلك صقعوا له ثم انتدب من بطارقته عشرين ألفا ممن عرفت شجاعتهم وبراعتهم وملك عليهم صاحب الكفور ، وكان كافرا طاغيا ، وكان اسمه بولص ، وكان لعينا ودفع له صليبا من الذهب وعلما من الحرير الأطلس الأصفر مرقوما بالذهب فيه صورة الشمس ودفع لهم مايحتاجون له من الجنائب والقباب والسرادقات ومضارب الديباج الملوّن وأوانى الذهب والفضة والصناديق المملوءة بالذهب والفضة والبراذين والبغال وعليها أحمال الحرير الملوّن وبعضها محمل بالأوانى المذكورة والخيام والسرادقات وسارت العساكر وتتابعت الملوك بالمواكب يتلو بعضها بعضا حتى قربوا من مدينة ببا الكبرى فخرج اليهم بطريقها صندراس وتلقاهم وفعل معهم كما فعل البطليوس وأضافهم وجهز معهم جيشا عشرة آلاف فارس من صناديد بطارقته وولى عليهم بطريقا اسمه داردبس ، وكان يناظر بطريق الكفور فى الشجاعة والقوّة والبراعة وساروا حتى قربوا من مدينة برنشت فخرج اليهم بطريقها فتلقاهم ، وكان يناظر البطريق الأعظم رأس بطارقة الكوّة ولم يزالوا سائرين حتى ملؤا الأرض شرقا وغربا هذا ماجرى لهؤلاء .

[قال الراوى] وأما ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فانهم لما نزلوا قريبا من دهشور كما ذكرنا ، وكانت العيون من المسلمين من بنى طيئ ومذحج ينزلون ويتزيون بزىّ العرب المتنصرة يتجسسون الأخبار حتى اختلطوا بالعساكر المذكورة ، وكانوا حذاقا متفرسين ، فلما رأوا ذلك هالهم أمره .

[قال الراوى] حدثنى سنان بن قيس الربعى عن طارق بن مكسوح الفزارى عن زيد بن غانم الثعلبى ، وكان ممن حضر الفتوح وشهد الوقعة صحبة جيش خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه . قال بينما نحن جلوس نصلح شأننا بالمرج : ونحن على أهبة السفر اذقدمت الجواسيس فأخبروا خالدا بقدوم العساكر . فقال لهم هل حزرتم الجيوش ، فقالوا نعم نحو مائتى ألف فارس وخمسين ألف راجل من النوبة والبربر والبجاوة والفلاحين وغيرهم وهم فى أهبة عظيمة ومعهم

ألف وثلثمائة فيل وعلى ظهورها الرجال كما وقع فى يوم حرب العراق ، فلما سمع الأمراء ذلك اضطربوا وثبتوا جنانهم ، وقالوا — قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا — وقال خالد لاحول ولاقوة الابالله العلىّ العظيم ، ثم قرأ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ثم قرأ — كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين — ثم ان خالدا قال لأصحابه ولاتهتموا لذلك واصبروا — وأنتم الأعلون والله معكم — فليست جموعهم بأكثر من جموع اليرموك ولا من جموع أجنادين ومع ذلك فقد ملكتم مصرهم التى هى تاج عزهم وملكتم الوجه البحرى وقتلتم مائة من ملوكهم و بطارقتهم ، وقد صارت الشام واليمن والعراق والحجاز بأيديكم ، وقد دانت لكم البلاد ، وقد كنتم قليلا فكثركم الله وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها وقاتلتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصرتم بالملائكة ووعدكم على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم أنه يستخلفكم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلكم ومن قتل منكم كان له الجنة وتنتقل روحه الى روح وريحان ورب غير غضبان ، فلما سمعوا كلامه تهللت وجوههم فرحا وقالوا ياخالد نحن كلنا بين يديك ، وقد وهبنا أنفسنا لله ابتغاء وجه الله ومرضاته .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ثم إن خالدا وجه يزيد بن معرّج التنوخى إلى عمرو بن العاص مسرعا وأعلمه بذلك فترك فى مصر ابن عمه خارجة ، وكان رجلا صالحا وأخرج معه أربعة آلاف فارس وترك فى مصر نحو أربعين فارسا من أصحاب رسول الله ﷺ وجاء إليهم أربعة آلاف فارس ، فلما أقبلوا سلموا عليه وقالوا كنا نحن نكفيك أيها الأمير . فقال لهم أعلم ذلك ولكنكم فى أوّل بلاد العدوّ وماينبغى أن أقعد عنكم ، ففرحوا بذلك وتأهبوا للقاء العدوّ، وكانوا كل يوم يخرجون الطلائع يتجسسون الأخبار ، فلما كان فى بعض الأيام ، خرج الفضل ابن العباس بن عبد المطلب وأخوه عبد الله بن العباس وجعفر بن عقيل وأخواه على ومسلم وعبد الله بن الزبير وسليمان بن خالد بن الوليد ، ومحمد بن فرحة بن عبد الله وعبد الله بن المقداد وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعمر بن سعد بن أبى وقاص ، ومحمد بن مسلمة وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وزياد بن المغيرة بن شعبة وتبعهم من السادات نحو أربعمائة سيد من أولاد الصحابة والأمراء أصحاب الرايات ، وألف وستمائة من أخلاط العرب من المهاجرين والأنصار ولبسوا دروعهم ، وتقلدوا بسيوفهم واعتقلوا برماحهم ، وتنكبوا بحجفهم وساروا إلى قريب من دير هناك بسفح الجبل يعرف بدير المسيح يكشفون الأخبار ، فبينما هم كذلك اذا بغبار طلع الى عنان السماء وانعقد ، فنظر بعضهم الى بعض وقالوا : هذا غبار وحش وقال بعضهم : لو كان كذلك لكان تقطع قطعا وتفرق فرقا ، وانما هذا عسكر جرار و إن الخيل اذا داست بحوافرها ارتفع الغبار .

[قال الراوى] حدثنا أبو الزناد عن عبد الله عن أبى مالك الخولانى ، عن طارق بن شهاب الجرهمى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : بينما نحن نتحدث مع الفضل واذا بالغبار قد قرب منا وانكشف عن عشرة آلاف فارس ومعهم الأعلام والصلبان ، فلما رأونا رطنوا بلغتهم ثم لم يمهلوا دون أن حملوا

[قال الراوى] وكان ضرار بن الأزور قد انفرد ومعه مائتان من أصحاب رسول الله ﷺ

من أهل النجدة ، وساروا فى طريق الجبل على غير الجادة ، فبينما هم يسيرون اذا بالغبار قد ثار وانكشف عمن ذكرنا ، فلما عاينوهم أيقنوا بالهلاك ، فعندها وثب ضرار رضى الله تعالى عنه وقال : لافرار من الموت فلم يمهلوهم دون أن داروا عليهم ، فرأوا أن لابدّ لهم من القتال والتقت الرجال بالرجال وصبروا صبر الكرام وأحاطت بهم الروم اللئام من كل جانب ومكان ، فلله در ضرار لقد قاتل قتالا شديدا ، فلم يكن غير ساعة حتى قتل من جماعة ضرار جماعة وكبابه جواده فأسروه وأسروا جماعة من أصحابه ، وكان الذى قاتلهم رأس البطارقة صاحب بيا الكبرى ، فأوثقوا ضرارا وأصحابه كتافا وربطوهم على ظهور خيولهم وأرسلوهم الى العسكر ، وانفلت من القوم مولى من موالى عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق ، يقال له سالم فسار يجد فى مسيره ، حتى قدم على خالد وعمرو ، فعند ذلك وثب المسيب بن نجيبة الفزارى ورافع بن عميرة الطائى وأخذا معهما ألفا من أصحاب رسول الله ﷺ وسارا ومعهما رجل من أسلم من الجيزة يدلهم على طريق غير الجادة وكمنوا هناك عند الدير وقد سبقوا البطريق الذى أسر ضرارا وأصحابه ، وقد اختفى عنهم الأثر ، فقال الدليل : أظنكم قد سبقتم القوم اكمنوا ههنا ، وكان الذى مضى بضرار وأصحابه خمسمائة فارس .

[قال الراوى] وكانت خولة بنت الأزور قد شق عليها أسر أخيها ضرار ، فلما سار المسيب ورافع وجماعتهما فى طلب أخيها ، تهللت فرحا وأسرعت فى لبس سلاحها وأتت إلى خالد وقد هم القوم بالمسير وقالت : أيها الأمير سألتك بالطاهر المطهر إلا ماسيرتنى مع هؤلاء عسى أن أكون مشاهدة لهم . فقال خالد للمسيب ورافع أنتما تعلمان شجاعتها وبراعتها فخذاها معكما ، فقالا السمع والطاعة ونزلوا بالمكان المذكور ، فبينما هم كذلك كامنون إذا بغبرة قدلاحت لهم ، فقال لهم رافع أيقظوا خواطركم فأيقظت القوم هممهم ، فاذا بهم قد أتوا محدقين بضرار وهو متألم من كتافه ، وهو ينشد ويقول :

ألا بلغا قومى وخولة أننى ... أسير رهين موثق اليد بالقيد
وحولى علوج الروم من كل كافر ... وأصبحت معهم لاأعيد ولا أبدى
فلو أننى فوق المحجل راكبا ... وقائم حد العضب قدملكت يدى
لأذللت جمع الروم إذلال نقمة ... وأسقيتهم وسط الوغى أعظم الكدّ
فيا قلب مت هما وحزنا وحسرة ... ويادمع عينى كن معينا على خدى
فلو أن أقوامى وخولة عندنا ... وألزم ما كنا عليه من العهد
كبا بى جوادى فانتبذت على الوغى ... وأصبحت بالمقدور ولم أبلغن قصدى

[قال الراوى] فنادته خولة من مكمنها : قد أجاب الله دعاك وقبل تضرّعك ونجواك ، أنا خولة ، ثم كبرت وحملت وكبر رافع والمسيب . قال جبير بن سالم وكنا إذا كبرنا تصهل الخيل إلهاما من الله تعالى ، فما كان أكثر من ساعة حتى قتلناهم عن آخرهم وخلص الله ضرارا وأصحابه ، وأخذنا خيل القوم وأسلابهم وسلاحهم وكانت أوّل غنيمة

[قال الراوى] ولما تخلص ضرار وأصحابه ركب جواده عريانا وأخذ قناة كانت مطروحة ، وحمل على القوم وهو يقول :

لك الحمد يامولاى فى كل ساعة ... مفرّج أحزانى وهمى وكربتى
فقد نلت ماأرجوه من كل راحة ... وجمعت شملى ثم أبرأت علتى
سأفنى كلاب الروم فى كل معرك ... وذلك والرحمن أكبر همتى
فياويل كلب الروم ان ظفرت يدى ... به سوف أصليه الحسام بنقمة
وأتركهم قتلى جميعا على الثرى ... كما رمة فى الأرض من عظم ضربتى

[قال الراوى رحمه الله] فلما فرغ ضرار من شعره إذا بالخيل قد أقبلت منهزمة ، وكان السبب فى ذلك أنه لما حملت الروم على الفضل بن عباس صاح هو و بنو عمه ولم يرعهم ، وصبروا صبر الكرام ، واشتدّ الزحام ، وعظم المرام ، وجرت الدماء ، واسودّت السماء ، وحمى الوطيس ، وقل الأنيس ، وهمهمت الأبطال ، وقوى القتال ، وعظم النزال ، ودارت رحى الحرب ، واشتدّ الطّعن والضرب ، وجالت الرجال ، واشتدّ القتال ، وضربت الأعناق ، وسالت الأحداق ، وعظمت الأمور ، وغابت البدور ، وكان المسلمون لايظهرون فيهم لكثرتهم ، ولا يعرف بعضهم بعضا الابالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، وقدصبر الفضل صبر الكرام فلله در الفضل لقد اصطلى الحرب بنفسه ، فكان تارة يقلب الميمنة على الميسرة وتارة يقلب الميسرة على الميمنة و يقاتل والراية بيده ، ولله در مسلم بن عقيل وأخويه لقد قاتلوا حتى صارت الدماء على دروعهم كقطع أكباد الابل ، ولله در سليمان بن خالد بن الوليد المقتول بوقعة الدير قريبا من طرا بقرية تسمى دهروط ، وقتل معه عبد الله بن المقداد وجماعة وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى .

[قال محمد بن مسلمة الأنصارى رضى الله عنه] وقاتلنا قتال الموت وأيقنا ان المحشر من ذلك الموضع ولم نزل فى قتال من ارتفاع الشمس حتى غربت ، وقد قتل من الروم مقتلة عظيمة وتقدم الفضل الى بطريق عظيم راكب كأنه برج من ذهب ، وطعنه فى صدره فأخرج السنان من ظهره ، فلما رأت الروم ذلك شجعوا أنفسهم وفشا القتال بيننا و بينهم ، وقتل من المسلمين أربعون رجلا وقتل منهم ثلثمائة لكن الرجل مقتل منا حتى قتل جماعة من الروم ، فبينما نحن كذلك وقد أيقنا أن الموت فى ذلك الموقف ووطنا عليه نفوسنا ، وإذا بغبرة قد طلعت والعجاج قد ارتفع وانقشع الغبار عن رايات اسلامية ، وعصابة محمدية زهاء من ألفى فارس ، وفى أوائلهم فرسان أمجاد سادات أنجاد ، أحدهم المقداد والثانى زياد والقعقاع بن عمرو ، وشرحبيل بن حسنة ومعهم ألف فارس فلم يمهل المقداد دون أن حمل وخاض فى الخيل وهو ينشد و يقول :

ألا اننى المقداد أكبر صائل ... وسيفى على الأعداء أطول طائل
اذا اشتدّت الأهوال كنت أمامها ... وأضرب بالسمر الطوال الذوابل
ولى همة بين الورى تردع العدا ... لها تشهد الأبطال بين القبائل
فليس لسيفى فى الأنام مبارز ... وليس لشخصى فى الأنام منازل

ثم إنه خاض فى وسط الحرب وحمل من بعده زياد بن أبى سفيان وهو ينشد و يقول :

أنا زياد بن أبى سفيان ... جدّى يرى من أشرف العربان
كذا ابن عمى أحمد العدنانى ... معى حسام ثم رمح ثانى *
أطعن كل كافر جبان ... وكل قلب ناقص الايمان

[قال الراوى] ثم غاص فى وسط القوم فقلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنة وغاص فى القلب فولت الروم من بين يديه منهزمين . وهو يضرب بالسيف فيهم طولا وعرضا ، ثم حمل من بعده القعقاع بن عمرو التميمى وهو ينشد ويقول :

أنا الهمام الفارس القعقاع ليث همام ضيغم مطاع
سمى حسام يبرئ الأوجاع ويقطع الهامات والأضلاع
ياويل أهل الشرك والنزاع منى إذا فى الحرب طال الباع

قال ثم حمل من بعده شرحبيل بن حسنة وهو يقول :

ألا ياعصبة الاسلام صولوا على الأعداء بالسيف الصقيل
أذيقوهم حياض الموت جهرا بلدغ السمهرى الرمح الطويل
وموتوا فى الوغى قوما كراما شدادا فى المعامل والنزول

[قال الراوى رحمه الله] ثم تتابعت الفرسان يتلو بعضها بعضا ، هذا وزياد غائص فى القوم كما ذكرنا ، وقصد البطريق الأعظم صاحب بيا الكبرى وضربه على عاتقه الأيمن بالسيف فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر ، وقد أجابته المسلمون بتكبيرة واحدة ، وكبرت الجبال وارتجت الأرض لوقع حوافر الخيل ، وحمل كل أمير على بطريق فقتله فلم تكن الا ساعة حتى ولوا الأدبار وركنوا الى الفرار لايلوى بعضهم على بعض ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى بلغت الهزيمة جزرة وميدوم ، فبينما ضرار وأصحابه مقبلون واذا بالروم منهزمة كما ذكرنا وخيل المسلمين فى أثرهم يقتلون ويأسرون ولم يعلموا ماجرى لضرار ورفقته ، فلما رأوه سلموا عليه وهنئوه وأصحابه بالسلامة فقص عليهم ماجرى لهم واجتمعوا بالمسيب وأصحابه وأروهم مكان المعركة ومكان القتلى ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا .

[قال الراوى رحمه الله] وإن عمرا وخالدا لما خرج الفضل وأصحابه قلق عليهم ، فقال خالد لعمرو : ياأبا عبد الله لقد غرر الفضل وأصحابه بمن معه من المسلمين وإنى أخشى أن تكون للروم طليعة فيغيروا على أصحابنا . قال عمرو كذلك هجس بخاطرى ياأبا سليمان فما ترى من الرأى ؟ قال خالد الرأى عندى أن أرسل طليعة أخرى خلفهم قال . نعم الرأى ، ثم استدعى بالزبير بن العوّام وأبى ذر الغفارى رضى الله عنهما وأعلمهما بذلك ، وأراد خالد أن يركب معهما فمنعه الزبير وحلف لايسير إلا هو وانتخب معه فرسانا ، فساروا حتى قربوا من القوم والتقوا بالمسلمين فوجدوهم قد كسروا الروم كما ذكرنا ، ثم جمع المسلمون الأسلاب والسلاح والخيل ورجعوا الى أصحابهم وهم فرحون بالنصر على أعدائهم

[قال الراوى رحمه الله] فلما رجع المسلمون الى العسكر ، وكان معهم ستمائة أسير أعلن المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير فأجابهم المسلمون كذلك ، ولما عاينوا الاسلاب والأسارى معهم فرحوا بذلك وسلم بعضهم على بعض وتلقاهم عمرو وخالد وباقى الأمراء تفاءلوا بالنصر وقدّموا الأسارى وعرضوهم على عمرو وخالد وأوقدوا النيران بالمرج وباتوا يقرءون القرآن ويتضرّعون الى الله الواحد المنان ، وليس فيهم الامن هو راكع أوساجد .

[قال الراوى رحمه الله] هذا ماجرى لهؤلاء ، وأما المنهزمون فانهم مضوا الى البطارقة والملوك

وأخبروهم بما وقع من أمرهم فعظم عليهم من قتل واستعدّوا للقتال وركبوا خيولهم وابلهم وأفيالهم وتزينوا بزينتهم وساروا يجدون المسير وقد ا كثروا الطبول والزمور والصنوج .

قال قيس بن الحرث : وأقام المسلمون بعد الوقعة يوما ، فبينما نحن فى اليوم الثانى بعد صلاة الصبح ، وكان الأجاويد من الأمراء والأبطال فى كل يوم يركبون ويستنشقون الأخبار ، فبينماهم ينتظرون إذ ثار الغبار حتى تعلق بالجوّ وانكشف عن رجال وخيول كالجراد المنتشر ، والسيل المنحدر ، وارتجت الأرض من ازدحام الخيل وقعقعة اللجم ، فرجعوا وأعلموا صاحب رسول الله ﷺ ، وصاح الصائح فى العسكر : النفير النفير ياخيل الله اركبى وفى الجنة ارغبى والثواب اطلبى ، فتواثب المسلمون الى قدومهم ولبسوا دروعهم والى خيولهم فركبوها والى راياتهم فنشروها ، والى زينتهم فأظهروها ، والى قلوبهم من الغش فطهروها ، ونفوسهم لله باعوها ، فلم تكن الا ساعة حتى استعدّوا ، وأقام خالد وعمرو يعبيان قومهما للقتال جعلا فى القلب أصحاب الطعن والضرب مثل الفضل بن العباس و بنى عمه من سادات بنى هاشم وهم جعفر ومسلم وعلى أولاد عقيل بن أبى طالب وزياد بن أبى سفيان بن الحرث ومثل هؤلاء الأبطال ، وجعل فى الجناح الأيمن الزبير بن العوّام والمقداد بن الأسود الكندى والمسيب بن نجيبة الفزارى ، وجعل فى الجناح الأيسر القعقاع بن عمرو التميمى وهاشم بن المرقال وغانم بن عياض الأشعرى وأبا ذر الغفارى وجابر بن عبد الله الأنصارى ومثل هؤلاء السادات رضى الله عنهم ، وثبت خالد وعمرو فى القلب ومعهما عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن عامر الجهنى وبقية الصحابة من الأمراء أصحاب الرايات ممن شهد الوقائع مع رسول الله ﷺ وعن عبدالله ابن زيد عن أبى امامة رضى الله عنه ، وكان من أصحاب الرايات . قال فبينما نحن كذلك اذا باعلام المشركين قد انتشرت ، وراياتهم قد ظهرت ، وزينتهم وصلبانهم قد ارتفعت ، ولغتهم بالكفر قد طمطمت ، وأفيالهم قد أقبلت ، ورجالهم للقتال قد تبادرت ، فلما رأى المسلمون ذلك أخلصوا نياتهم ، ولم يهلهم ماراوا من عدوّهم ، وتضرّعوا بالدعاء لخالقهم وقد استغاثوا بمالكهم وأ كثروا من الصلاة على نبيهم ولم يزالوا سائرين حتى قربوا من القوم ورأوهم رأى العين ، فعند ذلك أمسك المشركون أعنة خيولهم وسلاسل أفيالهم وألقى الله الرعب فى قلوبهم ، ثم خرج منهم بطريق من عظماء بطارقتهم كأنه برج مشيد من ذهب وهو لايبين منه غير حماليق الحدق وتدوير المآق و بين يديه فارس من متنصرة العرب وهو يصيح بملء فيه : يامعاشر العرب ارسلوا الى الملك أحدا يكلمه فأعلم المسلمون عمرا وخالد بن الوليد بذلك ، فأراد خالد أن يخرج اليه فمنعه الأمراء من ذلك ، فعندها وثب المقداد ابن الأسود وحلف لايخرج اليه الا هو بنفسه . فقال عمرو وخالد : ياأبا عبد الله انظر مايكلمك به الاعلاج وادعهم الى كلمة الاخلاص المنجية يوم القصاص ، فان أبوا فالجزية عن يد وهم صاغرون . فان أبوا قاتلناهم — حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين — .

[قال الواقدى رحمه الله] فعندها ركب المقداد جواده وسار حتى وقف بين يدى البطريق وكان ذلك بولص صاحب الكفور الطاغى اللعين بطريق البطليوس وقد أتى باذن الملك والبطارقة ، فلما رآه كلمه بلسان عربى مبين ، ثم قال يابدوى أأنت أمير قومك . قال لا ؟ قال فانى لا أريد

الا الأمير حتى أسأله عما بدالى لعل أن تكون فيه مصلحة بينكم وبيننا . فقال المقداد سل عما بدالك وما تريد فانا قوم اذا فعل أحدنا أمرا وفيه نصح للدين ومصلحة للمسلمين لاينكر عليه ذلك ويجيزله الأمير مافعل فاخبرنى عن أمرك وشأنك . قال لا يكلمنى الا أمير القوم ، وان كان عنده خوف منى ألقيت سلاحى . فقال المقداد وقد ضحك من كلامه ويحك ياعدوّ الله لوكنت أنت وأمثالك بأسلحتهم مافكرنا فيهم ، وان الواحد منا لو وقع فى ألف منكم لتلقاهم بنفسه ولا أهمه ذلك والمعونة من الله تعالى فانا وطنا أنفسنا على الموت ونعلم أن هذه الدنيا فانية ولا يبقى الا وجه الله تعالى فاسألنى عما بدالك . فقال له لاأسمع الا كلام الأمير فدع عنك كثرة المطاولة . قال المقداد ان لنا أميرين : أحدهما متولى الأمر والآخر قائد الجيوش فأىّ أمير تريد . قال أخبرنى بأسمائهما ؟ قال أما الذى هو متولى الأمر فيسمى عمرو بن العاص والآخر يسمى خالد بن الوليد . قال انى أريد خالدا فانى سمعت عنه أمورا وأحوالا وان الروم تتحدث عنه بعجائب كثيرة .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان الملعون قد سمع بذكر خالد وفراسته وقال فى نفسه لعلى أغدره فانى ان قتلته كان لى الفخر على جميع الروم وينكسر بذلك ناموس العرب وان لم أقدر عليه أسمع مايقول من خطابه ، قال فعند ذلك لوى المقداد عنان جواده ورجع الى خالد ، فعند ذلك قال خالد لأصحابه إن المقداد قد رجع وان عدوّ الله لايريد الاإياى . فان طلبنى مضيت اليه ، وان رأيت منه غدرا أخذت روحه من بين كتفيه وأستعين عليه بالملك العلام .

[قال الراوى] فبينما خالد يتحدّث بهذا الكلام اذا بالمقداد قد وصل وأعلم عمرا وخالدا بما وقع ، فعندها خرج خالد رضى الله تعالى عنه مبادرا عليه لامة حربه فتعلق به أكابر أصحابه فقال انه لابدّ له من الخروج اليه ، ثم خرج مبادرا حتى وقف بين يديه ، فلما رأى خالدا قد وصل اليه احترز على نفسه وأراد أن يخدع خالدا ويهجم عليه . فقال خالد : أيها البطريق ها أنا خالد سل حاجتك والذى جئت به وإياك والمخادعة فانى جرثومة الخداع . فقال بواص ياخالد اذكر لى الذى تريد وقرّب الأمر بيننا وبينكم واحقن دماء الناس واعلم أنك مسئول عن ذلك وواقف غدا بين يدى الله عزّ وجل ، فان كنت تريد شيئا من الدنيا فلن نبخل به عليكم وندفعه صدقة منا اليكم ، لانه ليس عندنا فى الأمم أضعف منكم حالا ، وقد علمنا أنكم كنتم فى بلادكم قبل أن تفتحوا البلاد فى قحط وجوع وتموتون هزالا وقد ملكتم بلادا وشبعتم لحما وركبتم خيولا مسوّمة وتقلدتم بسيوف مجوهرة وسعدتم بعد فقركم وفاقتكم ، فان طلبتم منا شيئا أعطيناكم إياه بطيبة قلوبنا فلا تطمعوا فى بلادنا كما طمعتم فى غيرها واقنعوا منا بالقليل . قال فلما سمع خالد مقالته قال ياكلب النصرانية وأخس من غمس فى ماء المعمودية انه قد بعث الله الينا نبينا فهدانا من الضلالة وأنقذنا من الجهالة ، واننا قد ملكنا الله بأيدينا ما أغنانا به عن صدقتكم وأحل لنا أموالكم وأباح لنا نساءكم وأولادكم الا أن تقولوا لاإله إلا الله محمد رسول الله ، فان أبيتم ذلك فتؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، فان أبيتم ذلك فالسيف حكم بيننا وبينكم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين والله ينصر من يشاء ، وان الحرب والقتال أحبّ الينا وأشهى من الصلح ، وان كنتم تزعمون انه لم تكن أمة أضعف منا عندكم فأنتم عندنا بمنزلة الكلاب ، فان الواحد منا يقاتل منكم ألفا ، وان هذا ليس بخطاب من يطلب الصلح ، فان كان هذا الطمع ترجو به

أن تصل الىّ بانفرادى عن أصحابى فذلك منك بعيد ، وان أردت القتال فدونك فانى كفء لك ولأصحابك ان شاء الله تعالى ، فلما سمع بولص كلام خالد وثب فى سرجه وقال ليس لك عندى الا هذا السيف ، ثم جرد سيفه ودنا من خالد رضى الله تعالى عنه وشابكه وضرب بيده فى درعه ومنطقته ووثب كل منهما على الآخر واستغاث الملعون بأصحابه وقال لهم بادروا الىّ فقد أمكننى الصليب من أمير العرب فابتدر اليه البطارقة من كل جانب وخرج كردوس عظيم أكثر من مائتى فارس وجردوا السيوف وأتوا الى خالد رضى الله تعالى عنه ، فلما رآهم خالد مقبلين اليه وثب وثبة الأسد وصاح بجواده وانتزع نفسه من البطريق بعد ان أحاطت به الروم وجاء كردوس ثان وخالد يضرب فيهم يمينا وشمالا وعدوّ الله بولص يصيح ويقول ياويلكم خذوه قبل أن يفوتكم قال وكان ضرار والفضل بن العباس وعلى بن عقيل وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن طلحة وعبد الله بن المقداد وسلمان بن خالد رضى الله عنهم على كثيب قريب من الروم ، فلما رأوا الروم والسيوف بأيديهم وقد أحاطوا بخالد ركضوا خيولهم ، وكان أول من ابتدر للحرب ضرار بن الأزور رضى الله تعالى عنه وهو ينشد :

عليك ربى فى الأمور المتكل ... اغفر ذنوبى ان دنا منى الأجل
يارب وفقنى الى خير العمل ... وعنى اخ سيدى كل الزلل
أنا ضرار الفارس القرم البطل ... باهى على الأعداء أضحى المتصل
أقمع بسيفى الروم حتى يضمحل ... مالى سواك فى الأمور من أمل

[قال الراوى رحمه الله] حدثنا رفاعة بن قيس . قال حدثنا حامد بن عياض عن أبيه عن جده عن نافع بن علقمة الربعى . قال كنت فى القلب فى عسكر عمرو يوم وقعة الروم بمرج دهشور . قال بينما نحن ننظر إذ رأينا السيوف جذبت وأحاطت بخالد بن الوليد فخرجنا كردوسا من أجاويد الرجال من طرف الميمنة وبادرناهم ولحقناهم واذا قد سبق من ذكرنا يعنى ضرارا والجماعة المذكورين ، فكان أول من قدم على الروم ضرار وهو عريان بسراويله قابضا على سيفه وهو يزأر كالأسد والقوم من ورائه متبعوه حتى وصلوا وضرار أمامهم وهو واثب على جواده وثبة الأسد مسرعا وهو يهز السيف وهو زاحف على بولص فارتعدت فرائصه . وقال ياخالد دعنى من هذا الشيطان واقتلنى أنت ولا تدعه يقتلنى فانى أتشاءم من طلعته . فقال هو قاتلك لامحالة : هذا مبيد الأقران ، هذا قاتل وردان وملك التركمان ومبيد عبدة الصلبان ومن يكفر بالرحمن ، فبينما هم فى المحاورة واذا بضرار قد أقبل وهزّ سيفه وصرخ : ياعدوّ الله لم تغن عنك خديعتك شيئا ولاغدرك بصاحب رسول الله ﷺ ، ثم أراد أن يضربه بسيفه فصاح به خالد اصبر ياضرار حتى آمرك بقتله ، ووصلت اليه أصحاب رسول الله ﷺ وكل يبادر الى قتله ، فقال لهم خالد اصبروا . قال ونظر بولص لعنه الله الى ماحلّ به وقد جذبه ضرار من قربوس سرجه واقتلعه وجلد به الأرض فغشى عليه فأشار بأصبعه وقال الأمان الأمان ياخالد . فقال له خالد : ياكاب النصرانية لايعطى الأمان إلا لأهل الأمان أنت رجل أردت أن تمكر والله خير الماكرين ، فلما سمع ضرار ذلك لم يمهله دون أن ضربه بالسيف على عاتقه الأيمن ، فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر فسقط عدوّ الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار وتبادرت أصحاب رسول الله ﷺ ووضعوا السيف فيهم ، فلما رأى الروم ماحل بهم حملوا بأجمعهم وتقدمت

أصحاب الفيلة وعلى ظهورها الرجال والتقى الجمعان واصطدم الفريقان واشتد القتال وعظم النزال وصفت الصفوف وازدحمت الألوف وتلفت النفوس وقطعت الرؤوس وبطل القيل والقال وقتلت الرجال وزمجرت الأبطال واشتد القتال واتسع المجال وعظم البلاء واسودت السماء وثار الغبار وقدحت حوافر الخيل الشرار وطمطمت السودان وكفروا بالرحمن وثار العجاج وزمجرت الاعلاج وقاتلت أصحاب الفيلة قتالا شديدا وقد قسموهم أربع فرق : فرقة مما يلى الميمنة ، وفرقة مما يلى الميسرة ، وفرقة مما يلى القلب ، وفرقة مما يلى العسكر وتصايحت النوبة والبجاوة والروم ، فلله در خالد بن الوليد لقد قاتل قتالا شديدا ، فكان تارة فى القلب وتارة فى الميمنة وتارة فى الميسرة ، وكذلك الأمير عمرو بن العاص والزبير بن العوام والفضل بن العباس الهاشمى والقعقاع بن عمرو التميمى وغانم بن عياض الأشعرى رضى الله تعالى عنهم على الساقة مع النساء والولدان والذرارى والصبيان وانقطع عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وهاشم بن المرقال الى كردوس ينوف على ألف فارس من الروم والسودان فغاصوا فى أوساطهم ، وكان فيهم بطريق من بطارقة الكورة اسمه عرنان بن ميخائيل ، فلما رأى ما حل به وبأصحابه بادر الى الصليب ليقبله وينظر اليه ، ثم رطن الروم بلغتهم وأحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ وأرادوا أن يتمكنوا منهم ، فعندها وثب عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما الى ذلك البطريق فحمل عليه وكان عليه ديباجة صفراء من فوق درعه ، وعلى رأسه بيضة تلمع كأنها كوكب وفى وسطه منطقة من الجوهر فتعاركا مليا وتصادما سويا ، ثم ان عبد الرحمن ضربه بالسيف فى نحره فأطاح رأسه عن بدنه ، فلما رأى الروم ذلك حملوا على عبد الرحمن وأصحابه بأجمعهم حملة واحدة وصبر لهم أصحاب رسول الله ﷺ ، وكل منهم مشتغل بنفسه عن نصرة صاحبه وأيقنوا بالهلاك ، وخرج عبد الرحمن وفى يده جرح هائل والدم يسيل على درعه فتناول السيف بيده اليسرى وجعل يقاتل بها وجرح هاشم بن المرقال أحد عشر جرحا فى يده وفى وجهه وهو يمسح الدم مرارا فأيقنوا بالهلاك ، وكان الفضل بن العباس وبنو عمه ممن ذكرنا تارة فى الميمنة وتارة فى الميسرة وحملوا فى عراض القوم حتى وصلوا الكردوس الذى فيه عبد الرحمن وعبد الله بن عمر وهاشم بن المرقال فوجدوا الروم قد أحاطوا بعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وعقروا جواده من تحته وأصحابه يذبون عنه وعبد الله بن عمر تارة يمنع عنه بالسيف وتارة بالرمح وجراحاته تتدفق دما ، وقد جرح عبد الله بن عمر فى يده ست جراحات هائلة ، فلما رأى الفضل ذلك بادر هو وأصحابه وكانوا عشرين فارسا وخرقوا الصفوف وضرب فارسا ممن أحاط بعبد الرحمن على رأسه فقطع البيضة ونزل الى أضراسه فانجدل صريعا يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار ، فلما سقط عن جواده ابتدره عبد الرحمن وركب الجواد وقاتلوا أولئك حتى دفعوهم عن أصحابهم ، وكانت جماعة من الأوس وهمدان مما يلى الجناح الأيسر فعطف عليهما كردوس من الروم والسودان فأزالوهم عن أماكنهم وكشفوهم عن مراتبهم وفروا بين أيديهم ، فصاح بهم أبو هريرة رضى الله عنه وابنه عبد الله ومالك ابن الأشتر ياقوم لاتولوا فرارا من الموت أتريدون أن تكونوا عارا عند العرب فما عذركم غدا بين يدى رسول الله ﷺ ؟ أماسمعتم قول الله عز وجل — فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره — الآية : الله الله الجنة تحت ظلال السيوف والموعد عند قبر المصطفى . قال فلم

يلتفتوا اليهم ولم يقبلوا كلامهم ووصلت الهزيمة الى غانم بن عياض الأشعرى وأصحابه والنساء والصبيان ، فلما رأت النساء ذلك صحن فى وجوههم وفعلن كما فعلن يوم اليرموك وصرن يضربن وجوه الخيل بالأعمدة وقاتلت خولة بنت الأزور قتالا شديدا ، فلما رأى غانم ذلك ، وكان معه قيس بن الحرث ورفاعة بن زهير المخزومى وخمسمائة فارس من أهل العدّة والنجدة صاح غانم النجدة النجدة يا أصحاب رسول الله فتواثبوا اليهم وحملوا عليهم حملة واحدة بصدق نية وثبات ، فلما رأوا ذلك ولوا منهزمين .

[قال الواقدى رحمه الله] ولم يزل السيف يعمل فى الرجال من أوّل النهار الى وقت العصر وأنزل الله النصر على أصحاب رسول الله ﷺ وكانت الأفيال والرجال الذين على ظهورها تضرب أصحاب رسول الله ﷺ بالنشاب فجاء مفرج بن عيينة الفزارى الى فيل مقدم على أربعمائة فيل فطعنه فى احدى عينيه فاشتبك الرمح فى عينه وماقدر ان يجذبه فبرطع الفيل هاربا وألقى ماعلى ظهره من الرجال وداسهم برجليه فقتلهم فتبعته الفيلة التى خلفه ، وألقت ماعلى ظهورها من الرجال وداستهم بأرجلها فصاح مفرج دونكم وخراطيمها ومشافرها فانها مقاتلها فابتدر بنو فزارة وبنوا قراد وبنو عبس يضربون مشافر الفيلة حتى قتلوا منها مائة وستين فيلا وقتلوا من على ظهورها من الرجال ولم تزل القوم فى الكرّ والفر والقتال الشديد حتى جاء الليل وحجز الفريقين ورجعت الروم والسودان الى أماكنهم وتفقد المسلمون من قتل منهم فاذاهم مائتان وأربعون رجلا ختم الله لهم بالشهادة وتفقد المشركون قتلاهم فاذاهم خمسة آلاف من النوبة والبجاوة والروم فبات المسلمون يتحارسون الى الصباح ويقرءون القرآن ويدفنون قتلاهم ، فلما أصبح الصباح وقاموا الى اصلاح شأنهم اذا بالروم والسودان قد أقبلوا بعددهم وعديدهم ، وقد أظهروا زينتهم واصطفوا خمسة صفوف كل صف أربعون ألفا والمشاة بين أيديهم خمسون ألفا . قال قيس بن علقمة : لقد دخلت الشام والعراق ورأيت جنود كسرى والجرامقة واليرموك وأجنادين ووقعة مصر والقبط وفتح اسكندرية ودمياط فلم أر مثل كسرتهم فى مرج دهشور ، فلما رأيناهم وقد ركبوا ركب خالد وجعل يتخلل الصفوف ويقول لهم انكم لستم ترون بمصر والصعيد جيوشا بعد هذا اليوم مثل هؤلاء وان كسرتموهم فلاتقوم لهم قائمة أبدا فاصدقوا فى الجهاد وعليكم بالصبر واياكم أن تولوا الأدبار فتستوجبوا بذلك النار وألصقوا المناكب ولاتحملوا حتى آمر بالحملة .

[قال الراوى رحمه الله تعالى ورضى عنه] وان البطارقة لما رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عوّلوا على ضربهم شجع بعضهم بعضا ، وقال لهم بطرس أخو بولص المقتول اعلموا انكم ان انكسرتم لاتقوم لكم قائمة بعد هذا أبدا ويملكون بلادكم ويقتلون رجالكم ويسبون حريمكم وعليكم بالصبر ولتكن حملتكم واحدة ولاتتفرّقوا وقدموا الفيلة أمامكم ، والرجالة خلف ظهوركم واستعينوا بالصليب فهو ينصركم .

[قال الراوى] وأما عمرو وخالد فانهما قالا نريد من يكشف لنا عن القوم ويعود فوثب الفضل ابن العباس رضى الله عنهما وقال أنا ، فسار حتى قرب من القوم ورأى زيهم وأهبتهم ورأى شعاع البيض والبيارق والرايات كأجنحة النسور ، فلما رآه القوم قالوا فارس قد طلع ولاشك انه طليعة فايكم يبتدره فابتدره ثلاثون فارسا ، فلما نظرهم ولى كأنه منهزم وركض قليلا حتى بعد ثم لوى عنان الجواد

نحوهم وطعن أوّل فارس والثانى والثالث فدخل رعبه فى قلوبهم ، فانهزموا وتبعهم وهو يصرع فارسا بعد فارس حتى صرع منهم عشرين فارسا ، فلما قرب من الروم ولى راجعا إلى المسلمين وأعلمهم بذلك ، فقالوا له غررت بنفسك يابن عم رسول الله ، فقال ان القوم طلبونى وخفت أن يرانى الله منهزما فجاهدت باخلاص فنصرنى الله عليهم ، واعلموا أنهم لناغنيمة إن شاء الله تعالى .
قال فأقبل عمرو وخالد يرتبان العساكر ميمنة وميسرة وجناحين كما تقدم فى اليوم الأوّل ، فجعل فى الساقة زياد بن أبى سفيان بن الحرث فى ألف فارس حول البنين والبنات والأموال ، وكانت فيهم النساء اللاتى تقدم ذكرهن فى أجنادين واليرموك ، وهنّ : عفيرة بنت غفار وأم أبان بنت عتبة أخت هند وخولة بنت الأزور ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت ذراع ولبنى بنت سوار وسلمى بنت النعمان وهند بنت عمرون وزينب الأنصارية ، فهؤلاء من النساء اللاتى عرفن بالشجاعة ، فقال لهن خالد يابنات العرب لقد فعلتن فعالا أرضيتن الله ورسوله والمسلمين بها وقد بقى لكن ذكر يتحدث به جيلا بعد جيل وهذه أبواب الجنان قد فتحت لكن وأبواب النيران ، قد فتحت لأعدائكن ، وانى أحرضكن اذا جاءت الروم والسودان إليكن فقاتلن عن أنفسكن كما قاتلتن فى يوم أجنادين ويوم اليرموك . فان رأيتن أحدا هاربا فدونكن واياه بالعمد وأشرفن عليه بولده وقلن له إلى أين تولى عن أهلك وولدك وحريمك وحرضن المسلمين على ذلك ، فقلن أيها الأمير مايفرّحنا إلاأن نموت أمامك ياأبا سليمان لنضربنّ وجوه الروم والسودان حتى لايبقى لنا عذر . قال فشكرهن على ذلك . ثم عاد خالد إلى الصفوف ، وجعل يدور بينها بجواده ويحرض الناس على القتال ، وهو يقول : أيها الناس انصروا الله ينصركم ، وقاتلوا من كفر واحبسوا أنفسكم فى سبيل الله واصبروا على قتال أعداء الله ، وقاتلوا عن حريمكم وأولادكم ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة ولتكن سهامكم تخرج من كبد قوس واحدة ، فان السهام إذا خرجت جميعا لم يخل أن يكون فيها سهم صائب — واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون — واعلموا أنكم لاتلقون بالوجه القبلى مثل هؤلاء اللئام فانهم حماتهم و بطارقتهم وملوكهم ، فقالوا سمعا وطاعة ، وأقبل خالد ووقف فى القلب مع عمرو بن العاص وعبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم وقيس بن هبيرة ورافع بن عميرة الطائى والمسيب بن نجيبة الفزارى وذوى الكلاع الحميرى وربيعة بن عباس ومالك بن الأشتر والعباس ابن مرداس السلمى ونظائرهم من بقية الأمراء . ثم زحفوا بسكينة ووقار . فلما رأى الروم ذلك والسودان زحفوا وكانوا ملء الأرض طولا وعرضا ، فلما التقى الفئتان ، وتراكم الجمعان ، وقد أظهر أعداء الله فى زينتهم الصلبان والأعلام ، ورفعوا أصواتهم بالكفر والبهتان ، فبينما الناس كذلك اذ خرج راهب كبير عليه جبة سوداء وقلنسوة وزنار فنادى بلسان عربى أيكم أمير القوم فيخاطبنى ويخرج الىّ فخرج اليه خالد . فقال له أنت أمير القوم . قال خالد كذلك يزعمون مادمت على طاعة الله وسنة رسوله . فان أنا بدلت أوغيرت فلا طاعة لى عليهم ولا امارة . فقال القس اعلم انكم قد ملكتم بلادا وقدمتم الى بلاد ماجسر ملك من الملوك أن يتعرض لها ولايدخلها ، وان ملوكا كثيرة أرادوها فرجعوا خائبين وأفنوا أنفسهم عليها ، وان النصر يدوم لكم وان الملوك أرسلونى اليكم . فان سمحتم نجمع لكم مالا ونعطى لكل واحد منكم ثوبا وعمامة ودينارا ولك أنت

مائة ثوب ومائة عمامة ومائة دينار ولكل واحد حمل من البر رحل من الشعير ولك عشرة أحمال ولصاحبكم عمرو عشرة آلاف دينار ومثلها ثياب ومثلها عمائم ومائة حمل بر ومائة حمل شعير وارحلوا عنا وأنتم موقرون أنفسكم ، فاننا عدد الجراد ولا تظنونا كمن لاقيتم من الفرس والروم وأهل الشام والقبط . فان فى هذا الجيش من النوبة والبجاوة والسودان والروم وكبار البطارقة والأساقفة ونجمع عليكم مالاطاقة لكم به من بلاد السودان والواحات وكأنكم بالنجدة قد وردت علينا وان بقية الروم لم تأت إليكم ، وانما أرسلوا من يقاتل عنهم ، فقال خالد والله مانرجع عنكم إلا باحدى ثلاث خصال : اماان تدخلوا فى ديننا أوتؤدوا الجزية أوالقتال ، وأما ماذكرت انكم عدد الجراد فالله قد وعدنا بالنصر على لسان نبيه ﷺ وأنزله فى كتابه ، وأما ماذكرت أنكم تعطوننا من الثياب والعمائم فعن قريب نلبس ثيابكم وعمائمكم ونملك بلادكم جميعها كما ملكنا الشام ومصر والعراق واليمن والحجاز والروم ، فقال الراهب أنا أرجع وأخبر أصحابى بذلك . فانى قد أتيت من قبل البطليوس صاحب مدينة البهنسا ، وقد أرسلنى إلى صاحب أهناس واتفق الملوك والبطارقة وأرسلونى إليكم ، وأنا أرجع إليهم وأخبرهم بجوابك . ثم ان القس لوى راجعا من حيث جاء ، فلما رجع اليهم وأخبرهم بذلك كاتبوا ملوكهم على ذلك وأرسلوا جوابهم بالقتال ، فلما وصلت الكتب تقدمت الروم والسودان وقدموا بين أيديهم الفيلة وأمامهم الرجالة بالقسى والسيوف والدرق والمزاريق فصاح الفضل بن العباس ورفاعة بن زهير المحاربى والقعقاع بن عمرو التميمى وشرحبيل بن حسنة والمقداد ابن الأسود الكندى ومعاذ بن جبل ، وقالوا معاشر المسلمين اعلموا أن الجنان قد فتحت والملائكة قد أشرفت والحور تزينت وأشرفت من الجنان ثم قرأ — أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة — . ثم رتبوا الصفوف فتقدم خالد ، وقال اقرنوا المواكب واثبتوا واعلموا ان هؤلاء أكثر منكم بعشرة أمثالكم وأزيد فطاولوهم إلى وقت العصر . فانها ساعة النصر على الأعداء وإياكم أن تولوا الأدبار وازحفوا على بركة الله وعونه .

[قال الراوى] وتزاحمت السودان والبربر والنوبة والبجاوة ، فلما تقارب الجمعان رمت أصحاب الفيلة نشابهم فكانت كالجراد المنتشر ، فقتلوا رجالا وجرحوا أبطالا وخالد تارة يضرب بسيفه فى الميمنة وتارة فى الميسرة وكان فى أصحاب الفيلة من السودان والبربر سواكن يسمونهم القواد شفاههم العليا مشقوقة وبها خزام من نحاس . فاذا كان وقت الحرب لايخرجون القواد إلا إذا حمى الحرب واشتدا الطعن والضرب وكانوا سودا طوالا طول كل واحد منهم عشرة أذرع فاذا أرادوا الحرب جعل فى كل خزام سلسلة بطرفين فى كل طرف منها واحد من البربر . فاذاوقع صلح بين الفريقين وإلا زحفوا بهم وأطلقوا السلاسل ودفعوا لهم أعمدة من حديد طوالا فيضرب الواحد الفارس والفرس فيقتلهما بضربة ومنهم من يركب الفيلة ويقاتل على ظهورها ، فلما التقى الجمعان خرجت تلك القواد وعلى أجسادهم جلود النمور وفوق أكتافهم مربوطة على صدورهم وفى أوساطهم مثل ذلك وهم عراة الأجساد والرؤوس ليس عليهم غير ماذكرنا وبأيديهم الأعمدة والرجال يقودونهم بتلك السلاسل والجيوش ينظرون متى يؤمرون بالحملة . فلما رأى المسلمون ذلك فنهم من ثبت ومنهم من جزع . قال وبرز البطريق أخو بولص المقتول وهو

راكب على جواد عال وعليه لحاف من جلود الفيلة وقاتل .

[قال الراوى] حدثنى خالد بن أسلم عن طريف بن طارق وكان من الأزد . قال لما فعل البطريق ذلك ولت الازد من بين يديه منهزمين ، واذا بفارس قد أقبل يركض بجواده ، وهو عارى الجسد حتى قرب من القوم ، وأنشد يقول :

لقد ملكت يدى سنانا وصارما … أذل عداة السوء ان جئت قادما
وأتركهم شبه الرخام اذا مشى … عليه شجاع لايزال مصادما
وإلا كأغنام مضين بقفرة … وأصبح مولاها عن السعى نائما
وقد ملك الليث الغضنفر جمعها … وأصبح فيها بالمخالب حاطما

[قال الراوى رحمه الله تعالى] وصاح الفارس . أنا ضرار بن الأزور . أنا قاتل ملوك الشام أنا ناصر دين الاسلام ، والمسلط على من يكفر بالرحمن ، أناقاتل بولص الكلب ذى الطغيان . قال فلما سمع الروم كلامه عرفوه فتقهقروا الى ورائهم فطمع فيهم وحمل عليهم ، فقال بطرس من هذا البدوى الذى لم يزل عارى الجسد و يقاتل بالسيف مرة و بالرمح مرة . قالوا هذا ضرار ابن الأزور فتحير الملعون ، وقال هذا قاتل أخى ، ولقد اشتهيت أن آخذ بثاره ، ثم عزم على الخروج اليه فسبقه بولص رأس بطارقه الكورة ، وقال أنا آخذ بثارك . ثم حمل على ضرار فتجاولا طويلا واعتركا مليا فما كان أكثر من ساعة حتى طعنه ضرار طعنة صادقة فى صدره خرقت الدروع ، وخرجت من ظهره فانجدل صريعا وعجل الله بروحه الى النار ، فقال بطرس هذا جنى وليس للانسان أن يقاتل الجن ، ثم لبس لامة حربه وتعصب بعصابة من اللؤلؤ الرطب ولبس فوق ذرعه مثل ذلك وخرج يطلب ضرارا فسبقه شذم ادرس أحد بطارقة الكورة وحلف لايخرج اليه غيره وحمل على ضرار ، وقال دونك والقتال فلم يفهم ضرار مايقول . ثم حمل عليه وأخرج صليبا من الذهب كان معلقا فى عنقه فضحك ضرار عليه ، وقال أنت تستعين بالصلبان وأنا أستعين بالملك الديان ، ثم أرى كل منهما ماأدهش الناس من الحرب فصاح خالد و بقية الأمراء ماهذه الفترة ياضرار والجنة قد فتحت لك ولعدوك قدفتحت النار ، فاستيقظ ضرار وحمل على البطريق وصاحت الروم بصاحبها وصاروا فى حرب عظيم وحميت عليهم الشمس ، وثار الحرب حتى كل منهما الساعدان وعرق من تحتهما الجوادان فأشار البطريق الى ضرار ان يترجل و يترجل البطريق معه شفقة على الجوادين ، واذا برأس بطارقة أهناس قد أخرج له جوادا مجللا بالحرير ليركبه ، فلما نظر ضرار الى ذلك صاح بجواده أثبت معى هذه الساعة والا أشكوك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فذرفت عين الجواد بالدموع وحمحم وجرى أكثر من جريه المعتاد وتلقى ضرار البطريق وحمل عليه وطعنه بعقب الرمح فأرداه وأخذ جواده وأراد قتله ، واذا بكردوس خرج من الروم ومعهم الكلب الكبير شاول أحد بطارقة الأشمونين وأحاطوا بضرار وكان على رأس شاول تاج من الذهب الأحمر ، فلما رأى الصحابة الكردوس الذى خرج على ضرار والتاج يلمع على رأسه . قالوا لخالد ماسبب قعودنا عن نصرة صاحبنا ، وقد أحاطت به الروم ، فعندها خرج خالد رضى الله عنه فى عشرة من خيار قومه وهم الفضل بن العباس بن عبد المطلب وأخوه وعبدالله بن جعفر ومسلم وعلى أولادعقيل وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالرحمن بن أبى بكر

الصديق وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن المقداد وقوّموا الأسنة وأطلقوا الأعنة وصبر ضرار للروم حتى وصلت اليه الأمراء ، وقالوا أبشر ياضرار فقد أتاك النصر والفرج وقد ذهب عنك الخوف والجزع فلاتخف من الكفار واستعن بالله الواحد القهار ، فقال ضرار ماأقرب الفرج من الله والتقت الرجال بالرجال وطلب خالد صاحب التاج والعصابة وضرار مع خصمه ، فلما رأى شاول البطريق المسلمين قد أحدقوا به ومااحل بجماعته اندهش وارتعد ، هذا وضرار مع خصمه وقد أراد الهرب فألقى ضرار نفسه من على جواده وتبعه حتى لحقه . ثم رمى الرمح من يده وتواخذا بالمناكب وتصارعا وكان عدوّ الله كأنه قطعة من جبل وضرار نحيف الجسم غيران الله أعطاه حولاوقوة ، فلما طال بينهما العراك ضرب ضرار بيده فى بطن عدوّالله فقلعه وجلد به الأرض فصاح يستنجد بالبطارقة وتصارخت الروم والسودان وأصحاب رسول ﷺ فلم يمهله ضرار دون أن ركب عليه ، وهو يعج كالبعير ، فعندها أظهر ضرار سيفه ومكنه من نحره فقتله فزعق زعقة سمعها العسكران فحملت الروم والسودان ، هذا وضرار قد احتز رأسه وقام عن صدره وهو ملطخ بالدماء . ثم كبر المسلمون ودنا الفريقان بعضهم من بعض والتحمت الأبطال ، وقوى القتال ، وعظم النزال ، وسال العرق ، وازورّت الحدق ، وعظمت الرزايا ، وأظلمت الدنيا ، ودارت رحى الحرب ، وقوى الطعن والضرب ، وضاقت الصدور ، واشتدت الأمور ، وضاقت المذاهب ، وقطعت المناكب ، وماكنت ترى الادما فائرا ، وكفا طائرا ، وجوادا غائرا هذا وقد زحفت السودان ، وأصحاب السلاسل ذو والكفر والطغيان ، وضربوا بالاعمدة الحديد ، ويومهم يوم شديد ، وبانت الشجعان ، وفر الجبان ، وبقى حيران ، هذا وعمرو بن العاص يحرض الناس على القتال ، ويقول : ياأيها الناس وياحملة القرآن اذكروا غرف الجنان ، فسر الناس بقوله ونشطوا وصارت السودان يضربون الفارس مع الفرس بالعمد الحديد فيقتلونهما جميعا ، وكذلك أصحاب الفيلة يرمون بالنشاب ، ويضربون بالحراب الى ان جاء وقت العصر ، وقد قتل من الفريقين خلق كثير وظفر خالد بخصمه شاول لعنه الله وضربه بالسنان فى صدره فخرج السنان يلمع من ظهره ، ووقع على الأرض يخور فى دمه ، وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار . قال ولماعظم القتال والبلاء . قال رفاعة المحاربى ، وقد انتخب من بنى محارب ولبيد ومالك خمسمائة فارس وقصد الفيلة ، وقال ياوجوه العرب دونكم وأعينها ودنا من الفيل الأبيض ، وهو قائدها وهى خمسمائة فيل وتقدم اليه والسيف فى يده ، وهو ينشد ويقول :

يالك من ذى جثة كبيرة　　لقيت كل شدة خطيره
اليوم قد ضاقت بك الحظيره　　حتى ترى ملقى على الحفيره

قال ثم ضربه بالسيف فولى هاربا . ثم برك وكان عليه عدة من السودان فى قبة من الأديم فلما سقط الفيل الى الأرض قام علج عن ظهره وفى يده عمود فضرب به رفاعة فزاغ عنه وضربه رفاعة على عاتقه الأيمن فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر فسقط عدوّ الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار فتلاحقت العرب بأعجاز الفيلة وصاروا يطعنون الفيلة فى أعينها كما ذكرنا فولوا منهزمين . قال وقصد خالد والمقداد وأجواد الأمراء القواد الذين تقدم ذكرهم وطلبوا من الله النصر والثبات وصاروا يأتونهم وهم فارس عن اليمين وفارس عن اليسارفيقتلون مساك السلاسل

ثم يمسكون أطراف السلاسل و يطلقون الأعنة فينقاد معهم كالبعير الشارد فيأخذون العمود من يده و يقتلونه شر قتلة ولم يزل القوم فى قتال ونزال وأهوال حتى جاء الليل وحجز بين الفريقين وقد قتل من الفريقين خلق كثير فأما المسلمون فقد قتلوا منهم اثنى عشر ألفا من الملوك والبطارقة خمسة عشر بطريقا وملكامن السودان وغيرها ، و بات المسلمون يتحارسون الى الصباح .

[قال الراوى رحمه الله] وكان قد أثخن بالجراح جماعة من المسلمين فى ذلك النهار وكان المسلمون طائفة يدفنون القتلى ، وطائفه يداوون الجرحى ، وطائفة يقرءون القرآن ، وطائفة يصلون وطائفة نيام من كثرة مالحقهم من التعب ، وخالد بن الوليد والزبير بن العوّام والمقداد ابن الأسود وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم يدورون حول العسكر الى الصباح ، فلما لاح الفجر أذن المؤذنون وصلى عمرو بن العاص بالناس الصبح بسورة الفتح . ثم دعوا الله عز وجل أن يرزقهم النصر . ثم تبادروا الى خيولهم فركبوها ورتبوا صفوفهم كما ذكرنا فيما تقدم بالأمس ، فلما فرغ المسلمون من تعبية الصفوف أقبل الأمراء يحرضون الناس على القتال وقد جعلوا على الساقة رافع بن عميرة الطائى والحرث بن قيس ورفاعة بن زهير فى خمسمائة فارس .

[قال الراوى] قال عبادة بن رافع حدثنا سالم بن مالك عن عبد الله بن هلال وكان فى خيل رافع . قال لما رتبت الصفوف والتقى الجمعان وكثر القتال وكل واحد اشتغل بنفسه ونحن نذب عن النساء والصبيان ، والنساء اللاتى تقدم ذكرهن يقاتلن أشد القتال إذ جاءنا كردوس عظيم من البطارقة والسودان والبجاوة ومعهم زهاء من ستمائة فيل وغافلونا ونحن مشغولون بالقتال واقتطعوا قطعة كبيرة من الابل والرجال والنساء والصبيان زهاء من ألف بعير ومائتى امرأة وغير ذلك ، وكان فى ذلك زائد بن رباح البكرى وعباد بن عاصم الغنوى ومعهما مائتا فارس فقاتلوا قتال الموت حتى أثخنوا بالجراح وقاتلت النساء بالأعمدة والسيوف والخناجر ، فلله در عفيرة بنت غفار وسلمى بنت زاهر ونظائرهما من النساء لقد قاتلن حتى ضربن بالسيف على رؤوسهن وسالت الدماء على وجوههن وهن يقلن الله الله يانساء العرب قاتلن عن العسكر وعن أنفسكن و إلا صرتن بأيدى الأعلاج الغلف والسودان فقاتلن قتال الموت وقتل من المسلمين خمسة عشر نفرا ختم الله لهم بالشهادة وساقوا النساء والصبيان فرجع فارس الى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأعلمهما بذلك وهم فى أشد القتال فتصايحت المسلمون وخرج جماعة من الأمراء من وسط المعركة وهم الفضل بن العباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق وزياد بن أبى سفيان وعبد الله بن أبى طلحة وضرار بن الأزور وجماعة من الأمراء وتبعهم ستمائة فارس من العرب من صناديد القوم وأدركوهم عند أول الجبل وهم يريدون جهة الفيوم ، فعند ذلك زعق ضرار والفضل بن العباس الى أين يا أعداء الله ؟ فتراجعت الروم والسودان عنهم واقتتلوا قتالا شديدا فابتدر ضرار الى مقدم السودان وطعنه فى صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره ، وكذلك الفضل ابن العباس تقدّم الى بطريق عظيم وطعنه فى لبته فأطلع السنان يلمع من قفاه فانجدل يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار . قال واستمروا يقاتلون حتى قتلوا مقتلة عظيمة ، فلما عاينوا ذلك ألقوا ما بأيديهم من الغنيمة وولوا وتواثب المسلمون وردوا السبى والحريم وردوا الأسارى وحلوهم وساعدتهم النساء بالأعمدة والسيوف والخناجر ، فكانت النساء يضربن وجوه الخيل بالعمد فيكبو

الجواد بصاحبه فتتعلق المرأة بالفارس وتجذبه الى الأرض فتجلد به الأرض ثم تضرب به فتقتله حتى قتلن جماعة من الروم والسودان والبجاوة وغيرهم . فلما رأوا ذلك ولوا منهزمين من بين أيديهم وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم نحو ستمائة أسير من الروم والسودان وزحفوا وقد غنموا أسلابهم وخيولهم .

[قال الواقدى رحمه الله] هذا ماجرى لهؤلاء ، وأما العسكر فانهم لم يزالوا فى قتال شديد وأمر عتيد وضرب وطعان وقتل رجال وجندلة أبطال وفرسان ، وقد قامت الحرب على قدم وساق وضربت الأعناق وصالت الشجعان وولى الجبان حيران ودارت رحى الحرب واشتد الطعن والضرب وقطعت المعاصم وطارت الجماجم وحامت طيور المنايا وعظمت الرزايا واشتد الزحام وعظم المرام وضاقت الصدور وعظمت الأمور واشتد الغبار وقل الاصطبار وقاتلت الأمراء بالرايات وبربرت السودان بلغاتها ورفعت الروم أصواتها وضربت ببوقاتها وطعنت برماحها ورمت بنشابها وحارت الأفكار وعميت الأبصار وثار الغبار وأظلم النهار ، وكان شعار المسلمين يانصر الله انزل وصبر المسلمون لهم صبر الكرام ، فلله در الزبير بن العوّام والمقداد ابن الأسود والفضل بن العباس وعقبة ابن عامر والمسيب بن نجيبة الفزارى ونظائرهم من الأمراء فلقد قاتلوا قتالا شديدا وأبلوا بلاء حسنا وصبروا صبر الكرام . وأما عمرو وخالد والقعقاع بن عمرو وسعيد بن زيد فلقد كانوا يقاتلون قتال الموت وزحفت الفيلة برجالها وقاتلت الروم بأبطالها والسودان بأفيالها ، وقد كانت أصحاب الفيلة تعطف على خيل العرب ويرمون بالنشاب فيخرج كالجراد المنتشر حتى قلعت أعين كثيرة فى ذلك اليوم فما كنت تسمع الامن يصيح واعيناه وهذا يصيح وايداه والفيلة تحطم والسودان يرمون الأبطال ، فعندها وثب رفاعة بن زهير المحاربى وأتى الى خالد وعمرو ، وقال أيها الأمراء ان دام هذا الأمر هكذا هلكنا عن آخرنا . قالا فما الرأى يا أبا حازم ؟ قال الرأى أن نجمع ثيابنا ونغمسها زيتا ودهنا ونجعلها على رؤوس الرماح ونجعل فى أعلاها نارا ، ثم نأمر رجالا يجمعون القيصوم وغيره ونجعله فى غرائر على ظهور الجمال عريا ونشغلهم بالقتال ، ثم تأتى الفرسان تمانعهم وتساق عليهم الجمال فانها اذا أحست بالنار حطمتهم فلايصبرون على ذلك والمعونة من الله تعالى فاستصوبوا رأيه وأعدوا رجالا لذلك وناوشوهم القتال فلم يكن الا ساعة حتى تهيأت المكيدة وجمعوا من الفرسان ألف فارس وصبغوا تلك الثياب بالدهن والزيت وأطلقوا النيران برؤوس الأسنة وحملوا الغرائر بالقيصوم وغيره وأشعلوا فيه نارا ووضعوا الحراب فى أجناب الابل ، فلما أحست بالحراب فى أجسامها والنار فى ظهورها فعندها حطمت الروم والسودان ، فلما رأت الفيلة ذلك طارت عقولها وقطعت سلاسلها وداست قوادها ورمت ماعلى ظهورها من الرجال وداستهم باخفافها ورجعت خيل الروم وبراذينها وهربت بغالها وذابت قلوب رجالها وضربت الأمراء فى الأعداء بسيوفها وطعنت برماحها ورمت بنشابها . قال المسيب بن نجيبة ولقد رأينا طيورا أظلتنا فى زى النسور وكان الطائر يرفرف بجناحه على وجه الكافر ورأسه ، ثم يضع مخاليبه فى عينيه فيرميه الى الأرض فلم تكن الا ساعة بعد صلاة العصر حتى ولت الروم الأدبار وركنوا الى الفرار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى جاء الليل وأظلم النهار ووصلت الهزيمة الى القرية المعروفة بالدير والى اللاهون والى أهناس والى ميدوم وتبعتهم المسلمون الليل كله الى الصباح وقد تفرق شملهم وشرد جمعهم

وأسر منهم جماعة كثيرة نحو خمسة آلاف ، وقتل منهم مالايحصى .

قال رافع بن أزد الجهنى لما رجعنا الى مكان المعركة وجدنا الأرض قد امتلأت من قتلى الروم والسودان والبجاوة وغيرهم واختلط جماعة من قتلى المسلمين بهم ماعرفناهم من الروم الاأن الروم كان بأيديهم صلبان ، والمسلمون ليس لهم ذلك فيزناهم منهم بذلك وجمعنا جريد النخل والقصب ووضعنا على كل قتيل جريدة أوقصبة وذلك فى مكان المعركة ، ثم جمعناها وحصرناها فاذا الكفار تسعون ألفا وقتل فى الجبال والطرقات مالايحصى وتفقد المسلمون من قتل منهم فاذاهم خمسمائة وثلاثون رجلا ، وجمعت المسلمون الغنائم والأموال ثم قسمت وأخرج عمرو منها الخمس وكتب كتابا بالفتح وماجمعه من الخمس واستدعى بالأمير هاشم بن المرقال رضى الله عنه وندب معه ثلاثين رجلا من خيار الجند وأمره بالمسير الى المدينة وأقام المسلمون بالمرج بعد الوقعة خمسة أيام حتى استراحوا ورجع من كان خلف المنهزمين ، ثم اجتمعوا الى عمرو واستأذنوه فى المسير الى الوجه القبلى فأذن لهم وودعهم ودعا لهم وقال يعز على فراقكم ولوأن أميرالمؤمنين لم يأمرنى بالمسير مافارقتكم ، ثم رجع معه ثلاثة آلاف ومائة وعشرون وكان جملة من قتل ثمانمائة وثمانين ختم الله لهم بالشهادة وقيل ألف وقيل تسعمائة وأربعون على اختلاف الرواة ، والله أعلم أى ذلك كان .

[قال الراوى رحمه الله تعالى] ما أخذت فى هذا الكتاب الا على قاعدة الصدق والمعونة من الله تعالى ، فلما ملكت المسلمون البلاد وأذلت أهل الشرك والفساد ، وذلك ببركة الصحابة رضى الله عنهم ، فهم الرجال الأبطال والسادة الأخيار والمهاجرون والأنصار وأصحاب محمد المختار الذين فتحوا بسيوفهم الأمصار وأذلوا الكفار وأرضوا العزيز الغفار وباعوا نفوسهم لله الواحد القهار بجنات تجرى من تحتها الأنهار .

[قال الراوى رحمه الله] لما رجعت المنهزمون الى الملوك والبطارقة وأخبروهم بذلك وقع الرعب فى قلوبهم وحاروا فى نفوسهم ولم يدروا مايدبرون ومايصنعون . قال فصعب على بطريق اهناس وعلى صاحب البهنسا ماصنع ببطارقتهما وعوّلوا على الحصار وجمعوا الآلة وصاروا يخزنون مايحتاجون اليه وتيقنوا أن لابدّ للعرب من أرضهم ووطنوا أنفسهم ، وكذلك بطارقة الصعيد وملوكه وضاقت نفوسهم مما حل بهم .

[قال الراوى] ووصل الكتاب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ففرح بذلك فرحا شديدا وقرأ الكتاب على على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والعباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، ثم قسمت الغنائم على أهل المدينة وقسم لنفسه كأحدهم رضى الله عنهم وكتب جواب الكتاب ودفعه لهاشم ، وقال له قل لعمرو يحث الصحابة ويحرضهم على فتح الصعيد .

[قال الراوى] وأما عمرو بن العاص رضى الله عنه فانه لم يرجع الى مصر حتى قسم الغنائم بين الصحابة وفضل أصحاب الولاء وأهل السابقة ورجع الى مصر بعد أن جهز العساكر الى الصعيد .

[قال الراوى رحمه الله] ولما فارق عمرو بن العاص خالد بن الوليد والأمراء رضى الله عنهم استشار بعضهم بعضا أى مكان يقصدون ؟ ، فاتفق رأيهم أن يسيروا ألف فارس طليعة وأمر عليهم

قيس بن الحرث ومعه جماعة من أمرائهم . منهم رفاعة بن زهير المحاربى والقعقاع بن عمرو التميمى وعقبة بن عامر الجهنى وذوالكلاع الحيرى رضى الله عنهم وصاروا يسيرون فى وسط البلاد و بقية العساكر قريبة منهم ، فمن أطاعهم وطلب الأمان أمنوه وصالحوه ووضعوا عليه الجزية ومن أبى قاتلوه ومن أسلم تركوه ، وسار خالد ببقية الجيش يريدون اهناس فانها كانت أعظم مدائن الوجه القبلى بعد الكورة وكانت حصينة آهلة بالخيل والآلة والعدة ، ولما أحس بطريقها بمجىء الصحابة اليه جمع البطارقة ، وقد انكسرت جنودهم وخمدت نيرانهم وكلمهم بانهزام جيوشهم وشاورهم فى أمرهم ، وقال لهم خذوا أهبتكم وقاتلوا عن حريمكم وأموالكم والا صرتم عبيدا للعرب يفعلون بكم مايختارون ، وان شئتم صالحناهم حتى يعلم ما يكون من بطارقته ، فأجابوه وقالوا لانسلم البلاد حتى نغلب ونجمع أموالنا فى هذه المدينة الحصينة ونقاتل ، فان غلبنا عوّلنا على الحصار واتفق رأيهم على ذلك ، فكان الذى أجابهم الى ذلك خرج بنفسه وأمواله ومن لم يجبهم الى ذلك أقام ، وكذلك بطارقة البهنسا : منهم من انتقل الى البهنسا بماله وأولاده ، ومنهم من أقام ببعض المدائن ممن عوّلوا على الاقامة والحصار والقتال ، وسار خالد بالجيش حتى قرب من اهناس و بين يديه الطلائع والأمراء وهم يشنون الغارات على السواحل والبلاد ، فمن خرج اليهم وصالحهم وعقد معهم صلحا صالحوه ولهم الميرة والعلوفة والضيافة ومن أبى دعوه الى الاسلام ، فان أبى طلبوا منه الجزية ، فان أبوا شنوا عليهم الغارة حتى وصلوا قريبا من اهناس و بلغ الخبر الى عدوّ الله . فقال لابدّ من لقائهم وقتالهم حتى أنظر مايكون من أمرهم ، ثم خرج الى ظاهر المدينة قريبا من السور ولم يبعد عنها ، وكان للمدينة أربعة أبواب فأغلق ثلاثة وفتح الباب الشرقى وأخرج الخيام والسرادقات وأكثر من العدّة والزينة ، وقال ان دخلنا المدينة من غير قتال طمعت العرب فى جانبنا . ثم فرق بطارقته وعرض جيشه فكانت عدّتهم خمسين ألفا ، وقال اثبتوا وقاتلوا عن حريمكم ولا تكونوا أوّل جند أخذوا وأقاموا يتأهبون للقتال و ينتظرون قدوم الصحابة رضى الله عنهم .

[قال الواقدى رضى الله عنه] وأما خالد فلما قرب من أهناس استدعى بالزبير بن العوّام وضمّ اليه ألف فارس من الأمراء وغيرهم وأمره بالمسير ، ثم استدعى بالفضل بن العباس وضم اليه ألف فارس وسار على أثره ، ثم استدعى بميسرة بن مسروق العبسى وضم إليه ألف فارس وسار على أثره ، ثم استدعى بزياد بن أبى سفيان وضم اليه ألف فارس وسار على أثره ، ثم استدعى بمالك الأشتر النخعى وضم اليه ألف فارس وسار على أثره وسار خالد ببقية الجيش .

قال حدّثنا عون بن سعيد . قال حدثنا هاشم بن نافع عن رافع بن مالك العلوى . قال كنت فى خيل الزبير بن العوّام رضى الله عنه لما توسطنا البلاد وتعرضنا لأهلها وشننا الغارة على السواد فوجدنا قطيعا من الغنم ومعها رعاة ، فلما أحسوا بنا تركوها ومضوا فسقناهم ، ثم سرنا قليلا واذا بنساء وصبيان مشرفة ونصارى من القبط وغيرهم ، فلما رأونا فروا وكان معهم عشرون فارسا من العرب المتنصرة من جذام ومعهم بطريق من البطارقة عليه الزينة الفاخرة ، فلما عاينونا فروا من بين أيدينا فأطلقنا الغارة عليهم ، فما كان غير بعيد حتى أدركناهم وقبضنا عليهم وسألناهم فأجابوا بأنهم من قرى شتى وانهم يريدون اهناس فعرضنا عليهم الاسلام فامتنعوا فأردنا

قتلهم فنعنا من ذلك الزبير رضى الله عنه وقال حتى يحضر الأمير خالد ويفعل مايريد . قال وسرنا حتى قربنا من اهناس ورأينا المضارب والخيام والسرادقات ، فأعلن الزبير بالتهليل والتكبير وكبر المسلمون حتى ارتجت الأرض لتكبيرهم وخرجت الروم الى ظاهر خيامهم ينظرون الينا وعدوّالله مارنوس بن ميخائيل ينظر الينا والحجاب والنوّاب وأرباب الدولة من البطارقة حوله وعليهم أقبية الديباج وعلى رؤوسهم التيجان المكللة وبأيديهم العمد المذهبة والسيوف وهم محدقون به عن يمينه وشماله . قال فلما أقبلنا عليهم تصايحوا ورطنوا بلغتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم واستقلونا فى أعينهم ، ولما قرب الزبير من القوم هزّ الراية وأنشد يقول :

أيا أهل أهناس الطغاة الكوافر ويا عصبة الشيطان من كل غادر
أتتكم ليوث الحرب سادات قومها على كل مشكول من الخيل ضامر
فان لم تجيبوا سوف تلقون ذلة ونقتل منكم كل كاب وفاجر

[قال الراوى] ثم نزلنا قريبا من القوم ، فلم يكن غير قليل حتى أقبل الفضل بن العباس رضى الله عنهما وحوله السادات الأماجد ، فكبر وكبروا معه وهز الراية وأنشد يقول :

أيا أهل أهناس الكلاب الطواغيا أتتكم ليوث الحرب فاصغوا مقاليا
أقروا بأن الله لارب غيره وإلا ترواأمرا عظيما مدانيا
أقروا بأن الله أرسل أحمدا نبيا كريما للخلائق هاديا

[قال الراوى رحمه الله تعالى] ثم نزل قريبا من أصحابه ، فلم تكن إلا ساعة حتى أقبل الأمير ميسرة بن مسروق العبسى وكبر هو والمسلمون فأجابه المسلمون فهز الراية وأنشد يقول :

أتينا لأهناس بكل غضنفر على كل صاهل من الخيل أجرد
فان هم أطاعونا شكرنا فعالهم وإلا أبدناهم بكل مهند
ونخرب أهناسا ونقتل أهلها إذا خالفوا دين النبىّ محمد

[قال الراوى رحمه الله تعالى] ونزل قريبا من الفضل ، ولما كان غروب الشمس أقبل زياد بن أبى سفيان رضى الله عنه بمن معه وكبر هو والمسلمون وهز الراية وأنشد يقول :

هلموا الى أهناس يا آل هاشم ويا عصبة المختار نسل الأعاظم
ودونكم ضرب السهام بشدّة وقطع رؤوس ثم فلق جماجم
لننصر دينا للنبىّ محمد نبىّ الهدى المبعوث من آل هاشم

[قال الراوى رحمه الله تعالى] وبات المسلمون رضى الله عنهم يقرءون القرآن ويصلون على النبىّ ﷺ وهم يتحارسون حتى لاح الفجر ، ثم أقبل المقداد رضى الله عنه بأصحابه وكبر هو والمسلمون ، ولما قرب من أصحابه هزّ الراية وأنشد يقول :

أنا الفارس المشهور فى كل موطن وناصر دين للنبىّ محمد
لعل ننال الفوز عند إلهنا فيافوز من أضحى نزيل المؤيد
ونقتل عباد الصليب جميعهم بأسمر خطى وعضب مهند

[قال الراوى رحمه الله تعالى] ونزل بازاء الفضل ، وتكامل الأمراء المتقدم ذكرهم . قال ولما رأونا ظنوا أن ليس وراءنا أحد وقعدنا ذلك اليوم ولم نكلمهم ولم يكلمونا ، فلما كان اليوم

الثانى عند طلوع الشمس إذا بالغبار قد طلع والقتام قد ارتفع من خيول عادية وعليها فوارس حجازية ، وكبر المسلمون ورفعوا راياتهم الاسلامية وأعلامهم المحمدية ، فسمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الصياح فخرج الأمراء الى لقائهم وإذا فى أوائلهم خالد بن الوليد رضى الله عنه والى جانبه غانم بن عياض الأشعرى وأبو ذر الغفارى وأبو هريرة الدوسى واسمه عبد الرحمن وبقية الأمراء والمهاجرون والأنصار ، فلما رأت الروم ذلك من قريب دخل الرعب فى قلوبهم ونزل أصحاب رسول الله ﷺ قريبا من أهناس كل منهم فى مركزه ، وأقاموا ذلك اليوم فلما كان اليوم الثالث جمع خالد الأمراء وأصحاب الرايات واستشارهم فيمن يمضى الى بطريق أهناس . فقال المقداد أنا له . فقال له خالد : أنت له خذ من شئت . فأخذ معه ضرار بن الأزور وميسرة بن مسروق العبسى ، وقال لهم خالد : أدعوه الى الاسلام ، فان أبى فالجزية ، فان أبى فالقتال واحرصوا على أنفسكم .

[قال الراوى رحمه الله تعالى] وساروا الى القوم حتى قربوا من العسكر وهم يدوسون بخيولهم أطناب الخيام والسرادقات ، فصاحت بهم الحجاب من تكونون ؟ فقالوا نحن رسل فأعلموا البطريق بذلك فأمر باحضارهم ، فلما حضروا بين يديه صاحت بهم الحجاب والنوّاب أن قبلوا الأرض للملك ، فلم يلتفتوا اليهم ولم ينزلوا إلا على باب سرادق الملك ووقفوا على الباب فأذن لهم فى الدخول فدخلوا وأمسكوا لجم خيولهم ، فأراد الغلمان أن يمسكوها فامتنعوا من ذلك فأشار إليهم البطريق فتركوهم ، ثم دخلوا عليه فاذا هو جالس على سرير من الذهب مرصع بالدر والجوهر وحوله البطارقة جلوس ، والحجاب والنواب وأرباب الدولة قيام وبأيديهم السيوف والأعمدة والرماح ، فلما رآهم تغير لونه واندهش وأذن لهم بالجلوس . فقالوا لا نجلس على هذا الفرش فانه حرام علينا ، فأمر بالبسط الحرير فرفعت ، ثم فرش أنطاعا من الصوف ثم أشار اليهم فقالوا لانجلس حتى تنزل عن سريرك . قال فرطنت الروم فأشار إليهم فسكتوا وأرادوا أن ينزعوا منهم سيوفهم فامتنعوا من ذلك ، فتركوهم وكلمهم الملك فأبوا حتى ينزل عن سريره ، فنزل وكلمهم بلسان عربى وسألهم عن حالهم ، فأجابوا أنهم لايفارقونه حتى يسلم هو وقومه ، أو يؤدوا الجزية أو القتال فامتنع عن ذلك وقال اذهبوا والموعد غدا للقتال ، وخرجوا من عنده على ذلك ورجعوا الى خالد وأعلموه بذلك فتأهب الأمراء للحرب ، فلما أصبح خالد صلى بأصحابه صلاة الصبح وبادروا للحرب والقتال وصاحوا النصر النصر ياخيل الله اركبي وللجنة اطلبي ، فركب المسلمون خيولهم وركزوا راياتهم واصطفوا ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين وخالد فى وسط الجيش ، وعلى الساقة ميسرة بن مسروق العبسى ، ومالك الاشتر النخعى فى خمسمائة فارس من المهاجرين والأنصار .

[قال الراوى] فلم تكن غير ساعة حتى برزت الروم وأظهرت صلبانها .

قال حدثنا رافع بن مالك عن عباد بن مازن عن محمد بن مسلمة الأنصارى رضى الله تعالى عنه . قال لما أقبلت رايات القوم عددناها فاذا هى خمسون صليبا ، تحت كل صليب ألف فارس ، فكان أوّل من افتتح الحرب بطريق عليه ديباجة حمراء وعلى رأسه بيضة ، معصب عليها بعصابة من جوهر ، فبرز إليه فارس من خثعم يقال له زيد بن هلال فقتله ، ثم طلب البراز ، فبرز إليه

عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولم يمهله أن ضربه بالسيف على عاتقه الأيمن فخرج يلمع من عاتقه الأيسر فانجدل عدوّ الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه إلى النار ، وطلب البراز ، فبرز إليه فارس من الروم فقتله ، ثم آخر فقتله وطلب الميمنة وشوّش صفوفهم وقتل أبطالهم ، ثم عاد إلى القلب ، ثم خرج من بعده شرحبيل بن حسنة وفعل كفعله ، ثم حمل من بعده الفضل بن العباس ، ثم حمل من بعده العباس بن مرداس ، ثم من بعده أبو ذر الغفارى ، ثم تبادر المسلمون بالجملة ، فلما رأى الروم ذلك أيقظوا أنفسهم فى عددهم وعديدهم وتظاهروا بالبيض والدروع ، ولم يزل القتال بينهم حتى توسطت الشمس فى قبة الفلك .

[قال الراوى رحمه الله تعالى ورضى عنه] فعندها حمل خالد بن الوليد وغاص فى الميمنة فقلبها على الميسرة وغاص فى الميسرة فقلبها على الميمنة ، وقاتلت العرب قتالا شديدا حتى جاء الليل وحجز بين الفريقين وبات المسلمون يتحارسون وتفقد المسلمون بعضهم بعضا . فاذا قد قتل منهم اثنان وأربعون رجلا ختم الله لهم بالشهادة ، الأعيان منهم ربيعة بن عامر الداودى وزيد بن ربيعة المحاربى وغانم بن نوفل المحاربى وصفوان بن مرة اليربوعى ، والبقية من أخلاط الناس ، وقتل من أعداء الله ألف وثلثمائة وأزيد ولما خلا عدوّ الله بأصحابه تذاكروا ماوقع فى الحرب وصعب عليهم مالقوه من العرب فأراد الملك الصلح فغلب البطارقة عليه وأعدوا للحرب والقتال ، فلما أصبح الله الصباح وبارق الفجر لاح صلى المسلمون صلاة الصبح ، ثم اصطفوا على ظهور خيولهم واصطفت الروم وبرزت البطارقة وأظهروا زينتهم وبرز بطريق عظيم يقال له صاحب طنسا وعليه لامة حربه وطلب البراز فبرز اليه الفضل بن العباس فتجاولا وتعاركا وتخالفا بضربتين فكان السابق بالضربة الفضل بن العباس فضربه بالسيف على رأسه فوصل الى أضراسه فانجدل صريعا يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار ، وبرز بطريق ثان فقتله ولم يزل كذلك حتى قتل أربعة من خيارهم فحملت الروم حملة واحدة وحمل المسلمون وحمل ضرار بن الازور رضى الله عنه وأظهر شجاعته وحمل مذعور بن غانم الاشعرى والفضل بن العباس ومحمد بن عقبة بن أبى معيط ومسلم وجعفر وعلىّ أبناء عقيل وعبد الله بن جعفر وسليمان ابن خالد وعبد الرحمن بن أبى بكر وتجاهرت الامراء وعظم الخطب وكثر الطعن والضرب وثار القتام حتى صار النهار كالظلام وتراشقوا بالنبال واشتد القتال وقطعت المعاصم وطارت الجماجم. فما كنت ترى الاجوادا غائرا ودما فائرا واشتد الكرب وكثر الطعن والضرب وسال العرق واحمرت الحدق وجال خالد كالاسد وأرغى وأزبد ، فعند ذلك رفع غانم بن عياض طرفه الى السماء . وقال ياعظيم العظماء أنزل علينا نصرك كما أنزلته علينا فى مواطن كثيرة وانصرنا على القوم الكافرين فامنت جماعة من الامراء على دعائه فما كان غير بعيد حتى رأيت الرجال الكفار يتساقطون لاندرى بماذا يقتلون ، فلما رأى الروم ذلك فروا الى الباب وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون والحجارة تأخذهم من أعلى السور وهم لايلتفتون إلى ذلك ودخلوا الى الابواب ودخل اللعين وصال عليهم خالد وجماعة من الامراء واقتطعوا قطعة من الروم نحو خمسة آلاف وكان المسلمون قريبين من اللعين فاقتتلوا عند الباب ورموهم بالحجارة فقتلوا منهم نحوا من ثلاثة آلاف وخرج من الباب نحو من ألف فارس وجالوا ، ودخل الباقون وأغلقوا بابهم

وطلعوا على الاسوار واشتد القتال والحصار ورموا بالحجارة والنبال حتى فرّق الليل بينهم .

[قال الراوى رحمه الله] وأقام المسلمون على حصار اهناس ثلاثة أشهر وفى كل يوم يناوشونهم بالقتال والاسوار رفيعة والابواب منيعة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كل يوم يشنون الغارات حتى يصلوا الى أطراف الكورة .

[قال الراوى رحمه الله] فضعفت من أهل اهناس القوى ومات الضعيف وانقطع عنهم المدد وضاقت أنفسهم وطمعت فيهم الصحابة ، ثم ان خالدا استشار أصحابه ماذا يصنعون وقد أعياه فتح الباب ، فقال له المرزبان رضى الله تعالى عنه وكان من مرازبة كسرى وقد أسلم وخرج الى الجهاد وحبس نفسه لله عز وجل وهو المقتول بالبهفسا قريبا من البلد شرقى البحر اليوسفى فى وقعة صاحب طنجة ذات الاعمدة وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى . فقال المرزبان اننا كنا فى بلاد الفرس اذا حاصرنا مدينة ولم نقدر على فتحها أخذنا زيتا وكبريتا ووضعناه فى صناديق من خشب ، وجعلنا لها أعوادا تحملها رجال ورجال يذبون عنهم الى أن يصلوا الى الباب أوالى قريب منه ، ويجعلون فى الصناديق نارا ويولون فتعلق النار فى الابواب ويذوب الحديد فتفتح الابواب وتعلق النار فى الحطب والخشب والحجارة فتهدمها ، فقال خالد نفعلها ان شاء الله تعالى ، فلما أصبحوا فعلوا ذلك وأسرعوا فى جمع ماذكرنا ووضعوه فى صناديق ، وجعلوا فى أطرافها أعوادا طوالا من أسفلها وحملتها الرجال وخرج خلفهم الفرسان يقاتلون والمرزبان أمامهم يعلمهم كيف يصنعون وهم مستترون بالدرق والحجف والحجارة والنبال تتساقط عليهم من أعلى السور حتى وصلوا الى أول باب من أبواب المدينة ، وهو الباب الشرقى وهو أعظم أبوابها ، فلما قربوا من الباب رفعوا الصناديق على الباب وألقوا النار فى الزيت والكبريت ووضعوها وانقلبوا فلم يكن أسرع من لحظة حتى تعلقت النار بحجارة الباب والاخشاب والحديد وثارت النار الى أعلى السور حتى وصلت الى البرج فسقط البرج بمن فيه من الروم وهلك منهم جماعة كثيرة وتبادرت المسلمون الى الباب وملئوا قرب الماء وأطفئوا تلك النار ، ودخلوا من الباب وقصدوا قصر الملك وكان حصينا على أعمدة من الحجارة المنحوتة وكانوا أغلقوا أبوابه ففعلوا به كما ذكرنا ، ولما رأى الملعون ذلك لم يطق أن يصبر وأمر بفتح الباب وصاح الامان ومعه جماعة من حشمه وخدمه و بطارقته فعرضوا عليهم الاسلام فأبوا فأمر خالد بضرب أعناقهم ، فمن أسلم تركوه ومن أبى قتلوه واستغاثت بهم السوقة والرعية وقالوا مغلوبون فمن أسلم تركوه ومن بقى على دينه ضربوا عليه الجزية وهدموا دورا وأماكن حتى صارت تلالا ، وغنم المسلمون أموالا كثيرة من أوانى الذهب والفضة والفرش الفاخرة ووضعوا فيها عبادة بن قيس قيما ومعه ثلثمائة من المسلمين وخرجوا بظاهر المدينة ولم يبق الامن أسلم ومن وضعت عليه الجزية وعمروا بها مسجدا ، ولما فرغ خالد من ذلك جمع الغنائم ، وأخرج خمسها وأرسله الى عمرو بن العاص يرسله الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الى المدينة وأرسل لعمرو بن العاص سهمه ولاصحابه المؤمنين المقيمين بمصر ونواحيها ، وأقام خالد بعد ذلك باهناس هو وجماعته من الامراء أربعين يوما واستدعى خالد بعدى بن حاتم الطائى رضى الله تعالى عنه وأضاف اليه ميمون بن مهران وضم إليه ألف فارس وأمرهم أن ينازلوا أول بلاد البطليوس لعنه الله وينازلوا أهل الكورة واذا وصل الى قيس

ابن الحرث يأمره بالمسير الى قريب البهنسا ويقاتل من يقاتله ويسالم من يسالمه ويصالح من يصالحه حتى يأتيه المدد ، ثم أرسل فى أثره غانم بن عياض الاشعرى رضى الله تعالى عنه وضم اليه ألف فارس فيهم الفضل بن العباس والمسيب بن نجيبة الفزارى وأبوذر الغفارى والمرزبان الفارسى وكذلك جعفر ومسلم وعلى وعبد الله بن المقداد وولد خالد سليمان ومحمد بن طلحة وعمرو بن سعد بن أبى وقاص وشرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله ﷺ وقال لهم خالد سيروا حتى تصلوا الى مدينة البهنسا وأنا فى أثركم مالم يحصل لى ولأصحابى مانع وادعوا القوم الى الاسلام فان أجابوكم فلهم مالنا وعليهم ماعلينا ومن أبى فالجزية ومن أبى فالحرب والقتال ونازلوا المدائن وأقرنوا المواكب ولاتسيروا الا يدا واحدة وفرقوا الكتائب وكونوا قريبين بعضكم من بعض غير متباعدين . فاذا وقعت كتيبة منكم بما لاطاقة لها به تبعت النفير وثبتوا هممكم وأخلصوا نياتكم وقووا عزائمكم ، فاذا وصلتم الى البهنسا التى هى دار ملكهم ومحل ولايتهم فأرسلوا الى الملك وادعوه الى الاسلام ، فان أطاع فاتركوه فى ملكه وان أبى فالجزية عن يد وهم صاغرون وان أبى فالسيف حكم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ، و بلغنى أنها مدينة كثير أهلها وانها كثيرة الخيل وحولها مدائن و بلاد وقرى ورساتيق ، فن سالمكم وصالحكم فصالحوه ومن قاتلكم فقاتلوه وعليكم بالحزم واخلاص النية وصدق العزيمة . قال الله تعالى فى كتابه المكنون ــ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ــ ثم استدعى بالمغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه وكان معه زياد الأكبر أبوالمغيرة جد زياد الذى هو بقرية ديروط بقرب طنبدا ، وسيأتى ذكر زياد بن المغيرة وأصحابه هناك انشاء الله تعالى عند وقعة الدير ، واستدعى بسعيد ابن زيد أحد العشرة رضى الله عنهم وأبان بن عثمان بن عفان وجدد عليهم الوصية وودعهم .

[قال الراوى رحمه الله] وسار عدى بن حاتم الطائى وميمون حتى وصلا ميدوم وماحولها فوجدوا قيس بن الحرث قد صالح أهل تلك الارض وعقد لهم صلحا وأقرهم بالجزية ماعدا جماعة وكذلك أهل برنشت بعد قتل بطريقهم وكذلك أهل تلك البلاد الى دهشور ونادى فى ذلك الاقليم بالامان وجبوا له أموالا عظيمة على الصلح والجزية وعبر جماعة من المسلمين الى البر الشرقى ، وهم : رفاعة بن زهير المحاربى وعقبة بن عامر الجهنى وذوالكلاع الحميرى وألف من أصحاب رسول الله ﷺ وشنوا الغارات من العقبة التى هى قريب من قبلى حلوان على تلك القرى والبلاد ، فن صالحهم صالحوه ، ومن أبى قاتلوه حتى وصلوا الى إطفيح ثم الى البرنيل ، وكان هناك بطريق يعرف بصول فخرج اليهم أهلها فصالحوهم على الجزية وعبروا من هناك وسار عدى بن حاتم حتى اجتمع بقيس بن الحرث قريبا من القرية المعروفة بقمن ونزل ميمون هو وجماعته بالقرية المعروفة بالميمون . فقال له قيس بن الحرث لاتنزل هنا حتى يفتح لنا ماحولها من البلاد ويأتى خبر من الأمير خالد بن الوليد ويأذن لنا بما يريد فأجاب الى ذلك ونزل عدى بأصحابه بالقرية المعروفة ببنى عدى ثم سار وترك ابنه حاتما واخوته وأحاطوا بالقرية وسار قيس وأصحابه حتى وصلوا الى القرية المعروفة بنوس والبلد المعروف بدلاص فخرج اليهم أهلها بعد قتل بطريقهم وصالحوهم وتوسطوا البلاد على ساحل البحر حتى نزلوا ببا الكبرى وغانم بن عياض على أثرهم وكان بها دير عظيم يعرف بدير أبى جرجا ، وكان له عيد عظيم يجتمعون اليه من سائر البلاد

فوافق قدوم الصحابة قريبا من عيدهم فجاءهم رجل من المعاهدين وأعلمهم بذلك فانتدب قيس ابن الحرث رضى الله تعالى عنه ومعه جماعة من أصحابه خمسمائة فأمر عليهم رفاعة بن زهير المحاربى وأمرهم أن يشنوا الغارة على الدير قال وكان جماعة من رؤساء الكورة من الروم والقبط والخيول المسوّمة حول الدير يحرسونهم وهم فى أكلهم وشربهم وزينتهم و بيعهم وشرائهم فما أحسوا الا والخيل على رؤوسهم فما قاتلوا الا قليلا وانهزموا ونهب أصحابه جميع مافى السوق من أثاث وغيره وساقوا الغنائم وأحاطوا بالدير فقاتلوا من على الدير ، فقطعوا السلاسل والأقفال ، وتعلق جماعة من الصحابة على الحيطان ودخلوا الدير وأخذوا منه أمتعة وأثاثا وأوانى من ذهب وفضة ، وأسروا مائة أسير وساروا حتى توسطوا البلاد ، وكان بالقرب من البحر اليوسفى قرى كثيرة و بلدان ، وكان فيها مدينة تعرف بسحاق ، وكان بها بطريق من عظماء بطارقة البطليوس ، فلما بلغه قدوم الصحابة جمع جنوده الى البلد المعروف بأقفهس والى البلدين المعروفين بشمسطا واليسلقون والى البلد المعروفة بفشابة ، فلما بلغه قدوم الصحابة جمع الخيل والروم والفلاحين والنصارى ستة آلاف وخرج يكشف بهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيس بن الحرث خرج اليه أهل ببا الكبرى وماحولها من السواد وكذلك أهل هوريت وعقد لهم صلحا وساروا ، فلما قاربوا من القرية المعروفة الآن ببنى صالح ، فبينماهم سائرون اذا بالغبار قد طلع وانكشف عن ستة صلبان تحت كل صليب ألف ، فلما رآهم المسلمون لم يمهلوهم دون أن حملوا عليهم واقتتلوا قتالا شديدا وثار الغبار وقدحت حوافر الخيل الشرار والتقى الجمعان واصطدم الفريقان ، فلله در رفاعة بن زهير المحاربى وعقبة بن عامر الجهنى وعمار بن ياسر العبسى وميسرة بن مسروق العبسى .

[قال الراوى] وقاتلت أصحاب رسول الله ﷺ قتالا شديدا وصبروا صبرا الكرام ، وكان عدوّ الله لاوى بن أرمياء صاحب شيزا فارسا شديدا و بطلا صنديدا ، فجال وصال وقتل الرجال ، فعندها برز إليه فارس من المسلمين يسمى سنان بن نوفل الدوسى فقتله ، فخرج اليه عمار بن ياسر العبسى فتجاولا وتعاركا وتضاربا وتطاعنا ووقع بينهما ضربتان وكان السابق بالضربة عمارا فطعنه بالرمح فى صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره فانجدل عدوّ الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار ، فعندها غضب الروم لأجل قتل صاحبهم وحملوا على عمار فى كبكبة من الخيل فعقروا الجواد من تحته ، وتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله وقتل من المسلمين خمسة عشر رجلا .

قال حدثنا سنان بن نوفل عن مالك عن غانم اليربوعى وكان فى خيل رفاعة بن زهير المحاربى . قال بينما نحن فى القتال وقد عظم النزال و وطنا أنفسنا على الموت ، ورفاعة يحرض الناس على القتال وهو ينشد و يقول :

يامعشر الناس والسادات والهمم ويا أهيل الصفا يامعدن الكرم
فسددوا العزم لاتبغوا به فشلا ومكنوا الضرب فى الهامات والقمم
وخلفوا القوم فى البيداء مطرحة على الثرى خشنا بالذل والنقم

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وجعل يحرضهم و يقول يامعشر السادات والأقيال أبشروا فان الروم لم تقم لهم قائمة أبدا ، وأبشروا بالحور والولدان فى غرفات الجنان ، وان الجنة تحت ظلال سيوفكم . قال رفاعة فبينما نحن فى أشد القتال إذا بغبرة قد لاحت وانقشعت وانكشفت القتال

عن ألف فارس فى الحديد غواطس ، عليهم الدروع الداودية وعلى رؤوسهم البيض العادية المجلية معتقلين بالرماح الخطية ، راكبين الخيول العربية ، فتأملناهم فاذا هم سليمان بن خالد بن الوليد وعبد الله بن المقداد وعبد الله بن طلحة وأخوه محمد وزياد بن المغيرة والوليد ومحمد بن عتبة ومحمد ابن أبى هريرة وجماعة من الصحابة والأمراء وأبناؤهم رضى الله عنهم ، وكان غانم بن عياض الأشعرى جهزهم طليعة قدامه ، فلما رأونا كبروا وكبرنا لتكبيرهم وخاضوا فى أوساطنا وطلب كل واحد منهم بطريقا من البطارقة فقتله ، فلما رأت الروم ذلك ولوا الأدبار وركنوا الى الفرار وتبعهم أصحاب رسول الله ﷺ يقتلون وينهبون ويأسرون الى بلدة سبزا وما حولها من السواد الى سلقوس ، فأسروا منهم نحو خمسمائة أسير وقتل منهم ثلاثة آلاف وهرب الباقون إلى القرى والبلاد ، ولما قتل بطريق شندا خرج إليهم أهلها من النصارى والسوقة وعقدوا معهم صلحا واتفقوا على أداء الجزية وكذا من حولهم من القرى ، ونزل هناك عمرو بن الزبير وجماعة من المسلمين وسار قيس بن الحرث أمام القوم حتى نزل قريبا من طنبدا والبلد المعروف باسنا ، وكان بها بطريق يسمى بولياص بن بطرس وكان كافرا لعينا فخرج الى لقاء المسلمين هو وجماعته ومعه ميرة وعلوفة فكان ذلك مكيدة منه وعقد مع المسلمين صلحا ووافقهم على أداء الجزية عن بلده وعن اسنا وكانت تحت حكمه ، وارتحل قيس بن الحرث ومن معه وتأخر زياد بن المغيرة ونزل بالقرية المعروفة بدهروط ، فعقد مع أهلها صلحا ، ونزل سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد وجماعة قريبا من البلد ، ومنهم من نزل عند القرية المعروفة بأطينة ، وصار جماعة يدخلون البلد ليلا ثم يعودون خوفا من المكيدة ولا حذر من قدر الله عزّ وجلّ .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وكان المتخلفون خمسمائة فارس ، فجعلوا يسيرون على جانب البحر ويشنون أى يغيرون على أهل السواد ، فمن صالحهم صالحوه ومن أسلم تركوه ، وسار قيس ابن الحرث حتى نزل بالبلد المعروف الآن بالقيس ، وبه سميت وكان بطريق من بطارقة البطليوس وكان من بنى عمه اسمه شكور بن ميخائيل والله أعلم باسمه ، فدخل أهل السواد كلهم البلد وحاصروها حصارا شديدا نحو شهرين ، ثم أعانهم الله تعالى وحرقوا بابا من أبوابها ففتحت ودخلوا إليها ، وكان بعد وقعة جرت بينهم فى مكان يعرف بكوم الأنصار ، فهزموهم هناك وحاصروهم وفتحوا المدينة وقتلوا البطريق ونهبوا الأموال وأخذوا جميع مافيها بعد أن دعوهم إلى الاسلام فامتنعوا من ذلك ، ثم شنوا الغارات على ماحولها من البلدان والبلد المعروف بمماطى ، ثم إلى الكفور ، فخرج إليهم بطريق كان ابن عم المقتول بدهشور لعنه الله وأخوه بطرس وعقدوا مع المسلمين عقدا على الصلح وأعطاه الجزية ، وسارت العرب إلى البلد المعروف بالدير وسملوط وما حولها من القرى ، ونزل زهير وجماعة من العرب بالمكان الذى يعرف بزهرة ، وأما بقية السواد الذى حول البهنسا شرقا وغربا ، فلما تحققوا مجىء العرب هربوا إلى البهنسا بأموالهم ونسائهم وذراريهم وتركوا البلاد جميعها خرابا ، وكان البطليوس لعنه الله أرسل إليهم بطارقته فحملوهم إلى البهنسا واستعد للحصار وجمع عنده مايحتاج إليه مدة الحصار .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] هذا ماجرى لهؤلاء ، وأما عدوّ الله بولياص صاحب طنبدا فانه كاتب البطليوس يقول : إنى ماصالحت العرب إلا مكيدة وإنى أريد الغدر بهم فجهز لى جيشا

من البطارقة على أن أظفر بجماعة من أبطال المسلمين ونأخذ بثأر من قتل منكم قريبا . قال وكان عدوّ الله كل يوم تأتيه الأخبار من العرب المتنصرة ومن غيرهم من أهل البلاد والسواد بما جرى للعرب وبأخبار من قتل من البطارقة وأخذ البلاد والأموال ، فحمل هما عظيما ولم يظهر ذلك لأحد من بطارقته ، وإنما كان يطيب قلوبهم ويقول بلدنا حصينة وإن قاتلونا قاتلناهم وإن غلبونا دخلنا بلدنا ، فلو جاءنا أهل الحجاز جميعهم ماوصلوا إلينا ولوأقاموا عشرين سنة ، والله غالب على أمره وناصر دين الاسلام ومذل الكفرة اللئام ، فلما بلغ البطليوس مكاتبة عدوّ الله بولياص فرح بذلك فرحا شديدا . قال واستدعى ببطريق من بطارقته يسمى روماس وضم إليه خمسة آلاف فارس من الروم والنصارى وغيرهم من أهل القرى وأمرهم أن يسيروا تحت ظلام الليل فما جاء نصف الليل حتى وصلوا إلى طنبدا ودخلوا إلى بولياص ففرح بذلك فرحا شديدا واستعدوا للهجمة على المسلمين . قال وأصبح المسلمون وقد صلوا صلاة الصبح وإذا بالخيل قد أقبلت إليهم فنادوا : النفير هاجونا وغدرونا ، فركب المسلمون خيولهم وساروا إلى قريب الدير ، وإذا بالروم مقبلين فى عشرة آلاف فارس وكان أعداء الله قد كمنوا كمينا قريبا من قناطر كانت هناك ونهر يجرى فيه الماء من النيل فى أوانه عميق غربى الدير قريب من البلد .

[قال الواقدى رحمه الله] ولما رأى المسلمون لمعان الأسنة والبيض وخفقان الأعلام وبريق الصلبان الذهب والفضة تبادروا إلى خيولهم فركبوا وأعلنو بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، وأقبلوا مسرعين نحوهم ولم يفزعوا من كثرتهم ، وحرّض بعضهم بعضا على القتال ، وكانوا قد سبقوا إلى شرذمة من المسلمين كانوا نزولا قريبا من الدير ووضعوا فيهم السيف وأحاطوا بهم وجالوا واتسع المجال إلى قريب من دهروط ، فخرج سليمان بن خالد بن الوليد وعبد الله بن المقداد وعامر بن عقبة بن عامر وشدّاد بن أوس وجماعة من الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، واشتد القتال ، وعظم النزال ، وعميت الأبصار ، وقدحت حوافر الخيل الشرار ، ولمعت الأسنة ، وقرعت الأعنة ، ودهشت الأنظار ، وحارت الأفكار ، وأحاطوا بالمسلمين من كل جانب ، فلله در سليمان بن خالد بن الوليد وعبد الله بن المقداد لقد قاتلا قتالا شديدا وأبليا بلاء حسنا ، ولله در زياد بن المغيرة لقد كان يقاتل تارة فى الميمنة وتارة فى الميسرة وتارة فى القلب وأحاط بهم أعداء الله من كل جانب ، وقد صار المسلمون بينهم كالشامة البيضاء فى جلد البعير الأسود وصبروا لهم صبر الكرام ، وكان أكثر المسلمين قد أثخن بالجراح واشتد الكفار ، هذا والمسلمون قد انتدبوا أبطالا وجعلوها خلف ظهورهم وقاتلوهم قتالا عظيما ، هذا وأعداء الله قد أحاطوا بهم وحجزوا بينهم وبين البلد ، وقاتل سليمان وأصحابه قتالا شديدا ووطنوا أنفسهم على الموت وشجع بعضهم بعضا وصار سليمان بن خالد يقول : الله الله الجنة تحت ظلال السيوف والموعد عند حوض النبيّ ﷺ وقاتل قتالا شديدا حتى أثخن بالجراح ، وقتل من المسلمين نحو مائتين وعشرين قريبا من التل الذى هو غرب البلد المذكور ، وما قتل الواحد منهم حتى قتل من أعداء الله خلقا كثيرا .

[قال الواقدى] ولما رأى المسلمون وسليمان بن خالد ماحل بأصحابه صار تارة يكر فى الميسرة وتارة يكر فى الميمنة ، وأعانه بالجملة عبد الله بن المقداد وبقية الصحابة ، وتقدّم سليمان بن خالد

وطعن بطريق اسنا طعنة صادقة فأرداه عن جواده وغاص فى القلب .

قال حدثنا أوس بن شدّاد عن علقمة بن سنان عن زيد بن رافع قال : كنت فى الخيل صحبة سليمان بن خالد وقد حجزنا المشركين وتقهقروا من بين أيدينا ولم نشعر أن لهم كمينا إذ خرج الكمين علينا وقاتلناهم قتال الموت وقتل منهم جماعة نحو ألفى فارس وقتل سليمان بن خالد من الصناديد والبطارقة من خيارهم نحو ثلاثين فارسا وكذلك عبد الله بن المقداد ، فأحاط بسليمان بن خالد رضى الله تعالى عنه كردوس نحو ألفى فارس وعقروا جواده من تحته ، فضرب بالسيف فيهم حتى قطعت يده اليمنى ، فتناول السيف بيده اليسرى فضرب بها حتى قطعت ، فأحاطوا به ، فلما تيقن بالقتل التفت وقال : يعزّ عليك ياخالد بن الوليد ماحل بولدك ولكن هذا فى رضا الله عزّ وجلّ ، وكان قد طعن فى صدره نحو عشرين طعنة حتى قل حيله وسقط إلى الأرض ، ثم تنفس وقال : الساعة نلتقى الأحبة رحمه الله ، ولما رآه عبد الله بن المقداد على ذلك المصرع صاح لاحياة بعدك ياأبامحمد والملتقى فى جنات عدن ، ثم غاص يقاتل فأحاطوا به واشتبكت عليه الأسنة وضرب ضربات كثيرة فى وجهه وهو يقطع الرماح و يمسح الدم عن وجهه حتى سقط به الجواد وصاح : واشوقاه إليك يامقداد ، ثم تبسم وقال مرحبا ، ثم مات رحمة الله عليه وأيقنا كلنا بالموت و إن القيامة هناك ، و إذا بغبرة قد لاحت وانكشفت عن رايات اسلامية وعصائب محمدية وفى أوائل القوم القعقاع بن عمرو التميمى والمسيب بن نجيبة الفزارى وسمرة بن جندب والفضل بن العباس وزياد بن أبى سفيان و بنو هاشم و بنو عبد المطلب وسادات الأوس والخزرج ، وغانم بن عياض الأشعرى ومن معه من الأمراء والسادات ، فلم يمهلوهم دون أن حملوا عليهم حملة رجل واحد حتى أجلوهم وقتل البطريق بولياص لعنه الله ومعه بطريق البطليوس ، وانهزمت الروم وأتبعتهم المسلمون يقتلون و يأسرون وينهبون حتى بلغت الهزيمة إلى البحر اليوسفى ورموهم فى البحر وغرق منهم جماعة كثيرة وقتل منهم فى المعركة نحو أربعة آلاف وأسروا نحو ألف ومائتى أسير وهرب منهم إلى البطليوس جماعة واختفوا إلى الليل ودخلوا إلى البطليوس وأعلموه بذلك ، فضاقت عليه الدنيا وضاق صدره ، وحار فى أمره ، واستعد للقاء المسلمين .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] هذا ماجرى هؤلاء ، وأما أهل طنبدا وأهل اسنا كانوا لم يخرجوا ولم يقاتلوا ، فانهم لما وردت عليهم الأخبار ومعهم البطارقة ، سألوا بطريقهم القتال وكان نصرانيا ولم يكن روميا وكان اسمه لوص و به سميت البلد فأبى ، فلما انهزم البطارقة خرج لوص ومعه جماعة من أهل البلد وأتو إلى المسلمين وطلبوا منهم الصلح فصالحوهم ، وخرج أهل طنبداوأهل اسنا من السوقة والزعية وأولادهم وغيرهم و بكوا فى وجوههم وقالوا : نحن قوم رعية وكنا مغلوبين على أمرنا فانا أهل ذمتكم ورعيتكم . قالوا بشرط أن تدلونا على من هربوا إليكم فأجابوهم الى ذلك وصاروا يأخذون المسلمين و يدخلون الدور والمساكن و يقبضون على الروم و يسلمونهم إلى المسلمين ، وكان النصرانى يقبض على الرومى و يأتى به إلى المسلمين ، حتى قبضوا من طنبدا واسنا نحو من ألف وخمسمائة رجل من المطامير والأبيار التى كانوا يحبسون فيها الأسارى من المسلمين وغيرهم ولما اجتمعت الأسارى من الروم والنصارى أمر غانم بن عياض بضرب رقابهم على تل هناك يعرف بالكوم ورجعت المسلمون الى مكان المعركة ، فلما عاينوا

القتلى ورأوا سليمان بن خالد وعبدالله بن المقداد وعبيد بن الدارى ، بكوا عليهم وعلى من قتل معهم من الأمراء رضى الله عنهم وحزنوا عليهم حزنا شديدا ، وأنشد عمار بن ياسر ينعى سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد ومن معهما بقوله :

ياعين أذرى الدمع منك الصبيب ... ثم اندبى ياعين فقد الحبيب
وانعى لمقتول غدا فى الفلا ... مجندلا وسط الفيافى غريب
وابكى سليمان ولاتغفلى ... فأمره والله أمر عجيب *
قد كان لا يفكر كل العدا ... ان سل من غمد لسيف قضيب
وتحذر الأعداء من بأسه ... لوأنهم أعداد رمل الكثيب
فياحمام الأيك نوحى اذا ... على فتى قد كان غصنا رطيب
وأعلمى بما جرى خالدا ... لعله يبكى بدمع صبيب
وأخبرى المقداد من بعده ... بأن عبد الله أضحى سليب
بل واندبى الأخيار من بعدهم ... وكل قرم للمعالى مصيب
لايلتقى البطليوس خيرا ولا ... أجناده الأنذال أهل الصليب
قد كنوا جيشا لنا عامدا ... يوم الوغى من كل كاب مريب
وحق من أعطى لنا نصره ... فى كل واد ثم فتحا قريب
لنأخذن الثأر من جمعهم ... جهرا ونطفى من فؤاد لهيب

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وإن غانما رضى الله تعالى عنه جمع الشهداء ودفنهم فى ثيابهم ودروعهم . قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله يوم القيامة وجراحاتهم تقطر دما : اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » .

[قال الواقدى] وأقام غانم رضى الله تعالى عنه بعد أن دفن الشهداء قريبا من التل والأمراء يشنون الغارات على السواحل وعدى بن جابر بن عبد الله الأنصارى وأبو أيوب والمسيب بن نجيبة الفزارى فى ألف فارس ، فأغاروا على أهل شرونة ، فخرج إليهم بطريق يعرف بصندراس الجاهل و بطريق أهريت فى خمسة آلاف فارس واقتتلوا قتالا شديدا عند سفح الجبل فبلغ الخبر غانم بن عياض الأشعرى فأرسل إليهم كتيبة أخرى صحبة بن المنذر والفضل بن العباس والمرزبان فى ألف فارس ، فلما رأى الروم ذلك وقع الرعب فى قلوبهم وكان بينهم حروب عظيمة ، ثم ان الفضل بن العباس قصد البطريق الجاهل لعنه الله وضربه ضربة هاشمية على رأسه فقطع الخودة والبيضة والرفادة ، الى أن سمع خشخشة السيف فى أضراسه فكبر وكبرت المسلمون لتكبيره فسقط عدوّ الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار و بئس القرار ، وكان الفضل بن العباس فارسا شديدا و بطلا صنديدا ، فغاص فى وسط المشركين وفتك فيهم ، والمرزبان حمل على بطريق شرونة فقتله ، وحمل ابن المنذر على بطريق أهريت فقتله ، فلما رأى الروم ذلك ولوا الأدبار وركنوا الى الفرار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون و ينهبون الى المكان المعروف بالدير وأهريت وغرق منهم خلق كثير وقتل منهم ألف وخمسمائة فارس ، وأسر منهم ألف وخمسمائة وتحصن منهم جماعة من الروم والنصارى فى مدينة الجاهل ، وكانت حصينة فحاصرها المسلمون سبعة أيام

وحرقوا الأبواب ، وهدموا الجدران ، وأخرجوهم من البيوت ، وأخربوا تلك المدينة الى يومنا وخرج الى المسلمين نصارى من شرونة وأهريت وعقدوا مع المسلمين صلحا ، وأعطوا الجزية ، وأنزلوا مرة السكلى فى مائتين من أصحابه وغيرهم وابن عمرو بن العاص فى المكان المعروف بيناء خالد فى مائتى فارس ، وعبر المسلمون البحر ، ونزل عامر بالعرب فى مائتى فارس قريبا من طنبدا واسنا و ببا القرية ، وارتحل غانم بن عياض رضى الله عنه ببقية الجيش ، ولما تكاملت المسلمون أرسل بين يديه المسيب بن نجيبة الفزارى والعباس بن مرداس السلمى والفضل بن العباس الهاشمى وعامر بن عقبة الجهنى و زياد بن أبى سفيان بن الحرث فى ألف وخمسمائة فارس فساروا الى مكان يعرف بالجرنوس ، وكان هناك قلعة ومرج لملك البطليوس وكان فى زمن الربيع ينزل هناك بالخيام والمضارب حول القلعة وتجتمع عنده البطارقة ويقيم أشهرا ثم ينزل على الاقليم ثم يعود الى البهنسا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وأرسل لوص الى البطليوس لعنة الله عليهما يطلب منه جيشا صحبته بطريق من بطارقته ، فأرسل إليه بطريقا كافرا لعينا اسمه شلقم وبه سميت البلد التى هى قريب من البهنسا ، وكان الجيش عشرة آلاف فارس ، والله أعلم .

قال حدثنا مسلم بن سالم اليربوعى عن شداد بن مازن عن طارق بن هلال : أنه كان فى خيل العباس بن مرداس السلمى . قال بينما نحن نسير اذ رأينا غبرة قد ثارت وكان ذلك وقت الضحى ، فتأملناها فانكشف عن عشرة أعلام وعشرة صلبان من الذهب الأحمر كل صليب يلمع كأنه كوكب ، فتأهبنا للحملة وتأهبوا لنا ، فلم يمهلونا دون أن حملوا علينا وحملنا عليهم وأحاطوا بنا وقاتلت الروم قتالا شديدا ورطنوا بلغتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم ، وصبرنا لهم صبر الكرام وقاتلنا قتال الموت ، فلله در غانم بن عقبة والمسيب بن نجيبة الفزارى والفضل بن العباس و زياد بن أبى سفيان لقد قاتلوا قتالا شديدا ، وعصب الفضل رأسه بعصابة حمراء ، وكذلك فعل زياد بن أبى سفيان بن الحرث كما كان يصنع عمهما حمزة وقاتلا قتال الموت ، فلم تكن إلا ساعة وقد قوى الحرب والقتال حتى أشرف علينا الأمير غانم بن عياض الأشعرى مع بقية الجيش ، فقوى قلبنا وكبرنا فأجابونا بالتهليل والتكبير ، فتقدم الفضل بن العباس الى بطريق شلقم وكان فارسا شديدا وعليه ديباجة مفصصة بالذهب وفى وسطه منطقة بالذهب مرصعة بالجواهر ، وقد عصب رأسه بعصابة من الجواهر وبيده عمود من الذهب طوله ثلاثة أشبار وأزيد ، وهو تارة يضرب بالسيف وتارة يضرب بالعمود ، فلما رآه الفضل ظن أنه يريده ، فحمل عليه الفضل وهو ينشد و يقول :

يأيها الكلب اللعين الطاغيا ومن أتى لجيشنا معاديا
أبشر لقد وافاك ليث ضاريا بحد سيف فى عداه ماضيا
كان له الرب العظيم واقيا من كل كلب إذ يكون طاغيا

قال فلم يفهم مايقول الفضل وحمل عليه وتعاركا وتجاولا وضرب الفضل رضى الله عنه فحاد عنها وعطف عليه وانتزع العمود من يده وضربه ضربة هاشمية قرشية أبان بها رأسه عن بدنه ونظر اليه لم يسقط فعاد عليه وهو جثة بلا رأس فتلقاه فارس من المسلمين اسمه زهير فوجده مكلبا بكلاليب فى سرجه فنزع الكلاليب فسقط عدو الله كالطود بعد أن تضمخ تاجه ومنطقته

دما . فقال له الفضل ان السلب لى تخذه لك فقد وهبتك اياه . فقال لأعدمنا الله مكارمكم يابنى هاشم وعطف على لوص فقتله وقتل كل أمير بطريقا غيره وحملت المسلمون حملة رجل واحد فبددوا شملهم فولوا منهزمين بين أيديهم واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون الى أن وصلوا الى البحر اليوسفى وألقوهم فى مكان قريب من شاقولة فسميت القرية بذلك وتحصنت جماعة بقلعة المرج فأحاط بها المسلمون وحرقوا الأبواب وهدموا الجدران واستخرجوا ماهناك وقتلوا من الروم مقتلة عظيمة نحوا من ثلاثة آلاف وأسروا نحوا من ألف وقتل من المسلمين ثمانية وأربعون رجلا ، من أعيانهم سيف الأنصارى رضى الله عنهم أجمعين ، ودفن هو وأصحابه بمكان الوقعة ، وكان زياد بن المغيرة وجماعته نزولا فى أماكنهم قريبا من طنبدا كما ذكرنا حول البلد المعروف بدهروط ، وكان زياد صديقا للأمير سليمان بن خالد بن الوليد رحمه الله فكتب كتابا للأمير خالد بن الوليد يعزيه فى ولده سليمان ويقول :

ياخالد ان هذا الدهر فجعنا ... فى سيد كان يوم الحرب مقداما
مجندل الفرس فى الهيجا اذا اجتمعت ... وللصناديد يوم الحرب خصاما
لايملك الضد من أبطالنا أملا ... ان حاز ساعده القصاص صمصاما
ياطول ماهزم الأعدا بصارمه ... أنالهم منه تنكيسا وارغاما
كأنه الليث وسط الغاب اذ وردت ... له العدا وعلى الأشبال قدحامى
ياعين جودى بفيض الدمع منك دما ... بل واندبى فارسا قدكان ضرغاما
والسيد الفرد عبد الله قد حكمت ... به المنايا وحكم الله قدداما
نجم الفتى العلم المقداد خير فتى ... قدكان فى ملتقى الأعداء هجاما

[قال الواقدى] فلما وصل الكتاب الى خالد بن الوليد كان قريبا من الدير ببقية الجيش وهو ينفذ السرايا وأهل البلاد يأتونه بما صالحوه عليه من المال وغيره وقد جهز عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن نافع الفهرى والزبير رضى الله عنهم بألف فارس الى الفيوم ، وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى ، فلما ورد الكتاب على خالد سقط الى الأرض وخرّ مغشيا عليه ، ثم أفاق واسترجع ، وقال لاحول ولاقوّة الابالله العلىّ العظيم — إنالله وإنا اليه راجعون — ، ثم قال : اللهمّ انى احتسبت سليمان اليك : اللهم اجعله فرطا وذخرا ، وأعقبنى عليه صبرا ، وأعظم لى بذلك أجرا ولاتحرمنى الثواب برحمتك ياأرحم الراحمين ، ثم قال والله لآخذنّ فيه ألف سيد من ساداتهم ولأقطعنّ ساداتهم وفرسانهم وانى أرجعو أن آخذ بثاره ان شاء الله تعالى ولأقتلنّ البطليوس شرّ قتلة لعلى أشفى بذلك غليل صدرى وحرارة كبدى وليكونن على يدى خراب دياره وانهزام جيوشه وزوال ملكه ، وهطلت مدامعه على وجنته أحرّ من الجمر ، ثم جعل يسترجع ويقول :

جرى مدمعى فوق المحاجر منهمل ... وحرفؤادى من جوى البين يشتعل
وهام فؤادى حين أخبرت نعيه ... فليت بشير البين لاكان قدوصل
لقد ذوّب الأحشاء وأجرى مدامعى ... صبيبا وعن نار الفؤاد فلاتسل
سأبكى عليه كلما أقبل المسا ... وما ابتسم الصبح المنير وما استهل

لقد كان بدرا زائد الحسن طالعا ... فأضبح بعد النور والزهو قد أفل
وكان كريم العم والخال سيدا ... اذاقام سوق الحرب لا يعرف الوجل
أحاطت به خيل اللئام بأسرهم ... وقد مكنوا منه المهند والأسل
وعيشك تلقاهم صراعا على الثرى ... عليهم يسوق الوحش والطير محتفل
فوا اسفا لو أننى كنت حاضرا ... بأبيض ماضى الحد فى الحرب مكتمل
وحق الذى حجت قريش لبيته ... وأرسل طه المصطفى غاية الأمل
لأقتل منهم فى الوغى ألف سيد ... اذا سلم الرحمن واتسع الأجل

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وأقبلت الامراء يعزون خالدا ومدامعهم تفيض من عيونهم و يقولون أعظم الله لك أجرا ، وأعقبك عليه صبرا ، وجعله لك غدا فى المعاد ذخرا ، والله لقد عدمنا القوى ، وقد أبيد القلب من حشاشتنا واكتوى ، ونحن لقتله ذاهلون ـ إنا لله و إنا اليه راجعون ـ وكذلك يعزون المقداد فى ولده عبدالله و بلغ الخبر عمرو بن العاص بمصر وهو مقيم بها فكتب لهما كتابا بالتعزية و بلغ الخبر المدينة لعمر بن الخطاب فاسترجع هو و بقية الصحابة مثل على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله ، ومن كان حاضرا من الصحابة بالمدينة الطيبة رضى الله عنهم وعلى ساكنها أفضل الصلاة والسلام وكتبوا الى خالد والمقداد كتابا يعزونهما ، فلما وصل الكتاب الى خالد والمقداد اطمأنا لما عليهما من الصبر وما لهما من الأجر والثواب .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] هذا ماجرى لهؤلاء ، وأما البطليوس لعنه الله فانه لما تحقق مجىء العرب الى مدينة البهنسا فتح خزائن الأموال وفرق المال والسلاح والعدة من الملبوس والدروع وغير ذلك وفرق على البطارقة وعلى غيرهم من الجند ، وكان هناك بيت مقفل كما ذكرنا فيه صفة العرب وأسماؤهم فأمر بفتحه وهو يظن أن فيه مالا مدخرا فمنعه القسوس والرهبان من ذلك فأبى ففتحه فلم يجد فيه الا صفة العرب وأسماءهم كما ذكرنا أول الكتاب فنظر لذلك ودخل الكنيسة وجلس على سريره وجمع حوله البطارقة فاستشارهم فى أمره فقام شيخ كبير راهب وكان مطاعا عنده مسموع الكلام كبير السن ، وكان عمره مائة وعشرين سنة فقام وعليه جبة سوداء وعلى رأسه قلنسوة وفى يده عكازة من الآبنوس ملبسة بالعاج والذهب فقرب من الهيكل وتكلم بكلام لا يفهم ثم قال بعد ذلك : ياأهل دين النصرانية و بنى ماء المعمودية قد كانت دولتكم قائمة وكلمتكم مسموعة مادمتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتعدلون فى الرعية وتأخذون للمظلوم من الظالم وتنصفون الضعيف من القوى وتواسون الفقير ولا تمدون أيديكم الى شىء من أموال الناس وتهابون الزنا ، وكانت الدولة لكم وقلوب الرعية منجذبة اليكم وداعية لكم وكان الملك فيكم ولما لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر وظلمتم الرعية وجرتم فى الأحكام وحكمتم بغير الحق ولا تأخذون للضعيف حقه من القوى ومددتم أيديكم الى أموال الرعية وفشت فيكم المعاصى فتغيرت قلوب الرعية ومدوا أيديهم بالدعاء عليكم ودعاء المظلوم مستجاب وكثرة الظلم خراب فيوشك أن تنزع هذه النعمة من أيديكم وتعود الى غيركم بكثرة ذنوبكم وشؤم معاصيكم و بدعاء المظلومين عليكم ، فلأجل ذلك سلطت عليكم العرب فلكوا بلادكم وقتلوا رجالكم ونهبوا

أموالكم وسكنوا منازلكم واستولوا على معاقلكم فتيقظوا من غفلتكم وذبوا عن حريمكم وأموالكم ولا تمكنوا العرب من جانبكم وهذه مقالتي لكم جميعا ، فلما سمع البطليوس لعنه الله كلام القس وما تكلم به التفت الى بطارقته وجماعته ونوابه ، وقال هل سمعتم ماقال أبوكم ؟ قالوا سمعنا . قال فما عندكم من الرأى ؟ قالوا نحن معك وبين يديك ونقاتل العرب ولا نطمعهم فينا كما طمعوا فى غيرنا وان غلبونا استعددنا للحصار وعندنا من الميرة والعلوفة ما يكفينا عشر سنين وأزيد وبلدنا حصين ولا نسلم أنفسنا والا يكون علينا عارا عند الملوك قال فشكرهم البطليوس على ذلك ووثب قس آخر ، وكان يناظر ذلك القس فى المعرفة واستخرج كتابا معاقا كان عنده فى صندوق من الآبنوس مقفل بأقفال من الفولاذ وقال ياأهل دين النصرانية و بنى ماء المعمودية اسمعوا مانعته لكم العلماء والكهان والحكماء ، انه يبعث نبىّ فى آخر الزمان يسمى محمد بن عبدالله من بنى عدنان يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه يبعثه الله نبيا الى جميع البشر ، مولده بمكة ، ودار هجرته طيبة ، ثم يقيم أياما ويتوفاه الله عزوجل ، ثم يتولى الأمر من بعده رجل يسمى أبا بكر وتزداد العرب به فخرا ويجهز العساكر الى الشام ، ثم لم يلبث الا أياما قلائل ويتوفاه الله تعالى ويتولى الأمر من بعده الرجل الأصلع الأحور المسمى بعمر وهو صاحب الفتوح ومصبح الأعداء بأشأم صبوح تفتح على يديه الأمصار ويبعث سراياه الى سائر الأقطار ، وانا نجد فى الكتب القديمة أن هذه المدينة تفتح على يد رجل أسمر وشجاع غضنفر فارس شديد وبطل صنديد يسمى بخالد بن الوليد ، فان سمعتم قولى وقبلتم فاعقدوا مع العرب صلحا فان الدولة لهم ودينهم الحق ، ولو قاتلهم أهل المشرق والمغرب غلبوهم ببركة الله وبركة نبيهم محمد ، قال فلما سمع البطارقة كلامه غضبوا غضبا شديدا وأرادوا قتله فمنعهم البطليوس من ذلك وقال له كأنك خفت من سيوف العرب ، وأنا أعلم ان الرهبان والقسوس لاقلوب لهم لأنهم ليس لهم أكل الا العدس والزيت والليمون والأشياء الرديئة ولايعرفون اللحم فلأجل ذلك ضعفت قلوبهم فلولا مقامك من قديم الزمان ورؤيتك الملوك القدماء لبطشت بك ، ولئن عدت الى مقالتك هذه لاقتلنك شرقتلة قال فسكت القس الراهب وخرج البطليوس من وقته وساعته وجلس فى قصره ذى الأعمدة ، ثم استدعى ببطارقته وخلع عليهم ورفع لهم الاعلام والصلبان وعرض عليه جيشه فاذاهم ثمانون ألفا غير السوقة المشاة فسر بذلك سرورا عظيما ، ثم استدعى ببطريق من بطارقته يدعى قابيل ، وكان لايقطع أمرا دونه فخلع عليه ودفع له ثمانين ألفا وأمره بملاقاة العرب ، ثم استشار خواص مملكته فى الاقامة فى البلد أو الخروج الى ظاهرها . فقال له ذو الرأى من بطارقته : أيها الملك انك اذا أقمت فى البلد استضعفوا رأينا وأمرنا ، واذا كنت بجانب المدينة لا تجد العرب أن تصل الينا ونجعل البلد خلف ظهرنا ونقاتل من خارج الأبواب ويساعدونا من فوق الابراج ، فاذا عظم الأمر فلا ندخل المدينة الامن أمر عظيم فاستصوب رأيهم ، ثم انه أمر الفراشين أن يخرجوا الخيام والسرادقات والقباب بظاهر المدينة وأخرجوا له سرادقا عظيما سعته سبعون ذراعا وارتفاعه مثل ذلك على أعمدة من الخشب المصفح بالذهب والفضة وهو من الحرير الملوّن : الأزرق والأحمر والأخضر والأبيض والأصفر والأسود ومقضب بقضبان الذهب والفضة مرصع باللؤلؤ وفيه تصاوير من داخله ومن خارجه من جميع أجناس الطير والوحوش والكواكب وفرش فيه من الفرش

و بسط الحرير الملوّن ووضع فيه المساند والوسائد والأنطاع وأطناب السرادقات حرير ملوّن بأوتاد من عاج وآبنوس فى حلق من ذهب وفضة وعلق فيه قناديل وسلاسل من ذهب وفضة ، ووضع فيه سريرا من خشب الساج المنقوش المصفح بالذهب الوهاج على قوائم بزمامين من ذهب وفضة طوله سبعة أذرع وعرضه مثل ذلك وارتفاعه مثل ذلك يصعد اليه بدرج من خشب مصفح بصفائح من ذهب وفضة ، وعليه فرش من حرير ووسائد ومساند ونمارق وحوله ثمانين كرسيا مصفحة بالخشب الآبنوس يجلس عليها أرباب الدولة وأصحاب الصولة وضرب حوله من الخيام والسرادقات مالايوصف له عد .

[قال الراوى] حدثنا جماعة من الصحابة ممن شهد الفتح وعاين السرادقات انه لما هرب الملعون ودخل المدينة وكان السرادق منصوبا مقابل الباب البحرى المعروف بباب قندوس أمر بطريقا من بطارقته اسمه سمعان أن ينصب سرادقه الذى وهبه له عند باب توما وهو الباب القبلى وأمر بطريقا اسمه اصطافين أن ينزل فى الجانب الشرقى قريبا من القناطر على ساباط معقود على أعمدة من الحجارة فأمره أن ينزل ومعه عشرة آلاف فارس حول القلعة . قال هبار بن أبى سفيان أوسلمة بن هاشم المخزومى مانزلنا على مدينة من مدائن الشام ولا رأينا أكثر عددا ولا أكثر زينة من مدينة البهنسا ولا أقوى قلوبا منهم وأكثروا من الصلبان ونصبوا السرادقات والمنجنيقات على الأسوار وأسبلوا على الأسوار جلود الفيلة المصفحة بصفائح الفولاذ ورتبوا الرماة والمجانيق والسهام وغير ذلك .

[قال الراوى رحمه الله] هذا ماجرى لهؤلاء ، وأما الأمير عياض بن غانم الأشعرى رضى الله عنه ، فانه لما قرب من البهنسا استشار أصحابه مثل أبى ذر الغفارى وأبى هريرة الدوسى ومعاذ بن جبل وسلمة بن هاشم المخزومى ومالك الأشتر النخعى وذى الكلاع الحميرى رضى الله عنهم ومعهم ألفان من أصحابهم وأمرهم بالنزول فى الجهة الشرقية وقال لهم ان قاتلوكم فقاتلوهم ونازلوا القلعة حتى تأخذوها ، وعبر الأمير عياض من الجهة البحرية ومعه أصحاب الرايات والأمراء والطليعة من هؤلاء السادات وهم الفضل بن العباس وأخوه عبيد الله بن العباس وشقران وصهيب ومسلم وجعفر وعلى أولاد عقيل بن أبى طالب وعبد الله بن جعفر وزياد بن أبى سفيان وتتابعت خلفهم السادات وأصحاب المروءات مثل نعيم بن هاشم بن العاص وهبار بن أبى سفيان وعبد الله بن عمرو الدوسى وسعيد بن زبير الدوسى وحسان بن نصر الطائى وجرير بن نعيم الحميرى وسالم بن فرقد اليربوعى وسيف بن أسلم الطائى ومعمر بن خويلدة السبكى وسنان بن أوس الأنصارى ومخلد بن عون الكندى وابن زيد الخيل ومثل هؤلاء السادات أصحاب الرايات رضى الله عنهم وتتابعت الكتائب يتلو بعضها بعضا وعبروا الى الجانب الغربى ، فبينماهم سائرون واذا بعدوّ الله قابيل قد أقبل بالبطارقة المتقدم ذكرهم ، فلما التقى الجمعان عند سفح الجبل تحت المغارة أشار الى أصحابه فأمسكوا عن المسير وتقدّم الى راية عالية والى جانبه رجل من العرب المتنصرة وأمره بأن ينادى برفيع صوته قرّبوا الى البطريق رجلا منكم ذا خبرة يكلمه فوثب اليه جرير الحميرى وأتى الى عياض وقال أيها الأمير أتأذن لى أن أكلمه . قال نعم ان طلبوا الصلح ورفعوا القتال صالحناهم حتى يحضر الأمير خالد بن الوليد ويفعل أمره ، وان أرادوا القتال قاتلناهم واستعنا بالله تعالى عليهم وهو

حسبنا ونعم الوكيل .

[قال الراوى رحمه الله] فعندها سار حتى وقف بازاء البطريق وقال له سل حاجتك . فقال له أأنت أمير القوم . قال لا ولكنى متكلم عن الأمير . فقال له لم تركتم بلاد الشام والنعم العظام وأتيتم إلى هذه البلاد ؟ وكنتم فى بلاد الحجاز تقاسون جوعا وعريا فذقتم فواكه الشام وثمار الحجاز وخيرات اليمن فلم يكفكم ذلك حتى أتيتم الى مصر وقهرتم القبط وأتيتم الى بلاد الفرس وقهرتم ملوكها ولم تكتفوا حتى أتيتم الينا وهجمتم علينا فى بلادنا وقتلتم أبطالنا ونهبتم أموالنا ونحن نتغافل عنكم ونهمل أمركم حتى غلظت شوكتكم وقصدتم مدينتنا التى هى دار ملكنا ومحل ولايتنا ، ولقد طلبها من قبلكم من الفراعنة والجبابرة والقبط والقياصرة والأكاسرة والجرامقة ورجعوا خائبين وأنتم هجمتم علينا وقتلتم رجالنا ، فقولوا لنا ما الذى تريدون منا ؟ . فان كنتم تريدون مالا وترجعون عنا : قمت أنا عن الملك بذلك وترحلون عنا وتردون لنا ما ملكتم من بلادنا وان الملك لايخالف لى أمرا فاخبرونى ما الذى تريدون وما الذى تطلبون ؟ . فقال له جرير أفرغت من كلامك ؟ . فقال له نعم . قال له جرير خذ جوابك . أما قولك كنا فى ضيق حال فهو كما ذكرت ، ولكن أنعم الله علينا بالاسلام وهو أوّل نعمة ثم أمرنا بالجهاد ، وإن الله تعالى أباح لنا أموال المشركين ماداموا محاربين ، وأمرنا أن نجاهدكم حتى تؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، أوتسلموا ، أوتقاتلوا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . وأما قولك المال فليس هو غرضنا ولامتاع الدنيا شهواتنا ، وان بلادكم عن قريب تكون لنا وأموالكم غنيمة لنا نتقاسمها .

[قال الواقدى] فلما سمع البطريق الكلام غضب غضبا شديدا ، وقال أنا كفء لكم دون الملك ، ثم أمر أصحابه بالحملة على جرير . قال فما لويت عنان جوادى الا والخيل قد ركبتنى ، فعندها توائب المسلمون واقتتلوا قتالا شديدا وتبادرت الرجال وزمجرت الأبطال وزحفت الأفيال وتراشقوا بالنبال وتضاربوا بالنصال وتطاعنوا بالعوال والتقى الجمعان واصطدم الفريقان واشتد النزال وكثرت الأهوال وتقاتلت الفرسان وولى الجبان حيران ، فلله در المغيرة بن شعبة وعون بن ساعدة وعبادة بن تميم والفضل بن العباس رضى الله تعالى عنهم : لقد قاتلوا قتالا شديدا وأبلوا بلاء حسنا ولم يزل القتال يشتد من ارتفاع الشمس الى الغروب ، فعندها وثب عبد الله بن جعفر الى قابيل وضربه ضربة حاد عنها عدوّ الله وولى هاربا وتبعه جماعة نحو ثلثمائة فارس ولم يزل الفريقان فى قتال ونزال الى أن غابت الشمس وافترق الجمعان ، وقد قتل من المسلمين نحو خمسين رجلا ختم الله لهم بالشهادة وقتل من الروم نحو ألفى فارس . قال واجتمعت الروم حول قابيل وولى هاربا الى أن وصل الى البطليوس ، فلما رآهم وبخهم وقال لهم بأى وجه تفرّون من العرب ولم تصبروا لهم وقد فشلتم وجزعتم . فقال له قابيل أيها الملك ليس الخبر كالعيان ، وهؤلاء ليسوا بانس وانما هم جن فى القتال ، ولولا الأجل حصين ما عدت اليك ، فغضب الملك وقال اسكت قد تمكن رعب العرب من قلبك وسننظر ما يكون من أمرهم ، ثم بات فى قلق شديد حتى أصبح الصبح ولم يأمر قومه بالركوب وقال امهلوا حتى أنظر ما يكون من أمرهم .

ذكر فتوح البهنسا ونزول الصحابة وقتل البطريق

[قال الراوى رحمه الله] ولما أصبح المسلمون صلوا صلاة الصبح ثم تبادروا الى خيولهم فركبوها فلم يجدوا لأعداء الله خبرا ولا أثرا وتيقنوا أنهم انهزموا ومضوا الى مدينتهم ، فسارت المسلمون الى أن قربوا من البهنسا فلاحت لهم المضارب والخيام والسرادقات والاعلام .

[قال الراوى] حدثنا قيس بن منهال عن عامر بن هلال عن ابن زيد الخيل . قال لما أشرفنا على مدينة البهنسا ورأينا تلك المضارب . قال عياض رضى الله تعالى عنه : اللهم اخذلهم وانصرنا عليهم : اللهم احصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا واخزهم — إنك على كل شىء قدير — وأمن المسلمون على دعائه . قال فلما أقبلنا على مدينة البهنسا كبرنا وهللنا فخرجوا الى ظاهر الخيام و بأيديهم السيوف والدرق والقسى والنبال ورأينا خلقا كثيرة على الابراج وأراد جماعة من العرب الحملة عليهم فمنعهم الأمير و بقية الأمراء من ذلك وقالوا لاحملة الا بعد انذار ، ثم انهم لم يأتوا الينا ولاناوشونا بقتال واستقلونا فى أعينهم .

[قال الواقدى] ونزل المسلمون بجانب الجبل عند الكثيب الأصفر قريبا من البياض الذى على المغارة نحو المدينة هذا ماجرى لهؤلاء ، وأما أبو ذرّ الغفارى وأبوهريرة الدوسى ومعاذ بن جبل ومسلمة بن هاشم ومالك الأشتر وذوالكلاع الحميرى فانهم ساروا حتى نزلوا قريبا من القوم و باتوا تلك الليلة ، فلما أصبحوا خرج أعداء الله للقائهم . فقال مالك الأشتر : ياقوم ان أعداء الله قد خرجوا للقائكم فاشغلوهم بالقتال وارسلوا جماعة منكم يملكون الجسر واستعينوا بالله ، فعندها خرج المرزبان ومعه ثلثمائة فارس حتى وصلوا الى الجسر والحجارة تتساقط عليهم من أعلى السور حتى ملكوا الجسر وجعلوا فى أماكن المخاضات حراسا بسيوف محدودة واقتتل المسلمون وأعداء الله قتالا شديدا وثبتوا فى القتال سبعة أيام ، وكلما أتوا الى مكان المخاضة وجدوه مربوطا بالرجال وصار كل ليلة تهرب منهم جماعة من الروم ويهيمون على وجوههم يريدون الصعيد فتلقاهم رافع ابن عميرة الطائى ومعه سرية من أصحاب قيس بن الحرث عند البلد المعروف بادقار وكانوا حوالى البحر اليوسفى يشنون الغارات على تلك السواحل ، فبينماهم كذلك يسيرون إذ سمعوا دوى حوافر الخيل فظنوا انهم مسلمون فكلموهم فلم يرد عليهم أحد فلحقوهم وحملوا عليهم وكانوا ستمائة فارس ففروا من بين أيديهم فقتلوا منهم نحو مائتين وهرب الباقون وقتل من المسلمين ثلاثة وهرب الروم نحو المخاضة فغرق منهم مائة وأسروا منهم مائتين وهرب الباقون وسألوهم عن سبب خروجهم فأخبروهم انهم يرودون ، فعند ذلك أوثقوهم كتافا وأتوا بهم مكتفين مع نفر من المسلمين الى أن أوصلوهم الى عياض بن غانم الأشعرى فاعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وأقبلوا نحوهم ففرحوا بالأسارى ، ثم عرضوهم على الأمراء المتقدم ذكرهم فعرضوا عليهم الاسلام فأبوا فضربت أعناقهم والروم ينظرون الى ذلك ، ثم زحفت عليهم الصلبان واقتتلوا قتالا شديدا وحمى الحرب وكثر الطعن والضرب من ارتفاع الشمس الى وقت العصر وفشا القتل فى الروم ، فلما رأوا ذلك ولوا الأدبار وركنوا الى الفرار وصعدوا على القلعة وغلقوا الأبواب واستعدّوا للحصار ونصبوا آلات القتال .

قال هـذا ماجرى لهؤلاء ، وأما الصحابة رضى الله تعالى عنهـم فانهم نزلوا فى سفح الجبل والوادى فى المكان المتسع من الجهة البحرية والجهة الغربية ، فلما جاء الليل أوقـدوا نيرانهم واجتمعت كل قبيلة ببنى عمها يقرءون القرآن و يصلون على محمد أشرف ولد عدنان ، ومافيهم الامن هو راكع أوساجد أوداع لله عزّ وجل لعله أن ينصرهم على عدوّهم و باتت الروم اللئام يشربون الخمر داخل المدينة وخارجها ، وقد أعلنوا بكلمة كفرهم حتى ضجت منهم أرض البهنسا واستغاثت الى الله عزّ وجل ، فناداها بلسان القدرة اسكنى يابهنسا ، فوعزّتى وجلالى لأهلكنهم ولأسكننك قوما يوحدونى من خيار خلقى ، ولأجعلن تلك البيع مساجد للصلاة والجمع ، فلما سمعت الأرض الخطاب من قبل رب الأرباب مالت فرحا واهتزت طربا و بقيت منتظرة وعد ربها بزوال كربها فلم يكن الا قليل حتى أزال الله عنها أهل الكفر والطغيان وعبدة الصلبان وأسكنها خير أمة أخيار من المهاجرين والأنصار من أصحاب محمد المختار يصلون بها آناء الليل وأطراف النهار ، وجعلت البرية مدافن للسادات الشـهداء الاطهار ، وصار عليها بعد الظلام أنوار ، وصارت زيارتها تحط الخطايا والأوزار .

[قال الواقدى] ولما أصبح الصباح صلى المسلمون صلاة الصبح وجلسوا ينتظرون ما يكون من أمر الروم واذا بقس قد أقبل راكبا بغلة وعليه مدرعة من شعر وقلنسوة وزنار ، فسار حتى وصل قريبا من العسكر ، ثم تكلم بلسان عربى وقال يامسلمين أريد أمير العرب .

[قال الراوى] حدثنا قيس بن شماس عن كعب بن همام عن شـداد بن أوس وكان من أصحاب الرايات . قال بينما نحن جلوس نتحدث مع الأمير عياض بن غانم إذ أقبل عبد الله بن عاصم وأخبر عن ذلك القس . قال فأذن له الأمير عياض بالدخول فدخل القس ، فوجد الأمير عياضا جالسا فى خيمته على فراش من أدم وحشوه من ليف وفرش المشركين التى اكتسبوها مطوية على جانب وحوله السادات والأمراء رضى الله عنهم كلهـم جلوس حوله وهو كأنه أحدهم وسيوفهم على أفخاذهم وعليهم هيبة ووقار . فلما دخل القس اندهش وحار وأخـذه الانبهار ، ثم التفت يمينا وشمالا وقال : ياقوم أيكم الأمير حتى أكلمه فانكم كلكم أراكم سادات وأمراء وعليكم هيبة ووقار ، فأشاروا الى الأمير عياض فالتفت اليـه وقال : يافتى أنت أمير قومك . قال كذلك يزعمون مادمت على طاعة الله عزّ وجل . فقال له القس ان الملك البطليوس قد أرسلنى اليكم يريد ذا الرأى والخبرة ليسأله عن أمركم ، فلعل أن يكون ذلك سبب حقن الدماء بينكم و بينه . قال فعندها التفت الأمير عياض الى أصحابه وقال ماتقولون فيما أتاكم به هذا القس ، ومن ينطلق اليه ويخاطبه و يعود الينا . قال فوثب المغيرة بن شعبة وقال أنا أمضى اليه وأريد معى عشرة رجال من الأمراء ذوى المروءة والبأس . فقال له الأمير اختر من شئت وفقك الله وسـددك ، وردك الينا سالما غانما ، أنت ومن معك . قال فالتفت وراءه وقال : أين سعيد بن عبـد القادر ، أين أبو أيوب الانصارى ، أين خالد بن زيد الانصارى ، أين زيد ابن ثابت الانصارى ، أين مسعود البـدرى ، أين جرير بن مطعم ، أين أبو يزيد العقيلى ، أين معاوية بن الحكم الثقفى ، أين عمار بن حصين ، أين زيد بن أرقم . فأجابوه بالتلبية ، فقال لهم خـذوا أهبتكم وانطلقوا معى على بركة الله وعونه ، قال فتبادر هؤلاء الامراء السادات الى

خيامهم ولبس كل واحد درعه وتنكبوا بحجفهم ، وتقلدوا بسيوفهم واعتقلوا برماحهم .

[قال الواقدى رحمه الله] ثم ان المغيرة رضى الله عنه دخل الى خيمته ولبس درعه وشد وسطه بمنطقته ، وهى من الادم وفيها خنجران واحد عن اليمين وواحد عن الشمال وتقلد بسيف من جوهر واعتقل برمح أسمر وركب جواده الأدهم ، وأخذ كل واحد منهم عبده راكبا على بغلة وودعهم فالتفت الأمير عياض ، وقال للمغيرة اعرف ياأبا شعبة ماتكلم به هذا الملعون فاعرفتك الامفلج الحجة فادعه الى الاسلام ومافرض عليه من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد ، وماأبيح من الحلال ، وماحرّم من الحرام ، فان أبى فالجزية فى كل عام ، فان أبى فالقتال بحد الحسام ، ونرجو النصر من الملك الديان ، بجاه محمد خير الأنام . قال فقال المغيرة أرجو من الله الملك الوهاب المعونة فى رد الجواب وسارت الامراء والقس أمامهم راكب على بغلة وعبيدهم خلفهم على بغالهم وكل عبد عليه لامة حربه وساروا وهم معلنون بالتهليل والتكبير ، والصلاة على البشير النذير . قال زيادبن ثابت ، ولما فارق القوم الأمير عياضا نظرت اليه وعيناه تذرفان بالدموع حتى بلت دموعه لحيته ، وهو يقرأ القرآن . فقلت أنا أيها الأمير ماهذا البكاء . فقال لى ياابن ثابت هؤلاء والله أنصار الدين . فان أصيب رجل منهم فما يكون عذرى عندالله عز وجل ؟ قال وسار المغيرة وأصحابه حتى أشرفوا على عسكر العدوّ ، واذا هو ملء الأرض ، وهو نازل حول مدينة البهنسا فصاح المغيرة ومن معه يقولون لاإله إلاالله محمد رسول الله ﷺ ، فبيناهم كذلك اذ أقبل اليهم بطريق ومعه رجل من العرب المتنصرة راكب الى جانبه ومعهما نحو مائة ألف فارس وساروا بين أيديهم حتى وصلوا الى قريب سرادق الملك ولاح البطليوس وهو جالس على السرير فعند ذلك خرج لهم الحجاب والنواب وأرباب الدولة والصولة ، وقالوا قد وصلتم و بلغتم الى سرادق الملك فانزلوا عن خيولكم وانزعوا سيوفكم . فقال المغيرة ، أماخيولنا فننزل عنها ، وأماسيوفنا فلانتزعها ، فانها عزنا وما كنا بالذى ينزع عزه الذى يعتزبه دهره . قال فاخبر الحجاب الملك بذلك ، فقال دعوهم يدخلون بسيوفهم فنادتهم الحجاب ادخلوا .

[قال الواقدى رحمه الله ورضى عنه] فعندها ترجل أصحاب رسول الله ﷺ عن خيولهم وأمسكوها لعبيدهم ، وأقبلوا يتبخترون فى مشيهم ويجرون حمائل سيوفهم ويخترقون صفوف الكفار وهم لايهابونهم الى أن وصلوا الى سرير الملك فدخلوا الى أن وصلوا الى النمارق والفرش والديباج والملك جالس على سريره ولما نظر المسلمون الى ذلك عظموا الله تعالى وكبروه فارتج السرادق وتغيرت ألوان القوم وصاح بهم الحجاب قبلوا الأرض للملك فلم يلتفتوا اليهم . قال المغيرة لاينبغى السجود إلا للملك المعبود ، ولعمرى كانت هذه تحيتنا قبل ، فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم نهانا عن ذلك فلايسجد بعضنا لبعض . قال فسكتوا . قال فأمر الملك بكراسى من ذهب وفضة فنصبت لهم فلم يجلسوا عليها ، وكانوا من حين دخلوا أمروا بعض عبيدهم أن يطووا البسط من تحت أرجلهم الى أن وصلوا الى فرش الديباج فشالوها على جنب ، فقالت لهم البطارقة قد أسأتم الأدب معنا اذلم تسجدوا للملك ولم تمشوا على فرشنا ، فقال المغيرة ان الأدب مع الله تعالى أفضل من الأدب معكم والأرض أطهر من فرشكم لأن رسول الله ﷺ يقول « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » ، وقال الله تعالى ـ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها

نخرجكم تارة أخرى — .

[قال الواقدي رحمه الله تعالى] لم يكن بين البطليوس والصحابة ترجمان لأنه كان أعرف أهل زمانه بلسان العربية ، فعند ذلك أمرهم بالجلوس ، فقال المغيرة أماأن تنزل عن سريرك وتكون معنا على الأرض أوتأذن لنا بالجلوس معك على السرير لأن الله تعالى شرفنا بالاسلام قال فأشار لهم بالجلوس معه على السرير بعد ان أزالوا تلك الفرش وجلس المغيرة الى جانبه فالتفت البطليوس لعنه الله اليهم ، وقال لهم : أيكم المتكلم عن أصحابه ؟ فأشاروا الى المغيرة رضي الله عنه والصحابة جلوس وأيديهم على مقابض سيوفهم فالتفت البطليوس الى المغيرة ، وقال له ما اسمك ، فقال عبد الله المغيرة ، فقال يامغيرة انى أكره أن أبدأك بالكلام ، فقال المغيرة تكلم بما شئت فان عندى لكل كلام جوابا . ثم ان البطليوس أفصح فى كلامه وقال : الحمد لله الذى جعل سيدنا المسيح أفضل الأنبياء ، وملكنا أفضل الملوك ونحن خير سادة فقطع عليه المغيرة ، فقالت الحجاب والنوّاب لقد أسأت الأدب مع الملك ياأخا العرب فأبى المغيرة أن يسكت وقال : الحمد لله الذى هدانا للاسلام ، وخصنا من بين الامم ببعث محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فهدانا به من الضلالة ، وأنقذنا به من الجهالة ، وهدانا الى الصراط المستقيم فنحن خير أمة أخرجت للناس نؤمن بنبينا ونبيكم وبجميع الانبياء ، وجعل أميرنا الذى هو متولى علينا كاحدنا لوزعم أنه ملك وجار عزلناه عنا فلسنا نرى له فضلا علينا الابالتقوى ، وقد جعلنا الله نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونقر بالذنب ونستغفر منه ، ونعبد الله وحده لاشريك له ، ولوأذنب الرجل منا ذنوبا تبلغ مثل الجبال فتاب قبلت توبته ، وان مات مسلما فله الجنة ، قال فتغيرلون البطليوس . ثم سكت قليلا وقال : الحمد لله الذى ابتلانا بأحسن البلاء ، وأغنانا من الفقر ونصرنا على الامم الماضية ، ولقد كانت جماعة منكم قبل اليوم يأتون الى بلادنا فيمتارون البرّ والشعير وغيره ونحسن اليهم وكانوا يشكروننا على ذلك وأنتم جئتمونا بخلاف ذلك تقتلون الرجال وتسبون النساء وتغنمون المال وتنهبون المدائن والحصون والقلاع وتريدون أن تخرجونا من بلادنا وديارنا ، وأنتم لم تكن أمة من الامم أضعف حالا منكم لانكم أهل الشعير والدخن وجئتم بعد ذلك تطمعون فى بلادنا وأموالنا وحولنا جنود كثيرة ، وشوكتنا شديدة ، وعصابتنا عظيمة ، ومدينتنا حصينة والذى جرأكم علينا انكم ملكتم الشام والعراق واليمن والحجاز وارتحلتم الى بلادنا وأفسدتم كل الفساد وخربتم المدائن والقلاع ولبستم ثيابا فاخرة وتعرضتم لبنات الملوك والبطارقة وجعلتموهن خدما لكم وأكلتم طعاما طيبا ما كنتم تعرفونه وملأتم أيديكم بالذهب والفضة والمتاع الفاخر واللآلئ والجواهر ومعكم متاعنا وأموالنا التى من قومنا وأهل ديننا ونحن نترك لكم ذلك جميعه ولا ننازعكم عليه ولا نؤاخذكم بما تقدم من فعلكم من قتل رجالنا ونهب أموالنا ، والآن فارحلوا عنا واخرجوا من بلادنا . فان فعلتم فتحنا خزائن الأموال وأمرنا لكل رجل منكم بمائة دينار وثوب حرير وعمامة مطرزة بالذهب ولاميركم هذا ألف دينار وعشرة عمائم وعشرة ثياب ، ولكل أمير منكم كذلك وللخليفة عليكم عشرة آلاف دينار ومائة ثوب حرير ومائة عمامة بعد ان نستوثق منكم بالايمان انكم لاتعودون الى الاغارة على بلادنا هذا كله والمغيرة ساكت ، فلما فرغ ، البطليوس من كلامه ، قال له المغيرة قد سمعنا كلامك فاسمع كلامنا . ثم قال الحمد لله الواحد

القهار الفرد ـ الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ـ فقال له البطليوس نعم ماقلت بابدوى ، فقال المغيرة أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المرتضى ، ونبيه المجتبى ، فقال له البطليوس لعنه الله لا أدرى أن محمدا رسول الله ولعله كما يقال حبيب الرجل دينه ثم التفت الى المغيرة ، وقال ياعربى ماأفضل الساعات ؟ . فقال ساعة لا يعصى الله فيها ، قال صدقت ياأخا العرب لقد بان لى رجحان عقلك فهل فى قومك من له رأى مثل رأيك وحزم مثل حزمك قال : نعم فى قومنا وعسكرنا أكثر من ألف رجل لا يستغنى عن رأيهم ومشورتهم وخلفنا أمثال ذلك وهم قادمون الينا عن قريب . فقال البطليوس ما كنا نظن ذلك منكم ، وانما بلغنا عنكم انكم جماعة جهال لاعقول لكم ، فقال المغيرة كنا كذلك حتى بعث الله فينا محمدا صلى الله عليه وسلم فهدانا وأرشدنا . فقال البطليوس لقد أعجبنى كلامك فهل لك فى صحبتى ، فقال المغيرة : يسرنى ذلك اذا فعلت ماأقول لك ، قال وماهو قال تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . قال البطليوس لاسبيل الى ذلك ، ولكن أردت أن أصلح الأمر بينى وبينكم . قال المغيرة رضى الله عنه الأمر الى الله ، وأما قولك لنا انا أهل فقر وبؤس وضر فقد كنا كذلك وكنا أهل جاهلية لايملك أحدنا غير فرسه وقوسه وابله وكنا لا نعظم إلا الاشهر الحرم حتى بعث الله الينا نبيه ورسوله ﷺ نعرف أصله ونسبه صادقا أمينا نقيا إماما رسولا أظهر الاسلام وكسر الأصنام ، وختم به النبيين ، وعرفنا عبادة رب العالمين ، فنحن نعبد الله ولا نعبد غيره ، ولا نتخذ من دونه وليا ولا نصيرا ، ولا نسجد إلا لله وحده لا شريك له ، ونقر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقد أمرنا أن نجاهد من كفر بالله واتخذ مع الله شريكا جل ربنا وعلا ، وهو واحد لا تأخذه سنة ولا نوم ، فمن اتبعنا كان من اخواننا وله مالنا وعليه ماعلينا ، ومن أبى الاسلام فالجزية يؤديها عن يد وهو صاغر ، فمن أداها حقن الله دمه وماله ، ومن أبى الاسلام والجزية فالسيف حكم بيننا وبينه والله خير الحاكمين ، وهى على كل محتلم فى العام دينار وليس على من يبلغ الحلم جزية ولا على امرأة ولا على راهب منقطع فى صومعته ، فقال البطليوس لقد فهمت قولك عن الاسلام فاقولك عن الجزية عن يد وهو صاغر فانى لا أدرى ماالصغار عندكم ؟ . فقال المغيرة رضى الله عنه وأنت قائم والسيف على رأسك ، فلما سمع البطريق كلام المغيرة غضب غضبا شديدا ووثب قائما ووثب المغيرة من موضعه وانتضى سيفه من غمده ، وكذلك فعل أصحاب رسول الله ﷺ كفعله وهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله .

[قال الراوى رحمه الله] **حدثنا** مسلم بن عبد الحميد عن طارق بن هلال عن عبد الله بن رافع . قال كنا مع المغيرة وجذبنا السيوف ووثبنا على القوم وأخذتنا غيرة الاسلام ومافى أعيننا من جيوش البطليوس شىء وعلمنا ان المحشر من ذلك الموضع ، فلما رأى البطليوس منا ذلك وتبين له الموت من شفار سيوفنا نادى مهلا يامغيرة لا تعجل فتهلك ، وأنا أعلم انك رسول والرسول لا يقتل وإنما تكلمت بما تكلمت لأختبركم وأنظر ماعندكم والآن لا نؤاخذكم فاغمدوا سيوفكم . قال فأغمدنا سيوفنا وتقدم المغيرة حتى صار فى مكان البطليوس وزحزحه الى آخر السرير ، وكان المغيرة رجلا جسيما فاتكأ عليه حتى كاد أن يخلع فخذه من موضعه . قال ثم التفت الى المغيرة وقال ماقولكم فى المسيح بن مريم ؟ . قال المغيرة عبد الله ورسوله ؟ قال فمن أى شئ خلق ؟ ، قال خلقه الله من

تراب ، ثم قال له كن فكان ودل على ذلك القرآن العظيم . قال عزّ وجل ـ ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ـ . قال فما الدليل على أن الله واحد ؟ . فقال المغيرة القرآن العظيم ، قوله تعالى على لسان نبيه ـ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ـ . فقال له البطليوس مارأيت مثل حذقك وجوابك يا أعور ، وكان المغيرة رضى الله عنه أصيب فى إحدى عينيه يوم اليرموك . فقال له المغيرة ان ذلك لايعيبنى ، ولقد أصيبت عينى فى الجهاد فى سبيل الله من كلب مثلك وأخذت بثأرى من الذى فعل بى ذلك فقتلته وقتلت جملة منهم ، والثواب من الله عزّ وجل أعظم من ذلك . فقال البطليوس ما أحذق جوابك فهل فى قومك مثلك ؟ . قال قد قلت لك فينا أهل العلم والرأى ، ومن لا أساوى فى علمهم شيئا وأنا رجل بدوى ، فلو رأيت على بن أبى طالب ابن عم رسول الله ﷺ المختار مقاتل الكفار ومبيد الفجار والليث الكرار والبطل المغوار . قال أهو معكم فى هذا الجيش فقد سمعت بشجاعته وبراعته وأريد أن أنظر اليه ؟ . فقال له المغيرة قاتلك الله ان الامام عليا كرّم الله وجهه أعظم قدرا من أن يسير بنفسه الى كلب مثلك . قال فهل أحد غيره ؟ قال نعم مثل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى هو خليفتنا وعثمان بن عفان وعبد الرحمن وسعيد وسعد وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم وأمراء متفرقين فى الحجاز واليمن والشام والعراق ومصر كل أمير يقوم بألف مثلك فى الشجاعة والبراعة وغير ذلك ، وأما سيف الله الأمير خالد بن الوليد أمير هذا الجيش ومعه عصابة من الأمراء فكأنك به ، وقد أقبل علينا برجال سادات شداد وأمراء أمجاد . فقال له عند ذلك انى أريد أن أصلح الأمر بينى وبينكم وأريد قبل الحرب أن أنظر الى جماعة ممن ذكرت .

[قال الراوى رحمه الله تعالى] وكان عدوّ الله أراد أن يغدر بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ففهم المغيرة منه ذلك . فقال غداة غد آتيك منهم برجال تنظر اليهم . قال ففرح عدوّالله وأضمر المكر لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد الله كيده فى نحره .

[قال الراوى] ثم وثب المغيرة وأصحابه وخرجوا من عند البطليوس وماصدقوا بالنجاة وركبوا خيولهم وأمر البطليوس حجابه ونوّابه أن يسيروا معهم الى قريب من عسكرهم . قال ووصل المغيرة وأصحابه الى الأمير عياض بن غانم الأشعرى وحدثه بما جرى له مع البطليوس . فقال عياض : وحق صاحب الروضة والمنبر ما تركهم الاخوفا من سيوفكم ، وهذا رجل حكيم الا ان الشيطان قد غلب على عقله .

[قال الراوى] ولم يناموا تلك الليلة الاوقد أخذوا أهبتهم للحرب واستعدّوا ، فلما أصبح الصباح أذن المؤذنون فى عسكر المسلمين فأسبغوا الوضوء وصلوا الصبح ، ثم ركبوا خيولهم وقد علموا أن العدوّ مصبحهم وقد عبوا صفوفهم ، وكانت الجواسيس من العرب يدخلون فى عسكرهم وينقلون الأخبار ووصلت جواسيس عياض بن غانم إليه وأعلموه بذلك ، وان الروم متأهبون للقتال فرتب جيشه ميمنة وميسرة ، فجعل فى الميمنة الفضل بن العباس ، وجعل فى الميسرة أبا أيوب الأنصارى ، وجعل فى القلب القعقاع بن عمرو التميمى .

قال حدثنا قيس بن عبد الله . قال حدثنا مالك بن رفاعة عن سعيد بن عمرو الغنوى

قال : حضر أرض البهنسا عشرة آلاف عين رأت النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيهم سبعون بدريا والأمراء وأصحاب الرايات نحو ألف وأربعمائة ، ودفن بأرض البهنسا من الصحابة والسادات نحو خمسة آلاف ، وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى .

[قال الراوى رحمه الله تعالى] وكان على الرجالة معاذ بن جبل ، وعلى الساقة والنسوان والصبيان سعد بن عبد القادر والضحاك بن قيس . قال وصار الأمير عياض يتخلل الصفوف ويقول : الله الله الجنة تحت ظلال السيوف : يا أهل الاسلام اعلموا ان الصبر مقرون بالفرج وان الله مع الصابرين والصابرون هم الغالبون ، وان الفشل سبب من أسباب الخذلان ، فمن صبر على حدّ السيف فاذاقدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه والله يحب الصابرين ، وصار يقول ذلك لأصحاب الرايات . قال وما فرغ الأمير عياض من تعبية الصفوف الا وعساكر البطليوس والروم قدأقبلت ومعهم النصارى والفلاحون والعرب المتنصرة ، وأمامهم صليب من الذهب الأحمر زنته خمسة أرطال وفى أربعة جوانبه أربع جواهر كالكواكب

قال حدثنى سنان بن الحرث الهمدانى عن شدّاد بن أوس وكان ممن حضر الفتوح الى آخرها قال وأقبلت الصلبان وأنا أعدها صليبا بعد صليب حتى عددت ثمانين صليبا تحت كل صليب ألف ومعهم القسوس والرهبان وهم يتلون الانجيل وأكثر أعداء الله فى عسكرهم من الرايات والاعلام فبينما الناس كذلك إذ أقبل بطريق وعليه درع مذهب ولامة حرب وهو يرطن بلغته وطلب البراز فبرز اليه القعقاع وتعاركا وتجاولا ، ثم طعنه القعقاع فى صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره ، فخرج علج آخر وقد غضب لقتل صاحبه وكان من أصحاب الجلوس على السرير مع الملك وطلب البراز فبرز اليه رجل من الأزد فمنعه الأمير عياض من ذلك وقال اذهب فلست كفؤا له . قال فبرز اليه المسيب بن نجيبة الفزارى وضربه ضربة فتلقاها العلج بحجفته فطار السيف من يده وضرب العلج المسيب فضيعها ، ونظر أن أحدا يناوله سيفا فلم يجد فأراد الرجوع واذا بالقعقاع بن عمرو أقبل وبيده سيف فناوله إياه فكر راجعا وضرب البطريق على عاتقه الأيمن فأطلع السيف من عاتقه الأيسر فانجدل صريعا يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار ، فلما رأت الروم ذلك حملوا على المسلمين حملة واحدة واشتد القتال وعظم النزال وعدوّ الله البطليوس راكب على جواد أهداه له صاحب صقلية والبربر يساوى خمسمائة دينار ، وكان أيام الحصار يصعد به ويرع على أسوار المدينة ، وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى فى موضعه ، وعلى بدنه درع مذهب وفى وسطه منطقة من الجوهر وعلى رأسه تاج تلمع جواهره كالكواكب والصلبان والاعلام مشتبكة على رأسه وقد حمل كردوس من الروم على ميمنة المسلمين فصبروا لهم صبر الكرام ، ثم حمل كردوس آخر ، فلله درّ الفضل بن العباس وأخيه عبيد الله وأولاد عقيل وعبد الله بن جعفر وسادات بنى هاشم لقد قاتلوا قتالا شديدا وأبلوا بلاء حسنا ، وتقدم الفضل الى حامل الصليب وطعنه فى صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره وسقط الصليب منكسا الى الأرض ، فنظر اليه البطليوس فأيقن بالهلاك وهم أن يأخذه فلم يجد لذلك من سبيل . قال فأحاط به المسلمون وصار الفضل وسادات بنى هاشم يذبون ويرجعون الروم عن الصليب ، ولما رأى الفضل ازدحام النصارى والروم حمل عليهم حملة منكرة وأسعفه بنو عمه بالحملة والأمراء فقهروا الروم وقتلوا منهم جماعة ، وازدحم

المسلمون على الصليب يريدون أخذه . فقال لهم الفضل انه لى دونكم ، ثم عطف عليه ومال فى ركابه وأخذ الصليب وكر راجعا الى المسلمين وسلمه لعبد الله يسلمه لعبده مقبل ، وكان راكبا مع المسلمين ، فأخذه ومضى الى خيمته . قال وحمل الفضل بن العباس ثانيا وحملت الأمراء واشتد القتال وعظم النزال وسالت الدماء وكثر العرق وازورت الحدق . قال ولما رأى عدوّ الله البطليوس ذلك حمل على المسلمين ومعه طائفة من البطارقة نحو خمسة آلاف وكانوا على جناح الميسرة فقتلوا من المسلمين جماعة وجرحوا جماعة وصبروا لهم صبر الكرام . هذا والفضل رضى الله تعالى عنه تارة يكر فى الميمنة وتارة يكر فى الميسرة وحمل الأمراء جميعهم ، فلله درّ القعقاع بن عمرو التميمى والمسيب بن نجيبة الفزارى والبراء بن عازب ومعاذ بن جبل وزيد الخيل لقد قاتلوا قتالا شديدا حتى بقى الدم على دروعهم كقطع أكباد الابل وتوسط المسلمون كتيبة منهم ، فبرز بطريق عظيم الخلقة كأنه برج فحمل عليه سفينة مولى رسول الله ﷺ وأراد أن يضربه وسطا عليه ، واذا بضربة أتته من خلفه فأردته عن جواده وسقط والرمح مشتبك فى اضلاعه وخشخش الرمح فى عظم ظهره ، ثم جذب الرمح وهو ملقى على الأرض ونزل جماعة وأخذوا سلبه . قال فتأملنا من ضرب البطريق فاذا هو زياد بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنه . قال فلما رأى الروم ذلك حملوا حملة منكرة وقامت الحرب على ساق واحدة وضربت الأعناق وشخصت الاحداق وتضاربوا بالصفاح وتطاعنوا بالرماح واشتد الكفاح ورطنت الروم بلغتهم ولم يزالوا فى قتال ونزال حتى غابت الشمس وافترق الجمعان ، وقد قتل من المسلمين نحو مائتين وخمسين ختم الله لهم بالشهادة ونالوا درجة السعادة وبات الفريقان يتحارسون والمسلمون يقرءون القرآن ويصلون على محمد أشرف ولد عدنان . قال وان المسلمين أوقدوا النيران وأتوا الى مكان المعركة وميزوا القتلى ، فلما رأى الامراء ماحل بهم وبأولادهم بكوا وقالوا : لاحول ولا قوّة الا بالله العلىّ العظيم .

[قال رحمه الله] وقتل من المشركين نحو ألفين وخمسمائة ، وقتل من خيارهم وعظمائهم نحو عشرين من أرباب الدولة وحاشية الملك أصحاب السرير ، فلما رأى البطليوس ذلك صعب عليه وكبر لديه وجلس فى سرادقه وحوله أكابر دولته من حجابه ونوّابه وقدّم له الطعام والشراب فامتنع عن ذلك ، ثم التفت الى حجابه وبطارقته ووبخهم توبيخا عظيما ، وقال مثلكم لايصلح لخدمة الملوك فما هذا الخوف والفشل الذى دخل فى قلوبكم وتريدون أن تصيروا معرة عندالملوك بفعالكم هذه . فقالوا أيها الملك : ان هذا اليوم ما أخذنا فيه أهبتنا ، وما كنا نظن أن العرب فيهم هذه الشجاعة . فقال وما عندكم من الرأى أترضون بالعار والذل ولاسيما وقد أخذ الصليب من أيديكم وخذلتموه ؟ . فقالوا أيها الملك سوف ترى منا مايسرك فى غد نكمن لهم كمينا ونخرج لهم ونقاتلهم ويخرج عليهم الكمين ونأمر جماعة يسلسلون أنفسهم وهم الرماة كعادة الروم أن يفعلوا ونقاتلهم ولا نمكنهم من مدينتنا ولو قتلنا عن آخرنا فاستوثق الملك منهم بقولهم ، ثم كتب كتابا وأرسله تحت الليل الى بطريق طنجة وقلعة الابراج يسألهم النجدة وكانوا بطارقة شدادا كل بطريق تحت يده عشرة آلاف بطريق من حملة السلاح ، فلما ورد عليهم الكتاب جهزوا النجدة والأهبة ، وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى .

[قال الراوى رحمه الله تعالى] وأصبح المسلمون فصلوا صلاة الصبح وتبادروا الى خيولهم

فركبوها ، ثم صفوا صفوفهم ورتبوا مواقفهم كما ذكرنا أوّلا ، وصار الأمير عياض يحرّض الناس وقد جعل فى مكانه المغيرة بن شعبة وعطفوا على أصحاب الرايات ، وقال لهم أطلقوا الأعنة وقوّموا الأسنة ، واذا لقيتم العدوّ فاحملوا حملة واحدة ولا تخافوا ولا ترهبوا ورتب الأمراء كاليوم الأوّل ولم يركبوا حتى دفنوا شهداءهم فى ثيابهم ودمائهم . قال فما شعرنا الاوالروم قد أقبلوا علينا ورطنوا بلغتهم علينا وابتدر منهم خمسة آلاف فنزلوا عن خيولهم وأرسلوها مع غلمانهم وحفروا لهم حفائر الى أوساطهم ووضعوا غرائر النشاب : أى الصناديق بين أيديهم وأقسموا بالمسيح لايزولون ولوقتلوا عن آخرهم وكانوا ثلاثة صفوف .

[قال الراوى رحمه الله تعالى] حدّثنا سنان بن أبى عبيدة عن زياد عن الحرث عن عبد يغوث وكان من أصحاب الرايات . قال بينما نحن نتأهب للحرب والحملة اذا بالروم قد حملوا علينا حملة واحدة وحملت ميمنتنا واختلط القلب بالقلب ورمت المسلسلة بنشابها فكان يخرج منهم عشرة آلاف سهم كأنها تخرج من كبد قوس واحدة كالجراد المنتشر أوالسيل المنحدر فجرحت رجالا وقتلت أبطالا وولت خيل العرب نافرة وصبرت جماعة من الأمراء وحمل الفضل بن العباس وأخوه وسادات بنى هاشم ، وكذلك زياد بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة والمسيب بن نجيبة الفزارى وجميع الأمراء واقتتل الفريقان قتالا شديدا وفشا القتل فى المسلمين ، وثبت القوم لقتال العرب ، وعدوّ الله البطليوس تارة يكر فى الميمنة وتارة يكر فى الميسرة وتارة فى القلب وحوله كتائب المشركين .

[قال الراوى] فصبرنا صبر الكرام ووطنا أنفسنا على الموت والأمراء يحرضون على القتال ، وقد قتل من الفريقين طائفة الا أن القتل لم يبن فى المشركين لكثرتهم ، ولم نظن أن القوم لهم كمين إذ خرج للقوم كمين من خلفنا والمسلسلة من بين أيدينا وأحاطوا بنا وصرنا بينهم كالشامة البيضاء فى جلد البعير الأسود وقتل جماعة من السادة والأمراء وأخلاط الناس ، فلله درّ سادات بنى هاشم وأبان بن عثمان بن عفان . فلقد قاتل أصحاب الرايات براياتها ، وقاتل عدوّ الله فى القلب وأنكى فى المسلمين وقتل رجالا وجندل أبطالا ، وكلما طلبه فارس من المسلمين لم يجده الا وهو قد صار فى وسط الروم . قال فعندها تقدّم القعقاع والمسيب بن نجيبة الفزارى ، وقالا قربوا الجمال فى وجوه القوم ياوجوه العرب فاستاقوا الابل وجعلوها بين أيديهم تلقى النشاب وحملوا على المسلسلة وداسوهم بالابل وسنابك الخيل وأقبلت الرجال والرماة يقتلونهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة : هذا والروم على حالهم ، فلما رأى عدوّ الله ماحل بقومه من فعل المسلمين بهم ازدادوا طغيانا ولم يزالوا كذلك حتى غابت الشمس ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فتظاهروا عليهم ، وتقدم جعفر بن عقيل الى كتيبة من الروم وغاص فى أوساطهم وطعن البطر بق المقدم عليهم فقتله ، فتكاثرت الروم عليه فقتلوه ، وكذلك فعل أخوه على فقتل منهم جماعة فقتلوه ، وكذلك زيد بن زياد فقتل منهم جماعة فقتلوه رحمة الله عليهم وعظم النزال واشتد القتال وألجئوهم الى ورائهم ، فلما رأت الأمراء والسادات و بنو هاشم ماحل بهم تواثبوا كالاسود الضارية وحملوا على الروم وألجئوهم الى الأبواب واقتتلوا قتالا شديدا عند باب الجبل والباب البحرى .

[قال الراوى رحمه الله تعالى] وكانت ليلة لم تر الصحابة مثلها وقتل الصحابة رضى الله

تعالى عنهم ألوفا وقتل منهم جماعة بظاهر البلد نحو خمسمائة وأزيد وتظاهر المسلمون بعد ذلك عليهم وألجئوهم الى السور واقتتلوا قتالا شديدا وعظم البلاء وعدوّ الله يحمى أصحابه وهم فى أشد القتال ، وكان شعار المسلمين تلك الليلة ينادون : يامحمد يامحمد يانصر الله انزل وقتل جماعة من المسلمين عند الأبواب وعظم النزال ، وكان يسمع ضرب السيوف على الدرق كالرعد وبريق السيوف كالبرق ولمعان الأسنة كالكواكب وأحدقت المسلمون بالروم وعدوّ الله يحمى قومه تارة يكون عند باب قندوس وتارة يكون عند باب توما فى جماعة من قومه حتى دخل الروم جميعهم ولم يبق الا من انقطع من قومه أوكبا به جواده ولم يزالوا كذلك حتى طلع الفجر فعلوا على الأسوار وضربوا بالنواقيس والبوقات والقرون وغلقوا الأبواب ورموا الأقفال ، فلما أصبح الصباح صلى المسلمون صلاة الصبح وأتوا الى موضع المعركة وتفقدوا من قتل منهم فاذاهم خمسمائة وعشرون رجلا من باب توما الى باب قندوس ختم الله لهم بالشهادة .

[قال الراوى] ولما رأى المسلمون ذلك بكوا بكاء شديدا وأعظم الناس حزنا الأمير عياض لأجل من قتل تحت رايته ، وكان أكثر الشهداء الأعيان من قريش وبنى هاشم وبنى المطلب وبنى نوفل وبنى عبد شمس ، فلما رأى مسلم بن عقيل اخوته وماحلّ بهم ، ورأى الفضل بن العباس وعبدالله بن جعفر وسادات بنى هاشم ماحل ببنى عمهم نزلوا عن خيولهم وعانقوا شهداءهم واسترجعوا فى مصابهم ، فعند ذلك أنشد همام بن جرير يقول :

ياعين ابكى لا تملى البكى ... سحى دموعا مثل سكب الغمام
وابكى على السادات من هاشم ... وعصبة المختار خير الانام
نوحى على الليث ابن عم النبى ... هو جعفر المشكور ليث همام
وابكى على الشهداء لا تغفلى ... مالاح برق أو تغنى حمام
فلا لقى البطليوس خيرا ولا ... أجناده أهل الصليب اللئام
لنأخذن الثار ياقومنا ... بطعن خطى وحد الحسام

قال وورارى المسلمون شهداءهم ، ثم ان الأمير عياضا فرق الأمراء على الأبواب فنزل السادات من بنى هاشم وغيرهم مثل زياد بن أبى سفيان والوليد وأخيه محمد واسامة بن زيد وأبى أيوب الانصارى وفضالة بن عبيد وأوس بن حذيفة وعمرو بن حصين ورافع بن خديج وأبى دجانة وجابر ابن عبد الله وبقية الأمراء . قال ونزل القعقاع بن عمرو التميمى والمسيب بن نجيبة الفزارى وأمثالهم من الأمراء بألفى فارس على باب الجبل والمغيرة بن شعبة وأبو لبابة والمهلب الطائى ونظراؤهم من الأمراء بألفى فارس عند باب توما . قال وعبى القوم آلات الحصار ورتبوها على الأسوار وأقاموا مدة شهر لايقاتل بعضهم بعضا ، بل كل يوم يركب البطليوس لعنه الله جواده المتقدم ذكره ويلبس لامة حربه ويطلع بالجواد على أعلى السور وحوله المشاة من خلفه وقدامه وبأيديهم السيوف المحددة والدرق والدبابيس والأطيار المذهبة والقسى والنشاب ، وكان عرض السور يمشى عليه خيالان متكافان باللبس الكامل . قال هذا ماجرى لهؤلاء ، وأما خالد فانه أرسل عبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن عمر الى الفيوم وجرى بينهم وقعات وحروب اختصرنا ذكرها خوف الاطالة ، فان المقصود الذى عليه مدار هذا الكتاب هو فتح البهنسا وما وقع فيها

والله أعلم ، ثم انهم ساروا حتى اتصلوا الى مدينة الفيوم وحاصروها أياما قلائل ، ثم فتحوها وفتحوا الفيوم فى أقل من شهر وأخذوا الأموال والغنائم ورجعوا الى خالد رضى الله عنه ، وكان مقيما بالنورية كما ذكرنا .

قال هذا ماجرى لهم ، وأما أبو ذر الغفارى وأبو هريرة الدوسى وذوالكلاع الحيرى ومالك الأشتر النخعى فانهم لما ضربوا رقاب القوم كما ذكرنا حاصروا القلعه كما ذكرنا نحو عشرين يوما واقتتلوا قتالا شديدا .

قال **حدثنا** قيس بن مالك عن منصور بن رافع عن أبى المنهال وكان من أصحاب مالك الأشتر . قال بينما نحن نحاصر القلعة ، وقد تظاهروا علينا اذ نحن بغبرة وقت الفجر ، وكانت ليلة مقمرة فلاحت لنا خيل وقعقعة لجم فتبادرنا الى خيولنا فركبناها ، واتضح النهار وبان ، واذا عشرون صليبا تحت كل صليب ألف فارس ، وكان السبب فى ذلك بطريق طحا ذات الأعمدة و بطريق قلعة ذات الأبراج وما حولهم لما بلغهم كتاب البطليوس تجهزوا بأنفسهم وجمعوا ماحولهم من الروم والنصارى وخرجوا أول الليل خوفا من العرب ، فأصبحوا الاعلى القلعة والنيل كان فى أول زيادته والمسلمون قد أخذوا المعابر والقناطر التى على البحر اليوسفى فقطعوها وساروا حتى نزلوا على القلعة وكان بلغهم حصارها فلم تشعر المسلمون الاوقد أقبلوا وهجموا عليهم وأتوا الى نحو باب المدينة الشرقى فوجدوا الأمير زيادا وأصحابه هناك . قال مالك الأشتر ياوجوه العرب اجعلوا البحر خلف ظهوركم وقاتلوا أعداءكم واستعينوا بخالقكم ، هذا والروم صاحوا وطمطموا بلغتهم ورطنوا من أعلى السور ، وكذلك أهل القلعة دقوا الطبول وضربوا بالنواقيس فلم يزالوا على المسلمين متقابلين وجاءت كتيبة من الروم الى جانب البحر كما ذكرنا نحو ثلاثة آلاف ، وكان الأمير زياد رضى الله عنه فى نحو مائتين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فحملوا عليهم وصبروا لهم صبر الكرام ، وقتل الأمير زياد رحمه الله تعالى وقتل معه جماعة من المسلمين ختم الله لهم بالشهادة وركب بقية المسلمين وقاتلوا قتالا شديدا وصبروا لهم صبر الكرام .

[قال الواقدى] فسمع المسلمون وهم حول المدينة فأتوا الى الجانب الشرقى فوجدوا السيوف مجذوبة والرايات مرفوعة ، وقد قتل جماعة من المسلمين على شاطئ البحر نحو أربعين رجلا فصاحت المسلمون مابالكم ؟ . فأجابهم المسلمون على شاطئ البحر من الجانب الشرقى دهينا ولاتدرون مافعلوا بنا ، فعندها هجم القعقاع بفرسه البحر ، وقال بسم الله وعلى بركة رسول الله ﷺ : اللهم إنك تعلم اننا أفضل من بنى اسرائيل عندك ، وقد فرقت لهم البحر فسار ولم تبتل قوائم فرسه وانحدر الى جانب القلعة ، وكانت بقرب البحر فاقتحم البحر خلفه نحو من ألفى فارس الى أن طلعوا الى البر الشرقى ، واقتتلوا قتالا شديدا . قال فبينما نحن فى أشد القتال اذا بغبرة قد لاحت وانكشفت عن ألف فارس يقدمهم رفاعة بن زهير المحاربى وهم من أصحاب قيس بن الحرث وكانوا فى بلد تسمى بردوها وكانوا صالحوا أهلها فجاءهم رجل من المعاهدين وأخبرهم بمسير أهل طحا ذات الأعمدة وصاحب قلعة الأبراج لقتال المسلمون وعلموا أن البحر حاجز بينهم و بين أصحابهم فاتوا الى الأمير قيس بن الحرث واستأذنوه حتى وصلوا وهم فى القتال كما ذكرنا ، فلما رأوا القوم كبروا فأجابوهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير . ثم

حملوا عليهم وقاتلوهم قتالا شديدا ، وكان الفضل بن العباس وزياد بن أبى سفيان ومسلم بن عقيل فى جملة من عبر الى البر الشرقى ، فعندها وثب القعقاع بن عمرو التميمى على بطريق القلعة فقتله وكذلك الفضل بن العباس وثب على بطريق طحا ذات الأعمدة فقتله وزياد بن أبى سفيان على بطريق عظيم فقتله ، فلما رأى الروم ذلك ولوا الأدبار وركنوا الى الفرار وهرب منهم جماعة فألجئوهم الى البحر فغرق منهم جماعة وأسر منهم نحو من ثلاثة آلاف وأتوا بهم الى نحو السور قريبا منه وضربوا أعناقهم والبطليوس ينظر اليهم هو وأصحابه ودفن الأمير زياد الى جانب البحر تحت جدران القلعة ورجعت المسلمون ونصبوا الجسر بالاخشاب والأحجار تتساقط عليهم وهم لا يفكرون حتى عبروا الى الجانب الغربى بأجمعهم واشتد الحصار وأقام المسلمون محاصرين مدينة البهنسا تسعة أشهر .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] وان المدينة كان لها باب سر تحت الارض من تحت باب الجبل من عند تل هناك يظن من رآه أنه مغارة أوحفر فى الجبل وكان يخرج منه عيونه ومن يأتيه بالطعام وغيره سرا تحت ظلام الليل الى ذلك المكان ويخرج الرجل وفرسه على يده الى ظاهر السرب فلاجل هذا لايعجزهم الحصار وكان اذا احتاج الى أمر مهم يخرج من يثق به من ذلك المكان ويوقد الشمع والفوانيس ليلا ويخرج من يختار من ذلك الباب وكان الملوك القدماء ماوضعوا ذلك الباب الالاجل الحصار وكانت عيونه تخرج وتأتيه بالاخبار ، وكان خالد بن الوليد رضى الله عنه لما افتتح الفيوم صارت الميرة والعلوفة والارز والعسل وغير ذلك فأتى للصحابة من الفيوم ومن الوجه البحرى تأتى اليهم الميرة . قال فارسل الامير عياض رضى الله عنه الامير مياس ابن حام وأرسل معه مائتين من المسلمين ومعهم جمال و بغال يأتونهم بما ذكرنا ، وكان خالد قد أرسل يعلمهم بذلك وأنهم يرسلون الى الفيوم و يأخذون مايحتاجون اليه ، قال وسار مياس حتى وصل الفيوم ، وكان عليهم متكلما من قبل خالد الامير عرفجة . قال وسار مياس ومن معه حتى قدموا الفيوم وأوسقوا الجمال والبغال وأرادوا الرجوع الى أرض البهنسا حتى وصلوا الى دير هناك فى الجبل . قال هذا ماجرى لهؤلاء . وأما عيون البطليوس فاخبروه بذلك فاستدعى ببطريق من أصحاب السرير اسمه ميخائيل بن بطرس وكان معروفا بالشدة والبراعة وأمره أن يأخذ معه ألفا من الروم وينطلقوا الى طريق الفيوم ويكمنوا لهم فى الدير ، ثم يخرجوا عليهم فخرجوا من باب السرب واحدا بعد واحد فى ظلام الليل وساروا حتى وصلوا الى دير وكمنوا هناك حتى رأوا المسلمين فخرجوا عليهم فالتقى الجمعان واصطدم الفريقان وقاتلت المسلمون قتالا شديدا .

[قال الراوى رحمه الله تعالى] حدثنا أبو محمد البدوى حدثنا أبو العلاء المحاربى ، قال شداد بن أوس ، وكان فى خيل مياس لما التقى الجمعان ، وأحاطت بنا أعداء الله وظننا ان المحشر من ذلك المكان ووطنا أنفسنا على الموت وقاتل الامير مياس بعد ان سلم الراية لولده منيع فقاتل حتى قتل ، ثم قاتل من بعده مازن حتى قتل ولم تكن غير ساعة حتى قتل من المسلمين نحو مائة فارس وأسروا الباقين . قال وكان فى القوم عبد الله بن أنيس الجهنى رضى الله عنه أحد سعاة النبى ﷺ ، فلما رأى ذلك خرج كالريح الهبوب وقام يجرى وكان قد دعاله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعمرو بن أمية الضمرى بالقوة والبركة فى المشى ، وكانا لاتدركهما الخيل العتاق

ولا النجب السوابق فسار حتى أشرف على العسكر وصاح النفير النفير اركبوا يامسلمون . قال فتواثبت الفرسان اليه وسألوه فقص عليهم القصة فتواثب المسلمون الى خيولهم فركبوها وكل يقول أنا أمضي فعندها استدعى الامير عياض بعبد الله بن جعفر الطيار أخي علي بن أبي طالب وضم اليه ألف فارس من الصحابة رضي الله عنهم من أهل الشدة وساروا أول الليل ومعهم رجل من المعاهدين يدلهم الى أن قربوا من قرية هناك بسفح الجبل فكمنوا هناك الى أن جن الليل اذ سمعوا حوافر الخيل فتواثبوا الى خيولهم فركبوها ، واذا بالروم قد أقبلوا عليهم والأسارى معهم موثقون بالحبال على ظهور خيولهم ، وكانت ليلة مقمرة فصاحت المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وحمل القوم واقتتلوا قتالا شديدا فعندها صاح عبد الله بن جعفر رضي الله عنه ياقوم أيعجز أحدكم عن خصمه ، قال فتواثبت الأمراء والسادات رضي الله عنهم يقتلون ويأسرون وبادر عبد الله بن جعفر الى مقدم الجيش لعنه الله ، وكان عليه درع مصفح فطعنه في صدره طعنة قرشية هاشمية فأطلع السنان يلمع من ظهره وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار ، فلما رأى الروم ذلك انهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون ، فما أصبح الصباح حتى قتل منهم نحو خمسمائة وأسروا الباقين وخلصوا المسلمين من الأسر وغنموا سلاح الروم وأموالهم وخيولهم وترك عبد الله بن جعفر الاسارى وخمسمائة من المسلمين عند القرية وأمرهم أن لايبرحوا حتى يأتيهم ، وأمر عليهم عبد الله بن معقل وساروا حتى أتوا الى محل المعركة ووجدوا القتلى وعندهم نصارى من المعاهدين يبكون وحلفوا لهم أن لاعلم لهم بذلك فنزلوا عن خيولهم وأخرجوا لهم زادا فأكلوا وواروا شهداءهم ، وكرّ عبدالله راجعا الى أصحابه وحملوا رؤوس القتلى ورأس عدو الله ميخائيل أمامهم وجنبوا خيولهم وأخرجوا لهم زادا فأكلوا وساقوا الأسارى حتى وصلوا الى العسكر بالميرة والعلوفة ومعهم من العسل والسليط . قال وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وأجابتهم المسلمون الى مثل ذلك وانقلب العسكر والروم على الأسوار ينظرون ماالخبر فرأوا تلك الرؤوس على رؤوس الرماح ورأس عدو الله ميخائيل أمامهم فصعب عليهم وكبر لديهم ولطموا على وجوههم وذهبوا الى البطليوس وأعلموه بذلك فصعب عليه واستدعى بجواده فركبه وصعد على السور حتى أشرف على المسلمين ، فلما رأى ذلك عظم عليه ، وقال ماهؤلاء انس وانما هم جنّ ، فلما رأى المسلمون البطليوس أتوا الى الامير فاعلموه بذلك فركب الامراء معه حتى أتى الى تل هناك عال مقابل باب قندوس واستدعى بالاسارى وعرض عليهم الاسلام فأبوا فضربوا رقابهم والروم ينظرون الى ذلك فغضب عند ذلك البطليوس غضبا شديدا وحل همًّا عظيما .

[قال الراوي رحمه الله] ثم ان عدوّ الله استشار أصحابه فيما يفعل وأنه يريد الخروج بنفسه والكبسة عليهم . قال فنهض اليه بطريق اسمه كراكر ، وكان فارسا شديدا ، وقال أنا أيها الملك أكفيك هذا الهم وأكبس عليهم لعلي أن أنال منهم منالا وأريد معي جماعة شدادا ، فقال الملك خذ من شئت فانتدب معه عشرة بطارقة تحت يد كل بطريق ألف وجاءوا الى كنيستهم وفتحوا الانجيل في وجوههم وساروا الى أن وصلوا الى الابواب والبطليوس يحرضهم ويوصيهم بالهجمة عليهم ماداموا على غفلة . ثم أمر الحراس بفتح الباب لهم وهو باب قندوس وكانوا ألف حارس

بوابين على الباب ، وكان للباب ثلاثة أبراج بين كل برجين باب وشراريف وخرجوا وهم مستعدون لذلك والمسلمون على غفلة بمادبر القوم لايدرون مايرادبهم وكان على حرس المسلمين تلك الليلة من جهة باب قندوس زائد بن ثابت وعبيد الله بن عباس وعبد الله بن معقل والبراء بن عازب ومالك الأشتر وذوالكلاع الحميرى .

[قال الراوى] حدثنا عوف بن سعد عن سعيد بن طارق الثقفى عن أبى يزيد عن مالك الأشتر ، قال بينما نحن نسهر تلك الليلة والمسلمون قد هجعوا فى مراقدهم من شدة البرد وكثرة السهر و وضعوا أسلحتهم ، ومنهم من له ورد يقرؤه ومنهم من يصلى اذ رأينا فتح الباب وخرجوا كالسلاهب و بأيديهم الفوانيس ومشاعل النار وحملوا على الجيش فتبادرنا اليهم وصحنا النفير دهينا ، يامسلمون ثوروا فقد غدركم القوم ، فلما سمع المسلمون الصياح تبادروا وثاروا من مضاجعهم كالاسود الضارية هذا يأخذ سيفه ، وهذا يأخذ رمحه ، وهذا عارى الجسد لم يمهل حتى يلبس ثيابه ، وهذا يشد وسطه بمئزره ، وهذا عليه قميص واحد وثاروا فى صدور الرجال ، هذا وعدو الله قد عطف على جماعة من المسلمين قبل أن ينتبهوا ووضع السيف فى عراضهم فما أفاق بعض القوم إلاوالسيف قد أطاح رأس هذا وقطع زند هذا وطعن نحر هذا وهكذا وكثر الصياح وعظم البلاء وكثر القتال وعدوّ الله كرا كر عليه ديباجة حمراء مقصبة بالذهب تلمع من فوق الدروع وعلى رأسه بيضة عليها جوهرة تضىء كالكواكب وهو يهدر كالجمل الهائج ، وهو يرطن بلغته وخلفه جماعة والذين على الأسوار يصيحون ويزعقون بشعارهم ويضربون بقرونهم و بوقاتهم وطبولهم وأوقدوا مشاعلهم من أعلى السور حتى بقى مثل النهار ، هذا وقد ثارت الأمراء أصحاب النجدة وذو والمروآت واعتقلوا بسيوفهم وركبوا خيولهم فمنهم من ركب جواده عريانا ، ومنهم من ركب بسرج بغير لجام ، ومنهم من أسرع ماشيا ، فلله در الفضل بن العباس وابن عمه الفضل ابن أبى لهب وعبد الله بن جعفر وزياد بن أبى سفيان والقعقاع بن عمرو والمسيب بن نجيبة الفزارى والمغيرة ومسلم وأبى ذر الغفارى وأبى دجانة وأبى أمامة وغفار بن عقبة وأبى زيد العقيلى ومثل هؤلاء السادات رضى الله عنهم لقد قاتلوا قتالا شديدا ، وأبلوا بلاء عظيما ، وطعن جماعة من المسلمين وجرح جماعة من المسلمين ، وأما الذين هاجوهم فى أول الوقعة فقتل منهم جماعة نحو المائتين وثمانين رجلا واقتتل الناس قتالا شديدا ، وأقبل الفضل بن العباس الى البطريق كراكر لعنه الله وضربه بالسيف على عاتقه الأيمن فأطلع السنان يلمع من عاتقه الأيسر فوقع يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار و بئس القرار وأتبعه بالحلة ابن عمه عبد الله ابن جعفر فقتل بطريقا آخر ولم تسكن الا ساعة وقد جاءتهم بقية الأمراء من على أبوابهم وتركوا مكانهم من يثقون به وساروا الى أن وصلوا اليهم وحملوا عليهم حملة منكرة وقتلوا منهم مقتلة عظيمة نحوا من ثلاثة آلاف من الروم والنصارى ، فلما رأى الروم ذلك فروا نحو الباب وتبعهم المسلمون الى الباب فخرج كردوس عظيم من الروم وحموا المنهزمين وأسر المسلمون من الروم نحو ألف ومائتين وخمسين وأتوا الى مكان المعركة يتفقدون من قتل منهم . فاذا هم أربعمائة وخمسة وثلاثون رجلا ختم الله لهم بالشهادة ، فلما رأى المسلمون ذلك شق عليهم وكبر لديهم وأسرعوا تحت الليل وجمعوا الشهداء ودفنوهم فى ثيابهم ودمائهم فى مكان يعرف بالبطحى عند مجرى الحصى ومنقع

السيل فدفنوهم هناك كل اثنين وكل ثلاثة وكل أربعة وكل خمسة فى قبر وقدموا أهل السابقة وأصحاب القرآن وكان يعرف ذلك المكان بقبور الشهداء الأخيار ، والدعاء هناك مستجاب مجرب مرارا وتحط هناك الأوزار لمن يكثر من الدعاء والتطوع والاستغفار .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] ماحدثت فى هذا الكتاب إلا على قاعدة الصدق وأذكر ماوقع من الأمور وحدث عن أصحاب التواريخ وثقات المحدثين من أصحاب السير ومن سماع كلامه كالدر ، فهذا كالعقد النفيس فى السلوك والتأسيس ، لايليق سماعه إلا لذوى البصائر والعلماء والملوك فانه نزهة الناظر ويشرح الخاطر ، لم يجمع أحد مثله من أهل السير لما فيه من الأمثال والعجائب والأخبار الصحيحة المنقولة عن ثقات المحدثين يتلذذ بذلك المستمعون ، ولنرجع إلى سياق الحديث .

[قال الواقدى رحمه الله] حدثنا عبد الله بن عبدالواحد القارى عن أبى سراقة بن نوفل الخزرجى عن أبى لبابة بن المنذر وكان من أصحاب الرايات . قال ولما وارينا الشهداء ورجعنا إلى خيامنا وعدو الله البطليوس قد أغلق الباب وألقى الأقفال وعلوا على الأسوار . قال ولما رجع المنهزمون إلى البطليوس صعب عليه وكبر لديه وأظلمت الدنيا فى وجهه وحل هما عظيما على من قتل من بطارقته وجماعته ونوى المكايد والمصائب للمسلمين .

[قال الراوى رحمه الله تعالى ورضى عنه] هذا ماجرى لهؤلاء ، وأما الصحابة رضى الله تعالى عنهم فانهم اجتمعوا عند الأمير وتذاكروا ماحصل للمسلمين من البطليوس لعنه الله واتفق رأيهم أن يرسلوا إلى الأمير خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ويسألوه أن يسير إليهم بنفسه وبمن معه وكتب كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عياض بن غانم إلى الأمير خالد بن الوليد ، اعلم أيها الأمير أننا فتحنا الشام والعراق واليمن والحجاز ولم نجد فى الترك والروم والفرس والديلم ألعن من هذا الملعون بطريق البهنسا البطليوس ولا أكثر منه خداعا ولا مكرا ولاحيلة وإنها مدينة آهلة بالخيل حصينة بالرجال ، وقد خدعونا مرارا وقد قتلوا منا رجالا ، فأنجدنا بنفسك وبمن معك من المسلمين ، والسلام ورحمة الله وبركاته عليكم ، وطوى الكتاب وسلمه إلى عبد الله بن المنذر فأخذه وأتى به إلى الأمير خالد فوجده نازلا على النورية ، فسلم عليه ودفع له الكتاب ، فلما قرأه وفهم مافيه استرجع وقال : لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ثم التفت إلى عبد الله وقال قل للأمير عياض ان الأمير خالدا قادم عليك برجال وأى رجال والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين من المهاجرين والأنصار فرجع عبد الله ثانى يوم إلى البهنسا ورد الكتاب إلى الأمير عياض بن غانم . قال ثم استدعى الأمير خالد بأبى عبد الله الزبير وضم إليه ثلثمائة فارس وأمرهم بالمسير إلى أرض البهنسا وقال لهم : إذا وصلتم إلى أرض البهنسا فأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، فسار الزبير رضى الله تعالى عنه ، فلما بعدوا دعا بالمقداد ابن الاسود وضرار ابن الأزور ودفع لهما مائتى فارس وأمرهما أن يسيرا على أثرهما وقال لهما لاتزالا حتى يدخل الزبير وابنه ، ثم بعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما وضم إليهما مائتى فارس وأمرهما بالمسير على أثر المقداد ، ثم استدعى بسعيد بن زياد بن عمرو بن نوفل خال رسول الله ﷺ وعقبة بن عامر الفهرى ، ودفع لهما مائتى فارس وأمرهما أن يسيرا ، وبات

الأمير خالد تلك الليلة ، ولما أصبح صلى وسار معه بقية الأمراء من المهاجرين والأنصار الأخيار رضى الله تعالى عنهم .

[قال الراوى رحمه الله تعالى] وسار الزبير رضى الله تعالى عنه بمن معه حتى أشرف على البهنسا فكبر وكبر معه المسلمون وأنشد يقول :

أتيناكم على خيل عتاق ... شبيه الريح يوم الاستباق
عليها كل صنديد همام ... شديد البأس يوم الحرب راقى
نذل حماتكم بالسمر لما ... نجول بها مع البيض الرقاق
ونقتل كل ملعون وباغ ... على الاسلام من أهل النفاق
ونحن حماة دين الله حقا ... نقر بأن رب العرش باقى
وأن محمدا خير البرايا ... رسول الله للعلياء راقى

قال وأشرفت الروم على أبواب المدينة ينظرون إليهم ، فما لبثوا غير قليل حتى أشرف عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما وكبر وكبرت المسلمون . قال ثم أنشد يقول :

أنا الفارس المشهور للحرب فى الوغى ... أذل بسيفى كل باغ ومعتدى
وأحمل فى الأبطال حملة من له ... إلى الغاية القصوى أعاظم مقصدى
أنا ابن أبى بكر الذى شاع ذكره ... خليفة خير المرسلين محمد
فياويل من عالى حسامى رأسه ... وياويل من عاجلته بمهند

[قال الراوى] ثم أشرف من بعده عبد الله بن عمر وكبر وكبرت المسلمون لتكبيره ثم أنشد يقول :

أتينا على خيل عتاق وضمر ... بكل يمان ذى حداد وأسمر
بكف شجاع باع لله نفسه ... يرى الموت فى الهيجاء أفخر مفتخر
نذلكم بالسيف فى الحرب والقنا ... ونقتل منكم كل باغ ومفترى

[قال الراوى رحمه الله تعالى] ولم يزل كل أمير ينزل بجماعته حتى تكاملوا وتأخر الأمير خالد و بقية الأمراء الذين معه ، ولما بات أصحاب رسول الله ﷺ وأصبحوا ، قال ضرار بن الأزور والأمراء للأمير غانم : أظنكم أنتم المحاصرون وأعداؤكم فى أكل وشرب فما هذا القعود ؟ ثم رجعوا للأبواب وضرار ينشد و يقول :

سأضرب فى العلوج بكل عضب ... شديد الباس ذى حد صقيل
وأضرم فى علوّ الباب نارا ... وأرمى القوم بالخطب الجليل
وأترك دارهم منهم خرابا ... ولم أمهل بذى شبح كفيل
فويل ثم ويل ثم ويل ... لهم منى بمشتد العويل
سأقتل كل باغ كان منهم ... بحد السيف والباع الطويل

قال ولم يزل يترنم بهذه الأبيات وتراموا بالسهام والمقاليع واقتتلوا قتالا شديدا فاشتدت حمية عتيد الروم ، وجمع الملعون البطارقة من ذوى الشدّة والبأس ، وكان هو فارسا شديدا و بطلا كما

ذكرنا ، وفتح باب الجبل وخرج منه كأنه شعلة نار على جوائد الخيل والرماة بين يديه يرمون بالنشاب والمجانيق من أعلى الأبراج ، واقتتلوا قتالا شديدا وجرح من المسلمين جماعة ، وكانت مقتلة عظيمة و بقية الأمراء لايعلمون وأنكى من المسلمين جماعة . قال فعندها ضجت الأمراء أصحاب الرايات وأقبل علج عظيم من البطارقة وطلب البراز ، فبرز إليه المغيرة بن شعبة ، فحمل عليه البطريق واقتتلا قتالا شديدا ، فضرب به المغيرة بالسيف فطاح من يده ، و بادر عدوّ الله الى المغيرة ليضربه ، وإذا بفارس قدأقبل بيده سيف مجذوب فلوّح به الى المغيرة و إذا هو عبدالرحمن ابن أبي بكر فأخذه المغيرة وضرب به البطريق فحاد عنها وقرب من المغيرة وتجاذبا ، وكلما أراد المغيرة أن يسطو على العلج يمانع عن نفسه ونظر ضرار بن الأزور الى ذلك ، فترجل عن جواده وسعى بين الصفوف حتى قرب من البطريق وضربه فى حزامه فقطعه ، فسقط عدوّ الله وهو جاذب المغيرة الى الأرض ، فعندها تكاثرت الروم على ضرار والمغيرة فأرادوا قتلهما ، و إذا بثلاثة فوارس قد أقبلوا واخترقوا الصفوف أحدهم عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق ، والثانى عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، والثالث المقداد ابن الأسود الكندى رضى الله عنهم ، فأزالوهم عن مراكزهم وقتلوا ثلاثة من الروم ، وفرّقوا الكتائب عنهم وضرب ضرار البطريق فقتله . قال ومال عبد الرحمن ابن أبي بكر وركب ضرار جوادا من خيل المقتولين وأخذوا الأسلاب ، هذا وعدوّ الله البطليوس لعنه الله تارة يكرّ فى الميمنة وتارة يكرّ فى الميسرة وطلب البراز ، فبرز اليه المقداد بن الأسود الكندى رضى الله تعالى عنه وتعاركا وتجاولا وتطاعنا . قال المقداد ابن الاسود قاتلت ملوكا وفتحت قلاعا ولاقيت حروبا فى الجاهلية والاسلام ، فلم أر أخدع من البطليوس ولا اشد بأسا ولا أصعب مراسا منه فتقاتلا حتى كل الجوادان والتفت الىّ وقال : ماأجرأ فرسك كيف تقاتل عليه وهو بثلاث أرجل . قال المقداد فمن شفقتى على جوادى طأطأت رأسى لأنظر الى قوائمه فضربنى بالسيف ضربة قوية فقطعت الخودة والرفادة وأثرت قليلا فى رأسى ، فظنّ الملعون أن خصمه قد قتل ، فلوى عنان فرسه ، فاستيقظ المقداد وتبعه فساق جواده المتقدّم ذكره وأحاط به أصحابه .

قال فبينما الناس فى أشد القتال إذ أقبل الأمير خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ومعه الأمراء المتقدّم ذكرهم وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وفى أوئل القوم خالد وهو ينشد ويقول :

رعى الله صبا للقا جاء يسرع ... وصبا على الفرسان بالرمح يقرع
ومن باع لله المهيمن نفسه ... وكان الى الهيجاء بالامر أطوع
فويلك يابطلوس من سيف خالد ... اذا اشتدّت الهيجاء والحرب يرفع
فلا رحم الرحمن بطلوس كافرا ... ويلعنه كل الملائك أجمع
فان قدّر المولى سأخرب داره ... وأتركها من بعده وهى بلقع
بحد يمانى إذا ماجذبته ... تذل له كل العداة وتخضع

[قال الراوى رحمه الله تعالى] ثم ان خالدا رضى الله تعالى عنه حمل بمن معه واقتتلوا قتالا شديدا وقاتل البطليوس لعنه الله قتالا شديدا ، وقتل رجالا وجندل أبطالا ، فعندها حملت الأمراء وأصحاب الرايات وذو والمروءات واقتتلوا بين الجبل والباب قريب التل الأحمر قتالا شديدا ، وعطف

خالد على البطليوس وصال عليه ، وكلما مر إلى الميسرة يراوغه إلى الميمنة ومن الميمنة إلى الميسرة ، فعندها عطف خالد عليه وحازه بين الصفوف وحمل عليه ، فعندها فرّ إلى القلب وأحاط به أصحابه وقومه ووضعت الأمراء السيوف فيهم وتبعه الأمير خالد وساق جواده إلى الباب واقتحمه ، وتبعه قومه وانهزموا الى الباب ودخلوه وتبعهم المسلمون واقتتلوا عند الباب وقتل من الروم نحو أربعة آلاف ودخلوا الباب وأغلقوه وأوثقوه بالأقفال وعلوا على الأسوار ، وأسر المسلمون نحو ألف وخمسمائة فعرضوهم على الأمير خالد ، وكان فيهم من كبار البطارقة فعرض عليهم الاسلام ، فامتنعوا فأمر بضرب رقابهم وافتقد المسلمون أصحابهم ، فاذا قد قتل منهم مائتان وثمانون رجلا ختم الله لهم بالشهادة

[قال الواقدى رحمه الله] هذا ماجرى لهؤلاء ، وأما عدوّ الله البطليوس ، فانه حل هما عظيما وحصل له مالا ينبغى شرحه ، وأمر بجمع البطارقة ، فلما اجتمعوا شكا لهم أمر العرب وما لقوا من الحرب ، وقال لهم : فما الرأى عندكم ؟ فقالوا كلنا بين يديك فاذا أمرتنا بالقتال قاتلنا على سور بلدنا ، قال سأدبر لكم أمرا وهو تدبير من خاض الحروب وعرفها ، ثم أمر باجتماع الناس خاصتهم وعامتهم ، فاجتمعوا إليه إلا من بقى على الأبواب خوفا من المسلمين ، فلما تكاملوا واجتمعوا قال : إنى عزمت أن أهجم على القوم فى هذه الليلة وأكبسهم فى أماكنهم والليل مدلهمّ ، وأنتم أعرف بمسالك البلد من غيركم ، فلا يبقى منكم أحد إلا ويتأهب ويخرج معى من بابه ونكبس القوم ، وأخرج أنا بنفسى ومن معى من باب توما وأرجو وصولى الى مسرتى وإلا أموت بحسرتى وأبيدهم أوّلا بأوّل لعلى أن أصل الى أميرهم فآخذه أسيرا وأبلغ مقصدى . قالوا حبا وكرامة ، ثم بعث فرقة الى باب الجبل وفرقة إلى باب قندوس وفرقة إلى الباب الشرقى ، وانتدب معه سادات قومه ومن عرف بالشجاعة وأخذهم معه ، ثم أقبل على القوم قبل انصرافهم وقال سآمر صاحب الناقوس أن يخفق لكم الناقوس خفقة عند خروجى من الباب فتخرجون جميعا ، فامتثلوا ماأمرهم به وقاموا ينتظرون الاشارة ، وأما صاحب الناقوس فاحتمله وصعد به على أعلى السور أى البرج وفعل ماأمره به البطليوس ، فخرج القوم كالسلاهب وخرج البطليوس فى عشرين ألف فارس من الشجعان وهو يوصيهم وقال أسرعوا فى مشيكم فاذا وصلتم إلى القوم فاحملوا عليهم ومكنوا السيوف والخناجر من رقابهم ، ومن صاح منهم الأمان فلا تبقوا عليه إلا أن يكون أمير القوم ، ومن أبصر منكم الصليب الذى أخذ منا فليأخذه ومن أتى به أكرمته ، ثم أمر صاحب الناقوس أن يضربه فضربه ضربة سمعه أهل الأبواب ، ففتح البوابون وتبادروا للخروج ، وخرج اللعين وسمع المسلمون الصوت ، فبادروا من أماكنهم مسرعين يخفر بعضهم بعضا وهم على يقظة ، وتبادروا كالأسود الضارية المشتاقة إلى فرائسها ، فلم تصل القوم إليهم إلا وهم على حذر إلا أنهم غير مرتبين ، فتجاول القوم فى ظلام الليل وسمع الأمير خالد ذلك منهم فصاح واغوثاه وامحمداه واسلاماه كيد قومى ورب الكعبة اللهم انظر إليهم بعينك التى لاتنام وانصرهم على عدوّهم ولاتسلمهم إلى شر خلقك ، ثم سار خالد وهو مكشوف الرأس بلاخودة ، وألهته الزعقة عن لبس السلاح وسار إلى قومه وهو ينشد ويقول :

فاض دمعى واعترانى حزنى ضاق صدرى وبرانى شجنى

رب سلم من نزول المحن وانصر الاسلام ياذا المنن
بالنبي الهاشمي العدني أحمد المختار طه المدني

[قال الراوى رحمه الله تعالى ورضى عنه] ثم وصل إلى باب توما ومعه خمسمائة من السادات وأصحاب النجدة مثل الفضل بن العباس والفضل بن أبى لهب وزياد بن أبى سفيان بن الحرث وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب والمقداد ابن الأسود و زيد بن ثابت وعبد الله بن زيد ومسلم بن عقيل وأبى ذر الغفارى وعبادة بن الصامت وبحر بن مسلم وعقبة بن نافع والمغيرة بن شعبة والمسيب بن نجيبة الفزارى رضى الله تعالى عنهم وعلت أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير والقوم من أعلى الأسوار قد رطنوا بلغتهم وتصارخوا عند ما استيقظ المسلمون وحمل خالد على القوم ونادى : يامسلمون أتاكم الغوث من رب العالمين ، أنا الفارس الصنديد والبطل الجيد ، أنا خالد بن الوليد ، ثم حمل فى وسط الروم بمن معه فقتل رجالا ، وجندل أبطالا وهو مع ذلك مشتغل القلب بالأمير عياض و بقية الأمراء الذين على الأبواب وهو يسمع صراخهم وزعقاتهم .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى ورضى عنه] حدثنا عبدالله بن عون قال حدثنا جابر بن سنان عن عقبة بن عامر قال : كان الروم والنصارى من أعلى السور يرمون بالحجارة والسهام ، ولقيت المسلمون من عدوالله البطليوس أمرا عظيما لم يروا قبله مثله ، وكان أوّل من وصل اليهم البطليوس لعنه الله فصبرت له المسلمون صبر الكرام وقاتل عدوّالله البطليوس قتالا شديدا ، وقال أورنى الذى أخذ صليبى بالأمس ، فلما سمع الفضل بن العباس صوته قصد جهته ، وقال ها أنا صاحبك وغريمك أنا مبيد جمعكم وآخذ صليبكم أنا ابن عم رسول الله ﷺ فعطف عليه البطليوس عطفة الأسد على فريسته وقال اياك طلبت ثم انفرد له وصادمه فلم تر الناس فى طول الأيام ضربا كضربهما فى تلك الليلة ورأى الفضل منه شيئا لم يره فى طول عمره ولم يزالا كذلك الى أن مضى من الليل شطره وكل قرم مع قرمه ولم يزالا فى كرّ وفرّ وضرب ورد لم ير أحد مثله وصبر له الفضل صبر الكرام ولاح له من عدوّالله ضربة فتلقاها فى حجفته فانقطع سيف الفضل وطمع فيه عدوّالله وظن أنه يأخذه أسيرا واذا بفارسين قد أقبلا ومن ورائهما كتيبة من الفرسان قد هجموا على الروم واذا بخولة بنت الأزور أخت ضرار قد حملت على فارسين من الروم فجندلتهما وهى تجندل فى الأبطال وفرسانهم فلحقها فارسان أحدهما عبدالرحمن بن أبى بكر والثانى عبد الله بن جعفر وتبعهما ثلاثة وهم أبان بن عثمان بن عفان فخلصوا خولة بعد ان أحاطت الروم بها وعطفوا على عدوّالله البطليوس فكر راجعا فى كردوس من الروم حتى دخل مدينة البهنسا وقاتلت الروم من أعلى الأسوار قتالا شديدا ، وكان خالد رضى الله تعالى عنه تارة يكر عند باب الجبل وتارة عند باب توما وتارة عند باب قندوس ، وكان عياض بن غانم الأشعرى عند باب الجبل فى ذلك الوقت فلبس سلاحه ودنا من القوم بمن معه من الأمراء مثل المقداد وضرار بن الأزور وشرحبيل ومسلم وعقيل وزياد وعبدالله بن العباس وعمرو بن أبى ذئب وعبد الرحمن بن أبى هريرة والمسيب والحرث بن مسلم وزيد بن الحرث وأبى ذر الغفارى ومحمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنهم فعطفوا نحو الباب وكبروا وكبر القوم من ورائهم فخرج اليهم بطريق عظيم ومعه عشرة آلاف فارس وكان اسم البطريق يوحنا فاقتتلوا قتالا شديدا فتكاثر الروم على عبدالله بن عبادة بن الصامت

فقاتل قتالا شديدا ورمى بحجر من أعلى الباب فقتله رحمه الله وقتل من الأمراء وفرسان المسلمين عند الباب زهاء من مائتين وقتل من الروم نحو ألف وحمل عياض والأمراء والتقى القوم فصارت الأحجار والسهام تتساقط عليهم وهم لا يولون عنهم ، فلما ألجئوهم الى الباب واختلطوا بهم خشيت الروم أن يصيبوا أصحابهم بسهامهم وحجارتهم فأمسكوا أيديهم وقتل من الروم مقتلة عظيمة . وأما خالد فقاتل قتالا شديدا ماروى مثله فبينما الناس كذلك اذ أقبل ضرار بن الأزور وهو ملطخ بالدماء وهو جامد عليه كأكباد الابل . فقال له خالد ماوراءك من الأخبار ياضرار ؟ فقال أخبرك ياأبا سليمان انى قتلت فى ليلتى هذه مائة وستين رجلا وقتل قومى مالا يعد وقد كفيتكم من خرج من باب الجبل .

[قال الراوى] وكانت ليلة لم ير الناس مثلها وهجم الأمير عياض هو وأصحابه على من بداخل الباب واقتتلوا قتالا شديدا ووصلوا إلى ساباط الباب ، وكان له باب آخر فأغلق من دونهم على كردوس من الروم فقتلوا هناك وتسلق المسلمون على البرج وقتلوا من فيه وكانوا خمسمائة وقتل فى تلك الليلة هناك نحو ألف . وأما باب قندوس فكان عليه الزبير بن العوام وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو بن العاص والفضل بن أبى لهب والمغيرة وجماعة من الأمراء فتواثبوا الى الباب واقتتلوا قتالا شديدا وقتل من المسلمين نحو مائة وعشرين رجلا غير الأعيان ، وأما باب توما فكان عليه خالد وخرج منه البطليوس فاقتتل الفريقان وقتل من المسلمين جماعة نحو مائتين وثمانين رجلا فى المكان المعروف بالمراغة وغلقوا الأبواب واستعدوا للحصار وهذا كان أول فتح .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا سنان بن مفرج العجلانى عن أبى محمد الشاكرى عن زيد بن رافع عن أبى امامة قال : وأقام خالد بعد الوقعة على البهنسا أربعة أشهر لايقاتلهم ولا يناوشهم فطال عليهم المكث وضجروا فأتوا الى خالد وشاوروه فى القتال فأذن لهم وكان جملة من قتل فى وقعة الأبواب نحو ستمائة فارس ختم الله لهم بالشهادة .

[قال الراوى رحمه الله تعالى] فلما استأذنت الصحابة خالدا فى القتال لم يقدر أن يمنعهم ولما أصبحوا اقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع مثله فاشتد الحصار على أهل البهنسا وقالوا للبطليوس مابقى لنا صبر على القتال والحصار . فقال لهم اصبروا واثبتوا لعلى أن أكيد العرب بمكيدة ، ولما اشتد الحصار عليهم أتوا الى بطريق يسمى توما صاحب الباب وأتاه السوقة والنصارى والعوام وقالوا له لقد ضاق علينا الحصار فنجعل لك مالا وافتح لنا الباب حتى نأخذ لنا أمانا من العرب فأجابهم الى ذلك فصبرهم الى جانب من الليل وفتح لهم الباب فمضى نحو مائتين من تجار البلد وخرجوا من باب السر وأتوا الى خالد وصالحوه على أن يفتحوا لهم الباب وجعلوا للمسلمين جعلا معلوما واتفقوا على ذلك وكتبوا أسماءهم ورجعوا . هذا ماجرى لهؤلاء وكان الكلب ابن عم توما حاضرا واسمه أرمياء فمضى الى البطليوس وأعلمه بذلك فعندها أرسل البطليوس بطريقا يقال له حرفيائيل ومعه ألف بطريق وقال اكمنوا وائتونى بالخبر على جليته فمضوا وتفرقوا وهم مشاة قريبا من باب توما واذابهم قد أقبلوا ، فلما رأوهم عرفوهم وفتحوا لهم الباب فدخلوا فعندها تواثبوا عليهم وأمسكوهم وسحبوهم الى البطليوس لعنه الله ، فلما رآهم وبخهم توبيخا عظيما . وقال ائتونى بالسياط ونصب أخدودا من حديد ، ثم ضربهم ضربا شديدا وأتى بالنار وأحرق

جميع أموالهم وأمر باحضار البطريق فأحضر بين يديه فأخذه ومضى الى القصر هو وجميع أعوانه واستدعى بالخشب وصلبهم على أعلى السور وأقاموا هناك يوما وليلة ، ثم أمر بضرب رقابهم وطرح رؤوسهم للمسلمين . قال الأمير عياض للأمير خالد هؤلاء أهل ذمتنا ، وقد قتلهم البطليوس لعنه الله

[قال الراوى رحمه الله تعالى] وأما الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فانه قلق على المسلمين قلقا شديدا فأرسل كتابا إلى عمرو بن العاص يقول فيه : ماسبب انقطاع كتبك عنى وأنا فى قلق على المسلمين وعلى خالد ومن معه ؟ واعلم أنك لاترسل لى إلا بالفتح والغنائم وإن احتاج خالد إلى نجدة فأرسل إلى أبى عبيدة ، فقد كاتبته بأن يرسل له جنودا من الشام والسلام ، فلما وصل الكتاب إلى عمرو أرسله إلى خالد . فقال خالد لانطلب النجدة والمعونة الامن الله تعالى ، ثم ان خالدا عظم عليه الأمر واشتدّ الحصار وكان كل يوم يرجع الى المدينة ويقاتل قتالا شديدا وفقد من المسلمين جماعة كثيرة قتلوا بالحجارة والنشاب وهجم عدوّ الله على المسلمين وكادهم مرارا وقال خالد للأمير عياض وللمسلمين لاشك أن لأصحابنا عيونا وجواسيس ، ثم ان خالدا ركب ومعه الفضل بن العباس والمقداد وزياد بن أبى سفيان وعياض وطافوا حول العسكر واذا برجل من العرب المتنصرة جالس على قطيفة خارج العسكر فأنكر أمره خالد وقال له من أىّ العرب أنت ؟ فسكت . فقال له الأمير عياض انطق بالحق من لك من الأهل ههنا ؟ فسكت . فقال له خذ الماء وتوضأ فلم يحسن ذلك . فقال له صلّ فلم يحسن ذلك فضربوه فأقرّ بأنهم خرجوا ثلثمائة من باب السر وردوا وبقى هو فضرب عنقه وانقطعت الجواسيس فكانوا يقاتلون قتالا شديدا وكان لخالد عبد فى خيمته اسمه فلاح يصنع له كل يوم قرصين من شعير واحد له وواحد للعبد فقعد خالد ثلاثة أيام يأتى السفرة فلا يجد فيها شيئا ولم يكلم العبد ، وكان عنده بعض تمر يتقوت به حتى فرغ فعندها قال خالد للعبد ياولدى قال الله تعالى ـ وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام ـ ولك ثلاثة أيام لم تصنع فيها قرص شعير . قال : ياسيدى ماقطعت عنك ذلك ولكن أصنع لك كل يوم وأعلقه فى طبق الخيمة فلم أجده . قال خالد ان هذا شأنا عظيما ، ثم قال للعبد قف خلف الخيمة وأخف نفسك وانظر من يفعل هذا ، فلما كان الغد ركب خالد للقتال وصنع العبد القرصين وأكل قرصا ووضع قرص سيده فكان معتادا أن يشيله له ، فجاء كلب أسود عظيم من جهة البلد ودخل الخيمة وأخذ القرص فى فمه ومضى فتبعه العبد حتى أتى الى سرب يخرج منه الماء يجرى من البحر تحت الأرض الى تحت سور المدينة من جهة القبلة ويدخل المدينة ويظهر من الجهة البحرية من خارج البلد ، فلما رآه العبد رجع وأعلم الأمير خالدا فمضى معه ورأى ذلك ففرح بذلك فرحا شديدا ثم أتى الى الأمراء وأعلمهم بذلك وقال لهم أريد منكم مائة رجل قد باعوا أنفسهم لله عزّ وجل فيمضون معى وجماعة شداد يكونون مقابل الباب . فاذا فتحنا الأبواب دخلوا الينا فانتدب منهم مائة رجل من خيار القوم منهم عبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وزيد بن ثابت وعقبة بن عامر ومسلم بن عقيل وزياد بن أبى سفيان وأخوه هبار والمسيب بن نجيبة وأخوه والمقداد ابن الاسود ورافع وأبو رزين العقيلى ومثل هؤلاء السادات ، وقد اقتصرنا فى أسمائهم خوف الاطالة ورتب خالد رضى الله عنه عبد الله بن جعفر والزبير بن العوّام وابنه عبدالله والفضل بن العباس والفضل بن أبى لهب وضرار بن الأزور ومثل هؤلاء مقابل الباب

وصبروا الى غروب الشمس وأتوا الى ذلك السرب ودخلوا اليه فى الماء كل واحد بسراويله وسيفه وكان أولهم الأمير خالد ، وكل من دخل يدع سيفه وحجفته مع صاحبه حتى يدخل ويأخذهما حتى دخل ثمانون رجلا ورجع عشرون لم يسعهم السرب وضاق عليهم فولوا وهم متأسفون لما فاتهم من الشهادة والفتح ، وتواثبت الأمراء المذكورون وأخفوا نفوسهم تحت الجدار الى جزء من الليل فتبادروا الى الباب فوجدوه موثقا من داخله فعالجوا الأقفال والروم سكارى ففتحوا الباب وذبحوا كل من وجدوه فى دهليز الباب وكانوا ستين رجلا ، ثم علوا على السور وجماعة منهم أخذوا المفاتيح ففتحوا الباب وثاروا على الروم فقتلوا جماعة منهم فى أعلى البرج وقتلوا بطريق البرج وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، فأجابهم المسلمون بمثل ذلك ودخلوا من الباب الى سوق المدينة وتبادرت جماعة الى القصر ، فلما أحس عدوّالله بذلك وأن المسلمين ملكوا عليه الأبواب وضع منديلا فى عنقه وخرج وهو يقول : الأمان الأمان وفعل جماعة كذلك فأتى خالد ووضع السيف فيهم وقاده أسيرا وقال له ياعدوّالله لا أمان لك عندى الا أن تسلم وقبض على جماعة من بطارقته ووضع السيف فيهم وقتل من الروم نحو ثلاثة آلاف وقتل من المسلمين فى تلك الليلة فى وسط البلد مائة وأربعة وثمانون رجلا قريبا من سوق المدينة وعند الأبواب وعند القصر وجاء عياض ومعه جماعة من الأمراء فشكا اليهم أهل البلد ، وقالوا الأمان فرق لهم الأمير عياض رحمه الله وصار عدوّ الله يتملق بين أيديهم فغلبوا على رأى خالد حتى صالحهم على ألف ألف مثقال من الذهب الابريز ، وألف ألف أوقية من الفضة البيضاء ، وعشرة آلاف وسق من البر والشعير والجزية من العام القابل ، وخالد لا يطمئن قلبه الى شيء من ذلك وغلب الأمراء على رأيه وجاءوه وقالوا له لقد أضرّ بنا المقام بهذا البلد ، فما نراك إلا أشفق منا علينا ونرى من الرأى أن ترسل إلى عمرو وتعلمه بذلك وهذا الكلب وجماعته موثقون إلى أن يجيء الجواب فعندها كتب خالد كتابا الى عمرو يخبره بذلك ، فلما بلغه ذلك رد لهم الجواب أنهم يستوثقون منه بالايمان ويأخذون منه ماصالحهم عليه و يتركونه ، ومن صاح الغوث الغوث فاتركوه والانفر منكم أهل الصعيد ففعل خالد وقلبه نافر وأطلقه بعد ما استوثق منهم بالايمان فى كتبهم المذكورة وأطلقوه وشرط عليهم أن لاينزل عندهم أحد الامن يقبض المال فخرجوا الى ظاهر المدينة و بقى عنده فضالة بن زيد السلمى وعون بن ساعدة الكندى ومقسوم بن سعيد الجهنى ومائتان من أصحاب رسول الله ﷺ وأخرج الميرة والعلوفة وصار كل يوم يركب ويتردد الى الأمراء ووهب وأعطى ولم يترك أميرا الاخادعه حتى طابت نفوسهم عليه إلاخالدا والفضل بن العباس والمقداد وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق والزبير بن العوّام فانهم لم تطب نفوسهم اليه وأقاموا شهرين على ذلك وأرسل جميع الغلال الى خزينته فى هذا الزمن وخزن مايحتاج اليه واستدعى بكبار قومه ومن يثق به واتفق رأيهم على قتل المسلمين والغدر بأصحاب رسول الله ﷺ وصبروا الى أن مضى جزء من الليل وهجم على المسلمين على حين غفلة فى ألف بطريق وأوثقهم كتافا وجعل فى أفواههم الأكر وفتح الأبواب وأدخلهم المدينة وهجم على المسلمين ووضع السيف فيهم وهم رقود فما انتبهوا الا والسيف يقطع فى نحورهم وكانت وقعة عظيمة وثار خالد بمن معه ، وكان الزبير راقدا فسمع الصياح ، فقال دهينا ورب الكعبة ثم ركب وركبت معه زوجته وقاتلت النساء قتالا شديدا

وعدوّالله تارة يكر ميمنة وتارة يكر ميسرة والسيف يعمل والرجال تقتل ، وكانت ليلة شديدة وصار خالد يقول : ياقوم أما قلت لكم فما سمعتم لخالد والتجأ زياد بن أبى سفيان وأخوه هبار وميسرة ابن مسروق وفضالة بن عبد شمس وعقيب بن يعقوب وعبادة بن تميم وجندبة الكلبى الى تل هناك وأحاط بهم طائفة من الروم من كل مكان فقاتلوا قتالا شديدا وانحدر زياد رضى الله عنه من التل وتبعه أصحابه فأحدقت بهم الروم وداروا بهم كدوران السور بالمعصم وقتلوا زيادا وجميع من ذكرنا من الأمراء وقاتلت نسيبة الانصارية أم أبان وأسماء ابنة أبى بكر ونعمانة ابنة المنذر ونظائرهن فى تلك الليلة قتالا شديدا وقتل جماعة من المسلمين وأتى خالد وحمل عليهم وجعل يقلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنة قال وأطبق عليهم هو وجميع الأمراء فهزموهم الى الأبواب وقد قتلوا منهم مقتلة عظيمة وهرب عدوّالله وتحصن هو وقومه وغلقوا الأبواب ، ولما أصبح أمر بالحصار وأمر باحضار المأسورين وصعد بهم الى أعلى البرج وضرب رقابهم فشق ذلك على المسلمين وصعب عليهم مافعل عدوّالله بأصحابهم وأتى خالد رضى الله عنه ومعه بقية الامراء الى مكان المعركة فوجدوا الشهداء مطروحين ووجدوا زيادا رضى الله عنه وفيه عشرون طعنة بالرمح وأربعون ضربة بالسيف والى جانبه أخوه هبار وفى رأسه عشرون ضربة بالسيف وواحدة فى فخذه قطعته فبكى خالد عليهم بكاء شديدا وبكى عليهم سائر الامراء وابطال المسلمين ونعاهم الامير خالد بهذه الابيات وهى له خصوصا :

هوام دموعى كالسحائب تهمع — وقلبى من فقد الاحبة يفزع
وأظلمت الدنيا على نور عبرتى — وكاد فؤادى بالجوى يتقطع
لفقد زياد أحرق البين مهجتى — وغاب صوابى وهو فى الارض يصرع
لقد كان فى بحر المعامع صائلا — يزلزل أركان العدا ويضعضع
وقد كان مقدام الفوارس كلها — بكل مكان للأعادى مقمع
لحى الله يوما فيه حانت وفاته — وأجفانه مع أسهم الدمع تدمع
أياسيدا من آل هاشم لم يزل — له رتبة بالمجد والجود ترفع
يعز علينا أن نراك معفرا — ورأسك من فوق الجنادل تسفع
بجانبك الهبار أضحى مهبرا — طريحا على رأس الثرى وهو مطبع
ألا لعن الرحمن بطليوس قومه — وألعنه مع كل قوم تجمع
لقد غدر السادات من آل هاشم — نجوما وأقمارا على الناس تطلع

[قال الراوى] ثم بكى المسلمون بكاء شديدا على من قتل منهم من الأمراء والأبطال وجمعوهم وصلوا عليهم وواروهم فى حفرهم الى جانب التل فاذا هم ثمانون أميرا وثلثمائة وسبعون رجلا ختم الله لهم بالشهادة .

[قال الراوى] وأقام المسلمون ثلاث سنين إلا أنهم يشنون الغارات على السواد والسواحل ومضى القعقاع بن عمرو وهاشم وأبو أيوب وعقبة بن نافع الفهرى بألفى فارس وأغاروا على حد برقة ثم عادوا وهذا أحد الآراء فى فتح المغرب . قال رضى الله عنه : ولما طال الحصار والمكث على أهل البهنسا ا . . المسلمون عند خالد واستشاروه فيما يفعلونه وماذا يكون من الرأى فوثب

عبد الرازق الأنصارى وعبد الله بن مازن الدارى وكعب بن نائل السامى وأبومسعود البدرى وأبوسعيد البياضى وقالوا ياقوم قد وهبنا أنفسنا لله عزّ وجل ولعل أن يكون للاسلام فرج فاصنعوا منجنيقا واملئوا غرائر قطنا وقالوا يأخذ كل واحد منا سيفه وحجفته و يدخل فى غرارة قطن فاذا كان الليل ونامت الحراس فالقونا على أعلى السور واحدا بعد واحد والمعونة من الله فى فتح الباب كما فتحتم قصر الشمع بمصر ودير النحاس وكما فعلتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فاستصوبوا رأيهم ، فلما أصبحوا قطعوا الاخشاب وصنعوا منجنيقا وصنعوا له حبالا وأحضروا غرائر وملئوها قطنا والرجال داخلها وصبروا الى الليل ودخل هؤلاء السادات رضى الله عنهم بعد ان ضربوا بالمنجنيق حجرا بعد حجر فسقط على أعلى السور والبرج فشرعوا فى رميهم منهم أبومسعود البدرى وعبد الرزاق الى أن رموهم جميعهم وصاروا فوق أعلى السور ورتب خالد أصحابه على الابواب ، وأما عبد الرزاق وأصحابه ، فلما صاروا بأعلى الجدار نزلوا الى البرج . فاذا هو مغلق والحرّاس نيام فنزلوا الى الدهليز بين البابين فوجدوهما مغلقين موثقين فذبحوا البوّابين عن آخرهم ووجدوا المفاتيح تحت رأس كبيرهم فى جانب سريره فأخذوها وفتحوا الأبواب واذا بالباب الثانى الذى ينتهى الى القصر مسدود بالحجارة ، فاحتالوا على قلع حجر بعد حجر فقلعوها ورموا الأحجار وفتحوا الابواب وكل ذلك فى أقل من ساعة بمعونة الله عزّ وجل ، وصعدوا الى البرج فعالجوه وفتحوه وقتلوا جماعة واستيقظ جماعة وثاروا عليهم ، وخافوا على الباب أن يؤخذ منهم وأن يحال بينهم وبينه وهو باب السور الذى بظاهر المدينة ففتحوه ، وصاحت الروم واستيقظ البطليوس وركب جواده وكان على حذر ، وركب المسلمون ودخلوا الباب وخرجت البطارقة والبطليوس من قصره وزحفت الروم الى الباب ، وكان أوّل من قتل فى ذلك اليوم عبد الرزاق وعنان بن مازن وكعب بن نائل السامى بداخل الباب .

قال حدثنا قيس بن مازن الحيرى عن عبادة بن سالم السكاكى عن أبى مسعود البدرى ، وكان أوّل من فتح الباب . قال ليس هو على هذه الصفة وأخبرنا سالم بن حامد عن أبى عبد الله عن أبى محمد الأنصارى عن عبد الله البدرى ، قال : كان أبو محمد الحسنى يقرأ هذه الفتوح بالجامع الغزى العمرى على الشيخ أبى عبد الله حتى بلغ الى هنا وذكر الفتوح وفتح الباب وان الرجال وضعت فى الغرائر . قال يابنىّ ليس الأمر كذلك ، فقد روى عن أبى مسعود وهو الصحيح عن فتح الباب قال : انهم قطعوا أخشابا ونصبوا سلما للتسلق عاليا علوّا جدار المدينة وصبروا الى الليل وأسندوه الى الجدار وتسلق منهم أربعون رجلا ومنهم السبعة المذكورون وفتحوا الباب كما ذكرنا واستيقظ الروم وخرجوا اليهم بعد فتح الباب ، فكان السابق اليهم عبد الرزاق رضى الله عنه فقتلوه وقتلوا معه من ذكرنا أوّلا وتسابق المسلمون الى الباب ، فكان أوّل من دخل ضرار بن الأزور وهو يزعق ويقول هذه الأبيات :

الجنّ تفزع يوم الحرب من فزعى	إذا أتيت إلى الهيجا بلا جزع
ياويل من صنع الأرصاد يخد عنا	ونحن جرثومة الأمكار والخدع
لأرضينّ الهى فى جهادهم	وقتل أبطالهم بالسيف والدرع
ياويل كلب العدا البطلوس ان وقعت	عينى عليه لأرديه إلى النزاع

عيب علىّ إذا ما ألتقيه هنا ... وأفلق الرأس منه غير مرتدع

ثم دخل من بعده خالد وهو يقول :

اليوم يوم الوفا والطعن بالأسل ... والضرب بالقضب فى الهامات والقلل

ياويل بطلوس كاب البهنساء إذا ... لاقيته بطليق الحد معتدل

ان لم أذقه بكاسات المنون هنا ... فلا سلمت ولا بلغت من أملى

قال ثم دخل من بعده ذوالكلاع الحيرى وهو يقول :

إنى لمن حمير العالين فى النسب ... أهل الثنا والوفا والجود والحسب

أسد غضافرة سود جحاجحة ... نردى الكماة غدا فى الحرب بالقضب

الحرب عادتنا والطعن همتنا ... وذو الكلاع أنا عال على الرتب

تبت يد الروم مايدرون أن لنا ... صوارما تترك الأعضاء كالقصب

قال ثم دخل من بعده الزبير بن العوّام وهو يقول :

أيا بطليوس يا كلبا لعينا ... ويانسل الطغاة الأرذلينا

أتتك حماة دين الله حقا ... وأولاد الجياد الخيرينا

خيار الناس نسل بنى نزار ... كراما فى الأعادى قاطعينا

إذا احتبك العجاج بهم تراهم ... بحولك كالسباع الضارينا

ولامنهم جبان قط يهزم ... ولا نذل فتلقاه حزينا

وليس ترى سوى مقدام قوم ... أثار الحرب صنديدا أمينا

قال ثم دخل من بعده عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق وهو يقول :

أتينا إلى البهنساء بكل قرم ... شديد العزم فى يوم النزال

وجيش فاق فى الآفاق طرا ... على الاعداء بالسمر العوالى

قال ثم دخل من بعده عبد الله بن جعفر وهو يقول :

اليوم طاب الطعن فى اللئام ... والضرب فى الاعناق بالحسام

وأنصر الاسلام باهتمام ... ولم أزل عن سادتى أحامى

أنا الشجاع الفارس الهمام ... ومردى الاعداء فى الحمام

قال ثم دخل بعده الفضل بن العباس وهو يقول :

ألا إننا السادات من آل هاشم ... ليوثا ذوى بطش شديد العزائم

لنا تشهد الابطال فى كل معرك ... وتذكر عنا أهل كل المواسم

إذا اشتدّت الاهوال واستبق القنا ... رأيت لنا فى ذاك فعل الضراغم

قال ثم دخل من بعده الفضل بن أبى لهب وهو يقول :

لنحوك يابطلوس عزمى قد طلب ... بحد حسام كالشهاب إذا انتدب

يطير شرار النار من لمعانه ... بكف شجاع الخيل ابن أبى لهب

فويلك ياملعون منه إذا سطا ... بصارمه يوم العجاج وإن وثب

قال ثم دخل من بعده عياض بن غانم الاشعرى وهو يقول :

لأنني يوم الهيج عن العدا بمهندى الصمصام إلا إن قطع
فالويل للبطلوس من سطواتنا لأفرقن بحد سيفى ماجمع

قال ثم دخل من بعده المقداد ابن الأسود وهو يقول :

أنا الكندى كالليث الشجاع وإنى فى العدا قد طال باعى
وتشهد لى الرجال بكل حرب وللهيجاء منقاد الطباع
فواثارات عبد الله إنى عليه ذاهل حيران ناعى

قال ثم دخل من بعده أبان بن عثمان وهو يقول :

نحن الليوث ذوو المعروف والكرم وفى المعامل يوم الحرب والهمم
مجندلون العدا فى كل معترك وقاهرون لهم كل مصطدم
لا يعجبنك يابطلوس جيشك فى هذا المقام فمنا الكل كالرخم

قال ثم دخل من بعده مسلم بن عقيل ، وهو يقول :

ضنانى الحرب والسهر الطويل وأقلقنى التسهد والعويل
فواثارات جعفر مع علىّ ومأبدى جوابك ياعقيل
سأقتل بالمهند كل كلب عسى فى الحرب أن يشفى الغليل

قال ثم دخل من بعده شرحبيل بن حسنة ثم القعقاع بن عمرو التميمى ، ثم مالك الأشتر ثم عبادة بن الصامت ثم أبو ذر الغفارى ثم أبو هريرة الدوسى ثم ابنه عبد الرحمن ثم معاذ بن جبل ثم شداد بن أوس ثم قيس بن هبيرة ثم عقبة بن عامر ثم أبو دجانة الأنصارى ثم جابر بن عبد الله ثم البراء بن عازب ثم النعمان بن بشير ثم سعيد بن زيد أحد العشرة الكرام رضى الله عنهم أجمعين . قال ثم الأنصار يتلو بعضهم بعضا بهمم وعزائم . قال ثم خرجت الروم وقاتلت قتالا شديدا وتواثبت جماعة من الأمراء مثل الزبير بن العوّام وابنه عبد الله وعبد الرحمن بن أبى بكر الى باب البحر واقتتلوا قتالا شديدا وتقدم عبد الرحمن والزبير الى الباب والروم على أعلى السور ونزل عن جواده وصلى ركعتين والحجارة تتساقط عليه وهو لا ينزعج لذلك ، وتقدم هو والفضل وعبد الرحمن بن أبى بكر الى الباب وجعلوا السلاسل من فوق وصعدوا الى أعلى البرج وهدموا الشرافات ووضعوا السيف فى الحراس ، وفتحوا الباب ووثب شرحبيل بن حسنة والفضل ابن العباس وأبو ذر الغفارى وأبو أيوب الانصارى الى باب قندوس ووثب المسيب بن نجيبة الفزارى والقعقاع بن عمرو والامير عياض بن غانم الاشعرى إلى باب الجبل وفتحوا الابواب واقتتلوا قتالا شديدا وقاتلت الروم قتال الموت الى أن طلعت الشمس وارتفعت ، وقاتل عدوّ الله البطليوس قتالا شديدا وقتل رجالا وجندل أبطالا واقتتلوا فى الازقة والشوارع وبين الابواب وتقدم خالد وهو يصيح واثارات سليمان وطعنه طعنة صادقة فى صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره فوقع يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار ، فلما رأى الروم ذلك ولوا الأدبار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون ، وقتل من الروم نحو ثلاثين ألفا بوسط البلد وأسر منهم عشرون ألفا ، وأنشد خالد رضى الله عنه يقول .

وبالبهنسا الغرا أبيدت جيوشنا ... ثلاث سنين بابها ليس يفتح
ثمانى آلاف عـــداد جيوشنا ... وكل همام عن ثمانين يرجح
فما فتحت الا وقد صار جيشنا ... ثلاثة آلاف عـداد تسحسح
ولم أر فى أرض الصليب كمثلها ... ولاجيشها لما على السور يسرح
ولامر لى يوم كمثل حروبها ... لان بها البطلوس ليث مبجح
وكان له جيش وعدة جيشه ... ثمانون ألفا بالحـديد توشحوا
وكنا غلبناهم ثمانين مرة ... يخادعنا البطليوس عنهم فنصفح
ثـلاث مرار نحن نفتح بابها ... وترتد للكفر النميم وتجنح
وقد لعب الهنـدى يوم فتوحها ... وكانت أيادينا وفى الروم نذبح
ثلاثون ألفا قد محتها سيوفنا ... وأكبادنا من حرها النار تقدح
الى أن ملأنا البر والبحر منهم ... وقد شبعت أسد الفلا وترنحوا
وولت ثلاثون الألوف شواردا ... وعشرون ألفا منهم قد تجرحوا
فمنهم قضى نحبا ومنهم بها طغى ... ومنهم أناس فى المقابر روحوا
وبطـلوسهم ذاك النهار قتلته ... وقد كان مقدام الجيوش مرجح
فبادرته فى الحال حتى تركته ... صريعا عليـه الغانيات تنوح
وعاجلته فى الرأس منى بضربة ... فأضحى بها شطرين ملق ومطرح
وعاد بسيف ابن الوليد مجندلا ... تمـر به كل الحوادث تفلح
ولما فنى بطلوسهم صار جمعهم ... كما شبه أغنام وغاب المسرح
وقد كان فى بحر الهياج مغلغلا ... تولى سرايا قومنا منـه مرح
فلله ما أعـداه قد كان فارسا ... يفوق على جيش عظيم ويرجح
وقـد فرحت أكبادنا وترنمت ... لعمرك والأكباد بالنصر تفرح
أقمنا بأرض البهنسا بعد فتحها ... ثلاثـين يوما للمساجـد نصلح
وصرت الى أرض الصعيد معاجلا ... بألفين من خيل الصحابة ترمح
من البهنسا لأسوان جمعا فتحتها ... بعشر شهور بعدها ليس تلمح
وعندى الثلاثون الذى شاع ذكرهم ... وكل فتى ياصاح بالألف يرجح
ورحنا فتحنا الهند والسند كله ... وأسـيافنا فى الغمد لله تسبح
وفى كل أرض عسكر قد تركته ... يقيمون دين الحق والحق يوضح
وهذا كلام ابن الوليد الذى جرى ... فكن سامعا معنى الذى لك أشرح
فما مثـله فى معمع الحرب سيد ... ولامثله فى جوهر النظم أفصح
ومن بعد ذا صلوا على أشرف الورى ... نبى له كل البـرية تجنح
عليـك سـلام الله مالاح بارق ... وماغرد القمرى اذ الصبح يطفح
وأصحابه والآل والعـترة التى ... أقاموا لدين الله والشرك زحزحوا

[قال الراوى رحمه الله تعالى ورضى عنه] وصار المسلمون يصعدون الى البيت ويأخذون الرجال من بين حريمهم من الروم و يقتلونهم حتى كلت سواعدهم من الذبح وجرى الدم فى الازقة وصارت القتلى فى الشوارع والأسواق مطروحين وخرجت اليهم النصارى والقبط وهم يبكون و يقولون نحن أهل ذمتكم ونحن عوامّ وتجار وسوقة وكنا مغلو بون على أمرنا وقتل خيارنا بأسيافكم فأجيرونا وارحمونا يرحمكم الله ، وأراد خالد أن يفعل بهم كما فعل بأصحابهم ، فمنعه الأمير عياض و بقية الأمراء و يقولون هؤلاء قد صاروا رعيتنا وليس لهم بطش فتركوهم وقالوا بشرط أن تدلونا على من أخفى نفسه فى المغاير والمخابى ، ومن فرّ من الباب الشرقى وغرق فى الماء فدلوهم على الجميع ولم يزالوا يقتلون ذلك اليوم كله ، وفى اليوم الثانى استدعوا بنجارين يعملون عربات لحمل القتلى من المسلمين وأخذوا دوابّ أهل السواد من البقر تسحب العربات والفلاحون عملوا عليها وصاروا يضعون كل ثمانية وستة وعشرة فى حفيرة ويردون عليهم الرمل حتى صاروا تلالا وشهروا قبورهم ووضعوهم بدروعهم وثيابهم ودمائهم رضى الله تعالى عنهم ، وأخذوا ألواح رخام وكتبوا عليها أسماءهم وأنزلوها فى مدافن قبورهم ورجعوا الى قتلى أهل البلد فواراهم أهلهم فى قبورهم ، وكان جملة من قتل من المسلمين فى ذلك اليوم نحو أربعمائة وأزيد ، الاعيان منهم صاغر بن فرقد وعبد الله بن سعيد وعبدالله بن حرملة وعبد الله بن النعمان وعبدالرزاق الانصارى وعبد الرحيم اللخمى وأبو حذيفة اليمانى وأبو سلامة الثقفى وأبو زياد اليربوعى وأبو سليمان الدارانى وابن أبى دجانة الانصارى وأبو العلاء الحضرمى وأبو كلثوم الخزاعى وأبو مسعود الثقفى وهاشم بن نوفل القرشى وعمارة بن عبد الدار الزهرى ومالك بن الحرث وأبو سراقة الجهنى والبقية من أخلاط الناس وقتل عند سوق التمارين نحو عشرين ودفنوا هناك وعند سوق الصابون جماعة كثيرة وقريبا من العطارين فى جانب القبور نحو أربعين وقريبا من البحر اليوسفى جماعة عند السور رضى الله تعالى عنهم .

[قال الراوى] ولما وارى المسلمون شهداءهم صعدوا الى قصر البطليوس والى قصور البطارقة ودورهم ومقاصيرهم فوجدوا فيها من آنية الذهب والفضة مالا يوصف ، ومن المتاع والحلى والحلل واللآلئ والنمارق والجواهر والبسط والوسائد والمسائد واقتتلت الروم على بغلة محملة عند باب السرّ فغلبهم المسلمون عليها وأخذوها فاذا عليها صندوقان فيهما أحجار معادن ، فاشترى رجل من المسلمين من بيت المال حجرا بستة آلاف دينار فباعه على غشوميته بمائة ألف دينار وأخذوا بساط البطليوس ، وكان مثل بساط كسرى سداه حرير وذهب مرصع بالمعادن فأرسلوه مع الخمس الى المدينة ، فجعل لعلى بن أبى طالب فما حصل له من البساط عشرون ألف دينار وغنمت المسلمون غنائم كثيرة من أوانى الذهب والفضة وغير ذلك .

[قال الراوى رحمه الله تعالى] حدثنا عون بن عبيدة عن عبد الحميد بن أبى أمية . قال هدم المسلمون القصر والكنيسة وتلك الدور وفتحوا خزائن البطليوس واستخرجوا جميع ما فيها من الذهب والفضة وغير ذلك ولم يتركوا فيها شيئا أبدا ، وقسم خالد الغنيمة بين المسلمين فكان للفارس عشرة آلاف مثقال من الذهب وألف أوقية من فضة ، ومن الثياب والملبوس وغير

ذلك مالايوصف ، ولما دخلوا الكنيسة ورأوا تصاويرها وقناديلها الذهب والفضة والستور الحرير المنقوشة والاعمدة وغير ذلك تعجبوا وقرأ خالد ـ ما اتخذ الله من ولد ـ الآية ، وقال لاإله إلا الله محمد رسول الله ، فصاح المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، وقرأ عياض الأشعرى ـ كم تركوا من جنات وعيون ـ الى قوله ـ وأورثناها قوما آخرين ـ وأخربوا تلك البيعة ، وجعلوا بجانبها مسجدا على أعمدة من الرخام مسقوف عليها بتلك الأخشاب وهوالجامع الأول قبل بناء حسن بن صالح هذا الجامع الآن و بقية الأخشاب والحجارة جعلوا منها مساجد وربطا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا عبد الحميد عن قيس بن مهران عن أبى جمدة . قال بمدينة البهنسا أربعون رباطا ومن المساجد مالايعد وأخربت الصحابة تلك المعالم و بنوا دورا لأنفسهم واختطوا بها أماكن وشوارع ، وأقام خالد ومن معه بمدينة البهنسا يصلحون المساجد والربط ويخرجون المعالم شهرا كاملا ، ثم أخرج الخمس وأرسله لعمرو بن العاص ومن معه من المسلمين وهو نازل بمصر على قدر سهامهم ، وقال له أرسل الخمس مع أبى نعيم الانصارى والفضل ابن فضالة وأبى دجانة الى عمر بن الخطاب وهو بالمدينة ، فلما ورد الكتاب على عمرو بن العاص فرح بذلك فرحا شديدا ، ثم كتب عمرو لعمر كتابا مع أبى نعيم صحبة كتاب خالد وسير معه ثلاثين صحابيا حتى دخل المدينة ودخل على عمر بن الخطاب فوجد عنده جماعة وقد أخرج لهم قصعة ومناسف من ثريد ، فلما رآنا عانقنا وتهلل وجهه فرحا وجلسنا كلنا نأكل وهو قائم على رؤسنا متكئ على عصا رسول الله ﷺ ، فلما فرغنا من الأكل ناولته الكتابين ، فقرأهما وفرح فرحا شديدا ونادى فى الناس الصلاة جامعة فخطب وحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرأ عليهم الكتابين واستدعى بالصحابة وقسم عليهم الغنيمة ولم يترك لأهله درهما ولا دينارا ولا ثوبا رضى الله تعالى عنه وأخذنى ومضى الى بيته بيت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وأدخلنى اليه فاذا فيه فراش من أدم حشوه ليف ووسائد من صوف وقطيفة واحدة فجلست . فقال لأم كلثوم هل عندك شىء من التمر ؟ قالت لا الا اللبن الحامض . قال ذلك لى وإن عندنا ضيفا فحضرت بعكة من سمن وقليل من عسل وفطير مع جارية فأكلت قليلا من المذكور وأخرجت الباقى لأصحابى وشرعت أحدثه عن البطليوس وهو تارة يبكى وتارة يضحك من فعله ويبكى على من قتل من المسلمين والأمراء وخرجنا الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وجاءت الناس يهرعون ويسألون عن أهاليهم منا فأخبرنا عمن مات ومن قتل فضج الناس وأهل المدينة بالبكاء وعلت الأصوات على من قتل ، وجاء الناس لعلى ولعقيل ولبنى هاشم يعزونهم فيمن قتل وأقمنا بالمدينة سبعة أيام ورجعنا الى مصر بكتاب عمر الى خالد فأمره بالمسير الى الصعيد .

[قال الراوى رحمه الله تعالى] هذا ماجرى لهؤلاء . وأما خالد رضى الله تعالى عنه فانه بعد شهر ترك أناسا من الصحابة بأرض البهنسا من جميع القبائل وخرج بألفى فارس الى أرض الصعيد ، وكانت القبائل من بنى هاشم و بنى المطلب و بنى مخزوم و بنى عبدالدار و بنى زهرة و بنى

نزار و بنى جهينة و بنى مزينة و بنى غفار والأوس والخزرج ومذحج وفهر وطيء وخزاعة ، وكان الأمير عليهم مسلم بن عقيل وأحاطوا بالمساكن ، وجعلوا بالمدينة أسواقا وشوارع وسكن أكثر الصحابة فى جانب البحر اليوسفى وخلوا من الآخر الى الجانب الغربى شارعا واحدا لأجل أن تسبح دوابهم فى البحر ، وأقام مسلم بن عقيل واليا عليها الى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه فتولى محمد بن جعفر بن أبى طالب بعده ومضى مسلم وترك أولاده واخوته بها ولم يزل فى المدينة حتى قتل فى خلافة الحسن فى الكوفة رضى الله عنه وأقام محمد بن جعفر الى خلافة على رضى الله عنه وتولى عليها بعده على بن عبد الله بن العباس رضى الله عنه الى خلافة معاوية ، وكان عبدالعزيز بن مروان الاموى واليا وتولى بعده طاهر بن عبدالله وكانت قريش والاشراف بالجهة الغربية ويقال لها حارة الاشراف ، وكان لكل قبيلة حارة .

قال أبو المنهال لما فتحت مدينة البهنسا كانت آهلة بالجند فاجتمعت السوقة والمتسببون من أهل البلد وكانوا أربعين ألفا .

[قال الواقدى رحمه الله تعالى] حدثنا حامد بن المزيد عن أبى صالح عن ابن نوفل المرادى . قال كان بمدينة البهنسا أربعمائة بقال حين فتحها يبيعون البقل وغيره وكانت مدينة عظيمة ، فلما وقع بين بنى أمية و بنى هاشم ماوقع أخرجوا منها جماعة واختل أكثرها . قال وتسلسل اليها جماعة من العربان حتى جاء الحسن واخوته فى خلافة بنى العباس فعمر جامعا وأكثر من الزوايا والربط وأقام بها حتى مات رحمه الله .

قال ورجعنا الى سياق الحديث وخرج خالد بمن معه الى الصعيد ولم يزل يفتح مدينة بعد مدينة الى آخر الصعيد الى عدن وسواكن ، وليس مقصدنا فى هذا الكتاب الا فتوح البهنسا خاصة التى عليها مدار فضائل السادة الشهداء لان بتربتها خمسة آلاف صحابى وحضر فتح البهنسا نحو سبعين بدريا من أصحاب رسول الله ﷺ ، وفى زيارتها تعظم الأجور ، وقد زارها جماعة من العراق مثل بشرالحافى وسرى السقطى ومالك بن دينار وسحنون ، وزارها من أقصى المغرب أبو مدين وشعيب وأبوالحجاج ، وأبو عبدالله وزارها الفضيل بن عياض ، وروىأن إقليم البهنسا أكثر بركة من جميع الأرض كلها ، وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس بعد مكة والمدينة والأرض المقدسة والطور أرض مباركة الا أرض مصر والبركة هى فى الجانب الغربى » .

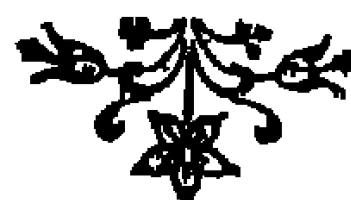
[قال رحمه الله] ولعلها البهنسا ، وكان على بن الحسن يقول انه ليس بأرض مصر بالوجه القبلى أرض مباركة ولا أكثر بركة من أرض البهنسا ، وكان أبو على النورى اذا أتى أرض البهنسا وأتى الجبانة ينزع ثيابه ويتمرغ فى الرمل ويقول : يالك من بقعة طالما ثار غبارك فى سبيل الله ، وكان أبو على الدقاق اذا مر بجبانة البهنسا يقول يالك من بقعة ضمت أعضاء رجال وأى رجال طالما عرقت وجوههم فى سبيل الله وقتلوا فى سبيل الله ومرضاته . وقيل للحسن بن صالح لم اخترت هذه البلدة علىغيرها ؟ . قال كيف لا آوى الى بلد أوى اليها روح الله وكلمته ويتنزل على جبانتها كل يوم ألف رحمة ، ولما ولى عبد الله بن طاهر مصر تجهز وأتى الى البهنسا ، فلما قرب

من الجبانة ترجل عن جواده وترجل من معه [، وكان الوالى عليها عبد الله بن الحسين الجعفرى فخرج ماشيا وسلم عليه ، ولما وصل الى الجبانة قال السلام عليكم يا أحياء الدارين وخير الفريقين ، ثم التفت الى أصحابه وقال : ان هـذه الجبانة ينزل عليها كل يوم مائة رحمة وانها تزف بأهلها الى الجنة ، ومن زارها تتساقط عنـه ذنوبه كما يتساقط الورق من على الشجر فى يوم ريح عاصف ، فـكان عبد الله بعد ذلك كل يوم يخرج حافيا فيزورها حتى مات ودفن رحمه الله .

[قال الراوى رحمه الله ورضى عنـه] حدثنى رجـل من أرض البهنسا من أهل الخير والصلاح يسمى عبد الرحمن بن ظهير . قال كان لى جار مسرف على نفسه ومات ودفن قريبا من الشهداء الذين بالجانب الغربى ، فبينما أنا نائم تلك الليلة فرأيته واذا عليه ثياب من السندس الاخضر وعليـه تاج من الجوهر وهو فى قبة من نور وحوله جماعـة لم أر أحسن منهم وجها ولا ثوبا متقلدين بسيوف وهو بينهم فسلمت عليهم وقلت له ياهذا لقد سرّنى مارأيت من حالك . فقال ياهذا لقد نزلت بجوار قوم يحمون النزيل فى الدنيا من العار ، وكيف لايحمونه فى الآخرة من النار وقـد استوهبونى من العزيز الغفار غافر الذنوب والأوزار وأسكننى جنات تجرى من تحتها الأنهار . قال ذو النون المصرى رضى الله عنـه : كنت فى كل سنة آتى الى البهنسا وأزور الجبانة لما رأيت فى ذلك من الأجر والثواب ، فحصل لى فى سنة من السنين عارض منعنى من زيارتها ، فبينما أنا نائم ليـلة من الليالى اذ رأيت رجالا لم أر أحسن منهم وجوها ولا أنقى ثيابا على خيول شهب و بأيديهم رايات خضر ووجوههم تتلألأ أنوارا فسلموا علىّ وقالوا قـد أوحشتنا ياذا النون فى هـذه السنة وان لم تزرنا زرناك . فقلت لهم من أنتم ؟ فقالوا نحن الشهداء الأخيار أصحاب محمد المختار بالبهنسا كنا بأرض الروم لنصرة المسلمين على أعداء الله الـكافرين فمررنا بك لنسلم عليك وننظر ماسبب انقطاعك عنا . قال فى أىّ أرض أنتم ؟ قالوا نحن سكان جبانة البهنسا ولك علينا حقوق الزيارة لانك من أهل الاشارة . فقال لهم ياسادتى انى لا أعود وحبـل الوصال بيننا ممدود ، وما كنت أعلم أنـكم تعلمون من زار ، وما كنت أظن فى نفسى أنى بهذا المقدار. قالوا ياذا النون أما تعلم — أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون — وبهذا نطق الـكتاب المـكنون ثم تركونى ومضوا فاستيقظت وفى قلبى لهيب النار ، فطوبى لمن زار هؤلاء السادات الأخيار .

* * *

قال المؤلف : ولقد وضعت فى هـذا الـكتاب كل نادرة عجيبة وحكاية غريبـة ، وهو كتاب كامل المعانى والبيان عظيم القدر والشان لايفهمه الا ذووالبصائر والألباب ، ولا يعقله الا أهل الخطاب ولايقرؤه الا أهل الذوق والمعرفة ، فهو كالزهر فى الرياض لمن اقتطفه ، نفع به مالـكه وكاتبه وقارئه ومستمعه ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين .



خاتمة الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى اصطفى من عباده أناسا لنصر دينه وإعزازه ، جاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم حق جهاده ، أمرهم الله بالجهاد فى سبيله بأنفسهم وأموالهم فباعوها له ابتغاء مرضاته ، بثمن لايعلم عظمه إلا الله المشترى ، فكانت الصفقة من كل الوجوه رابحة ، كما قال تعالى ـ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ـ والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادى البشير النذير السراج المنير ، المأمور بالجهاد بقوله تعالى ـ ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ـ وعلى آله وأصحابه الذين بذلوا النفس والنفيس لاعلاء دين الله الحنيف ، فاستوجبوا الثناء من بارئهم حتى باهى بهم الملأ الأعلى كما قال تعالى ـ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ـ .

[وبعد] فالى كل محب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان سيرتهم وما كانوا عليه من الصبر والثبات وقوة العزم حتى هزموا الجيوش الكثيرة العدد والعدد مع قلتهم عددا وعددا حتى فتحوا من البلاد والأمصار ماتنشرح له الصدور ، وتندهش منه العقول .

نزف الكتاب الذى هو كاسمه [فتوح الشام] للعلامة أبى عبد الله محمد بن عمر الواقدى رحمه الله وأثابه رضاه ، فقد جمع فيه من فضائل الصحابة وشمائلهم مايبهر العقول ومايغنى عن غيره من الأسفار الكبار .

وكان هذا الطبع الجيل الذى ليس له مثيل بهمة من دأبهم العكوف على نشر الفضائل أصحاب :

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

بسراى رقم ١٢ بشارع التبليطة بجوار الأزهر الشريف

مصححا بمعرفة لجنة من علماء الأزهر الشريف برياسة الشيخ [أحمد سعد على]

[١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م]

ملاحظ المطبعة — مدير المطبعة

محمد امين عمران — رستم مصطفى الحلبى

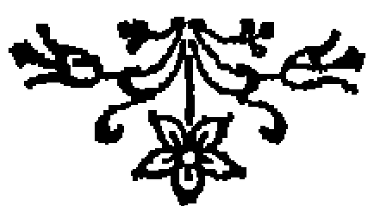
فهرس

الجزء الثانى من فتوح الشام، للعلامة الواقدى

صحيفة

صحيفة

[تمت]



مطبعة
مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

أروع تاريخ لسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام

السيرة الحلبية

المسماة

إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون

للعلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي

